مفصل

العرب واليهود في التاريخ

أحمد سوسة



مفصل

العرب واليهود في التاريخ

مفصل العرب واليهود في التاريخ

حقائق تاريخية تظهرها المُكتشفات الآثارية

بقلم
الدكتور أحمد سُوسَة

طبعة جديدة منقّحة ومفصّلة



* اسم الكتاب: مفصل العرب واليهود في التاريخ
* المؤلف: الدكتور أحمد سُوسَة
* الطبعة الأولى للورّاق للنشر: 2014 .

* تصميم الغلاف: الورّاق للنشر.

WWW.alwarrakbooks.com
ISBN: 9789933493066

التوزيع

Alwarrak Publishing Ltd.
26 Eastfields Road
London W3 0AD - UK
Fax: 0044 208-7232775
Tel: 0044 208-7232775
warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول
ص. ب 113-6435 بيروت ـ لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

شركة بيت الورّاق
للطباعة والنشر والتوزيع
بغداد ـ شارع المتنبي
تلفون: 0096447702749792
009647801347076

شركة دار الورّاق للنشر
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني
طابق سفلي
تلفون: 009611341927
فاكس: 009611750053

فهرس المحتويات

مقدمة رفعت مرهون الصفار

المرحوم العلامة الدكتور المهندس أحمد سوسة من القلة الذين وعوا كنه الحياة الدنيا وعرفوا قيمتها وأنها عبارة عن مسرح كبير يقوم كل من عليها بدوره من بدء وجوده على هذه الأرض إلى أن يرحل عنها. ويُعدّ الدكتور سوسة من الرجال الأفذاذ الذين عرفوا ذاتهم وممن اجتهد في مرضاة ربه ومرضاة أسرته ومرضاة مجتمعه وبالتالي مرضاة ضميره النقي الذي كان يقوده إلى كل خير وصلاح.

قد يكون من الغريب أن ينغمس المهندس وما يحمله من علوم هندسية في مجال اختصاصه ومعرفته في دراسة التاريخ ويسير في غوره ليلتقط الحسن والصحيح من شواهده وآثاره، يجيب الدكتور سوسة على هذا التساؤل بقوله (إن هندسة الري والزراعة مرتبطتان بالأحداث التاريخية وبخاصة الأحداث التاريخية القديمة المتعلقة بحضارة وادي الرافدين وكيفية نشوئها وتطورها عبر العصور.

عرف الدكتور سوسة أن الماء مصدر الحياة ولا حياة بدون ماء فاختار هندسة الري والمشاريع الإروائية واتخذ من قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ طريقاً لما ينشده في قادم حياته ونهجاً لمعرفته وعلومه، إذ إن الزراعة التي تعتمد على الري والحضارة صنوان لا يفترقان. فحيثما وجدت الحضارة في مستهل نشوئها وظهر التمدن في أقدم عصوره. ازدهرت بها الزراعة التي تعتمد على الري وحيثما وجد نظام الري ازدهرت معه الحضارة وكان لعنصر الماء دخل في بناء الكيان الحضاري القديم وازدهار المدنية فمنذ

الأزل كان الماء ولم يزل مصدر الحياة والازدهار إذا استخدم كأداة للإعمار، فالماء والأرض عنصران أساسيان في حياة الإنسان. إذن لا يوجد تناقض بين هندسة الري والتاريخ بل بالعكس إن كلّاً منهما متّمم للآخر، ويتميز المهندس عن المؤرخ في تحليله الدقيق للأمور تحليلاً سليماً علمياً.

بالرغم من كثرة ما أصدره المرحوم الدكتور سوسة من كتب ونشرات وتقارير في مبادئ الري والأنهار في العراق وما كان يتعلق بعمارة العراق ونسيجه الاجتماعي بشكل عام وببغداد بشكل خاص يبقى كتابه «مفصل العرب واليهود في التاريخ» موسوعة تاريخية ومع أن هذا الكتاب قد أُعيد طبعه خمس مرات إلّا أنه لازال مطلوباً من القراء وخلت منه رفوف المكتبات لما تضمنه من أحدث وأصدق ما أسفرت عنه المكتشفات الآثارية الحديثة وسطرته أقلام جهابذة العلماء المتخصصين ليعد مفخرة عظمى لهذا المؤلف العبقري الفذ مما حدا بحفيدته الفاضلة سارة العشرات إلى إعادة طبعه بحلة جديدة متميزة كما طلب مني الأستاذ الأديب حسين شعبان على عجالة تقديم هذه المقدمة. يقع الكتاب في 908 صفحة من حجم 24 × 17سم ويحتوي على ثمانية فصول وستة ملاحق وفهرست للصور في سبعة عناوين وصور مجموعة من الحضارة الكنعانية ـ الفينيقية في 90 معلماً حضارياً وفهرست للمرتسمات والخرائط يقع في 23 مرتسماً وخريطة. . . وقد جاء في إهداء المؤلف «إلى الوطن العربي الكبير فهو الحضارة الإنسانية إكباراً وإجلالاً» وفي كلمة الشكر التي قدمها المؤلف إلى من آزره ووقف إلى جانبه وهو في أشد الظروف حراجة عندما سقط مريضاً لا يستطيع مبارحة الفراش، حيث خصّ بالذكر الأستاذ أحمد حامد الشربتي الذي قرأ مسودات الكتاب الطويلة ودوّن ملاحظاته عليها والأستاذ العلامة طه باقر الذي قام بتصحيح مسودات الكتاب، والأستاذ سالم الآلوسي الذي أشرف على الطباعة والإخراج ثم إلى الأستاذين بهجت الأثري وجعفر الخليل اللذين راجعا مقدمة الكتاب وأبديا ملاحظاتهما القيمة. . . جاءت صور الغلاف من روائع الفن الكنعاني ـ الفينيقي، حيث نقشت هذه الصورة أول الأمر على طاس من الذهب الخالص عثر عليه في أوغاريت (تل

رأس شحرا) يرجع تاريخه إلى القرن الخامس عشر ق.م. حيث يشاهد فيه ملك أوغاريت في عربته في نزهة للصيد وهو يطارد غزالاً وبعض الثيران الوحشية وخلفه أسد جريح يلحق بعربته، وفي الوسط دائرة تدور حولها أربعة غزلان كوّنت قرونها المتصلة ببعضها دائرة أخرى في الوسط، ولعل هاتين الصورتين تكونان قطيعاً من الغزلان مجتمعة حول عين ماء حيث يشكل هذا النقش مدى تقدم الفن الكنعاني ـ الفينيقي.

لقد تحدث المؤلف في الفصل الأول عن (الهجرة الرئيسة إلى الهلال الخصيب) ومنها (هجرة الكنعانية إلى فلسطين) وهجرة العموريين العمالقة إلى العراق وسورية وفلسطين وهجرة الآراميين إلى سوريا والعراق وهجرة الأكديين إلى وادي الرافدين وتأسس (الإمبراطورية الأكدية ـ أول إمبراطورية سامية ـ ثم هجرة القبائل العربية إلى مصر وتأسيس (الإمبراطورية الآشورية) وتأسيس (الإمبراطورية الكلدانية ـ الآرامية) وهجرة (الحثّيين إلى شمال سورية) وهجرة الحوريين إلى فلسطين وسوريا والعراق وهجرة الفلسطينيين إلى فلسطين وأخيراً الهجرة السامية العربية المتأخرة من الأنباط والتدمريين والغساسنة في سوريا والمناذرة في العراق ومملكة الحضر.

وعرض المؤلف في الفصل الثاني من الكتاب العوامل الإقليمية والبشرية وأثرها في بعث الهجرات من الجزيرة العربية.. وتحدث عن مواصفات جزيرة العرب وكون البداوة أساس الحضارة ثم تحدث بإسهاب عن حضارة اليمن القديمة في مملكة معين ومملكة قتبان وأوسان ومملكة حضرموت ومملكة سبأ وسد مأرب والعصر الحجري ثم تحدث المؤلف عن ديانة عرب الجزيرة وعن اللغة العربية في كونها اللغة الأم والعرب في كونهم مخترعي الحروف الهجائية (الأبجدية) وعن أسماء المدن الفلسطينية من حيث كونها عربية كنعانية الأصل.

وجاء الفصل الثالث مستوعباً لمفهوم التوراة والديانة اليهودية وترجمة التوراة إلى اللغات الأوروبية واللغة العربية وعن عقيدة المسيح المنتظر ودعوة أخناتون لعبادة الإله الواحد والواردة في مسلسل يوسف الصديق الذي عرض

في قناة الحضارة، أما الفصل الرابع فيحكي عن التوراة كمرجع في بحث تاريخ فلسطين القديم ثم عن البعث والقيامة عند اليهود والسومريين والبابليين والمصريين وقصة آدم ونوح في التوراة والمدونات السومرية والبابلية وشريعة حمورابي مع ملاحظات ختامية. ويظل الدكتور أحمد سوسة في تواصل دائم في توريد المعلومة القيّمة والرأي الصحيح المستنبط من كنه الحقيقة والتجرد التام من الانسياق وراء عاطفته في كونه كان يهودياً حين يمتلك نقاوة الضمير في إبداء المعلومة والرأي الصائب وعليه فهو يتحدث في الفصل الثامن والأخير من هذا السفر القيم في جميع مضامينه التي وردت تحت عنوان رئيس هو «دور الصهيونية والاستعمار في خلق إسرائيل» ويقرر أن الصهيونية حركة سياسية استعمارية مشتقة من لفظة «صهيون» وصهيون اسم رابية في أورشليم كان قد أقام عليها اليبوسيون أبناء عمومة الكنعانيين العرب حصناً قبل ظهور بني إسرائيل (قوم موسى) بحوالي ألفي عام وهي لفظة عربية كنعانية وليست عبرية يهودية.

وقد استغل نابليون فكرة استعمار فلسطين لصالحه واحتضنت بريطانيا الصهيونية وتبنتها لمشروعها الاستعماري، وفي آب 1897 عُقد أول مؤتمر دولي للصهاينة في مدينة بازل بسويسرا حضره نحو ثلاثمائة يهودي يمثلون خمسين جمعية يهودية تمخض عنه تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية وقد انتخب هذا المؤتمر (تيودور هرزل رئيساً له) الذي خطب تحت صورته في الكنيست الإسرائيلي أنور السادات معترفاً بوجود إسرائيل كدولة وقد دفع حياته ثمناً لهذا الاعتراف.

وتحت 19 عنواناً هي حصيلة الفصل الثامن يتحدث الدكتور سوسة بلباقته المعهودة التي يتوخى فيها دقة المعلومات التي يوردها، حيث يستعرض تقرير لجنة الاستعمار عام 1907 ويستعرض فكرة استعمار العريش وشبه جزيرة سيناء ثم يستعرض اقتراحات استعمار اوغندا وموزنبيق وبعض الكونغو ثم يعود ويركز على فلسطين ويقارن بين اليهودية والصهيونية وانتقال نشاط الصهيونية إلى أميركا ومحاولات توطين اليهود في العراق ويتساءل: (هل يتمكن اليهود

من تشكيل قومية شعب واحد؟ ثم يسأل الدكتور سوسة هل فلسطين سلعة بائرة لتمنح لزيد أو عمرو بالوعود؟

والملحق الأول من الملاحق الستة يتحدث عن أورشليم في أقدم عصورها ودلالات اسمها حيث سماها الكنعانيون سكان البلاد الأصليين (يورو شالم أو يورو شلم) وشلم اسم إله كنعاني معناه السلام، وسُمّيت بالتوراة «أورشاليم») وشاليم تعني مدينة الله ومدينة داود ومدينة الملك العظيم ومدينة يهوذا ومدينة العدل ومدينة القدس وهي ترجع إلى القرن الخامس عشر ق.م... ومن أسماء أورشليم القديمة يبوس نسبة إلى اليبوسيين سكان أورشليم الأصليين وهي إحدى قبائل الكنعانية التي نزحت من جزيرة العرب وسكنت أورشليم وحولها.

وختاماً يظل كتاب «العرب واليهود في التاريخ» دراسة مستنبضة ضاربة في تخوم التاريخ للعرب واليهود وسفر قيم في عمق التاريخ ومصدر لطالبي الدراسات العليا والباحثين عن توثيقية المصدر التي جعل منها الدكتور سوسة صرحاً عالياً غنياً بكل ما هو مفيد في الحياة العامة. وكما ذكر الأستاذ سالم الآلوسي إن الأدلة والشواهد التي ساقها الدكتور سوسة في هذا الكتاب وما أثبته من معلومات مستندة على أحدث المكتشفات الآثارية والتاريخية بدلالة كثرة المصادر.

أو كما يذكر الأستاذ أحمد حامد الشربتي: أن الدكتور أحمد سوسة قد ابتغى إماطة اللثام عن وجه تاريخ اليهود بروح علمية نزيهة بعيدة عن الشطط والهوى ليحق الحق ويدحض الباطل.

ويأتي هذا الكتاب إرضاءً لطموح الدكتور سوسة وخدمة لحصافة فكره فهو من العراقيين الأوائل الذين نالوا شهادة الدكتوراه عام 1929 والمولود في مدينة الحلة عام 1900 وقد نال هذه الشهادة في الفلسفة من جامعة (جونز هوبكنز) بدرجة شرف بمدينة كولورادو في الولايات المتحدة الأميركية.

تبقى الكفاءات العلمية مصدر اعتزاز وتقدير يُسهم في تطوير وتقدم العراق حيث إن العلم هو المثابة العليا التي يرى منها الإنسان الجهات الأربع

ويحدد مسيرته من خلالها ليغترف من مناهل العلم والمعرفة ليصير ذا شأن مرموق بين أبناء وطنه وما الدكتور أحمد سوسة إلّا أحد العاملين على إعلاء شأن هذا الوطن والمساهمين الأوائل في صرحه ومجده العلمي.

وأخيراً أشدّ على اليد التي ستقوم بطبع هذا السفر ليثري المكتبة العربية بما لا يُستغنى عنه ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

الإهداء

إلى
الوطن العربي الكبير
مهد الحضارة الإنسانية
إكباراً وإجلالاً

كلمة شكر

إن الدكتور أحمد سوسة لا يسعه، في مستهل هذه الطبعة الجديدة، الطبعة الرابعة المنقّحة والمفصّلة لكتابه: «العرب واليهود في التاريخ»، إلا أن يسجّل عرفانه بجميع المساعدات والمشاعر الطيبة التي تلقّاها من الجهات المختلفة، إبان وقبل وبعد صدور الكتاب في طبعاته الثلاث السابقة، وبالتالي أن يقدم عنها أصدق وأنبل مشاعر الامتنان والشكر والتقدير لمستحقيها. ولقد كان سيشعر بالأسى لو لم يقم بهذا الواجب.

وتأتي وزارة الإعلام الموقّرة على رأسها جميعاً. إنها صاحبة الفضل الأول في إيصال الكتاب إلى القارىء العربي والإعلان عنه في العالم الخارجي عندما تبنّت مشروع إصداره في طبعته الأولى وترجمة مقدمته إلى اللغتين الفرنسية والإنكليزية. وربما كان من غير المقدّر له أن يصدر بعد لولا مبادرتها الكريمة. كما كان لمساعداتها اللاحقة فضل تطوير الكتاب ودفعه إلى طبعته الحالية في أقل من سنتين من صدور طبعته الأولى.

فإلى مقام وزارة الإعلام الموقرة يرفع أسمى آيات العرفان والشكر والتقدير.

ويليها مباشرة في الفضل الزملاء من أهل العلم والبحث الأساتذة أحمد الشربتي، طه باقر وسالم الآلوسي الذين هبّوا لنجدته في أشدّ ساعاته حراجة وأكثرها حاجة للعون عندما سقط مريضاً لا يستطيع مبارحة الفراش والكتاب تحت الطبع. فجلس إليه الأستاذ أحمد حامد الشربتي ملازماً ومواسياً يقوم له بقراءة مسودات الكتاب ويدوّن عنه ملاحظاته ويعده من مكتبته العامرة

بالمصادر الضرورية قبل أن يعيدها إلى المطبعة بينما تفرّد الأستاذ طه باقر بتصحيح مسودات الكتاب الطويلة وأشرف الأستاذ الآلوسي على الطباعة والإخراج. ناهيك عمّا قدّموه من ملاحظات قيمة استدركت في حينها ولم يكن بالإمكان اكتشافها لولا دقّة ملاحظتهم.

إنه يشعر بأنه مدين لأولئك السادة الكرام بكل ما بذلوه من جهد في سبيله وبما طوّقوا به عنقه من جميل. فإليهم يقدم أصدق وأنبل مشاعر الامتنان والتقدير.

ولا يسعه أيضاً إلّا أن يسجّل للأستاذين بهجت الأثري وجعفر الخليلي تفضّلهما بمراجعة مقدّمة الكتاب الطويلة وإبداء ملاحظاتهما القيّمة عليها. فإلى الأستاذين بهجت الأثري وجعفر الخليلي يقدم أصدق مشاعر العرفان والشكر.

وكذلك أيضاً لا يسعه إلّا أن يسجّل لدار الحرية (مطبعة الحكومة) ما تحلّت به من الأناة والصبر الجميل وما بذلت من جهود مشكورة في سبيل إخراج الكتاب على أكبر قسط من الدقّة والإتقان. فإلى مدير دار الحرية وموظفيها ومستخدميها يقدم أخلص مشاعر العرفان والشكر.

ولا يسعه أيضاً إلّا أن يذكر بالتقدير أولئك الذين أسهموا وبمحض إرادتهم في هذه الطبعة وهم السادة:

1 ـ الأستاذ الدكتور رولف رايخارت مدرّس مادة الثقافة الإسلامية والتاريخ الإسلامي ومدير المركز الثقافي الأفرو ـ آسيوي في جامعة باهيا الاتحادية سلفادور (البرازيل) الذي تفضّل مشكوراً بكتابة وإرسال مقدّمة هذه الطبعة.

2 ـ الزميل الأستاذ حامد الشربتي الذي تفضّل مشكوراً بكتابة تصدير هذه الطبعة الرابعة.

3 ـ السيد الياس بيطار من صافيتا ـ سوريا الذي تفضّل مشكوراً بكتابة موجز حياة المؤلف والذي قام بترجمة مقدّمة الدكتور رايخارت من الإنكليزية

إلى اللغتين العربية والفرنسية ناهيك بالملاحظات القيّمة التي أبداها حوله والتي كانت سبباً في تفصيل مواد كثيرة من الكتاب الأم.

وهذه الملاحظات إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على غاية نبيلة ودراسة عميقة وذوق رفيع في القراءة أي إنه قارىء ممتاز. إضافة لإشرافه على الطباعة وإخراج الكتاب.

4 ـ الناشر السيد العقيد المتقاعد حسن حدّة مدير مكتب العربي للإعلان والطباعة والنشر الذي بذل جهوداً مشكورة لتوزيع ونشر الكتاب على أوسع نطاق والذي ما يزال يعمل لنشره بحيث يغطي العالم العربي وجزءاً من العالم الخارجي.

فإلى أولئك يقدم جزيل الشكر والامتنان.

وأخيراً، إنْ ينسى فإنه لن ينسى ذلك العدد الكبير من القرّاء العرب والأجانب، باحثين ومدرسين وعاديين، الذين تفضّلوا وأعلنوا عن مشاعرهم الطيبة أو نقدهم الصريح سواء عن طريق الرسائل أو الجرائد والمجلات، وكم كان بودّه لو يذكرهم جميعاً هنا إلا أن ضيق المكان وضخامة عددهم حالا دون ذلك ولكنه يأمل في أن يصدر كلماتهم في كتيب صغير يكون بمثابة رد للجميل على أنه يختار ممثلاً عنهم السيد الشاعر كمال عثمان الذي تفضّل مشكوراً بإرسال تقريظه الشعري الجميل ليحيَ من خلاله وعبر هذه الطبعة جميع القرّاء من عرب وأجانب.

والله من وراء القصد

الدكتور أحمد سوسة



موجز حياة المؤلف

ولد الدكتور أحمد سوسة في بلدة «الحلّة الفيحاء» في جنوب العراق سنة (1900)، وقد كان لمكان وزمان ولادته أكبر الأثر على سيرة حياته، من حيث تكوينه وإعداده وتوجيهه على درب كتابه الفذّ **«العرب واليهود في التاريخ»**.

ولا غرو، فبلدة «الحلة الفيحاء»، مسقط رأسه، إن هي غير بابل جديدة، وإن لم تكن كجارتها في الشهرة والعظمة، قامت بجوارها وعلى أنقاضها، أما سنة «1900»، سنة مولده، فإنها تحدّد بدء تاريخ غنيّ بالمثيرات خصب بالمكتشفات الحضارية والعلمية، لم يشهد له جنوب العراق نظيراً: فمع إطلالته على هذا العالم كانت مدينة بابل هي الأخرى قد أخذت تطلّ بدورها على العالم من جديد، بعد رقاد دام أكثر من ألفيّ عام، لتروي قصة مجدها الغابر وقصص الأجيال الماضية، ومثلها كانت مدينة «كيش» التاريخية بينما كانت فكرة بناء سدة الهندية[1] (سد بالاكوباس القديم) تعتمل في رأس مصممها العظيم السير ويليام ويلكوكس[2].

---

(1) سدة الهندية: قام بتصميم هذا المشروع العظيم المهندس الفذ السير ويليام ويلكوكس في موقع سد «باكوباس» (Pallacopas) نفسه الذي يعود إلى زمن الإسكندر الكبير ولم يضمنها أية مواد لم تكن متوفرة في ذلك الزمن البعيد. مما يجعلها بحق إحياء لذلك المشروع القديم.

(2) السير ويليام ويلكوكس (1852 ـ 1932): مهندس فذ اكتسب شهرة عالمية بما قدم من بحوث قيّمة، ولا سيما تلك التي لها علاقة بالري في وادي الرافدين القديم، والتي ستبقى مناراً يهتدي بضوئه الباحثون والمهندسون ومصدراً لا يمكنهم الاستغناء عنه، وبما قدم من أعمال مجيدة غيّرت مجرى الحياة العمرانية والاقتصادية في الشرق ولا سيما في مصر والعراق. ويُعدّ السير ويليام ويلكوكس أحد الرجال الثقات الذين شهد لهم العالم بسعة الاطلاع والنبوغ والكفاءات التقنية العالية. =

وهكذا قُيِّض للدكتور أحمد سوسة أن يجيء مولده في مكان عريق في تاريخه وحضارته وفي زمان كان فيه ذلك التاريخ مثار نشاط حضاري وعلمي واسع، ومثل هذين العاملين لا بدَّ أن يكون لهما أثرهما الكبير على سيرة إنسان ذكي مرهف الحس.

ويولد الدكتور أحمد سوسة، ومع ولادته يقوم بأول خطوة على درب مسيرته الكبرى، «**العرب واليهود في التاريخ**»، فكان كلَّما كبرت سنّه كلما ازدادت معها مدينتا بابل وكيش بروزاً وتقدّم معها مشروع بناء سدّة الهندية خطوة نحو التحقيق والإنجاز، وما إن أنهى مرحلة الطفولة والصبا حتى كانت

= وُلد السير ويليام ويلكوكس في الهند وتلقّى علومه فيها وتخرَّج من كلية «روكي» للهندسة المدنية.

زاول لمدة تزيد على أحد عشر عاماً (1872 ـ 1883م) مهنة مهندس ريّ في الهند فاكتسب خبرة عالية في هذا المجَال. اختارته الدولة العثمانية سنة 1883 مستشاراً لها تستنير بخبرته في هذا المجال بعد أن صمّمت على إجراء بعض الإصلاحات في إمبراطوريتها الشاسعة وأوفدته عام 1884م إلى مصر للإشراف على طرق الريّ فيها ومشاريعها وبعد أربعة عشر عاماً من العمل الجاد صمّم مشروع خزّان أسوان العظيم وأنجز بناءه خلال الفترة 1898 ـ 1902م، وما يزال أهل وادي النيل الذين أحبهم وأحبّوه يذكرون له ذلك العمل المجيد.

وبعدها انتقل إلى العراق حيث واجه صعوبات تقنية جمّة لانعدام الخرائط المساحية التي تعتمد عليها مشاريع الري لكن خبرته في هذا المجال مكّنته من إجراء مسح سريع بالتعاون مع الأهلين قدّم على ضوئه تقريراً مثيراً إلى الدولة العثمانية. وإليه يعود فضل تصميم وبناء سدّة الهندية ومشروع الحبانية لتخفيف حدّة أخطار فياضانات الفرات. وكذلك أحب العراقيين وأحبّوه وهم ما يزالون يذكرون له أعماله المجيدة.

أحبّ السير ويليام ويلكوكس الشرق كثيراً وقد قرّر أن يقضي فيه أواخر أيامه. فعاد إلى مصر وعاش فيها إلى أن داهمته المنيّة يوم 28 تمّوز/ يوليو 1932.

أبّنته مصر وجميع البلاد العربية بما يستحقّه على صفحات جرائدها ومجلّاتها التي كانت تصدر في تلك الأيام. وقد كتبت في ذلك **مجلة الهلال** في عددها الأول لسنتها الحادية والأربعين الصادر يوم الثلاثاء الموافق الأول من نوفمبر/ تشرين الأول سنة 1932 ـ ص13 تحت صورته: «السير ويليام ويلكوكس، المهندس والعالم الكبير الذي انتقل إلى رحمة ربّه في شهر أغسطس/ آب الماضي، قد اشتهر بخدماته وحبّه لمصر فحزن عليه المصريون حزناً عميقاً ندر أن يحزنه شعب على وفاة أجنبيّ عنه».

جميع تلك المنجزات قد اكتملت: فهذه بابل قد انتهى العمل فيها عام 1912، ومثل ذلك جرى في كيش، وهو ذا الماء يتدفق من أمام سدّة الهندية نحو بلدته الحلة العطشى، عام 1913، ليروي أرضها ويحيي مواتها بعد أن حرمتها يد الأقدار من عماد وجودها سنوات طوالاً.

في هذا الجو المثير، أمضى الدكتور أحمد سوسة مرحلة طفولته وصباه، زار خلالها «بابل» و«كيش» وسدة الهندية كلما سنحت له الفرصة، وتعرّف خلالها إلى الدكتور «روبرت كولدواي» في بابل وإلى الأب «دي جنوياك» في كيش وإلى المهندس الفذ السير «ويليام ويلكوكس» في سدة الهندية وحفظ عنهم أدق الذكريات ولا سيما السير ويليام ويلكوكس الذي رافقه طيلة حياته العلمية وهذا بعض ما سبق للدكتور أحمد سوسة أن كتبه عن هذه المرحلة من حياته:



أطلال مدينة بابل

«لم تفارقني آثار بابل طيلة الفترة الأولى من حياتي حيث كان آجرها

الذي يحمل أسماء ملوكها الأوائل على جدران بيوتنا التي نسكنها وقد أنشئت من الآجر المنتزع من بنايات بابل الضخمة[1].



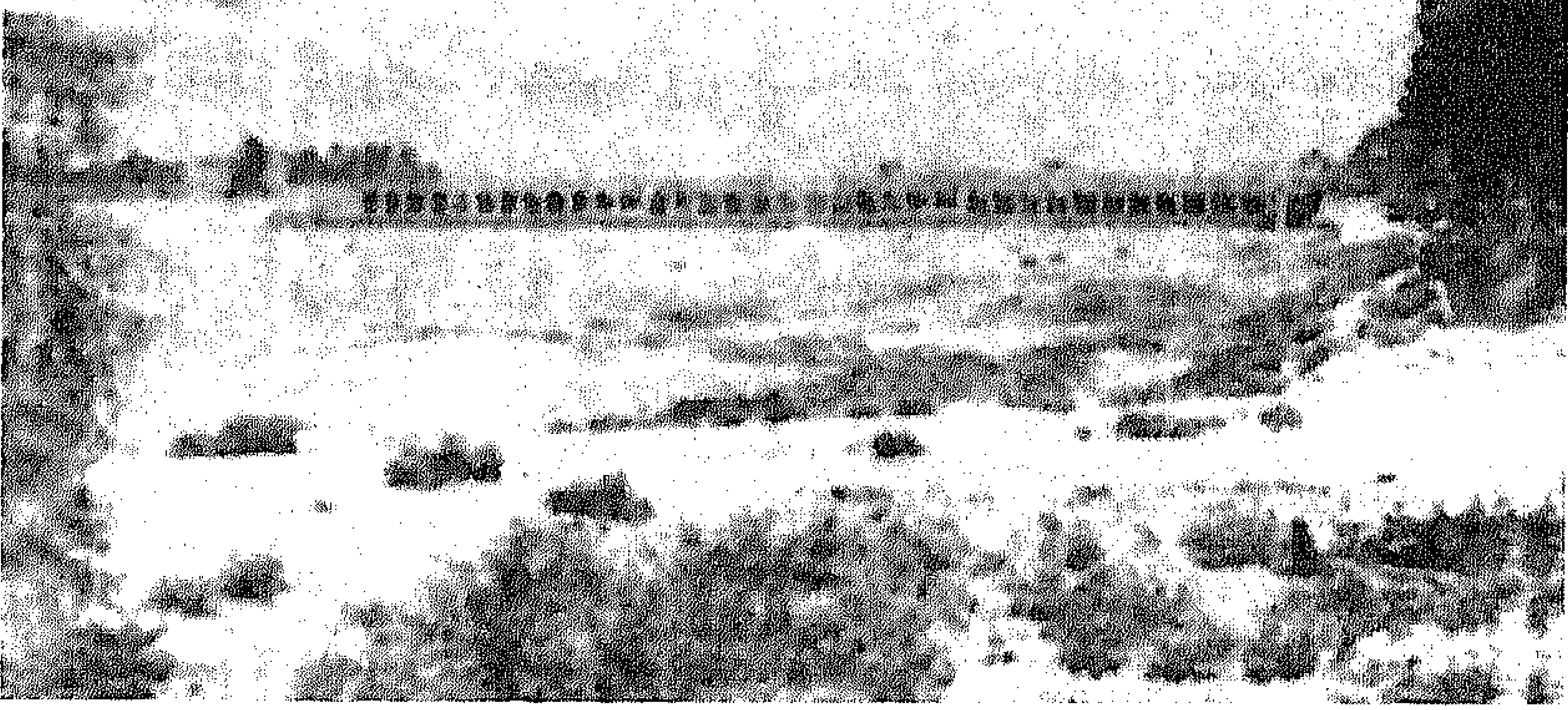
أطلال مدينة كيش التاريخية سنة 1912م

إن أنسى لن أنسى سفرتي الأولى إلى «تلول الأحمير» وهي بقايا مدينة «كيش» التاريخية حيث ترقد تحت أنقاضها مخلّفات أولئك الأقوام الذين أسّسوا في هذه المنطقة أقدم الحضارات السامية في التاريخ، وكانت تقع آنذاك في صحراء قاحلة خالية من السكان مما يوجب اصطحاب رجال المحافظة (الجندرمة) للوصول إلى هذا المكان المنعزل حيث كان الأب «دي جنوياك» يقوم بتنقيباته وقد عثر على آثار ثمينة في هذا المكان الأثري الهام[2].

ولما جاء موعد افتتاح مشروع سدة الهندية في اليوم الثاني عشر من شهر كانون سنة 1913 حضرته مع أبناء بلدتي لنشاهد انطلاق الماء من أمام السدة وانسيابها نحو المجرى المؤدي إلى بلدة الحلة. ولقد كان لهذا اليوم المشهود

(1) «الري والحضارة»، ج 1، ص25.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 25.


سدة الهندية سنة 1908 ـ 1912م

أثره العميق في نفسي وانطباع راسخ في ذهني الصغير إكباراً وإعجاباً بمعجزة الفن الهندسي وعبقرية مصمم هذا المشروع العظيم. وإن أنسى فلن أنسى ذلك اليوم وأنا ممتطٍ مهرتي أسرع مع جمهرة من الفلاحين والمزارعين الذين علا البشر وجوههم وأخذوا يردّدون الأهازيج العربية، نسابق الماء المنساب نحو الحلة حتى وصلنا وإياه إليها حيث احتشدت جماهير غفيرة لتحية ذلك القادم الجليل «الماء» الذي سيعيد الحياة إلى تلك المنطقة الزراعية الغنية العطشى بعد أن حرمتها يد الأقدار منه، وهو عماد وجودها سنوات طوالاً[1].


السير ويليام ويلكوكس

1932 ـ 1852

وذكرياتي عن ويلكوكس ترجع بي إلى عهد الصبا حين كان منهمكاً بالإشراف على إنجاز سدة

(1) «الري والحضارة»، ج 1، ص 28.

الهندية على نهر الفرات فكنت أزور ذلك المشروع الذي كان تحت الإنشاء، بين حين وآخر، وهو قريب من بلدتي «الحلة». فكنت أشاهده وكله حركة ونشاط يراقب أعمال البناء وفخر اللبن ويحرص كل الحرص على تطبيق التصاميم التي وضعها لهذا المشروع الجليل[1].



المؤلف فوق أسد بابل الشهير سنة 1919م

لقد كان هذا التراث الحضاري التليد مصدر ولعي منذ الصبا حيث كنت، وأنا لم أطوِ بعد العاشرة من عمري، أتردّد على بابل كلما سنحت لي الفرصة لذلك، وبابل على مقربة من مسقط رأسي وبلدة صباي «الحلة الفيحاء» فكنت

(1) «الري والحضارة»، ج 1، ص 27.

أشاهد الآثاري الألماني المشهور «الدكتور روبرت كولدواي» غارقاً بين القطع الأثرية المكدّسة في مقر إقامته في «كويرش» وهو يصنّفها ويرممها ويرتّبها ويحفظها في صناديق خاصة. وإن أنسى فلن أنسى تلك القطط النادرة ذات الوبر الكثيف في داره وقد توالدت حتى أصبحت أشبه بقطيع من الغنم(1).

إن هذا الشريط المصوّر البسيط يعطينا فكرة واضحة عمّا كان يختزنه عقل ذلك الصبي أحمد سوسة الذي لم يكن قد تخطى بعد الثانية عشرة من العمر في أعماقه من الذكريات، وعمّا كان يتصارع في فكره من أسئلة لم يكن بمقدوره آنذاك الإجابة عليها، وما كان يلهب خياله من أمانٍ وآمال. وعلى ضوء ذلك كله يمكن تقدير تلك الخطوة الجديدة على درب كتابه المدهش «**العرب واليهود في التاريخ**» وحجمها. ولعلّ أضخم تلك الأسئلة التي طالما حيّرته دون أن يجد لها جواباً هو ذلك السؤال الذي كان وما يزال يشكّل الأساس بالنسبة لحياته العملية كلها والذي يمكن صياغته على الشكل التالي: «بابل وكيش مدينتان عظيمتان»، لكنهما في حالتهما الراهنة تقعان في أرض قفر لا ماء فيها، والماء، كما تعلم وحفظ، هو عماد الحياة وأصل جميع الكائنات الحيَّة كما يقول سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾(2). فمن أين وكيف كان أهل تينك المدينتين العريقتين يأتونهما بالماء في ذلك الزمان الغابر البعيد؟..».

ويأتيه الجواب يوم افتتاح سدّة الهندية في الثاني عشر من كانون الأول سنة 1913 الذي شارك في أعياده والذي كتب عنه قائلاً:

«**لقد كان لهذا اليوم المشهود، أثره العميق في نفسي وانطباع راسخ في ذهني الصغير إجلالاً وإكباراً لمعجزة الفن الهندسي وعبقرية مصمم هذا المشروع العظيم**».

فكما أوصلت سدّة الهندية ـ التي قام بتصميمها وبنائها السير ويليام ويلكوكس إحياءً لمشرع سد بالاكوباس القديم ـ الماء إلى بلدته الحلّة العطشى

---

(1) «**الري والحضارة**»، ج 1، ص 23 ـ 24.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 30.

ليروي أرضها الخصبة ويحيي مواتها بعد أن حرمتها منه يد الأقدار سنوات طوالاً، كذلك يجب أن تكون هناك على النهرين العظيمين الدجلة والفرات سدود مشابهة (قام بتصميمها وبنائها الويلكوكسات: السومريون والبابليون) توصل الماء إلى هاتين المدينتين العظيمتين فتروي أراضيهما وتحيي مواتها وما خراب بابل وكيش إلّا نتيجة لخراب تلك السدود. وهنا تبرز عنده فكرة جديدة خلبت لبّه وعقله، إنها فكرة السدود والري وعلاقتهما بالحضارة وعندئذ بدأ يتعرّف على كل ما يستطيع التعرّف إليه من مشاريع الري في وادي الفرات الأسفل، وهو يقول في ذلك:

«وقد أتيح لي وأنا صبي أن أتعرّف على كثير من مشاريع الري القديمة في وادي الفرات الأسفل، فولّد كل ذلك في نفسي حبّاً ولهفة للتعرّف على ذلك التراث الحضاري الذي تتجلّى عظمته في مشاريع الري والزراعة القديمة التي أقامها أجدادنا فوق هذه الأرض الطيبة فانبثقت منها أبهر الحضارات عراقة وعظمة»[(1)].

إنه بذلك إنما يقرّر مصيره ومستقبله ويعلقهما على دراسة الهندسة التي هي، من وجهة نظره، العلم الوحيد الذي سيمكّنه من التعرّف على ذلك التراث الحضاري العظيم الذي تتجلى عظمته في مشاريع الري والزراعة القديمة، وهي من وجهة نظره أيضاً، باستطاعتها إعطاءه أجوبة شافية على كل ما يتصارع في عقله البكر من الأسئلة العديدة.

ويشدّ الفتى أحمد (الدكتور أحمد سوسة فيما بعد) الرحال في طلب العلم وسعياً وراء دراسة الهندسة، فيغادر بلدته «الحلة» إلى الجامعة الأمريكية في بيروت حيث يتمّ دراسته الإعدادية (بمعنى الثانوية المؤهلة لمتابعة التعليم العالي) بتفوّق ملحوظ سنة 1923. ثم يرحل عنها إلى كلية العلوم والهندسة في مدينة كولورادو في الولايات المتحدة الأمريكية ويتخرّج منها سنة 1927 حاملاً شهادة الكلية في الهندسة المدنية (أو لقب مهندس مدني) بدرجة امتياز مسجّلاً بذلك ميزة كونه أول مهندس عراقياً يتخرّج من الجامعات الغربية.

---

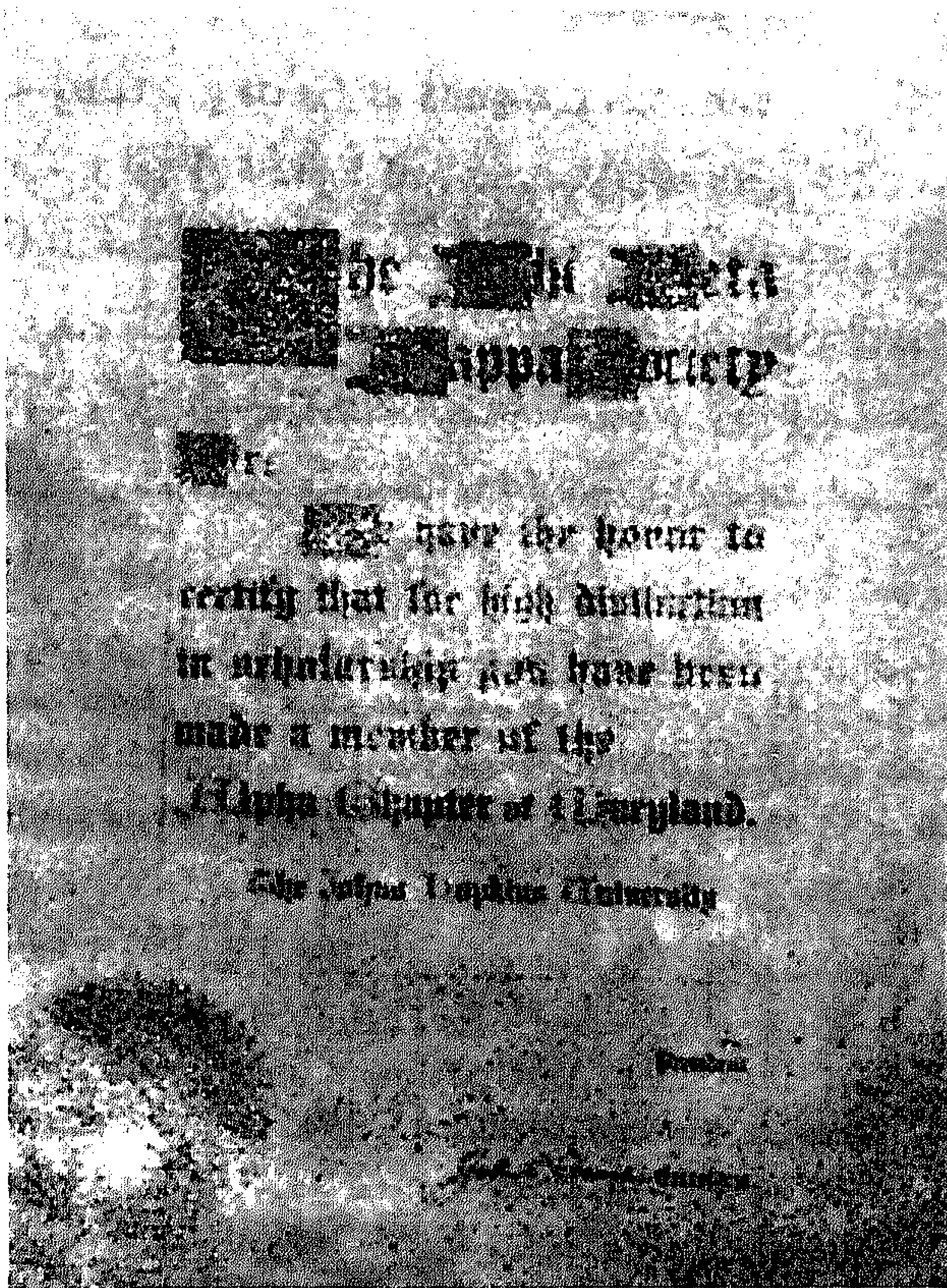
(1) **«الري والحضارة»**، ص 26.

ولكنه وقد حقّق أولى أمنيات الصبا، فإنه ينتقل إلى جامعة جونز هوبكنز الأميركية لتحضير شهادة الدكتوراه بدلاً من العودة إلى الوطن، يشفع له بذلك طموحه للعلم وحبه للمعرفة. وفي جامعة جونز هوبكنز كان المهندس أحمد سوسة محطّ أنظار أساتذته ورفاقه من الأمريكيين لما كان يتميّز به من دماثة الأخلاق ولين الجانب إضافة إلى مؤهلات علمية ممتازة وجدّية في العمل وقوّة في الحجّة ودقّة في المحاكمة وصدق في القول، كانت جميعها سبباً في تخرّجه من جامعة جونز هوبكنز سنة 1929 حاملاً شهادة الدكتوراه في الفلسفة (أو لقب دكتور في الفلسفة) بدرجة شرف منح بموجبها براءة الانتماء الفخري لجمعية «في بيتا كابا» العلمية الأميركية. وهذه العضوية الفخرية إنما تمنحها الجمعية لجميع الخرّجين من جامعة جونز هوبكنز الحائزين على درجة الشرف فقط.

وهنا يعود الدكتور أحمد سوسة إلى الوطن بعد أن أنهى المرحلة الثانية من مسيرته الكبرى على درب كتابه الفذّ «**العرب واليهود في التاريخ**» في الدراسة وطلب العلم حاز بنتيجتها على شهادة بكالوريوس في الهندسة المدنية (أو لقب مهندس مدني) من كلية كولورادو للعلوم والهندسة بامتياز وشهادة الدكتوراه في الفلسفة (أو لقب دكتور في الفلسفة) بدرجة شرف من جامعة جونز هوبكنز الأمريكيتين إضافة إلى عضوية فخرية في جمعية «في بيتا كابا» العلمية. يعود إلى الوطن وقد تزوّد بسلاح العلم وطرق البحث العلمي التي تعتبر في لغة العصر المفتاح السحري لكل مغلق من أبواب المعرفة والبحث.

وبعد عودته إلى الوطن سنة 1929 يكون الدكتور أحمد سوسة قد أنهى الشوط الثاني من سيرته الكبرى على درب كتابه العجيب «**العرب واليهود في التاريخ**» وبدأ أولى خطواته من الشوط الثالث والأخير الذي استغرق زهاء أربعين عاماً من حياته العملية قضاها في التفتيش والتحقيق دون كلل أو ملل زار خلالها كل ناحية من نواحي العراق بالإضافة إلى زيارته عدّة أنحاء من الوطن العربي، بل وتعدّاها إلى متاحف أوروبا يتحقق من الآثار التي نقلت إليها من موطنها الأصلي جناية وظلماً. وقد تمّ له ذلك خصوصاً عندما عيّن لأول مرة في إدارة الري العراقية، أي في الدائرة التي تهتم بالأسئلة التي طالما

حيّرته صغيراً والتي بدأت تأخذ أشكالها الصحيحة وأبعادها الحقيقية في عقله المدرك. قضى في هذه الإدارة زهاء سبعة عشر عاماً تقلّب خلالها في مختلف وظائفها ذات المسؤولية التقنية العالية وكان من جملة تلك الوظائف: مهندس ري في سدة الهندية ذاتها، تلك المعجزة التي قررت مصيره محققاً بذلك إحدى أمنيات الصبا وهذا بعض ما كتبه في هذا الصدد:


have the honor to
certify that for high distinction
in scholarship
made a member of the
Alpha Chapter of Maryland.

براءة العضوية الفخرية (في بيتاكايا) العلمية الأميركية

تمّ لي بعد مضي سنوات على العمل في إدارة الري تحقيق رغبتي في الاطلاع على كل ما يتعلق بتاريخ هذا المشروع وتصميمه الأصلي حيث عيّنت مهندساً مسؤولاً عن إدارة سدة الهندية ذاتها. فألّفت كتاباً خاصاً في سدة الهندية ـ تاريخها ـ تصمميها وتطورها باللغة الإنكليزية، وبذلك حققت أمنية الصبا بالإحاطة بما كنت أتمنى معرفته في صغري عن المعجزة التقنية التي بهرتني وحيّرت عقلي الصغير في ذلك الحين».

أما عنوان الكتاب بالإنكليزية فهو:

The Hindiyah Barrage- Its History, Design & Funotion. (with 16 maps & 23 illustration), By Ahmed Sousa, Ph. D., B. Sc. (Eng.), The Couvernment, Pneso, Baghdad, 1945.

في عام 1947 عيّن الدكتور أحمد سوسة مديراً عاماً لإدارة المساحة ولم يبعده هذا التعديل الوظيفي قيد أنملة عن أهدافه الأساسية بل ربما زاده التصاقاً بها.

وقد بقي في هذه الوظيفة حتى سنة 1957. وعند تأسيس مجلس الإعمار العراقي عيّن مساعداً شخصياً لنائب رئيس مجلس الإعمار في الأمور التقنية إضافة إلى وظيفته الأساسية. كان من أوائل أعضاء المجمع العلمي العراقي منذ تأسيسه سنة 1946 وحتى إلغائه سنة 1963. ترأس البعثتين التقنيتين اللتين أوفدتهما الحكومة العراقية إلى المملكة العربية السعودية سنتي 1939 و1940 لدراسة مشاريع ري الخرج والإشراف على تنفيذها.

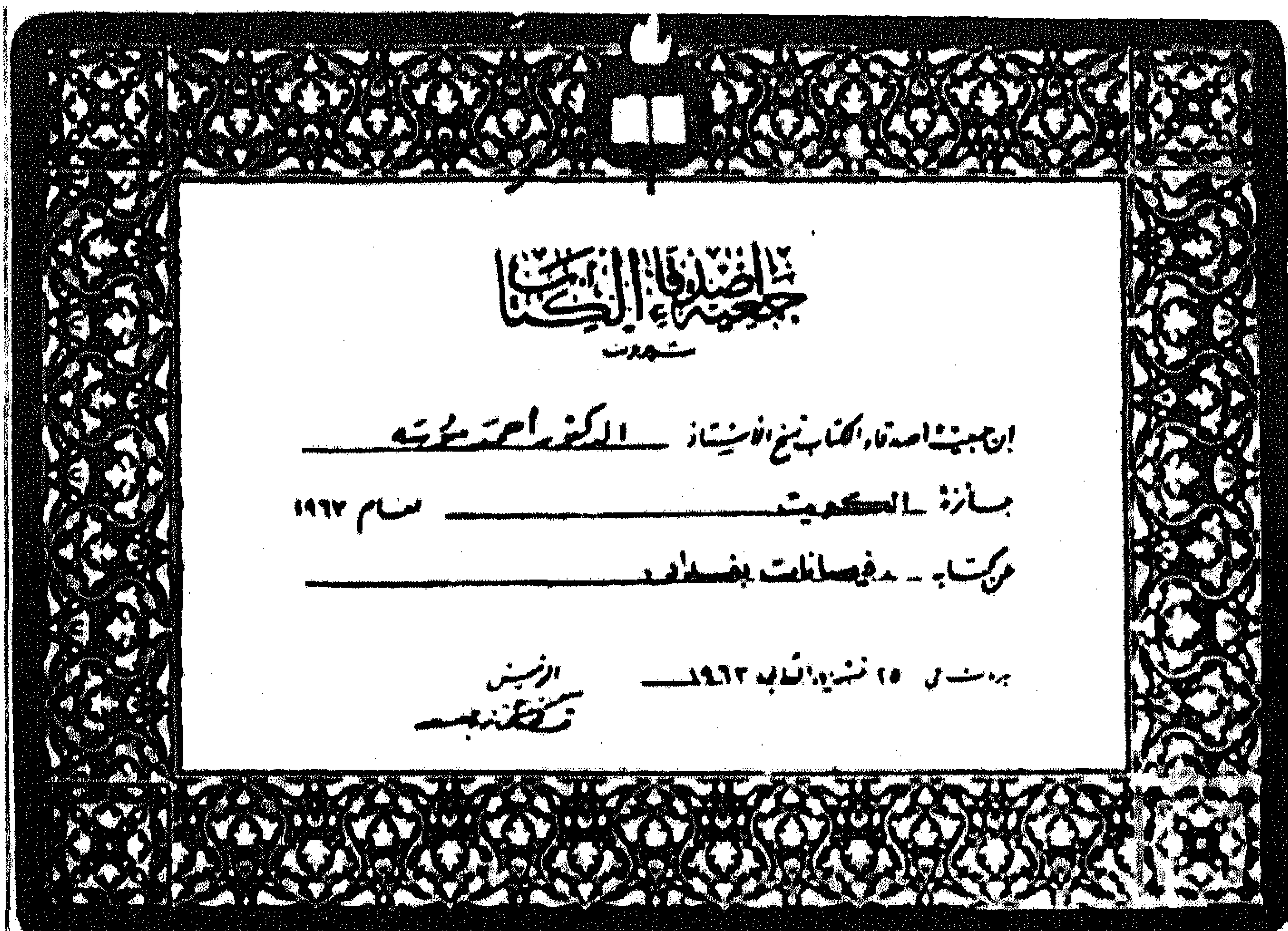
مثّل الحكومة العراقية في أكثر المؤتمرات الهندسية للبلدان العربية، كعضو في وفدها أو رئيس له. وهو أحد مؤسّسي جمعية المهندسين العراقيين سنة 1938 وقد عمل سكرتيراً عاماً لها طيلة عشر سنوات وما زال عضواً فيها يساهم في إدارتها كمستشار[1]. وقد كتب الدكتور أحمد سوسة يصف هذا الدور من حياته قائلاً:

«لقد تهيأت لي الفرصة السانحة لدراسة مشاريع الري القديمة التي رافقتها طيلة حياتي العملية بعد أن عُيّنت مهندساً للري لأول مرة سنة 1929 على أثر تخرّجي من الجامعات الأمريكية. وهنا وجدت ضالّتي المنشودة، فكرّست زهاء أربعين عاماً من حياتي العملية أتتبع وأتجول وأحقق دون كلل، فما تركت بقعة من بقاع العراق شماله وجنوبه، شرقه وغربه، إلا وزرتها للوقوف على مكنونات هذا التراث العظيم».

وقد انتهت هذه المرحلة بصدور كتاب «**العرب واليهود في التاريخ**» لأول مرة سنة 1972 والتي لم تتوقف في ذلك الحين وإنما ظلّ يتابعها إلى أن كانت هذه الطبعة الرابعة الجديدة المنقّحة والمفصّلة.

---

(1) في 24 ـ 6 ـ 1974، أُعفي من عمله في النقابة، بناء على طلبه حتى يتفرّغ للتأليف أثناء حفلة تكريمية أُقيمت على شرفه منح خلالها وسام النقابة من الفضة الخالصة تقديراً لخدماته واعترافاً بجهوده التي بذلها خلال خدمته الطويلة.



براءة جائزة الكويت لأحسن كتاب عام 1962م

للدكتور أحمد سوسة نشاطات كثيرة ومتعدّدة الجوانب، فهو، إضافة إلى إنجازاته الوظيفية ومساهمته في تأسيس جمعية المهندسين العراقيين سنة 1938 ومشاركته في تأسيس المجمع العلمي العراقي سنة 1946 والمقالات والتعليقات في الجرائد والمجلات، مؤلّف لثلاثين مؤلفاً في مختلف صنوف العلم والمعرفة: الهندسة، الري، الجغرافيا، التاريخ والخ. . .، منها ثلاثة وعشرون مؤلفاً باللغة العربية وسبعة باللغة الإنكليزية، وله حالياً كتابان تحت الطبع هما: «الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية[1] الذي تصدره كلية الهندسة التي تبنّته كمرجع دراسي[2].

والدارس لمؤلفات الدكتور أحمد سوسة يجد أنها جميعها لم تكن سوى

---

(1) قبل دفع الكتاب إلى المطبعة ـ صدر كتاب الشريف الإدريسي وبه يصل عدد كتب المؤلف إلى واحد وثلاثين كتاباً.

(2) راجع قائمة كتب المؤلف في نهاية الكتاب.

امتداد لطفولته المثيرة في مكانها وزمانها وأنها لم تكن سوى علامات على درب مسيرته الكبرى «**العرب واليهود في التاريخ**» الذي هو خلاصتها أو في أساسها جميعاً لا سيما كتاباه الضخمان «الري والحضارة» و«فيضانات بغداد في التاريخ» الذي استحقّ جزؤه الأول جائزة الكويت لأحسن كتاب سنة 1963. وقد كان يجري معه ذلك، سواء عن قصد منه أو بغير قصد، كما لو أن القدر[1] الذي اختار بابل قديماً لدكّ مملكة يهوذا وإنهاء أسطورة تلك

---

(1) بعد أن انتهيت من وضع موجز حياة المؤلف أرسلته إليه لإبداء الرأي فيه. ولكنه لم يجبني عليه في حينه حتى كان مقدمه إلى دمشق حيث سألته عن رأيه فيه. فقال: بديع والله.. أنا موافق.. وصمت.. وبعد فترة صمت قصيرة التفت إليّ قائلاً:

لا أدري كيف استطعت أن تربط تلك الأحداث لتقرر على ضوئها حقيقة قامت عليها حياتي كلها ويجهلها أخلص أصدقائي وألصقهم بي. وأخذ يقصّ عليّ بعض ذكرياته مؤكداً أن كتابه «**العرب واليهود في التاريخ**» إنما يشكّل في الواقع «قدره المحتوم» وأنه بعد مراجعته لجميع تصرفاته وكتاباته السابقة وجد أنها لم تكن سوى علامات على درب هذا «الكتاب» ثم قدّم لي أوراقاً مخطوطة كان يحملها في جيبه فإذا بها سيرة حياته بقلمه. وقد اخترت منها هذا المقطع الذي يؤلف بحدّ ذاته علامة بارزة على درب تلك المسيرة الكبرى كنت أغفلتها لجهلي إياها:

«يواجه المرء في مسيرة حياته مواقف مثيرة وحرجة جداً، يتوقف مصير مستقبل حياته كلها على ما قد يتّخذه من خطوات وقرارات في معالجتها. وهذه الخطوات والقرارات هي التي ترسم له تطلّعاته المقبلة في مدارج حياته.. وهذا ما حدث لي بالفعل، فأنا إن أنسى لن أنسى تلك الحادثة الرهيبة ولا ذلك الموقف المثير الذي واجهتهما في حياتي كلها، وقد كان لذلك القرار الذي أخذته أنْ غيَّر مجريات حياتي كلها. أما الحادثة فهي أنني كنت قد تزوجت في مطلع شبابي من فتاة أمريكية (ولا أجد حاجة لذكر اسمها) من أسرة مسيحية كريمة بعد أن حكم سلطان الحب بأن تصبح رفيقة دربي وشريكة حياتي، كان كل أملي أن أعيش في كنفها وأن أنعم بعطفها وعونها. وقد رزقت منها بطفل جميل أسميته «جميلاً» أيضاً (اسم على مسمى) وعدت معها إلى الوطن. لم يوافق جو العراق مزاجها الصحّي فمرضت مما اضطرني لإرسالها إلى أهلها في الولايات المتحدة للتداوي.

وأما عن الموقف المثير جداً والحرج جداً فإنه يتلخّص في أنني عندما ذهبت إليها، بعد أن تعافت وعادت إليها صحتها، لأعود بها وبولدي فوجئت بها تطلب إليّ بل تتوسل إلى أن أبقى إلى جانبها بحجّة أن الأطباء قرروا أن مناخ العراق لا يوافقها صحياً ولكني أبيت.. أخذ أبواها يضمان توسلاتهما إلى توسلاتها واضعين تحت تصرفي ثروتهما الطائلة.. =

الجماعات المشاكسة وغير المرغوب فيها الخارجة من مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد والتي دعت نفسها فيما بعد ببني إسرائيل دونما أيّ حق أو صلة تربطها بإسرائيل، يختار اليوم، ومن قلب بابل بالذات، يوم بروزها إلى العالم من تحت الأنقاض، مولوداً نحيلاً لكنه صلب العود، هو الدكتور أحمد سوسة، ليفضح زيف الصهيونية، سليلة تلك الجماعات، ويظهر بطلان ادعاءاتها في فلسطين ولينبّه الأمة العربية، سليلة تلك الأقوام السامية، أهل الحضارة والثقافة، إلى الخطر الذي يتهدّدها ويضعها في مواجهة واجبها التاريخي والحضاري والقومي.

= **فأبيت أيضاً. وجاء دور الطفل الذي نظر إليّ بجرأة ولكن ببراءة أيضاً قائلاً: «إلى أين تذهب يا داد (أي يا أبتِ؟! لماذا لا تبقى معنا؟! . .» وها قد مضى على تلك الحادثة أربعون عاماً وصورة ذلك المشهد المحزن تلاحقني ولم تفارقني لحظة واحدة.**

وكان لا بدَّ من قرار: «البقاء مع الغنى» أو «العودة إلى الوطن مع الكفاح» وهذا يعني خسارة زوجي وولدي أيضاً. وكان القرار، قراري الحاسم «العودة إلى الوطن».

وهكذا كان. وقد غيّر ذلك القرار مجريات حياتي كلها وسار بي القدر إلى ما أنا عليه اليوم. . . وأنا لست بنادم على ما فات ولا على ما اخترته في حينه، وإن كان الحنين والشوق إلى تلك الزوج وولدها يكوياني بنارهما. . الوطن عزيز وإن جفاك، وما أجفى حياة المرء في ديار الرغبة حتى مع أسعد وأوفر الظروف المعاشية المادية».

وأنا الآن أتوجّه إلى تلك السيدة المحترمة السيدة سوسة الأميركية وإلى ولدها جميل سوسة أن يدركا أن فراق زوجها لها ولطفلها لم يكن القصد منه التخلّي عنهما في ذاته فهذه ليست من شيم المحبّين إذ كان جلّ ما يتمناه زوجها الدكتور هو أن يمضي حياته في كنفها ولكن قدره الذي قاده إلى التعرّف إليها والزواج منها أراد أن يمتحنه فيها وفي ولدها منه وكان الامتحان قاسياً وكان القدر أقوى منه ومنهما فجعله يجتازه إلى حيث أراد له أن يكون. فالقدر وحده هو الذي اصطفاه من دون جميع أولئك الذين ولدوا مع إطلالة بابل على العالم من تحت الأنقاض ليضع كتابه «**العرب واليهود في التاريخ**» وليجعل من ذلك الكتاب عبرة لقومها وقومه علّهم يعقلون.

الياس بيطار

تصدير الطبعة الأولى

منذ نيف وأربعين عاماً وعلّامتنا الدكتور أحمد سوسة يوالي إمداد المكتبة العربية بالنفيس من المؤلفات والمراجع الباحثة في تاريخ العراق وحضاراته، فكانت جهوده موضع إعجاب المحافل العلمية والتاريخية في العالم وتقديرها لما امتازت به تلك المؤلفات من دقة في البحث ورصانة في الأسلوب مع لباقة في العرض.

ويتحفنا اليوم الدكتور سوسة بسفره الجديد «**العرب واليهود في التاريخ**» الذي يعتبر بحق من أجلّ المؤلفات الوثائقية وأصدق المراجع الباحثة في هذا الموضوع، بل إنه يتبوأ بحق الصدارة من بين مؤلفاته التي تنيف على الثلاثين مؤلفاً، فقد سلك في تحقيقاته وتعقيباته النهج الموضوعي الرصين والأسلوب العلمي المجرّد عن كل عاطفة وهوى، مما يجعل من الكتاب وثيقة تاريخية يفاخر بها ومن يطالع الكتاب يحظى بالحقائق التالية:

1 ـ إن الأدلة والشواهد التي ساقها الدكتور أحمد سوسة في هذا الكتاب وما أثبته من معلومات مستندة على أحدث المكتشفات الآثارية والتاريخية بدلالة كثرة المصادر التي رجع إليها وبلغاتها المتعدّدة، قد أبرز حقائق فريدة في بابها ومعلومات دقيقة لا يعرفها إلّا القلّة القليلة من المتخصصين.

2 ـ وجوب إعادة النظر في التواريخ المدوّنة عن مدنيات الشرق القديم بعامة وتاريخ فلسطين بخاصة، ومن مزايا الكتاب أن العلّامة الدكتور سوسة وما ساقه من أدلة دامغة، تجعله المجلي في هذا المضمار ومتفرداً على أقرانه

ممن تصدّى إلى معالجة أمثال هذه الأمور الحساسة الدقيقة التي تحتاج إلى الصبر والمثابرة وسعة الاطلاع، وإنني أعتقد جازماً، أن ما حازه الدكتور سوسة من توفيق في هذا السفر ـ الذي يعزّ نظيره على الغير ـ تعود أسبابه بالدرجة الأولى إلى اطلاع العلّامة سوسة على التاريخ العبراني والآداب اليهودية، وهذا ما لم يتوفّر لغيره من المؤرّخين.

3 ـ ومن يقرأ الكتاب يشعر بالأسف والحسرة على ضياع عشرات السنين من عمر أمتنا العربية المناضلة، خسرناها بين جدّ وهزل، وضعت خلالها الألوف من الكتب والمؤلفات ومن الواجب الاعتراف بأن الكثير منها ألحق أفدح الأضرار بقضايانا القومية، فكانت سلاحاً بيد الخصوم والأعداء يشهرونه بوجوهنا بكل مناسبة، مما أتاح للصهيونية والاستعمار أن يكسبا الجولة الأولى في فلسطين، وكم كنت أتمنى ـ على الصعيد الإعلامي ـ لو أن من أمثال كتاب الدكتور سوسة ألّفت قبل سنوات ليطّلع العالم على الحقائق الناصعة التي تفضح أساليب الصهيونية في تزييف الحقائق وفرض هذا التزييف على العالم، وهذا ما حمل وزارة الإعلام على تبنّي طبع هذا الكتاب وترجمة مقدمته إلى اللغتين الفرنسية والإنكليزية ليطّلع العالم الخارجي على هذه الحقائق الناصعة المجرّدة من الأساطير.

وختاماً نرجو للعلّامة الدكتور سوسة التوفيق والعمر المديد ليمدّنا بالمزيد من مؤلفاته النافعة والله الموفّق إلى الخير.

سالم الآلوسي
مدير الثقافة العام
وزارة الإعلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾[1]

تصدير الطبعة الرابعة

إن كتاب «**العرب واليهود في التاريخ**»، تأليف العلّامة الدكتور أحمد سوسة، ليعتبر حقاً بكراً في مادته، لم يصنف قبله في بابه، تفرّد في فنه، وتميّز في دقة موضوعه وصدق أحكامه. فلم يدع آبدة إلّا قيّدها، ولا شاردة إلّا ردّها إليه، فجاء بمكتشفات لها خطورتها العظمى، وحقائق باهرة لم يفطن لها أحد من قبل، وبذلك انقلب تاريخ اليهود رأساً على عقب، وبات بحاجة قصوى إلى التدوين من جديد على ضوء ما جدّ من المكتشفات الآثارية، وما أسفر عنه البحث العلمي من حقائق لا تقبل الشكّ والجدل.

والمؤلف غنيّ عن التعريف، فهو عالم فاضل حجّة، نذر نفسه لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، واتباع أفضل السبل وأدقّها في البحث العلمي النزيه والنهج الموضوعي القويم، حتى لكأن القائل قد عناه بقوله: «لا هوى أزاغه، ولا أرب استحثه، ولا هوس شهرة فتنه. . .» فهو في عرضه ونقاشه وجوله أصيلاً لا يكبو في حلبة، ولا يهاب شوطاً مهما طالت مسافته. . وهو في تحقيقه وتدقيقه كأنه عاكف على قبضة من الرمل ليحصي حباتها واحدة واحدة، حتى لقد يعيا مصاحبه وهو ثبت لا يكلّ ولا يملّ. .

---

(1) سورة الجاثية، الآية: 29.

عرفه الناس، في دنيا التأليف مؤلفاً من الطراز الأول، يتّسم بسعة الاطلاع وعمق التفكير.. يتحرّى الصدق، وينشد الحقيقة، ويقيم للأمانة العلمية وزنها اللائق، لا تأخذه في سبيل الحق لومة لائم، ولا ترهبه صولة الباطل مهما جمحت واستبدّ بها الشطط، لأن قوّة الحق، في اعتقاده، تلقف كل إفك، وتزهق كل باطل.. وهو لا يخشى النقد المغرض مهما بلغ من مرارة التجريح، لأن ذلك لا يقدّم ولا يؤخر بالنسبة إلى صمود الحق ورسوخ أركانه، ولأنه، في نظره، كفقاعات الزبد لا تلبث أن تتلاشى وتزول ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1].

وقد ابتغى هذا المؤلف الثّبت إماطة اللثام عن وجه تاريخ اليهود بروح علمية نزيهة بعيدة عن الشطط والهوى ليحق الحقّ ويدحض الباطل.. وكان له من نهجه الموضوعي السليم، وجلده المنقطع النظير ما مكّنه من بلوغ مرامه وإدراك قصده، حتى ظفر بضالّته ووقع على بغيته، بعد أن سلّط على تاريخ القوم الأضواء العلمية الساطعة من كل جانب، فأنارت سبله الحالكة، أخرجته من دياجير متاهات التمويه والتضليل إلى نور الحق واليقين، بعد أن أخفوا حقيقته عن الناس قروناً كثيرة، فمثل أمام العالم أجمع بشكله الصحيح وواقعه الواضح.. وهكذا تبيّن الرشد من الغي، وبلج الصبح لذي عينين، وانكشف الغطاء، وحصحص الحق، وزال الارتياب، وفضح هنالك المبطلون، واستبان للناس ـ بعد طول مخادعة ومراوغة وتضليل من لدن دهاقنة القوم ـ أن القوم ليسوا على دين موسى، وأن إلٰههم (يهوه) الذي اتخذوه لأنفسهم، وهو من صنع أفكارهم، هو غير الإله الذي دعا إليه موسى ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[2]، وأنهم قد كفروا بما جاءهم به موسى واتهموه بالزيغ والكفر والانحراف ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ... وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[3]، فسعوا في قتله على أرجح الأقوال ـ ثم عمدوا بعد قتله إلى اختلاق (توراة!) من عند أنفسهم نسبوها إليه، وأودعوا فيها ما شاءت لهم

(1) سورة الرعد، الآية: 17.

(2) سورة الجاثية، الآية: 23.

(3) سورة فصلت، الآية 45.

أهواؤهم الجامحة ونفوسهم المفطورة على البغي واقتراف الكبائر ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ﴾[1]، وهكذا زخرت (توراتهم الملفّقة) بالكذب والزور والتضليل، وادّعوا أنها منزلة من عند إلٰههم - الشرير - (يهوه) الذي يأمرهم بالمنكر وينهاهم عن المعروف ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾[2]، ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾[3]، ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ﴾[4]. ثم أضافوا إليها بعض ما اقتبسوه من معالم حضارة الكنعانيين بوجه خاص، والدولة البابلية التي كانوا راضخين لسلطانها في بابل أيام أسرهم، ومن حضارات الأمم الأخرى التي كانت تقيم في وادي الرافدين ووادي النيل - بوجه عام.

ويقول صاحب كتاب (اليهود في القرآن)[5] في هذا الصدد:

«التوراة المتداولة اليوم، والتي يترنّم بها اليهود ويردّدها الإسرائيليون في معابدهم، لا يعترف بها القرآن. بل سجّل في عديد من الآيات أنها محرّفة مزورة، زيد عليها وأنقص منها، فشوّهت بما استحدث فيها وحرّفت بما نقص منها».

ولا يعترف القرآن إلّا بالتوراة التي أنزلت على موسى ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[6].

تلك هي التوراة: الكتاب المقدس، والتعاليم الإلٰهية لبني إسرائيل التي تضمّنتها الأسفار (الألواح) المنزلة على موسى ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[7].

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 69.

(2) سورة النحل، الآية: 72.

(3) سورة البقرة، الآية: 59.

(4) سورة المجادلة، الآية: 2.

(5) الدكتور محمود الشريف **«اليهود في القرآن الكريم»** ص 29 - 35.

(6) سورة المائدة، الآية: 44.

(7) سورة الأعراف، الآية: 145.

تلك التوراة التي تقرر وحدانية الله وتنزيهه عن كل مظاهر النقص والتي ترتكز على الاعتراف باليوم الآخر والإيمان بما فيه من ثواب وعقاب وجنّة ونار، والتي تضمّنت عظات وأفكاراً وشريعة لبني إسرائيل يحكم بها أنبياؤهم ويحفظها رهبانهم ويحافظ عليها أحبارهم. تلك هي توراة موسى التي أنزلت عليه والتي اعترف بها القرآن، واعترف بأن فيها هداية لبني إسرائيل ونوراً لهم. وهذه التوراة الأصلية الأصيلة ببنودها ونصوصها وتعاليمها وموادها الكاملة المتكاملة لا وجود لها بهذه الصورة الإلٰهية التي كانت عليها زمن موسى، فقد تخلّص اليهود منها وكتبوا سواها بما يتلاءم مع أهوائهم ويتواءم مع مخططاتهم، وزعموا بعد كل هذا، أنها هي التوراة التي أنزلها الله.

والذي تولّى ذلك الصَّنيع الآثم من قديم، فغيّر وبدّل وحرّف إنما هم طائفة منحرفة متخصصة.. تولّت التصحيف والتحريف والتأويل والتعمية بإخفاء الحقائق الإلٰهية ليحافظ رهبانهم ورؤساؤهم على مكانتهم ومكاسبهم وعن هذا يقول القرآن: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[1] ويقول: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[2]. ويقول: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3].

كذلك عمَد لفيف من رؤسائهم الدينيين إلى إخفاء بعض الأسفار في الهيكل وكتمان ما فيها من حقائق وبشارات وعن هذا يقول القرآن: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[4]

(1) سورة النساء، الآية: 46.

(2) سورة البقرة، الآية: 76.

(3) سورة المائدة، الآية: 13.

(4) سورة المائدة، الآية: 15.

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[2].

وقد رأى الرسول ﷺ ورقة من التوراة في يد عمر رضي الله عنه، فأمره بإلقائها لما بها من أباطيل وما فيها من تحريف. ثم قال: «**ألم آتكم بها بيضاء نقية؟ والله لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلّا اتباعي**».

وإذا كان القرآن قد حكم بأن تعاليم التوراة تنوسيت وأخفيت، فقد حكم أيضاً بأن بعضها قد نسيه اليهود فعلاً ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾.

بهذا كله يحكم القرآن بأن التوراة المتداولة المشهورة في الأوساط اليهودية ليست هي التوراة المنزلة على موسى. يقول رحمة الله الهندي في كتابه[3] قال: «جان ملتر» في ص115 من كتابه الذي طبع في بلدة «دربي» سنة 1843: اتفق أهل العلم على أن نسخة التوراة الأصلية وكذا نسخ كتب العهد العتيق ضاعت من أيدي عسكر بختنصر، ولما ظهرت نقولها الصحيحة بوساطة «عزرا» ضاعت تلك النقول أيضاً في حادثة «أنتيوكس». وعن هذه الحادثة يقول رحمه الله في كتابه السابق ص190: «لما فتح أنتيوكس ملك ملوك الفرنج أورشليم أحرق جميع نسخ كتب العهد العتيق وأمر بقتل كل من يوجد عنده نسخة من كتب العهد القديم، وكانت هذه الحادثة قبل ميلاد المسيح بأكثر من مائة سنة. وهذه الحادثة مفصّلة في «تاريخ اليهود وتاريخ يوسيفوس» ومما يجزم بأن هذه التوراة المتداولة الآن ليست توراة الله إنها صوّرت أنبياء بني إسرائيل بصورة مشوّهة ونزعت عن بعضهم العصمة، بل ردّتهم إلى درك الحيوانية وإلى مهاوي الشرك والارتداد عن الإيمان. يقول رحمة الله الهندي[4]: «وقع في

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 91.

(2) سورة البقرة، الآية: 159.

(3) **إظهار الحق** ص113.

(4) ص 133، من **كتاب إظهار الحق**.

الباب التاسع عشر من سفر التكوين أن لوطاً عليه السلام زنى بابنتيه، والعياذ بالله تعالى وحملتا من أبيهما وتولّد لهما ابنان، هما أبو الموآبيين، والعمانيين، وما وقع في الباب الحادي والعشرين من سفر صموئيل الأول من أن داود عليه السلام زنى بامرأة أوريا وحملت بالزنا منه، فقتل زوجها بالحيلة وتصرّف فيها. وما وقع في الباب الحادي عشر من سفر الملوك الأول أن سليمان عليه السلام ارتدّ في آخر عمره بترغيب أزواجه وعبَد الأصنام وبنى لها معابد وسقط من نظر الله، وأمثال هذه القصص التي تقشعرّ منها جلود أهل الإيمان ويكذبها البرهان».

ويقول الدكتور علي عبد الواحد في كتابه[1]: «ظهر للمحدثين من الباحثين من مقارنة اللغات والأساليب التي كتبت بها هذه الأسفار وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع، والبيئات الاجتماعية والسياسية التي تنعكس فيها، ظهر لهم من مقارنة هذا كله أنها ألّفت في عصور لاحقة لعصر موسى.. وأنها جميعاً مكتوبة بأقلام اليهود وتتمثّل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعدّدة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل. فهي إذن تختلف كل الاختلاف عن التوراة التي يذكر القرآن أنها كتاب سماوي مقدّس أنزله الله على موسى».

ثم تحدّث عن الشريعة في أسفار اليهود فقال[2]: «..إنه يلاحظ في هذه الشريعة كثير من مظاهر الانحراف والتضارب واختلاط المسائل، أما انحرافها فيتمثّل في قيامها على التفرقة العنصرية، وذلك أنها تجعل اليهود الشعب المختار الذي اصطفاه الله وفضّله على العالمين، وتنظر إلى ما عداه من الشعوب نظرتها إلى شعوب وضيعة في سلّم الإنسانية، وتضع قوانينها ونظمها على هذا الأساس، فتفرّق بين هؤلاء وأولئك أمام القانون وفي كثير من شؤون الاجتماع، فمن ذلك ـ مثلاً ـ أن الإسرائيليين محرّم عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً وأن يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، على حين أنه مباح للإسرائيليين ومن الواجب عليهم غزو الشعوب الأخرى، وخاصة شعب كنعان، وواجب

(1) **الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام**، ص17.

(2) انظر ص13 من **الأسفار المقدّسة في الأديان السابقة للإسلام**.

عليهم بعد انتصارهم على بلد ما أن «يضربوا رقاب جميع رجالها البالغين بحدّ السيف» فلا يبقوا على أحد منهم، ويسترقّوا جميع نسائها وأطفالها ويستولوا على جميع ما فيها من مال ومتاع وعقار، أو ينهبوه نهباً. حسب تعبير أسفارهم»[1] وأما عدم وحدتها فذلك أن أحكام أسفارها يتضارب بعضها مع بعض في كثير من الشؤون، فقد يقرر سفر في حادث ما حكماً ويجيء سفر آخر فيقرر في الحادث نفسه حكماً آخر كالتناقض الذي بين سفريّ الخروج والتثنية في حالة بيع الإسرائيلي نفسه لأخيه الإسرائيلي.

وفي هذين المظهرين اللذين تتّسم بهما شريعة اليهود دليل آخر على أن أسفارهم هذه من صنع أيديهم، وعلى أن كل سفر منها يعكس التقاليد والنظم التي كانوا يسيرون عليها في العصر الذي أُلّف فيه، وعلى مبلغ الخلاف بين توراتهم المزعومة والتوراة الصحيحة التي أنزلها الله على موسى، فإن كتاباً من عند الله لا تتضارب أحكامه بعضها مع بعض: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[2] وأن شريعة من عند الله لا تقرّ التفرقة العنصرية بين أفراد الآدميين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[3].

أما إذا انتقلنا إلى تراث القوم في الميدان الحضاري فلا نكاد نجد في مخلفاتهم ما يرفع شأن الإنسانية، وحسبنا أن نقتصر في هذا الشأن على ما جاء في كتاب (اليهود في تاريخ الحضارات الأولى) للعالم الفرنسي الذائع الصيت الدكتور غوستاف لوبون كنموذج من نماذج شتى ذهبت مذهب (لوبون) في هذا المضمار، ولنقتبس فقرات مما جاء في مقدّمة مترجم الكتاب إلى العربية المغفور له الأستاذ عادل زعيتر:

«انتهى ـ أي الدكتور غوستاف لوبون ـ إلى أنه لم يكن للقوم فنون ولا علوم ولا صناعة ولا أي شيء تقوم به حضارة، وهم لم يأتوا بأية مساعدة

(1) راجع، تث، 20: 13 ـ 14.

(2) سورة النساء، الآية: 82.

(3) سورة الحجرات، الآية: 13.

مهما صغرت في شيد المعارف البشرية، وأنهم لم يجاوزوا قط مرحلة الأمم شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ».

انتهى إلى أن تاريخهم الكئيب لم يكن غير قصة لضروب المنكرات، فمن حديث الأسارى الذين كانوا يوشرون بالمنشار أحياءً، أو الذين كانوا يشوون في الأفران.. فإلى حديث سكان المدن الذين كانوا يذبحون من غير تفريق بين الرجال والنساء والشيب والولدان.

انتهى إلى أن تأثير القوم في الحضارة صفر... وأنهم لم يستحقوا بأي وجه أن يعدّوا من الأمم المتمدنة.

انتهى إلى أن القوم قد ظلّوا في عهد ملوكهم، بدويين أفّاقين مفاجئين مغيرين سفاكين مندفعين في الخصام الوحشي. فإذا ما بلغ الجهد منهم ركنوا إلى خيال رخيص تائهة أبصارهم في الفضاء، كسالى خالين من الفكر كأنعامهم التي يحرسونها.

انتهى إلى أن «فلسطين» أرض الميعاد لم تكن غير بيئة مختلفة لهم، فالبادية كانت وطنهم الحقيقي.

انتهى إلى أنك لا تجد شعباً عطِل من الذوق الفني كما عطل القوم.. فهيكلهم المشهور (هيكل سليمان) أُقيم على الطراز الآشوري من قبل بنّائين من الأجانب.. ولم تكن قصور هذا الملك غير نسخ دنيئة عن القصور المصرية أو الآشورية[1].

انتهى إلى أنه لا أثر للرحمة في وحشية القوم.. فكان الذبح المنظّم يعقب كل فتح مهما قلّ، وكان الأهالي الأصليون يوقفون فيحكم عليهم بالقتل دفعة واحدة، فيبادون باسم (يهوه) من غير نظر إلى الجنس ولا إلى السن، وكان التحريق والسلب يلازمان سفك الدماء».

انتهى قول عادل زعيتر نقلاً عن لوبون:

---

(1) إن هيكل سليمان هو من صنع الفينيقيين الصوريين وقد بني على نمط المعابد الكنعانية كذلك قصر سليمان هو من صنع الفينيقيين أيضاً (راجع حتي «**سوريا**» ص204، طه باقر، «مقدّمة...» 2: 289).

ولا شك في أن سلوك القوم الآثم إنما هو مستمد من التعاليم الشريرة التي توارثوها عن آبائهم وأجدادهم منذ أعرق العصور، ثم ظهرت مركّزة في كتابهم السري المعروف بـ (بروتوكولات حكماء صهيون) الذي افتضح أمره فيما بعد وانكشف سرّه بين أمم العالم وكان أسوأ نموذج عرفه التاريخ في السلوك الإنساني. . . فهو يدعو إلى اجتراح السيئات، واقتراف الموبقات، وانتهاك الحرمات، وإزهاق الأرواح والخروج على القيم الإنسانية، وإشاعة البلبلة في صفوف الناس، وارتكاب الفاحشة، ما ظهر منها وما بطن، وإلقاء العداوة والبغضاء بين أبناء البشر ليستقيم لهم الأمر وحدهم كما يريدون ويشتهون.

ومما يثير الدهشة أن حكماء صهيون لم يكتفوا ـ كما يقول أحد المؤرّخين ـ في قراراتهم بالنص على أخذ فلسطين، ولا على فرض سلطانهم من النيل إلى الفرات، بل نصّت قراراتهم على وجوب تحطيم العالم بوسائل شرحوها، حتى يتسنى للصهيونية السيطرة عليه، وإقامة دكتاتورية يهودية تستعبد كل من فيه[1].

تلك هي الخطط الرئيسة، كما يقول ذلك المؤرّخ، للمؤامرة الكبرى التي تدبرها الصهيونية ضد العالم بأسره، وما جرّته الصهيونية على البشرية من مذابح ومؤامرات وحروب يؤكد كل حرف ورد في بروتوكولات حكماء صهيون. . بل إن التلمود ـ الكتاب الذي يقدّسه اليهود ـ جاء بأكثر مما جاءت به بروتوكولات حكماء صهيون، فما هو التلمود؟ يقول الدكتور أحمد سوسة: يُعدّ كتاب التلمود عند اليهود جزءاً من أحكام الديانة اليهودية، والتلمود معناه التعاليم أو الشرح أو التفسير، وهو مجموعة الشرائع اليهودية التي نقلها الأحبار اليهود شرحاً وتفسيراً للتوراة واستنباطاً عن أصولها، وأصل كلمة تلمود من العبرية «لاماد» أي (يعلم). ويقسم التلمود إلى قسمين، «المشنة» وهي النصّ أو المتن و«الجيمارا» وهي التفسير أو الشرح، والتلمود هو الاسم الجامع للمشنة والجيمارا معاً. المشنة عبارة عن مجموعة من تقاليد اليهود

(1) معين أحمد محمود: «**الصهيونية والنازية**»، ص 100.

المختلفة في شتى نواحي الحياة اليهودية مع بعض الآيات من كتاب التوراة.

أما الجيمارا فهي مجموع المناظرات والتعاليم والتفاسير التي وضعت في المدارس العالية بعد الانتهاء من وضع المشنة. ويزعم اليهود بأن هذه التقاليد والتعاليم شفاهية ألقاها النبي موسى عليه السلام على شعبه أعطيت حين كان على الجبل ثم تداولها هارون وأليعازر ويشوع وسلّموها للأنبياء، ثم نقلت عن الأنبياء إلى أعضاء المجمع الديني الأعلى (سنهدرين) وخلفائهم حتى القرن الثاني بعد المسيح عليه السلام. ويعتبر أكثر اليهود التلمود كتاباً منزّلاً ويضعونه في منزلة التوراة ويرون أن الله أعطى موسى التوراة على طور سيناء مدوّنة، ولكنه أرسل على يده التلمود شفاهاً.

ويوجد هناك تلمودان يُعرف أولهما بالتلمود الفلسطيني ويسمّيه اليهود الأورشليمي، ويعرف الثاني بالتلمود البابلي. ولكل من هذين التلمودين طابعه الخاص وهو طابع البلد الذي وضع فيه، ولغتا التلمودين مختلفتان تمثّلان لهجتين آراميتين. التلمود الفلسطيني بالآرامية الغربية، أما التلمود البابلي فلهجته آرامية شرقية أقرب إلى المندائية (العراقية)، وقد احتوى على بعض مصطلحات يونانية ولاتينية، وحجم التلمود البابلي أوسع من التلمود الفلسطيني بأربعة أضعاف ويقع في 5894 صفحة ويطبع عادة باثني عشر جزءاً!![1].

ويقول الأستاذ معين أحمد محمود في هذا الصدد: وهكذا نرى أن المشنة والجيمارا يؤلفان معاً كتاب التلمود، هذا الكتاب الذي لم ينته تأليفه إلّا بعد مئات السنوات من مولد السيد المسيح.

فلنتأمل: كل يهودي يدّعي الانتماء إلى صفوف رجال الدين كان يضيف ما يشاء إلى هذا المجلد الضخم. ولا تسأل عن الشتائم والكلمات البذيئة والحقيرة الموجّهة إلى كل إنسان غير يهودي.

والملاحظ أنه في الطبعات الأخيرة من التلمود حذف أكثر الكلمات بذاءة واستعيض عنها بدوائر هندسية أو بالفراغ.

---

(1) **مجلة مركز الدراسات الفلسطينية**. المجلد الثالث ـ العدد الأول ـ كانون الثاني 1974، ص 86 ـ 87.

وهذا التغيير جرى بعد قرار اتخذ في بولونيا سنة 1631 وقد نصّ القرار على الحذف المذكور كي لا يطّلع الناس على نواياهم ولكن على أن تدرّس الكلمات المحذوفة شفوياً لأولاد اليهود في مدارسهم[1].

وبعد أن يورد المؤلف بعضاً من فقرات التلمود يقول:

«وهذا لا يهمنا بمقدار ما تهمنا حقيقتان علينا ألا ننساهما أبداً:

الحقيقة الأولى: هي نظرة التلمود إلى كل إنسان غير يهودي، فهي نظرة الاحتقار والحقد، فكل الناس سواهم حيوانات[2].

الحقيقة الثانية: هي اعتقادهم بقيام مملكة اليهود، هذه المملكة التي سوف تسيطر على العالم كله بالشر والطغيان».

ثم يخلص إلى القول:

«إذن هاتان الحقيقتان هما المنطلقان للتعاليم الصهيونية.

«نحن عندما ندرك أعمق الإدراك خطورة الصهيونية على البشرية جمعاء، ندرك أن نضالنا لتحرير وطننا المقدس فلسطين، هو في الوقت ذاته نضال لتحرير الإنسانية من هذا الأخطبوط الشيطاني»[3].

أجل! لقد كان من أثر تلك التعاليم الشريرة الآثمة أن أباح القوم لأنفسهم الظلم والعدوان والفساد في الأرض وإخراج الآمنين المطمئنين من عرب فلسطين من ديارهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم قبل أن يظهر اليهود بقرون وقرون، ومزّقوهم شرَّ ممزق، وأذاقوهم من صنوف الأذى

---

(1) من ذلك تعاليمهم القائلة بأن المسيحيين هم سافلو الأخلاق لا يستحقّون المحبة والعدل. (راجع المقال القيّم الذي نشره العلّامة الدكتور أحمد سوسة في مجلة **مركز الدراسات الفلسطينية**، المجلد الثالث ـ العدد الأول ـ كانون الثاني 1974 ـ ص64 ـ الحاشية ـ تحت عنوان «صفة التلمود والزوهر في الديانة اليهودية»).

(2) تحت عنوان «عصر الإيمان» يقول العلّامة ديورانت في كتابه **«قصة الحضارة»**: إن الربانيين والحاخاميين أخذوا يفسرون التوراة حسب أهوائهم بالشكل الذي يرضي غرائزهم الشرّيرة ونزوعهم على بقية أجناس البشر.

(3) معين أحمد محمود، **«الصهيونية والنازية»** ص 100، 108، 113 ـ 114.

والاضطهاد والتشريد ما لم يرتكب عشر معشاره (هتلر) في أوج طغيانه وعنفوان جبروته. . فأين هذا السلوك البربري الأهوج الذي يلقاه أبناء عمومتنا في فلسطين المحتلة على أيدي تلك الفئة الباغية، من ذلك التسامح العظيم الذي لم يشهد له التاريخ مثيلاً في مختلف عصوره وأحقابه المتمثّل فينا ـ نحن معاشر العرب والمسلمين ـ نحو من دانوا لنا وانضوَوا تحت لوائنا من مختلف الملل ومنهم اليهود، ومدى الرحمة الواسعة التي أسبغها عليهم أجدادنا الميامين، أولئك الذين قال عنهم غوستاف لوبون كلمته المأثورة: (ما عرف التاريخ أمة أرحم من العرب).

وإني لمورد في هذه المناسبة نموذجين عابرين من نماذج قد لا يدركها الحصر في التدليل على ما أنا بصدده:

أولهما رعاية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمن قعد بهم الدهر وضاقت في وجوههم سبل العيش، ممن لا يدينون بالإسلام، وأن قصته مع اليهودي الأعمى المتسول، وإجراءه عليه من بيت مال المسلمين ما يوفّر له العيش الكريم لما تبقّى من عمره، لأشهر من أن تذكر.

وثانيهما قصة الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع اليهودي الذي رهن درعه عنده، ووقوفهما معاً جنباً إلى جنب أمام القاضي (عند المرافعة)، وعليّ يومئذ خليفة المسلمين. وقد كان اليهودي يعلم حق العلم أن الحق بجانب عليّ ولكنه أراد أن يختبر عدالة الإسلام المتمثّلة في الخليفة وقاضيه. . ولم يسعه ـ بعد الذي أذهله مما رأى من العدالة المطلقة والديموقراطية المنقطعة النظير ـ إلا أن يعلن إسلامه اعتزازاً بهذا الدين الحنيف الذي ساوى بين الناس في الحقوق وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ونشر الفضيلة في أرجاء العالم ودعا إلى التآخي، والتعاون على البرّ والتقوى، ونهى عن التعاون على الإثم والعدوان.

وقد اعترف اليهودي أمام القاضي بأن الإمام علياً هو صاحب الحق، وأنه تعمّد إقامة الدعوى على الخليفة ليرى بأمّ عينه مبلغ العدالة في الإسلام. . وكان أن دخل في دين الله عن اقتناع صادق بأفضلية هذا الدين لأنه يحقّ الحق

ويزهق الباطل، ويضمن سعادة الفرد والمجموع ويقطع دابر الرذيلة والفساد، ويعود بالخير الوافر على أبناء الإنسانية كافة.

حسب التاريخ شرفاً وفخراً وإنصافاً أن سجّل لسلفنا الصالح تلك المآثر العظمى وذلك المستوى الأرفع من الحكم الصالح ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1]، وأنه لعمر الحق برهان ناطق على أن أمتنا الكريمة العريقة هي بحق ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2].

إن انطواء القوم على الشرّ قد زيّن لهم الإسراف والغلوّ في الاندفاع العارم نحو التفرقة العنصرية المقيتة، فقد أعلنوها حرباً لا هوادة فيها على الأجناس الخاضعة لسيطرتهم، وامتدّ لظاها إلى أبناء ملّتهم من اليهود الشرقيين الذين نزحوا عن البلاد العربية إلى فلسطين استجابة للدعوة المضللة التي وجهها إليهم أولئك القوم باسم الوطن القومي لليهود. وما زالت الأنباء تتوارد عن الاصطدامات العنيفة الدامية القائمة بين الفريقين في تلك الربوع، ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[3].

من كل ذلك يتبين لنا مبلغ ما وصل إليه (أعداء البشر) من القسوة والاستهانة بحقوق الآخرين والصدوف عن الحق وعن كل ما تعتزّ به الإنسانية من القِيَم والمُثل والاعتبارات الأدبية والمعنوية.

لقد أودع علّامتنا الدكتور أحمد سوسة في تضاعيف كتابه الفذّ ما ينطق على القوم بالحق ويعجزهم عن الردّ المنطقي المقنع مهما ركبوا رؤوسهم وأخذتهم العزّة بالإثم ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[4]، ومهما حاولوا أن يلبسوا الحق بالباطل ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[5]، ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[6].

---

(1) سورة ق، الآية: 37.
(2) سورة آل عمران، الآية: 110.
(3) سورة الأنعام، الآية: 122.
(4) سورة غافر، الآية: 5.
(5) سورة المؤمنون، الآية: 7.
(6) سورة البقرة، الآية: 146.

ولا شك في أن هذا الكشف العظيم في تاريخ القوم ليعدّ مفخرة عظمى لمؤلفنا العبقري، وتوفيقاً لا يكاد يدانيه توفيق من نوعه، وحدثاً نادراً في عالم التحرّي والاستقصاء، وفوزاً ساحقاً للحقيقة والتاريخ، وانتصاراً مبيناً للحق على الباطل ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1] بعد أن بقي ذلك التاريخ أحقاباً طوالاً يسير في فلك الزور والبهتان، ويدور حول محور الزيف والتضليل، فكيف بهم الآن وقد برح الخفاء وتبيّن الرشد من الغي، واستبان الحق من الباطل، ووقف الناس على ما كانوا يجهلون! ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ﴾[2].

إن ذلك، ولا شك، سيثير حفيظة القوم، أولئك الذين تغلي في قلوبهم مراجل العداوة، وتلتهب في صدورهم نيران الحقد والبغضاء، وسيستخرج أضغان دهاقنة الصهاينة وغلّاتهم. . ، أولئك الذين يحلو لهم التمشدق ـ كذباً وزوراً ـ بأنهم من أعقاب بني إسرائيل ووارثو (مجدهم!!)، ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾[3]، ألا ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[4] ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ﴾[5] ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[6] والله يعلم والتاريخ يشهد أنهم ليسوا من ذلك في شيء، فقد وفدوا إلى فلسطين من مئة ودولتين، ومن خمس قارات، وإن هم إلّا شذاذ آفاق، وشرّاد أمصار، وأبّاق أعبد، وعصابات نهب وسلب، لفظهم العالم فعاثوا في الأرض فساداً، واتخذوا من الدجل والشعوذة والغش والسمسرة وأكل السُّحت والربا سبلاً للعيش في أوساطهم الموبوءة بصنوف المخازي، فأين هم مما يدّعون؟! ألا ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾[7]. لا جرم أن هذه الفضيحة التاريخية ستقيمهم، وستقعدهم،

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 118.
(2) سورة الأعراف، الآية: 119.
(3) سورة البقرة، الآية: 122.
(4) سورة الكهف، الآية: 5.
(5) سورة ص، الآية: 7.
(6) سورة الأنعام، الآية: 116.
(7) سورة الذاريات، الآية: 10.

وسيأخذون - كعادتهم - بالتهريج والتهويش والتمويه والعربدة وطرح المقالب والمغالطات والدعايات الفارغة ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ﴾[1]، وفاتهم أن ذلك لن يجديهم نفعاً ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2]، فالحجّة لا تقرع إلّا بالحجّة، والدليل لا ينقضه إلّا الدليل ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾[3] ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[4].

إن ما أدلى به مؤلفنا الفاضل في تضاعيف كتابه إن هو إلّا حصيلة دأب متوال، وجهد متواصل، وسهر طويل، وتعب مضنٍ استغرق أربعين عاماً استنفد فيه وسعه، وأفرغ مجهوده حتى انتظم له الأمر واستقام، وأسفر عن هذا السفر الرائع الذي يعتبر حجّة في بابه، والذي تضمّن أحدث وأصدق ما أسفرت عنه المكتشفات الآثارية الحديثة وسطرته أقلام جهابذة العلماء المتخصصين، وقدّمه مؤلفه البارع بكل أمانة وصدق وتجرّد وتواضع هدية نفيسة وتحفة ثمينة إلى العالم أجمع ليستبين له وجه الحق. . . ، وصاحبنا العلّامة لا يبتغي من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً عدا إرضاء ضميره الحرّ النقي التوّاق إلى استقصاء الحقائق وانتزاعها من مكامنها، والإصرار الكلّي على جعل كلمة الحق هي العليا ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[5]. فمن كان لديه اعتراض فليدل به، ومن كان عنده حجّة فليفض بها، فصدر الحق رحب وفسيح، والرجوع عن الخطأ فضيلة، وإن الحق يعلو ولا يعلى عليه. . . ، أما الجدل الفارغ والمماحكة والشعوذة والثرثرة والمكابرة والسفسطة[6] والمغالطة واللف والدوران ومجانبة الحق بصفاقة وجه ووقاحة، فكلها هراء في هراء، بل هي الهذيان بعينه، ولا يلجأ إليها إلّا من سفّه نفسه وأضلّه الله. . ، وإنها لبضاعة مزجاة كاسدة وتجارة بائرة لا رواج لها مطلقاً في سوق العلم والموضوعية

(1) سورة البقرة، الآية: 102.
(2) سورة البقرة، الآية: 111.
(3) سورة المؤمنون، الآية: 7.
(4) سورة الأنبياء، الآية: 18.
(5) سورة يونس، الآية: 32.
(6) السفسطة: قياس مركب من الوهميات، والغرض منه إفحام الخصم وإسكاته.

والتجرّد والتمحيص ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1]؟!.

ومما يدعو إلى الاعتزاز أن ما أورده مؤلفنا العلّامة في كتابه القيم كان معززاً بعضه بالآيات القرآنية الكريمة في تبيين الحقائق ومطابقة المكتشفات الآثارية الحديثة والبحوث العلمية الدقيقة لما جاء في كتاب الله العزيز ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[2]، ولا غرابة فالقرآن الكريم حجّة الله البالغة وآيته العظمى ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[3]، والله جلّ شأنه يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[4]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[5]، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[6].

أحمد حامد الشربتي

---

(1) سورة يونس، الآية: 35. (ومعنى الآية الكريمة: أفمن يرشد أحقّ أن يتّبع أم من لا يرشد وهو نفسه في حاجة إلى أن يرشده مرشد؟ فما بالكم تحكمون بما تقتضي بداهة العقل بطلانه؟).

(2) سورة النساء، الآية: 78.

(3) سورة فصّلت، الآية: 42.

(4) سورة الأنعام، الآية: 38.

(5) سورة الحاقة، الآية: 51.

(6) سورة الأحزاب، الآية: 4.

مقدّمة(1)

لقد أصبح أخيراً، رغم أسباب التأخير الكثيرة، كتاب الدكتور أحمد سوسة، «**العرب واليهود في التاريخ**»، هذا الكتاب الفذّ العجيب (الذي وصل أصله العربي إلى طبعته الثالثة) في متناول الباحثين الغربيين وليس الباحثين بمفردهم وإنما غير الباحثين أيضاً. إن أسلوبه الجزل الواضح يرفع من قيمته الأكاديمية وكذلك واقعيته المذهلة، مع كونه يتناول بالبحث عصوراً سبقت

(1) سعت هذه المقدّمة بالأصل، من قبل كاتبها، الدكتور رولف رايخارت، أستاذ الثقافة الإسلامية والتاريخ الإسلامي ومدير مركز الدراسات الأفرو ـ شرقية، في جامعة باهيا الاتحادية ـ سلفادور ـ البرازيل) باللغة الإنكليزية ولما لم تكن قد جرت العادة بعد بأن يقدم لكتاب بغير اللغة التي يكتب فيها، فقد طلبنا إلى السيد الياس بيطار العمل على ترجمتها إلى اللغتين العربية والفرنسية كي تتصدّر كل واحدة منها اللغة التي يصدر بها الكتاب بينما احتفظنا بالأصل الإنكليزي ليتصدّر ترجمة الكتاب الإنكليزية.

وهذه نبذة عن حياة كاتبها:

ولد الدكتور رولف رايخارت سنة 1914، درس في البدء الهندسة الكيميائية لكنه عاد ودرس، بعد الحرب العالمية الثانية، «الفقه الإسلامي» و«تاريخ البلدان الإسلامية» وبنتيجة أطروحته «المسلمون في غويانا» نال درجة أستاذ وعيّن أستاذاً للعلوم الإسلامية ومديراً لمركز الأبحاث الأفرو ـ الشرقية في جامعة باهيا الاتحادية ـ سلفادور (البرازيل) مجال بحثه العلمي «الأقليات المسلمة في جنوب أميركا». حضر عدّة مؤتمرات وألقى عدّة محاضرات في جامعات باريس، راسل، براغ، غرناطة، مدريد، الرباط، الجزائر، تونس، القاهرة (الأزهر)، دمشق، بغداد، وأخيراً اسطنبول. أهم مؤلفاته: «**أطلس العالم العربي التاريخي والإقليمي**» (1969)، «**الوثائق العربية في مصنفات ولاية باهيا** (البرازيل)» (1973) «**تاريخ فلسطين**» باللغتين الإسبانية والبرتغالية (1972 ـ 1973). وهو يقوم حالياً بوضع معجم المفردات الأساسية في لغة البربر من أهل المغرب (المؤلف).

التاريخ المسيحي بزمن بعيد، تجعل منه كتاباً وثائقياً خلاباً يفيد منه جميع المهتمين بتاريخ الشرق الأوسط ولا سيما تاريخ فلسطين.

إنني سميته «عجيباً». ولا غرو فإن الباحثين الغربيين سيعجبون بالتأكيد من عمق مداركه، واستقامة وصلابة بيانه والموضوعية في طريقة معالجته. وهم، ولا شك، سيدهشون أكثر لهذا العرض الغني بالمؤهلات والكفاءات الأكاديمية من ذلك النوع الراقي وتلك الدرجة العالية اللذين لم يكونوا، في أغلب الظن، يتوقعون وجودهما في هذا المكان. إن الدكتور أحمد سوسة هو خريج كلية كولورادو في الهندسة المدنية إضافة إلى شهادة الدكتوراه في الفلسفة، بدرجة شرف، من جامعة جونز هوبكنز في الولايات المتحدة الأمريكية[1]. ولذا فإن القارىء سيواجه في شخصه فكراً نيّراً وعالماً متبحراً في تاريخ الشرق الأدنى وعقلاً مدركاً لمدى دقّة وحساسية موضوعه، مما حدا به إلى تقييد نفسه تقييداً تاماً بالطرق الغربية في البحث والتنسيق العلمي. والدكتور أحمد سوسة أيضاً سبق له أن تسلّم، لمدة تنيف على الثلاثين عاماً، مسؤولية مناصب وإدارات تقنية، على أعلى المستويات في وطنه، جمهورية العراق الحديثة، إضافة إلى كونه مؤلفاً لنحو من ثلاثين كتاباً في الري والجغرافيا والتاريخ الخ... وفي اللغتين العربية والإنكليزية. ولذا فإنه لن يكون من المبالغة في شيء الجزم بأنه لم يصادف طيلة عمله الوظيفي حجراً واحداً يستطيع إنباءه، بأيّ قدر مهما كان طفيفاً عن تاريخ بلاده، إلّا وقلبه مستجلياً إياه ذلك التاريخ. وما المصادر الواردة في الكتاب إلّا دليلاً ساطعاً يبيّن مدى عمق وأتساع مطالعاته الأساسية التي سبقت وضع الكتاب.

أما عن العمل الذي تصدّى له المؤلف فإنه عمل ضخم هياب، إذ إنه ليس إلّا قلب بل تصحيح قضايا تاريخية متوارثة عبر الأجيال أسيء فهمها، وهي ما تزال شائعة بين الناس ومقبولة منهم بفعل التوراة وتأثيرها منذ ما ينيف على الألفين والخمسمائة سنة. وإنه لمن المؤكد أن اكتشاف مدوّنات الأقوام

---

(1) راجع سيرة المؤلف. (المترجم).

التي عاشت قبل تدوين أسفار التوراة بزمن طويل، كالسومريين، الأكديين، الكنعانيين، الحثيين، البابليين، الآشوريين وأخيراً المصريين قد دلّت، وبما لا يقبل الشك، على أن الكتابات التوراتية (ولا سيما الأسفار الخمسة الأولى) لا يمكن التعويل عليها كمرجع تاريخي حقيقي، وذلك لكون تلك المدوّنات المكتشفة عاشت الأحداث التي عاصرتها، في حين أن كتابات التوراة تذكر أحداثاً سبقت ظهورها بثمانية قرون بالنسبة لزمن موسى والخروج وخمسة عشر قرناً وأكثر بالنسبة لإبراهيم والخليقة. إن هناك عدداً من الكتّاب، من بينهم كاتب هذه المقدّمة الذين دأبوا على ترجمة التوراة كأحد كتب الأدب وفي أغلب الأحيان أحد كتب الشعر من وضع اليهود في بابل الذين مزجوا الصدق بالكذب بصورة عشوائية وطريقة كيفية غايتها تمجيد تاريخهم الخاص باعتبارهم يمثّلون «الشعب المختار» من دون جميع «شعوب العالم» مما يؤيد حقهم بـ «الأرض الموعودة»[1]، ومع ذلك لم يجرؤ أحد قط، قبل الدكتور سوسة، أن يكشف النقاب عن ذلك الزيف وعدم الانسجام في الخرافات التوراتية بمثل هذا القدر من الدقة والحذاقة والصراحة والصلابة. ونحن، الذين كان تعليمنا خاطئاً منذ الصغر، يتوجّب علينا مراجعة ما كنا قد تعلمناه، وإن كتاب الدكتور أحمد سوسة يقدّم لنا مادة غنية تساعدنا على ذلك. وأكثر من هذا وذاك يتوجب علينا أن نتعلّم كيف نُعطي الكلمات معانيها الحقيقية كأن نميّز، على سبيل المثال، بين العبراني والإسرائيلي والموسوي واليهودي. فهذه التسميات الأربع التي شاع استعمالها كمترادفات، دون أي تمييز بينها، ليست في الواقع إلّا أربعة مصطلحات ترمز إلى أربع جماعات مختلفة، سواء ارتبطت أم لم ترتبط إحداها بالأخرى، عاشت أربعة أزمنة مختلفة ومتباعدة لم تترك أية واحدة منها تراثاً ثقافياً ولا حضارياً في فلسطين في زمن من الأزمان. إن الكنعانيين (الفينيقيين) هم وحدهم الذين قاموا بهذا الدور الثقافي والحضاري في فلسطين خلال الحقبة السامية بطولها، وقد اقتبس الإسرائيليون ثقافتهم ومدنيتهم ومثلهم فعل الموسويون من بعدهم.

---

(1) راجع رايخارت، «**تاريخ فلسطين**»، الطبعة البرتغالية، برشلونة، 1973، ص 32.

إن السبب الذي يعلّل عجز تلك الأقوام، ومن بعدهم اليهود، عن إقامة أيّ حكم مدني دائم في فلسطين المحتلة أو في أي مكان آخر، مشروح شرحاً مفصّلاً في أحد فصول الكتاب الشيّقة، وقد أجريت له مقارنة مع الدولة الصهيونية الحديثة ومستقبلها المحتوم، مما يجعله جديراً بالمطالعة. إن الدكتور أحمد سوسة يتناول هذه المسألة الحساسة بكثير من الذكاء الخارق والكياسة الرائعة. وهنا يصل إلى تلك العبارات المليئة بالحقد والكراهية التي تعجّ بها أسفار التوراة عند كل مرة يرد فيها ذكر الكنعانيين، سكان البلاد الأصليين. فالتوراة لا تدعو لحربهم وحسب بل وتدعو إلى إبادتهم وإفنائهم أيضاً: «الرجال والنساء، الأطفال والشيوخ يجب أن يقتلوا بحدّ السيف جميعاً، فلا يبقى منهم حيّ على الإطلاق.. كما أوصى الربّ عبده موسى[1]. هذا وفيما عدا ذلك تبقى هناك المعلومات التاريخية القيّمة التي يعرضها الدكتور أحمد سوسة والتي يقرر على ضوئها أن كتاباً يوضع بعد ثمانية قرون من وقوع أحداثه يكون من الصعب عليه الاتّصاف بالأمانة التاريخية. وهذا يعني: «أن مثل تلك الأوامر والتوصيات الخاصة بالإفناء وإبادة الجنس لا يمكنها، في حال من الأحوال، أن تتوافق مع شريعة موسى، تلك الشريعة التي أوحاها الله إليه قبل ثمانية قرون من تدوينها».

وإنه لن يكون بوسع المرء إلّا أن يعجب بسموّ أخلاق ومناقب كاتب يثور على ما أتت به التوراة من مثل تلك القسوة والشراسة وعزوهما إلى الله (جلّ جلاله) وإرادته. فالدكتور سوسة يعلن عن ثورته تلك بقوله: «إن عزو مثل هذا العمل والوعد بـ «أرض كنعان» القائم على القتل وإبادة الجنس إلى الله (عزّ وجلّ)، إن هو إلّا سبّة موجّهة إلى ذات الله (جلّ جلاله)، كما أنه لا يمكن أن يكون هناك دين سماوي يأمر بإبادة الجنس البشري والفتك بالشعوب المسالمة البريئة». إن هذا القول وحده كافٍ لإدانة كل مطلب من شأنه أن يجعل من دين التوراة ديناً عالمياً. ولا غرو فالإله (يهوه)، إله التوراة إن هو إلّا «إله قبلي»، ينحصر واجبه بالعناية بقبيلته (الشعب اليهودي)، فهو يخوّلهم

(1) راجع على سبيل المثال، (عد، 31: 17)، (يش، 11: 15).

حق ارتكاب كل ما هو في مصلحتهم، من حصول على الغذاء والثراء، وامتلاك الأرض الخصبة والنساء، كما أنه يدافع عن تطلّعاتهم وشهواتهم، المحقّ وغير المحق منها، إنه باختصار يبرّر كل ما يرتكبه شعبه المختار، أو بتعبير آخر الشعب الذي أقامه إلٰهاً، من المعاصي.

ولكن، وحتى بعد الانتهاء من كتاب الدكتور أحمد سوسة، سنظل نواجه سؤالاً أساسياً وحتمياً لم يحظ حتى يومنا هذا بالجواب الشافي، إنه السؤال القائل: «من هم اليهود؟» ولعله يكون من الأسهل قول ما هم ليسوا منه، إذ يبدو أنه أصبح من المؤكد الثابت بالبرهان القاطع، وليس نتيجة لبحث الدكتور أحمد سوسة وحسب، أن لا علاقة تربط بين اليهود وقبيلة إبراهيم الخليل عليه السلام التي ساهمت في الحلّ والترحال الآرامي. ولكن، هلّا توجد حقاً رابطة دم بين الموسويين واليهود؟ وهل كانت حقاً تلك الجماعة الخارجة من مصر حملة مصرية صرفة باتجاه الشمال كما يقول الدكتور أحمد سوسة؟ ثم ألا يجدر بنا أن نقدّر للمؤرخين الرومان أقوالهم واعتباراتهم وهم الذين كانوا يعتبرون ذلك الخروج بمثابة إجلاء عصابة كبيرة من العناصر غير المرغوب فيها تتألف من طائفة من المحرّضين المشاكسين ومن أقليات مثيرة للشغب ومن بقايا شعب موبوء وغير متجانسة[1]! فما هي بالضبط اللحظة التي يمكن ابتداء الكلام منها

(1) راجع «**تاريخ تاسيتس**»، الكتاب الخامس، الفصل الثاني، راجع أيضاً «**تاريخ بومبيوس تروغس**» الكتاب السادس والثلاثين، الفصل الثاني. (رايخارت)
إن المؤرّخين الرومانيين اللذين يشير إليهما الدكتور رايخارت هما المؤرّخ تاسيتس الذي عاش في أواخر القرن الأول الميلادي (55 ـ 120 ب.م) والمؤرّخ بومبيوس تروغس الذي عاصر الإمبراطور أوغسطس (63 ق.م. ـ 14 ب.م). وهذا نصّ ما كتبه تاسيتس في هذا الصدد: «إن أكثر الكتّاب متّفقون على أن وباء وبيلاً، كان يترك تشويهاً فظيعاً في الجسم تفشّى في زمن ما في مصر. وفيما كان الملك بوخاريس يفتش عن دواء لهذا الداء الوبيل، أشار عليه كهنة آمون بأن يطهّر مملكته من هذا الجنس الممقوت من الآلهة وينقلهم إلى بلد أجنبي. وعمل الملك بهذا الرأي وأجلاهم إلى خارج المملكة حتى وجدوا أنفسهم في صحراء، وبعد أن استولى عليهم اليأس ظهر من بينهم شخص يدعى موسى بعثته يد القدر الإلٰهية ليتولّى قيادتهم وإنقاذهم مما كانوا عليه من شقاء وبؤس «**تاريخ تاسيتس**»، الترجمة الإنكليزية التي قام بها =

عن اليهود واستعمال «مصطلح يهودي»؟! وإنه لمن الغريب حقاً أن يبقى مثل هذا السؤال البدائي بغير جواب من أي نوع كان. إن نتائج بحث الدكتور أحمد سوسة الحالي تلقي أضواء جديدة على غالبية المسائل المعقّدة ولا سيما تلك التي لها صلة بالعصور السامية القديمة. وإننا لنأمل من الدكتور سوسة أن تؤدي جهوده ودراساته التي لا تكلّ إلى حلول لجميع هذه المسائل في وقت قريب.

ويبقى هناك مجال بحث لم تنته بعد دراسته دراسة وافية، أعني به مجال تلك الثقافات والمدنيات الفلسطينية القديمة التي سبقت الغزو السامي وعلى رأسها تلك الثقافة التي يُطلق عليها اسم «الثقافة الغسولية»[1]. ومما لا شك

= جورج وبرودريب المطبوعة في لندن سنة 1888، ص 194). وقد أخذ بهذه النظرية، عدا تاسيتس وبومبيوس تروغس، «ليسيماوس» (القرن الثاني ق.م.) و«مانيثون» (القرن الثالث ق.م.)، و«خاريمون» (أواسط القرن الرابع ق.م.)، و«ديودورس الصقلي» (القرن الأول ق.م.). ولقد أشرنا إلى هذه النظرية في متن الكتاب. **(المؤلف)**.

(1) «الدور الغسولي» هو أحد الأدوار الحجرية في فلسطين. وقد سمّي كذلك نسبة إلى مجموعة الهضاب المعروفة باسم «تليلات غسول» الواقعة في شرقي الأردن حيث اكتشفت، لأول مرة، بقايا حضارة عريقة في القدم.

وتعتمد حضارة هذا الدور الذي يعود إلى زمن العصر الحجري المعدني (الكالكوليثي أو البرونزي حوالي 4000 ق.م.) عبر التطور الحضاري على ثلاث مكتشفات أو اختراعات أساسية هي:

1 ـ اكتشاف المعادن: الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص واستخدام الأفران الموقدة بالفحم الخشبي لصهرها.

2 ـ اختراع المحور الدوّار أو اللولب.

3 ـ اختراع مبادىء الكتابة.

أما عن سكان فلسطين الأصليين، فإنه من الصعب جداً تحديد عرقهم بالضبط في الوقت الحاضر، شأنهم في ذلك شأن جميع السكان الأصليين في مختلف بلدان العالم. إذ إننا لا نمتلك اليوم أية معلومات ثابتة ومؤكدة عن هذا الدور الغسولي، وإن كل ما نعلمه عنه إنما هو من باب الحدس والتخمين.

وعلى العكس فقد أصبحت بحوزتنا حتى الآن معلومات وافية عن «الهجرات السامية من شبه جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب»، جميعها ثابتة ومؤكدة استناداً إلى النصوص والوثائق =

فيه أن تحديد التركيب العرقي للفلسطينيين المحدثين أصبح عسيراً إذ إنه غدا أكثر تعقيداً وأقلّ تجانساً. ولا سيما إذا ما اعتبرنا العنصر غير السامي من العهدين الحجري النيوليثي والحجري المعدني (البرونزي) بمثابة الطبقة السفلى التي جاءت الغزوات اللاحقة المتعدّدة لتفرض عليها نفسها، وتأتي على رأس تلك الغزوات أهمية غزوات الأقوام السامية (العموريين، الكنعانيين، الآراميين، البابليين، الآشوريين وعناصر بشرية أخرى من جزيرة العرب) ومن بعدها تأتي غزوات الشعوب الهندو ـ أوروبية (الحثيين، الفلسطينيين، الفرس، اليونان، القفقاسيين، الرومان وآخرين) وبعدها ولكن على درجة أقلّ في الأهمية، تأتي غزوات المغول والترك الأخيرة. وإنه لمن غير الممكن الفصل بين جميع هذه العناصر المتنافرة تنافراً شديداً والعديمة التجانس، مما يوجب تحريها ودراستها، كل عنصر على انفراد، ولهذا السبب الأكبر وحده يجب أن نعلن عن فرحتنا بصدور كتاب الدكتور أحمد سوسة الذي يلقي الأضواء على الموضوع البالغ الأهمية: «موضوع مساهمة الشعب السامي في تاريخ الشرق وإرسائه أسّس الحضارة الإنسانية».

ترجمة طبق الأصل عن النصّ الإنكليزي

رولف رايخارت

= المكتشفة حديثاً. ولعله من المفيد في هذا الصدد ألّا يغرب عن بالنا أن الساميين العرب هم مخترعو الأحرف الأبجدية وبها دوّنوا أخبارهم التي نقلها إلينا العلماء الآثاريون ملقين بذلك الضوء على الأحداث التاريخية الحقيقية.

وعلى العموم فإن جميع الوثائق التي بين أيدينا تشهد وتؤكد، بما لا يترك مجالاً للشك، أن العنصر السامي العربي هو العنصر الذي كان سائداً في منطقة الشرق الأوسط، ومن ضمنها فلسطين، منذ مطلع الحقبة التاريخية التي تناولتها وحتى الوقت الحاضر باعتبار أن الأمّة العربية الحالية إنما تؤلف أنقى العروق السامية من حيث إنها تمثّل أولئك الساميين القدامى». (**المؤلف**).

تنبيه

أولاً ـ إن المراجع في موضوع تاريخ اليهود كثيرة لا يُحصى عددها نظراً لتعدّد من تناولوه بالبحث من مختلف الجنسيات وفي مختلف اللغات، إضافة إلى اختلاف مشاربهم والتباين الشديد في وجهات نظرهم. إن أية محاولة للإلمام بجميع ما كُتب في هذا المآل هي محاولة بعيدة عن مرمى الكتاب. وقد اقتصرنا على تدوين المراجع التي أشير إليها في المتن، في الملحق الثالث منه.

ثانياً ـ يُعتبر الكتاب المقّدس، ترجمة وطبع الجامعة الأميركية في بيروت المرجع الأساس لجميع الشواهد التوراتية، وتجب العودة إلى هذا الكتاب في كل ما يختصّ بها فيما عدا الشواهد من سفريّ المكّابيين، التي تجب مراجعتها في الكتاب المقدس، طبعة المطبعة الكاثوليكية في بيروت لسنة 1960، وذلك لأن هذين السفرين غير مذكورين في المرجع الأول.

ثالثاً ـ نظراً لكثرة الاستشهادات التوراتية فقد اتّبعنا في كتابتها الطريقة نفسها المختصرة المقررة في الكتاب المقدس المرجع، ترجمة وطبع الجامعة الأميركية في بيروت، والتي يمكن تلخيصها كالتالي:

1 ـ مقطوعات اختصار الأسفار المقدّسة

آ ـ حسب تسلسلها في الكتاب المقدّس

تكوين	تك	عدد	عد
خروج	خر	تثنية	تث
لاويين	لا	يشوع	يش

قضاة	قض
راعوث	را
صموئيل	1 صم، 2 صم
ملوك	1 مل، 2 مل
أخبار	1 أخ، 2 أخ
عزرا	عز
تحميا	تح
طوبيا	طو
يهوديت	يهو
استير	أس
أيوب	أي
مزامير	مز
أمثال	أم
جامعة	جا
حكمة	حك
يشوع بن سيراخ	سي
أشعيا	أش
إرميا	إر
مراثي	مرا
باروك	با
حزقيال	حز
دانيال	دا
هوشع	هو
يوئيل	يؤ
عاموس	عا

عوبيديا	عو
يونان	يون
ميخا	مي
ناحوم	نا
حبقوق	حب
صفنيا	صف
حجي	حج
زكريا	زك
ملاخي	ملا
مكابيين	1 مك، 2 مك
متى	مت
لوقا	لو
مرقس	مر
يوحنا	يو
أعمال	أع
رومية	رو
كورونثوس	1 كو، 2 كو
غلاطية	غل
أفسس	أف
فيليبي	في
كولوسي	كو
تسالونيكي	1 تس، 2 تس .
تيموثاوس	1 تي، 2 تي
تيطس	تي
فلمون	فل

عبرانيين	عب	يوحنا	1 يو، 2 يو، 3 يو
يعقوب	يع	يهوذا	يه
بطرس	1 بط، 2 بط	رؤيا	رؤ

ب ـ حسب التسلسل الأبجدي

1 أخ	أخبار الأيام الأول	جا	سفر الجامعة
2 أخ	أخبار الأيام الثاني	حب	نبوءة حبقوق
أر	نبوءة أرميا	حج	نبوءة حجي
أس	سفر استير	حز	نبوءة حزقيال
أش	نبوءة إشعيا	حك	سفر الحكمة
أع	أعمال الرسل	خر	سفر الخروج
أف	رسالة إلى أهل أفسس	دا	سفر دانيال
أم	سفر الأمثال	را	سفر راعوث
أي	سفر أيوب	رو	رسالة إلى أهل رومية
با	نبوءة باروك	رؤ	رؤيا القديس يوحنا
1 بط	رسالة القديس بطرس الأولى	زك	زكريا
2 بط	رسالة القديس بطرس الثانية	سي	سفر يشوع بن سيراخ
تث	سفر التثنية (تثنية الاشتراع)	صف	نبوءة صفنيا
1 تس	الرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكي	1 صم	سفر صموئيل الأول
3 تس	الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكي	ح صم	سفر صموئيل الثاني
تك	سفر التكوين	طو	سفر طوبيا
تي	رسالة إلى تيطس	عا	نبوءة عاموس
1 تي	الرسالة الأولى إلى تيموثاوس	عب	رسالة إلى العبرانيين
2 تي	الرسالة الثانية إلى تيموثاوس	عد	سفر العدد

عز	سفر عزرا	نش	سفر نشيد الأنشاد (الأناشيد)
عو	سفر عوبيد	هو	نبوءة هوشع
غل	رسالة إلى أهل غلاطية	يش	سفر يشوع
فل	رسالة إلى فلمون	يع	رسالة القديس يعقوب
في	رسالة إلى فيليبي	يو	الإنجيل حسب القديس يوحنا
قض	سفر القضاة	1 يو	رسالة القديس يوحنا الأولى
كو	رسالة إلى أهل كولوسي	2 يو	رسالة القديس يوحنا الثانية
1 كو	الرسالة الأولى إلى أهل كورونثوس	3 يو	رسالة القديس يوحنا الثالثة
2 كو	الرسالة الثانية إلى أهل كورونثوس	يؤ	نبوءة يوئيل
لا	سفر اللاويين	يون	نبوءة يونان
لو	الإنجيل حسب القديس لوقا	يهو	سفر يهوديت
مت	الإنجيل حسب القديس متى	يه	رسالة القديس يهوذا
مر	الإنجيل حسب القديس مرقس	2 تس	الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكي
مرا	مراثي إرميا	تك	سفر التكوين
مز	سفر المزامير	تي	رسالة إلى تيطس
1 مك	سفر المكابيين الأول	1 تي	الرسالة الأولى إلى تيموثاوس
2 مك	سفر المكابيين الثاني	2 تي	الرسالة الثانية إلى تيموثاوس
1 مل	سفر الملوك الأول	جا	سفر الجامعة
2 مل	سفر الملوك الثاني	حب	نبوءة حبقوق
ملا	نبوءة ملاخي	حج	نبوءة حجي
مي	نبوءة ميخا	حز	نبوءة حزقيال
نا	نبوءة ناحوم	حك	سفر الحكمة
نح	سفر نحميا	خر	سفر الخروج

دا سفر دانيال

را سفر راعوث

رو رسالة إلى أهل رومية

رؤ رؤيا القديس يوحنا

زك زكريا

سي سفر يشوع بن سيراخ

صف نبوءة صفنيا

1 صم سفر صموئيل الأول

2 صم سفر صموئيل الثاني

طو سفر طوبيا

عا نبوءة عاموس

عب رسالة إلى العبرانيين

عد سفر العدد

عز سفر عزرا

عو سفر عوبيد

غل رسالة إلى أهل غلاطية

فل رسالة إلى فلمون

في رسالة إلى فيليبي

قض سفر القضاة

كو رسالة إلى أهل كولوسي

1 كو الرسالة الأولى إلى أهل كورونثوس

2 كو الرسالة الثانية إلى أهل كورونثوس

لا سفر اللاويين

لو الإنجيل حسب القديس لوقا

مت الإنجيل حسب القديس متى

مر الإنجيل حسب القديس مرقس

مرا مراثي إرميا

مز سفر المزامير

1 مك سفر المكابيين الأول

2 مك سفر المكابيين الثاني

1 مل سفر الملوك الأول

2 مل سفر الملوك الثاني

ملا نبوءة ملاخي

مي نبوءة ميخا

نا نبوءة ناحوم

نح سفر نحميا

نش سفر نشيد الأنشاد (الأناشيد)

هو نبوءة هوشع

يش سفر يشوع

يع رسالة القديس يعقوب

يو الإنجيل حسب القديس يوحنا

1 يو رسالة القديس يوحنا الأولى

2 يو رسالة القديس يوحنا الثانية

3 يو رسالة القديس يوحنا الثالثة

يؤ نبوءة يوئيل

يون نبوءة يونان

يهو سفر يهوديت

يه رسالة القديس يهوذا

2 ـ طريقة كتابة وقراءة الشواهد التوراتية:

يتألف الشاهد التوراتي من ثلاثة أجزاء، يتألف الأول منها من إحدى المقطوعات المبيّنة في الجدول السابق وهو يدلّ على الكتاب، في جملة الكتب المقدسة، المطلوب مراجعته، والقسم الثاني يتألف من عدد يتألف من رقم حتى الثلاثة أرقام ويدلّ على الفصل (ويُسمَّى إصحاحاً) المطلوب مراجعته في ذلك الكتاب، أما القسم الثالث فيتألف من رقم أو مجموعة أرقام مركّبة وتدلّ على الآيات (وتُسمّى أعداداً) المطلوب مراجعتها في ذلك الإصحاح من ذلك الكتاب. أما إذا أريد الدلالة على إصحاح بكامله فعندئذ يتبدّل القسم الثاني ويصبح حرف (ص) ويصبح القسم الثالث عدداً يتألف من رقم إلى ثلاثة أرقام يدلّ على رقم الإصحاح المطلوب مراجعته. وإليك بعض الأمثلة:

1 ـ (تك، 25: 14) راجع سفر التكوين الإصحاح الخامس والعشرين العدد 14.

2 ـ (1 أخ، 17: 6، 28) راجع السفر الأول من أخبار الأيام، الإصحاح السابع عشر العددين 6 و28 منه.

3 ـ (مز، 151: 5 ـ 12) راجع المزمور المائة والحادي والخمسين، الأعداد من 5 إلى 12، العددين 5 و12 ضمناً.

4 ـ (3 يو 12: 5، 7، 13، 22) راجع رسالة القديس يوحنا الثالثة، الأعداد 5 و7 و13 و22 فيها.

5 ـ (2 مك، 19: 8 ـ 15، 21، 34) راجع سفر المكابيين الثاني، الأعداد من 8 إلى 15 العددين 8 و15 ضمناً ثم راجع العددين 21 و24 من الإصحاح نفسه أيضاً.

6 ـ (2 صم، ص: 22) راجع الإصحاح الثاني والعشرين من سفر صموئيل الثاني بكامله.

(المؤلف)

مدخل

حملتني على وضع كتابي هذا المعنون «**العرب واليهود**[1] **في التاريخ**» عدّة حوافز، من أهمها الاعتزاز العميق بتراث العروبة والإسلام وحضارتهما والإحساس بأن الأمة العربية هي بأشدّ الحاجة في هذا الظرف بالذات لإظهار حقيقة تاريخ اليهود القديم وصلتهم بفلسطين وتعريف القارىء بأصالة عروبة

(1) نقول هنا «اليهود» ولا نقول «بني إسرائيل» لأن هذا البحث يقوم أساساً على التمييز بين عصر موسى واليهود من جهة، وبين عصر إبراهيم ويعقوب (إسرائيل) من جهة أخرى، لأنهما على ما نفهمه من التاريخ المبني على الاكتشافات الحديثة عصران منفصلان لا يرتبط الواحد منهما بالآخر بأية صلة من حيث إنه يوجد بينهما فاصل يمتد عبر الزمن أكثر من سبعمائة عام كما سنوضّح ذلك خلال هذا الكتاب. كما ونقول «العرب واليهود» وليس «اليهود والعرب» كما اعتاد الباحثون أن يفعلوا فيقدموا اسم اليهود على العرب في عناوين بحوثهم بمعنى أن اليهود هم الأقدم وأن العرب فرع متأخر (انظر على سبيل المثال عناوين كتب «ألم» (Alem) وكويتن (Goiten) وباركس (Parkes) في ثبت المراجع الأجنبية)، لأن العرب هم الساميون الأصليون الذين أسّسوا أقدم الحضارات السامية في الشرق الأدنى، أما اليهود فقد ظهروا في وقت متأخر ولم يتركوا أية حضارة قديمة خاصة بهم إذ إنهم اقتبسوا حضارة الكنعانيين، أهل البلاد الأصليين، ثم أخذوا بالعبرية المقتبسة من الآرامية (العربية الأصل). ومن الغريب حقاً أن المؤرّخين الغربيين أصبحوا، بصورة لا شعورية، لا يتذكرون من أرض فلسطين إلا أنها «بلاد اليهود». فهذا هو المؤرّخ الشهير «ويلز» (Wells) على سبيل المثال، الذي يقول في كتابه الواسع الانتشار «**معالم تاريخ الإنسانية**» إن فلسطين هي بلاد الكنعانيين يعود ليسمّها «بلاد اليهودية». وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على مدى تأثير الكتابات اليهودية على تفكير الباحثين والكتّاب منذ أقدم العصور بحيث أصبح من العسير جداً تغيير المفاهيم التي تواترت، عبر أكثر من ألفين وخمسمائة سنة على أسماع الناس، وهي ما تزال مقبولة منهم.

فلسطين منذ خمسة آلاف عام. ومع علمي بما ينطوي عليه هذا الموضوع من تفرّعات شائكة وحساسة اختلفت فيها الآراء وتضاربت فيها النزعات والميول، ومع علمي علم اليقين بأنه ليس من السهل تغيير المفاهيم التاريخية المتواترة منذ أكثر من ألفين وخمسمائة عام والتي تناقلتها الأجيال جيلاً بعد جيل بتأثير التوراة، فقد أقدمت عليه مستمداً من المبادىء العلمية التي تستند إلى المنطق والعقل السليم الجرأة على خوض هذا الموضوع بغية التوصّل إلى الحقيقة في مجال التفكير الإنساني القويم. ومما أعانني على التوغّل في هذا البحث دراساتي الطويلة المتواصلة مدة أكثر من أربعين سنة لأصل الحضارات السامية في وادي الرافدين وعلاقتها بالريّ والزراعة، **والمعلوم أن حضارة وادي الرافدين القديمة مرتبطة ارتباطاً كلياً بحضارة الشرق الأدنى من ضمنه فلسطين، كوحدة جغرافية واحدة لا تقبل الانفصال. وهل ننسى أن تحرير أرض فلسطين من اليهود بالقضاء على مملكتي إسرائيل ويهوذا قد تمّ على يد الآشوريين والكلدانيين الذين جاؤوا من قلب العراق قبل أكثر من ألفين وخمسمائة سنة؟ . .**

وهناك دافع آخر حملني على خوض هذا الموضوع، هو الصراع القائم منذ أقدم العصور ولا يزال قائماً حتى هذا اليوم بين الشرق والغرب، بين الساميين العرب وبين الأمم غير السامية، ذلك الصراع القديم الذي بدأ بفلسطين منذ الحروب الصليبية وانتهى بفلسطين أيضاً حيث غرس الاستعمار إسرائيل في قلب الوطن العربي. وهذا الصراع عريق في القدم، فقد استقرّ السومريون غير الساميين منذ فجر التاريخ في جنوبي العراق وأسّسوا أول حضارة في تاريخ الإنسانية وعاش إلى جوارهم شمالاً الأكديون الساميون نازحين من شبه جزيرة العرب إثر الجفاف الذي حلّ بوطنهم، فاقتبس الساميون الكثير من أسباب الحضارة السومرية وثقافتها وديانتها. وهذا شأن الحضارات عبر التاريخ حيث تقتبس الواحدة من الأخرى مقوّماتها الثقافية والدينية والاجتماعية في أكثر الحالات.

ودام هذا الصراع بين الأكديين الساميين النازحين من جزيرة العرب وبين السومريين غير الساميين عدّة قرون تخلّلها احتكاك واختلاط بين العنصرين حتى تغلّب الساميون الأكديون على السومريين وكوّنوا أول إمبراطورية في تاريخ

الساميين، ثم تبعتها الإمبراطورية البابلية التي ظهر فيها الملك حمورابي المشرّع الشهير وقامت بعدها الإمبراطوريتان الآشورية والكلدانية.

ولا يزال هذا الصراع بين الشرق والغرب مستمراً حتى هذا اليوم بصورة خفية أو علنية، فخلق لنا الغرب الحركة الأوروبية الاستعمارية، وخلق إسرائيل شوكة في قلب الأمة العربية، وخلق القضية الفلسطينية التي لا تزال تدورٌ في دوامة مفرغة من القلق والاضطراب.

فبدا لي وأنا أدرس تاريخ حضارات العراق القديم وصلته بالري والزراعة بأن تاريخ الساميين العرب يجب أن يُكتب من جديد في ضوء المكتشفات الآثارية الحديثة بلا تميّز استعماري ولا تعصب عنصري على يد أبناء الأمّة العربية. إن كل بلاد العالم هي التي تكتب تاريخها إلّا الأمة العربية التي تركت للمستعمرين الأجانب أن يكتبوا تاريخها كما يشاؤون وفق رغباتهم ونزعاتهم السياسية.

كما أنه بدا لي أن اليهود كتبوا تاريخهم في بابل حين كانوا في الأسر وكتبوه حسبما أملته عليهم أهواؤهم ونزعاتهم الدينية والسياسية، لذلك يجب أن يُكتب هو الآخر من جديد في ضوء المكتشفات الآثارية والمصادر التاريخية.

كانت حصيلة هذا النزاع الفكري ظهور كتابي «العرب واليهود في التاريخ» الذي استعرضت فيه تاريخ الحضارة السامية العربية ودور جزيرة العرب في نشوئها، ثم استعرضت تاريخ اليهود القديم مستنداً إلى الحقائق التاريخية في ضوء المكتشفات الآثارية الحديثة.

وانطلاقاً من هذا الفكر نفسه أكّد المؤتمر في المهرجان التكريمي الذي أُقيم في بغداد مؤخراً للعلّامة توينبي في 25/ 10/ 1977 هذه الناحية بضرورة كتابة تاريخ الأمة العربية بروح موضوعي وبأسلوب علمي، وقد عُقد هذا المؤتمر تحت شعار «المؤرّخون العرب يؤكدون ضرورة كتابة تاريخ الأمة العربية بروح موضوعية وبأسلوب علمي» والأمل أن توضع هذه الأمنية حيّز التنفيذ خدمة للتاريخ.

والبحث الذي أقدمه هو حصيلة تحقيق واجتهاد عمر كامل قضيت **الشطر الأكبر** منه في ملاحقة الحقيقة أينما وجدت وكيفما كانت. . وإني إذ أقدم هذا البحث أترك للقارىء أو الباحث أن يأخذ بما يقتنع به من الآراء الواردة في الكتاب أو يرفض ما لا يريد منها. إنما المهم هو أن نتجرّد من العواطف والميول وأن نبحث هذا الموضوع الخطير بالطريقة العلمية ونركن إلى المنطق والعقل السليم في الاجتهاد والعمل للتوصل إلى الحقيقة التي ننشدها جميعاً. ومن القول الشريف «**للمجتهد إن أصاب أجران وإن أخطأ أجر واحد**».

لقد كتب كثيرون وبحث عديدون في تاريخ اليهود وفلسطين حتى أصبحت لدينا آلاف مؤلفة من الكتب والمعاجم والقواميس، وكلها تبحث في تاريخ اليهود وكتبهم المقدّسة بحيث لا يخرج القارىء الغريب عن الموضوع إلّا وقد انطبع في ذهنه بأن اليهود هم بناة الحضارة، وهم دعاة عقيدة التوحيد، وهم مؤسّسو الثقافة العالمية الخ. . . والكتّاب الذين اندفعوا في هذا الاتجاه فريقان، يتألف الفريق الأول من رجال الدين، اليهود والنصارى، المتعصبين للتوراة وهم الأكثرية، أما الفريق الثاني فيتألف من علماء وكتّاب، انخرطوا في سلكهم، وكانوا قد أخذوا على عاتقهم تقصّي الحقائق التاريخية لكن أكثرهم أصبحوا من غير أن يشعروا دعاة لليهود قبل أن يتوصلوا لأن يكونوا روّاد علم وحقائق.

ومن الثابت أن سكان فلسطين الأصليين القدماء، وقد كانوا كلّهم عرباً من العنصر السامي، هاجروا من جزيرة العرب إثر الجفاف الذي حلّ بها، فعاشوا في وطنهم الجديد «كنعان» أكثر من ألفيّ عام قبل ظهور النبي موسى وأتباعه على مسرح الأحداث، وقد أخذ الموسويون بعد ظهورهم في أرض كنعان بلغة الكنعانيين وثقافتهم وحضارتهم وتقاليدهم. هذه حقيقة تاريخية ثابتة، أيّدتها المكتشفات الآثارية الأخيرة، وأخذ بها العلماء بالإجماع تقريباً.

إلا أن أكثر العرب الذين كتبوا في تاريخ حضارة العرب، لم يتناولوا هذا الدور في بحوثهم إلّا عرضاً، ولعلّ مرد ذلك إلى اصطباغ مصادره بصبغة اختصاصية تنحصر بالبحوث الآثارية. لذلك انحصرت بحوثهم في عصور الجاهلية على الأكثر، تاركين بذلك فراغاً في تاريخ الأدب العربي يمثّل طيلة فترة ما قبل النبي موسى، وهي الفترة التي عدّها اليهود بداية تاريخهم من غير

أيّ سند علمي أو واقع تاريخي، وقد جاراهم في ذلك حتى الكتّاب العرب معتمدين على الكتابات اليهودية والأجنبية التي قبلوها على علّاتها من غير تمحيص. ولقد صدق زميلي في الدراسة المجاهد العربي الأستاذ أكرم زعيتر حين قال: «إن إسرائيل قد استعانت على اغتصاب بلادنا بتزييف الحقائق أكثر مما عنينا نحن بإيضاحها».

ولم يكتفِ اليهود بأن جعلوا تاريخهم يرجع إلى عهود قديمة لم يكن لهم أيّ وجود فيها، بل ساروا على هذا النحو في إرجاع لغتهم العبرية إلى عهود قديمة لم يكن لهم أيّ وجود فيها، فقد اعتبروا وجود لغتهم العبرية أي اليهودية قبل دخولهم أرض فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وأطلقوا عليها اسم «عبرية التوراة» (Biblical Hebrew) في حين أن العبرية التي كتبوا بها التوراة مشتقة من الآرامية ولم تظهر إلّا بعد مرور أكثر من ستمائة عام على دخول اليهود أرض فلسطين فكتبوا العهد القديم بها، والغريب أنّ أكثر الباحثين قد أخذوا بهذا التزييف للواقع التاريخي. على الرغم من اعتراف التوراة ذاتها بأن اللغة القديمة هي لغة كنعان[1].

وفي أسطورة من أساطير «الزوهر» أن الاثني والعشرين حرفاً من الأبجدية العبرية (المُقتبسة من الآرامية) نزلت من السماء قبل الخليقة بستة وعشرين جيلاً وأنها نُقشت بنار ملتهبة، والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: «على من ولمن أُنزلت تلك الحروف قبل أن توجد الخليقة»؟.

وقد عبّر الخبير القانوني هنري كتن عن تأثير الدعاية الصهيونية المضللة في الأوساط العالمية أحسن تعبير حين قال: «إن حقيقة مشكلة فلسطين قد ظهرت تحت أطباق من التضليل المعتمد والوقائع الشائهة والدعاية المخادعة التي تراكمت على توالي الحقب. والمراقبون العدول، ومنهم الكنديون والسويديون والأمريكان، الذين أُتيح لهم أن يعالجوا قضية فلسطين بوصفهم موظفين معتمدين من الأمم المتحدة، قد لاحظوا كيف كانت تشوّه الوقائع، كما لاحظوا صعوبة عرض وجهة النظر العربية أمام الرأي العام العالمي».

---

(1) راجع (أش، 19: 18).

ومضى يؤكد «أن الصهاينة يملكون شبكة من وسائل الإعلام، صحافة، إذاعة وتلفزيون، في عدد من بلدان العالم. وأن جهاز الدعاية الصهيونية بكل تشعباته الكثيرة وبقوّته الفائقة وتنظيمه الكفء وموارده المالية غير المحدودة وقدرته على أن يعمل داخل كل دولة باعتباره يمثّل كياناً داخلياً قومياً، إنما يعدّ خطراً على العالم، لأن قدرته على تزييف الأخبار هائلة ولأن في وسعه أن يقود الرأي العام العالمي وأن يضلله حسب هواه في أي أمر من الأمور، ويحمله على تأييد إسرائيل بغضّ النظر عن الحق والصواب والعدل»[1].

ويصدق ذلك بوجه خاص على الناحية التاريخية من كيان فلسطين القديم، فالمكتبة العربية خالية من أية دراسة علمية تتّسم بالحياد التام والحرص على إظهار الحقائق التاريخية بدون التعصّب إلى أية جهة كانت، ممّا يدعو إلى ضرورة سدّ هذا الفراغ بدراسة علمية لتاريخ فلسطين القديم تساعد على إفهام هذه الناحية المهمة من واقعنا التاريخي وتراثنا العربي المجيد.

ومن أهم ما أبتغيه في بحثي هذا هو تعريف القارىء بحقيقة تاريخ فلسطين القديم قبل ظهور النبي موسى وأتباعه على مسرح الأحداث، ومن ضمن ذلك دور الحضارة العربية في تكوين المجتمع الفلسطيني القديم، **وتصحيح الخطأ الشائع الذي وقع فيه أكثر الكتّاب والمؤرّخين العرب من إرجاع تاريخ اليهود إلى عهود قديمة لم يكن لهم أي وجود فيها**، وقد تقيّدت، فيما كتبت، تقيداً تاماً بالأسلوب العلمي مثبتاً المظان أينما استوجب ذلك، سوى الاستنتاجات والآراء الشخصية التي أبديتها استناداً إلى تلك المظان. وأنا حينما أعرض آراء الباحثين الأجانب بوجه خاص وأُشير إلى نظرياتهم المستندة إلى دراساتهم واكتشافاتهم الآثارية فيما يتصل بموضوع هذا البحث، وهي نظريات وآراء قد يكون فيها ما لا ينسجم مع التقاليد والمفاهيم الشائعة، إنما أقوم بذلك لاعتقادي بأنه لا يصحّ أن يبقى العرب في معزل عمّا يبحثه الأجانب في موضوع يتعلّق بصميم حياة الأمة العربية وتاريخ فلسطين. وإني أرى أن الوقت حان لكي يدخل العرب حلبة المعركة العلمية ويناقشوا ويبحثوا

---

(1) «**فلسطين في ضوء الحق والعدل**»، ص 149 ـ 150.

هذه المواضيع التاريخية الحيوية بالطريقة العلمية التي هي طريقة هذا العصر. ومعالجة المواضيع بهذه الطريقة إنما تتطلّب منّا أن نفتح صدرنا للحقائق التاريخية المستندة إلى التمحيص العلمي.

لقد أرجع بعض الباحثين تاريخ اليهود إلى زمن الأكديين في العراق، في حين أن الأكديين كانوا قد ظهروا قبل عصر النبي موسى بأكثر من ألفين وخمسمائة سنة، ذلك لأن الأكديين نزحوا من جزيرة العرب إلى شواطىء الفرات حوالى 4000 قبل الميلاد، أما اليهود أتباع موسى فإنما ظهروا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد أي بعد الأكديين بـ 2700 سنة، وربط باحثون آخرون بداية تاريخ اليهود بزمن إبراهيم الخليل عليه السلام، في حين أنهم لم يظهروا إلّا بعد إبراهيم الخليل بسبعمائة عام. وربط فريق ثالث تاريخ اليهود بزمن الهجرات السامية العربية إلى الهلال الخصيب، وهذه الهجرات إنما حدثت قبل وجودهم بنحو ألفيّ عام. لقد وقع هؤلاء جميعاً في هذه الأخطاء بسبب إهمالهم ملاحظة التسلسل الزمني، الذي تعمّد كتبة التوراة إهماله، ليسهل عليهم ربط تاريخهم بعهود قديمة سبقت وجودهم، فأدخلوا التشويش على ذهن القارىء بحيث أصبح تائهاً بين العصور **لا يدري أهو في عصر إبراهيم أم في عصر موسى ويشوع أم في عصر اليهود؟ ومن أهم مقاصد هذا البحث هو شرح الفارق الذي يميّز بين عصر إبراهيم الخليل العربي وبين عصر موسى واليهود باعتدادهما عصرين منفصلين لا صلة للواحد بالآخر. وكذلك التمييز بين عصر موسى من جهة وعصر اليهود من الجهة الأخرى، وبذلك التمييز بين التوراة التي أُنزلت على النبي موسى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وبين التوراة التي كتبها اليهود في الأسر بعد ثمانمائة عام من عهد موسى وبعد ألف وخمسمائة عام من عهد إبراهيم الخليل ونسبوها إلى موسى وإبراهيم الخليل زوراً.**

لقد كانت التوراة قبل الاكتشافات الآثارية الأخيرة المصدر الأساس الذي يرجع إليه الباحثون في تدوين تاريخ فلسطين القديم ودور اليهود فيه باعتدادها أقدم كتابة في التاريخ القديم، فضلاً عن ادّعاء قدسيتها، مما وضعها خارج نطاق التحليل التاريخي العلمي. وقد بقيت على هذا النحو قروناً عديدة

لانعدام الأدلة والبراهين القاطعة حتى كشفت لنا الكتابات التي خلّفها الأقدمون الذين سبقوا عهد التوراة ـ وهم السومريون والأكديون والكنعانيون (الفينيقيون) والحثيون والبابليون والآشوريون والمصريون ـ عن كثير من الأمور الغامضة. وتمتاز هذه الكتابات في كونها عاصرت الأزمنة التي تعود إليها، بخلاف التوراة التي تنقل أحداثاً ترجع إلى عهود بعيدة وأزمنة سبقتها بعشرات القرون. ويعدّ العلماء هذه الكتابات، التي عُثر على جزء قليل منها، أعظم إنجازات الإنسان في هذا العصر. وهذه المراجع تزوّدنا بالبراهين والبينات التي كانت تعوز من سبقنا من الباحثين لتقرير بعض الحقائق عن العصور التاريخية القديمة والخروج بها من دائرة الحدس والظن إلى استنتاجات معقولة ومقبولة من العقل السليم.

ومن أهم ما أوضحت لنا هذه الاكتشافات، المكاسب التاريخية العلمية الآتية:

1 ـ تشخيص أكثر مواقع المدن والأماكن التي ورد ذكرها في هذه المدوّنات القديمة وفي كتابات التوراة مع تحديد أزمانها.

2 ـ تعيين تواريخ الحوادث بصورة مضبوطة بحسب تسلسلها الزمني، وتوضيح علاقة الأقوام بعضها ببعض، وتعيين أدوارها وخاصة هجرة الأقوام بوجه عام وتطور ثقافاتها ولغاتها.

3 ـ تتبّع أزمان الهجرات السامية من جزيرة العرب إلى فلسطين وإلى بلاد الهلال الخصيب قبل ظهور النبي موسى.

4 ـ تعيين زمن الحوادث التاريخية الوارد ذكرها في التوراة بالقياس إلى الوقائع الحربية والسلالات الحاكمة في كل عصر من العصور بحسب تسلسلها الزمني.

5 ـ توصل الخبراء إلى أن الكثير مما ورد في التوراة من قصص وأساطير وشرائع يرجع إلى أصل قديم، وجد مثيله أو ما يشابهه في المدوّنات السومرية والأكدية والكنعانية والبابلية والآشورية والمصرية مما يدلّ على أنه ليس لليهود أدب مبتكر أو ثقافة خاصة بهم، «وإنّما اقتبس كهنتهم من هذه

المدوّنات كل ما ارتأوه جديراً بأن يحتويه تاريخ مؤسّسي الجنس اليهودي، وحذفوا بلا هوادة كل ما لم يلق استحسانهم»[1].

6 ـ توصل الخبراء إلى أن مواد عديدة في التوراة مأخوذة من شريعة حمورابي والشرائع القديمة الأخرى، وأن أكثر التراتيل والتسابيح الدينية التي وردت في التوراة مقتبسة من الكنعانيين وقد عُثر عليها في «فينيقيا»، ثم ترجمت في وقت لاحق من اللغة الكنعانية الفينيقية إلى العبرية وأُدخلت في التوراة.

7 ـ توصل الخبراء إلى أن شرائع التوراة هي الشرائع نفسها التي كان يمارسها الكنعانيون والبابليون والمصريون من قبل، وقد اقتبسها اليهود منهم ومارسوها ثم أدخلوها في كتبهم المقدسة.

8 ـ ثبوت كون اليهود غرباء دخلاء على فلسطين وأن كل ما يملكون من المقوّمات الثقافية، ومن ضمنها لغتهم وكتابهم المقدس، مقتبس من الحضارتين الكنعانية والآرامية وهما من أصل عربي، وأن الأسماء الواردة في التوراة، سواء كانت أسماء أشخاص أو أسماء أماكن قديمة في فلسطين، هي من أصل كنعاني أي سامي ـ عربي ترجع إلى ما قبل ظهور اللغة العربية بزمن بعيد.

9 ـ ثبوت كون اليهود عاشوا في فلسطين وهم أقلية بين السكان الأصليين طيلة مدة مكوثهم فيها.

10 ـ ثبوت عجز اليهود في أي دور من أدوار التاريخ عن إنشاء دولة مدنية زمنية تضمّ كلّ فلسطين.

ويسود الشعور الآن بين الكتّاب المحدثين أن الوقت قد حان للكشف عن صلة الثقافة اليهودية، ومن ضمنها الديانة اليهودية، بالثقافات السامية القديمة، فيقول الأستاذ «هوك» في مقدّمة كتابه «أصول الديانات السامية القديمة»: **«إننا الآن في وضع أكثر ملاءمة من أي وقت مضى لتوضيح علاقة العناصر الأساسية للديانة اليهودية، بشبكة الشعائر الدينية التي كانت سائدة في البيئة السامية القديمة من وجهة نظر تاريخية جديدة».**

---

(1) انظر: إدوار كييرا، «**كتبوا على الطين**»، الترجمة العربية، ص 154.

ونحن نقول: لقد آن الأوان للباحثين أن يتحرروا من التقيّد بمدوّنات التوراة في بحث التاريخ اليهودي، وأن عليهم أن يتوغلوا في أحدث الاكتشافات للنصوص القديمة التي سبقت عصر التوراة بعشرات القرون، فمهّدت السبيل للتمييز بين الغث والسمين واقتفاء التواريخ بحسب تسلسلها الزمني، **كما آن الأوان لكتابة تاريخ الأمة العربية من جديد في ضوء الاكتشافات الآثارية والتطور الفكري في العالم.** فقد أصبحنا الآن، بحكم الواجب القومي، مسؤولين أكثر من أي وقت مضى عن دعم الحركة الثورية العربية بدراسة علمية مجرّدة من الميول والعواطف نحو المسألة اليهودية، تساعد على فهم طبيعة العدوّ بشكل يجعل الأمة العربية أكثر تيقّظاً واستعداداً لمجابهة الادّعاءات الصهيونية الوهمية بالسلاح العلمي المبني على أسس رصينة موضوعية. ونرجو أن يكون هذا البحث محفزاً لبحوث أخرى تظهر تباعاً في العالم العربي لتنوير الرأي العام والجيل الجديد الذي ما يزال يتخبّط في خضمّ مختلف الكتابات المشبّعة بروح التعصّب بدلاً من الحقائق التاريخية المجرّدة، إذ علينا أن نبرهن للعالم بالطريقة العلمية أن اليهود ليسوا أصحاب حضارة وأن الحضارة الفلسطينية التي ينسبونها لأنفسهم، بما فيها عقيدة التوحيد، هي حضارة سامية عربية كنعانية اقتبسوا منها لغتهم وديانتهم في وقت لاحق وأن كل ما ورد في توراتهم من وعود بمنحهم فلسطين باعتبارهم الشعب المختار وما شابه هذه الأساطير إن هي إلّا من نسج الخيال ومن ترتيب كتبة التوراة بعد عصر النبي موسى بعدّة قرون، وأن كل ما ورد في التوراة من الأسماء التي بنوا عليها أساطيرهم هي من أصل كنعاني وحتى إلٰههم (يهوه) لم يكن سوى كبير آلهة القينيين (والقينيون من القبائل العربية التي سكنت أرض مديان) وكل الوثائق والمكتشفات الآثارية التي بين أيدينا تدعم ذلك.

ويؤكد الدكتور أحمد شلبي الانحراف الذي غمر كتابات اليهود عن الأديان والحاجة إلى تصحيحها وتحقيقها فيقول: «إن أكثر الذين كتبوا عن الأديان هم من اليهود أو من تلاميذهم، فالمدرسة اليهودية عن الأديان سبقت كل المدارس تقريباً وأثّرت فيها. وقد أدّى ذلك إلى كثير من الاضطراب العلمي، فاليهود استخدموا كل وسائلهم وكل مواهبهم لا ليخدموا الحق وإنما

ليخدموا أهدافهم في فلسطين، فتركوا للناس تراثاً حافلاً بالانحراف يحتاج تصحيحه إلى جهد كبير». ومضى يقول: «ليس الغربيون وحدهم هم الذين خدعهم ما كتبه اليهود، بل إن كثيرين من العرب والمسلمين خدعوا أيضاً»[1].

وقبل الدخول في هذا البحث لا بدّ من توضيح نقطة مهمة تتعلّق بأربع تسميات سوف تعترضنا في مجرى الحديث ،وقد جرت العادة على اعتبارها أربع تسميات لمسمّى واحد ذات مدلول واحد يمثّل جميع الأدوار دون تمييز، في حين أن كلّاً منها تمّ تداوله في عصر خاص به وله مدلوله الخاص أيضاً ويختلف عمّا هو مقصود به في التسميات الأخرى، ونعني بها: العبرانيين أو العبريين، ثم الإسرائيليين، فالموسويين (قوم موسى)،فاليهود.

I ـ أما مصطلح «العبري» أو «العبراني» فكان يُطلق في نحو الألف الثانية قبل الميلاد وفيما قبل ذلك على طائفة من القبائل العربية في شمال جزيرة العرب في بادية الشام وعلى غيرهم من الأقوام العربية في المنطقة، حتى صارت كلمة عبري مرادفة لابن الصحراء أو ابن البادية بوجه عام. وبهذا المعنى وردت كلمة «الابري» و«الهبيري» و«الخبيرو» و«العبيرو» في المصادر المسمارية والفرعونية، **ولم يكن للإسرائيليين والموسويين واليهود أي وجود بعد.** لذلك فإن نعت إبراهيم الخليل بـ «العبراني» كما ورد في التوراة إنما أريد به معنى العبريين «العبيرو» وهم القبائل البدوية العربية. ومنها القبائل الآرامية العربية التي ينتمي إليها إبراهيم الخليل نفسه، وبهذا المعنى وردت كلمة «عبري» و«عبيرو» و«خبيرو» في الكتابات القديمة التي اكتُشفت مؤخراً، وهي تعود إلى ما قبل وجود الإسرائيليين والموسويين واليهود بعدّة قرون. لذلك يجب التمييز بين العبري من جهة وبين الإسرائيلي أو الموسوي أو اليهودي من جهة أخرى في بحث تاريخ فلسطين القديم. ودليلنا على ذلك أن مصطلح «عبري» أو «عبراني» لم يرد في القرآن الكريم مطلقاً وإنما ورد فيه ذكر «الإسرائيليين» و«قوم موسى» و«يهود» ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾. ويتّضح من ذلك أن **عصر إبراهيم الخليل هذا هو عصر عربي قائم بذاته** ليست له أية صلة بعصر

(1) الدكتور أحمد شلبي، **«مقارنة الأديان اليهودية»**.

اليهود، وقد نبّه القرآن الكريم إلى هذه الناحية بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[1] ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[2]، أمّا كلمة عبري للدلالة على اليهود فقد استعملها الحاخامون بهذا المعنى في وقت متأخر في فلسطين[3].

2 ـ أما مصطلح «إسرائيل» فالمقصود به يعقوب حفيد إبراهيم الخليل وأبناؤه هم بنو إسرائيل الذين ورد ذكرهم في الأسفار ودورهم محضور في منطقة «حاران» (حرّان حالياً) **حيث وطنهم الأصلي الذي ولدوا ونشأوا فيه. أما فلسطين فهي أرض غربتهم وقد وجدوا في القرن السابع عشر قبل الميلاد، وهو عهد إبراهيم الخليل نفسه.** وكانت اللغة في هذه المنطقة في ذلك الزمن لغة واحدة (اللغة الأم) التي كان يتكلم بها أبناء الجزيرة العربية قبل هجرتهم إلى الهلال الخصيب، أي قبل أن تتفرّق هذه اللغة إلى اللهجات المختلفة كالكنعانية والآرامية والعمورية وغيرها. وهكذا كانت لغة العشائر الآرامية التي كان ينتمي إليها إبراهيم الخليل هي اللغة نفسها التي كان يتكلم بها الكنعانيون والعموريون في فلسطين وهي قريبة جداً من اللغة الأم. وأما حفيده يعقوب (إسرائيل) فالأرجح أنه كان يتكلم اللغة نفسها وهو آرامي مثل إبراهيم بحكم النسب. كما أنه من الأرجح أن أبناء يعقوب (بني إسرائيل) في زمن يعقوب كانوا يتكلمون اللغة نفسها، **وهذا ما يمكن تسميته بالدور الأول الذي عاش فيه إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب وأبناؤه. وهؤلاء كلهم كانوا يدينون بدين إبراهيم الخليل وحفيده يعقوب. وقد أظهرت الاكتشافات الأخيرة أن كلمة «إسرائيل» كانت اسماً لموضع في فلسطين وهي تسمية كنعانية، وبهذا المعنى وردت في الكتابات المصرية التي ترجع إلى ما قبل عصر موسى، كما أن أسماء أبرام (إبراهيم) ويعقوب ويوسف وردت في الكتابات المصرية وهي تعود إلى ما قبل عصر موسى مما يدلّ على أنها كنعانية أيضاً.**

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 65.

(2) سورة آل عمران، الآية: 67.

(3) **دائرة المعارف البريطانية**، طبعة 1965، ج 11، ص 379.

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن فلسطين كانت أرض غربة بالنسبة إلى إبراهيم وولده إسحاق وحفيده يعقوب (إسرائيل)، وذلك بتأكيد التوراة ذاتها، لأنهم كانوا مغتربين بين الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين وبخاصة بني إسرائيل الذين ولدوا جميعهم في «حاران» ونشأوا فيها كما تقدّم.

وقد انتهى هذا الدور الذي ظهرت فيه تسمية «إسرائيل» بعد أن هاجرت أسرة يعقوب إلى مصر وانضمّت إلى يوسف على قول التوراة، فاندمجت وذابت في البيئة المصرية كلياً.

3 ـ ثم جاء الدور الذي يبدأ بتداول تسمية موسوي أو «قوم موسى»، والقوم مصطلح عام للدلالة على جماعة من الناس، ويبدأ هذا الدور بعد الدور الذي تداولت فيه تسمية إسرائيل بزهاء ستمائة عام. والموسويون كما تدلّ الأحداث هم من الجنود الفارّين على أرجح الاحتمالات تصحبهم جماعة كبيرة من بقايا الهكسوس، وهؤلاء كانوا يدينون، هم والنبي موسى، بدين التوحيد الخالص الذي دعا إليه أخناتون فرعون مصر وهو الدين الذي يدعو إلى عبادة الإلٰه الواحد إلٰه جميع المخلوقات عن طريق نشر الإخاء العالمي بين الإنسان وأخيه الإنسان، وهو غير دين اليهود الذي يدعو إلى عبادة الإلٰه (يهوه) الخاص بهم بوصفهم الشعب المختار، وقد نسبه كتبة التوراة في وقت لاحق إلى موسى زوراً. ولعلّ فكرة التوحيد الخالص دخلت إلى مصر عن طريق هجرة يعقوب وأولاده إلى مصر قبل أخناتون بعدّة قرون وبذلك تكون الديانة التي دعا إليها موسى هي ديانة إبراهيم الخليل نفسها. وقد اضطرَّ موسى وأتباعه تحت ضغط الوثنيين واضطهادهم لهم بعد موت أخناتون إلى الهرب من مصر والتوجّه إلى أرض كنعان (فلسطين) لإيجاد مأوى لهم فيها، وكان ذلك في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وهؤلاء هم قوم موسى كما ورد اسمهم في القرآن الكريم، والقوم كما ذكرنا سابقاً هم جماعة من الناس دون تحديد جنسيتهم، وهم **بطبيعة الحال كانوا يتكلمون باللغة المصرية وبها نقل النبي موسى**ﷺ **الشريعة والوصايا العشر وكتبت بالهيروغليفية التي تعلّمها في بلاط فرعون.** ويستدل الباحثون من المدوّنات التاريخية القديمة على أن موسى كان قبل أن يوحى إليه بالنبوّة قائداً مصرياً في الجيش المصري واشترك في الحرب

ضد الحبشة واسمه اسم مصري بحت وقد تربّى في البلاط الفرعوني وتزوّج من امرأة أثيوبية في الحبشة على قول التوراة ويوسفوس. وشريعة موسى هذه لم يعثر على أيّ أثر لها. **ثم أخذ هؤلاء الموسويون بلغة كنعان وثقافتها وتقاليدها ومارسوا حتى ديانتها الوثنية في أكثر فترات وجودهم بين الكنعانيين وسكّان فلسطين الأصليين، وانحرفوا عن ديانة موسى وشريعته. هؤلاء هم الذين صاروا يُعرفون فيما بعد باليهود.**

4 ـ أما تسمية «يهود» فهي التسمية التي أطلقت على بقايا جماعة يهوذا الذين سباهم نبوخذ نصّر إلى بابل في القرن السادس قبل الميلاد، وقد سمّوا كذلك نسبة إلى مملكة يهوذا المنقرضة. وقد اقتبس هؤلاء قبيل السبي لهجتهم العبرية المقتبسة من الآرامية وبها دوّنوا التوراة التي بين أيدينا في الأسر في بابل، أي بعد زمن موسى بثمانمائة عام. لذلك صارت تُعرف هذه اللهجة «بآرامية التوراة» وقد استعملوا الحرف المسمى بالربع وهو مقتبس من الخط الآرامي القديم. وهذه بلا شك غير الشريعة التي أُنزلت على موسى، **ويمكن أن نطلق عليها اسم «توراة اليهود» لتمييزها عن «توراة موسى»**. وكان هؤلاء اليهود، عندما دوَّنوا التوراة، قد استهدفوا تحقيق غرضين رئيسيين، أولهما تمجيد تاريخهم وجعل أنفسهم صفوة الأقوام البشرية والشعب المختار الذي اصطفاه الرب من دون بقية الشعوب. ولتحقيق ذلك كان لا بدَّ من إرجاع أصلهم إلى أقدس شخصية قديمة، أي شخصية إبراهيم الخليل الذي كان صيته قد عمّ جميع أرجاء عالمهم في تلك الأزمان. وقد حالفهم النجاح في سرد تاريخهم حسب أهوائهم بلباقة ومهارة لم يسبق لهما نظير في الأدب القديم، وأضفوا عليه صبغة دينية ليضمنوا تقبله من أتباعهم. **وهكذا فقد أرجعوا تاريخهم إلى إبراهيم الخليل وإلى حفيده يعقوب (إسرائيل)، فسموا جماعة موسى ببني إسرائيل على الرغم من كونهم ظهروا بعد إسرائيل بزهاء ستمائة عام، وذلك بغية ربط أصلهم بإبراهيم الخليل، وابتدعوا فكرة الشعب المختار التي كان إبراهيم الخليل ويعقوب وموسى بريئين منها**. ثم جعلوا بني إسرائيل الموضوع الرئيسي الذي تدور حوله جميع الحوادث الواردة في التوراة، فعدّتهم التوراة موجودين في كل زمان وفي كل مكان حتى في الأدوار التي

سبقت ظهور يعقوب إلى عالم الوجود. فقد اعتبرت وجود بني إسرائيل في عصر إبراهيم الخليل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد قبل أن يخلق يعقوب (إسرائيل)!! كما أنها عدّت وجودهم بعد عهد أبيهم يعقوب بحوالي ستمائة عام، أي في عهد موسى عندما دخلت جماعته أرض كنعان (فلسطين) خارجة من مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ثم اعتبرت وجودهم في جميع الأدوار والأحداث التالية ومن ضمنها عهد الملوك وعهد الانقسام وما تلا ذلك، وحتى يهود الخزر الذين اعتنقوا اليهودية في وقت لاحق وهم من أصل تركي وكذلك يهود أوروبا وأميركا ويهود العالم جميعاً هم على رأي التوراة نفس أبناء يعقوب الذي عاش قبل 2700 سنة، فما أغرب هذا المنطق!!. **والأغرب من هذا كله هو أننا نجد الكثير من العلماء والباحثين ممن يتقبّل مثل هذا الخلط.**

أما الهدف الثاني فهو جعل فلسطين وطنهم الأصلي على الرغم من تأكيد التوراة ذاتها أن فلسطين هي أرض غربة بالنسبة لإبراهيم وإسحاق ويعقوب وبخاصة أبناء يعقوب (إسرائيل) الذين ولدوا في حران ونشأوا فيها، هذا إذا فرضنا أن قوم موسى هم بنو إسرائيل حقاً كما سمّتهم التوراة. وهكذا فقد ابتدع مدونو التوراة فكرة منح الرب أرض كنعان إلى إبراهيم وذريته وأن الرب (إلههم يهوه الخاص بهم) قد أمرهم بإبادة الكنعانيين هم وأطفالهم وشيوخهم ونساؤهم ليحلوا محلهم. هذا هو الدين الذي جاء به كتبة التوراة ونسبوه إلى إبراهيم وإلى يعقوب وإلى موسى زوراً، وهؤلاء هم اليهود الذين سمّاهم القرآن الكريم كفاراً لكذبهم على موسى وتحريفهم لتوراته فيقول فيهم: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[1] وهكذا فقد فرّق القرآن الكريم بين بني إسرائيل ذرية إبراهيم الخليل من جهة وبين اليهود المتأخرين من جهة أخرى، وذلك باستعمال اسمين لهما، فأطلق اسم «بني إسرائيل» في مواضع الرضا وسمّوا «باليهود» في حالات السخط عليهم.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 111.

يتناول هذا الكتاب بوجه خاص بحث تاريخ الفترة التي عاشتها فلسطين العربية قبل عهد النبي موسى عليه السلام وهي الفترة التي ظهر فيها إبراهيم الخليل عليه السلام وعمّتها الحضارة الكنعانية أكثر من ألفيّ سنة. هذا مع توضيح حقيقة علاقة اليهود بفلسطين وحضارتها بعد ظهورهم على مسرح الأحداث في زمن النبي موسى وما بعده.

ويقوم هذا البحث على أساس تقسيم الأحداث التاريخية إلى ثلاثة أدوار منفصلة الواحد عن الآخر بالقياس إلى علم المقارنة بين اللغات، وهو المعيار الذي يعتمد عليه العلماء في هذا العصر في تعيين أصول الأقوام وصلاتها بعضها ببعض، وهذه الأدوار هي:

أولاً ـ عصر إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب ويرجع تاريخه إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، **وهو عصر عربي بحت قائم بذاته بلغته وقوميته وديانته، وهو مرتبط بالجزيرة العربية وبلغتها الأم وبقبائلها التي سمّيت فيما بعد بالعرب البائدة لانقراضها، ولا صلة له بعصر موسى الذي يأتي في وقت لاحق بعد عصر إبراهيم الخليل بسبعمائة عام، كما أنه لا صلة له بعصر اليهود الذي يأتي بعد عصر إبراهيم الخليل بحوالي ألف وخمسمائة عام، وقد كانت القبائل العربية المعروفة بالقبائل البائدة آنئذ في قيد الحياة في جزيرتهم في هذا العهد وقد لعبت دوراً مهماً في تنمية الحضارة العربية السامية**، ومن أهم هذه القبائل القبائل المعنية في جنوب الجزيرة التي توسّعت في مستعمراتها التجارية بعيداً نحو الشمال. ويذهب مؤرخو العرب إلى أن القبائل البائدة أو العرب العاربة والقبائل الآرامية التي كان ينتمي إليها إبراهيم الخليل تعود إلى أصل واحد، فكانوا ينسبون شعوب العرب البائدة جميعاً إلى إرم ويسمونهم بالإرمان كما جاء في «تاريخ سني الملوك» لحمزة الأصفهاني. وقد نبّه القرآن الكريم على ذلك بربط صلة إبراهيم الخليل بالجزيرة العربية وبيت الله العتيق وليس بفلسطين التي كان مغترباً فيها بتأكيد التوراة ذاتها، لذلك فلا صلة لعصر إبراهيم الخليل ويعقوب (إسرائيل) بعهد موسى الذي يرجع إلى زمن لاحق يفصل بينهما فاصل يمتد عبر الزمن حوالي سبعمائة عام، والدليل على أن عهد إبراهيم الخليل ويعقوب عهد مستقل لا صلة له بعهد موسى، أن الآثاريين ميّزوه عن الأدوار

التالية وأطلقوا عليه تسمية «عصر الآباء الجوالين» ـ (he wanderings of Patriarchs). **ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن القرآن الكريم كان أول من كشف لنا عن هذه الحقيقة، وقد جاءت المكتشفات الآثارية حول الهجرات السامية ودراسة علم المقارنة بين اللغات مؤيدة لهذه الحقيقة نفسها التي تربط صلة إبراهيم الخليل بجزيرة العرب وبالحجاز.**

إن أرض كنعان (فلسطين) باعتراف التوراة ذاتها كانت أرض غربة بالنسبة إلى آل إبراهيم وآل يعقوب، إذ كانوا مغتربين في أرض فلسطين بين الكنعانيين سكانها الأصليين، والتوراة تتحدث عنهم بصفتهم غرباء وافدين طارئين على فلسطين. أما وطنهم الأصلي فهو «آرام النهرين»، أي منطقة حاران (حرّان الحالية)، حيث كانت العشائر الآرامية التي ينتمون إليها قد استقرّت في منابع نهر البليخ بعد هجرتها من الجزيرة العربية، ثم نزحت فروع من هذه القبائل إلى جنوبي العراق (منطقة بابل) فكان إبراهيم الخليل من ذريتها.

إن الإلٰه الذي كان يدعو إبراهيم الخليل إلى عبادته هو الإله (إيل) «El» خالق السموات والأرض وهو غير إلٰه اليهود، لأن دعوة إبراهيم الخليل إلى عبادة الإلٰه الواحد هي دعوة عامة موجّهة إلى جميع الوثنيين في عصره من غير تمييز بين الناس، ولم يكن قد وجد اليهود بعد، ومما يذكر في هذا الصدد أن معنى كلمة «إسرائيل» عبد الإلٰه «إيل» مما يدلّ على أن يعقوب (إسرائيل) كان يدين بدين إبراهيم، كما أن مصطلح «الخليل» مشتقّ من «خل» و«إيل»، أي صديق الإلٰه «إيل» كما ورد في القرآن الكريم ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[1]. وإنه لمن الجدير بالملاحظة هنا أن عادة إقران أسماء الأشخاص باسم الإلٰه «إيل» هي عادة قديمة جداً وأنها ما تزال شائعة حتى يومنا هذا من غير أن ننتبه إلى أصلها، ومن أمثلتها القديمة اسم «إسماعيل» ومعناه «اسمع أيها الإلٰه إيل» و«إسرائيل» ومعناه «عبد الإله إيل» وهما يعودان إلى زمن إبراهيم الخليل، و«إسرائيل» ومعناه «الذي هو من أسرة الإلٰه إيل» و«صموئيل» ومعناه «المنذور إلى الإلٰه إيل» وهما يعودان إلى زمن موسى، ومن أمثلتها الحديثة «ميخائيل وجبرائيل» ومعناهما ليحم

---

(1) سورة النساء، الآية: 125.

الإلٰه إيل المدعوين «ميخا وجبرا» الخ. . والدليل على أن كلمة «إيل»، أي الإلٰه أو الله، كلمة عربية الأصل هو أن ملوك العرب في الجزيرة قبل الإسلام كانوا يقرنون أسماءهم باسم الإلٰه «إيل» تيمّناً وتبرّكاً به.

وبعد أن انحرف اليهود عن ديانة موسى بعد عهد موسى عبدوا الأوثان، ثم ابتدعوا الإلٰه «يهوه»، عندما دوّن الكتبة التوراة، إلٰهاً خاصاً بهم، إلٰهاً لا يهمّه من العالم والخلق غير اليهود (شعبه المختار)، على غرار مبدأ التفريد (Henotheism) الذي اعتنقته الأقوام القديمة حين كانت القبيلة أو المدينة تعبد إلهاً واحداً من بين مجموعة الآلهة من غير أن تنبذ عبادة الآلهة الأخرى. **والأرجح أن اليهود أخذوا بهذا المبدأ من البابليين عندما دوّنوا توراتهم في الأسر في بابل، إذ كانت كل مدينة من المدائن البابلية تختصّ بإلٰه واحد من بين مجموعة الآلهة. لذلك تعدّ دعوة إبراهيم الخليل إلى وحدانية الله الخالصة أول دعوة عامة للتوحيد في تاريخ البشرية بالمعنى الدقيق لمصطلح التوحيد (Menotheism) وهي عربية لغة ووطناً، ثم جاءت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، النبي العظيم خاتم الأنبياء، وقد أنزلت عليه باللغة العربية أيضاً،** لأن اللغة التي كان يتكلم بها إبراهيم الخليل هي اللغة العربية الأم وموطنها الأصلي الجزيرة العربية، وكانت في تلك الأزمان لغة واحدة تتكلم بها جميع القبائل العربية النازحة من الجزيرة إلى الهلال الخصيب، وذلك قبل أن تتفرّق هذه اللغة الأصلية إلى لهجات مختلفة ضمن كتلة اللغات السامية. وبذا كان إبراهيم الخليل رسولاً وزعيماً عربياً يحمل رسالة الإنسانية التي لا تقيدها حدود ولا تقف في سبيلها عصبية الأقوام والأمم.

وقد عرف الكنعانيون والآراميون الإلٰه «إيل» الذي دعا إبراهيم الخليل لعبادته، إذ إنه ورد في كتاباتهم باعتباره الإلٰه العلي العظيم مما يدلّ على أن بعض القبائل الكنعانية كانت تتقبل فكرة التوحيد منذ عهد إبراهيم الخليل (القرن التاسع عشر قبل الميلاد). ويدلّ كل ذلك على أن عقيدة التوحيد الخالصة عقيدة عربية الأصل مصدرها جزيرة العرب أولاً وآخراً وأن أصل النبوّة الإلٰهية عربية لفظاً ومعنى.

ويذكر اليهود في كتبهم التي يعلّمونها للنشء الجديد أو التي ينشرونها

بين الناس عن تاريخهم «أن الشعب اليهودي نزح إلى فلسطين من بلاد الرافدين في حدود الألف الرابعة قبل الميلاد بقيادة إبراهيم الخليل ولم يكن عددهم آنذاك يتجاوز أربعة آلاف شخص»[1] وهذه المفاهيم نفسها تدرّس اليوم في الجامعات والكليات الأوروبية والأمريكية لأن الأساتذة الذين يضعون كتب التاريخ القديم هم من اليهود أو من المسيحيين المتعصبين للتوراة. وقد قبل العرب هذا الهراء على علّاته وصاروا يردّدون ذلك دون تمحيص أو دون أن يقفوا لحظة واحدة ليفكروا ويسألوا أنفسهم: أين كان اليهود في عصر إبراهيم الخليل، وكيف تمَّ التوصّل إلى إحصاء عددهم الذي هو أربعة آلاف شخص في حين أن اليهود لم يظهروا إلى عالم الوجود إلّا بعد الألف الرابعة قبل الميلاد بـ 2700 سنة.

ويدّعي اليهود أن تاريخهم في فلسطين يرجع إلى خمسة آلاف عام وأن العرب لم يدخلوها إلّا بعد الفتح الإسلامي وهذا يشكّل أكبر تزييف للواقع التاريخي. وفي هذا الموضوع يقول العقّاد: «ومن أقوال اليهود أن العرب فتحوا فلسطين بعد قيام الدعوة الإسلامية وأنه لم يكن لهم وجود فيها قبل النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وقد نجح دعاة الصهيونية في الترويج لهذه الخرافة حتى صدقها الكثيرون من الأوروبيين والأمريكان، بل ونجحوا فيها حتى صدقها أناس من العرب أيضاً، فسمعنا من يقول منهم في أمريكا أن شأن اليهود في فلسطين كشأن الهنود الحمر في القارة الأمريكية»[2]. لذلك فإنه يتوجب على المسؤولين في البلاد العربية أن يعملوا على حشد الجهود في سبيل تربية الجيل الجديد تربية قومية صحيحة عن طريق إعادة النظر في تاريخنا القومي الذي يظهر تاريخ فلسطين القديم على حقيقته وحقيقة علاقة اليهود به. وهذا لن يتمّ إلّا بإدخال هذا الموضوع في جملة المواد الواجب تدريسها ضمن مناهج التعليم في جميع البلاد العربية وإعداد كتب خاصة لتدريس هذه المادة

---

(1) راجع سولوف، «**كيف نما الشعب اليهودي**»؟

Mordecai I. Soloff, «**How the Jewish people grew up?**».

(2) العقاد، «**الصهيونية وقضية فلسطين**»، ص 123.

في المدارس بحيث تظهر تاريخ فلسطين القديم على حقيقته وإصدارها بمختلف اللغات كردّ على هذه الادعاءات الزائفة.

ثانياً ـ عصر موسى ويبدأ في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وهو عصر متصل بمصر، قائم بذاته أيضاً بلغته وثقافته وديانته، ويشتمل على الفترة التي عاشها النبي موسى على أرض كنعان مع أتباعه، ثم الفترة التي استغرقتها عملية تحول الموسويين من المصرية إلى الكنعانية بعد زمن موسى وانحرافهم عن دين موسى، **وهي الفترة التي يمكن أن نطلق عليها تسمية الفترة المصرية الكنعانية.** وقد دامت هذه الفترة حوالي ثمانمائة عام بدأت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وانتهت بالسبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد. وهنا لا بدَّ من التوضيح أن عصريّ الملوك والانقسام كانا خاضعين لسيادة **الثقافة الكنعانية بدليل أن الديانة الوثنية الكنعانية** بقيت هي السائدة في البلاد، وليس لدينا أي دليل على أنه كانت في البلاد في هذين العصرين غير ثقافة الكنعانيين القديمة في فلسطين، لأن العبرية تكوّنت في وقت لاحق عندما بدأ الكهنة يدونون التوراة باللهجة المعروفة بآرامية التوراة وهي مقتبسة من الآرامية، وذلك بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد علماً بأن الموسويين صاروا يتكلمون بالكنعانية التي اقتبسوها من الكنعانيين بعد نزوحهم إلى كنعان، ثم أخذوا يتكلمون بالآرامية أسوة ببقية الأقوام في فلسطين بعد انتشار اللغة الآرامية في جميع الشرق الأدنى، ومعنى ذلك أنه لا توجد أية لغة خاصة باليهود وأن ما يُسمّى بالعبرية بمعنى اليهودية هو لهجة متأخرة مقتبسة من الآرامية (العربية الأصل) شأنها في ذلك شأن جميع اللهجات الأخرى التي تكوّنت في وقت لاحق من اللغة الأم الأصلية.

ثالثاً ـ عصر اليهود ويبدأ في القرن السادس قبل الميلاد في أعقاب السبي البابلي، وهو عصر يهودي بحت قائم بذاته أيضاً بلغته وثقافته وديانته ويمثّل بداية اليهودية، إذ تبدأ الديانة اليهودية الحالية بكتابة التوراة على يد الكهنة في الأسر في بابل وما بعد الأسر في اللغة التي صارت تُعرف بالعبرية (آرامية التوراة). وهذه هي التوراة التي بين أيدينا اليوم وهي غير التوراة التي أُنزلت على موسى باللغة المصرية قبل ثمانمائة عام من عصر اليهود هذا.

ويحسن بالقارىء أن يلاحظ هذه الأدوار الثلاثة بالقياس إلى اللغة والثقافة حسب أزمانها عند متابعة هذا البحث ليكون على بيّنة من الزمن الذي ينتمي إليه كل حادث من الأحداث التاريخية لأن كتبة التوراة تعمّدوا الخلط بين الأدوار التاريخية وإهمال التسلسل الزمني فربطوا العصور بعضها ببعض وذلك لكي يرجعوا تاريخهم إلى عصور لم يكن لهم أي وجود فيها فيلتبس الأمر على القارىء، وهذه الأدوار هي كما تقدّم:

أولاً ـ عصر إبراهيم الخليل ويرجع تاريخه إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ولغة هذا العصر اللغة السامية العربية الأم والديانة وحدانية إبراهيم الخالصة.

ثانياً ـ عصر موسى ويرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولغة هذا العصر اللغة المصرية في بداية الأمر ثم الكنعانية أمّا الديانة فوحدانية أخناتون في بداية الأمر ثم الانحراف إلى الوثنية.

ثالثاً ـ عصر اليهود ويرجع تاريخه إلى القرن السادس قبل الميلاد، ولغة هذا العصر الآرامية والعبرية (آرامية التوراة) التي كتبت بها التوراة، أما الديانة فوحدانية (يهوه) الخاصة باليهود فقط. وتبدأ اليهودية المتمثّلة **بالتوراة** ببداية هذا العصر.

* * *

يقع هذا الكتاب في ثمانية فصول، شرحنا في الفصلين الأول والثاني، الدور الرئيس الذي لعبته شبه جزيرة العرب في تأسيس الحضارة السامية العربية في الشرق الأدنى القديم ومن ضمنه فلسطين، وذلك قبل ظهور اليهود إلى عالم الوجود بأكثر من ألفيّ سنة نتيجة لهجرات جماعات من سكّان جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب على هيئة موجات متتالية تبدأ حسب تقدير العلماء في حوالي الألف الثالثة قبل الميلاد، مع أن بعض الباحثين يحدّد بداية هذه الهجرات بالألف الرابعة قبل الميلاد وربما قبل ذلك. ويرى الباحثون في أصول أقوام الشرق الأدنى أن أسلاف هذه الجماعات كانوا يتمتعون بحضارة قديمة في الطرف الجنوبي من شبه جزيرة العرب وقد كانت بلادهم في تلك

الأزمان عامرة بأنهارها الدائمة الجري وبأمطارها الغزيرة الدائمة، إلا أنها تعرّضت إلى تغيرات مناخية في نهاية العصر الجليدي الأخير في حدود سنة 20,000 قبل الميلاد، الأمر الذي أدّى إلى انحباس الأمطار واندثار الأنهر، فأخذ الجفاف ينتشر منذ ذلك الحين في النطاق الصحراوي الحالي مما اضطر الإنسان والحيوان إلى الهجرة إلى أماكن ذات موارد مائية دائمة، فكان أن توجّه سكان الجزيرة إلى الشمال، ثم أخذوا يتوزعون على أطراف الجزيرة داخل الهلال الخصيب في موجات متعاقبة، فمنهم من توجّه شرقاً نحو بلاد الرافدين، وبصورة خاصة نحو نهر الفرات، وهناك من توجّه غرباً نحو طور سيناء وأطراف وادي النيل (الشرقي الأسفل)، ومنهم من استقرّ في فلسطين وفي سوريا وفي لبنان وصاروا يُعرفون بالكنعانيين ـ الفينيقيين والعموريين ـ العمالقة.

وهكذا فقد كانت هذه الهجرات المتتالية من أهم العوامل لتنمية الكيان الحضاري السامي العربي في الشرق الأدنى والسير به نحو التقدّم والتطوّر في مختلف الميادين، هذا الكيان الذي انبثقت منه أقدم وأعظم الإمبراطوريات التي عرفها العالم في تاريخ البشرية، أي الإمبراطوريات الساميات الأربع: الأكدية والبابلية والآشورية والكلدانية، ثم تلتها الممالك العربية التي أسّسها الأنباط فالتدمريون ومن بعدهم الغساسنة والمناذرة على أطراف الصحراء العربية وأخيراً الإمبراطورية العربية الإسلامية التي عمّت الشرق: الأدنى والأوسط والأقصى.

وفي الفصلين الثالث والرابع عرض لتاريخ الديانة اليهودية مع بيان الأسس التي قامت عليها ديانة أخناتون التوحيدية، ثم شرح لنصّ التوراة في ضوء المكتشفات الآثارية التي تبرهن على أن التوراة التي بين أيدينا كُتبت في عهد متأخر بعد عصر النبي موسى عليه السلام بعدّة قرون وأنها مقتبسة من الديانات الكنعانية والبابلية والمصرية، فهي لذلك غير التوراة التي أُنزلت على النبي موسى. أما الفصل الخامس فيبحث في عصر إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، والذي يعتبر عصراً عربياً يرتبط بالجزيرة العربية ولا صلة له بعصر موسى واليهود. وفي الفصل السادس بحث عن ظهور النبي موسى

وصلته بمصر ونزول شريعته ثم الأحداث التي تلت عصره والتي تبرهن على أن ظهوره وظهور اليهود بعده لم يكونا إلّا حدثاً متأخراً بالنسبة إلى تاريخ الأقوام السامية العربية التي سبقتهم في استيطان فلسطين. والفصلان الأخيران، السابع والثامن، يبحثان في يهود العالم وصلتهم بفلسطين ثم دور الصهيونية والاستعمار في «خلق إسرائيل». وقد أُضيفت إلى الكتاب سبعة ملاحق، يتناول الملحق الأول «تاريخ أورشليم في أقدم عصورها، والثاني يشتمل على مسلسل عام بالحوادث التاريخية الهامة منذ أقدم العصور وحتى الفتح الإسلامي. أما الثالث فيشتمل على المراجع العامة والرابع على معجم الأعلام والأقوام والبلدان وبعض المصطلحات الغريبة التي ارتأينا ضرورة شرحها في هذا المقام. والخامس يشتمل على الفهرس العام والسادس على باب سؤال وجواب يتضمن ردوداً على أسئلة القرّاء في موضوع الكتاب. وأما السابع فإنه يتضمن قائمة كتب المؤلف.

أحمد سوسة

الفصل الأول

الهجرات الرئيسية
إلى الهلال الخصيب

تمهيد:

ينحصر تاريخ فلسطين القديم في أقدم فترة عاشتها أرض فلسطين في مسيرتها الحضارية، وهذه الفترة تتميز بأهم ظاهرة في تاريخ الشرق الأدنى القديم، هي هجرة جماعات من سكان جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب(1) على هيئة موجات متتالية، وقد لعبت هذه الهجرات دوراً رئيسياً في تغيير مجرى الكيان الحضاري وتطوره في العالم القديم.

تبدأ هذه الفترة، حسب تقدير العلماء، في حوالي الألف الثالثة قبل الميلاد، أي قبل حوالي خمسة آلاف عام، وتنتهي بظهور موسى وقومه على مسرح الأحداث بعد خروجهم من مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وبذلك يكون هذا الدور من تاريخ فلسطين القديم قد استغرق ما يقارب ألفيّ عام.

ويرى الباحثون في أصول أقوام الشرق الأدنى أن أسلاف هذه الجماعات كانوا يتمتعون في الأصل بحضارة قديمة في الطرف الجنوبي من شبه جزيرة العرب، وقد كانت بلادهم في تلك الأزمان عامرة بأنهارها الدائمة الجري وبأمطارها الغزيرة الدائمة الهطول، إلا أنها تعرّضت إلى تغيرات مناخية في

---

(1) يُطلق عادة مصطلح «الهلال الخصيب» على القسم الخصب الهلالي الشكل من جزيرة العرب الذي يقع على أطرافها الشرقية والشمالية والغربية، ويشمل سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن والعراق وبعضهم يدخل الجزء الشمالي من وادي النيل ضمن الهلال. وأول من قال بهذا المصطلح هو الأستاذ بريستد وسمّاه بالإنكليزية (The Fertile Crescent).

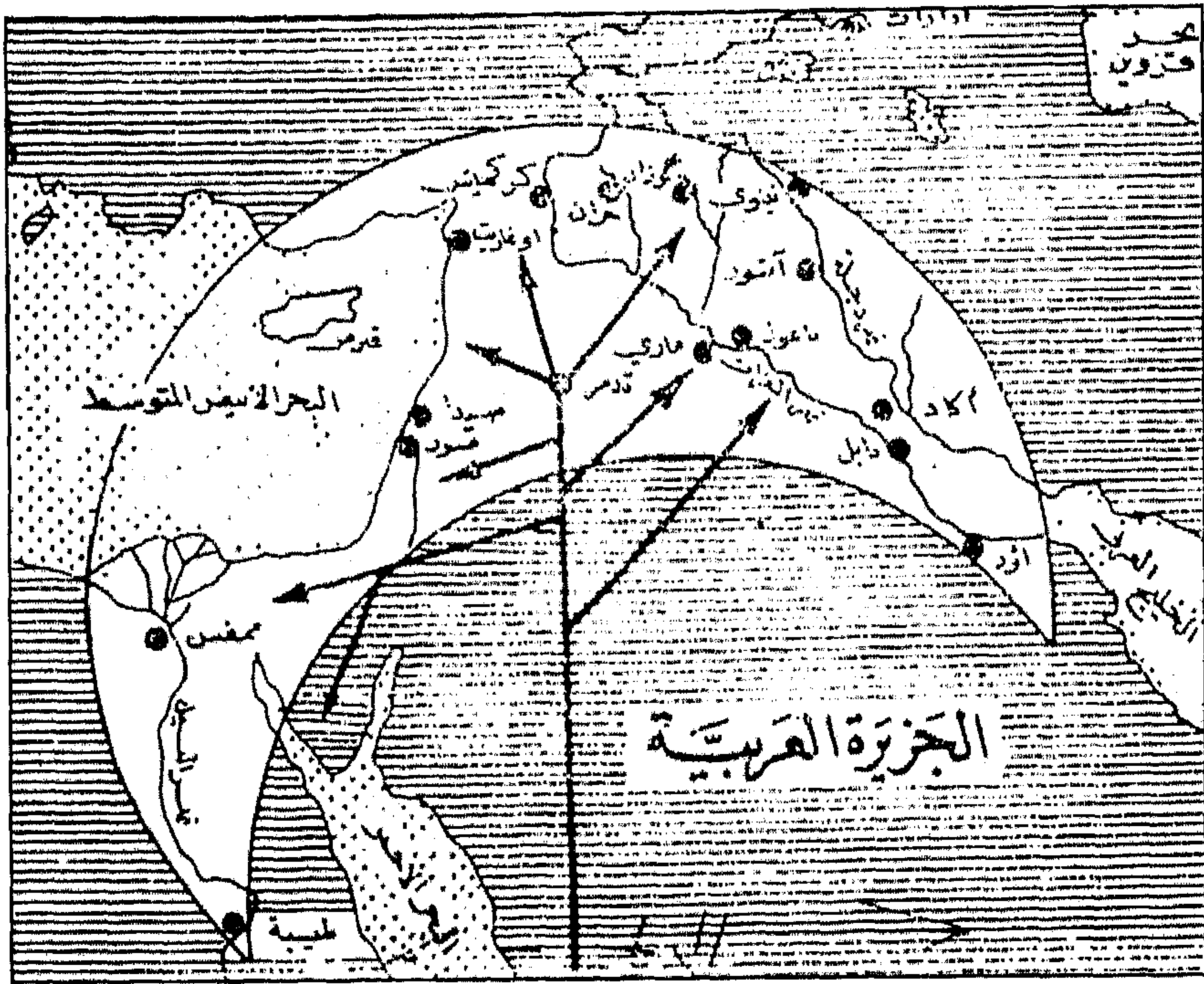
نهاية العصر الجليدي الأخير في حدود سنة 20,000 قبل الميلاد[1]، الأمر الذي أدّى إلى انحباس الأمطار واندثار الأنهر، فأخذ الجفاف ينتشر منذ ذلك الحين في النطاق الصحراوي الحالي، مما اضطر الإنسان والحيوان إلى الهجرة إلى أماكن ذات موارد مائية دائمة، فكان أن توجّه هؤلاء السكان إلى شمال الجزيرة ومنها أخذوا يتوزعون على أطراف الهلال الخصيب المجاورة للجزيرة في موجات متعاقبة، فمنهم من توجّه شرقاً نحو بلاد الرافدين، وبصورة خاصة نحو نهر الفرات، ومنهم من استقرّ في فلسطين وفي سوريا وفي لبنان، وهناك من توجّه غرباً نحو طور سيناء وأطراف وادي النيل الأسفل الشرقي.

ومما ساعد على هذه الهجرات أن حدود العراق الغربية وحدود مصر الشمالية الشرقية وحدود الأردن، مفتوحة للصحراء، فكان في مقدور القبائل العربية المنتشرة في شبه جزيرة العرب أن تتوغل فيها دون أن يصادفها حاجز جغرافي يصدّها. وكانت مثل هذه الهجرات تزداد بوجه خاص عندما تكون الحكومات المسيطرة على البلاد الواقعة على أطراف الصحراء ضعيفة بحيث تستطيع هذه القبائل أن تستفيد من هذه الظروف للتوغل إلى الداخل. وقد استغلّت هذه القبائل نفوذها في الصحراء مما اضطرّ التجّار وأصحاب القوافل أن يلجأوا إلى استرضائها ودفع مبالغ كبيرة لها لقاء حمايتها لهم.

ويحدّد بعض الباحثين بداية الهجرات السامية إلى الهلال الخصيب بالألف الرابعة قبل الميلاد وربما قبل ذلك، على رأي البعض الآخر، ولكن معلوماتنا المستقاة من التنقيبات الآثارية تحدّد بداية تاريخ الهجرات المذكورة بالألف الثالثة قبل الميلاد. وسنبحث فيما يلي في كل هذه الهجرات الرئيسة وفيما تركته من تراث حضاري عريق لما لها من صلة مباشرة بموضوع بحثنا وارتباطها به.

ومما يذكر أن هذه الجماعات لم تستقر في مستوطناتها الجديدة نتيجة

(1) يعتقد العلماء أن الشرق الأوسط يجتاز اليوم فترة جفاف وحرارة عالية ويذهبون إلى أنها بدأت منذ أكثر من ستة آلاف عام وما زال الجفاف فيها بازدياد مطرد (راجع الدكتور أحمد سوسة، **«الري والحضارة في وادي الرافدين»**، ج1، ص181 ـ 183).



الرسم رقم (1)

الهجرات السامية العربية من جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب

حرب أو غزو، بل كانت قبل أن تحلّ فيها تنتقل بين أرجاء البادية الفسيحة في أرض مكشوفة مفتوحة للجميع (أرض الله الواسعة) فتقصد الماء أينما وجد: إذ كانت الأماكن الصالحة للسكنى في هذه البقاع متوفرة للجميع في البداية. وكان كل المهاجرين من عنصر وأصل واحد وقومية واحدة (القومية السامية العربية) تربطهم وشائج اللغة والتراث الصحراوي الذي ينتمون إليه جميعاً، فلا يزاحمهم أو يعترضهم عنصر غريب لأنّ العناصر غير السامية لم تكن قد هاجرت إلى هذه المنطقة بعد. وكانت مستوطناتهم خاضعة لحكم قبلي عشائري يتولّاه رؤساؤهم وشيوخهم، إذ كانت كدويلات، المدن لها أحكامها الخاصة بها، وهذه مستمدة من الأعراف والتقاليد المتوارثة من المجتمع البدوي، فقد كان يقوم شيخ القبيلة ومجلس مشايخها في ممارسة السلطة. وكان اتصال المهاجرين مستمراً بينهم وبين أبناء عمومتهم في وطنهم الأصلي حيث كانت الجمال تطوي البوادي دون انقطاع مسيطرة على طرق المواصلات

وهي آنئذ الواسطة الوحيدة التي كانت تربط المستوطنات الجديدة بالوطن الأم عبر البوادي والصحاري. ومن المعتقد أن الهجرة كانت تتمّ بصورة تدريجية على النحو الذي نشاهده اليوم في هجرة القبائل العربية من الجزيرة العربية إلى وادي الرافدين.

ومن أمثلة الهجرات الحديثة هجرة قبائل شمَّر من ديارها في الجزيرة (أراضي نجد منطقة حائل)، فقد نزحت جماعات من هذه القبائل إلى العراق على موجتين متتاليتين، الأولى قبل خمسمائة سنة ومن بقاياها جماعة «الغرير» التي صارت تمارس الزراعة في منطقة المحمودية وجماعة «زوبع» في الفلّوجة وغيرها من العشائر المستقرة التي تسكن أرض السواد، وأما الموجة الثانية فهي أحدث وقد دخلت العراق قبل ثلاثمائة سنة تقريباً، ومن بقاياها عشائر «شمَّر الجربا» التي استقرّت في الأراضي الممتدة ما بين نهري دجلة والفرات في شمالي الخط الواصل ما بين بغداد والفلّوجة. وقد استمرّت أفخاذ شمَّر في الهجرة حتى ما بعد الحرب العالمية الأولى. والمعلوم أن عشائر شمَّر منتشرة اليوم في المملكة العربية السعودية وفي العراق وفي سوريا. وعلى الرغم من هجرة هذه القبائل لوطنها الأصلي في جزيرة العرب فقد بقيت مرتبطة بولائها لزعمائها في الوطن الأم.

ومن قبائل العرب الكبرى التي تصوّر لنا مثلاً حياً للهجرات القبائلية من الجزيرة العربية وارتباطها بوادي الرافدين قبيلة «عنزة». وأصل وطن هذه القبيلة الحجاز في أنحاء المدينة المنورة، ويرجع تاريخها إلى العهد الجاهلي حيث أورد ذكرها كل من ابن خلدون وابن سعيد. وبيت آل سعود ملوك نجد والحجاز اليوم منها وكذلك آل صباح وآل خليفة في الكويت والبحرين. إن مجيء جماعات من هذه القبيلة إلى العراق يصادف زمن مجيء «شمّر الجربا»، وتقسم إلى فرعين رئيسيين الأول ومركزه الرطبة ويدعى بقبائل «العمارات» والفرع الثاني ويُسمَّى «بالدهامشة» (الظفير) ومركزه نقرة السلمان[1].

---

(1) الدكتور نوري البرازي، «**البداوة والاستقرار في العراق**»، معهد البحوث والدراسات العربية، 1969، ص 126 ـ 131. مكي جميل، «**البدو والقبائل الرحالة في العراق**»، 1956.

وفي ذلك يقول المرحوم العقّاد: «إن اتجاه الهجرة من ناحية البحرين وناحية الحجاز متواتر في الأزمنة التاريخية القريبة والبعيدة وأقربها ما حدث بعد الإسلام من زحف العرب على العراق وزحفهم على الشام في وقت واحد في عهد الخليفة الصديق. والجزيرة العربية في عزلتها المعروفة أشبه المواقع أن تضيق فيها موارد الغذاء عن سكانها فيهجرونها إلى أودية الأنهار القديمة، وليس لدينا ما يمنع أن يكون التاريخ الحديث دليلاً على التاريخ القديم»(1).

وقد بقي النزاع بين أهل «المدر» وأهل «الوبر»، أي بين البداوة والاستيطان الثابت المستقر، مستمراً طيلة هذه الأدوار التاريخية، ولكن هذا النزاع لم يقض على بداوة الرعي التي سارت جنباً إلى جنب مع الزراعة المستقرة بعد أن انفصل مجالهما «فسكن المزارعون حول ضفاف الأنهار وزرعوا الأرض، بينما تكيّف الرعاة مع طبيعة المرعى وطبيعة الحيوان، واتخذوا مسارحهم في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية... وكان البدو في الفترات التاريخية التي عاشوها يملكون من أسباب القوة ما يفتقده المزارع، فطبيعة حياتهم القاسية دفعتهم إلى أن يتّصفوا بالشجاعة دفاعاً عن أنفسهم في بيئتهم الموحشة طبيعياً والمخيفة بشرياً، وهكذا فقد نشأوا محاربين، وكانوا يملكون الوسائل المادية للقتال، ولا غرو فهم أهل الخيل والإبل يطلبون أعداءهم على ظهورها، ويفوقونهم بها، فالبدو كما نعلم من التاريخ كانوا متفوقين حربياً لفترة طويلة على أهل الحضر الذين عاشوا فترة من الزمن في حمايتهم يدفعون لهم (الخوّة) أي «الأتاوة»(2).

هجرة الكنعانيين إلى فلسطين:

ومن أقدم الهجرات التي قام بها أهل جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب هجرة الجماعات التي توجّهت إلى أرض فلسطين في النصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد حسب أوثق التقديرات، ويرجع البعض سكنى الكنعانيين

---

(1) العقاد، «**أثر العرب في الحضارة الأوروبية**»، القاهرة، 1960، ص 10.

(2) الدكتور نوري البرازي، «**البداوة والاستقرار في العراق**»، ص 108 ـ 109.

أرض فلسطين إلى ما قبل ذلك بزمن بعيد، إذ توصل الآثاريون الذين أجروا تنقيبات في بعض المدن التي تحمل أسماء كنعانية أصيلة مثل «أريحا» و«بيت شان» و«مجدّو» و«جازر» إلى إرجاع تاريخ هذه المدن إلى ما قبل الألف الثالثة قبل الميلاد. وقد أرجع الباحثون تاريخ بلدة أريحا إلى ما قبل سبعة آلاف سنة وهذا ما حمل بعضهم على اعتبارها أقدم مدينة في العالم ما تزال باقية حتى الآن[1]، هذا وقد توصل الباحثون أيضاً إلى أن أقدم المعابد الكنعانية تقع في «أريحا» وفي «مجدّو»، وهي ترجع إلى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد[2]. وقد عُثر في حفائر «تليلات غسّول» الواقعة شمال شرقي البحر الميت في سنة 1929 وما بعدها على آثار أقدم مدينة كنعانية في فلسطين، أي أقدم من أريحا وجازر، كان لها حضارة راقية، وقد خربت في أوائل العهد الحجري المعدني أو البرونزي (5000 ـ 3000 ق.م.) نتيجة حريق حوّلها إلى رماد[3]، ويقول الأستاذ أولبرايت معلقاً على هذا الموضوع «إنه لدينا من البراهين والأدلة على أن الكنعانيين أصحاب اللغة السامية الغربية استقروا في فلسطين في أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد حيث عُثر على أسماء مدن تحمل أسماء كنعانية ترجع إلى الأسرة الخامسة المصرية (2956 ق.م.)، كما وردت كلمات كنعانية في المدوّنات المصرية من عصر الأهرام (القرن الثامن والعشرون قبل الميلاد»[4]. وفي ضوء ما تقدّم نستطيع أن نجزم واثقين بأن الكنعانيين كانوا مستقرين في فلسطين قبل خمسة آلاف سنة.

أ ـ كنعان وأصل تسميتها:

لقد ورد ذكر كنعان في رسائل العمارنة التي تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد باسم (Knakhni)، وكانت هذه التسمية تُطلق حينذاك على القسم الجنوبي من بلاد الشرق المشتملة على أرض فلسطين والتي كان قد

---

(1) Keller, «**The Bible as History**», 1957, p.158.

(2) Hitti, «**History of Syria**», London, 1951, p.120.

(3) Riccioti, «**Histoire d'Israël**», Vol. I, pp.70-104.

(4) Albright, «**Archaeology & the Religion of Israël**», 1942, p.68.

استولى عليها تحوطمس الثالث في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، أما القسم الشمالي فكان يُسمّى «أمورو» ويشمل منطقتي لبنان وشرقي الأردن[1].

وقد ورد في الكتابات القديمة ذكر مدينة بابلية باسم «كنعان» (Kan-nan) وسمي ساكنها «كنعاني» (Kanunai) وهو اسم كنعان الفلسطيني نفسه، ويعتقد ضأن هذه التسمية جاءت عن طريق انتقال مهاجرين من كنعان إلى بابل فسميت مدينتهم على اسم بلدهم التي جاؤوا منها طبقاً للعادة التي أتبعها المهاجرون في مختلف البلدان عبر التاريخ[2]. وذلك يدلّ على أن لفظ «كنعان» قديم جداً يرجع إلى ما قبل عهد التوراة بعدّة قرون. كما وتجدر الإشارة إلى أن تسمية كنعان ما زالت حتى هذا اليوم تطلق على موضع في لواء ديالى من العراق. وكذلك أيضاً توجد بلدة في الولايات المتحدة الأمريكية، مقاطعة نيوهمشاير تدعى بكنعان وغير معلوم كيف انتقل هذا الاسم إلى أمريكا، والأرجح أنه انتقل عن طريق مهاجرين من فلسطين.

وكنعان هي التسمية نفسها التي وردت في التوراة[3]، وذلك نسبة إلى كنعان بن حام بن نوح»[4]. «وقد ولد صيدون بكرة وحثا واليبوسيّ والأموريّ والجرجاشيّ والحويَّ والعرقي والسيني والأروادي والصمّاري والحماتيّ. وبعد ذلك تفرّقت قبائل الكنعاني. وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجيء نحو جرار إلى غزة وحينما تجيء نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم إلى لاشع»[5] وبذلك تكون بلاد كنعان قد شملت حسب وصف التوراة الرقعة

---

(1) Rogers, «**Cuneiform Parallels to the Old Testament**», 1942, p.260.

(2) G. A. Smith, «**The Historical Geography of the Holy-Land**», 1931, p.296.

(3) وردت كلمة كنعان خمسة وثمانين مرة في الكتاب المقدّس، ثلاث وثمانون مرة في العهد القديم ومرتين في العهد الجديد موزّعة كما يلي:
تكوين (12 مرة)، خروج (3 مرات)، لاويين أو أحبار (مرتين)، عدد (10 مرات)، يشوع (6 مرات)، قضاة (7 مرات)، أخبار (3 مرات)، مزامير (3 مرات) أشعيا (مرتين)، حزقيال (3 مرات)، صفنيا (مرتين)، أعمال الرسل (مرتين).

(4) تك، 9: 18.

(5) (تك، 10: 15 ـ 19). راجع أيضاً (1 أخ 12: 13 ـ 16).

الجغرافية الواقعة بين شاطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقي من أوغاريث إلى غزّة وبين الصحراء السورية ومن سهول أدنة في جنوب آسيا الصغرى إلى صحراء النقب جنوبي فلسطين. وفي رأي بعض الباحثين المحدثين أن كنعان كلمة حورية تعني الصبغ القرمزي، وهو الصبغ الذي كان الكنعانيون يصنعونه ويتاجرون به[1]. إلا أن هذه التسمية غير مقبولة لأنها هكذا وردت في الكتابات القديمة وبالاسم الذي تقدّم ذكره. وكان اسم بلاد كنعان يطلق في أول الأمر على الساحل والقسم الغربي من فلسطين، ولكنه عمّ استعماله بعدئذ بحيث صار يشمل قسماً كبيراً من سوريا وأطلق على كل فلسطين أيضاً. وتعتبر بلدة «شكيم» (نابلس) العاصمة الطبيعية لبلاد كنعان لموقعها في وسط فلسطين، كما تعتبر «حاصور» العاصمة الشمالية في منطقة الجليل، وقد لعبت كلتاهما دوراً مهماً في تاريخ فلسطين القديم.

ويؤيد الدكتور كلود شافر بالاستناد إلى لوحات تل العمارنة وإلى وثائق رأس شمرا المكتشفة حديثاً وإلى المكتشفات الآثارية التي نشرت مؤخراً عن حفريات طرسوس في قيليقيا وأريحا الخ ما ذهبت إليه التوراة في تحديد حدود كنعان بقوله: «ثبت لنا أن بلاد الكنعانيين بين شواطىء المتوسط الشرقية وصحراء سوريا اتّسعت في الجنوب، من فلسطين الجنوبية إلى أوغاريث (رأس الشمرة قرب اللاذقية)، وفي الشمال استعمر الكنعانيون سهول دانونا (أدنة) الخصبة واستثمروها منذ النصف الأول للألف الثانية قبل الميلاد وكانوا يؤسّسون على السواحل نقاط ارتكاز لتجارتهم. وقد بلغ من قوّة واستمرار الكنعانيين في هذه الأرجاء أن ملك صور (1400 ـ 1350 ق.م.) في رسالة منه إلى فرعون المقيم حينئذ في تل العمارنة، ذكر دانونا ضمن بلاد كنعان»[2]، ويلاحظ أن الرعاة البدو من صحراء سوريا لا يزالون حتى هذا اليوم يصلون في تنقلاتهم إلى سهول أدنة من أجل الحصول على مراعي في منطقة آسيا الصغرى[3].

---

(1) Hitti, «**History of Syria**», p.97.

(2) الشيخ نسيب الخازن، «**من الساميين إلى العرب**» ص41.

(3) F. Brandel, «**The Mediterranean & the Mediterranean World**», (English translation from French, 2nd. ed.), London, 1972, p.177.

حماة

حمص

الارز

بعلبك

دمشق

قطنا

قادش

حاصور

بحر الجليل

مجدو

بيت شان

شكيم
(نابلس)

بيت أيل

جبعون

أريحا

حشبون

جبل نبو

عمون

أورشليم

بيت شمس

جازر

بيت لحم

حبرون
(الخليل)

جرار

بئر سبع

وادي أرنون

بصري

بصري الشام

ادوم

قادش برنيع

ب ـ الحضارة الكنعانية ودورها الطليعي في التقدّم الحضاري:

ومما لا شك فيه أن الكنعانيين هم أقدم الأقوام الذين استقرّوا في أرض فلسطين وإليهم يعود تأسيس حضارة فلسطين القديمة. والأرجح أن لغتهم كانت في الأصل اللغة التي اعتبرت أقرب لغة إلى أم اللغات السامية، أي اللغة العربية القديمة التي كان يتكلم بها أهل الجزيرة قبل هجرتهم إلى الهلال الخصيب، ثم تفرّعت منها مختلف اللهجات المتأخرة، ومن هذه اللهجات اللغة الكنعانية التي انفردت فيما بعد بخصائص خاصة بها والتي صارت تعرف كإحدى اللهجات في مجموعة دُعيت بكتلة اللغات الغربية ومنها الموآبية والفينيقية والعبرانية لتمييزها عن اللهجات الأخرى في إطار المجموعات السامية.

وترجع الحضارة الكنعانية إلى عصور واغلة في القدم، فمنذ العصر الحجري الحديث أو العصر النيوليثي (7000 ـ 5000 ق.م.) بدأت هذه الحضارة تنمو وتتقدّم في مجال التمدّن فكان الكنعانيون أول من اكتشف النحاس الطري، ثم اهتدوا إلى الجمع بين النحاس والقصدير في إنتاج البرونز، وبذلك كانوا السبّاقين في استخدام صناعة التعدين مما أعطى تلك الشعوب البدائية أدوات وأسلحة فتّاكة. وقد أصبح استعمال البرونز شائعاً في المدن الكنعانية منذ أواسط الألف الثالثة قبل الميلاد[1]، وبدأت تستعمل الحديد منذ أواخر الألف الثانية قبل الميلاد. ومن المحتمل أن الكنعانيين أخذوا بصناعة الحديد من الفلسطينيين أو أنهم أخذوا من الأقوام المجاورة لهم مثل الحثيين[2]. ومن الجائز أيضاً أن يكونوا قد أخذوا بها من العرب الذين كانت لهم مناجم حديد مهمة أيضاً، أو أنهم اكتشفوا معدن الحديد في داخل بلادهم[3]، وقد ثبت وجود هذا المعدن في لبنان وفي الأردن[4].

---

(1) Lods, «Israël», p.59; A. Bertholet, «Histoire de la Civilisation d'Israël» (French translation), 1929, p.70.

(2) (إر، 15: 12، 28: 14)، (انظر ما يلي حول هجرة الفلسطينيين والحثيين).

(3) (تث، 8: 9).

(4) Lods, «Israël», pp.32, 59.

ويتجلى لنا مدى تقدّم صناعة المعادن في بلاد كنعان أبين التجلّي فيما أورده الفراعنة المصريون في وصف الغنائم التي أخذوها من المدن الكنعانية في فتوحاتهم للشرق، فنجد بين المصنوعات المعدنية الثمينة التي وردت في القوائم التي سجّلها تحوطمس الثالث، أحد فراعنة السلالة الثامنة عشرة (1504 ـ 1450 ق.م.) عربات مطعّمة بالذهب وأوتاد لتثبيت الخيم مطعمة بالفضة وسرائر من العاج ومضاجع مطلية بالذهب وأنواع من الكؤوس والآنية والسيوف وتماثيل من الذهب ومن خشب الأبنوس، وفي القائمة علاوة على ما تقدّم 207,000 كيس من الحنطة جلبها تحوطمس من كنعان(1).

وكانت زراعة الكروم والتين من أهم المزروعات القديمة في كنعان، وتوجد بينات على أن هذه الزراعة كانت مزدهرة في عهد بيبي الأول (حوالي 2500 ق.م.) إذ وجدت هناك معاصر للزيت والعنب من تلك العصور مصنوعة بمنتهى الدقّة والإتقان، وتشير مدوّنات تحوطمس الثالث إلى خصوبة أرض كنعان مؤكدة أن النبيذ عند الكنعانيين كان موجوداً بكثرة تفوق وجود الماء(2).

وقد تقدّم لدى الكنعانيين، عدا فن الصناعة وصناعة العاج، صناعة الزجاج والنسيج الصوفي والقطني، وكذلك صناعة الأصباغ ولا سيما القرمز والأرجوان اللذين اقترنا باسمهم.

وقد اشتهر الكنعانيون بما ابتكروه من وسائل الدفاع عن مدنهم، فقد كرّسوا طاقاتهم وجهودهم في سبيل إتقان الأساليب الحربية التي لازمتهم طيلة حياتهم بسبب النزاعات والخصومات المستمرة بين دويلات المدن الكنعانية المنتشرة في أرجاء البلاد وبسبب الغزوات التي كان يشنّها الفاتحون من خارج البلاد، ومن الوسائل التي برعوا فيها إنشاء القلاع وما يرافقها من تحصينات دفاعية، ولحاجتهم إلى الماء في فترات الحصار فقد قاموا بأعمال هندسية ضخمة لإيصال الماء إلى داخل حصونهم. ومن بقايا هذه المشاريع التي ما

(1) Lods, **«Israël»**, p.60.

(2) Vincent, **«Canâan d'après l'Exploitation Récente»**, pp.77-80.

تزال آثارها ماثلة للعيان، النفق الطويل الذي حفروه في بلدة جازر الكنعانية الواقعة على بُعد حوالي 35 كيلومتراً إلى الشمال الغربي من أورشليم للوصول إلى ينبوع ماء يقع تحت مستوى الأرض على عمق حوالي مائة قدم ينزل إليه بواسطة مدرّج مكوّن من 80 درجة يبلغ طول هذا النفق 219 قدماً، ويرى الآثاريون أن الكنعانيين كانوا قد اتخذوا من هذا الموقع حصناً منيعاً حملهم على حفر هذا النفق لتموينه بالماء عند الحصار. يرجع بناؤه إلى حوالي 3000 قبل الميلاد[1].

وقد أقام الكنعانيون مشروعاً آخر من هذا القبيل في أورشليم وذلك لإيصال الماء إلى الحصن الذي كان قد شيّده اليبوسيون، سكان أورشليم الأصليون، على الهضبة الشرقية من مدينة القدس الحالية، واليبوسيون هم فرع من القبائل الكنعانية التي كانت قد نزحت من جزيرة العرب، واستقرّت في فلسطين منذ أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد، لذلك سُمّيت المدينة باسمهم (يبوس) وقد أصبحت هذه التسمية مرادفة لأورشليم، وقد ورد ذكرها في التوراة على هذا الشكل، فقيل «يبوس هي أورشليم» و«أورشليم مدينة اليبوسيين»[2]. وكان حصن يبوس يُعرف بـ «حصن صهيون» أيضاً، كما كان يُعرف الجبل الذي أقيم عليه الحصن بالأكمة أو «أوفل»[3]، وأحياناً «جبل صهيون»[4] ولتموين الحصن بالمياه حفر اليبوسيون نفقاً داخل الجبل وجرّوا فيه الماء من عين غزيرة تقع شرقي الحصن على حافة «وادي قدرون» (وادي ستي مريم الحالي) إلى الحصن. ويمتد هذا النفق مسافة 17 يردة إلى الغرب بين العين والحصن، وقد نقر الحجر وصنع فيه شبه خزان في نهاية النفق ومنه حفر منفذ في الحجر بحجم (6×4 أقدام) يصعد إلى سطح الهضبة داخل الحصن بعمق تسع يردات. وكان الماء يُستقى من سطح الحصن بالسطل والحبل من

(1) **«The Story of the Bible»**. vol. I, p.272; Lods, **«Israël»**, p.61; Bertholet.

(2) (قض، 19: 10) راجع أيضاً (1 أخ، 11: 4).

(3) (2 مل، 5: 24)، (2 أخ، 27: 3، 33: 14)؛ (أش، 32: 14)؛ (مي، 4: 8).

(4) (عب، 12: 22).



صورة رقم (1)
المدخل المدرج إلى نفق جازر الكنعاني

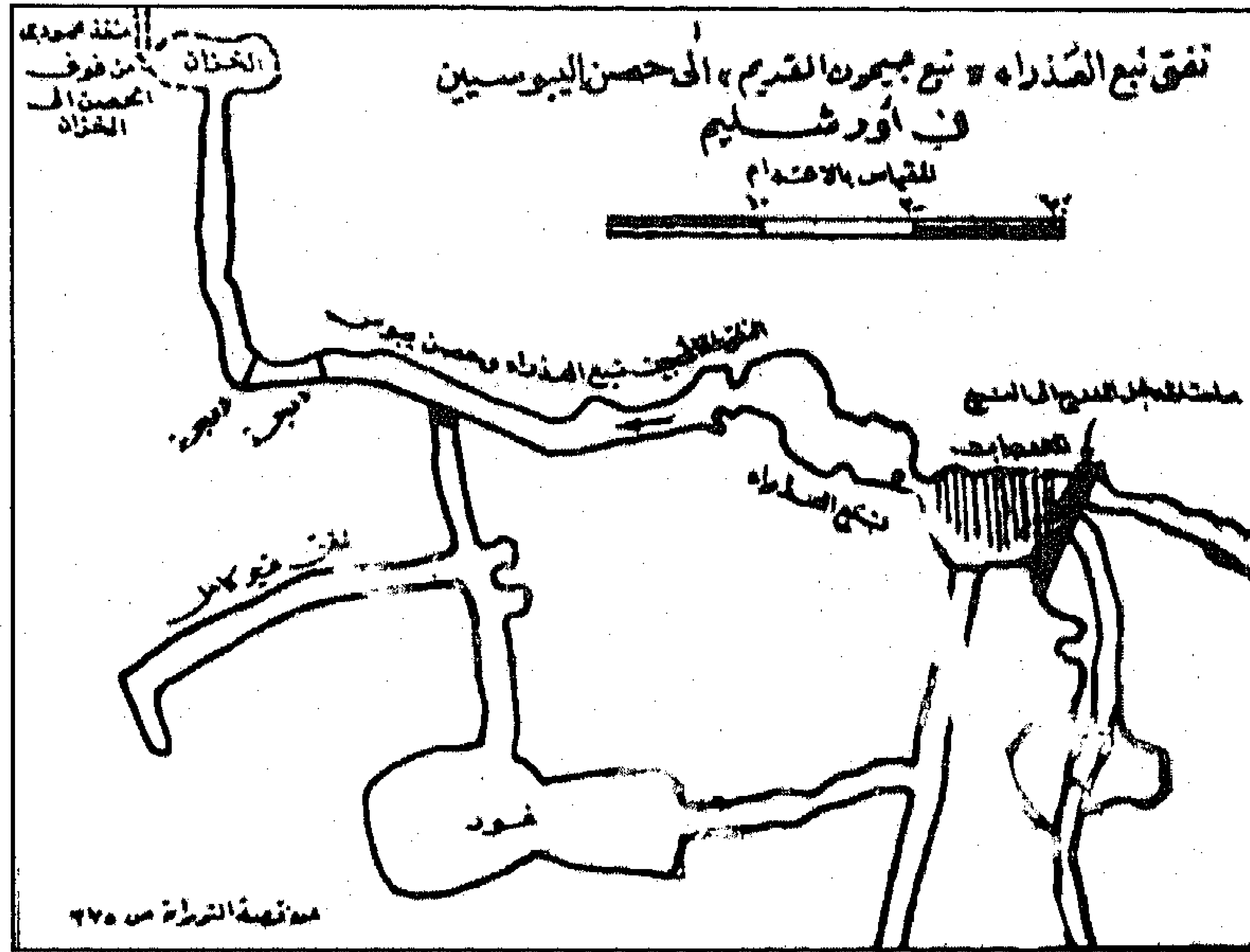
البئر التي فيها الخزان[1]. وقد كانت هذه العين تُسمّى قديماً باسم «عين جيحون» كما ورد اسمها في التوراة[2]، وما تزال هذه العين تموّن القدس بالماء وتعرف اليوم بـ «نبع العذراء»[3]. وقد ورد ذكر هذا النفق في التوراة في

---

(1) انظر الرسم رقم 3.
(2) (2 أخ، 33: 14)؛ (1 مل، 1: 33، 38).
(3) انظر الصورة رقم 2.

أخبار الملك داود حيث سُمّي بالقناة[1]. والظاهر، أن الملك داود اكتشف مدخله السري من خارج السور فأدخل رجاله فيه حتى وصلوا إلى منتهاه في داخل السور ومنه صعدوا إلى سطح الحصن وباغتوا اليبوسيين داخل الحصن واحتلوه بلا قتال على الأرجح[2]، وذلك بعد أن بقي صامداً زهاء ثلاثمائة عام مع وجود اليهود في فلسطين حتى احتله داود على قول التوراة.

ولم تقتصر هذه الأعمال على مدينتي «جازر» و«أورشليم» إذ وجد أمثالها من صنع الكنعانيين في مدن «جبعون» و«أبلْعام» و«مجدو»[3]. فالمشروع الذي أقيم في مجدو يتألف من مدخل عمودي مدرج عمقه 35 متراً تحت مستوى الأرض الطبيعية، ومن نهاية هذا المدخل يبدأ نفق محفور في الصخر يمتد أفقياً مسافة 63 متراً حتى يصل إلى عين الماء[4][5].



الرسم رقم (2)

---

(1) (2 صم، 5: 8).

(2) «The Story of the Bible», p.377; Lods, «Israël», p. 61; Vincent Jérusalem, Recherches....», T. 1, pp.146-160; Weill, «La Cité de David», pp.8-13, 48-49.

(3) Lods, «Israël», p.61.

(4) انظر الرسم رقم 4.

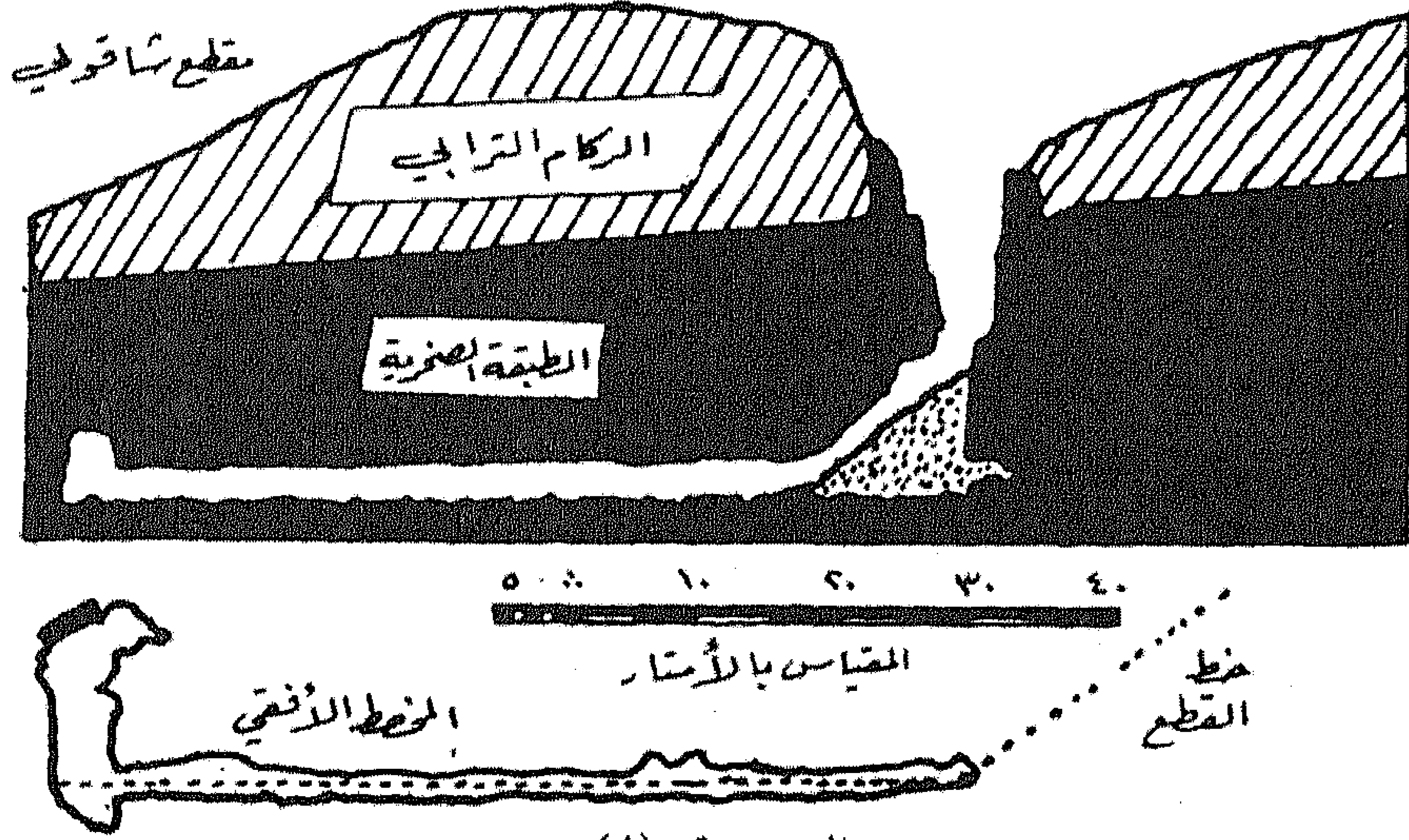
(5) Kathleen M. Kenyon, «Archaology in the Holy-Land», pp.233-235.

وقد اقتبس الكنعانيون فن البناء من البابليين وخاصة بناء الأقواس، إذ عُثر على طاق من بناء الكنعانيين في مجدّو يتحمل ثقلاً يزن 135 طناً[1].
«والكنعانيون هم الذين اخترعوا السفينة واهتدوا إلى عمل الزجاج ووضعوا نظام الحساب وهم الذين اخترعوا أبجدية الكتابة المختزلة بالنسبة للخط



الصورة رقم 2
المدخل المدرج إلى نبع العذراء (عين جيحون)

(1) Kathleen M. Kenyon, «**Archaology in the Holy-Land**», p. 64.



الرسم رقم (4)
مخطط ومقطع لنفق «مجدّو» المائي عن كاتلين لينبون «آثار الأرض المقدّسة» اللوحة 57

المسماري والهيروغليفي فلا غرو أن أصبح الخط الكنعاني أساساً لجميع خطوط العالم **المتمدن** في الشرق والغرب»[1].

وقد ازدهرت التجارة على يد الكنعانيين الذين مارسوها بكفاءة تامة، وقد لعب المصريون دوراً رئيسياً في الحفاظ على الأمن لتأمين المواصلات عبر البلاد الكنعانية، فقد كان كل ملك من ملوك الدويلات الكنعانية مسؤولاً عن سلامة مرور القوافل عبر أراضيه. وقد بلغت العلاقات التجارية بين مصر من جهة وبين بلاد كنعان وسوريا ولبنان من جهة أخرى أوج توسعها بعد الفتح المصري في القرن السادس عشر قبل الميلاد، فكان من أهم ما كانت تستورده مصر هو خشب أرز لبنان لصنع التوابيت وصنع المراكب البحرية، كل ذلك كان يساعد على تنمية وتوطيد العلاقات الودّية بين الأطراف المعنية.

ولا شك في أن الحضارة الكنعانية، وبخاصة ما يتعلق منها بالعقائد الدينية، شأنها في ذلك شأن جميع الحضارات الأخرى، قد تأثرت بدرجة

(1) الدكتور ولنغسون، «**تاريخ اللغات السامية**»، ص 52. (انظر ما يلي عن اختراع الكنعانيين للحروف الأبجدية في الفصل الثاني).

محسوسة بحضارتيّ وادي النيل ووادي الرافدين بالإضافة إلى الحضارات الأخرى كالحثية والحورية ولكن على رغم ذلك احتفظت بطابعها الكنعاني، أي الطابع البدوي السامي.



التصوير رقم 3

أسرة كنعانية من أريحا (أواسط العصر الحجري المعدني حوالي 4000 ق.م.)
صورة تخيلية لأسرة كنعانية في إحدى غرف بيوت أريحا القديمة
بالاستناد إلى المكتشفات التي عثر عليها في أطلال أريحا ومقابرها
(عن كاتلين كينيون، «آثار الأرض المقدّسة»، اللوحة 20)

وأعظم عمل قام به الكنعانيون للحضارة هو اختراعهم الأبجدية الهجائية الذي يعُتبر من أهم الاختراعات في تاريخ الحضارة البشرية. ويتّفق الباحثون على أن أصل الحروف الهجائية في العالم بدأ في كتابات الأقوام السامية الغربية الذين تمتد مناطقهم من طور سيناء إلى أقصى حدود بلاد الشام شمالاً وغرباً، إذ وجدت في هذه المناطق أنواع كثيرة من النقوش السامية بالحروف الأبجدية، وقد حمل الآراميون فيما بعد الحروف الأبجدية من سواحل البحر المتوسط شرقاً إلى آسيا حتى الهند كما نقلها الفينيقيون إلى أوروبا. وهكذا

تغلّبت الكتابة بالحروف الأبجدية على الكتابة بالمقاطع المسمارية التي كانت شائعة آنذاك[1].

ويقول العالم الألماني الدكتور مورتكات في وصف الكنعانيين: «إننا نعلم من خلال الحفريات التي أُجريت في جبيل (بيبلوس القديمة) في وسط ساحل بلاد الشام وبالاستناد إلى المراسلات الملكية في مدينة ماري ومن موجودات الطبقات السفلى في تل العطشانة (الخ) بالقرب من أنطاكية، أن أناساً ساميين غربيين قد قطنوا بلاد الشام على الأقل منذ نهاية الألف الثالثة ق.م. وأن هؤلاء كانوا على قرابة مع تلك الفئة السامية التي حكمت بلاد ما بين النهرين منذ سلالة حمورابي.

«أما من ناحية التسمية الخاصة فنطلق على هؤلاء الساميين في بلاد الشام اسم الكنعانيين. ولغتهم يجب أن تكون اللغة نفسها التي اقتبسها أولئك اليهود الذين نزحوا إلى الأرض المقدسة من السكّان الأصليين قبلهم هناك أي من الكنعانيين. وكذلك ينتسب الفينيقيون الأوائل، أي سكان السهل الضيق ما بين لبنان والبحر، إلى هذه المجموعة السامية الغربية أيضاً»[2].

وقد أشار المؤرّخون العرب إلى أن القبائل المعروفة بالبربر والتي استوطنت أراضي شمال أفريقيا كانت تقيم في الأصل في فلسطين إلى جانب الكنعانيين ثم أُخرجت منها في عهد الملك داود، فيقول المسعودي في ذلك «إن أرض البربر كانت أرض فلسطين من بلاد الشام، وإن ملكهم كان جالوت، وهذا الاسم سمة لسائر ملوكهم، إلى أن قتل ملكهم جالوت، فلم يتملك عليهم بعده ملك، وأنهم انتهوا إلى ديار المغرب فانتشروا هنالك... واختارت البربر سكنى الجبال والأودية والرمال والدهاس وأطراف البراري والقفار». وفي القول على أنساب البربر يذكر المسعودي أن الناس اختلفوا في بدء أنسابهم فمنهم من رأى أنهم من غسان وغيرهم من اليمن ومنهم من رأى

(1) انظر ما يلي في الفصل الثاني حول اختراع العرب للحروف الهجائية.
(2) مورتكات (أنطون)، «**تاريخ الشرق الأدنى القديم**»، ص 250.

أنهم من قيس عيلان»[1]. كما يقول ياقوت في معجمه (مادة البربر): «البربر هم من الجبارين الذين قاتلهم داود وطالوت وكانت منازلهم على الدهر ناحية فلسطين فلما أخرجوا من أرض فلسطين أتوا المغرب فتناسلوا فيه وأقاموا في جباله».

ج - الكنعانيون الفينيقيون:

كانت المستوطنات الكنعانية منقسمة إلى دويلات صغيرة محصنة على غرار دويلات المدن في جنوبي العراق وكانت هذه الدويلات في نزاع وحروب فيما بينها في الغالب، فاضطر بعضها إلى التمركز في سفوح جبال لبنان للاحتماء بها، وهكذا نشأت أهم المدن الكنعانية في سفوح الجبال على السواحل. وقد سمى اليونانيون مجموعة هذه المدن البحرية التي كانوا على اتصال معها اسم «فينيقيا» (Phoinix) وكانت تمارس هذه المدن الصناعة والتجارة الخارجية بينما كانت المدن الداخلية تحترف الزراعة وخاصة زراعة الأشجار في الغالب. وكان الفينيقيون يتّسمون بالكنعانيين وظلوا على هذه التسمية حتى العهد الروماني[2].

إن أهم المدن الفينيقية التي وردت أسماؤها في كتابات العمارنة المصرية والكتابات الآشورية ومدوّنات التوراة هي:

«عكو» (عكا حالياً)، «أكزيب» (الزيت حالياً)، «أحلب» (محلبا في الآشورية»[3] «قانة»[4]، «صور»[5]، «صرفة» (صرفند حالياً)[6]، «صيدون» (صيدا حالياً)[7]، «بيريتوس» (بيروت حالياً)، «بيبلوس» (جبيل حالياً)،

---

(1) المسعودي، **«مروج الذهب»**، ج 2، ص 95.

(2) **Universal Jewish Encyclopedia,** Vol. II, p.651.

(3) (قض، 1: 31).

(4) (يش، 19: 28).

(5) (يش، 19: 29).

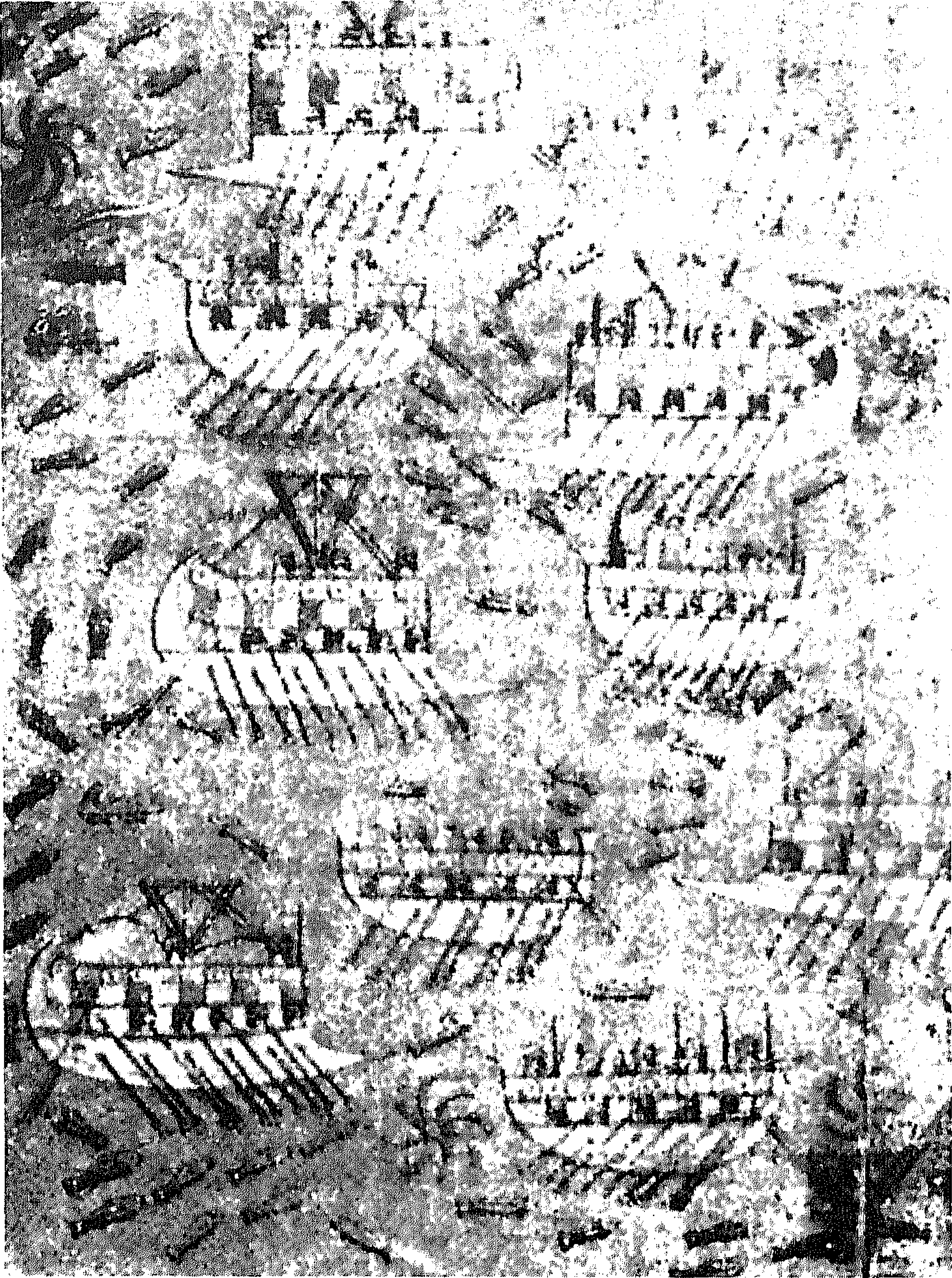
(6) (أمل، 17: 9).

(7) (يش، 19: 28).

«عرقة»[1] «سين» (سيانو في الآشورية)[2]، «صمّار» (سومرة حالياً)[3]، «أرواد أو رادوس» (أرواد حالياً)[4]، «أوغاريث» (تل رأس شمرا حالياً)[5].

وقد اشتهرت بلاد كنعان بنشاطاتها التجارية التي كانت تمارسها بكفاءة تامة مستفيدة من موقعها الجغرافي الهام، الذي يقع على طرق المواصلات الرئيسة التي تربط بلدان آسيا عبر الصحاري العربية مع بلدان أوروبا وشمال أفريقيا عبر البحر الأبيض المتوسط، في تنمية الحركة والعلاقات التجارية. فكانت المدن الكنعانية الداخلية ومن أهمها مدينة أورشليم التي كانت تتمتع بامتيازات خاصة في النواحي التجارية والاستراتيجية والدينية وبموقع هام يقع على ملتقى الطريقين الرئيسيين اللذين يربطان ما وراء الصحراء السورية بالساحل، وشمال كنعان بجنوبه، تؤلف مراكز حيوية للنشاط التجاري والحركة التجارية بين الشرق والغرب. أما المدن الساحلية، أي المدن الكنعانية (الفينيقية) فكانت تؤلف مراكز حيوية للنشاط التجاري والحركة التجارية الخارجية بين بلاد كنعان وبين بلدان أوروبا وشمال أفريقيا غرباً. وقد اشتهر الفينيقيون، سكان السواحل بصناعة بناء السفن ولا سيما السفن ذات الصفوف الثلاثة من المجاذيف مستفيدين من أرز لبنان الشهير، في تلك الصناعة، لجودة خشبه وصلابته. وكذلك صمموا لأنفسهم نموذجاً خاصاً يختلف اختلافاً كلياً عن النموذج المصري المعقوف من طرفيه نحو الأعلى عندما زوّدوا مقدّمة سفنهم بمنقار معدني بارز إلى الأمام يساعدها على شق الماء وزيادة سرعتها وبالتالي على أعطاف السفن المغيرة. وقد عُثر على نماذج لهذه السفن ذات المناقير منقوشة على جدران قصر سنحاريب ملك آشور الذي كان قد استعان بالأساطيل الفينيقية في أغراضه الخاصة [6]. وقد ساعدهم ذلك على الابتعاد

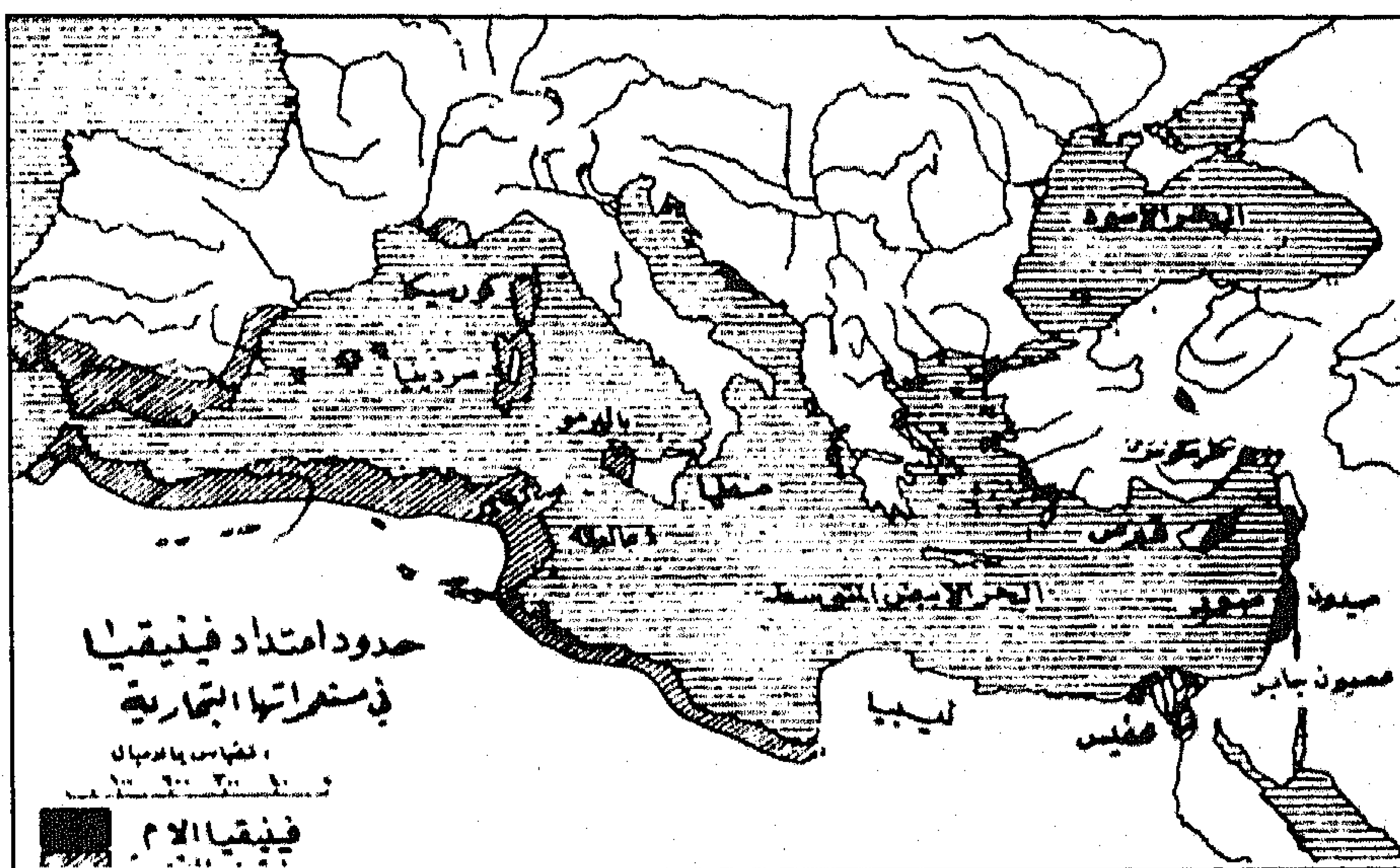
(1) (تك، 10: 17)، (1 أخ، 1: 15).
(2) (تك، 10: 17).
(3) (تك، 10: 18).
(4) (تك، 10: 18).
(5) أنيس فريحة، «**ملاحم وأساطير من أوغاريث**»، بيروت 1966.
(6) انظر الصورة رقم 4.



الصورة رقم (4)

أسطول تجاري فينيقي ترافقه بعض السفن الحربية ذات المناقير
من اللوحات التي كانت تزيّن جدران قصر سنحاريب في نينوى (حوالي 7000 ق.م.)

في أسفارهم وإطالة رحلاتهم البحرية، فاحتكروا أشهر الطرق البحرية وأقاموا لهم مستعمرات تجارية في قبرص وصقلية وسردينية وكورسيكا ومالطا وفي شمال أفريقيا وفي إسبانيا. وأنشأوا المستودعات والمصارف في مرسيليا وروما وكولونيا وبريطانيا ومصر وأورشليم وتدمر[1] وكانت «قرطاجة» الواقعة في جوار تونس الحالية أهم المستعمرات التجارية الفينيقية[2]، فقد اتّسع نفوذها في البحر المتوسط حتى قيل: «لا يقوى الرومان على غسل أيديهم فيه إلّا بإذن من قرطاجة»[3] وكان القرطاجيون مثل الفينيقيين يتّسمون بالكنعانيين[4]. وقد بلغ توسّع الفينيقيين وازدهار تجارتهم أوجهما بين منتصف القرن العاشر



الرسم رقم (5)

ومنتصف القرن الثامن قبل الميلاد[5]. وقد اشتهرت صور بثرائها حتى قال

---

(1) انظر الرسم رقم 5.

(2) R. B. Smith, «**Carthage and the Carthaginians**».

(3) العقيقي، «المستشرقون»، ج 1، ص 19.

(4) **Universal Jewish Eny.** Vol:: II, p.651.

(5) Hitti, «**History of Syria**», p. 103.

المؤرّخون إن الفضة كانت مكدّسة في أسواقها مثل التراب والذهب كوحل الطرقات، وإن بيوتها كانت أعلى من بيوت روما على حدّ قول سترابو وقد حافظت مع بسالة أهلها على استقلالها حتى قضى عليها الإسكندر الكبير بعد حصار دام زهاء عشر سنوات[1]. وقد عاشت فينيقيا 3500 سنة شهدت خلالها الفراعنة (2900 ـ 1300 ق.م.)، الآشوريين (774 ـ 635 ق.م.)، والكلدانيين (586 ـ 538 ق.م.)، والفرس (538 ـ 332 ق.م.)، ثم شهدت الإسكندر الكبير وخلفاءه والرومان والبيزنطيين حتى قضى عليها الفتح الإسلامي سنة 635م[2].

د ـ دور الفينيقيين في تقدّم العلوم:

وقد ساهم الفينيقيون في نشر العلوم ونقلها إلى أوروبا وتعاونوا مع زملائهم المصريين والفلسطينيين (الكنعانيين) والسوريين على إبراز الثقافة الفينيقية ذات الطابع الشرقي، فظهر منهم علماء من مشاهيرهم: (زينون الرواقي) «336 ـ 264 ق.م.» وهو من أصل فينيقي ولد في قبرص وقصد أثينا سنة 314 ق.م. وأنشأ رواقاً فيها سنة 301 ق.م.، ونشر جمهوريته سنة 300 ق.م. فأعجبت الجمعية الأثينية به وسلّمته مفاتيح الأسوار وأهدته تاجاً من الذهب ولما توفي كُتب على قبره: «لن يضيرك منبتك في فينيقيا ضيراً الخ...» ومنهم فيلون الجبيلي (61 ـ 141م) وهو مؤرخ ومترجم له تصانيف كثيرة ومن أمهاتها «الديانة الفينيقية، والترجمة الكاملة» لـ «تاريخ سانخونياتن» من اللغة الفينيقية إلى اللغة اليونانية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن فيلون الجبيلي هو غير فيلون الفيلسوف اليهودي الإسكندراني.

ومنهم أدريانوس الصوري (القرن الثاني الميلادي)، فيلسوف تبوأ كرسي البلاغة في أثينا وكان يذهب إلى الندوة في عربة، عدّة جيادها من الفضة،

---

(1) انظر المراجع الآتية عن فينيقيا:

G. A. Cooke, «**Phoenicia**», Enc. Brit., 1965, Vol. 17, pp. 763-769.

Contenau. «**La civilisation phénicience**», 1946 Rawlinson, «**History of Phoenicia**», 1889.

(2) العقيقي، «**المستشرقون**»، ج 1، ص 18.

وعليه أثواب تتلألأ بالجواهر ويستهلّ محاضراته بتلك العبارة المأثورة عنه: «ها قد عادت الآداب مرة أخرى من فينيقيا»، وقد استمع إليه هادريان وماركوس أورليوس، وخلعا عليه ووهباه الذهب والبيوت والعبيد، ولما قصد روما عيّن أستاذاً للبلاغة فيها[1] ومنهم بابينان (175 ـ 212م) تعلّم القانون وعلّمه في مدرسة الحقوق ببيروت، جعله سبتيموس سفيروس أحد قائدي الحرس الإمبراطوري، ومنهم أولبيان الصوري (170 ـ 228م) تخرّج في القانون من مدرسة الحقوق في بيروت وخلف منافسه بابينان فيها، ومنهم أنتيباتر الصيداوي (القرن الثالث الميلادي) وأصله من صور تتلمذ على أدريانوس واختاره سبتيموس سفيروس أميناً له ومؤدباً لولديه. ومنهم بورفيروس الصوري (233 ـ 305م)، وهو أحد ألمع فلاسفة وعلماء الفينيقيين في القرن الثالث الميلادي. ولد في صور وتعلّم فيها ثم انتقل إلى أثينا وروما والإسكندرية حيث درس الأفلاطونية الجديدة على أفلوطين وعلّمها بدوره في روما حتى وفاته، له عدد من المصنفات في الفلسفة والنحو والبلاغة والرياضيات وعلم النفس والموسيقى والنبات[2]. له ما ينيف على سبعين مؤلفاً ومصنفاً في مختلف العلوم الإنسانية: الفلسفة، النحو، البلاغة، الرياضيات، علم الفلك، علم النفس، الموسيقى، النبات والخ[3]... وقد اعتبرت شروحه في الفلسفة مرجعاً أساسياً من مراجع فلسفة القرون الوسطى في أوروبا وكذلك اعتمدت شروحه في الفلسفة العربية أيضاً. وقد ذكر له ابن النديم في الفهرست تسعة كتب مترجمة إلى اللغة العربية. أحرقت أهم مقالاته التي كانت تؤلف خمسة عشر مجلداً سنة 448م.

وكان للفينيقيين اليد الطولى في تقدّم علم الجغرافيا، فمن مراكز تجارتهم في صور وصيدا، ثم من مستعمرتهم الكبرى «قرطاجة[4] أخذوا

(1) العقيقي، «المستشرقون»، ج 1، ص 24.

(2) المرجع السابق، ص 25.

(3) المصدر نفسه، ص 25.

(4) تعدّ قرطاجة (Carthage) من أقدم المدن التاريخية المشهورة في حوض البحر المتوسط، أسّستها «ديدو» أميرة صور على ساحل شمال أفريقيا سنة 814 ق.م. على قول المؤرّخ الصقلي =

يجوبون البحار فاحتكروا أشهر الطرق البحرية حتى امتدت اتصالاتهم التجارية من الجزر البريطانية إلى البحر الأحمر.

= تيمايوس (Timaeus) سُمِّيت أحياناً بالاسم الفينيقي «قرثادشت» (Qarthadasht) بمعنى المدينة الجديدة، ويرجّح أن هذه التسمية الأخيرة انتقلت من مدينة للفينيقيين بهذا الاسم في قبرص ورد ذكرها في قائمة سرجون الثاني (720 ق.م.) للبلاد التي كانت خاضعة للجزية. وما وافى القرن السادس ق.م. حتى صارت قرطاجة من أجمل العواصم وتنافس أمها «صور» جمالاً وعظمة. وامتدّت رقعتها من حدود برقة إلى الأطلسي وتمكّنت من ضمّ جزر الباليار حتى جزر الديرا إليها. وقد سيطر أسطولها المؤلف من خمسمائة قطعة ذات خمسة صفوف من المجذفين حتى تمكّن القرطاجيون من إقفال حوض البحر المتوسط في وجه التجارة اليونانية ثم الرومانية. ولما حاول اليونان أن يزاحموا الفينيقيين في مستعمراتهم في صقلية وإسبانيا دمر القرطاجيون أسطولهم سنة 535 ق.م. واستمر نزاعهم مع القرطاجيين على صقلية في حروب متواصلة بين سنة 480 و368 ق.م. ثم انتصر الرومان لليونان على القرطاجيين سنة 264 ق.م. فهزموهم في أكبر معركة سنة 256 ق.م. واضطروهم في النهاية إلى طلب الصلح سنة 241 ق.م.

وفي الربع الأخير من القرن الثالث قبل الميلاد قامت قرطاجة بحملات حربية على إسبانيا استمرت تسع سنوات تمكّن الأمير «هاد سروبال» (Hadsrubal) في النهاية من فرض سيطرته على الساحل الجنوبي من إسبانيا فأنشأ مدينة هناك سنة 227 ق.م. سمّاها «قرطاجنة» (Carthagena) وعقد اتفاقية مع روما حدّدت بموجبها حدود منطقة نفوذ كل من المعنيين بالأمر في جنوب شرقي إسبانيا. وبعد مرور حوالي ثمانين سنة تمكّن الرومان سنة 146 ق.م. من التغلب على قرطاجة الأم فسقطت بأيديهم وصمّموا على تدميرها تدميراً تاماً. فأحرقوها وظلّت النيران مشتعلة فيها سبعة عشر يوماً، ولم يسمحوا لأحد أن يسكنها، إلّا أنه أعيد إنشاؤها فيما بعد فأعاد يوليوس قيصر بناءها وأسكن فيها جماعة ممّن لا أرض لهم. وفي سنة 29 ق.م. أرسل أغسطس جماعة أخرى إليها وجعلها مركزاً لإدارة المقاطعة الرومانية في أفريقيا، وقد سمّيت المستعمرة الرومانية الجديدة في شمال أفريقيا «مستعمرة جوليا القرطاجية» (Colonia Julia Carthago). وقد ازدهرت المدينة في هذا العهد الجديد حتى أصبحت في مصاف المدن الشهيرة في ذلك الزمن مثل الإسكندرية وأنطاكيا وأصبحت المدينة المفضلة لدى الأباطرة الرومان مع أنه لم يسكنها أحد منهم. وقد جمّلها هادريان في عهده وسمّاها باسمه «هادريانو بوليس» (Hadrianopolis) ثم أخذت المدينة تتدهور منذ القرن الثالث الميلادي حتى فقدت أهميتها السياسية والتجارية. هذا مع العلم أن قرطاجنة الإسبانية ما زالت قائمة تُعرف باسمها القديم «قرطاجنة». (**دائرة المعارف البريطانية**، طبعة 1965، ج4، ص969، نجيب العقيقي «**المستشرقون**»، ج1، ص19).

ويروي لنا هيرودوتس (450 ق.م.) أن الملك «نيخو» الذي حكم مصر بين سنة 609 وسنة 593 ق.م. أرسل جماعة من الفينيقيين ليطوفوا حوالي أفريقيا فأدّى ذلك إلى استكشاف ليبيا لأول مرة. وإليك ما كتبه هيرودوتس في هذا الصدد قال:

«ويظهر أن ليبيا نفسها يحيط بها البحر إلّا من جهة اتصالها بآسيا، ونيخو ملك مصر هو أول من نعلم أنه أثبت ذلك بالبرهان فإنه لما توقّف عن حفر الترعة التي كان المراد من حفرها إيصال مياه النيل إلى الخليج العربي (البحر الأحمر) أرسل جماعة من الفينيقيين في المراكب وأمرهم أن يدخلوا في رجوعهم من البحر الشمالي مارّين بأعمدة هرقليس (جبل طارق) وبهذه الكيفية يرجعون إلى مصر.

«فركب الفينيقيون بحر أيريتريا وسافروا في البحر الجنوبي، فلما دخل الخريف نزلوا من ليبيا في المكان الذي وجدوا فيه وزرعوا القمح وانتظروا وقت الحصاد وبعد الاستغلال ركبوا البحر وسافروا هكذا سنتين، وفي السنة الثالثة اجتازوا أعمدة هرقليس (جبل طارق) ورجعوا إلى مصر وهكذا عُرفت ليبيا لأول مرة»[1].

ومن الغريب أن هيرودوتس لم يشر في تاريخه إلى الرحلة التي قام بها «حانون» القرطاجي في حدود سنة 600 ق.م. والتي تُعدّ أهم بعثة فينيقية أرسلت للطواف في غرب أفريقيا، وقد دوّن «حانون» وصفاً رائعاً لرحلته هذه باللغة الفينيقية على لوح وضع في معبد الإله «كرونوس» («إيل» بحسب التسمية الفينيقية) في قرطاجة، وقد وصلت إلينا ترجمة يونانية مجهولة التاريخ لهذه الوثيقة بعنوان «رحلة حانون البحرية» (Hannonis Periplus) وهي تعدّ اليوم أقدم وثيقة تاريخية في علم الجغرافيا القديمة، توجد لها ترجمة إنكليزية قام بها المستر فالكونر في سنة 1797م[2]، كما توجد خلاصة عن هذه الرحلة مع

---

(1) «**تاريخ هيرودتس**»، الكتاب الرابع، الفقرة 42.

(2) T. Falconer. «**The Voyage of Hanno; translated and occompained with the Greek Text**», London, 1797.

وانظر أيضاً وصف رحلة حانون ملك القرطاجيين حول مناطق ليبيا في: Rawlinson, «**Phoenicia**», pp. 389-292.

خارطة مفصلة للمواقع التي وصل إليها «حانون» وجماعته في كتاب «جغرافية هيرودوتس» تأليف جيمس رينيل ص719 ـ 752. وقد جاء في مقدّمة هذه الوثيقة أن الغاية من إرسال القرطاجيين هذه الحملة إلى ما وراء أعمدة هرقليس (جبل طارق) هي تأسيس مستعمرات من الفينيقيين في ليبيا، وعلى هذا الأساس أبحر «حانون» ومعه ثلاثون ألف شخص من رجال ونساء في أسطول مؤلف من ستين مركباً من ذوات الخمسين مجذافاً محمّلة بجميع مستلزمات البعثة الضرورية لتحقيق أغراضها.

يستدلّ مما تقدّم أن الفينيقيين بحكم احتكاكهم بالثقافة البابلية وامتداد اتصالاتهم التجارية إلى ما وراء البحار واكتشافاتهم على ساحل أفريقيا الغربي وتأسيس مستعمراتهم على طول شواطىء البحر المتوسط أصبحت لديهم معلومات جغرافية وخبرة واسعة في عالم الملاحة البحرية مما حمل المصريين على الاستعانة بهم وبسفنهم في رحلاتهم البحرية. ولما ظهرت الإمبراطورية الآشورية إلى الوجود كان اتساع حدودها يستوجب الإحاطة بجغرافية البلاد التي وقعت تحت سيطرتهم فاحتذوا حذو المصريين في الاستعانة بالفينيقيين وخبرتهم لتوسيع معلوماتهم الجغرافية عن البلاد التي احتلّوها والبقاع المجاورة لها. وهكذا بقيت أكثر الأعمال التجارية داخل حدود الإمبراطورية الآشورية بيد التجّار الصوريين من الفينيقيين وقد امتدّت بعيداً حتى وصلت إلى حدود الهند شرقاً وإسبانيا غرباً، وقد وهب الملك أسرحدون (681 ـ 669) قسماً كبيراً من سواحل فلسطين لملك صور تقديراً لمساعداته.

ومما يدلّ على تقدّم الفينيقيين العلمي هو أنهم بلغوا من المعرفة درجة توصّلوا معها على استنباط طريقة فنية لتحنيط جثث ملوكهم لا تقلّ إتقاناً عن الطريقة المصرية. وتوجد الآن في متحف اسطنبول إحدى «مومياءاتهم» (مومياء الملك ميدا المدعو «تابينيت» (Tabinit) التي تدلّ على مدى تقدّمهم في هذا المضمار.

ومجمل القول إنه يمكن الجزم بأن الآشوريين ثم اليونانيين استمدّوا أكثر ما في ثقافتهم وحضارتهم وعلومهم من البابليين والفينيقيين. وهذا شأن المدنيات العالمية ما قامت مدنية إلّا واستمدّت مادتها مما سبقها من مدنيات

أخرى قامت قبلها. والمعلوم أنه، بعد سقوط قرطاجة بيد الرومان في القرن الثاني قبل الميلاد، حدث خمول في مسيرة الحركة العلمية في فينيقيا ولكنها سرعان ما عادت إلى نشاطها الأول فأصبحت صور وصيدا مركزاً للعلوم والمعرفة من جديد، وقد حلّت هذه المرة اللغة اليونانية بدل اللغة الفينيقية وصار الفينيقيون يحملون أسماء يونانية، إلا أنه بقي هناك عدد من الفينيقيين الذين تمسّكوا بالثقافة والتقاليد الفينيقية، وقد برز من بين هؤلاء مارينوس الصوري (Marinus of Tyre) والمعروف أن مارينوس هذا ألّف كتاباً في الجغرافيا ووضع خارطة للعالم في سنة 120 للميلاد كانت تستند إلى معلومات جغرافية فينيقية، ويقول عنه رولنسون إنه كان أول كاتب في الجغرافيا اتّخذ الطريقة العلمية الرياضية في صنع الخرائط المستندة إلى خطوط الطول والعرض، وقد كان عمل بطليموس في القرن الثاني الميلادي قائماً كلياً على دراسة مارينوس في الجغرافيا وخارطته المستندة إلى مدوّنات فينيقية سابقة[1].

والشائع عند الباحثين في التاريخ القديم أن الفينيقيين جاؤوا في الأصل من منطقة البحرين والساحل المقابل لها، فذكر الرحّالة الجغرافي سترابون (القرن الأول ق.م.) في كتابه في الجغرافيا أن هناك جزيرتين في الخليج العربي باسمي (صور وأرواد) وفيهما هياكل تشبه هياكل الفينيقيين فقال ما نصه: «إذا سرت في الخليج العربي رأيت جزيرتين (صور وأرواد) وفيهما هياكل تشبه هياكل الفينيقيين»[2]. والمعلوم أن صور مدينة الفينيقيين الكبرى وأرواد جزيرة لهم هناك، فهذا الاتفاق في أسماء المدن وهذا التشابه في الهياكل الدينية بين بلادين متباعدتين لا ريب أنه يدلّ على أن وطن الفينيقيين الأول هو الخليج العربي، إذ كانت عادة العرب إذا هاجروا هجرات كبرى إلى أقطار أخرى أن يتّخذوا لهم في الوطن الجديد مدناً على اسم مدن وطنهم الأول. ففي الأندلس مثلاً سموا غرناطة دمشق الغرب، وسموا المدينة

(1) Rawlinson, op. cit., pp. 404, 548.

(2) (**الجغرافيا**، ج16، ص3 و4.

الخضراء تذكيراً بالخضراء دار الخلافة بدمشق، وسمّوا إشبيلية باسم (حمص) واتّخذوا لهم في الأندلس رصافة مثل رصافة الشام.

لذلك يرى البعض أن التقاليد كلها متّفقة على أن الفينيقيين هاجروا من وطنهم في البحرين سالكين الساحل فسكنوا في بادىء الأمر بالقرب من الكوشيين إخوتهم الأصليين عند أرياف البحر الأحمر أو الخليج العربي أي في الجهة التي تُسمّى اليوم (القطيف) وأنهم سلكوا طريق القوافل الممتدة من ناحية القطيف ومتّصلة ببلاد الإحساء وكامل وادي غطفان إلى حدّ جبل طويق، ثم اتجهوا نحو وادي الفرات ومن وادي الفرات انساحوا إلى لبنان حيث استقروا على الساحل في المنطقة التي عرفت باسمهم أي فينيقيا (Phoenicia) ويستشهد الباحثون بالمقابر التي عُثر عليها في البحرين التي يرى الذين عنوا بدراستها وفحصها أنها مقابر فينيقية[1].

وقد روى هيرودوتس الذي زار فينيقيا عام 450 ق.م. واجتمع بأهلها وتحدّث إليهم عن ماضيهم أن الفينيقيين ـ كما يخبرون هم أنفسهم ـ أقاموا أولاً عند البحر الأريتيري ولكنهم رحلوا من هناك وجاؤوا إلى سوريا وسكنوا سواحلها، لأن اليونانيين كانوا يسمّون كل المياه المحيطة بجنوب جزيرة العرب من الجهات الثلاث (بحر أريتريا) (العدد 89، الكتاب السابع). وذكر هيرودوتس أيضاً في العدد الأول من الكتاب الأول «أن الفينيقيين كانوا في أقدم أزمانهم يقطنون ساحل (بحر أريتريا).

هـ ـ الديانة الكنعانية/ الفينيقية:

أما الديانة الكنعانية الفينيقية فعلى الرغم من تأثير الثقافة المصرية والثقافة البابلية والثقافة اليونانية فيها لاحتكاكها بهذه الثقافات احتفظت بطابعها البدوي السامي وبالتقاليد القديمة السائدة في شبه جزيرة العرب. فكان أكبر آلهة الكنعانيين وأعلاها مقاماً الإله «إيل» الذي لقّب بالإله العلي

---

(1) (الدكتور جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب**، ج1، ص567 نقلاً عن Hastings **Dictionary of the Bible** p.725.

أو الإلٰه العظيم (Supreme God)، وهو اسم الإلٰه «إيل» نفسه الوارد في التوراة[1]. وقد دعاه يعقوب (الله)[2]. ووصفته التراتيل الشعرية الكنعانية بأنه هو الذي يبعث بمياه الأنهر لتجري في الأرض وتحيي مواتها، وهو الذي يبعث بالمطر فيجعل الأودية تفيض عسلاً، وهذا هو الاصطلاح نفسه الذي ورد في التوراة في وصف خصوبة أرض كنعان[3]. والإلٰه «إيل» هو الذي يمنح الإذن بإنشاء المعابد إلى الآلهة الأخرى، وهو القادر على كل شيء والحاكم والملك المطلق لا ينافسه منافس ولا يستطيع أحد أن يغيّر من إرادته وحكمه السامي، وجميع أرض كنعان هي أرض الإلٰه إيل. وقد عُثر على كتاب موجّه إلى أحد الملوك الكنعانيين يستهلّه كاتبه بذكر الإلٰه وتسميته بـ «سيد الآلهة الحامي» (The Protection of the Lord of Gods) ويقع مقر الإلٰه «إيل» باعتقاد الكنعانيين في منطقة في الغرب حيث تغيب الشمس عند مصبّ الأنهر في البحر وقد سُمِّي مقامه بحقول إيل (Fields of El) ويرى العلّامة «شافر» أن ما يسبغه الكنعانيون من نعوت التعظيم والتفوّق لإلٰه واحد فوق الجميع يدلّ دلالة واضحة على ميل الكنعانيين لتقبّل عقيدة التوحيد[4]. وانطلاقاً من هذه العقيدة نطق الملك الكنعاني «ملكي صادق» ملك أورشليم باسم «الله العلي». وبهذا المفهوم كان الإلٰه العلي مالك السموات والأرض يتجلّى واضحاً في العقل الكنعاني.

وقد جاء ما يؤيد ذلك على لسان التوراة، فلما دخل الموسويون إلى أرض كنعان كانت هناك قبيلة كنعانية بزعامة نبي كنعاني يدعى «بلعام» تمارس عقيدة التوحيد. وقد كان لهذا النبي الموحّد مكانة روحانية سامية في أرض كنعان كلها وهذا الأمر هو الذي حمل شيوخ كنعان وموآب ومديان على أن يقصدوه للتوسل إليه أن يلعن قوم موسى لردّهم عن غزو بلادهم ولكن الرب

---

(1) ورد اسم «إيل» **في التوراة** 229 مرة في **أسفار التكوين والخروج وأشعيا وأيوب**.

(2) (تك، 28: 17 ـ 19).

(3) (خر، 3: 8، 17)؛ (لا، 30: 21)؛ (عد، 16: 13 ـ 14)؛ (تث، 26: 9، 15)؛ (يش، 5: 16)؛ (إر، 11: 5)؛ (حز، 20: 6).

(4) C.F.A Schaeffer, «**The Cuneiform Texts of Ugarit**», London, 1939, pp. 59-72.

أوحى إليه بعدم الاستجابة إلى طلبهم، وهذا ما يدلّ أيضاً على أن عقيدة التوحيد كانت معروفة عند الكنعانيين(1).

وفي تعليق على ديانة الكنعانيين ومكانة الإلٰه «إيل» فيها يقول الشيخ نسيب الخازن: «لم تكن أخلاق الكنعانيين مهيَّأة للغزو والتقتيل. كانت ديانتهم وملاحمهم وآدابهم تدور حول أبوّة الواحد (إيل) ومن صفاته أنه السيد (بعل) و(أدون) كما نحن نقول الخالق الجبار الخ والعناية(2)..

وقد ورد اسم الإلٰه «إيل» في الكتابات الفينيقية بصيغة «إيلوس» وهو الإلٰه نفسه «إيل» الكنعاني الذي عرف بأبي السنين كما تسميه محفوظات أوغاريت، مطلع ملحمة «بعل وعناة»(3).

وفي موضوع الإلٰه «إيل» ومكانته عند العرب يقول الدكتور ديتليف نيلسن في بحثه التاريخي القيّم عن الديانة القديمة في شبه جزيرة العرب: «إن هناك اسماً واحداً بين أسماء آلهة العرب يجب أن نذكره وهو مشترك بين جميع الأسماء وبه تتصل أكبر مشكلة في الديانات السامية وذلك الاسم هو (إل) أو (إلٰه) بمعنى (الله) وكان الإلٰه (إل) معروفاً في كل مجاميع النقوش العربية القديمة، فذلك الإلٰه وذلك الاسم كانا إذن معروفين فيها قبل الإسلام ليس فقط في شمال بلاد العرب بل وفي كل جزيرة العرب... وعند الساميين الشماليين نجد اسم الإله (بعل) كثير الورود ومعنى هذا اللفظ (سيد) وهو يقابل (إل) عند العرب.. ويجب الملاحظة أن (إل) أو (إله) في العصر التاريخي كما تحدّثنا النقوش السامية القديمة والتي ترجع إلى عصر تعدّد الآلهة كان ينظر إليه كإله قمري لذلك يجب أن نعرض لدراسة اسمه هنا ضمن أسماء إلٰه القمر. وقد صدق ديسو (Dussaud) في قوله: «إن النقوش الصفوية(4) أخبرتنا وللمرة الأولى وبدليل لا يقبل الشك كيف أن (الله) كان معروفاً

(1) (عد، ص: 22).

(2) الشيخ نسيب الخازن، «**من الساميين إلى العرب**»، ص 40.

(3) يوسف الحوراني، «**نظرية التكوين الفينيقية**».

(4) يقصد هنا بالنقوش الصفوية الكتابات التي تعدّ هي واللحيانية والثمودية من أقدم الخطوط السامية في جنوب الجزيرة العربية وقد اندثرت قبل الإسلام. وقد عُثر على الكتابات الصفوية في منطقة الصفاة شرقي الشام وفي بادية الشام أيضاً فسمّيت باسمها. وهذا الاسم =

لدى العرب وكان مقدساً خاصة في المجمع الإلٰهي العربي الشمالي قبل أن يبشّر به الإسلام كإلٰه للتوحيد[1].

وكان للإلٰه (إيل) المكانة السامية نفسها عند الآراميين، فقد ورد اسمه مضافاً إلى أسماء بعض ملوكهم، فقد اشتهر بين الملوك الآراميين الملك «متى ـ إيل» ملك أرباد الذي عقد معاهدة دفاع مشترك مع الملك الآشوري نيراري (754 ـ 745 ق.م.)[2]. كما اتخذ الهكسوس الذين حكموا مصر بين سنة 1785 وسنة 1580 ق.م. اسم الإلٰه «إيل» للتبرّك به فأضيف إلى أسماء بعض ملوكهم، إذ ورد ذكر أحد ملوكهم باسم «يعقوب ـ إيل» أي «ليحم الإله إيل يعقوب» وقد ورد ذكر مكان باسم «يوسف ـ إيل»[3]. ومما يثبت جلياً أن كلمة «إيل» بمعنى الإلٰه العظيم كنعانية عربية الأصل أن أكثر ملوك معين وسبأ صاروا يضيفون اسم الإلٰه «إيل» إلى أسمائهم تبرّكاً به[4].

ويؤكد الأستاذ الجميلي أن: «إيل كلمة عربية الأصل وقد كانت منذ القديم في مختلف اللهجات العربية القديمة بمعنى الإلٰه، وهي كلمة تعني الرب أو الإلٰه، وقد وردت في مختلف اللهجات العربية القديمة، في المعينية والسبئية والبابلية والآرامية والكنعانية والسينائية والعبرانية فتطورت عنها كلمة الإلٰه أو الله في العربية الفصحى»[5]. ويذكر قاموس الكتاب المقدس[6] أن كلمة «إيل» كلمة سامية ومعناها في الأكادية الإلٰه بصورة عامة أما في الأوغرتية[7] فإنها تعني «أبو الآلهة».

= لا يُطلق على قوم أو قبيلة وإنما يُطلق فقط على تلك النقوش التي عُثر عليها ناحية الصفاة في المكان المعروف بالحرة القريبة من الأودية الواقعة بين جبل الدروز والرحبة.

(1) ديسو: «**التاريخ العربي القديم**»، ص 210 ـ 216.

(2) **سومر**، م 19 (1963)، ص 119.

(3) Olmstead, «**History of palestine and Syria**», 1931, p.106.

(4) انظر الصورة رقم 53.

(5) الأستاذ الجميلي: «**تاريخ العرب في الجاهلية**».

(6) الطبعة الثانية، آذار 1971، بيروت، ص 142.

(7) نسبة إلى أوغاريت.

وكانت للإلٰه «إيل» باعتقاد الكنعانيين زوجة هي الإلٰهة «عاشيرة» الآلهة الأم، إلٰهة البحر، ومن أولادها الإلٰه «بعل» إلٰه الخصب والأمطار، وهو البعل والبعليم الوارد في التوراة والذي عاد اليهود فعبدوه وسجدوا له[1]، وكان للبعل أخت هي الإلهة «عانات». ومن الآلهة الكنعانية أيضاً الإلٰه «مولك» أو الإلٰه «ملكوم»، وهو إلٰه بني عمون الذي ورد ذكره في التوراة باسم رجس بني عمون وقد عبده اليهود أيضاً[2]. وكان الكنعانيون يعبدون أيضاً «عشتروت» إلهة الخصب وهي تقابل الإلهة «عشتار» البابلية، وقد ورد ذكرها في التوراة وقد عبدها اليهود[3] أيضاً. وكان معبود مدينة بيبلوس الإلٰه «أدونيس» وهو يمثّل إلٰه الخصب مثل الإلٰه «بعل».

وكان الإلٰه «بعل» يمثّل الدورة الإنباتية التي تجد ما يقابلها في التقاليد الدينية السامية الأخرى، ففي ملحمة شعرية عُثر عليها في أوغاريت عرض خلاب لموت بعل ثم عودته إلى الحياة ليمثّل الدورة الموسمية بموت النبات في الصيف ثم عودته في الربيع بعد سقوط الأمطار. وتصف الملحمة كيف تقوم الإلهة «عانات» بحمل جثمان «بعل»، بعد أن قتله «موت» إلٰه مملكة الموت، ودفنه هناك مع تشييع يليق بمقامه. ونجد بعد ذلك وصفاً شعرياً يمثّل الفرح بعودة «بعل» إلى الحياة تلك العودة المصحوبة بالأمطار وطغيان الوديان وجريان مياهها وقد شبّهت بالعسل، ويلاحظ أن مثل هذا الوصف ورد في المزامير التوراتية. وفي ملحمة أخرى عُثر عليها في أوغاريث أيضاً وصف شعري رائع تدور حوادثه حول الاستئذان من الإلٰه «إيل» لبناء قصر لـ «بعل» وقيام الإلهة عاشيرة برحلة لتحقيق هذه المهمة[4]. وقد وجد في الكتابات

(1) لا يكاد يخلو إصحاح من إصحاحات سفر القضاة من إشارة إلى البعل أو البعليم وكذلك إصحاحات سفيري الملوك. راجع على سبيل المثال لا الحصر: (قض، 1: 11، 13)؛ (1 مل، 16: 31).

(2) (1 مل، 11: 5، 7) راجع أيضاً (، 20: 2 ـ 5)؛ (2 مل، 23: 10)؛ (1 ع، 7: 43).

(3) (1 مل، 11: 5)؛ راجع أيضاً (قض، 2: 13)؛ (1 صم، 7: 137).

(4) Pritchard, «**Archaeology and the Old Testament**» p.110 ff. Moscati, «**Ancient Semitic Civilization?**, pp. 112 ff., Vood, «**The Religion of Canaan**». Jour of Bibl. Lit., 1916, 1-133, 163-379.

الكنعانية ما يشابه تماماً تنازع الإِلٰه مردوخ مع قيامه عند البابليين، ففي الملاحم الكنعانية ما يشير إلى تنازع الإِلٰه «بعل» مع الإِلٰه «يم» إِلٰه البحار والأنهار وانتصار الأول على الثاني.

وفي المتحف الوطني بدمشق تمثال للإِلٰه «إيل» كبير آلهة الكنعانيين وسيدها عُثر عليه في أوغاريت (تل رأس شمرا)، يشاهد وهو جالس فوق عرشه، وعلى رأسه تاج وعلى جانبي الرأس يوجد ثقبان هما مكان القرنين اللذين يُعتبران من رموز الربوبية ويرتدي ثوباً طويلاً وينتعل حذاء ذا مقدّمة دقيقة ومحنية إلى الأعلى. يده اليسرى تقبض على صولجان، إلا أنه لم يعثر على الصولجان، والتمثال مصنوع من البرونز ومغشى بصفيحة من الذهب.

إن الكنعانيين إجمالاً سبقوا أمم العالم طراً في نشر أرقى ديانات الأمم السامية الوثنية، لذلك كان تأثيرهم الديني لا يقلّ عن تأثيرهم العلمي والصناعي. ففي ذلك يقول الدكتور ولفنسون «وللكنعانيين عدا تأثيرهم العلمي والصناعي على العالم المتمدن فضل عظيم آخر وهو تأثيرهم الديني في جميع الأمم السامية، فقد كانت ديانتهم أرقى ديانات الأمم السامية الوثنية لذلك تأثرت بها ديانات بابل وورث الآراميون والإسرائيليون والعرب هذا التأثير»[1].

و ـ بلاد كنعان في النصوص المصرية القديمة:

إن بلاد كنعان عدا تميّزها بموقعها الجغرافي في عالم التجارة بين الشرق والغرب كانت تتميز أيضاً بموقع استراتيجي هام أيضاً، إذ كانت أشبه بالجسر الذي يترتب على كل فاتح من الشرق أراد غزو مصر، أو على عكس ذلك على كل فاتح من مصر أراد غزو الشرق الأدنى، أن يعبر هذا الجسر. لذلك كانت مصر، وهي أقرب دولة حضارية إليها، أولى الدول التي أقامت اتصالات مع بلاد كنعان، وأقدم ما وصل إلينا من أخبار فراعنة مصر عن هذا الاتصال هو الكتابة التي عُثر عليها من عهد الفرعون «سنيفرو» (Senefru) أول ملوك السلالة الرابعة (حوالي 2700 ق.م.)[2] والتي تشير إلى شحن أربعين سفينة من خشب

---

(1) ولفنسون، «**تاريخ اللغات السامية**»، ص 53.

(2) W.B. Emery, «**Archaic Egypt**», 1967, p.21.

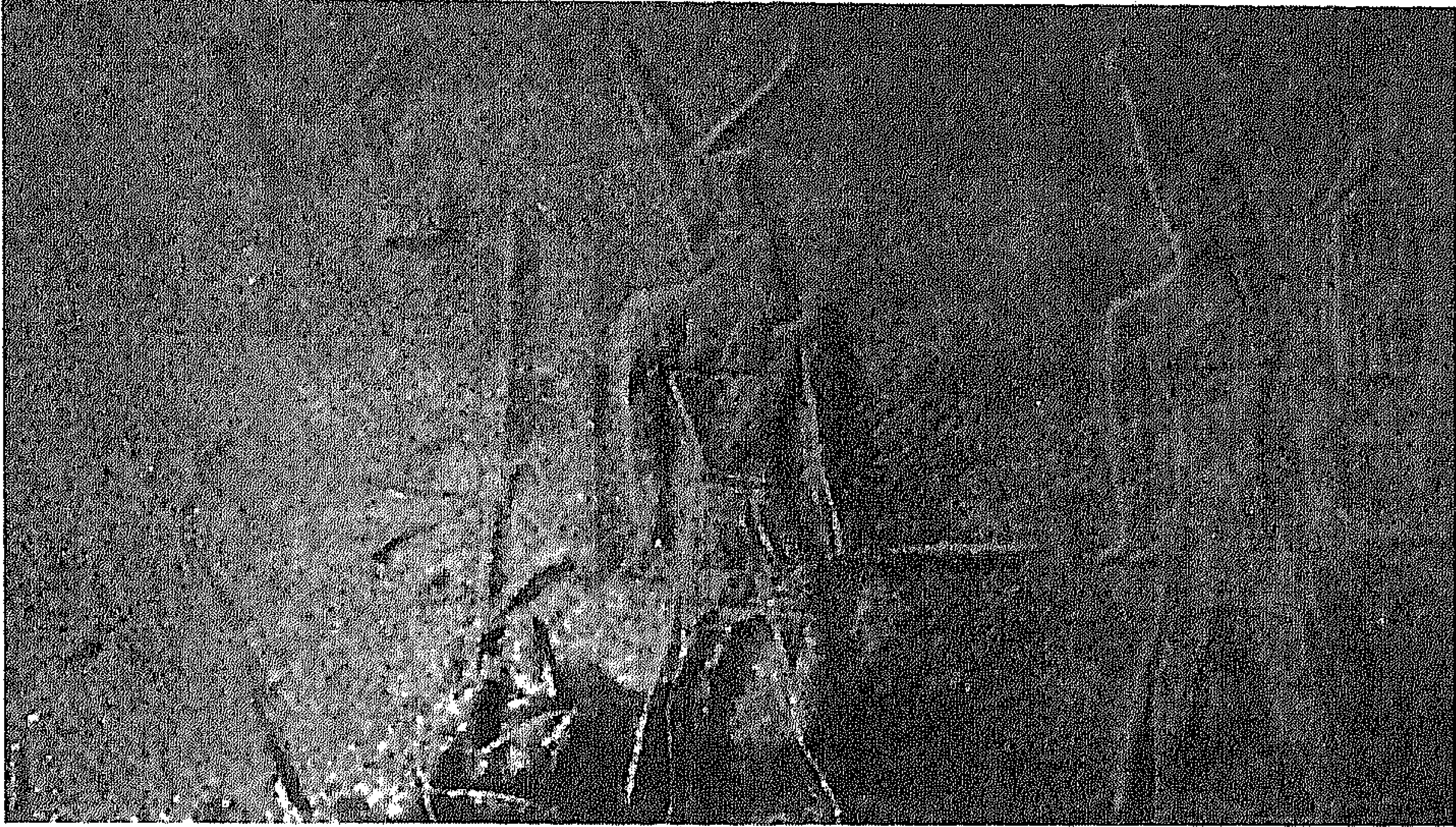


الصورة رقم (5)
أسطول تجاري فينيقي أثناء تحميله بجذوع الأشجار

الأرز اللبناني إلى مصر، وقد سجّلت هذه الكتابة على لوح من الحجر الأسود (الديواريت). ثم تطوّرت هذه الاتصالات التجارية السلمية إلى تدخل مصر سياسياً وعسكرياً في شؤون هذه الأقطار بغية بسط نفوذها عليها.

وأقدم ذكر لحملات المصريين على بلاد كنعان ورد في كتابة عُثر عليها من عهد الفرعون بيبي الأول (Pepi I Meryre) ثالث ملوك السلالة السادسة (حوالي 2350 ق.م.)، وهي منقوشة على قبر قائد إحدى هذه الحملات، وهو يدعى «أوني»، الذي دوّن أخبار انتصاراته على جماعات البدو التي كانت تهاجم الكنعانيين. وهناك ما يدلّ على أن مصر تمكّنت من بسط نفوذها على جميع بلاد كنعان في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، إلا أنها لم تحاول تمصيرها بل اكتفت بتحصيل الجزية من سكّانها. وتركت السكان يمارسون عاداتهم ودياناتهم من غير أن يتدخلوا في شؤونهم الاجتماعية الأخرى، بل كانوا ينجدونهم في حروبهم مع أعدائهم. وقد جاء في الكتابات المصرية القديمة أيضاً أن الملك سيزوستريس الثالث (السلالة الثانية عشرة) صعد على

أرض كنعان في حوالي سنة 1850 ق.م. واستولى على المدينة المسماة (س ك م ن) وقد رجّح البعض أن المقصود بها مدينة «شكيم» حالياً[1].



الصورة رقم (6)
الملك المصري «سخمخت» (Sekhemekhet) أحد فراعنة السلالة التالية (2686 ـ 2613 ق.م.) يجلد رئيس قبيلة أسوية ـ من مسلة عثر عليها سنة 1954م في سفارة

ومن أهم الوثائق التي عُثر عليها المنقّبون وثيقة بالغة الأهمية ترجع إلى عهد سنوسرت الأول (1971 ـ 1928 ق.م.) تضمّنت وصفاً مسهباً لبلاد كنعان كان قد دوّنه أحد كبار حاشية القصر الفرعوني المدعو «سينوهي»: والظاهر أن «سينوهي» هذا كان قد ورّط نفسه في مؤامرة سياسية اضطر على أثرها إلى مغادرة مصر فقصد بلاد كنعان متخفياً، فهو يصف أولاً الطريق الذي سلكه باتجاه قناة السويس الحالية وبر ساحل البحر حتى وصل إلى بلاد الفينيقيين (بلدة بيبلوس ـ جبيل)، ومنها اتجه إلى «قدمة» في الصحراء الواقعة شرقي دمشق حيث قضى 18 شهراً. وفي شمال فلسطين استضاف رئيساً من رؤساء عشائر العموريين فرحّب به بعد أن تعرّف على شخصيته ودعاه ليسكن معهم قائلاً: «إن مصر بلد جميل ولكن إذا بقيت معنا فسوف تجد بلدنا جميلاً

(1) T.H. Caster, «**Enc. Brit.**» Vol. 4, 1955, p.727.

أيضاً» فوافق «سينوهي» على البقاء في ديارهم حيث حظي بعناية تامة من «عمي إنشي» رئيس القبيلة الذي زوّجه من ابنته الكبرى وجعله زعيماً للقبيلة، فصارت له بساتين وحقول ومواشي، كما صار له أولاد. شارك هو وأولاده في حروب القبيلة وغزواتها، فأصبح بذلك مندمجاً كلياً بالحياة القبلية المتّسمة بالنزاع الدائم بين أهل المدر (الزراع) وأهل الوبر (الرعاة) وبين جموع الغزاة من البدو والذين ليس لهم مقرّ ثابت. وهنا يصف «سينوهي» الحياة الشاقة التي عاشها في هذا المحيط الخشن حتى داهمته الشيخوخة فأخذ يحنّ إلى وطنه الأصلي. ويذكر في آخر القصة كيف أن الفرعون سنوسرت وجّه إليه كتاباً يدعوه فيه للعودة إلى وطنه ندوّنه أدناه لأهميته حيث يظهر لنا ناحية من نواحي التفكير الديني السائد في تلك الأزمان، وهذا نصّ الخطاب كما ورد في القصة: «. . . استعدّ للعودة إلى مصر كي تشاهد مرة أخرى القصر الذي نشأت فيه فتقبل التراب أمام البوابتين العظيمتين. . . تذكر اليوم الذي ستدفن فيه ويشيّعك الناس بأبهة وتعظيم حيث تدهن بالزيت قبل بزوغ الفجر وتلف بالقماش فتباركك الآلهة (تيت)[1] وسوف تشيّعك الجماهير في يوم حفلة الدفن ويكون كفنك من الذهب المزين باللّازورد وسوف يوضع جثمانك على نعش تجرّه الثيران وتتقدّمه جوقة المقرئين وسوف يرقص الناس رقصة الأقزام على مدخل قبرك، وتتلى الصلوات القربانية من أجلك، وسوف تُبنى أعمدة قبرك بالحجارة بين قبور العائلة المالكة. ويجب أن لا يكون رقودك على أرض غريبة يدفنك فيها الآسيويون (أهل آسيا) الذين يلفونك (أي يلفّون جثمانك) داخل جلود الغنم». ولما تسلّم سينوهي هذا الخطاب طار من الفرح والابتهاج وقرّر العودة على الفور فقام بتصفية ملكيته بين أولاده ونصّب أكبرهم زعيماً على القبيلة التي كان يتزعمها. وقد اصطحبه عند مغادرته بلاد كنعان جمع غفير من أبناء عشيرته إلى نقطة الحدود المصرية، ومن هناك اصطحبه رجال الحكومة الفرعونية إلى العاصمة، «ممفيس». ويمضي «سينوهي» فيقول: «وجدت جلالته جالساً على العرش العظيم في القاعة الذهبية الفضية، ثم دخلت عائلة الملك إلى القاعة، فقال الملك للملكة: «انظري هو ذا سينوهي

(1) المقصود بذلك إجراء عملية التحنيط.

يعود إلينا آسيوياً بعد أن أصبح بدوياً. فصرخت الملكة والأمراء أولادها، بصوت عالٍ قائلين لجلالته بصوت واحد: بالحقيقة لا يمكن أن يكون هذا سينوهي يا جلالة الملك. فأجابهم قائلاً: بلى إنه هو بالفعل».

وأخيراً يختتم «سينوهي» قصته بقوله: «. . .نقلت إلى عمارة ملكية حيث كانت توجد أشياء عجيبة: هناك حمام وأشياء أخرى من بيت الخزينة الملكية، وكانت توجد ملابس من الحرير الملكي كلها معطّرة بالمر والعطور الفخمة الزكية، وكان هناك خدم ممتازون من خدم الملوك موزعون على الغرف كما كان هناك طبّاخون ماهرون، وكان كل من هؤلاء يؤدّي مهمته بدقّة. . فالسنون التي طويتها أكلت جسدي. حلقت ذقني ومشّطت شعري، ونفضت عني الغبار الثقيل (الأوساخ) ونزعت الثياب الخشنة ـ ثياب (جوّالي الرمال) ـ وارتديت ثياباً من الحرير مكانها وتعطّرت بأحسن العطور الموجودة في البلد، واضطجعت مرّة أخرى على سرير، وهكذا عشت معززاً مكرّماً في بيت الملك حتى آن الأوان لأهجر هذه الحياة»[1].

وتتجلى في هذه القصة بصورة واضحة المقارنة بين الحضارة الريفية البدوية الخشنة التي كان يعيشها الكنعانيون المتأثرون بالمحيط البدوي وبين الحضارة المدنية المصرية ذات الترف والعيش الرغيد. ومن غريب الصدف أن «سينوهي» يستعمل عندما يصف أرض كنعان العبارات نفسها التي استعملتها التوراة في وصفها بعد ألف وخمسمائة عام: «أرض جيدة وواسعة، إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً[2] أرض حنطة وشعير وكرم وتين ورمان، أرض زيتون وعسل»[3] والظاهر أن قصة «سينوهي» كانت من القصص المحببة لدى المصريين حيث وجد منها نسخ كثيرة مما يدلّ على أنها كانت واسعة الانتشار في تلك الأزمان.

ومن أهم ما تركه فراعنة مصر القدماء من الأوصاف لبلاد كنعان أيضاً، كتابات الفاتح المصري الشهير تحوطمس الثالث (1502 ـ 1449 ق.م.)،

---

(1) ترجمة وتلخيص من كتاب كيللر **«التوراة كتاريخ»**:
Keller, «**The Bible as History**», pp. 15-19.

(2) (خر، 2: 8).

(3) (تث 8: 8 ـ 9).

وذلك في أعقاب طرد المصريين للهكسوس من بلادهم[1]، فورد في مدوّناته أنه قام بسبع عشرة حملة على سوريا وفلسطين، فامتدّت تخوم فتوحاته في الشرق إلى جبال الأمانوس شمالاً. ويعدّ البعض تحوطمس هذا أعظم فراعنة مصر في تاريخها القديم، وقد دام حكمه 54 سنة منها الاثنتا عشرة سنة الأولى حكمت عنه والدته الوصية على العرش لصغر سنّه عندما اعتلى العرش. ومما ورد في كتاباته جدول بأسماء 118 مدينة يعتقد أنها المدن التي افتتحها في بلاد كنعان.



الصورة رقم (7)
الفاتح المصري الشهير
الملك تحوطمس الثالث
(1403 ـ 1449 ق.م.)

(عن ماريوس،
«التوراة صحيحة» ص182)

والظاهر أن دويلات كنعان أصبحت في معظم تلك الأدوار أشبه بمحميات مصرية توثّقت صلاتها مع مصر باتفاقيات لحمايتها من غزوات البدو، وتدلّنا المدوّنات المصرية القديمة على أن ملوك هذه الدويلات كثيراً ما كانوا يستنجدون بفراعنة مصر لإرسال نجدات لحمايتهم من غزوات (العبيرو)[2]، إذ عُثر على عدد من الرسائل من بعض ملوك كنعان ترجع إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد بهذا المعنى.

ز ـ بلاد كنعان في النصوص القديمة الأخرى:

ومع أن هناك نصوصاً قديمة من الكنعانيين عُثر عليها في سيناء، وهي ترجع إلى النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد، إلا أن هذه النصوص لا يمكن

---

(1) انظر: ما يلي عن (الهكسوس).
(2) انظر: ما يلي عن «العبيرو» في الفصل الخامس.

الاعتماد عليها كمصدر تاريخي لغموضها. لذلك تعتبر الكتابات التي عُثر عليها في أوغاريث، البلدة الفينيقية الشمالية[1]، والتي ترجع إلى بداية النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد، أقدم المصادر وأوثقها في بحث تاريخ بلاد كنعان القديم. ثم تليها النصوص الموآبية والأدومية والعمّونية وبخاصة الفينيقية المنتشرة عن طريق التجارة خارجياً، وهي أكثر عدداً ووضوحاً.

فقد اكتشفت في أوغاريث مدوّنات كثيرة بغير اللغة الأوغاريثية منها بالأكدية والحورية والحثية. وهذه كشفت عن كثير من المعلومات التاريخية حول حياة الكنعانيين وثقافتهم كانت قبل اكتشاف هذه النصوص غامضة. وأهمّ ما عُثر عليه من هذه الكتابات المجموعة الواسعة من وثائق ملوك أوغاريث التي تحتوي على مراسلات ملوكها مع ملوك الحثيين والمصريين وغيرهم ترجع إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد. هذا وفي الوثائق الملكية التي وجدت في «ماري» والمراسلات الملكية التي وجدت في «تل العمارنة» في مصر وأخبار التوراة وغيرها من المصادر البابلية والآشورية والحثية ما يزوّد الباحث بالعديد من المراجع عن تاريخ الكنعانيين في عصور ما قبل حملة موسى على فلسطين[2].

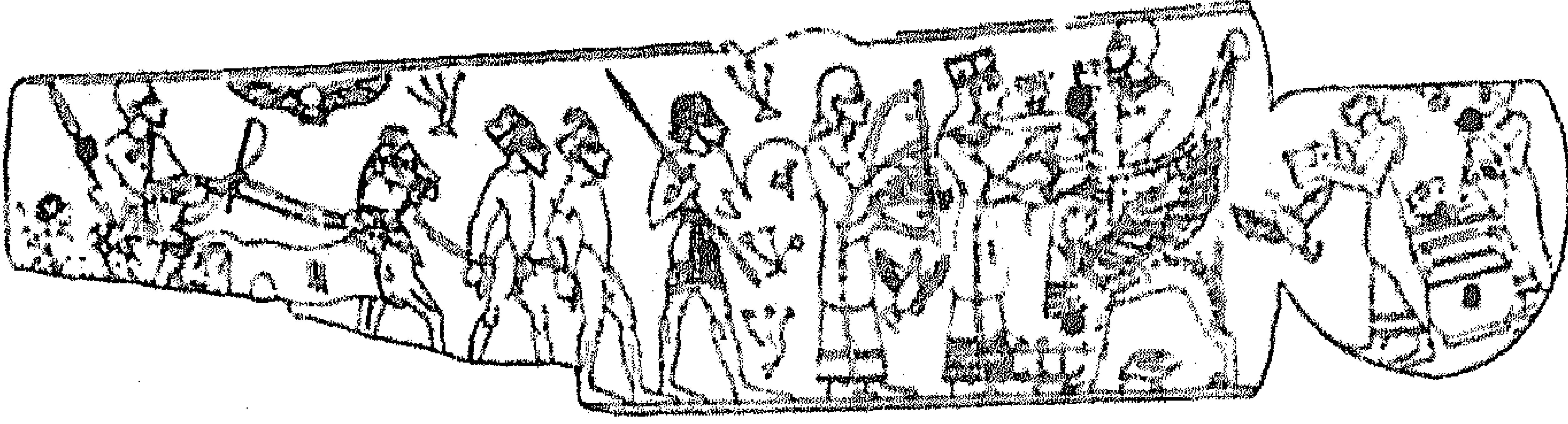
---

(1) راجع الدكتور أنيس فريحة، «**ملاحم وأساطير من أوغاريث**»، بيروت، 1966.

(2) انظر المراجع التالية عن كنعان والكنعانيين.

S. Moscati, «**Ancient Semitic Civilization**», Chap. V, «**The Cannaanites**», pp. 99-123; G.R. Driver «**Canaanite Myths and Legends**», Edinburg, 1956; W.F. Albright, «**The Role of the Canaanites in the History of Civilization**», 1942; Ph. Hitti, «**History of Syria**». Chapt VIII, «**The Canaanites**», pp. 79-96; R. Dussaud. «**La Pénétration des Arabes en Syria avnat l'Islam**». Paris, 1955; T.H. Gaster, «**Canaanites**», Ency Brit., Vol. IV, 1965, ed. p.p. 726-728 (with map and bibliography); D. Diringer, «**The Alphabet. A Key to the History of Mankind**». 1948, 2nd. ed., see Chap. III. «**Canaanite Branch**». pp. 235-252; Z.S. Harris, «**Ras Shammra: Canaanite Civilization and Language**». The Smithsonian Report for 1937 (Publication 3474), pp. 479-502; Lods, «**Israël from its beginings of the middle of the eighth cent**» (Translated by S.H. Hooke). London, 1932, See: Part I, «**Canaan before the Israëlite settlement**», pp. 37-149; J. Gray, «**The Legacy of Canaan**». Leiden. 1957; C.H. Gordon, «**Ugaritic Literature**»; R. Largement, «**La Religion Canànéenne**». in M Brillant)R- Aigrain, «**Histoire des Religions**», IV. Tournai 1956, pp. 177-199.

مجموعة من آثار الحضارة الكنعانية

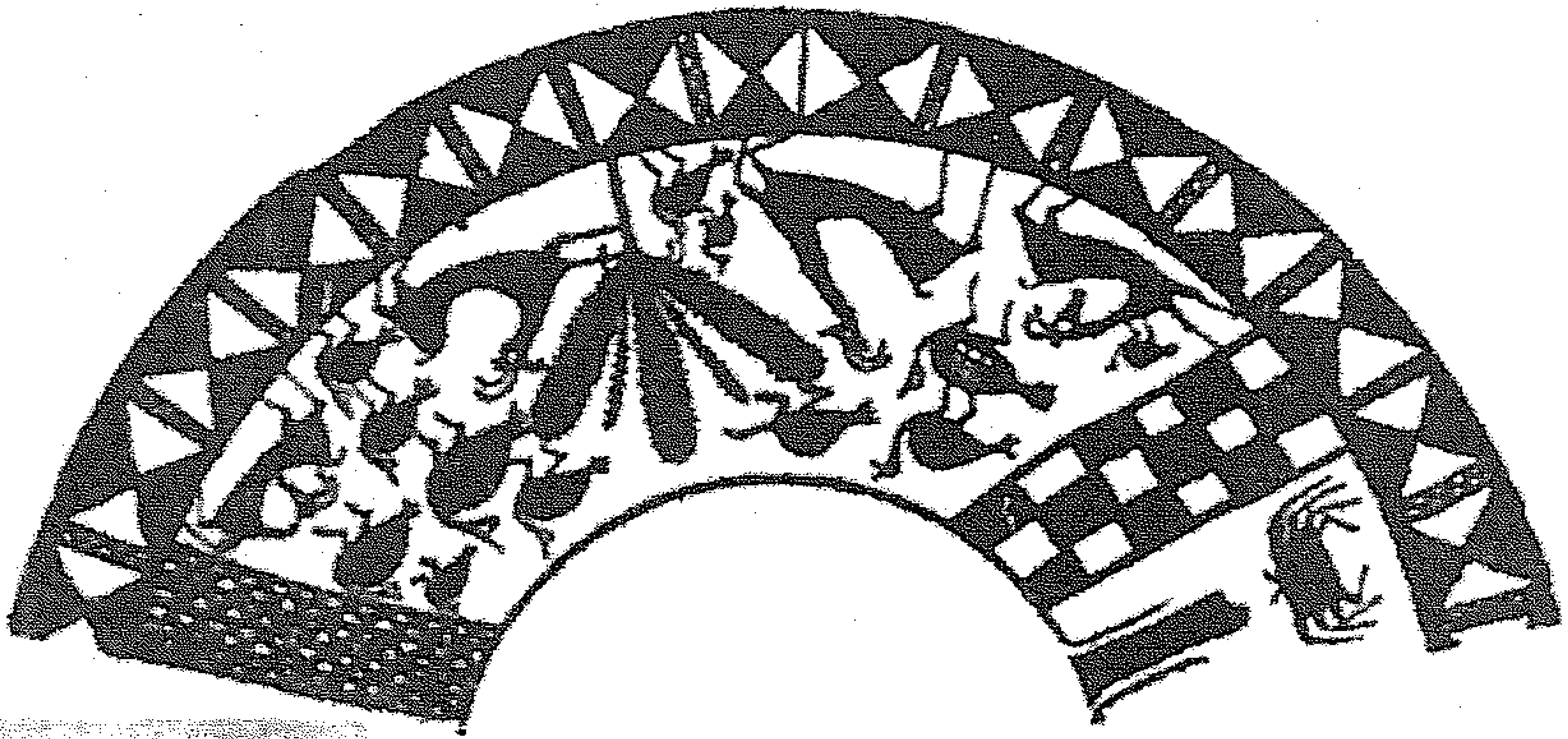


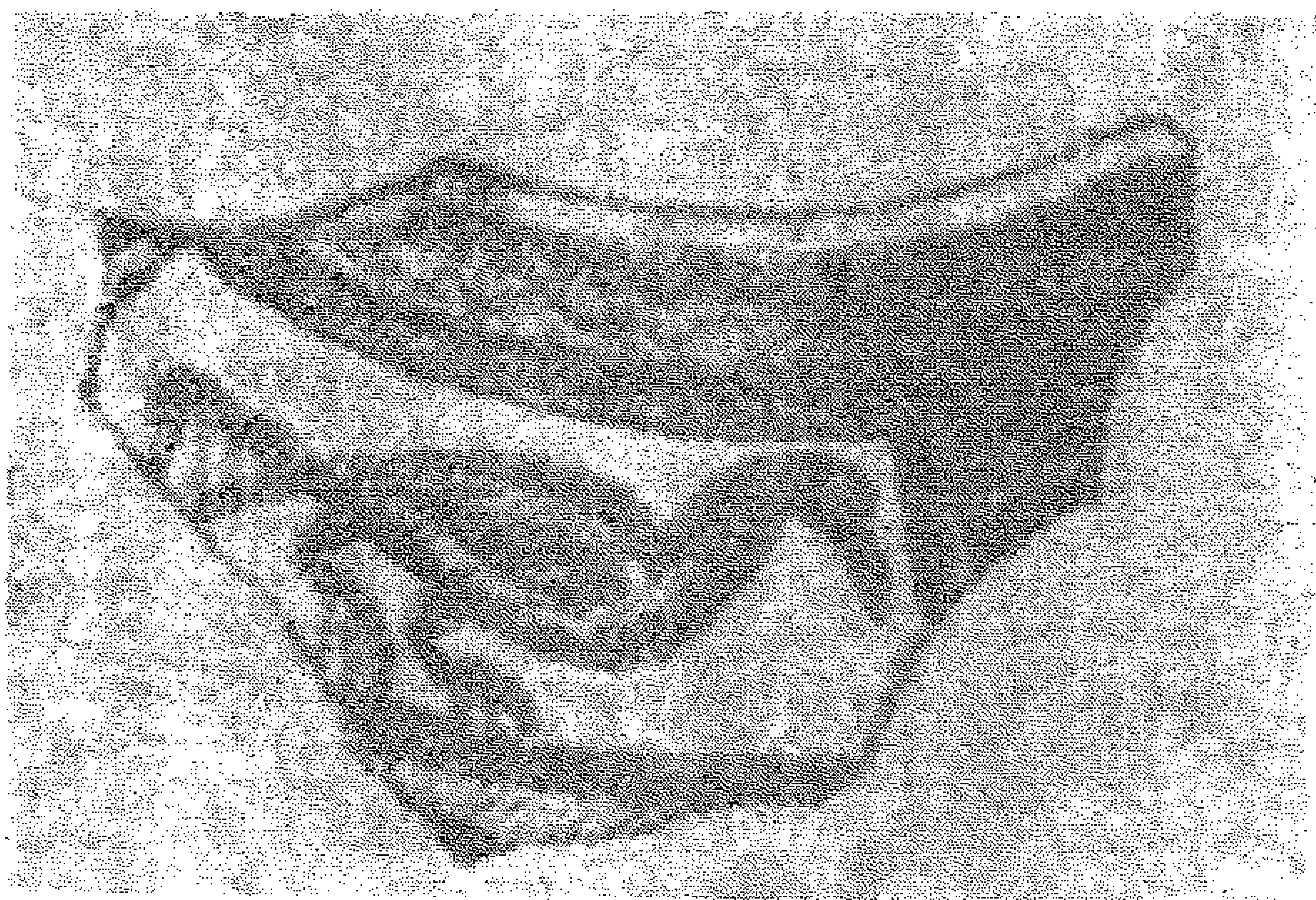
التصوير رقم (8)
أمير كنعاني من مجدو

نقش يمثل الأمير جالساً على عرشه ومن حوله حاشيته: الساقي يقدم له الشراب، ضارب القيثارة يضرب على قيثارته بينما وقف حارسه الخاص على أهبة الاستعداد. في مقدمة الصورة، الخدم يهيئون الشراب بينما ظهرت في مؤخرتها العربة الملكية



الصورة رقم (9)
فتاة كنعانية من مجدو ـ القرن 12 ق. م.
لوح تخيلي من العاج على أساس البقايا العاجية التي عثر عليها في حفريات مجدو.
(عن غوردن كود، «عاجيات مجدو» جامعة شيكاغو)

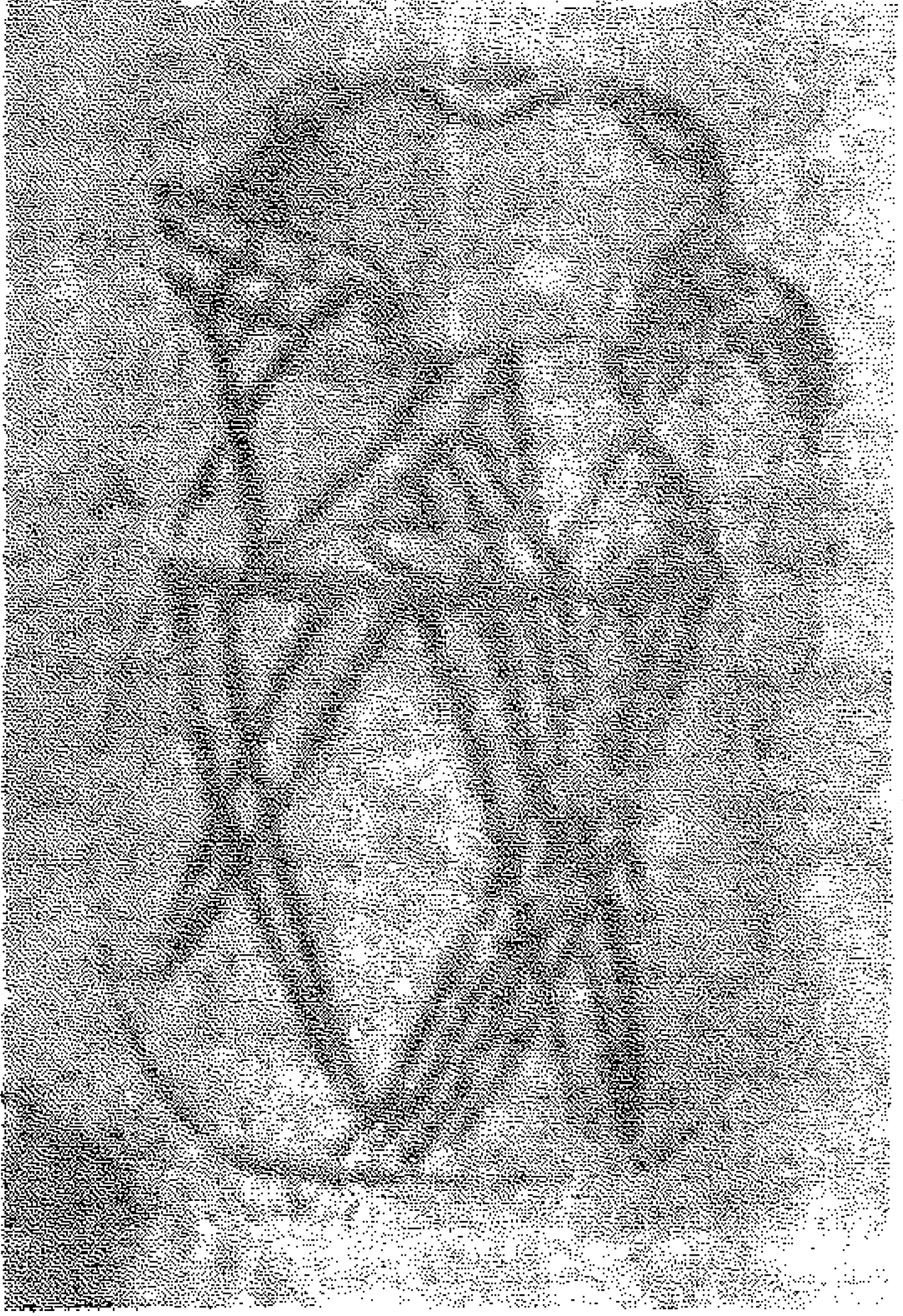




التصاوير المرقمة (10، 11، 12)

نماذج من الخزف الكنعاني المبكر

الرسم 12 يعود إلى حوالي 2000 ق.م

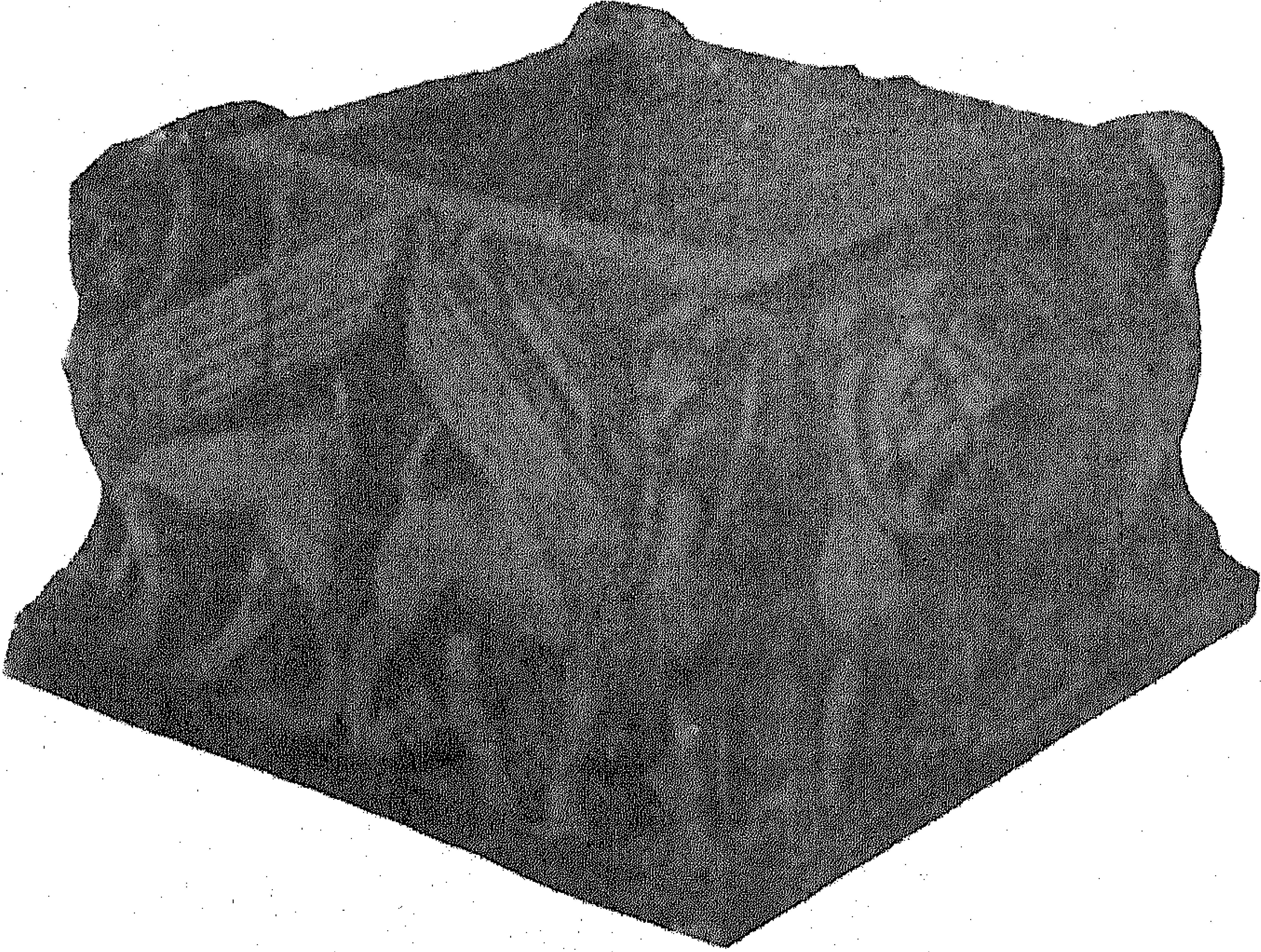


١٢٣



الصورة رقم (13)

لوح من العاج يمثل عقاباً ـ من آثار مجدو ـ القرن 13 ق.م.
(عثر على هذا اللوح شبه مكتمل، عن كاتلين كينيون، «آثار الأرض المقدّسة»)



التصوير رقم (14)

علبة من العاج تحمل نقوشاً بارزة تمثل «أبا الهول» وبعض السباع
ـ من آثار مجدو ـ القرن 13 ق. م. (عن كاتلين كينيون، «آثار الأرض المقدسة»)



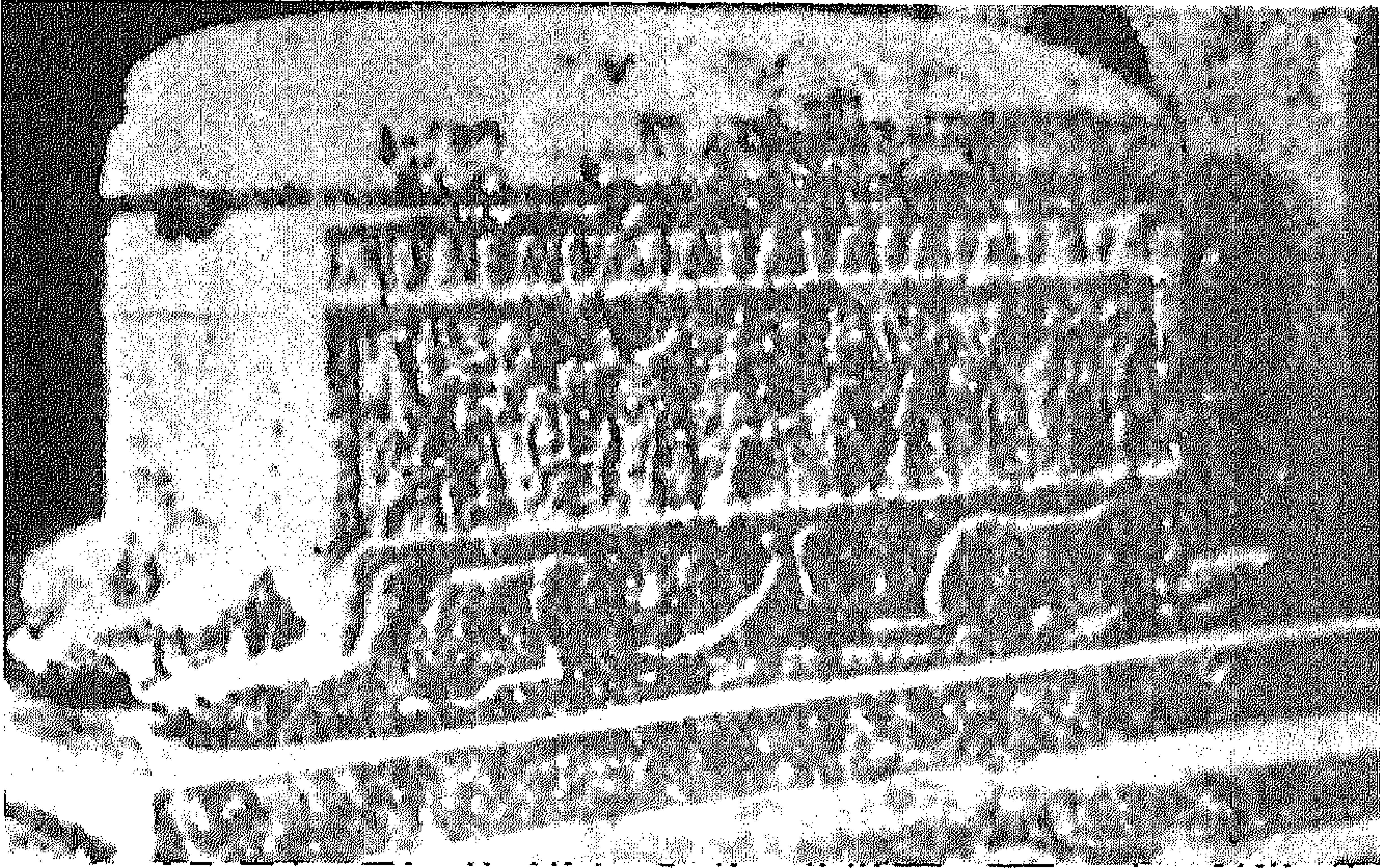
الصورة رقم (15)
يمثل معركة أسطورية بين السارق حارس معبد ميكال، إله بيت شان الكنعانية،
كلاهما ممثلان على هيئة أسد وكلب أسطوريين
لوح من حجر البازلت يعود إلى القرن 15 ق.م.



الصورة رقم (16)
نقوش على العاج ـ من آثار بلدة مجدو
يمثل القسم الأعلى منظر لبعض الأشخاص والأوز. ويمثل القسم الأسفل: معركة بالعربات



الصورة رقم (17)
لوح من العاج يمثل صورة «أبو الهول» الكنعاني من مجدو
(عن كاثلين كينيون، «آثار الأرض المقدّسة»)



الصورة رقم (18)

تابوت حجري لجثمان الملك أحيرام ملك بيبلوس (جبيل) يرجع تاريخه إلى حوالي 1000ق.م. يشاهد في الواجهة الملك أحيرام على عرشه تحيط به الآلهة وهو يحمل بيده كأساً وبعض الزهور، ويشاهد أمامه خادم يحمل منديلاً بيد ويطرد الذباب باليد الأخرى من فوق مائدة طعام، وهناك خادمان يحملان الطعام يتبعهما أشخاص يمارسون طقوساً دينية. وعلى هذا التابوت كتابة فينيقية تنذر بها من يحاول غزو بيبلوس وإزالة هذا التابوت بالدمار والهلاك.



الصورة رقم (19)

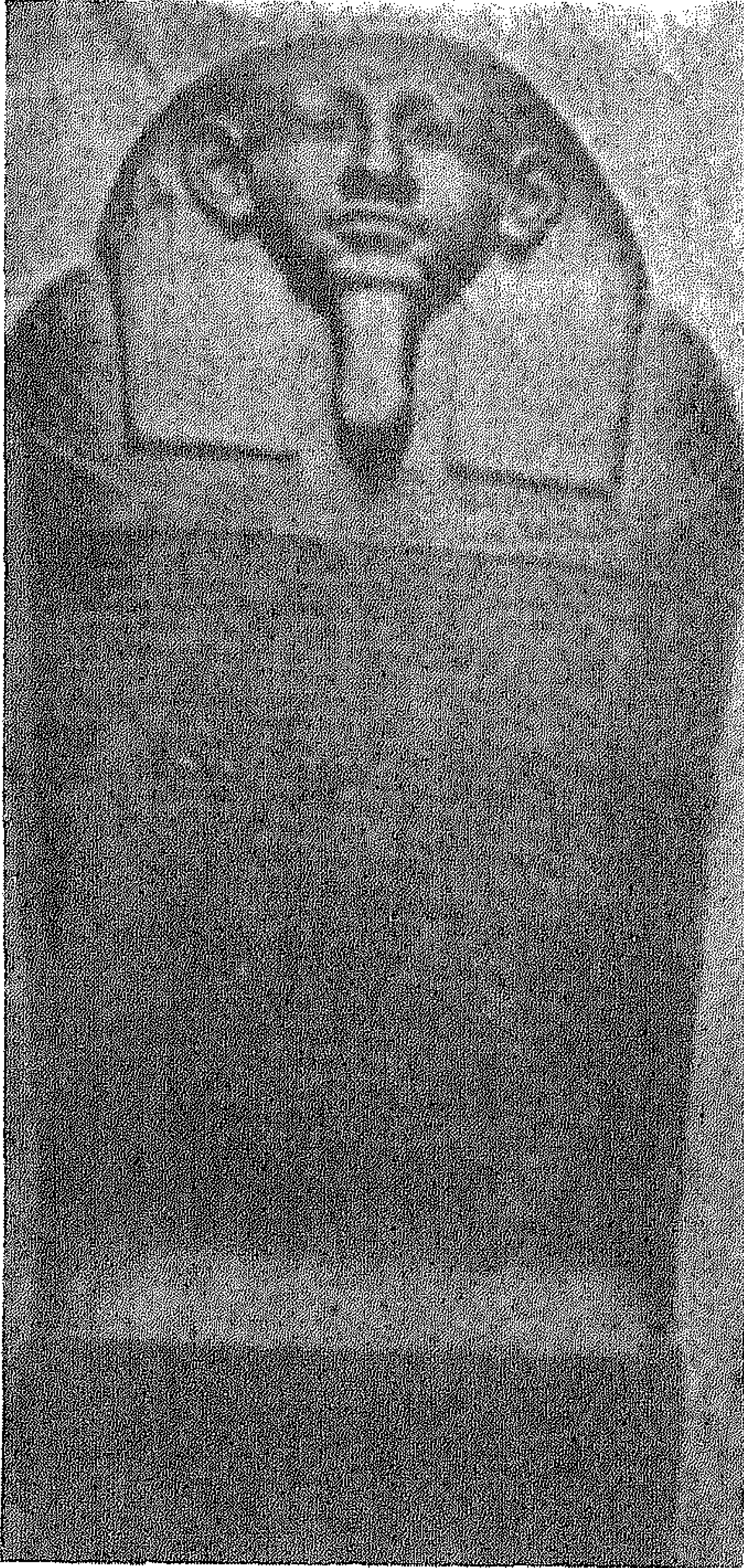
مسلة الإله «إيل» من أوغاريت ـ المتحف الوطني بدمشق

وتمثل الإله «إيل» جالساً على عرشه وهو يتقبّل هدايا ملك أوغاريت

الصورة رقم (20)

مسلة الإله «بمل» من أوغاريت القرن 15ق.م وهي تمثل الإله يشهر بيده اليمنى هراوة ضخمة بينما يقبض باليسرى على صاعقة وتمسك يده الثالثة رأس ملك أوغاريت مشيراً بذلك إلى حمايته له وتهديد كل من يتجاسر عليه. (عن كتاب الحضارات السامية القديمة» ص122)

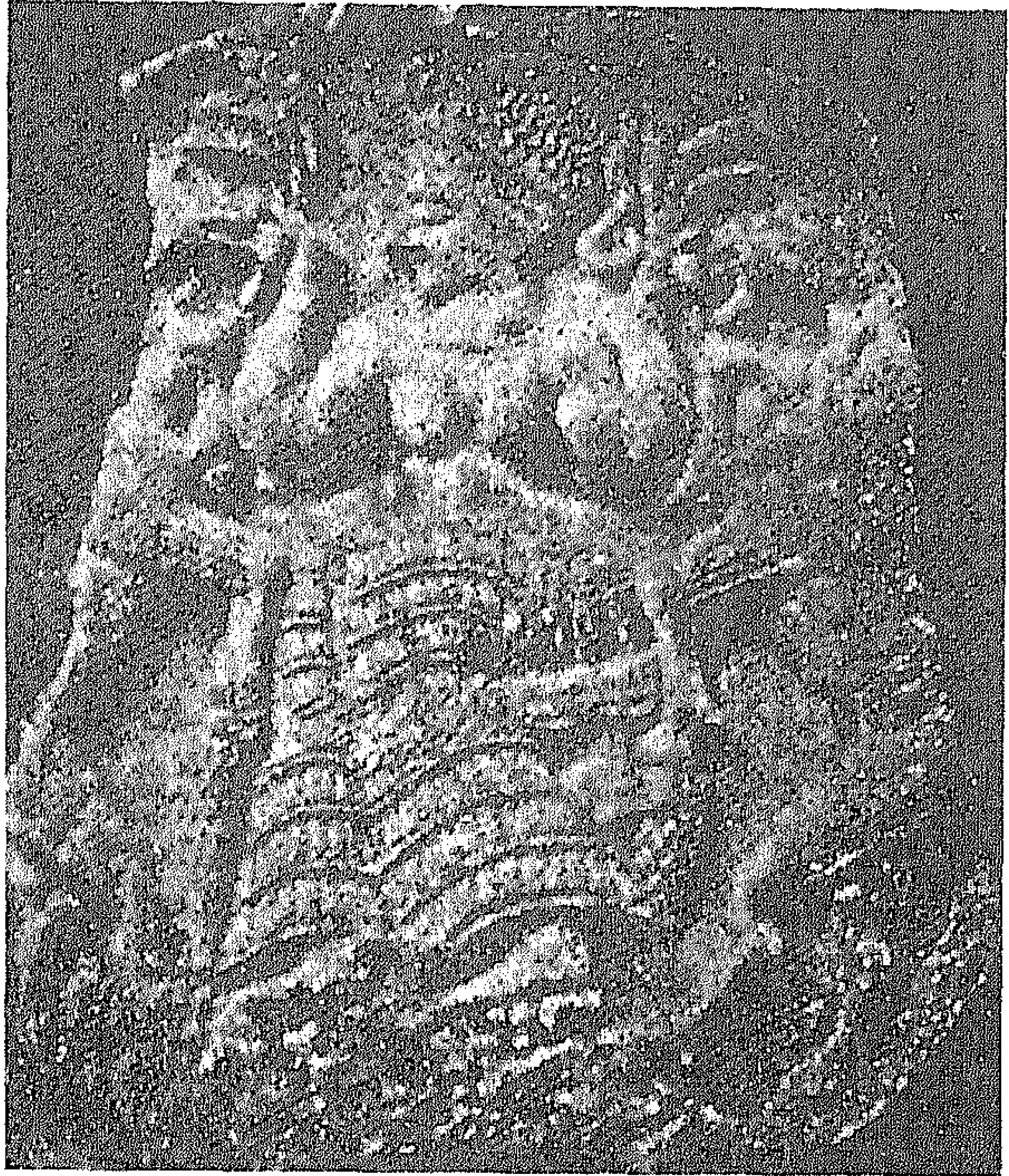




الصورة رقم (21)

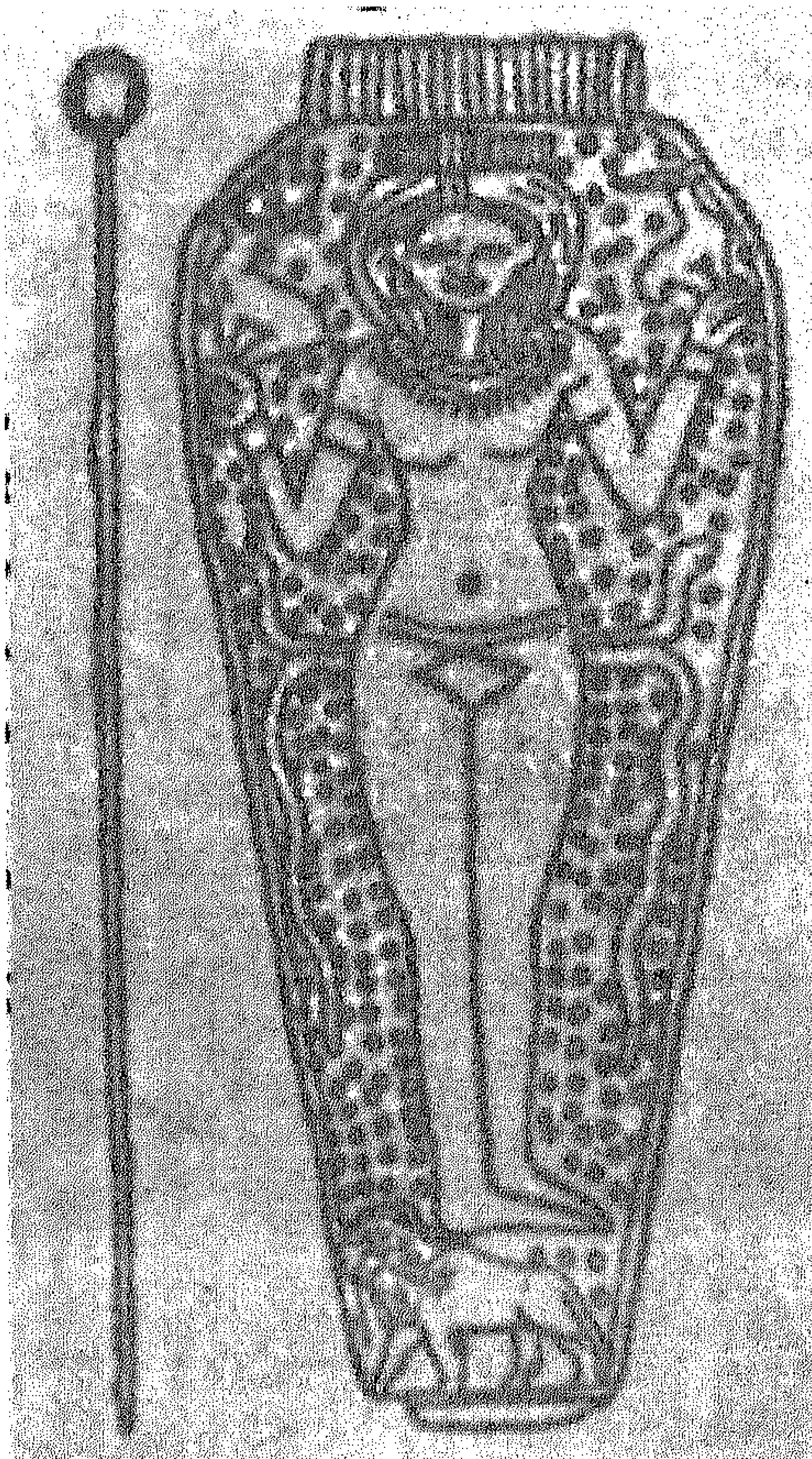
تابوت من الحجر الجيري لجثمان الملك أشمون مازار ملك صيدون في فينيقية يرجع تاريخه إلى القرن الثالث قبل الميلاد وهو الآن في متحف اللوفر في باريس (عن حتي «لبنان في التاريخ» الطبعة الإنكليزية ص 169)

الصورة رقم (22)
آلهة الخصب الكنعانية
من آثار أوغاريت

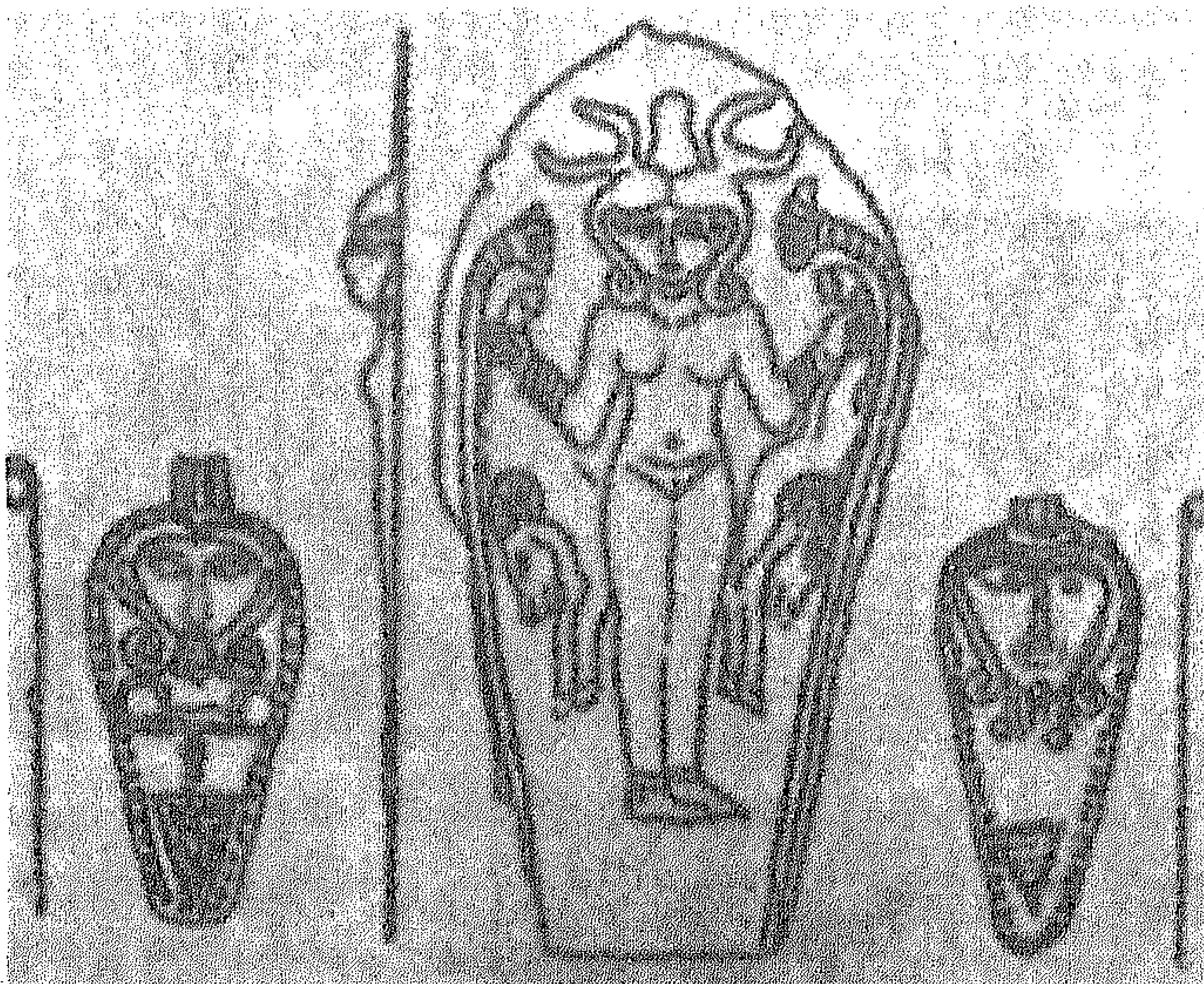




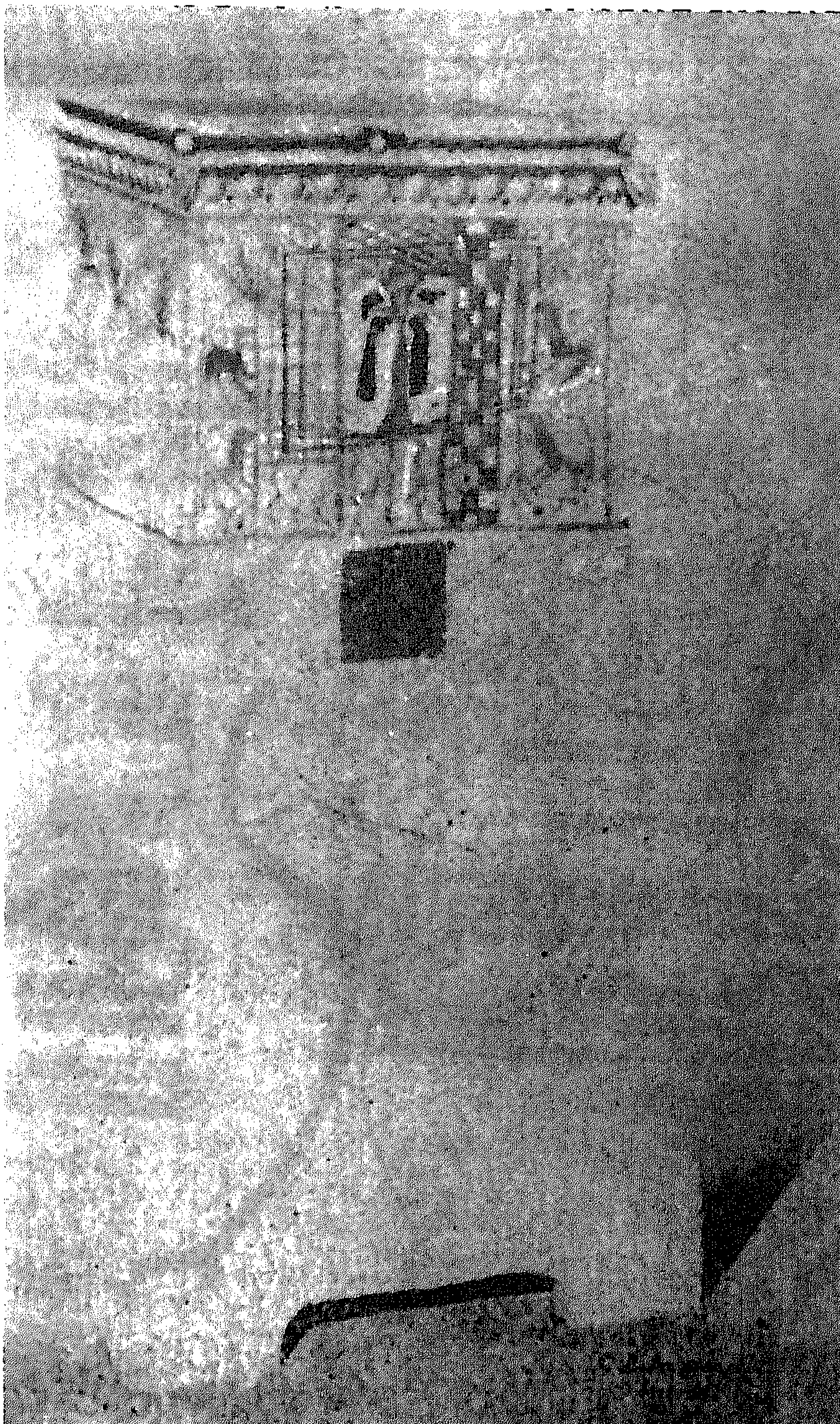
الصورة رقم (23)
مسلة الإله «ميكال» إله بيت شان الكنعانية عثر عليها في ملحق المعبد الكبير الذي يرجع تاريخه إلى عهد تحوطمس الثالث (1479 ـ 1447 ق.م) يمثل الإله يلبس تاجاً مخروطياً ويرتدي زياً مصرياً وبيده صولجان (عن لودز، إسرائيل منذ البداية ص 128)



الصورة رقم (24)
إلهة الخصب الكنعانية واقفة على أسد
وتصحبها حيتان

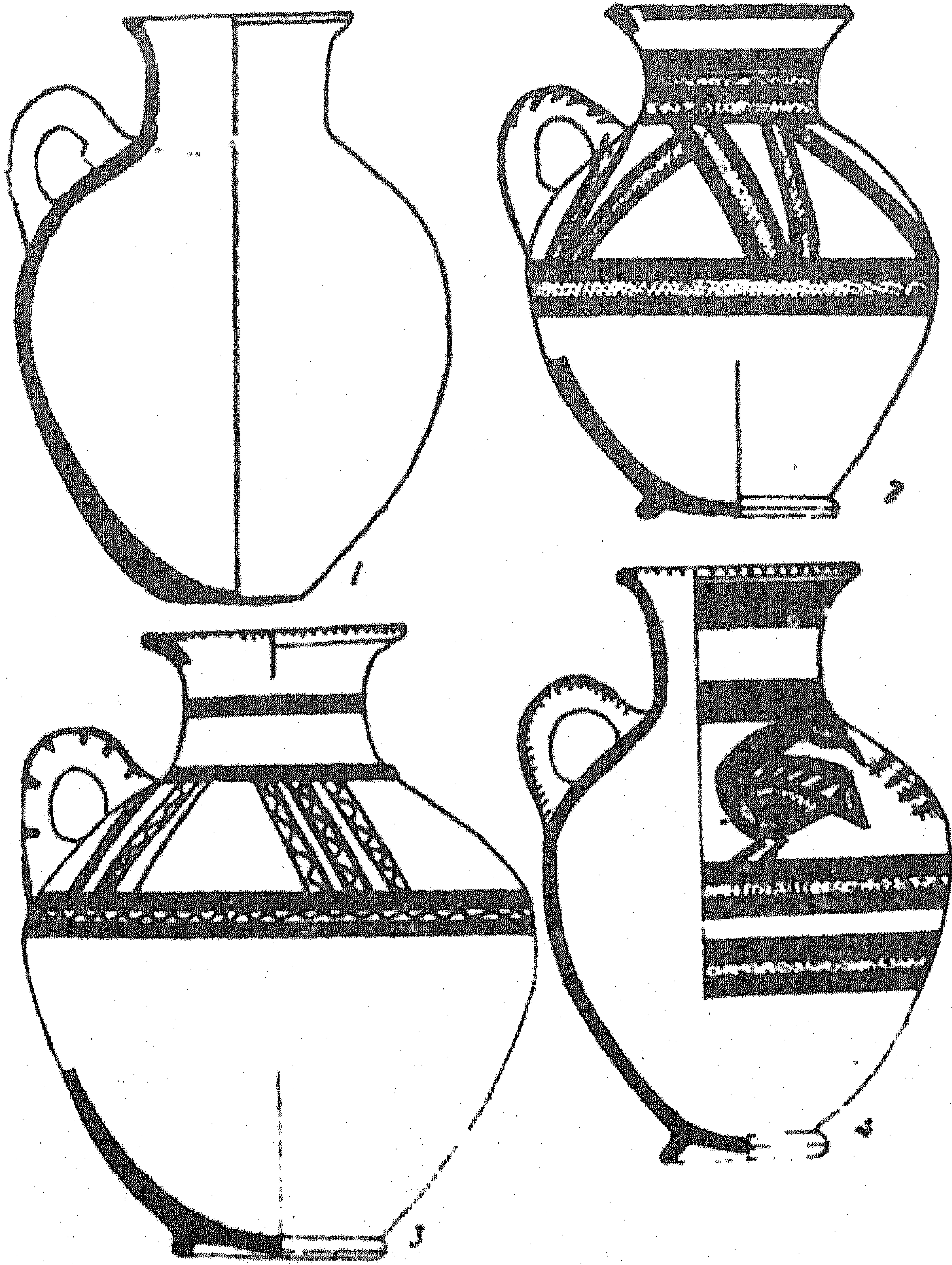


صورة رقم (25)
أقراط ذهبية لإلهة الخصب من أوغاريت عن شافرا «نصوص مسمارية من رأس شمرا ـ أوغاريت»، لندن 1939، ص48، 49



الصورة رقم (26)

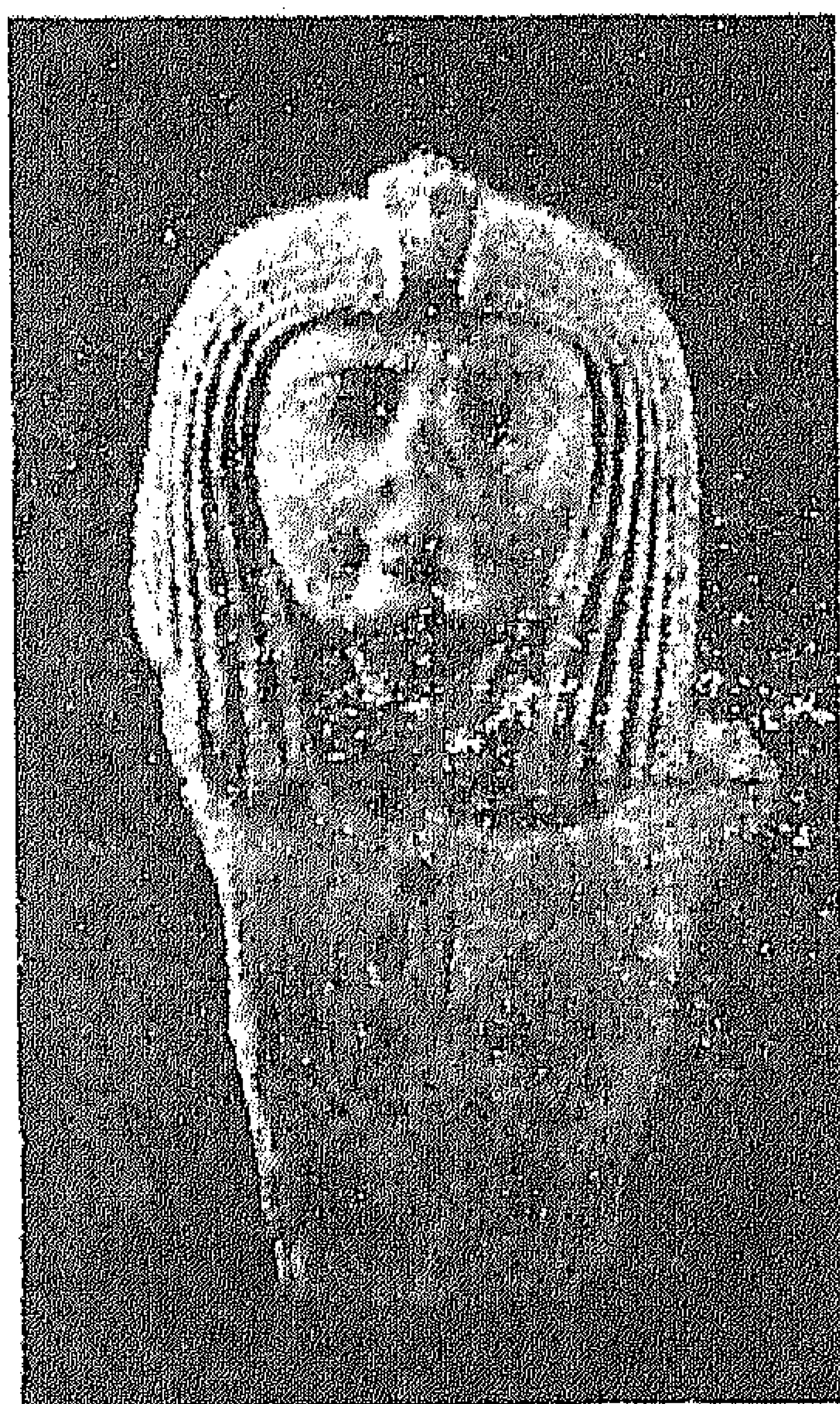
محراب كنعاني ـ عثر على هذا النقش الكنعاني تحت أطلال قصر بلدة «مجدو» في القسم الشمالي من كنعان يرجع تاريخه إلى حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد



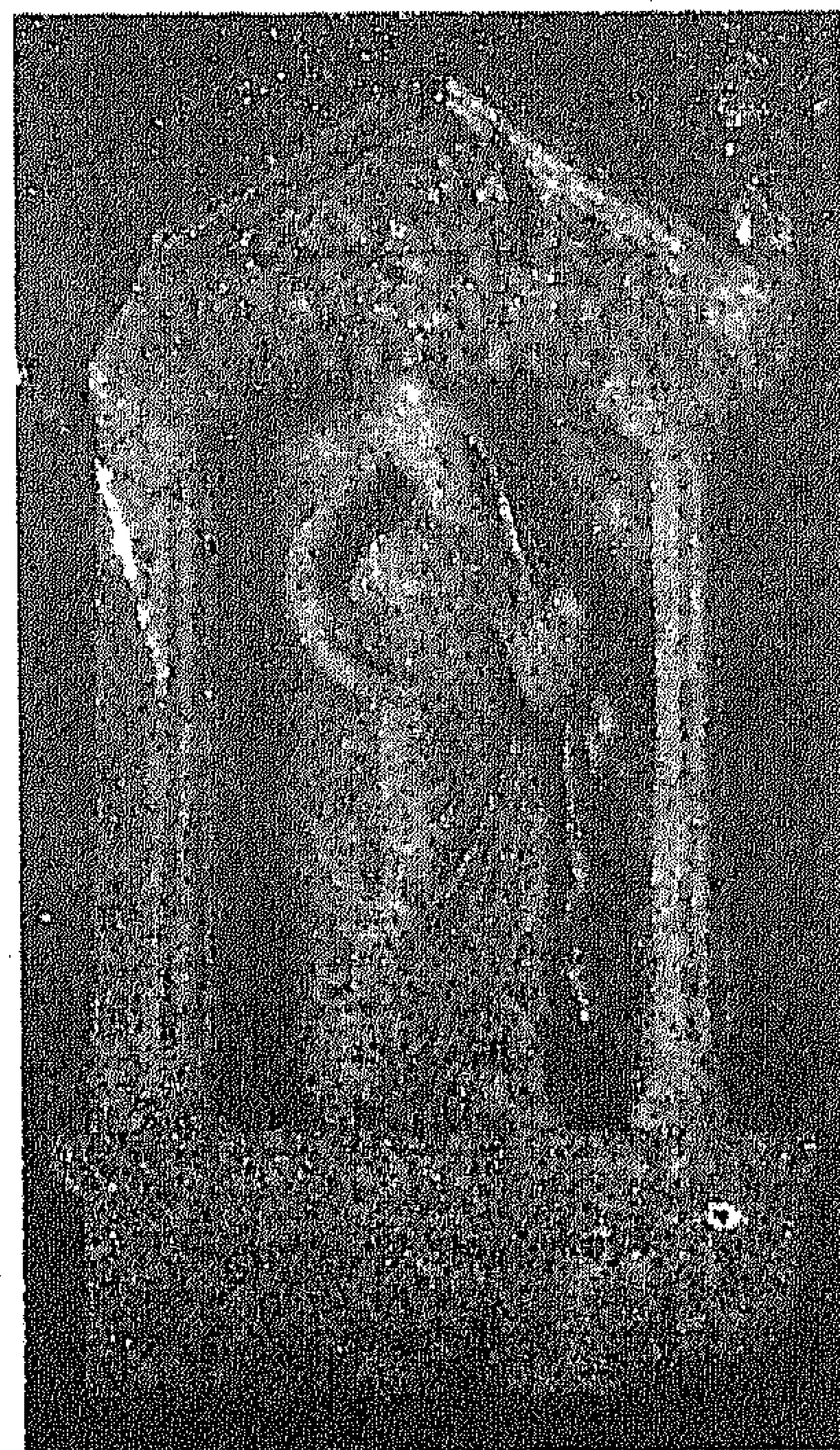
الصورة رقم (27)
نماذج من الخزف الكنعاني أواخر القرن السابع عشر قبل الميلاد
منقولة عن كاتلين كبينيون، «آثار الأرض المقدسة»، اللوحة 47



الصورة رقم (28)
كأس فينيقية من الفضة الخالصة، على الطراز المصري، عثر على هذه الكأس التي تحمل اسم صاحبها اشمون عازار في مقبرة آل برنارديني في إيطاليا. عن هاردن «الفينيقيون ص179 الصورة رقم 54).



الصورة رقم (29)
كتابة فينيقية من تبة قسرة (عن هاردن، «الفينيفيون» الصورة رقم 29)



الصورة رقم (30)
مسلة ميلكياتون القرطاجي
عن «هاردن» الصورة 45)

هجرة العموريين العمالقة إلى فلسطين وسوريا والعراق:

وهذه هي الهجرة الثانية الكبرى من جزيرة العرب، قامت بها الجماعات التي تسمّت بالعموريين العمالقة في الوقت نفسه الذي هاجر فيه الكنعانيون وربما قبلهم، فتمركزوا في بداية الأمر في الأقسام الشمالية من بلاد الشام ثم أخذوا ينتشرون في أواسط سوريا وفي لبنان حتى امتدوا جنوباً إلى فلسطين، وقد أسّسوا في وطنهم الجديد دولة «عمّورو» أو «مارتو» في السومرية، أي بلاد الغرب، واتخذوا بلدة «ماري» عاصمة لهم. و«ماري» هذه هي المدينة العاشرة التي أُسِّست بعد الطوفان تقع أطلالها على الضفة الغربية من نهر الفرات على مسافة حوالي 15 كيلومتراً إلى الشمال من بلدة البوكمال وتُعرف خرائبها اليوم باسم «تل الحريري».

وقد لعبت هذه المدينة دوراً مهماً في تاريخ الشرق الأدنى لما كانت تتمتع به من موقع ممتاز متوسط على طريق القوافل التجارية والمواصلات بين العراق وسوريا وفلسطين ومصر، وهي المدينة التي مرّ بها سيدنا إبراهيم الخليل في هجرته من «أور» إلى «حاران» في القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

أطلق البابليون تسمية «عمّورو» على جميع بلاد سوريا كما أطلقوا على البحر المتوسط اسم: «بحر عمورو العظيم»، ويرى بعض الخبراء أن العموريين كانوا قد انتشروا في جميع المنطقة الممتدة من ساحل البحر المتوسط إلى الفرات ومن ضمنها فلسطين منذ الألف الرابعة أو الخامسة قبل الميلاد[1]. ويشاهد اليوم مقابل «تل الحريري» على الجانب الأيسر من نهر الفرات تل أثري يُسمّى «تل باغوز» يرجع تاريخه إلى الألف السادسة قبل الميلاد، ومن المرجّح أنه يمثّل بقايا إحدى المستوطنات التي أقامها العموريون على ضفاف الفرات الشرقية بعد نزوحهم من شبه جزيرة العرب. ويبدو أن هذه المستعمرة السامية كانت تمارس الزراعة التي تعتمد على الري مستمدة مياه الإرواء من الضفة اليسرى لنهر الخابور (خابور الفرات).

---

(1) انظر: A.T. Clay, «**Amuru The Home of the Northern Semites**», 1909; «**The Empire of the Amorites**», 1919.

وقد كشفت التنقيبات الفرنسية التي أُجريت في «تل الحريري» منذ عام 1933 عن آثار حضارة وادي الرافدين من عصور ما قبل التاريخ ومن عصر فجر السلالات في الألف الثالثة قبل الميلاد حيث وجدت تماثيل سومرية ومعبد للإلهة «عشتار». كما كشفت عن برج مدرج وقصر عظيم من العهد البابلي القديم من القرن العشرين قبل الميلاد يحتوي على 300 غرفة وقاعة واسعة مساحته تربو على 15 دونماً عراقياً. وقد عُثر فيه على مجموعة من الألواح الطينية بلغ عددها حوالي 24000 لوح، وهي تشتمل على أنواع مهمة من الوثائق والسجلات الملكية الخاصة بآخر ملك من سلالة ماري العمورية المدعو «زمري ـ ليم» (1779 ـ 1761 ق.م.). وقد كان لعثور المنقبين على هذه الألواح نتائج مهمة في الكشف عن تاريخ بلاد الشام والشرق الأدنى وعن دور العموريين في الألف الثانية قبل الميلاد.

وقد أظهرت التنقيبات الآثارية أن سلالة سومرية بزعامة لوكال زاكيزي ملك الوركاء (2400 ـ 2371 ق.م.) حكمت في «ماري» قبيل احتلالها من قبل سرجون الأكدي (2371 ـ 2316 ق.م.). وقد تمكّن العموريون بعد سقوط الإمبراطورية الأكدية (سنة 2230 ق.م.) أن يتغلغلوا في سوريا الوسطى وفي لبنان، ثم أسّسوا بين سنة 2100 و1800 ق.م. عدّة دويلات في وادي الرافدين تمتد من آشور شمالاً إلى «لارسا» جنوباً، منها سلالة إيسن التي قامت على أنقاض سلالة أور الثالثة وقد ظلّت هذه الدويلات مزدهرة إلى أن قضت على استقلالها سلالة بابل الأولى التي اشتهرت بإمبراطورية حمورابي صاحب الشريعة المشهورة وهي من أصل عموري أيضاً. ويرجّح أن السلالة المهمة التي تأسّست في بلاد آشور واشتهرت بملكها «شمسي أداد» (1814 ـ 1782 ق.م.) أصلها من العموريين أيضاً. ثم استعادت الدويلات العمورية استقلالها بعد سقوط سلالة بابل الأولى وظلّت كذلك إلى زمن الإمبراطورية المصرية (1580 ـ 1085 ق.م.)، ففي هذا العهد دخلت تحت النفوذ المصري وهو العهد الذي بلغ فيه التنازع بين دول الشرق الأدنى أشدّه بين المصريين والبابليين والآشوريين والحثيين.

وكانت لغة العموريين من اللغات السامية الغربية وهي شبيهة باللهجة الكنعانية والفينيقية الغربية. أما الألواح التي عُثر عليها في قصر الملك «زمري - ليم» فقد كتبت بالخط المسماري وباللغة الأكدية ولكن لهجتها تميل إلى السامية الشمالية الغربية.



الصورة رقم (31)
الملك لانكي ماري ملك ماري العمورية. حوالي سنة 2500ق.م. (عن كيللر «التوراة كتاريخ»، ص22)

أما ديانة العموريين فكانت متشابهة إلى حدّ بعيد مع الديانات السائدة في بادية الشام وجزيرة العرب. وكان طبيعياً أن يقدّس العموريون في وطنهم الجديد مصدر حياتهم ووجودهم، وهو نهر الفرات، فمن أقدس آلهتهم التي عبدوها إلٰهة المياه والينابيع وقد عُثر على تمثالها في حفائر «ماري» وهو موجود في متحف حلب[1] وتشاهد الإلهة في هذا التمثال وهي مرتدية ثوباً طويلاً يستر جسمها ولا يظهر منه سوى مقدّمة القدمين والثوب مموج يشير إلى تموّجات الماء ومجرى النهر. وقد أمسكت الإلهة بيدها كأساً تنبجس منها المياه رمز الحياة والخصب وعلى رأسها عمامة وفي جيدها طوق وفي معصميها سواران[2]. ويعدّ هذا

(1) انظر الصورة رقم 32.

(2) «**الماء في حياتنا وتراثنا**» للمحامي عبد القادر عياش، دير الزور، 1969.

التمثال من أهم مجموعات النحت العموري في بلاد الرافدين.

وكانت عبادة الماء عن طريق الآلهة معروفة منذ أقدم الأزمنة في الشرق فقد ألّه المصريون النيل ودعوه «أوسيرس» وعبد الساميون في العراق الإلٰه «آيا» إلٰه المياه واتخذوا الرافدين، دجلة والفرات شعاراً مقدساً. ويتألف هذا الشعار من كأس يتدفق منها مجريان رئيسيان يتكوّن كل منهما من ثلاثة فروع يعتقد أنها تمثّل الروافد الرئيسة الثلاثة التي تنصبّ في كل من نهري دجلة والفرات. أما العين الفوّارة فهي تمثّل منبع دجلة والفرات حيث كان السومريون يتصورون أن دجلة والفرات ينبعان من منبع واحد[1][2]. وقد عُثر في حفائر «ماري» على لوح ظهر فيه نقش لزمري ـ ليم آخر ملوك ماري مع إلهتين تحمل كل منهما بيدها الإناء الفوّار العراقي نفسه الذي ينبع منه النهران دجلة والفرات[3].



صورة رقم (32)
آلهة المياه والينابيع العمورية من آثار بلدة ماري
(منقولة عن المتحف الوطني بدمشق)

---

(1) انظر: «**الري والحضارة في وادي الرافدين**» (الإناء الفوّار)، ص157 ـ 178.

(2) انظر الصورة رقم 33.

(3) Hitt, «**History of Syria**», p. 69.



الصورة رقم (33)
شعار الرافدين «دجلة والفرات»
عند البابليين

ومن أهم ما خلّده العموريون في تاريخهم القديم تأسيسهم بعد استقرارهم في العراق الإمبراطورية البابلية القديمة (سلالة بابل الأولى) التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي صاحب الشريعة المشهورة وقد دامت ثلاثة قرون (1894 ـ 1595 ق.م.).



الصورة رقم (34)
أسرى عموريون أخذهم المصريون في فتوحهم للشرق ـ حوالي القرن 13 ق.م.
(عن كتاب «قصة التوراة»، ص182)

هجرة الآراميين إلى سوريا والعراق:

ومن الموجات السامية العربية التي أعقبت هجرة الكنعانيين والعموريين وتدفّقت إلى أنحاء الهلال الخصيب موجة الجماعات التي تسمّت بالآراميين نسبة إلى آرام بن سام بن نوح[1]. والمرجّح أن اشتقاق كلمة إرم الواردة في القرآن الكريم من اسمهم[2]. وقد جاءت كلمة «آرام» في التوراة مضافة إلى عدّة أماكن يُراد بها مستوطن أو قبيلة أو أرض عالية مثل «آرام صوبة» و«آرام النهرين» و«آرام دمشق» و«فدان آرام» الخ. . .[3] ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن مصطلح «آرام النهرين» أي بلاد ما بين النهرين كان يقصد به على ما ورد في التوراة الأقسام الشمالية من العراق وبالتحديد المنطقة الواقعة بين منبع البليخ أحد روافد نهر الفرات العليا وبين نهر الفرات والتي مركزها (حاران) (حران الحالية). وأول من ترجم هذا المصطلح إلى الإغريقية المؤرّخ اليوناني المعروف بوليبيوس (202 ـ 120 ق.م.) فاستعمل كلمة «ميزوبوتاميا» التي صارت تُطلق على ما يُعرف اليوم بوادي الرافدين أي جميع القطر العراقي[4]. ثم أطلق الآشوريون تسمية «آرام» على الجماعات التي وجدت في تلك المنطقة، ومن ثم عمّت كل القبائل التي تنتسب إلى أصل واحد[5].

وقد بدأ الآراميون يستقرون في منطقة الفرات الأوسط (الخابور ـ البليخ ـ الفرات) في أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد[6] وذلك بعد أن توغلوا في شمال جزيرة العرب وهنا نمت لغتهم وثقافتهم الخاصة بهم، وقد اقتبسوا الكثير من

---

(1) (تك 10: 22 ـ 23) (1 أخ، 1: 17).

(2) طه باقر، «**مقدّمة في تاريخ الحضارات**»، ج 2، ص 268.

(3) (2 صم، 8: 3، 10: 6)؛ (تك 24: 10)؛ (2 صم، 8: 5)؛ (تك، 29: 4، 5)؛ (2 صم، 10: 16).

(4) الأستاذ طه باقر، «ملاحظات في جغرافية العراق»، **مجلة الأقلام**، العدد 10، أيلول 1970، ص15 ـ 16.

(5) الأب ألبير أبونا «**أدب اللغة الآرامية**»، ص 12 ـ 13.

(6) Diringer, «**The Alphabet**», 1948, p.253.

العموريين والكنعانيين ومن الحضارات التي جاوروها ولا سيما حضارة وادي الرافدين والحثيين، ولكنهم حافظوا على لغتهم ولهجتهم الخاصة بهم. ثم توغلوا في أطراف البلاد فأقاموا في أواخر القرن الثاني عشر ق.م. عدّة ممالك وأعظمها دمشق وحماة وحلّوا محل العموريين والحوريين والحثيين في وادي نهر العاصي..

وقد عيّن الدكتور حتي في كتابه «تاريخ سوريا»[1] تاريخ استيطان الآراميين في منطقة الفرات الأوسط (منطقة حران) قبل الألف الثانية قبل الميلاد، بينما يحدّد الأستاذ طه باقر في كتابه، «مقدّمة في تاريخ الحضارات القديمة»[2]، بدء هجرة الآراميين إلى الفرات الأوسط بمنتصف الألف الثانية قبل الميلاد. ولكن إذا أخذنا برواية التوراة القائلة إن إبراهيم الخليل الذي كان ينتمي إلى العشائر الآرامية قد اتصل بهم في حران قبل ذهابه إلى فلسطين، ثم أرسل من يجيء بإحدى بناتهم ليجعل منها زوجة لابنه إسحاق، يكون الآراميون قد وجدوا في مستوطناتهم في منطقة حران قبل القرن التاسع عشر قبل الميلاد لأن إبراهيم الخليل وجد في سنة 1900 ـ 1850 ق.م. وهذا يتفق مع ما ذهب إليه الدكتور حتي. ومما يدلّ على أن الآراميين كانوا موجودين في هذه المناطق قبل الألف الثانية قبل الميلاد أن اسم آرام ورد في كتابة مسمارية ترجع إلى عهد الملك الأكدي نرام ـ سني (القرن الثالث والعشرون ق.م.)، بصفة (Ara-am) ثم ورد في كتابة أخرى تشير إلى مدينة أو دويلة باسم آرام قرب مملكة أشنونا في جنوب العراق[3].

أ ـ القبائل الآرامية و«الأخلامو» «والعبيرو» (الخبيرو):

وكان الآراميون مكوّنين من جملة عشائر وقبائل منهم فرع ورد اسمه بصيغة «أخلامو»، وهي تسمية شاملة وردت في الكتابات القديمة لجماعة من

---

(1) انظر الطبعة الإنكليزية منه، ص162.

(2) انظر ج 2، ص 268 ـ 269.

(3) Moscati, «**Ancient Semitio Civilizations**», p. 168.

القبائل البدوية في شمال الجزيرة العربية، وقد أصبح الأخلامو في العهد الأخير مرتبطين كلياً بالآراميين في صدّ الغزو الآشوري، ونظراً لشهرة هذه القبائل صار اسماً كثيراً ما يطلق على جميع الآراميين. وقد ورد ذكر جماعات أخرى مع «الأخلامو» سُمِّيت بـ «الخبيرو» أو «الهبيرو» أو «العبيرو»، وهي كلمة كانت تطلق على القبائل العربية الرحّل التي كانت تجوب الجزء الشمالي من الجزيرة العربية أيضاً. وقد انضمّت إلى القبائل الآرامية، وصارت هذه الكلمة بعد أن صُحِّفت إلى عبري وعبراني تطلق على أتباع موسى بعد ظهورهم باعتبارهم من القبائل الرحّل، لأنهم لم يكونوا قد وجدوا بعد عندما كانت هذه الكلمة تستعمل لتعني البدو الرحّل أو المهاجرين أو العابرين[1].

ويؤكد العلّامة «كروهمان» في بحثه عن أصل العرب، علاقة الآراميين مع قبائل الخبيرو والعبيرو فيقول: «ومن المؤكد أن العنصر العربي البدوي في شبه جزيرة العرب، وهو على الأرجح مصطلح مرادف لتسمية «آرام» و«عبيرو» و«خبيرو» وجد في الأصل في المنطقة التي تمتد بين سوريا وبلاد ما بين النهرين والتي تعدّ أقدم مركز للساميين»[2].

ويقول دايرنكر: «إن الآرامية» فرع رئيس يرجع إلى الهجرة السامية الثالثة ذكرت في مصادر التوراة وفي الكتابات المسمارية. ويطلق اسم آرام الذي ورد في التوراة على سلالة عنصرية كما يطلق على الإقليم الذي تسكنه تلك السلالة. وجاء في جدول الأمم[3] أن آرام هو جدّ الآراميين وقيل عنه إنه ابن سام، وجاء في مكان آخر أنه حفيد ناحور أخي إبراهيم الخليل[4]، ويقال عن يعقوب إنه آرامي تائه، وعن أمه وزوجاته إنهن آراميات، وقد وردت الإشارة إليهم في رسائل «تل العمارنة» في القرنين الخامس والرابع عشر قبل الميلاد باسم أخلام أو أخلامو أي الأحلاف الذين يظن أنهم هم أحلاف آرام

(1) انظر ما يلي عن «العبيرو» ومفهوم هذه الكلمة في أزمنة ما قبل بني إسرائيل.

(2) A. Grohmann. «The Arabs», The Enc: of Islam, New ed., p. 255.

(3) (تك، ص: 10).

(4) (تك، 22: 21).

المذكورين في وثائق القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وهم يسمون في المصادر الآشورية «أرومو» و«آرامو» وجمعهم «أريمي»[1].

ولقد ورد في المدوّنات المصرية منذ السلالة الأولى (نحو 3100 ق.م.) ما يشير إلى هؤلاء الرحل باسم «ستيو» وقد أطلق الأكديون عليهم اسم «سوتيو» أو «سوتو». وقد أخذت هذه التسميات تدلّ في وثائق الآشوريين المتأخرة على الرحّل بوجه عام، ثم أطلق اللقب على العموريين في ماري والآراميين في حرّان على حدّ سواء، وقد ورد ذكر الآراميين في النصوص العمورية من ماري وفي الألواح التي عُثر عليها في أوغاريت. ومنذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد صار يطلق لقب «أخلامو» على هؤلاء الرحّل وقلّ تدريجياً استعمال تسمية «سوتيو» حتى زال نهائياً بدليل أن الملك الآشوري تفلت فلاسر الأول (1116 ـ 1090 ق.م.) كان يخلط بين الأخلامو والآراميين[2].

ب ـ اتساع تجارة الآراميين وانتشار لغتهم في الشرق:

وقد ساعد موقع مناطق الآراميين على توسيع نطاق متاجرهم فاحتكروا التجارة كما احتكروا طرق المواصلات المؤدّية إلى آشور شرقاً وإلى المدن الفينيقية غرباً وإلى آسيا الصغرى شمالاً ومن هذه وتلك إلى المدن المصرية. وأمكن بفضل تدجين الجمل العربي تيسير القوافل تيسيراً كبيراً فأُقيمت على أطراف البلاد مراكز للتجارة كانت أشهرها «تدمر» و«الحضر».

وفي تعليق للمرحوم العقّاد في ذلك يقول: «كان للآراميين بطون في العراق وبطون أخرى في سيناء وفلسطين فكانوا ينشرون ما اقتبسوه من وادي الرافدين ووادي النيل على السواء، وكان الإغريق على اتصال بهم في الموانىء الشرقية من آسيا الصغرى إلى تخوم سيناء فنقلوا عنهم وسائل الحضارة والتجارة قبل أن يهتدي إليها أبناء القارة الأوروبية بزمن طويل..»[3].

---

(1) Diringer, «**The Alphabet- Akey to the History of Mankind**», 2nd ed: 1948, p.253.

(2) الأب ألبير أبونا، «**أدب اللغة الآرامية**»، ص 12.

(3) العقاد، «**أثر العرب في الحضارة الأوروبية**»، ص 23.

وقد انتشرت مع التجارة الآرامية اللغة الآرامية انتشاراً واسعاً . . واللغة الآرامية من فروع كتلة اللغات الغربية التي انتشرت شمال غربي ما بين النهرين، وقد أصبحت لغة أقطار الشام وتغلغلت في بلاد فارس وانتشرت بين الشعوب المجاورة لها. ثم امتدت إلى وادي النيل وآسيا الصغرى وشمال جزيرة العرب حتى حدود الحجاز، وبقيت دهوراً طوالاً اللغة الرسمية والتجارية للأمم الحية في القرون الأولى قبل الميلاد في بابل وآشور وفارس ومصر وفلسطين، وكانت الآرامية لغة السيد المسيح والحواريين وبها كتب الإنجيل على ما يرجّح، وإن الكتابات الدينية لمختلف الكنائس الشرقية دوّنت بلهجات مشتقة من الآرامية وبأقلام مأخوذة من الأبجدية الآرامية[1] وقد حلّت اللغة الآرامية محل الكنعانية وظلّت اللغة السائدة في البلاد إلى الفتح العربي في القرن السابع بعد الميلاد عندما أخذت اللغة العربية تحلّ محلها. وانقسمت اللغة الآرامية بمرور الأزمان إلى عدّة لهجات يمكن حصرها بفرعين: الفرع الشرقي في وادي الفرات وتمثّله اللهجة المندائية والسريانية ولهجة الحضر، وتمثّل الفرع الغربي آرامية التوراة والإنجيل والترجوم (التفسير والشرح) واللهجات الآرامية في مملكة سمأل وفي حماة وتدمر وبلاد النبط.

والدليل على انتشار اللغة الآرامية في جميع الشرق الأدنى أن تسمية «آراميين» صارت تشمل جميع القبائل الساكنة قديماً في البلاد الفسيحة الواسعة والمحدودة ببلاد الفرس شرقاً والبحر المتوسط غرباً وبلاد الأرمن وبلاد اليونان في آسيا الصغرى شمالاً وحدود جزيرة العرب جنوباً والتي كانت تعرف قاطبة ببني آرام والآراميين مع أن بعض هذه القبائل كانت تُسمّى بأسماء خصوصية كتسمية أهل بابل وما يجاورها من قبائل بالكلدانيين وسكان مملكة آشور بالآشوريين وتسمية أهل الشام بالأدوميين، ولكن تسمية الآراميين كانت تشملهم جميعاً، وكانت كل هذه البلاد تتكلم بالآرامية، كما أن تسمية طي مثلاً وقريش وحمير وكنانة لا تخرج هذه القبائل من كونهم عرباً[2].

---

(1) Diringer, «**The Alphabet**», p. 235.

(2) القسّ يعقوب أوجين حنا الكلداني، «**دليل الراغبين في لغة الآراميين**»، الموصل، 1900، ص7.

ولم يقتصر الأمر على انتشار اللغة الآرامية وحدها إذ انتشر استعمال الحروف الأبجدية التي كتب بها الآراميون لغتهم بعد أن أخذوا هذه الحروف من الفينيقيين فاقتبسها أقوام عديدة في آسيا في كتابة لغاتها، وقد أخذ اليهود خطّهم الذي طبعوا به كتب التوراة من الخط الآرامي بين القرنين السادس والرابع ق.م.، كما أن العرب الشماليين أخذوا خطهم من الخط النبطي الذي هو شكل من أشكال الخط الآرامي، وهذا هو الخط الذي كتب فيه القرآن الكريم وتطوّر عنه الخط العربي الحديث، كما أخذ الأرمن والفرس والهنود خطوطهم من أصول آرامية. وهكذا يكون الخط الفينيقي قد انتقل على أيدي الآراميين إلى نصف العالم الشرقي. وقد تفرّع من القلم الآرامي أقلام عديدة متشابهة، المعروف منها الآن القلم السامري والتدمري والنبطي ومن الأخير نشأ القلم الحميري العربي الذي منه تولّد القلم الكوفي ومن هذا نتج القلم النسخي.

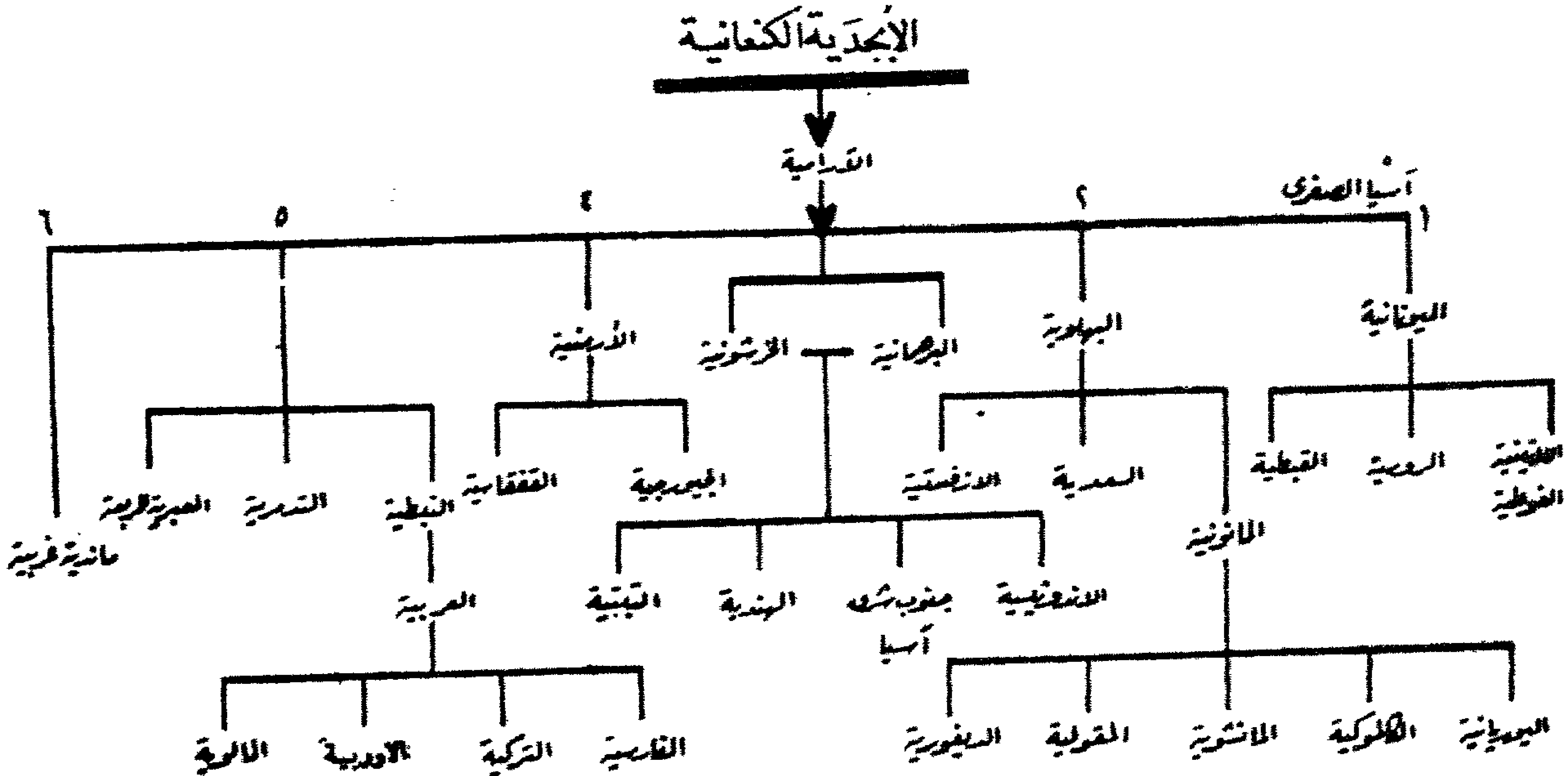
ج - نشأة اللغة الآرامية وتطوّرها:

إن أقدم كتابة آرامية معروفة عُثر عليها في شمال سوريا وهي ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد وفي جملتها كتابة أبجدية من تل حلف (كوزان)[1]، ويليها في القدم الكتابة التي وجدت في منطقة دمشق على بُعد أربعة أميال ونصف ميل شمالاً وهي تحمل اسم الملك بنهدد الأول وترجع إلى حوالي سنة 850 ق.م.، وهناك الكتابة التي اكتشفت على مسلّة «زاكر» ملك حماة والتي يرجع أولبرايت تاريخها إلى سنة 775 ق.م. كما أن هناك كتابات آرامية قديمة عُثر عليها في دمشق وفي سمأل (زنجرلي) وفي المدن الفينيقية، وهذه ترجع إلى الفترة التي تمتد بين القرن الثامن والخامس قبل الميلاد[2]. وهناك كتابة آرامية مدوّنة على ورق البردي وجدت في مصر وهي ترجع إلى سنة

---

(1) R.A. Bownan, «**The Old Aramaic Alphabet of Tell Halaf**», Amer. Journal of Semitic Languages, Vol. LVIII (1941), pp. 359-362; also: «**Journal of Near Eastern Studies**», Vol. VII (1948), p.71.

(2) Hitti, «**History of Syria**», pp. 169-170.



الرسم رقم (٥)

إن الخط الذي اقتبسه الآراميون الأولون من جيرانهم الكنعانيين أصبح مصدراً لمعالم الكتابات الحالية، فانتشرت إحدى صيغه في آسيا الصغرى ومنها انتقلت إلى بلاد اليونان حيث أعطت الأبجدية اليونانية عدة فروع في أوروبا وفي مصر، وهناك صيغة أخرى انبثقت منها الكتابة البهلوية في إيران الوسطى وقد تشعب منها عدة فروع ثم ظهرت صيغة ثالثة منها الكتابة الأرمنية التي منها جاءت الكتابات الجيورجية والقفقاسية، وعن صيغة خاصة نتجت أيضاً الكتابة العبرية المربعة والخطان التدمري والنبطي ومن هذا الأخير جاء الخط العربي بأشكاله العديدة في الفارسية والتركية والأوردية والمالوية، وقد تفرعت الكتابة الماندية الغربية أيضاً من إحدى صيغ الكتابة الآرامية «أدب اللغة الآرامية»، تأليف الأب ألبير أبونا، بيروت، 1970، ص26 ـ 27

505 ق.م.[1] وفي هذه النصوص القديمة يبدو التطور واضحاً من اللغة الكنعانية إلى اللغة الآرامية.

ونظراً للدور الذي لعبته اللغة الآرامية ذات الأصل العربي السامي في نشر الثقافة السامية بوجه عام لفترة تربو على 17 قرناً من الزمن وذلك بين القرن الحادي عشر قبل الميلاد والقرن السابع بعد الميلاد لا بدَّ من عرض نبذة عن نشأتها وتطورها في مختلف مراحل انتشارها:

يجمع علماء اللغة على أن الآراميين تعلموا من الكنعانيين فن الكتابة وحاولوا استعمال اللغة الكنعانية في كتاباتهم «غير أنهم كشفوا عن ذواتهم باستعمالهم تعابير آرامية، فسرعان ما تخلّوا عن الكنعانية وأخذوا في استعمال لغتهم الخاصة»[2]. وقد تكاملت اللغة الآرامية القديمة هذه في شمال سوريا في الفترة بين القرنين الحادي عشر والثامن قبل الميلاد وهي الفترة التي ازدهرت فيها الدول الآرامية منتهزة فترة ضعف الإمبراطورية الآشورية لمواصلة نموّها وانتشارها. إلا أن هذا الازدهار السياسي الذي تمتّعت به الدول الآرامية في هذه الفترة لم يدم طويلاً إذ سرعان ما استعاد الآشوريون قوّتهم وراحوا يهدمون معاقل الآراميين الواحد بعد الآخر ولم ينته القرن الثامن قبل الميلاد حتى قضي على استقلال الدويلات الآرامية. ولكن التدهور السياسي لم يقض على الثقافة الآرامية بل على عكس ما كان يتوقع فقد أخذ المستعمرون أنفسهم باللغة الآرامية التي أخذت تنتشر انتشاراً سريعاً حتى تبنّتها أقوام كثيرة وصارت تحتل المكانة الأولى بين سائر اللغات في العلاقات الدولية، وذلك لسهولة أبجديتها، واستمرّت الآرامية تزدهر في العهد البابلي الحديث (616 ـ 539 ق.م.) وعلى أثر الغزو الفارسي على بلاد الشرق (539 ـ 331 ق.م.) انتشرت اللغة الآرامية بصورة واسعة فامتدّت من فارس إلى البحر المتوسط حتى أصبحت اللغة الرسمية في كثير من البلدان بين الفرات والحدود المصرية، ثم امتدّت شطر نواحي آسيا الصغرى وشمال

(1) Diringer, «**The Alphabet**», p. 255.

(2) (الأب ألبير أبونا)، «**أدب اللغة الآرامية**»، ص18 ـ 19.

الجزيرة العربية حتى احتلّت في أوج ازدهارها وانتشارها معظم أجزاء الشرق الأوسط بل تعدّته إلى الشرق الأقصى وبلغت بلاد الهند والصين. ولما كانت العبرية مشتقّة من الآرامية فقد تغلّبت الأخيرة على العبرية وحلّت محلها في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد. هذا مع العلم أن بعض أجزاء العهد القديم دوّن من أول الأمر باللغة الآرامية[1].

وقد جابهت اللغة الآرامية فترة عصيبة في العهد اليوناني (331 ـ 64 ق.م.) بعد أن أخذت الثقافة اليونانية تفرض نفوذها في بلاد الشرق غير أنها صمدت في وجه هذا التيار وظلّت سائدة في الحضر رغم مظاهر الحضارة اليونانية الرومانية البادية في أطلالها اليوم وعوّضت الآرامية ما فقدته في العهد اليوناني إذ بسطت نفوذها في البلاد العربية حيث تداولها الأنباط والتدمريون حتى العهد المسيحي، وفي فلسطين تمسّكت بها الجماعات التي ناهضت الثقافة اليونانية[2]. ثم استعادت اللغة الآرامية مكانتها في عهد الاحتلال الروماني لا سيما منذ انتشار المسيحية باعتبارها لهجة مسيحيي فلسطين. وهكذا فقد حافظت هذه اللغة على نفوذها زماناً طويلاً إلى أن حلّت محلها اللغة العربية في القرن السابع بعد الميلاد.

وقد ظهرت مجموعتان كبريتان من اللهجات الآرامية انبثقتا من اللغة الآرامية القديمة، المجموعة الغربية وكانت تشمل فروعاً عديدة هي النبطية والتدمرية والآرامية اليهودية الفلسطينية التي كتب بها تلمود أورشليم والسامرية والآرامية المسيحية، والمجموعة الشرقية وهي تشمل اللغة السريانية الرهاوية[3]

(1) انظر ما يلي في الفصل الثالث، «التوراة والديانة اليهودية».

(2) «**أدب اللغة الآرامية**»، ص 21.

(3) لقد أطلق لقب السريان على الأقوام الناطقة باللغة الآرامية التي اعتنقت الديانة المسيحية وظلّ لقب «الآراميين» ويُطلق على الفئات التي بقيت على الوثنية. أما الرها فهي المدينة التي شيّدها سلوقس نيقاطور سنة 304 ق.م. وفي نحو سنة 132 ق.م. استقرّت قبيلة آرامية أو نبطية في هذه المنطقة وأسّست دويلة فيها واتخذت مدينة الرها عاصمة لها. وقد أطلق السلوقيون لقب أديا على الرها كما يرى البعض، وقد سمّاها الأتراك أورفة في القرن الخامس عشر وهي تقع الآن ضمن الحدود التركية. كانت الرها مدينة مسوّرة محصنة لا يمكن الولوج إليها إلّا بستة =

وهي المعروفة بالكلدانية ولغة التلمود البابلي واللهجة المانديّة ولهجة الحضر، وقد انقرضت هذه اللهجات في حين كتب للّغة الرهاوية البقاء.

الآرامية الغربية:

كانت الآرامية الغربية قد استقرّت في سوريا وفلسطين، ولما عاد المسبيون من بابل إلى فلسطين كانت هذه الآرامية وليس العبرية هي اللغة المحلية التي يفهمها الجميع، لذلك فإن هؤلاء المسبيين لم يفهموا كتاب الشريعة الذي قرأه عزرا بالعبرية، لذا فإن مترجميه «قرأوا في السفر في شريعة الله ببيان وفسروا المعنى وأفهموهم القراءة»[1] وكذلك فإن خصوم المنفيين العائدين خاطبوا ملك الفرس بهذه اللغة الآرامية وتسلّموا جوابه بها أيضاً[2]. «وقد يكون سفر دانيال بكامله كُتب باللغة الآرامية ثم نقلت بدايته ونهايته إلى العبرانية لتيسير تنسيقه في مجموعة الكتب المقدسة. أما كتب العهد القديم التي جاءت بالآرامية فهي عزرا ودانيال وأرميا (وقليل) من سفر التكوين»[3].

وتتميز المجموعة الغربية بأربع لهجات هي:

أولاً ـ اللهجة الآرامية اليهودية الفلسطينية، وقد ظهرت هذه اللهجة بالكلمات الآرامية والتعابير الواردة في يونانية العهد الجديد. وهي لهجة

= أبواب، وتكثر المياه والينابيع في المدينة فتؤلف عدّة أنهر تصبّ في نهر البليخ أحد روافد الفرات، دمرها الفيضان عدّة مرات كما دمّرتها الزلازل سنة 769 و818م. وقد لعب الصراع بين الفرس والرومان دوراً في تاريخ الرها السياسي، فقد فرض الفرثيون سيطرتهم عليها فترة من الزمن ثم استعادها هرقل سنة 625م ولم تبق في حوزته أكثر من 12 سنة، وأخيراً فتحها المسلمون مع بلاد ما بين النهرين سنة 637م. ولم يتخلّوا عنها إلّا مدة قصيرة (1097 ـ 1146م)، حينما جعلها الصليبيون عاصمة لمملكتهم في الشرق. وقد أصبحت الرها مركزاً هاماً للنصرانية في القرن الثالث الميلادي حيث غدت مهداً للغة وأدب الآراميين وبقيت مدينة مسيحية في ظلّ الأتراك.

(1) (نح، 8: 8).

(2) (عز، 4: 7).

(3) **«أدب اللغة الآرامية»**، ص 21.

(آرامية الجليل) نفسها التي نطق بها السيد المسيح ورسله وقد كتب بها التلمود الفلسطيني.

ثانياً ـ اللهجة الآرامية السامرية، وهي لهجة قريبة جداً من لهجة آرامية الجليل وقد كتبت بها بعض القطع الطقسية وأناشيد وقصائد وقد حلّت العبرية محلها بعد الفتح الإسلامي. وكانت تُكتب هذه اللهجة بالأبجدية الغربية وهي تطور محلي للخطّ الكنعاني القديم.

ثالثاً ـ آرامية فلسطين المسيحية، وهي لهجة المسيحيين الأولين في فلسطين، ولما كانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية للديانة المسيحية فقد ترجم كتاب العهد الجديد إليها مع النصّ الآرامي ما عدا إنجيل متى الذي فقد نصّه الأصلي باللغة الآرامية وبقيت ترجمته اليونانية، ثم قامت الجماعات التي انتحت جانب البيزنطيين بترجمة معظم النصوص الدينية من اليونانية إلى لهجتهم التي صارت تعرف بآرامية فلسطين المسيحية وهذه هي اللهجة نفسها التي كان المسيحيون يستعملونها في مصر.

رابعاً ـ الآرامية الغربية الحديثة، وهذه اللهجة هي التي تعرف بـ «السورت» وما يزال بعض المسيحيين في القرى الواقعة شمال شرقي دمشق يتكلمون بها وقد خالطتها اللغة العامية الدارجة فتأثرت إلى حدّ بعيد في ألفاظها باللغات التي سادت تلك المنطقة، وما زالت هذه الآرامية مستعملة في أربع قرى واقعة في الشمال الشرقي من دمشق وهي «معلولا» و«بخعة» و«جبعدين» و«صيدنايا». ومع أن هذه اللهجة وليدة الاحتكاك بين اللهجتين الغربية والشرقية فإنها تُعتبر من اللهجات الشرقية[1] إلا أنها تعدّ بقية حية للآرامية.

الآرامية الشرقية:

أما المجموعة الشرقية من اللغة الآرامية فقد نشأت عند الآراميين الذين نزحوا إلى منطقة دجلة والفرات فكوّنوا لهجاتهم الخاصة في مستوطناتهم

---

(1) انظر ما يلي عن الآرامية الشرقية.

الجديدة وامتدّت هذه اللهجات حتى بلغت جبال أرمينيا وكردستان. وتتميّز هذه المجموعة بأربع لهجات أيضاً وهي:

أولاً ـ الآرامية اليهودية ـ البابلية، وقد ظهرت هذه اللهجة في الفترة ما بين القرنين الثاني والسابع للميلاد في التلمود البابلي وفي الوثائق الأخرى التي تعود إلى هذه الفترة. ومن خصائص هذه اللهجة اختلاف صيغتها شأنها شأن الآرامية اليهودية الفلسطينية التي تتبع الطريقة المصطلحة لدى الكهنة الذين كانوا يتداولونها.

ثانياً ـ اللهجة الماندية، وهذه اللهجة ظهرت عند المانديين في العراق فصارت لهجة أدبهم الديني، ويعتقد أن هذه اللهجة تطوّرت محلياً من الآرامية القديمة وقد تكون صيغة صافية من الآرامية الشرقية غير المتأثرة بالعبرانية، وقد ظهرت في وقت متأخر فطرأ عليها تغيير لفظي كبير متأثرة باللغة العربية.

ثالثاً ـ اللهجة السريانية، وهي التي أصبحت لهجة الآرامية المسيحية الشرقية بعد أن اتخذتها المسيحية لغة الدين والآداب. لذلك أصبحت من اللهجات ذات الشأن فازدهرت في منطقة الرها الآرامية (منطقة أورفة حالياً) التي أصبحت مركزاً للنصرانية في القرن الثالث للميلاد. وقد كان الفضل للمجادلات العقائدية في الشرق وللانعزال الذي سببته تلك المجادلات بين الفئتين الشرقية والغربية في تطور هذه اللهجة وصقلها وإغناء مفرداتها وضبطها لتكون قادرة على التعبير عن الحاجات اللاهوتية والفلسفية والعلمية. وهكذا فقد أخذت الاختلافات اللفظية والكتابية تظهر واضحة منذ نهاية القرن السادس الميلادي حتى تمّ انقسام اللغة الآرامية في اللفظ والخط إلى آرامية غربية وآرامية شرقية. وقد انتشرت هذه اللهجة في البلاد الفارسية ومنها امتدّت إلى البلدان الشرقية ثم إلى الشرق الأقصى إلى الصين والهند وما زالت متداولة في الهند لدى بعض السريان كلغة طقسية، ودخلت البلاد العربية ومنها مصر وكان تأثيرها كبيراً على لغات كثيرة كالعربية والأرمنية والإيرانية، ثم اندحرت بعد الفتح الإسلامي أمام اللغة العربية ولكنها ظلّت لغة أدبية حية حتى القرن الرابع عشر للميلاد ولم تزل لغة طقسية لدى الكنائس السريانية الشرقية والغربية.

رابعاً ـ السريانية الحديثة (السواديّة)، وهذه اللهجة الآرامية ما زالت تتكلم بها الجماعات المسيحية القاطنة في جبال كردستان والقرى المسيحية الواقعة في شمال العراق وعلى الضفاف الشرقية من بحيرة أورمية وجبال طور عبدين، وقد طرأ عليها مثل جميع اللهجات الآرامية الباقية إلى الآن، تغيير كبير في اللفظ وتأثرت بالظروف وباللغات المجاورة كالعربية والتركية والفارسية والكردية فسادت في هذا المضمار لهجة أورمية.

وقد ظهرت عدا اللهجات الآرامية التي تقدّم ذكرها لهجة رسمية انتشر تداولها دولياً في الوثائق الرسمية في مختلف المناطق الآشورية، ثم تبنّتها الإمبراطورية الفارسية بدورها كلغة رسمية في الدوائر الحكومية، ففي العهد الآشوري (1100 ـ 612 ق.م.) انتشرت الآرامية الرسمية انتشاراً واسعاً حتى أصبح المشرفون على الشؤون الإدارية يتقنونها أكثر من الأكدية وقد امتدّ تداولها في الأقطار الأخرى حيث صارت الآرامية التجارية أساساً للآرامية الرسمية[1].

د ـ ديانة الآراميين:

كانت ديانة الآراميين قائمة على عبادة عدّة آلهة من أهمها الإلٰه «حداد» وهو في الأصل إله الزوابع والعواصف، وكان هذا الإلٰه يعبد في كركميش (جرابلس) وفي سمأل (زنجرلي) وفي حلب وفي دمشق، وقد أضيف اسمه إلى أسماء ثلاثة من ملوك دمشق. وقد كان للإلٰه «إيل» عند الآراميين المكانة نفسها التي يتمتع بها عند الكنعانيين، فقد أضيف إلى اسم أحد ملوك أرباد المسمى «متى» فأصبح «متى ـ إيل»، وهو الذي عقد معاهدة دفاع مشترك مع الملك الآشوري نيراري (754 ـ 745 ق.م.) فلم تكن الديانة الآرامية لتختلف إجمالاً عن المعتقدات والتقاليد السائدة في تلك الأزمان بين ثقافات الأقوام المجاورة في كنعان وفي العراق وفي آسيا الصغرى وفي الجزيرة العربية.

---

(1) لقد اعتمدنا في عرض هذه النبذة عن تاريخ اللغة الآرامية على كتاب الأب ألبير أبونا «**أدب اللغة الآرامية**» وهو يعدّ أحسن ما كتب في تاريخ الأدب الآرامي.

[illegible]

الصورة رقم (35)

نماذج من كتابة باللغة الآرامية، وهذه اللغة ما تزال إلى اليوم اللغة الطقسية لمعظم البلاد الشرقية أي للسريان الشرقيين وهم الكلدان والسريان الغربيين والموارنة



الصورة رقم (36)

أحد النقوش، التي كانت تزيّن قصر الملك الآرامي «كبارا» في جوزانا (تل حلف) ـ (القرن 9 ق.م.)

هـ ـ «القبائل الآرامية» والعرب البائدة ترجع إلى أصل واحد:

يؤكد المؤرّخون العرب أن القبائل الآرامية ترجع إلى الأصل العربي فهي والعرب البائدة أو العاربة من أصل واحد، ولذا كانوا ينسبون شعوب العرب البائدة جميعاً إلى إرم ويسمونها بالأرمان. فقد ذكر حمزة الأصفهاني في كتابه «تاريخ سني الملوك»: «أن العرب العاربة عشرة، عاد وثمود وطسم وجديس وعماليق وعبيل وأميم ووبار ورهط وجاسم وقحطان، فكانت هذه الفرق تؤرّخ بسني إرم إلى أن بادت كلها الواحدة أثر الأخرى. وبقي منهم بقايا يسيرة وكانوا يسمون الأرمان»[1]. وقد ذكر المسعودي عن الأرمان أنهم إنما سموا كذلك لأن عاداً لما هلكت قيل ثمود إرم، فلما هلكت ثمود قيل لبقايا إرم أرمان[2]. ويصف ابن خلدون في «المقدّمة » العرب العاربة والعرب البائدة باعتبارهما مصطلحين لمعنى واحد فيقول: «إن العرب العاربة شعوب كثيرة وهم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل وعبد ضخم وجرهم وحضرموت وحضور والسلفات، وسمي هذا الجيل «العرب العاربة» إما بمعنى الرساخة في العروبة كما يقال ليل أليل وصوم صائم أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت أول أجيالها، وقد تسمّى البائدة أيضاً بمعنى الهالكة لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد من نسلهم»[3].

ومما يؤكد أن الآراميين عرب وكانوا يسمون كذلك أن الملك الآشوري أسرحدون (668 ـ 625 ق.م.) يشير في كتاباته إلى أن الملك حزائيل ملك العريبي (العرب) جاء خاضعاً إلى نينوى وهو يحمل معه جزية كبيرة[4]. والمعلوم أن حزائيل اسم آرامي وهو بالطبع غير الملك حزائيل الآرامي الشهير ملك دمشق الذي استولى على معظم أملاك إسرائيل وتمكّن من صدّ هجوم الملك شلمنصر في سنتي 842 و838 ق.م.

---

(1) **تاريخ سني الملوك**، طبعة بيروت، 1961، ص 105.

(2) «**التنبيه والأشراف**»، الطبعة الأوروبية، ص 78 ـ 79. انظر أيضاً كتاب «**مروج الذهب**»، طبعة دار الأندلس، 1965، ج1، ص52 ـ 53.

(3) **مقدمة ابن خلدون**، طبعة بولاق سنة 1284هـ (ج2، ص 16 و19 و71 و259).

(4) Rogers, **«Cuneiform parallels etc,»** pp. 353-359.

ويقول الدكتور هوميل في كتابه «التقاليد العبرانية القديمة»: إن الآراميين الذين يرجعون إلى أقدم الأزمان والذين ورد ذكرهم في الكتابات القديمة كانوا ينتمون إلى العرق البدوي الخالص وهم يحملون الأسماء نفسها التي نجدها في التسميات العربية. لذلك فإننا لا نكون قد جازفنا في الكلام عندما نؤكد أن الآراميين في الألف الثانية قبل الميلاد بل وحتى في العصور التالية التي تمتد إلى زمن ازدهار الإمبراطورية الآشورية كانوا هم والشعب العربي العظيم شعباً واحداً من عنصر واحد متماسك الأجزاء»[1]. كما يشير العلّامة «كروهمان» في بحثه عن تاريخ العرب إلى أن الآراميين الذين تدخلوا في شؤون «بيت زماني» في أعالي الفرات سنة 880 ق.م. وساعدوا أهلها على طرد معتمد الملك الآشوري «آشور ناصر بال الثاني» (884 - 859 ق.م.) هم أسلاف العرب[2].

ومن الكتّاب العرب الذين يؤيدون هذا الرأي المرحوم الأستاذ العقّاد الذي يقول: «إن الثقافة الآرامية عربية في لغتها ونشأتها ونسبتها إلى عنصرها، ولا يمكن أن تعرف لها نسبة إلى أمة غير الأمة العربية في عهودها الأولى وكل ما استفاده العالم من جانبها فهو من فضل هذه الأمة على الثقافة العالمية»[3]. لذلك يجب أن تحتل القبائل الآرامية مكانة متميزة في تاريخ العرب قبل الإسلام لأنها تمثّل الثقافة العربية القديمة وخاصة أن النبي إبراهيم الخليل هو منهم، ففي حوالي أوائل الألف الثانية قبل الميلاد نزحت بعض الأسر الآرامية إلى جنوب العراق واستقرّت في مناطق بابل فكان إبراهيم الخليل من ذرية هذه الأسر ومن أمرائها[4].

و - موجز تاريخ الآراميين السياسي:

بلغ الآراميون أوج اتساعهم وسلطانهم السياسي في القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد مغتنمين فترة ضعف الإمبراطورية الآشورية في أعقاب

---

(1) F. Hommel, **«the Ancient Hebrew Tradition»**, pp. 202 - 203.

(2) **Encyclopedia of Islam,** N.E., p.524.

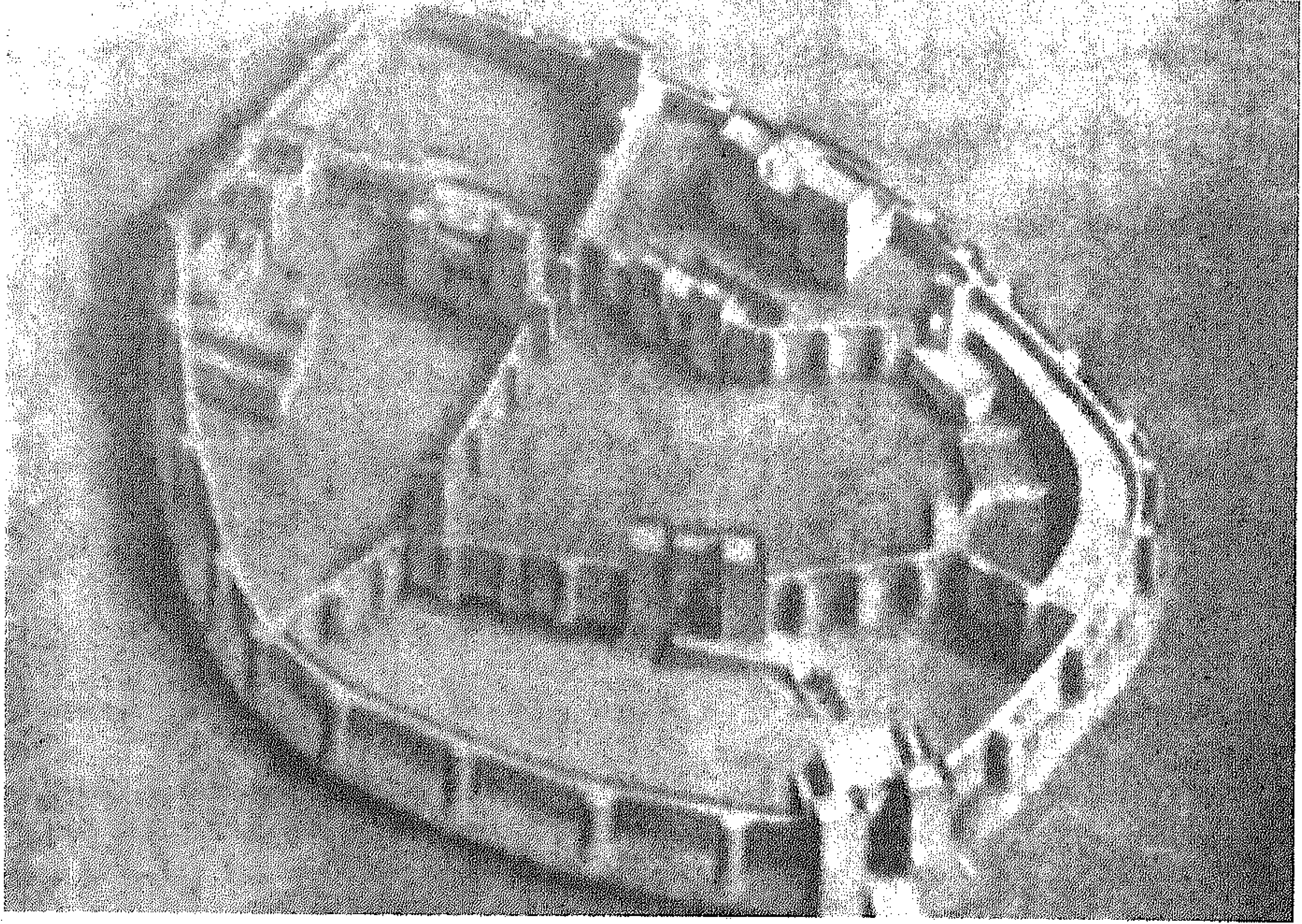
(3) العقاد، **«الثقافة العربية»**، ص 20.

(4) انظر ما يلي في الفصل الخامس «عصر إبراهيم وإسحاق ويعقوب».

حكم تجلات بلاسر الأول (1115 ـ1077 ق.م.) من جهة، وبداية تقهقر النفوذ المصري في عهد رعمسيس الثالث (1198 ـ 1167 ق.م.) من الجهة الأخرى، ثم تبدّد سيطرة الحثيين والميتانيين في شمال سوريا وكذلك زوال حكم الميديين في الغرب فأقاموا بقوة السلاح، سلسلة من الممالك الصغيرة في سوريا منها: «آرام النهرين»[1] و«فدان آرام» و«آرام دمشق» و«آرام صوبا» في البقاع و«آرام بيت رحوب» جنوبي «آرام صوبا» عند منعطف نهر الليطاني و«آرام معكة» (مقاطعة دان) و«جشور» بين اليرموك ومقاطعة دمشق و«بيت أغوشي» في حماة وعاصمتها «أرفاد» و«بيت بخياني» ومركزها جوزان (تل حلف حالياً) هذا عدا دويلتي «حلب» و«كركميش» (جرابلس حالياً). وفي الشمال الغربي من سوريا أقام الآراميون دولة في قليتية هي دولة «سمأل» وقد سمّاها الآراميون «يعودي» مركزها مدينة «سمأل» تقع أطلالها اليوم عند جبل أمانوس غربي عينتاب في تركيا وتُعرف باسم «زنجرلي» ومن ملوكها الذين ورد ذكرهم «شعيل» و«كيلامو» و«حياني» و«فنامو» و«بار ـ ركوب»، ومن آثارها سور حصنها الذي ما يزال ماثلاً للعيان[2]. ثم غزا الآراميون العراق فأسّسوا فيه عدّة دويلات منها دويلة «بيت عديني» ومركزها في «بورسيبا»، وكان مركزهم في منطقة بابل حيث حكمت سلالات بابلية عديدة في فترات متواصلة بين منتصف القرن الثاني عشر والقرن السادس قبل الميلاد، وكان أول من برز من ملوكهم «أداد ـ بلادان» (Adad Apal-Idina) وهو من سلالة بابل الرابعة استولى على عرش بابل وحكم بين سنة 1067 و1047 ق.م. وفي ساحل الخليج في جنوبي العراق أسّس الآراميون عدّة دويلات أهمها دولة «بيت ياكيني» وقد عرفت سلالة ملوكهم بسلالة القطر البحري (أمراء الخليج)، وقد لعب أحد ملوكهم المسمى «مردوخ بلادان» Marduk Apal-Idina وهو من سلالة بابل العاشرة، دوراً في المعارك التي خاضها مع الآشوريين، ففي بداية

(1) أشارت التوراة إلى أن أحد ملوك آرام النهريين المدعو «كوشان بن رشعتايم» هاجم بني إسرائيل في عهد القضاة حوالي (1125 ـ 1025 ق.م.) واستعبدهم ثماني سنوات، راجع قض، 3: 8).

(2) انظر الصورة رقم 37.



الصورة رقم (37)
حصن سمأل الآرامي في شمال - غرب سورية - صورة تخيلية على أساس البقايا المكتشفة

عهد سرجون الثاني (772 - 705 ق.م.) استولى على بابل ونصب نفسه ملكاً عليها وحكم فيها أكثر من عشر سنوات (721 - 711 ق.م.)[1]. وكانت آخر سلالة من سلالات بابل السلالة البابلية الحادية عشرة أي سلالة الكلدانيين التي اشتهر فيها نبوخذ نصّر الثاني (605 - 562 ق.م.)، وهو الذي سبى بني يهوذا من فلسطين إلى بابل وقضى نهائياً على مملكة يهوذا.

وكان الآراميون قد انتشروا في العراق وشكّلوا فيه شبه ممالك مستقلة مملكة بابل، ومن أهم هذه الدويلات مملكة «زوحي» الآرامية التي أسّسها الآراميون الذين استوطنوا على نهر الفرات ما بين عانة ومصبّ نهر بليخ، وقد ضمّت هذه المملكة مدناً عديدة: أهمها «عانات» (عانة) وخاريدي ورحوبوت (الرحبة) وشورا واشتهر من ملوك زوحي «حاباني». وكان «حاباني» قد عرض

(1) انظر الصورة رقم 38.



الصورة رقم (38)
نصب حجري لعلامة الحدود ـ يمثل الملك «مردوخ بلادان» يمنح أحد أعوانه بعض الأراضي وقد علت تاجه المخروطي كتابة تقول: «مردوخ بلادان ـ ملك بابل»

خضوعه للآشوريين إلا أنه عاد وشقّ عليهم عصا الطاعة، فجهّز عليه آشور ناصر بال الثاني (884 ـ 859 ق.م.) حملة قوية واحتلّ بلاده ودمّر معظم مدنه تدميراً كاملاً، ثم بنى قلعتين على الفرات وجعل فيهما حاميتين آشوريتين الواحدة على الضفة اليمنى والثانية على الضفة اليسرى. وهناك مملكة «كمبولو» الواقعة على شاطىء دجلة الشرقي والتي ضمّت أربع مدن محصنة، تمكّن سرجون الثاني (722 ـ 705 ق.م.) من الاستيلاء عليها وجعلها مقاطعة آشورية وذلك في أثناء غزوه للقبائل الكلدانية والآرامية التي ساندت «مردوخ بلادان» البابلي. واشتهرت كذلك مملكة «فقودو» التي امتدّت في السهل، شرقي دجلة قريباً من مصبه وبجوار مملكة «كمبولو»، وقد ورد اسمها مرتين في العهد القديم[1]. وفي منطقة وادي ديالى الأسفل استوطنت قبيلة «أيتوع» الآرامية وانتشر أبناؤها حتى سواحل الزاب الصغير شهر عليهم الآشوريون

(1) راجع (ار، 50: 21)؛ (حز، 23: 23).

حملة عنيفة وأقصوهم عن بلادهم وأبعدوهم إلى أقصى الجنوب وفرضوا عليهم الطاعة والضرائب[1].

وكانت قد جرت عدّة مصادمات بين الآراميين ومملكة إسرائيل[2] فالتوراة تشير إلى أن الملك داود (1000 ـ 960 ق.م.) أخضع ملك صوبا المدعو «هدد عزر بن رحوب» حين ذهب ليردّ سلطته عند نهر الفرات وأخذ من «طابح» و«بيروثاي» مدينتي «هدد عزر» نحاساً كثيراً جداً[3]. كما ضرب آرام دمشق وجعل فيها محافظين[4]، وقدم ملك حماة «توعي يورام» فروض الطاعة إلى الملك داود بتقديمه هدايا ثمينة من الفضة والذهب[5]. وفي عهد سليمان تمرّد أحد أتباع «هدد عزر» ملك صوبا ويدعى «رزون» كان قد هرب من عند سيده وأصبح رئيس غزاة فاستولى على دمشق وحكمها طوال مدة حكم سليمان[6] وفي عهد سليمان أيضاً استقلّت دويلة «بيت عديني» وغيرها من الدويلات الآرامية البعيدة. إلا أن سليمان تغلّب، حسب رواية التوراة، على مملكة صوبا التي بقيت خاضعة له[7].

وبعد موت سليمان وانقسام إسرائيل إلى مملكتي إسرائيل ويهوذا، صفا الجو للآراميين ـ فاستعادت الأقطار الآرامية التي سيطر عليها الموسويون في عهد داود وسليمان استقلالها، وتوغل الآراميون في أرض إسرائيل في عهد ملكهم حزائيل ملك دمشق. وهكذا أصبح الآراميون مسيطرين على أكثر أقطار

---

(1) انظر المقال القيم للمطران غريغوريوس صليبا، «الآراميون في العراق»، المنشور في **مجلة «التراث الشعبي»** عدديّ آذار ونيسان، 1971، ص85 ـ 91.

(2) لقد أطلقت التوراة تسمية «بني إسرائيل» على أتباع النبي موسى إلا أن القرائن تدلّ على أن بني إسرائيل لا يمتّون بأية صلة بحملة النبي موسى على فلسطين. ولقد شرحنا ذلك في الفصلين الثالث والخامس.

(3) (2 صم، 8: 3، 8)؛ 1 أخ، 18: 3 ـ 8).

(4) (2 صم، 8: 6).

(5) (2 صم، 8: 9 ـ 10)؛ (1 أخ، 18: 9 ـ 10).

(6) (1 مل 11: 23 ـ 25).

(7) (2 أخ، 8: 3 ـ 4).

منطقة الشرق الأوسط، ففي العراق استولت القبائل الآرامية الكلدانية على جميع المنطقة الممتدة من بابل إلى الخليج جنوباً، وفي سوريا امتدّت الدويلات الآرامية في جميع أنحاء سوريا ومركزها الرئيس دمشق مما جعل بلاد آشور مطوّقة من أكثر أطرافها بدويلات آرامية. ومع ذلك فقد كان هذا الكيان الآرامي السياسي معرّضاً للخطر بسبب نقطة الضعف البارزة في جهازه، وهي أن الآراميين لم يسعوا إلى إنشاء دولة كبيرة موحدة قوية تحت حكم واحد، فعند الخطر الشديد كانت تجري اتحادات وقتية بين الدويلات الآرامية ولكن هذه الاتحادات لم تكن من القوة بحيث تستطيع أن تؤلف سيطرة عامة موحدة. وقد كانت هذه الدويلات تتنازع فيما بينها بين الحين والآخر، لذلك وبعد انتعاش دولة آشور من جديد واستعادة قوّتها أصبحت الممالك الآرامية مهدّدة بالغزو الآشوري. فقد استغلّ الآشوريون النزاعات بين الآراميين وإسرائيل التي استمرّت قرناً كاملاً تقريباً للانقضاض على الممالك الآرامية المتباعدة والمنتشرة في الشرق والغرب والجنوب الواحدة بعد الأخرى، ففي عهد آشور ناصر بال الذي حكم آشور بين سنة 884 ـ 859 ق.م. هاجم هذا العاهل مملكة «بيت بخياني» في «جوزان» في الشمال فاستسلمت له، ثم ضمّ شلمنصّر الثالث سنة 856 ق.م. مملكة «بيت عديني» في الجنوب إلى الممتلكات الآشورية. وفي سنة 856 ق.م. خاض حرباً أخرى مع الآراميين الذين ألفوا اتحاداً مع بقية الممالك الآرامية وفينيقيا وإسرائيل ودويلة عربية، ومع أن هذه المعركة التي وقعت في «القرقار» على نهر العاصي في سوريا لم تكن حاسمة، إلا أن الآراميين تكبّدوا هم وحلفاؤهم خسائر جسيمة في الأرواح والمعدّات. ثم وجه شلمنصر همّه بعد ذلك إلى بابل فقهرها في حملتين قام بهما في سنتي 852 و851 ق.م. وفي عام 849 ق.م. قام بحملة ثانية ضد ملك حماة وقاتل ملك دمشق وحلفاءه الذين قاموا بحرب ثانية. ثم عاد شلمنصر للنزال في سنة 842 ق.م. فحارب حزائيل ملك دمشق منفرداً وخرب الجيش الآشوري الإقليم كله وتمكّن بعد ذلك أن يضمّ المناطق التي كانت تحتلها قبائل الفرات الأوسط وأخيراً كانت الضربة الأخيرة التي قضت على الممالك الآرامية

على يد تفلات بلاسر الثالث وعلى يد سرجون الثاني، فالأول احتلّ دمشق سنة 732 ق.م. والثاني قضى على حماة آخر معقل من معاقل الآراميين سنة 720 ق.م. وبذلك قضى على الحكم الآرامي في سوريا نهائياً. ولكن النشاط السياسي للآراميين لم يمت فقد استمرّ مدة أطول في الجنوب حيث القبائل الكلدانية التي أخذت تقاوم النفوذ الآشوري حتى تمكّنت أخيراً من الاستيلاء على السلطة وتأسيس الدولة الكلدانية عندما أعلن القائد الكلداني «نبوبولاسر» استقلاله في بابل ونصّب نفسه ملكاً عليها سنة 625 ق.م.

ويقول الأستاذ دايرنجر[1] بعد إشارته إلى أدوار الضعف التي انتابت الآراميين «إن فقدان الآراميين الحرية السياسية لم يكن معناه نهاية التاريخ الآرامي، بل كان هذا الضعف الذي أصاب الحكومة فاتحة التفوّق في الثقافة الآرامية ومسائل الاقتصاد الذي عمّ آسيا الغربية، وأصبحت اللغة الآرامية هي

(1) انظر المراجع الآتية في موضوع آرام والآراميين:

R.D. Barnett, «**Arameans**», Enc. Brit., 1965, vol. II, pp.207 - 208; L. Delaporte, «**Epigraphes Araméens**», 1912; D. Diringer, «**The Alphabet**». 1948, Chap. IV, pp. 253-294; Ph. Hitti, «**History of Syria**». 1951. pp. 162-175; E.G.H. **Kraeling, Aram and Israël**», 1918; D.D. Luckenbill, «**Ancient Records of Assyria and Babylonia**», 2 vols, 1927, Mallowan and Rose, «**Excavations in the Balikh**», 1946, Irak VIII, 1946; S. Moscoti, «**Ancient Semitic Civilization**». 1957, Chap. 7, pp. 167-180; R.T. O'Callghan, «**Aram-Nahraim**». 1948; H. Oppenheim, «**Tell Halaf**». 1933; A. Sanda, «**Die Aramaer**». Der Alte Orient, IV part 3, 1902; S. Schiffer, «**Die Aramaer**», 1911; A.D. Sommer, «**Sur les débuts de l'Histoire Araméenne**», 1953; A.D. Sommer, «**Les Araméens**», 1949; M.E. Unger, «**Israël and the Arameans of Damscus, (A Study in Archaeological Illumination of Bible History)**;», London, 1957; Rosenthal, «**Kei aramaistische...**»; A. Cowley, «**Aramaic Papyri...**»; S. Frankel, «**Die aramaischen...**»; F. Macler, «**Ency. of rélègions and Ethics**», vol XII, p. 164.

انظر أيضاً المراجع الآتية بالعربية:

رفائيل بابو إسحاق، «الآراميون»، **سومر** 3 (1947)، ج2، ص318 ـ 330، 19 (1963)، ص96 ـ 154؛ القس يعقوب أوجين حنا الكلداني «**دليل الراغبين في لغة الآراميين**»، الموصل، 1900، المطران غريغوريوس صليبا «الآراميون في العراق»، **مجلة التراث الشعبي**، آذار ونيسان 1971، ص85 ـ 91، ألبير أبونا «**أدب اللغة الآرامية**»، بيروت، 1970.

اللغة الدولية في ذلك العهد، وأصبحت على عهد الدولة الأخمينية إحدى اللغات الرسمية في الإمبراطورية، ولساناً عاماً يتكلم به التجار من مصر إلى آسيا الصغرى إلى الهند. وقد بلغ من قوة اللغة الآرامية وحيويتها أن استعمالها قد شاع بعد ألف سنة من زوال الدولة الآرامية، وعاشت اللهجات التي تفرّعت عنها قروناً أخرى في بعض القرى النائية»[1].

ز ـ خلاصة:

وصفوة القول إن الأقوام الثلاثة ـ الكنعانيين والعموريين والآراميين ـ وكلهم من أصل واحد هو الأصل العربي السامي، أسهموا مجتمعين في نشر الحضارة السامية في الشرق الأدنى في مختلف حقولها: الزراعة، الصناعة، التجارة، الملاحة، الثقافة على اختلاف فروعها وتشعّباتها. وكانت لغات هذه الأقوام الثلاثة لغة واحدة في الأصل هي اللغة السامية الأم التي يعتقد أنها كانت أقرب إلى لغة بدو الجزيرة العربية الحالية، ثم تفرّعت منها لهجات الأقوام المختلفة في بيئاتهم الجديدة دون أن تفقد الصلة بينها. وقد أطلق عليها الباحثون كما تقدّم ذكره اسم لغات الأقوام السامية الغربية الشمالية تمييزاً لها عن اللغات السامية التي تمثّلها اللغة الأكدية وفرعاها البابلي والآشوري في العراق وعن اللغات العربية الجنوبية. وقد بقيت آثار اللغة الآرامية حتى هذا اليوم في بعض القرى والجبال حيث خالطتها اللغة العامية الدارجة المعروفة بـ «السورت» يتكلم بها الآن بعض السكان في شمال العراق وفي سوريا وبلاد العجم، وإلى وقت قريب كان اليهود القاطنون في زاخو يتكلمون بالآرامية. أما اللغة الفصحى فقد اقتصرت على لغة طقسية لخمس طوائف شرقية. ومن القرى السورية التي ما يزال سكانها يتكلمون بلهجة «السورت» «صيدنايا» و«معلولا» و«جب عبدين» و«نجعة»، وهذه تقع على بُعد 29 و56 و60 كيلومتراً من دمشق على التوالي[2].

---

(1) S. Reich, **«Etudes sur les villages Araméens de l'Anti-Liban»**, Institut Français de Damas, 7, 1936.

(2) انظر ما تقدّم عن الآراميين واللغة العربية.

هجرة الأكديين إلى وادي الرافدين وتأسيس أول إمبراطورية سامية:

وفي الوقت نفسه الذي كانت تجري فيه الهجرات إلى فلسطين وسوريا كانت هناك هجرة من أهم الهجرات اتجهت نحو الفرات في العراق عُرفت بهجرة الأكديين. وتُعتبر هذه الهجرة أقدم هجرة بين هجرات الساميين العرب الذين نزحوا من الجزيرة العربية إلى ضفاف الفرات. استقرّوا في بداية الأمر على ضفّة نهر الفرات اليمنى في البقعة الممتدة بين عانة وهيت وهي أقرب موئل خصيب من موطنهم الصحراوي في بادية الشام. وقد مارس هؤلاء النازحون إلى هذه المنطقة حرفة الزراعة التي تعتمد على الري، وذلك بشق قنوات من نهر الفرات من مسافات بعيدة في مقدم النهر وجرّ المياه إليها سيحاً إلى مستعمراتهم الجديدة، لأن كمية الأمطار التي تسقط في هذه المنطقة شتاءً لا تكفي لإنضاج زروعهم الشتوية، وانقطاعها صيفاً يحول دون زراعة المحاصيل الصيفية بدون إرواء اصطناعي، وهكذا دفعت الحاجة هؤلاء المهاجرين إلى أن يتقنوا أساليب الري وإنشاء جداول تؤخذ من نهر الفرات وتمتد إلى مسافات بعيدة حتى يصلوا بها سيحاً إلى الأراضي الزراعية، كما حملتهم على أن يتعلّموا كيف يخزنون مياه الفيضان ضمن سدود ويوزعونها في قنوات لإرواء أراضيهم، وقد مارسوا الزراعة بخبرة ومهارة. وكانت أهم مزروعاتهم الحنطة والشعير وكان لديهم الكثير من البقر والضأن والماعز والحمير والخنازير. إلا أن هبوط مستوى النهر في تلك المنطقة في وقت لاحق حرمهم من المياه السيحية التي كانت تروي بساتينهم ومزارعهم فاضطر قسم منهم إلى مغادرة ديارهم والتوجّه جنوباً، في حين أنّ القسم الآخر من السكان أخذوا يستعينون بالنواعير في رفع المياه إلى حقولهم الزراعية مستخدمين القوى المائية المتولدة من الشلالات التي أحدثها هبوط قعر النهر في تدوير هذه النواعير الضخمة، وهي ما تزال تُستعمل حتى يومنا هذا في منطقة عانة وراوة، كما كانت عليه في تلك الأزمان السحيقة. أما الجماعات التي نزحت جنوباً فقد استقرّت على ضفتيّ مجرى الفرات القديم غربي وجنوب غربي منطقة بغداد الحالية وامتدّت مزارعها حتى مدينة «كيش» الكائنة على بُعد 15 كيلومتراً شرقي مدينة بابل، ومن مدنها المهمة عدا كيش: «أكد» و«سيبار»

و«كوثا» و«أوبيس» و«أكشاك»، ولم تكن هذه الجماعات عندما أسّست مستوطناتها على ضفتيّ نهر الفرات في هذه البقعة الخصيبة ليخطر ببالها أن قومها سيصبحون بناة أقدم وأعظم إمبراطورية في تاريخ الحضارة الإنسانية، أي الإمبراطورية الأكدية السامية التي أسّسها سرجون الكبير في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد والتي سُمِّيت بالأكدية نسبة إلى عاصمته «أكد» التي أقامها، وقد دام حكمها زهاء قرن ونصف قرن من سنة 2371 إلى 2230 قبل المُيلاد، وكان انهيارها على يد القبائل الكوتية الجبلية التي انحدرت من جبال زاغروس فاحتلّت بابل وقضت على الحكم الأكدي في البلاد.



الصورة رقم (39)

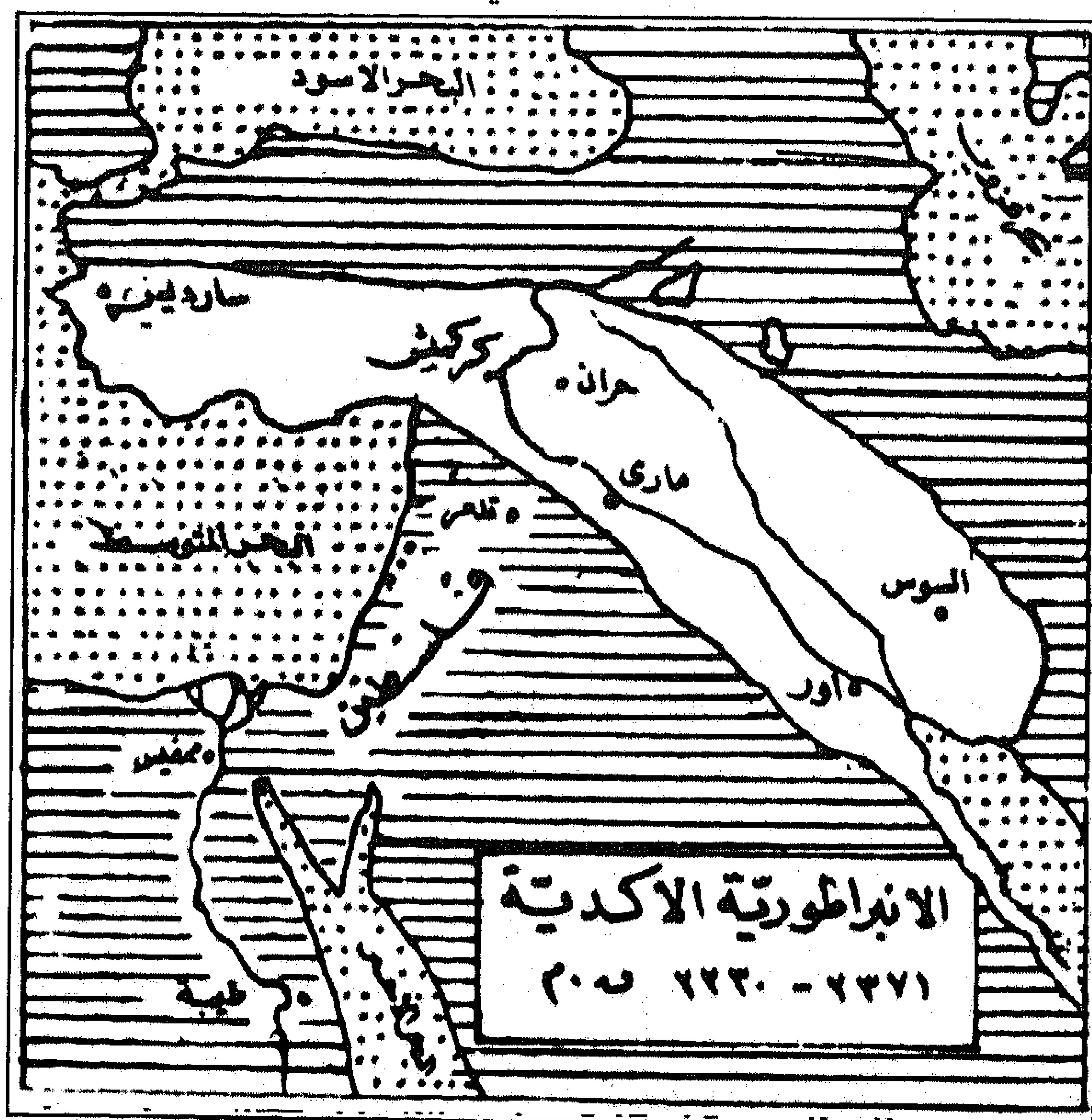
سرجون الكبير مؤسس الإمبراطورية الأكدية (2371 ـ 2316 ق.م.)

يرى بعض الباحثين أن هذه الصورة تمثّل صورة «نرام سين» حفيد سرجون، وليس سرجون نفسه

وقد شملت الإمبراطورية الأكدية معظم الهلال الخصيب وعيلام وقسماً من آسيا الصغرى إلى ساحل البحر المتوسط. فضمّت بلاد آشور وما حولها شمالاً وبلاد الكوتيين (قبائل زاغروس شمال العراق وشرقيه) وامتدّت حتى ضمّت قسماً من آسيا الصغرى حتى ساحل البحر المتوسط، ويروى عن سرجون أنه وصل إلى جزيرة كريت. أما في الشرق فقد ضمّت بلاد العيلاميين

وهو القطر المعروف اليوم بعربستان وخوزستان، ومن ضمنه مدينة السوس عاصمة العيلاميين. وقد أسّس سرجون أسطولاً في الخليج العربي بعد استيلائه على الدويلات السومرية في جنوبي العراق فمخر البحر المعروف اليوم ببحر عمان وبحر العرب ليضمّ جزائرهما إلى مملكته، وهنا غسل يديه في مياه البحر كحاكم على أكد وسومر. وكان أبرز ملوك هذه المملكة بعد سرجون حفيده الملك نرام سين (2291 ـ 2255 ق.م.) الذي لقّب نفسه «ملك الأقاليم الأربعة ـ ملك العالم».

وقد أصبحت اللغة الأكدية بعد استتباب السلطة الأكدية الحاكمة اللغة الرسمية في جميع العراق وفي أكثر الأقطار التي خضعت للحكم الأكدي. واللغة الأكدية ومعها البابلية والآشورية هي من اللغات السامية الشرقية تمييزاً



الرسم رقم (7)

لها عن اللغات السامية الغربية الشمالية (أي اللغات السامية في سوريا). وقد استمرّت الأكدية كلغة للتخاطب في العهد البابلي القديم والعهد الآشوري والعهد البابلي الأخير حتى أواخر القرن السابع قبل الميلاد، ثم زاحمتها اللغة الآرامية[1] حتى أزالتها من التداول. وقد اقتبس الأكديون الخط المسماري الذي كان شائعاً استعماله في العراق كما استعاروا عبارات جمّة من اللغة السومرية بعد اختلاطهم بالسومريين.

وكان الأكديون قد برعوا في النحت والنقش فركّزوا اهتمامهم في إظهار التفاصيل الدقيقة في الأختام أكثر من اهتمامهم بالزخارف، فمن منحوتاتهم لوح «نرام سين» حفيد سرجون المعروف «بلوح الظفر»، وقد عُثر عليه في السوس من بلاد العيلاميين سنة 1897 وهو محفوظ الآن في متحف اللوفر في باريس. ويعدّ هذا اللوح من أعظم الأعمال الفنية في العالم القديم وهو أقدم عمل فني عظيم أخرجته يد رجل من الجنس السامي. ويصوّر هذا اللوح الملك «نرام سين» وهو على رأس جيش أكدي في أعالي الجبال قاهراً قوماً يُعرفون باسم «الولوبيين»، ويظهر في أعلى اللوح الشعار الأكدي مكرراً. كما عُثر على أثر ضخم مصنوع من قطعة واحدة تمثّل في الظاهر رأس سرجون الكبير أو نرام سين بلحيته الكبيرة الكثة وعليه خوذة مصنوعة من معدن البرونز المخطوط بالحديد، ويُعتبر هذا الأثر من أجمل ما وصل إلينا من الصنع الدقيق في هذا الفن من العصور الأكدية[2].

ومما يذكر أن الأكديين الساميين كانوا أول من ابتدع نظام الإمبراطورية وذلك في تعيين الحكّام في الأصقاع يحكمون فيها باسم الدولة الأكدية، وقد سبقوا جميع الأمم إلى ذلك فهم منشئو نظام الحكم الدولي المعروف والمتبع إلى اليوم في العالمين. كما كان الأكديون قد شاركوا في توطيد أركان الحضارة القائمة على الزراعة المرتكزة على الري الدائم (Perennial Irrigation) في العراق، وهي حضارة سامية عربية أسّسها الساميون العرب النازحون من

(1) انظر ما تقدّم عن الآراميين واللغة الآرامية.

(2) انظر الصورة رقم 39.

الجزيرة العربية إلى ضفاف الفرات، وقد سمّاها بعض الباحثين «الحضارة الإروائية» أو «الحضارة النهرية» ويعدّ الباحثون، بلاد ما بين النهرين الوطن الأول لنظام الري الدائم هذا[1].

وننقل هنا ما دوّنه العالم الألماني الدكتور أنطون مورتكارت في وصف الأكاديين حيث يقول: «ينتسب الأكاديون إلى أسرة الشعوب السامية البدوية الكبيرة التي استوطنت دوماً الصحراء العربية ـ الشامية. ولا بدَّ أن يكون موقع ولوج الأكاديين إلى أراضي سومر إلّا من المنطقة التي يقترب فيها دجلة والفرات اليوم اقتراباً شديداً من بعضهما وتماماً في المناطق المحيطة بمدينة كيش القديمة (سابقاً مدينة بابل)»[2].

عصر مسيلم:

ومما يذكر في هذا الصدد أن الدكتور مورتكات قد أكّد على وجوب إضافة حقبة حضارية سامية قائمة بذاتها تعود إلى عصور فجر التاريخ وتسبق عهد الإمبراطورية الأكدية، وقد سمى هذه الحقبة الحضارية السامية البحتة التي مصدرها هجرة الساميين العرب من شبه جزيرة العرب «عصر مسيلم» نسبة إلى «مسيلم» أحد الملوك الساميين الأوائل في مدينة «كيش» السامية، وهذا الاسم كما هو واضح اسم سامي عربي، ويعتقد أن زمن مسيلم هذا يرجع إلى أواخر سلالة كيش الأولى الذي يتّفق مع زمن أوائل سلالة أور الأولى (حوالي آخر النصف الأول من القرن السابع والعشرين قبل الميلاد). ويرى الدكتور مورتكات أن «عصر مسيلم» يمثّل نقطة تحوّل مركز ثقل الحضارة إلى مدينة كيش السامية عاصمة الملك مسيلم التي تعتبر على حدّ تعبيره الأم القديمة لمدينة بابل الشهيرة عاصمة الحقبة الكلاسيكية والتي انطلقت منها منذ ذلك الحين موجة عمّ بها العنصر السامي المنطقة بأسرها. والمنطقة التي يقصدها الدكتور مورتكات هي المنطقة التي تمتد من مدينة «كيش» جنوباً إلى مدينة سيبار شمالاً حيث تقع داخل هذه المنطقة أطلال جمدة نصر ذاتها. ويمضي

---

(1) انظر الدكتور أحمد سوسة، «**الري والحضارة في وادي الرافدين**».

(2) أنطون مورتكات، «**تاريخ الشرق الأدنى**»، ص 84.

مورتكات في حديثه حول عصر مسيلم فيقول: «ويعود الفضل في كل ما نعرفه بشكل ملموس عن هذا العصر في النواحي المادية والفكرية كلياً إلى المكتشفات الآثارية، وهذا ما دعانا بحق إلى ضمّ هذه الحقبة والحقبتين السابقتين الوركاء وجمدة نصر إلى عصور فجر التاريخ وليس إلى فترة بدء التاريخ. هذا ويعتبر الانقلاب الذي طرأ على كامل حضارة عصر جمدة نصر وانتقالها إلى عصر مسيلم من أعنف ما عرفناه خلال جميع مراحل تطور الشرق الأدنى القديم». ثم يضيف دكتور مورتكات إلى ذلك قوله: «إن عصر مسيلم يمثّل حضارة جديدة كلياً إذا ما قورنت بعصري الوركاء وجمدة نصر، إذ طرأ على فن العمارة في هذا الدور تبدّل شمل نواحيها التقنية البحتة وعناصرها الرئيسة في الوقت نفسه، فشكل الآجرة في عصر مسيلم يشكل لغزاً أكثر تعقيداً من لغز اختراع مادة الآجر نفسها في العصور السابقة. ولا يقتصر الشيء الجديد على شكل الآجرة وحسب بل تعدّاه أيضاً إلى أسلوب تأسيس البناء، كما طرأ تبديل حاسم على صناعة الأختام وعلى فن النحت من عصر جمدة نصر إلى عصر مسيلم بالدرجة نفسها التي شملت فن العمارة». وأخيراً ينتهي دكتور مورتكات إلى التأكيد على الدور الذي لعبه الساميون في تطور حضارة الشرق الأدنى بقوله: «من المؤكد أن الساميين قد نزلوا البلاد قبل أن يكون هناك إمبراطورية أكدية أصلاً، ومن المؤكد أيضاً أنهم رغم وقوفهم منذ قرون ضد السومرية تصاهروا مع السومريين واختلطوا بهم وتعاونوا معهم في جميع المجالات الفكرية بعد أن دخلوا البلاد مسالمين على هجرات متتالية وبأعداد متزايدة، حتى أصبح تفوّقهم على السومريين حقيقة واقعة منذ قرون عديدة كما حدث في ماري وكيش خاصة، وإننا نملك منحوتات من مدينة ماري تحمل كتابة سامية أقدم من سلالة أور الأولى. ناهيك بعصر مسيلم الذي يشكّل الفصل الأخير لعصر فجر التاريخ، تلك الحضارة التي تجعلنا نفترض وجود مساهمة سامية قوية في بنائها وذلك على عكس ازدهار الحضارة السومرية خلال حقبة أوروك (الوركاء)[1].

(1) أنطون مورتكات، «**تاريخ الشرق الأدنى**»، ص 44 ـ 52.

هجرة القبائل العربية إلى مصر:

وقد أكّد عدد من مشاهير علماء الآثار أن الهجرات من جزيرة العرب لم تقتصر على سوريا وفلسطين ولبنان والعراق بل تعدّتها إلى مصر أيضاً، حيث يعتقد بأن جماعات نزحت عبر جزيرة العرب إلى وادي النيل واستقرّت فيه في حدود الألف الرابعة قبل الميلاد، فجاءت هذه الجماعات إلى مصر من برزخ السويس أو من طريق جنوب الجزيرة عبر مضيق باب المندب، جاءت ومعها حضارة أرقى مما كان في مصر، فجاءت بحسب رأيهم بفن التحنيط وبالكتابة الهيروغليفية[1]، كما أدخلت معها معرفة المعادن وبخاصة النحاس، وأدخلت معها كذلك الديانة الوثنية العربية وفنونها ونظمها الاجتماعية والسياسية[2]، كما يؤكد هؤلاء أن الساميين عمّموا في مصر لغتهم وصبغوها بصبغتهم كما هو ظاهر من النقوش المصرية القديمة وأن لغتهم حافظت على هذه الصبغة بالرغم مما طرأ عليها مع مرور الزمن من تغيير وتبديل باختلاط السكان[3]. ويروي الأستاذ طه باقر أن الباحثين في أصول أقوام الشرق الأدنى يرون بأن هجرة مهمة من الساميين ذهبت إلى مصر في حدود الألف الرابعة قبل الميلاد واختلطت بالسكان الأصليين فنتج عن هذا الاختلاط بينها وبين الحاميين الأصليين، المصريون كما نعرفهم في التاريخ[4]. ويقول جرجي زيدان[5]، نقلاً عن الأستاذ كينغ[6]: «إن الساميين نزحوا إلى مصر من عهد قديم جداً،

---

(1) الدكتور محمد عزة دروزة، «**تاريخ الجنس العربي**»، ج1، ص26.

(2) المرجع السابق، ج 2، ص 11.

(3) انظر بريستد: «**تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي**»، غوستاف لوبون، «**الحضارة المصرية**»، غوستاف جيلي، «**تاريخ المدنية المصرية**»؛ الدكتور كمال حسن «**تاريخ السودان القديم**»، بارتون، «**نبذة عن الأصول السامية**»؛ الدكتور فيليب حتي، «**تاريخ العرب**»؛ الدكتور محمد عزّة دروزة، «**تاريخ الجنس العربي**»، ج1 و2.

(4) طه باقر «**مقدّمة في تاريخ الحضارات القديمة**»، ج1، ص116، ج2، ص13؛ **سومر**: م5 (1949)، ج2، ص132.

(5) جرجي زيدان «**العرب قبل الإسلام**»، ج2، ص52.

(6) L.W: King, **«Egypt and Western Asia in the light of recent Discoveries»**. London, 1907.

ويؤخذ من الاكتشافات الآثارية الأخيرة أن العصر الحديدي بمصر يبدأ بدخول الساميين إليها، أي أن المصريين لم يكونوا يعرفون الآلات الحديدية قبل دخول الساميين فأتاهم الساميون بالحدادة منذ أقدم أزمنة التاريخ المصري ولعلهم حملوا إليهم ذلك من وادي الفرات عن تمدّن سومري الأصل اكتسبه الساميون بالمجاورة قبل فتح بابل وحملوه إلى مصر. ومما يستدلّ به على قدم نزوح الساميين إلى مصر أن (بتاح) أقدم آلهة المصريين، هو إله سامي الأصل».

ولقد قال المؤرّخ ماسبيرو «إن لعروق المصريين الأقدمين والعرب والفينيقيين والكنعانيين روابط تشدّ بعضها إلى بعض وليس المصريون سوى ساميين انفصلوا عن مهد الساميين قبل غيرهم»[1].

أ ـ حكم الهكسوس في مصر:

والرأي الغالب أن الساميين كانوا قد نزحوا من جزيرة العرب إلى شبه جزيرة سيناء واستقروا هناك منذ أقدم أزمنة التاريخ، وكان المصريون يسمونهم «منيوساتي» «أي رعاة آسيا» وصارت هذه القبائل تُعرف لدى اليونانيين في وقت لاحق باسم «الهكسوس»، أي ملوك الرعاة، فغزت هذه القبائل من هناك سوريا وفلسطين وأسّست فيها دولة شملت ثقافتها القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد، والتحق بجمعهم المكوّن معظمه من العموريين والكنعانيين أقوام نزحوا من براري آسيا الوسطى وأوروبا على شكل موجات إلى جهات الشرق الأدنى. ومن أهم مراكزهم الرئيسة في سوريا وفي فلسطين مدينة «قطنا» التي يرجّح أنها كانت عاصمتهم وتعرف خرائبها اليوم باسم «المشرفة» في شمال شرقي حمص، وبلدة «شكيم» وتعرف الآن باسم «البلاطة» بالقرب من نابلس، وبلدة «لخيش» (تل الدوير حالياً) و«شاروهين» و«أريحا»، واشتهرت مواضع الهكسوس في سوريا في شكل بنائها الخاص بهم، وهو على هيئة حصون محاطة بخنادق المياه. وكان حكم الهكسوس قائماً على النظام

---

(1) الدكتور محمد عزة دروزة، «**تاريخ الجنس العربي**»، ج2، ص10.

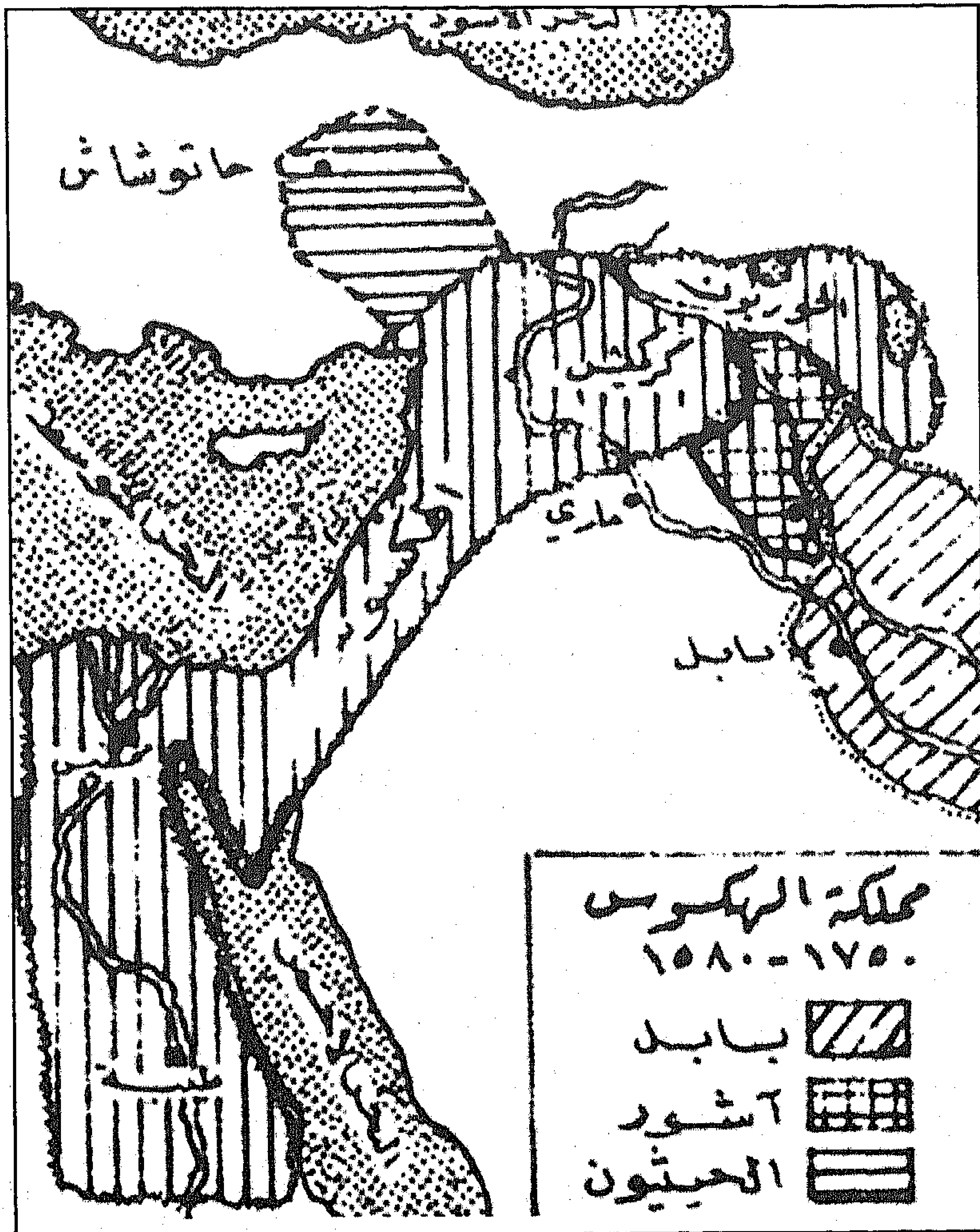
الإقطاعي الذين فرضوه على البلاد التي وقعت تحت قبضتهم. وقد اغتنم هؤلاء الهكسوس فرصة الضعف والانحلال اللذين كانا يسودان مصر حينذاك بسبب النزاع الداخلي بين مصر العليا ومصر السفلى، فغزوا مصر واستولوا على مصر السفلى ولا سيما الدلتا وثبتوا سلطانهم فيها حيث ابتنوا عاصمة لهم هناك. واستمرّ الهكسوس يحكمون مصر السفلى زهاء القرنين بين (سنة 1785 وسنة 1580 ق.م.)[1] وكان المصريون يسمون الهكسوس «شاسو» أي البدو وعرفت دولتهم بدولة البدو، وكان العرب يسمونهم العمالقة أو العرب البائدة[2].

وأول من أطلق على هذا القوم اسم الهكسوس هو الكاهن المصري «مانيثون» الذي عاش وكتب تاريخه المشهور في حدود 280 ق.م.، فقد نقل المؤرّخ يوسفوس كلام مانيثون عن الهكسوس بما هو نصّه: «واتفق على عهد تيماوس أحد ملوكنا أن الإله غضب علينا فأذن لقوم لا يُعرف أصلهم جاؤوا من الشرق وتجاسروا على محاربتنا وغلبونا على بلادنا وأذلّوا ملوكنا وأحرقوا مدننا وهدموا هياكلنا وآلهتنا وساموا الناس ذلاً وخسفاً فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأولاد ثم نصّبوا عليهم ملكاً منهم اسمه (سلاطيس) أقام في منفيس وضرب الجزية على مصر أعلاها وأسفلها وأقام الحاميات في المعاقل لدفع الآشوريين عن وادي النيل إن هم طمعوا به وبنى مدينة «أوراس» في ولاية «صان» لهذه الغاية وحصنها بالأبراج والقلاع والأسوار، وأكثر من حاميتها حتى بلغ عدد أفرادها 240,000 وكان سلاطيس يأتي إليها في الصيف لجمع الحنطة ودفع رواتب الجند وتمريسهم على شؤون الحرب. وبعد 13 سنة من

(1) ذهب البعض إلى أن قبائل الهكسوس حكمت في مصر حوالي خمسمائة عام بين القرن الثالث والعشرين والثامن عشر قبل الميلاد وذلك استناداً إلى قول المؤرّخ المصري مانيثون إن الهكسوس حكموا مصر 511 سنة، بينما يرى بريستد أن حكم الهكسوس لم تزد مدته على مائة سنة في مصر والقول بأن مدة هذا الحكم أطول من ذلك يطيل المدة بين سقوط الأسرة الثانية عشرة ونهاية حكم الهكسوس. ويضيف إلى ذلك قوله بأن الأرجح أن دخول الهكسوس إلى مصر كان تدريجياً أشبه شيء بهجرة غير مصحوبة بحروب أو منازعات («**تاريخ مصر**» ص143).

(2) انظر الرسم رقم 8

حكمه خلفه ملك اسمه (بيون) وحكم 44 سنة وجاء بعده (أباخناس) الذي حكم 36 سنة وسبعة أشهر ثم (أبوفيس) 61 سنة و(بانياس) 50 سنة وشهراً وأخيراً حكم (أيس) 49 سنة وشهرين. وهؤلاء الستة أول من حكم من ملوكهم ولم يكفوا عن محاربة المصريين لأنهم كانوا يلتمسون إبادتهم. وكانت هذه الأمة تُسمّى هكسوس أي ملوك الرعاة لأنها مؤلفة من (هِك) ومعناها باللغة المقدسة ملك و(سوس) راعي ولكن البعض يقول إنهم «عرب» ويمضي



الرسم رقم (8)

يوسفوس فينقل عن مانيثون أيضاً قوله إن هؤلاء القوم الذين أطلقنا على زعمائهم اسم ملوك ودعوناهم بالرعاة حكموا في مصر 511 سنة[1] وفي أصل الهكسوس يقول بريستد: «ويستنتج من رواية مانيثون ومن أخبار سوريا وفلسطين بعدئذ أن إمبراطورية الهكسوس سامية الأصل»[2].

ب ـ حضارة الهكسوس وثقافتهم:

لقد اقتبس الهكسوس الحضارة المصرية أثناء حكمهم في مصر وأصبح ملوكهم فراعنة مثل ملوك مصر، وقد أدخلوا إلى مصر استعمال الخيل والعربات الحربية التي تجرّها الخيول مما ساعدهم على الفتح وإحداث الرعب والفزع بالمصريين الذين لم يشاهدوها من قبل، ويدلّ ذلك على صلة الهكسوس بالأقوام الهندية ـ الأوروبية التي جاءت منها موجات إلى أجزاء الشرق الأدنى فأدخلت معها الخيول إلى تلك الأجزاء[3]. وقد أدخل

---

(1) «**The complete Works of Josephus**». By W. Whiston p.547.

(2) بريستد، «**تاريخ مصر القديم**»، ص 142.

(3) يفيد الباحثون أن موطن الخيول الأصلي هو أميركا حيث كانت وحشية كباقي الحيوانات الوحشية وقد وجدت طريقها من أميركا إلى آسيا منذ العصور الحجرية القديمة، وذلك عندما كانت أمريكا وآسيا تشكلان قارة واحدة ثم انتقلت إلى أرض فلسطين في حالتها الوحشية في العصر الميسولثي (20,000 ـ 7000 ق.م.)، وقد دجّنت منذ عهد قديم في مكان ما شرقي بحر قزوين من قبل قبائل الهندو ـ أوروبية الرحّل، وقد أدخلت إلى سوريا في عهد الهكسوس ومنها انتقلت إلى مصر ثم إلى الجزيرة العربية حيث كان لها أضمن حماية للحفاظ على سلالتها الأصلية دون الاختلاط بدم الخيول الأخرى، لذا فإن جميع أنساب الخيول العربية الممتازة في العالم ترجع إلى البادية العربية. وأهل الجزيرة العربية ما زالوا حتى يومنا هذا يعنون عناية خاصة بالخيول الأصيلة ويحافظون على سلالتها العربية إلا أن إيقاف الغزو القبائلي وانتشار وسائل النقل الآلية بعد الحرب العالمية الأولى أثرت في منتوج الخيول الأصيلة في البادية، فهبط عددها هبوطاً كبيراً بدرجة أن عاف معظم أفراد القبائل الرحّل تربيتها لما يكلفهم ذلك من نفقات وجهود بلا عوض يذكر، فبقيت تربية الخيل بأيدي القبائل العربية المستوطنة على ضفاف الرافدين والمحترفة الزراعة لتوفر أسباب تربيتها لديهم ولدوام حاجتهم إليها بنطاق ضيق (انظر كتاب الدكتور حتي «**سوريا**» الطبعة الإنكليزية، ص52).

الهكسوس إلى مصر أيضاً السيف المقوّس المصنوع من الحديد والقوس المركّب، وهو القوس الذي ظهر لأول مرة في العراق في عهد السلالة الأكدية، كما أدخلوا تحسينات مهمة في فن التعدين. وترجع إلى عهد الهكسوس طائفة من التآليف العلمية التي كانت نسخاً عن أصول أقدم، ولكنها دوّنت في هذا العهد، كما أن جزءاً مهماً من المعرفة بالرياضيات المصرية مستمد من نصوص هيروغليفية من عصر الهكسوس.

ومما يذكر أن اثنين من ملوك الهكسوس كانا يحملان اسم «يعقوب - إيل» و«يعقوب - بعل»، جرياً على العادة المتّبعة بإلحاق اسم الإله باسم الملك من قبيل التبرّك، وقد وردت كلمة «يعقوب - إيل» أيضاً بصيغة اسم لمكان في الكتابات المصرية[1]، مما يدلّ على أن يعقوب كان اسماً شائعاً بين القبائل السامية، كما أن اسم الإله «إيل» الذي ورد ذكره في التوراة كان معروفاً عند الساميين العرب قبل عهد النبي موسى إذ كانت له مكانة سامية عند الكنعانيين والآراميين باعتباره «الإله العلي».

أما ديانة الهكسوس فليست لدينا معلومات واضحة عن عبادتهم إلا أن المعروف على وجه التحقيق أنهم لم يكونوا يعبدون الآلهة المصرية. والمعلوم أن الهكسوس عندما اتخذوا أفارس عاصمة في مصر عبدوا الإله «سوتح» وقد تواتر أن الملك «أبوفيس» لم يسمح بعبادة إله آخر في البلاد كافة[2]. لذلك فقد نكون أقرب إلى واقع الحال إن خلصنا إلى القول بأن فكرة التوحيد كانت شائعة بين الهكسوس مثلما كانت معروفة لدى الكنعانيين والآراميين والمديانيين[3].

ج - أسرة سامية عربية مهاجرة إلى وادي النيل على نقش مصري قديم:

ومما يدلّ على أن هجرة الساميين العرب من الجزيرة العربية إلى وادي

---

(1) Olmstead, «**Palestine**», p. 106.

(2) أرمان، «**ديانة مصر القديمة**»، ص 120.

(3) انظر ما تقدّم عن مكانة الإله «إيل» في ديانة الكنعانيين والآراميين.





صورة رقم (40)

أسرة سامية عربية مهاجرة إلى وادي النيل على نقش مصري قديم يرجع إلى ما قبل حوالي أربعة آلاف سنة

النيل ترجع إلى زمن قديم أن المصريين قد سجلوا في نقش عُثر عليه في منطقة بني حسن على نهر النيل الواقعة على بُعد حوالي مائتي ميل جنوب القاهرة صورة ملوّنة جميلة لأسرة سامية عربية مهاجرة من جزيرة العرب أو فلسطين إلى وادي النيل، ويرجّح الدكتور (حتي) أنها عمورية من جنوب فلسطين، وقد نقش هذا التصوير الذي يرجع إلى زمن الفرعون «سيزوستريس الثاني» (حوالي 1900 قبل الميلاد) على جدران مقبرة الحاكم المصري «خنوم هوتيب». ويمثّل المنظر رئيس قبيلة عربية (كنعانية أو عمورية) يُسمّى «أبيشاي» وأفراد عائلته وأتباعه جاؤوا نازحين من شمال جزيرة العرب إلى مصر. وقد ورد ذكر شخص باسم «أبيشاي» أيضاً في التوراة بصفته أخ أحد قواد الملك داود يرجع إلى حوالي سنة 1000 ق.م.[1]. ويشاهد في النقش موظفان مصريان يتقدّمان الموكب ليقدما الجماعة إلى الحاكم المصري «خنوم هوتيب»، وقد ورد في الكتابة الهيروغليفية التصويرية التي يحملها أحد الموظفين المصريين بيده أن هذه الجماعة هي من «سكان الرمال» وقد جاءت إلى مصر وهي مؤلفة من 36 شخصاً من نساء وأطفال ورجال يرأسها الشخص المسمى «أبيشاي» وقد جاؤوا بهدايا معهم إلى الحاكم منها كمية من مادة (الكحل) التي تُصبغ بها أهداب العين إلى زوجته، وقد سُمِّي (الكحل) بـ «ستيبيم».

وتتألف ألبسة هذه الجماعة كما تشاهد في النقش بألوانها الأصلية من أردية صوفية عليها زخارف ذات ألوان زاهية وهي تصل إلى الركبة بالنسبة للرجال وإلى الكوارع بالنسبة للنساء، وألبسة الجميع معلّقة من فوق كتف واحد بحيث يكون الكتف الثاني عارياً. والرجال ملتحون وقد رتّبوا لحاهم على الطريقة التي يتبعها البدو في ترتيب لحاهم في الوقت الحاضر أي مستدقة الرأس ملتمة عند الحنك. أما شعر رأس النساء فمدلى على الأكتاف وعلى الصدر وقد رُبط بشريط أبيض على دائرة الجبهة. وقد لبس الرجال نعالاً من الجلد بينما لبست النساء أحذية قصيرة، وتشاهد قرب الماء وقد وضعت داخل أوعية موشاة بزخارف ملوّنة. أما أسلحتهم كما تشاهد في النقش فهي الأقواس

(1) (1 صم، 26: 6 ـ 9)؛ (2 صم، 21: 17، 23: 18).

والنبال والرماح كما ويشاهد أحدهم وهو يعزف على قيثارة ذات ثمانية أوتار[1][2].

د ـ طرد الهكسوس من مصر:

ولما كان أمراء مصر العليا قد بقوا محافظين على استقلالهم بعد احتلال الهكسوس لمصر السفلى فقد صاروا يتحينون الفرص للقضاء على الهكسوس وطردهم من مصر، وبعد حروب دامت زهاء نصف قرن من الزمن تمّ طردهم نهائياً من مصر، على يد القائد المصري الشهير «أحموسة» وهو مؤسّس السلالة الثامنة عشرة، وبها ابتدأ عهد جديد في تاريخ مصر هو عهد الإمبراطورية الذي دام زهاء خمسة قرون (1580 ـ 1085 ق.م.). ولم يكتف ملوك هذه السلالة بطرد الهكسوس من مصر بل لاحقوهم إلى فلسطين وسوريا وحاربوهم هناك



الصورة رقم (41)
أسرى من فلسطين وسوريا اقتادهم المصريون على أثر الفتوحات المصرية في الشرق في القرن الرابع عشر قبل الميلاد

---

(1) W: Keller, «**The Bible as History**». pp. 84-87; ph. Hitti. «**History of Syria**», pp. 76-77.

(2) انظر الصورة رقم 40.

في مقرّهم القديم الذي غزوا منه مصر، فاستطاع أحد ملوك هذه السلالة أن يقضي على كيان الهكسوس في بلاد الشام في معركة كبرى وقعت في «مجدو» (1479 ق.م.)، فثبت بذلك النفوذ المصري هناك وأسّست الإمبراطورية المصرية التي شملت سوريا وفلسطين.

العموريون العمالقة وتأسيس الإمبراطورية البابلية القديمة (ثاني إمبراطورية سامية)

قلنا فيما تقدّم إن العموريين العمالقة انتشروا في بداية هجرتهم من جزيرة العرب في أواسط سوريا وفي لبنان ثم امتدوا غرباً إلى فلسطين وأسّسوا هناك عدّة دويلات، أهمها دولة «عمورو» التي اتخذت بلدة «ماري» على نهر الفرات عاصمة لها، إلا أن أكثر دويلاتهم ومن ضمنها عاصمتهم «ماري» ضمّت إلى إمبراطورية سرجون الأكدية في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، ولكنهم عادوا فأسّسوا بعد سقوط الإمبراطورية الأكدية عدّة دويلات في وادي الرافدين حتى تمكّنوا في أوائل القرن التاسع عشر قبل الميلاد من تأسيس مملكة موحّدة حكمت أكثر أقطار الشرق الأوسط، وعُرفت مملكتهم بالمملكة البابلية القديمة كما عرفت سلالة ملوكها بسلالة بابل الأولى. وتنتمي هذه السلالة إلى الموجة السامية الثانية (هجرة العموريين العمالقة) وقد جاءت قبائلها من أعالي نهر الخابور (خابور الفرات) وانحدرت إلى الجنوب مع مجرى الفرات حتى استقرّت في منطقة بابل. وكان أول ملوك هذه السلالة الملك «سموابوم» حكم 13 سنة من سنة 1894 إلى سنة 1881 ق.م. وقد اتخذ بابل عاصمة له، وكانت بابل حينذاك بلدة صغيرة لم تشتهر بعد، كان يقطنها بعض الساميين الغربيين وبقايا الأكديين الذين كانت عاصمتهم «أكد» قريبة من منطقة بابل، فصارت بعد ذلك ذات شأن عظيم في تاريخ البلاد حتى أن اسم بابل أُطلق على القسم الوسطي والجنوبي من العراق.

وقد بلغ عدد ملوك هذه السلالة أحد عشر ملكاً حكموا جميعاً زهاء ثلاثة قرون بين سنة 1894 وسنة 1595 قبل الميلاد اشتهر من بينهم الملك

حمورابي الشهير، وهو الملك السادس لهذه الدولة حكم 42 سنة بين 1792 وسنة 1750 قبل الميلاد وأعظم ما خلّد مجده وأطار شهرته «شريعته العظيمة».

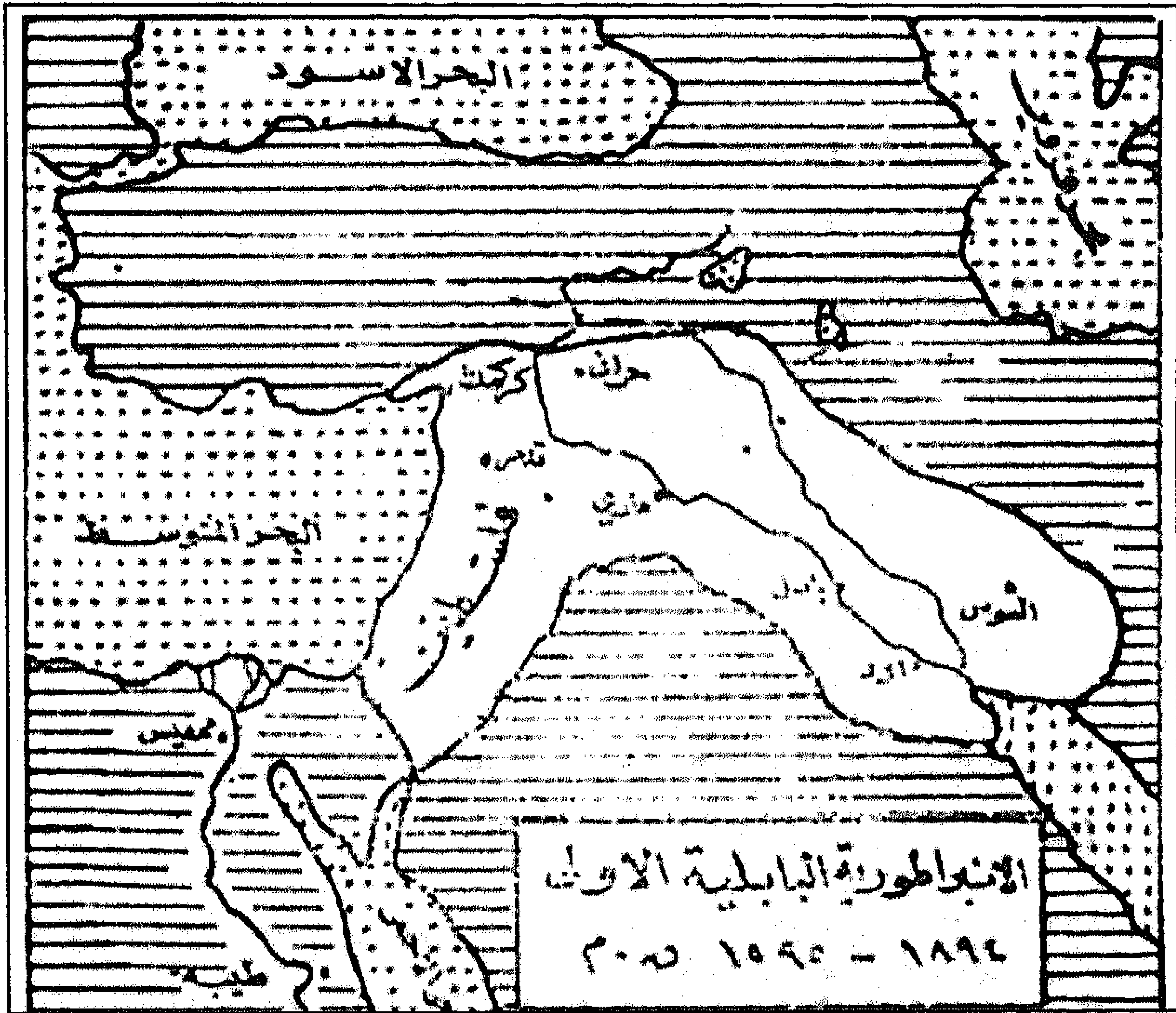
وقد شنّ حمورابي في بداية حكمه حرباً على بلاد سومر الجنوبية فضمّها إلى مملكته وأسرع في إخضاع دويلات ما بين النهرين المهمة مبتدئاً بدولة آشور في الشمال فاستولى على مدينة آشور ثم ألحق بمملكته مملكة ماري وتقدّم شمالاً على الفرات وافتتح المدن القريبة في بلاد الشام وسواحلها وهكذا ضمّ حمورابي إلى حكمه قسماً كبيراً من بلاد الشرق الأوسط وأسّس الإمبراطورية البابلية القديمة الواسعة. ولم تقتصر شهرة حمورابي على أعماله الحربية بل امتدّت إلى الإصلاحات التي قام بها وإلى نشره الحضارة البابلية وثقافتها في البلاد التي فتحها، وعني عناية شديدة بإدارة المملكة وضبطها وتهذيبها، وقام بمشاريع عديدة بخاصة مشاريع الري فنشر الرخاء في البلاد. كما عني عناية خاصة بالشؤون الدينية والعدل.



الصورة رقم (42)

الملك حمورابي صاحب الشريعة البابلية الشهيرة وأشهر ملوك الإمبراطورية البابلية القديمة (1792 ـ 1750 ق.م.)

وبعد وفاة حمورابي خلفه ابنه «شمسو ـ أيلونا» (1749 ـ 1712 ق.م.) الذي اشتهر بحفر القنوات والترع، ثم تولّى الحكم بعده أربعة ملوك جهدوا في المحافظة على الإمبراطورية ولكنهم لم يستطيعوا أن يحولوا دون تأسيس إمارة جديدة مستقلة على شواطىء الخليج العربي وهي سلالة الأمراء التي عُرفت بسلالة القطر البحري التي ظهر منها الكلدانيون، مؤسّسو الإمبراطورية الكلدانية في أواخر القرن السابع قبل الميلاد. وقد تمكّن ملوك هذه السلالة من بسط سيطرتهم على سواحل الخليج العربي وأكثر المدن السومرية والأكدية في جنوب العراق بعد أن كاد الجنس السومري يتلاشى في الجنس السامي (الأكدي والعموري). ثم أخذت الدولة البابلية تسير نحو الاضمحلال والزوال، ففي زمن الملك الحادي عشر «شمسو ديتانا» (1625 ـ 1595 ق.م.) هجم الحثيون الجبليون من بلادهم في آسيا الصغرى على بلاد بابل



الرسم رقم (9)

فاستباحوا مدينة بابل ونهبوها وخرّبوها ثم قفلوا راجعين إلى مستوطناتهم في جبال طوروس محملين بالغنائم والكنوز، وكان ذلك عام 1595 ق.م.[1] وفي أعقاب تراجع الحثيين زحف الكاشيون وهم جبليون أيضاً من جبال زاغروس بقيادة زعيمهم «كنداش» مستغلين ضعف البلاد البابلية وخلوّها من ملك قاهر وجيش مدافع فنزلوا أواسط العراق واحتلّوا مدينة بابل حيث أسّسوا سلالة كاشية ورثت جميع ممتلكات الدولة البابلية القديمة في العراق[2].

الآشوريون وتأسيس الإمبراطورية الآشورية (ثالث إمبراطورية ـ سامية)

عرضنا فيما تقدّم صورة عامة لأقدم الأقوام السامية التي نزحت من جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب وهم الكنعانيون والعموريون والآراميون والأكديون والهكسوس، وهؤلاء كلهم كانوا قد اتجهوا نحو سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ومصر، وكان الفرات هدف الذين اتجهوا إلى سوريا والعراق. أما ناحية نهر دجلة فكان أول من قصدها من القبائل السامية جماعات عبرت نهر الفرات فتوغّلت في منطقة ما بين النهرين، ثم استقرّت في حوالي أواخر الألف الرابعة أو أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد في المنطقة الشمالية من العراق في البقعة الممتدة على طول ضفة نهر دجلة اليمنى بين الموصل والشرقاط، وكانت هذه المنطقة تُعرف باسم «شوبارتو»، فأسّست هذه الجماعات مدينة هناك صارت تُعرف فيما بعد بمدينة «آشور» نسبة إلى الإلٰه «آشور» إلٰه القوم الذين سكنوا هذه الديار، كما صارت الجماعات التي استقرّت في هذه المنطقة تُسمّى بالآشوريين، وأخيراً صارت المنطقة بأسرها تعرف باسم «آشور». وأطلال مدينة «آشور» هذه تقع اليوم على الجانب الأيمن من نهر دجلة على بُعد حوالي تسعة كيلومترات من جنوب مدينة الشرقاط وتُسمّى «قلعة الشرقاط». وفي هذه البقعة أقام هؤلاء النازحون إمارة صغيرة

---

(1) انظر: ما يلي عن هجرة الحثيين.

(2) H.G. Guterbock, «**Babylonia and Assyria**», Enc. Brit., 1965 ed., Vol II, pp. 951-979.

مؤلفة من مدينة آشور وأرباضها على نسق دويلات المدن الأكدية في جنوب العراق، وكانوا على اتصال مستمر بهذه المدن التي أخذوا عنها فن النقش والعمارة والكتابة وأسباب المعيشة التي توافرت فيها حينذاك وكانت معظم زراعتهم على الأمطار. وكان الآشوريون يتكلمون فيما بينهم بلغة سامية قريبة من اللغة التي كان يتكلمها الأكديون في منطقة أكد الجنوبية وكتبوا بالخط المسماري لغتهم الآشورية[1].

وبالنظر لموقع بلاد آشور الذي يجعلها معرضة للهجمات من جميع أطرافها فليس غريباً إن كانت هذه الدولة الجديدة قد بنت قواعدها على أساس حربي، حيث علّمت الحرب الدائمة أهل آشور كيف يحمون حدودهم ويتحينون الفرص للاستقلال في مدنهم عن حكم الدول التي كانت فتوحاتها تخترق أراضيهم بين حين وآخر. فقد كان لدولة آشور جنود غير نظاميين، ثم حلّ محلهم جيش منظّم، وهو القوّة الرئيسة للدولة الآشورية، وتطوّرت هذه الدولة إلى تنظيم ثابت محكم لم تؤثر فيه المنافسات والمنازعات التي كانت سائدة بين الدويلات حتى صار في استطاعة مملكة آشور أن توجّه جميع قواها الموحّدة للقضاء على أعدائها الخارجيين. وساعد الآشوريين على ذلك أنهم كانوا قد بدأوا باستعمال الخيل والعجلات في جيشهم، وفي النهاية أصبحوا أعظم قوة حربية ضاربة رآها العالم القديم. وكانت التجارة رائجة من بلادهم وإليها، فكانت قوافل تجارتهم تمتد إلى آسيا الصغرى. وقد توثقت صلاتهم بالشعوب الأخرى المجاورة، فازدادوا قوّة وثراءً. ولما كانت الحقبة التي عاشتها بلاد آشور طويلة تخللتها عدّة تقلّبات أساسية، فقد رأى علماء الآثار تقسيم تاريخ بلاد آشور إلى ثلاثة عهود رئيسة، هي:

1 ـ العهد الآشوري القديم.

2 ـ العهد الآشوري الوسيط.

3 ـ العهد الآشوري الحديث، وفيما يلي نبذة عن كل منها:

---

(1) انظر ما تقدّم عن هجرة الأكديين.

أ ـ العهد الآشوري القديم (4000/3000؟ ـ 1595 ق.م.)

يبدأ هذا العهد بتأسيس مدينة آشور في حوالي أواخر الألف الرابعة أو أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد وينتهي في نهاية حكم مملكة بابل القديمة سنة 1595 ق.م.[1]، ولم يكن للآشوريين كيان سياسي ثابت في هذا العهد لا سيما خلال الألف الثالثة قبل الميلاد. ففي عهد المملكة الأكدية خضع الآشوريون للحكم الأكدي[2]، ثم استقل بعض أمرائهم في أوائل العهد البابلي القديم (سلالة بابل الأولى) وكوّنوا مملكة مستقلة باسم مملكة آشور إلا أنه بعد ظهور حمورابي (1792 ـ 1750 ق.م.) قضي على استقلالها.

ب ـ العهد الآشوري الوسيط (1595 ـ 911 ق.م.)

لقد عانى الآشوريون ظروفاً حرجة في هذا الدور، ولكن على الرغم من تعرّضهم لهجمات القبائل الآرامية وغزو الشعوب الجبلية كالحوريين والحثيين[3]، تغلّبوا على الشدائد وخرجوا بعدها أقوياء منتصرين محافظين على كيانهم السياسي. وقد ظهر في هذا الدور عدد من الأمراء الآشوريين الأقوياء منهم آشور أوبلط الأول (1365 ـ 1330 ق.م.) الذي قضى على الحوريين وضمّ مملكتهم (ميتاني) إلى الدولة الآشورية وقد توسّعت المملكة الآشورية في عهد أداد نيراري الأول (1300 ق.م.) حتى الفرات وشمالاً حتى كركميش (جرابلس الحالية). وفي زمن شلمنصّر الأول (1276 ـ 1245 ق.م.) اتسع نفوذ الدولة الآشورية شرقاً في المنطقة الجبلية فضلاً عن امتداده إلى الغرب والجنوب. ثم بعد انتكاس دام زهاء 130 عاماً أعاد الملك تغلات فلاسر الأول (1115 ـ 1077 ق.م.) إلى المملكة هيبتها وسلطانها وامتدّت فتوحاته إلى الأقطار الشرقية والشمالية. ثم تولّى بعده ملوك ضعفاء تدهورت أحوال المملكة في أيامهم، فانتهزت القبائل الآرامية هذه الظروف لتوسيع سلطانها

---

(1) انظر ما تقدّم عن الإمبراطورية البابلية القديمة.

(2) انظر ما تقدّم عن هجرة الأكاديين والإمبراطورية الأكدية.

(3) انظر ما يلي عنهم.

باتجاه الشرق فشكّلت دويلات آرامية قوية في سوريا وفي العراق بلغت ذروة ازدهارها في القرنين الحادي عشر والعاشر[1] وقد استمر دور الانتكاس هذا في بلاد آشور حتى ظهر ملوك استطاعوا إعادة كيان الدولة وتأسيس جيش قوي كان نواة الجيوش الغازية في العهد الآشوري الحديث على أثر تسليم الملك «أداد نيراري الثاني» الحكم سنة 911 ق.م.

ج ـ العهد الآشوري الحديث (911 ـ 612 ق.م.)

يقسم هذا العهد إلى دورين: الإمبراطورية الأولى، ثم الثانية تفصل بينهما فترة انتكاس، وينتهي هذا العهد بسقوط نينوى عاصمة الآشوريين الأخيرة عام 612 ق.م. وبذلك يكون قد استمر هذا العهد ثلاثة قرون كاملة بلغ عدد الملوك الذين حكموا فيه 16 ملكاً دوّنوا أخبارهم وحملاتهم العسكرية ورحلاتهم وإنجازاتهم الإعمارية. وقد تمكّن الآشوريون خلال هذه الفترة من إعادة توسيع ممتلكاتهم فأسّسوا إمبراطورية سامية عظيمة، وقد بلغت من القوّة العسكرية بحيث سيطرت في ذروة اتساعها على منطقة الشرق الأوسط كلها ومن ضمنها آسيا الصغرى وسواحل إيجة ومصر والخليج العربي وعيلام، هذا عدا فتوحاتهم للمناطق الجبلية في الشرق والشمال حتى بلاد أرمينية.

1 ـ الإمبراطورية الآشورية الأولى (911 ـ 824 ق.م.)

تمتد هذه الفترة بين سنتي 911 و824 ق.م. حكم فيها أربعة ملوك كان أشهرهم «آشور ناصر بال الثاني» وقد حكم من سنة 884 إلى سنة 859 ق.م. فقام بتنظيم الجيش الآشوري وتدريبه مما ساعده على توسيع فتوحاته في المناطق الجبلية الشرقية والشمالية وتوطيد الأمن في أطراف المملكة ومستعمراتها، وقد استولى على اثنتي عشرة دولة صغيرة وعاد من حروبه بمغانم كثيرة. وكان من بين الأقاليم التي أخضعها الموانىء الفينيقية في حوض البحر المتوسط والمدن الآرامية ومنها دمشق.

---

(1) انظر ما تقدّم عن هجرة الآراميين.

وقد خلّف «آشور ناصر بال» في الحكم ابنه «شلمنصّر الثالث» (859 ـ 824 ق.م.) فورث عن أبيه إمبراطورية شاسعة برهن على أنه كفء للمحافظة عليها ودعم نفوذه فيها بل وعلى توسيعها أيضاً، فتمكّن من إخضاع الآراميين والفينيقيين وإسرائيل للجزية كما قهر بلاد بابل في حملتين قام بهما ضدها.

وحدث في السنين الأخيرة من حكم شلمنصّر أن ثار عليه أحد أبنائه فعرّض المملكة الآشورية إلى فقدان هيبتها في الداخل والخارج، واستغرقت الثورة أربع سنوات وانتهت بموت شلمنصّر سنة 824 ق.م.

2 ـ فترة انتكاس الإمبراطورية الآشورية (824 ـ 745 ق.م.)

لقد سبّبت الحرب الأهلية تصدعاً في جسم الإمبراطورية الآشورية فكانت بداية فترة انتكاس تقلّص خلالها النفوذ الآشوري وانسلخت أكثر الأقاليم التابعة عن سلطة الدولة الآشورية. وقد دامت هذه الفترة حوالي ثمانين عاماً، وقد حكم في هذه الفترة خمسة ملوك انهمكوا في إخماد ثورات الأقاليم حتى تولّى زمام الحكم الملك «تجلات بلاسَّر الثالث» فأعاد إلى المملكة سلطتها وأنقذها من الدمار، فكان ذلك نهاية فترة انتكاس وبداية عهد جديد تكوّنت فيه أعظم إمبراطورية ـ هي الإمبراطورية الآشورية الثانية.

3 ـ الإمبراطورية الآشورية الثانية (745 ـ 612 ق.م.)

يبدأ هذا العهد بتسلم تغلات فلاسر الثالث زمام الحكم سنة 745 ق.م. وقد استمر حكمه ثماني عشرة سنة تمكّن خلالها من استعادة نفوذ المملكة الآشورية بعد فترة الانتكاس. وحكم خلال فترة الإمبراطورية الثانية هذه ستة ملوك من ضمنهم تجلات بلاسّر. بلغت الإمبراطورية في عهدهم أوج عظمتها واتساعها خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، بحيث ضمّت جميع أراضي الهلال الخصيب ومن ضمنها مصر، ولم تكتفِ بذلك بل وسعت نطاق سلطانها وسيطرتها حتى شملت البلاد الجبلية الشمالية والشرقية وما وراءهما. والذي يعنينا هنا من بحث هذه الإمبراطورية بوجه خاص الدور الرئيس الذي

لعبته في القضاء على مملكة إسرائيل نهائياً وسبي سكانها اليهود إلى أماكن بعيدة.



الصورة رقم (43)
الملك سرجون الثاني، ملك آشور
(722 ـ 705 ق.م.) مع وزيره
من آثار خرساباد

ومن الحملات التي شنّها تغلات فلاسر حملته على مملكة آرام فاستولى على عاصمتها دمشق سنة 732 ق.م. وسبى أهلها وقتل ملكها رصين ثم توجّه إلى إسرائيل فأستولى على كل أرض فلسطين وسبى اليهود إلى آشور تاركاً لهم مدينة السامرة.

وفي عهد شلمنصر الخامس، خلف تغلات فلاسر، جرّد هذا الملك حملة على إسرائيل أيضاً فحوصرت عاصمتها السامرة ثلاث سنوات وفي نهاية عام 722 ق.م. تمّ احتلال المدينة على عهد سرجون الثاني خلف شلمنصر، وبذلك تمَّ القضاء على مملكة إسرائيل نهائياً.

ومن أهم حملات سنحاريب (705 ـ 681 ق.م.) خلف سرجون الثاني، حملته على مملكة يهوذا التي بقيت بعد قضاء شلمنصر الخامس وسرجون على إسرائيل تنتظر دورها، وعلى الرغم من إسناد مصر ليهوذا فقد انتصر سنحاريب على قواتهما واحتلّ مدن يهوذا وحاصر أورشليم ولم يفك الحصار عنها إلّا بعد أن تسلّم الجزية من ملك يهوذا.

وفي عهد أسرحدون بن سنحاريب (681 ـ 669 ق.م.) جهّز هذا الملك حملتين على مصر وتمكّن في الحملة الثانية من الاستيلاء على الدلتا المصرية ومن ضمنها «ممفيس» العاصمة المصرية الشهيرة وعلى أكثر مدن مصر العليا. وبذلك يكون أسرحدون قد فاق أسلافه من ملوك آشور شهرة بسبب



الصورة رقم (44)

الملك أسرحدون (681 ـ 669 ق.م.)
يجذب الملك ترهاقة ملك مصر والملك
بعل صور بحبل نفذ من خلال شفتيهما
مسلة عثر عليها في أطلال سمال (زنجرلي)

غزوه لمصر وانتصاره عليها، وهي أقوى دولة في الشرق القديم نازعت نفوذ الآشوريين في سوريا وفي فلسطين طيلة مدة الحكم الآشوري. ولما ثار ترهاقة ملك مصر جهّز آشور بانيبال خلف أسرحدون (669 ـ 626 ق.م.) جيشاً قوياً وحارب ترهاقة وتمكّن من فتح ممفيس من جديد ولحق به حتى مصر العليا واستولى على طيبة العاصمة الجنوبية لمصر وبذلك خضعت مصر جميعها للحكم الآشوري[1].

(1) انظر الرسم رقم 10.



الصورة رقم (45)
منظر لصيد الأسود
نقش يمثل آشور بانيبال يصيد أسداً ويسدد له ضربة من طرفيه

د ـ نهاية الدولة الآشورية:

ثم حدث بعد وفاة آشور بانيبال منازعات على العرش أوهنت جهاز الحكم الآشوري فانفصلت المقاطعات البعيدة كمصر والمدن الساحلية في فلسطين وسوريا وبلاد أرمينية عن المملكة الآشورية، وكذلك انتهزت بابل الفرصة وانفصلت عنها واستقلّت بزعامة الأمير الكلداني «نبوبولاسر» حيث أسّست سلالة جديدة مستقلة عرفت بالسلالة البابلية الأخيرة أو المملكة الكلدانية. وقد استطاع «نبوبولاسر» بالتضامن مع ملك الماذيين «كي إخسار» من دحر القوات الآشورية. وعلى الرغم من المقاومة العنيفة سقطت «نينوى» عاصمة الآشوريين عام 612 ق.م. فنهبت ودمرت ومات آخر ملوكها وسط النيران في قصره، وبسقوط نينوى وموت آخر ملوكها كانت نهاية الدولة الآشورية[1].

---

(1) انظر المراجع الآتية في تاريخ الآشوريين.

H.G. Guterbock, «**Babylonia and Assyria**». Enc. Brit. 1965, Vol. II. pp. 951-979; B. Meissner, «**Babylonien und Assyrien**», 2 vols. 1920-25; S. Smith, «**Early History of Assyria**», 1928; Olmstead, «**History of Assyria**», 1923; F.D. Pallis, «**The Antiquity of Iraq**». 1956, Cambridge Ancient History».

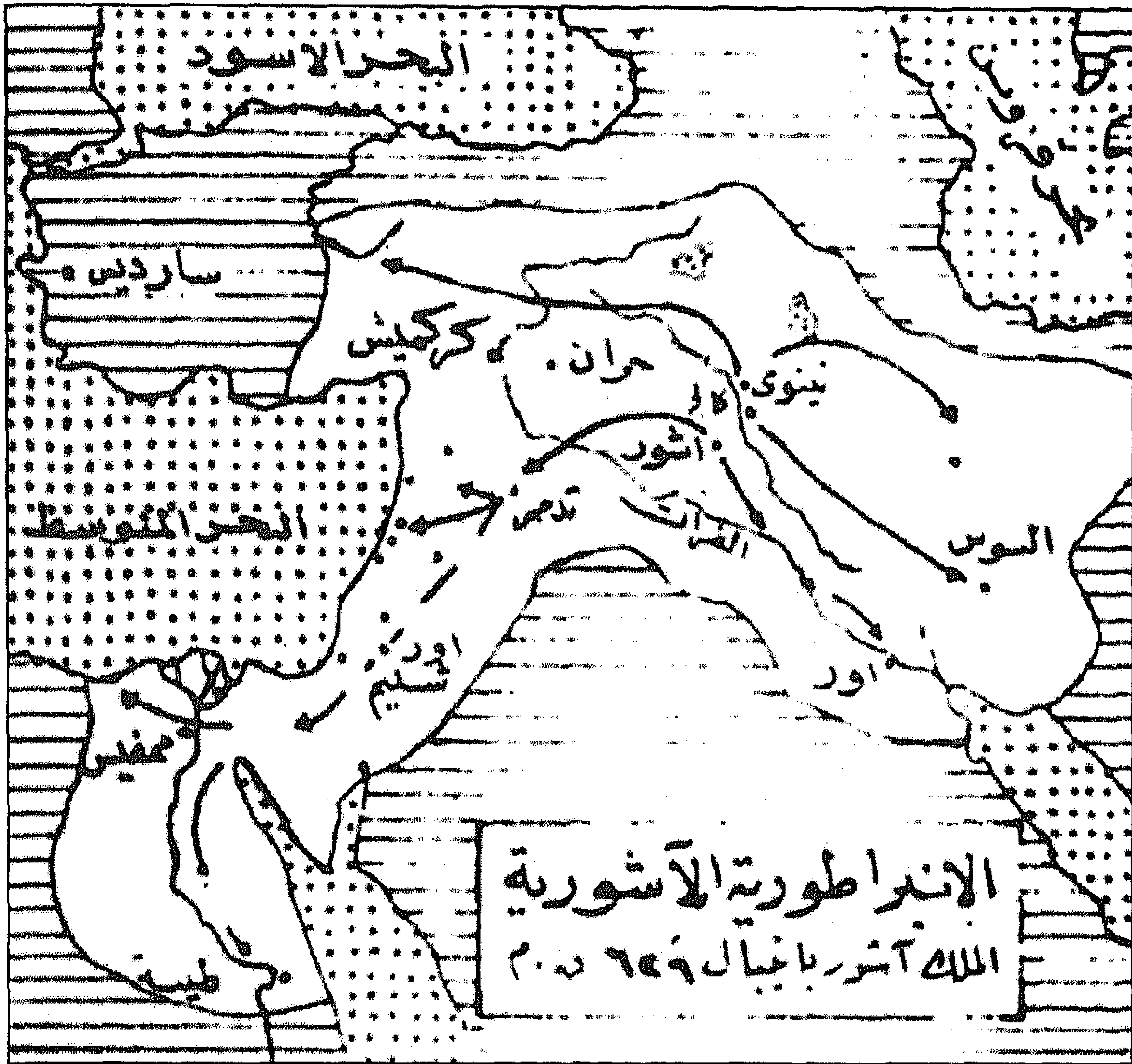
هـ ـ الحضارة

إن الدولة الآشورية بنت وجودها على أساس عسكري حربي فحملها ذلك على استخدام الخيل والمركبات الحربية وابتداع المنجنيق وأنواعه. وبحكم احتكاك الآشوريين بالشعوب والأمم المتحضرة كالحثيين والمتانيين والعموريين والآراميين والفينيقيين والأرمن تمكّنوا من صنع الآلات المعدنية المصنوعة من الصفر (النحاس الأحمر)، ثم توصلوا إلى استعمال الشبه (البرونز) في أثناء الألف الثانية قبل الميلاد بكثرة وبدأوا منذ ذلك التاريخ يصنعون أسلحتهم وأدواتهم من هذا المزيج، ثم استعملوا بعد ذلك الحديد في صنع الأسلحة إذ تعلّموا صناعته من الحثيين الذين سبقوهم في إتقان استخلاصه وصناعته حيث كانوا يستخرجونه في الشمال الشرقي من آسيا الصغرى من مناجمه ونشروا استعماله في جميع بلاد الشرق الأدنى منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وهذا ما مكّنهم من التوسّع في القرون التالية. وقد ساعدتهم فتوحاتهم على توسيع تجارتهم فحذق تجّارهم أساليب التجارة وعاش كثيرون من التجار في محلات أنشأوها في عدّة أماكن في جنوب شرقي آسيا الصغرى.

وقد اشتهر الآشوريون في قدرتهم على استعمال ما يقتبسونه من شعوب أجنبية فيطبعونه بطابعهم الخاص بمنتهى الدقة، وذلك مما حملهم على الاهتمام بالفنون الجميلة المختلفة والأدب، فأتقنوا فنّ النحت والتصوير واقتبسوا الكثير من الثقافة البابلية، ولا أدل على اهتمامهم بالناحية الأدبية والثقافية مما تركوه من ميراث حضاري في خزانة الكتب (ألواح الطين) التي أنشأها الملك آشور بانيبال. وقد عُثر على زهاء خمسة وعشرين ألف رقيم من رقمها في حفائرهم تبحث في المدن والفنون والآداب والشؤون الأخرى وهي محفوظة في المتاحف البريطانية حالياً. وصفوة القول إن الآشوريين تركوا لمن خلفهم من أمم جاءت بعدهم تراثاً حضارياً مجيداً على الرغم مما كانوا يتّصفون به من طبع غليظ وقسوة شديدة في حروبهم[1].

---

(1) جيمس هنري بريستد، «**انتصار الحضارة**»، ترجمة أحمد فخري.



الرسم رقم (10)

الكلدانيون (الآراميون) وتأسيس الإمبراطورية الكلدانية (رابع إمبراطورية سامية)

يرجع علماء الآثار وطن الكلدانيين الأصلي إلى شواطىء الخليج العربي في جنوب العراق، حيث أسّست هناك منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد أو ربما قبل ذلك سلالة الأمراء التي عرفت عند المؤرّخين بسلالة القطر البحري أو «سلالة بابل الثانية» التي كانت بالدرجة الأولى من بقايا السومريين، وقد تمكّن ملوك هذه السلالة من بسط سيطرتهم ونفوذهم على سواحل الخليج العربي وأكثر المدن السومرية والأكدية في جنوب العراق بعد أن كاد الجنس السومري يتلاشى في الجنس السامي (الأكدي والبابلي). والكلدانيون هم من القبائل البدوية السامية وقد اشتقّ اسمهم من قبيلة «كلدي» ويعدهم المؤرّخون

فرعاً من الآراميين نزحوا من سوريا إلى جنوب العراق[1]. وقد ظهروا لأول مرة في عهد «شمسو إيلونا» خليفة حمورابي[2]، وكان أول ملوكهم يدعى «إيلوما إيلو» الذي بدأ حكمه سنة 1742 ق.م. وقد مارست سلالتهم سلطة غير ثابتة على إقليم سومر وأكد حوالي قرن ونصف القرن، ثم صارت تتحدّى سلطة الدولة البابلية القديمة (1894 ـ 1595 ق.م.)، كما ظلّت تتحدّى ملوك بابل وآشور مدة ألف عام تلت ذلك العصر.

وقد انضمّ إلى القبائل الكلدانية حشود من الآراميين نزحوا من سوريا في فترة ضعف الدولة الآشورية ما بين سنتي 1077 و911 ق.م. وتأسّست منهم دولة في جنوبي العراق في منطقة الخليج عرفت باسم «بيت ياكيني» وصاروا يتحينون الفرص لاحتلال بابل والقضاء على الحكم الآشوري فيها، فقد جرّد أحد ملوكهم المدعو «مردوخ بلادان» حملة على بابل وفتحها وحكم فيها أكثر من عشر سنوات بين سنة 721 وسنة 711 ق.م. وكان ذلك في بداية حكم سرجون الثاني إلا أن سرجون حاربه واستولى على بابل فهرب مردوخ بلادان إلى أقصى الجنوب. ثم جهز سنحاريب خلف سرجون حملة قوية اكتسحت مدن الجنوب حتى أقصى بلاد البحر والخليج وخرب بابل ودك حصونها وفتح مياه الفرات عليها وأغرقها ليزيل معالمها وكان ذلك سنة 689 ق.م. ثم قام آشور بانيبال بحملة تأديبية على بابل وبلاد القطر البحري وأخضع الأمراء المتمردين واتجه نحو عيلام التي كانت تحرّضهم على التمرّد فاحتلّ عاصمتها «السوس» وخربها. وبعد وفاة آشور بانيبال سنة 626 ق.م. انتهز سكان القطر البحري ضعف المملكة الآشورية، فاستولى الزعيم الكلداني المدعو «نبوبولاسر» على مقاليد الحكم في بابل سنة 625 ق.م. وهو يومئذ حاكم بابل. وتمكّن من الانفصال عن الدولة الآشورية وحالف الماذيين وساهم في الحرب التي قوّضت الحكم الآشوري في البلاد سنة 612 ق.م.[3] وأسّس

---

(1) انظر ما تقدّم عن هجرة الآراميين إلى سوريا والعراق.

(2) انظر ما تقدّم عن العموريين العمالقة وتأسيسهم الإمبراطورية البابلية القديمة.

(3) يقول المرحوم الأب أنستاس الكرملي (**مجلة لغة العرب** 2: 578) إن مؤسّس دولة الكلدان =

الدولة البابلية التي دامت 73 سنة بعد سقوط نينوى(1)، وقد سُمِّيت في ثبت الملوك بسلالة بابل الحادية عشرة.

أ ـ دور الدولة الكلدانية في القضاء على مملكة يهوذا:

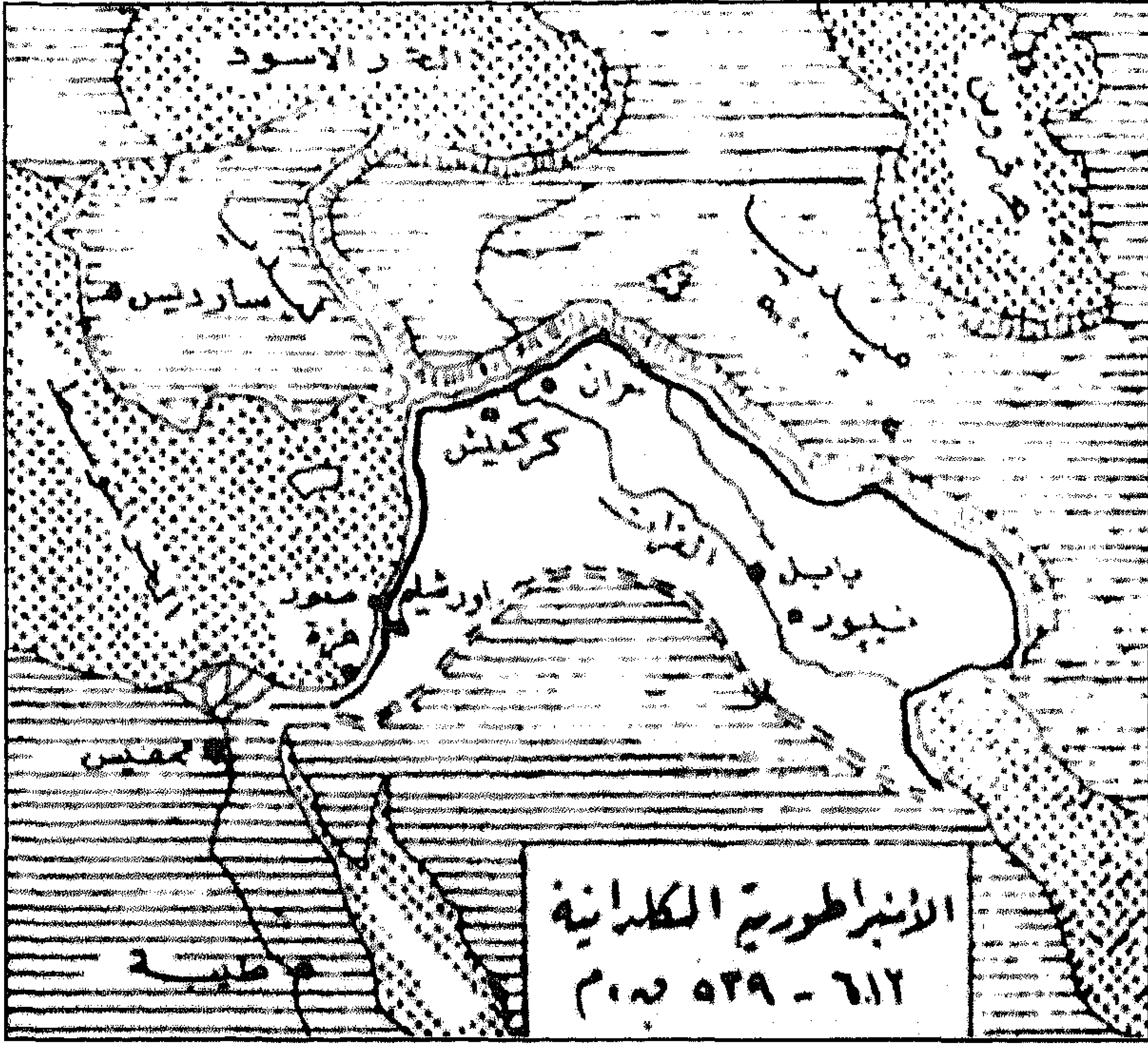
وقد لعبت سلالة بابل المذكورة دوراً هاماً في تاريخ الشرق الأدنى في القرن السادس قبل الميلاد، فقد استولت على جميع الدويلات في سوريا وفي فلسطين وبلغت أوج ازدهارها في عهد نبوخذ نصر(2) (بختنصر) خليفة «نبوبولاسر» وابنه. وكان نبوخذ نصّر هذا أعظم الملوك الكلدانيين قاطبة وقد دام حكمه ثلاثة وأربعين سنة (605 ـ 562 ق.م.). والذي يعنينا هنا من حملاته الحربية الحملتان اللتان قام بهما على مملكة يهوذا والقضاء عليها وسبي اليهود إلى بلاد بابل. فقد وجّه حملته الأولى سنة 597 ق.م. على يهوذا فاستولى على أورشليم وسبى اليهود إلى بلاد بابل ومعهم الملك «يهوياكين» وأهل بيته، وأخذ نبوخذ نصر «جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وكسر كل آنية الذهب» هذا هو السبي الأول، ثم تبعه السبي الثاني سنة 586 ق.م. إذ جاء نبوخذ نصّر هذه المرة بنفسه على رأس حملة قوية واحتلّ أورشليم فخرّبها وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت الأعيان، وقد خمّن عدد الأسرى الذين سيقوا إلى بابل ليلتحقوا باليهود من السبي الأول بحوالي 50,000 شخص. وبعد وفاة نبوخذ نصّر سنة 562 ق.م. خلفه على عرش بابل ملوك ضعفاء حتى وقعت بابل لقمة سائغة بيد كورش الأخميني، فسمح كورش لمن يشاء من اليهود بعد احتلاله لبابل بالعودة إلى فلسطين فعاد بعضهم وقد آثر آخرون البقاء(3).

= (كلدة) شيخ عربي ينتمي إلى القبائل العربية. وقد ذهب سترابو إلى أن Gurney التي تقع عند العقير كانت في الأصل موضعاً للكلدانيين وكانت ذات تجارة مع أهل بابل مزدهرة.

(1) انظر ما تقدّم من الآشوريين وتأسيسهم الإمبراطورية الآشورية.

(2) يعرف بنبوخذ نصر الثاني لأن الأول هو نبوخذ نصر الذي ينتمي إلى السلالة البابلية الرابعة والذي استعاد استقلال بابل أيام حكم الآشوريين لها في القرن الثاني عشر قبل الميلاد (1124 ـ 1103 ق.م.).

(3) انظر الرسم رقم 11.



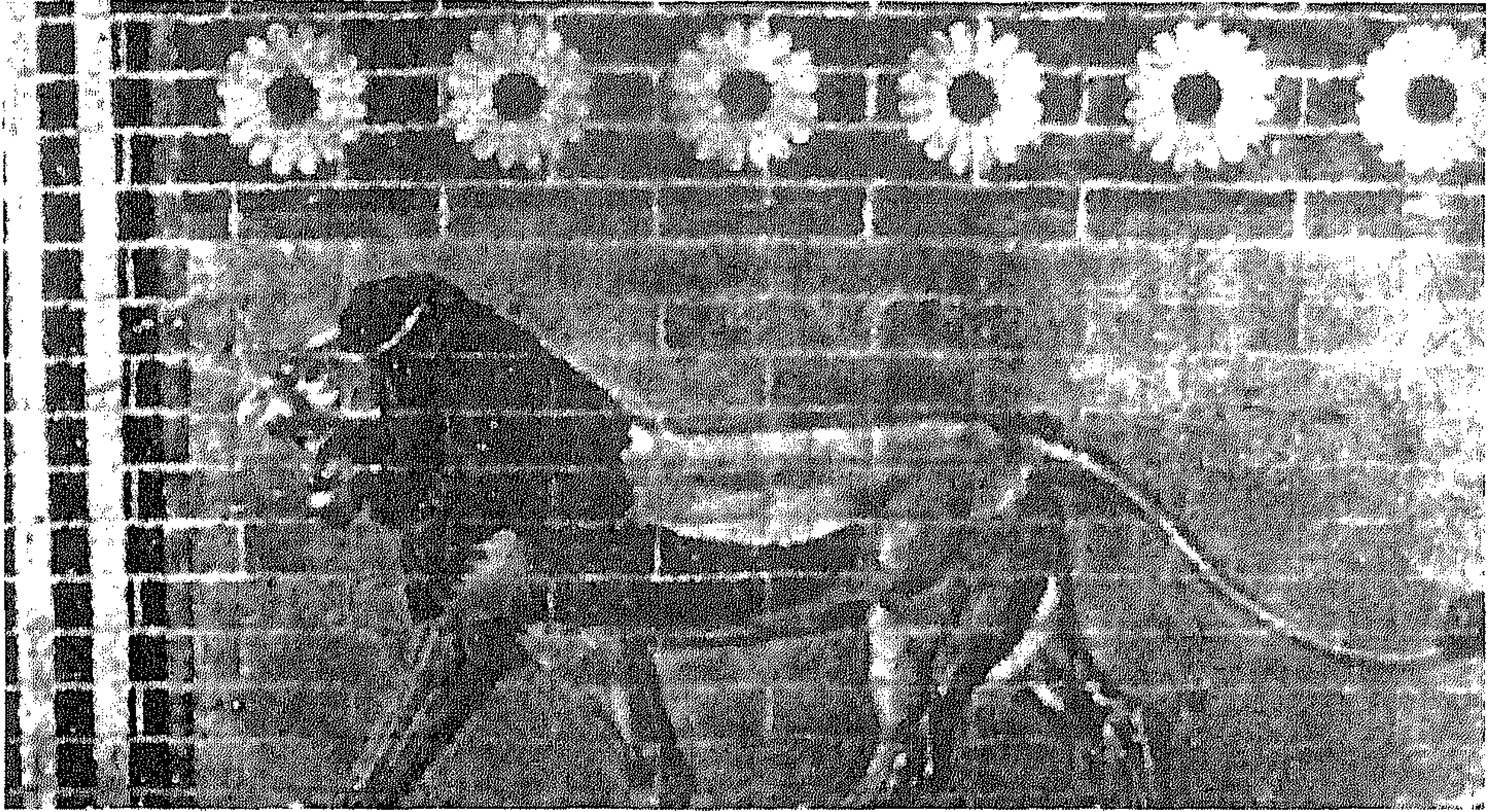
الرسم رقم (11)

ب ـ حضارة الكلدانيين:

أخذ الكلدانيون بالحضارة البابلية القديمة كما فعل غيرهم من الغزاة الساميين الآخرين، الذين نزحوا إلى سهل بابل، وأضافوا إليها كثيراً من عندهم فتحسّنت الفنون والصناعات، وعنوا بالدين والآداب عناية كبيرة، وقطعوا أشواطاً واسعة في علم الفلك. وظهر بين الكلدانيين حكماء متبحرون في مختلف فنون المعارف كالمهن التعليمية والعلوم الرياضية والكهنوتية، والذين توصّلوا لمعرفة حساب الخسوف والكسوف. والكلدانيون هم أول من جزّأ الواحد الصحيح إلى ستين جزءاً وقسموا اليوم إلى 24 ساعة والساعة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية. وقد اشتهر من الفلكيين الكلدانيين «نبوريمانو» و«كيدينو» اللذين كان لهما الفضل في وضع أول التقاويم الفلكية في العالم، ويظن أن فيثاغورث أخذ الجدول المنسوب إليه عنهما.

ومما يُذكر من حضارة الكلدانيين براعتهم في فن التطريز حتى لقد كانوا

يصورون على النسيج الصور التي رسموها على جدران قصورهم. وبرغم تقليد الكلدانيين في أشياء كثيرة إلا أنهم فاقوا أسلافهم في فخامة الأبنية وأبهة الدولة، وأصبحت بابل في عهد نبوخذ نصّر أعظم مدينة في معمورة الأرض، وكانت بابل نبوخذ نصّر هذه هي التي أدهشت أبا التاريخ هيرودوتس اليوناني بعجائبها وفخامتها وضخامتها[1].



الصورة رقم (46)
نحت بارز من الآجر المطلي بالميناء يمثل أحد الأسود التي كانت تزين جدران شارع المواكب والقصر الملكي في بابل ـ من عهد الملك نبوخذنصر

هجرة الحوريين إلى سوريا والعراق وفلسطين:

ومن الأحداث التي لعبت دوراً على المسرح السياسي في الشرق الأدنى في فترة ما قبل ظهور قوم موسى هجرة جماعات من الأقوام الهندو ـ أوروبية إلى الشرق الأدنى انحدروا من المناطق الجبلية الشمالية والشرقية منهم الحوريون والحثيون. والحوريون هم أقوام جبليون موطنهم الأصلي «أورارتو» (أرمينيا الحالية) أو الإقليم الواقع إلى الشمال والشرق من بحيرة (وان)، ورد

(1) انظر: «**دليل الجمهورية العراقية لسنة 196**»، ص164 ـ 173.
D.J. Wiseman, «**Chronicles of Chaldean Kings**», 1956.

ذكرهم في التوراة باسم الحوريين فذكرت أن بعض أسرهم كانت تسكن في منطقة جبل سعير جنوب شرقي فلسطين ثم طردهم بنو عيسو وسكنوها وصارت تُعرف بأرض أدوم الذي هو عيسو[1].

وكانت بداية تحرّك الحوريين من وطنهم في المنطقة الواقعة بين بحيرة «وان» وجبال زاغروس نحو بلاد آشور في حوالي القرن الثامن عشر قبل الميلاد، فكانت هجرتهم هذه تعاصر هجرة الكاشيين إلى العراق وهجرة الهكسوس إلى مصر. وقد تمكّن الحوريون من قهر بلاد آشور والقضاء على حكم «شمسي أداد الأول وشمسي داكان الأول» وأسّسوا عدداً من الإمارات في أجزاء من آسيا الصغرى دون أن ينظموا مملكة موحدة. وقد أدخل الأمراء الحوريون إلى المناطق التي استولوا عليها استخدام الخيل والعربات الحربية التي تجرّها الخيول.

وقد تمكّن الحوريون في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد من تأسيس مركز مهم في شمال سوريا خاصة في إقليم البليخ والخابور (خابور الفرات) واتخذوا هناك بلدة «واشوكاني» عاصمة لهم. وكان مركزهم الرئيس في العراق في «أرابخا» (كركوك الحالية). وكانت لهم مدينة مهمة في جوار كركوك تُسمّى «نوزي» تقع أطلالها اليوم في تل «يورغان تيه» على بُعد حوالي ثمانية أميال إلى الجنوب الشرقي من كركوك. ولم يمض وقت طويل حتى تمكّنوا من تكوين مملكة قوية عُرفت باسم «ميتاني» تمتد من «كركميش» (جرابلس حالياً) على الفرات إلى جوار نهر دجلة الأعلى مشتملة على منطقتي البليخ والخابور ومقاطعة نصيبين وتشمل أيضاً على إقليم أرابخا المتقدّم ذكره شرقي الدجلة. وقد ثبت وجود الحوريين في القرن الخامس عشر قبل الميلاد في فينيقيا وفي فلسطين.

وبعد تأسيس الإمبراطورية المصرية في أعقاب طرد الهكسوس من مصر سنة 1580 ق.م. اصطدم الحوريون مع المصريين وذلك عندما لاحق

---

(1) (تث، 2: 12)؛ (تك، 14: 6، 32: 3، 26: 8، 20).

تحوطمس الثالث (1504 ـ 1450 ق.م.) الهكسوس في سوريا للقضاء على مراكزهم فيها، فنشبت حرب بين الحوريين وجيش تحوطمس سنة 1457 ق.م. كان النصر فيها للثاني، ثم تحسّنت العلاقات السياسية بين الحوريين والمصريين في عهد أمنحوتب الثالث (1417 ـ 1379 ق.م.). وفي عهد الملك «أمنحوتب الرابع المدعو أخناتون» (1379 ـ 1362 ق.م.) بدأ النفوذ المصري يتقلّص تدريجياً في سوريا، فهجم الحثيّون بزعامة ملكهم «شوبيلوليوما» وأخضعوهم[1].

وفي الوقت نفسه اغتنم الملك «أوبلط الأول» ملك آشور (1365 ـ 1330 ق.م.)، هذه الفرصة فهجم هو الآخر على الميتانيين واسترجع منهم الأراضي الآشورية التي كانوا قد استولوا عليها، وقد ورد في المدوّنات الآشورية أن «أداد نيراري الأول» غزا بلاد ميتاني سنة 1300 ق.م. وتغلغل في أراضيهم حتى الفرات وخرّب عاصمتهم «واشوكاني»، كما ورد أيضاً أن شلمنصر الأول استولى على ميتاني سنة 1276 ق.م. وضمّها إلى الدولة الآشورية[2].

أما لغة الحوريين فهي لغة معقدة ليست سامية ولا هندو أوروبية، فيها كلمات مستعارة من لغات أقوام عدّة كما أنها كانت تُكتب بحروف مسمارية متنوّعة أكثرها بالحروف المسمارية الأكدية القديمة. وهذه الخصائص جعلت علماء اللغة يردوا صلة لغة الحوريين ليس بلغة الأورارتو القديمة فقط، بل باللغات الجورجية الحديثة وما يتبعها من اللغات القفقاسية[3].

هجرة الحثيين إلى شمال سوريا:

أما الحثيون فوطنهم الأصلي هو بلاد الأناضول، إذ كانوا قد استوطنوا

---

(1) انظر: ما يلي عن هجرة الحثيين.

(2) انظر الرسم رقم 12.

(3) E.A. Speiser, «**Introduction to Hurrian**», 1941; J. Puhvel, «**Hurrians**», Enc. Brit., Vol. II, pp. 905-906.

منذ الألف الثالثة قبل الميلاد الأرض المرتفعة المحاطة بحدود طبيعية، تفصلها من الجنوب سلسلة جبال طوروس عن ساحل «قليقيا» كما يفصلها من الغرب حزام آخر عن الساحل الإيجي. ويرجّح الخبراء أن الحثيين كانوا قد جاؤوا إلى هذه المنطقة على هيئة موجات متعاقبة من أوروبا الشرقية وعلى الأكثر من البلقان والقفقاس.

وأقدم المعلومات التي وصلت إلى أيدي الخبراء عن الحثيين هي الكتابات التي تركها الآشوريون في المراكز التجارية التي أقاموها في آسيا الصغرى، وهي ترجع إلى القرنين العشرين والتاسع عشر قبل الميلاد. وتدلّ هذه الكتابات على أن بلاد الحثيين كانت مقسّمة إلى دويلات من المدن المستقلة لكل منها ملكها الخاص بها. وكان أقدم ملوكها يسمون بملوك «كوسارا» ولعلها اسم مركز سلالتهم القديمة، وفي عهد الملك «لابارنا»، الذي كان يُدعى بـ «ملك كوسارا» أيضاً جرى نقل العاصمة إلى «حاتوشاش» شمالاً، وهي بلدة «بوغازكوي» الحالية الواقعة على بُعد حوالي تسعين ميلاً إلى الشرق من أنقرة.

وهذه التسمية مشتقة من «حاتو» وهو اسم إحدى المقاطعات في المنطقة، ومنها جاءت أيضاً تسمية «حيثيين» أي سكان «حاتو».

وتشير الكتابات التي عُثر عليها إلى أن «لابارنا» اخترق جبال طوروس جنوباً وفتح شمال سوريا فحمل على دويلة «يمخاد» وعاصمتها «حلبا» (حلب) إلا أنه اضطر إلى الرجوع إلى بلاده، بسبب نشوب اضطرابات داخلية في عاصمته، ويبدو أنه جرح في هذه المعارك ومات متأثراً بجراحه بعد وصوله إليها. فخلفه الملك «مورشيليش الأول» وتشير الأخبار إلى أن «مورشيليش» هذا هجم على سوريا واحتلّ مدينة حلب فخربها ودمرها تدميراً كاملاً انتقاماً لـ «لابارنا». ومن هنا امتد جنوباً فحارب الحوريين[1] وشقّ طريقه في أراضيهم حتى وصل إلى مدينة «ماري» التي كان قد دمّرها «حمورابي» من قبل، ثم

(1) انظر ما تقدّم عن هجرة الحوريين إلى سوريا والعراق.



الرسم رقم (12)

انحدر نحو بابل ففتحها وخرّبها وقفل راجعاً إلى «حاتوشاش» عاصمته محمّلاً بالغنائم والكنوز. وبذا كانت نهاية حكم الإمبراطورية البابلية القديمة وبداية حكم الكاشيين في العراق. وقد اختلف الباحثون في تعيين تاريخ هذه الواقعة وقد حدّدتها أحدث الدراسات سنة 1590 ق.م.

وقد تمكّن الحثيون بعد تسلّم الملك «شوبيلوليوما» العرش في حوالي سنة 1375 ق.م. من تدمير مملكة ميتاني، فعبر هذا الملك نهر الفرات وفتح «واشوكاني» عاصمة الحوريين، ثم واصل زحفه جنوباً حتى وصل إلى دمشق وعقد معاهدات مع رؤساء المقاطعات المجاورة اعترفوا بموجبها بسلطان



الصورة رقم (47)

محاربان حثيان من مملكة الحثيين في جوار كركميش (جرابلس)

الحثيين ومنها صعد إلى كركوش (جرابلس) فاحتلّها بعد حصار قصير الأمد وعيّن أحد أبنائه ملكاً عليها وعيّن ابناً آخر ملكاً على حلب. وعلى أثر ذلك حدثت اضطرابات داخلية بين الأمراء الميتانيين فاغتنم الآشوريون هذه الفرصة وتحرّروا من نير الحوريين واستقلّوا ببلادهم، وبانقراض المملكة الميتانية أصبح نهر الفرات يمثّل الحدود بين الحثيين والآشوريين. وقد تمكّن الحثيون من تأسيس مملكة قوية في شمال سوريا مركزها «كركميش» وقد امتدّت فتوحاتهم غرباً حتى وصلوا إلى الساحل الإيجي فضموا بلاد الليقيين والميزيين والقيليقيين إلى مملكتهم[1]. وفي غضون ذلك احتدم النزاع بينهم وبين فراعنة مصر الذين كانوا يزاحمونهم على سوريا وفلسطين فنشبت بينهما معارك أشهرها حرب قادش على نهر العاصي جنوب حمص (حالياً تل النبي مند) التي وقعت في سنة 1299 قبل الميلاد بين الحثيين ورعمسيس الثاني 1304 ـ 1237 ق.م. كاد الحثيون أن ينتصروا فيها، إلا أن رعمسيس تمكّن من الصمود

(1) انظر الرسم رقم 12.

بشجاعة أمام الحثيين حتى وصلته إمدادات جديدة فواصل القتال وانتهى الصراع بعقد صلح سنة 1269 ق.م. بين العاهلين «رعمسيس» والملك الحثي «حاتوشيلي ـ الثالث»، مع التوقيع على ميثاق دفاع مشترك ضد أي غزو خارجي أو ثورة داخلية وقد ثبتت بموجب هذه الاتفاقية الحدود بين ممتلكات الحثيين وممتلكات مصر عند نهر العاصي. وفي الوقت نفسه عقد فرعون على ابنة الملك الحثي حاتوشيلي توثيقاً للعلاقات الودّية بين الطرفين. وقد استمرّت هذه العلاقات الحسنة بين الحثيين والمصريين خلال حكم الفرعون مرنفتاح بن رعمسيس الثاني 1237 ـ 1223 ق.م.

وبعد أن دامت الإمبراطورية الحثية حوالي قرنين ونصف قرن أخذ الوهن يسري منذ سنة 1200 ق.م. في أنحائها حتى أصبحت عاجزة عن إخضاع الإمارات المتمردة فاستقلّت الواحدة بعد الأخرى، وفي الوقت نفسه أخذت تضايقها هجمات الغزاة اليونانيين في حوض بحر إيجه من جهة الغرب وهجمات الآشوريين من جهة الشرق حتى كانت نهايتها على يد سرجون الثاني حيث قضى سنة 717 ق.م. على آخر ما بقي من أثر لنفوذ الحثيين في هذه البلاد بإخضاعه المنطقة بأسرها إلى حكمه.

إن اللغة الحثية تنتمي إلى فرع اللغات الأناضولية في مجموعة اللغات الهندو أوروبية وكانت في الأصل كما يرى خبراء اللغة المحلية في منطقة «حاتي» الشمالية وأصبحت اللغة الرسمية في «حاتوشاش» العاصمة، مع أن نسبة كبيرة من مفرداتها أصلها غامض وعلى الأرجح أنها ترجع إلى الأصل الأناضولي المحلّي مع استعارة كلمات كثيرة من اللغات الهندو أوروبية في المحيط الجديد. وكان الحثيون يستعملون الحروف المسمارية المعروفة بالمسمارية الأكدية القديمة أخذوها من الحوريين الذين كانوا يستعملونها في أكثر كتاباتهم.

وقد ورد ذكر الحثيين في التوراة وقد اعتبرتهم من ذرية كنعان[1]. وتشير

(1) (تك، 10: 15).

التوراة إلى أن الحثيين كانوا موجودين في فلسطين في زمن إبراهيم الخليل (القرن التاسع عشر قبل الميلاد) فذكرت أن إبراهيم الخليل اشترى من بني حث حقل ومغارة المكفيلة في حبرون[1]. كما ذكرت أن عيسو اتّخذ له زوجات من الحثيين وأن بني إسرائيل (قوم موسى)[2] تزاوجوا مع الحثيين[3]. وكانت لسليمان زوجات حثيات أيضاً[4]. وقد خاطب حزقيال أورشليم بقوله: «أبوك أموري وأمك حثية»[5].

هجرة الفلسطينيين إلى فلسطين:

وكان آخر من هاجر إلى أرض فلسطين «الفلسطينيون»، وهم من الأقوام الإيجية «أهل السواحل» كانوا قد احتلّوا بعض السواحل السورية العليا في أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد ومنها هاجموا مصر في عهد رعمسيس الثالث، (1198 ـ 1166 ق.م.) أحد ملوك السلالة العشرين المصرية، وقد بدت في بادىء الأمر صعوبة مقاومتهم لتفوّقهم في أساليب القتال ومعدّاتهم الحربية، ولكن رعمسيس اتّخذ الاحتياطات اللازمة لمجابهتهم فأعدّ أسطولاً قوياً مع جيش كبير من الوطنيين والمأجورين الأجانب، فتمكّن من صدّهم في معركة بحرية نشبت بينهما في حوالي سنة (1191 ق.م.)[6] فاتجهوا بعد

---

(1) (تك 22: 2 ـ 20).

(2) انظر ما يلي حول بني إسرائيل وقوم موسى واليهود في الفصلين الثالث والخامس.

(3) (تك، 26: 34)؛ (قض، 3: 5 ـ 6).

(4) (1 مل، 11: 1)؛ (2 صم، 11: 3).

(5) (حز، 16: 3).

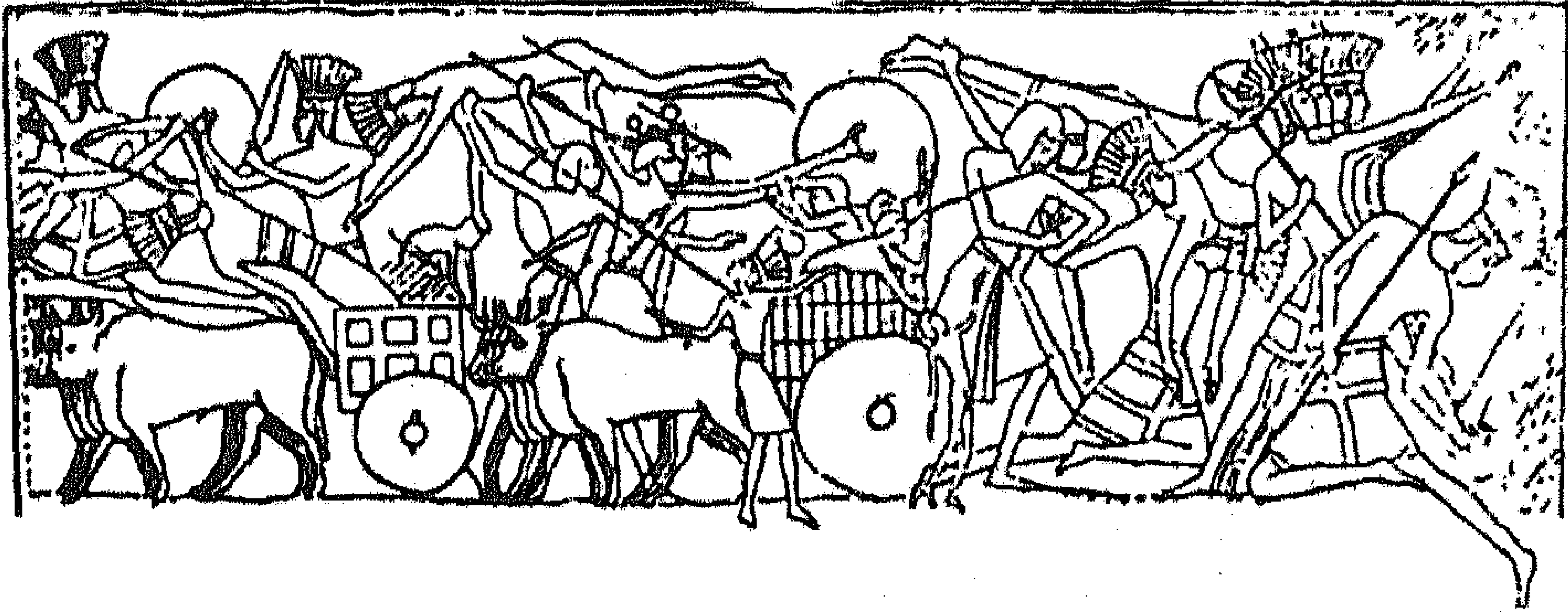
انظر المراجع المختارة التالية:

J. Garstang, «**The Hittite Empire**», London 1929; O.R. Gurmey «**The Hittites**», 2nd. ed., 1961; Puhvel, «**P. Hitti**» Enc. Brit., 1965, Vol. II, pp. 550 - 560; H. Schmokel, «**Geschichte des alten Vorderasien**», pp. 119-153 in **Handbuch der Orietalistik,** Vol. II part 3, (1954).

(6) لقد عيّن أولبرايت تاريخ نزوح الفلسطينيين إلى مصر سنة 1188 ق.م. بدلاً من سنة 1191 ق.م. التي أخذ بها الباحثون. انظر:

«**Journal of Near Eastern Studies**», April 1944, Vol. III, No. 2, p. 78.

إخفاقهم في النزوح إلى مصر نحو الساحل الفلسطيني الجنوبي في القسم الذي يمتد من غزّة جنوباً إلى أسفل يافا شمالاً، ومنهم جاءت تسمية فلسطين التي ما زالت مستعملة حتى يومنا هذا للدلالة على أرض فلسطين الحالية. وكانت المدن التي أسّسوها في هذا القطاع والتي تمتد من الجنوب إلى الشمال خمس، وهي: «غزة»، «أشقلون» (عسقلان)، «جت»، «أشدود»، «عقرون».



الصورة رقم (48)

المعركة التي خاضها المصريون مع الفلسطينيين على عهد رعمسيس الثالث (1191 ق.م.)

وكانت مدن الفلسطينيين هذه على الساحل ما عدا مدينة «جتّ» التي كانت تمتدّ قليلاً إلى الداخل[1]. وتشير التوراة إلى أن الفلسطينيين أبادوا العويين سكان هذه القرى وسكنوا مكانهم[2]. ومما يذكر أن هؤلاء الفلسطينيين قد اندمجوا بالكنعانيين والعموريين كلياً بحيث لم يعد بالإمكان تمييزهم عن العناصر الكنعانية والعمورية[3]. وفي هذا الموضوع يقول لودز إن الفلسطينيين قد (تكنعنوا) بسرعة في حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد في خلال فترة تقلّ عن 150 عاماً بعد استقرارهم على أرض فلسطين[4]، وإن الإله الرئيس

(1) (يش، 13: 3)؛ (قض، 3: 3)؛ (يش، 15: 45 ـ 47).

(2) (تث، 2: 23).

(3) Hitti, «**Syria**», pp. 184 - 185.

(4) Lods, «**Israël**», p. 59, 127-128.

«داجون» الذي كانوا يعبدونه هو داجون نفسه الذي ورد ذكره في التوراة[1]، وهو بلا شك الإله «داجان» إله الغلّة الذي كان يعبده الكنعانيون.

وكان أتباع موسى في فلسطين عندما نزح الفلسطينيون إلى سواحل فلسطين الجنوبية، وكان ذلك في حوالي أواخر عهد يشوع أو فترة ما بعد يشوع مباشرة، أي قبيل عهد القضاة، ولكن يشوع لم يستطع التحرّش بالفلسطينيين لأنهم كانوا متفوقين على أتباعه في معدّاتهم الحربية إذ كانوا يعتمدون على أسلحة من الحديد الذي أتقنوا تعدينه وصنع الدروع والأسلحة الأخرى منه[2]. وتذكر التوراة أن بني إسرائيل (قوم موسى)[3] تمكّنوا بعد عهد يشوع من الاستيلاء على غزة وأشقلون وعقرون وتخومها[4]. ولكن الفلسطينيين عادوا فأوقعوا في أواخر عهد القضاة بالإسرائيليين (الموسويين) هزائم شديدة



الصورة رقم (49)

نموذج من النقوش الخزفية من صنع الفلسطينيين وقد تميّزوا بهذا النمط الفني الخاص بهم

(1) (1 صم، 5: 2 ـ 5)؛ (قض، 16: 23).
(2) (1 صم، 17: 7).
(3) انظر ما يلي عن بني إسرائيل وقوم موسى ويهود في الفصل الثالث «تاريخ التوراة».
(4) (قض، 1: 18).

حتى أنهم استولوا على تابوت العهد[1]، وخضع الإسرائيليون إلى حكمهم أربعين سنة[2] حتى ظهر شمشمون فحارب الفلسطينيين[3]. وفي عهد صموئيل (آخر عهد القضاة)، استرجع الموسويون المدن الساحلية التي استولى عليها الفلسطينيون من «عقرون» إلى «جتّ» واستخلص إسرائيل تخومها من يد الفلسطينيين[4]. ثم هاجم الموسويون بقيادة الملك شاؤول الفلسطينيين إلا أنهم اندحروا أمامهم وقتل الملك شاؤول وأولاده الثلاثة في المعركة[5] ثم تقلّد الحكم الملك داود خلفاً لشاؤول فاستطاع هذا الملك أن يخضع أكثر المدن الفلسطينية إلى حكمه[6]. ويبدو أن الفلسطينيين عادوا فاستقلوا في عهد الانقسام بدليل إشارة التوراة إلى محاصرة الموسويين لحصن جبثون «الذي يعود للفلسطينيين»[7]. ثم خضع الفلسطينيون إلى الآشوريين وصاروا يدفعون الجزية لهم في أكثر أدوار العهد الآشوري.

وأقدم ذكر للفلسطينيين ورد في النصوص المصرية والآشورية فقد سُمِّيت بلادهم باسم «بالاستو» (Palastu) أو «بيليستو» (Pilistù) وهو الاصطلاح اليوناني نفسه «فلستيا» (Philistia) الذي أصبح «بالستينا» (فلسطين). وكان المؤرّخ هيرودوتس أول من ذكر اسم فلسطين بقوله ذلك الجزء من سوريا المعروف بفلسطين[8]. وقد حدّد الباحثون موضع وطن الفلسطينيين هذا في «ليقية» في سواحل آسيا الصغرى مع احتمال اتصالهم بجزيرة كريت وقد كثر ذكر الفلسطينيين في التوراة لما كان لهم من دور تاريخي مهم في حياة الموسويين في أوائل أيامهم في فلسطين، حيث كان الفلسطينيون يزاحمونهم

---

(1) (1 صم، 5: 1)، انظر ما يلي عن تابوت العهد في الفصل الثالث.
(2) (قض، 13: 1، 10: 7).
(3) (قض، 15: 14 ـ 16).
(4) (1 صم، 7: 14).
(5) (1 صم، 31: 6).
(6) (2 صم، 8: 1).
(7) (1 صم، ص 31).
(8) P. Hittis «**Lebanon in History**», p. 91. وكتاب المؤرّخ هيرودوتس الأول، الفصل 105.

على أرض فلسطين وبقوا مصدر خطر دائم عليهم في جميع أدوارهم التالية. فقد سمتهم التوراة «كفتوريين» وذكرت أن وطنهم هو جزيرة «كفتور»، وهو مرتبط مع وطن الكريتيين الذين أهلكهم الرب مع بقية أهل ساحل البحر. كما أشارت إلى أن هؤلاء الكفتوريين أبادوا سكان القرى التي احتلوها في جنوب فلسطين وهم العويون كما فعل الآدوميون والعمونيون بالحوريين والرفائيين فأخرجوهم من ديارهم وسكنوا مكانهم[1].

وقد وصلت إلى أيدي علماء الآثار معلومات وافية عن الفلسطينيين في الكتابات والنقوش التي سجلها رعمسيس الثالث على جدران معبد «أمون» في مدينة «هابو» غربي مدينة «طيبة». وقد ملأت هذه الكتابات والنقوش آلافاً من الأقدام المربعة كلها منحوتة على الحجر وقد احتوت على سجل كامل لحملات الفراعنة وحروبهم. وقد شغلت تسجيلات رعمسيس الثالث حيّزاً كبيراً من هذه الكتابات والنقوش عن انتصاراته في البر والبحر على حشود



الصورة رقم (50)
محاربان فلسطينيان كما ورد تصويرهما في النقوش المصرية
من كتاب «قصة التوراة» ص295

(1) (إر، 47: 4)؛ (ما، 9: 7)؛ (تث 2: 22 ـ 23).

الفلسطينيين الذين غزوا مصر في عهده. ويستبان من هذه السجلات أنّ الفلسطينيين قد أثاروا الرعب والفزع في صفوف المصريين لقدرتهم وتمرّنهم على القتال في البحر والبر، فيصفهم رعمسيس بقوله: «لم يستطع أي قطر من الأقطار أن يصمد أمام قوّتهم القاهرة... فقد دمروا أرض الحثيين وكود(1) وكركميش وقبرص كلها دمّرت بضربة واحدة... سحقوا شعوبها ودمروا أراضيها ولم يتركوا لها أثراً حتى أصبحت وكأنها لم تكن... وحملوا على مصر، وكانوا قد بسطوا أيديهم على جميع البلاد إلى أبعد أطراف العالم وقلوبهم عالية عامرة بالثقة بأنفسهم... ولكن تخطيطنا سينجح..» ويصف رعمسيس بعد ذلك المعركتين اللتين خاضهما معهم إحداهما بريّة والثانية بحرية وانتصاراته عليهم مع تصاوير توضيحية لهذه المعارك ويستبان من هذه التصاوير أن الفلسطينيين يتميزون بلباس الرأس المليء بالريش وسحنتهم هي أقرب إلى الأوروبيين وبوجه خاص إلى اليونانيين وسلاحهم السيف العريض وكانوا يحملون دروعاً مدوّرة ورماحاً مسننة ومعهم عربات ذات عجلات مدوّرة من قطعة واحدة تجرّها الثيران المحدبة الضخمة(2)(3).

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الدكتور معروف الدواليبي نشر مقالاً في مجلة الأديب البيروتية في عددها لشهر أبريل/نيسان 1974 (ص2 ـ 3) ذهب فيه إلى أن البحاثة الآثاري الفرنسي هيليردي باراتون (Hilaire de Baruton) وضع كتاباً بعنوان «الأريتروسكيون في مغربنا وفي أصولنا الفرنسية» (Les Gtreuques en natre Occident et Nos Origines Francaises).

جاء فيه أن الإيتروسكيين هم فرع من الفينيقيين السوريين وأن اسم فلسطين هو أحد أسماء مدنهم وأن معنى الإيتروسك في اللغة المصرية القديمة هو (بحارة النيل) وأن معنى الفلسطينيين الجنود والمحاربون.

---

(1) ساحل قيليقية في شمال سوريا.

(2) انظر التصويرين 48 و50.

(3) انظر: «S.A. Cook, «Philistines», Enc. Brit., 1965, Vol. 17, pp. 737-738; W. Keller, «The Bible as History», pp. 169-182; Hitti, «Syria», pp. 180-185; G. Bonfante, «Who were the Philistines??, Am. Jour of Archaeology, Vol. 50 (1946), p. 251; R.A.S. Macalister, «The Philistines», 1913.»

وأضاف هذا الباحث قوله إن هؤلاء الفينيقيين السوريين يحملون أسماء كثيرة مختلفة، ثم أخذ يعدّد هذه الأسماء ومنها الفلسطينيون الذين كانوا يمتهنون الجندية. وينتهي الدكتور الدواليبي إلى أن الفلسطينيين هم الجبارون الذين ورد ذكرهم في التوراة وفي القرآن الكريم، أي العمالقة. ثم يؤكد أن الفلسطينيين عرب لا شك فيهم وهم كنعانيون فينيقيون سوريون وأنهم هم الجبارون الذين عناهم القرآن الكريم.

هذا مع العلم أن الخبراء قاطبة متّفقون على أن الفلسطينيين قوم مجهول الأصل من حيث العنصر واللغة جاؤوا من سواحل آسيا الصغرى التي تضمّ ليديا وإيجيا وشمال سوريا فغزوا الساحل المصري في أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد وتمكّن المصريون في عهد رعمسيس الثالث من صدّ غاراتهم فلجأوا إلى السواحل الجنوبية من فلسطين حيث أسّسوا مدنهم المعروفة. ويتّفق الخبراء على أن هؤلاء الفلسطينيين اندمجوا بالمجتمع الكنعاني بسرعة بحيث لم يمرّ قرن واحد على وجودهم في فلسطين حتى اندمجوا كلياً بالشعب الكنعاني واقتبسوا لغته وثقافته، والمهم هنا أن أقدم ذكر لاسم فلستا (Pulesati) وصل إلينا في النصوص المصرية التي ترجع إلى عهد رعمسيس الثالث في أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وقد وردت صور هؤلاء القوم على النقوش المصرية. أما الإيتروسكيون فالمعروف عنهم أنهم استقرّوا في القسم الشمالي الوسيط من إيطاليا ومعرفتنا عنهم وعن ثقافتهم ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد وما يليه حتى القرن الثالث بعد الميلاد. وقد اختلف الباحثون في تحديد أصل الإيتروسكيين فاعتبر هيرودوتس أنهم جاؤوا من ليديا أو من السواحل اليونانية في آسيا الوسطى ثم أصبحوا مواطنين في المنطقة التي استقرّوا فيها، أما لغتهم فمن أصل مجهول أيضاً لأنها لا تنتمي إلى اللغات الهندو أوروبية، وحتى لو فرضنا أن اسم فلسطين ورد بين أسماء مدنهم فليس في ذلك أي دليل على ارتباط هذا الاسم بالكنعانيين أو الفينيقيين أو العمالقة لأن التسمية متأخرة وإن دلّت على شيء فإنما تدلّ على أنها مأخوذة من التسمية القديمة الواردة في النصوص المصرية التي ترجع إلى ما قبل ستة قرون[1].

---

(1) **مجلة الأدب البيروتية**، عدد أبريل/ نيسان 1924، ج4، السنة 33، ص2 ـ 3.

الهجرات السامية العربية المتأخرة

أ ـ الأنباط:

ومن الموجات السامية المتأخرة التي نزحت من الجزيرة العربية موجة الأنباط أو النبط وهم قبائل بدوية من عرب شمال الجزيرة انتشرت منذ القرن السادس قبل الميلاد في البادية التي في شرقي المملكة الأردنية الحالية واحتلّت المناطق التي كانت تحت سيطرة الكنعانيين والآراميين، كما احتلّت أراضي الأدوميين في شبه جزيرة سيناء وجنوب فلسطين، ثم أنشأ هؤلاء دولة الأنباط العربية التي امتدّت مستوطناتها في أوج توسّعها من نهر الفرات في المنطقة المتاخمة لبلاد الشام وتنزل حتى تتصل بالبحر الأحمر، وبذلك تكون قد ضمّت دمشق وسهل البقاع والأقسام الجنوبية والشرقية من فلسطين وحوران وأدوم ومدين وساحل البحر الأحمر. وقد وصلت مساكن بعضهم إلى دلتا النيل والمناطق الخصبة المشرفة على البحر الأبيض المتوسط. ثم سرعان ما تحضّروا وأخذوا يفلحون الأرض ويزرعونها وأنشأوا المدن والقرى ومنها عاصمتهم (بترا) في جنوب غربي وادي موسى في شرقي الأردن التي بلغت أوج ازدهارها في القرن الرابع قبل الميلاد. وهكذا صار النبط يمارسون مختلف الحرف وفي طليعتها الاشتغال بالتجارة ونقل البضائع بين مختلف الأمكنة، فسيطروا على طرق القوافل التجارية في ذلك الزمن وأهمها طريق اليمن والعربية الجنوبية الموازي للبحر الأحمر ومنها كان يتفرّع الطريق إلى مصر والشام وغزّة والمدن الفينيقية على البحر الأبيض المتوسط. وهناك طريق تجاري كان يصل الخليج العربي بمدينة (بترا) لنقل بضائع الهند وما وراء الهند وحاصلات إيران والعربية الشرقية لتوزع منها في الشام ومصر وموانىء البحر الأبيض المتوسط. وقد تعلّموا استغلال مناجم النحاس والحديد القديمة في منطقة «أدوم» في صنع المواد المهمة في مختلف شؤون الحياة، ومنهم انتقلت المصنوعات النحاسية والحديدية المصنوعة في بلاد اليونان أو الشام أو في البتراء إلى اليمن. وكانوا يستخرجون (الإسفلت) من سواحل البحر الميت

الشرقية فيحملونه إلى مصر لبيعه إلى المصريين الذين كانوا يشترونه لاستعماله في التحنيط وقد درّ على النبط أرباحاً فوق أرباح وزاد في ثروتهم المادية فاكتنزوا الذهب والفضة بكميات كبيرة.

وقد اقتبس النبط من الآراميين ثقافتهم وكتبوا بكتابتهم وتأثروا بلغتهم حتى غلبت الآرامية عليهم. أما لهجتهم العربية الأصلية التي كانوا يتكلمون بها فلم يعثر على غير نصوص قليلة منها، وللهجتهم هذه أهمية خاصة لأن اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم متطورة من اللهجة النبطية العربية المتأخرة التي تُعتبر من اللهجات العربية الشمالية. وخط النبط قريب جداً من خط كتبة الوحي، وهو مأخوذ من القلم الآرامي القديم وقد سمّي بالقلم النبطي.

ومن الحروب التي خاضها الأنباط لتوسيع نفوذهم وسلطانهم في الشرق الاشتباك الذي وقع بينهم وبين الهيروديين في فلسطين في عهد الملك النبطي عبادة الأول (90 ق.م.) فانتصر الأخير فيه واستولى على جنوب شرقي سوريا بما فيها حوران وجبل الدروز. ومن أشهر ملوك الأنباط الحارث الثالث (87 ـ 62 ق.م.) وقد تغلّب هذا الأخير في حملة قام بها على فلسطين فتمكّن من محاصرة القدس واحتلال دمشق. وقد حاول الرومان بقيادة «بومبي» احتلال بلاد الأنباط ولكن الملك الحارث الثالث استطاع الصمود في وجههم والاحتفاظ بنفوذه في جنوب فلسطين وشرقي الأردن وجنوب شرقي سوريا وشمال الجزيرة. وقد ظلّت العلاقات طيبة بين الأنباط والرومان ما دامت بترا المحطة الرئيسة على طريق القوافل التجارية حتى تضاءلت أهميتها على أثر تحوّل طريق التجارة الخارجية المار بغربي الجزيرة إلى العراق مما أدّى إلى أن تفقد بترا أهميتها كمركز يعتمد على التجارة الغربية. وفي سنة 106م. أرسل الإمبراطور تراجان حملة ضد الأنباط احتلّت فيها بترا دون مقاومة، وبسقوط بترا بيد الرومان قضي على دولة الأنباط وجعلت بلادها جزءاً من المقاطعة العربية التي أنشأها الرومان في الطرف الجنوبي من سوريا للحماية من هجمات بدو الجزيرة العربية. وفي الأخبار

التي وصلتنا عن الملوك الأنباط أسماء أحد عشر ملكاً حكموا 275 سنة في الفترة الممتدة بين سنة 169 ق.م. وسنة 106 ب.م.[1].

ب ـ التدمريون:

وعلى أثر انهيار دولة الأنباط وسقوط بترا تحوّل طريق التجارة من غربي الجزيرة إلى العراق فبرزت في الميدان دولة عربية جديدة مركزها تدمر احتلّت محل بترا في السيطرة على طرق المواصلات التجارية في الشرق الأدنى. وتقع مدينة تدمر هذه في وسط الصحراء في منتصف الطريق بين دمشق والفرات على أرض منبسطة تحيط بها جبال تفصلها عن البادية على بُعد 150 ميلاً عن دمشق نحو الشمال الشرقي ونحو مائة ميل عن حمص.

إنّ معلوماتنا عن حضارة تدمر تبدأ من العصر الروماني حيث تتوفر وثائق تاريخية من ذلك العصر التي تزودنا بتفاصيل عن تاريخ المدينة وتطوّرها، إلا أن هناك ما يدلّ على أن تدمر كانت محطة تمرّ بها القوافل منذ القرن السادس قبل الميلاد حيث كانت على الطريق الرئيسي بين اليمن والحبشة من جهة وبين العراق والهند من الجهة الأخرى، ولكنها لم تنل مكانتها كمركز تجاري هام إلّا بعد سقوط بترا في أوائل القرن الثاني للميلاد فتحوّلت الطرق الرئيسية إليها وأخذت تدريجياً تحتلّ الصدارة في الأهمية كمركز تجاري رئيسي في الشرق الأدنى، وما لبث أن بلغت أوج ارتقائها وازدهارها في القرن الثالث للميلاد.

وكانت غالبية أهل تدمر تتألف من مجموعات من القبائل العربية وردت أسماؤها في المدوّنات الرومانية وهي أسماء سامية مع أنّ بعضها كان يحمل أسماء إغريقية. ومن الثابت أن الأسر التدمرية ذات النفوذ عرب، أصلهم من البادية من بقايا العمالقة كالنبطيين مارسوا الأعمال التجارية فغلبوا على أهل

---

(1) انظر: R.H. Simpson, «**Nabateans**», Enc. Brit., 1965, Vol. 15, pp. 1143 - 1144; P. Hitti, «**History of Syria**», pp. 375-388.

انظر أيضاً الدكتور جواد علي «**المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**»، البحث القيّم عن الأنباط، ج3، ص5 ـ 75.

المدن حتى صاروا ملوكاً. وبفضل التبادل التجاري مع مختلف الأمم انتشرت الآرامية والإغريقية في معظم وثائقها كما استعملت الرومانية في مكاتباتهم الرسمية في العصر الروماني على أنّ الآرامية أصبحت هي الغالب استعمالها في المخابرات الرسمية والتدوين كما اتخذها النبطيون من قبل. وقد اتّخذ التدمريون القلم المسمّى بالقلم التدمري وهو مشتقّ من القلم الآرامي.

وقد أطلق الإسكندر الكبير على تدمر اسم بالميرا Palmyra أي مدينة النخل فعرفت منذ ذلك الحين عند اليونان واللاتين بهذا الاسم. وأول ذكر ورد لتدمر في الكتابات القديمة يرجع إلى عهد الملك الآشوري تجلات بلاسر الأول (1115 ـ 1077 ق.م.) فسُمِّيت تدمر العموريين، كما ورد ذكرها في أخبار حملات نبوخذ نصر الثاني (605 ـ 562 ق.م.) على فلسطين ومصر. وأول كاتب كلاسيكي أشار إلى مدينة بالميرا هو بلينوس فذكر «أنها مدينة شهيرة ولها موقع ممتاز، أرضها خصبة، وبها ينابيع وعيون، تحيط بحدائقها الرمال، وقد عزلتها الطبيعة عن العالم ببادية واسعة الأطراف، بعيدة المسافات، وتقع بين إمبراطوريتين عظيمتين، إمبراطورية روما وإمبراطورية الفرثيين ولهذا استرعت أنظار الأولين»[1].

وقد ورد ذكر تدمر في التوراة[2] باعتبارها إحدى المدن التي بناها الملك سليمان[3]. غير أن أكثر الباحثين يرون أن المقصود بتدمر هنا «تامار» البلدة

---

(1) الدكتور جواد علي «**تاريخ العرب قبل الإسلام**»، ج3، ص74 ـ 75.

(2) ورد ذكر «تدمر» (بهذه الصيغة) مرتين في **الكتاب المقدس** (الترجمة العربية)، مرة في (1 مل، 9: 18). وأخرى في (2 أخ، 8: 4). أما في «**توراة أورشليم المقدسة**» («**La ste Bible de Jérusalem**») éd. Le Cert, Paris, 1961) باللغة الفرنسية فإنها لم ترد بصيغة Tadmor سوى مرة واحدة وذلك في (2 أخ، 9: 18). بينما وردت بصيغة Tamar في (1 مل، 9: 18).

(3) (1 مل، 9: 18)؛ (2 أخ، 8: 4).
غير أن الملك سليمان لم يبن (بمعنى البناء والإنشاء) أيّ من المدن المذكورة في المرجعين المذكورين أعلاه لكون تلك المدن قد سبقت في وجودها زمن الملك سليمان بمئات السنين وربما وصل بعضها إلى الألف سنة أو أكثر. فهذه هي التوراة ذاتها تشهد، على سبيل المثال، «أن فرعون ملك مصر صعد إلى كنعان وأخذ مدينة جازر وأحرقها بالنار =

الكنعانية القديمة التي تعود إلى زمن إبراهيم الخليل[1] والتي كانت تقع في مكان تحدّد التوراة موضعه إلى الجنوب الشرقي من أرض يهوذا والجنوب الغربي من البحر الميت[2] وليس مدينة «تدمر» الشهيرة بمدينة النخل (بالميرا)، كما دعاها الإسكندر المقدوني، ومن ثم بعاصمة أذينة والزبّاء[3]. وتعليل سبب الوقوع في هذا الخطأ يعود إلى أحد أمرين، فإما أن يكون كتبة سفري أخبار الأيام، أو ربما الكتبة الذين سبقوهم، يجهلون فعلاً مكان وقوع «تامار»، وهو أمر بعيد الاحتمال، فظنوها «تدمر» التي كانت آخذة في التألق والإشراق في ذلك الحين فكتبوا «تدمر» مكان «تامار»، وإما أن يكونوا قد ارتكبوا هذا الخطأ عن عمد، وهو الأرجح لا سيما إذا علمنا أن الاعتقاد السائد هو أن هذا التبديل قد تمّ في حوالي 300 أو 200 ق.م.، أي بعد النبي حزقيال الذي لا يدع مجالاً للشك أن «تامار» هي غير تدمر وأن «تدمر» ليس بإمكانها أن تكون تامار، جرياً على عادتهم في تزييف الحقائق وإدخال التشويش في ذهن القارىء بقصد تمجيد تاريخهم ورفع شأنهم. ومن هنا برزت أسطورة بناء الملك سليمان لمدينة «تدمر» البعيدة عن حدود مملكته التي لم تصل في يوم

= وقتل الكنعانيين سكان المدينة وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان» (1 مل، 9: 16). والصحيح هو أن أعماله فيها قد اقتصرت على الترميم والتجديد وعلى أكثر الاحتمالات إضافة أجزاء إليها. و«**توراة أورشليم المقدسة**»، المبينة في الحاشية السابقة، تؤيد ما ذهبنا إليه من حيث إنها تستخدم للدلالة على ما قام به سليمان في تلك المدن فعل reconstruire في (1 مل، 9: 18). وفعل Resfaurer في (2 أخ، 8: 4). وهذان الفعلان إنما يؤديان معنى الترميم والتجديد وليس البناء والإنشاء.

(1) (تك، 14: 7).

(2) (حز، 47: 19، 48: 28).

(3) في شرحه لمدينة تدمر، يعيّن **قاموس الكتاب المقدس** مكان ورودها في (2 أخ، 8: 4) ومن ثم يردها إلى (1 مل، 9: 18). معلقاً بأنها وردت في النصّ العبري بصيغة تامار في المتن وبصيغة تدمر في الهامش. أما «**توراة أورشليم المقدسة**» فإنها تورد Tamar في (1 مل، 9: 18). ولا تعلق على ذلك بينا توردها بصيغة Tadmor في (2 أخ، 8: 4) مع التعليق التالي بحاشيتها (C): «وهذا القول يخالف ما جاء في (1 مل، 9: 18) ولعل كاتب **سفر الأخبار** ظنها مدينة تدمر نفسها، التي هي بالمير».

من الأيام إلى دمشق بشهادة التوراة نفسها[1] فكيف تجاوزتها إلى تلك المنطقة الصحراوية النائية[2].

وما تزال بقايا تدمر قائمة وسط الصحراء تجتذب السياح إليها وأبرز ما في تلك الآثار الباقية التي تشهد بعظمة المدينة في الزمن الغابر:

1 ـ هيكل «الشمس» أو هيكل «بعل» الذي كان يعتبر إلهاً وطنياً في تدمر، وعبادته معروفة عند الساميين منذ أقدم العصور. والهيكل مربع الشكل طول ضلعه 740 قدماً، يحيط به سور يرتفع إلى سبعين قدماً وكان يضمّ في الأصل ما يزيد على أربعمائة عمود أسطواني منظومة في أروقة وتحمل تيجاناً مزخرفة بنقوش يونانية. وما يزال هناك نحو من مائة أسطوانة أو يزيد قائمة في أماكنها.

2 ـ الرواق الأعظم ويقع على مسافة مائتي متر من المعبد وكان يتألف في الأصل من شارع رئيسي في الوسط مع شارعين جانبيين يصل المدينة من طرفيها بطول قدره 3750 قدماً. وكان يضمّ نحواً من 750 أسطوانة ترتفع إلى حوالي 57 قدماً. وما يزال هناك نحو من 150 أسطوانة قائمة في أماكنها.

3 ـ مدافن المدينة وهي عربية الشكل وتتألف من أبراج مستطيلة يزيد عددها على مائة مدفن[3].

إنّ أقدم كتابة قرئت من تدمر حتى الآن هي تلك التي وجدت منقوشة على قبر مؤرخة بالتاريخ السلوقي الذي يقابله السنة السابعة قبل الميلاد كما قرىء على اثنين من أعمدة الرواق الأعظم اسم أذينة وزنوبيا وبجانبهما تاريخ سلوقي يقابله سنة 271 للميلاد وهو التاريخ نفسه الذي سقطت فيه دولة التدمريين. كما عُثر على كتابة يرجع تاريخها إلى سنة 137م وهي كتابة مطوّلة تدخل في مائة سطر وبجانبها الترجمة اليونانية[4].

---

(1) راجع (1 مل، 11: 23 ـ 25).
(2) الدكتور جواد علي «**تاريخ العرب قبل الإسلام**»، ج 3، ص 73 ـ 74.
(3) جرجي زيدان، «**العرب قبل الإسلام**»، ج1، ص 89 ـ 91.
(4) المرجع السابق، ص 92.

ويحدثنا تاريخ الرومان عن استقلال تدمر الذاتي في القرن الثاني الميلادي، فيشير في هذا الصدد إلى أنه كان لها مجلس شيوخ من أهلها مختص بسنّ القوانين وله رئيس وأمين، كما كان لها سلطة تنفيذية بيد شيخين يعاونهما مجلس يتألف من عشرة أعضاء، وسلطة قضائية بيد وكلاء وموظفين معينين[1].

وقد برزت في حياة تدمر السياسية أسرة عربية حكمت فيها في القرن الثالث الميلادي اشتهر من رجالها أذينة بن حيران بن وهب اللات بن نصر الذي سعى إلى خلع نير الروم فاكتشف الروم عزمه وقتلوه في أواسط القرن الثالث الميلادي، ثمَّ خلفه في الحكم ابنه وكان يسمّى أذينة أيضاً انتصر للرومان في حربهم مع الفرس وأبلى فيها بلاءً حسناً فاسترجع البلاد التي كان الفرس قد استولوا عليها من الجزيرة وأخضع نصيبين وحاصر المدائن مرتين حتى أصبح سيد الشرق الروماني ولقب بملك الملوك، ففرض سلطته على سوريا وسائر آسيا الرومانية، وفي سنة 264م تسمّى حاكماً عاماً عليها. ومع أنه كان في الظاهر تحت سيطرة الروم إلا أنّ رجاله كانوا يعدّونه صاحب السيادة المطلقة على آسيا الرومانية من أرمينيا إلى جزيرة العرب. وقد اشتهرت امرأته المسماة زنوبيا التي كانت تنوب عن زوجها في الحكم كلما خرج لحرب أو غاب عن تدمر، وكانت تقوم بهذه المهمة بكل جدارة حتى نالت من إمبراطور الرومان أكبر ألقاب الشرف عندهم. وزنوبيا هذه تدمرية عربية الأصل كانت تحسن الآرامية والقبطية وبعض اللاتينية واليونانية ولها اطلاع واسع على تاريخ الشرق والغرب. وكانت تتميز بالشجاعة والدهاء والهيبة، فكانت تجالس قوادها وكبار رجالها وتباحثهم في شؤون الدولة وتقابل الوفود الأجنبية، وكانت تمتطي جوادها مرتدية لباس الحرب وعلى رأسها الخوذة الرومانية مرصّعة بالدر والجوهر. ولما مات زوجها أذينة سنة 267م خلفه ابنها الأصغر وهب اللات وباعتبارها الوصية عليه فقد أصبحت صاحبة الرأي والنفوذ الأكبر، وفي سنة 271م أعلنت زنوبيا استقلال تدمر عن الرومان وتولّت قيادة

---

(1) د. سيد نوفل «**زنوبيا ملكة تدمر**»، الهلال، أغسطس/آب 1973، ص 3.

الجيش وتقويته بتطعيمه برجال أشدّاء يعود عليهم في المعارك حتى تمكّنت من فرض سلطانها على مصر والشام والعراق وآسيا الصغرى إلى أنقرة الأمر الذي أثار غضب البيزنطيين فجاء أورليان بجيوشه الجرّارة وهدفه إخضاع تدمر لنفوذه، وقد التقت جنود زنوبيا بجنود أورليان في أنطاكيا وحمص فكان الفوز في المعركة إلى جانب أورليان مما اضطرّ زنوبيا إلى التراجع مغلوبة فتمكّن أورليان أخيراً من ضرب الحصار حول تدمر وانتهى باستسلام التدمريين إلى الروم، فلم تجد زنوبيا أمامها غير الفرار إلى الفرس إلا أن الروم تعقّبوا آثارها



الصورة رقم (51)
«الزباء أو زنوبيا بنت زباي»، الملكة الجليلة التقية
ملكة تدمر (266 ـ 272م)
(على طاس من الذهب الخالص ـ المتحف الوطني بدمشق)

حتى قبضوا عليها، كان ذلك سنة 273م، ثمّ تحرك التدمريون بعد قليل ينشدون التحرر من حكم الرومان ولكنهم باؤوا بالفشل فأذلّهم أورليان وهدم أسوار مدينتهم وقتل معظم سكانها. وبهذا المصير انتهت حياة الدولة التدمرية العربية كما انتهى إليه مصير دولة الأنباط على يد الرومان أيضاً من قبل.

ج ـ دولة الغساسنة في سوريا:

لقد أجمع الإخباريون والنسّابون العرب على عزو سبب هجرة القبائل العربية من جنوب الجزيرة في الأزمنة المتأخرة إلى أنحاء متفرقة من جزيرة العرب إلى سيل العرم الذي سبّب تخريبات في سد مأرب في اليمن[1]. ولما كان السدّ المذكور قد تعرّض إلى عدّة تصدّعات أعقبتها ترميمات فقد اختلف المؤرّخون في تحديد تاريخ هجرة هذه القبائل وعدوا التصدّع انهياراً مما وسع مجال الاختلاف في تعيين تاريخ هذه الهجرات. ومما لا شكّ فيه أن هجرات هذه القبائل المتأخرة كانت تدريجية وعلى موجات متواصلة، لذلك نستطيع أن نحدّد بدايتها بحوالي أواخر الألف الأولى قبل الميلاد، فكان منها هجرة الغساسنة إلى سوريا والمناذرة إلى العراق[2]. أما الغساسنة، فيزعم المؤرّخون العرب أنهم من القبائل العربية، أصلها من الأزد رحلت من اليمن إلى تهامة في مكان عين ماء يقال له «غسان» فنسبوا إليه، وبعد أن أقاموا حيناً هناك نزلوا مشارف الشام وتغلّبوا على قبائل الضجاعمة التي كانت تقيم فيها وأنشأوا لأنفسهم دولة تحت رعاية الروم عرفت بدولة الغساسنة، فتحضّروا بمرور الزمن واعتنقوا النصرانية دين البيزنطيين واتخذوا لهم عاصمة مدينة بصرى في حوران وهي التي تُعرف أنقاضها الآن «بأسكي شام» وفيها كان دير بحيراء الشهير، ولما كان الغساسنة في سوريا خاضعين لسلطة البيزنطيين والمناذرة في العراق خاضعين للفرس، والمنافسة على السلطة بين البيزنطيين والفرس على أشدّها فقد دارت عدّة حروب بين الغساسنة والمناذرة كما اضطّر كل من الطرفين أن

(1) انظر «ما يلي عن سدّ مأرب في الفصل الثاني».

(2) انظر «ما يلي عن دولة المناذرة».

يشارك في الحرب مع الجهة التي يخضع لها. وقد اتّخذ الغساسنة الآرامية لغة لهم من غير أن يهجروا لسانهم العربي.

وأقدم ما لدينا من معلومات عن ملوك غسان مستقاة من كتاب حمزة الأصفهاني ففي زعمه أن ملوك غسان 32 ملكاً حكموا نحو ستمائة سنة، أي من أوائل القرن الأول للميلاد إلى ظهور الإسلام، كان أولهم جفنة بن عمرو مزيقيا ومنه سمّي الغساسنة بآل جفنة وقيل إنما سُمِّي مزيقيا لأن الأزد تمزّقت على عهده عند هربهم من سيل العرم. وقد امتدّ نفوذ الغساسنة ليشمل سلطانهم حوران والبلقاء وسائر مشارف الشام وتدمر وسائر عرب سوريا وفلسطين ولبنان، وقد أنشأوا المدن والقرى وبنوا القناطر وأصلحوا الصهاريج ومنها صهاريج الرصافة (رصافة الشام)، ومما نُسب إليهم من القصور صرح الغدير والقصر الأبيض والقلعة الزرقاء وقصر المشتى وغيرها من القصور وكثير من الأديرة[1].

د ـ مملكة المناذرة في العراق:

ومن القبائل المتأخرة التي نزحت من جزيرة العرب واستوطنت أطراف الفرات الغربية، التنوخيون واللخميون، فقد استقرّ التنوخيون على حدود العراق الغربية منذ العهد الفرثي (126 ق.م. ـ 227 ب.م.) وأسّسوا لهم كياناً ذاتياً في أواخر هذا العهد حيث استغلوا ضعف الدولة الفرثية في أواخر حكمها فتمتعوا باستقلال ذاتي واستغلوا نفوذهم لحماية القوافل المارة بوادي الفرات لقاء أجور وأنشأوا لهم علاقات وثيقة مع تدمر، ويذكر المؤرّخون العرب من ملوكهم مالك بن فهم وعمرو بن فهم وجذيمة الأبرش. وتنوخ فرع كبير من قضاعة، ذكر النسابون أن تنوخاً مزيج من قضاعة والأزد[2]، ويروي بعض المؤرّخين العرب أن هذه القبائل نزحت من مواطنها بعد انهيار سدّ مأرب في اليمن، ولعل المقصود هنا أحد تصدّعات السد التي رممت في

---

(1) انظر: الدكتور جواد علي «**تاريخ العرب قبل الإسلام**» ج4، ص118 ـ 160، الدكتور صالح أحمد العلي، «**محاضرات...**»، ص56 ـ 62، الدكاترة حتي وجرجي وجبور، «**تاريخ العرب**»، ص102 ـ 107.

(2) زيدان، «**العرب قبل الإسلام**»، ص 173.

أزمان مختلفة لأن الدلائل تشير إلى أن السد بقي قائماً إلى منتصف القرن السادس الميلادي[1]. ثم خلّف التنوخيين اللخميون في العهد الساساني (224 ـ 637 ب.م.) فأسّسوا إمارة بزعامة عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة الأبرش آخر الملوك التنوخيين (268 ـ 288 ب.م.)، لعبت دوراً سياسياً مهماً إذ استغلّ ملوكها موقع منطقتهم الجغرافي الذي يؤلف حاجزاً بين الدولتين العظيمتين المتنافستين على السلطة (دولة القياصرة في الغرب ودولة الأكاسرة في الشرق) في توسيع نفوذهم، فحكم فيهم عدد من الملوك الذين اشتهروا في تلك الحقبة من تاريخ الشرق الأدنى وصاروا يعرفون بالمناذرة نسبة إلى أهم ملوكهم الذين كانوا يتّسمون بالمنذر الأول والثاني والثالث الخ... وقد ذكر المؤرّخون العرب من ملوك اللخميين المناذرة عشرين ملكاً امتدّ حكمهم أكثر من 350 سنة بين سنة 268 و631م.

وقد اتّخذ اللخميون والمناذرة الحيرة عاصمة لهم وأسّسوا حضارة عربية خاصة بهم فيها. وتقع الحيرة على ثلاثة أميال جنوبي الكوفة في منطقة سهلة قريبة من الصحراء ويجري بالقرب منها نهر الفرات الذي كان يتفرّع منه عدّة فروع منها الفرع الذي كان يمرّ بالحيرة وكان يُعرف بنهر الحيرة. وكانت هذه الفروع والترع تصبّ في بحر النجف الذي كانت تصل إليه السفن البحرية على ما ذكره المسعودي. والأرجح أن اسم الحيرة مشتقّ من الكلمة الآرامية (حرتا) ومعناها المعسكر والمقام. وكانت للحيرة أهمية خاصة بسبب موقعها على أطراف العراق واتصالها بعشائر الجزيرة العربية وأراضيها فضلاً عن موقعها على طريق القوافل التي تنقل البضائع التجارية كانت في الوقت نفسه تحدّها من الداخل بحيرة النجف وقد جفّت الآن. وقد لعبت الحيرة دوراً مهماً في تاريخ الإسلام بخاصة موقفها الودي من الفتح الإسلامي[2]. وكان أغلب سكان الحيرة من العرب البدو،

(1) انظر ما يلي عن سدّ مأرب في الفصل الثاني.

(2) انظر المراجع التالية عن الحيرة:

يوسف رزق الله غنيمة، «**الحيرة ـ المدينة والمملكة العربية**» بغداد، 1936، الدكتور صالح أحمد العلي، «منطقة الحيرة ـ دراسة طوبوغرافية مستندة على المصادر الأدبية»، **مجلة كلية الآداب**، نيسان، 1962، ص17 ـ 44؛ «**دائرة المعارف الإسلامية**»، ج8، ص161 ـ 162.

وكانت هناك جاليات من الفرس والنبط، وكان النبط يمتهنون الزراعة والفلاحة. كما كانت توجد جالية يهودية في الحيرة تمثّل أولئك اليهود الذين استقروا فيها بعد السبي البابلي أن يهود الحيرة كتبوا التلمود البابلي فيها[1]، في حين أن التلمود البابلي وضع في بابل كما هو معلوم.

كانت الحيرة مركزاً هاماً من مراكز انتشار الديانة المسيحية إذ يدّعي الطبري أن امرأ القيس الأول (288 ـ 328م) كان أول من تنصّر من ملوك الحيرة. وقد استقرّ نفوذ المسيحية بشكل واضح في عهد المنذر بن ماء السماء (513 ـ 562م.) الذي تزوج هند وهي نصرانية. ثم اعتنق النعمان بن المنذر (583 ـ 506م) المسيحية وترك عبادة الأصنام وأذن للنصارى بممارسة شعائرهم الدينية بحرية. والدليل على انتشار المسيحية في المنطقة كثرة الأديرة التي أُنشئت على أطراف الحيرة، إذ أورد الإخباريون ذكر أكثر من عشرين ديراً فيها وقد درس رجال الدين فيها وترجموا العديد من الكتب الفلسفية والدينية إلى اللغة السريانية التي كانت شائعة عندهم. وقد تفوّق مذهب النساطرة على مذهب اليعاقبة فانتشر مذهبهم في منطقة الحيرة وكانت لهم أسقفية في الحيرة تابعة لبطريركية طيسفون[2].

وقد اشتهر من بين أبنية المناذرة قصر الخورنق المشهور الذي بناه الأمير اللخمي النعمان لمولاه الساساني بعد عام 418م. وقد أشاد بذكره شعراء العرب الجاهليون في كثير من أشعارهم وعدوّه هو وحصن السدير المجاور له من عجائب الدنيا الثلاثين. واشتهر الخورنق أيضاً لأنه مضرب المثل السائر «جزاء سنمار» وهو المهندس الرومي الذي شيّده للنعمان وأتمّه له. وقد وسع الخلفاء العباسيون الأوائل هذا القصر وانتفعوا به، وقد كان خرباً في القرن الخامس عشر الميلادي[3].

---

(1) الدكتور صالح أحمد العلي، «**محاضرات في تاريخ العرب**»، ص 75.

(2) راجع: الدكتور صالح أحمد العلي، «**محاضرات في تاريخ العرب**»، ص64 ـ 82؛ الدكتور جواد علي، «**تاريخ العرب قبل الإسلام**»، ج4، ص5 ـ 117؛ جرجي زيدان، «**العرب قبل الإسلام**»، ج1، ص197 ـ 214.

(3) «**دائرة المعارف الإسلامية**»، ج 9، ص 35 ـ 36.

هـ ـ مملكة كندة:

تنسب هذه الدولة العربية التي يرجع تأسيسها إلى القرن الخامس الميلادي إلى قبيلة كندة، وهي قبيلة قحطانية في عرف النسابين، وقد عرفت بـ «كندة الملوك». وكانت منازل هذه القبيلة في الأصل في جنوب الجزيرة العربية حدّدت إقامتها في المنطقة الواقعة إلى غربي حضرموت، إذ أطلق الهمداني عليها «بلد كندة من أرض حضرموت» ويروي الإخباريون أن الكنديين نزحوا إلى أواسط الجزيرة حيث أسّسوا دولة عربية فرضت حكمها في أوج عظمتها على القبائل الساكنة في الحجاز وشمال الجزيرة العربية والبحرين، كما امتدّ نفوذها على قبائل بعض أجزاء اليمامة، بل امتدّ اتّساعها حتى شمل دولة المناذرة في الحيرة وتبوأ أحد ملوكها عرش تلك الدولة. ويرجّح الباحثون أن أول هجرة الكنديين إلى منطقة نجد كان في حوالي منتصف القرن الثالث الميلادي، أما الموضع الذي أسّست فيه مملكة كندة فقد كان في الطرف الغربي المرتفع من هضبة نجد على حدود الحجاز الشرقية في منطقة «ضربة»، وهي منطقة تكثر فيها الأودية والمياه والواحات الخصبة كما تكثر فيها مناجم الذهب[1].

وقد اشتهر بين ملوك كندة الملك حجر بن عمرو ويلقّب بآكل المرار، وقد حدّد الباحثون زمن حكمه في حوالي أواخر القرن الخامس الميلادي. قام هذا الملك بعدّة حملات ضد القبائل العربية في مختلف أنحاء الجزيرة العربية محاولاً توحيدها تحت إمرته وسلطته. وقد أجمع الباحثون أن الملك حجر كان أول ملوك كندة ومؤسّسها، مع أن ياقوت يذكر في معجمه عدّة ملوك سبقوا حجراً بحوالي قرن أو نصف القرن من الزمن كما اقتصر اليعقوبي على ذكر أسماء عدد من الملوك الأول مع ذكر سني حكمهم من غير الإشارة إلى تاريخ حكمهم.

وقد أعقب حجراً ابنه «عمرو» الذي سُمّي بالمقصور، وقد حافظ هذا

---

(1) انظر مادة (ضربة) في **معجم ياقوت ومعجم ما استعجم** للبكري.

الملك على علاقته الطيبة مع الحميريين في اليمن، كما كان مرتبطاً مع المناذرة بأواصر القربى، إلا أن علاقته مع الغساسنة كانت على خلاف ذلك، فقد اشتبك مع الحارث بن أبي شمر في حروب قتل فيها. ثم تولّى الحكم الحارث بن عمرو، وهو أقوى ملوك كندة وأكثرهم طموحاً، فاستغلّ تدهور العلاقات بين المناذرة والساسانيين واستولى على مملكة المناذرة، ونصّب نفسه ملكاً عليها بتأييد من قباذ ملك الفرس الذي أبعد المنذر بن ماء السماء عن الحكم في الحيرة. وقباذ هذا هو قباذ الأول الذي حكم ثلاثاً وأربعين سنة فيما بين سنة 488 و531 ميلادي. وكان للحارث أربعة أولاد كان قد عيّنهم في إبّان حكمه ملوكاً على قبائل العرب الخاضعة لحكمه واحتفظ لنفسه بحكم كندة. وقد عيَّن حجراً أكبر أولاده على أسد وكنانة وغطفان وهم يقطنون في الشمال الغربي من نجد عند وادي الرمة بين جبل شمّر وخيبر. وحجر هذا هو والد الشاعر الجاهلي المعروف امرىء القيس.

ولم يدم حكم الحارث طويلاً في الحيرة، فبعد وفاة قباذ واعتلاء كسرى أنو شروان عرش فارس أعيد المنذر بن ماء السماء إلى الحكم في الحيرة ففرّ الحارث وأعوانه. وقد اختلفت الروايات حول مصير الحارث، فبعضهم يدّعي أنه قتل على يد المنذر بن ماء السماء في حين أن البعض الآخر ينفي ذلك ويذهب إلى أنه مات موتاً طبيعياً. وبموت الحارث انحلّت وحدة الحكم في دولة كندة ولم يبق من ملوكها غير معدي كرب بن الحارث على قيس عيلان وأمراء صغار ذوي سيادة على بعض القبائل حتى ظهر الإسلام فذهبت جميعها. أما إخوة معدي كرب الثلاثة ومن ضمنهم حجر فقد قتلوا جميعهم في المعارك التي دارت رحاها بعد وفاة أبيهم الحارث.

وكان الكنديون يعبدون الأصنام وقد انتشرت بينهم المسيحية أكثر من انتشار اليهودية وذلك بتأثير الغساسنة والمناذرة والأحباش حتى كان أول من تنصّر من ملوك كندة هو معدي كرب الملقّب بذي التاج الأوضح.

وقد خلفت قبيلة كندة عدداً من الشعراء والأدباء إذ كانت موئل الشعراء العرب في الجاهلية فنبغ فيهم عدد من الشعراء وفي مقدمتهم الشاعر المشهور

امرؤ القيس ابن الملك حجر الذي كان له الفضل في حفظ أخبار هذه الأسرة من كندة. ومما يذكر في هذا الصدد أن الفيلسوف الشهير يعقوب بن إسحاق الكندي يرجع نسبه إلى هذه القبيلة[1].

و ـ إمارة الحضر العربية:

إن اسم إمارة الحضر العربية مشتق من اسم مدينة الحضر الشهيرة، عاصمة الإمارة، الواقعة اليوم في البرية قرب وادي الثرثار على الجانب الغربي منه على بُعد 140 كيلومتراً من جنوب غربي الموصل[2]. يحدّها نهر دجلة من الشرق والفرات من الغرب وجبال سنجار من الشمال ومشارف المدائن من الجنوب، إلا أن نفوذها امتدّ في الشمال إلى ما وراء سنجار فوصل إلى الخابور ونصيبين. وكانت تؤلف هذه الإمارة إحدى الدويلات العديدة التي كانت تابعة للدولة الفرثية الفارسية (250 ق.م. ـ 226 ب.م.) كانت بلاد مملكة الحضر تُعرف منذ القديم باسم «عربايا» أي بلاد العرب حيث ورد ذكرها بهذا الاسم في كتابة بهستون التي تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد وذلك من بين الأقاليم التابعة لإمبراطورية الملك الأخميني داما الكبير (522 ـ 486 ق.م.) مما يدلّ على قدم حكم العرب في منطقة الحضر.

وقد بلغت إمارة الحضر العربية أوج مجدها وتوسع نفوذها في القرون الثلاثة الأولى للميلاد وبخاصة في دور ملوكها الذي يبدأ في منتصف القرن الثاني للميلاد وينتهي بسقوط الحضر في عام 240 أو 241 للميلاد بيد الملك الساساني شابور الأول بعد أن حاصرها مدة من الزمن. وفي دور الملكية هذا تمتّعت مملكة الحضر بقسط أوفر من الاستقلال حتى توسّع نفوذها إلى ما بعد الخابور شمالاً.

---

(1) الدكتور جواد علي، «**تاريخ العرب قبل الإسلام**»، ج3، ص215 ـ 273؛ الدكتور فيليب حتي ورفاقه، «**المطول في تاريخ العرب**»، ج1، ص114 ـ 116؛ جرجي زيدان «**العرب قبل الإسلام**»، ج1، ص214 ـ 218؛ الدكتور صالح أحمد العلي، «**محاضرات في تاريخ العرب**»، ص155 ـ 165.

(2) انظر مدينة الحضر في معجم الأعلام والأقوام والبلدان (الملحق الرابع).

وكان أول ملك من ملوك الحضر يدعى «ولجش الملك» (155 ـ 165م) ورد اسمه على تمثال من تماثيل الحضر، وقد اتّخذ له لقب «ملك العرب» أي ملك بادية شمالي العراق، وتذكر المصادر الرومانية اسم «برسميا» ملكاً على الحضر وهو محرّف عن اسم «عبد سميا» الذي ورد ذكره في الكتابات المكتشفة في الحضر ملكاً حاكماً في الحضر في عام 192م. وكان الملك سنطروق الثاني الذي اعتلى العرش بعد أبيه «عبد سميا» من أشهر ملوك الحضر، دام حكمه حوالي أربعين سنة (200 ـ 250م) وامتدّت حدود مملكته بعيداً إلى الخابور وعبر الفرات مما دفعه إلى أن يلقّب نفسه «المظفر ملك البلاد العربية». وقد استغلّ سنطروق النزاع الذي كان محتدماً بين أمراء الفرثيين على عرش الدولة الفرثية لزيادة نفوذه وتمتّعه بالاستقلال الكامل في تصرفاته واتصالاته.

وبعد انقراض مملكة الفرثيين وقيام السلالة الساسانية تفيد المصادر العربية أن قبيلة من قبائل بني قضاعة أغاروا على أرض جزيرة ما بين النهرين وكان لها ملك يقال له الضيزن بن جلهمة، وكان فيما زعموا ملك الجزيرة كلها إلى الشام، ففتح مدينة الحضر واستولى عليها من حاكمها الجرمقاني المدعو «الساطرون» (سنطروق في السريانية) فأقام فيها مدة ملكاً وأغار على بلاد الفرس والسواد بعد أن انضمّ إلى الرومان الذين استولوا على بيديا، فهاجم الفرس وتغلّب عليهم في منطقة شهرزور كما تذكر المصادر العربية، وكان أن تمكّن الملك الضيزن من أسر «ماه» أخت سابور الجنور وكان ذلك في حوالي سنة 232م. وعلى أثر ذلك حرّر سابور الجنور حملة على الحضر وأغار عليها لينتقم من الضيزن فحاصرها لسنة كاملة من 12 نيسان 240 إلى 1 نيسان من عام 241م على ما تذكر وثيقة اكتشفت حديثاً في مصر. واضطرّت أخيراً إلى الاستسلام بعد أن فقدت قدرتها على الصمود فدخلها منتصراً. وتدلّ التنقيبات أن أبنيتها تركت قائمة وتماثيلها سالمة في أماكنها من غير أن يصيبها تخريب أو تشويه متعمد.

إن سكان الحضر كانوا عرباً ولكنهم تأثروا بالمحيط الذي عاشوا فيه

فأخذوا بالثقافة الآرامية واللغة الآرامية التي كانت لغة التدوين والمراسلة عند معظم شعوب الشرق على اختلاف ألسنتهم وتباين لغاتهم، إذ كان للآراميين ثقافة عالية وحضارة راقية ازدهرت ونمت في خلال اشتغالهم بالتجارة واحتكاكهم بأقوام أخرى، وقد انتشرت مع التجارة الآرامية اللغة الآرامية انتشاراً واسعاً. ولهجة الحضر الآرامية فرع من المجموعة الشرقية للهجات الآرامية التي تشمل أيضاً اللهجة السريانية الرهاوية ولغة التلمود البابلي واللهجة المالندية. والآراميون والعرب أشقّاء خرجوا من بطن الجزيرة العربية فتراثهم ولغتهم ومعتقدهم مستمد من أصول واحدة.

أما ديانة أهل الحضر فهي ديانة القبائل العربية التي قوامها الظواهر الطبيعية مع الميل إلى التبسيط والتوحيد في المعتقد والعبادة. وقد كان للديانة الحضرية طابع خاص يميّزها عن ديانات الشعوب القديمة كالسومرية والبابلية والآشورية والإغريقية والرومانية والفارسية التي نمت خارج العراق مع أنها اقتبست منها الشيء غير القليل بسلسلة من عمليات تلقائية اشترك بها كل من الآراميين والأنباط والعرب بعقلية واحدة منشؤها الجزيرة العربية. فكانت الشمس من أشهر الآلهة لدى الشعوب السامية عموماً، وقد خصّ الحضريون الشمس بالأولية من عبادتهم وهي عندهم مذكر باسم «سمس» أو «شمسا» ويعتبرونه كبير الآلهة، الإله العظيم باعث الحياة وخالق الكائنات. ففي الحضر المعبد الكبير مخصص لعبادة الإله «شمس»، كبير الآلهة، يقابل «زيوس» لدى الإغريق و«جوبيتر» لدى الرومان و«أهورا مرزا» عند الفرس. «فكان هذا المعبد مركز النشاط الديني والاجتماعي ليس للحضريين وحدهم بل لجميع سكان جزيرة ما بين النهرين، يحجّ إليه الناس من مسافات بعيدة ويقدمون فيه نذورهم ويدفنون بجواره موتاهم. وفي صحنه الواسع كانت تُعقد الاجتماعات وتقام الولائم والاحتفالات والأعياد». وقد جاءت عبادة «مدينة شمس» على المسكوكات الحضرية توثيقاً للصلة بين الحضر وبين القبائل العربية المتجوّلة في بادية جزيرة ما بين النهرين أو الساكنة في أريافها والتي كان معبودها الأكبر «شمس».

ففي الفقرة التالية المقتبسة من ترتيلة بابلية للإله «شمس» ما يدلّ على المكانة السامية لهذا الإله عبادة الساميين عموماً:

«يا شمس أنت ملك السماء، والأرض وسيد الكائنات العليا والسفلى.. يا شمس رهن يديك بعث الحياة في الموتى وإطلاق سراح الأسرى.. أنت القاضي المستقيم الذي يدبّر شؤون البشرية، السليل الأمجد الابن الأعظم والأنبل، نور الأرض، صانع كل ما في السماء وما في الأرض».

وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على أن فكرة التوحيد التي تنطوي على وجود الخالق لكل ما في السماء وما في الأرض كانت معروفة عند الساميين العرب منذ القديم وكان الميل إلى تقبّلها في صلب معتقدهم وعبادتهم، وإن فكرة التوحيد عن طريق عبادة الشمس وظهورها على القرص المشع على العالم أجمع التي نادى بها أخناتون في القرن الرابع عشر قبل الميلاد مأخوذة من الساميين العرب.

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن الحضريين العرب كانوا مثل المصريين يصوّرون إله الشمس على هيئة الصقر مما يؤكد أن المصريين أخذوا هذا الرمز لإله الشمس من الساميين العرب. فقد كان «للنسر منزلة سامية في الحضر فهو يمثّل إله الشمس ويرمز إلى سيادته وهيمنته، والنسر يحلق عالياً في كبد السماء كما تفعل الشمس في مدارها فيراقب من علوّ ما يحدث على سطح الأرض. وقد عنى الحضريون كثيراً بنحت تماثيله وبتزيينها بقلائد وميداليات للتيمن والترجي. ووضعوا تماثيل «بوابات المدينة وفي مداخل المعابد وداخلها».

ومن آلهة الحضريين المشهورة كثيراً الإله «نرجول» أو «نرجل» فقد عُثر على عدد كبير من أصنامه في كل معابد الحضر. والظاهر أن الحضريين اقتبسوا عبادته من الآشوريين الذين كان يُعرف لديهم باسم نرجال وهو عندهم إله الحرب وحارس العالم تحت الأرض حيث مصير الأرواح. ولكن الحضريين صوّروه في منحوتاتهم على غير الشكل الذي صوّره له الآشوريون فصوّروه بالشكل الذي كان يصور فيه هرقل عند اليونان. وكان اسم الإلهة

اللات يتردّد في الكتابات الحضرية أيضاً، إذ وجدت بضعة تماثيل ومنحوتات تمثّلها بالهيئة التي كانت تصور فيها الإلهة أثينا عند اليونان(1).

ز ـ مملكة الرها العربية:

وكانت في القسم الشمالي من منطقة ما بين النهرين في المنطقة العليا من الجزيرة مملكة عربية تُعرف باسم مملكة الرها وكانت تُسمّى عاصمتها بالرها أيضاً. دامت هذه المملكة ثلاثة قرون ونصف بين سنة 132 قبل الميلاد وسنة 216 بعد الميلاد حين أغار عليها «كراكلا» الروماني فقضى عليها وضمّها إلى روما.

كانت بلدة الرها قبل ذلك بيد السلوقيين مصّروها سنة 304 ق.م. فسموها «إيديسا» على اسم إحدى مدن تراقيا ودعاها اليونانيون «كاليرهو» أي الحسنة المياه، ويراد بكاليرهو الموضع المعروف اليوم باسم بركة إبراهيم (نبع خليل الرحمٰن)، وصارت تعرف عند الآراميين بأورهاي وعُرِّبت بالرها واسمها المعروف اليوم «أورفة»، والرها من المدن العريقة حازت في بعض الأدوار التاريخية على أهمية عظيمة ولا سيما في مدة مملكتها الصغيرة. وقد كان للرها شأن خطير في ازدهار وانتشار العرب السرياني بما في ذلك النصرانية وتاريخ النسطورية في أواسط القرن الرابع وفي القرن الخامس للميلاد. فقد ورد في تاريخ يوسبيوس ما يشير إلى أن أحد ملوك الرها المدعو أبجر الخامس (4 ق.م. ـ 50 ب.م.) لما سمع عن شهرة السيد المسيح كتب إليه طالباً منه أن يأتي إلى الرها ليشفيه من مرض اعتراه، ومما قاله في رسالته له: لقد بلغني أن اليهود يضايقونك ويضمرون لك الشر فبلدي بلد صغير ولكنه بلد جميل وسنيّ يسعنا كلينا، فأجابه السيد المسيح مباركاً

---

(1) انظر: سليمان صايغ، «**تاريخ الموصل**»، ج 1، ص 30؛ الدكتور جواد علي، «**تاريخ العرب قبل الإسلام**»، ج3، ص459؛ «**المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**»، ج2، ص609، 619؛ جرجي زيدان، «**العرب قبل الإسلام**»، ج1، ص175؛ فؤاد سفر، «**الحضر**»، سومر 8 (1952) 1 أ 37، 52؛ فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى، «**الحضر مدينة الشمس**»، بغداد 1972.

إياه ووعده أنه بعد قيامته يرسل إليه أحد تلامذته. والتقليد الشائع أن مار إده أحد التلامذة السبعين أتى بعد وفاة المسيح إلى الرها وشفاه من مرضه وعمّده، وبذلك كان أبجر هذا أول المتنصّرين من ملوك الرها. وقد عُثر على أثر من لباس الرأس يعود إلى الملك أبجر الثامن (164 ـ 166م) منقوشاً عليه الصليب مما يدلّ على أن أخلاق الملك أبجر الخامس كانوا يدينون بالنصرانية[1].

أسّست مملكة الرها في سنة 132 قبل الميلاد على يد أريو الملك ومعنى أريو الأسد، فحكم أريو هذا خمس سنين إلى سنة 127 ق.م. ثم حكم بعده بين سنة 127 و69 ق.م. ستة ملوك هم: عبدو بن مزعور وإيراداشت وبكرو الأول وبكرو الثاني وأبجر الأول ومعنو ثم الملك أبجر الأول ثانية. وحكم بعد ذلك 17 ملكاً بين سنة 68 ق.م. وسنة 216 ب.م. وقد أدخل بلينيوس الرها في جملة المدن العربية وهي من ديار مضر. فاستدلّ بعض الباحثين ـ من تسمي ملوك الرها بأسماء عربية ولا سيما الملوك الأولين منهم ومن كلام بلينيوس ومن الوضع السياسي العام في جزيرة بين النهرين الذي سار فيه توغل القبائل العربية في هذه المنطقة ـ على أن أهل الرها وحكّامها كانوا من أصل عربي.

وقد ظهرت إمارات عربية أخرى في بلاد الرافدين على أثر الضعف الذي حلّ بالسلوقيين، منها إمارة سنجار، وسنجار موضع قديم كان معروفاً في أيام الآشوريين، ومما نعرف عن هذه الإمارة أن ملكها معتزّ انهزم سنة 115م أمام تراجان في أثناء فتحه للحضر وطيسفون. كما ظهرت إمارة أخرى في منطقة نهر العاصي عُرفت بإمارة حمص. وقد حكمتها أسرة عربية وازدهرت في الزمن الذي ازدهرت فيه الإمارات العربية الأخرى، وقد استدلّ بعض الباحثين من أسماء ملوك حمص على أصلهم العربي، وعُرفت حمص أيضاً عند اليونان والرومان. وقد ظهرت في الجنوب إمارة ميشان وقيل لها بالعربية

(1) انظر ما ورد في معجم الأقوام والأعلام والبلدان ـ مادة أورفة.

«دست ميسان» وباليونانية خارك كانت على الخليج العربي بأسفل أرض البصرة[1].

نستلخص مما تقدّم أن شبه جزيرة العرب كانت الينبوع الرئيسي الذي انبعثت منه الهجرات العربية السامية التي دار كلامنا عليها في هذا الفصل. وقد استمرّت هذه الهجرات من الجزيرة العربية لمدة أكثر من 2500 سنة بصورة متواصلة حتى ظهرت على المسرح موجة العرب الكبرى التي تدفّقت من الجزيرة العربية أيضاً فشمل تيارها الهلال الخصيب بأجمعه وشمال أفريقيا والأندلس وامتدّت الحضارة العربية إلى العالم الإسلامي أجمع.

---

(1) انظر: «**تاريخ كلود واتور**» تالية أدي شير، 1912، 1: 169 ـ 174، 179: الدكتور جواد علي، «**المفصل في تاريخ العرب**»، 2: 616 ـ 622؛ **دائرة المعارف البريطانية**، 1965، 7: 968 ـ مادة إيديا.

الفصل الثاني

جزيرة العرب
معهد الحضارات السامية

تمهيد:

يتضح مما تقدّم في الفصل الأول أن الهجرات المتتالية التي انبعثت من جزيرة العرب إلى مختلف أنحاء الهلال الخصيب كانت من أهم العوامل في تنمية الكيان الحضاري في الشرق الأدنى، والسير به نحو التقدّم والتطور في مختلف الميادين: الزراعية، والتجارية والسياسية، والعسكرية والاجتماعية، والثقافية ـ ذلك الكيان الذي انبثقت منه أقدم الإمبراطوريات وأعظمها مما عرفه العالم في تاريخ البشرية، أي الإمبراطوريات الساميات الأربع: الأكدية والبابلية، والآشورية، والكلدانية، ثم تلتها الممالك العربية التي أسّسها اليمانيون ثم الأنباط فالتدمريون والغساسنة والمناذرة والكنديون وأخيراً الإمبراطورية الإسلامية التي عمّت الشرق كله (الأدنى والأوسط والأقصى) وشمال أفريقيا، هذا عدا دولة الأندلس العربية في أوروبا. فالجزيرة العربية، إذن هي بحق مهد الحضارات السامية، فقد قذفت بأبنائها الأشدّاء إلى ما وراء الصحاري بحكم سُنّة تنازع البقاء ليحققوا لأنفسهم العيش الرغيد في الأوطان الجديدة. وبفضل تشابك مصالح هذه القبائل بعضها ببعض وتفاعل نشاطها في سبيل الحصول على حياة أفضل توطّدت أسّس الحضارة السامية الكبرى التي كان لها شأن كبير في التقدّم البشري.

وصف شبه جزيرة العرب:

ولا بدَّ قبل أن نبحث دور جزيرة العرب في بعث الحضارة الإنسانية

وتقدّمها وعرض آراء العلماء والباحثين في ذلك، من تقديم نبذة عن صفة جزيرة العرب وتكوينها:

تعدّ شبه جزيرة العرب، أو جزيرة العرب كما اعتاد علماء العرب تسميتها، أوسع شبه جزيرة في العالم حيث تبلغ مجموع مساحتها حوالي مليون ميل مربع (حوالي مليونين ونصف مليون كيلو متر مربع)، فيبلغ طولها على ساحل البحر الأحمر 1200 ميل وأقصى عرضها بين اليمن وعمان 1300 ميل[1] يحدّها البحر الأحمر من جهة الغرب وخليج عدن وبحر العرب من الجنوب وخليج عمان والخليج العربي من الشرق والشمال الشرقي والجمهورية العراقية والمملكة الأردنية الهاشمية من الشمال، وهي ترتبط بأفريقيا بطريق شبه جزيرة سيناء كما أنها تتصل بها عبر البحر الأحمر أيضاً، أما اتصالها بآسيا فطريق البحر مفتوح أمامها. وتضمّ شبه جزيرة العرب المملكة العربية السعودية بما فيها الحجاز ونجد وعسير والإحساء، ثم اليمن وحضرموت وعمان ومشيخات عمان وقطر والبحرين والكويت. ورغم بُعد جزيرة سوقطرة من الساحل الجنوبي الشرقي من الجزيرة (220 ميلاً) فإنها تُعتبر جزءاً من شبه جزيرة العرب لأنها ترتبط بها سياسياً وعرقياً[2].

وتتكوَّن أرض الجزيرة في قسمها الغربي من مرتفعات تشرف على طول البحر الأحمر، ثم تأخذ هذه المرتفعات بالانخفاض تدريجياً نحو الشرق، فهناك سلسلة من المرتفعات متصلة بعضها ببعض، تمتدّ من سوريا وفلسطين شمالاً حتى اليمن جنوباً بموازاة البحر الأحمر وتقترب منه في مواضع عديدة، ويبلغ متوسط ارتفاعها زهاء خمسة آلاف قدم، أما أقصى ارتفاع لها فيبلغ 12336 قدماً ويقع في اليمن وتعرف هذه المرتفعات باسم جبال السَّراة أي «أعلى كل شيء»[3]. وتمتد هذه المرتفعات من اليمن بمحاذاة الساحل متّجهة نحو الشرق حتى تنتهي في عمان حيث ترتفع هناك قمم الجبل الأخضر إلى ما

---

(1) **«دائرة المعارف البريطانية»**، طبعة 1965، م 2، ص 116.

(2) المرجع السابق نفسه.

(3) الدكتور جواد علي، **«تاريخ العرب قبل الإسلام»**، ج1، ص 87.

يتراوح بين تسعة آلاف قدم وعشرة آلاف قدم. وتكون هذه السلاسل من المرتفعات حاجزاً يمنع الأبخرة المتصاعدة من البحر الأحمر وبحر العرب من اجتيازها نحو الأراضي الصحراوية وراء سفوح المرتفعات على طول امتدادها وبذا تحول دون سقوط الأمطار بوفرة في أواسط بلاد العرب[1].

وفي وسط الجزيرة تقع منطقة نجد وهي هضبة ارتفاعها زهاء 2500 قدم يقع فيها جبل شمَّر شمالاً وجبل طويق جنوباً، ومدينة الرياض قريبة من جبل طويق حيث تقع في الجبهة الشمالية الشرقية منه. وفي هذه المنطقة ينابيع عديدة للمياه تحت طبقات الرمال والصخور تُستغل في الزراعة.

وتتكوّن أغلب أراضي شبه جزيرة العرب من صحارى وسهول تتخللها واحات، أرضها خصبة تُستغل في الزراعة لتوفّر المياه فيها. وتقسم الأراضي الصحراوية إلى قسمين: القسم الأول ويشتمل على الأراضي البركانية، ويقال لها حرّة وجمعها حرار، وهي تكثر في الأقسام الغربية من شبه جزيرة العرب وتمتدّ حتى تتصل بالحرار من بلاد الشام في منطقة حوران. والحرار موجودة أيضاً في المناطق الوسطى من شبه الجزيرة وفي المناطق الجنوبية الشرقية من نجد، وهي موجودة أيضاً في المناطق الجنوبية الغربية قرب باب المندب وعند عدن. ومن أهم مناطق الحرار هذه المدينة المنوّرة وخيبر. وبعض أراضي الحرار خصبة وفيها مياه وافرة مما يساعد على استغلالها في الزراعة. وقد كان لكثرة الحرار وانتشارها في شبه جزيرة العرب بعض التأثير في التغييرات المناخية التي طرأت عليها حتى أصبحت على ما هي عليه الآن من الجفاف وسيأتي الكلام عن ذلك. ومما يذكر في هذا الصدد أن ثوران البراكين في مناطق آسيا العربية قد انقطعت منذ القرن الثالث عشر الميلادي فكان آخر حدث بركاني وقع في سنة 654هـ (1956م) في الحجاز[2].

أما القسم الثاني فيشتمل على الدهناء وهذه تتكوّن من مساحات شاسعة

---

(1) الدكتور جواد علي، «**تاريخ العرب قبل الإسلام**»، ج1، ص 103.

(2) المرجع السابق، ص 90.

من الأراضي الرملية تمتد من الجوف شمالاً إلى حضرموت ومهَرة جنوباً وإلى اليمن غرباً وعمان شرقاً، وفيها كثبان من الرمال على ارتفاعات مختلفة تنتقل غالباً مع الرياح، وفي هذه الأرضين مياه جوفية يمكن الحصول عليها بحفر الآبار فيها. وتسقط الأمطار الموسمية في بعض أجزاء هذا القسم فتنبت فيها الأعشاب في موسم الربيع ثم تجف، وتكثر في هذه المناطق العواصف الرملية وترتفع درجة الحرارة فيها في الصيف. وقد عرفت الأقسام الجنوبية من الدهناء عند الجغرافيين المحدثين باسم الربع الخالي لخلوّها من سكنى الناس وكانت تُعرف بمفازة صيهد. وتقع في الجنوب الغربي من الربع الخالي منطقة رملية واسعة تُعرف باسم منطقة الأحقاف اقترن اسمها في التاريخ العربي بقوم عاد كما أنه ذكرت إلى الجنوب الغربي من الربع الخالي في مشارق اليمن منطقة الوبارين وهي من أراضي الدهناء ما بين نجران وحضرموت كانت عامرة بكثرة الزروع والمراعي والمياه فيها إلا أن تبدل جو بلاد العرب قضى على ذلك العمران.

وهناك مناطق يُطلق عليها اسم «النفود»، وهي مناطق رملية واسعة ذات كثبان مرتفعة وسلاسل رملية متموجة كانت تُعرف باسم الدهناء ثم غلب عليها اسم النفود. وهناك منطقتان مشهورتان من مناطق النفود هما صحراء النفود الكبرى في الشمال تقع بين الجوف وتيماء وصحراء الدهناء (النفود الصغرى) بين الإحساء والرياض.

وفي شبه جزيرة العرب عدّة أودية تخترق أراضيها وهي تنبع من المرتفعات الجبلية فتجري فيها السيول في موسم الأمطار ثم تفيض مياهها في الرمال فتكوّن بعض الواحات التي يزرع عليها، وأكبر هذه الأودية وادي الرمّة ووادي الحمض ووادي حنيفة ووادي الدواسر، للأول منبعان أحدهما يبدأ عند «حرة خيبر والثاني عند مرتفعات نجد الجنوبية فيلتقيان قرب «عنيزة» ثم يسير مجراهما الموحّد باتجاه الشمال الشرقي حتى القصيم حيث يُسمّى بعد ذلك «الباطن» وهنا يتفرّع إلى فرعين يخترقان منطقة صحراوية يسير أحدهما في النفود إلى أن يصل موضعاً قرب البصرة. ويبلغ طول هذا الوادي نحو 950

كيلومتراً. أما الوادي الثاني (وادي الحمض) فيبدأ من جنوب حرّة خيبر ويتّجه غرباً حتى يصل إلى المدينة المنورة، وبعد أن تتصّل به عدّة روافد تنحدر إليه من الجبال يصبّ في البحر الأحمر في صوب قرية الوجه ويبدأ وادي حنيفة عند مرتفعات جبل طويق من الجهة الغربية الشمالية فيشق مجراه قلب العارض وبعد أن تلتقي به عدّة روافد ينحدر صوب الخليج العربي ويصبّ فيه جنوب سواحل قطر. أما وادي الدواسر فيتكوّن من بعض الأودية المنحدرة من سلاسل جبال اليمن ويتّجه نحو الشمال الغربي حيث تفيض مياهه في الرمال في مواضع عديدة فيكوّن بعض الواحات التي يُزرع عليها. ويعتقد أن هذه الأودية كانت في الأزمنة القديمة أنهاراً كبيرة إلا أن الجفاف الذي حلّ بالبلاد أثّر تأثيراً كبيراً في طبيعة شبه جزيرة العرب مما أدّى إلى انقطاع المياه الدائمة عنها فصارت تعتمد على مياه سيول الأمطار في موسم الشتاء والربيع فقط.

ويقسم سكان جزيرة العرب إلى قسمين: بدو وحضر. والبدو هم الرحّل الذين ينتقلون من مكان إلى آخر يبحثون عن مساقط الأمطار والمراعي أو منابع الماء، لذلك كانت مساكنهم الخيام والجمال عونهم الكبير في تنقلاتهم. أما مادة حياتهم فهي الأغنام بالدرجة الأولى يأكلون لحمها ويصنعون الدهن من حليبها كما يصنعون من أصوافها خيامهم وملابسهم، هذا عدا الإبل التي تكوّن ثروة البدو بوجه عام فهي تُستخدم في نقل البضائع التجارية عبر الصحاري عدا الاستفادة من لحمها وحليبها ووبرها. أما الحضر فهم سكان المدن والقرى ومادة حياتهم الزراعة والصناعة والتجارة وهي من حِرف الاستيطان والاستقرار. وتقوم هذه المدن والقرى في دوائر الجزيرة العربية داخل شريط ضيق في الغالب يمتدّ مع السواحل المحيطة بالجزيرة حيث تسقط الأمطار بصورة دائمة ومنتظمة. وقد استطاع الحضر أن يكوّنوا دولاً لها ملوك ونظم سياسية بينما عاش البدو في نظام القبيلة. وكانت اليمن في جنوب الجزيرة من أقدم الممالك العربية في جزيرة العرب وقد اشتقّ اسمها من اليُمْن كما يرى البعض أنها بلاد يُمن وبركة. وتتمتع شبه جزيرة العرب بقدسية روحية وتاريخية فهي مهبط الوحي وموطن الرسل والأنبياء، ففي لغة أهل الجزيرة نزل القرآن الكريم رحمة للعالمين.

وقد قسّم بطليموس القلوذي الذي وضع كتابه «جغرافيا» في القرن الثاني بعد الميلاد إلى ثلاثة أقسام من الناحية الجغرافية هي: العربية الصحراوية (Arabia Deserta) والعربية الحجرية (Arabia Petra) والعربيَة السعيدة (Arabia Phelix). ويُراد بالأولى القسم الشمالي من بلاد العرب. وبالثانية شبه جزيرة سيناء. وبالثالثة الحجاز ونجد واليمن وما جاورها. أما العرب فقسموا بلادهم إلى خمسة أقسام هي: الحجاز، وتهامة، ونجد، واليمن، والعروض التي هي اليمامة والبحرين وعمان.

البداوة أساس الحضارة:

وقد يسأل سائل: وهل كان بإمكان سكان الجزيرة البدو الذين احتضنوا رمال صحاريهم وبواديهم أن يؤسّسوا الإمبراطوريات والممالك؟!... ويكفي هنا أن نرجع بالقارىء إلى أقرب دور تاريخي منا، أي دور الإمبراطورية الإسلامية، فمن أسّسها؟. ألم يكن بدو الجزيرة هم الذين قاموا بتشييد هذه الإمبراطورية العظيمة الواسعة؟ فبدو الجزيرة هم هم لم يتغيروا، فإذا استطاعوا قبل حوالي أربعمائة وألف سنة أن يقيموا مثل هذه الإمبراطورية التي شملت العالم الإسلامي الواسع، فهذا وحده دليل جليّ على أنهم ورثوا هذه الكفايات عن تراثهم الأصيل الذي لم يزل حتى يومنا هذا يتمتع بالحيوية نفسها في بعث الروح القومية العربية، والتاريخ يعيد نفسه. وهل كان النورمان الذين اجتاحوا أوروبا وطبعوها بطابعهم أكثر تمدّناً من عرب الجزيرة؟. وأروع ما كتب في هذا الباب، عرض ابن خلدون في مقدمته الشهيرة، إذ يرى أن البداوة هي أصل الحضارة والعمران والأمصار مدد لها، وأن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها، كما يرى أن تطوّر البداوة إلى المدنية أمر طبيعي، والسبب في ذلك أنّ البداوة أقرب إلى الفطرة وتتميز بخصائص خاصة بها بعيدة عن الترف والشهوات كما تتّصف بالشجاعة والعصبية، فيشبه ابن خلدون البداوة بالوحشية ويزعم أن الأمم المتوحشة، أي التي تعيش عيشة البداوة، هي التي تكوّن المدنية والحضارة بما تتمتّع به من حيوية وعصبية وشجاعة وهي أقدر على التغلّب على الصعاب لأن من عوائق الملك حصول

الترف وانغماس القبيل في النعيم، فيقول: «لما كانت البداوة سبباً في الشجاعة كما قلناه لا جرم كان هذا الجيل الوحشي أشدّ شجاعة من الجيل الآخر فهم أقدر على التغلّب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الأمم بل الجيل الواحد تختلف أحواله في ذلك باختلاف الأعصار فكلما نزلوا الأرياف وتفنقوا[1] النعيم وألفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم واعتبر ذلك في الحيوانات العجم بدواجن الظباء والبقر الوحشية والحمر إذا زال توحشها بمخالطة الآدميين وأخصب عيشها كيف يختلف حالها في الانتهاض والشدّة حتى في مشيتها وحسن أديمها، وكذلك الآدمي المتوحش إذا أنس وألف، وسببه أن تكون السجايا والطبائع إنما هي عن المألوفات والعوائد وإذا كان الغلب للأمم إنما يكون بالإقدام والبسالة فمن كان من هذه الأجيال أعرق في البداوة وأكثر توحّشاً كان أقرب إلى التغلّب على سواه إذا تقاربا في العدد وتكافآ في القوة والعصبية».

وفي رأي ابن خلدون أيضاً أن لدى الأمم والدول أعماراً طبيعية كما للأشخاص، فبعد أن تهجر البداوة والخشونة وتنغمس في الملذات والشهوات وتتّخذ الدعة والراحة والرقّة مألفاً وخلقاً تأخذ مبادىء العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يُقضى عليها». ويمضي ابن خلدون فيقول: «وربما يحدث في الدولة إذا طرقها هذا الهرم بالترف والراحة أن يتخيّر صاحب الدولة أنصاراً وشيعة من غير جلدتهم ممّن تعوّد الخشونة فيتّخذهم جنداً يكون أصبر على الحرب وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذي عساه أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمره، وهذا كما وقع في دولة الترك بالمشرق فإن غالب جندها الموالي من الترك فتتخير ملوكهم من أولئك المماليك المجلوبين إليهم فرساناً وجنداً فيكونون أجرأ على الحرب وأصبر على الشظف من أبناء المماليك الذين كانوا قبلهم وربوا في ماء النعيم والسلطان وظله، وكذلك في دولة الموحدين في أفريقيا فإن صاحبها كثيراً ما يتّخذ أجناده من زناتة والعرب

(1) تفنقوا: أفنق: تنعّم بعد بؤس. (**المعجم الوسيط**).

ويستكثر منهم ويترك أهل الدولة المتعودين على الترف فتستجد الدولة بذلك عمراً آخر سالماً من الهرم».

لذلك فليس من غريب الاتفاق أن يؤكد توينبي المؤرّخ المشهور في هذا العصر النظرية ذاتها بعد ابن خلدون بخمسمائة عام فيرى أن الجفاف الذي حلّ بالجزيرة العربية وأدّى إلى تحويلها إلى صحار قاحلة وحمل أهلها إلى تطوير حياتهم إلى خشونة البداوة، كان «عاملاً في نشوء الحضارات المهمة في وادي الرافدين، ويعدّ الجفاف استثارة للجماعات البشرية من جانب البيئة الطبيعية الآخذة في الجفاف، فانتقلت تلك الجماعات البدائية من طور الصيد وجمع القوت في العصور الحجرية القديمة إلى طور إنتاج القوت أي الزراعة وتدجين الحيوان وإلى طور الحضارة أيضاً»[1].

ومثل ذلك يؤكد العلّامة ويل ديورانت: «إن البربرية تحيط على الدوام بالحضارة، وتستقر في سطحها ومن تحتها، متحفزة لأن تهاجمها بقوّة السلاح، أو بالهجرة الجماعية أو بالتوالد غير المحدود. وما أشبه البربرية بالغابة المتلبدة في البلاد الاستوائية تحاول أشجارها على الدوام أن تقضي على معالم الإنسان المتحضّر وتقاوم جهوده، ولا تعترف قط بهزيمتها، بل تظلّ قروناً طوالاً صابرة تترقّب حتى تتاح لها الفرصة لاستعادة ما فقدته من أرضين بفعل الإنسان المتحضر»[2].

وفي بحث لجرجي زيدان بعنوان «البداوة غذاء الحضارة» يقول: «إن الحضارة تبعث على الرخاء والترف والانغماس في الملذّات والركون إلى الراحة فتذهب تلك القوّة وتؤول إلى الضعف. والبداوة تقوّي الأبدان وتربي النفوس على الاستقلال، فلذلك كان أهل الحضارة أو المدن يستعينون بأهل البداوة أو الجبال فيما يحتاج إلى جهد، حتى إذا شاخت الدولة المتحضرة خلفها جيرانها البدو أو الجبليون بالفتح أو نحوه وقاموا مقامها واقتبسوا

---

(1) **سومر**، م 5، ج 2 (1949)، ص 130.

(2) «**قصة الحضارة**»، الترجمة العربية، ج 2، ص 264 ـ 265.

عادات أهلها وديانتهم، ثم لا يلبثون أن يدركهم الهرم فيخلفهم سواهم من أهل البادية سنّة الله في خلقه»[1].

جزيرة العرب مهد الحضارات السامية:

لقد أجمع العلماء على أن الأكديين والعموريين والكنعانيين والفينيقيين والقرطاجيين والآراميين والآشوريين والعمّونيين والموآبيين والأدوميين والعبريين والنبطيين والعرب الصابئة والأحباش يعدّون من الأقوام السامية التي تشترك في أسرة اللهجات السامية. وقد اعتبر البعض المصريين من الأقوام السامية في الأصل وأن وطنهم الأصلي إنما هو جزيرة العرب هاجروا منها إلى أفريقيا واختلطوا هناك بزنوج وادي النيل. وقد اختلف العلماء في تعيين وطن الساميين الأصلي، فبعضهم اعتبر بابل مهد الساميين والبعض الآخر أواسط آسيا أو أفريقيا أو عمورو[2]، إلا أن هناك شبه إجماع لدى العلماء في الوقت الحاضر على أن شبه جزيرة العرب هي مهد الساميين والحضارة السامية، لأن قرائن عديدة دينية ولغوية وتاريخية وجغرافية تشير بوضوح إلى أن جزيرة العرب هي مهد الحضارات السامية ووطن الساميين الأوائل. وقد أيّدت جمهرة من العلماء والباحثين هذه النظرية، فكان من أوائلهم «سبرنجر» الذي أكّد عام 1861 «أن أواسط بلاد العرب، ولا سيما منطقة نجد، هو المكان الذي يجب أن يكون موطن الساميين، وهو الذي جهّز الهلال الخصيب بالسكان وطبعه بهذا الطابع السامي. فمن هذا المخزن خرجت طبقات من البشر بعضها فوق بعض، وسكنت في هذه الأرضين التي اتّسمت بالسمة السامية، ولا تزال تحتفظ بسمتها هذه حتى اليوم»[3]. ووافقه في ذلك المستشرق «سايس» (Sayce) الذي يجزم بأن «جميع

(1) «**العرب قبل الإسلام**»، ص 34.

(2) G.A. Barton, «**Semites**», **Encyclopedia of Religion and Ethics**, Vol. 11, pp. 378-384.

(3) A. Sprenger, «**Das Leben und Lehre des Mohammad**», Berlin 1861, pp. 241 ff.; «**Die Alte Geographie Arabiens**», Bern, 1875, p. 293.

الروايات والآثار السامية تشير إلى أن جزيرة العرب هي الوطن الأول الذي ظهر فيه الساميون»[1]. كما أيّد هذه النظرية آخرون من العلماء أمثال «شرادر» (E. Schrader)[2] و«دي غـويـه» (De Goeje) (1836 ـ 1909)[3] و«غـريـم» (H. Grimme) (1864 ـ 1942)[4] و«كارل بـروكـلمـان» (C. Brockelman) (1868 ـ 1956)[5] و«كينغ» (L. W. King)[6] و«مايرز» (J.L. Meyers)[7] و«كوك» (Cook)[8] و«ديتلف نيلسن» (D. Nielsen)[9] و«رايت»[10] (Wright). ومن القائلين أيضاً بأن جزيرة العرب هي مهد الساميين «روبرتسن سميث» (R. Smith)[11] و«هومل» (Hommel)[12]، و«كونتنو»[13]، كما يقول «فليش»[14] أن هذا الافتراض ليس بعيد الاحتمال. وقد بسّط هذه النظرية مؤيداً إياها العلاّمة «ديسو» في كتابه

---

(1) Asyce, «**Assyrian Grammar**», Oxford, 1872, p. 13; Barton, «**Semitic and Hamitic Origins**», p. 4.

(2) E. Schrader, ZDMG, XXVII (1873), pp. 397-420; «**Die Adstammung der Chaldaer und die Ursitz der Semitien**»..

(3) De Goeje, «**Het Vaderland der Semitiche Volken**», Leyden, 1882; Barton, «**Semitic...?, p.5.**

(4) Wright, «**Comparative Grammar of the Semitic Languages**», p.8.

(5) «**Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitichen Sprache**», Berlin, 1908, I, p.2.

(6) L. W. King, «**History of Sumer and Akkad**», London, 1915, p.119.

(7) J.L. Meyers, in Cambridge. Ancient History, Cambridge, 1923, I, p.38; Barton, «**Semitic...**», p.6.

(8) S. A. Cook, in Cambridge Ancient History, I, p.192, ff.

(9) Nielson, «**Handbuck der Altarbischen Aiterumskunden**», I, Kopenhage, Paris, Leipzig, 1927, pp. 47-55.

(10) Wright, «**Lectures on the Comparative Grammar of the Semitic Languages**», Cambridge, 1890, p. 8.

(11) R. Smith, «**Kinship and Marriage in Early Arabia**», p. 178.
انظر أيضاً: **الهلال**، نيسان 1906، ج 7، سنة 14، ص 399.

(12) Hommel, «**Ethnologie and Geographie des Alten Orient**», Muenchen, 1926, p.10.
انظر: الدكتور جواد علي «**تاريخ العرب قبل الإسلام**» ج1، ص151 ـ 153؛ «**المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**»، ج1، ص222 ـ 232.

(13) Contenau, «**Manuel D'Archéologie Orientale; la civilisation d'Assur et de Babylone**» p.43.

(14) Fleisch, «**Introduction à l'étude des langues sémitiques**», pp. 24 - 25.

«ولوج العرب سوريا قبل الإسلام»[1]. وممن أيدها أيضاً الباحث المعروف «مونتوغرمري» في كتابه «الجزيرة العربية والتوراة»[2]، وكذلك ماكدونالد في بحثه عن الأدب العبري[3]. وأما المسؤول عن الإفاضة في هذه النظرية والتحمس لها بثقة أكثر من أي شخص آخر فإنه العالم الألماني «وينكلر» (Hugo Winckler) الذي يذهب إلى أن «جزيرة العرب هي المهد الأول للساميين، وأن البابليين والكنعانيين والآراميين خرجوا منها على موجات متتالية على غرار الغزو الإسلامي في القرن السابع الميلادي»[4] ويؤكد خبير الآثار الأستاذ طه باقر أن النظرية القائلة «بأن جزيرة العرب هي مهد الساميين ما تزال تحتفظ بقوّتها وأرجحيتها بالرغم من تردّد بعض الباحثين»[5].

ومن المؤيد لهذا الرأي الدكتور «ويلفنسون» فيقول في كتابه «تاريخ القبائل السامية ما نصه: «والذي يمكننا أن أكثر الحركات والهجرات عند أغلب الأمم السامية التي علمنا أخبارها وأسماءها كانت من نزوح جموع سامية من أرض الجزيرة إلى البلدان المعمورة الدانية والقاصية في عصور مختلفة، وأقدم هجرة سامية اتجهت نحو بابل كانت من ناحية الجزيرة. وقد أسّست تلك الجموع ملكاً عظيماً في بقعة الفرات كان لها من الحول والطول حظ وافر في عصور شتى. وكذلك هاجرت البطون الكنعانية والآرامية تاركة بلاد العرب وكان لهجراتها أثر عظيم على حياة العالم القديم[6].

ولم تقف هذه الهجرات العربية عند العراق وسوريا وفلسطين بل جاوزتها إلى مصر أيضاً فقد توغلّت قبائل سامية جاءت من ناحية الجزيرة في بلاد النيل وبسطت سلطاتها على مصر وكوّنت في تاريخها الأسر الحاكمة

---

(1) Dussaut, «**La pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam**».

(2) J.A. Montgomery, «**Arabia and the Bible**», 1934.

(3) D. B. Macdonald, «**The Hebrew Literary Genius**», Princeton University Press, 1933.

(4) رينه ديسو، «**العرب في سوريا قبل الإسلام**»، ص 20.

(5) **سومر** 1949، ج 2، ص 132.

(6) ويلفنسون، **تاريخ القبائل السامية**، ص5، 6.

المعروفة بالهكسوس. وكذلك كانت الهجرة العربية بعد ظهور الإسلام إلى جميع أطراف العالم القديم آخر موجة سامية عظيمة غمرت وجه الأرض وهزّت العالم بأسره وكان من نتيجتها أن تغيّرت أحوال أمم كثيرة في آسيا وأفريقيا وأوروبا وانقلبت فيها كل جوانب الحياة من سياسية ودينية واجتماعية وعمرانية، بل لا تزال الهجرة من الصحراء إلى البلدان الدانية والنائية مستمرة بأخطارها الشديدة وعواقبها العظيمة والتاريخ دائماً يعيد نفسه».

وفي رأي فيليبي الذي قام بدراسات مسهبة لأحوال جزيرة العرب، أن أقسام المنطقة الجنوبية من جزيرة العرب ومن ضمنها اليمن هي الوطن الأصلي للشعوب السامية، فهي مهد العرب ومهد السامية، منها نزحت الموجات البشرية بعد اضطرارها إلى ترك أوطانها القديمة بسبب الجفاف الذي حلّ بها. وهو يعبّر عن رأيه هذا بقوله: «إنني أعتبر بلاد العرب الجنوبية هي الوطن الأم لهذا الجنس من البشر المعروف الآن باسم الساميين وهو يمتاز عن سائر الشعوب بلغته المعروفة باسم اللغة العربية. وكان هؤلاء الساميون بالتأكيد عرباً يتكلمون العربية وقد هاجروا من أوطانهم الأصلية في جنوب الجزيرة العربية بعد اضطرارهم إلى ترك منازلهم القديمة، بسبب الجفاف الذي ظهرت بوادره بعد العصر الباليوليثي[1]، والتوجّه نحو الشمال إلى أطراف الهلال الخصيب في موجات متعاقبة، وقد سلكوا الطرق البرية والبحرية حتى وصلوا إلى العراق وسوريا وفلسطين، هاجروا وقد حملوا معهم كل ما يملكون من أشياء ثمينة، حملوا معهم آلهتهم وأهمها الإله القمر (سين)، وحملوا معهم لغتهم ثم مدوّناتهم الثقافية في الأحقاب التالية. وقد استمرّت هذه الهجرات عبر آلاف السنين تارة بطيئة وتارة أخرى سريعة الحركة حتى تمكّنت إحدى الزمر السامية أن تثبت أقدامها في السهل الخصيب من أواسط بلاد ما بين النهرين»[2].

ويؤكد الخبير الأنثروبولوجي المعروف الدكتور هنري فيلد المستر فيليبي

(1) يقصد به العصر الحجري القديم الباليوليثي الأعلى الذي يبدأ حسب تقدير العلماء قبل حوالي 35 ألف سنة.

(2) فيليبي، «**تاريخ العرب قبل الإسلام**»، الإسكندرية، 1947، ص9 وما بعدها.

فيما ذهب إليه من أنّ جنوب الجزيرة كانت الوطن الأصلي للأقوام التي هاجرت من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب، فيقول: «إن اليمن وعدن كانتا مأهولتين بالسكان منذ العهد النيوليثي[1] وقد هاجر قسم من الناس إلى عمان والخليج، وهاجر قسم آخر بطريق باب المندب إلى الصومال وكينيا وتنجانيقا وهاجر فريق ثالث بطريق مأرب ونجران إلى شبه جزيرة سيناء وفلسطين والأردن. هذا وقد عثر السيّاح على عدد كبير من الكهوف في الحجاز وفي اليمن وفي جنوب الجزيرة اتخذها أسلاف سكان شبه الجزيرة بيوتاً لهم التجأوا إليها وعاشوا أمداً طويلاً فيها.

كما يؤيد العلّامة ويل ديورانت هذا الرأي نفسه فيقول:

«إن مهد الجنس السامي ومرباه جزيرة العرب، فمن هذا الصقع الجدب حيث ينمو الإنسان شديداً عنيفاً، وحيث لا يكاد ينمو نبات على الإطلاق، تدفّقت موجة إثر موجة في هجرات متتابعة من خلائق أقوياء شديدي البأس لا يهابون الردى، بعد أن وجدوا أن الصحراء والواحات لا تكفيهم، فكان لا بدَّ لهم أن يفتتحوا بسواعدهم مكاناً خصباً ظليلاً يعولهم ويقوم بأودهم. فأما من بقي منهم في بلادهم فقد أوجدوا حضارة العرب والبدو، وأنشأوا الأسرة الأبوية وما تتطلبه من طاعة وصراحة خلقية، وتخلّقوا بالجبرية وليدة البيئة الشاقة الضنينة، والشجاعة العمياء التي تدفع أصحابها إلى وأد بناتهم وتقديمهم قرباناً للآلهة.. وظلّوا وقتاً ما يسيطرون على التجارة مع الشرق الأقصى، تتكدس في ثغورهم غلّات جزائر الهند، وتحمل قوافلهم تلك الغلات وتنقلها في الطرق البرية غير الآمنة إلى فينيقيا وبابل. وشادوا في قلب جزيرتهم العريضة المدن والقصور والهياكل، ولكنهم لم يكونوا يشجعون الأجانب على المجيء إليها ورؤيتها. وقد بقي هؤلاء الأقوام آلاف السنين يحيون حياتهم الخاصة بهم، محافظين على عاداتهم وأخلاقهم، متمسكين بآرائهم، ولا يزالون إلى اليوم كما كانوا في أيام كيوبس وجوديا. ولقد شهدوا مئات

(1) إن العصر النيوليثي هو العصر الحجري الحديث ويحدّد العلماء زمنه في الفترة بين سبعة آلاف وخمسة آلاف سنة قبل الميلاد.

الممالك تقوم وتفنى من حولهم، ولا تزال أرضهم ملكاً لهم يعضون عليها بالنواجذ، ويحمونها من أن تطأها الأقدام الدنسة أو تنظر إليها الأعين الغريبة»[1].

وتأييداً لهذه النظرية يقول الدكاترة حتي وجرجي وجبور: «إن معظم العلماء اليوم يؤيدون النظرية القائلة بأن بلاد العرب هي مهد الجنس السامي ويدعمونها بالحجج التالية:

«إن معظم سطح الجزيرة صحراء تحيط بها حافة ضيّقة من الأرض التي تصلح للسكن ويحيط البحر بهذه الحافة نفسها، فإذا ما زاد عدد السكان عن طاقة احتمال الأرض لهم كان على الفائضين أن يبحثوا لهم عن مدى حيوي يعيشون فيه ولم يكن باستطاعتهم التوسّع في وسط البلاد وهو صحراء ولا اجتياز البحر حين لم يكن لهم، في تلك الأزمان، الوسائل لذلك، فلم يبق أمامهم إلا أن يسلكوا طريق الساحل الغربي من الجزيرة نحو الشمال حيث يتفرّع عند شبه جزيرة سيناء.

«وقد اتخذت الهجرة تحت راية الإسلام التي تمّت في وضح التاريخ حجة يعتمد عليها القائلون بأن جزيرة العرب هي موطن الساميين الأصلي. وهم يعززون قضيتهم في ملاحظتهم أن العرب قد احتفظوا بميزاتهم السامية الخالصة وأظهروها بوضوح أكثر من بقية أعضاء تلك المجموعة الجنسية وأن اللغة العربية هي أقرب ما تكون إلى ما يرتئيه علماء اللغات بشأن مزايا اللغة السامية الأم وشكلها البدائي.

«إن هجرة جماعات بشرية، جملة وزرافات، من الصحراء وانتقالهم من حياة الرعي إلى الزراعة والاستيطان الدائم إنما يشكّلان في الواقع ظاهرة عامة في الشرق الأدنى نستطيع بواسطتها أن نفهم تاريخه الطويل المليء بغرائب الأحداث. وإن الطريقة التي يحاول بها شعب يميل إلى الهجرة أن يفرض نفسه على شعب تأصلت جذوره في أرضه لتفسر لنا في الغالب كيف أن الغزاة

---

(1) «**قصة الحضارة**» الترجمة العربية، ج 2، ص 309 ـ 310،

يقتبسون إلى حدّ ما من الأمة المغلوبة أهم مميزات الحضارة فيها ويكسبون هذه الأمة شيئاً من الدم الجديد فيها ولكنهم قلّما يستطيعون أن يقضوا عليها أو يستأصلوا جذورها. وهذا بعينه ما جرى في الشرق الأدنى القديم الذي يُعتبر تاريخه إلى حدّ ما نزاعاً متواصلاً بين الحضر من سكان الهلال الخصيب وبين البدو الغزاة الذين كانوا يحاولون أن يغتصبوا الأرض منهم. ولقد أصاب من قال: ليست الهجرة والاستعمار إلّا نوعاً مخفّفاً من الغزو والفتح. ويجب أن نلاحظ بشأن هذه الهجرات أنه في كل حالة تقريباً كانت اللغة السامية أقوى على البقاء وقد كان هذا عاملاً بعيد الأثر»(1).

ومن بين الباحثين المتخصصين الذين أكّدوا الدور الفعّال الذي لعبه الساميون العرب من شبه جزيرتهم العربية في التطور السياسي والحضاري لمنطقة الشرق الأدنى وعلاقته الوثيقة بالعنصر السامي العربي، العالم الألماني الدكتور أنطون مورتكات (A. Moortgat) إذ يقول: «لا تعتبر بلدان الشرق الأدنى مركز الديانات وحسب بل مصدر الإشعاع الديني الذي أنار الأرض بكاملها... ولم يقتصر الإبداع الشرقي على اختراع الأبجدية وحدها بل تعدّاها ليشمل الكتابة أيضاً، أي كيف على الإنسان أن يكتب وبالتالي يكون الشرق قد أوجد أعظم وسيلة لتدوين التاريخ... وقد ساهم في صنع هذا التاريخ سكان مناطق الشرق الأدنى وهم شعوب الصحراء العربية وكنعان والساحل الفينيقي، وجبال آسيا الصغرى، وبلاد ما بين النهرين، ومنطقة الأراضي الرسوبية على الخليج العربي، ثم شعوب جبال إيران وهضابها. وتختلف هذه الشعوب عن بعضها دماً وعرقاً. إلا أن لجميعها هدفاً واحداً هو الوصول إلى أراضي الهلال الخصيب، وبالتالي التمكّن من السيطرة على بلاد جنوب ما بين النهرين، بلاد السومريين، التي أول ما عرفت الحضارة المزدهرة عند مطلع الألف الثالثة ق.م. وأقدم هذه الشعوب هي أسرة الشعوب السامية القادمة من الصحراء العربية وبادية الشام، التي دخلت أراضي الهلال الخصيب على شكل موجات عديدة متلاحقة طوال ثلاثة آلاف سنة. وبالمقابل تنتسب

(1) الدكاترة حتي وجرجي وجبور، «**المطول في تاريخ العرب**»، ج1، ص10 ـ 13.

الشعوب الجبلية أو على الأقل طبقتها القائدة، إلى المجموعات الهندية الجرمانية، التي وجّهت اهتمامها إلى المنطقة وتحرّكت نحوها في الألف الثانية والأولى ق.م. كما ونجد هناك شعوباً أخرى ساهمت في صنع تاريخ هذه المنطقة كالسومريين مثلاً الذين لا نستطيع معرفة أصلهم، ذلك لأن لغتهم بعيدة عن أن تكون مرتبطة باللغات المعروفة حتى الآن»[1].

ويؤكد البحاثة يونغ كويلر (Young Cuyler)[2] هذا الرأي بقوله: «ولا أظن أن واحداً من القرّاء يشك في أن غربي آسيا كان منذ الأزل البعيد مهداً للحضارة»، وبعد أن يتطرّق إلى مدنيات الشرق ومختلف الموجات البشرية التي انحدرت إليه يتابع قائلاً: «وكانت العناصر السامية أقوى وأعمّ العناصر الإنسانية، التي عاشت في هذه المنطقة... وقد تميّزت هذه العناصر عن سواها بثقافة ذاتية، ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ، حيث كانت تعيش في بعض أنحاء شبه الجزيرة العربية قبل خمسة آلاف من السنين. ومنذ ذلك التاريخ لم يلبث هؤلاء الساميون أن نزحوا في موجات متلاحقة إلى أراضي الهلال الخصيب في هذه المنطقة أثناء العصر البرونزي. وطبعها بطابع متميز في كل مظاهر الحياة الذوقية والعقلية والعملية. وقد ظلّ الساميون طول عصور ازدهارهم هذه معيناً لا يجف يحمل الثقافة والحضارة من الشرق إلى الغرب»[3].

ويذهب الدكتور ديتلف نيلسن المتقدّم ذكره في مجرى بحثه عن تاريخ الأديان إلى أن «جزيرة العرب فيما يرجّح هي الوطن الأصلي للعنصر السامي. والشعوب السامية الشمالية التي نشأت عنها الحضارات السامية الشمالية الرفيعة. والدين العربي القديم هو الخطوة السابقة للدين البابلي الآشوري المعقّد، كما أن ذلك الدين العربي القديم هو الذي مهّد لهذا التطوّر التاريخي للدين العبري اليهودي مع حرصه على الاحتفاظ بدين الآباء دين الصحراء

---

(1) موركات (الدكتور أنطون)، «**تاريخ الشرق الأدنى القديم**»، ص 10 ـ 12.

(2) يونغ كويلر، «**الشرق الأدنى ـ مجتمعه وثقافته**»، الترجمة العربية، ص 4 ـ 5.

(3) **صوت فلسطين**، «العدد 52، أيار 1972»، ص 23.

البدائي الذي دان به آباء الشعب وأجداده الأولون كما أنه بقي زمناً طويلاً موضوع نزاع وعراك شديدين بين العقيدتين الدينيتين السامية الشمالية، والسامية الجنوبية، والذي تطوّر أخيراً إلى الثالوث الإلٰهي (آب وابن وروح قدس) ومن ثم خطا خطوة أخرى إلى التوحيد المسيحي في صورته القديمة التي نعرفها في الحضارة العربية القديمة[1]. ويقول في مكان آخر: «إن بلاد العرب هي وطن الساميين ومهدهم الذي لم يخضع يوماً من الأيام للأجنبي وسلطانه»[2].

وقد استند العلماء في دعم النظرية القائلة بأن «الجزيرة العربية هي مهد الحضارة السامية على البيّنات التالية:

1 ـ إن البداوة عادة تسبق حياة الحضارة إذ لا يعقل أن ينتقل سكنة الريف والمزارعون من حياة التمدّن إلى البداوة بل يحدث العكس. ولما كانت الشعوب السامية قد قضت في أطوارها الأولى حياة بدوية فلا بدَّ أن يكون وطنها الأول وطناً صحراوياً، وجزيرة العرب هي أصلح المواقع لكي تكون ذلك الوطن السامي الأول.

2 ـ إن معظم المدن والقرى التي أسّست في مناطق الهلال الخصيب على أطراف الجزيرة العربية هي عناصر بدوية استقرّت فيها وأخذت تمارس الزراعة والتجارة، ولا يوجد هناك محل غير جزيرة العرب بإمكانه أن يحتوي هذه العناصر لذلك وبالقياس تكون الجزيرة العربية هي التي غذّت الشرق الأدنى والساميين على موجات متتالية.

3 ـ إن اللغة العربية (لغة جزيرة العرب) حافظت على نسبة كبيرة من خصائص اللغة السامية الأصيلة أكثر من أية لهجة من اللهجات السامية الأخرى[3].

---

(1) الدكتور ديتلف نيلسن ورفاقه، «**التاريخ العربي القديم**»، ص53.

(2) المرجع السابق، ص 234.

(3) G.A. Barton, «**Ency. of Religion and Ethcis**», Vol. 11, p. 379.

العوامل الإقليمية والبشرية وأثرها في بعث الهجرات من الجزيرة العربية:

يتّضح مما تقدّم أن العوامل الطبيعية بما تخللها من تطورات طرأت على البلاد بسبب الجفاف البطيء واشتداد حرارة الجو ونضوب المياه الجارية قد لعبت دوراً رئيسياً في حمل سكان جزيرة العرب على الهجرة من وطنها الأصلي، ففي مقدّمة الذين تبنّوا وبحثوا عن ثقة وقناعة النظرية القائلة بأثر تغير المناخ في اندفاع تيار الهجرة من شبه جزيرة العرب التي أدّت إلى تكوين الحضارة السامية العلامة الإيطالي كايتاني (1869 ـ 1926)[1]. فقد لفت كايتاني «أنظار العلماء إلى ظاهرة التغير الذي طرأ على جو بلاد العرب والجفاف الذي حلّ بها في أواخر الدورة الجليدية الأخيرة وهو يقول في ذلك:

«في الوقت الذي كانت فيه معظم النواحي الأوروبية تغطيها الثلوج كانت جزيرة العرب تتمتّع بمناخ معتدل وأمطار غزيرة وأشجار وزروع، ثم أخذت تتقهقر وتفقد رطوبتها واعتدال جوها وأسباب العيش فيها منذ أكثر من أربعة عشر ألف سنة. وإن كان هذا التقهقر بطيئاً جداً، فإن تأثيره في حياة السكان لم يكن فجائياً بل كان مطرداً تبعاً للقلة في الأمطار وارتفاع حرارة الجو. ولم يكن هناك ازدحام في السكان كما هي الحال في البلاد المزدحمة الحالية، وكان الناس يعيشون من صيد السمك ويسكنون متفرّقين متباعدين، ولذلك يمكن أن يقال إن سكان الجزيرة ظلّوا على حياتهم هذه إلى أن أخذوا يشعرون بقلة الزاد والمحصول بسبب ندرة الأمطار، فانصرفوا إلى تدجين الحيوانات

---

(1) هوليوته كايتاني (Leone Caetani) مستشرق ومؤرخ إيطالي من أهل روما تعلّم في جامعتها وقام برحلات إلى الشرق منها الهند وإيران ومصر والشام، كان يحسن سبع لغات منها العربية والفارسية، ألّف بالإيطالية كتاب **تاريخ الإسلام** وطبع منه بين سنة 1905 وسنة 1908 ثمانية مجلدات ضخمة مزيّنة بالرسوم والخارطات، انتهى فيها إلى سنة 40 للهجرة وكتب في تراجم عدد كبير من علماء المسلمين وأدبائهم في الأندلس وقد نشر بالعربية كتاب تراجم الأمم لمسكويه (حول كايتاني وأعماله انظر: **مجلة المقتبس** 8: 47 ـ 50، **مجلة المجمع العلمي**، العربي 23: 259، **المستشرقون** 159، **مجلة المشرق**، ج12، **الاعلام** 6: 118).

البرية ليدفعوا عن أنفسهم غائلة الجوع. ولما اشتدّت الحالة بهم ونفد صبرهم من الفاقة والجوع والعطش ارتحلوا إلى بلاد أخصب تربة وأجود جواً وأكثر أمطاراً. وهكذا بدأت أولى هجراتهم التي حدثت غير مرة. فإن الآثار التي استخرجت من جوف أرض ما بين النهرين، الفرات ودجلة، تبرهن على أن أولى الهجرات السامية قد بدأت قبل نحو خمسة آلاف من السنين من ميلاد المسيح. وهذه الاكتشافات يجب ألا تنفي فكرة حدوث هجرات سامية أخرى قبل هذا التاريخ. والأسباب الجوية المبحوث عنها والتي حملت الأقوام على هجرة موطنهم الأول وتركه إلى وطن أحسن منه جواً ورطوبة هي نفسها التي حملت أقواماً آخرين على الهجرة العامة[1]. فالجفاف الذي طرأ على وادي تريم قرب بحيرة (لوب نور) قد حمل الصينيين على هجر مساكنهم هناك في السنين الأخيرة وعلى ارتحالهم تدريجياً إلى أعالي وادي هونغ ـ هو في مقاطعة شانسي ومنها إلى البلاد الصينية الأصلية ناهيك بما سجّلته الهجرات الآرية التي بدأت قبل نحو ألفيّ سنة من التاريخ المسيحي على خطين مختلفين فقد بدأ خط الهجرة الأول من السهول المحيطة ببحر قزوين ماراً بجبال أفغانستان شرقاً فجنوباً إلى أن ينتهي ببلاد الهند الشمالية ذات الأنهر الخمسة وهي التي تُعرف الآن بمقاطعة البنجاب. أما الخط الثاني الذي اختاره الآريون في هجرتهم فقد سار باتجاه الغرب ماراً بالبلاد الواقعة شمال بحري قزوين والأسود، وقد استقرّ أولئك الآريون المهاجرون مدّة من الزمن في جنوب روسيا ثم انتشروا منها في سائر أقسام القارة الأوروبية»[2].

وفي بيان التطوّر الجوي الذي حدث في جزيرة العرب وشمال أفريقيا والذي شمل تأثيره جميع الشرق الأدنى يقول العلّامة «جايلد» وهو حجّة في الموضوع: «في الوقت الذي كان فيه شمال أوروبا مغطّى بطبقات الثلوج إلى مسافات بعيدة وصلت إلى «الهازر» وكانت جبال الألب والبرنس مغطاة بجبال من الثلج، كان ضغط القطب الشمالي الشديد يسوق أعاصير الأمطار التي تهبّ

(1) Caetani, «**Studi di Storia Orientale**», p. 63.

(2) الدكتور رفيق التميمي، **المقتطف**، عدد يوليو/تموز 1944، ص 128.

على أوروبا الوسطى ويجعلها تجتازها وتعبر إلى حوض البحر الأبيض المتوسط وتستمر في سيرها دون أن تستنزفها جبال لبنان فتصل إلى بلاد ما بين النهرين وجزيرة العرب حتى بلاد فارس والهند. فكانت الصحارى، التي يلفحها العطش الآن، تتمتع بأمطار منتظمة، ولم تكن الأمطار الذاهبة بعيداً إلى جهة الشرق أكثر مما هي عليه الآن فحسب، بل إنها كانت موزّعة على جميع فصول السنة بدلاً من أن تكون مقصورة على فصل الشتاء.

ولهذا يجب أن نتوقع وجود المروج والمراعي والبطائح في شمال حوض أفريقيا وجزيرة العرب وفارس ووادي السند على نحو ما يزدهر الآن في شمال حوض البحر المتوسط... وعندما كان الماموت والكركدن والرنة يرعون في فرنسا وجنوب إنكلترا، كان يعيش في شمال أفريقيا (وربما في جزيرة العرب أيضاً) حيوانات من نوع ما يوجد الآن في زمبازي وروديسيا...

«وقد كان من الطبيعي أن تكون الأراضي الخصبة المعشبة في شمالي أفريقيا وجنوب آسيا مأهولة آنذاك بالسكان ومزدحمة بهم... وأنه لمن المعقول أن نحسب أن الإنسان كان بإمكانه أن يتقدّم تقدّماً عظيماً في مثل هذه البيئة الملائمة لا بل البيئة المحفزة»[1]. ولكن هذه المنطقة الأفريقية الآسيوية تبدلت في نهاية العصر الجليدي تبدلاً كبيراً وجزرياً فأخذ يحلّ فيها الجفاف والجدب منذ ذلك الحين وانتهى فيها آخر عصر ممطر وحلّ فيها بدل ذلك عهد الجفاف يقابل الفترة الجليدية الأخيرة في أوروبا وشمال أمريكا[2].

ولقد جاء في النصوص القديمة ما يدلّ على أن جزيرة العرب كانت من مناطق الغابات المكتظّة بالأشجار، فكانت جبال الطائف تمون مكة بالأخشاب الصالحة للبناء والوقود، كما أن المنطقة الواقعة بين العلا و«معون» أو «معان» من المناطق الصحراوية في الوقت الحاضر من أراضي ثمود قديماً قد كانت من مناطق الغابات المكتظّة بالأشجار، وكانت مملوءة بالحيوانات المفترسة.

(1) جايلد «**الشرق القديم**»، طبعة سنة 1964، ص15 ـ 16.

(2) **سومر** 1949، ج2، ص130.

وكذلك المنطقة بين مكة وعرفة كانت حتى القرن السادس عشر الميلادي مغطاة بالأشجار والعوسج والسلم، حتى أن اللصوص كانوا يتّخذونها مخابىء يهاجمون منها القوافل. «ويظهر من اتجاهات الأودية ومن وجود العاديات والخرائب وآثار السكن على أطرافها، والترسّبات التي تمثّل قيعان الأنهر، أن هذه الأودية كانت في الحقيقة أنهاراً في يوم من الأيام ينبض فيها عرق الحياة، وأنها كانت تضيف عدداً كبيراً من الأحياء. . . أما اليوم فقد اندثرت القرى وجفّت أكثر الينابيع، واضطرّت غالبية السكان إلى الهجرة والتنقّل من مكان إلى مكان، والعيش عيشة الأعراب»(1).

ومن أنهر جزيرة العرب القديمة وادي الحمث الذي شيّدت مدينة يثرب على أحد فروعه، وكان هذا النهر يصبّ في البحر الأحمر وهنالك أنهر ثلاثة أخرى كانت تجري في السهول الواسعة في منطقتي نجد والحسا. وهذه الأنهر هي أولاً وادي السرحان، الذي كان ينبع شرقي جبال حوران ويخترق سهول الجزيرة الشمالية ويصبّ في الخليج العربي، ثانياً، وادي الرمّة وكان منبعه شرقي مكة ومن هناك يسير شرقاً ليصبّ في بحر عمان بعد أن تنضم إليه عدّة فروع، ثالثاً، نهر الدواسر وهو أكبر أنهر الجزيرة العربية ويقع منبعه شرقي بلاد اليمن ويتّجه شمالاً مخترقاً سهل الربع الخالي ثم يتّصل بوادي الرمة بالقرب من شواطىء خليج البصرة. وفي هذا الدور الجيولوجي الذي كانت جزيرة العرب تتمتّع فيه بأمطار غزيرة كان وادي الشريعة بحيرة عظيمة تبدأ من جنوب جبال حرمون وتمتد حتى وادي العربة ولربما اتصلت مياهه عند مدينة العقبة بالبحر الأحمر(2).

وقد وجد برترام توماس، صاحب كتاب «العرب» بقايا بحيرة في الربع الخالي عند منخفض أبو بحر كما لاحظ أن وادي الرمّة لا يزال مليئاً بالصخور الرسوبية والحصى مما يدلّ على أنه كان في القديم مجرى نهر غزير المياه. ولا تزال بقايا بحيرات مليئة بالمياه في بعض المناطق

---

(1) الدكتور جواد علي، «**تاريخ العرب قبل الإسلام**»، ج 1، ص97 ـ 109.

(2) الدكتور رفيق التميمي، **المقتطف** عدد يوليو/تموز 1944، ص 125 ـ 126.

الصحراوية من الجزيرة العربية، ففي منطقة الخرج عدّة بحيرات في وسط الصحراء تستغل الحكومة السعودية مياهها في الوقت الحاضر لزراعة الأراضي المجاورة، وقد أُتيح للمؤلف أن قام بدراسة خاصة لهذه البحيرات وإقامة مشروع ري عليها، إذ كانت الحكومة العراقية قد أوفدته على رأس بعثة فنية لدراسة إمكانيات هذه البحيرات. وتقع منطقة الخرج جنوب شرقي الرياض وتوجد فيها خمس بحيرات منها أربع بحيرات إلى الجنوب من اليمامة، أما الخامسة فتقع في الأراضي الصحراوية الواقعة إلى الجنوب من منطقة الخرج على بُعد زهاء مائة كيلومتر منها وتُسمّى «خفس دغري» وأهم هذه البحيرات ثلاث تبلغ مساحة كل منها أكثر من أربعة آلاف متر مربع، أما عمق الماء فيها فيناهز أربعمائة قدم وتتصّل هذه البحيرات بعضها ببعض عن طريق مجاري المياه الجوفية[1].

وقد جاء في نصوص القرآن الكريم ما يؤكد صراحة على وجود الأجواء الممطرة والأنهار لدى سكان شبه جزيرة العرب القدماء كما قد ذهب إليه الباحثون المحدثون، وقد جاءت كلها في معرض التذكير والدعوة إلى الاتّعاظ بمن تقدّمهم من الأقوام الذين تمتّعوا بوفرة العيش ورغده وذلك بتوافر المياه والمزارع والجنان والعمران. فيقول الدكتور الدواليبي في ذلك: «والمعجزة في هذه النصوص التي تقارب نحواً من أربعين آية أنها تدعم منذ نحو أربعة عشر قرناً وبكل صراحة تلك البحوث والاتجاهات التي أنتجتها الدراسات العلمية الحديثة تلك الدراسات التي لم يكن من الممكن أن تقوم في تلك العصور»[2].

وقد ورد في الروايات اليونانية والرومانية القديمة ما يؤيد صراحة وجود أنهار طويلة في بلاد العرب، فقد ذكر هيرودوتس خبر نهر في بلاد العرب دعاه «كورس» وقال عنه إن ملكهم قد عمل على نقل المياه من هذا النهر العظيم إلى الصحراء على مسيرة اثني عشر يوماً عن ساحل النهر. كما ذكر بطليموس اسم

---

(1) الدكتور أحمد سوسة، «**ري سامراء**»، ج2، ص539.

(2) «**دراسات تاريخية عن أصل العرب**»، ص 41 ـ 42.

نهر عظيم سماه لار (Lar)، ويرى البعض أن هذا النهر الذي أشار إليه بطليموس هو «وادي الدواسر» الحالي الذي يمسّ حافة الربع الخالي»[1].

وقد توصل العلماء الجيولوجيون إلى أن سطح الأرض قد تعرّض في الماضي لعدّة تغيرات مناخية في مختلف العصور، فقد مرّ بأربع دورات (Cycles) جليدية تفصل بينها دورات أو فترات دفيئة ذات مناخ جاف لا يختلف عمّا هو سائد اليوم. وقد ميّزوا الدورة الأولى بزحف جليدي إلى الجنوب غطّى معظم سطح الأرض الشمالي، كذلك بقية المناطق من نصف الكرة الشمالي من كل من آسيا وأمريكا. أما منطقة جنوب شرق آسيا بما فيها بلاد العرب والعراق وسوريا فقد تميّزت في هذه الدورات الجليدية بأمطار غزيرة دائمة أحالت أوديتها أنهاراً جارية ومستنقعات وبحيرات. كما ميّزوا الدورات الدفيئة بتراجع الجليد إلى الشمال بحيث سادت فيها حرارة مرتفعة وجفاف أحال أكثر المناطق في جنوب شرق آسيا إلى صحار وأراض قاحلة غير قابلة للاستقرار والحياة الدائمة.

وقد تمكّن علماء الجيولوجيا من تحديد أربع دورات جليدية تفصل بينها دورات ذفيئة وقد أطلق عليها الأسماء الأربعة التالية:

1 ـ دورة جليد جنز Gûnz . . . . ـ . . . . . . (؟)

2 ـ دورة جليد مندل Mindel . . . 430 ـ . . . 370 ق.م.

الدورة الدفيئة الأولى . . . 370 ـ . . . 130 ق.م.

3 ـ دورة جليد رس Riss . . . 130 ـ . . . 100 ق.م.

الدورة الدفيئة الثانية . . . 100 ـ . . . 40 ق.م.

4 ـ دورة جليد فزم Wûrm . . . 40 ـ . . . 18 ق.م.

الدورة الدفيئة الثالثة . . . 18 ـ . . . . . . (؟)

هذا مع العلم أن التحوّل من الدورات الجليدية إلى الدورات الدفيئة

---

(1) الدكتور جواد علي، «**تاريخ العرب قبل الإسلام**»، ج1، ص98.

والتحول العكسي كانا بطيئين على شكل تدريجي، إذ كان الجليد يستغرق زمناً طويلاً في حركته نحو الجنوب أو باتجاه الشمال.

ويتّضح مما تقدّم أن الدورة الدفيئة الكبرى هي تلك التي حصلت بين دورتيّ جليد مندل وجليد رس، إذ إنها دامت 240 ألف سنة، ولا بدَّ أنها كانت من أشد الفترات الدفيئة حرارة. كما يتّضح أن العالم يجتاز اليوم الدورة الدفيئة الثالثة التي بدأت منذ 18000 سنة قبل الميلاد.

وقد قدّم العلماء نظريات مختلفة لتفسير هذه الظاهرة الطبيعية، فقد عللها البعض بحركة التوازن الدائمة في سطح الكرة الأرضية، وقال آخرون بأن سدماً أو سحباً غازية توسّطت الفلك ما بين الشمس والأرض، وقال البعض الآخر إن عدّة عوامل تضافرت في إحداث هذه الظاهرة.

وهكذا ننتهي إلى أن مناطق الشرق الأدنى بما فيها صحاري أفريقيا وآسيا كانت في الدورة الجليدية الأخيرة (دورة جليد فرم) تتمتع بنعمة الأمطار الغزيرة والطقس البارد الرطب، وإننا نجتاز الآن الدورة الدفيئة ذات الطقس الحار الجاف المتميز بقلة الأمطار، وقد كانت هذه الدورة الدفيئة ذات الطقس الحار الجاف السبب المباشر في تكوّن الصحاري ونزوح أهل الجزيرة عن مواطنها[1].

قدم حضارة جزيرة العرب:

لقد تضافرت الأخبار القديمة لتدعيم حقيقة ما كانت عليه جزيرة العرب من أنواء رطبة وأمطار وأنهار وما طرأ من تغيّر على جوّها حتى أدّى إلى الجفاف الذي يكتنف هذه البلاد في أوقاتنا الحالية، الأمر الذي أدّى بالسكان إلى النزوح عن أوطانهم والهجرة إلى مناطق تتوفر فيها المياه وسبل العيش، وفيما عُثر عليه من آثار تركها سكان هذه الأصقاع لدليل قاطع على قدم حضارة جزيرة العرب، ذلك ما يدلّ على أن أهل الجزيرة الذين هاجروا إلى الهلال

(1) الأستاذ محمد مصطفى بازامه، «**تاريخ ليبيا**»، بنغازي، 1973.

الخصيب بسبب الجفاف الذي حلّ ببلادهم كانوا مزوّدين بتراث حضاري ورثوه عن أجدادهم وقد جاؤوا به معهم من مناطق سكناهم الأصلية فأعانهم على تكوين حضارة خاصة بهم. فقد عُثر على أدوات حجرية من العصور الباليوليثية والنيوليثية في مواضع من المملكة العربية السعودية تمتدّ من الإحساء (الهفوف) إلى الحجاز ومن مدائن صالح إلى نجران مما يدلّ على قدم حضارة وسكنى هذه المناطق.

ويؤكد المستر فيليبي أنه وجد آثاراً من أصداف المياه العذبة وبقايا من الرواسب النهرية وأدوات صوانية تعود إلى أواخر العصر النيوليثي (حوالي الألف الخامسة قبل الميلاد) كلها تدلّ على أن صحراء الجزيرة العربية كانت في تلك الأزمان عامرة بأنهارها الدائمة الجري وبمستوطناتها الزاخرة بالسكان ويرى أن اجتياح الجفاف لتلك البقاع أدّى إلى هجرة سكانها وكان ذلك في رأيه في الوقت نفسه الذي كانت تظهر فيه معالم أقدم المدنيات في مصر والعراق(1).

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن جزيرة البحرين كانت مأهولة بالناس أيام العصور الجليدية المتأخرة في أوروبا، أي قبل خمسين ألف سنة، وأن ساحل الخليج، ولا سيما المنطقة الواقعة بين «الدوامي» وشمال القطيف، كان مزدحماً بالسكان في العصور البرونزية، أي حوالي 3000 ـ 2500 ق.م. وقد عُثر في البحرين أيضاً على عدد من مواد من الصخور الصوانية قدر بعض الباحثين أن عمرها يتراوح بين عشرة آلاف واثني عشر ألف سنة، وهي ترجع إلى أواخر أيام الرعي وابتداء عهد الاستيطان والاستقرار والاشتغال بالزراعة(2).

ويؤكد الأستاذ محمد دروزة قدم حضارة الساميين العرب الذين نزحوا من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب، بقوله: ليس هناك من ينكر إمكان كون سكان هذه الجزيرة قد عاشوا عيشة مدنية وسياسية واجتماعية منذ أقدم الأزمنة

---

(1) المستر فيليبي «**الربع الخالي ـ أنهار مندثرة**» ص 140.

(2) الدكتور جواد علي، «**المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**»، ج1، ص. 98

التي سجّل فيها الجنس البشري حياة مماثلة في بعض الأقطار الأخرى، وبتعبير أدقّ منذ زمن أقدم من الزمن الذي تشير إليه الآثار المكتشفة في أرض الجزيرة وخارجها أو الأخبار والروايات الواردة في كتب اليونان والرومان وأسفار العهد القديم أو نقوش مصر وبابل وآشور والتي يرجع بعضها إلى أربعة آلاف عام وأكثر قبل العهد المسيحي، ولا سيما أن هذه الآثار تدلّ على تقدّم غير يسير في مضمار الحياة السياسية والمدنية والاجتماعية والعقلية لا يمكن أن يكون قد تمّ إلّا نتيجة تطور وتدرج يرجعان إلى قرون كثيرة قبل الزمن الذي نقشت أو كتبت فيه..»[1] ومما يمكن أن يقال تأييداً لهذا القول إن الجماعات التي جاءت من جزيرة العرب إلى وادي النيل وحوض دجلة والفرات واستقرّت فيهما قبل أكثر من أربعين أو خمسين قرناً قبل الميلاد كانت على شيء غير يسير من مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية ووسائلها ومن المعقول أنها كانت مزوّدة بها من منشئها الأول «وقد لاحظ الرحّالة الألماني شوينفرت أن القمح والشعير والجاموس والمعز والضأن والماشية وجدت في حالتها لابدة في اليمن وبلاد العرب القديمة قبل أن تستأنس في مصر والعراق»[2].

ويؤيد ذلك أيضاً الدكتور جواد علي الذي قام بدراسات مستفيضة في تاريخ العرب قبل الإسلام فيقول: «وتدلّ آثار السدود والنواظم التي ترجع إلى ما قبل الإسلام إلى أن العرب كان لهم علم واسع بتنظيم أمور الإرواء والاستفادة من مياه الأمطار والسيول والأنهار، وتدلّ كثرة المصطلحات في اللهجات العربية الشمالية والجنوبية على معرفة القوم بأنواع الآبار والسدود والمساك والنحايت، وغير ذلك من الوسائل التي استخدمت للحصول على الماء. وقد عثر رجال شركة النفط العربية السعودية الأمريكية حديثاً على صهاريج أرضية متصلة بعضها ببعض بأنفاق وعليها فتحات من مواضع متعدّدة لاستقاء الماء منها، عثروا عليها في القطيف والإحساء وفي الفلج، وأواسط نجد وأماكن أخرى تعدّ اليوم من المناطق الصحراوية، كما وجدوا على مقربة

(1) **«تاريخ الجنس العربي»**، ج 1، ص 25 ـ 26.

(2) العقاد، **«أثر العرب في الحضارة الأوروبية»**، القاهرة، 1960، ص 11.

منها آثار قرى كانت عامرة ومزارع واسعة، ولم يكن يعرف العلماء سابقاً أن أواسط شبه جزيرة العرب والأقسام الشرقية منها كانت تستخدم هذا النوع من نظم الإرواء، بل كان المعروف أن الصهاريج المربوطة بأنفاق إنما كانت تستخدم في الشام وفي فلسطين وإيران والأقسام الشمالية من العراق. وقد اتّخذ أصحاب النظرية القائلة بأثر الجفاف في شبه جزيرة العرب من وجود هذه القنوات للإرواء في مناطق صحراوية دليلاً على تأييد نظريتهم في جفاف جو شبه جزيرة العرب»[1].

وتدلّ المعلومات التي جمعها الخبراء من مختلف أنحاء جزيرة العرب على أن الدول القديمة التي قامت في اليمن كانت على اتصال بالسومريين والأكديين والآشوريين والعموريين في وادي الرافدين، كما كانت على اتصال بالكنعانيين في فلسطين وكذلك بمصر والشام والحبشة وعيلام منذ أقدم العصور. وكانت منطقة «مجان» (عمان حالياً) مصدراً مهماً للنحاس لسكان وادي الرافدين القدماء منذ عصور ما قبل التاريخ واستمرّت كذلك في العهد السومري والعهود التي أعقبته، وتصفها الكتابات المسمارية بأنها «جبل النحاس» وقد اشتهرت «مجان» أيضاً بحجر الديوريت الأسود المشهور، ويرجّح أن الديوريت الذي كان ملوك العراق القدامى يستعملونه في صنع التماثيل والأنصاب كان يجلب بالدرجة الأولى من «مجان» وتشير أخبار الدولة الأكدية إلى غزو نرام سين (2292 ـ 2255 ق.م.) حفيد سرجون لمجان حيث كانت تقوم فيها مملكة يبدو من اسم ملكها «أنيثوم» أنه من الساميين العرب. وكانت الدولة العربية في جنوب جزيرة العرب ومنها اليمن مصدر تصدير وتجارة مرور للبخور والعطور كما كانت مركزاً هاماً للاتصال التجاري بين المحيط الهندي والبلاد الواقعة شرق البحر المتوسط[2].

---

(1) «**تاريخ العرب قبل الإسلام**»، ج 1، ص 101 ـ 102.

(2) الدكتور نيلسن ورفاقه، «**التاريخ العربي القديم**»، ص 113.

حضارة اليمن القديمة:

أ ـ مملكة معين:

إن أقدم شعب عربي وصلتنا أخباره من جنوب الجزيرة العربية هم المعينيون، مؤسّسو الدولة المعينية التي عاشت في اليمن وظهرت منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد على رأي بعض العلماء ويعتبر المعينيون أقدم الشعوب التي حملت لواء الحضارة في بلاد العرب الجنوبية. وقد ظهرت هذه الدولة في الجوف وهي منطقة سهلة بين نجران وحضرموت أرضها خصبة ومنبسطة. وقد كانت عاصمة هذه الدولة مدينة «القرن»، ومن مدنها «ونشق» و«براقش» و«كمنا» وغيرها. وفي القسم الجنوبي من الجوف تقع خرائب مدينة «معين». وقد عُثر على كثير من الكتابات المعينية وهي من أقدم الكتابات العربية المعروفة، وقد توصل المستشرقون من دراساتهم لهذه الكتابات لمعرفة أسماء عدد من ملوك معين إلا أنهم لم يستطيعوا تنظيم قائمة بأسمائهم حسب تسلسل سني حكمهم، ومن أقدم هذه الأسر التي عُثر على أسماء ملوكها أسر «إيل صادق» و«وقه إيل» و«صدق إيل». ويلاحظ هنا إضافة اسم الإلٰه «إيل» إلى أسمائهم مما يدلّ على أن الإلٰه «إيل» الذي دعا إبراهيم الخليل إلى عبادته كان معروفاً في الجزيرة العربية وأنه من أصل عربي بحت[1]، ويستدل من الديانات المعينية على أن الإلٰه «ود» كان الإلٰه القومي الرئيسي لشعب معين. وكانت حضرموت جزءاً من مملكة معين وما يتبعها من مقاطعات في عهد الملك «صدق إيل» الذي كان يلقّب بملك معين وحضرموت.

كانت أهم المنتوجات اليمانية العطور والتوابل والبخور التي درّت على اليمانيين أرباحاً كثيرة وأنعشت تجارتهم مع بلاد الهلال الخصيب وبلدان البحر المتوسط حيث كانت تصدر إليها هذه المنتوجات، مع العلم أن العطور والبخور كانت تستعمل في المعابد والطقوس الدينية وللتحنيط، كما كانت التوابل من

---

(1) انظر ما يلي عن إبراهيم الخليل في الفصل الخامس.



الصورة رقم (52)
فلاح يمني يحرث الأرض

المواد الضرورية للطعام وحفظ المأكولات في تلك الأزمنة. وإلى جانب امتهان اليمانيين الزراعة، كان فيهم رعاة الماشية الذين يعيشون حياة البداوة.

إن أقدم ذكر للمعينيين ورد في كتب الكلاسيكيين مثل ديودورس الصقلي وسترابون وبلينيوس وأراتوستين وبطليموس وهو آخر من ذكرهم، ويرى بعض الباحثين أن المقصود بالمعنيين الوارد ذكرهم في التوراة[1] هم المعينيون الذين كانوا يقطنون في المناطق الشمالية. وآخر ذكر لحكومة معين ورد في المؤلفات الكلاسيكية التي تعود إلى القرن الأول الميلادي، ويتّفق أكثر العلماء المختصّين على أن حكومة معين انقرضت وحلّت محلها حكومة سبأ، مع أن اسم المعينيين ورد في عدد من الكتابات المعينية التي يرجع زمنها إلى ما بعد سقوط حكومتهم.

---

(1) (1 أخ 4: 41)؛ (2 أخ 26: 7).

ب ـ مملكة قتبان:

عاصرت الدولة المعينية مملكة عربية أخرى كانت تعرف باسم مملكة قتبان، وكانت أراضي هذه المملكة تقع في الأقسام الغربية من الجزيرة العربية وإلى الجنوب الغربي من أرض المعينيين وتمتدّ حتى باب المندب. وقد استدلّ علماء الدراسات العربية من الكتابات التي حصلوا عليها أن هذه المملكة حكمت حوالي 800 سنة بين القرن العاشر والقرن الثاني قبل الميلاد. أما عاصمتها فهي مدينة «تمنع» وتعرف حالياً باسم «كحلان» وتقع في وادي بيجان في منطقة كانت تتميّز قديماً بخصبها وبكثرة مياهها ومزارعها وبساتينها وقد كشفت آثار «تمنع» مؤخراً عن بقايا عدد كبير من المعابد والدليل على كثرة المعابد في مدينة «تمنع» أن الكتابات الرومانية ذكرت أن عدد المعابد فيها بلغ 65 معبداً. ويستدل من الكتابات القتبانية على أن الإلٰه القومي الرئيس الذي كان يعبده القتبانيون من دون بقية الآلهة هو الإلٰه «عم».

استفاد القتبانيون من موقعهم الجغرافي ومجاورتهم لحضرموت التي تنتج أحسن أنواع البخور فجنوا ثروة كبيرة وصارت لهم قوة حدّت من نفوذ المعينيين وهناك أدلة تشير إلى أن حكومة معين خضعت لحكومة قتبان في سنة 820 ق.م.

ويستدل من بعض الكتابات القتبانية القديمة أن حكام قتبان كانوا يتلقبون بلقب«مكرب» ووجد في كتابات أخرى أنهم كانوا يتلقبون بهذا اللقب بالإضافة إلى لقب ملك، ثم صاروا يتلقّبون بلقب ملك وحده. وقد نظّم علماء الدراسات العربية قوائم بما عُثر عليه من أسماء ملوك القتبانيين وبحثوا في سني ملك كل منهم.

ج ـ مملكة أوسان:

وعرف من الكتابات القتبانية اسم شعب يقال له «أوسن» أو «أوسان» كانت له حكومة ومملكة عُثر على أسماء بعض ملوكها. وكانت ممتلكات هذه الحكومة تكوّن جزءاً من مملكة قتبان ولكن الأوسانيين ثاروا على قتبان وانفصلوا عنها وكوّنوا مملكة أوسان التي انضمّت إليها أو تحالفت معها قبائل أخرى.



الصورة رقم (53)
الملك «معد إيل» سلحان «يصدق إيل»
ملك أوسان
(عن مارجوليوت، اللوحة 3)

وكان الأوسانيون مثل المعينيين والقتبانيين من أهم شعوب العالم المصدّرة للبخور الذي كان يؤلف مادة ثمينة في ذلك الزمن من حيث إنه كان يقدم إلى الملوك وإلى الآلهة لكسب رضاها. وقد وصلتنا كتابات أوسانية كانت من جملة الكتابات التي اعتمد عليها الهمداني في الحصول على معلوماته عن أخبار اليمن القديمة.

وقد وصلت إلى أيدي المنقّبين من هذه المملكة الصغيرة عدد من التماثيل الرخامية لبعض ملوكها تعدّ من أنفس ما عُثر عليه من آثار في شبه جزيرة العرب، وهي أول تماثيل تصل إلينا لملوك العرب وقد كتب على قاعدة كل واحد منها اسم الملك الذي يمثّله. والصورة رقم (53) تمثّل أحد ملوك أوسان المدعو معد إيل سلحان بن يصدق إيل. وتفيدنا هذه التماثيل في التعرّف على نماذج ملابس الأوسانيين وكيفية تنظيم شعور رؤوسهم بالطريقة نفسها ما يزال يتبعها البدو في الوقت الحاضر.

د ـ مملكة حضرموت:

ومن الممالك الأخرى من حكومات جنوب جزيرة العرب التي

عاصرت ممالك معين وقتبان وأوسان وغيرها من الممالك العربية الصغيرة، مملكة حضرموت وقد ظهرت قبل المسيح بمئات من القرون، وهي تتميز عن الحكومات العربية الأخرى التي عاشت قبل الميلاد في كونها ما تزال تحتفظ باسمها القديم حتى هذا اليوم. وقد ورد اسم حضرموت في التوراة[1] كما ورد اسمها في الكتابات اليونانية والرومانية وفي الكتابات المعينية.

وقد ورد في الأخبار أن قبيلة عاد التي ورد ذكرها في أكثر المصادر والتي تعدّ من أقدم القبائل العربية كانت تسكن في حضرموت الشمالية، وهؤلاء، على رأي الرواة وأهل الأخبار، هم من ضمن قبائل الطبقة الأولى وهي أقدم الطبقات بحسب تقسيم العرب لأنساب القبائل العربية وقد سمّيت بالعرب البائدة لانقراضها.

وكان الحضرميون يعبدون من بين آلهتهم الإلٰه «سين» (الإلٰه القمر) الذي كان يعدّ الإلٰه القومي الرئيس لشعب حضرموت. وقد عثر المنقّبون على آثار معبد هذا الإلٰه في «الحريضة»، ويعتقد أن بعض واجهات المعبد تعود إلى أواسط القرن الخامس حتى القرن الرابع قبل الميلاد وأن قسماً من بناء المعبد يعاصر الدور السلوقي. ويلاحظ أن اسم الإلٰه «إيل» (الإلٰه العلي العظيم) أضيف إلى أسماء بعض ملوك حضرموت مما يدلّ على أن الإلٰه «إيل» كان معروفاً لدى العرب منذ القديم وهو الإلٰه الأوحد الذي دعا إبراهيم الخليل إلى عبادته.

وقد تمكّن العلماء المختّصون بالدراسات العربية من الوقوف على أسماء عدد من حكّام هذه المملكة فنظموا قوائم بهم حسب تسلسل سني ملوكهم ومن هؤلاء الملوك «صدق إيل» الذي كان ملكاً على حضرموت ومعين وقد ذكر أنه حكم في أواخر القرن الخامس ق.م. وتشير الكتابات الحضرمية إلى الروابط القوية بين حضرموت ومعين، ففي الوقت الذي كان معد يكرب ملكاً على حضرموت كان شقيقه ملكاً على معين، كما تشير هذه الكتابات إلى أن عدداً من المكربيين حكموا في حضرموت.

---

(1) (تك، 10: 26).

وقد اتّخذ ملوك حضرموت مدينة «شبوة» عاصمة لهم وقد ذكرها الكتّاب الكلاسيكيون في كتاباتهم كما ذكرها الهمداني، وقد زار فيلبي موضع هذه المدينة وكشف عن آثار معابدها وقصورها القديمة، كما كشف عن آثار السدود التي كان قد أقامها الحضرميون في وادي شبوة لخزن مياه الأمطار واستغلالها في إرواء الأراضي الزراعية.

هـ ـ مملكة سبأ:

إن هذه الدولة العربية اليمانية التي ورثت حكومات معين وقتبان وأوسان وحضرموت تمثّل دولة اليمن الكبرى، فقد ورد ذكر السبئيين في النقوش الآشورية حيث يذكر كل من تغلات فلاسّر الثالث (745 ـ 727 ق.م.) وسنحاريب (704 ـ 688 ق.م.) وأسرحدون (681 ـ 669 ق.م.) بأنهم أخذوا الجزية من يثعمر وكرب إيلو من ملوك سبأ. كما أن التوراة ذكرت سبأ وهي تارة تدخل أهل سبأ في أسرة الحاميين وتعدّهم من كوش بن حام[1] وتارة أخرى تذكرهم في الساميين[2]. ثم جعلت سبأ من ولد يقطان بن عامر في موضع آخر[3] وجعلته من ولد يقشان[4] ويقشان من أولاد إبراهيم من زوجته قطورة[5]. وقد ورد ذكر السبئيين في المؤلفات اليونانية والرومانية أيضاً، كما ورد اسم سبأ في القرآن الكريم[6] وما في ذلك من أخبار سيل العرم[7].

أما عن أصل السبئيين فيرى البعض أنه من المحتمل أنهم كانوا في الأصل قبائل بدوية من سكنة الجوف الشمالي من جزيرة العرب غير أنهم تركوا مواطنهم في القرن الثامن قبل الميلاد وارتحلوا إلى جنوب الجزيرة وهناك

---

(1) (تك، 10: 7)؛ (1 أخ، 1: 9)؛ راجع أيضاً (أش، 43: 3).
(2) (تك، 10: 28).
(3) (تك، 10: 26 ـ 28).
(4) (تك، 25: 3).
(5) (تك، 25: 1 ـ 2).
(6) سورة سبأ، الرقم 34، الآية 15.
(7) سورة سبأ، الرقم 34، الآية 16.

استقروا وأخذوا يتوسعون في ممتلكاتهم مستفيدين من ضعف المعينيين حتى وصلوا إلى الجوف الجنوبي من الجزيرة. وهناك اتخذوا «صرواح» و«مأرب» عاصمتين لهم. وتقع بلدة مأرب التي اكتسبت شهرتها من سدها العظيم على نحو ستين ميلاً إلى الشرق من صنعاء. وكان ملوك سبأ الأقدمون يلقّبون بلقب مكرب شأنهم في ذلك شأن ملوك قتبان الأوائل، ثم أخذوا يتلقّبون بلقب ملك، وقد وصلت إلينا أسماء 15 مكرباً و12 ملكاً.

و ـ سد مأرب أو سد العرم:

اشتهر دور المكارب ببناء السد الشهير المعروف بـ «سد مأرب» الذي يعدّ أعظم سد أنشىء في الجزيرة العربية إذ كان من أعاجيب العالم القديم. فأول مكاربي سبأ وصل اسمه إلينا «سمح علي» (حوالي 800 ـ 780 ق.م.)، ثم تلاه في الحكم المكرب «يدع إيل ضريح» و«يدع إيل بين». وقد تولّى بعد ذلك المكارب «سمح علي يناف» و«يثمر وتر» و«كرب إيل بين» وهم الذين قدّموا الجزية لسنحاريب وأسرحدون. وفي عهد «ذمر علي وتر» خلف «كرب إيل بين» بدأ بتشييد سد مأرب أو سد العرم الذي ظلّ يتردّد ذكره بين الناس فدخل خبره كثير من المبالغات والأساطير. قال ياقوت نقلاً عن المسعودي، «إن بانيه هو سبأ بن يشجب بن يعرب مات قبل أن يستكمله فأتمته ملوك حمير بعده»، كما قال نقلاً عن المسعودي أيضاً إن لقمان بن عاد هو الذي بنى السد وجعله فرسخاً في فرسخ وجعل له ثلاثين مثقباً[1].

والسد عبارة عن حائط ضخم أصم أقيم في عرض وادي أذنة الذي تتجمع فيه معظم مياه السيول المنحدرة من الجبال الواقعة في أطراف صنعاء، يمتد بطول حوالي 800 ذراع وبعرض 150 ذراعاً من الشرق إلى الغرب وقد بني السد بالتراب والحجارة، ينتهي أعلاه بسطحين مائلين على زاوية منفرجة تكسوها طبقة من الحصى لمنع انجراف التراب عند تدفّق المياه. ويستند السد من طرفيه إلى جبلين وعند أسفل كل من هذين الجبلين منافذ للمياه مبنية

---

(1) ياقوت 4: 382.

بالحجارة الضخمة المتينة يخرج منهما الماء ليسقي الجنتين اليمنى واليسرى، ويصعد من هذه المنافذ إلى أعلى الجبل بمدرجات مبنية على وجه الجبل. وكانت هذه المنافذ تفتح وتسدّ بوساطة أبواب محكمة وحركات مهندسة فتفتح للسقي حسب الحاجة ثم تسدّ عند إتمام السقي. وقد أدخلت عدّة إضافات على السد بعد بنائه حتى استكمل شكله النهائي في حوالي سنة 300م[1].

أما قصة سيل العرم وخراب السد، تلك الكارثة الكبرى التي أشار إليها القرآن الكريم[2] فقد اختلف الباحثون في تفاصيلها وخاصة فيما يتعلّق بتاريخ انهيار السد الذي عدّه أكثر الباحثين السبب المباشر لهجرات القبائل العربية من اليمن إلى سوريا والعراق وتفرّقهم في أطراف جزيرة العرب مما آل إلى تأسيس دولة الغساسنة في سوريا والمناذرة في العراق[3]. فقال حمزة الأصفهاني: إن الحادث وقع قبل الإسلام بأربعمائة سنة[4]، أي في القرن الثالث الميلادي. وذكر ياقوت أن الحادث وقع في عهد ملك حبشان ولعله يريد الأحباش الذين فتحوا اليمن في القرن السادس الميلادي وأحرقوا كثيراً من قصورها وأبنيتها. كما أفاد ابن خلدون أن السد تهدّم في أيام حسان بن تبان أسعد (القرن الخامس للميلاد). وقد وصف الهمداني في كتابه «الإكليل» بقايا السد التي شاهدها بنفسه في أوائل القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادي)[5].

والأرجح أن كثرة التصدّعات والترميمات في السد كانت هي السبب في اختلاف الإخباريين في تحديد تاريخ انهيار السد وإرجاعه إلى عصور مختلفة إذ كانوا يعدّون كل تصدّع تهدّماً. وعلى الغالب أن هجرات القبائل العربية من اليمن كانت على شكل تدريجي وعلى موجات متتالية بسبب هذه التصدّعات

---

(1) الدكتور صالح أحمد العلي، «**محاضرات في تاريخ العرب**» ص 23.

(2) سورة سبأ، الآية: 15.

(3) انظر ما تقدّم حول دولتيّ الغساسنة والمناذرة.

(4) «**تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء**»، الطبعة الثالثة، 1961، ص 8.

(5) انظر كتاب «**العرب قبل الإسلام**» تأليف جرجي زيدان، ج 1، ص 150 و«**تاريخ العرب**» المطول للدكاترة: حتي وجرجي وجبور، الطبعة الرابعة، ج1، ص70، 84.

التي كانت تقلل من فعالية السد نتيجة تعذّر إملائه إلى الارتفاع الذي صمم عليه في الأصل حتى انهار نهائياً. ولعلّ القحط وقلّة الأمطار في مواسم متتالية كانت هي الأخرى السبب في نزوح القبائل بطوناً وأفخاذاً.

ومن المنقّبين المحدثين الذين بحثوا عن السد المستشرق الفرنسي أرنولد الذي تمكّن من الوصول إلى السد سنة 1843، وزار السد بعده كل من هاليفي وكلازر ووافقاه في وصفه وهو يطابق ما قاله الهمداني[1].

وقد عُثر لدى التنقيب في أنقاض السد على كتابات بالحرف المسند ورد فيها أن باني الطرف الأيسر هو «سمهملي ينوف بن ذمر علي مكرب[2] سبأ وأنه خرق جبل بلق وبنى مصرفاً رحباً لتسهيل الري» وباني الطرف الأيمن «يثعمر بين بن سمهملي ينوف» وقد نقشت العبارة نفسها التي على الطرف الأيسر على هذا الطرف أيضاً. وهذا ما يشير إلى أن الملك الأب بنى جانباً والملك الابن بنى الجانب الآخر وكلاهما من أهل القرن الثامن قبل الميلاد.

أما عن تهدّم السد فقد وفق كلازر إلى اكتشاف أثرين عليهما كتابة مطوّلة تتعلّق بترميم ما انصدع من البناء وقد كتب أحدهما أبرهة الحبشي وذلك بعد دخول اليمن في حوزة الأحباش وقد أرّخت هذه الكتابة في سنة 658، وهذه السنة في حساب الحميريين تعادل سنة 543 للميلاد[3].

ز ـ العصر الحميري:

كان السبئيون قد خلفوا المعينيين في نقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق فكانت السلع والأطياب تأتي من الهند والحبشة إلى

---

(1) Arnaud, «Plan de la digue et de la ville Mareb **Journal Asiatique**, 7me. Série, IV, Paris, 1874; Halévy, **«Etudes Sabéennes»**, J. A. 7me. Série, I, II, IV, Paris, 1873-74; Glaser, **«Der Damme von Marib»**, O. M. O. XXIII, 1897.

(2) لقب مكرب كان يطلق على حكّام اليمن الأوائل وهي كلمة دينية تعني المقدس ولكن عندما أخذت الدول العربية تتدرّج من النظام الثيوقراطي إلى النظام الملكي الدنيوي حلّ محله لقب (ملك).

(3) انظر نصّ هذه الكتابة المطوّلة في كتاب «**العرب قبل الإسلام**» تأليف جرجي زيدان، ص 159.

شواطىء جزيرة العرب فينقلها السبئيون على قوافلهم إلى مصر والشام والعراق فكان أن ازدهرت بلادهم واتّسعت ثروتهم وامتدّ سلطانهم إلى أطراف الجزيرة شمالاً وشرقاً فعمروا بلادهم بحفر الترع وإنشاء السدود وبناء القصور والهياكل والحصون وقد مارسوا الزراعة على أوسع نطاق مستفيدين من وجود سد مأرب الذي كانوا يرممونه عند كل تصدّع يصيبه حتى أخذت طرق التجارة تتحوّل من البر إلى البحر فصارت تسير في الطريق البحري من المحيط الهندي إلى البحر الأحمر وتنزل بضائعها في الموانىء المصرية أو في العقبة. وقد أدّى ذلك إلى تدهور أحوال المدن اليمانية التي كانت تعتمد في الأكثر على التجارة المارّة بها، ذلك في حين تحوّل الانتعاش إلى المدن اليمانية الواقعة على ساحل البحر الأحمر فأخذت قوّة هذه المدن تزداد تدريجياً حتى استطاعت أن تتغلّب على السبئيين وأن تكوّن دولة مستقلة. وكان أصحاب هذه المدن هم «الحميريون» وهم فرع من السبئيين اتخذوا «ريدان»، التي هي ظفار الواقعة على بُعد مائة ميل من مخا، عاصمة لهم.

ويبدأ العصر الحميري سنة 115 ق.م. حين انتقلت عاصمة السبئيين إلى ريدان وينتهي بانقراض دولة حمير على عهد ذي نواس 525م، وكذلك يكون الحميريون قد حكموا في اليمن 640 سنة وقد عثر علماء الآثار على أسماء 28 ملكاً من ملوك حمير حكموا في الفترة الممتدة بين سنة 115 ق.م. وسنة 525 ب.م.

وقد ساعد الحميريين موقعهم الساحلي واحتكارهم الملاحة في البحر الأحمر على المساهمة في الحركة التجارية حتى سنحت لهم الفرصة فتغلّبوا على إخوانهم السبئيين أو اتحدوا معهم في أواخر أيام دولتهم فصار لقب زعيمهم «ملك سبأ وذي ريدان» وريدان هي ظفار عاصمة الحميريين، وفي نهاية القرن الثالث الميلادي تلقّب ملوك سبأ بلقب جديد هو «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في الجبال وفي تهامة» مما يشير إلى توسّع مملكة الحميريين وامتداد تخومها لتضمّ تلك المناطق. ومن يمنت جاء اسم اليمن الذي توسّع مدلوله ليشمل في العصور الإسلامية أراضي واسعة لم تكن تعدّ من اليمن قبل الإسلام.

وقد بالغ المؤرّخون العرب كثيراً في وصف فتوحات دولة حمير إذ نسب إلى أحد ملوك حمير المدعو أسعد أبو كرب (385 ـ 420م.) أنه غزا آذربيجان والقسطنطينية وحارب الترك وهزمهم كما أنهم نسبوا إليه غزوات كثيرة وأعمالاً عظيمة منها غزو المدينة (يثرب)، ومن الثابت أن الحميريين استولوا على بلاد الحبشة في القرن الأول قبل الميلاد.

وفي عهد الدولة الحميرية بدأت المسيحية تنتشر في اليمن فاّتخذ الأحباش من نصارى اليمن سنداً لهم واستولوا على اليمن سنة 340م، غير أن الحكم الحبشي لم يدم طويلاً فقد استطاع اليمانيون إخراجهم سنة 378م. وكان لهذه الحملة ردّ فعل عند اليمانيين الحميريين ضد النصارى فلما جاء ملك ذو نواس (515 ـ 525م) عزم على اجتثاث المسيحية من اليمن وفرض على النصارى ترك دينهم فلما أبوا أحرقهم بالنار وحرق الإنجيل، ويروى أن ذا نواس اعتنق اليهودية. وتُسمّى يوسف أو فنحاص. غير أن اضطهاد ذي نواس للمسيحيين وتعصّبه لليهودية أثار البيزنطيين فأوعزوا إلى الأحباش بالهجوم على اليمن انتصاراً للنصارى، وكان أن جهّز الأحباش حملة على الدولة الحميرية واستطاعوا أن يقضوا عليها، فقتلوا أهلها وهدموا حصونها، أما ذو نواس فقد رمى بنفسه في البحر وقال الموت في البحر أحسن من الأسر، ولكن لم يلبث أهل اليمن طويلاً حتى استنجدوا بالساسانيين[1] الفرس وهم أعداء البيزنطيين فأنجدهم أنو شروان بقوّة استطاعت أن تخرج الأحباش منها وبذلك تحرّرت اليمن رغم محاولة الفرس البقاء فيها.

ديانة عرب الجزيرة:

إن أكثر ما في ثقافة أهل الجزيرة العربية القديمة يتمثّل بنشاطاتهم الدينية، شأنهم في ذلك شأن الأقوام القديمة التي ازدهرت في تلك الأزمان

---

(1) انظر الدكتور جواد علي «**تاريخ العرب قبل الإسلام**»، ج 1، ص 381 ـ 411، ج2، ص8 ـ 276، ج3، ص136 ـ 209؛ جرجي زيدان «**العرب قبل الإسلام**»، ج1، ص103 ـ 163؛ الدكتور أحمد صالح العلي، «**محاضرات في تاريخ العرب**»، ص17 ـ 35.

السحيقة، فكانت ديانة عرب الجزيرة قائمة على الوثنية، وهي ديانة السكان القدماء نفسها في الأقطار الأخرى، وقد جاؤوا بها إلى مستعمراتهم الجديدة مع لغتهم وثقافتهم الأدبية والمادية حاملين معهم آلهتهم وأهمّها الإلٰه القمر «سين». وكانت عبادة هذا الإلٰه شائعة في جميع أنحاء الجزيرة العربية تقريباً جنوبها وشمالها، كما كان معروفاً في بلاد الحبشة. وكان الإلٰه القمر إلٰهاً مذكراً عند سائر الساميين في حين أن الإلٰه الشمس كان إلٰهاً مؤنثاً عند الساميين في جنوب الجزيرة العربية ومذكراً عند الشماليين، وعلى العكس من ذلك كانت «الزهراء» إلٰهاً مذكراً عند الجنوبيين ومؤنثاً عند الشماليين. ويرى الأستاذ ديتلف نيلسن أن هذا التغير في جنس الشمس والزهرة يشير إلى انتقال الديانة السامية القديمة من الجنوب إلى الشمال وتغيّرها بسبب البيئة الجديدة. ويعتقد أن تسمية سيناء مأخوذة من الإلٰه «سين» المذكور. ويقول الأستاذ نيلسن في دراسته عن الديانة العربية القديمة[1] أن عدد الآلهة الذين توصل المؤرّخون إلى معرفة أسمائهم في الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب بلغ أكثر من مائة اسم، منهم خمسون إلٰهاً توجد عنهم معرفة تفصيلية. وقد ورد في القرآن الكريم ذكر أسماء خمسة من الآلهة التي كانت تعبد في الجزيرة العربية ترجع إلى زمن نوح عليه السلام وهي: «ود» و«سواع» و«يغوث» و«يعوق» و«نسر»[2]، كما ورد في القرآن الكريم أيضاً ذكر ثلاثة من الآلهة الإناث، هي: «اللات» و«العزى» و«مناة»[3].

والجزيرة العربية كانت مهبطاً لعدد من الأنبياء والرسل الذين نادوا بالوحدانية، ذكر بعضهم القرآن الكريم مثل نوح وهود وصالح وغيرهم، فقال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[4]. وما إبراهيم

(1) نيلسون ورفاقه «**التاريخ العربي القديم**»، الترجمة العربية، ص 84.

(2) سورة نوح، الآية: 21 وما بعدها.

(3) سورة النجم، الآية: 20. انظر: الدكتور جواد علي «أصنام العرب»، **مجلة «سومر»** المجلد 23 (1967)، ص 3 ـ 46.

(4) سورة غافر، الآية: 78.

الخليل عليه السلام إلّا أحد هؤلاء الأنبياء الذين يرجع أصلهم إلى الجزيرة العربية[1]، وكذلك الكاهن الأعلى الموحّد «ملكي صادق» ملك أورشليم الذي بارك إبراهيم الخليل باسم الإلٰه العلي خالق السموات والأرض[2]. ثم جاء من بعده الكاهن المدياني الموحّد يثرون الذي زوّج ابنته إلى النبي موسى والذي كان على ما يرجّح الباحثون يعبد الإلٰه «يهوه» وهو اسم الإلٰه الذي اتخذه اليهود إلهاً خاصاً بهم فيما بعد. بشّر هؤلاء بالتوحيد قبل ظهور أتباع موسى بألف إلى ألفيّ عام، دعوا إلى عبادة الإلٰه الواحد خالق السموات والأرض، وقد نسبت هذه الدعوات النبوية كلها إلى أصل واحد، هو السلالة السامية العربية ختمت بدعوة محمد عليه الصلاة والسلام التي جاءت متممة لها.

وهناك ما يدلّ على أن بعض القبائل العربية في الجزيرة العربية كانت تمارس دين التوحيد الذي نادى به إبراهيم الخليل عليه السلام من قبل والذي يرتقي إيمانه به إلى زمن يسبق عهد موسى واليهود، فيقول الدكتور غوستاف لوبون: «لقد وجد بين العرب في جزيرة العرب من يعبد إلٰهاً واحداً وسمّي هؤلاء بالحنفاء، وكان محمد ﷺ يحب هذا الاسم، وليست عقيدة التوحيد، التي هي من أهم مبادىء القرآن، كل ما عند الحنفاء، بل قالوا أيضاً، كما قال القرآن فيما بعد، إن على الإنسان أن يسلّم بقضاء الله وقدره تسليم إبراهيم حينما رأى ذبح ابنه إسحاق (والصحيح ابنه إسماعيل) ولذا لم يكن من الخطأ إخبار محمد ﷺ في القرآن بوجود مسلمين قبل ظهوره[3]. والحنيف ذكر في الغالب مقترناً بإبراهيم في القرآن الكريم مشيراً إلى وحدانية الله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ﴾[4] و﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ﴾[5] هذا مع العلم أن ذكر (الله) كان شائعاً عند شعراء الجاهلية قبل الإسلام فمعظمهم كان يدرك معنى الإلٰه العلي

---

(1) انظر الفصل الخامس «عصر إبراهيم وإسحاق ويعقوب».

(2) انظر الملحق الأول «أورشليم في أقدم عصورها».

(3) «**حضارة العرب**»، ترجمة عادل زعيتر، ص 99 ـ 100 (الطبعة الرابعة).

(4) سورة البقرة، الآية: 135.

(5) سورة الحج، الآية: 31.

الذي يهيمن على كل شيء خالق السموات والأرض. فقد جاء في ديوان امرىء القيس الشاعر العربي الشهير ما يشير بوضوح إلى رفضه عبادة الأصنام وميله إلى وحدانية الإله[1]. فكان الاصطلاح ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ شائعاً عند العرب قبل ظهور الإسلام وقد اشتهر بهذا اللقب أفراد من مفكري العرب سمت نفوسهم عن عبادة الأوثان إذ كانوا يرون أن التقرّب إلى الله بالحجارة أمر لا قيمة له، لذلك فقد أطلق اللقب المذكور على من عرف بنبذه الشرك وميله إلى التوحيد[2]. والمسعودي يؤيد ذلك بقوله: «إن العرب كانت في جاهليتها فرقاً: منهم الموحّد المقرّ بخالقه، المصدّق بالبعث والنشور، موقناً بأن الله يثيب المطيع، ويعاقب العاصي، فهناك من دعا إلى الله عزّ وجلّ ونبّه أقوامه على آياته كقسّ بن ساعدة الأيادي ورئاب الشني وبحيرا الراهب وكانا من عبد القيس، ومنهم أمية بن أبي الصلت المتوفى سنة 624م وكانت تربطه بالرسول ﷺ قرابة عن طريق أمه»[3].

قبائل العرب البائدة:

وقد أورد الإخباريون العرب ذكر أسماء عدد من القبائل العربية القديمة في شبه جزيرة العرب كانت لها حضارة قديمة ترجع إلى ما قبل الميلاد، وقد ورد ذكر بعضها في القرآن الكريم. ويقول الرواة وأهل الأخبار إن هذه القبائل العربية هي من ضمن قبائل الطبقة الأولى، وهي أقدم الطبقات بحسب تقسيم الإخباريين لقدم القبائل العربية وقد سُمِّيت بالعرب البائدة بسبب انقراضها واندثارها. ويكاد يتّفق المؤرّخون على أن هذه الطبقة تشتمل على أقدم القبائل

---

(1) انظر: (أديان العرب قبل الإسلام)، **مجلة العربي**، العدد 168 (تشرين الثاني 1972، ص44 ـ 49).

(2) ولفنسون، «**تاريخ اليهود في بلاد العرب**»، ص 78 ـ 80.

(3) انظر في موضوع الحنفاء: ابن هشام، **السيرة**، ج 1، 242 ـ 224؛ المسعودي «**مروج الذهب**»، ج2، ص102. محمد بن حبيب البغدادي، «**المحبر**»، صدر آباد، 1942، ص171 ـ 172؛ ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري، «**المعارف**» القاهرة، 1960، 58 ـ 62 الآلوسي، «**بلوغ الإرب**»، ج2، 244 ـ 286، ابن الكلبي، «**الأصنام**»، 60 ـ 61.

العربية وهي: عاد وثمود ومعين وسبأ والعمالقة وطسم وجديس وأميم وعبيل وجرهم الأولى وحضورا. ومن المتّفق عليه أن جميع قبائل العرب البائدة هذه هي من أولاد إرم بن سام بن نوح‌عليه السلام، وقد كانت، على ما أورده الإخباريون، موجودة في عهد إبراهيم الخليل الذي هو منها بصفته من القبائل الآرامية[1]. والظاهر أن هلاك هذه القبائل كان بسبب كوارث طبيعية نزلت بها كالعواصف الرملية أو البراكين أو الهزات الأرضية، ولعلّ أهم من كل ذلك انحباس المطر واجتياح الجفاف للمنطقة مما أدّى إلى نزوح الإنسان والحيوان من وطنهما والارتحال عنه إلى مناطق تتوفر فيها أسباب العيش وفي مقدمتها المياه. أما القبائل التي كتب لها البقاء بعد هلاك الطبقة الأولى فهم العرب القحطانيون في الجنوب والعرب العدنانيون في الشمال، وقد سموا في عرف بعض النسابين «العرب العاربة» (الطبقة الثانية) والعرب المستعربة أو المتعربة (الطبقة الثالثة) على التوالي وقحطان هو «يقطان» الذي ورد اسمه في التوراة وهو يقطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح[2]، وعلى ذلك فالقحطانيون هم أقدم عهداً من «قوم موسى». ووطن القحطانيين الأصلي اليمن حيث تولّى يعرب الرئاسة بعد قحطان. أما العدنانيون ويقال لهم أيضاً النزاريون أو المعديون وهم من صلب إسماعيل بن إبراهيم وامرأته رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي سموا بالعرب المستعربة لأنهم انضموا إلى العرب العاربة وأخذوا العربية منهم. ووطن العدنانيين الأول هو مكة التي اعتبرت المهد الأول للإسماعيليين ثم اضطرتهم عوامل قاهرة إلى التفرق والهجرة[3].

وهكذا نشأت بين البيئة الشمالية والبيئة الجنوبية فروق ميّزت بين عرب الجنوب أهل المدر الذين كانوا يقطنون اليمن وحضرموت وما جاورهما من السواحل، وبين عرب الشمال، أهل الوبر الذين كانت غالبيتهم تعيش في بيوت من الشعر في نجد والحجاز. لذلك تفوّق عرب الجنوب على عرب

(1) انظر ما تقدّم عن «القبائل الآرامية والعرب البائدة» في الفصل الأول.
(2) انظر جدول الأمم (تك، 10: 25 ـ 30).
(3) الدكتور جواد علي، «**المفصل في تاريخ العرب**»، ج 1، ص 294 ـ 409.

الشمال في حضارتهم وثقافتهم وصناعتهم وأحوالهم السياسية. وكذلك كانت لغة أهل الشمال تختلف عن لغة أهل الجنوب، فالأولى هي لغة القرآن الكريم، أي اللغة العربية، بينما ظلّت الثانية لغة سامية قديمة، أي لغة سبأ ومعين أو حمير، وهي تمتّ بصلة ما إلى اللغة الحبشية كما أنها تتصل أيضاً باللغة الأكدية (البابلية القديمة) من حيث تراكيب الأسماء وتصاريف الأفعال والضمائر والمفردات، ثم تراجعت لغة أهل الجنوب أمام لغة أهل الشمال التي احتلّت مكانها، وقد ساعدت على هذا التحوّل الأسواق الأدبية ومواسم الحج السنوية المنتظمة إلى الكعبة والعلاقات التجارية التي أنشأتها مكة مع غيرها من البلدان حتى جاء الإسلام فسادت لغة الشمال وحلّت محل لغة الجنوب التي لم يبق منها غير لهجتي مهرة وسوقطرة.

أما الكتابات التي استعملها العرب في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام فتقسم إلى فرعين رئيسيين أيضاً، تفرّع كلاهما من خط طور سيناء، وهما الخط السامي الشمالي ويمثّله الخط الفينيقي الكنعاني الذي يشمل عدّة خطوط في آسيا الصغرى والخط العبري القديم ثم الخط الآرامي وفروعه والهندي والنبطي والبهلوي والتدمري والسرياني والعبراني المربع المسمى (بالخط الآشوري)، والخط السامي الجنوبي الذي يشمل الحميري والسبئي والمعيني واللحياني والثمودي والصفوي. ويطلق أحياناً على بعض الخطوط الجنوبية، كالسبئي والمعيني اسم الخط المسند لأن حروفه كلها عبارة عن خطوط تستند إلى أعمدة، ومن الخط السبئي اشتقّ الخط الحبشي، والمسند هو أعتق الأقلام التي عُرفت في شبه جزيرة العرب حتى الآن. وكان قد نشأ في اليمن ثم انتقل منها إلى العراق حيث تعلمه أهل الحيرة ومنها تعلمه أهل الأنبار ومنهم تعلّمته جماعة قامت بنقله إلى الحجاز.

الزراعة والتجارة قوام الحضارات السامية في الشرق الأدنى:

قال تعالى في قرآنه الكريم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1]، فمنذ

---

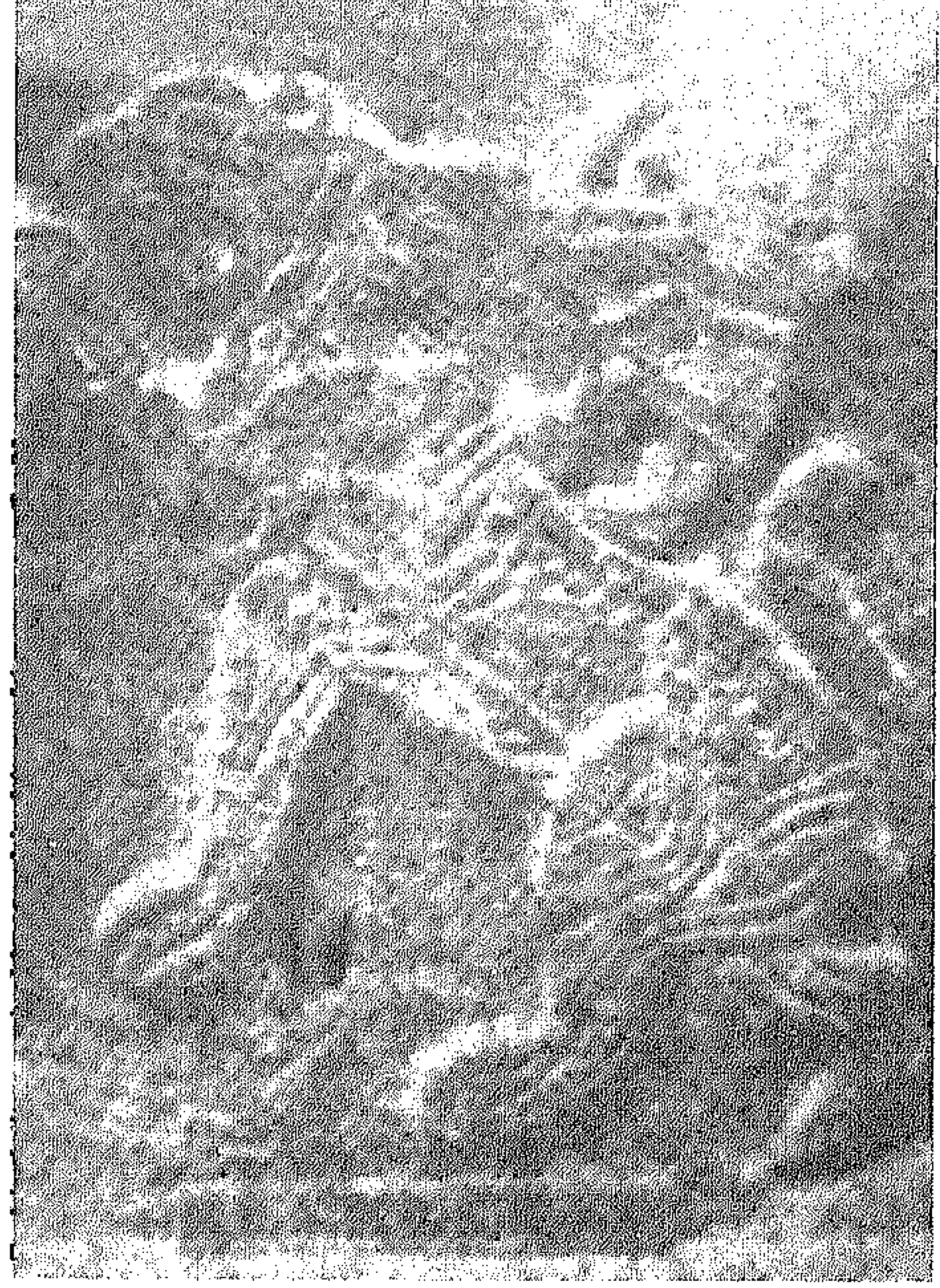
(1) سورة الأنبياء، الآية: 30.

الأزل كان الماء وما زال مصدر الحياة والازدهار، فما قامت حضارة ذات شأن في تاريخ الإنسان القديم إلا كانت الزراعة وما يرافقها من مشروعات إروائية تحتضن تلك الحضارة، فتسير معها جنباً إلى جنب في مسيرة تطورّها وتقدّمها. ولا أدل على ذلك من ازدهار الحضارات القديمة على ضفاف الأنهار حيث الماء والأرض، العنصران الأساسيان لازدهار الحياة. وعلى هذا قامت في ربوع الرافدين ـ دجلة والفرات ـ وفي وادي النيل أقدم وأرقى حضارتين معروفتين في تاريخ العالم القديم، وقد كان لوادي الرافدين نصيب أكبر في الدور الذي لعبه في تأسيس أقدم الإمبراطوريات السامية في العالم وذلك في ظلّ أقدم نظام للري الدائم عرفه التاريخ. وقد أطلق العلماء على هذه الحضارات تسمية الحضارات الإروائية أو الحضارات النهرية، أي الحضارات التي تقوم على الزراعة المعتمدة على الإرواء لتمييزها عن الحضارة المطرية التي تعتمد في إروائها على الأمطار فقط. فكانت مراكز هذه الإمبراطوريات على ضفاف وادي الرافدين، فعواصم الأكديين والبابليين والكلدانيين كانت على ضفاف نهر الفرات وعاصمة الآشوريين على نهر دجلة، وكان وادي الفرات الخصيب الموئل الرئيسي الذي أسّست على ضفافه أقدم المستوطنات الزراعية السامية فامتدّت على طول النهر ابتداءً من «كركميش» (جرابلس) شمالاً حتى بلدة «كيش» في جوار بابل جنوباً على مسافة حوالي 1400 كيلومتر بطريق النهر وذلك لتوافر العناصر الأساسية للحياة فيه، وهي الماء والأرض وحرارة الشمس. ويرى الأستاذ «كوتزه» أن سيطرة الملوك الساميين القدامى امتدّت إلى أبعد من ذلك جنوباً فشملت بلدة «نيبور» (نفر الحالية) البلدة السومرية المقدسة[1]. وكانت أبرز الحضارات التي ازدهرت على النهر حضارة «تل حلف» في منابع نهري البليخ والخابور وهي ترجع إلى 4800 سنة قبل الميلاد ثم حضارة العموريين في «ماري» وفي «باغوز»، والأخيرة ترجع إلى أكثر من 5000 سنة قبل الميلاد، ثم حضارة «جمدة نصر» في العراق التي ترجع إلى سنة 3500 ق.م.

(1) A. Goetz, «Early Kings of Kish», Jour. of **Cuneiform studies**, XV, No. 3, p. 111.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى التأكيد أن توسّع الأعمال الزراعية والحاجة إلى تنظيم مشاريع الإرواء هي التي خلقت الحكومة، وقد عدّ تنظيم الري للأغراض الزراعية عند كثير من الباحثين عاملاً بالغ الأهمية في إحداث التماسك الاجتماعي والسياسي. ولا عجب في أن أقدم الشرائع المعروفة في العالم ظهرت في وادي الرافدين وهي تعالج بالدرجة الأولى ما يترتب على الفلاح من واجبات وعلاقته مع الذين لهم صلة بالمسك الزراعي الذي يعتمد على الإرواء.

ومما لا جدال فيه أن حاجة سكان وادي الرافدين القدامى إلى توسيع رقعة أراضيهم الزراعية بعد تكاثر عددهم هي التي دفعت بهم إلى إتقان هندسة الري المشتملة على شق الجداول السيحية ونقل المياه إلى مسافات طويلة حتى تصل إلى الأراضي الزراعية فترويها سيحاً. هذا فضلاً عن إتقان وسائل رفع المياه إلى الأراضي المرتفعة مما أدّى بهم إلى اختراع الدولاب واستخدام الطاقة المائية والحيوانية في تدويره. وقد رافق هذا الإتقان دراسة العوامل الطبيعية وتأثيراتها على الحياة الزراعية كمعرفة المواسم وخصوصاً مواسم الفيضان وتتبع الأحوال الجوية والحركات الفلكية وما إلى ذلك من الأمور المتّصلة بالزراعة كتعيين مواسم كل من الزروع الشتوية والصيفية. هذا كما أدّى التوسّع في الأعمال الزراعية إلى إتقان أعمال المسح بغية تحديد حدود ملكيات الأراضي وذرع المساحات، ومن ضمن ذلك تثبيت قواعد خاصة للمقاييس الطولية والسطحية والحجمية وكذلك المكاييل والموازين. وقد كان لاختراع المحراث أثر كبير في التقدّم الزراعي. وقد تمخّض عن كل ذلك تأسيس المدن على ضفاف الأنهار وتجمّع السكان في مجتمعات مدنية تتولاها حكومات ذات سلطة تحكم بموجب أنظمة وقوانين تعالج الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وقد كان للدين دور رئيسي في تحديد العلاقات الشخصية والعامة في هذه المجتمعات. وكان تجاوز الإنتاج الزراعي المقدار المطلوب لسدّ حاجات الاستهلاك المحلّي حافزاً على التعامل مع البلاد المجاورة التي تحتاج إلى الأطعمة. ومن هنا توطّدت العلاقات التجارية لتصدير المنتوج الزراعي واستيراد الحاجات غير المتوفرة في البلد المصدّر



صورة رقم (54)
نقش رائع من حفائر تل حلف

للحبوب كالمعادن والأحجار الكريمة وغيرها من المواد. ومما يدلّ على أهمية التجارة كعنصر أساسي في حياة المجتمع العربي القديم أن القبائل العربية رغم اختلافها ونزاعها الدائم المستمر فيما بينها قد اتفقت على تعيين أشهر يحرّم القتال فيها وذلك لتأمين سلامة القوافل التجارية وتجار القبائل[1]. ولذلك يمكن القول بأن حضارة وادي الرافدين القديمة كانت قائمة بالدرجة الأولى على عاملين رئيسيين هما الزراعة المعتمدة على الإرواء ثم على التبادل التجاري، وأوضح دليل على صلة الري بالحضارة بصورة عامة أن الإلٰه «أنكى» (آيا) إلٰه المياه كان ذاته يعتبر إلٰه الحضارة.

حياة البداوة في الجزيرة العربية ونظمها[2]:

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن الجزيرة العربية خلفت حضارة خاصة بها إلى جانب الحضارة النهرية حملت معها الطابع العربي السامي الأصيل إلى المناطق المجاورة، ولا تزال آثار هذه الحضارة تتمثّل بحياة البداوة ونظمها المعمول بها في المجتمع البدوي حتى يومنا هذا. وقد يحسن أن نعرض هنا نبذة عن حياة البداوة ونظمها وتقاليدها التي ورثتها من العصور القديمة:

إن أولى صفات البدوي عيشه حياة ترحال دائمة قائمة على التنقّل من

(1) الخربوطلي، **العرب والحضارة**، ص 23.
(2) انظر كتاب الدكتور صالح العلي، «**محاضرات في تاريخ العرب**»، ص 104 ـ 142.

مكان إلى آخر حيث توجد الآبار والعيون والمراعي، وهذه الصفة هي أساس حياته منذ أن وجد في موطنه الصحراوي. والبدوي مرتبط قبل كل شيء بالأسرة والقبيلة والنظم القبلية التي تستند إلى العرف والتقاليد التي ورثها عن أسلافه منذ أقدم الأزمنة، هذا مع تمتّعه بحق الحرية الشخصية برغم صلته بأسرته وقبيلته. لذلك فوطنية البدوي وطنية قبلية، هو يحمي القبيلة والقبيلة تحميه، وهذا ما يُسمّى بالعصبية. فالقبيلة أساس الحياة الاجتماعية في الصحراء التي فرضت هذا النظام من الحكم وما يرافقه من حقوق وواجبات بالنسبة لأفراد القبيلة بعضها مع بعض.

وتتفرّع القبيلة إلى فروع كثيرة لكلّ منها شيخ يرأسها ويعرف كل فرد نسبه وصلته بكل فرع من الفروع، ويتزعّم شيوخ القبائل شيخ أرفع مقاماً يُعرف بشيخ المشايخ. وقد تظل الرئاسة في أسرة واحدة عدّة أجيال ولكن يتوقف ذلك على موافقة القبيلة، وقد يعزل الشيخ وتنتخب القبيلة رئيساً آخر. أما سلطة الشيخ فتعتمد بالدرجة الأولى على صفاته الشخصية والثقة التي يتمتع بها بين أفراد عشيرته. ولشيخ المشايخ سلطة تقرير الحرب والسلم وعقد الاتفاقيات فهو صاحب الاختصاص في ذلك مع مراعاة مطاليب جمهور العشيرة وبعد استشارة مشايخ قبيلته.

وأكثر النزاعات في هذا المجتمع البدوي مبعثها تنازع البقاء في الجزيرة منذ القدم إذ تدور حول الماء والمرعى مما أدّى إلى التناحر بين القبائل وغزو بعضهم البعض، ومع أن الصراع فرّق البدو إلى شيع صغيرة متنافرة، ولكن نضالهم المشترك ضد الطبيعة القاسية قد قرّب بعضهم من بعض وأدّى إلى أن اعترف العرب جميعاً بواجب واحد وغالوا في المحافظة عليه ألا وهو واجب الضيافة وحماية اللاجىء المستجير، وقد أطلق العرب القدماء على هذه الصفات لقب «المروءة» وهي تشمل الكرم والشجاعة معاً.

ولما كان البدوي مسؤولاً عن حماية نفسه وحماية قطعانه في الصحراء المنعزلة فقد أصبح محارباً بالفطرة مقاتلاً شجاعاً لا يبزّه أحد في استعمال القوس والحربة وغيرهما من السلاح. «وقد أكسبت الطبيعة البدوي صفات

تناسب بيئته، فهو ضعيف الوزن، نحيف البدن، قوي نشيط، يتحمل التعب والمشقات، وعظيم الصبر والاحتمال، يكفيه طعام قليل متواضع. وصفات البدوي هي صفات الجنس السامي نفسه: الفطنة، والذكاء، والدهاء، وسرعة البديهة، والخيال المتوقد، ويتميّز بالكبرياء وعزّة النفس التي تبدو واضحة في عينيه السوداوين إلى جانب فصاحته»(1).

ويصف الأستاذ عبد الجبار الراوي خبير البادية المعروف مسكن البدوي فيقول: «ليس في البادية مساكن ثابتة وإنما هناك بيوت شعر للسكنى ومنها البيتَ الصغير الذي لا يكاد يسع أصحابه، ومنها الكبير جداً ذو الأعمدة الذي يستوعب الأهل والضيوف وربما أدخلوا فيه (في الشتاء القارص حيث تتجمد المياه) صغار الغنم والإبل والخيل خوفاً عليها من البرد، وبعض بيوت الشعر صغير مرفوع بعمودين فقط وبعضها مرفوع بثلاثة أعمدة وأربعة. ويقسم البدو بيوت الشعر الكبيرة إلى شبه غرف مستقلة بينها الحواجز المصنوعة من الشعر أو القصب وتخصيص كل قسم لغرض معين فواحد للضيوف، والآخر للنوم، والثالث للطبخ.. وكثير من البدو يصنعون بيوتهم بأيديهم وأيدي نسائهم غزلاً ونسجاً من شعر الماعز وأوبار الإبل... والبدوي راض جداً بحالته... ومما يزيد في ارتياحه وسروره أنه خفيف الحمل، يرحل في أي وقت شاء من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق، أو من الشمال إلى الجنوب، أو بالعكس إذا دعاه داعٍ إلى المرعى والأرض، لا يمنعه من ذلك مانع، فيعمد إلى إبله يشدّ عليها رِحاله، ويحملها ما عنده، ويرحل إلى حيث يريد ويختار. هذا هو سرّ رضا البدوي، وتفضيله هذه الحياة الحرة على قيود القرى والمدن والانقياد لأحكام القوانين والأنظمة»(2).

إن القواعد في حسم الدعاوى في البادية قديمة توارثها الأبناء عن الآباء. وللبدوي حق طلب التحكيم عند أحد (العوارف) في حالة نزاعه مع خصمه. وأحكام (العوارف) تكون نافذة، لكن يجوز استئنافها عند (عوارف)

(1) دكتور علي حسني الخربوطلي، **العرب والحضارة**، ص 28.

(2) «**البادية**»، الطبعة الثانية، ص 235 ـ 236.

آخرين أكثر شهرة إذا اتفق الطرفان على اختيارهم. والعوارف هم الخبراء من ذوي الاختصاص يختصّ كل واحد منهم بقضايا معيّنة يرجع إليه في الفصل فيها. وكان العوارف يعرفون عند العرب الأقدمين باسم العرّافين، وقد أفاضت الكتب بأخبار هؤلاء وأحكامهم[1] «والفقه البدوي فقه فطري يقوم على العرف والعادة، تمشّت عليه القبائل منذ أقدم الأزمنة حتى أن بعض قضاتهم كان يرجع في قضية فصل فيها شيخ قبل مائة سنة قبل أن يفصل في قضية مشابهة. وربما اختلف هذا الفقه عند غيرهم اختلافاً بسيطاً في الأصول فقط، ولكنه يتشابه من حيث الأساس. ويمكن تصنيف الفقه البدوي إلى فقه عام، وفقه خاص. ويقسم الفقه العام إلى خارجي، وعندهم منه إعلان الحرب، وحقوق الغزاة والصلح. وفقه داخلي، وعندهم منه إدارة العشيرة الداخلية»[2].

والجزيرة العربية نزلها الساميون من العرب منذ أقدم الأزمنة وكان جدب الجزيرة العربية وخشونة الحياة فيها من أهم عوامل نجاتها من الاستعمار والنفوذ الأجنبي، ولما كثر عدد السكان وضاقت بهم الجزيرة خرجوا إلى البقاع المنتشرة على مشارف الجزيرة العربية وطبعوها بالطابع السامي، ولكن معظم هؤلاء العرب احتفظوا ببداوتهم ولم يقبل على الزراعة والتجارة إلّا نفر قليل منهم. وكانت الجزيرة العربية متوسطة بين الشرق والغرب وكانت قوافل العرب التي تنقل البضائع التجارية تجوب أرجاء العالم القديم مما أدّى إلى اتصال العرب بمعالم الحضارات المختلفة فتأثروا بها إلى حدّ ما ولكن دون أن يفقدوا خصائص التراث البدوي الصحراوي الذي هو أساس الحضارة السامية.

ويحدّثنا علماء الاجتماع عن هذا التراث فيذهبون إلى أنه يمثّل ثقافة اجتماعية قائمة بذاتها لها طابعها ومقدساتها الخاصة بها، وهي المعروفة بالإنكليزية بمصطلح (Culture)، كما يحدثنا أخصائيو علم الاجتماع عن تأثير البداوة في حياة المجتمع المتمدن بحيث يصبح البدوي المتحضر متقمصاً شخصية مزدوجة، فالشعب الذي هجر حياة البداوة وأخذ بسبل الحضارة وبقي

---

(1) «البادية»، ص 278.

(2) المرجع السابق، ص 280.

في حياته الاجتماعية تحت تأثير النزعة القبلية البدوية فصار يعاني صراعاً اجتماعياً ونفسياً على توالي الأجيال، فهو من ناحية لا يستطيع أن يطمئن إلى قيمه الحضرية زمناً طويلاً، لأن الصحراء تمدّه بين كل آونة وأخرى بالموجات التي تقلق عليه طمأنينته الاجتماعية، ولا يستطيع من الناحية الأخرى أن يكون بدوياً كابن الصحراء لأن الحضارات المنبعثة من وفرة مياهه وخصوبة أرضه تضطره إلى تغيير القيم البدوية الوافدة إليه لكي يجعلها ملائمة لظروفه الخاصة»[1] وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على صحّة كون الجزيرة العربية منبع الهجرات السامية إلى الهلال الخصيب وبذلك تُعتبر بحق مهد الحضارة السامية العربية.

دور الجمال في تأمين المواصلات الصحراوية:

وقد لعب الجمل بعد تدجينه دوراً مهماً في تأمين المواصلات الصحراوية وتنمية الصلات التجارية في جميع أنحاء الشرق الأدنى، إذ كانت الإبل عماد حياة البدو في الصحراء، يأكلون من لحومها ويشربون من ألبانها، ويكتسون من أوبارها، ويقومون بها ثروتهم، ويفتدون بها أسراهم، ويمهرون بها في الزواج، ولجميع هذه الأسباب اهتموا بتربية الإبل وكيّفوا حياتهم وفقاً لحياتها، ورحلوا من مكان لآخر من أجلها، وبنوا كثيراً من لغتهم عليها، وضربوا فيها الأمثال الكثيرة، وتغنّى الشعراء في وصفها وحدائها، وكانت لدى العرب أيضاً الخيل يعنون بها، ولكنها كانت متاع المترفين، بينما كانت الإبل متاع العرب جميعاً[2].

والإبل عند البدو أصناف منها الأصلية ومنها ما يقتصر استخدامه في السفر وحمل الأثقال وتعتبر جمال الحسا من أحسن الجمال. والجمال الأصلية عند البدو هي العمانية والحرة والبطينية والأرضية. ويدعى القطيع

(1) الدكتور علي الوردي، «**دراسة عن طبيعة المجتمع العراقي**»، الفصل الأول، الصراع بين الحضارة والبداوة.

(2) الخربوطلي، **العرب والحضارة**، ص 29.

الأبيض من الجمال بالمفاذير أما النياق البيضاء فتدعى بالوذة وهناك قطعان سوداء وتدعى بالشروف. وبصورة عامة فإن الجمال البيضاء والفاتحة تأتي من الشمال والسوداء والغامضة تأتي من الجنوب. وللضفير وعنزة فخر بقطعانها البيضاء أما عتيبة فجمالها سوداء بينما تفضّل العوازيم والمطير الجمال الحمراء وقد يفخر المطير أيضاً بالشروف. وتدعى الناقة المستعملة للركوب الذلول.

ولكل قبيلة وشم خاص بجمالها وإبلها فيضع آل سعدون في المنتفك حلقة دائرية على الخد الأيسر للجمل أما الضفير فتضع خطاً عمودياً في الرأس الأعلى للحيوان(1).

ويُستفاد من النصوص القديمة أن الجمال استخدمت منذ زمن بعيد كواسطة نقل صحراوية تربط الجزيرة العربية بأجزاء منطقة الهلال الخصيب التي نزح إليها أهل الجزيرة العربية مما سهّل الاتصال بين الوطن الأم والمستوطنات الجديدة، وبذا كان للجمال دور هام في تأمين المواصلات الصحراوية وتنمية الصلات التجارية في جميع أنحاء الشرق الأدنى. وقد احتكر البدو ورعاة الإبل وسائل النقل في البوادي، إذ كانوا يقومون بنقل الأموال والبضائع التجارية عبر الصحراء بين العراق وبلاد الشام وبين الشام وبلدان البحر المتوسط وبلاد الحجاز وشمال الجزيرة وجنوبها. وقد مكّنهم ذلك من مدّ نفوذهم وبسط سيطرتهم على طرق المواصلات والمدن التي تمرّ منها القوافل، الأمر الذي أتاح لهم المجال لجمع ثروة كبيرة من اقتناء قطعان الجمال. لذلك كانت بعض القبائل لا تقتني سوى الإبل التي عليها مدار معيشتها وليس لها من الغنم إلّا ما يكفيها وضيوفها من تحومها.

وصفات الجمل تؤهله لسكنى البرية، ففي معدته تجويف مقسوم إلى غرف أو حويصلات تمتلىء عنا. شربه ماء يكفيه مدة تختلف بين العشرين والثلاثين يوماً، وأما طعامه فأغصان الأشجار والشوك والعشب الخ.. وهو يحمل من 100 إلى 160 رطلاً ومعدل سيره ثلاثون ميلاً في اليوم وهو يعمر

(1) **«البدو والقبائل الرّحالة في العراق»**. تأليف مكي جميل، 1956، ص 185 ـ 160.

من الثلاثين إلى الأربعين سنة، ولحم الجمل ولبنه ووبره وجلده نافع للإنسان لذلك يعدّ اقتناؤه من الغنى والثروة.

ومما يدلّ على وجود الجمال في الجزيرة العربية منذ عصور واغلة في القدم عثور المنقبين على تصوير الجمل منقوش على صخرة في جبل «طبيق» عند الحدود الجنوبية الشرقية للأردن في الموقع المسمى «قلوة» (Kilwah) يرجع تاريخه إلى العصور الحجرية (العصر الميسوليثي)، ويمثّل هذا التصوير حملاً ذا سنام واحد وهو نفس نوع جمال الجزيرة العربية حالياً. كما ورد عن عثورهم على صورة جميلة لهجين وراكبه ترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، وظهور الراكب في الصورة يدلّ على أن الجمل دجّن في هذه المناطق منذ زمن بعيد. وقد عُثر أيضاً على تصاوير للجمل في النقوش المصرية ترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد[1]. وقد أثبت العلماء وجود الجمال بنوعيها، ذي السنام والسنامين، في زمن الأكديين (القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد) وقد استخدموه في تنقلاتهم الصحراوية، وأن تسمية (جملو) و(ايبلو) الأكدية مأخوذة من كلمتي «جمل» و«إبل» العربيتين. وقد عرف الجمل عند السومريين أيضاً وكانوا يطلقون عليه اسم (حمار أرض البحر) وأرض البحر عندهم صحراء سواحل الخليج. وقد عُثر أيضاً على ألواح طينية نقش عليها صورة الجمل في «الورغاء» في جنوبي العراق وفي «عقرقوف» (دور كوريكالزو) عاصمة الكاشيين.

ويؤخذ من مدوّنات التوراة أن من جملة مقتنيات إبراهيم الخليل كانت الجمال[2]، وكما أن هذه المدونات تدلّ على أن الإسرائيليين كانوا يستخدمون الجمال في تنقلاتهم بين فدان آرام في منطقة حران وفلسطين[3]، وكانت في جملة قطعان يعقوب الإبل[4]. وقد أشارت التوراة إلى استخدام المديانيين

---

(1) Hitti, «**History of Syria**», pp. 52-53.

(2) (تك، 12: 16، 24: 35).

(3) (تك، 24: 61، 63، 64).

(4) (تك، 20: 43، 31: 17).



الصورة رقم (55)

تمثال من الطين المشويّ يمثل فتاتين عربيتين شاعرتين تمتطيان جملاً وتشاهد الفتاتان في هودجهما المريح إحداهما تنفخ بالأرغول والثانية تضرب على الطبلة.
وهذا التمثال محفوظ في متحف اللوفر في فرنسا ويرجع زمنه إلى عهد الرومان. ويظهر أن هذا المنظر كان محبباً عند السوريين في ذلك الزمان.

والعمالقة للجمال في أخبار قتالهم مع الموسويين[1]. وقد ورد في سفر أيوب ما يشير إلى أن أيوب كانت له سبعة آلاف جمل[2].

إن أكثر ما كان يستخدم الموسويون في تنقلاتهم الحمير، وكان الجمل معدوداً من الحيوانات غير الطاهرة بحسب الشريعة اليهودية[3].

ويقول الباحثون إن الجمل كالحصان يرجع أصله إلى قارة أمريكا وهو وحشي وقد هاجر على تلك الحال إلى شمال شرقي آسيا قبل ملايين السنين

---

(1) (قض، 6: 5، 7: 12، 8: 21، 26)؛ (1 صم، 15: 3، 27: 9، 30: 17).
(2) (أيوب، 1: 2، 42: 12).
(3) (لا، 11: 4)؛ (تث، 14: 7).

عندما كانت أمريكا وآسيا قارة واحدة، ومن هناك وصل إلى شمال غربي الجزيرة العربية وإلى جنوبي سوريا وذلك عن طريق كشمير والهند[1].

وقد أعدّ المستر فورنس صاحب الدراسات العلمية الشهيرة بحثاً مستفيضاً عن تاريخ ظهور الجمال في الجزيرة العربية، فيقول في ختام بحثه: «إن الإحصاءات الأركيولوجية التي بين أيدينا تسوقنا إلى أن نستنتج أن الجمل دجّن في أواسط آسيا في أواخر العصر الحجري النيوليثي (7000 - 5000 ق.م.) وربما دجّن واستخدم في الجزيرة العربية قبل ذلك من فصائل أخرى من الجمال الوحشية»[2].

ويرى ألبرايت أن الجمل لم يدجن ولم يستخدم في أغراض النقل في جزيرة العرب إلّا في أواخر النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد. أما ما قبل ذلك «فقد كان العربي لا يستطيع اجتياز البوادي واختراقها لأن حماره الذي كان واسطة التنقل عنده لا يتحمّل ولوج البادية ولا يستطيع أن يعيش فيها وأن يصبر عن شرب الماء أو الأكل صبر الجمل. لذلك كان عرب الجزيرة في الألف الثانية قبل الميلاد وقبل وقت تدجين الجمل رعاة في الغالب، وسائط تنقلهم الحمير، ولم يكونوا قد طرقوا البوادي أو توغلوا فيها توغل العرب أصحاب الوبر فيما بعد[3] جاء هذا الرأي مخالفاً لما توصّل إليه الباحثون، أما نحن فنرجّح الأخذ برأي الباحثين الآخرين الذين يرجعون وجود الجمل في الجزيرة العربية إلى زمن أبعد بكثير مما أورده أُلبرايت.

الخيول العربية في جزيرة العرب:

اشتهرت جزيرة العرب بالخيول العربية التي امتازت بوفرة وجودة نوعها، فيمتاز الجواد العربي بجماله وحسن تركيبه وطباعه وشدّة صبره وتحمّله الجوع والعطش وشدّة البرد والحر، فلا يدانيه بهذه الصفات أي جواد من عروق

(1) Hitti, «**History of Syria**» p. 52.

(2) R. J. Forbes, «The coming of the camel», **Stydies in Ancient Technology**, Vol. II, Leiden, 1955, pp. 187-203.

(3) «**المفصل في تاريخ العرب**» للدكتور جواد علي 1: 198.

الخيول الأخرى. والجواد العربي سريع الجري لا تسبقه غير خيل السباق الإنكليزية الأصلية المعروفة بـ (الثوروبرد) والتي يجري في عروقها دم الخيول العربية. والسلالات الأصلية من الخيول العربية هي ثمرة ما جادت به جزيرة العرب التي تؤول إليها كافة أنساب الخيول العربية الممتازة في العالم. فلعشائر شمر في الشمال وفي الشمال الغربي وعنزة في الغرب والضفير وآل سعدون في الجنوب وفروع هذه العشائر وغيرها يؤول الفضل في تربية السلالات العريقة والمحافظة عليها ومنها انتشرت إلى مختلف الأقطار.

ونظراً لسرعة الخيول وعفّتها صارت أهم سلاح لنجاح الغزو بين القبائل العربية، ولهذا أخذت هذه القبائل تقتني الخيول وتعتني بها للمحافظة على كيانها في الدفاع والهجوم، وعدّت القبائل القوية هي التي تملك عدداً كبيراً من الخيل. ولكن إيقاف الغزو القبائلي وانتشار وسائل النقل الآلية بعد الحرب العالمية الأولى أثرت على منتوج الخيل في البادية فهبط عددها هبوطاً كبيراً لدرجة أن عاف معظم أفراد القبائل الرحّل تربيتها لما يكلّفهم ذلك من نفقات وجهود بلا عوض يذكر، فبقيت تربية الخيل بأيدي القبائل العربية المستوطنة على ضفاف الرافدين والممتهنة الزراعة لتوفر أسباب تربيتها لديهم ولدوام حاجتهم إليها ولو بنطاق ضيق. وتستعمل الخيول اليوم للتسلية واللعب في حلبات السباق فيتراهن الناس على السابق كما أنها تستعمل في بعض الأحيان للصيد على ظهورها.

والخيول المولدة في خارج الجزيرة العربية لا تختلف أساسياً في تركيبها وطباعها عن إنتاج البادية منها. ولا يمكن قبول الرأي بتطور السلالة نفسها وتردّيها نتيجة لاختلاف البيئة لجيلين أو ثلاثة وليس أدلّ على ذلك من حالة الخيل العربية العريقة التي تولد في حقل الليدي ونثورث في جنوب إنكلترا والتي رغم اختلاف بيئة تربيتها لعدّة أجيال فإنها لا زالت على خصائص وميزات خيول البادية.

وينسب الحصان في الأقطار العربية إلى نسب أمه فإن الجواد يُعتبر حمدانياً أو معنكياً إذا كان ذلك نسب أمه ولا يتبع نسب أبيه ما دام أبوه من أصل غير مشكوك فيه.

وبالرغم من اشتهار الجزيرة العربية بجني أحسن الخيول الأصيلة وتصديرها لها، فإن الخيول في جزيرة العرب هجينة دخيلة وردت إليها من خارج الجزيرة، إذ يعتقد أن وطنها الأصلي هو منطقة بحر قزوين ودخلت إلى الجزيرة من العراق أو من بلاد الشام لذلك لم نجد في الكتابات الآشورية ما يشير إلى استعمال الخيول في جزيرة العرب[1].

اللغة العربية هي اللغة الأم لجميع لهجات الأقوام السامية:

والمسلّم به بإجماع الباحثين أن القبائل العربية التي نزحت من الجزيرة العربية كانت كلها تتكلم لغة واحدة هي اللغة العربية الأصلية قبل أن تتفرّق «وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة»[2]. ثم تفرّع من هذه اللغة عدّة فروع انطبع كل منها بطابع المكان والبيئة الجديدة على مقتضى ناموس الارتقاء. وهكذا تطوّرت اللغة الأصلية بتطور لهجات الأقوام الناطقة بها في مستوطناتها الجديدة حتى أضحت هذه اللهجات مغايرة لأصلها، ولكنها مهما تباعدت بألفاظها وتشعّبت تراكيبها فإنها بقيت محتفظة بالخصائص الأصلية التي تتميّز بها لأنها ترجع إلى أصل واحد مشترك. وقد سمى العلماء هذه اللهجات باللهجات أو اللغات السامية نسبة إلى سام بن نوح تمييزاً لها عن اللغات الآرية والطورانية. وتتميّز صفات اللغة السامية في كونها مؤلفة من أصول ثلاثية الأحرف ثابتة وتمتاز بحصول معظم الاشتقاق بواسطة تغيير الحركات وعلى هذه الحركات يتوقف نوع الدلالة. ولما كان العلماء قد صاروا يعتمدون على أصل اللغات في تعيين صلات الأقوام بعضها ببعض، فقد قسّم بعض علماء الساميات (اللغات السامية) إلى أربع مجموعات هي المجموعة السامية الشرقية، ومنها الأكدية والبابلية والآشورية، والمجموعة الشمالية ومنها العمورية والآرامية، والمجموعة الغربية، ومنها الكنعانية والفينيقية والموآبية والعبرانية، والمجموعة الجنوبية، ومنها المعينية والسبئية والأثيوبية والعربية والأمهرية.

---

(1) **دليل الجمهورية العراقية** لسنة 1960، ص710 ـ 711.
(2) (تك، 11: 1).

ويرجّح عدد من الخبراء أن اللغة التي يتكلم بها بدو الجزيرة العربية حالياً هي أقرب جميع اللهجات إلى اللغة العربية الأصيلة التي كان يتكلم بها أبناء الجزيرة قبل أن تنفصل لهجاتهم في مستوطناتهم الجديدة، وذلك على أساس أن هؤلاء بقوا منعزلين في صحرائهم دون أن يختلطوا بالأقوام الأخرى الغريبة في لغاتها وقومياتها. وفي هذا الموضوع يقول الأستاذ أولمستيد: «إن البدو العرب كانوا أول من تكلم باللغة السامية، وإذا أردنا أن نتفهم الخصائص الأصلية لهذه المجموعة من اللغات السامية على حقيقتها فعلينا أن نتّجه إلى العربي ابن البادية السورية الذي يجوب شمال جزيرة العرب، لأن هؤلاء هم وحدهم حافظوا على العادات والتقاليد القديمة دون أن يطرأ عليها أيّ تغيير»[1]. وممّن أيّد ذلك من المحققين المستشرقين الباحث المعروف عبد الله فيليبي الذي قام بدراساته المسهبة لأحوال جزيرة العرب، والذي يقول: «إن اللغة العربية التي يعترف الخبراء في كونها أقرب من جميع اللغات السامية إلى اللغة الأم الأصلية التي اشتقّت منها جميع هذه اللغات هي على أغلب الاحتمالات أقدم لغة في العالم ما زالت حية حتى يومنا هذا»[2]. ويرجع الفضل إلى القرآن الكريم الذي حافظ على أصل اللغة الأم ـ لغة الضاد ـ وهي ما زالت اللغة التي يتكلم بها أكثر من ثمانين مليون نسمة في الأقطار العربية العديدة، وذلك رغم تعرّض البلاد إلى غزوات الكثير من الأقوام الغريبة في ثقافاتها ولغاتها قبل ظهور الإسلام. فقد صمدت الثقافة العربية السامية أمام جميع هذه التيارات مما يدلّ على أن التراث العربي العريق في حضارته وحيويته كان أقوى وأمضى من جميع الثقافات الأخرى التي استوطنت الشرق الأدنى وهو ما يزال سائداً في جميع البلاد المعروفة بالبلاد العربية حتى يومنا هذا محتفظاً بخصائصه دون أن يندمج أو يزول من الوجود. وفي تعليق للدكتور جواد علي حول هذا الموضوع يقول: «وبالجملة إن هناك جماعة من المستشرقين ترى أن اللغة العربية على حداثة عهدها بالنسبة إلى

---

(1) أولمستد، «**تاريخ فلسطين**»، ص 36.

(2) المستر فيلبي، «**تاريخ العرب قبل الإسلام**».

اللغات السامية الأخرى، هي أنسب اللغات السامية الباقية للدراسة وأكثرها ملاءمة للبحث، لأنها لغة لم تختلط كثيراً باللغات الأخرى، ولم تتصل باللغات الأعجمية قبل الإسلام، فبقيت في مواطنها المعزولة صافية، أو أصفى من غيرها في أقل الأحوال، ثم إنها حافظت على خواص السامية القديمة مثل المحافظة على الأعراب، على حين فقدت هذه الخاصة المهمة أكثر تلك اللغات، ولهذه الأسباب وغيرها رأوا أن دراستها تفيد كثيراً في الوقوف على خصائص السامية القديمة ومزاياها»[1].

ويرى «نولدكه» الخبير في اللغات السامية، مثل هذا الرأي إذ يقول: «إنه لمن الضروري عند القيام بدراسة مقارنة بين اللغات السامية البدء باللغة العربية، وذلك بأن ندوّن خصائصها ومميزاتها وقواعدها وطريقة نطق ألفاظها وما إلى ذلك ومن ثم مقارنة هذه النتائج مع ما يقابلها في بقية اللغات السامية حتى نقف على ما بين تلك اللغات من مفارقات ومطابقات»[2]. وقد أيدّه في هذا الرأي «دي غويه» إذ إنه «يرى أن اللغة العربية، من بين جميع اللغات السامية، هي أقربها إلى اللغة السامية الأم وأكثرها اتصالاً مباشراً بها»[3]. ومثله يؤيد الدكاترة حتي وجرجي وجبور هذا الرأي بما نصّه: «إن السبب في كون عرب الجزيرة ولا سيما البدو بنوع خاص خير من يمثّل السلالة السامية من النواحي البيولوجية والنفسية والاجتماعية واللغوية، يعود إلى انعزالهم الجغرافي واتّساق الحياة المطرد في الصحراء، فكأن النقاوة السلالية هي المكافأة التي تمنحها البيئة المقفرة الشديدة النكرات كتلك التي في أواسط جزيرة العرب. ولقد أصاب العرب في تسمية بلادهم جزيرة العرب، فهي جزيرة حقاً تحيط بها المياه من جهاتها الثلاث والرمال من جهتها الرابعة وتعتبر هذه الجزيرة مثلاً للعلاقات التي لا تنقطع بين السكان والتربة... ولسنا نعرف فاتحاً أو غازياً نجح في اختراق الحواجز الرملية

(1) الدكتور جواد علي، «**المفصل في تاريخ العرب قبيل الإسلام**» ج1، ص255 ـ 256.
(2) الدكتور جواد علي، «**تاريخ العرب قبل الإسلام**»، ج 7، ص 21.
(3) الأبراشي، «**الآداب السامية**»، ص10.

لهذه الجزيرة وفي تثبيت قدميه في تلك البلاد. أجل لقد ظلّ سكان الجزيرة كما هم طيلة أزمان التاريخ»[1]. ويؤيد الدكتور ولفنسن أيضاً هذا الرأي إذ يقول: «يؤكد العلّامة أولسهوزن Olshausen أن اللغة العربية هي أقرب جميع لغات الساميين إلى اللغة السامية القديمة ودعم رأيه هذا بجملة شواهد وأدلة ارتاح لها كثير من علماء الإفرنج... ونحن إذا نظرنا إلى المعضلة من ناحية القرابة بين إحدى اللغات السامية واللغة الأصلية يمكننا أن نقول إن اللغة العربية تشتمل على عناصر لغوية قديمة جداً بسبب وجودها في مناطق منعزلة عن العالم بعيدة عمّا يتوارد عليه من تقلّبات وتغيّرات يكثر حدوثها وتختلف نتائجها اختلافاً مستمراً في البلدان العمرانية»[2]. ومع أن الأستاذ أوليناري يؤيد كون الجزيرة مهد اللغات السامية وأن اللغة العربية تمثّل اللغة السامية النقية لعدم تأثرها بالعناصر الأجنبية إلا أنه يرى بأن اللغات السامية لم تأخذ بساميتها الخالصة إلّا بعد خروجها من موطنها الأصلي أي بعد احتكاكها مع خليط من السكان غير الساميين نتيجة للهجرات من جزيرة العرب فيقول: «يبدو أن اللغة العربية تمثّل إلى حدّ معين اللغة السامية النقية لأنها حافظت على كونها اللغة الأقل تأثراً بالعناصر الأجنبية، ولكننا غالباً ما نجد بأنه على الرغم من اختفاء التراكيب العربية في العبرية والآشورية بعد أن كانت ظاهرة فيها بوضوح تام فإن آثارها باقية في العربية... وقد كان انتشار اللغات السامية من الجزيرة العربية كمركز لها. وهذا لا يحتم بأن الجزيرة العربية كانت موطناً للجنس السامي، أو أن اللغات السامية لم تكن مقتبسة من اللغة الحامية أو غيرها. غير أن الشيء الواضح هو أن الجزيرة العربية كانت الموضع الذي ظهرت فيه الخصائص التي تتميّز بها اللغات السامية، إلا أننا لا يمكننا اعتبار اللغة ظاهرة بساميتها الخالصة إلّا بعد خروجها من موطنها الأصلي، إذ نستطيع أن نحدّد بثقة وإلى حدّ بعيد تاريخ الفترة أو التاريخ المضبوط في بعض الأحيان لظهور إحدى اللغات السامية خارج الجزيرة

---

(1) الدكاترة حتي وجرجي وجبور، «**تاريخ العرب**»، الطبعة الرابعة، ص 8.

(2) ولفنسون، «**تاريخ اللغات السامية**»، ص 7.

العربية، هذا في حين أنه ليس لدينا أي دليل يقودنا إلى تحديد تاريخ ظهور اللسان السامي الأول في الجزيرة. ويدلّنا التاريخ على أن انتشار اللغات السامية مرتبط بهجرات الساميين المتتابعة من جزيرة العرب إلى بلاد ما بين النهرين، وأرض كنعان، وسوريا، والحبشة، وشمال أفريقيا. أما تكوين اللغات أو اللهجات المختلفة فيرجع العامل المهم فيه إلى أن كلّاً من اللغات السامية خارج الجزيرة كانت تحت تأثير التداول بين خليط من السكان غير الساميين مما أدّى إلى حدوث تغييرات لفظية وتعديلات لغوية فضلاً عن إهمال القواعد النحوية، كل ذلك أدخل عدّة إضافات على مفردات اللغة»[1].

سامية أم عربية؟

إن تسمية «السامية» أطلقت على الشعوب التي زعم أنها انحدرت من صلب سام بن نوح، وكان أول من أطلقها بهذا المعنى العالم النمساوي شلوتزر (Schlotzer) عام 1781 للميلاد فشاعت منذ ذلك الحين وأصبحت عند علماء الغرب علماً لهذه المجموعة من الشعوب وسرت إلى المؤرّخين العرب وباحثيهم بطريق الاقتباس والتقليد، على الرغم من أن هذه التسمية لا تستند إلى واقع تاريخي أو إلى أسس علمية عنصرية صحيحة أو وجهة نظر لغوية، إذ تعتبر أكثر ما تعتبر الحدود الجغرافية والعلاقات السياسية[2]. فكتبة التوراة مثلاً حشروا في السامية شعوباً لا يعدّها العلم الحديث من جماعة الساميين مثل العيلاميين واللوديين وأقصوا جماعة كان ينبغي إدخالها في زمرة الساميين مثل الفينيقيين والكنعانيين، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم أن الكنعانيين هم الساميون العرب الأصليون سكان فلسطين الأوائل[3]. ثم إن اصطلاح السامية يشير إلى نسب، لذلك ذهب بعض الباحثين إلى تخطئة تسمية السامية وتأكيدهم

---

(1) أوليناري، «**قواعد المقارنة للغات السامية**»، ص 605.

(2) نولدكه، «**اللغات السامية**»، الترجمة العربية، ص 8.

(3) (تك، ص 15).

أن تسمية «العربية» هي أكثر تمشياً مع الواقع التاريخي والعلمي، لأن اسم العرب ورد منذ القديم في الكتابات البابلية والآشورية، ثم أطلق الفرس واليونان والرومان اسم العرب على سكان جزيرة العرب منذ الألف الأولى قبل الميلاد[1].

وأحسن من عبَّر عن الرأي القائل بوجوب تسمية الأقوام العربية وكل من سكن الجزيرة العربية أو خرج منها بالعرب، الباحث والمؤرّخ المعروف الدكتور جواد علي، فقال في بحثه عن تاريخ العرب قبل الإسلام ما هذا نصه:

«إني سأطلق لفظة (عرب) على جميع سكان الجزيرة بغضّ النظر عن الزمان الذي عاشوا فيه، والمكان الذي وجدوا فيه، سواء أكانوا سكنوا في الأقسام الشمالية أم في الأقسام الوسطى من جزيرة العرب أم في الأقسام الجنوبية منها. فكل هؤلاء في نظري (عرب) وعرب علم لقومية خاصة ومصطلح ظهر متأخراً في النصف الأخير من الألف الأولى قبل الميلاد، وتركّز وتثبت بعد الميلاد خاصة، وقبيل ظهور الإسلام على الأخص. وعلى هذا فالذين عاشوا قبل الميلاد بقرون عديدة وبألوف السنين، هم (عرب) بالطبع وإن لم يدعوا (عرباً)، لأن هذه الكلمة لم تكن معروفة بهذا المعنى في أيامهم ولكنهم عرب أصالة ومن أحقّ وأجدر بأن نطلق عليه هذه اللفظة منهم، هم سكان الجزيرة وأصحابها الشرعيون مهما اختلفت لهجاتهم وتباينت لغاتهم، وتعدّدت أماكنهم. هم الأصل، ومن جاء بعدهم الفرع، وليس الفرع كالأصل.

«ولعلّني لا أكون مخطئاً أو مبالغاً إذا قلت إن الوقت قد حان لاستبدال مصطلح (سامي) و(سامية) «ب (عربي) و(عربية)، فقد رأينا أنّ تلك التسمية تسمية مصطنعة تقوم على أساس التقارب في اللهجات وعلى أساس فكرة الأنساب الواردة في التوراة، وهي كما قلت آنفاً، فكرة لا تستند على أسس علمية، وإنما قامت على بواعث عاطفية، على أساس حب الإسرائيليين أو بغضهم لمن عرفوا من الشعوب. أما مصطلحنا (العرب) الذي يقابل السامية،

(1) محمد عزة دروزة «**تاريخ الجنس العربي**»، ج1، ص 18.

فهو أقرب ـ في نظري ـ إلى العلم. . . ففي العرب لهجات ولغات، كما أنّ بين السامية لهجات ولغات. . . وليس ببعيد ولا بغريب عن العلم والمنطق أن نعدّ السامية عربية لكونها ظهرت في جزيرة العرب ونحن نعلم أنّ كثيراً من العلماء يرون أن جزيرة العرب هي مهد الساميين.

«ولما كان العلماء قديماً وحديثاً قد أطلقوا على هذه الأرض التي ظهرت فيها شعوب كثيرة ولغات عديدة اسم (جزيرة العرب) أو (شبه جزيرة العرب) غير مراعين في ذلك تعدّد المواضع أو اللغات واللهجات أو القبائل، ولا تاريخ ظهور لفظة (العرب) إلى عالم الوجود، جاز لنا بل وجب علينا الآن ـ على ما أرى ـ أن نستبدل مصطلح (السامية) بمصطلح (العربية) فنكون بذلك قد لاحظنا عاملين مهمين: عامل القرابة اللغوية والأصل اللغوي، وعامل وحدة المكان. فسواء أظهرت السامية في اليمن أم في أي موضع آخر من جزيرة العرب أم في العراق، فإن كل هذه المواضع هي من شبه جزيرة العرب، لأن البادية والهلال الخصيب هما من الأقسام التي تعدّ اليوم من بلاد العرب، وثقافة سكانها ثقافة عربية، ولغتهم السائدة هي اللغة العربية، وهي أوسع لغة سامية باقية على وجه الأرض. ولذلك فهي اللغة الكبرى التي تمثّل المجموعة اللغوية السامية سواء أكانت قديمة أم حديثة، ويجدر أن لا نتحدث باسم السامية في القرن العشرين. . . وإذا وافقنا على إقرار هذا الاصطلاح، نكون قد تقرّبنا نحو العلم، وابتعدنا عن الأساطير، أسطورة انحدار الساميين من صلب رجل هو سام، وحري بالعلم أن يبني أحكامه على حقائق علمية، وأن يبتعد عن القصص والأساطير»(1).

ويذهب أكثر المؤرّخين الفرنج إلى أن العرب والساميين شيء واحد. فهذا سبرنجر (Sprenger) على سبيل المثال يقول إن جميع الأقوام التي تنتسب إلى العرق السامي كالآشوريين والبابليين والفينيقيين والعبرانيين والآدوميين وغيرهم من الأقوام التي كانت تضطر إلى النزوح والهجرة من الجزيرة العربية كلما امتلأت بهم جزيرتهم أو أجدبت بسبب انحباس المطر أو كلما تشوّقت

---

(1) الدكتور جواد علي، «**تاريخ العرب قبل الإسلام**»، ج 2، ص 287 ـ 288.

تلك الأقوام لإيجاد أرض تكون أخصب من أرض جزيرتهم العربية هم عرب[1].

وفي تعليق له على نظرية شلوزر يقول الأستاذ أوليناري:

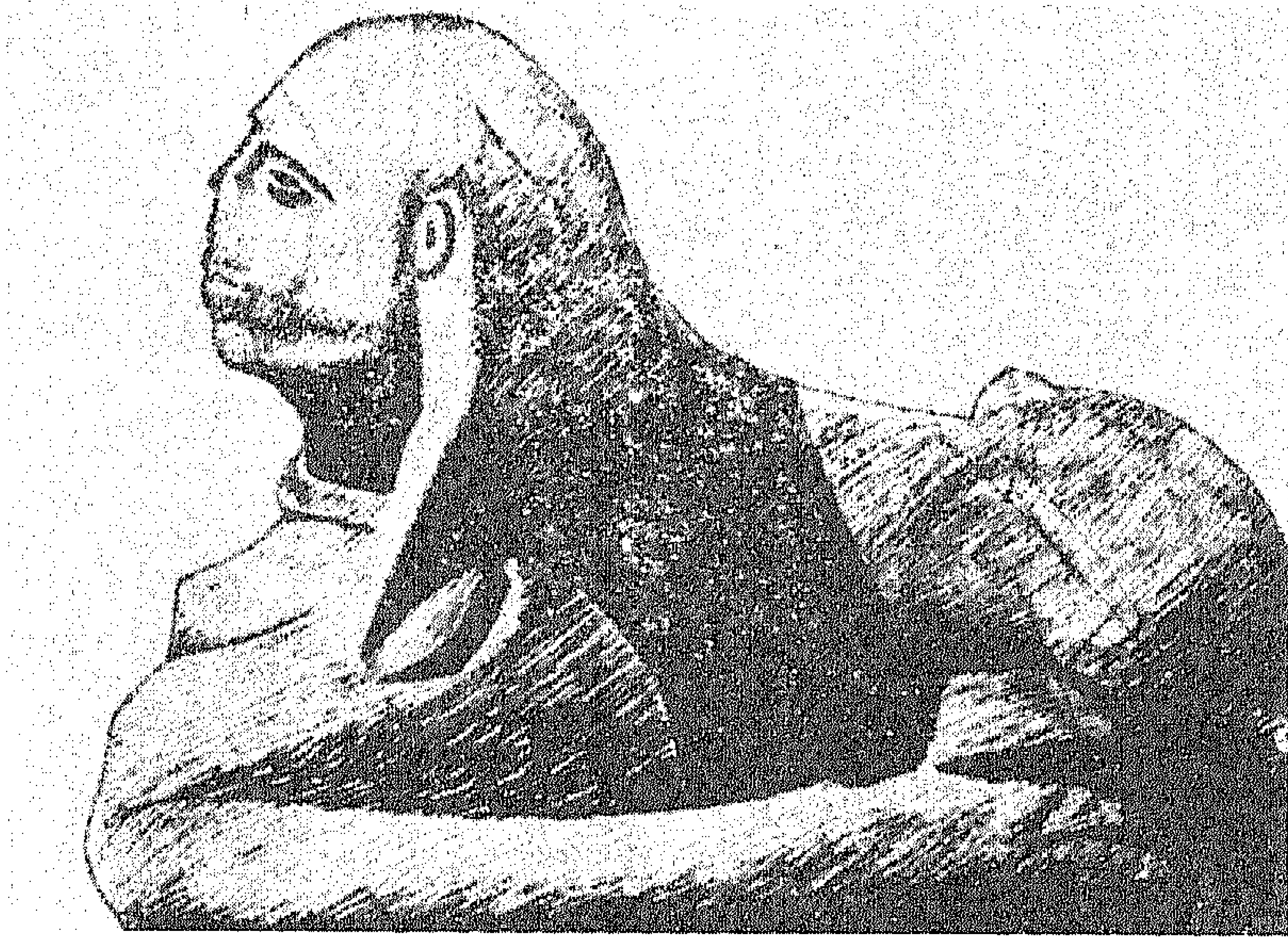
«إن نظرية شلوزر تقوم على أساس من التعاقب الدوري كما هو منصوص عنه في جدول الأمم والذي يجعل من آرام أرفكشار ولدين لسام[2] ومن ثم يجعل أرفكشاراً جداً لإبراهيم[3] بحيث يصبح الإسرائيليون ساميين باعتبارهم انحدروا من صلب إبراهيم ومثلهم العرب الذين يدّعون أنهم أولاد إسماعيل. وإذا تفحّصنا هذه الأنساب بدقّة تبين لنا أن ربط هذه الجماعات بأرومة واحدة إنما جاء طبقاً لعلاقات سياسية، وعلى هذا الأساس اعتبر جدول الأمم عيلاماً ولودا أخوين لآشور من أبناء سام[4]. ومما لا شك فيه أن تعريف تلك الجماعات بالرموز (كالأحرف والأرقام) هو الأفضل وذلك لتجنّب بعض التسميات كالسامية والهندو ـ أوروبية وغيرها. ونحن وإن كنا لا نستطيع تبرير إطلاق السامية على تلك الجماعات بصورة مطلقة إلا أن هذه التسمية تبقى مصطلحاً شائعاً ومقبولاً»[5].

العرب مخترعو الحروف الهجائية (الأبجدية):

لقد اعتبر العلماء اختراع الحروف الهجائية (الأبجدية) من أعظم المخترعات التي أوجدها العقل البشري بل من أجلّ البركات التي هبطت على البشرية في مسيرتها نحو التقدّم الحضاري. ثم تأتي بعدها البركة الروحية في الدعوة لعقيدة التوحيد والاهتداء إلى عبادة الإله الواحد. والفضل في كلا الحادثين كما ثبت يرجع إلى الثقافة العربية التي نمت وازدهرت على يد الأقوام

(1) دكتور علي حسني الخربوطلي «**العرب والحضارة**»، ص 13 ـ 14.
(2) (تك، 10: 22).
(3) (تك، 11: 12 ـ 26).
(4) (تك، 10: 22).
(5) أوليناري، «**القواعد المقارنة للغات السامية**»، ص 3.

العربية التي نزحت من جزيرة العرب واستقرّت في الهلال الخصيب منذ أقدم الأزمنة. ومن المتّفق عليه الآن أن الكنعانيين كانوا أول من استعمل الحروف الهجائية في الكتابة ومنهم انتقلت إلى الفينيقيين الذين نقلوها بدورهم بين سنة 850 و750 ق.م. إلى الإغريقية واللاتينية[1] وصارت تُعرف في اليونانية باسمها العربي «الألف باء» (Alphabet)، وقد احتفظ اليونانيون بالترتيب نفسه الذي وضعه الفينيقيون من حيث تسلسلها ومن حيث طريقة كتابتها من اليسار إلى اليمين وفق الطريقة الفينيقية الأصلية. والفينيقيون والكنعانيون تسميتان لمسمى واحد[2].



الصورة رقم (56)

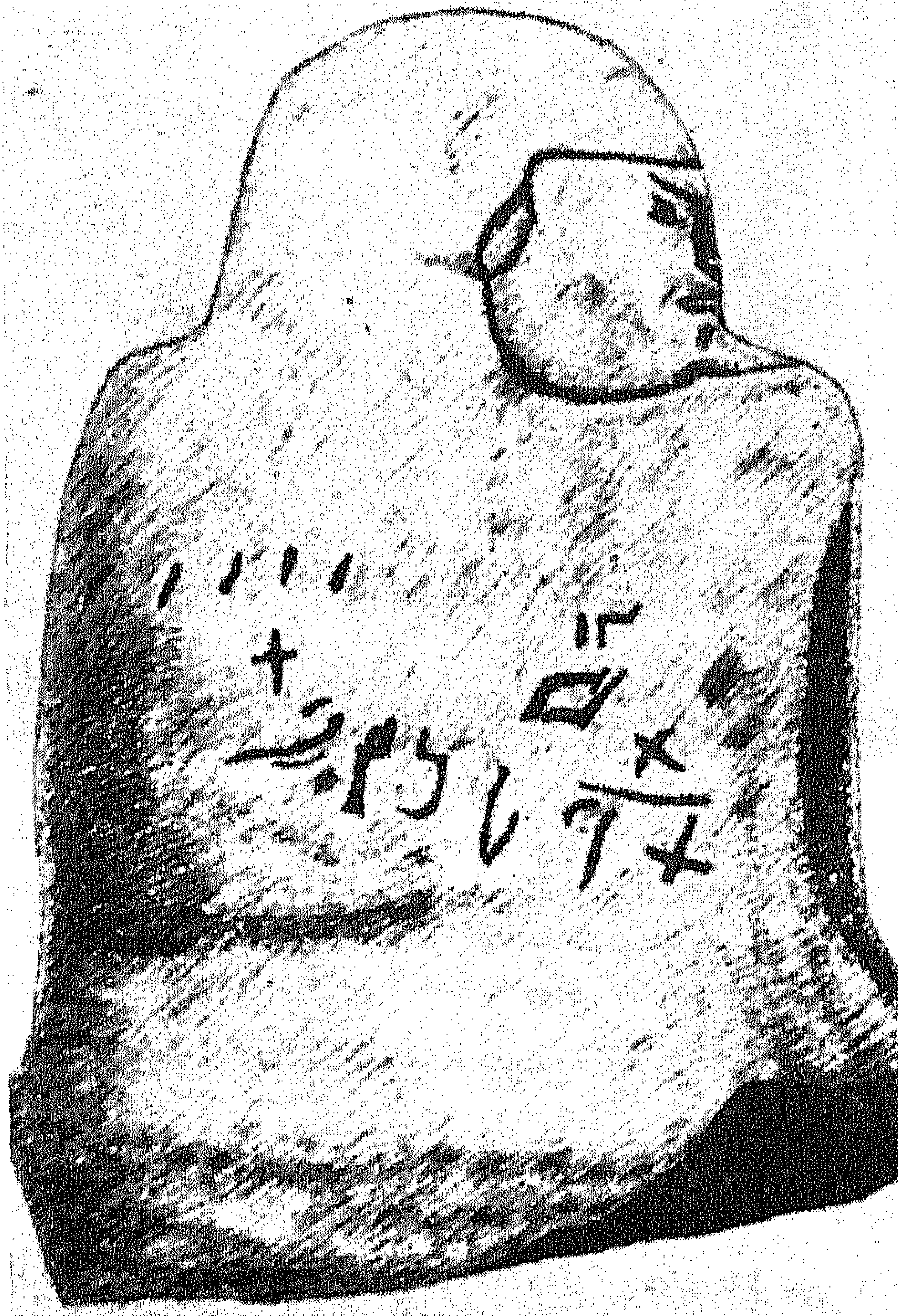
«أبو هول» عثر عليه في المعبد المصري عند سرابيط الخادم بجوار مناجم الذهب المصرية القديمة في سيناء عليه أقدم كتابة كنعانية بالحروف الأبجدية وهي تمثل اسم الإلهة «بعل إيث» (الإلهة حنحور السامية. وهذه الكتابة البسيطة غير المنتظمة تشكل حلقة الوصل بين الهيروغليفية والأبجدية. عن «قصة التوراة...»).

---

(1) T. H. Gaster, «Canaan» Enc. Brit. 1965, Vol. 4, p. 722.

(2) انظر ما تقدّم عن الكنعانيين والفينيقيين في الفصل الأول.

وقد ظلّ أكثر العلماء الذين قاموا بدراسة نشوء الحروف الهجائية يرون أن الأبجدية الفينيقية هي أول الأبجديات وأقدمها، وأنّ الفينيقيين هم أول من استعمل طريقة الكتابة بها وقد أخذوا أصولها من الكتابة الهيروغليفية المصرية، بل وعثر على كتابة بالأحرف متّصلة بالكتابة المصرية أقدم بكثير من الأبجدية الفينيقية، وهي الكتابة التي اكتشفت في شبه جزيرة سيناء في موضع يسمَّى



الصورة رقم (57)

عُثر على هذا التمثال في سيناء نقشت عليه كتابة في شبه أحرف تعد أقدم كتابة توصل بين الهيروغليفية والأبجدية وقد حدد العلماء في أحدث تحقيق تاريخها بالقرن الخامس عشر قبل الميلاد ـ عن كتاب «قصة التوراة»، ص109.

«سرابيط الخادم» ويعود تاريخها إلى سنة 1850 ق.م.[1]، وقد أطلق عليها اسم «كتابة طور سيناء» أو «الأبجدية الطور سينائية». وهذه الكتابة البسيطة جاءت باللهجة الكنعانية القديمة وتعدّ حلقة الوصل بين الهيروغليفية التصويرية والأبجدية. وقد عُثر عليها في المعبد المصري القديم عند مناجم الذهب المصرية في سيناء وهي تحمل اسم لآلهة «بعل إيث»، الآلهة السامية العربية المعروفة باسم الإله «حتحور»[2]. ثمّ وجد عدد من هذه النماذج بنفس بالأحرف في سيناء أيضاً، كما وجد من هذه النماذج أيضاً في جنوب فلسطين و«شكيم» و«لخيش»، وقد كتبت كل هذه النماذج باللهجة الكنعانية القديمة. ويؤكد دايرنجر «أن مصدر اختراع الأبجدية (Alphabet) يرجع إلى منطقة فلسطين وسوريا وهي تنفرد بين جميع مناطق الشرق الأدنى في هذا الاختراع الذي يمثّل شبه جسر يجمع بين حضارتي مصر وبلاد الرافدين»[3].

ويعلل الخبراء كيفية نشوء فكرة الأخذ بالأحرف بدلاً من الصور هو أن الكنعانيين الذين كانوا يعملون في مناجم طور سيناء اهتدوا إلى التدوين بالحروف الأبجدية بأن اختزلوا الكتابة الهيروغليفية التي تشير إلى المعاني ومقاطع الكلمات بصور وإشارات واكتفوا بالحروف الأولى من أسماء الصور فتكوّنت عندهم مجموعة من الحروف كوّنت الأبجدية الأولى، فأخذوا مثلاً صورة رأس الثور عن الهيروغليفية، فأغفلوا لفظها في اللغة المصرية وأطلقوا عليها ما يقابله في لغتهم الخاصة بهم فصارت هذه العلامة الألف، وعلى هذا النمط عالجوا صورة البيت فأطلقوا عليها ما يقابله في لغتهم واعتمدوا الحرف الأول من اسمها وهو الباء وهكذا دواليك. فتكوّنت من هذه الأحرف الأبجدية

---

(1) اختلفت الآراء في تعيين تاريخ هذه الكتابة فبعضهم حدّده في التاريخ المذكور أعلاه غير أن البعض الآخر يرى أن تاريخ هذه الكتابة لا يتعدّى النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد وهذا هو رأي الأستاذ طه باقر أيضاً.

(2) الإلهة حتحور هي إلهة السماء عند المصريين وكانت تلقّب بعين الشمس وهو اللقب الذي كان يعطى لكثير من الإلهات الكبرى (انظر كتاب أرمان، «**ديانة مصر القديمة**»، ص25 وصورة حتحور على ص37).

(3) Diringer, «**Writing**», p. 120.

وهي مؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً وقد انتشرت هذه الأبجدية التي تعدّ أقدم أبجدية معروفة حتى الآن شرقاً وشمالاً وجنوباً، فصارت أصل الأبجديات في هذه الأماكن بعد أن تطوّرت في كلّ منها حسبما اقتضته طبيعة لغة أهله، فمنهم من حافظ على شكلها الأصلي كما وضعت في الأصل ومنهم من غيّر فيها وأضاف إليها أو أنقص منها[1]. ويؤكد الدكتور ولفنسون «أن الخط الكنعاني هو من صنع الكنعانيين واختراعهم وحدهم لأنه لا دليل مطلقاً على وجود أبجدية حرفية من هذا النوع عند غيرهم من الأمم»[2].

ومن أهم هذه الأبجديات التي اكتشفت الأبجدية اليغاريثية وقد عُثر عليها سنة 1949 في «رأس الشمرة» (موضع يغاريث الفينيقية القديم)، ويرجع تاريخ هذه الأبجدية التي كُتبت على لوح من الفخار إلى القرن الخامس عشر أو القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وقد عُثر على ألواح كثيرة أخرى كتبت بهذه الأبجدية على الصلصال المفخور بالنار على الطريقة العراقية وقد دوّنت بالكتابة المسمارية مع أنها لا علاقة لها بالكتابة المسمارية العراقية. وقد ظهر من هذه الكتابات أن «الأبجدية اليغاريثية هذه كانت تتألف من اثنين وثلاثين حرفاً وقد دوّنت من اليسار إلى اليمين على خلاف الأبجديات الأخرى مع أنه وجدت كتابات يغاريثية في فلسطين دوّنت من اليمين إلى اليسار وهذه الكتابات كلها دوّنت باللهجة الكنعانية القديمة».

وقد عُثر في موضع «بيبلوس القديمة» (جبيل الحالية)، وهي مدينة فينيقية أخرى تقع على مسافة 25 ميلاً شمال مدينة بيروت، على كتابة مهمة نقشت على تابوت حجري لملك بيبلوس «أحيرام»، وقد دوّنت بأبجدية مؤلفة من 22 حرفاً من اليمين إلى اليسار، وقد أرجع تاريخ هذه الأبجدية إلى القرن الحادي عشر أو العاشر قبل الميلاد[3]. كما اكتشفت كتابات بالأبجدية الفينيقية في قبرص ومالطا وصقليا وساردينيا واليونان وشمال أفريقيا ومارسيليا وإسبانيا

---

(1) انظر الرسم رقم 13 جدول تطور الأبجديات.

(2) ولفنسون، «**تاريخ اللغات السامية**»، ص 99.

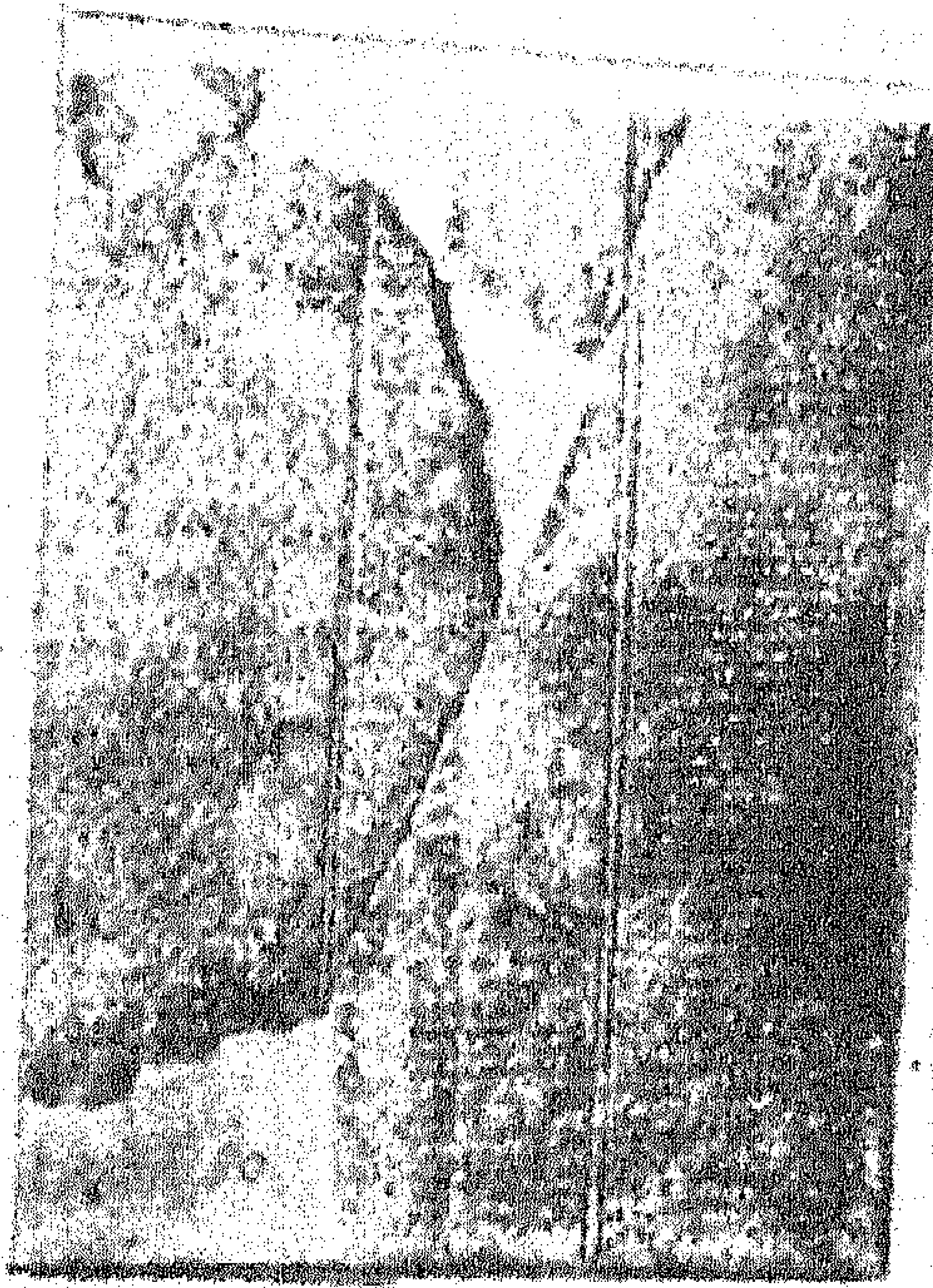
(3) Diringer, «**Writing**», p. 131.

عربي	لاتيني	اغريقي	اوغاريتي	فينيقي	عربي جنوبي	المعنى	سينائي
ء	A	A				رأس ثور	
ب	B	B				بيت	
ج	CG	Γ					
د	D	Δ				باب	
هـ	E	E				شباك	
و	FV	Y				وتد	
ز	...	I				(زين) سلاح	(?)
ح	H	8				حيط (حائط)	
ط	...	⊗					...
ي	I	ʕ				يد	
ك	...	K				كف اليد	
ل	L	ΛΛ				لمد (عصا)	
م	M	M				ماء	
ن	N	N				ثعى !	
...	X	Ξ				سمكة	
ع	O	O				عين	
ف	P	Γ				فم	
ص	...	...				صياد	
ق	Q	ϙ					
ر	R	P				رأس	
س ش	S	Σ				قوس	
ت	T	T				صليب	

الرسم رقم (13)
جدول تطور الأبجديات

وشرق قليتية. وقد عُثر على أبجدية متأخرة دوّنت فيها كتابة على مسلة تعود إلى عهد الملك «ميشع» ملك موآب (منتصف القرن التاسع قبل الميلاد) عرض فيها انتصاراته على ملك بهورام ملك إسرائيل (852 ـ 841 ق.م.)(1).

وفي وصف أدبي رائع لتطور الأبجدية وإثبات أصلها الكنعاني العربي، يقول العقاد: «وأياً كان قول المؤرّخين والرواة فهذه المسألة ـ مسألة الأبجدية ـ من المسائل التي لا حاجة بها إلى التاريخ والرواية. لأن أسماء الحروف وأشكالها ومعانيها شاهدة بانتقالها من المصادر العربية، سواء كانت فينيقية أو آرامية أو يمنية من الجنوب. فالأبجدية تسمّى عند اليونان «ألفا بيتاً» وتبدأ بالألف والباء والتاء، ثم تتوالى فيها حروف كثيرة بلفظها العربي في العصر الحاضر على وجه التقريب. وليس لأسماء الحروف معان مفهومة في اللغة اليونانية، ولكنها



الصورة رقم (58)

لوح من ألواح رأس الشمرا ويمثل كتابة فينيقية بالأبجدية المسمارية ترجع إلى القرن 14 ق. م (عن مارستون، «التوراة صحيحة»، ص21).

(1) (2 مل، 3: 1 ـ 27).

بهذه الأسماء مفهومة المعنى في لغتنا العربية العصرية، فضلاً عن اللهجات العربية الغابرة. وأقرب هذه الحروف إلى المعاني العربية الشائعة في أيامنا حرف الباء من بيت، وحرف الجيم من جمل، وحرف العين من عين، وحرف الفاء من فم، وحرف الكاف من كف، وحرف الميم من ماء، وحرف الياء من يد. وأشكالها المرسومة قريبة من أسمائها الأولى كما يرى في شكل البيت وشكل رقبة الجمل وشكل العين وشكل الفم، وغيرها من الأشكال. وإذا رجعنا إلى نطق أسماء الحروف كما شاعت أول استعمالها في البلاد العربية تبيّنت من العلاقة بين أشكالها ومعانيها جميعاً بغير استثناء حرف واحد من الحروف. فكلّها أوائل كلمات مفهومة من بقايا الكتابة التصويرية التي ترسم الشكل كله وتأخذ من الكلمة حرفها الأول عند الكتابة بالحروف»[1].

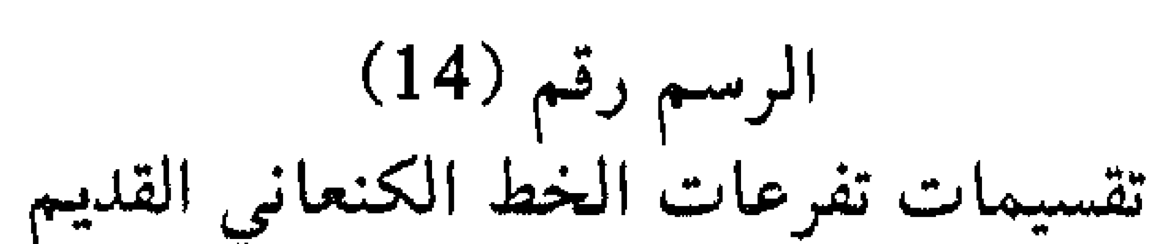
يتّضح مما تقدّم أن أقدم كتابة بأقدم حروف أبجدية معروفة حتى الآن هي الكتابة الكنعانية السينائية القديمة، وقد قسم علماء اللغات الأبجدية التي تفرّعت من الكنعانية القديمة إلى مجموعتين رئيسيتين، المجموعة السامية الشمالية والمجموعة السينائية العتيقة، وقد تفرّع من المجموعة الأولى الكنعانية وفروعها الفينيقية والعبرية القديمة والقرطاجية والليبية والآرامية وفروعها النبطية والعبرية المتأخرة المعروفة بالمربع والسينائية المتأخرة والعربية وغيرها. أما المجموعة الثانية أي السينائية العتيقة فقد تفرّعت منها السامية الجنوبية والسبئية والأثيوبية وغيرها[2].

نستدل من كل ذلك على أن الجزيرة العربية لعبت أكبر دور في تطوير الثقافة العالمية، فهي كما ثبت مهد الكتابة الأبجدية التي أظهرها الكنعانيون لأول مرة في طور سيناء وفي جنوبي فلسطين كما تقدّم شرحه، وبعد أن تنقلّت في أرجاء الجزيرة وأطرافها تطوّرت إلى عدّة أبجديات ثم عادت فاستقرّت في قلب الجزيرة في شكلها الأخير (عربية القرآن الكريم) المأخوذة عن النبطية

---

(1) «**الثقافة العربية**»، ص 29.

(2) انظر الرسم رقم 14.



الرسم رقم (14)
تقسيمات تفرعات الخط الكنعاني القديم

المتأخرة. كما يتّضح أيضاً أن الكتابة العبرية لم يكن لها أي دور لا من قريب ولا من بعيد في نشوء الأبجدية وتطوّرها وهي لم تتعدّ كونها أحد الفروع التي اقتبست أبجدياتها من الأبجدية الكنعانية العربية الأصلية[1].

---

(1) إن المراجع عن نشوء الأبجدية وتطورها كثيرة، وقد اعتمدنا في عرض هذا الموجز على أحدث المصادر التي تتناول أحدث الاكتشافات، منها كتابا الدكتور حتي «**سوريا**» و«**لبنان**» وكتاب الدكتور جواد علي «**العرب قبل الإسلام**» وخاصة كتاب دايرنجر «**الكتابة**». وفيما يلي مجموعة من المراجع في الموضوع:

B. F. G; Atkinson & J. Whatmough, «**Alphabet**», Enc. Brit, 1965, Vol. I, pp. 662-669; H. Bauer. «**Zur Entzifferrung der neuntdeckfen Sinaischrift**». 1918; E. Clodd, «**The Story of the Alphabet**»; M. Cohen, «**La grande inventaion de l'écriture**», 1958; F. M. Jr, Cross, «**The Evolution of the Proto-Canaanite Alphabet**», Amer. Sch. of Oreintal Research Bulletin, 134: 15-24 (April 1954); D. Diringer, «**The Alphabet**», 1948; «**The Story of the Aleph Beth**», 1958; «**Writing**» 1965; G. R. Driver, «**Semitic Writing from Pictograph to Alphabet**», 1954; J. Février, «**Histoire de l'Ecriture**», 1948; A. H. Gardiner, «**The Egyptian Origin of the Semitic** =

وأخيراً نختتم الكلام على نشوء الأبجدية وصلتها بالعرب بتعليق الأستاذ مرجليوث إذ يقول: «يرد على الخاطر سؤال عن أسماء المواقع التي تظهر على خريطة اليونان؟ كـ(عسكرا)، أي المعسكر، وفندس، أي الجبل من الفند وهو الجبل العظيم باللغة العربية، ولاريسا، أي العريش أو الخيمة، إلى أمثال هذه الأسماء التي تشبه أسماء المواقع في الأندلس بعد الفتح الإسلامي، فيبادر إلينا السؤال: «فلا تشير هذه الأسماء إلى حضارة عربية عريقة وصلت إلى اليونان ومعها حروف الأبجدية قبل أن يصل إليها الفينيقيون بحروف تخالفها»[1].

عالم عربي واحد تعززه وحدة جغرافية مترابطة الأجزاء:

والآن بعد أن عرضنا صورة إجمالية للأحداث التي شهدتها البلاد العربية في فجر التاريخ والتي كان أبرز حدث فيها هجرات أهل جزيرة العرب ونشرهم الحضارة السامية في أرجائها، فلنلق نظرة على الوضع الذي كانت عليه بلاد الشرق الأدنى وهي تسبح في بحر الألف الثالثة قبل الميلاد فماذا نرى؟... عالماً واسعاً يؤلّف فراغاً شاسعاً من الصحاري تحدّه الحضارة المستقرة على ضفاف وادي النيل من جهة الغرب وحضارة وادي الرافدين في جنوبي العراق من الجهة الشرقية: حضارتان أقعدتهما نعم الحياة بما أغدقته عليهما من أرض خصبة ومياه عذبة يقف بينهما شعب تائه في صحرائه حائر في أمره في وجه الجفاف الذي صار يهدّده في صميم حياته بعد أن حرمته الطبيعة من مصدر وجوده، وهو متعطش ينشد حياة جديدة في وطن جديد يسدّ فيه حاجته للقمة العيش. فكان عليه أن يحارب الطبيعة ويشق طريقه عبر البوادي القاحلة إلى الحياة التي كان ينشدها، وهو واثق بوحي الغريزة من أجل الحياة بأن ما وراء

= Alphabet», Journal of Egyptian Archaeology, 31 ff., 1916; I. L Gelb, «**A Stydy of Wrinting**», 1952; L. G. Gray, «**Introduction to Semitic Comparative Linguistics**», 1934; W. Leslaw, «**Semitic Languages**», Enc. Brit., 1965, Vol. 20, pp. 314-317; W. Marcais & M. Cohen, «**Précis de linguistique sémitique**», 1910; Sir W.F. Petrie, «**The Formation of the Alphabet**», 1912; M. Sprengling, «**The Universal Jewish Enc., 1, p. 198; H. Torczyner, «Tur-Sinai**», N.S. 1950 The Jewish Quarterly Review, 83-109, 159-179.

(1) Margoliouth, «**Relation between Arabs and Israëlites**», p. 11.

هذا البحر من الرمال عالماً غير عالمه تتوفر فيه وسائل الخلاص مما هو عليه من مصير يضمر بين طياته هلاكاً حتمياً، فقطع الصحاري كما قطع كولومبس البحار ليكتشف عالمه الجديد في أواخر القرن الخامس عشر بعد الميلاد حتى وجد الشعب ضالّته في وادي الأردن وتخوم وادي النيل في جهة الغرب، ووادي الرافدين في جهة الشرق، فأخذت الحشود تتوافد على هذا العالم الجديد على موجات متتابعة كما توافد أهل أوروبا على أمريكا في منتصف القرن السابع عشر بعد الميلاد فشمَّر هؤلاء الأشاوس قاهرو الصحاري عن سواعدهم وأخذوا يبنون حياة جديدة في عالمهم الجديد، مستغلّين الزراعة والتجارة وتربية المواشي في بناء عالمهم الجديد، فتمكّنوا من وضع أسس أعظم حضارة عرفها تاريخ الإنسان القديم.

وتذكرنا هجرات سكان الجزيرة إلى الهلال الخصيب بهجرات النورمان المتوالية من أعالي أوروبا نحو جنوب القارة الأوروبية وشرقها في القرن الثامن بعد الميلاد وفيما بعده وتوغلهم في روسيا وفرنسا وإنكلترا وإيطاليا حيث طبعوا بلاد أوروبا بطابعهم الخاص الذي لا يزال إلى يومنا موجوداً، مع الفارق أن النورمان انحدروا من الشمال إلى الشرق والجنوب والغرب في حين أن سكان الجزيرة صعدوا شمالاً وشرقاً نحو الهلال الخصيب في آسيا الغربية.

وكانت مستوطنات شعب الجزيرة في عالمه الجديد تؤلف عالماً عربياً واحداً يتميّز بقوميته العربية تعزّزه وحدة جغرافية واحدة مترابطة الأجزاء تضمّ الجزيرة العربية (الأم) وأبناءها في البلاد المهاجر إليها (وادي الرافدين وسوريا ولبنان وفلسطين إلى مصر السفلى)، وهو عالم متصل مفتوح السبل لأهله، مرتبط بعضه ببعض بوشائج الأصل السامي العربي، قائم بذاته، يتكلم أهله لغة واحدة، هي اللغة العربية الأم: منهم أهل السواحل خبروا البحار، ومنهم أهل الصحاري (أهل الوبر) احتضنوا البوادي، ومنهم أهل المدن والقرى (أهل المدر) احترفوا الزراعة والتجارة، ومنهم الرعاة أصحاب المواشي، فقد صهرتهم الوحدة الجغرافية في مصير واحد مشترك، فتعاونوا على الرغم من اختلاف نزعاتهم، على وضع أسس الحضارة السامية الكبرى.

وقد شمل هذا العالم حضارة ساحل البحر الأحمر والخليج العربي ثم حضارة ساحل البحر المتوسط، فالحضارة الصحراوية البدوية، ثم الحضارات النهرية: حضارة وادي الرافدين، وحضارة وادي النيل، وحضارة وادي الأردن.

وغطّى هذا العالم المنطقة الواسعة التي يحدّها جبل حمرين والخليج العربي وخليج عمان من الشرق، وبحر العرب وخليج عدن من الجنوب، والبحر الأحمر والبحر المتوسط من الغرب، وجبال طوروس من الشمال. وقد سيطر هذا العالم بجماله على طرق المواصلات الصحراوية، كما سيطر بسفنه على طرق المواصلات البحرية. وكان كل ذلك قبل أن يشهد الشرق الأدنى غزوات الأقوام الآرية غير السامية، وقبل أن يظهر أتباع موسى على مسرح الأحداث بزهاء ألفيّ عام.

وكان وادي الرافدين امتداداً لجزيرة العرب، بل كان جزءاً لا يتجزأ منها، فكان الموئل الرئيس الذي أُسِّست على ضفافه المستوطنات الزراعية، فأسس الأكديون والعموريون والبابليون والآراميون وكلهم ساميون أصلهم من جزيرة العرب، أولى مستوطناتهم فيه، ومن الأمثال المعروفة في بادية العراق قولهم: «نجد أم والعراق داية»، والمقصود بذلك ارتباط نجد بوادي الرافدين.

وكان النظام القبلي الذي يستند إلى العادات والعرف والتقاليد المتوارثة والذي يتولى فيه شيوخ القبائل السلطة هو السائد في هذا المجتمع الواحد، إذ كانت تمتدّ سلطة رؤساء القبائل إلى جميع توابعها: بطونها وأفخاذها، أينما وجدت، وكانت لهم أنظمة خاصة بالحروب والغزوات التي تنشب فيما بينهم، يتداولها ويتقبّلها الجميع عن طيب خاطر.

والدليل على أن بلاد الشرق الأدنى كلها كانت تعرف كوحدة قومية واحدة ترجع إلى أصل واحد، الأصل السامي العربي «أن تسمية (آراميين) كانت تشمل جميع القبائل الساكنة قديماً في البلاد الفسيحة الواسعة المحدودة ببلاد الفرس شرقاً والبحر المتوسط غرباً وبلاد الأرمن وبلاد اليونان في آسيا الصغرى شمالاً وحدود جزيرة العرب جنوباً كانت قاطبة معروفة ببني آرام

والآراميين»[1]. والآراميون ومعهم أهل الشام الذين كانوا يسمون أنفسهم بالأدوميين عرفهم الآشوريون باسم «العريبي» أي العربي وقد سبقت الإشارة إلى ذلك[2]. ويؤكد الأستاذ موسكاتي مؤيداً الوحدة العربية المتماسكة في تلك العصور فيقول: «إنّ المناطق الثلاث ـ الجزيرة العربية وسوريا ومن ضمنها فلسطين[3]. وبلاد ما بين النهرين ـ كلها تكوّن وحدة جغرافية مترابطة الأجزاء كانت في تلك الأزمان مسرحاً رئيسياً للنشاط البشري وأن الأقوام الذين مثّلوا هذه الأحداث المسرحية لعبوا الدور المعدّ لهم بحكم طبيعة أحوالهم. وقد صهرتهم هذه الوحدة الجغرافية في مصير مشترك بحيث إن أية صدمة أو حركة تصيب القطاع الواحد يمتد انعكاسها إلى الأقطار الأخرى.. وإن الأقوام الذين استوطنوا هذه الأصقاع هم الذين رسموا شكل تاريخها وحضارتها في ضوء أحوال بيئتهم الطبيعية». ثم يضيف إلى ذلك قوله: «والمنطقة بأسرها كانت مفتوحة مكشوفة أمام أهل جزيرة العرب بحيث كان يسهل عليهم التوغّل في جميع أنحائها من جميع الجهات، وهكذا فقد انصبَّت عليها موجات الهجرة المتتالية لما تخللته من مغريات الخصوبة ووفرة وسائل العيش[4].

فلسطين عربية المنشأ في حضارتها وقوميتها وثقافتها:

يتّضح مما تقدّم من عرض للأحداث التي دارت حول الشرق الأدنى في تاريخه القديم أن الفترة التي عاشتها فلسطين في الألفين الثالثة والثانية قبل الميلاد هي فترة عربية بحتة في قوميتها وثقافتها ولغتها، ولا توجد لعصر موسى واليهود الذي يأتي بعد أكثر من ألفيّ سنة من حياة فلسطين العربية هذه أية صلة

---

(1) «**دليل الراغبين في لغة الآراميين**» للقس حنا الكلداني، ص 7.

(2) انظر ما تقدّم في الفصل الأول «هجرة الآراميين إلى سوريا والعراق».

(3) يقصد العلماء عندما يتحدثون عن سوريا في التاريخ مفهومها الواسع الذي يشمل ـ عدا سوريا ـ فلسطين ولبنان وفينيقيا وسيناء.

(4) S. Moscati, «**Ancient Semitic Civilizations**», London, 1957, pp. 13, 21, 108.

الدكتور محمود الغول «صلات عرب الجزيرة بخارجها فيما قبل الإسلام»، **العربي** 59 (1963)، 58 ـ 62.

بهذا العصر القديم كما سيأتي شرحه مفصّلاً في الفصول التالية. إنّ فلسطين نشأت عربية منذ أكثر من خمسة آلاف عام، سكنها أول من سكنها الكنعانيون العرب الذين نزحوا من الجزيرة العربية، وذلك قبل ظهور موسى بأكثر من ألفيّ عام كما تقدّم. والكنعانيون ـ العرب ـ هم سكانها الأصليون الشرعيون بدليل احتفاظهم حتى يومنا هذا باسم بلادهم الأصلي «فلسطين» التي عرفت به منذ هجرة «الفلسطينيين» إلى سواحل أرض فلسطين واندمجوا مع الكنعانيين[1]. وهذه (أورشليم) المدينة المقدسة مدينة كنعانية عربية المنشأ في تسميتها وقوميتها[2].

أفلا يحق لنا بعد كل ما تقدّم أن نسأل أولئك الذين يتمسكون بإرجاع تاريخ عصر موسى واليهود إلى عصور فلسطين القديمة: أين دور اليهود من أحداث تلك العصور؟.. أين حضارتهم؟ أين ثقافتهم؟... أين الدليل على مساهمتهم بحضارة الكنعانيين والعموريين والآراميين والأكديين والبابليين؟.. أين كانوا حين نزح هؤلاء من الجزيرة العربية إلى بلاد الهلال الخصيب وأسسوا مستوطناتهم وحضاراتهم فيها؟.. وكيف نسمح لأنفسنا أن نحشر هذه الجماعة في أحداث تلك الفترة من تاريخ فلسطين من غير أن يكون لهم وجود فيها؟.. هذه أسئلة يفرضها البحث في تاريخ فلسطين القديم ونترك الإجابة عليها إلى أولئك الذين لا يزالون يصرّون على حشر اليهود في أحداث لم يكن لهم وجود فيها لا من قريب ولا من بعيد...

أسماء مدن فلسطين كنعانية عربية الأصل:

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن معظم المدن والقرى والمناطق الفلسطينية التي اعتبرها اليهود خاصة بهم وتحدثوا عنها وكأنها مدنهم القديمة لمجرد ورود ذكرها في التوراة نمت وازدهرت قبل عهد موسى واليهود بعشرات من القرون، وقد حافظت على أسمائها الكنعانية القديمة حتى هذا اليوم،

(1) انظر ما تقدّم عن هجرة الفلسطينيين في الفصل الأول.
(2) انظر الملحق الأول «أورشليم في أقدم عهودها».

ويرجع بعضها حسب تقدير العلماء إلى ما قبل سبعة آلاف عام، فبلدة «أريحا» مثلاً أرجع الخبراء تاريخها إلى سنة 5000 قبل الميلاد ويعدّها البعض أقدم مدينة في العالم ما زالت قائمة حتى اليوم[1]. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك. وهذه «أورشليم» المدينة المقدسة، مدينة كنعانية عربية المنشأ في تسميتها وفي قوميتها وفي ثقافتها، وكلمة «صهيون» كلمة كنعانية الأصل كانت تطلق على رابية من أورشليم كان قد تحصّن بها اليبوسيين أبناء عمومة الكنعانيين العرب سكان أورشليم الأصليون وحتى إسرائيل كانت اسم موضع في فلسطين يرجع إلى ما قبل عصر موسى واليهود.

وقد عُثر على جدران هيكل بلدة طيبة المصرية على جدول بأسماء 118 مدينة كنعانية يعتقد أنها المدن التي افتتحها تحوطمس الثالث (1503 ـ 1449 ق.م.)[2]، وهذا يعتبر أقدم ذكر للمدن الكنعانية إذا استثنينا ذكر بعضها في وصف حملات الفراعنة الأقدمين على بلاد كنعان التي ترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد.

ويحاول الصهيونيون اليوم إحياء الأسماء القديمة في فلسطين المحتلّة باعتبارها أسماء عبرية (يهودية) والحقيقة هي أن هذه الأسماء كلها ومن ضمنها أورشليم والقدس أسماء كنعانية عربية الأصل حتى كلمة صهيون وإسرائيل اللتين اتخذوهما شعاراً لتصميمهم العدائي ضد أهل فلسطين العربية هما كلمتان كنعانيتان عربيتا الأصل كما تقدّم ولم يستطع اليهود تغيير الأسماء، لأنه لم تكن لديهم لغة خاصة بهم في تلك العصور لتحويلها إليها. فاللغة التي اقتبسوها في فلسطين هي الكنعانية لغة سكان البلاد الأصليين ولم تكن اللهجة العبرية (بمعنى اليهودية) المأخوذة من الآرامية قد تكوّنت بعد.

وهنا لا بدّ من توضيح نقطة مهمة فيما يخص دور العبرية في تطور الثقافة الفلسطينية، وعلينا قبل كل شيء أن نفرّق بين اللغة وبين الكتابة أو

(1) W. Keller, «**The Bible as History**», p.159; J. Garstang & J. F. E. Garstang, «**The Story of Jericho**», 1948, K. Kenyon, «**Earliest Jericho**», Antiquity, Vol. 33, 1959, pp. 5-9.

(2) انظر ما تقدّم عن هجرة الكنعانيين في الفصل الأول.

الخط: فالرأي المتّفق عليه هو أنه ليس لليهود أية لغة أو لهجة خاصة بهم، لأن الموسويين عندما جاؤوا إلى فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد أخذوا بالثقافة الكنعانية بما فيها اللغة الكنعانية والشعائر الدينية ـ الثقافة التي كانت قد نمت وازدهرت على أيدي الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين منذ الألف الثالثة قبل الميلاد. ثم بعد أن انتشرت الآرامية، وهي من أصل عربي مثل الكنعانية، اقتبسها اليهود مع بقية الأقوام، وباللهجة المعروفة بآرامية التوراة دوّنت التوراة في الأسر في بابل وفي عهد الأخمينيين أو بقيت هذه اللهجة مقتصرة على الكتب المقدسة. أما الكتابة العبرية القديمة فقد نمت من مصدرين، من الكتابة السامرية وهي من الأبجديات التي تفرّعت من الأبجدية السينائية ولا يزال السامريون يستعملونها حتى هذا اليوم، ثم من الكتابة التي ظهرت على سكة النقود التي ترجع إلى العهد المكابي. وإلى جانب ذلك اتّخذ اليهود الحرف المسمى بالحرف المربع الذي دوّنت به التوراة، وهو مقتبس من الأبجدية الآرامية ولا يزال يستعمل في الكتابة العبرية (اليهودية الحديثة)[1].

يتّضح مما تقدّم أن اليهود أخذوا ولم يسهموا في شيء في تقدّم الحضارة، وليس لهم أي تراث قومي خاص بهم، فاللهجة التي دوّنوا بها التوراة والمقتبسة من الآرامية لم تكن من اللغات الحية، إذ بقيت مقتصرة على الكتب المقدسة، وليس ثمة أي دليل على أنها انتشرت كلغة تخاطب حتى بين اليهود أنفسهم، لقد أخذ اليهود بلغات الأقطار التي استقرّوا فيها واستعملوا الحروف العبرية في الكتابة في أكثر الأحيان. لذلك فإن ما ورد من أسماء وأماكن فلسطينية في التوراة هو من أصل كنعاني عربي ولا يمكن بأي حال من الأحوال اعتبارها أسماء عبرية بمعنى يهودية لأن اللهجة التي اتخذها اليهود في كتابة توراتهم، أي آرامية التوراة لم تكن قد تكوّنت بعد. فالثقافة الكنعانية بما فيها الديانة الكنعانية وشعائرها بقيت هي السائدة في البلاد حتى في زمن داود وسليمان وفي زمن الملوك والانقسام.

(1) D. Diringer, «**Writing**», p.128.

الفصل الثالث

التوراة
والديانة اليهودية

تمهيد:

يتفق الباحثون عموماً على أن التوراة التي تمثّل الديانة اليهودية مقتبسة من أصول قديمة، وهي تعتمد على ثقافة الكنعانيين والمصريين والبابليين بالدرجة الأولى، ومع أنها تركّز على تاريخ اليهود فهي تنقل من خلال عرضها للحوادث معلومات جغرافية وتاريخية هامة عن أسماء المدن والأماكن والشخصيات الكنعانية القديمة في فلسطين كما كانت عليه قبل غزو قوم موسى إياها في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، لذلك يتحتم علينا عرض نبذة عن تاريخ التوراة والديانة اليهودية.

تقوم الديانة اليهودية[1] على مصدرين أولهما الأساس وهو التوراة ويعرف أيضاً بالعهد القديم أو العهد العتيق لتمييزه عن العهد الجديد (الإنجيل) والعهد القديم مقدس عند اليهود وعند المسيحيين على السواء ويعتبر جزءاً من الديانة المسيحية ويُسمَّى كلا العهدين، العتيق والجديد، «الكتاب المقدس». أما المصدر الثاني فهو «التلمود» ومعناه التعاليم أو الشرح والتفسير ويشتمل على مجموعة الشرائع اليهودية وشروح وتعليقات على التوراة وضعها علماء اليهود الأحبار والحاخامون بعد المسيح فبنوا عليها سنناً وآداباً أصبحت على مرّ الزمن محل تقديس عند اليهود كالتوراة. لذلك لم يرد أي ذكر للتلمود لا

---

(1) نقول الديانة اليهودية ولا نقول الإسرائيلية لأن اليهود، ودورهم في التاريخ كما نفهمه، هم غير بني إسرائيل الذين يرجعون إلى عهد إبراهيم الخليل كما سنوضّح ذلك فيما بعد.

في الأناجيل ولا في الحوار بين المسيحيين والفرق اليهودية كما أنه لم يرد ذكر للتلمود لا في القرآن الكريم ولا في الأحاديث النبوية.

العهد القديم من «الكتاب المقدس» (التوراة)[1]

يتألف العهد القديم من الكتاب المقدس أو ما يُسمّى بالتوراة وبالعبرية «توره» أي «الهدى والإرشاد» من 39 سفراً[2] ويقسم إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول منه يتألف من خمسة أسفار، وهي:

1 ـ سفر التكوين Genesis.

2 ـ سفر الخروج Exodus.

3 ـ سفر اللاويين[3] Leviticus.

4 ـ سفر العدد Numbers.

5 ـ سفر التثنية Deuteronome.

وقد أُطلق على هذه الأسفار الخمسة الأولى اسم «كتب موسى الخمسة» وقد سُمِّيت باليونانية Pentatichus «بنتاتيك»، أي الكتاب ذو الأسفار الخمسة وقد انتقلت هذه اللفظة اللاتينية إلى معظم اللغات العصرية. وتطلق أحياناً لفظة «التوراة» على الأسفار الخمسة باعتبارها في بعض المذاهب الأسفار التي تعود إلى عهد النبي موسى. وقد نسِّق العهد القديم على أساس تسمية كل سفر حسب

---

(1) وضعت هذه الدراسة بالنسبة «**للكتاب المقدس**» الترجمة البروتستانية الكاملة إصدار لجنة التوراة الأمريكانية وطباعة مطبعة الجامعة الأمريكانية في بيروت باعتباره المرجع الأساسي (راجع تنبيهنا في مطلع الكتاب). ولكن لما كان «**الكتاب المقدس**» إصدار وطباعة المطبعة الكاثوليكية لعام 1961 هو أيضاً أحد مراجع هذا الكتاب فقد أشرنا إلى الفروق بين الطبعتين بوصفهما الطبعتان الأكثر تداولاً في الشرق بدون المقارنة بينهما لأن كل مقارنة بين الاثنتين بعيدة عن مرمى هذا الكتاب. (انظر فيما يلي ترجمات «**الكتاب المقدس**» العربية الكاملة).

(2) 46 سطراً حسب الترجمة الكاثوليكية.

(3) سفر الأحبار حسب الترجمة الكاثوليكية.

محتواه، فسُمِّي السفر الأول «التكوين» لأنه يصف الخليقة وبدء العالم والشعب المختار بنوع خاص، ودعي الثاني سفر الخروج لأنه يتحدّث عن خروج من سموا أنفسهم «بني إسرائيل» من مصر وعن الوحي على جبل سيناء، وقد دوّنت أحكام الشريعة ومن ضمنها الوصايا العشر في الإصحاح العشرين من هذا السفر[1]. والثالث «سفر اللاويين»، ويحتوي على طقوس الكهنة أبناء لاوي، وأطلق على الرابع اسم «سفر العدد» لما تضمنه من إحصاءات الشعب المختار، وتنتهي هذه المجموعة بـ «سفر تثنية الاشتراع» الذي يبدو كتكرار وتتمة لشريعة موسى. وقد تضمّن السفران الأخيران وصفاً للفتح الذي تمّ على يد النبي موسى في الجانب الشرقي من الأردن وتوزيع الأراضي المستولى عليها على سبطين ونصف سبط. وقد جاءت هذه المجموعة كمزيج من القصص والشرائع تربط سياق الحوادث منذ خلق العالم حتى موت النبي موسى.

أما القسم الثاني وهو المُسمَّى «نبييم» أي الأنبياء فيشتمل على مجموعتين الأولى خاصة بالأنبياء الأول والثانية بالأنبياء المتأخرين، وتتناول الأولى تاريخ بني إسرائيل من دخول يشوع فلسطين حتى هدم الهيكل في بيت المقدس وهذه الأسفار هي:

1 ـ سفر يشوع ويحتوي على تفاصيل توغل الموسويين في فلسطين (الجانب الغربي من الأردن) وتقسيم الأراضي التي تمّ فتحها على تسعة أسباط ونصف.

2 ـ سفر القضاة ويشمل فترة عهد القضاة بين موت يشوع وولادة صموئيل.

---

(1) الوصايا العشر:
ـ أنا الرب إلٰهك، فلا يكن لك آلهة أخرى أمامي (خر 20: 2 ـ 3)؛ لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما (خر 20: 4)؛ لا تنطق باسم الرب إلٰهك باطلاً (خر، 20: 7)؛ اذكر يوم السبت لتقدسه (خر، 20: 8)؛ أكرم أباك وأمك (خر 20: 12)؛ لا تقتل (خر، 20: 13)؛ لا تزن (خر، 20: 14)؛ لا تسرق (خر، 20: 15)؛ لا تشهد بالزور (خر، 20: 16)؛ لا تشته بيت قريبك ولا شيئاً مما يملك (خر، 20: 17).

3 ـ 4 ـ سفرا صموئيل الأول والثاني ـ الأول خاص بتاريخ صموئيل وشاؤول والقسم الأول من عهد داود والثاني خاص بحكم داود[1].

5 ـ 6 ـ سفرا الملوك الأول والثاني ـ ويبحثان في الفترة من موت داود حتى بدء السبي البابلي[2].

7 ـ 8 ـ سفرا أخبار الأيام الأول وأخبار الأيام الثاني ـ وهما كناية عن وثائق غير مصنفة وسلالات نسب وأجزاء روائية من آدم حتى بداية عهد قورش.

والمجموعة الثانية الخاصة بالأنبياء المتأخرين تتألف من 14 سفراً هي: أشعيا وأرميا وحزقيال ويوئيل وعاموس وعوبديا ويونان وميخا وناحوم[3] وحبقوق وصفنيا وحجي[4] وزكريا وملاخي.

وأما القسم الثالث فيُسمَّى «كتوبيم» (الكتابات والأشعار) ويتألف من اثني عشر سفراً هي: مزامير داود وأمثال سليمان وأيوب ونشيد الأنشاد[5] وراعوث وهوشع ومراثي أرميا والجامعة واستير ودانيال وعزرا ونحميا.

وعلى هذا يكون العهد القديم مؤلفاً من 39 سفراً ومقسماً إلى ثلاثة أقسام هي: البنتاتيك والنبييم والكتوبيم[6].

---

(1) سفرا الملوك الأول والثاني حسب الترجمة الكاثوليكية.

(2) سفرا الملوك الثالث والرابع حسب الترجمة الكاثوليكية.

(3) نحوم حسب الترجمة الكاثوليكية.

(4) حجَّاي حسب الترجمة الكاثوليكية.

(5) نشيد الأناشيد حسب الطبعة الكاثوليكية.

(6) الطبعة الكاثوليكية تضمّ 46 سفراً وتقسم العهد القديم إلى أربعة أقسام. وهذه الأقسام هي:
أ ـ الكتاب ذو الخمسة أسفار (البانتيك) ويتألف من الأسفار الخمسة الأولى (التكوين، الخروج، الأحبار، العدد وأخيراً تثنية الاشتراع).
ب ـ كتب التاريخ وتشمل أسفار (يشوع، قضاة، راعوت، أسفار الملوك الأول والثاني والثالث والرابع، سفري أخبار الأيام الأول والثاني، عزرا، نحميا، طوبيا، يهوديت، استير وأخيراً سفريّ المكابيين الأول والثاني وعددها 16 سفراً.
ج ـ كتب الشعر والحكم وتشمل أسفار (أيوب، المزامير، الأمثال، الجامعة، نشيد الأناشيد، =

وتُعتبر الديانة اليهودية ديانة كهنوتية إذ إن الكهنة هم الذين يقيمون بتفسير التوراة ذاتها، وهم الواسطة بين اليهود وإلٰههم «يهوه»، وهم الذين ينفذون الشريعة ويوجهون الشعب اليهودي في ممارسة شعائرهم الدينية، وكانت وظيفة الكهّان عندهم وراثية وقد حصرت في نسل هارون وهم اللاويون على قول التوراة[1]. وقد لعب مجمعهم الديني الأعلى المسمى بالسنهدرين دوراً رئيسياً في حياة اليهود الدينية والاجتماعية والسياسية في الفترة التي تلت رجوع اليهود من السبي البابلي وخاصة فيما يتعلق بمحاكمة السيد المسيح عليه السلام.

السنهدرين (المجمع الديني الأعلى):

«السنهدرين» وفي بعض الأحيان يُكتب خطأ بالميم (سنهدريم) هو المجلس العلمي الديني الأعلى عند اليهود. وأصل الاصطلاح يوناني ومعناه المجلس، ظهر في زمن خلفاء الإسكندر في أورشليم حيث كانت المنطقة اليهودية بعد الرجوع من السبي بين المدّ والجزر، فتارة كانت تقع تحت نفوذ البطالسة في مصر وتارة أخرى تكون تابعة لسلطة السلوقيين في سوريا، واستمرّت الحالة كذلك حتى ظهور المكابيين ومن بعدهم الرومان على مسرح الأحداث. وقد بقي السنهدرين قائماً في العهد الروماني حتى إلغائه سنة 70م. عندما هدمت أورشليم وهيكلها فانتقل أعضاؤه إلى بلدة «يبنة» قرب يافا ومن «يبنة» إلى طبرية، وفي عهد الإمبراطور أنتونينس بيوس (138 ـ 161م) أعيد

= الحكمة وأخيراً يشوع بن سيراخ) وعددها 7 أسفار.

د ـ الأنبياء وتشمل أسفار (أشعيا، إرميا، مراثي إرميا، باروك، حزقيال دانيال، هوشع، يوئيل، عاموس، عوبيديا يونان، ميخا، نحوم، حبقوق، صفنيا، حجّاي، زكريا وأخيراً ملاخي) وعددها 18 سفراً. وهكذا يصبح عدد أسفار العهد القديم في الترجمة الكاثوليكية 46 سفراً أي بزيادة 7 أسفار من الترجمة البروتستانتية والأسفار الزائدة هي: يهوديت، طوبيا، مكابيين أول وثاني، حكمة، يشوع بن سيراخ وأخيراً باروك.

ورأي الكنيستين في هذه الأسفار كما هو مبين في كلامنا من ترجمات «**الكتاب المقدس**» العربية الكاملة.

(1) (خر، ص 18)؛ (عد، ص 16).

تشكيل السنهدرين في الجليل في بلدة «أوشا» وقد بقي منصب رئاسة السنهدرين وراثياً في عائلة هليل أكثر من ثلاثة قرون.

ويحاول الكتّاب اليهود جعل بداية وجود السنهدرين منذ الرجوع من السبي على الأقل، أي إرجاعه إلى أواخر القرن السادس قبل الميلاد، وأما التقليد اليهودي فيعتبر أن أول سنهدرين وجد كان في عهد النبي موسى عندما دعا إليه السبعين رجلاً ليعملوا معه لما قام أتباعه يتذمرون ويطالبون بالعودة إلى مصر(1). وكانت تتمثّل في السنهدرين فئتان، الفئة الأولى (سادوسي) وهي الفئة المتمسكة بتعاليم الدين ومهمتها حمل الناس على الزهد والتعبّد، والفئة الثانية وتُسمّى (بيروشيم) وهي التي تدفع الناس إلى ناحية العمل والكسب والإثراء ليصبح الشعب اليهودي ذا قوّة مادية.

وكانت صلاحية السنهدرين تضيق وتتّسع من وقت إلى آخر حسب إرادة الرومان بعد احتلالهم سوريا سنة 64 ق.م. وقد منح الرومان السنهدرين صلاحيات دينية واجتماعية واسعة شريطة عدم تأثير ذلك على المصالح السياسية الرومانية، والسنهدرين هو الذي قام بمحاكمة السيد المسيح ومن ثم بصلبه سنة 29 ب.م. على ما جاءت به الأخبار(2). وكان السنهدرين عندئذ في أقصى ما وصل إليه من نفوذ وصلاحيات. وكان يتألف حينذاك من 71 عضواً وكلهم من كبار الكهنة والشيوخ وأشهر الحاخاميين، وكان يحصل النصاب فيه بحضور 23 عضواً، ولما عيّن «غابينوس» أول والٍ روماني على سوريا سنة 57 ق.م. قسّم المنطقة اليهودية إلى خمسة أقسام وأقام في كل منها سنهدرين محلي مؤلف من سبعة أعضاء وقد سُمِّي السنهدرين الرئيسي في أورشليم السنهدرين الأعلى تمييزاً له عن الهيئات المحلية(3).

---

(1) (عد، 11: 16 ـ 17، 24).

(2) (مر، 14: 53 ـ 64)؛ (مت، 26: 56 ـ 68)،

(3) انظر: S.B. Hoenig, «The Great Sanhedrin», «Sanhedrin», **Ency. Brit.**, (1965, 19: 945A); Rabbi M.A. Gutstein, «Sanhedrin», in **Collier Encyclopedia** (1957), Vol. 17, p. 324.

فئة من اليهود لا تعترف بغير الأسفار الخمسة الأولى من التوراة:

وتوجد هناك فئة قليلة من اليهود لا تعترف من التوراة بغير الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة إلى النبي موسى، وتُعرف هذه بالطائفة السامرية نسبة إلى السامرة وهم يسكنون في نابلس (شكيم القديمة)، وتوجد لديهم نسخة قديمة من الأسفار الخمسة على رقّ يدّعون بأنها ترجع إلى ما قبل عهد المسيح، وهم يرفضون كلّ ما عداها وما يزالون يتمسكون بها حتى اليوم. وقد استقلّت تلك الفئة بكيانها الديني، وعمل اليهود على إخراجها من الحظيرة اليهودية فلم يفلحوا، وقد بنت لها هيكلاً خاصاً بها على جبل «جرزيم» عند نابلس واعتبرته بمثابة «جبل الطور». وقد قام بينها وبين اليهود عداء استمر قروناً حتى راح السامريون أحياناً يعينون في كثير من الأحيان من يريد ضرب اليهود من الغزاة.

ويعتقد أن هؤلاء السامريين هم بقايا الجماعات التي نقلها الآشوريون من بابل وعيلام وسوريا وبلاد العرب ليحلّوا محل اليهود الذين تمّ سبيهم إلى أماكن بعيدة فاختلطوا مع اليهود الباقين وتكوّنت منهم هذه الفئة المسماة بالسامريين أو «السامرة» كما سمّاهم بعض المؤرّخين. وقد تمّ عزل هذه الطائفة عن المجتمع اليهودي كلياً بعد رجوع اليهود من السبي البابلي وحرمت من التزاوج مع اليهود والاختلاط بهم، ولا تزال بقايا من هذه الطائفة موجودة حتى هذا اليوم في نابلس ولا يتجاوز عدد أفرادها المئتي نسمة ولغتهم هي اللغة العربية[1].

وفي رواية للبيروني المتوفى سنة 440هـ (1048م) أن السامريين هم الذين أعانوا نبوخذ نصّر ودلوه على نقاط الضعف عند اليهود حين غزا مملكة يهوذا وسبى اليهود إلى بابل لذلك لم يمسهم بأذى، وقال في ذلك ما نصّه: «السامرة هم المعروفون باللاسامية وهم الأبدال الذين بدّلهم بختنصر بالشام حين أسر اليهود.. وكان السامرة قد أعانوه ودلّوه على عورات بني إسرائيل

---

(1) Hitti, «**History of Syria**» pp. 197-198.

فلم يحركهم ولم يقتلهم ولم يسبهم وأنزلهم فلسطين من تحت يده. . . وعامتهم يكونون بموضع من فلسطين يُسمّى نابلس وبها كنائسهم. . . ولا يمسهم الناس وإذا مسّوهم اغتسلوا ولا يقرّون بنبوّة من كان بعد موسى من أنبياء بني إسرائيل»[1].

ولقد أوردت مجلة العربي، في استطلاع مصوّر لها عن مدينة نابلس، أحدث المعلومات عن هذه الطائفة السامرية تحت عنوان «السامريون: طائفة لا نظير لها في العالم» ومعه صور ملوّنة بديعة واحدة لجبل جرزيم أو جبل الطور الذي تقول عنه إنه الجبل الذي دعا الرب سيدنا إبراهيم الخليل لتقديم ولده الوحيد عليه، وأخرى لأحد كهنة هذه الطائفة حاملاً بيديه الكتاب المقدّس الخاص بها وهو الكتاب المعروف بالكتاب ذي الأسفار الخمسة وثالثة لثلاثة من رؤساء عشائرها في نابلس يحمون كتابهم المقدّس الذي يقولون عنه إنه التوراة الحقيقية. ورابعة غير ملوّنة لرجل سامري يقف فوق جبل جرزيم. وهذا ما نشرته مجلة العربي عن هذه الطائفة بالحرف الواحد:

«وتقيم في مدينة نابلس طائفة السامريين، وهي طائفة كانت دوماً في تاريخها القديم في صراع مع اليهود ومع الرومان. وقد قاموا بثورات زمن الإمبراطور زينو (474 ـ 491م) فطردهم من مقرّهم في جبلهم المقدس جرزيم وبنى فيه كنيسة، وثاروا زمن الإمبراطور جوستنيان فنكّل بهم، ودمّر معبدهم، وأقام كنائس في المدينة، فهرب بعضهم إلى إيران، واعتنق البعض الآخر المسيحية.

«وبعد الفتح العربي عاد السامريون إلى نابلس وعاشوا في أمان، وعادوا يقيمون طقوسهم بحرية تامة.

«وطائفة السامريين من أقل الطوائف على وجه الأرض عدداً، إذ يبلغ مجموع أفرادها 337 شخصاً بين ذكور وإناث. وقد مرّ عليهم وقت غير بعيد لم يزد عددهم فيه عن مائتي نفس متفرقين في قرى مختلفة. وقبل 350 سنة لم يكن قد بقي منهم سوى خمسة ذكور وخمس إناث لا غير، فجمعهم الكاهن صدفة في

---

(1) «**الآثار الباقية في القرون الخالية**»، طبعة ليزيك 1932، ص 21.

نابلس بعد أن كانوا يعيشون متفرقين في دمشق وغزة ومصر. ويرى السامريون أنهم ورثة بني إسرائيل جميعاً وحماة التوراة العاملون بتعاليمها ووصاياها العشر وأن الله قد اختارهم، وأنهم هم البقية الباقية من أولاد يعقوب عليه السلام.

وتقوم عقيدة السامريين على خمسة أركان: وحدانية الله، ونبوءة موسى عليه السلام، وقداسة جبل جرزيم، والإيمان بأن التوراة (الخمسة أسفار الأولى من العهد القديم) منزّلة من الله، والإيمان بيوم الدينونة والبعث وأنه لا ريب فيه»[1].

والغريب هنا أن هؤلاء السامريين يرجعون أصلهم، مثل ما فعل اليهود، إلى يعقوب (إسرائيل) في حين أنهم، كما تؤكد بعض المظان التاريخية، من بقايا الأقوام التي حلّت محل اليهود المسبيين كما أن اليهود هم من بقايا قوم موسى المصريين الأصل، وفي الفقرات الآتية شرح لذلك.

وهناك فرقة يهودية مؤلفة من طبقة الكهنة وبعض الكتبة تُسمّى بالصدوقيين نسبة إلى رائدهم الأول «صدقة» وقد ظهرت في زمن السلوقيين، وهؤلاء لا يقرّون ما يأتي به الشيوخ والكتبة مما هو خارج عن الوحي المدوّن في أسفار التوراة الخمسة المنسوبة لموسى، ويقولون علينا أن لا نراعي إلّا ما ورد في النصّ المدوّن ولا نأخذ بما جاءت به التقاليد الشفوية الموروثة عن الآباء والأجداد، وهم في ذلك يقفون مع السامريين على صعيد واحد[2].

تاريخ التوراة، لغتها، مكان وزمان ظهورها:

إن البحث في هذا الموضوع يحتاج أولاً إلى توضيح نقطة مهمة تدور حول استعمال مصطلح بني إسرائيل كما جاء في التوراة: فالتوراة اعتبرت بني إسرائيل الموضوع الرئيسي الذي ترتكز عليه جميع الحوادث الواردة فيها، وقد عدّتهم موجودين في كل زمان ومكان حتى في الأدوار التي سبقت ظهورهم

---

(1) راجع **مجلة العربي**، العدد 29 (أبريل/نيسان 1961) ص 81 و84 ـ 87.

(2) انظر: «**بروتوكولات حكماء صهيون**»، للأستاذ عجاج نويهض، م 2، ص 98 ـ 101، 134 ـ 135.

إلى عالم الوجود، فقد اعتبرت وجودهم في دور إبراهيم الخليل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد قبل أن يخلق يعقوب (إسرائيل)، كما أنها اعتبرت وجودهم بعد عهد أبيهم يعقوب بحوالي ستمائة سنة، أي في عهد النبي موسى عندما نزحت جماعته من مصر إلى أرض فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ثم اعتبرت وجودهم في جميع الأدوار التالية ومن ضمنها عهد الملوك وعهد الانقسام وما تلا ذلك. وحتى يهود العالم اليوم هم، على رأي التوراة، نفس أبناء يعقوب الذي عاش قبل 3700 سنة. فيا لغرابة هذا المنطق!!....

أما إذا أردنا تتبّع الأدوار التاريخية حسب تسلسلها الزمني فيتوجب علينا التمييز بين عصر إبراهيم الخليل ويعقوب (إسرائيل) وبين زمن قوم موسى وبين زمن مملكة يهوذا التي جاء اسم «يهود» منها، وذلك حسب أدوارهم كما ذكرهم القرآن الكريم بهذه التسميات الثلاث. فإبراهيم الخليل عاش في القرن التاسع عشر قبل الميلاد وكانت اللغة في زمنه لغة واحدة (اللغة الأم) يتكلم بها أبناء الجزيرة العربية المنتشرون في أنحاء الشرق الأدنى، وذلك قبل أن تتفرّق هذه اللغة إلى اللهجات الكنعانية والآرامية والعبرية وغيرها. وهكذا كانت لغة العشائر الآرامية التي كان ينتمي إليها إبراهيم الخليل هي اللغة نفسها التي كان يتكلم بها الكنعانيون وهي قريبة جداً من اللغة الأم قبل أن تنفصل إلى عدّة لهجات. أما حفيده يعقوب (إسرائيل) فالأرجح أنه كان يتكلم اللغة الكنعانية الآرامية نفسها وهو آرامي مثل إبراهيم بحكم النسب. كما أنه من الأرجح أن أبناء يعقوب في زمن يعقوب على الأقل كانوا يتكلمون اللغة الكنعانية الآرامية نفسها. وهذا هو الدور الذي يمكن تسميته بالدور الأول الذي عاش فيه إبراهيم الخليل وحفيده يعقوب. وهؤلاء كلهم يدينون بدين إبراهيم عليه السلام. وقد انتهى هذا الدور بعد أن هاجرت أسرة يعقوب إلى مصر وانضمّت إلى يوسف على قول التوراة، فاندمجت وذابت كلياً في البيئة المصرية. إذ لا يمكن أن نتصور أسرة تهاجر إلى بلد غريب عن وطنها الأصلي وتمكث ستمائة عام في هذا البلد الجديد دون أن تنصهر في البيئة الجديدة وتذوب فيها كلياً[1].

---

(1) انظر الشرح الذي يلي حول ذلك في الفصل الخامس، «عصر إبراهيم وإسحاق ويعقوب (إسرائيل)».

ثم جاء الدور الثاني بعد حوالي ستمائة عام وهو دور موسى وجماعته عندما نزحت هذه الجماعة إلى أرض كنعان، ولقد كانت أشبه ما تكون بحملة مصرية مؤلفة من جماعة من المصريين ومن بقايا الهكسوس الذين يدينون بدين التوحيد الذي ورثوه عن فرعون مصر أخناتون، فاضطروا تحت ضغط الوثنيين واضطهادهم إلى الهرب منها والتوجّه إلى أرض كنعان. ويمكن أن نطلق على هذه الجماعة اسم «قوم موسى» كما ورد اسمهم في القرآن الكريم، وهؤلاء بطبيعة الحال كانوا يتكلمون اللغة المصرية وبها كلّمهم موسى على وجه التأكيد، وقد نسبت التوراة هذه الحملة إلى بني إسرائيل بغية ربط هذه الجماعة بيعقوب وإبراهيم الخليل كما نسبت موسى إلى كهنة بني لاوي بن يعقوب (إسرائيل) في حين أن الرأي الحديث لدى الباحثين في هذا العصر هو أن موسى كان قائداً مصرياً في بلاط أخناتون وكان يدين بدين التوحيد الذي دعا إليه أخناتون، ورواية التوراة نفسها تشير إلى أن موسى تربّى في البلاط الفرعوني إذ اتخذته ابنة فرعون ابناً لها[1]. ثم تزوج من امرأة كوشية (أثيوبية)[2]. فلو كان أبناء لاوي في الوجود في زمنه لتزوج من إحدى بنات عمومته. ومن الثابت لدى العلماء أن اسم موسى اسم مصري صميم تسمّى به أباطرة عصر الإمبراطورية: أحمس أو أح موسى، تحوتمس أو تحوت موسى[3]، رعمسيس أو رع موسى[4]، كما كان اسم الكاهن الأعلى لمدينة

---

(1) (خر، 2: 10).

(2) (عد، 12: 1).

(3) تحوت أو تحوط إلٰه من آلهة المصريين (رب الحكمة) عُبد في أول الأمر على شكل الطائر أيبيس (أبي منجل) في الدلتا ثم بعد أن وجد لنفسه موطناً جديداً في مصر الوسطى واعتقد الناس فيه أنه إلٰه القمر وهو أيضاً الذي يدير الوقت (الزمن) ويشرف على نظام العالم لذلك ظهر اسمه مسطوراً في كل من قصتي خلق العالم والإلٰه «أوزوريس» (أرمان، «**ديانة مصر القديمة**»، ص 13، 26 ـ انظر صورة الإلٰه تحوت على الصفحة 48 من الكتاب المشار إليه).

(4) «رع» إلٰه من آلهة المصريين المشهورين، عُبد في الشمال وفي الجنوب على السواء، وهو اسم من أسماء إلٰه الشمس يشرق في الصباح، والإلٰه «رع» يمزّق الصواعق ويبعد الأمطار ويفتت البرد، أقيم له معبد خاص ذو طابع خاص. (أرمان، المصدر السابق ص 19 ـ 21، 31).

ممفيس عاصمة مصر بتاح موسى وبتاح هو أهم آلهة ممفيس، وقد تسمّى باسم موسى أبناء ذلك العصر الذي عاش في غضونه موسى عليه السلام.

وتقول التوراة إن شريعة موسى نزلت عليه في جبل سيناء «وهي من صنع الله ومنقوشة على لوحي حجر مكتوب على جانبهما بإصبع الله، وقد كتبها الله بيده مرة ثانية بعد أن ألقى موسى بهما على الأرض وكسرهما بسبب غضبه عندما شاهد قومه يعبدون العجل ويرقصون حوله[1]. ولكن أصل الشريعة التي كتبت على لوحي الحجر اختفت ولم يبق لها وجود. أما لغة هذه الشريعة فالأرجح عندنا أنها كانت اللغة المصرية، وهي لغة قوم موسى وقد كتبت بالهيروغليفية التي كان موسى قد أتقنها في البلاط الفرعوني. وهناك أدلّة كثيرة على أن هذه هي التوراة الصحيحة التي أنزلها الله تعالى على موسى وهي مصرية الأصل تقوم على مبادىء ديانة أخناتون، أي أنها غير التوراة التي كتبها الأحبار بعد عصر موسى بثمانية قرون[2]

وقد ورد ذكر لوحي التوراة الموسوية في أخبار المعركة التي دارت بين قوم موسى والفلسطينيين في منتصف القرن الحادي عشر قبل الميلاد والتي انتصر فيها الفلسطينيون على الموسويين، ومما ورد في هذه الأخبار أن الفلسطينيين استولوا على تابوت العهد الذي كان يحتوي على اللوحين المذكورين ثم ردّوه إلى الملك داود ووضعه سليمان في الهيكل ولم يُعرف مصيره بعد ذلك[3]. وتابوت العهد هذا حسب المآثر الإسرائيلية خزانة من الخشب مكسوة بالذهب اعتبرها الموسويون رمزاً لوجود الله وقد أودع فيها اللوحان الحجريان اللذان نقشت عليهما الشريعة وأشياء دينية أخرى وصارت هذه الخزانة تشغل أقدس جزء من طقوسهم الدينية ووجودها بين ظهرانيهم

(1) (خر، 31: 18، 32: 15 ـ 16، 19، 34: 1).
(2) انظر ما يلي من ديانة أخناتون التوحيدية في هذا الفصل وعن عصر النبي موسى في الفصل السادس.
(3) انظر ما تقدّم عن هجرة الفلسطينيين في الفصل الأول.

يكفل النصر لهم، لذلك كانوا يحملونها معهم في رحلاتهم وفي معاركهم على أعمدة طويلة[1].

وقد ورد في التوراة أيضاً أن موسى تلقّى الوصايا وأحكام الشريعة التي أوصى بها الرب في عربات موآب فكتبها وسلمها للكهنة[2]. ونستخلص من ذلك أن أحكام هذه الشريعة كُتبت بيد النبي موسى نفسه، وهي غير الشريعة التي كتبت بيد الله على الحجر على قول، التوراة، ولعلها كتبت على رق من رقوق البردي التي كان يستعملها المصريون في كتابتهم. أما اللغة التي كتبت بها فلا بدَّ من أنها اللغة المصرية نفسها التي كتبت بها الشريعة على لوحي الحجر، إلا أنه لم يعثر على أي أثر لكلتا الكتابتين.

وقد أخذت جماعة موسى بعد أن استقرّت في فلسطين بالحضارة الكنعانية وتقاليدها وعاداتها كما أخذت بلغتها الكنعانية، لذلك نجد التوراة عندما تتحدث عن لغة هذه الجماعة التي تسمي نفسها بني إسرائيل في حين أنها أبعد ما تكون عن بني إسرائيل الذين عاشوا قبل حوالي ستمائة عام، فإنها تسميها «بشفة كنعان»[3]، أي لسان كنعان. وكان هؤلاء الموسويون، يستعملون حروفاً فينيقية قديمة في كتابتهم ثم أخذوا يكتبون بالخط السامري. أما لغتهم التي صارت تُسمّى بالعبرية، في وقت لاحق، فهي إحدى اللهجات التي اقتبسوها من الآرامية وقد تكوّنت بعد مرور أكثر من ستمائة عام على دخولهم أرض فلسطين وبها كُتبت التوراة في بابل بعد عهد موسى بثمانمائة عام. وبعد مرور عدّة قرون اقتبست هذه الجماعة الكثير من أسس الديانة والعبادة الكنعانية وصارت جزءاً من ديانتها، كما سنوضح ذلك فيما يلي[4]. والدليل على أن اليهود (أتباع موسى) قد أخذوا بتقاليد ومعتقدات الكنعانيين الوثنية خلال

---

(1) (خر، 37: 1 ـ 9، 25: 10 ـ 21)؛ (عد، 10: 33 ـ 36)؛ (تث، 10: 1 ـ 15)؛ (يش 3: 6).

(2) (تث 31: 9).

(3) G. Rabin, «He brew Language», Enc. Brit., Vol. 2, B. 279.

(4) انظر ما يلي في الفصل الرابع، «التوراة في ضوء المكتشفات الآثارية».

وجودهم في فلسطين بعد عهد موسى أن الملك سليمان نفسه بنى مرتفعات لعبادة آلهة الوثنيين على قول التوراة، كذلك تؤكد التوراة أن ملوك إسرائيل ويهوذا كانوا يمارسون عبادة الأصنام الكنعانية واستمرّوا على هذه الحال زهاء ثلاثمائة عام بعد الانقسام مباشرة، وهذا هو الدور الثاني الذي ينحصر بدور قوم موسى في كنعان.

أما الدور الثالث فهو الدور الذي يبدأ بسبي اليهود إلى بابل في القرن السادس قبل الميلاد (597 ـ 586 ق.م.) وهؤلاء هم بقايا جماعة يهوذا وقد سمّوا باليهود نسبة إلى مملكة يهوذا المنقرضة وقد كان لهؤلاء في هذا الدور الأخير النصيب الأكبر في تكوين الديانة اليهودية، ففي بابل مارس اليهود شعائرهم الدينية وواصل كهنتهم أعمالهم الدينية بتحرير أهم فصول التوراة والتمهيد لتدوين التعاليم اليهودية باسم التلمود البابلي، حتى أن السبي البابلي كان عاملاً قوياً في تطوير الديانة اليهودية في القرون التي تلت. وقد وردت كلمة يهود في الكتابات الآشورية وفي القرآن الكريم مما يؤيد صحة وجود هذه الفئة باسم اليهود آنذاك. وفي هذا الدور بالذات دوّنت أهم فصول التوراة، دوّنها الكهنة اليهود باللغة العبرية المعروفة بآرامية التوراة، وهي لهجة مقتبسة من الآرامية، واستعملوا الخط المسمى بالخط المربع وهو مأخوذ من أقدم الأقلام الآرامية فحفظوه إلى يومنا هذا ويُسمَّى الآن بالخط الآشوري المربع. ومما يذكر في هذا الصدد أن هؤلاء الكتبة هم كبار الكهنة والحاخاميين اليهود وقد عاصروا مملكة يهوذا في أواخر أيامها قبل السبي الأخير (586 ق.م.)، وكانوا بصفتهم علماء ذلك العصر يحسنون جميع اللغات القديمة ومن ضمنها السومرية، وكذلك الكتابة المسمارية التي نشأت في جنوب العراق بالإضافة إلى الكتابة الهيروغليفية. فجلس هؤلاء الكهنة وأمامهم الأكداس من الرقم الطينية في شتى المواضيع في مختلف اللغات والخطوط وفي مقدمتها المواضيع الدينية التي كانت تشغل حيّزاً كبيراً من تفكير أقوام تلك العصور. ويبدو لأول وهلة عندما نستعرض مدوّنات التوراة أن الهدف الأول الذي كان يهدف إليه هؤلاء الحاخامون هو تمجيد تاريخ الزمرة اليهودية التي كانوا يعيشون وسطها وهم منها، وجعلها صفوة الأقوام البشرية والجماعة المختارة

التي اصطفاها الرب من دون بقية الشعوب. ولتحقيق هذا الهدف كان لا بدَّ لهم من إرجاع أصل هذه الجماعة اليهودية لا (الإسرائيلية) إلى أقدس شخصية في التاريخ القديم، أي إبراهيم الخليل الذي كان صيته قد عمّ جميع أرجاء عالم تلك الأزمان. أما الهدف الثاني فهو تثبيت عقيدة الأرض الموعودة على لسان إبراهيم ويعقوب وموسى وهم بريئون منها. وقد حالفهم النجاح في سرد هذا التاريخ حسب أهوائهم ونزعاتهم بلباقة ومهارة لم يسبق لهما نظير في الأدب القديم وإن أصح ما جاء في الحوادث المدوّنة هي الوقائع التي تعود إلى العهد الآشوري الأخير والعهد الكلداني لأنها كانت وقائع قريبة جداً من عصرهم وقد عاشوا فعلاً في وسط الوقائع الأخيرة في السبي الأخير. ثم جاء عهد اليونان فأضاف أخلافهم في فلسطين إصحاحي المكابيين إلى التوراة، وهذان الإصحاحان كُتبا في الأصل باليونانية ثم تُرجما إلى العبرية، ويبحثان في تاريخ فترة المكابيين (167 ـ 37 ق.م.)، وكتابات التوراة عن هذه الأدوار المتأخرة تُعتبر تاريخاً للوقائع السياسية والحروب التي وقعت في الشرق الأدنى في العهود الآشورية والبابلية والإغريقية. أما ما ورد في التوراة من مزامير وأمثال وأشعار وشرائع وما إلى ذلك من أساطير وقصص فهو مستقى من المصادر الأدبية القديمة لمختلف الثقافات التي اطّلع عليها كتبة التوراة ومن المعتقدات والتقاليد الاجتماعية التي عاشوها ومارسوها فعلاً في فلسطين وبابل وهي كنعانية بابلية مصرية الأصل.

ويتّضح مما تقدّم أن التوراة قد كُتبت بعد إبراهيم الخليل بألف وثلاثمائة عام وبعد عهد موسى بأكثر من سبعة قرون، وهي بالطبع غير التوراة التي نزلت على النبي موسى ويؤكد لودز ذلك بقوله: «إننا لا نستطيع أن نؤيد صحّة رجوع تاريخ أي قسم من الأسفار الخمسة وحتى الوصايا العشر إلى عصر موسى، لأن ما ورد من روايات في هذه الأسفار قد تعرّض أكثر من بقية أسفار التوراة إلى تكرار وإعادة تصنيف وإلى تغيير وتوسيع مستمرين على مرّ العصور»[1]. ثم يضيف إلى ذلك قوله: «إذا أمعنّا النظر إمعاناً دقيقاً في العهد القديم نجد أن

(1) لودز، «إسرائيل»، ص 359.

الوصايا العشر أدخلت في سفر الخروج وسفر التثنية في وقت متأخر حيث ظهرت في الكتابات اليهودية في القرن السابع قبل الميلاد»[1]. ويعترف العالم اليهودي سيلفر بأن التوراة الحالية لا تمثّل توراة موسى الأصلية في أية ناحية وحتى الوصايا العشر التي يكاد يُجمع العلماء أنها الشيء الوحيد المتبقّي من التوراة الأصلية لم تكن في شكلها ومضمونها الحاليين كتلك التي أتى بها موسى»[2].

ويقول العالم الألماني الدكتور مورتكات: «لا يمكن الاعتماد من الناحية العلمية على أساطير التوراة، إذ برهنت الأبحاث الأثرية على عدم صحة أكثر تلك الأساطير التي وردت فيها كما وتوجد أبحاث تبرهن عكس هذه الأساطير»[3] ويقول الأستاذ شبل أيضاً: «وانفرد اليهود في هذا الميدان بإقدامهم على رفع سجل تاريخهم إلى منزلة التقديس ونجاحهم نجاحاً لا يُبارى في إيهام مئات الملايين من البشر على مدى الأحقاب والعصور بأن تاريخهم كتاب مقدس، مصير من لا يصدقه أو يناقشه مناقشة علمية عقاب الله في الدنيا والآخرة»[4]. وفي المعنى نفسه يقول المرحوم العقّاد: «ومن أعجب العجب أن تنسب هذه الأسفار (الخمسة) إلى موسى وفيها وصف موته ودفنه، ومقارنة بينه وبين التابعين له من الأنبياء.. ومعنى ذلك أن الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية كُتب بعد قيام أنبياء كثيرين تنعقد المقارنة بينهم وبين موسى عليه السلام. فمن الثابت قطعاً أن هذه الأسفار العبرية كُتبت بعد عصر موسى عليه السلام بعدّة قرون»[5].

وكان اليهود في بابل يتكلمون اللغة الآرامية بعد أن انتشرت هذه اللغة

(1) لودز، المصدر السابق، ص 315.
(2) الدكتور سامي سعيد الأحمد: «**الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية**» نقلاً عن:
A.H. Silver, «**Moses and The Original Torah**», p. 76.
(3) الدكتور مورتكات، «**تاريخ الشرق الأدنى القديم**»، ص 272.
(4) الأستاذ شبل، «**مشكلة اليهودية العالمية**»، ص 9.
(5) العقاد، «**الصهيونية العالمية وقضية فلسطين**»، ص 150.

في جميع البلاد الشرقية واستمروا يتكلمونها فيما بينهم بعد عودة بعضهم إلى فلسطين وقد اقتصرت اللهجة العبرية على الكتب الدينية[1].

ويحسن بالقارىء أن يلاحظ تسلسل هذه الأدوار بالقياس إلى اللغة والديانة حسب أزمانها عند متابعة هذا البحث ليكون على بيّنة من الزمن الذي ينتمي إليه كل حادث من الأحداث التاريخية، لأن كتبة التوراة تعمّدوا الخلط بين الأدوار التاريخية وإهمال التسلسل الزمني فربطوا العصور بعضها ببعض، وذلك لكي يرجعوا تاريخهم إلى عصور لم يكن لهم أي وجود فيها فيلتبس الأمر على القارىء، وهذه الأدوار هي كما تقدّم:

أولاً ـ الدور الأول:

دور إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وترجع حوادثه إلى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، وهو دور مستقلّ بذاته ليس له أيّة صلة بدور النبي موسى أو اليهود أو التوراة، ولغة هذا الدور اللغة السامية العربية الأم والديانة وحدانية إبراهيم الخليل الخالصة.

ثانياً ـ الدور الثاني:

دور حملة النبي موسى المصرية على فلسطين، وتقع حوادثها في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، أي بعد حوالي سبعة قرون من الدور الأول، ولا صلة لهذا الدور بعصر إبراهيم الخليل ويعقوب (إسرائيل). لذلك فإننا سوف نستخدم تسمية «قوم موسى» أو «موسويين» عند الكلام عن أتباع موسى الذين دعتهم التوراة «بني إسرائيل» بقصد ربط صلتهم بإبراهيم ويعقوب. ولغة هذا الدور هي اللغة المصرية في البدء ثم تلتها الكنعانية التي اقتبسها الموسويون في كنعان. أما الديانة فوحدانية أخناتون في البدء ثم الانحراف إلى الوثنية.

ثالثاً ـ الدور الثالث:

دور اليهود، وهم كتبة التوراة الحالية، وتقع حوادثه في القرن السادس

---

(1) Hitti, «**History of Syria**», p. 223.

قبل الميلاد، أي بعد عهد النبي موسى بثمانية قرون وبعد عصر إبراهيم الخليل بثلاثمائة وألف عام. وقد ميّز القرآن الكريم بين الإسرائيليين واليهود. فعندما نزلت الآية الشريفة ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا...﴾[1] لم يرد هنا اسم إسرائيل المرتبط بعصر إبراهيم الخليل. ولغة هذا الدور الآرامية في التخاطب واللهجة المسماة «بآرامية التوراة» التي كُتبت بها التوراة، وأما الديانة فهي وحدانية «يهوه» الخاصة باليهود فقط.

ويتّضح مما تقدّم أن أحبار اليهود عندما دوّنوا التوراة في الأسر حاولوا تجاهل الثغرة بين عهد إبراهيم وإسحاق ويعقوب من جهة ودور حملة النبي موسى المصرية على فلسطين من الجهة الأخرى (بين الدور الأول والثاني) وكذلك تجاهلوا الثغرة بين دور النبي موسى من جهة ودور اليهود من الجهة الأخرى (بين الدور الثاني والثالث)، ثم تداركوا الأمر بإظهار عبادة الإلٰه يهوه على المسرح وربطها بدوري إبراهيم الخليل وموسى لتثبيت الاستمرار بينها وبينهما تقول لبني إسرائيل يهوه إلٰه آبائكم إلٰه إبراهيم وإلٰه إسحاق ويعقوب أرسلني إليكم[2]. ولقد خيّل إليهم أنهم سدّوا الثغرتين ولم يدركوا أن الفتق أصبح أوسع مما يستطيعون سدّه في إيجادهم «يهوه» وأن الترقيع ظاهر جلي مهما حاولوا إخفاءه. وفي هذا الموضوع يقول فرويد: «لقد تحرّى الكهنة، في سردهم، أن يوجدوا استمراراً بين عصرهم وعصر موسى، وأرادوا أن ينفوا ما يمثّل في نظرنا أبرز واقعة في تاريخ الدين اليهودي وأعني به وجود ثغرة بين شرائع موسى والديانة اليهودية المتأخرة عنها في الزمن، ثغرة سدّت في البداية بعبادة يهوه ثم تمّ التخلص منها فيما بعد رويداً رويداً وعلى مهل. ولقد كانت رواية الكهنة تخضع للميل المحرف والمشوّه نفسه، الذي كان جعل من الإلٰه الجديد «يهوه» إلٰه الآباء الأوائل».

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 67.

(2) (خر، 3: 15).

أقدم الآثار الخطية للتوراة:

إن أقدم نصوص التوراة التي عُثر عليها حتى الآن هي بعض أسفار العهد القديم التي تعود إلى القرنين الأخيرين قبل الميلاد[1]. فقد عثر أحد الرعاة العرب من عشيرة التعامرة في كهف يقع عند مصبّ وادي قمران في الساحل الغربي الشمالي من البحر الميت على بُعد اثني عشر كيلومتراً جنوب أريحا على لفائف أسطوانية من الرقوق مغلّفة بقماش قديم من الكتان داخل جرار من الخزف، وهذه تحتوي على بعض أسفار العهد القديم منها درج كامل لنبوّة إشعيا. كما عُثر في كهوف أخرى في المنطقة نفسها على بقايا من هذه الرقوق كان من بينها درج يحتوي على جزء من كتاب اللاويين ومقطوعات كبيرة من رؤيا أورشليم الجديدة ودرج من المزامير ونص لسفر أيوب بالآرامية. وقد عثر المنقبّون في زاوية من زوايا هذه الكهوف أيضاً على مقاطع من أسفار التكوين والخروج والتثنية ونبوءة إشعيا. ويعتقد أن فرقة من اليهود كانت تقيم في هذه المنطقة وكان لهذه الفرقة طقوس دينية خاصة تميّزها عن باقي الفرق اليهودية[2].

وكان قد عُثر على مقدار من هذه الطوامير المشتملة على بعض أسفار العهد القديم في زمن العهد القديم في زمن هارون الرشيد في منطقة الغور قرب أريحا وقد وصلت هذه الطوامير المشتملة على بعض أسفار العهد القديم إلى أيدي علماء اليهود[3].

---

(1) فرويد، «**موسى والتوحيد**»، الطبعة العربية، ص 108 ـ 109.

(2) كان أتباع هذه الفرقة يسمون بـ «الإسينيين» أو «المغتسلين» وقد اعتزلوا المدن وأقاموا رجالاً، لا نساء بينهم، في الكهوف والمغاور حول البحر الميت في منطقة قمران، واتخذوا لهم نظاماً سكنياً خاصاً بهم أشبه بنظم الرهبان في العصور المسيحية على مبادىء اشتراكية جماعية. وقد انقرضوا في القرن الأول المسيحي عند تدمير الرومان مدينة القدس.

(3) انظر المراجع العربية الآتية:
الأستاذ عجاج نويهض، «**بروتوكولات حكماء صهيون**»، م 2 ص 45 ـ 46، و136؛ الدكتور أسد رستم، «**مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران**»، هدية المسرّة سنة 1959؛ القس =



الصورة رقم (59)

نموذج من رقوق وادي قمران التي تعود إلى القرنين الثاني والأول قبل الميلاد (عن موسكاتي «الحضارات السامية القديمة»، ص129).

ترجمة التوراة إلى اللغات الأوروبية واللغة العربية:

إن أقدم ترجمة للتوراة هي الترجمة المعروفة اليوم بالترجمة السبعينية، وهي المنقولة من العبرية إلى اليونانية، وقد تمّت هذه الترجمة في الإسكندرية بمصر - حوالي سنة 250 قبل الميلاد تلبية لرغبة بطليموس فلادلفوس (280 - 247 ق.م.)، والمعروف عن بطليموس المذكور أنه كان قد أوفد وفداً إلى الكاهن الأعلى في أورشليم يطلب إليه تزويده بنسخة من التوراة، كما أنه طلب

= جيمس ولبي وإبراهيم مطر، «**مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران**»، 1957؛ ميللر بروز، «**مخطوطات البحر الميت**»، ترجمة محمود العابدي، عمان، 1967.
انظر أيضاً المراجع الأجنبية التالية:

M. Burrows, «**The Dead Sea Scrolls**», 1956; «**More Light on the Dead Sea Scrolls**», 1958; S. Fritsch, «**Qumran Community**». 1956; T. Gaster, «**Scriptures of the Dead Sea Sect**». 1957; J. Allegro, «**The Dead Sea Scrolls**», 1958; «**The people of the Dead Sea Scrolls**», 1959; J. A. Sanders, «**The Dead Sead Sea Psalms Scroll**», 1967.

إرسال من يقوم بترجمتها إلى اليونانية من العلماء اللغويين لهذا العمل وقد استجاب الكاهن الأعلى إلى طلب ملك مصر فأرسل نسخة من الكتاب مع اثنين وسبعين عالماً لإنجاز هذه المهمة فسُميت هذه الترجمة بالترجمة السبعينية. ثم ترجمت التوراة إلى اللاتينية في القرن الأول بعد المسيح من الترجمة السبعينية وقد ترجمت إلى اللغة الحبشية عام 320 للميلاد ويرى المؤرّخون المحققون أن المقصود هنا بالتوراة هو الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس المنسوبة لموسى. وفيما يلي قصة الترجمة السبعينية كما أوردها العلّامة سارتون: «فقد جاء في القصة التي قصّها اليهودي أرسطياس (Aristeas) أن «ديمتروس الفاليروني (Demetrios of Phaleron) شرح للملك بطليموس الثاني ضرورة نقل التوراة إلى الإغريقية فبعث برسولين إلى رئيس الكهنة في أورشليم للحصول على لفائف عبرية للعهد القديم واصطحاب ستة ممثلين لكل سبط. وقد حظي المطلب الملكي بالقبول وسرعان ما استقرّ في جزيرة «فاروس» 72 حبراً يهودياً عكفوا على ترجمة الكتاب المقدس، وقد أُنجزت هذه الترجمة إلى الإغريقية بالفعل خلال القرن الثالث قبل الميلاد. وترجم غيرها من كتب العهد القديم فيما بعد، ترجم أكثر هذه الكتب في القرن الثاني قبل الميلاد ولم يترجم آخرها الذي هو (سفر الجامعة) إلّا حوالي سنة 100 بعد الميلاد. ولهذه الترجمة الإغريقية للعهد القديم أهمية كبيرة لأنها أخذت عن نصّ عبري أقدم من النصّ العبري الذي وصل إلينا فيما بعد»[1].

أما أقدم ترجمة للتوراة إلى اللغة العربية فإنها ترجع إلى عهد هارون الرشيد فقد ذكر ابن النديم أن أحمد بن عبد الله بن سلام الإنجيلي هو الذي ترجم التوراة من اللغة العبرانية إلى اللغة العربية ويؤكد أنه التزم بالنص حرفياً ولم يزد عليه ولم ينقص منه مخافة التحريف[2]. وقد ذكر المسعودي ثلاثة نقول أخرى: الأول لحنين بن إسحاق النسطوري المتوفى عام 260هـ (873 ـ 874م)، وقد اعتمد فيه على الترجمة اليونانية، والاثنان الآخران لحبرين من

(1) سارتون، **«العلم القديم والمدنية الحديثة»**، ص 48 ـ 49.

(2) **«الفهرست»**، ص 22.

أحبار اليهود هما أبو كثير المتوفى عام 320هـ (932م) وسعيد بن يوسف الفيومي المشهور بسعديّا جاؤون المتوفى عام 331هـ (943م)[1] وقد نقل الاثنان من النصّ العبري الأصلي[2]، ولم يبق من كل هذه النقول إلّا نقل سعديا (طبعة درنبوج، باريس 1893م) والنقل الوحيد الآخر الذي بقي من هذا العهد هو الذي أنجز عمله في الأندلس عام 345هـ (956م) وقد نقل عن اللاتينية، وهناك عدّة نقول أخرى متأخرة عن القبطية والسريانية والعبرانية قام بها النصارى والسامريون، فصلها هزرج في مقاله الموسوم بـ:[3] Bibeobersetzun- Relenzyklpûdie Gen. Arabiche ..

إن أقدم ترجمة عربية كاملة لكل الكتاب المقدس هي ترجمة يوحنا نقل عن اللاتينية. وهناك عدّة نقول أخرى متأخرة عن القبطية والسريانية والعبرانية التي شاعت في إسبانيا في القرن السابع الميلادي وما بعد، والظاهر أن هذه الترجمة لم تطبع. ويقول الإخباريون إن الحاخام سعديا المعلم المشهور في مدرسة بابل ترجم في القرن التاسع الميلادي كل العهد القديم أو أكثره إلى العربية لمنفعة اليهود الذين كانوا يتكلمون العربية. وقد ترجم بعض أسفار التوراة إلى العربية عدّة مرات بين سنة 1516 و1725م وطبعت هذه الترجمات في حلب وفي لندن وفي جنوى وفي رومية وفي لبنان. وفي القرن التاسع عشر للميلاد قام المستشرقان الفرنسيان البارون دي ساسي (S. de Sacy) (1758 ـ 1838م) وكاترمير (E. M. Quatremere) (1782 ـ 1852م) بالإشراف على طبع التوراة بالعربية[4].

أما ترجمات «الكتاب المقدس» العربية الكاملة، بشقيه العهد القديم والعهد الجديد، فهناك ثلاث ترجمات أُنجزت جميعها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وهذه الترجمات هي التالية:

---

(1) «**التنبيه والإشراف**»، ص 112 ـ 113.

(2) الظاهر أن هذه النقول قد اشتملت على ما رواه المسعودي على التوراة والأنبياء والزبور (مزامير داود) وهي أربعة وعشرون كتاباً.

(3) انظر: (مادة التوراة) في **دائرة المعارف الإسلامية** ـ الترجمة العربية، ج 6، ص1 ـ 7

(4) العقيقي، «**المستشرقون**»، ص 179 ـ 185.

أولاً: الترجمة البروتستانتية الأميركانية التي قام بها الإرساليون الأمريكان في بيروت بواسطة لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء أضيف إليها سادس فيما بعد برئاسة العلّامة جورج بوست.

وقد فرغت هذه اللجنة من تحقيقاتها بإصدار العهد الجديد عام 1860 والعهد القديم عام 1865 ومن ثم عمدت إلى ضمّ العهدين معاً في مجلد واحد ضخم. وقد تمّت طباعة هذه الترجمة في مطابع الجامعة الأمريكية وعلى نفقة اللجنة التوراتية الأميركانية.

ثانياً: الترجمة الكاثوليكية التي قام بها الآباء اليسوعيون في بيروت أيضاً. وقد استغرقت هذه الترجمة تسع سنوات 1872 ـ 1880 وانتهت بإصدار العهد الجديد عام 1878 والعهد القديم 1880 وقد جرت طباعتها في مطابع وعلى نفقة المطبعة الكاثوليكية في بيروت. وفي عام 1960 عاودت المطبعة الكاثوليكية طباعة هذه الترجمة في مجلد واحد يضمّ العهدين معاً.

تُعتبر هاتان الترجمتان الأكثر تداولاً بين المسيحيين العرب ويقول كل من القائمين بهما إنهم استندوا في ترجمتهم على الكتب الأصلية في اللغات اليونانية والكلدانية والعبرية. ويضمّ العهد القديم في الترجمة الأولى 39 سفراً بينما تضمّ الثانية 46 سفراً أي بزيادة سبعة أسفار هي أسفار يهوديت، طوبيا، الحكمة، يشوع بن سيراخ، باروك والمكابيين (سفران). ورأي الكنيسة البروتستانتية أن هذه الأسفار مدسوسة على التوراة بينما أقرّتها الكنيسة الكاثوليكية.

ثالثاً: أما الترجمة الثالثة فهي الترجمة التي كانت قد عهدت بها إحدى اللجان الإنكليزية إلى الأستاذ فارس الشدياق وقام بترجمتها سنة (1851) وقد صدرت هذه الترجمة إلا أنها منعت من التداول لكون صاحبها أعلن بعد الفراغ منها إسلامه واتّخذ له اسم أحمد وتكنّى بأبي العباس كرد علي على ما وجده من المغالطات والتناقضات التي يندى لها جبين المؤمن. والشدياق هو من أصل لبناني ومن عائلة الشدياق إحدى العائلات المسيحية اللبنانية المشهورة[1].

---

(1) انظر: «**بروتوكولات حكماء صهيون**»، للأستاذ عجاج نويهض، م 2، ص 24 ـ 25، «ص271 ـ 303».

قوانين الحرب في التوراة:

إن أغرب ما يلاحظه المتتبع لمدوّنات التوراة الأمر بقتل الأطفال والنساء والشيوخ وحتى البهائم، ففي التعاليم الخاصة بحرب الموسويين مع أهل فلسطين وردت الوصايا التالية:

1 ـ «احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التي أنت آت إليها لئلا يصير فخاً في وسطك»[1].

2 ـ «وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلٰهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرمها تحريماً: الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحوريين واليبوسيين كما أمرك الرب إلٰهك»[2].

3 ـ «اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر ابقوهن لكم حيّات»[3].

وفي غزو إسرائيل لمدينة أريحا دمر الموسويون المدينة وأحرقوها بالنار وقتلوا كل من فيها من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بأمر إلٰههم «يهوه» كما جاء في التوراة[4]. وبأمر إلٰههم «يهوه» أيضاً ضرب الملك شاؤول العمالقة العرب وهذا نصّ الأمر كما ورد في سفر صموئيل الأول: «فالآن اذهب واضرب عماليق وحرموا كل ما له ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً»[5]. ولما أبقى شاؤول على خيار البقر والغنم أحياءً لم يغفر له الرب ذلك فقيل له «إنك رفضت كلام الرب فرفضك الرب من أن تكون ملكاً على إسرائيل»[6].

---

(1) (خر، 34: 12).
(2) (تث، 20: 10 ـ 17).
(3) (عد، 31: 17 ـ 18).
(4) (يش، 6: 21).
(5) (صم، 15: 23).

وقد جاء في القرآن الكريم تحذير لبني إسرائيل من مغبّة هذه الأعمال المنكرة التي أدخلوها في كتبهم وقالوا هذا من عند الله[1]. فنزلت الآية الشريفة ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[2] وفي القرآن الكريم آيات أخرى تأمر بالمودّة وتجنّب المعاداة، والبر بمن لا يقاتل تقييماً للنفس حتى بالنسبة للأعداء. ففي سورة الممتحنة قال تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3] وبمثل ذلك يأمر الإنجيل المسيحيين فيقول: «زيدوا على إيمانكم الفضيلة، وعلى الفضيلة التعقّل، وعلى التعقّل التقوى وعلى التقوى المودّة الأخوية، وعلى المودّة الأخوية المحبة»[4].

ولنا أن نعتبر بالتعاليم الإسلامية التي تأمر بعدم الاعتداء: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ... فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[5]. وهذه التعاليم كانت وما زالت النبراس الذي اهتدى به المسلمون في حروبهم مع جميع الشعوب، وما أكثر الدلائل والأمثلة على تسامح المسلمين ورأفتهم بالمغلوبين!.. وأبرز ما جاء في تطبيق التعاليم الإسلامية في هذا الصدد وصية أبي بكر الصدّيق إلى قوّاده: «لا تخونوا ولا تغلّوا ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تقصوا نخلاً ولا تحرقونه، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلّا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له».

وقد جاء في التوراة أيضاً أن نساء بني إسرائيل (أتباع موسى) حينما

---

(6) (1 صم 15: 23).

(1) انظر ما يلي عن تحريف التوراة.

(2) سورة المائدة، الآية: 32.

(3) سورة الممتحنة، الآية: 7.

(4) **رسالة القديس بطرس الثانية** 1: 5 ـ 7.

(5) سورة البقرة، الآيتان: 190 و193.

عزمن على الخروج من مصر استعرن حلي جاراتهن المضريات ليتجملنّ بها وقد زعمن أنهن ورجالهن سيحتفلون بالعيد في الصحراء فهربن بالحلي إلى سيناء، وكان هذا السلب بأمر إلٰههم «يهوه» أيضاً، وهذا نصّ الوصية: فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين، بل تطلب كل امرأة من جارتها، ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة، وأمتعة ذهب، وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين... وفعل بنو إسرائيل (أتباع موسى)[1] بحسب قول موسى، وطلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهباً وثياباً وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين»[2].

تحريف التوراة الأصلية:

والآن وبعد أن شرحنا كيفية تدوين أحكام الديانة اليهودية فلا بدَّ من أن يرد إلى ذهن القارىء السؤال التالي: هل التوراة التي تحدث القرآن الكريم عنها وعن نزولها على النبي موسى هي التوراة نفسها التي بين أيدينا وقد حافظت على أصلها؟ إن فيما مرّ «دليل قاطع على أن التوراة المتداولة في الوقت الحاضر قد دوّنت بعد النبي موسى بمدة طويلة فحرّفت وأضيف إليها ما اتفق مع رغبات ونزعات وميول الكتبة مارة بعدّة أدوار من الرواية الشفوية والانتخاب والحذف والإضافة إلى دور التدوين وإلّا كيف يمكن أن يكون قد نزل أمر بقتل الأطفال والنساء والشيوخ لا سيما وأن إحدى الوصايا العشر تأمر بعكس ذلك؟ ويعترف رجال الدين المسيحيين بذلك إذ جاء في مقدّمة الكتاب المقدس من الطبعة الكاثوليكية لسنة 1960 بهذا المعنى ما نصّه: «فما من عالم كاثوليكي في عصرنا يعتقد أن موسى ذاته كتب كل البانتاتيك منذ قصة الخلق إلى قصة موته كما أنه لا يكفي أن يقال إن موسى أشرف على وضع النصّ الذي دوّنه كتبة عديدون في غضون أربعين سنة، بل يجب القول إنه

(1) لم يكن بدٌ من استعمال مصطلح بني إسرائيل مجاراة لشرح التوراة التي سمَّت أتباع موسى ببني إسرائيل على الرغم من انقطاع صلتهم بإسرائيل.
(2) (خر، 3: 22، 12: 35 ـ 36).

يوجد ازدياد تدريجي في الشرائع الموسوية سبّبته مناسبات العصور التالية الاجتماعية والدينية». وقد ندّد المسيح عليه السلام بأعمال من سمّاهم بالكتبة الفريسيين والناموسيين (رجال الشريعة وأنذرهم بالويلات لانحرافهم عن الفضيلة وتكالبهم على الدنيا[1] كما ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى أن اليهود حرّفوا التوراة ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[2]. ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3] وفي آيات أخرى تأكيد لتحريف اليهود للتوراة: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[4] ويقول الدكتور سامي سعيد الأحمد في ذلك: «وعندما ذكر القرآن الكريم قبل زهاء أربعة عشر قرناً أن اليهود قد حرّفوا التوراة الأولى نجد الآن وبعد كل ما سمعنا به ونلمسه من البحث الدقيق والتقدّم العلمي الكبير الذي سهّل على علماء الآثار المؤرّخين عملهم أن هذا الكلام هو عين الحقيقة»[5].

وهكذا فقد أصبح من المتعذّر تحديد القسم الذي يرجع إلى زمن النبي موسى ثم تمييز القسم الذي أضيف فيما بعد ذلك أو القسم المحرّف من الأسفار الواردة في التوراة إلا أنه من المرجّح أن الوصايا العشر كانت هي أصل الشريعة التي كتبت على «لوحي الشهادة» التي جاء ذكرها في التوراة.

وفي الوقت الذي تؤمن التعاليم الإسلامية بعصمة الأنبياء والرسل باعتدادهم صفوة البشرية الذين يجب أن يتّخذ الناس من سلوكهم قدوة يقتدون بها نرى التوراة تفتري عليهم بأعمال قبيحة تتنافى ومكانتهم الدينية والاجتماعية: «فقد نسبت إلى الملك داود أنه زنا بزوجة أحد قوّاده[6]، كما

---

(1) (مت، ص 23)؛ (لو، 11: 52).

(2) سورة البقرة، الآية: 79.

(3) سورة البقرة، الآية: 75.

(4) سورة النساء، الآية: 46؛ سورة المائدة، الآيتان 13 و41.

(5) «**الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية**»، ص 8.

(6) (2 صم، 11: 2 ـ 26)

نسبت إلى سليمان أنه أحبّ نساء كثيرات أجنبيات[1]، وإلى لوط إثماً مع ابنتيه[2]، وإلى أمنون بن داود اغتصاب أخته ثامار[3]، الخ.. و..

ومن أهم مظاهر الانحراف عن توراة موسى الأصلية أن التوراة التي كتبها الكهنة بعد عصر موسى بعدّة قرون تقوم على التفرقة العنصرية وذلك أن تجعل اليهود شعب الله المختار وتنظر إلى ما عداه نظرتها إلى شعوب دونهم منزلة في المجتمع الإنساني، وتضع شريعتها على هذا الأساس فتبيح لليهودي امتيازات خاصة دون سواه من غير اليهود، في حين أن ديانة موسى الأصلية كانت تقوم على أساس التوحيد العالمي المطلق من غير أن تفرّق بين الأقوام. وفضلاً عن ذلك أن التوراة الأصلية التي أنزلها الله على موسى كانت تقرّ البعث والنشور واليوم الآخر في حين أن التوراة التي كتبها أحبار اليهود فيما بعد عهد النبي موسى بعدّة قرون قد خلت من ذكر اليوم الآخر والجنّة والنار.

ومن الفلاسفة المسلمين الذين كتبوا في موضوع تحريف التوراة الأصلية التي أُنزلت على النبي موسى بن حزم، الفيلسوف الأندلسي الشهير[4]، ففي كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» «الفصل في مناقضات ظاهرة وتكاذيب واضحة في الكتاب الذي تسميه اليهود التوراة وفي سائر كتبهم ومن الأناجيل الأربعة يتيقن تحريفها وتبديلها وأنها غير الذي أنزل الله عزّ وجلّ»[5]،

---

(1) (أمل، 11: 1 ـ 9).

(2) (تك، 19: 30 ـ 37).

(3) (2 صم، 13: 1 ـ 29).

(4) هو علي بن أحمد سعيد بن حزم الظاهري: عالم عربي أندلسي، فقيه ومؤرخ وشاعر مشهور، ولد سنة 384هـ(1994م) في قرطبة ونشأ فيها، كانت له ولأبيه من قبله رئاسة الوزارة فزهد بها وانصرف إلى العلم والتأليف. وقد عرض نفسه إلى تهجّم بعض العلماء والفقهاء لانتقاده إياهم، فأجمعوا على تضليله حتى أقصي وطورد فرحل إلى بادية ليلة (من بادية الأندلس) وتوفي فيها سنة 456هـ (1064م).
انظر **الأعلام** 55، ص 59؛ جرجي زيدان، «**آداب اللغة العربية**»، ج3، ص104 ـ 105 ابن القفطي، ص232 ـ 233، **دائرة المعارف الإسلامية**، م1، ص136 ـ 144.

(5) انظر الجزء الأول من كتابه، طبعة القاهرة 1317 ـ 1321هـ، ص116 ـ 224.

يبين ما في نصوص التوراة الحالية التي كتبها الأحبار اليهود بعد عصر موسى بوقت طويل من أكاذيب وخرافات ومتناقضات وذلك بعد عرض تلك النصوص وتعليقه على كل منها. فيذكر ابن حزم أن السامريين يزعمون بأنهم يحتفظون بالتوراة الأصلية المنزلة ويقطعون أن التي بين أيدي اليهود محرّفة مبدّلة، أما هو، أي ابن حزم، فيبرهن بما قدّمه من أدلة على أن كلتا التوراتين محرّفتان مبدّلتان وهما غير الذي أنزله الله على موسى. وقد أكّد في ملاحظاته على بعض النصوص التوراتية أنها تنقل «فضائح وأكذوبات وأشياء تشبه الخرافات». ويشير ابن حزم إلى عدد الكذبات والمناقضات في التوراة فيقول: «إن الفصل الواحد منها يجمع سبع كذبات أو مناقضات أو تحريفات فكيف وهي سبعة وخمسون فصلاً ثم ينتهي إلى القول «إن التوراة عند بني إسرائيل من أول دولتهم أثر موت موسى عليه السلام إلى انقراض دولتهم إلى رجوعهم إلى بيت المقدس إلى أن كتبها لهم عزرا الوراق بإجماع من كتبتهم واتفاق من علمائهم دون خلاف يوجد من أحد منهم في ذلك وما اختلفوا فيه من ذلك نبّهنا عليه ليتيقّن كل ذي فهم أنها محرّفة مبدّلة وبالله تعالى نستعين... هنا انتهى ما أخرجناه من توراة اليهود وكتبهم من الكذب الظاهر والمناقضات اللائحة التي لا شكّ معه في أنها كتب مبدّلة محرّفة مكذوبة وشريعة موضوعة مستعملة من أكابرهم ولم يبق بأيديهم بعد هذا شيء أصلاً ولا بقي من فساد دينهم شبهة بوجه من الوجوه والحمد لله رب العالمين».

ازدواجية التوراة:

إن العديد من التناقضات التي تسود التوراة والغموض العالق بالفترة الزمنية ما بين عصر يعقوب ويوسف من جهة وبين عصر موسى واليهود من الجهة الأخرى، ثم الفترة الزمنية ما بين عصر النبي موسى وبين عصر اليهود (كتبة التوراة) من الجهة الأخرى وسكوت التوراة سكوتاً يكاد يكون مطبقاً عن هاتين الفترتين، كل ذلك حمل الباحثين على مواجهة التساؤلات محاولين إيجاد الحلول لهذه العقدة في التوراة، فكان أن نشأ بينهم شبه اتفاق على ازدواجية التوراة، أي أن التوراة تخلط بين العصور والأدوار وبين الأقوام

والديانات دون أن تتقيّد بالتسلسل الزمني لتجنّب الدخول في التفاصيل، إلا أن الباحثين اختلفوا في تعيين نوعية الازدواج، فبعضهم يعترف بالأصل الكنعاني العربي لإبراهيم وعدم ارتباطه بعصر موسى واليهود، مخالفاً في ذلك ادعاء كتبة التوراة بأن إبراهيم (أبرام) شخصية يهودية باعتباره (أول آباء اليهود. فيرى الأستاذ ألفرد المر مثلاً أن التوراة اليهودية تضمّنت بصورة رئيسة، تياريّ التسجيل اليهيوي[1] والإيلوهيمي[2]، وأن التيار الإيلوهيمي هو تيار كنعاني الأصل، وقد اصطدم بالتيار اليهيوي منذ موسى ولم يتمكن التيار اليهيوي من اقتلاعه بدلالة بقاء آثاره في التوراة حتى زمن متأخر، أي إلى زمن كتابة التوراة ذاتها. أما التيار الإيلوهيمي فقد كان تياراً دينياً صرفاً على الأرجح بينما التيار اليهيوي تيار عنصري سياسي استيلائي[3]. ويرى البعض الآخر أن التوراة توحي بين سطورها دلائل على وجود إبراهيمين لا إبراهيم واحد، فيقول الدكتور كامبيل: «لا بدَّ هنا من وجود إبراهيمين جاء أحدهما بعد الآخر بزمن طويل» ثم يضيف إلى ذلك قوله: «ولما امتزج العموريون والعبريون واشتركوا في العبادة وفي السيادة صعد العبريون نسبهم إلى جدّ مدنون في حبرون يُسمّى أبرام، وذكروا أن قبره مشترى بالمال من ملوك الأرض الأصلاء، وأن ليس في دفنه ثمة عدوان ولا ادعاء» وقد تبنى هذه النظرية ذاتها السير ليونارد وولي مؤلف كتاب «أبرام والكشوف الأخيرة»، وهو يرجّح بأن إبراهيم هو غير أبرام لأن تسمية الحفيد باسم الجد مألوفة جداً في البلاد البابلية، «فإذا كان لإبراهيم جد باسم أبرام جاء في كثير من الروايات، فالأقرب إلى المألوف أن المتأخرين بعد عصره جمعوا بين أخبار الاثنين ووصلوا عمر أحدهما بعمر الآخر فبلغوا بهما مائة وخمساً وسبعين سنة. . . وغير بعيد أن يكون العبريون المتأخرون قد تكلموا عن إبراهيمين لا عن إبراهيم واحد. وهذا التاريخ الغامض قد زاده اختلاطاً على اختلاط دعوى الطائفة العبرية التي تنتسب إلى

---

(1) نسبة إلى «يهوه».

(2) نسبة إلى «إيل».

(3) قاسم الشواف، **«مع الكلمة الصافية»**، ص 328.

إبراهيم، أنها ذريته التي ترثه في الأرض والسماء وأنها ورثت أرض فلسطين من أيام إبراهيم، مع أنهم كانوا إلى أيام موسى يشترون المرعى والمورد فيها بالفضة، ولم يستطيعوا أن يدخلوا فلسطين إلّا بعد أن ضعف العموريون والحثيون والهكسوس»[1]. ثم جاء العالم النفساني الشهير فرويد فتبنّى نظرية أخرى عن ازدواجية التوراة وهي أن هناك شخصين يحملان اسم موسى، ويرى «أن هناك عدداً من الثنائيات التي تحكم اليهود فتجعل تفكيرهم نابعاً من ازدواجية قديمة فهم ليسوا شعباً واحداً بل شعبين ولهم إلٰهان وديننان طغى أحدهما على الآخر ونبيان كل واحد منهما اسمه موسى قتل الثاني فيهما أنكار الأول بعد أن كان اليهود قد قتلوه فعلاً...» ويرى فرويد أن الإلٰه الذي دعا النبي موسى إلى عبادته هو «أدوناي» الذي هو تحريف لاسم الإلٰه «أتون» المصري محور الديانة الأخناتونية[2]، ثم حلّ محله دين يدعو إلى عبادة الإلٰه «يهوه» الخاص باليهود «إلٰه البراكين الذي لا يؤمن إلّا بالبطش والقسوة والشر»[3] وفي ازدواجية التوراة يرى ويلز «أن هناك فكرة في التوراة تدحضها كتب التوراة ذاتها في تفصيلها، وهذه الفكرة هي القول بأن كل الناس قاطبة هم أبناء إبراهيم، وثمّة هناك فكرة أخرى عن وعد قطعه «يهوه» لإبراهيم بأن يفضّل الشعب اليهودي على جميع الأجناس الأخرى، وثمّة فكرة ثالثة هي الاعتقاد بأن «يهوه» هو أعظم وأقوى آلهة القبائل طراً. فكانت هناك فكرة رابعة نشأت عن هذه الفكرات الثلاث هي الفكرة القائلة بأن هناك زعيماً منتظراً ومسيحاً منتظراً يحقق ما ترامى به الزمن من وعود «يهوه» التي طال الأمد عليها[4].

فهذه النظريات جميعها التي قدّمها الباحثون لتحليل وتحديد نوعية هذه

---

(1) عباس محمود العقاد، «**إبراهيم سيد الأنبياء**»، ص 129 ـ 130.

(2) انظر ما يلي عن دعوة أخناتون التوحيدية.

(3) بكر الشرقاوي، «موسى والتوحيد»، **مجلة الدستور**، العدد 7128، 1 حزيران 1973، ص 23 ـ 40.

(4) ويلز، «**تاريخ معالم الإنسانية**»، الكتاب الرابع ص 291 ـ 292.

الازدواجية التوراتية سواء من وجود إبراهيمين أو وجود شخصين يدعيان موسى لم تأت بالحل المتوخى بل إنها زادت الأمر تعقيداً لأنها تفتقر إلى قرائن تاريخية تدعمها إذ إنها جميعاً من قبيل الحدس والرجحان. أما الحقيقة فإننا نراها واضحة جلية في ضوء الاكتشافات التي وصلتنا عن تحديد أزمان الوقائع التاريخية، حيث يتجلّى لنا فيها نوع الازدواج على حقيقته، ففي التوراة حوادث تاريخية وقعت وأسماء لشخصيات عاشت في عصور مختلفة بنى عليها كتبة التوراة شتى الأساطير والقصص والخرافات وفق ما أملته عليهم أهواؤهم ورغباتهم تحقيقاً لأغراض معيّنة وقد أشرنا في عدّة مناسبات إلى ماهية هذه الأغراض. ومن بين سطور التوراة نخلص إلى أن هناك ثلاثة أقوام أو ثلاث جماعات لكل منها ثقافتها الخاصة بها ظهرت في أزمنة متباعدة منفصلة الواحدة عن الأخرى حاول كتبة التوراة الجمع بينها واعتبارها جماعة واحدة مما أدّى إلى التناقضات الآنفة الذكر وهذه الأقوام أو الجماعات هي:

أولاً ـ الجماعة الإبراهيمية الإيلوهيمية، جماعة إبراهيم وإسحاق ويعقوب المرتبطة بالعصر الكنعاني (السامي العربي) وبالإلٰه «إيل» (الله)[1].

ثانياً ـ قوم موسى المختلط والمؤلف من جنود مصريين وبقايا الهكسوس وعبيد فارّين وقد كان هؤلاء يدينون بدين موسى الداعي لعبادة الإلٰه «أدونا» (الإلٰه أتون المصري).

ثالثاً ـ اليهود العنصريون المرتبطون بدين «يهوه» الذي كتبه الأحبار وقد ربطوا صلتهم عرقياً وتاريخياً بإبراهيم وعصره وبفلسطين التي وعدهم إلٰههم يهوه بها[2].

هذه هي الازدواجية التي نلاحظها في التوراة والتي حاول كتبة التوراة

---

(1) انظر ما تقدّم عن الإلٰه «إيل» في الفصل الأول.

(2) في تفسير الزوهر أن عبارة «عظيم هو الرب» (من 145: 3). تشير إلى الإلٰه يهوه في حين أن عبادة «الرب سيد الأرض كلها» (يش، 3: 13) تشير إلى الرب «دون» سيد الأرض كلها. انظر: G. G. Scholem, «**Zohar**», 1963, p. 100.

ربط خيوطها بشبكة واحدة يستمدون منها أصلهم وتاريخهم فباؤوا بالفشل في هذه المحاولة إذ إنها لم تصمد أمام التحليل العلمي المنطقي وفي ضوء الاكتشافات الأثرية الحديثة.

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن القرآن الكريم قد نبّه إلى ازدواجية التوراة قبل أن يتوصّل إليها العلماء بثلاثمائة وألف سنة، إذ فرّق بين بني إسرائيل الأنبياء الصالحين وهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى والأنبياء الذين ظهروا بعده وبين اليهود المتأخرين فجاء ذكر الأولين مقروناً بالتجلّة والتقديس بينما اقترن الفريق الثاني باللعن والانحراف. ففي الظاهرة الأولى تحتلّ الدعوة الدينية إلى التوحيد المطلق المتمثّل بعبادة الإلٰه «إيل» أو الله (الإلٰه الأعظم ـ دين إبراهيم وإسحاق ويعقوب) وعبادة الإلٰه «أدوناي» (أتون ـ دين موسى المتمثّل بالإلٰه الخفي ذي الطابع العالمي والإنساني الذي يدعو إلى دين التوحيد الخالص ذي المكانة السامية[1] وفي الثانية تبرز الدعوة إلى التوحيد المحدد المتمثّل بعادة الإلٰه «يهوه» إلٰه اليهود فقط «إله البراكين المتعطّش للدماء يحوِّم ليلاً ويخشى ضوء النهار»[2]. كما نرى في الأولى الالتزام بالسجايا السامية كرعاية حرمة الأبوين وتحريم القتل والزنى والسرقة الخ. كما في الوصايا العشر، وفي الثانية الدعوة إلى البطش والقسوة والشر كقتل الشيوخ والأطفال وحرق المدن الخ.[3]. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾[4].

التلمود في الديانة اليهودية:

يعدّ كتاب التلمود عند اليهود جزءاً من أحكام الديانة اليهودية، والتلمود معناه التعاليم أو الشرح أو التفسير، وهي مجموعة الشرائع اليهودية التي نقلها

---

(1) انظر سورة البقرة، الآية: 136.

(2) فرويد، «**موسى والتوحيد**»، الطبعة الفرنسية، ص 46.

(3) انظر ما يلي عن عصر إبراهيم وعصر موسى واليهود.

(4) سورة المائدة، الآية: 82.

الأحبار اليهود شرحاً وتفسيراً للتوراة واستنباطاً من أصولها، وأصل كلمة «تلمود» من العبرية «لاماد» أي (يعلم). ويقسم التلمود إلى قسمين «المشنة» أي النصّ أو المتن و«الجمارا» أي التفسير والشرح. والتلمود اسم جامع للمشنة والجمارا معاً. والمشنة عبارة عن مجموعة من تقاليد اليهود المختلفة في شتى نواحي الحياة اليهودية مع بعض الآيات من كتاب التوراة. أما الجمارا فهي مجموع المناظرات والتعاليم والتفاسير التي وضعت في المدارس العالية بعد الانتهاء من وضع المشنة. ويزعم اليهود بأن هذه التقاليد والتعاليم ألقاها النبي موسى ﷺ شفاهة على شعبه وقد أعطيت له حين كان على الجبل ثمّ تداولها هارون وأليعازر ويشوع وسلّموها للأنبياء ثمّ انتقلت من الأنبياء إلى المجمع العلمي الأعلى (سنهدرين)[1] وخلفائهم حتى القرن الثاني بعد المسيح ﷺ ويعتبر أكثر اليهود التلمود كتاباً منزلاً ويضعونه في منزلة التوراة ويرون أن الله أعطى موسى التوراة على طور سيناء مدوّنة ولكنه أرسل على يده التلمود شفاهة[2].

وهناك تلمودان يُعرف أولهما بالتلمود الفلسطيني ويسميه اليهود الأورشليمي[3] ويُعرف الثاني بالتلمود البابلي[4] ولكل من هذين التلمودين طابعه الخاص هو طابع البلد الذي وضع فيه، ولغتا التلمودين مختلفتان وتمثّلان لهجتين آراميتين، التلمود الفلسطيني بالآرامية الغربية، أما التلمود البابلي فلهجته آرامية شرقية أقرب ما تكون إلى الندائية (العراقية) وقد احتوى على بعض مصطلحات يونانية ولاتينية، وحجم التلمود البابلي أوسع من التلمود الفلسطيني بأربعة أضعاف ويقع في 5894 صفحة ويطبع عادة باثني عشر جزءاً.

وقد دوّن التلمود الفلسطيني في طبرية حيث نشأت في فلسطين طبقة من

---

(1) انظر ما تقدّم عن السنهدرين.

(2) الدكتور أحمد شلبي، «**مقارنة الأديان اليهودية**»، ص 266.

(3) L. Ginsberg, «**The Palestinian Talmud**», N. Y., 1941; Radkinson. «**History of the Talmud**»,; J. Beckley, «**The Talmud**».

(4) C. Danby, «**The Babyonian Talmud**», London, 1935; Dr. Christian Ginsberg, «**The Talmud**»; Drach, «**The Harmony between the Church and the Synagoge**».

العلماء يعرفون بـ «التنائيم» فأخذ هؤلاء يشرحون أحكام التوراة ويدوّنون قوانينها وتبويب شرائعها في مجموعة أصبحت تعرف بـ «المشنة» وقد استغرق وضعها حوالي مائتي سنة (10 ـ 220م) حيث تمّ جمعها بعناية الحبر الأكبر يهوذا بن شمعون الملقّب بالربن الأقدس (135 ـ 220م) سنة 200م، وهو الراب الأكبر يهوذا بن الربن عمليال سابع رؤساء المجمع اليهودي الأعلى (سنهدرين) جامع المشنة التي أصبحت أساساً للتلمود[1] و«التنائيم» كلمة آرامية جمع «ثناء» أي (معلّم).

ثم نشأت في فلسطين أيضاً طبقة ثانية من الربانيين يعرفون بـ «الأمورائيم» أي الأساتذة المحدثون فأخذ هؤلاء يدرسون المشنة ويعلقون عليها التعليقات الضافية ويشرحون متونها شرحاً وافياً يتناول شرائع اليهود وتقاليدهم وطقوسهم وتاريخهم، وقد جمعت هذه التعليقات والشروح في مجموعة أصبحت تعرف بالتلمود الأورشليمي وكان الفراغ منه في أواخر القرن الثالث الميلادي وقد فقد قسم كبير منه. و«الأمورائيم» كلمة عبرية جمع «أمورا» أي مكلّم أو شارح.

ولما اشتدّ ضغط الرومان على اليهود في فلسطين لم يعد باستطاعة الرابيين الاستمرار على الدرس والبحث بحرية وأمان فاضطر عدد كبير منهم إلى الهجرة إلى العراق حيث أنشأوا مدارس كبرى للأمورائيم. وفي هذا المحيط الذي كان يسوده الأمان والحرية الدينية المطلقة استطاع الأمورائيم أن يشرحوا المشنة شرحاً أكثر تفصيلاً وأتمَّ موضوعاً مما اضطلع به علماء فلسطين فصارت مجموعة الشروح العراقبة تعرف بالتلمود البابلي الذي تمّ وضعه سنة 490م. وبها انتهى دور الأمورائيم».

وقد تأسّست في العراق أربعة مراكز رئيسة للدراسات الدينية تحت إشراف الرابيين قد تعاونت فيما بينها في وضع التلمود البابلي، ثلاثة منها على نهر الفرات أعلاها «نهر دعة» في منطقة الفرات الأوسط بجوار عانة وتليها

---

(1) **رحلة بنيامين**، ص197.

جنوباً بلدة «فومبديثة» في جوار مدينة الأنبار و«سورا» في منطقة بابل، ثمّ «ماحوزة» على نهر دجلة بجوار طيسفون[1]. هذا مع العلم أن «نهر دعة» كانت من مدن التلمود المهمة وكان موقعها في منطقة الفرات الأوسط والظاهر أن اسمها كان يشمل الإقليم بأجمعه ومن ضمنه مدينة الأنبار، وقد تعرّضت «نهر دعة» إلى هجوم أذينة الثاني ملك تدمر. فبعد انتصاره على الملك شابور الأول سنة 262م. هاجم المدينة وهدمها بما فيها مدرستها الدينية اليهودية.

وعلى أثر ذلك انتقلت المدرسة إلى «ماحوزة» ثم أصبحت «سورا» مركزاً رئيسياً للدراسات الدينية اليهودية في بابل بعد أن أسس فيها أبا أريحا المسمى بالراب مدرسة كبرى سنة 219م. ونشأت معها «فومبديثة» بجوار مدينة الأنبار التي تأسست فيها أيضاً إحدى كبريات المدارس التلمودية. ولفظة فومبديثة تعني «فم البداة» والبداة ذكرها ياقوت ووصفها بأنها والبجة معها تشكلان طسوجي سواد الكوفة[2]. وقد ذكر بنيامين التطلي الذي زار العراق في القرن الثاني عشر للميلاد أن الأنبار هي «فومبديثة» في «نهر دعة» ويقيم فيها نحو ألفي يهودي بينهم العلماء والفقهاء، ومنهم الربيون حنين وموسى وألياقيم وبها من القبور قبور الربيين يهوذا وصموئيل، وبها أيضاً كنيس ر. بستناي رأس الجالوت[3]

---

(1) يقول ابن العبري في مؤلفه «**مختصر تاريخ الدول**، ص 149» إن كسرى الأول (أنو شروان) بعد أن استولى على إنطاكية نقل سكانها إلى مدينة جديدة خصّصها لهم قرب المدائن سمّاها إنطاكية ثم استخدم الكتاب السريان واليهود اسم «ماحوزة» للدلالة على كل بلاد سلوقية.

(2) ياقوت الحموي، «**معجم البلدان**»، ج 1، ص 770، م 2، ص 31.

(3) رأس الجالوت اصطلاح عربي أطلق على رئيس الطائفة اليهودية في دار الإسلام (الدولة الإسلامية)، وأصل اللفظة آرامي تعني رأس الجالية أما اليهود فكانوا يطلقون عليه لقب «ريش جالوتا». وفي خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) تولّى رئاسة الجالوت بستناي بن حنيناي سليل رؤساء الجالوت الأقدمين من آل داود فأقرّه الخليفة في منصبه بكتاب عهد وجّهه إليه، وكان مقرّ رأس الجالوت في مدينة «سورا». وكانت سلطة رأس الجالوت في عهد الخلفاء العباسيين كما قال بنيامين التطلي في رحلته (ص135 ـ 138) تسري على جميع الطوائف اليهودية المنتشرة في العراق وفي بلاد خراسان واليمن وجزيرة العرب وما بين النهرين وأرمينيا وآذربيجان وجورجيا حتى شواطىء نهر جيحون وسمرقند والتبت وديار الهند، وبعد تأسيس مدينة بغداد في عهد المنصور سنة 762م. =

والربيين ناثان ونحمن بن بابه[1]. أما «سورا» فكانت تقع بجوار الحلة على صدر شط النيل المتفرّع من الفرات وكان يُعرف قديماً بـ «نهر سورا» ويسميه ابن سرابيون بالصراة الكبرى وقد أعاد حفره الحجاج بن يوسف، وكان عند سورا جسر شهير يُعرف بقنطرة القامنعان. وكان رأس الجالوت في سورا عندما تأسست فيها مدرسة كبرى سنة 219م. كما تقدّم بيانه. وقد استمرّت هذه المدرسة تقوم بمهمتها ثمانية قرون حتى أغلقت ومعها المدارس الأخرى في خلافة القادر بأمر الله (991 ـ 1031م) ومن ثم انتقل مركز اليهود العلمي إلى الأندلس فأسسوا في مدينة قرطبة مدرسة كان طلّاب العلم يئمونها من كل حدب وصوب. وقد نبغ منها جماعة انصرفوا إلى دراسة فلسفة أفلاطون فخرجوا عن السلطة الدينية التي كانت متمركزة في مدينة سورا. وقد اشتهر من بين فلاسفة مدرسة قرطبة موسى بن ميمون الذي كان اجتهاده منصبّاً على التوفيق بين فلسفة أفلاطون والأسفار المقدسة. ثم تدهورت الدولة الأموية في الأندلس فتعرّض اليهود للاضطهاد. وفي أواخر القرن الخامس عشر طرد اليهود من إسبانيا فاضمحلّت الفلسفة اليهودية التي كانت تشغل المحل الثاني بعد الفلسفة العربية في عصر كانت فيه أوروبا غارقة في ظلمات الجهل[2].

وقد نشأت في العراق بعد انتهاء دور «الأمورائيم» طبقة من العلماء عرفت بـ «السبورائيم» وهي كلمة عبرية معناها الأساتذة الشارحون وكانت تُطلق على طبقة من العلماء اليهود استمرّ نشاطهم العلمي في بابل من سنة 500 إلى سنة 588 بعد الميلاد وكانت أهم أعمالهم التعليق على التلمود وتنظيم أبوابه وفصوله بالشكل الذي هو عليه حتى يومنا هذا. وأخيراً تولّى الغاؤونيم مسؤولية تعليم التلمود وإصدار الفتاوى الدينية ليهود الشرق والغرب وقد استمر عمل «الغاؤونيم حوالي 450 سنة بين سنة 589 وسنة 1030م، والغاؤونيم

= انتقل رأس الجالوت إلى العاصمة الجديدة.. ويرجع تنظيم جماعات اليهود تحت رئاسة رأس الجالوت إلى القرنين الثاني والثالث الميلاديين.

(1) «**رحلة بنيامين**»، ص 129.

(2) ميللر بروز، «**مخطوطات البحر الميت**»، ترجمة محمود العابدي، عمان 1967، ص 46.

كلمة عبرية جمع «غاؤون» وكانت تُطلق على الرابيين من رؤساء المدرستين الدينيتين اليهوديتين في «فومبديثة وسوار» في بابل.

وفيما يلي أدوار الرابيين الذين تعاونوا على وضع التلمود وتعليمه:

«التنائيم» في فلسطين	10 ـ 219 م.
«الأمورائيم» في فلسطين والعراق	219 ـ 500 م.
«السبورائيم» في العراق	500 ـ 588 م.
«الغاؤونيم» في العراق	589 ـ 1030 م.

وفي التلمود تأكيد لمبدأ الاستعلاء والتفوّق العنصري اليهودي على بقية شعوب الأرض وجعل الناس عبيداً لليهود باعتبارهم الشعب المختار وأن الله قد اصطفاهم من دون سواهم من شعوب الأرض، كما تتجسّم فيه انعزالية الشعب اليهودي وحقّه في جميع خيرات الأرض التي وهبها له إلٰهه الخاص دون الآخرين من الناس. فكان التلموديون يصوّرون اليهود «وكأنهم من طينة أرفع من طينة باقي الجنس البشري غير اليهودي التي لم تعتنق الديانة اليهودية خدم لهم كغيرهم من الحيوانات غير العاقلة[1]. وتحت عنوان «عصر الإيمان» يقول العلّامة ديورانت: «إن الربانيين والحاخاميين أخذوا يفسّرون التوراة حسب أهوائهم بالشكل الذي يرضي غرائزهم الشريرة ونزوعهم إلى الاستعلاء على بقية أجناس البشر»[2].

وينص التلمود على أنه «يجب على كل يهودي أن يبذل جهده لمنع تسلّط باقي الأمم في الأرض، حتى تصير السلطة لليهود وحدهم، فإذا لم تصر إليهم السلطة عدّوا أنفسهم وكأنهم في حياة المنفى والأسر، ويعيش اليهود في حرب مع باقي الشعوب حتى ينتقل لهم الثراء والسلطان من الجميع وحينئذ يدخل الناس أفواجاً في دين اليهود»[3].

(1) «**الكنز المرصود في قواعد التلمود**»، ص10.
(2) (د يورانت دل) «**قصة الحضارة**»، «فصل عصر الإيمان».
(3) «**الكنز المرصود في قواعد التلمود**»، ص 48 ـ 49.

أما نظرة التلموديين إلى المسيحية فقد جاء في التلمود الكثير من عبارات الطعن والشتم للمسيحية والسيد المسيح ﷺ مما لا يستسيغه المستوى الخلقي الإنساني ونحن نحجم عن نقل تلك العبارات التي يندى الجبين لها خجلاً حتى ولو قيل إن ناقل الكفر ليس بكافر[1] ويجيز التلمود استخدام الكذب والنفاق مع غير اليهود[2].

ويقول التلمود «بالتناسخ» وهو فكر كان تسرب من الهند إلى بابل وأخذه حاخامات بابل من المجتمع البابلي[3].

وأسس مباحث التلمود تقوم على ستة أبواب:

1 ـ الفلاحة.

2 ـ الأعياد والمواسم.

3 ـ النساء، وما يتعلق بهنّ من زواج وطلاق وحضانة ونذور وإرث ووصية.

4 ـ النواهي والعقوبات.

5 ـ الذبائح وما يتعلق بالتقدّمات والقرابين ومراسم الهيكل وما إلى ذلك.

6 ـ الطهارة.

وكان اليهود حريصين على أن لا يتطّلع على التلمود غيرهم إلّا من يأمنون جانبه من غير اليهود ممّن يؤيد نزعاتهم خوفاً من ثورة العالم المسيحي ضدهم. فقد أخفوه أربعة عشر قرناً منذ أن وضعه حاخاموهم، وفي سنة 1343م. أمرت الحكومة الفرنسية في باريس بإحراق التلمود علناً بعد أن كشف ما يحتوي عليه من عبارات الطعن والإهانة ضد الأغيار من الناس وضد المسيحية بوجه خاص. وقد تمّ حرقه عدّة مرات في مختلف الأزمان والأقطار.

---

(1) الدكتور أحمد شلبي، «**مقارنة الأديان اليهودية**»، ص 270.

(2) «المرجع السابق»، ص 268.

(3) «المرجع السابق»، ص 267.

وأقدم نسخة مخطوطة للمشنة موجودة في «بارما» ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر الميلادي، وفي كل من كمبردج ونيويورك نسخة تعود إلى القرنين العاشر والحادي عشر بعد الميلاد، وقد ظهرت أول طبعة مشروحة للمشنة في بيبلس بإيطاليا سنة 1492، أما الطبعات الحالية فهي من القرن الخامس عشر والسابع عشر للميلاد، وأهم ترجمة إنكليزية للمشنة البابلية هي ترجمة كانون دنبي سنة 1935.

ولما كانت العربية هي لسان اليهود في التخاطب في شؤون الحياة العملية في البلاد العربية فقد وضع موسى بن ميمون، الفيلسوف اليهودي القرطبي الأندلسي (1139 ـ 1205م)، بعد انتقاله إلى مصر تفسيراً وشرحاً مفصّلاً بالعربية لكتاب المشنة سمّاه «السراج» وكتبه لفظاً وتعبيراً باللغة العربية الدارجة في مصر وجعل الكتابة بالحرف العبري، وقد أتمّ وضع الكتاب سنة 1168م. وقد ألّف أيضاً مصنفاً آخر بالعبرية يبحث في الفقه اليهودي استمده من التلمود وشروحه وهوامشه وأطلق عليه اسم «تثنية التوراة» وقد اعتمد في ذلك على التلمود البابلي مع الاستعانة بالتلمود الأورشليمي كلما دعت الحاجة إليه. كما وضع ابن ميمون كتاباً آخر بعنوان «دليل الحائرين» حاول فيه أن يدعم المعتقدات اليهودية بأدلة عقلية منطقية لا نقلية وقد جرى في كتابه هذا على النحو الذي سلكه في كتابه «السراج» فهو بالعربية ولكنه كتب بحروف عبرية، وقد نسخ الكتاب بحروف عربية كما وأنه ترجم إلى العبرية. ويلاحظ أن موسى بن ميمون كغيره من الكتّاب اليهود في القرون الوسطى لم يعن عناية كافية بقواعد الإعراب على النحو الصحيح في اللغة العربية[1].

وكانت أول طبعة كاملة للتلمودين الفلسطيني والعراقي بعد ظهور وسائل النسخ والمسخ تلك التي طبعت خلال سني 1520 ـ 1524م في البندقية، وقد أحرق في إيطاليا سنة 1553م[2] ويبلغ التلمود في اللغة الإنكليزية بأصوله

(1) ولفنسون، «**موسى بن ميمون**»، ص 41 ـ 141.

(2) «**Jewish Encyclopedic Handbooks**», N. Y., Vol. **I**, p. 218.

ومتونه وشروحه وتعليقاته 36 مجلداً[1]. وقد نقل الجزء الأول إلى العربية سنة 1909 وهو يذكر أهل الرجال في كل جيل من أجيال علماء التلمود. والعثور على نسخ كاملة من التلمود صعب للغاية نظراً لما حذفه المتأخرون من العبارات. فقد قرر المجمع الذي انعقد في بولونيا سنة 1631م بالإجماع أن العبارات التي تهين الأغيار يجب حذفها، وأن التعاليم القائلة بأن المسيحيين سافلو الأخلاق لا يستحقون المحبة والعدل لا يجوز نشرها.

طائفة القرّائين ورفضهم التلمود:

إن حركة إنكار التلمود وعدم الاعتراف بأحكامه وبتعاليم الربانيين والحاخات والتمسك بأسفار العهد القديم وحدها، تلك الحركة الإصلاحية الدينية التي نادى بها السامريون والصدوقيون من قبل، ظهرت من جديد في القرن الثامن للميلاد على لسان عدد من اليهود، فقد ظهر حوالي سنة 720 ميلادية يهودي من أهل سوريا يدعى (المسيزينوس) نادى بنبذ التلمود وجعل شعاره «اتركوا تعاليم التلمود» وصار له أتباع كثيرون حتى أعلن أنه هو المسيح المنتظر. وكان ذلك في خلافة يزيد بن عبد الملك (720 ـ 724م) فأمر بتسليمه لليهود أنفسهم ليتولوا محاكمته وانتهى بذلك أمره. ثم ظهر بعده يهودي آخر من أصفهان يدعى عوبديا بن عيسى نادى بالإصلاحات نفسها أي عدم الاعتراف بالتلمود، وأدخل تعديلات كثيرة على الأحكام اليهودية. وكان ذلك في حوالي سنة 750م وكانت تُعرف هذه الفرقة بالعيسوية وأتباعها يقرّون بنبوّة عيسى ونبوّة محمد ﷺ. يقول ابن حزم في كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل في وصف العيسوية بما نصه: «العيسوية وهم أصحاب أبي عيسى الأصبهاني رجل من اليهود كان بأصبهان وبلغني أن اسمه كان محمد بن عيسى وهم يقولون بنبوّة عيسى ابن مريم ومحمد ﷺ، ويقولون إن عيسى بعثه الله عزّ وجلّ إلى بني إسرائيل على ما جاء في الإنجيل وأنه أحد أنبياء بني إسرائيل، ويقولون إن محمداً ﷺ نبي أرسله الله تعالى بشرائع القرآن إلى بني

(1) عجاج نويهض، «**بروتوكولات حكماء صهيون**»، م 2، ص 149 ـ 199.

إسماعيل ﷺ وإلى سائر العرب كما كان أيوب نبياً في بني عيص وكما كان بلعام نبياً في بني مؤاب بإقرار من جميع فرق اليهود»[1].

وقد ظهرت في القرن الثامن للميلاد فرقة يهودية أسّسها الحبر عنان بن داود وهي تدعو لرفض التلمود وتنادي علناً بنبذه وتصف تعاليم الربانيين بأنها خارجة على التوراة وقد أطلقت جماعة هذه الفرقة على نفسها اسم القرّائين، أي قارئو التوراة دون التلمود. وكان عنان متشبّعاً بآراء المعتزلة القائلة بأن العبد مسؤول عن عمله. وقد استمالت هذه الحركة كثير من يهود العراق فانضمّ إليها عدد كبير منهم وانتشرت الدعوة في مصر والشام وتركيا وإيران وبعض أجزاء من روسيا وأوروبا الشرقية. وأخذ القرّاؤون يدقّقون نصوص التلمود ويتعمّقون في تحليلها علمياً بقصد تفنيدها وفضحها. وقد رجعوا إلى الأديان السماوية التي شجبت العقلية التلمودية الاستعلائية كالإنجيل والقرآن، فقال عنان: «إن عيسى ابن مريم لم يكن زنديقاً وإنه لم يشوّه التوراة ولم يكذّبها أو ينسخها وإنه كان رجلاً من البشر تقياً صالحاً لم يفكر قطّ في النبوّة أو الألوهية وإنما كان رجلاً مصلحاً أراد أن يخلّص شريعة موسى من المفاهيم التي ألصقها الناس بها». ونادى عنان كذلك «بأن محمد ﷺ نبي حق وأنه كعيسى ابن مريم لم يفكر قط في مخالفة التوراة أو التعدّي عليها أو نسخ شرائعها».

وقد اشتدّ الصراع بين القرّائين والربانيين فنادى رؤساء كل من الفريقين بتكفير الفريق الآخر، ولم يترك القرّاؤون أية ناحية ضعيفة في العقلية التلمودية إلّا ولجوها بقصد فضح الربانيين والسخرية منهم، وبلغت العداوة بين الفريقين أشدّها حتى أن التلموديين أخذوا يغذون حقدهم على القرّائين فحرّموا الزواج منهم وإذا حدث ذلك اعتبروه زنا، كما اعتبروا الأطفال المولودين من هذا الزواج غير شرعيين ولا ينتمون إلى شعب الله المختار.. وقد أفتى بعض الربانيين برفض عودة القرّائي إلى اليهودية على اعتبار أنه مرتدّ عن الدين. وقد

---

(1) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص49.

نهى الحاخام الرباني البيزنطي كبالي أن يعلم أحد الربانيين التوراة لقرّائي كما حرم على الربانيين أن يقرأوا في نسخة من التوراة كتبها أحد القرّائين حتى ولو كانت صحيحة على أساس أنهم غير طاهرين. وقد اشتدّ غضب الربانيين على القرّائين فشكوا الأمر إلى الخليفة المنصور باتهام عنان بالزندقة ونقض شريعة موسى فأمر الخليفة بسجن عنان، وقد صادف أن التقى عنان في السجن بالإمام أبي حنيفة النعمان الذي كان المنصور قد سجنه لرفضه توليه القضاء، فقصّ عنان عليه قصته فنصحه الإمام بأن يدّعي أنه أراد تطهير اليهودية من شوائب التلمود الذي كان من وضع الأحبار وأنه لم يقل بنقض شريعة موسى، فأطلقه المنصور على أن لا يبقى في بغداد فغادرها عنان إلى القدس حيث بنى كنيساً لجماعة القرّائين وقد ألّف كتابين دعا فيهما إلى تحرير التوراة من قيود التلمود، الأول يدعى «كتاب الفرائض» والثاني «كتاب الفذلكة».

وقد تفاقم الخلاف بين القرّائين والربانيين في مصر أيام الملك الفاطمي الظاهر ابن الحاكم بأمر الله (1020 ـ 1035م)، وذلك بسبب الخصومة الناشئة بين الطائفتين على شؤون الذبائح التي كان مذهب القرّائين فيها يختلف عن مذهب الربانيين التلموديين، فالقراؤون يحرمون ذبح أنثى الحيوان في أثناء حملها بينما يجيز ذلك الربانيون مما أحدث مشادة عنيفة بين الطائفتين، فطلب القراؤون أن يسمح لهم بفتح حوانيت خاصة تخضع لإشرافهم هم ولا تخضع لتفتيش الربانيين وأن يسمح لهم بفتح حوانيتهم في أعياد الربانيين التي لا يعترفون هم بمواقيتها. وقد استجاب الخليفة الظاهر لمطالب القرّائين وأصدر مرسوماً في 11 من جمادى الأولى من سنة 415هـ(1024م) هذا نصه:

«من تتبّع عاداتكم، واستمراركم في تقاليدكم التي أخذتموها عن دياناتكم دون عائق يقوم من طائفة ضد الأخرى أو قيام معاملة خشنة بينكما، فهذا يدعو إلى السماح لكل طائفة بأن تعيش وتعبد كما تهوى، مع تمكين كل طائفة في بيع وشراء ما تشتهي، وأن تحتفل بعيدها كما تريد ومتى ترغب بكامل حريتها ومطلق إرادتها. واحذِّر الطائفتين من التدخل في شؤون بعضهما أو إحداث شغب أو مضايقة بعضهما. إن الأمان مكفول لهم جميعاً. وعليكم

عدم تمكين شرير بينكم من الإتيان بشيء ممنوع. وعليكم تجنّب المناقشات التي تؤدي إلى سوء العاقبة. وعليكم المحافظة على ذلك. والعقوبة ستحلّ بكل فرد يتجاوز حدوده ويأتي بأعمال محرمة. فمثل هذا الشخص سيعاقب عقوبة شديدة وسيكون مثالاً لغيره حتى لا يحتذيه أحد. كذلك يحرم التدخل في شؤون طائفة القرّائين في معابدهم الخاصة بهم وحدهم.

«وهذا الأمر صادر من أمير المؤمنين. فعليكم العمل على تنفيذه واحترامه، وعلى أمير الجيوش ـ ساعده الله ـ أن يساعد على تنفيذه، وعلى رؤساء الأقاليم العناية العادلة بالطائفتين، وعلى الحكّام إصدار الأوامر الخاصة بوجوب العناية والمحافظة على أفراد الطائفتين والعمل على عدم اضطهادهم.

«حرر في يوم الأربعاء 11 جمادى الأول عام 415هـ(1024م)»[1].

واستمرّت حركة القرّائين العلمية نشيطة على يد زعماء من أقطار الفكر القرّائي حتى مستهلّ القرن السابع عشر الميلادي، فظهرت مع الزمن مدارس علمية قوية في مجتمع القرّائين، ثمَّ تقلَّص ظلّ القرّائين مع انتشار اليهود الربانيين بأعداد كبيرة في أوروبا وأمريكا وكثير من البلاد التي استعمرها الغرب في أفريقيا وآسيا وظل القرّاؤون منكمشين في الشرق. وقد كان لظهور الصهيونية واتّساع نفوذها الأثر الكبير في إخماد حركة القرّائين وتقلّص ظلهم، وذلك على الرغم من ظهور علماء متبحرين في الفقه اليهودي من بين طائفتهم ووضعهم العديد من كتب التفاسير والشروح الدينية، حيث كانت الصهيونية ترى في طائفة القرّائين أكبر خطر يهدّد مشروعها السياسي الاستعماري الذي خطّته بالاتفاق مع الربانيين للاستيلاء على فلسطين واتخاذها وطناً قومياً لليهود بالقوة. وفي ذلك يقول الدكتور ظاظا: «وكان للقرّائين في تركيا وروسيا ومصر نشاط ملحوظ ضد الصهيونية، ولكن هذه الأخيرة استعانت بالجواسيس والعملاء، واستغلّت ظروفاً حربية وسياسية معيّنة لاصطياد بضعة آلاف من القرّائين وإدخالهم إلى إسرائيل، وهم يعيشون هناك كرهائن وكوسيلة للمساومات السافلة مع من بقي من القرّائين

---

(1) الأكوز علي عبد الواحد وافي «**للأسفار المقدسة**»، ص65 عن الملل والنحل عن ابن حزم.

خارج هذا الشرك إذ أرغمتهم الصهيونية على التزام الصمت والكفّ عن مهاجمتها حرصاً على حياة أبناء طائفتهم في إسرائيل وأمنهم». ويختتم الدكتور ظاظا كلامه عن «القرّائية والصهيونية» بقوله: «والآن هل تنتفض القرّائية وتنهض من جديد؟ هذا أمر مستبعد تحت الثقل الساحق للربانية وصهيونيتها، ولكن ربما أثر المذهب القرّائي في الفكر اليهودي العام بحيث تتولد من هذا التفاعل اتجاهات أكثر تعقّلاً»[1].

القبالة والزوهر:

وقد ظهر بعد إنجاز كتابة التلمود عدد من الأحبار اليهود، الذين تأثروا بالآراء الشرقية ودين الفرس وزرادشت فخرجوا بمجموعة باطنية من الحكم التي لها علاقة بأسرار الكون وبالإله والكائنات، ونشأت عنهم حركة دعيت في مراحلها الأولى «الحكمة المستورة» وصارت تُعرف عند اليهود بـ «القبالة»، وهي كلمة عبرية معناها القبول أو تلقّي الرواية الشفوية. ويذهب أولئك الأحبار إلى أن هذه الحكم نزلت على القديسين منذ أقدم الأزمنة وقد احتفظ بها بعض الأحبار. «وبالرغم مما أخذته القبالة من الزرادشتية من جموح وخيال وتطوّح أعطاها صيغة ميثولوجية فقد بقيت في جوهرها موسوية يهودية»[2]. وهذا الوحي الذي يتناول القوى الباطنية للسماء والأرض كان الخوض فيه مقصوراً على نخبة مختارة هم الفاهمون والعقلاء، الذين انصرفوا للبحث عن السر الإلهي فيما يتعلّق بمصير الإنسان، وكانوا قبل كل شيء يبحثون عن معرفة العلائم التي تنبىء بظهور المسيح اليهودي الذي ينقذ الشعب المختار من الآلام التي يعانيها، وهذه هي «عقيدة المسيح المنتظر» التي انبثقت من عقيدة السيادة والامتياز للشعب اليهودي.

«ويدّعي القباليون أن كتاب التكوين عندهم مستمد من موسى، وأن موسى قد استمدّه من إبراهيم، إذا لم يكن من آدم، أو ممن هو أقدم من آدم

(1) الدكتور حسن ظاظا، «**الفكر الديني الإسرائيلي**»، 1971، ص 295 ـ 306.

(2) عجاج نويهض، «**بروتوكولات حكماء صهيون**»، م 2، ص 107.

وأعلى مقاماً»[1]. أما المنابع الرئيسة التي استقت منها القبالة مادتها فهي كما يقول الحاخام بوكس: «إن المنابع التي استقت القبالة منها مادتها هي الروايات الباطنية التلمودية ومذهب التصوّف الذي راود الغاؤونيم والفلسفة العربية الأفلاطونية»[2]. وكانت هذه الدراسات خلال القرن الثالث عشر الميلادي وما بعده مقتصرة على فئات محدودة ثمّ انتشرت انتشاراً واسعاً مما أدّى إلى ظهور مجموعة أدبية كتبت بلهجة خاصة من اللغة الآرامية. وقد جمعت كلها في كتاب مقدّس جديد، هو «الزوهر» والزوهر كلمة عبرية معناها «النور» أو «الضياء» والتسمية مأخوذة من التوراة «والفاهمون يضيئون كضياء الجلد»[3]. وأما واضعه فإنه موسى الليوبي (1250 ـ 1305م) وقد دوّنه بالآرامية في إسبانيا، غير أن المعروف أن ما احتواه الزوهر من الشعائر الصوفية وما إليها من حكم ترجع إلى زمن الحاخام سمعان بن يوشاي من القرن الثاني للميلاد الذي قيل عنه إنه بقي مختفياً في إحدى مغاور فلسطين ثلاث عشرة سنة كشفت له خلالها أسرار السماء والأرض فيها. وتتصل أسرار الزوهر بالتوراة وكل كلمة أو حرف من حروفها يحمل باعتقاد القباليين معنى باطني. وفي أسطورة من أساطير الزوهر أن الاثنين والعشرين حرفاً من الأبجدية العبرية نزلت من السماء قبل الخليقة بستة وعشرين جيلاً وأنها نُقشت بنار ملتهبة[4]. والحياة في عرف «الزوهر» صراع بين الخير والشر، وكلاهما يخدمان غاية مقدسة، فكل عمل خير وكل صلاة حارة تبعث قوّة روحية تؤدي إلى انتصار الخير على الشر ذلك الذي سوف يظهر بكل جلاء وبهاء مع ظهور المسيح المنتظر[5] ومن

---

(1) عجاج نويهض، **«بروتوكولات حكماء صهيون»**، م 2، ص 191.

(2) الحاخام بوكس، **«تراث إسرائيل»**، ص328.

(3) (د 1، 12: 2).

(4) Ben Shahen, **«The Alphabet of Creation- An Ancient Legend from the Zohar with Drawings»**, 3d printing. N. Y., 1972.

(5) R. Learsy, **«Israël»**, p. 305.

القباليين المشهورين نخمان وموسى بن ميمون وكلاهما ظهرا في الأندلس وقد سبقت الإشارة إلى بعض مؤلفات الأخير(1).

عقيدة «المسيح المنتظر»:

يتّضح مما تقدَّم أن القبالة لعبت دوراً هاماً في تطور العقل اليهودي، وقد كانت كل هذه التوغلات الصوفية الأسطورية الباطنية تدور حول شيء واحد هو التطلّع إلى ظهور المسيح اليهودي المنتظر الذي سينقذ اليهود (شعب الله المختار) من آلامه ويملكه على العالم. «ويؤخذ من مجمل التفسيرات التلمودية التي تعود لنصوص التوراة أن المسيح المنتظر هو إما من نسل داود أو من نسل يوسف وعرضت له أسماء متعدّدة حسب النصوص المعتمدة. ولما كان مجيء المسيح اليهودي يُعتبر تجديداً للعالم فلا بدَّ وأن يسبق مجيئه عودة للفوضى، وكانت كل الآلام والمصاعب التي تحمّلها اليهود عبر تاريخهم تفسّر وتقبل على أنها (آلام المخاض). وبعد مجيء المسيح وانقضاء فترة (المخاض) فإن العالم الجديد المقبل لن يكون كالعالم الحالي: فالسلام سيعمّ العالم الجديد، البكاء والأنين يختفيان من العالم ولن يكون بعد ذلك شكوى أو احتجاج أو حزن، تبارك إسرائيل بمجيء المسيح اليهودي وينتهي عنها الضغط وتتبوأ مركزها العالمي الذي أعدّه لها الرب. ويتبدّل مصير إسرائيل لدرجة أن كثيراً من الغرباء سيحاولون الانضمام إلى الطائفة، ولكنه يتوجب رفضهم لأن رغبتهم ينقصها الإخلاص (لا مهتدي يقبل في أيام المسيح). وأغرب ما تضمّنته معتقدات العالم الآخر اليهوي، هو محاكمة الأمم حيث تشهد محاكمة أعداء إسرائيل الأرضيين. ومجمل هذه المعتقدات مستوحى من حياة تشتت وصلت إلى مداها الأبعد، في الفترة الرومانية، وولدت حقداً وكراهية لبقية الشعوب، وولّدت

---

(1) انظر عجاج نهويهض، «**بروتوكولات حكماء صهيون**»، م 2، ص 190 ـ 205 وانظر أيضاً: A. E. Waite, «**The Holy Kabbalah**»; 2 vol.; A. Frank, «**The Kabbalah**», Paris, 1843; Ginsberg «**The Kabbalah**», Benson, «**The Zohar in Moslem Spain**»; Pauley, «**The Zohar**»; G. G. Scholem (editor). «**Zohar- the Book of Splendor**», N. Y., 1963.

آمالاً مسيانية بنهاية العالم لخدمة مصالح اليهود، في عالم آخر ماديّ أو غير مادي وللانتقام من أمم الأرض التي ناصبت اليهود العداء»[1].

ويرى البعض أن فكرة المسيح المنتظر برزت من الفكر اليهودي في وقت متأخر ولم تظهر إلّا بعد سقوط دويلة اليهود وأسرهم في بابل ثم خضوعهم للفرس[2] وهذا ما دفع كثير من الباحثين إلى الاعتقاد بأن فكرة المنقذ المخلص مستعارة من الزرادشتية التي كان يدين بها الفرس[3]. وتتحدث التوراة في بعض أسفارها[4] عن المسيح المنتظر فتقول: «يولد لنا ولد، ونعطى ابناً، وتكون الرئاسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً ويكون إلٰهاً قديراً وأباً وأبدّياً رئيس السلام، لنمو رئاسته يجلس على كرسي داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن وإلى الأبد، غيرة ربّ الجنود تفعل هذا»[5].

وقد رسم اليهود الصورة التي تخيّلوها للمسيح المنتظر فذكروا أن الناس في ظله لن يعيشوا وحدهم في العالم الجديد في سلام وسعادة بل يشاركهم في ذلك كل أنواع الحيوانات، فالذئب يسالم الحمل، والعجل يداعب الأسد، ويربض النمر مع الجدي، والعجل المسمّن والشبل معاً، وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدبة ترعيان، تربض أولادهما معاً إلخ.. ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ليقتني بقية شعبه التي بقيت من آشور ومن مصر ومن.. ومن حماة ومن جزائر البحر، ويرفع راية للأمم ويجمع منفيي إسرائيل، ويضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض[6]. وظهر عيسى ابن مريم وأعلن بعض اليهود أنه المسيح المنتظر ولكن أكثرهم رفضوا هذا الرأي وقاوموا دعوة عيسى حتى حاكموه وصلبوه.

---

(1) قاسم الشواف، **«مع الكلمة الصافية»**، ص150 ـ 156.

(2) الدكتور أحمد شلبي، **«اليهودية»**، ص 2110.

(3) المرجع السابق، ص 211.

(4) إشعيا وأرميا وعاموس.

(5) (إش، 9: 6 ـ 7).

(6) الدكتور أحمد شلبي، **«اليهودية»**، ص 219، 212 ـ 213.

وانطلاقاً من عقيدة «المسيح المنتظر» قام واحد بعد الآخر من الأدعياء والدجالين كل يدّعي أنه المسيح المنتظر. ففي عام 640م ادّعى يهودي من بيت آراميا من قرية الفلوجة بالعراق أنه المسيح المنتظر، وقد تجمّع حوله حوالي 400 شخص من مختلف المهن وحرقوا ثلاث كنائس وقتلوا عمدة المنطقة، ولما بلغ خبر هذا المسيح وأعوانه السلطة أرسلت ثلة من الجيش أعملت فيهم بطشاً وتقتيلاً وقُبض على المسيح المنتظر وأُعدم[1].

ومن أولئك الأدعياء في الشرق الإسلامي خلال القرون الوسطى، دجال ظهر في الشام في آخر خلافة عمر بن عبد العزيز وأول خلافة يزيد الثاني (720 ـ 724م) وآخر من بلدة شيرين ادّعى أنه المسيح المنتظر، ووعد بأنه سيحقق معجزة استعادة فلسطين. وفي القرن ذاته ظهر يهودي آخر من بلدة أصفهان يدعى عبيد الله أبو عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني ابتدأ دعوته في زمن آخر ملوك بني أمية مروان بن محمد (744 ـ 750م) وقال: إن عودة فلسطين لن تتم إلّا بالقتال، وأعدّ جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل من اليهود، وقد عاشت حركته فترة من الزمن في عهد السفاح إلا أن الخليفة المنصور قضى على هذه الحركة وهزم جيش اليهود وفرّ أبو عيسى باتجاه الشمال[2]. وفي حوالي 1160م وفي عهد خلافة المقتفي لأمر الله العباسي حدثت فتنة كان سببها يهودي يدعى داود بن الروحي كان قد ادّعى أنه المسيح المنتظر. وداود هذا نشأ في سواد الموصل ثم انتقل إلى بغداد حيث تفقّه بعلوم اليهود في مدارسهم الكبرى، وقد برع في علوم العرب ولغتهم، يضاف إلى ذلك إتقانه لفنون السحر والشعوذة. وقد اختار بلدة العمادية في شمال العراق ليعلن نبوّته فيها، إذ كان ينوي الاستيلاء على قلعتها الشهيرة بالقوة فبلغ خبر ذلك صاحب العمادية فقتله[3].

وقد بقيت فكرة مجيء المسيح المنتظر مسيطرة علىٰ العقل اليهودي

(1) موسيل، «**الفرات الأوسط**»، النصّ الإنكليزي، ص 280.

(2) الدكتور أحمد شلبي «**اليهودية**»، ص214.

(3) «**رحلة بنيامين التطلي**»، ص206 ـ 209، 154 ـ 157.

وكانت تشتد كلما وقعت حركة اضطهاد ضد اليهود. ولما وقعت حوادث الاضطهاد باليهود التي حلّت باليهود في بولونيا سنة 1648م قيل عنها إنها بشير لليهود بقرب مجيء المسيح. وقد ظهر هذه المرة شاب يهودي يدعى «ساباتاي زيوي» من أهل أزمير (تركيا) لم يكن قد تجاوز بعد الثانية والعشرين من عمره، وكان قبالي متحمساً لتعاليم الزوهر، وادّعى أنه المسيح المنتظر، وما إن أعلن دعوته حتى تبعه عدد كبير من اليهود المتحمسين رغم إنكار رجال الدين دعوته. وأول عمل نادى به هو إلغاء بعض الطقوس الدينية الموروثة ثم إدخال تعاليم جديدة تتّفق مع روح القبالة والزوهر.

ومن ثم دعا إلى شطب اسم السلطان محمد الرابع من الخطب وإحلال اسمه «ساباتاي المسيح» محلَّه وأضاف إليه لقب ابن داود وسليمان. واستمرّ ساباتاي ينشر مدعياته في الأوساط الدينية اليهودية في العالم فصار له أعوان كثيرون صاروا يسمّون معارضيهم «كوفريم» أي الكفّار. وفي سنة 1666م غادر ساباتاي أزمير مع جمهرة من أعوانه متجهاً نحو اسطنبول لممارسة سلطته كملك، ولكن الباخرة التي كانت تقلّه مع أعوانه داهمتها عاصفة شديدة اضطرتها إلى اللجوء إلى مضايق الدردنيل ومن هنا سيق مكبلاً بالحديد إلى اسطنبول حيث قدم تواً إلى الوزير الأعظم أحمد كوبريلي، ومع أن الوزير كان يشعر بخطورة الوضع بسبب الهياج والقلق اللذين أحدثهما «ساباتاي»، إلا أنه كان يرى بأن الحالة تكون أخطر إذا استعملت الشدّة فأمر بسجنه تحت الرقابة في اسطنبول. ولما حاول ساباتاي مغادرة العاصمة تقرّر نقله إلى قلعة أبيدوس على الدردنيل، غير أن إبعاده زاد من نفوذه ومكانته الدينية، فصار الناس من أتراك ويهود يذهبون لزيارته في سجنه حتى أصبح مقرّه في أبيدوس محجّاً لأعوانه ولمعتنقي دعوته وقد لقي «ساباتاي» أعواناً متنفذين يبثون الدعاية له، ففي اسطنبول أبرز إبراهيم ياكيني أحد رجال الدين كتاباً قديماً يشير إلى أنَّ المسيح المنتظر هو «ساباتاي زيوي»، وفي القاهرة انتصر له ودعم دعوته اليهودي الثري روفائيل يوسف جلبي، فكان ظهيراً حاراً لدعوة ساباتاي ومدّه بالمال الكثير لينفقه على أعوانه وعلى يهود أورشليم. وفي غزّة وجد ساباتاي في ناتان بنيامين لاوي أكبر عون لبث دعوته. ولما توسّع نفوذ ساباتاي وازداد سلطانه بين الطائفة اليهودية في تركيا أمر السلطان محمد الرابع الذي أصبح

يخشى اغتصاب ساباتاي الحكم منه بنقله إلى أدرنة. وعقد السلطان اجتماعاً للتداول في مشكلة ساباتاي وإيجاد حلّ لها فاستقرّ الرأي على تكليف إحدى الشخصيات ذات النفوذ من اليهود أن تتولى أمر إقناع ساباتاي وحمله على إعلان إسلامه إنقاذاً له ولأتباعه من الدمار والهلاك. وقد تمّ ذلك بالفعل فأعلن ساباتاي إسلامه وسمّي محمد أفندي وأجرى له السلطان راتباً شهرياً.



الصورة رقم (60)
زبوي ساباتاي

ولكن ساباتاي رغم إسلامه استمرّ بالادعاء خفية بأنه المسيح[1] وأخذ يبثّ تعاليمه الدينية بين طائفة الدونمة في تركيا وهم اليهود الذين خرجوا من إسبانيا فاعتنقوا الإسلام في الظاهر بينما كانوا يمارسون طقوسهم في الخفاء ولا يتزاوجون من غير الدونمة. وكان ساباتاي يدّعي بأنه يبشر بالدين الإسلامي بين اليهود، ولكن هذه الحيلة لم تجده نفعاً فنفي إلى مدينة دلسيكنو في ألبانيا وقد توفي فيها سنة 1676م.

دور الحركة القبالية في القرن الثامن عشر:

على أن دعوة ساباتاي لم تخمد بل استمرّت حماسة أنصاره خلال القرن الثامن عشر وأسفر نشاط المدرسة القبالية عن حركة جديدة في بولونيا فظهر كثير من الأدعياء القباليين، وكان أشهرهم «إسرائيل البدولي» الذي أسّس طائفة

---

(1) عجاج نويهض، «**بروتوكولات حكماء صهيون**»، م2، و20ـ 213؛ جواد رفعت أتليفان، «**الخطر المحيط بالإسلام**»، ترجمة وهبي عز الدين، ص78، روفوس ليري، «**إسرائيل**»، ص360ـ 369.

«الحسديم» في سنة 1740م. ويرجع إسرائيل تعاليمه إلى الزوهر، بيد أنه لم يسلّم قط بنظرية القبالة القائلة في أن الكون هو صورة من صور الله، بل زعم أن الكون كله هو الله، وأنّ الشر عنصر من عناصره إذ إن الشرّ ليس خبيثاً في حدّ ذاته وإنما هو خبيث في علاقته بالإنسان، وعليه فإنه ليس للخطيئة وجود مادي. وكان إسرائيل بارعاً في ضروب السحر والشعوذة، فالتفّ حول دعوته كثير من اليهود الذين خرجوا على تعاليم التلمود وتقاليده الأخلاقية. ثم ظهر في أثره داعية آخر هو «حويل بن أوري» وعكف على مزاولة الشعوذة والخوارق باسم الله وجمع حوله نفراً من الأنصار استمروا بعد وفاته يستغلّون سذاجة العامة حيناً[1].

وكانت أشهر الجمعيات القبالية في القرن الثامن عشر طائفة الفرنكيين نسبة إلى مؤسسها يعقوب فرانك سنة 1755، وقد عرف منتسبوها بـ «الزوهريين» أيضاً أو «إخوان الشعلة» لانتمائهم إلى الزوهر. «وكان فرانك أحد أمهر دعاة القبالية وأعلمهم بأسرارها وتعاليمها، انتمى إليه في منتصف القرن الثامن عشر في بودوليا (إحدى مقاطعات بولونيا) جمهور كبير من الأنصار والدعاة وعاش في بذخ شرقي هائل لم يهتد أحد إلى حقيقة مصدره.. وقد نقم الأحبار اليهود على الزوهريين لنشاطهم في هدم اليهودية، وامتدّت الخصومة بين الفريقين حتى أن الزوهريين أعلنوا في النهاية خروجهم على اليهودية واعتنقوا النصرانية علناً كما فعل فرانك نفسه، وانضموا إلى أسقف



الصورة رقم (61)
يعقوب فرانك

(1) محمد عبد الله عنان، «**تاريخ الجمعيات السرية**»، القاهرة، 1926، ص119.

كامنيك في مقاومة الأخبار واليهودية.. وقد استقرّ فرانك أخيراً في ألمانيا حيث أقام في أرفنباخ قرب فرانكفورت وتُسمّى بالبارون فون أوفنباخ، واستأنف بذخه الطائل مما كان يرد إليه من هبات أنصاره والمعجبين به». وقد وصف ملمان بذخ فرانك بما نصّه: «كانت له حاشية من بضع مئات من الفتيان والفتيات اليهود من ذوي الحسن الرائع، وكان يُذاع أن صناديق الأموال تنهمر عليه كل يوم ولا سيما من بولونيا، وكان يخرج كل يوم في موكب حافل ليقيم شعائره في العراء في عربة تجرّها جياد مطهمة ويحرسه عشرة أو اثنا عشر فارساً يرتدون الثياب الموشاة بالذهب وقد رفعوا الرماح ووضعوا في قبعاتهم أهلة أو شموساً أو أقماراً.. وكان أنصاره يعتقدون فيه الخلود، بيد أنه توفي سنة 1791، ودفن في بذخ يعدل كل بذخ حياته»[1].

وأكبر داعية من دعاة القبالة هو «حاييم صموئيل يعقوب فوك» أو «الدكتور فوك أو دي فوك» الشهير بـ «زعيم الشعب اليهودي بأسره». كان عضواً في جمعية البناء الحر ومتصلاً بزعماء الجمعيات السرية. وقد ولد فوك في بودوليا في مطلع القرن الثامن عشر واتصل بالزوهريين ولبث حيناً يزاول ضروب السحر والشعوذة في بودوليا وألمانيا. وكان يزعم أنه ذو قدرة خفية، وأنه يستطيع اكتشاف الكنوز الدفينة، ثم اضطهد وحكم عليه بالحرق لاتهامه بالسحر ففرّ إلى إنكلترا وهناك استقبل بالترحاب وطار صيته وأذيعت عن قدرته أغرب الروايات. وقد ظهر فوك في لندن سنة 1742 معدماً لا مورد له، بيد أنه ما لبث أن أثري فجأة وبدت عليه علامات البذخ الطائل فاتّخذ له قصراً فخماً أقام فيه بيعة خاصة وازدانت موائده بآنية الذهب والفضة. وكان فوك مبجلاً من المجتمع اليهودي وأحباره. وتوفي فوك في نيسان 1782 واحتفل بدفنه احتفالاً فخماً في إحدى مقابر لندن، ومما نقش على قبره: «هنا يثوي الشيخ الشريف، وهو رجل عظيم قدم من المشرق، وهو حكيم متبحّر وداعية قبالي... وقد طار صيته إلى أقاصي الأرض والجزر النائية»[2].

---

(1) محمد عبد الله عنان، «**تاريخ الجمعيات السرية**»، ص 120.

(2) المرجع السابق، ص 21 ـ 123.

التوراة في القرآن الكريم بوجه عام:

لقد احتوت التوراة التي كتبها الأحبار بعد عهد النبي موسى على الكثير من المفاهيم الخاطئة التي شاعت بمرور الزمن إلى أن نزل القرآن الكريم فنبّهنا إليها بدون لبس وغموض بحيث جاءت المكتشفات الآثارية والدراسات العلمية الحديثة مؤيدة للحقائق الواردة في القرآن الكريم.

ويمكن أن نوجز هذه الحقائق بما يلي:

أولاً ـ يؤخذ من سور القرآن الكريم أنّ التوراة التي كانت بين أيدي الناس في زمن نزول الفرقان المحمدي والتي هي نفسها بين أيدينا الآن هي غير التوراة التي أُنزلت على النبي موسى في سيناء وقد كتبت في وقت لاحق بيد الأحبار اليهود حسب أهوائهم ورغباتهم، وقد أثبتت الاكتشافات والدراسات العلمية الحديثة التي حدّدت تواريخ الوقائع التاريخية حسب تسلسلها الزمني هذه الحقيقة التاريخية[1].

ثانياً ـ ينبهنا القرآن الكريم إلى فرية ادعاء التوراة المحرّفة والقائلة بأن إبراهيم الخليل وحفيده يعقوب (إسرائيل) أجداد اليهود وأن اليهود من نسلهما، ففي الآية الكريمة ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2] ما يوضح بأجلى بيان نفي هذا الادعاء من حيث الأساس، وبذلك يكون القرآن الكريم أول من كشف لنا عن هذه الحقيقة التي تعني بأن إبراهيم ما كان على دين (يهوه) إله اليهود بل كان حنيفاً مسلماً أي مسلماً على الفطرة، كما تعني أن عهد إبراهيم الخليل هو غير عهد اليهود ولا يتّصل بعهد اليهود الأخير الذي يرجع إلى أكثر من ألف عام بعد عهد إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب[3].

ثالثاً ـ ينبهنا القرآن الكريم أيضاً إلى أن إبراهيم الخليل مرتبط بالجزيرة

---

(1) انظر ما تقدّم عن تحريف التوراة وأقوال القرآن الكريم في ذلك.

(2) سورة آل عمران، الآية: 67.

(3) انظر ما يلي في هذا المآل.

العربية (بيت الله العتيق)[1] وقد جاءت المكتشفات الآثارية حول الهجرات السامية من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب ودراسة علم المقارنة بين اللغات مؤيدة لهذه الحقيقة نفسها التي تربط صلة إبراهيم الخليل بجزيرة العرب والحجاز[2].

رابعاً - وينبئنا القرآن الكريم «بأن الديانة اليهودية (على عهد النبي موسى) كانت في أصلها تقرّ بالبعث والنشور واليوم الآخر والحساب والجنة والنار ولكن أسفار العهد القديم التي بين أيدينا الآن تخلو من ذكر اليوم الآخر ونعيمه وجحيمه»[3] وهذا دليل آخر على أن التوراة التي كتبها اليهود في الأسر هي غير التوراة التي أُنزلت على النبي موسى قبل ذلك بعدّة قرون.

هل كان اليهود أول من قال بعقيدة التوحيد؟...

أما ادّعاء اليهود بأنهم أول من قال بعقيدة التوحيد وأنهم هم الذين قدّموها للعالم وللبشرية وأن الفضل يرجع إليهم في وضع أسس الديانة التي يدين بها الموسويون والمسيحيون والإسلام اليوم، وهو الادعاء الذي يؤيدهم به كثير من الكتّاب، فلا يستند إلى أي أساس أو واقع تاريخي، فهل كان نوح ﷺ الذي عاش قبل أكثر من خمسة آلاف عام يهودياً، وهل كان الأنبياء الذين ظهروا بعده يهوداً، وأخيراً هل كان النبي إبراهيم الخليل يهودياً؟... هؤلاء كلهم نسبوا إلى أصل واحد وهو الجنس السامي العربي، وقد نادوا بعقيدة التوحيد قبل أن يكون هناك يهود في العالم. لذلك فإن حشر هؤلاء الأنبياء مع الشعب اليهودي في زمن لم يكن لليهود وجود فيه لا يتّفق والمنطق بل هو تشويه للتاريخ وللحقائق. إن هؤلاء كلهم كانوا أنبياء نادوا بعقيدة التوحيد الخالصة، عقيدة الإله الواحد لجميع الأمم والمخلوقات، قبل أن وجد اليهود الذين اتّخذوا إلٰههم الخاص بهم، فظهر بعض الأنبياء في الجزيرة ذاتها

(1) انظر سورة البقرة، الآيات: 125، 127، 128.

(2) انظر ما يلي في ذلك.

(3) الدكتور علي عبد الوافي، «**اليهودية واليهود**»، ص 46.

والبعض الآخر في العراق ومنهم نوح وإبراهيم الخليل عليه السلام، وهؤلاء عاشوا بين الألف الثالثة قبل الميلاد وأوائل الألف الثانية قبل الميلاد.

وهناك دلائل على أن فكرة الإلٰه العلي الواحد مالك السموات والأرض كانت معروفة عند الكنعانيين بشكل من الأشكال، فالتوراة تشير إلى أن ملكي صادق ملك شاليم (أورشليم) الكاهن لله العلي عندما بارك إبراهيم الخليل قال «مبارك أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض»[1]. فهل كان الكاهن موحّداً؟. . فإذا كان الأمر كذلك فالأرجح أن فكرة الإلٰه الواحد خالق السموات والأرض كانت معروفة عند الكنعانيين وهناك من كان يؤمن بها ولا سيما في مدينة أورشليم المقدسة (مدينة السلام). ولعل استعمال الكنعانيين لكلمة إيل نفسها الواردة في التوراة[2] للدلالة على الإلٰه العلي مما يؤيد ذلك[3].

وهناك ما يدلّ على أن المديانيين العرب كانوا يمارسون عقيدة التوحيد أيضاً، فالتوراة تشير إلى أن موسى سكن مدة مع المديانيين بعد هروبه من وجه فرعون[4] وقد تزوج هناك من ابنة يشرون كاهن مديان[5] الذي كان على ما يرجّح موحداً ويعبد الله باسم «يهوه». ويرجّح البعض أن أصل اسم يهوه مستمد من اسم إلٰه من آلهة البدو الشماليين العرب، فيقول العلّامة موسكاتي إن الإلٰه يهوه كان معروفاً عند العرب والأرجح أنهم كانوا يعبدونه لأن كثيراً من أسماء الأشخاص وردت ملحقة باسم الإلٰه يهوه بحسب العادة المتّبعة بإلحاق اسم الإلٰه باسم الشخص تبرّكاً به[6]. ويؤكد الدكتور نيلسن في بحثه عن تاريخ الأديان أن الوطن الأصلي ليهوه هو شمال غربي بلاد العرب من سيناء وقادش، وهناك تجلّى الله للشعب، وهناك سمع موسى وصاياه، وهناك

---

(1) (تك، 14: 18).
(2) (تك، 12: 8) راجع أيضاً (يش، 8: 9، 12).
(3) راجع أيضاً (مز، 110: 4)؛ (عب، 5: 6).
(4) (خر، 2: 11 ـ 15).
(5) (خر، 2: 16 ـ 22).
(6) موسكاتي، المصدر السابق، ص 176.

تعلّم الشعب اليهودي الدين وطقوسه، وقد كان يثرون والد زوج موسى كاهناً عربياً قديماً. واللفظ الذي أطلقه العهد القديم عليه هو «كوهين» وهو اللفظ العربي لكلمة كاهن، والشيء الذي لا شك فيه هو أن هذا الإله الذي تجلّى للإسرائيليين (اليهود) إله متّصل بمواطن إله القمر الذي كان العرب ينظرون إليه ككبير الآلهة وهي نظرة توحيدية[1].

وتعترف التوراة كما سبقت الإشارة إليه بأن جماعة موسى عندما جاؤوا إلى كنعان أن أهل كنعان ومنهم ملك موآب المدعو (بالاق بن صعور) ومعهم شيوخ مديان أرسلوا رسلاً إلى بلعام بن عبّور، وهو نبي موحد، وطلبوا إليه أن يلعن قوم موسى فأوحى إليه الرب بعدم الاستجابة إلى طلبهم. وهذا النبي هو نبي كنعاني كان هو وشعبه يدينون بدين التوحيد. كل ذلك يدلّ على أن دين التوحيد كان معروفاً عند الكنعانيين وكانت بعض قبائلهم تمارسه وهم من أصل عربي.

دعوة أخناتون فرعون مصر لعبادة الإله الواحد:

ويدّعي البعض أن دعوة أخناتون فرعون مصر لعبادة الإله الواحد هي الدعوة الأولى من نوعها في تاريخ الأديان البشرية[2]، فيسميه بريستد الشخصية

(1) الدكتور نيلسن ورفاقه، **«التاريخ العربي القديم»**، ص 238 ـ 239.

(2) «أخناتون» هو فرعون مصر «أمنحوتب» أو «أمنوفيس الرابع»، الذي دعا إلى ديانة التوحيد أي عبادة الإله الواحد الذي لا إله إلّا هو، فقد تصوّر هذا الملك أن قرص الشمس إنما هو مظهر من مظاهره لكون الاثنان، من وجهة نظره، يشعّان على العالم أجمع (الإله الذي لا إله إلّا هو والشمس). وقد بلغ تحمسه لدينه الجديد ما جعله يناوىء جميع الآلهة الأخرى ويحاول القضاء على مبادئها وحمل الناس على اتباع دينه الجديد وحصر العبادة بذلك الإله الواحد الأحد الذي سمّاه «أثون»، وأراد أن يفرض عبادته في كافة أنحاء الإمبراطورية. وقد صبّ غضبه بالدرجة الأولى على الإله «أمين» (أمون)، إله طيبة، ولكرهه لهذا الإله الذي كان اسمه يدخل في تركيب اسمه أي «أمين ـ هوتب» فقد عمد إلى تغيير اسمه من أمنحوتب أو أمنوفيس إلى أخناتون، وهجر أخناتون العاصمة المقدسة «طيبة» وابتنى له عاصمة جديدة في موضع يُسمّى «العمرنة» وسمّاها «أخت ـ أتون» ونقل إليها مقرّ العاصمة وأعمال الحكومة، وقد وجدت في هذه العاصمة السجلات الملكية الشهيرة التي من بينها الرسائل المرسلة إليه ولأبيه من قبله من ملوك الشرق الأدنى وحكام الإمبراطورية في بلاد الشام (طه باقر) **«مقدّمة . . .»** ج2، ص79 ـ 80؛ ديورانت وول، **«قصة الحضارة»**، (ج2، ص168 ـ 179).

الأولى في تاريخ البشرية[1]. وقد فات هؤلاء أن أخناتون هذا عاش بين سنة 1375 وسنة 1358 قبل الميلاد، أي بعد إبراهيم الخليل عليه السلام بحوالي ستمائة عام. لذلك لا يمكن أن تكون دعوته هذه للوحدانية هي الأولى في تاريخ البشر، ولا مجال للشك في كون عقيدة التوحيد عقيدة عربية خالصة، وأقدم من دعا إليها أنبياء من أصل عربي وفي مقدمتهم إبراهيم الخليل عليه السلام الذي ناضل وتحمّل الشدائد والصعاب من أجل عقيدته، كما ناضل بعده النبي



الصورة رقم (62)

أخناتون (أمنحوتب الرابع 1375 ـ 1358 ق.م) صاحب الدعوة إلى ديانة التوحيد. في عهده تبودلت المراسلات، المعروفة بوثائق تل العمارنة، بين ملوك كنعان وبينه يستنجدونه فيها ضد غزوات «العبيرو».
(عن مارستون، «التوراة صحيحة» ص237).

العربي محمد صلوات الله عليه من أجل تأدية رسالته المقدسة إلى شعوب العالم كافة[2]. ونحن لا نستبعد أن تكون عقيدة الوحدانية التي تبنّاها أخناتون قد جاءت إلى مصر عن طريق قبائل الهكسوس العربية التي حكمت في مصر زهاء قرنين قبل عهد أخناتون مباشرة. وهكذا فيكون مصدرها عربياً أيضاً، والهكسوس كما هو معلوم كانوا على اتصال بالمديانيين الذين قيل عنهم إنهم

---

(1) S. Frued, «**Moses and Monotheism**», p. 35.

(2) انظر الفصل الخامس: «عصر إبراهيم وإسحاق ويعقوب».

كانوا يدينون بالإله الواحد المدعو «يهوه»، ومساكن المديانيين في شبه جزيرة سيناء المجاورة إلى مصر. ونحن نعلم على وجه التأكيد أن الهكسوس لم يكونوا يعبدون الآلهة المصرية على كل حال وعندما اتّخذ الهكسوس عاصمة لملكهم في شرق الدلتا المصرية عبدوا الإله «سوتح» وقد تواتر أن الملك «أبوفيس» لم يسمح بعبادة أي إله آخر في كافة البلاد[1]. وقد ذهب البعض إلى أن أتباع موسى كانوا يدينون بدين أخناتون وأن موسى نفسه هو مصري ومن أتباع هذه الديانة الجديدة،



الصورة رقم (63)

رأس من الرخام لأخناتون عُثر عليه في مقبرته داخل جرّة. (ويكال، «حياة أخناتون»، ص80).

وقد ورد ذكر أحد القادة المصريين المشهورين باسم «أحموسة» وهو أحموسة الأول مؤسس السلالة الثانية عشرة (1580 ـ 1546 ق.م.)، «وهو الذي طرد الهكسوس من مصر. ويؤكد العالم النفساني «فرويد» بالأدلة التاريخية والاستنتاجات الخاصة بالطريقة الفرويدية «أن موسى قائد مصري من أتباع أخناتون وقد اعتنق دين التوحيد وأنّ موسى بعد موت هذا الفرعون ذهب إلى حدود مصر في سيناء وأخذ يبشر بمبدئه هذا بين الناس»[2]. ومما يذكر في هذا

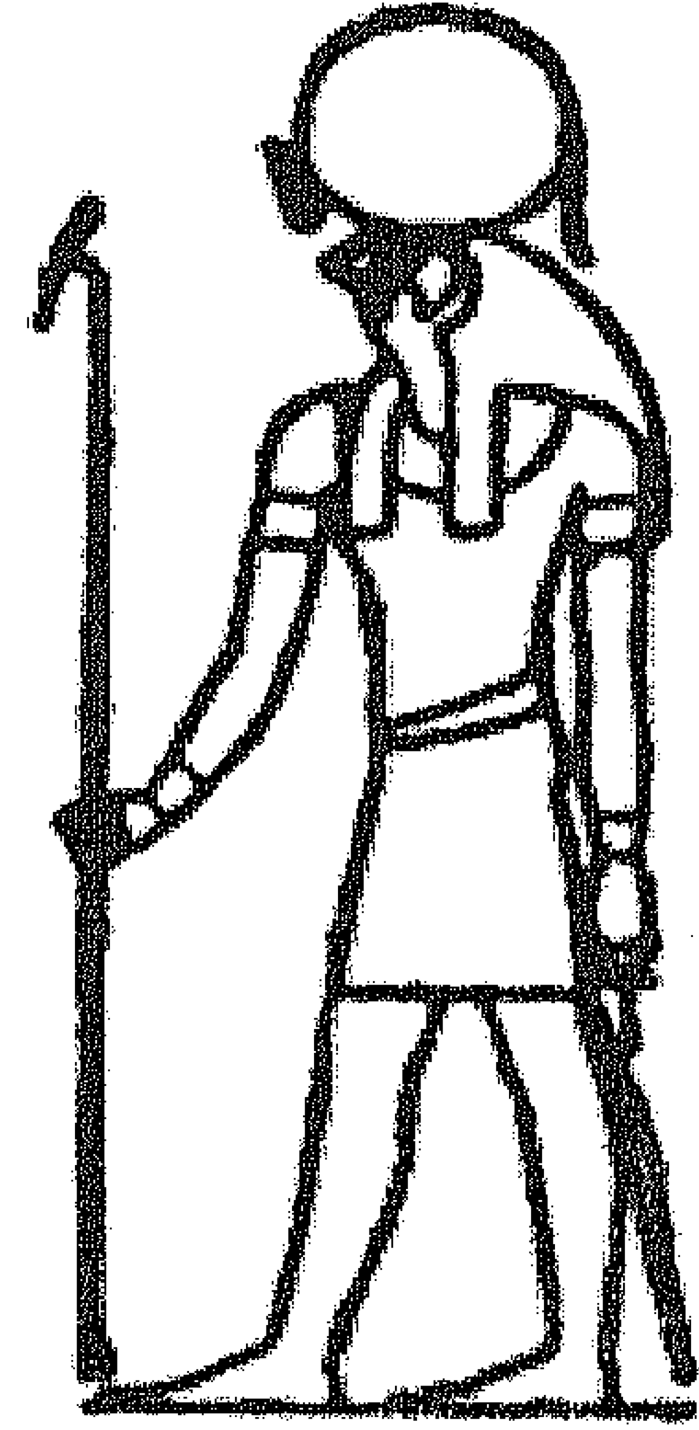
---

(1) إرمان، **«ديانة مصر القديمة»**، ص 120.

(2) سيغموند فرويد، **«موسى والتوحيد»**، ترجمة الأستاذ جورج طرابيشي وإصدار دار الطليعة، بيروت.

الصدد أن هناك بعض التشابه بين بعض قصائد أخناتون في تسبيحه الإلٰه الأوحد وبين المزمور الرابع بعد المائة من التوراة، كما يلاحظ أن المعاني التي ذكرها أخناتون في قصيدته عن الإلٰه الشمس تكررت كذلك في أسفار العهد القديم(1). ولا بدَّ من الإشارة في هذا الصدد إلى أن المبدأ الذي تستند إليه عقيدة التوحيد التي نادى بها أخناتون هي غير المبدأ الذي بنيت عليه التوراة فيما بعد. لأن عقيدة أخناتون تستند إلى عبادة الإلٰه الواحد على أن تكون عبادته في رحاب المحبة والسلام عن طريق نشر الإخاء العالمي بين الإنسان والإنسان هذا في حين أن التوراة تقوم على أساس عبادة الإلٰه «يهوه» الخاص باليهود وحدهم باعتبارهم الشعب المختار.

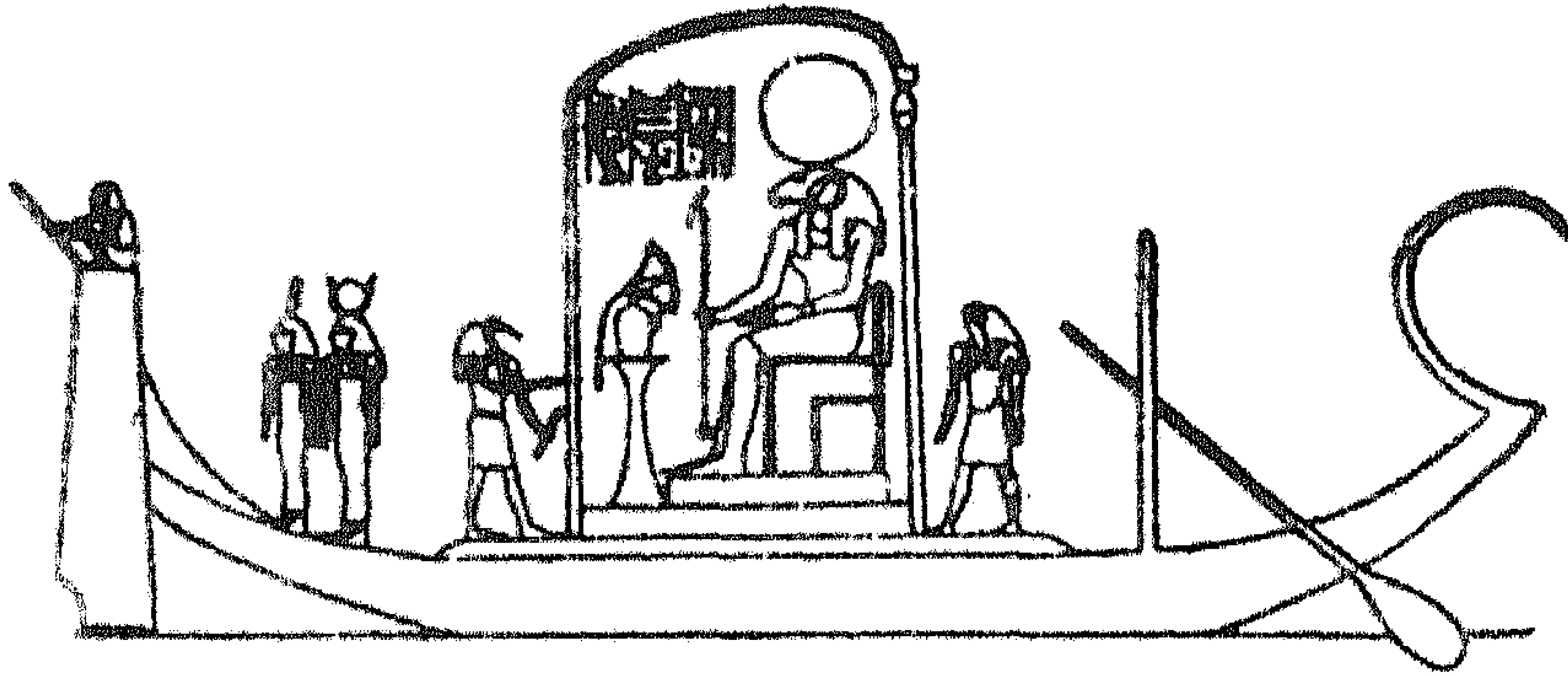
ونظراً لأهمية ديانة أخناتون هذه من حيث صلتها بالنبي موسى وجماعته فإنه يحسن عرض نبذة عن هذه الديانة وعن كيفية نشوئها: لم تكن ديانة أخناتون التي لعبت دوراً خطيراً في تاريخ مصر السياسي والاجتماعي وليدة زمنها، فقد سبقتها تطورات عقائدية دينية عبر زمن طويل حتى تبلورت واختمرت عقيدة الإلٰه الأوحد خالق كل شيء، فكان أول ما استرعى نظر المصريين الأوائل هو أن الشمس وظهورها على شكل ذلك القرص الأحمر المتوهج وشروقها وغروبها بانتظام دقيق تمثّل عظمة الإلٰه «خالق كل شيء» الذي عرف بأسماء عديدة منها الإلٰه «رع» الذي يمثّل شمس الظهر، فعبد أهل مصر هذا الإلٰه في الشمال والجنوب على السواء، وقد صوّروا هذا الإلٰه الخالق على أشكال مختلفة ومن هذه الأشكال الإلٰه على هيئة الصقر أو هيئة إنسان برأس الصقر. ولما كانوا قد صوروا إلٰه الشمس على شكل آدمي فقد جعلوا له قارباً جميلاً صُنع من الذهب طوله



الصورة رقم (64)
الإله «الشمس»

(1) عصام الدين حفني، «**محنة التوراة على أيدي اليهود**»، ص 57.

770 قدماً، وكانت الآلهة الأخرى تصاحب إله الشمس فيه. وقد وصف هذا الإله «بالإله العظيم رب السماء الذي يحكم العالم من قاربه هذا»، ولا غرابة في ذلك فإن إله الشمس هو سيد الآلهة أجمعين[1]. وكان للشمس قاربان قارب النهار وقارب الليل تستقل الأول في النهار والثاني في الليل بعد أن يخيّم الظلام على الأرض وذلك لتبدأ رحلة الليل مخترقة العالم السفلي[2]. وكان يتخيّل المصريون جميع المخلوقات ترتل أناشيد تمجّد بها هذا الإله، وكذلك البشر فهم يرفعون أيديهم إلى أعلى ويبتهلون إلى الشمس قائلين: «المجد لك عندما تشرقين من اليم الذي يحيط بالسماء لتنشري النور على مصر بشروقك، بالشكر لك تلهج ألسنة الآلهة أجمعين». فالصورة التي تخيّلها



الصورة رقم (65)
سفينة الشمس
وتمثل المكان الذي يدار منه العالم حيث يجلس فيه الإله في مقصورته الخاصة، وقد اتخذ له رأس كبش، جالساً على عرشه يصدر أوامره إلى وزيره الواقف أمامه

المصريون عن ولادة الشمس تتلخّص في أنها تدخل في إلهة السماء عند المساء ثم تعبر جسمها أثناء الليل، وتولد عند الصباح. كما أنّ هناك فكرة أخرى تقول بأن الشمس إذا اختفت في الغرب تظهر من جديد في الشرق.

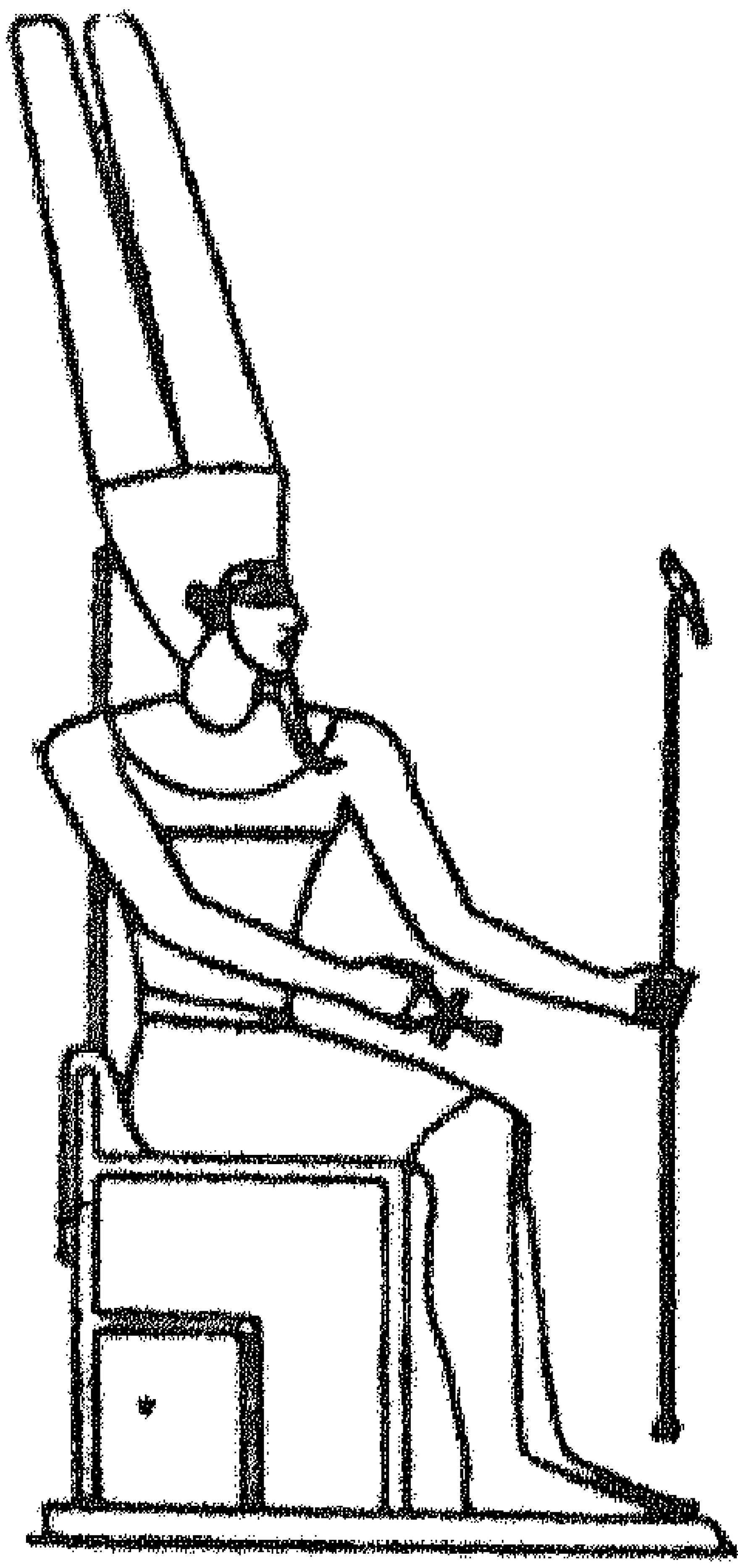
---

(1) إرمان، «**ديانة مصر القديمة**»، ص 19 ـ 21.

(2) المرجع السابق، ص 22.

ولكن لكي تصل إلى هذا الشرق يجب عليها أن تعبر النهر[1]. وكانوا يتصوّرون أن للشمس مسكناً في جزء من أجزاء السماء وصوّروه على أشكال متعدّدة منها قصر خاص للشمس في السماء ويعتبرونه بمثابة قصر حاكم العالم تتردّد عليه الآلهة لتلقي الأوامر والبقاء فيه لحضور المآدب وتناول المآكل تماماً كما يحدث في بلاط ملك الأرض بالنسبة لرجالات الدولة[2].

ولقد أخذت عبادة الشمس تنتشر منذ عصر الدولة القديمة، ولعلّ السبب في ذلك أنَّ ملوك الأسرة الخامسة الذين حكموا مصر من عام 2560 إلى 2420 ق.م. كانوا ينتمون إلى هذا الإلٰه، فأصبح هذا المعبود أكثر المعبودات تقديساً عندهم. وهكذا فقد أخذ الناس مدى الألف سنة التالية يضيفون في كل مكان اسم «رع» (الشمس) على أسماء الآلهة القديمة، وقد أرادوا بذلك أن يضيفوا إلى الآلهة الأخرى نصيباً من القوّة التي تمتع بها إلٰه الشمس الذي كان يتصرف في مقادير العالم أجمع[3]. وبعد انهيار الدولة المصرية حوالي سنة 2250 ق.م. تمكّنت من الظهور أبان العصور التالية دويلة مركزها مصر العليا وعاصمتها طيبة، ففي أواخر الألف الثالثة تسربّت بعض المعبودات إلى طيبة وتعاليم كهنوتية عرف الكثير منها عن طريق معابد طيبة في العصور التالية، وقد جعلوا الإلٰه أمون الذي كان واحداً من الآلهة الروح لأوزوريس إلٰه منف «وقالوا إنّ جسد أمون يوجد في الدنيا السفلى وإنّه أي أمون كإلٰه للشمس يزور جسده هذا عندما يتجوّل في



الصورة رقم (66)
الإلٰه أمون

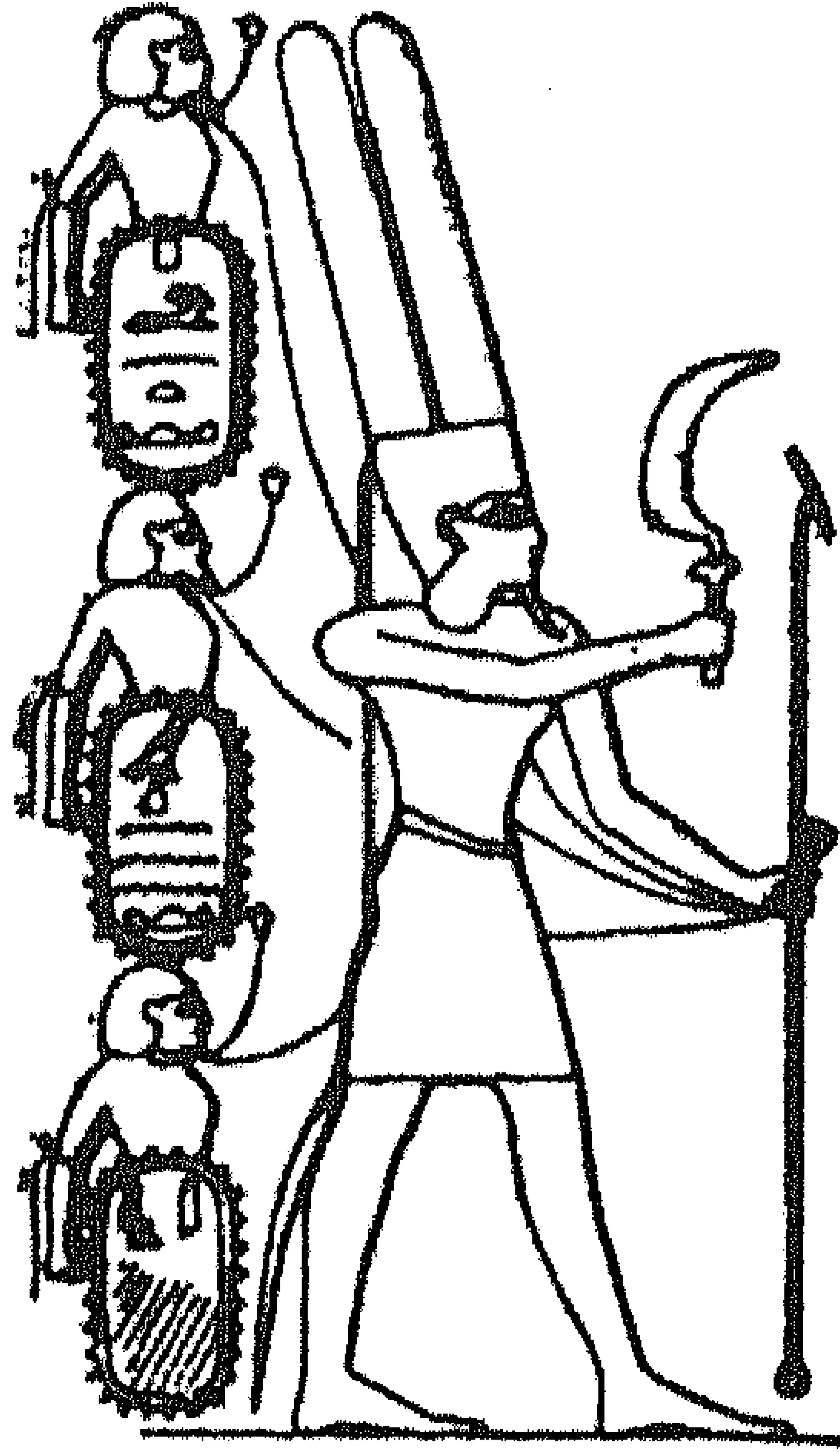
---

(1) إرمان، **«ديانة مصر القديمة»**، ص 22 ـ 23.

(2) المرجع السابق، ص 24.

(3) المرجع السابق، ص 60.

العالم السفلي أثناء الليل»[1]. وقد أصبح أمون الإلٰه المحلّي لطيبة منذ عصر الأسرة الحادية عشرة (حوالي 2100 ق.م.) وبلغ إلٰه الشمس في شخصيته الجديدة كملك الآلهة أسمى درجات التقدير والشهرة يسوس العالم ويتحكّم في مقاديره، وممّا ساعد على ارتقاء الإلٰه أمون إلى مرتبة الإلٰه العظيم، أنّ أسلاف الأسرة الثانية عشرة قد اختاروه إلٰهاً عائلياً إذ اتّخذ أول ملوك الأسرة الذي حكم مصر حوالي سنة 2000 ق.م. الاسم المميّز أمون في المقدّمة ، ونظراً للدور الذي كان على أمون أن يؤديه كإله للآلهة صار لزاماً عليه أن يتحوّل إلى إلٰه شمس تحت اسم «أمون ـ رع»، وهكذا اتّخذ مركزاً ممتازاً بالنسبة إلى جمهرة آلهة المقاطعات الصغيرة وقد اتّخذ بهذه المناسبة مظهراً آخر أكثر احتشاماً[2]. وهنا تظهر لنا بداية عقيدة التوحيد بظهور «أمون ـ رع» ملك الآلهة الذي يسوس العالم ويتحكّم في مقاديره.



الصورة رقم (67)
الإله «أمون رع»

وفي غمرة ظهور ديانة أمون ـ رع غزا مصر أقوام الهكسوس وهم رعاة أهل الصحراء وحكموها حوالي 200 سنة بين 1785 و1580 ق.م. وقد اشتملت على خمس سلالات وهي السلالات 13 ـ 17. وما إن انتهى حكم الهكسوس وقيام السلالة الثامنة عشرة بزعامة مؤسسها أحموسة وتأسيس الإمبراطورية المصرية حتى وصل «أمون ـ رع» إلى قمّة مجده بعد تحرير أمراء طيبة لمصر من النير الأجنبي. وعندما امتدّ حكم الأسرة على مصر كلّها دون أن تهجر مقرّها «طيبة» صار من المحتوم أن يصبح «أمون ـ رع» إلٰهاً للإمبراطورية وأكبر إلٰه في البلاد فاتّخذ منذ

---

(1) إرمان، «ديانة مصر القديمة»، ص 108 ـ 109.

(2) المرجع السابق، ص 120.

ذلك الوقت لقب ملك الآلهة بل وأكثر من ذلك فقد شاء القدر أن يتمتّع ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وهم الذين رفعوا إلٰههم «أمون ـ رع» عالياً، بعظمة لم تعرف لها مصر مثيلاً من قبل، فمن الفرات إلى السودان كانت جميع البلاد تدفع لهم الجزية، وقد انتشرت عظمة إلٰههم في كل هذه الأرجاء الشاسعة، فأقام فراعنة القرنين السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد والأسرات اللاحقة معابد طيبة الضخمة للإلٰه «أمون ـ رع» بواسطة تلك الأموال التي تدفّقت على مصر رمزاً لتقديرهم وعرفانهم بأسباب ذلك النصر الذي قادهم إليه. وقد أقاموا في البلاد الأخرى من إمبراطوريتهم هياكل جديدة خدمة لإلٰه ملكهم في كل مكان»، وهكذا أصبح «أمون ـ رع» حقيقة ولمدة طويلة أول إلٰه عام للمصريين(1).

وقد غالى المصريون في نسج الأقاصيص المختلفة عن هذا الإلٰه «أمون ـ رع» إلٰه الشمس خالق كل شيء وهو الذي عمل كل شيء، هو الوحيد صاحب الأيدي الكثيرة، هو أب الآلهة صنع الناس وخلق الحيوانات وفرّق بين الناس حسب ألوانهم.. ولكن أمون ـ رع هو أيضاً عضد وعاهل كل الكائنات الحيّة، وهو يسهر في الليل حين ينام الناس أجمعون وكالراعي الصالح يبحث عن الأفضل لقطيعه، وهو يُنبت الحشائش لقطعانه وأشجار الفاكهة للناس، وهو يخلق ما تعيش منه الأسماك في النهر والطيور في السماء، وهو يعطي نسمة الحياة لمن لم يخرج من البيضة ويطعم ابن الدودة.. النيل الطيب المحبوب يجري حباً فيه وحينما يجري يحيا الناس..».

وفي عصر أمنوفيس الثالث (أمنحوتب الثالث 1417 ـ 1379 ق.م.) بلغت الإمبراطورية المصرية أوج اتّساعها وازدهارها حتى غدت أول دولة في العالم، حوّلت عبادة «أمون ـ رع» في هذا العصر إلى عقيدة خالصة لإلٰه الشمس. وهذا أهم ما تحتوي عليه أنشودة «أمون ـ رع» حينما يشرق: «التسبيح لك إنك رع الذي يطلع كل يوم في الصباح دون توقف.. أنت بتاح

(1) إرمان، «**ديانة مصر القديمة**»، ص 119 ـ 121.

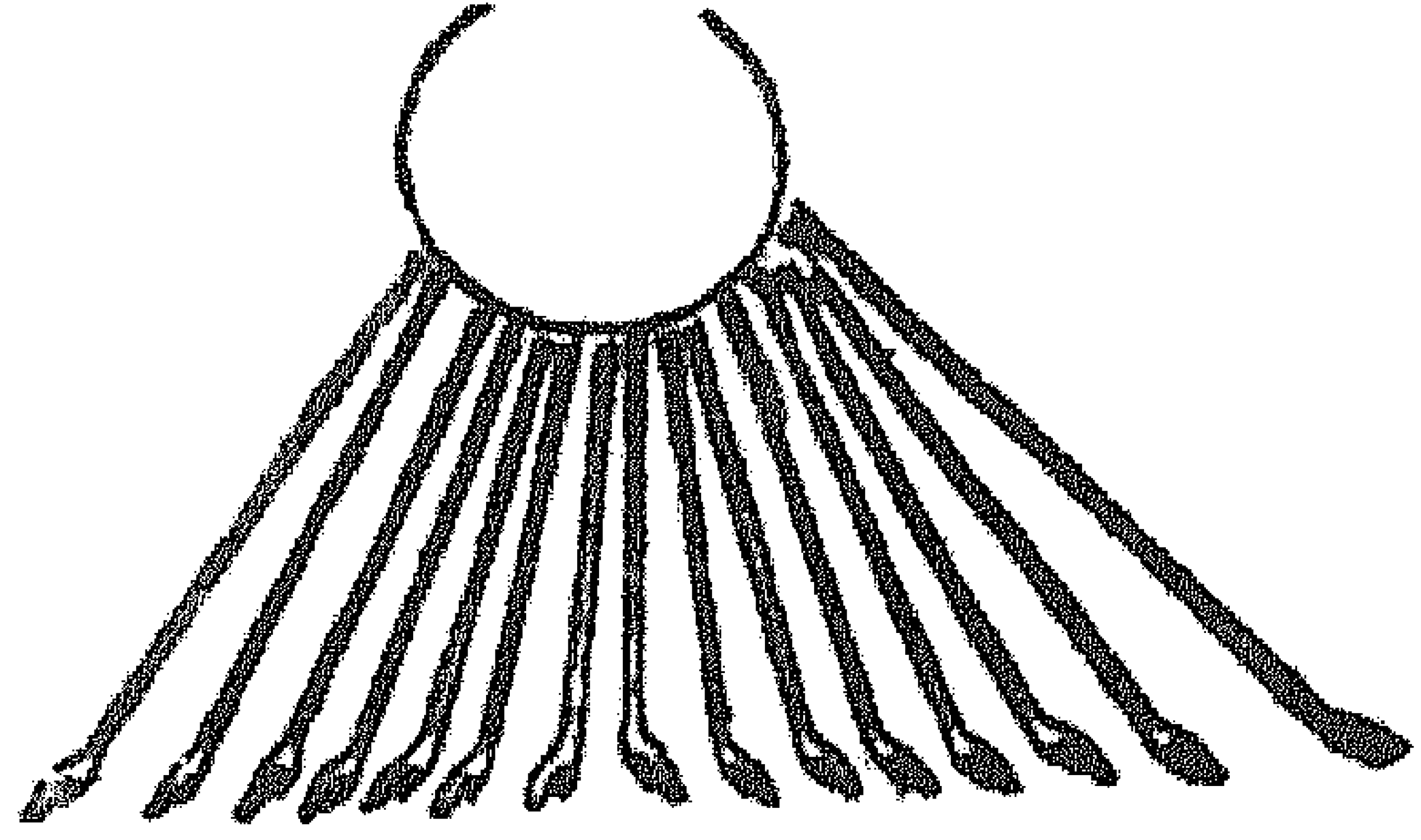
وقد كوّنت أعضاءك، أنت معطي الحياة الذي لم يولد، أنت الوحيد من نوعك الذي يعبر الأبدية كلّها . . . أنت تسبح فوق السماء، والناس جميعاً يتأملونك، ولكن مسراك خفي عليهم رغم ذلك . . فبفضلك ترى جميع العيون ولا تقوم بأداء شيء بعد أن تنام جلالتك، تقوم مبكراً لتظهر في الفجر، نورك يفتح الأعين ولكنك حينما تغرب في جبل مانون فإنهم ينامون كالأموات».

وهناك أنشودة ثانية تمدح إلٰه الشمس تحت اسم «أتون» وهي الكلمة ذاتها التي ستصير بعد ذلك علماً لعصر الثورة. هكذا تعبّر هذه الأنشودة «المجد لك يا شمس النهار التي خلقت كل الكائنات الحيّة وتكفلّت بما يحتاجون إليه . . أنت الأم الرائعة الممتازة للآلهة والناس. أنت الخالق الطيب الذي يتعب نفسه من أجل مخلوقاته العديدة. أيها الراعي القوي الذي يقود قطعانه. أنت ملجؤهم الذي تحفظ عليهم الحياة . . الإلٰه الأصيل الذي خلق نفسه. الإلٰه الذي يصل كل يوم إلى حدود البلاد وينظر إلى الذين يتجولون فيها. والذي يشرق في السماء. الإلٰه الذي يقسم الفصول إلى شهور، وينتج الحرارة حينما يريد والبرودة حينما يشاء. الذي يطوي الأعضاء ويحتضنها . كل بلد تتوسّل إليه عند طلوعه يومياً كي تعبده»[1] .

قلنا إن عقيدة التوحيد قد نبتت جذورها في القرنين العشرين والتاسع عشر قبل الميلاد بظهور عبادة الإلٰه «أمون ـ رع»، ثمّ بعد طرد الهكسوس من مصر وتأسيس الإمبراطورية المصرية عظم شأن الإلٰه «أمون رع» وانتشرت معابده في كل أرجاء الإمبراطورية المصرية حتى لقّب بملك الآلهة وأصبح أعظم آلهة المصريين. وفي هذا الدور المزدهر من تاريخ مصر (عصر أمنحوتب الثالث) بدأت تختمر في عقلية الشعب المصري مفاهيم دينية جديدة تمخّضت عنها الثورة الكبرى التي اندلعت في عهد خلفه أمنحوتب الرابع (1379 ـ 1362 ق.م.)، بإعلان عقيدة التوحيد تحت علم (أتون) (الشمس). ولا شك أن هذه الحركة الجديدة كانت عامة إذ كان الناس يودّون عبادة وحب الإلٰه

---

(1) إرمان، «ديانة مصر القديمة»، ص 123 ـ 144.



الصورة رقم (68)

الإله «الشمس»
بصورته الجديدة
على شكل قرص مشعّ

الذي يرونه ويحسُّون بأفضاله (أي الشمس). إن هذا الجيل كان يسير إذن نحو الحقيقة[1]، وهكذا فلم يعد إله الشمس كسابق العهد على هيئة إنسان ذي رأس صقر، بل على صورة قرص يمثّل كوكب الشمس ومنه تخرج أشعة تنتهي بأيد، وهذه الأيدي معناها أن الشمس تعطي الإنسان الحياة وكل ما هو طيب. وقد وصلت إلينا محتويات هذه العقيدة الجديدة الحقيقية عن طريق تسبيحات وأدعية مختلفة تصوِّر إله الشمس على صورة الخالق المحبب عند كل الأحياء، وهذه هي بعض هذه التسبيحات التي عُثر عليها في قبر الكاهن آي:

إن ظهورك جميل في أفق السماء أيتها الشمس الحيّة أولى الأحياء.

إنك طلعت من الأفق الشرقي في السماء وتملئين البلاد بهاء بجمالك.

أنت جميلة وكبيرة وتتألقين فوق كل البلاد.

إن أشعتك تحيط البلاد بقدر ما خلقت منها.

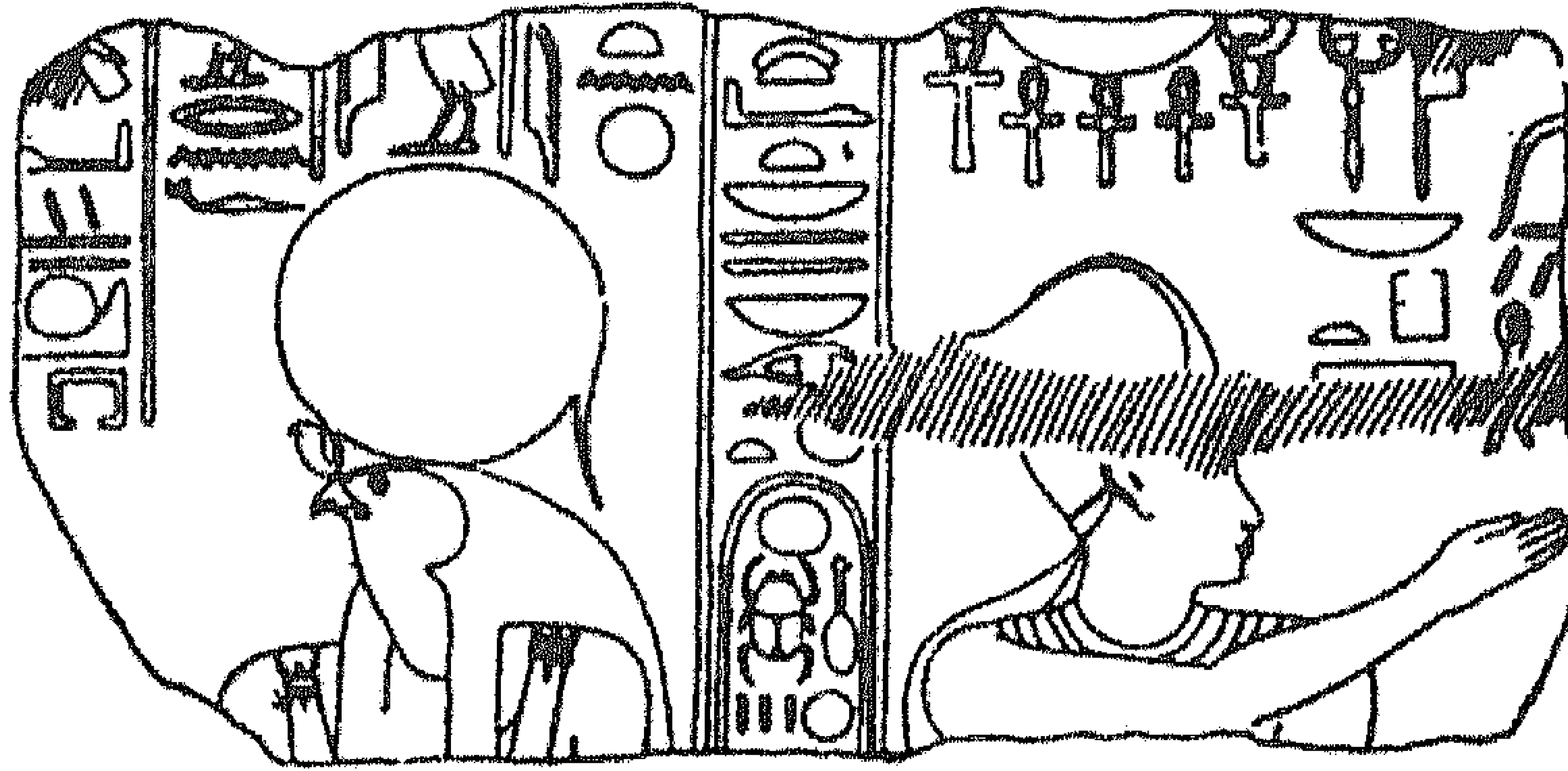
أنت رع وأنت تخترقينها حتى نهايتها وتأسرينها بحبك من أجل ابنك (الملك).

أنت بعيدة ولكن أشعتك تصل إلى الأرض.. نراك ورغم لك لا نعرف مسراك.

عندما تختفين في الأفق الغربي تصبح الأرض ظلاماً كما لو كانت مائتة.

وعندما يطلع النهار تبزغين عند الأفق وتتألقين في النهار لكونك شمساً تطرد الظلام وتهدي شعاعك. القطران يفرحان، الناس يستيقظون من النوم ويقفون على أرجلهم عندما توقظينهم.

(1) إرمان، «ديانة مصر القديمة»، ص 126.



الصورة رقم (69)
نقش يمثل الملك وهو يتعبد إلى اليمين وإله شمس
في شكله القديم ولكن باسمه الجديد إلى اليسار

القطعان كلها فرحة بمراعيها. الأشجار والنباتات تخضرّ. الطيور تخرج من أعشاشها وتسبّحك بأجنحتها. جميع الحيوانات تقفز على قوائمها وكل ما يعيش ويرفرف يحيا عندما تشرقين من أجله.

كم هي عديدة أفضالك أيها الإلٰه الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه.

لقد خلقت الأرض برجالها وقطعانها وجميع حيواناتها حسب رغبتك أنت فقط. كل ما على الأرض يمشي على أقدامه. وجميع ما في الهواء يطير بأجنحته.

البلاد الأجنبية.. سوريا والنوبة وبلاد مصر.. أنت تثبتها كلاً في مكانه وتعمل ما يلزمها.

كل له طعامه وأيامه معدودة وألسنتهم مختلفة مثل أشكالهم. وجلدهم مختلف لأنك ميّزت الشعوب.

أنت تخلق النيل في العالم السفلي وتسيّره كما تشاء لإطعام الشعوب. أنت سيّدهم جميعاً ـ تشقى من أجلهم.

أنت سيد البلاد جميعاً وتشرق من أجلها.. كشمس النهار القوية.

أنت تعنى بالبلاد البعيدة جميعاً وضعت نيلاً في السماء حتى ينزل لهم.

كم هي طيّبة أفكارك يا سيد الأبدية.

نيل السماء تعطيه للشعوب الأجنبية وللحيوانات في كل صحراء... تلك التي تمشي على أقدامها. أمّا النيل فينبع من العالم السفلي من أجل مصر.

أشعتك تغذي كل الحقول. وعندما تتألق يحيون وينمون من أجلك.

أنت تخلق الفصول فتحفظ كل ما خلقت.

أنت صنعت السماء البعيدة لترتفع إليها وتتأمل كل ما خلقت.

أنت أوحد.. أنت تشرق في هيئة الشمس الحية. عندما تظهر وتتألق وتبتعد ثم تعود.

أنت تخلق ملايين الكائنات منك وحدك.

أنت نفس دوام الحياة ونحن نعيش بفضلك.

وعلى هذا النحو ظهرت الديانة الجديدة القائمة على التوحيد المطلق التي بشّر بها الملك أمنحوتب الرابع في بدء حكمه تحت علم الإلٰه أتون



الصورة رقم (70)
أمنوفيس الرابع (أخناتون) مع زوجته وبناته يظللهم الإله «أتون»

(الشمس) خالق كل شيء بصفته الكاهن الأول له. وهذه العقيدة كما اتّضح لنا من الأنشودة تتيح للجميع السوري والأثيوبي تمجيد الإلٰه أتون (الشمس)، فإن الناس كلهم أبناء الله أعطاهم ألواناً مختلفة ولغات متباينة ووضعهم في أقاليم متميزة ولكنه يعطي كلّاً بطريقة واحدة، فهو إذا أعطى لأحد نيله فإنه يعطي الآخر على سبيل التعويض مطراً من لدنه»[1]، وفي ذلك يقول الأستاذ إرمان، «إننا إذا حاولنا فهم هذا المذهب على وجه الدقّة في تحليله الأخير فإننا نلاحظ أنه يتجّه الآن ـ على عكس ما كان عليه في البدء ـ نحو الاعتقاد بالتوحيد، إنه يقول بإله واحد ليس له شريك. وكل ما كانت تقوم به جمهرة الآلهة الأخرى ينفرد هذا الإلٰه الآن بعمله لأن فيه ملايين المخلوقات.. فهذا هو إلٰه الشمس العام المشترك لكل العالم (الإلٰه الطيب الذي يحبّ الحق سيد السماء والأرض أتون الكبير الحي الذي ينير القطرين»[2].

وبظهور هذه الديانة الجديدة أصبح من الكفر الاعتقاد بوجود إله غير الإلٰه أتون، الإلٰه الواحد الحقيقي. ولم يستثن من ذلك اسم أمون الذي غدا غير مقبول أيضاً، مما حدا بالملك إلى أن يتخلى عن اسمه «أمنحوتب» فتُسمّى باسم «أخن أتون» أي «هذا يرضي الشمس». ولم يقتصر ذلك على إنكار «أمون» فقط بل إنكار أسلافه الأمجاد أيضاً فقد حذفوا أسماء آلهة أخرى عدا اسم أمون، ففي معبد بتاح في الكرنك شوِّهت أسماء بتاح وحاتحور، وفي بهو أعمدة تحوطمس الثالث في الكرنك لحق بهذا المصير جميع الآلهة: أوزوريس وإيزيس وحوريس وأتوم ومنتووكب وغيرهم.

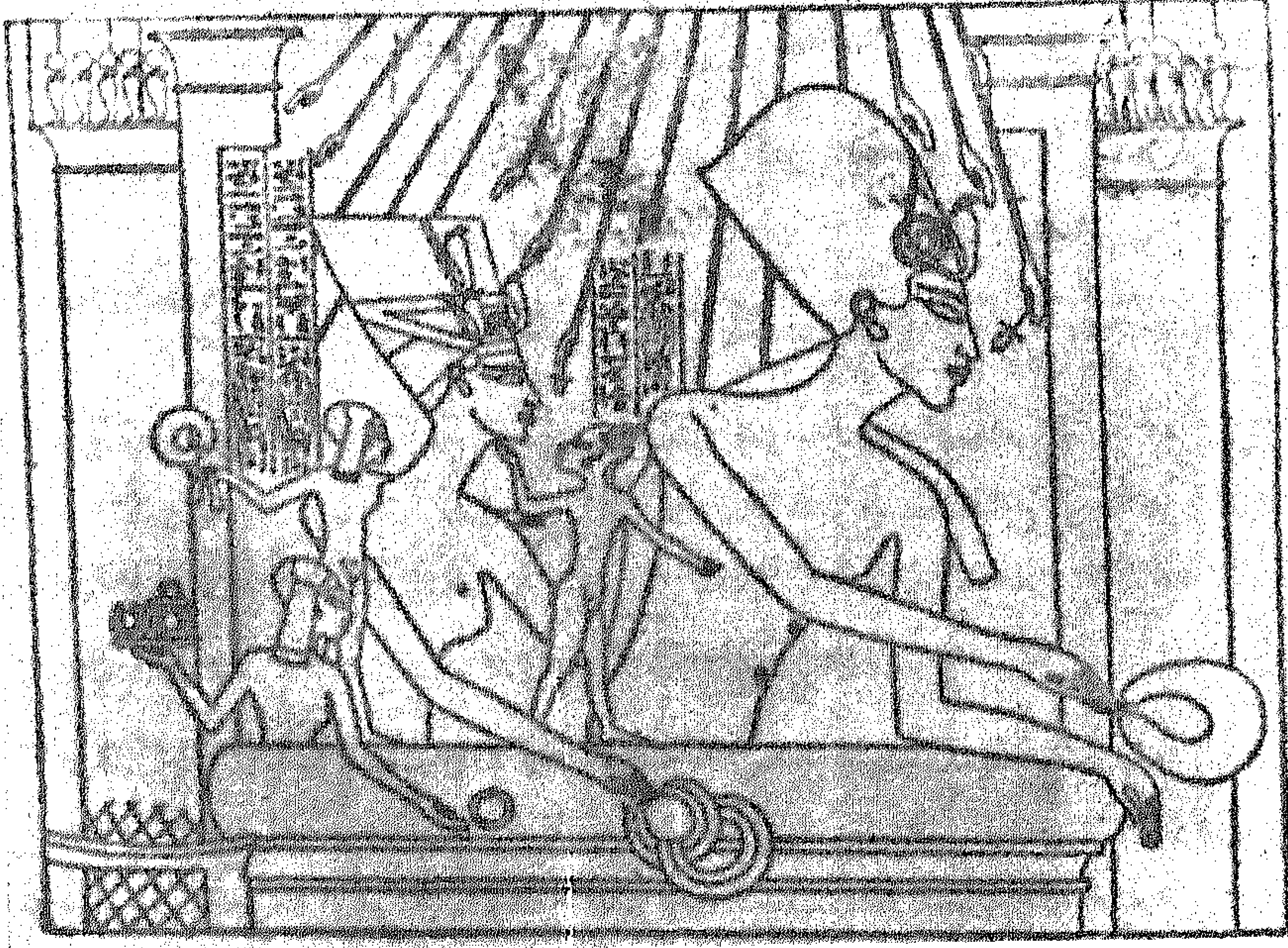
وقد اختار الملك لنفسه ولإلٰهه أتون مكاناً جديداً في المنطقة التي تسمّى اليوم «تل العمارنة» وهي تتوسط مصر إذا قيست كل مساحتها، وهي تقع في السهل الصحراوي على الضفة الشرقية للنيل وقد سُمِّيت «أخت أتون» أي «أفق الشمس» وفي اختيار هذا المكان للعاصمة الجديدة يقول الملك، «سأبني أخت أتون لأتون أبي في هذا المكان، ولن أبني أخت أتون أقرب إلى الجنوب أو

(1) إرمان، «**ديانة مصر القديمة**»، ص 130.

(2) المرجع السابق، ص 140 ـ 141.

إلى الشمال.. وسأبنيه في الشرق حيث تظهر الشمس..» وقد أعلن الملك أنه حين يموت هو أو الملكة يجب أن يدفنا في «أخت أتون».

وهكذا «لم يعد الإلٰه (في ديانة أخناتون) إلٰه مصر وحدها بل هو إلٰه الدنيا بأسرها»، وكذلك لم يعد الملك إلٰهاً يعبد لأن أخناتون لم تدع الألوهية «مثلما كان الفراعنة من قبله ومن بعده يدعون بأنهم آلهة»[1] إن المهم هنا أن ديانة أخناتون نبذت وشجبت جميع ألوان السحر والخرافات والشعوذة وهذا ما يقوله آرثر ويكال بهذا الصدد: «إن أخناتون ألقى إلى النار بشتّى كائنات العالم السحري من جان وعفاريت ومردة وأرواح وأنصاف آلهة، وحتى أوزوريس نفسه، بكل بلاطه، ألقى بهم في اللهب وتحولوا إلى رماد»[2]. ويضيف ويكال



الصورة رقم (71)
أخناتون وزوجته نفرتيتي وبناته الثلاث يوزعون العقود والأساور على أشراف بلاطهم المخلصين (ويكال، «حياة أخناتون وعصره»، ص131)

(1) محمد فؤاد شبل «**دور مصر في تكوين الحضارة**» ص58.
(2) آرثر ويكال، «**حياة أخناتون**»، ص 119، 120 ـ 121.

إلى ذلك قوله: «وفي أعقاب نشر هذه الديانة الجديدة مباشرة لم يبق ذرة من الخرافات في صلب هذه الديانة»[1] وقد حرم أخناتون على الفنانين أن يرسموا صوراً لآتون، لأن الإله الحق في اعتقاده لا صورة له فهو لا يُرى ولا يُمس ولكن مع ذلك هو موجود دوماً في كل مكان وزمان[2]. ثم ترك الفن بعدئذ حراً طليقاً فصوّر الفنانون كل الكائنات الحيّة نباتية كانت أو حيوانية في تفصيل ينمّ عن حب وعطف عظيمين، ودقّة لا تسمو عليها دقّة في أي مكان أو زمان، وكان من أثر هذا أن ازدهر الفن أعظم ازدهار[3].

وفي وصف هذه الديانة الجديدة وإيمان أخناتون الراسخ بها يقول الأستاذ فؤاد شبل: «وفي الحق، لم تعرف الحضارة البشرية هذه النزعة



الصورة رقم (72)
أخناتون يسوق عربته وبجانبه زوجه نفرتيتي وإحدى بناته يظللهم قرص الشمس
(ويكال، «حياة أخناتون وعصره»، ص113)

---

(1) آرثر ويكال، «**حياة أخناتون**»، ص 117.

(2) المرجع السابق، ص 103.

(3) وول ديورانت، «**قصة الحضارة**»، ج 2، ص 176 ـ 177.

الروحية العالمية قبل أخناتون، فإنه هو أول أبناء الجنس البشير إدراكاً لوحدانية الله وشموليته. . . فأخناتون لم يكن فرداً عادياً دفعته أحاسيسه النبيلة لإنقاذ مجتمعه من أوزاره، وتخليص مواطنيه من الجهالة التي يكابدونها؛ بل كان ملكاً آثر التضحية بملذّات الحياة وبأبّهة الملك في سبيل مبدأ اعتقد فيه خلاص الإنسانية من الشرك وما يحوطه من تحلّل خلقي. . . وما هدف أخناتون إلى تمجيد ذاته؛ بل لقد ضحّى في سبيل دوافعه الروحية البحتة بإمبراطورية عظيمة الأرجاء أقامها أجداده العظام، ولم يأبه للانقسام الذي هدَّ كيان مصر الاجتماعي. فلقد سيطرت على ذهنه فكرة واحدة مدارها أن الإله الحق اختاره للتبشير بوحدانيته. . ومهما يكن من أمر الاختلاف في تقييم منجزات أخناتون الروحية والفكرية، فإن الآراء تتّفق على نبل مقاصده وسلامة نهجه، وأن دعوته هي أول دعوة لتحرير العقل من جهالة الشرك، وفكّ إسار الضمير البشري من سلطان طبقة من رجال الدين الفاسدين الوصوليين. . ويعتبر منهاجه أولى حلقات سلسلة تطور العقائد الدينية الذي انتهى بظهور الأديان السماوية»[1].

ويرى البعض «أن دعوة أخناتون قد انحصر الإيمان بها في الملك وعائلته وفي طائفة من المقرَّبين إليه»[2]، على أننا لم نلمس في تراتيل أنشودة أخناتون ما يشير إلى ذلك بل نجد العكس، فديانة أخناتون بحسب هذه التراتيل عالمية تشمل جميع البشر، ولو قدر لأخناتون أن يطول حكمه مدة أطول يثبت خلالها أركان ديانته لتغيّر وجه التاريخ المصري تماماً، ولكن الأقدار لم تمهل هذا الملك الشاب إذ داهمته المنية، وأخذت عبادة أتون تنهار من بعده تدريجياً في وجه المعارضة المكشوفة بعد أن كانت غالبية الشعب قد رفضت العقيدة الجديدة وظلّت تعبد آلهتها القديمة سراً. أما فشل العقيدة فمن أهمّ أسبابه أن قوّة المملكة الخارجية قد تضعضعت فكانت مملكة العقيدة الجديدة تتّجه نحو خراب مؤكد، وقد جاء موت الملك نذيراً بالمصير المحتوم الذي كان ينتظر العقيدة الجديدة التي تبناها ودافع عنها في حياته. ومما زاد

(1) الأستاذ فؤاد شبل، «**دور مصر في تكوين الحضارة**»، ج 2، ص 56 ـ 60، 66.

(2) المرجع السابق، ص 65.

من خطورة الوضع أن الملك لم يترك وليّاً للعهد فانتقلت مقاليد الحكم إلى زوج ابنته الكبرى الذي خلفه صهر آخر أصغر منه سناً وهو المعروف بالملك توت عنخ أتون، ولكن هذه التسمية أثارت ردود فعل بين المعارضين الساخطين مما اضطر الملك إلى الخضوع فبدّل اسمه إلى توت عنخ أمون[1]، كما اضطر إلى الرجوع إلى طيبة حيث افتتح العهد مندّداً بعهد أتون وملمحاً إلى البؤس الذي وصلت إليه البلاد، وفي الوقت نفسه أقام المعابد لأمون ثانية



الصورة رقم (73)

توت عنخ أمون (نحو 1375 ـ 1345 ق. م)
القناع الذهبي الذي عثر عليه على مومياء الملك
(عن أرمان، ص146)

وصنع له تماثيل من الذهب الخالص. وهكذا خربت تل العمارنة عاصمة أمنحوتب الرابع صاحب عقيدة التوحيد ولم يترك شيء من معبدها الأعظم، وقد خرّبت كذلك مقابر المدينة ومن ضمنها المقابر الملكية. وقد انتهت هذه الثورة تاركة وراءها الأسى الذي أرهق الشعب والحقد الذي يلاحق كل خاسر

---

(1) اكتشفت مقبرة الملك توت عنخ أمون سنة 1922 وهي الوحيدة من بين جميع مقابر الملوك التي لم تستهدف للسلب. وقد عرضت مكتشفات هذه المقبرة في لندن سنة 1972 ومن ضمنها القناع الذهبي الذي وجد على مومياء الملك. ويعدّ هذا القناع أثمن ما وجد في هذه المقبرة وقد قدّر الخبراء قيمته بخمسة عشر مليوناً من الجنيهات الاسترلينية (انظر الصورة رقم 73).

أو فاشل ـ حتى صار أمنوفيس الرابع (أخناتون) لا يجري الحديث عنه إلّا ويلقّب بمجرم تل العمارنة. وقد علّق إرمان على النتائج التي خلفتها هذه الحركة الدينية الكبرى فقال: «إنها أحدثت ردّ الفعل الذي كان دافعاً للانحطاط الروحي في مصر»[1]. ومن بين مراحل التطور التي أدخلها عصر أخناتون لم يبق سوى مظهر واحد هو استعمال اللغة العامية بدلاً من اللغة المصرية التقليدية التي ظلّت طوال 1500 سنة واسطة الآداب والعلوم.

ومما يدلّ على صلة بعض نصوص التوراة بديانة أخناتون التوحيدية المطلقة أن المزمور الرابع بعد المائة من العهد القديم جاء مشابهاً تماماً لبعض تراتيل أنشودة أخناتون، وفيما يلي المزامير الواردة في التوراة وما يقابلها في أنشودة أخناتون:

«المزمور الرابع بعد المائة»

تجعل ظلمة فيصير ليل، فيه يدب كل حيوان من الوعر. الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها..[2].

«أنشودة أخناتون»

العالم يقبع في الظلام كالأموات.. وخرج كل أسد من عرينه.. ولدغت الأفاعي كلها.. يسود الظلام.

* * *

تشرق الشمس فتجتمع وفي مآويها تربض.. الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى السماء..[3].

عندما تشرق الشمس في الأفق.. تطرد الظلام.. حينئذ يخرج الجميع في العالم كله إلى أعمالهم...

* * *

---

(1) إرمان، **«ديانة مصر القديمة»**، ص 145 ـ 157.

(2) (مز 104: 20 ـ 21).

(3) (مز 104: 22 ـ 23).

تشبع أشجار الرب.. حيث تعيش هناك العصافير[1] الجبال العالية ملجأ للوعول...[2].

ازدهر الشجر والنبات.. وزقزقت الطيور في مناقعها.. ورقصت كل الأغنام وهي واقفة على أرجلها.

***

هذا البحر الكبير الواسع الأطراف.. صغار حيوان مع كبار.. هناك تجري السفن..[3].

وأقلعت السفائن صاعدة ونازلة.. وإن السمك في النهر ليقفز أمامك.. وإن أشعتك لفي وسط البحر العظيم الأخضر.

***

ما أعظم أعمالك يا رب.. كلها بحكمة صنعت.. ملآنة الأرض من غناك..[4].

ما أعظم أعمالك الكثيرة يا رب.. إنك خلقت الأرض بإرادتك والبشر والبهائم.. كل ما هو على الأرض.

***

الساقي الجبال من علاليه.. من ثمر أعمالك تشبع الأرض.. المنبت عشباً للبهائم وخضرة لخدمة الإنسان..[5].

أنت خلقت النيل في السماء لكي ينزل عليهم فيحدث الفيضانات من أعلى الجبال.. ويروي الحقول.. نيل السماء لخدمة الغرباء وللبهائم في كل بلد..

***

---

(1) (مز 104: 16 ـ 17).
(2) (مز 104: 18).
(3) (مز 104: 25 ـ 26).
(4) (مز 104: 24).
(5) (مز 104: 13 ـ 14).

.. صنعت القمر للمواقيت، الشمس تعرف مغربها[1].. كلها إياك تترجى لترزقها قوتها في حينه. تعطيها فتلتقط. تفتح يدك فتشبع خيراً. تحجب وجهك فترتاع وتنتزع أرواحها فتموت وإلى ترابها تعود[2]..

أنت صنعت السماء البعيدة الأطراف لترتفع فيها.. عند بزوغ الفجر يمتد نورك في الآفاق.. ثم تعود الدنيا بيدك لأنك أنت خالقها فعندما تستيقظ تعمّ الحياة وعندما ترقد يعمّ السكون. أنت تبعث الحياة في الإنسان[3].

* * *

والسؤال الذي يفرض نفسه في ضوء هذه الخاتمة هو، هل كان ظهور النبي موسى في أعقاب هذه الحوادث بالذات موقوتاً؟!...، وهل جاء لينتشل القوم من هوة الضلال التي انحدر إليها بنبذه عقيدة التوحيد؟.. إننا إذا ما استعرضنا تطوّر الديانات البشرية نجد أن ظهور الأنبياء عبر التاريخ في مثل هذه الأحداث أمر طبيعي وأن ظروف الضلال التي خيّمت في أعقاب الارتداد فرضت بوحي من العناية الإلٰهية ظهور النبي موسى لحماية دين الحق والذود عنه.

وحدانية عاموس:

وهناك من يقول إن أول من نادى بعقيدة التوحيد الخالصة وعبادة الإلٰه الواحد «إلٰه جميع المخلوقات» هو النبي عاموس فالدكتور حتي يقول: «إن النبي عاموس كان أول موحّد في التاريخ البشري إذ دعا إلى عبادة الإلٰه الواحد وهو أول من قال: إن «يهوه» هو إلٰه جميع الأقوام وليس إلٰه اليهود فقط»[4]. ويضيف الدكتور حتي إلى ذلك قوله: إن عاموس هذا كان أميّاً مثل النبي محمد ﷺ. والمعلوم أن عاموس عاش في القرن الثامن قبل الميلاد

(1) (مز 104: 19).

(2) (مز 104: 27 ـ 29).

(3) A. Weigal, «**The Life & Times of Akhnation**» pp. 134-136.

(4) الدكتور حتي، «**سوريا**»، الطبعة الإنكليزية، ص 213 ـ 214.

(750 ق.م.) في حين أن إبراهيم الخليل عليه السلام ظهر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد أي قبل عاموس بـ 1150 سنة[1]. والذي يبدو لنا من مجرى الأحداث التاريخية هو أن عاموس أخذ بهذه العقيدة من وحدانية أخناتون التي تدعو إلى العبادة نفسها والتي كان قد اعتنقها موسى وجماعته، وذلك قبل أن تكتب توراة اليهود في الأسر في بابل وهي التي ابتدعت عبادة الإلٰه يهوه الخاص باليهود فقط، وقد أخذها اليهود على الأرجح من البابليين، إذ كانت كل مدينة من المدائن البابلية تختصّ بإلٰه واحد من بين مجموعة الآلهة.

(1) انظر ما يلي عن وحدانية إبراهيم الخليل في الفصل الخامس.

الفصل الرابع

التوراة في ضوء المكتشفات الآثارية

التوراة كمرجع في بحث تاريخ فلسطين القديم:

لقد كانت التوراة قبل الاكتشافات الآثارية قبل قرن أو يزيد، باستثناء الكتابات اليونانية والرومانية المتأخرة، المصدر الأساس أو الوحيد تقريباً الذي يرجع إليه الباحثون في تاريخ فلسطين القديم ودور اليهود فيه، باعتبارها أقدم كتابة في تاريخ البشرية فضلاً عن قدسيتها. وكان كلّ ما ورد في التوراة من عرض للأحداث والوقائع لا بدَّ من تقبّله كحقائق دون نقاش أو جدال لكونه من المسائل المقدسة من جهة ولعدم وجود أي ثبت قديم ينافسه في هذا الميدان من جهة أخرى.

والسؤال الذي يفرضه نفسه في تحقيق منزلة التوراة كمرجع تاريخي موثوق به هو: «أين، ومتى، وكيف، وبأية لغة ظهرت التوراة، وما هي صلة التوراة بالثقافات القديمة التي سبقتها؟. . .» إن المعروف عن أسفار التوراة ومثلها التلمود أنه قام بجمعها وتدوينها عدد من الكتبة والأحبار بلغات وأقلامٍ مختلفة خلال فترات متقطعة وفي مواطن متعدّدة استغرقت مائتين وألف عامٍ تقريباً، أي من القرن السابع قبل الميلاد حتى القرن الخامس بعد الميلاد، ودوّن معظمها أثناء الأسر في بلاد بابل في القرن السادس قبل الميلاد، وقد أُعيد تنقيح أكثرها في فلسطين بعد السبي، أي في العهد الأخميني (539 ـ 331 ق.م.)، ثم دوّن بعض الأسفار في العهد السلوقي البطلمي. ويعتقد أن سفر عاموس كان أقدم ما دوّن من أسفار التوراة وكان ذلك في حوالي القرن السابع قبل الميلاد على رأي البعض، في حين أن آخر ما دوّن من مجموعة

الشرائع اليهودية التلمود الذي اكتسب صيغته النهائية في أوائل القرن السادس بعد الميلاد[1].

ويلقي العلّامة وول ديورانت السؤال نفسه الذي عرضناه ويجيب عليه في فقرة واحدة حسب تعبيره، فقال ما هذا نصه: «كيف كتبت أسفار التوراة؟ ومتى كتبت؟ وأين كتبت؟ ذلك سؤال بريء لا ضير منه ولكنه سؤال كتب فيه خمسون ألف مجلد، ويجب أن نفرغ منه في فقرة واحدة نتركه بعدها من غير جواب. إن العلماء مجمعون على أن أقدم ما كتب من أسفار التوراة هما القصتان المتشابهتان المنفصلة إحداهما عن الأخرى في سفر التكوين، تتحدث إحداهما عن الخالق باسم «يهوه» على حين تتحدث الأخرى باسم إلوهيم ويعتقد هؤلاء العلماء أنّ القصص الخاصة بيهوه كتبت في يهوذا، وأن القصص الخاصة بألوهيم كتبت في أفرايم، وأنَّ هذه وتلك قد امتزجتا في قصة واحدة بعد سقوط السامرة. وفي هذه الشرائع عنصر ثالث يُعرف بالتثنية أكبر الظن أنّ كاتبه أو كتّابه هو أو هم غير كتّاب الأسفار السالفة الذكر، وثمّة عنصر رابع يتألف من فصول أضافها الكهنة فيما بعد. والرأي الغالب هو أنَّ هذه الفصول تكوّن الجزء الأكبر من سفر الشريعة الذي أذاعه عزرا، ويبدو أنّ هذه الأجزاء الأربعة قد اتّخذت صورتها الحاضرة حوالي عام 300 ق.م.»[2].

ومن الواضح أنّ أسفار التوراة ومدوّنات التلمود لا يمكن اعتبارها مرجعاً أصيلاً يُعتمد عليه في بحث تاريخ فلسطين القديم لما خالطها من نزعات دينية وعنصرية وسياسية عبر فترة تدوينها الطويلة، فضلاً عن أن التوراة لم تبحث الأحداث التاريخية الخاصة بفترة ما قبل عصر إبراهيم الخليل إلّا عرضاً بقدر ما لموضوع اليهود من صلة بها على الشكل الذي اختاره مدوّنوها.

مدوّنو التوراة يتعمّدون إهمال التسلسل الزمني:

والتوراة، عند عرضها للحوادث التاريخية، لم تحدّد التسلسل الزمني،

(1) انظر ما تقدّم من تاريخ التوراة في الفصل الثالث.
(2) «**قصة الحضارة**» (الترجمة العربية، م 1، ص 367).

ولم تنسّق الحوادث بحسب أزمانها وأدوارها، وذلك لكي يلتبس الأمر على القارىء فيعجز عن تحديد مراحل الأحداث التاريخية وتتبّع زمن كل منها. والأرجح أن مدوّني التوراة تعمّدوا ذلك لترك المجال مفتوحاً لإرجاع تاريخهم، وهم من بقايا بيت يهوذا، إلى أزمنة قديمة لم تكن لهم أية صلة بها، فخلطوا بين أدوار تفصل بينها عدّة قرون، إذ ربطوا أحداثاً تعود إلى عصور متباعدة وعدّوها عصراً واحداً. ومن ذلك مثلاً، أنهم ذكروا في توراتهم أن إبراهيم الخليل عليه السلام ذهب إلى أبيمالك[1] ملك الفلسطينيين في جرار وتغرَّب في أرضهم، ومثل ذلك ورد عن ابنه إسحاق وصلته بأبيمالك المذكور[2]، هذا في حين أن الدراسات المبنيّة على الاكتشافات الآثارية الأخيرة تشير على وجه التأكيد إلى أن عهد إبراهيم الخليل كان يقع في القرن التاسع عشر قبل الميلاد بحسب أوثق وأحدث تقديرات العلماء لعهده، بينما يرجع عصر الفلسطينيين الذين سُمِّيت أرض فلسطين باسمهم إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد[3]، وهذا ما يجعل فاصلاً بين عهد إبراهيم الخليل وعهد الفلسطينيين يمتد حوالي سبعة قرون من الزمن وبذلك تكون مدوّنات التوراة قد ربطت العصرين وعدّتهما عصراً واحداً. ومثل ذلك فعلت بربط عصر إبراهيم الخليل بعصر اليهود على الرغم من وجود فاصل يفصل بين العصرين يمتد أكثر من ألف عام عبر الزمن[4]. وكذلك تتحدث التوراة عن أور الكلدنيين في عهد إبراهيم الخليل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، في حين أن الكلدانيين لم يظهروا إلّا بعد سقوط نينوى في سنة 612 ق.م.، أي بعد ألف وثلاثمائة عام.

والغاية الأساسية التي كان يرمي إليها مدوّنو التوراة من وراء ربط اليهود بعصر إبراهيم الخليل وتأكيدها ذلك مراراً في سفر التكوين هي إرجاع تاريخ

---

(1) ويغلب الظن أن اصطلاح «أبيمالك» كان لقباً لملوك الفلسطينيين (**قاموس الكتاب المقدس**، الطبعة الجديدة لسنة 1971، ص 23).

(2) (تك، 20: 1 ـ 18، 21؛ 21 ـ 34، 26: 1 ـ 11).

(3) انظر ما تقدّم عن هجرة الفلسطينيين إلى فلسطين في الفصل الأول.

(4) انظر ما يلي عن عصر إبراهيم الخليل في الفصل الخامس.

بقايا بيت يهوذا وعزو نسبهم إلى إبراهيم الخليل مباشرة، واعتبار إبراهيم الخليل الذي كانت قد انتشرت شهرته في الآفاق في تلك الأزمان كنبي عظيم، رئيسهم الأعلى قبل أن يظهروا إلى عالم الوجود. وهذا يفسّر لنا كيفية شيوع التقليد الذي تؤكده الكتابات اليهودية، قديماً وحديثاً، أن إبراهيم الخليل غادر العراق ومعه اليهود إلى فلسطين في حين أن اليهود ظهروا بعد عهد موسى أي بعد إبراهيم الخليل بأكثر من ألف عام. وقد قبلت الأجيال ذلك من غير تمحيص للتسلسل الزمني وملاحظة العصور بحسب تواريخها.

ويلاحظ أن أكثر الكُتّاب العرب بل وحتى جميعهم يقلّدون التوراة بإهمال التمييز بين عصر وآخر عندما يبحثون في تاريخ فلسطين القديم، فيأخذون بأسلوب التوراة في عرض الحوادث التاريخية، وآخر ما مرّ عليَّ من كتب تبحث في تاريخ فلسطين كتيّب طبعته على ما يظهر إدارة الجامعة في لندن باللغة الإنكليزية بعنوان «غرباء في فلسطين»، وكنت أتصوّر من العنوان وقبل أن أتصفّح الكتاب أن المؤلف يريد أن يبرهن على ما جاء في العنوان أي أن اليهود كانوا غرباء في فلسطين ولا صلة تاريخية تربطهم بها وأنهم طارئون عليها كما هو الواقع التاريخي فعلاً، فإذا بالكاتب يستعرض تاريخ اليهود في فلسطين بنقل الحوادث كما وردت في التوراة من غير تمييز بين عصر وآخر وعند ذكره تاريخاً واحداً من تاريخ فلسطين القديم وقع في خطأ لا يغتفر على المؤرّخ المحقّق، وهو جعل تاريخ غزو فلسطين على عهد يشوع سنة 700 قبل الميلاد في حين أن التاريخ الحقيقي هو القرن الثالث عشر قبل الميلاد، أي قبل التاريخ المذكور بستة قرون[1]. والمفروض أن هذا الكتيِّب أعدّ لإظهار حق العرب في فلسطين في حين أنه لم يحقق إلّا عكس المطلوب، فخدم كاتبه الدعاية الصهيونية من حيث لا يدري، وذلك بقبوله كلَّ ما ورد في التوراة كحقائق تاريخية مقبولة. وهذا هو الذي يريده الصهاينة بالضبط فجاء على لسان العرب أنفسهم.

---

(1) **«Strangers in Palestine»**, London, 1970, p.83.

وقد وقع الكتّاب بمثل هذه الأخطاء نتيجة عدم ملاحظتهم تسلسل الأدوار حسب أزمانها، وخاصة زمن تكوّن اللغة العبرية بمعنى اليهودية وزمن تدوين التوراة، مما أدّى بهم إلى اعتبار كل ما ورد في التوراة من أسماء الأشخاص أو الأماكن مثل أبرام ويعقوب ويوسف وأورشليم وصهيون وإسرائيل وغيرها من الأسماء القديمة عبرية بمعنى يهودية، في حين أن هذه الأسماء كنعانية عربية الأصل كانت متداولة بين الكنعانيين وقد وردت في الكتابات الكنعانية والمصرية القديمة قبل ظهور اليهود وقبل تكوّن اللغة العبرية بمعنى اليهودية بعدّة قرون، مع العلم أنه لا توجد لغة عبرية بمعنى يهودية خاصة باليهود فاللغة والحروف المسماة بالعبرية تكوّنت في عهد متأخر وهي مقتبسة من الآرامية.

مدوّنو التوراة يتعمدون إقصاء الكنعانيين من الأسرة السامية:

ولقد تعمّد مدونو التوراة أيضاً إقصاء الكنعانيين والفينيقيين سكان فلسطين الأصليين من الدوحة السامية لعداء اليهود الشديد لهم فعدّوهم من الكوشيين كما ورد ذلك في العهد القديم[1]، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم أنهم هم الساميون العرب الأصلاء أهل البلاد، في حين أنهم حشروا في الأسرة السامية شعوباً لا يعدّها العلم الحديث من جماعة الساميين مثل العيلاميين واللوديين[2]. وقد صبّ كتبة التوراة جام حقدهم على الكنعانيين فنعتوا كنعان بالملعون «وعبد العبيد يكون لإخوته وعبداً ليافث»[3]. وكذلك اعتبرت التوراة الحثيين من ذرية كنعان[4] في حين أنهم من الأقوام الهندية الأوروبية. ومثل ذلك اعتبرت العموريين من صلب حام[5].

---

(1) (تك، 10: 6).
(2) (تك، 10: 22).
(3) (تك، 9: 25 ـ 27).
(4) (تك، 10: 15).
(5) (تك، 10: 5).

ويقول «بروكلمن» في ذلك: «إن العبرانيين (أي اليهود) كانوا قد تعمّدوا إقصاء الكنعانيين من جدول أنساب سام، بسبب العداء الذي كان بينهم وبين الكنعانيين والذي يتمثّل في قصص الحروب التي نشبت بين الطرفين ودوّنت أخبارها في أسفار التوراة، فحملهم عداؤهم لهم وحقدهم عليهم على التنصّل منهم، وعلى التبرؤ من إلحاق نسبهم بشجرة أنساب سام بن نوح».

التوراة في ضوء الاكتشافات الآثارية:

ولحسن الحظ فقد توافرت لدينا الآن ثروة من المعلومات الأصلية التي تركها الأقدمون الذين سبقوا عهد التوراة ـ وهم السومريون والكنعانيون والفينيقيون والبابليون والحثيون، والآشوريون والمصريون. وقد عثر المنقّبون على بعضها خلال القرن ونصف القرن الأخير وترجموها إلى اللغات الحديثة وأصبحت في متناول أيدي القرّاء والباحثين. وهذه وصلت إلى أيدي المنقّبين كما هي في الأصل وبلغاتها وحروفها الأصلية على عكس ما عهدناه في التوراة من تباعد في اللغة وفي العصر. ويقدّر عدد هذه الوثائق الأصلية التي تناولت مختلف شؤون الحياة في تلك الأزمان أكثر من نصف مليون قطعة عُثر عليها بين أطلال مدن حضارات الشرق الأدنى القديمة بمختلف اللغات والحروف، ويعدّ العلماء هذه الاكتشافات أعظم إنجازات الإنسان في العصر الحديث: فقد كشفت لنا هذه المدوّنات عن كثير من الأمور الغامضة، إذ أمكن في ضوئها التمييز بين الحقائق الواقعة والأساطير الخيالية والتحريفات المتعمَّدة في التوراة. وقد تمكّن علماء الآثار من تعيين تواريخ الحوادث من هذه المدوّنات بصورة مضبوطة خاصة ما يتعلق بالأدوار المتأخرة، وكذلك تشخيص أكثر مواقع المدن والأماكن التي ورد ذكرها في هذه المدوّنات وفي التوراة، مما جعل إمكانية غرض الأحداث التاريخية القديمة بحسب تسلسلها الزمني وتوضيح علاقة الأقوام بعضها ببعض وتعيين أدوارها بشكلها الحقيقي بمقارنة الحوادث التي وردت في كل من المصدرين.

ومن أهم ما أوضحت لنا هذه الاكتشافات المكاسب العلمية الآتية:

1 ـ تشخيص أكثر مواقع المدن والأماكن التي ورد ذكرها في هذه المدوّنات القديمة وفي كتابات التوراة.

2 ـ تعيين تواريخ الحوادث بصورة مضبوطة بحسب تسلسلها الزمني وتوضيح علاقة الأقوام بعضها ببعض وتعيين أدوارها، وخاصة هجرة الأقوام بوجه عام وتطوّر ثقافاتها ولغاتها.

3 ـ تتبّع أزمان الهجرات السامية من جزيرة العرب إلى فلسطين وإلى بلاد الهلال الخصيب قبل ظهور النبي موسى وشرح دور هذه الهجرات العربية في تطوّر وتقدّم الحضارة السامية.

4 ـ تعيين زمن الحوادث التاريخية الوارد ذكرها في التوراة بالقياس إلى الوقائع الحربية والسلالات الحاكمة في كل عصر من العصور بحسب تسلسلها الزمني.

5 ـ توصل الخبراء إلى أن الكثير مما ورد في التوراة من قصص وأساطير وشرائع يرجع إلى أصل قديم وجد مثيله أو ما يشابهه في المدوّنات السومرية والأكدية والكنعانية والبابلية والآشورية والمصرية، مما يدلّ على أنه ليس لليهود أدب مبتكر أو ثقافة خاصة بهم.

6 ـ توصل الخبراء إلى أن مواد عديدة في التوراة مأخوذة من شريعة حمورابي والشرائع القديمة الأخرى، وأن أكثر التراتيل والمزامير والتسابيح الدينية التي وردت في التوراة مقتبسة من الكنعانيين في «أوغاريث» (فينيقيا) ومن المصريين.

7 ـ توصل الخبراء إلى أن معظم شرائع التوراة هي نفسها الشرائع التي كان يمارسها الكنعانيون والبابليون من قبل، وقد اقتبسها اليهود منهم ومارسوها ثم أدخلوها في كتبهم المقدسة.

8 ـ ثبوت كون اليهود غرباء دخلاء على فلسطين وأن كل ما يملكون من المقوّمات الثقافية ومن ضمنها اللغة وكتابهم المقدس مقتبس من الثقافة الكنعانية والآرامية وأنها من أصل سامي عربي، وأن الأسماء التاريخية الواردة في التوراة سواء كانت أسماء أشخاص أو أسماء أماكن من أصل كنعاني عربي ترجع إلى ما قبل ظهور اللغة العبرية بأكثر من ألفيّ سنة.

9 ـ ثبوت كون اليهود عاشوا في فلسطين وهم أقلية بين السكان الأصليين طيلة مدة مكوثهم فيها.

10 ـ ثبوت عجز اليهود في أي دور من أدوار التاريخ عن إنشاء دولة مدنية زمنية تضمّ كل فلسطين، وأن دولتيّ داود وسليمان كانتا قائمتين في القرن العاشر قبل الميلاد على تراث كنعاني بحت قبل نشوء العبرية (اليهودية) بعدّة قرون.

وتشير الدلائل إلى أن مدوّني التوراة أخذوا عن القدماء أسلوبهم نفسه في تدوين الحوادث ومن ذلك التشابه بين طريقة التوراة وبين الطريقة السومرية المتّبعة في تقدير أعمار الأشخاص مما يؤيد اقتباس مدوّني التوراة الطريقة السومرية ذاتها فقد ورد ذكر أشخاص في التوراة قيل عنهم إنهم عاشوا ثمانمائة أو تسعمائة سنة[1]، وهذه الطريقة نفسها التي اتبعها السومريون الأوائل في تدوين مدد حكم ملوكهم، فمن جملة مدوّناتهم أن ثمانية من ملوكهم حكموا قبل الطوفان 341200 سنة وفي جدول آخر يرتفع هذا الرقم إلى 456000 سنة، وهذه الأرقام الخيالية في تدوين أعمار الأشخاص ما زالت لغزاً لم يتوصل علماء الآثار إلى حلّه حتى الآن، فيرى البعض أن احتساب هذه الحقب الطويلة للأعمار هي مجرد رمز للاعتقاد السائد بأن هناك عصراً ذهبياً دائم الازدهار كان يعمّر فيه الملوك آلافاً من السنين لما كانوا يتمتعون به من مقام الألوهية التي هي فوق الطبيعة البشرية. ويرجّح السير ليونارد وولي أن السومريين كانوا يؤرّخون حكم الملوك بالآلاف من السنين إذ كانوا يعبّرون عن أعمارهم بوحدة قياسية تدعى «سار» وهي حقبة أمدها 360 سنة[2] وهناك رأي أن الأقوام الأولين كانوا يعدون كل شهر عاماً فإذا قالوا ألفاً ومائتي سنة فإنما يعنون مائة عام من أعوامنا[3]. وللمعري أبيات بهذا المعنى حيث يقول:

ورَوَوا للمعمَّرينَ أموراً   لستُ أدري مَا هُنَّ فِي المَشْهُورِ

---

(1) (تك، 5: 16 ـ 17).

(2) C.L. Woolley, «**the Sumerians**», 4th imp., 1930, p. 29.

(3) راجع الدكتور أحمد سوسة، «**الري والحضارة في وادي الرافدين**»، ص 96.

أَتراهُمُ فِيما تَمضّى مِنَ الأيا م عَدُّوا سِنيهمُ بِالشُّهورِ
كُلَّما لَاحَ لِلعيونِ هلالٌ كَانَ عاماً لديهمُ فِي الدُّهورِ
هَكَذَا يَنْبَغِي وَإِلّا فَإِنَّ الـ عَقْلَ يثنِي فِي حَالَةِ المَبْهُورِ[1]

وقد خالف عالم الآثار إدوارد كييرا هذا الرأي، أي الرأي القائل بأن بضعة أيام كانت تعادل عند البابليين واليهود سنة فيعلق على ذلك بقوله: «فقد قدّرت سنوات حكم بعض الملوك نصف الأسطوريين الأوائل بـ 72 ألف سنة وفي هذا نجد تشابهاً مع أعمار الكهنة اليهود الطويلة، ولا نزال نأمل الحصول على شيء من دراسة التدوينات وأرقام السنين العالية لكلا المصدرين. وأنه لضرب من الجنون أن نحاول التغلّب على الصعوبة التي تثيرها هذه الأرقام الضخمة عندما نتصور أن كل سنة لهؤلاء الكهنة الأقدمين كانت أقصر من سنتنا، وبناء على ذلك لم تكن حياة «ميتوشالح» أكثر من حياة اعتيادية لم تتجاوز السبعين عاماً. فإذا، فعلنا ذلك مع «ميتوشالح» الذي يقال إنه عاش تسعمائة وتسعاً وستين سنة، فماذا نفعل لملك حكم 72 ألف سنة؟. ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نصدق أن البابليين واليهود يعدّون دوماً كل بضعة أيام بسنة.

«وقد برزت من هذه الطريقة الصعبة طريقة أخرى سهلة وهي: أن مؤرّخي اليهود الذين حاولوا ملء الفراغ، الواقع بين ما اعتقدوا أنه التاريخ الصحيح لخلق العالم، والفترات التاريخية التي اعتمدوا في تعيينها على ما عندهم من تدوينات موثوق بها بعض الثقة فوجدوا عدداً محدوداً من الأسماء ليستعينوا بها في ملء هذا الفراغ وبدلاً من أن يبتكروا أسماءً جديدة مدّوا في حياة الأشخاص الذين عندهم ليسدّوا هذا الفراغ في السنين»[2].

ويسود الشعور الآن بين الكتّاب المحدثين أن الوقت قد حان للكشف عن صلة الثقافة اليهودية ومن ضمنها الديانة اليهودية بالثقافات السامية القديمة،

(1) النجار، «**قصص الأنبياء**»، 1936 ص 68.
(2) إدوارد كييرا، «**كتبوا على الطين**»، ترجمة محمود الأمين 1964.

فيقول الأستاذ هوك في مقدّمة كتابه «أصول الديانات السامية القديمة»: «إننا الآن في وضع أكثر ملاءمة من أي وقت مضى لتوضيح علاقة العناصر الأساسية للديانة اليهودية بشبكة الشعائر الدينية التي كانت سائدة في البيئة السامية القديمة من وجهة نظر تاريخية جديدة»[1].

ونحن نقول: لقد آن الأوان للباحثين أن يتحرروا من التقيّد بمدوّنات التوراة في بحث تاريخ فلسطين القديم، وعليهم أن يتوغلوا في أحداث الاكتشافات للنصوص القديمة التي سبقت عصر التوراة بعشرات من القرون فمهّدت السبيل للتمييز بين الغث والسمين واقتفاء التواريخ حسب تسلسلها الزمني.

قصة الخليقة عند البابليين وعند اليهود:

إن أصل الوجود والخليقة من الأمور التي شغلت تفكير القدماء منذ أقدم العصور، وقد عثر علماء الآثار على كثير من النصوص من الأدب العراقي التي تعبّر عن اعتقادات الأقوام السومرية والبابلية والآشورية والمصرية في الخليقة وأصل الوجود، أكثرها يتّفق مع المآثر اليهودية في التوراة مع الفارق في صيغة الشرك، أي تعدّد الآلهة، في الأديان القديمة مقابل صفة الإله الواحد الخاص باليهود في الديانة اليهودية، وأكمل القصص القديمة التي عُثر عليها القصة البابلية المشهورة برقم الخليقة السبعة، لأنها دوّنت على سبعة ألواح من الطين. وقد وردت هذه القصة بألف سطر تقريباً ويعتقد أنها ترجع إلى عهد حمورابي حين أصبح الإله مردوخ سيد الآلهة، رغم أنها كُتبت في وقت لاحق. وملخّص القصة أنه لم يكن في البدء سوى العماء (Chaos) المكوّن من «البحر الأول» أو «المياه الأولى». والعماء كما يفسّره الباحثون جرياً على ما ذهب إليه بعض فلاسفة الإغريق يمثّل المادة التي تكوّنت منها الموجودات. وهذه المادة مؤلفة من عنصرين من الماء: الماء العذب (وهو العنصر المذكر) والماء المالح (العنصر المؤنث). وقد جسّد البابليون هذين العنصرين من الماء وجعلوهما إلٰهاً وإلٰهة، وهما «آبسو» و«تيامة» وعدّوهما أصل الآلهة الأخرى

---

(1) S.H. Hooke, «**The Origins of Early Semitic Ritual**», 1938, p. VII.

وأصل جميع الأشياء، وقد ولد هذان الإلٰهان آلهة أخرى. وحدث بعد دهور أن نشبت حرب بين الآلهة القديمة والآلهة الحديثة قتل فيها الإلٰه «آبسو». ثم دارت حرب أخرى بين «تيامة» زوج «آبسو» والآلهة الحديثة قضي فيها على «تيامة». ومن بقايا جسمها خلق العالم الممثل بالسماء والأرض، وقد أطلق على ذلك مصطلح «آن ـ كي» وهي كلمة مركّبة تعني السماء والأرض. ولما كان الإلٰه «آن» إلٰه السماء ذكراً والإلٰهة «كي»، أي الأرض، كانت أنثى فمن اتحاد هذين الإلٰهين ولد الإلٰه «إنليل» إلٰه الهواء، ثم فصل الإلٰه «إنليل» هذا السماء عن الأرض وأخذ أمه الأرض وهيأ لخلق الإنسان والحيوان والنبات وتأسيس المدنية. أما عن أصل الأجرام فقد اعتبروا الإلٰه القمر المعروف بالاسمين «سين» و«ننا» ابن الإلٰه «إنليل»، كما اعتبروا الإلٰه الشمس المسمّى «أوتو» (شمش) ابن سين الإلٰه القمر.

والتشابه بين قصة الخليقة البابلية وبين التوراة واضح، فكلتاهما تشير إلى وجود «عماء» مظلم من الماء، كما أن الكلمتين المستعملتين متشابهتان في كلا المصدرين. فتقول التوراة: «وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه»[1] والاختلاف بين العقيدة البابلية وبين رواية التوراة هو أن التوراة تنص على وجود الله منذ الأزل وقد سبق وجود المادة وهو الذي خلق المادة، في حين أن الرواية البابلية تشير إلى أن المادة وجدت منذ الأزل ولكنها كانت ذات صفة ثنائية لأنها كانت إلٰهاً في الوقت نفسه فولدت من هذه «المادة الإلٰه» جميع الأشياء والموجودات.

وتتّفق قصة الخليقة البابلية مع رواية التوراة اليهودية وذلك بفصل المياه الأولى فقد فصل الإلٰه مردوخ جسم «تيامة» (الماء المالح المؤنث) وكوّن من نصفه السماء، وصنع من شطره الثاني الأرض بهيئة قبة (أي نصف كرة) ووضعها في البحر، أي مياه «الأبسو» (مياه البحار السفلي ومصدر المياه جميعها). وورد في سفر التكوين[2] أن الأرض أول ما خلقت كانت طافية في

---

(1) (تك، 1: 2).

(2) (تك، 1: 9).

الماء، وفي اليوم الثالث أمر الله أن تجتمع المياه جميعها في موضع واحد فظهرت اليابسة. وتطغى على أساطير الخليقة البابلية صبغة الشرك أي تعدد الآلهة التي هي من أبرز ميزات الدين البابلي.

أما عن أصل الوجود والخليقة عند الفراعنة فإننا نجد في أسطورة فرعونية قديمة ما يشبه الوصف البابلي للخليقة حيث تقول: «في البدء كان الماء الأول أو المحيط المظلم. وكان الإله (أنون) وحده فخلق الآلهة والبشر والأشياء». وهناك أسطورة فرعونية أخرى تقول: «إن الأرواح كانت ترفرف فوق البحار، وفي الفضاء، ونفذ روح الإله (أمون) في ذلك الفضاء، وخلق الأرض والسماء والبشر وكل شيء».

وهناك تشابه بين المدوّنات السومرية والبابلية وبين مدونات التوراة في صفة كون الإنسان خلق على صورة الإله أو الآلهة «فقد عزا السومريون



الصورة رقم (74)

أحد الآلهة القديمة يقاتل تنيناً «أقرنا» يمثل «العماء»: ففي اللاهوت القديم كان الإله «انليل» هو الذي هشم التنين، وفي اللاهوت المتأخر قام الإله مردوخ، بطل آلهة بابل بهذا الدور. ولما أخذ اليهود بهذه الأساطير الدينية أصبح القائم بهذا الدور إلههم «يهوه»: «أنت سحقت رهب مثل القتيل» (مز 89: 8 ـ 12) انظر:

King. «Bapylonian Religion And Mythology» Roger, «Cunelform Parallels», p. 487.

والبابليون إلى آلهتهم صفات البشر جميعها، لها عواطفها وميولها مثل البشر، وهي تعيش وتأكل وتتزاوج، وتسكن في بيوت، هي المعابد المشيّدة لها وفيها خدمها وطهاتها وكهنتها، ولكل إله زوج أو زوجات وسراري ومعشوقات وله بنات وأولاد الخ. . ومن ظواهر صفة التشبيه تأليه الملوك العظام في حياتهم وبعد مماتهم. وتمتاز الآلهة عن البشر بصفات أبرزها أنها تتّصف بصفة الخلود فهي بخلاف الإنسان لا تموت، وإن مات بعضها مثل الإله الذي يمثّل فصل الربيع فإنما يكون ذلك لأمد محدود، وأن رجوع الإله الميت إلى الحياة أمر ممكن بعكس الإنسان. ومساكن الآلهة الأصلية في السماء وبإمكانها أن تنزل إلى الأرض وفي يدها مصير البشر. . وكانت الغاية من خلق الإنسان ليعبدها ويمدّها بما تحتاجه من المؤن لعيشها. لذلك فإن عدم تحقيق هذه الغاية أو التقصير فيها يعرّض الإنسان إلى بطشها ونقمتها وغضبها في هذه الحياة بشتى ضروب العقاب. . إذن فالحصول على رضا الآلهة هو أقصى ما يتوق إليه العبد ويسعى إليه لأن سخط الآلهة مجلبة للويلات والدمار». ومثل ذلك ورد في التوراة: فالإله الرب خلق الإنسان على صورته، ذكراً وأنثى[1]. ثم إن نفس ما ورد في النصوص السومرية والبابلية حول كسب رضا الإله الموجود في التوراة، فعلى بني إسرائيل (اليهود) أن يكسبوا رضا إلههم «يهوه» وإلّا فعاقبتهم وخيمة إذا أعرضوا عن عبادته وطاعته فيسلّط عليهم الأعداء ويعرضهم إلى شتى أنواع العقوبات. وكذلك فإن النصّ السومري الذي يشير إلى أن الإله ينزل من السماء ويختار الأماكن على الأرض هو نفسه وارد في التوراة[2].

ويوجد تشابه بين قصة خلق الإنسان السومرية وبين رواية التوراة اليهودية فحسب القصة السومرية أن الإنسان صنع من الطين، ونص التوراة مشابه تماماً لذلك حيث ورد في سفر التكوين[3] ما هذا نصه: «وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية».

---

(1) (تك، 1: 27، 5: 1 ـ 2).
(2) (تك، 11: 5)؛ (خر، 19: 3، 20).
(3) (تك، 2: 7).

يتّضح مما تقدّم أن اليهود اقتبسوا أكثر قصصهم ورواياتهم من الآداب السومرية والبابلية والكنعانية، وقد جاء أسلوب تدوينهم للأحداث مطابقاً للأسلوب المتّبع في تدوين القصائد والملاحم السومرية والبابلية والتي من صفاتها الإعادة والتكرار، فقد اقتبس اليهود هذا النوع من الشعر من البابليين والسومريين وهو شعر موزون ولكنه غير مقفى. ويؤكد الأستاذ طه باقر هذا الرأي في بحثه عن أصل الخليقة في معتقدات قدماء سكان العراق، فيقول: «ومما لا شك فيه أن العبرانيين (أي اليهود) أخذوا أشياء كثيرة عن البابليين ولعلّ أبرز ما يجده المرء من ذلك قصة الخليقة البابلية والمعروفة بـ «أنيوما ـ أبليش»[(1)].

البعث والقيامة عند اليهود وعند السومريين والبابليين والمصريين:

وتدلّ النصوص السومرية والبابلية على أن هناك تشابهاً تاماً بين تلك النصوص وبين نصوص التوراة حول فكرة البعث والنشور في حياة أخرى بعد الموت، فكلاهما ينكران البعث والقيامة، فقد وصف السومريون والبابليون العالم الآخر أنه عالم الظلام والرهبة، وهو المكان الذي إذا ذهب إليه الإنسان لا يخرج منه أبداً. وقد سمّاه السومريون العالم السفلي الذي يحكم فيه الإلٰه «نرجال»، وينعتونه أحياناً بمدينة الأموات، وقد سمّاه البابليون «أرالوا»، والناس في هذا العالم كما ورد في ملحمة جلجامش متساوون. وقد ورد وصف الآخرة في القصيدة التي تصف نزول الإلهة عشتار إلى هذا العالم في بداية الربيع من كل عام لتخرج زوجها تموز إله الخضار والربيع فقيل إنه موضع مخيف مسوّر بسبعة أسوار ضخمة يحرس كلّاً منها مردة الشياطين وتتولاه الإلٰهة إيرشكيكال (Ereshkigal) إلهة الظلام والدجى والموت[(2)]. وخلاصة

---

(1) اعتمدنا في عرض هذه الخلاصة عن قصة الخليقة عند البابليين والسومريين على كتاب كريمر «**الأساطير السومرية**»، وعلى المقالين التاليين للأستاذ طه باقر:

1 ـ «ديانة البابليين والآشوريين»، **سومر** م2 (1946)، ص1 ـ 19، 179 ـ 196.

2 ـ «الخليفة واصل الوجود»، **سومر** م5 (1949)، ص1 ـ 36، 175 ـ 314.

(2) انـظـر: Jastrow, «**Hebrew and Babylonian Tradition**», N.Y., 1914, (Chap. IV) Wooley, «**Excavations at Ur**», pp. 108-109.

القول إنه ليس في عقائد البابليين والسومريين ما يوعد به الإنسان من آمال دينية لذيذة بعد الموت، أي لا توجد عندهم جنة ونار أو نعيم وجحيم. وأثر هذا الاعتقاد في الحضارة السومرية البابلية جلي واضح في جميع مقوّماتها حيث تطغى عليها صفة المادية والنعيم والمتعة في هذه الحياة.



الصورة رقم (75)

أنابيب خزفية في جوف الأرض لإيصال النذور والقرابين إلى آلهة العالم الأسفل إن هذه الأنابيب الخزفية وجدت مدفونة تحت الأرض في مدينة أور السومرية وجدت ممتدة بصورة عامودية إلى عمق زهاء أربعين قدماً ويعتقد أنها دفنت تحت الأرض بهذا العمق بغية إيصال النذور والقرابين إلى الإلهة «ايرشكيكال» Ereshkigal إلهة الظلام والموت. وقد استدل الباحثون على ذلك بما عثروا عليه في داخل الأنابيب من شقف الأواني التي رميت في فتحة الأنبوب تحت أرضية البناء وهي من نوع الأواني التي كان السومريون يقدمون فيها نذورهم إلى الآلهة فوق الأرض.

وكان أقرب مثال واقعي للموت عند الأقوام هو النوم، فكان السومريون والبابليون يعتقدون بأن الميت يحتفظ بشيء من الشعور يستمر ملازماً له عند اللحظة التي يغمض فيها عينيه، وكانوا يتصورون «أن روح الميت تتمثّل في شبح سموّه (أدمو) ينزل مع الميت إلى العالم السفلي ويبقى معه هناك في حال دفن الميت وفق الطرق والمراسيم الدينية المقررة، وإذا لم تتوفر هذه الشروط انقلب هذا الشبح روحاً خبيثاً يخرج من عالم الأموات في الأرض السفلي ويكون ديدنه إلحاق الضرر والأذى بالأحياء ولا سيما بأقارب الميت، ولذلك عني الناس عناية شديدة بدفن الميت بموجب القواعد الدينية منعاً لخروج (أدمو) من عالم الأرواح»[1].

أما إذا رجعنا إلى التوراة فلا نجد أي ذكر فيها لفكرة البعث والنشور في حياة أخرى أو لدار العقاب ودار الثواب في العالم الآخر. والتشابه ظاهر جلي في كلا المصدرين البابلي والتوراتي في الثواب والعقاب الزمنيين، فالنص التوراتي يشبه تماماً النصّ البابلي في أن العقاب زمني في هذه الدار الدنيا كالآلام والمرض وفقد المال والموت العاجل وتسلّط الأعداء الخ...[2] أما بعد الموت فيذهب الإنسان إلى دار الأموات «وفي الظلام يذهب واسمه يغطّى بالظلام»[3] وهذا نفس عالم الظلام البابلي حيث يتساوى الجميع فيه، «أليس إلى موضع واحد يذهب الجميع»[4]، وكلمة التساوي هذه هي التعبير نفسه الوارد في النصّ البابلي. وقد سمّت التوراة العالم السفلي البابلي والسومري

---

(1) اعتمدنا في عرض هذه الخلاصة عن عقيدة العالم الآخر عند البابليين والسومريين على المقالات التالية للأستاذ طه باقر:

1 ـ «ديانة البابليين والآشوريين»، **سومر** م2 (1946)، ص1 ـ 19، 179 ـ 196.

2 ـ «ملحمة جلجامش والطوفان»، **سومر** 6 (1950)، ص 42 ـ 80، 143 ـ 191.

3 ـ «عقائد سكان العراق القدماء في العالم الآخر»، **سومر** م 10 (1954)، ص8 ـ 39.

(2) (جاء، 5: 18 ـ 20).

(3) (جا، 6: 4).

(4) (جا، 6: 6).

باسم «سلاه»[1]، ولعل كلمة «سلاه» تعريب لكلمة «شيئول» العبرية التي تعني الهاوية، والهاوية معناها في الأصل الميثولوجي مكان الأموات من هبط إليه لا يصعد[2]، وهذا كلام السومريين والبابليين نفسه «المكان الذي لا خروج منه»، وسمّته أيضاً «الظلام وظل الموت»[3]، وهو كلام البابليين نفسه «عالم الظلام والرهبة»، وفي مكان آخر سمّته «الجب وأسافل الجب»[4]، ووادي ظلّ الموت[5]. ومن

---

(1) وردت كلمة «سلاه» 74 مرة في التوراة (العهد القديم). والمعنى الأساسي المقصود بها غير معروف بالضبط، فقد ورد في قاموس الكتاب المقدس (الطبعة الجديدة لعام 1971) أنها تعبير موسيقي يعني تقوية اللحن وتوقيفه بشدة. ويلاحظ أن «سلاه» وردت في التوراة بصفة إلٰه الأموات مثل إلٰه العالم السفلي السومري «نرجال» والإلهة «إيرشكيكال» إلهة الظلام والموت البابلية:

«كل الأرض تسجد لك وترنم لك لاسمك سلاه» (مز، 66: 4).

«يا ممالك الأرض غنوا للّه رنموا للسيد سلاه» (مز، 68: 32).

«يخطفك ويقلعك من مسكنك ويستأصلك من أرض الأحياء سلاه» (مز، 52: 5).

انظر أيضاً:

(مز، 68: 7، 19؛ 84: 4؛ 88: 10 ـ 12).

(2) «الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد» (أي: 7: 9).

«سلاه أبعدت عني معارفي، جعلتني رجساً لهم، أغلق عليّ فما أخرج» (مز، 88: 8).

ثم أنظر في صفات الهاوية:

(مز، 16: 5، 16: 8ـ10، 31: 17، 49: 14ـ15، 57: 6، 88: 12، 139: 8)؛ (تث، 3: 22)؛ (اش، 38: 10)؛ (1 صم، 28: 8ـ19)؛ (2 صم، 22: 6)؛ (عا، 9: 2)؛ (عد، 16: 30 ـ 32)؛ (جا، 9: 10)؛ (نش، 8: 6)؛ (أم، 1: 12، 9: 18، 15: 11).

(3) (أي، 3: 5، 10: 21).

(4) «لكنك انحدرت إلى الهاوية إلى أسافل الجب» (أش، 14: 15). «دعوت باسمك يا رب من الجب الأسفل» (مرا، 3: 55). «أهبطك مع الهابطين في إلى شعب القدم وأجلسك في أسافل الأرض في الخرب الأبدية مع الهابطين في الجب لتكوني غير مسكونة وأجعل فخراً في أرض الأحياء») (مز، 26: 20). راجع أيضاً:

(مز، 28: 2، 2، 55: 23، 88: 4 و6، 143: 7)؛ (أم، 1: 12)؛ (أش، 38: 18)؛ (حز، 31: 14، 32: 18).

(5) «إذا سرت في وادي ظلّ الموت. . .» (مز، 23: 4). راجع أيضاً (مز، 107: 14، 143: 3)؛ (أي، 34: 22).

المرجّح أن الكنعانيين الذين أخذ الإسرائيليون عنهم تقاليدهم وعاداتهم بل وأكثر شرائعهم كانوا يحملون الفكرة نفسها التي اعتنقها اليهود في هذا الصدد.

وقد ظهرت جماعة من اليهود مؤلفة من طبقة الكهنة وبعض الكتبة كانت تجاهر بمبدأ نكران البعث والنشور والقيامة وتذهب إلى أن عقاب العصاة وإثابة المحسنين إنما يحصلان في حياتهم، وهؤلاء صاروا يعرفون بالصدوقيين نسبة إلى رائدهم الأول صدّوق أو صادق، وكان هؤلاء يرفضون كل ما هو خارج عن الوحي المدوَّن في أسفار موسى الخمسة ثم نشأت فكرة العقاب عند علماء اليهود في وقت لاحق، فقال بعضهم بوجود سبع دور متناوبة الدرجات، ورأى بعضهم أن للعقاب دارين دار عليا وأخرى سفلى، واحدة لعقاب الجسد في هذه الحياة وأخرى لعقاب النفس في الآخرة، ولهذه سبع درجات متفاوتة حسب تفاوت الذنوب، ومنهم من قال: إن الناس يقسمون بعد الموت ثلاث فرق، فرقة صالحة حسناتها تربو على سيئاتها تتمتع بالسعادة الأبدية حالاً وفرقة طالحة تزيد سيئاتها على حسناتها تعذب عذاباً أبدياً وفرقة ثالثة بين بين تعذب في جهنم مدة حتى تطهر من ذنوبها فتصعد إلى السماء.

وقد ظهرت قبيل عهد المسيح فرق من اليهود تؤمن بالقيامة وبالعقاب وبالملائكة فكان أقدمهم السامريون الذين اتخذوا لهم هيكلاً خاصاً بهم في جبل جرزيم في شكيم (نابلس الحالية)، حيث مارسوا عبادتهم منعزلين عن اليهود الذين كانوا على خلاف ديني معهم وقد اشتدّت العداوة بينهما. «ويلاحظ في سفر المكابيين تأكيداً قوياً للمجازاة في الحياة الأخرى ولقيامة الموتى وذلك دليل على فكرة متطورة عمّا بعد الموت اعتنقها فيما بعد الفرّيسيون وعلّمها المسيح وتركها للكنيسة»[1]. والفريسيون فرقة من الفرق اليهودية المتأخرة يؤمن منتسبوها بالقيامة وبالروح وبالملائكة على نقيض الصدوقيين الذين لا يؤمنون بالقيامة ولا بالروح ولا بالملائكة، وكان بولس الرسول فريسياً من حيث إيمانه بالقيامة قاومه اليهود وناصبوه العداء هم والصدوقيون.

---

(1) **الكتاب المقدس**، الطبعة الكاثوليكية لسنة 1960، م 2، ص 769.

«ولما علم بولس أن قسماً منهم صدوقيون والقسم الآخر فريسيون صاح في المحفل أيها الرجال الإخوة أنا فريسي وأنا على الرجاء وقيامة الأموات أحاكم، فلما قال ذلك وقع خلاف بين الفريسيين والصدوقيين وانشقّت الجماعة، لأن الصدوقيين يقولون بعدم القيامة وعدم الملاك والروح والفريسيين يقرّون بذلك كله»[1]. ولا بدَّ من الإشارة في هذا الصدد إلى أن قول بولس أنه فريسي إنما عنى به اتفاقه معهم في الإيمان بالقيامة، ولكنه كان يختلف معهم في قبول الأحكام المتوارثة على لسان الأسلاف وفي جملتها التلمود، لذلك كان الفريسيون بزعامة يوحنا بن ذكّاي الذين يقبلون بالشرائع الشفوية الموروثة ومعهم الصدّيقيون الذين لا يؤمنون بالقيامة قد ناصب كلاهما المسيح وأعوانه العداء.

أما المصريون القدماء، فكانوا يعتقدون بوجود دار للعقاب ودار للثواب، وأن النفس بعد الموت تحاكم في حضرة الإله «أوسيرس» واثنين وأربعين قاضياً، وتوزن هي وأعمالها، فإذا وجدت ناقصة حكم عليها بالعقاب، أما بأن تساق إلى الأرض لتحلّ في جسم حيوان من الحيوانات النجسة أو تُلقى في دار العقاب حيث النار والأبالسة، وقد تطهّر من آثامها فيسمح لها بالعودة إلى الأرض والظهور في جسد الناس[2]، ذلك ما يدلّ بوضوح على أن الاعتقاد بخلود الروح وفي الحياة بعد الموت كان مبدأ دينياً أساسياً في حياة المصريين القدماء، بخلاف ما كان عليه السومريون في هذه الناحية، وذلك على الرغم من العثور في مقبرة أور السومرية على مواد تركت للأموات عند حجر قبورهم والتي تعطي الانطباع على أن السومريين كانوا يعتقدون بالحياة الأخرى أيضاً، إذ يؤكد المستر وولي الذي قام بالتنقيب في هذه المقبرة أنه لم يجد أيّ دليل على ارتباط هذه المواد بأية صلة دينية تتعلّق بالاعتقاد في الحياة بعد الموت[3]. وقد ابتكر المصريون طريقة التحنيط

---

(1) (أع، 23: 6 ـ 8).

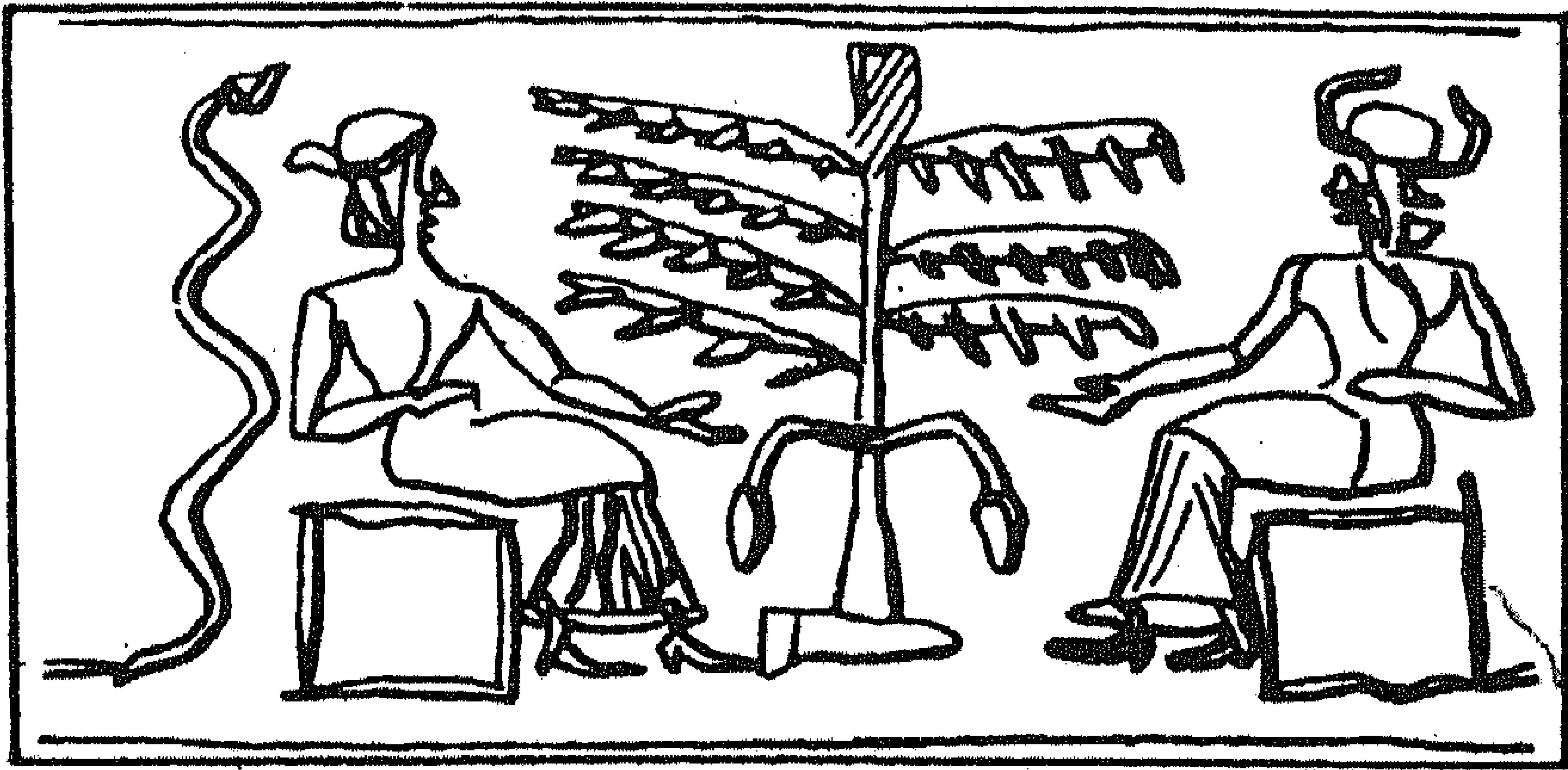
(2) **سومر** م2 (1946)، ص9، **المقتطف** م15 (1891)، ص18 وما بعد وص76 وما بعد.

(3) Woolley, «**Excavations at Ur**», p. 55.

للأجساد لحفظها من عوامل البلى وشيّدوا أهراماتهم وجعلوها قبوراً تحفظ فيها الأجساد بعد انفصالها عن الأرواح، لذلك كان الأهل والأقرباء يتركون في الحجرة التي يوضع فيها الدفين ما يحتاجه بعد عودة الحياة إليه من مفاخر الطعام ولذيذ الشراب. وكانوا يزينون حجرة الميت بزخارف ينقشونها على الجدران تشتمل على مشاهد تمثّل مختلف تحركات الميت في حياته اليومية الأكثر دينية.

قصة آدم وحواء في تصوير السومريين:

ومما يثير الدهشة والغرابة أن المكتشفات الأخيرة قد دلّت على أن قصة آدم وحواء بما فيها قصة جنة عدن التي وردت في التوراة قصة قديمة ترجع جذورها إلى عهود ما قبل التوراة، فقصة آدم وحواء التي تشير إلى إغراء الحية لحواء وتناول حواء وآدم من ثمر شجرة معرفة الخير والشر بالرغم من منعهما من الأكل منه، إن هذه القصة ذاتها، نجدها مصورة على نقش سومري[1] يشاهد فيه رجل على رأسه قلنسوة ذات قرنين وامرأة حاسرة الرأس جالسين



الصورة رقم (76)
قصة آدم وحواء وإغراء الحية لهما على نقش سومري

(1) W. H. Ward, «The seal Cylinders of Western Asia», 1910.

الواحد أمام الآخر وقد نبتت شجرة بينهما تشبه شجرة النخل تدلّى عذقان من التمر من طرفيها؛ ويشاهد الرجل ماداً يده اليمنى نحو العذق أمامه ليقطف من ثمره، كما تشاهد المرأة وهي مادة يدها اليسرى نحو العذق الذي أمامها لتقطف من ثمره أيضاً، ثم تشاهد الحية وهي منتصبة على ذنبها خلف المرأة تغريها بالأكل من هذا الثمر المحرم عليها أكله. وهذا دليل على أن شجر النخل وجد على تربة جنوب العراق منذ أقدم الأزمنة وأن شجرة معرفة الخير والشر هي شجرة النخل بالنسبة للسومريين[1]. ومما يذكر أن هذا النقش التاريخي وضع قبل التوراة بزهاء ألفيّ عام. مع العلم أن البعض يشك في كون هذه الصورة تمثّل قصة آدم وحواء من غير أن يعطي هؤلاء تفسيراً آخر ونحن نميل إلى ضمّ صوتنا إلى أصوات القائلين بأنها تمثّل القصة لأن الصورة تتكلم عن نفسها دونما حاجة إلى شرح.

فكرة الفردوس عند السومريين والساميين:

أما موضوع «جنة عدن» التي أوردتها التوراة فقد خلص الخبراء في ضوء الاكتشافات الأخيرة إلى أن فكرة الفردوس (الفردوس الإلٰهي) ترجع إلى عهود قديمة أيضاً، إذ عُثر على لوح نُقشت عليه قصيدة سومرية فيها تشابه بين المدوّنات التوراتية والقصة السومرية. وكان موضع، الفردوس بموجب القصة السومرية في أرض «دلمون» التي رجّح بعض الباحثين أنها كانت في الجهة الجنوبية الغربية من بلاد فارس، بينما يرجّح البعض الآخر أنها كانت في الجهة الغربية من ساحل الخليج العربي، وقد عيّن هؤلاء الباحثون المحققون مكانها في البحرين، وتذهب القصة السومرية إلى أن بلاد «دلمون» كانت جزيرة تتمتع بقدسية خاصة وكانت فيها آلهة تعبّد لها أهل العراق، وقد وصفت بكونها «أرض الخلود التي لا يوجد فيها مرض أو موت أو حزن ولا ينعب فيها غراب، ولا ترفع الطيور أصواتها بعضها فوق بعض، ولا تفترس أسودها، ولا يأكل ذئب فيها حملاً، إلا أنه كان ينقصها الماء العذب اللازم لحياة الحيوان

---

(1) انظر الصورة رقم 76.

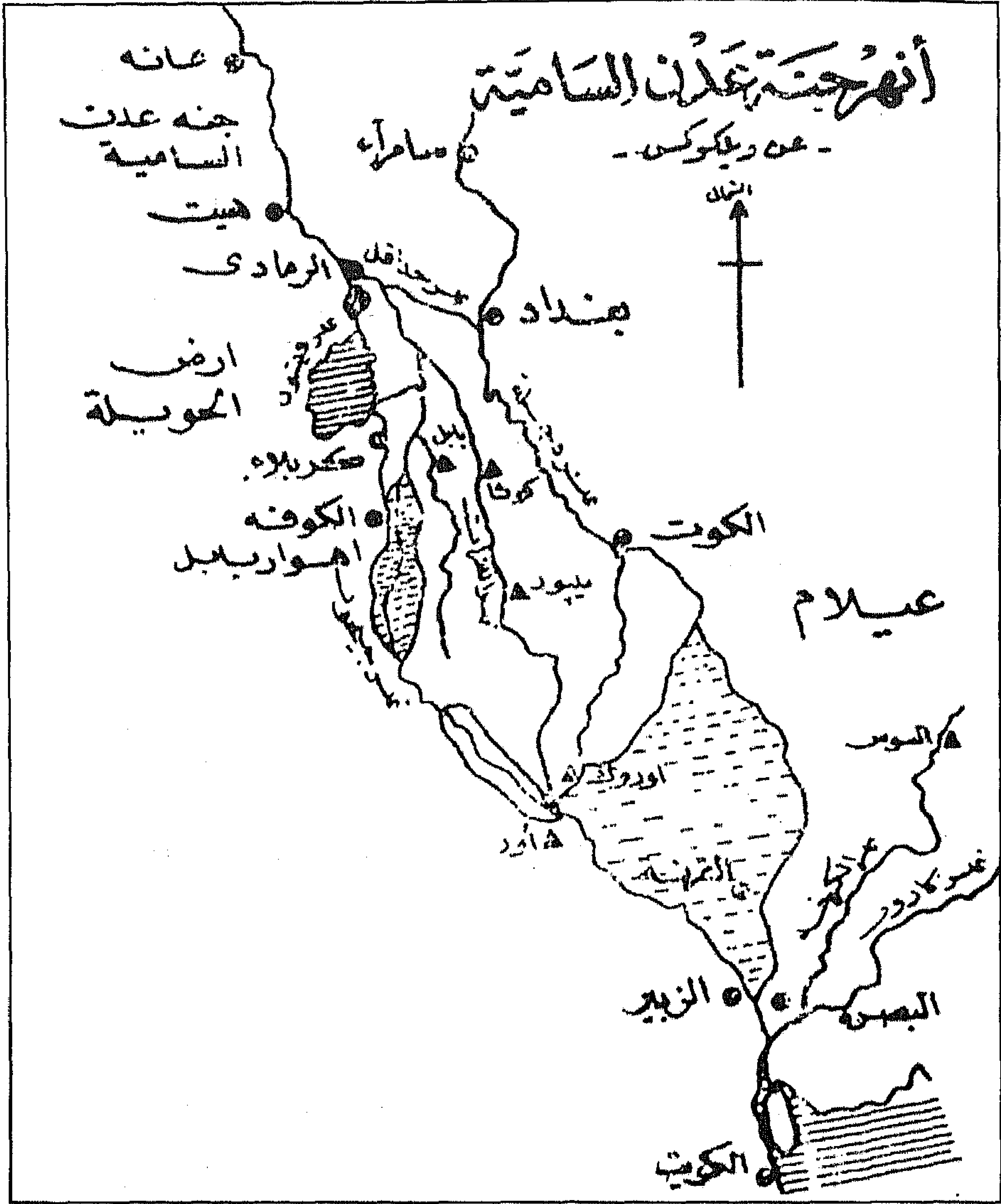
والنبات. فأمر إلٰه الماء السومري العظيم «أنكي» «أوتو» إلٰه الشمس أن يملأها بالمياه العذبة النابعة من الأرض. وهكذا تحوّلت «دلمون» إلى حديقة إلٰهية غنّاء مملوءة بالأثمار والمروج والرياض.

والأرجح في رأينا، أن فكرة الفردوس الإلٰهي كان أول من ابتدعها الساميون العموريون الذين استقرّوا على ضفاف نهر الفرات في جوار عانة وهيت لأن أكثر العلماء الآثاريين متّفقون على أن الساميين كانوا قد نزحوا من الجزيرة العربية إلى ضفاف الفرات في حوالي الألف الرابعة قبل الميلاد، وبذلك يكونون قد سبقوا السومريين في الاستيطان بحوالي ألف عام. وهكذا فقد حدّدوا موقع الجنة بالنسبة إلى مستقرّهم على نهر الفرات في رأس دلتا نهر الفرات حيث تبدأ تفرّعات النهر فوصفت بكونها تقع على نهر الفرات في المكان الذي يتفرّع النهر فيه إلى أربعة فروع، هي فيشون وجيحون وحداقل والفرات، فيمثّل الأول منخفضي الحبانية وأبي دبس، والثاني نهر الهندية الحالي والثالث مجرى الصقلاوية القديم، أما الرابع فهو نهر الفرات أي المجرى القديم المعروف بنهر كوثا[1]. والأرجح أن مدوّني التوراة اقتبسوا هذه القصة من الساميين العموريين الأوائل عن طريق البابليين فأدخلوها في التوراة[2].

أما السومريون فقد اكتفوا بوصف فردوسهم الإلٰهي بالنسبة إلى منطقة الغمر «أبسو» التي تمثّل مياه الأهوار من غير أن يتطرّقوا إلى تفرّغات نهر الفرات لبعدها عنهم شمالاً. ومثل ذلك كان فيما يخصّ قصة آدم وحواء، إذ اتّخذ الساميون شجرة التفاح لتمثّل شجرة الحياة، بينما اتّخذ السومريون النخلة لتمثّل شجرة الحياة لوجودها في بيئتهم. لذلك نرجّح أن يكون السومريون قد أخذوا فكرة القصتين من الساميين الذين سبقوهم في الاستيطان على نهر الفرات فحُوّروها لتتفق مع بيئتهم. إلا أن «كريمر» يخالف هذا الرأي إذ يرى أن اليهود تأثروا بالكنعانيين الذين أخذوا فكرة الفردوس الإلٰهي عن السومريين. وردنا على هذا أن الكنعانيين كانوا بعيدين كل البعد عن المنطقة السومرية. فهو يقول في كتابه «من

(1) انظر أنهر عدن السامية عن ويلكوكس.

(2) (تك، 2: 10 ـ 14).



الرسم رقم (15)

«وكان نهر يخرج من عدن فيسقي الجنة، ومن ثم يتشعّب ليصير أربعة رؤوس. اسم أحدها فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة. حيث الذهب. وذهب تلك الأرض جيد. هنالك المقل وحجر الجزع. واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش. واسم النهر الثالث حداقل. وهو الجاري شرقي آشور والنهر الرابع هو الفرات» (تك، 2: 10 ـ 14).

ألواح سومر»: «لقد ترك الأدب الذي أوجده السومريون أثره العميق في العبرانيين (اليهود) ومن أكثر الأمور المثيرة هو تقصّي أوجه الشبه والمطابقة بين الأفكار والبواعث السومرية والتوراتية. والشيء المؤكد بهذا الصدد أن السومريين ما كان بإمكانهم أن يؤثروا في العبرانيين مباشرة وبدون واسطة لأنهم (أي السومريين) كانوا قد زالوا من الوجود قبل أن يظهر العبرانيون. ولكن لا يوجد أدنى ريب في أن السومريين قد أثروا تأثيراً عميقاً في الكنعانيين الذين سبقوا العبرانيين في استيطان البلاد التي عُرفت بعدئذ باسم (فلسطين)». ويعلّق الأستاذ كريمر على أوجه الشبه بين أسفار التوراة والآداب السومرية فيقول: «فقد أصبح في وسعنا الآن أن ندرك أن هذه المجموعة العظمى من المآثر الأدبية، أي التوراة لم تظهر إلى الوجود وهي كاملة النموّ كالأزهار الاصطناعية النامية في الفراغ، وإنما تمتدّ جذورها امتداداً عميقاً في الماضي البعيد وتنتشر انتشاراً واسع المدى في البلدان المجاورة. فإن أسفار التوراة في صيغتها ومضمونها كليهما ليست بالقليلة الشبه بالآداب التي خلقتها وأوجدتها الحضارات القديمة في الشرق الأدنى»[1].

قصة قابيل وهابيل التوراتية في الملاحم السومرية:

وقد اتّضح من الأساطير السومرية التي عُثر عليها المنقّبون أن قصة قابيل وهابيل الواردة في التوراة والتي تمثّل النزاع بين الفلاح والراعي ترجع جذورها إلى عهد موغل في القدم أيضاً، فمن الأساطير السومرية قصة تدعى «إيميش وأينتين» وهي شبيهة بقصة «قابيل وهابيل» في التوراة وتتلخص الأسطورة بما يأتي: «أراد إله الهواء «إنليل» أن تنمو الأشجار والحبوب وأن تحلّ في البلاد الوفرة والرخاء فخلق لهذه الغاية مخلوقين آخرين هما «إيميش» و«أينتين» ليعنيا بشؤون الزراعة والفلاحة وتربية الحيوان، ويبدو من سياق القصة أن نزاعاً شبّ بين الاثنين أفضى بهما إلى التحكيم، ولكن «إنليل» اختار «أينتين» وجعله فلاح الآلهة. وتتألف هذه القصة من ثلاثمائة سطر أكثر من نصفها كامل لا إبهام فيه.

---

(1) «**الأساطير السومرية**»؛ الترجمة العربية، ص 236 ـ 240.

ومن الأساطير الأخرى التي تمثّل طرفاً في النزاع المستحكم بين البدو والحضر، بين الراعي والفلاح، أسطورة الإله «لَهار» إله الماشية وأخته الإلهة «إنشان» إلهة الحبوب. وهذه القصة تدور مثل القصة الأولى حول أصل النزاع بين قابيل وهابيل، وخلاصتها أن «لهار» و«إنشان» نزلا من السماء وخصص الإلهان «إنليل» إله الهواء و«أنكي» إله المياه، الماشية إلى «لهار» وعيّنا له الخضار والعشب وبنيا لإنشان بيتاً وقدّما لها النير والمحراث، وهكذا يبدو الصفاء بين الأخ الراعي والأخت الفلاحة ويمضيان دون حدوث ما يكدّر تعاونهما وعيشهما. ولكن بعد حين تظهر فكرة الرواية، وهي العداء المستحكم بين الراعي والفلاح أو بين «أهل المدر والوبر»، أي بناة الطين وبناة الشعر أو الحضر والبدو، وذلك عندما شربا الخمرة وثملا، فبدأ الشجار والخصام بينهما في المزارع والحقول. ودار النزاع فيما بينهما بأن أخذ كلّ منهما يمتدح ويعظّم أعماله ونتاجه ويزهد في أعمال الآخر، فاضطر الإلهان، إنليل وأنكي، إلى أن يتدخلا بين الأخت والراعي. أما نتيجة هذا القرار فمفقود.

وهناك أسطورة سومرية ثالثة شبيهة بقصة قابيل وهابيل سمّيت «أنانا تفضّل الفلاح» وهي تمثّل فكرة النزاع بين الفلاح والراعي أيضاً، وأبطال القصة أربعة هم «أنانا» وأخوها «أتو» إله الشمس و«دموزي» (تموز) الإله الراعي، و«أنكيمدو» الإله الفلاح، وخلاصتها أن «أنانا» عزمت على اختيار زوج لها وكان أخوها «أتو» يحثّها على الزواج من «دموزي» (الراعي)، ولكنها كانت تفضّل «أنكيمدو» (الفلاح)، فيأتي إليها «دموزي» ليعرف السبب الذي يجعلها تفضّل الفلاح عليه. إلا أن «أنانا» لم تبد جواباً، ويظهر أن «أنكيمدو» راح يسعى لترضية منافسه الراعي، بيد أن الراعي يأبى الانثناء عن عزمه إلى أن يعده الفلاح بتقديم أنواع من الهدايا لإرضائه. وهنا يتعذّر فهم ما تبقى من كتابة الرقيم، غير أن الظاهر أن «دموزي» الإله الراعي قد تغلّب على «أنكيمدو» الإله الفلاح[1].

---

(1) سومر م5 (1949)، ج2، ص 179 ـ 183، 203 ـ 205.

S.N. Kramer, «**Sumerian Mythology**», pp. 49 ff, 53 ff, and 101 ff.

قصة طوفان نوح في التوراة وفي المدوّنات السومرية والبابلية:

أما قصة طوفان نوح الواردة في التوراة فقد جاءت مشابهة لمدوّنات السومريين والبابليين حيث تتّفق الروايتان على أن طوفاناً هائلاً وقع في وادي الرافدين في أحد مواسم الفيضان الخارقة العادة، وكان هذا الطوفان من الاتساع وشدّة الاندفاع بحيث غمر منطقة دلتا الرافدين كلها وقضى على جميع معالم المدنية والعمران في هذه المنطقة الواسعة، ولم ينج من السكان إلا زعيم ديني وأفراد أسرته والحيوانات التي حملها معه في الفلك التي أوحي إليه من قبل ببنائها.

ومما لا يقبل الجدل والشك هو أن قصص الطوفان الواردة في الروايات السومرية والبابلية تتّفق تماماً مع ما ورد في التوراة فيما يتعلّق بأسباب الطوفان، إنه فساد البشر وعدم إطاعتهم لإرادة الخالق وآثام الإنسان وخطاياه، مع الفارق بين الشرك السومري والبابلي من جهة وبين الوحدانية اليهودية من جهة أخرى. وبذلك تكون قصة الطوفان حادثة واقعية حدثت في الأزمنة القديمة في أحد الفيضانات الخارقة العادة، بدلالة إشارة المدوّنات السومرية إلى وقائع وأحداث يرجع بعضها إلى ما سبق الطوفان وأحداث أخرى جاءت في أعقابه، إلا أن ذلك لا يساعد على تعيين تاريخ هذا الحدّ الفاصل بالضبط. ويلاحظ أن علماء الآثار حدّدوا الألف الثالثة قبل الميلاد تحديداً عرفياً كحد فاصل بين أحداث ما قبل الطوفان (طوفان نوح) وبين أحداث ما بعده. وللألف الثالثة هذه التي تتّفق وعهد أول فرعون من السلالة المصرية الأولى دلالة انتقالية مهمة في تطور تاريخ العراق القديم، حيث أصبح هذا التاريخ في عرف علماء الآثار حداً فاصلاً يرمز إلى الانتقال من حضارة العصور الحجرية إلى مدنية العصور التاريخية التي تبدأ بفجر السلالات السومرية[1].

أما الطوفان فلا يمكن أن يكون قد حدث في غير المنطقة الممتدة بين

---

(1) راجع الدكتور أحمد سوسة، «**فيضانات بغداد في التاريخ**»، ج 1، ص 149 ـ 201.

«سيبار»[1] في الشمال وبين «أور»[2] في الجنوب حيث مواطن الأكديين الساميين والسومريين على السواء وهي المنطقة المنبسطة التي تتأثر بمياه الفيضان، والراجح أن فلك نوح صنعت من نفس المواد المحلية التي تصنع منها العسبية الحالية في هيت وطلي كلا وجهيها الداخلي والخارجي بالقار على النحو الذي تطلى به (القفة) والعسبية[3]. ويقول أولبرايت: «لقد أصبح مؤكداً الآن أن القصص العبرية المتعلقة بالخليقة والطوفان والجنة الخ. . إما أن تكون مأخوذة من السومريين مباشرة أو مأخوذة عن طريق الأكديين والعموريين»[4].

ويرى العالم الآثاري إدوارد كييرا أن قصة الطوفان مأخوذة من الأدب البابلي والأدب الآشوري، فيقول في كتابه «كتبوا على الطين»[5]: «إن قصة الطوفان انبعثت من الأدب البابلي والأدب الآشوري وإنها تشبه حقاً قصة الطوفان التي وردت في التوراة. وفي قصة الطوفان البابلية والآشورية نجد الفلك المطلي بالقير، وهو نفسه الذي ورد ذكره في التوراة، كذلك ورد ذكر

---

(1) «سيبار» إحدى المدن الأكدية السامية تقع بقاياها اليوم في التل المسمى «تل أبو حبة» الواقع جنوب غربي بلدة المحمودية الحالية على نحو عشرين ميلاً من بغداد. وقد أظهرت التنقيبات فيها أنها ذات تاريخ قديم جداً وقد ورد ذكرها بين المدن التي وجدت قبل الطوفان. كانت تقع على الضفة الشرقية من مجرى نهر الفرات القديم قبل أن يبدل مجراه. وقد كشف فيها على عدد كبير من الألواح بين سنة 1878 وسنة 1891 فقدر عدد الألواح التي استخرجت منها بـ 130000 لوح كان بعضها داخل حباب من الفخار كالحباب المستعملة للماء.

(2) «أور» ـ المدينة السومرية الشهيرة وتُعرف أطلالها اليوم باسم «تل المقير» تقع على مسافة 16 كيلومتراً جنوب غرب مدينة الناصرية الحالية. اكتشفت فيها آثار ثمينة وكنوز أثرية عظيمة عن حياة سكان وادي الرافدين في فجر التاريخ منها المقبرة الملكية المشهورة والجدار المقدس الذي أنشأه نبوخذ نصّر والهيكل المسمى «أي ـ جيش ـ سركال» أي دار النور وزقورته وموقع الإله القمر «ننار». الجدار الذي شيّده «أورنمو» (2051 ـ 2034 ق.م.).

(3) انظر البحث حول العسبية والفقه في كتاب المؤلف «**الري والحضارة في وادي الرافدين**»، ص116 ـ 118.

(4) أولبرايت، «**الشعب اليهودي قديماً وحديثاً**»، ج 1، ص 29.

(5) إدوار كييرا، «**كتبوا على الطين**»، الترجمة العربية، ص 151.

رجل معين مع أسرته حذّرته الآلهة بقرب حدوث فيضان وانهمار مطر غزير يغرق الأرض ويميت الناس، ثم ترسو السفينة على جبل ويرسل هذا الرجل ثلاثة طيور ثم يخرج المنقذ من السفينة ويقدم القرابين. إن أوجه الشبه بين القصتين أمر يدعو إلى الدهشة ويجعل كل شخص يوافق على أن القصتين أصلهما واحد. ومن الطبيعي أن تكون بينهما بعض الفروق، فالقصة البابلية تعكس أساساً من الشرك فيه كثير من الآلهة التي تقوم بأدوارها . . . ولا يمكننا تخيل يهوه في ذلك الدور. وفي القصة البابلية شاعرية، مع أنها تمثّل الشرك، أما قصة التوراة فتعوزها تلك المسحة الشعرية»[1].

قصة يوسف مع امرأة سيده ومثيلتها في النصوص القديمة:

وقد عُثر في مصر على نصوص لأسطورة فرعونية قديمة تُسمّى قصة الأخوين تشبه من أوجه عديدة قصة يوسف مع امرأة سيده فوطيفار المصري، وهذه مكتوبة على ورقة من البردي نشرتها مجلة كل شيء والدنيا المصرية[2]، وخلاصتها أنه كان لأنوبيس امرأة حسناء راودت أخاه «باتا» ولكن باتا هذا أبى أن يذعن لإرادتها حتى إذا ما رجع إليها زوجها من حقله قالت له: «إن أخاك الأصغر دعاني لمضاجعته وتمنّعت عليه فلم أعد أطيق رؤيته. . هلّا يستحق منك القتل؟ ولما بلغ (باتا) أن أخاه يبغي قتله لاذ بالفرار واستنجد بالآلهة لتبين الظالم من المظلوم. وبعد روايات كثيرة لا تتصل بالموضوع خلف «باتا» فرعون وصار ملك مصر العظيم ودخل في مصاف الآلهة[3].

قصة ولادة موسى ومثيلتها في النصوص البابلية:

وهناك أسطورة بابلية مكتوبة بالخط المسماري عُثر عليها في المنطقة الأكدية في جنوب العراق وهي تشبه قصة ولادة موسى ونشأته، والأسطورة

---

(1) Jastrow, «**Religion of Babylonai and Assyria**», p. 502; Pritchard, «**The Ancient Near East**», p. 69.

(2) «العدد 546» الصادر بتاريخ 22 أبريل/نيسان 1936.

(3) G.A. Barton, «**Archaeology and the Bible**», pp. 326-328; also, «**Petrie's Egyptian Tales**», 2nd series, pp. 36ff.

منقولة عمّا رواه سرجون الأول ملك الأكديين (2381 ـ 2316 ق.م.) عن نفسه من أن أمه كانت إحدى عذارى الهيكل ولا يُعرف أباه فحملت به ووضعته سراً، فخبأته في صندوق من البردي وأحكمت بابه بالقير وألقته في نهر الفرات. فعثر عليه «أكي» الفلاح فرباه ليكون ابنه، ثم صار سرجون اللقيط بستانياً فساقياً لحاكم كيش وقد عشقته الإلهة عشتار فصار ملك سومر وأكد[1].

وقد تناول فرويد بحث أسطورة انتشال البطل من الماء بقوله: «إن أقدم من نعرفه من الأشخاص الذين ارتبطت بهم خرافة الولادة هذه هو سرجون الأكدي، مؤسس بابل حوالي عام 2800 ق.م. وآلف الأسماء إلينا في السلسلة التي تبدأ مع سرجون الأكدي أسماء موسى وقورش ورومولوس بيد أن رانك أمكنه في البحث الذي نشره بعنوان «أسطورة ميلاد البطل» أن يجمع عدداً كبيراً من وجوه الأبطال الذين تتردّد أسماؤهم في الأشعار أو في الأساطير والذين عاشوا طفولة مشابهة كلياً أو جزئياً.. ووضع الطفل في سلة تمثيل رمزي صريح للولادة، إذ ترمز السلة إلى بطن الأم، والماء إلى السائل السابيائي. والعلاقات بين الوالدين والأطفال تمثّل، في عدد لا يحصى من الأحلام، في فعل الانتشال من الماء أو الإنقاذ من الماء... إن أصل هذه الأسطورة يهودي، فالخرافة خلقت من قبل الشعب اليهودي، أي ربطت، في صيغتها المعروفة، بشخص زعيم هذا الشعب.. وهنا بالتحديد تتيح لنا وجهة نظرنا الإقرار بأن الأسرة الأولى، الأسرة التي هجرت الطفل، وهي بكل تأكيد خيالية، وبأن الأسرة الثانية، الأسرة التي تولّت تربية الطفل، هي الحقيقة»[2].

---

(1) هذا ما جاء في كتاب سيتون لويد «**الرافدين**» (الترجمة العربية، ص 51 ـ 52) غير أن الأستاذ طه باقر قد أثار في تعليقه على ذلك أن النصّ الوارد في كتاب سيتون لويد «يمثّل رأياً قديماً وأن البحث الحديث يرى أن أم سرجون كانت كاهنة عليا من صنف الكاهنات المحرم عليهن الزواج أو على الأقل إنجاب الأطفال».

(2) فرويد، «**موسى والتوحيد**»، الترجمة العربية، ص 16 ـ 24.

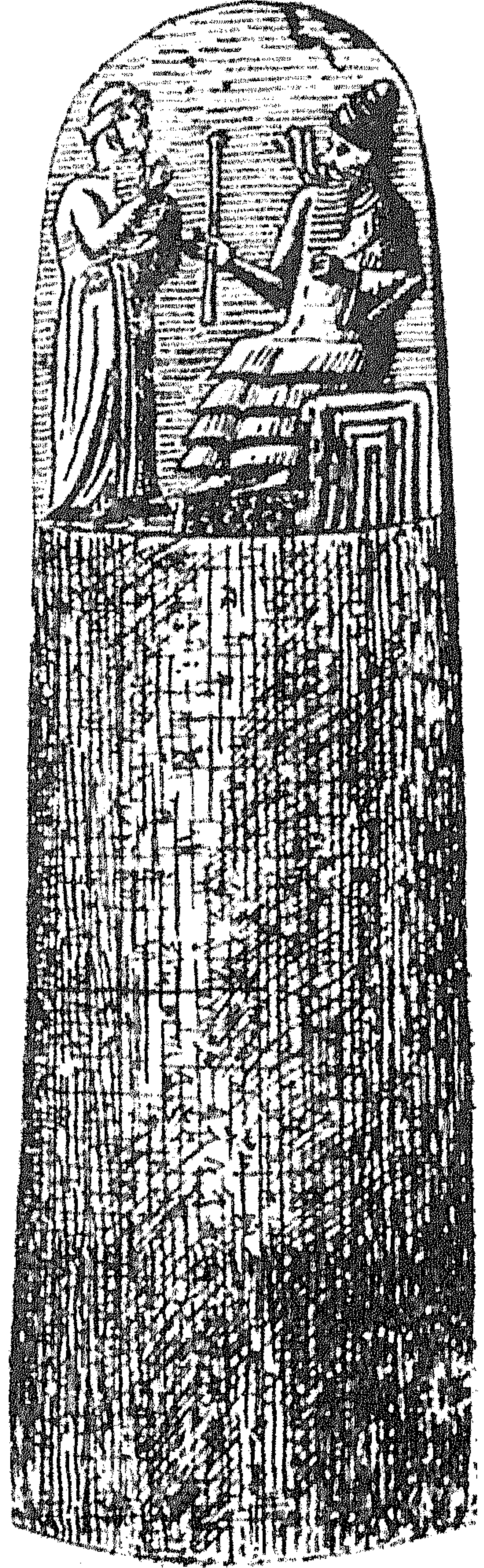
شريعة حمورابي وشريعة التوراة:

تستقي الشرائع أحكامها عادة من البيئة الجغرافية ومن ظروف المجتمع السياسية والدينية والمعاشية بحيث تنسجم مع نمط حياة السكان ومشاكلهم، ولا بدَّ من أن تتأثر هذه الشرائع بعض الشيء بالشرائع التي سبقتها في مختلف المجتمعات وفي التقاليد المرعية وفي العرف المحلي في مجرى تطورها ونموّها. ولا أدل على ذلك مما هو واضح في الشريعتين شريعة حمورابي[1] وشريعة التوراة[2]. فهناك تشابه كلّي في بعض مواد الشريعتين في حين أن هناك مواد أخرى تختلف في أحكامها بين الاثنين ومواد أخرى موجودة في الواحدة دون الأخرى. وهذا الاختلاف ناجم كما ذكرنا عن اختلاف البيئة واختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والدينية والمعاشية في كل من البلدين

---

(1) إن شريعة حمورابي ترجع إلى عهد صاحبها حمورابي سادس ملوك سلالة بابل الأولى الذي حكم في بابل في الحقبة الممتدة بين سنة 1792 وسنة 1750 ق.م. وهو القائل: «إن الآلهة قد نادتني لأمنع الأقوياء من أن يظلموا الضعفاء ولأنشر العدل والنور في الأرض وأرعى مصالح الخلق». وقد دوّنت شريعته المكوّنة من ثلاثة آلاف سطر باللغة البابلية (السامية) وبالخط المسماري الأكدي على مسلة كبيرة من حجر الديورانت الأسود. وقد نصب حمورابي هذه المسلة في فناء معبد «إيزاكيلا» معبد الإله «مردوخ» الإله الرسمي للدولة البابلية ونصب مثلها في معبد الإله «شماش» في مدينة سيبار، الإله الرئيسي للمدينة. ويظهر حمورابي في هذه المسلة وهو يتسلّم بخشوع عصا الراعي ليكون راعي البشر وشريط القياس للبناء من الإله «شماش» وهو جالس على عرشه، وقد ارتدى حمورابي رداء الكهنة والعمامة وهو لباس الرأس عند الساميين الغربيين. وقد صنّفت الشريعة إلى اثني عشر قسماً يظهر فيها 282 مادة بوضوح، ومن المرجّح أنها كانت تزيد على ثلاثمائة مادة بقليل. وقد عُثر على هذه المسلة في السوس من خوزستان، أي البلاد العيلامية قديماً وكان قد نقلها إلى مدينة السوس الملك العيلامي «شتروك ناحونتي» الذي غزا بابل حوالي سنة 1171 ق.م. وقد نقلها الآثاريون الفرنسيون سنة 1902 إلى دار التحف الأثرية في اللوفر (انظر «قوانين حمورابي والقوانين البابلية الأخيرة»، ترجمة وتعليق الدكتور محمود الأمين في **مجلة كلية الآداب**، العدد 3 (كانون الثاني، 1961) ص176 ـ 260).

(2) لقد تعمّدنا هنا اتخاذ مصطلح شريعة التوراة بدلاً من شريعة موسى لأن عزو كل ما جاء في شريعة التوراة إلى موسى أمر مشكوك فيه للأسباب التي سبق أن أوضحناها في كيفية تدوين التوراة.



اللذين وضعت فيهما الشريعتان، غير أنه لا بدَّ من الاعتراف بأن المتشابه بين الشريعتين لا بدَّ أن يكون معظمه مقتبساً من أقدمهما، أي إن المتشابه الوارد في التوراة يكون مقتبساً من شريعة حمورابي التي سبقت شريعة التوراة بأكثر من خمسمائة عام، هذا إذا أخذنا بالتاريخ الذي ظهر فيه موسى في زمن الخروج بغضّ النظر عن التاريخ الذي دوّنت فيه التوراة في وقت لاحق أي بعد تدوين شريعة حمورابي بثلاثمائة وألف عام.

إن تأثير الاختلاف بين بيئة كل من البلدين اللذين وضعت فيهما الشريعتان ظاهرة في موادهما، فنجد مثلاً أن شريعة التوراة تفرّق بين الإسرائيلي وغير الإسرائيلي بوجه عام في أحكامها وأنها خاصة ببني إسرائيل حصراً، ويكون العبيد في حكم التوراة من غير بني إسرائيل[1] هذا في حين أن الأحكام البابلية تفرق بين

الصورة رقم (77)
مسلة حمورابي
ويظهر فيها حمورابي وهو يتسلم عصا الراعي ليكون راعي البشر ومعه شريط القياس للبناء من الإله شماس وهو جالس على عرشه.

(1) (لا، 25: 29 ـ 46)؛ راجع أيضاً (خر، 21: 2 ـ 10، 20، 26، 27)؛ (تث، 15: 12 ـ 18).

طبقات الشعب في فرض عقوباتها، فالعقوبة على الشريف تختلف عن العقوبة التي تُفرض على غيره من طبقات الشعب الأخرى ومنهم الأرقاء. ففي الشريعة البابلية مثلاً إذا صفع سيد خدَّ فرد فتقطع أذنه، أما إذا شخص اعتيادي صفع شخصاً اعتيادياً آخر على خده فعليه أن يدفع له عشر شاقلات[1] من الفضة[2]. كذلك إذا فقأ شخص عين ابن أحد الأشراف فعليهم أن يفقأوا عينه، أما إذا فقأ عين سيد اعتيادي فعليه أن يدفع مناً[3] من الفضة[4]. هذا وقد تناولت شريعة حمورابي بشيء من التفصيل القضايا المتعلّقة بشؤون الري وزراعة الحقول وبساتين النخيل، وفرضت عقوبات لتنظيم العلاقات بين المزارعين، كما أنها قد تناولت في كثير من موادها القضايا الناجمة عن علاقة الملاك بالفلاح، في حين أن مثل هذه المواد لم ترد في التوراة لأن كل مزارع من مزارعي بني إسرائيل كان يفلح أرضه، والزراعة في فلسطين تعتمد على الأمطار وأكثر بساتينها الكروم والزيتون. وهناك مواد تتعلّق بالأسعار وتعيين أجور الأعمال ومواد أخرى تتعلّق بالسفن وبخزن الحبوب وبالشؤون التجارية وردت في الشريعة البابلية وهي غير موجودة في شريعة التوراة، ذلك ما يدلّ على أن مستوى حياة المجتمع البابلي ونظمه الحضارية كانت أرقى من مستوى المجتمع اليهودي بالرغم من أن اليهود ظهروا بعد زمن حمورابي بأكثر من خمسمائة عام. ويلاحظ أن التلمود الذي وضع في بابل تناول الكثير من القضايا المتعلقة بالأراضي وإنشاء الجداول وصيانة السداد لصدّ الفيضان ومعالجة القضايا المتعلّقة بشؤون الزراعة المرتكزة على الري أكثرها مقتبس من أنظمة الحياة البابلية بعد أن أخذ اليهود يمارسون الزراعة على الري في بابل بعد السبي.

ولدينا من الدلائل على أن مدوّني التوراة كانوا مطّلعين على الشرائع

---

(1) الشاقل نوع من الوزن البابلي يزن 8 غرامات أو 180 حبة.
(2) المادتان 204 و205 .
(3) المنا نوع من الوزن البابلي يزن 500 غرام ويعادل ستين شاقلاً.
(4) المادتان 196 و198.

المختلفة التي وضعها المصريون في مصر والسومريون والبابليون والآشوريون في العراق والحثيون في فلسطين وخاصة شريعة حمورابي التي اقتبسوا منها المواد المتشابهة بين الشريعتين، الشريعة البابلية والشريعة التوراتية. وفيما يلي مقارنات بين أوجه الشبه بينهما.

أ ـ حكم العين بالعين والسن بالسن:

يعتبر أكثر الباحثين التقليد القديم الذي ينطوي على «حكم: العين بالعين، والسن بالسن» القاعدة الأساسية التي تقوم عليها الشريعة البابلية وهم يردونه إلى حمورابي واضعه الأول.

فحسب شريعة حمورابي «إذا فقأ سيد عين أحد الأشراف فعليهم أن يفقأوا عين ذلك السيد»[1] و«إذا كسر سيد عظم سيد آخر فعليهم أن يكسروا عظمه»[2]. و«إذا قلع سيد سن سيد من طبقته فعليهم أن يقلعوا سنّه»[3]. و«إذا بنى بنّاء لسيد بيتاً ولم يكن شغله متيناً بحيث انهار ذلك البيت الذي بناه وقتل صاحب البيت فيجب قتل ذلك البنّاء»[4] و«إن قتل ابن صاحب البيت فعليهم أن يقتلوا ابن ذلك البنّاء»[5].

وقد أخذت التوراة بهذا المبدأ نصاً ومعنى وطبقته في أماكن متعدّدة من شريعتها، فحسب شريعة التوراة «وإن حصلت أذية تعطى نفساً بنفس، وعيناً بعين، وسناً بسن، ورجلاً برجل، وكيَّاً بكيّ، وجرحاً بجرح، ورضّاً برض»[6]. و«إذا أمات أحد إنساناً فإنه يقتل، ومن أمات بهيمة يعوّض عنها نفساً بنفس، وإن أحدث إنسان في قريبه عيباً فكما فعل يُفعل به، كسر بكسر، وعين بعين، وسن بسن، كما أحدث عيباً في الإنسان كذلك يحدث فيه، من

---

(1) المادة 196.
(2) المادة 197.
(3) المادة 200.
(4) المادة 229.
(5) المادة 230.
(6) (خر، 21: 23 ـ 25).

قتل بهيمة يعوّض عنها ومن قتل إنساناً يقتل»[1]. و«لا تشفق عينك، نفس بنفس، عين بعين، سن بسن، يد بيد، رجل برجل»[2].

ب ـ تهريب الرقيق وسرقة الإنسان لبيعه:

أجازت الشريعتان البابلية والتوراتية الرق فكان لا بدّ لهما من معالجة هذه الظاهرة الاجتماعية.

فشريعة حمورابي تعالج مسألة الرق بوصفها تشكّل ظاهرة اجتماعية لها خطورتها ودورها الهام في المجتمع البابلي الزراعي وقامت على هذا الأساس بتحديد حقوق الرقيق وحدوده وواجباته[3] من وجهة إنسانية فلا يكون هناك رق أبدي ولكنها في الوقت نفسه حكمت على «كل من احتفظ في بيته برقيق هارب أو ساعد رقيقاً هارباً أو أمة هاربة» بعقوبة الإعدام[4].

وقد أخذت التوراة بهذا المبدأ «فمن سرق إنساناً وباعه أو وجد في يده يقتل قتلاً»[5]. ولكنها حصرته في بني إسرائيل (بمعنى اليهود) «إذا سرق أحد نفساً من إخوته بني إسرائيل واسترقّه وباعه أو وجد في يده يقتل قتلاً»[6]. فهي لا تعالج مسألة من حيث إنها تشكّل ظاهرة اجتماعية وإنما من وجهة عنصرية بحتة ومن حيث علاقتها ببني إسرائيل فليس هناك رق أبدي للعبد الإسرائيلي أما العبد من غير بني إسرائيل فقد حوّلته إلى متاع يتوارثه الخلف عن السلف[7] ومن جهة أخرى فإنها تشجع على تهريب الرقيق من عند غير الإسرائيلي «عبداً آبق إليك من مولاه لا تسلّم إلى مولاه، عندك يقيم في وسطك في المكان الذي يختاره في أبوابك حيث يطيب له. لا تظلمه»[8].

---

(1) (لا، 24: 17 ـ 21).

(2) (تث، 19: 21).

(3) المواد 278 ـ 282.

(4) المواد 14 ـ 20.

(5) (خر، 21: 16).

(6) (تث، 24: 7).

(7) (لا، 25: 39 ـ 55).

(8) (تث، 23: 15 ـ 16).

ج ـ انتهاك حرمة الأبوين:

كلتا الشريعتين، شريعة حمورابي وشريعة التوراة، توجبان إكرام الوالدين «أكرم أباك وأمك»[1] واحترامهما، وتنهيان عن العقوق والتطاول عليهما أو على أحدهما، وتعاقبان الابن الذي يرتكب مثل هذه العصية، ولكنهما تتخالفان في درجة عقوبتها وشدّتها. فبينما نجد شريعة حمورابي تقضي بقطع يد الابن الذي يضرب أباه أو أمه[2] نجد شريعة التوراة تشدّد العقوبة إلى حدّ القتل «من ضرب أباه أو أمّه يقتل قتلاً. . كل إنسان سبّ أباه أو أمه فإنه يقتل. قد سبَّ أباه أو أمه. دمه عليه»[3]. وكذلك تشدّد عقوبة الابن المعاند أو المارد إلى درجة الموت بواسطة الرجم «إذا كان لرجل ابن معاند ومارد لا يسمع لقول أبيه ولا لقول أمه ويؤدبانه فلا يسمع لهما يمسكه أبوه وأمه ويأتيان به إلى شيوخ مدينته وإلى باب مكانه. ويقولان لشيوخ مدينته ابننا هذا معاند ومارد لا يسمع لقولنا وهو مسرف سكّير. فيرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت»[4].

د ـ الزنى والاغتصاب:

الشريعتان كلتاهما تحاربان الفحشاء «لا تتزوج بغياً. إنها لا تنتشلك من ورطتك. ففي خصامك تتبذّأ عليك. إذ ليس لها حياء ولا طاعة. وعليك، إن هي استولت على البيت، أن تسرّحها. إن فكرها مع الغريب. البيت الذي تدخله تخربه. وزوجها لا يتوفق»[5]. وتنهيان عن الزنى «لا تزن»[6] و«لا تشته امرأة قريبك»[7]. وهما تتشابهان في أحكامهما في هذا الباب إلى درجة يصعب

---

(1) (خر، 19: 12)، راجع أيضاً (لا، 19: 3)؛ (مت، 15: 4)؛ (أف، 6: 3).

(2) المادة 165.

(3) (خر، 21: 15 و17)، راجع أيضاً (تث، 20: 9).

(4) (تث، 21: 18 ـ 21).

(5) من الأدب البابلي راجع لطفي الخوري والدكتور محمود الأمين، «**رسائل الآباء إلى الأولاد**»، مكتبة النهضة، بغداد، 1963، الرسالة الأولى سطر 30 ـ 39 راجع نفس الرسالة باللغة الإنكليزية في: Pritchard, «**Ancient Near Eastern Tets**», p. 436.

(6) (خر، 20: 14)، راجع أيضاً (لا، 20: 1)؛ (مت، 19: 18).

(7) (خر، 20: 17).

معها التفريق في أيهما الأصل وأيهما الفرع لولا أن شريعة حمورابي هي الأقدم وبذلك تكون الأصل وشريعة التوراة هي الأحدث وبذلك تصبح الفرع. وحكمهما في هذا الباب على اختلاف أشكالهما هو الموت إما بالقتل أو الحرق أو الرجم أو الإلقاء في الماء (بمعنى الإغراق في النهر) وفي بعض الأحيان بالطرد (أي النفي).

فحسب شريعة حمورابي «إذا قبض على امرأة سيد مضطجعة مع سيد آخر، فيجب عليهم أن يوثقوهما ويلقوهما في الماء (بمعنى النهر) ويمكن لزوج المرأة أن يبقي زوجه على قيد الحياة كما يمكن للملك أن يخلي أمته»[1]. و«إذا اختار سيد عروساً لابنه ودخل ابنه عليها ولكن بعدئذ ينام هو في حجرها ويقبضون عليه فعليهم أن يوثقوا ذلك الرجل وأن يلقوا به في الماء (النهر)»[2]. و«إذا قبض على سيد مضطجعاً في حجر زوج أبيه (زوجة الأب) التي ولدت أولاداً فيجب طرده من بيت أبيه»[3]. و«إذا نام سيد في حجر أمه بعد والده (أي بعد وفاة والده) فعليهم أن يحرقوهما كليهما»[4] و«إذا جامع رجل ابنته فعليهم أن يطردوا (أن ينفوا) ذلك السيد من المدينة»[5].

أما حسب شريعة التوراة «إذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل يقتل الاثنان الرجل المضجع مع المرأة والمرأة»[6]. و«إذا اضطجع رجل مع كنته فإنهما يقتلان كلاهما[7]. قد فعلا فاحشة[8]. دمهما عليهما»[9] ولا توجد عقوبة محدّدة لمن كشف عورة أمّه أما «إذا اتّخذ رجل امرأة وأمها فقد ارتكب

---

(1) المادة 129.
(2) المادة 155.
(3) المادة 158.
(4) المادة 157.
(5) المادة 154.
(6) (تث، 22: 22).
(7) (لا، 18: 15).
(8) (لا، 20: 12).
(9) (لا، 18: 7).

رذيلة. بالنار تحرقونه وإياهما»[1] و«لا تدنس ابنتك بتعريضها للزنى»[2] ولا عقوبة محدودة في التوراة لمن زنى مع ابنته.

وتتخالف الشريعتان في كون الشريعة البابلية قد نظمت شؤون العائلة وحدّدت حقوق أفرادها وواجباتها وعلاقاتهم فيما بينهم[3] بينما لا نجد في التوراة أية إشارة إلى مثل هذه الظاهرة الاجتماعية الحضارية المتقدّمة.

وهما تتخالفان أيضاً من حيث كون شريعة حمورابي لم تعالج مسألة اللواط ومضاجعة البهائم والوقوف أمامها لنزائها وقد انفردت شريعة التوراة بهذه المسألة «لا تضاجع ذكراً مضاجعة امرأة. إنه رجس»[4] فـ «إذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعلا كلاهما رجساً. إنهما يقتلان. ودمهما عليهما»[5]. و«لا تجعل مع بهيمة مضجعك فتتنجس بها ولا تقف امرأة أمام بهيمة لنزائها. إنه فاحشة»[6] فـ «إذا جعل رجل مضطجعه مع بهيمة فإنه يقتل والبهيمة تميتونها. وإذا اقتربت امرأة إلى بهيمة لنزائها تميت المرأة والبهيمة. إنهما يقتلان. دمهما عليهما»[7].

فهذا التخالف بين الشريعتين إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على مدى التقدّم الحضاري في المجتمع البابلي على قدمه والتردّي والبدائية في المجتمع اليهودي على حداثته.

هـ ـ السرقة والنهب:

السرقة محظورة في كلتا الشريعتين «لا تجعل نفسك تغويك لارتكاب سرقة ما»[8]. حسب الآداب البابلية و«لا تسرق» حسب شريعة التوراة وهما

---

(1) (لا، 20: 14).
(2) (لا، 19: 31).
(3) المواد 127 ـ 195.
(4) (لا، 18: 22).
(5) (لا، 20: 12).
(6) (لا، 18: 22 ـ 23).
(7) (لا 20: 15 ـ 16)
(8) راجع ص445 الهامش رقم (6).

تقومان على مبدأ التعويض وقد تصل شريعة حمورابي في بعض أحكامها إلى حدّ القتل أو قطع اليد أما شريعة التوراة فلا تصل إلى مثل هذه الحدود في أحكامها.

فحسب شريعة حمورابي «إذا سرق شخص ثوراً أو شاة أو حماراً أو خنزيراً أو قارباً يعود للإله أو القصر فإنه يعوضه بثلاثين مثلاً. أما إذا كان المسروق يعود إلى مسكين فإنه يعوّضه بعشرة أمثال[1]. وإن لم يكن لديه التعويض الكافي فإنه يقتل بجنايته»[2] و«إذا قام سيّد بالسرقة وقبض عليه أثناءها فإنه يقتل»[3] وكذلك «إذا سرق سيّد ثروة تعود للإله أو القصر فإنه يعدم. وكذلك يعدم من يتقبل السروقات من يده»[4] وتخفّف عقوبة القتل إذا كان المسروق زرعاً أو أكلاً «إذا استأجر سيّد سيداً وعيّنه على حقله وسلّمه الأكل والبقر وتعهّد بزرع الحقل. فإذا سرق هذا السيد الزرع والأكل ومسكت في يده فإن يده تقطع»[5].

أما حسب شريعة التوراة «إذا سرق إنسان ثوراً أو شاة فذبحه أو باعه يعوّض عن الثور بخمسة ثيران وعن الشاة بأربعة من الغنم. إن وجد السارق وهو ينقب فضرب ومات فليس له دم. ولكن إذا أشرقت عليه الشمس فله دم. إنه يعوّض وإن لم يكن له بيع بسرقته. إن وجدت السرقة في يده حية ثوراً كانت أم حماراً أم شاة يعوّض باثنين»[6].

ولا يقتصر الخلاف بين الشريعتين، شريعة حمورابي وشريعة التوراة، على الخلاف في شدة أحكامها وإنما من حيث الشكل والمضمون فشريعة حمورابي هي شريعة مدنية تتحلّى بروحية من التشريع تعادل أرقى ما نجده في

---

(1) (خر، 20: 15)؛ راجع أيضاً (خر، 21: 16)؛ (لا، 19: 11)؛ (مت، 19: 18).
(2) المادة 2 من **شريعة حمورابي**.
(3) المادة 22 من **شريعة حمورابي**.
(4) المادة 6 من **شريعة حمورابي**. راجع أيضاً المواد 8، 9، 10، 11، 21 و25.
(5) المادة 253 من **شريعة حمورابي**.
(6) (خر، 22: 1 ـ 4).

شرائع اليوم بينما تبقى شريعة التوراة شريعة كهنوتية تزجّ بالرب والكهنة في حل قضايا مدنية. «إذا أعطى إنسان صاحبه فضة أو أمتعة للحفظ فسرقت من بيت الإنسان فإذا وجد السارق يعوّض باثنين وإن لم يوجد السارق يقدم صاحب البيت دعواه إلى الله ليحكم هل مدّ يده إلى ملك صاحبه. في كل دعوى جناية من جهة ثور أو حمار أو شاة أو ثوب أو مفقود ما يقال إن هذا هو. تقدّم إلى الله دعواهما. فالذي يحكم الله بذنبه يعوّض صاحبه باثنين»[1] و«إذا أخطأ أحد وخان خيانة بالرب وجحد صاحبه وديعة أو أمانة أو مسلوباً أو اغتصب صاحبه. أو وجد لقطة وجحدها وحلف كاذباً على شيء مما يفعله الإنسان مخطئاً به. فإذا أخطأ يرد المسلوب الذي سلبه أو المغتصب الذي اغتصبه أو الوديعة التي أودعت عنده أو اللقطة التي وجدها. أو كل ما حلف عليه يعوّضه برأسه ويزيد عليه خمسه إلى الذي هو له. يدفعه له يوم ذبيحة إثمه. ويأتي إلى الرب بذبيحة لإثمه كبشاً صحيحاً من الغنم بتقويمك ذبيحة إثم إلى الكاهن. فيكفر الكاهن عنه أمام الرب. فيصفح عنه في الشيء الذي فعله مذنباً به»[2]. والمذنب يقدم ذبيحة إثم كبشاً صحيحاً من الغنم والكاهن يحصل على أطايب الذبيحة فيكفر عنه والرب مجبر على الصفح وتنتهي القصة بلا غالب ولا مغلوب.

و ـ اتهام امرأة أو فتاة بالفحشاء بغير إثبات:

إن التشابه في العقوبة التي تفرضها كل من الشريعتين في هذا الباب واضح وجلي فحسب شريعة حمورابي «إذا ما نسب شخص إلى امرأة الفحشاء ولكنه لم يستطع إثبات ذلك فيجب عليهم جلب ذلك الرجل أمام القضاة الذين يعلمون جبينه قصاً»[3] أما شريعة التوراة فإنها تترك إلى شيوخ مدينته أمر تأديبه وتغريمه بمقدار من الفضة[4].

---

(1) (خر، 22: 7 ـ 9).
(2) (لا، 5: 4 ـ 7).
(3) المادة 127.
(4) (تث، 22: 13 ـ 19).

ز ـ الاتهام الكاذب والشهادة الكاذبة:

لقد نهت الآداب العامة عند البابليين عن قول ما ليس للإنسان به علم بل وحتى عن إعطاء النصيحة الكاذبة «لا تقل ما ليس لك به علم ولا تعط نصيحة كاذبة»[1]. وجعلت من مخالفها خارجاً على القانون فجاءت شريعة حمورابي لتفرض عقوبات صارمة بحق كل من يتّهم الغير كذباً «إذا ما اتهم سيد سيداً وأقام عليه دعوى بالقتل ولكن لم يستطع إثباتها فإن ذلك السيد يُعدم»[2]. وكذلك يعدم من يدلي بشهادة كاذبة «إذا أدلى سيد بشهادة كاذبة في دعوى ما ولم تثبت صحتها فإن كانت تلك الدعوى تتعلّق بحياة فإن ذلك السيد يُعدم»[3].

وكذلك نهت التوراة في أماكن متفرّقة وعديدة عن شهادة الزور وقول الكذب واعتبرته من صلب شريعتها «لا تشهد على قريبك شهادة زور»[4]. و«لا تقبل خبراً كاذباً. ولا تضع يدك مع المنافق لتكون شاهد ظلم»[5]. و«ابتعد عن كلام الكذب»[6]. وقد أخذت في أحكامها على كل من يخرج على هذه التقاليد بمبدأ «السن بالسن، والعين بالعين. . .» فـ «إذا قام شاهد زور على إنسان ليشهد عليه بزيغ يقف الرجلان اللذان بينهما الخصومة أمام الكهنة والقضاة الذين يكونون في تلك الأيام. فإذا فحص القضاة جيداً وإذا الشاهد شاهد كاذب قد شهد بالكذب على أخيه فافعلوا به كما نوى أن يفعل بأخيه. . . لا تشفق عينك، نفس بنفس، عين بعين، سنّ بسن، يد بيد، رجل برجل»[7]. وهي لم تعالج مسألة الاتهام الكاذب ولكن يبقى بالإمكان الأخذ بهذا المبدأ نفسه قياساً.

---

(1) راجع الرسالة الواردة نفسها ص404 الهامش رقم (1).

(2) المادة الأولى من شريعة حمورابي.

(3) المادة الثالثة من شريعة حمورابي راجع أيضاً المادة 11.

(4) (خر، 20: 16)؛ (تث، 5: 20).

(5) (خر، 23: 1).

(6) (خر، 23: 7)؛ راجع أيضاً (مز، 27: 13، 35: 11).

(7) (تث، 19: 16 ـ 21).

ومما لا بدَّ من الإشارة إليه هنا هو أنه، كما سبق وأشرنا إليه مراراً، أن الشريعة التوراتية تبقى شريعة كهنوتية عنصرية.

ح ـ السحر وتعاطيه:

السحر محظور بحسب الشريعتين أما شريعة حمورابي فحكمها «على الساحر بأن يُلقى في النهر فإذا أثبت النهر أنه بريء من التهمة وخرج سالماً فإن الذي اشتكى عليه بتهمة السحر يُعدم»[1] بينما تقضي شريعة التوراة بقتل الساحر «لا تدع ساحرة تعيش»[2] و«إذا كان في رجل أو امرأة جان أو تابعة فإنه يقتل. بالحجارة يرجمونه. دمه عليه»[3]. وقد نهت التوراة في أماكن متعدّدة منها عن السحر وتعاطيه[4].

ط ـ الديون وكيفية استيفائها:

أجازت الشريعتان، البابلية وشريعة التوراة، بيع أحد أفراد العائلة سداداً لدين استحق ولم يكن بمقدور المدين سداده، فحسب شريعة حمورابي «إذا حان الاستحقاق (استحقاق الدين) على سيد وباع زوجه أو ابنه أو ابنته أو ارتبط هو نفسه بالخدمة فيجب عليهم أن يعملوا في بيت من اشتراهم أو الدائن ثلاث سنوات وتُعاد لهم حريتهم في السنة الرابعة»[5]. وهذا قول صراح لا لبس فيه يشمل جميع المواطنين لا فرق بين مواطن وآخر، أما التوراة فقد أخذت بذلك نصاً ومعنى وإن كانت زادت في عدد سنوات الخدمة، ولكن بعد

---

(1) المادة 2 من **شريعة حمورابي**.

(2) (خر، 22: 18).

(3) (لا، 20: 27).

(4) «لا تلتفتوا إلى الجان والتوابع» (لا، 19: 31). «والنفس التي تلتفت إلى الجان والتوابع لتزني وراءها أجعل وجهي ضد تلك النفس وأقطعها من شعبها» (لا، 20: 6).
«لا يوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته في النار ولا من يعرف عرافة ولا عائق ولا متفائل ولا ساحر ولا من يرقي رقية ولا من يسأل جاناً أو تابعة، ولا من يستشير الموتى». (تث، 18: 10 ـ 11).
راجع كذلك في هذا الموضوع: (2 مل، 23: 24)؛ (آي، 27: 9 ـ 10).

(5) المادة 117 من **شريعة حمورابي**.

أن خصّته بالعبراني دون الأجنبي «إذا اشتريت عبداً عبرانياً فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حراً مجاناً. إن دخل وحده فوحده يخرج، إن كان بعل امرأة تخرج امرأته معه. إن أعطاه سيده امرأة وولدت له بنين أو بنات فالمرأة وأولادها يكونون لسيده ويخرج وحده»[1]. فالعبد العبراني ومثله الأمة العبرانية لا يسترقان وإنما يخرجان في سنة اليوبيل على عكس الأجنبي الذي يسترقّ ويدخل في أملاك سيده يتوارثه الخلف عن السلف كأي متاع آخر «وإذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد. كأجير كنزيل يكون عندك. إلى سنة اليوبيل يخدم عندك. ثم يخرج من عندك هو وبنوه معه ويعود إلى عشيرته، وإلى ملك آبائه يرجع، لأنهم عبيدي الذين أخرجتهم من أرض مصر، لا يُباعون بيع العبيد، لا تتسلّط عليه بعنف. وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم، منهم تقتنون عبيداً وإماءً. وأيضاً من أبناء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكاً لكم. وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك، تستعبدونهم إلى الدهر، وأما أخوتكم بنو إسرائيل فلا يتسلّط إنسان على أخيه بعنف، وإذا طالت يد غريب أو نزيل عندك وافتقر أخوك عنده وبيع للغريب المستوطن عندك أو لنسل عشيرة الغريب. فبعد بيعه يكون له فكاك، يفكه واحد من إخوته. أو يفكه عمه أو ابن عمه أو يفكه واحد من أقرباء جسده من عشيرته أو نالت يده يفك نفسه، فيحاسب شاريه من سنة بيعه له إلى سنة اليوبيل ويكون ثمن بيعه حسب عدد السنين. كأجير يكون عنده. إن بقي كثير من السنين فعلى قدرها يرد فكاكه من ثمن شرائه. وإن بقي قليل من السنين إلى سنة اليوبيل يُحسب له وعلى قدر سنيه يرد فكاكه. كأجير من سنة إلى سنة يكون عنده، لا يتسلّط عليه بعنف أمام عينيك. وإن لم يفك بهؤلاء يخرج في سنة اليوبيل هو وبنوه معه. لأن بني إسرائيل لي عبيد، هم عبيدي الذين أخرجتهم من أرض مصر»[2]. و«إذا بيع لك أخوك العبراني أو أختك

(1) (خر، 21: 2 ـ 4).
(2) (لا، 25: 39 ـ 55).

العبرانية وخدمتك ست سنين ففي السنة السابعة تطلقه حراً من عندك، وحين تطلقه من عندك فلا تطلقه فارغاً. تزوّده من غنمك ومن بيدرك ومن معصرتك، كما بارك الرب إلٰهك تعطيه. لا يصعب عليك أن تطلقه حراً من عندك لأنه ضعفي أجرة الأجير خدمك، ست سنين»[1]. و«وإذا باع رجل ابنته أمة فلا تخرج كما يخرج العبيد»[2].

وكذلك شرعت التوراة بالنسبة لاسترداد الديون في سنة الإبراء، العبراني يبرأ وأما الأجنبي فلا «في آخر سبع سنين تعمل إبراءً. وهذا هو حكم الإبراء. يبرىء كل صاحب دين يده مما أقرض صاحبه لا يطالب صاحبه ولا أخاه لأنه قد نودي بإبراء للرب. الأجنبي تطالب. أما ما كان لك عند أخيك فتبرئه يدك منه»[3].

ي ـ تعاطي الربا:

كان الربا معروفاً عند البابليين ومعمولاً به وقد حدّدته شريعة حمورابي بحوالي 20%: «إذا أقرض تاجر حبوباً بفائض، فإنه يستلم ستين قوّاً من الحبوب لكل كور كفائض. وإذا أقرض دراهم بفائض فإنه يستلم سدس الثقل ست حبات لكل ثقل من الفضة كفائض»[4]. ولما كان الكور يعادل ثلاثمائة قوّ وكل ثقل يعادل مائة وثمانين حبة فإن الفائض يكون 20%. أما التوراة فإنها تحرم تعاطي الربا بالنسبة للإسرائيلي وتحلّله للأجنبي «إذا أقرضت فضة لشعبي الفقير فلا تكن له كالمرابي. لا تضعوا عليه ربا»[5]. و«إذا افتقر أخوك وقصرت يده عندك فأعضده غريباً أو مستوطناً فيعيش معك. فضتك لا تعطه بالربا وطعامك لا تعط بالمرابحة»[6]. و«لا تقرض أخاك بربا، ربا فضة أو ربا

---

(1) (تث، 15: 6 ـ 14 و68).
(2) (خر، 21: 7)
(3) (تث، 15: 1 ـ 2).
(4) المادة 88 من **شريعة حمورابي**.
(5) (خر، 22: 25).
(6) (لا، 25: 25 ـ 37).

طعام أو ربا شيء ما مما يقرض بربا. للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا»[1].

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو، كما أسلفنا إلى ذلك مراراً، كم تتجلّى العنصرية التي كانت تسيطر على كتبة التوراة عندما قاموا بتدوينها بعد عدّة قرون على وفاة موسى ﷺ بوضوح فبينما نجد التوراة تنهى عن تعاطي الربا إذ تخصّه بالإسرائيلي (بمعنى اليهودي) وتقرّه بالنسبة للأجنبي.

ك ـ التعويض عن الأضرار:

لقد سارت الشريعتان على مبدأ التعويض وأخذتا به وإن هما تخالفتا في تحديد نوع التعويض في كل منهما، ولقد عالجت شريعة حمورابي، في كثير من موادها، مسألة التعويضات الواجب دفعها في القضايا التجارية والزراعية مثل استعارة الأشياء والمواد الزراعية والدواب التي يعطيها المستفيد أو يلحق بها ضرراً كالكسر أو الموت أو السرقة أو النهب. فشريعة حمورابي جعلت، على سبيل المثال التعويض الواجب دفعه في حالة رعي حقل ما أن يعطي الراعي إلى صاحب الحقل عشرين كوراً[2] من الحبوب لكل ثمانية عشر أيكو من الأراضي المرعية[3]. أما التوراة فتكتفي بتحديد نوع التعويض دون الكمية «إذا رعى إنسان حقلاً أو كرماً وسرح مواشيه فرعت في حقل غيره فمن أجود حقله وأجود كرمه يعوّض»[4].

وقد وضعت الشريعة البابلية أربع مواد[5] تقضي بالتعويض عن الأضرار التي تحدث بالزروع من جرّاء الغرق والتي يسبّبها أشخاص نتيجة إهمالهم تقوية السدود ومراقبة جداولهم. ولعدم وجود أعمال ري في كنعان ولكون

(1) (تث، 23: 19 ـ 20).
(2) الكور نوع من المكاييل السومرية ويقابل عندنا الغرفة ويعادل حوالي 180 حقة (8,50 بوشل) والأيكو من مقاييس المساحات البابلية ويعادل حوالي 0,875 من الفدان.
(3) المادة 57 من **شريعة حمورابي**.
(4) (خر، 22: 5).
(5) المواد 53 ـ 56.

زروعها مهدّدة بخطر الحريق بالدرجة الأولى فقد تضمّنت شريعة التوراة مادة تقضي بالتعويض عن الأضرار التي يحدثها أشخاص نتيجة حرقهم لأكداس الغلة بسبب إهمالهم أو تعمدهم إيقاد النار فيها[1].

ل ـ تعدّد الزوجات:

أجازت الشريعتان الزواج بأكثر من امرأة. فحسب شريعة حمورابي «إذا تزوج شخص امرأة ولم تنجب أولاداً فلهذا الرجل أن يأخذ جارية كامرأة ثانية، ولا يجوز أن تتساوى مع الزوج الأولى إلّا إذا أنجبت أولاداً»[2]. وقد نظمت شريعة حمورابي مراسم الزواج وشعائره ومما قالت به في الزواج الثاني وجوب نصب الزوج الثانية عرشاً في الهيكل للزوج الأولى وقيامها بغسل رجليها قبل بدء مراسم زواجها. ومنه جاء تقليد غسل العروس قبل انتقالها من بيت أبيها إلى بيت الزوجية، هذا التقليد الذي يعود إلى زمن حمورابي وما يزال سارياً حتى يومنا هذا. وكذلك نظمت حقوق كل واحدة من الأزواج في الأولاد[3].

أما التوراة فإنه لم يرد فيها نصّ صريح يقول بجواز تعدّد الزوجات وإنما أوردت عدّة حوادث تعدّدت فيها الزوجات جعلت منه عرفاً له صفة القانون. فكان أول من اتّخذ له زوجين في وقت واحد بحسب التوراة هو لامك بن متوشائيل بن محديائيل بن عيراد بن حنوك بن قايين «واتخذ لامك لنفسه امرأتين»[4]. كان هذا قبل الطوفان. أما بعد الطوفان فكان أول من اتّخذ له امرأتين هو إبراهيم عليه السلام تزوج هاجر المصرية حيث أخذت ساراي امرأة أبرام هاجر وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له»[5]. ومن ثم «وعاد إبراهيم فأخذ زوجة

---

(1) (خر، 22: 6).
(2) المادة 137 من **شريعة حمورابي**.
(3) المواد 144 ـ 147 من **شريعة حمورابي**.
(4) راجع (تك، 4: 17 ـ 19).
(5) (تك، 16: 3).

اسمها قطورة»[1]. أما حفيده عيسو فقد جمع بين خمس زوجات من الكنعانيات هن يهوديت بنت بيري الحثي وبسمة بنت إيلون الحثي[2] وعدا بنت إيلون الحثي وأهوليبامة بنت عنى بنت صعبون وبسمة بنت إسماعيل أخت نبايوت[3] وتزوج يعقوب (إسرائيل) من ابنتيّ خاله لابان ليئة وراحيل ومن جاريتيهما زلفة وبلهة»[4]. وكان لجدعون سبعون ولداً خارجين من صلبه لأنه كان له نساء كثيرات وسريته التي في شكيم ولدت له ابناً أسماه أبيمالك»[5]. وجدعون هذا هو قاضي إسرائيل أما قاضي إسرائيل عبدون بن هليل الفرعتوني فقد كان له «وكان له أربعون ابناً وثلاثين حفيداً»[6]. وكان لرامتايم صؤفيم وهو أبو صموئيل امرأتان اسم الواحدة حنة والأخرى فنة[7] والمتعارف عليه عند العامة أن داود الملك وهو نبي أيضاً تزوج تسعاً وتسعين امرأة وسرية وأوصل عددها إلى المائة بزواجه من زوج أوريا الحثي الذي قتله، وإن لم تقل التوراة صراحة بذلك ولكنها تقول إن داود ترك عشراً من نسائه لحفظ البيت عند هربه من وجه أبشالوم ولده[8] وتقول أيضاً: «وأخذ داود سراري ونساء من أورشليم»[9]. وقد سمت من نسائه ميكال بنت شاؤول[10] وإبيجايل أرملة نابال وأخينوعم من يزرئيل[11] وملكة بنت تلماي وحجيث وابيطال عجلة[12] وبتشبع

(1) (تك، 25: 1).
(2) (تك، 26: 34).
(3) (تك، 32: 2 ـ 3).
(4) راجع (تك، 29: 21 ـ 30، وص30).
(5) (قض، 8: 30 ـ 31).
(6) (قض، 12: 14).
(7) (1 صم، 1: 1 ـ 2).
(8) (2 صم، 20: 3).
(9) (2 صم، 5: 13).
(10) (1 صم، 18: 27). راجع أيضاً (1 صم، 30: 18).
(11) (1 صم، 25: 42 ـ 43).
(12) (2 صم، 3: 3 ـ 5).

بنت أليعام امرأة أوريا الحثي[1] وكانت آخر زوجة لداود ذكرتها التوراة هي أبيشج الشمونية[2] أما بالنسبة لسليمان فتقول التوراة «وأحب سليمان نساء غريبة كثيرة مع ابنة فرعون مؤابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيات وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري»[3].

ولا شك في أن ورود مثل هذه الأحداث من تعدّد الزوجات في التوراة يعطيها صفة القانون النافذ. وبما أن التوراة أقرّت تعدّد الزوجات فكان لا بدَّ لها من تنظيم حقوق أولاد الزوجات «وإذا كان لرجل امرأتان إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة فولدتا له بنين المحبوبة والمكروهة، فإن كان الابن البكر للمكروهة. فيوم يقسم لبنيه ما كان يحلّ له أن يقدم ابن المحبوبة بكراً على ابن المكروهة البكر بل يعرف ابن المكروهة بكراً»[4]. وإن كانت التوراة قد تجاوزت هذه القاعدة في ولديّ داود أدونيًا وسليمان[5].

وفيما يلي المواد الواردة في الشريعة البابلية[6] وما يقابلها من أحكام توراتية مشابهة بشكل محسوس فيما يحمل المرء على أن ينظر إلى هذه المواد والأحكام وكأنها تعود إلى مصدر واحد.

---

(1) (2 صم، ص: 11 وص: 12).
(2) (1 مل، 1: 3 ـ 4).
(3) (1 مل، 11: 1 و3).
(4) (تث، 21: 15 ـ 17).
(5) (1 مل، 1: 5 وما بعده).
(6) لقد كانت هناك شرائع أخرى عدا شريعة حمورابي، فقد عُثر على شريعتين سومريتين أقدم من شريعة حمورابي إحداهما ترجع إلى عهد الملك أورنمو مؤسس سلالة أور الثالثة (2113 ـ 2096 ق.م.) والثانية ترجع إلى عهد لبيت عشتار ملك أيسن (1934 ـ 1924 ق.م.) كما عُثر على شريعتين ساميتين إحداهما أقدم من شريعة حمورابي وهي الشريعة المكتشفة في تل حرمل والمعروفة بشريعة مملكة أشنونا (نحو 1900 ق.م.) والثانية دوّنت في القرن التاسع قبل الميلاد من العهد الآشوري. وقد عُثر أيضاً على شريعة للحيثيين ترجع إلى سنة 1350 ق.م. والمهم في هذه الشرائع أن بعض موادها تقابله مواد مشابهة في شريعة حمورابي وشريعة التوراة. انظر: G. A Barton, «**Archaeology and the Bilbe**», 1927.

مواد الشريعة البابلية	الأحكام المقابلة في شريعة التوراة
رقم 7	(لا، 6: 2 ـ 7).
رقم 8	(خر، 22: 11).
رقم 14	(خر، 21: 6).
رقم 21	(خر، 22: 2 ـ 4).
رقم 53 ـ 56	(خر، 22: 6).
رقم 57	(خر، 22: 5).
رقم 117 ـ 119	(خر، 21: 2 ـ 11).
رقم 125	(خر، 22: 7 ـ 9 و12).
رقم 129	(لا، 20: 10).
رقم 155	(لا، 20: 12).
رقم 157	(لا، 20: 11).
رقم 195	(خر، 21: 15).
رقم 196 ـ 197	(خر، 21: 24 و25).
رقم 200	(لا 24: 20).
	(تث، 19: 21).
رقم 199	(خر، 21: 26 ـ 27).
رقم 206	(خر، 21: 18 ـ 19 و12 ـ 13).
رقم 209 ـ 210	(خر، 21: 22 ـ 25).
رقم 245	(خر، 22: 14 ـ 15).
رقم 250	(خر، 21: 28).
رقم 251 و252	(خر، 21: 29 و32)[1]

(1) انظر المراجع التالية التي تبحث في هذا الموضوع.

G. A. Barton, «**Archaeology and the Bible**», 5 th ed. 1927, pp. 340-368; A. T. clay, «**Light on the Old Testament from Babel**», 1907, pp. 223-234; F. Kenyon, «**The Bible and Archaeology**», pp. =

ويقول المؤرّخ الشهير ويلز Wells إن ثمة نصوصاً من المصادر البابلية التي عُثر عليها تعدّ مرجعاً هاماً لقصة شمشوم من قصص العهد القديم[1]. كما أن ترانيم التوبة البابلية قد اقتبست في بعض أسفار التوراة[2].

وخلاصة القول إن الدارس لكلتا الشريعتين يجد نفسه أمام حقائق مذهلة وهي أن كتبة التوراة كانوا قد درسوا شريعة حمورابي أثناء وجودهم في بابل أيام السبي فأخذوا عنها ما وجدوه ملائماً لهم وأضافوا إليه ما يلائم مجتمعهم البدائي ويحارب مفاسدهم بقصد تنزيه شعبهم ولكن بعد أن ملأوا التوراة بمباذلهم التي تمسّ جميع أبطالهم في التوراة. وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على أن الشريعة التوراتية التبي بين أيدينا لم يضعها النبي موسى لأنه لم يكن ليدين من سبقه وأن الشريعة التي نادى بها النبي موسى تنحصر في الوصايا العشر وأنه وضعها لجميع الأمم. أما كتبة التوراة الذين جاؤوا من بعده هم الذين دبجوها بقصد تنزيه أرومتهم فأوقعوا التوراة في كثير من التناقض.

التلمود في ضوء المدوّنات الآثارية:

وكما أن معظم مدوّنات التوراة مستقاة من كتابات قديمة سبقتها، كذلك نجد تشابهاً بين مدوّنات التلمود البابلي وبين كتابات السومريين والبابليين، وخاصة ما يتعلق منها بشؤون الري والزراعة. ففي التلمود شروح وتعاليم وإرشادات تتعلق بالزراعة المرتكزة على الإرواء وعلاقة المزارعين بعضهم مع بعض من حيث الواجبات والحقوق، وهذه موجّهة بالدرجة الأولى إلى اليهود الذين كانوا يمارسون مهنة الزراعة في بلاد بابل. فقد تناول التلمود شرح طرق

= 118-125; D. D. Luckenbill and Ed. Chiera, «**The Origin and History of Hebrew Law**» 1931; L. W. Waterman, «**Pre-Israëlite Laws in the book of the Convenant**», AJSLL, Vol. 38, 1921-22, pp. 36-62; S. A. Cook. «**The Laws of Moses and the Code of Hammurabi**», London 1903; W. W. Daveis, «**The Codes of Hammurabi and Moss**», Cincinnati, 1905; C. H. W. Johns, «**The Relations between the laws of Babylonia and the Law of the Hebrew Peoples**», 1914.

(1) «**معالم تاريخ الإنسانية**» الترجمة العربية، الكتاب الرابع، ص 291.

(2) عصام الدين حنفيّ، «**محنة التوراة**»؛ ص 57.

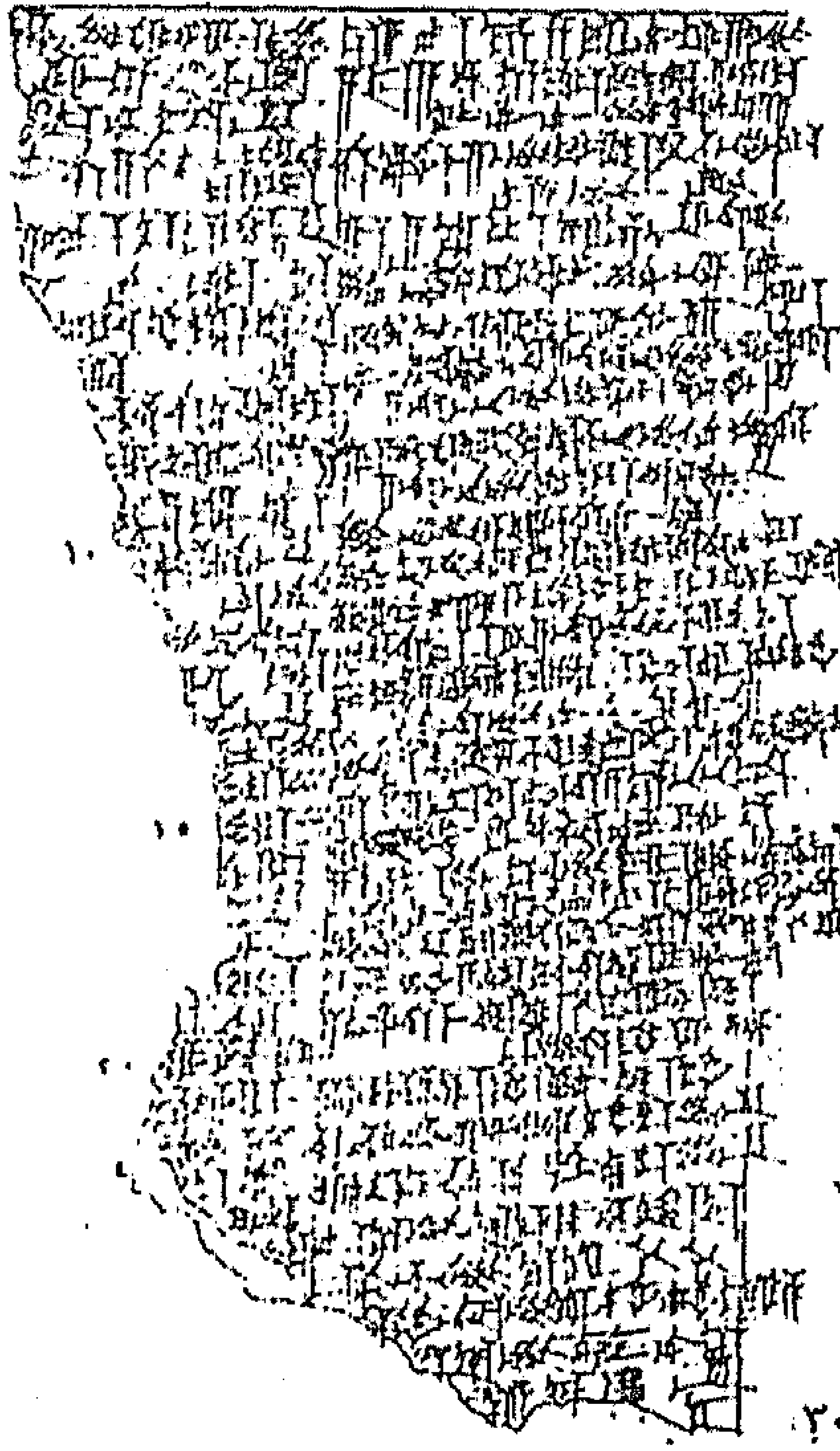
الإرواء والزراعة من ضمن ذلك الحراثة والإسقاء والحصاد ومواسم الزراعة مع ذكر أنواع المحاصيل الزراعية الشتوية والصيفية كما تناول بالشرح كيفية زراعة النخيل وتربية المواشي وإنشاء المراعي ونظام الأراضي وضرائب الأرض والماء. ولما كانت الحياة الزراعية والعلاقات الاقتصادية والتجارية في بلاد بابل تستند بالدرجة الأولى على مشاريع الري فقد تناول التلمود بحث كيفية حفر الجداول وتنظيم شبكة الإرواء سيحاً ورفعاً وصيانتها ومراقبتها ثم توزيع المياه بين الزرّاع بصورة عادلة. وكان تطهير الأنهر من ترسبّات الغرين من أهم الأعمال التي كان أكثرها يقع على كاهل اليهود في بلاد بابل، فقد سكبوا على شواطئها دموعاً سخية لما كانوا يقاسونه من الإرهاق في هذه الأعمال المضنية[1]

وهناك دلائل لا تقبل الجدل والشك في أن أكثر ما ورد في التلمود من شروح وإرشادات تتعلّق بالزراعة المرتكزة على الري مستقاة من كتابات قديمة سابقة لعهد التلمود، فقد عثر المنقّبون بين أطلال مدينة نيبور على تقويم لأحد المزارعين السومريين فيه نصائح وإرشادات يوجهها هذا المزارع إلى ولده حول أصلح الطرق التي يجب اتباعها في تنظيم وإدارة شؤون مزرعته كي يحصل على أجود منتوج وأوفر محصول، ومن ضمن ذلك طريقة إعداد الأرض وإنجاز عملية الحرث ونشر البذور وتنظيم الري والإعداد لحصد الزرع بعد نضوجه ثم دراسته وذروه وتجميع المحصول وقد دوّنت هذه الوثيقة التي يرقى تاريخها إلى ما قبل أكثر من أربعة آلاف عام على رقيم من الطين يتكوّن من 108 أسطر بالخط المسماري باللغة السومرية، وهي تعدّ أقدم تقويم زراعي في تاريخ الحضارة حول الأساليب الفنية للري والزراعة المتّبعة في تلك الأزمنة القديمة. ومما لا شك فيه أن هذه القواعد في تنظيم الري والزراعة في الحقول

(1) الحاخام نيومان، «**حياة اليهود الزراعية في بابل**» طبعة مطبعة جامعة أوكسفورد سنة 1932، وعنوانه بالإنكليزية.

Rabbi J. Newman, «**The Agricultural Life of the Jews in Babylonia**», 1932. S. Daicbes, «**The Jeus in Babylonia**», 1910.

كانت معروفة لدى السومريين والساميين الأوائل قبل ذلك العهد وظلّت معروفة لدى البابليين في العصور التي تلت حيث عُثر على قطع من هذه الموسوعة نقلها البابليون عن أسلافهم[1].



الصورة رقم (78)
أقدم تقويم زراعي في تاريخ الحضارة البشرية

أما ما ورد في التلمود حول العناية ببساتين النخيل فقد ظهر مثله في المدوّنات السومرية والبابلية، إذ عني السومريون والبابليون في زراعة النخيل، فقد أتقنوا الطرق الناجعة في زراعة النخيل وكانوا أول من مارس تلقيحها.

ولا شك في أنه كان لأشجار النخيل دور اقتصادي هام في ضمان استمرار حياة المستوطنين الأوائل في هذه المنطقة لعديد فوائدها واستعمالاتها. ففي وثيقة سومرية ترجع إلى عهد الملك شوسن من سلالة أور الثالثة (1978 ـ 1970 ق.م.) إشارة إلى حقل من نخيل التمر يعود إلى معبد إله بلدة «أوما»[2] «معني بربه كل العناية»، وقد، قسم هذا الحقل إلى ثماني مجموعات من النخيل وصنّف كل منها بحسب عمر النخيل، المثمر وغير المثمر، وتشير الوثيقة إلى كميات التمر التي ينتجها الحقل بالحجم لا بالوزن

(1) المؤلف، «**الري والحضارة في وادي الرافدين**»، ص 210 ـ 215.

(2) «أوما» مدينة سومرية تعرف أطلالها محلياً باسم «تل جوخة» وتقع على الجانب الأيمن من شطّ الغراف الحالي في الجهة الشمالية الغربية من مدينة الشطرة الحالية. وتاريخ هذه المدينة مليء بحوادث سياسية وعسكرية وخاصة حروبها غير المنقطعة مع جارتها «الكاش» بسبب النزاع على الأراضي والري.

كما هي العادة المتّبعة في وقتنا الحاضر. وقد خصصت عدّة مواد في شريعة حمورابي (1792 ـ 1750 ق.م.) تتناول زراعة النخيل والمعاملات الخاصة بها. فهي تفرض غرامة كبيرة على من يقطع شجرة نخل[1] وتحدّد علاقة الفلاح بالمالك[2] ف «إذا أعطى رجل بستانه إلى فلاح للتلقيح والعناية به فعلى الفلاح أن يسلّم ثلثي حاصل البستان إلى صاحبها طوال مدّة شغله في البستان ويأخذ لنفسه الثلث. وإذا أهمل البستاني ولم يلقّح البستان وسبب تقليل الحاصل فعليه أن يؤدّي إيجار البستان على أساس البساتين المجاورة»[3].

يتّضح مما تقدّم أن اليهود نقلوا الحضارة البابلية أثناء وجودهم في السبي وما بعده وسرقوا جميع الحضارات الأخرى ونسبوها لأنفسهم بعد أن ردّوها إلى إرادة إلٰهية. وفي ذلك يقول المؤرّخ الشهير ويلز «والحقيقة المجرّدة المستخلصة من رواية الكتاب المقدس هي أن اليهود ذهبوا إلى بابل همجاً وعادوا منها متمدنين. خرجوا جمهوراً مختلطاً ومنقسماً على نفسه، لا يربطه وعي ذاتي وطني وعادوا بروح قومية شديدة وجنوح إلى الاعتزال. ذهبوا وليس لهم أدب مشترك معروف بينهم كافة وعادوا ومعهم الشطر الأكبر من مادة **(العهد القديم)** بعد أن عاشوا في ذلك الجو الباعث على النشاط الذهني في العالم البابلي. فإن العقل اليهودي ما لبث أن خطا خلال مدة الأسر خطوة عظيمة إلى الأمام... وعندما عاد اليهود إلى أورشليم لم يكن قد اكتمل لهم غير الأجزاء الخمسة الأولى المسماة **بالبنتاتيك**، ولكن لم يكن هناك مفر من أن يتلو ذلك تجميع سائر الكتب التاريخية». ويضيف ويلز إلى ذلك قوله: «دام الأسر البابلي قرابة خمسين عاماً ويعتقد كثير من الأعلام الثقات أن اليهود اختلطوا بالبابليين خلال تلك الفترة اختلاطاً عنصرياً وفكرياً عظيماً»[4].

---

(1) المادة 59.

(2) المادتان 64 و65.

(3) المؤلف، «**الري والحضارة في وادي الرافدين**»، ص 45 ـ 47.

(4) ويلز، «**تاريخ معالم الإنسانية**»، الكتاب الرابع، ص 290 ـ 291، 214.

المدوّنات الأوغاريتية الكنعانية والتوراة:

ولقد كشفت المدوّنات الكنعانية التي عُثر عليها في أوغاريت (رأس الشمرة) شمال مدينة اللاذقية بكل جلاء أن أكثر ما دوّنه اليهود في التوراة من القطع الأدبية من مزامير وأشعار وتراتيل ترجع إلى أصل كنعاني، فهناك تعابير وردت في أسفار المزامير والأمثال ونشيد الأنشاد يظهر فيها التشابه واضحاً مع التعابير الأوغاريتية الكنعانية، ومن أمثلة ذلك أن الأخيرة تنعت إلٰهها «بعل» براكب السحب في حين أن الأولى تطلق على إلٰهها «يهوه» (الراكب في قفار)[1]. وقد جاء المزموران 18 و68 من مزامير التوراة (وهما مكرران في سفر صموئيل الثاني الإصحاح الثاني والعشرين) بالتعابير نفسها الواردة في المدوّنات الكنعانية. وقد وجد مثل هذا التشابه في سفريّ أيوب والمزامير[2] حيث تصف التوراة فيهما صوت الإلٰه «يهوه» بالرعد (اسمعوا سماعاً رعد صوته والزمزة الخارجة من فيه) وهو الوصف نفسه الوارد في الكتابات الكنعانية التي تنعت صوت إلٰهها «بعل» بالرعد أيضاً. وقد جاء المزمور 29 بأجمعه مطابقاً تماماً لما ورد في المدوّنات الأوغاريتية في ترتيلة كنعانية للإلٰه «بعل»، كما أن تسمية لوياثان بالحية المتحوية[3] وردت هي نفسها في الكتابات الكنعانية[4] ومقدار التراتيل الكنعانية التي عُثر عليها في أوغاريت تساوي نصف حجم كتاب المزامير في التوراة[5] كما أن القصة التي وردت في سفر أيوب وجد ما يشابهها تماماً في الكتابات البابلية، ويعتقد أن القصة مأخوذة من أصل نصّ أدومي حيث ورد فيها ذكر أحد ملوك أدوم القدماء باسم يوباب بن زارح[6] والمرجّح عند الباحثين أن صاحب سفر أيوب الوارد في

---

(1) (مز، 68: 4).

(2) (أي، 37: 2 ـ 5)؛ (مز، 29: 3 ـ 5، 104: 7).

(3) (أش، 27: 1).

(4) P. Hitt, «**History of Syria**», pp. 128, 140.

(5) J. Pritchard, «**Archaeology and the Old Testament**», p. 110.

(6) (تك، 26: 33 ـ 34)، راجع أيضاً في هذا الموضوع المراجع التالية: =

التوراة عربي الأصل، إذ يعتقد أن هذا الكتاب كان قد نظم في الأصل شعراً عربياً في القرن العشرين قبل الميلاد على أثر نزوح الساميين العرب من جزيرة العرب إلى بلاد ما بين النهرين، ثم ترجمه الكهنة اليهود إلى العبرانية وعدَّ من الأسفار المقدسة وضاع أصله العربي. فإذا صحّت عربية سفر أيوب يكون العرب أسبق الأمم إلى قرض الشعر، أي قبل إلياذة هوميروس بألف سنة(1).

وفي بحث لأدولف أرمان (A. Hermann) تقدّم به إلى المجمع العلمي البروسي سنة 924 تحت عنوان «مصدر مصري لأمثال سليمان» شرح لاكتشاف مؤلف لحكيم مصري مدوّن على أوراق البردي جاء على شكل نصائح وحكم في ثلاثين باباً، وقد تكررت هذه الحكم نفسها بشكل واضح في سفر الأمثال من العهد القديم(2).

التقاليد التي اقتبسها اليهود من القدماء:

ومن التقاليد التي مارسها القدماء وأخذها اليهود عنهم وأدخلوها في فرائضهم الختان مثلاً، فقد اكتشف العلماء أن المصريين كانوا يمارسون الختان في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، أي قبل ظهور أتباع موسى بألف وثلاثمائة عام(3). وقد ثبت أن عادة الختان كانت شائعة عند بعض القبائل في الجزيرة العربية منذ عصور غابرة وأنها لم تسر من اليهود إلى العرب كما يظن(4). ويقول نولدكه إن الختان كان معمولاً به بين العرب عموماً إذ كانوا يعتبرونه جزءاً من طقوسهم الدينية والعمل به إجباري، لذلك أصبح بعد ظهور

= M. Jastrow, «**A Babylonia Parallel to the Story of Job**». J. B. L., Vol. XXV, Part II, 1906, pp. 135-191. R.W. Rogers, «**Cuneiform Parallels to the Old Testament**», N.Y., 1912, pp. 164-169; J. H. Patton, «**Cananite Parallels in the book of Psalms**». 1944; J.W. Jack, «**The Ras-Shamra Tablets: Bearning on the Old Testement**», 1935.

(1) جرجي زيدان، «**تاريخ الآداب العربية**» ج 1، ص 26.

(2) الدكتور شلبي، «**مقارنة الأديان**»، ص 236.

(3) A. Clay. «**Light on the Old testament**», p. 6.

(4) الدكتور إسرائيل ولفنسون، «**تاريخ اليهود في بلاد العرب**» 1927، ص 78.

الإسلام جزءاً منه بصورة طبيعية[1]. ويذهب أرمان إلى أن المصريين كانوا أول من سنّ الختان وكان ذلك حقاً بقصد النظافة والطهارة على أنه أصبح كذلك عادة للكهّان ولم يكن يسمح بأدائه لأبناء أسرهم إلّا بإذن من الكاهن الأعلى، وكان ذلك فقط عندما كان يثبت قدماء الكهنة أن الصبي يخلو من أية علامة تجعله غير صالح لأن يكون كاهناً. ومن عاداتهم أيضاً نفورهم من الخنازير[2]. وكذلك قدم الأستاذ ماير (Ed. Meyer) شواهد على أن الفينيقيين كانوا يمارسون الختان[3]. ومما ذكر أيضاً في هذا الخصوص أن الختان كان يُستعمل في فلسطين من قبل أقوام غير اليهود في القرن الأول والثاني بعد الميلاد[4] وقد اعتبر الختان بحسب مآثر التوراة علامة العهد بين الرب وبين إبراهيم[5]، وقد جعلت عقوبة من لا يختتن الموت لأنه نكث للعهد[6]. وقد عملت صفورة زوجة موسى المديانية بهذه الطقوس بالنسبة لابنها[7]. وتشير التوراة أيضاً أن أتباع موسى بعد أن قضوا أربعين سنة في القفر قام يشوع يختن جميع الذين ولدوا خلال هذه الفترة[8].

ومن العادات التي كان يمارسها البابليون أمام آلهتهم وأخذها اليهود عنهم تقديم اثني عشر قرصاً من الخبز أمام الرب كما ورد في فرائض التوراة[9] ومثل ذلك حرق كبد ذبيحة الخطية والكليتين مع الشحم على المذبح كما أمر الرب موسى تطبيقه كان البابليون والمصريون يمارسونه من قبل أيضاً.

---

(1) Th. Noldeke, «**Ency. of Religions and Ethics**», Vol. I, p. 669.

(2) إرمان، «**ديانة مصر القديمة**»، ص 276 و444.

(3) S.H. Hooke, «**The Origins of Early Semitic Ritual**», pp. 62-63.

(4) «**The Story of the Bible**», Vol. II, p. 932.

(5) (تك، 17: 10 ـ 23)؛ راجع أيضاً (خر، 12: 43 ـ 48)؛ (لا، 12: 3)؛ (تث، 10: 16).

(6) (تك، 17: 14).

(7) (خر، 4: 25 ـ 26)؛ (يش، 5: 3).

(8) (يش، 5: 2 ـ 9).

(9) (لا، 24: 5)، راجع أيضاً (خر، 39: 36، 40: 23).

ومن التقاليد الأخرى التي أخذها اليهود عن الأقدمين تعيين حصة الكهنة من الذبائح[1] ورش دم الذبيحة على عتبة الباب، فكان البابليون يمارسون العادة الأخيرة على عتبات قصورهم وعلى الأنصاب على طرفي المداخل، أما اليهود فكانوا يمارسونها في عيد الفصح[2] ويقول البروفسور ووترمان في هذا الصدد: «لقد أصبح من المسلّم به الآن أن جميع الأعياد اليهودية ما عدا عيد الفصح كانت بالأصل من الطقوس الدينية في كنعان وإن شرح طريقة تطبيقها ومراعاتها يكوّن مجموعة من الشرائع لنا كل الحق أن نعتبرها أساساً من عهود ما قبل إسرائيل»[3] كما يقول الأستاذ ريك: «إن اليهود لا يزالون يحتفظون ببقايا كنعانية مأخوذة من طقس أدونيس وذلك في عيد المظال (السكوت)[4].

المدوّنات التوراتية كنعانية وبابلية ومصرية الأصل:

وقد ذهب بعض الآثاريين المعروفين إلى أبعد مما تقدّم، فصار هؤلاء يطلقون على الشريعة التوراتية اسم الشريعة الكنعانية باعتبارها شريعة واحدة. فيشير الأستاذ أولمستد الخبير في تاريخ فلسطين القديم إلى «أن الكنعانيين وضعوا أول شريعة في شكيم (نابلس حالياً) التي تُعتبر عاصمة الكنعانيين في فلسطين في تلك العصور ومركزهم الديني الرئيسي المقدّس حيث كان هيكل إلٰههم «بعل» هناك. ثم يضيف قوله: «والفضل يرجع إلى حمورابي وشريعته في حمل الكنعانيين على إعادة النظر في شريعتهم الأولى وتنسيقها من جديد بإضافة بعض التعديلات عليها وحذف البعض الآخر منها وجعلها شريعتهم الخاصة بهم، وهي الشريعة نفسها التي جاءت في التوراة وقد حافظ عليها اليهود بإدخالها في كتبهم المقدسة فوصلت إلينا عن طريق ممارستهم الفرائض

---

(1) (تث، 18: 3)؛ راجع أيضاً (لا، 7: 31 ـ 34).

(2) الأستاذ ريك، «**الطقوس الوثنية في الديانة اليهودية**»، ص 5.

(3) A. Clay, op. cit., pp. 10-12, L. Waterman, **«Pre-Israëlite Laws in the book of the Convenant»**; AJSLL, Vol. 38, 1921-22, pp. 36-37.

(4) الأستاذ ريك، «**الطقوس الوثنية في الديانة اليهودية**»، ص 5. الدكتور سامي سعيد الأحمد «**الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية**» ص21.

التي وردت فيها»[1]. ويؤيد ذلك الأستاذ ووترمن فيقول: «وهكذا فإن بني إسرائيل (الموسويين) وجدوا شرائع معدّة ومهيّأة فعملوا بها في مسيرة حياتهم في كنعان». ثم يضيف مؤكداً: «إن التحقيقات الأركيولوجية التي يمكن أن تزوّدنا بمعلومات في هذه الناحية لا تعترف بوجود أي فاصل ثقافي بين الكنعانية واليهودية»[2]. ويؤكد ذلك الأستاذ كوجنبرت بما يؤدي إلى المعنى نفسه فيقول: «لقد ثبت الآن أن دين العبرانيين (بمعنى اليهود) لا يمكن أن يكون تطوّر ونما محلياً، بل كانت عناصره الجوهرية قد استقيت من آراء كانت متراكمة ومن معتقدات كانت شائعة بين الأقوام السامية في الشرق... وإن هذه الوثائق القديمة تبرهن، بما لا يتطرّق إليه الشك، على أن انعزال الديانة اليهودية عن غيرها في الزمن القديم لم يكن سوى خرافة بحتة».

ويقرر ول ديورانت: «إن أساطير الجزيرة العربية كانت المعين الغزير الذي أخذت منه قصص الخلق والغواية والطوفان التي يرجع عهدها في تلك البلاد إلى ثلاثة آلاف سنة أو نحوها قبل الميلاد... ولعل اليهود قد أخذوا بعضها من الأدب البابلي في أثناء أسرهم. ولكن أرجح من هذا أنهم أخذوها قبل ذلك العهد بزمن طويل من مصادر سامية وسومرية قديمة كانت منتشرة في جميع بلاد الشرق الأدنى». ويقول ديورانت كذلك. «إن القصص الشعبية العالمية كانت مصدراً من المصادر التي اقتبس منها كتاب أسفار العهد القديم، فقد كان شائعاً في مصر والهند، والتبت، وبابل، وبلاد الفرس واليونان والمكسيك وغيرها من البلاد، قصص شعبية عن الجنة وما فيها من نعيم، وما فيها كذلك من الأشجار المحرّمة والأفاعي التي سلبت الناس الخلود أو نفثت السم في الجنة... أما قصة الطوفان فهي أكثر انتشاراً من قصة الخلق نفسها، فلا يكاد يوجد في الأمم القديمة أمة لم تعرفها، وقلّما وجد جيل في آسيا لم يرس عليه راكب السفينة الذي قدّر له أن ينجو من الطوفان... وكانت الأسفار

---

(1) A.T. Olmetead. «**History of Palestine and Syria**», pp. 106-107.

(2) L. Waterman, «**Pre-Israëlite Laws in the book of the Convenant**», AJSLL, Vol. 38, 1921-22, pp. 37, 54.

التي تليت على الشعب بأمر يوشيا وعزرا هي التي صيغت منها القوانين التي قامت عليها الحياة اليهودية كلها فيما بعد»[1] ويمضي ديورانت فيقول: وكانت معظم الآداب المصرية الأولى آداباً دينية، وأقدم العقائد المصرية ترانيم نصوص الأهرام... وقد أخذ الشعراء العبرانيون عن المصريين والبابليين هذه الطريقة وخلّدوها في المزامير»[2].

ويؤكد العلّامة بريستد «أن التوراة الحالية تحتوي على اقتباسات من الأدب الفرعوني المصري القديم... وأن مزامير داود أخذت الكثير من أناشيد أخناتون.. كما ورد في سفر الأمثال الكثير مما كتبه الحكيم المصري «أمينمنوبي» في وصاياه لابنه وهو يورد في كتابه عدداً من المقابلات بين الكتابين، وفي ذلك يقول: «إن جميع العلماء بكتاب العهد القديم الذين يعتدّ بآرائهم وأبحاثهم فيه يجزمون الآن بأن محتويات ذلك الجزء الذي يؤلف نحو فصل ونصف فصل من كتاب الأمثال قد أخذ معظمه بالنص عن حكم الحكيم المصري القديم أمينمنوبي، أي إن النسخة العبرانية هي تقريباً ترجمة حرفية عن الأصل الهيروغليفي العتيق... ولذلك صار من الواضح أيضاً أن حكم «أمينمنوبي» شائعة في مواضع عدّة من كتاب العهد القديم حيث نراها مصدراً لتلك الأفكار والتشبيهات والمقاييس الخلقية لا في كتاب الأمثال وحسب بل وفي القوانين العبرانية وفي سفر أيوب وفي سفر شاؤول وإرميا أيضاً.. إن الأبحاث والكشوف الأخيرة قد غيّرت موقفنا تغييراً جوهرياً حيث صار لدينا الآن الأصل الهيروغليفي المصري الذي ترجمت ونشرت فقرات كاملة برمّتها في كتاب العهد القديم العبراني. فقد تعرَّف هوجو جرسمان بلا تردّد على المنهل المصري الذي استقي منه المزمور 104 الذي انحدر إلى فلسطين على ما يعتقد عن طريق فينيقيا»[3].

وفي تعليق للأستاذ كرايمر خبير الآثار السومرية حول تأثير الآداب

---

(1) «**قصة الحضارة**»، الترجمة العربية، ج 2، م 1، ص 368 ـ 370.

(2) المرجع السابق، ص 113.

(3) بريستد «**فجر الضمير**»، ص 394 و397.

السومرية على الآداب التوراتية وغيرها من الآداب اللاحقة يقول: «لقد كان للأدب السومري تأثير كبير على أوسع المجالات الروحية في الآداب التوراتية التي تؤلف المبتكرات الأدبية عند العبرانيين، وكذلك الإلياذة والأوديسة وهما الملحمتان الزاخرتان بالقصص الأسطورية الملحمية الإغريقية، و(الركفيدا) التي تمثّل النتاج الأدبي عند قدامى الهنود، والأفستا (الأبستان) التي تؤلف النتاج الأدبي عند الإيرانيين القدامى، كل هذه المجموعات والتآليف الأدبية لم تُكتب في صيغتها الحالية قبل النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد في حين أن أدبنا السومري المدوّن على الألواح يعود تاريخه إلى ما يقرب من ألفيّ سنة قبل الميلاد، أي إنه أقدم من تلك الآداب بما يزيد على ألفيّ سنة، يُضاف إلى ذلك فرق حيوي آخر وهو أن نصوص التوراة والإلياذة والأوديسة والريكفيدا والأفستا (الأبستان) كما هي بأشكالها الحالية قد طرأ عليها التعديل والتحوير والحذف والتنقيح من قبل جامعي هذه المواد لشتى الأغراض والدوافع ووجهات النظر ولم يكن أدبنا السومري كذلك إذ إنه لا يزال محتفظاً بنصه الأصلي الذي كتبه الكتّاب القدامى منذ أربعة آلاف سنة دون ما تحوير أو حذف أو تعديل، ولهذا السبب نستطيع القول جازمين بأن القيمة الأساسية للأدب السومري وأهميته الحقيقية بالنسبة للدراسات الإنسانية المتّصلة به قد أصبحت واضحة وجلية»[1].

حضارة اليهود المزعومة!...

ومن الثابت أن موسى دخل فلسطين وأكثر أتباعه من الأميين لا يملكون أي قسط من الحضارة والثقافة، فاقتبسوا من الكنعانيين لغتهم وآدابهم وثقافتهم، وقد مرّت عليهم فترة من الزمن تمكّنوا خلالها أن يتوصلوا إلى تدوين كتاباتهم الخاصة بهم بحروف هجائية اقتبسوها من الكنعانيين (الفينيقيين). ثم أخذوا يمارسون الزراعة والأعمال الأخرى المتّصلة بالحياة المستقرة عن الكنعانيين أيضاً. وقد تأثروا بالديانة الكنعانية وقلّدوا الكنعانيين

---

(1) كرايمر، «**الأساطير السومرية**» الترجمة العربية، ص 43 ـ 44.

في طقوسهم وشعائرهم الدينية وخاصة فيما يتعلّق بالخصب والغلّة والتذرّع إلى الآلهة الكنعانية وفي مقدمتهم الإلٰه «بعل» الذي كان أشهر الآلهة في بلاد العرب، إذ كان اليهود يقلّدون الكنعانيين بتسمية أبنائهم بـ «بعل» تبركاً به. وكذلك أخذوا يمارسون الشعائر الخاصة بتقديم القرابين والعطايا، وهي عادة قديمة عامة متّبعة في جميع الشرق الأدنى. ومن ذلك يتّضح أنه لم يكن لليهود أية مساهمة في تقدّم الحضارة الإنسانية وإن أكثر مدوّناتهم الدينية وغير الدينية مأخوذة عن الثقافات القديمة وعن النصوص الأدبية والدينية من عهود السومريين والكنعانيين والفينيقيين والأكديين والبابليين والآشوريين والكلدانيين والمصريين. ومجمل القول إن الموسويين تسلّموا حضارة لم تكن من إبداعهم بل كانت من نتاج غيرهم ويعترف بذلك الدكتور إسرائيل ولفنسون، وهو يهودي، إذ يقول: «إن يهود بلاد العرب لم يظهروا شيئاً من النبوغ والعبقرية مطلقاً ولم يشتهر من بينهم شخصية واحدة في كل عصورها بالرقي الفكري[1] ولكنه يعلّل ذلك بقوله: إن البيئة الجديدة شلّت قوى اليهود الروحانية فتغلّبت عليهم العقلية البدوية، وهذا التعليل غير وارد لأن البيئة الجديدة لا يمكن أن تشلّ القوى الروحانية بل على العكس من ذلك فهي تغذّي القوى الروحانية.

ويؤكد العلّامة الدكتور غوستاف لوبون هذه الحقيقة فيقول: «لم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة ولا أي شيء تقوم به حضارة، واليهود لم يأتوا قط بأية مساعدة مهما صغرت في إشادة المعارف البشرية، واليهود لم يجاوزوا قط الأمم شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ»[2].

ويقول العلامة بريستد تأييداً لذلك: «إن بني إسرائيل (قوم موسى) عندما جاؤوا إلى بلاد كنعان كانت المدن الكنعانية ذات حضارة قديمة نشأت منذ ألف وخمسمائة سنة ومنازل متقنة فيها كثير من أسباب الراحة وحكومة وصناعة وتجارة وعلم ومعرفة بالكتابة وديانة حضارة. اقتبسها هؤلاء العبرانيون

---

(1) «**تاريخ اليهود في بلاد العرب**»، ص 812

(2) غوستاف لوبون، «**اليهود في تاريخ الحضارات الأولى**».

(الموسويون) الساذجون من مواطنهم. . . وقد أحدث الامتزاج مع الكنعانيين تغييرات جوهرية في حياة العبرانيين (الموسويين) فغادر بعضهم سكنى الخيام وشرعوا يبتنون بيوتاً كبيوت الكنعانيين وخلعوا عنهم الجلود التي كانوا يلبسونها وهم في البادية ولبسوا عوضاً عنها الثياب الكنعانية المصنوعة من منسوجات. صوفية زاهية»[1].

ويضيف بريستد ما يشير إلى المعنى نفسه قوله: «لقد كانت بعض العناصر الهامة في المدينتين البابلية والمصرية القديمة عاملاً جوهرياً في تكييف الحياة والثقافة في مدن الساحل الفينيقي الزاهرة التي كانت تتألف منها المراكز التجارية الفينيقية. . وأما في بلاد فلسطين التي دخلها العبرانيون (الموسويون) فيما بعد، فإن الكنعانيين الذين كانوا يسكنون هذه البلاد قبل العبرانيين، كانوا قد اجتازوا مرحلة من النموّ المتحضّر تبلغ أكثر من ألف سنة حينما غزا العبرانيون البلاد.

«وقد عرفنا من النقوش التاريخية البابلية والمصرية القديمة وكذلك من الحفائر الأثرية، شيئاً كثيراً عن هذه المدنية الفلسطينية الراقية النامية السابقة لعهد العبرانيين. كما أنه كان للثقافة البابلية أثر هام خالد في فلسطين الكنعانية، وعن طريق الكنعانيين ـ بوجه خاص ـ وصل أثر البابليين في الفن والأدب والدين إلى العبرانيين. يُضاف إلى ذلك أن هذا الإقليم كان منذ زمن بعيد واقعاً تحت نفوذ الحضارة المصرية القديمة. فقد بدأ المصريون يبسطون سيطرتهم على الساحل الفينيقي قبل أن يطأ العبرانيون فلسطين بأكثر من ألفيّ سنة، إذ اقتحمت الجيوش المصرية فلسطين قبل سنة 2500 ق.م. ولمّا فتح الفراعنة المصريون آسيا الغربية ووصلوا في فتوحهم إلى نهر الفرات في خلال القرن السادس عشر ق.م. بقيت فلسطين مستعمرة في أيديهم أكثر من أربعة قرون، والواقع أنهم حكموا فلسطين مدّة قرنين بعد دخول العبرانيين فيها، وبذلك بلغت المدنية الكنعانية مرتبة سامية في القرون التي احتلتها فيها مصر.

---

(1) بريستد «**العصور القديمة**»، الترجمة العربية، بيروت، 1926، ص 55.

فلما غزاها العبرانيون كانت قد صبغت مراراً وتكراراً بالعناصر المصرية. . والواقع الذي لا شك فيه أن اللغة التي وجدها العبرانيون الفاتحون، **وهي اللغة الكنعانية، لغة البلاد وقتئذ، قد اتخذها العبرانيون أنفسهم لغة لهم، وهي التي انحدرت إلينا فيما بعد في ثوب اللغة العبرانية التي كُتبت بها التوراة»**[1].

وكتب المرحوم العقّاد بأسلوبه الأدبي الرائع في هذا الموضوع، حيث يقول: «إن بني إسرائيل[2] قبيلة لم تتطور، وقد ظلّت بين البادية والحاضرة، قبيلة لم تستوف أطوار البادية ولم تتحول إلى أطوار الحضارة شعباً (مدنياً) يتمشّى مع الحياة المدنية على سُنّة جميع الشعوب، ولازمتها عادة المعيشة على السمسرة والوساطة فلم تتقدّم إلى آخر الشوط في تثمير أعمال البدو ولا في تثمير أعمال الحضر، فهي في حالة العزلة الاجتماعية وما يلازمها عند البدو من عزلة العصبية بالدم والسلالة. .»[3].

ولم يقتصر تأثر اليهود في الحضارة الكنعانية على الدين والأدب بل شمل الناحية العمرانية الفنية أيضاً، فيقول الأستاذ طه باقر في ذلك «إن هيكل سليمان المشهور لم يقتصر على أن بنَّائية كانوا من (صور) بل إنه بني بموجب تصميم معبد كنعاني، وكذلك يقال في زخرفته وتزويقه. وهكذا كانت قصور ملوكهم في أورشليم»، وإن كلمة «هيكل» أخذها اليهود من كلمة «هياكل» الكنعانية[4].

ملاحظات ختامية:

نستخلص مما تقدّم أن شريعة التوراة التي دوّنها الكهّان اليهود في فلسطين وفي بابل لا تخرج عن نطاق الشرائع البدائية القديمة التي كان يعمل بها أقوام تلك العصور وقد اقتبسوها منهم وهي لا تصلح لغير أزمان تلك

---

(1) بريستد، «**فجر الضمير**»، ص 372 ـ 373.

(2) وهو يسمي أتباع موسى بني إسرائيل مجاراة للتوراة.

(3) «**الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين**»، ص 56.

(4) طه باقر، «**مقدّمة في تاريخ الحضارات القديمة**» (ج 2، ص 300 ـ 301).

المجتمعات البدائية. ومما لا شك فيه أن مدوّني التوراة الذين دوّنوا أكثر موادها في الأسر في بابل في عهد الكلدانيين كانوا محيطين بالمدوّنات القديمة التي كانت في متناول أيديهم وكانوا يحسنون جميع لهجاتها السامية وحتى اللغة السومرية وكذلك الهيروغليفية. ومن الثابت أنهم اقتبسوا الكثير من هذه المدوّنات التي لم نعثر حتى الآن إلّا على جزء يسير ويسير جداً منها بين الأنقاض. وهذا كله يدلّ على أنه ليس فيما دوّن في التوراة أدب مبتكر خاص باليهود لأن أهمّ ما ورد فيها مقتبس من مدوّنات سبقتها كان رجال الدين من اليهود محيطين بها ولم يصل إلينا منها إلّا النزر اليسير كما ذكرنا. لذلك فإذا كان لليهود فضل على الحضارة فهو ينحصر بمحافظتهم بوجه خاص على جانب من ثقافة الكنعانيين العرب وآدابهم الدينية وجغرافية بلادهم وذلك باقتباسها وضمّها إلى كتبهم المقدّسة ثم نقلها إلينا عبر الزمن الطويل..

ومن الغريب حقاً بعد كل هذا أن أكثر الكتّاب الأجانب عندما يتطرّقون إلى التشابه بين المدوّنات الآثارية وبين كتابات التوراة فإنهم بدلاً من أن يعترفوا صراحة أن الثانية مقتبسة عن الأولى يحوّرون التعبير فيقولون إن المدوّنات الآثارية جاءت مؤيدة لما ورد في التوراة، وكأنهم بذلك يريدون أن يعتبروا كتابات التوراة هي القديمة وأن المدوّنات الآثارية جاءت مؤيدة لها، وهذا لا يخلو من المغالطة التي تجعل الباحث يحتار في أمره، هل أن التوراة هي الأقدم أم المدوّنات الآثارية؟!!...

وقد سار الكتّاب على هذا النهج في بحثهم عن اللغة العبرية فلم يستطيعوا التخلص من تأثير الكتابات الأجنبية التي تدخل العبرية (بمعنى اليهودية) في كل مكان وفي كل زمان: إن المعلوم في الأوساط التاريخية أن الكنعانية هي اللغة الأصلية القديمة التي كانت سائدة في فلسطين قبل مجيء موسى وأتباعه بعدة قرون وقد اقتبسها الموسويون من الكنعانيين، ثم تكوّنت بعد ذلك اللهجة العبرية المقتبسة من الآرامية بعد مرور أكثر من خمسمائة عام على دخولهم أرض فلسطين. ولكن على الرغم من اعتراف الاختصاصيين بعدم وجود أية لغة عبرية (بمعنى يهودية) في فلسطين غير الكنعانية في تلك العصور،

يعودون فيطلقون على الكنعانية تسمية «عبرانية التوراة» (Biblical Hebrew) «العبرية القديمة»، فيقول الأستاذ الأبراشي مثلاً: «يتضح أن العبرية القديمة نشأت في فلسطين حتى قبل مهاجرة الإسرائيليين (الموسويون) إلى كنعان»[1]. فإذا كانت هذه اللغة نشأت قبل ظهور موسى وأتباعه فكيف أطلق عليها اسم العبرية (بمعنى اليهودية) قبل أن يكون قد وجد اليهود في كنعان!.. ومثل ذلك يعتبر المطران يوسف الدبس «اللغة الموآبية فرعاً من اللغة العبرية (اليهودية)[2]، ففي مجرى حديثه عن مسلة ميشاع ملك موآب التي أقامها بمناسبة انتصاره على ملك إسرائيل في حوالي منتصف القرن التاسع قبل الميلاد يقول: «إن النصّ الوارد على هذه المسلة، هو باللغة الموآبية وبالحروف الأبجدية الفينيقية يمكن ردّ كل كلماته إلى أصل عبراني (يهودي)»[3]، وهنا نقف لنسأل: «أية من اللغتين كانت الأقدم! هل كانت الموآبية أم العبرية بمعنى اليهودية!.. فمن المعلوم أن الموآبيين والكنعانيين كانوا سكان فلسطين الأصليين وقد كوّن الموآبيون مثل الكنعانيين حضارة خاصة بهم وكانت لهم حكومات وملوك استمرّت عدّة قرون قبل عصر موسى واليهود وقبل أن تتكوّن اللغة العبرانية (اليهودية) المقتبسة من اللغة الآرامية بأكثر من ألف عام، فكيف يمكن أن تكون اللغة الموآبية والحالة هذه فرعاً من العبرانية أي اليهودية؟!.. ثم بدلاً من أن يقال إن اللغة العبرية تشبه اللغة الكنعانية باعتبارها اللغة الأقدم يذكرون أن الكنعانية تشبه العبرانية مما يوهم القارىء ويجعله يتصوّر أن العبرية هي الأقدم، بل إنهم ذهبوا أبعد من ذلك بحيث اعتبروا اللغة العبرية (بمعنى اليهودية) أصلاً لكل الكتابات السامية الأخرى. ولكن كيف يمكن التوفيق بين هذا الادعاء ووجود الكنعانيين في فلسطين قبل موسى واليهود بأكثر من ألفيّ عام؟.. يقول الأستاذ أوليناري في تعليقه على ذلك «وقد دفع التحيّز اللاهوتي باليهود لأن يعتبروا اللغة العبرية

(1) الأبراشي، «**الآداب السامية**».

(2) المطران يوسف الدبس، «**تاريخ سوريا**»، ج 1، م 2.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 7.

(بمعنى اليهودية) هي اللغة الأم، ليس فقط للّغتين الآرامية والعربية ولكن لجميع اللغات كذلك»[1].

ويعترف الدكتور ولفنسون وهو كاتب يهودي «أن الأحبار اليهود كانوا منذ العصور القديمة يعتبرون أن اللغة العبرية (اليهودية) هي أقدم لغة في العالم، وسرت هذه العقيدة من اليهود إلى غيرهم من الباحثين حتى أن العرب في القرون الوسطى كانوا يعتقدونها»[2] وعلى هذا الأساس فقد اعتبرت أقدم الكتابات التي عُثر عليها في فلسطين، وهي كتابة تقويم جازر التي ترجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد وكتابة نبع عين سلوان في القدس التي ترجع إلى عهد اليبوسيين سكان القدس الأصليين وغيرهما من الكتابات القديمة ككتابة شكيم ولخيش، نماذج من الكتابة العبرية القديمة أي اليهودية. إلّا أن دايرنجر، الخبير في تاريخ الكتابة يقول: «إنه من المستحسن أن تُسمّى هذه الكتابات بالكتابة الكنعانية القديمة»[3].

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن محطة إذاعة لندن العربية كانت قد أذاعت مساء يوم 22 شباط 1971 خبراً مفاده أن المنقّبين توصّلوا إلى اكتشاف هام، هو العثور على مخطوطات في الخليل بلغة سكان فلسطين الأصليين ترجع إلى سنة 700 ق.م.، وتقول الإذاعة إن هذا ما يؤيد أن اللغة العبرية أي اليهودية متأخرة وإن المتكلمين بها أقلية في حين أن لغة سكان فلسطين الأصليين هي التي كانت سائدة في البلاد وتعدّ أقدم اللغات في فلسطين. وهذه العبارة نسمعها لأول مرة من جهة أجنبية وهي تعترف بالحقيقة أي إن اليهود كانوا غرباء طارئين على فلسطين وأقلّية فيها وأن لغة سكان فلسطين الأصلية هي التي كانت سائدة في البلاد لا العبرية بمعنى اليهودية كما اعتاد الباحثون ترديد ذلك في جميع كتاباتهم.

ولم أدع أمر هذا الاكتشاف وما يترتب عليه من مفاهيم جديدة أن يمرّ من

---

(1) أوليناري، **«القواعد المقارنة للغات السامية»**، ص 1.

(2) ولفنسون، **«اللغات السامية»** ص 7.

(3) دايرنجر، **«الكتابة»**، ص 118 ـ 119.

غير تعقيب وتحقيق، فاتصلت بمحطة الإذاعة البريطانية في لندن وطلبت المزيد من المعلومات عن هذا الاكتشاف، فأحالتني المحطة إلى المكتشف العلّامة «مندنهول» (G.E. Mendenhall) أستاذ لغات الشرق الأدنى في جامعة ميشيغان الأميركية فاتصلت به على الفور، وما إن تسلّم رسالتي حتى أجابني مشكوراً على أسئلتي في كتاب مطوّل مؤرخ في 8 تموز 1971. ولما كان هذا الكتاب ماثلاً للطبع فقد انتهزت هذه الفرصة لأضيف إلى ما تقدّم العبارة التالية: يؤكد الأستاذ «مندنهول» بعد اعترافه بتعقيد هذا الموضوع وغموضه أن اللغة في عهد داود وسليمان وفيما بعدهما هي اللهجة الكنعانية وذلك لأن النبي أشعيا سمى لغة ذلك العصر من تاريخ اليهود في القرن الثامن قبل الميلاد بـ «شفة كنعان»، أي لسان كنعان[1]. والغريب أن «مندنهول مع تأكيده بأن الكنعانية هي لغة ذلك العصر في فلسطين وأن الثقافة الكنعانية بما فيها الوثنية كانت هي السائدة آنذاك فهو لا يزال يعتبر هذه اللغة الكنعانية الخالصة «عبرانية التوراة (العهد القديم)»:

The Language of the Old Testement of the Hebrew Bible.

وبذلك يرجع العبرانية (أي اليهودية) والعهد القديم إلى عصر لم يكن لهما أي وجود فيه وذلك على النحو الذي ذهبت إليه التوراة التي تعتبر وجود اليهودية واللغة العبرية في جميع الأزمنة حتى قبل ظهور اليهود إلى عالم الوجود، وهذا هو نفس كلام الأستاذ الأبراشي الذي يعتبر نشوء «عبرية قديمة» (بمعنى يهودية) قبل ظهور اليهود.

ومما يذكر في هذا الصدد أن أول من بثّ هذه النظرية الوهمية الحاخامون والكهنة وانتقلت منهم إلى الكتّاب اليهود فقبلها الناس دون تمحيص كما قبلوا نظرية إرجاع تاريخ اليهود إلى أزمان تسبق ظهورهم إلى عالم الوجود، ومن أمثال هؤلاء الكتّاب الكاتب اليهودي الدكتور إسرائيل ولفنسون، فهو يضرب على الوتر نفسه على رغم اعترافه بأن الأحبار اليهود هم الذين نشروا هذه النظرية منذ أقدم العصور كما تقدّم بيانه، نراه يقول ما نصه: «ومع أنه قد وجدت أمم سامية قبل بني إسرائيل بآلاف من السنين فإن الباحثين

(1) انظر ما تقدّم عن ذلك في الفصل الثالث مادة «تاريخ التوراة مكان وزمان ظهورها».

يرون في اللغة العبرية وآدابها مقياساً صالحاً للبحث في جميع اللغات السامية (كذا)، لأن الذي وصل إلينا من آثار البابليين والآشوريين، والآراميين ضئيل جداً بالقياس إلى ما وصل إلينا من تراث بني إسرائيل. . . **واللغة العبرية من أمهات اللغات السامية، فقد كانت شائعة قبل نشوء بني إسرائيل وظهورهم في العالم (كذا)**، إذ كانت لغة أهل فلسطين الكنعانية ولغة كثير من القبائل في طور سيناء وشرق الأردن، وكان من أهم تلك الأمم بنو أدوم وعمون وموآب وقبائل عماليقية ومديانية وإسماعيلية ثم ظهرت بطون بنو إسرائيل بين هذه الأقوام في طور سيناء وأطراف الحجاز وانتشرت منها إلى الأقاليم الأخرى وبقيت هذه اللغة صاحبة السلطان والنفوذ مدة طويلة (كذا) إلى أن ظهر تأثير إحدى اللهجات الكنعانية وهي الآرامية فأخذت اللهجات **العبرية والكنعانية الأصلية** تضمحل مع التغييرات السياسية إلى أن أصبحت أغلب بطون فلسطين وسوريا والعراق وطور سيناء تتكلم باللهجات الآرامية»[1]. والغريب في ذلك أن أكثر الكتّاب الإفرنج بل كلهم إطلاقاً يأخذون بهذه الأقوال القائمة على اللف والدوران دون أن يقفوا لحظة ليسألوا أنفسهم: كيف يمكن أن تنسب اللغة الكنعانية القديمة إلى العبريين أي اليهود قبل أن يكون اليهود قد ظهروا إلى عالم الوجود؟ وإنه لمن المؤسف حقاً أن نجد العلماء يتقبّلون مثل هذه النظريات التي لا تستند إلى أي واقع تاريخي بل تنافي حدود المنطق والعقل السليم، فتقلب الصورة رأساً على عقب كمن يجعل قدم المرء في الأعلى ورأسه في الأسفل، وكتاب ولفنسون المذكور كان يدرّس في مصر على الطلاب ومعترفاً به كثقة باعتبار مؤلفه مختصّ باللغات السامية وقد أشرف عليه الدكتور طه حسين.

---

(1) ولفنسون، «**تاريخ اليهود في بلاد العرب**» المقدّمة ، ص ز.

الفصل الخامس

عصر إبراهيم وإسحاق ويعقوب

فلسطين أرض غربة بالنسبة لإبراهيم وإسحاق ويعقوب (إسرائيل):

طرح عليّ أحد الزملاء على أثر نشري مقالاً في موضوع «حضارة العرب في فلسطين» السؤال التالي: «ما هي صلة بني إسرائيل بفلسطين؟.. وأين كان وطنهم الأصلي هل هو فلسطين كما يدّعون؟..» «ولاحتمال ورود السؤال نفسه على ذهن القارىء، أي قارىء، أجيب على ذلك السؤال باختصار مستنداً كلياً إلى نصوص التوراة بما يأتي:

أولاً: إن أرض فلسطين باعتراف التوراة ذاتها كانت أرض غربة بالنسبة إلى آل إبراهيم وآل إسحاق وآل يعقوب إذ كانوا مغتربين في أرض فلسطين بين الكنعانيين سكانها الأصليين، والتوراة تتحدّث عنهم بصفتهم غرباء وافدين طارئين على فلسطين(1). أما وطنهم الأصلي فهو «آرام النهرين»، أي منطقة

---

(1) «وقال إبراهيم لعبده كبير بيته المستولي على ما كان له. ضع يدك تحت فخذي. فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم. بل إلى أرضي وإلى عشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني إسحاق». (تك، 24: 3 ـ 4). «ثم أخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ومضى وجميع خيرات مولاه في يده. فقام وذهب إلى آرام النهرين إلى مدينة ناحور». (تك، 24: 10). راجع أيضاً (تك، 24: 33 ـ 34).

أليست هذه عادة عربية أصيلة لا علاقة لها بالتقاليد اليهودية؟ ثم ألا يستشفّ منه أن سيدنا إبراهيم الخليل ﷺ كان غريباً وفرداً في أرض كنعان؟ أو لم يكن بإمكانه فيما لو كان هناك يهود من عشيرته تزويج ولده من إحدى بناتهم بدلاً من إرسال عبده إلى آرام النهرين لجلب عروس لابنه من هناك فلا يفرح بزواج ولده الوحيد؟ =

حاران (حرّان الحالية) حيث كانت العشائر الآرامية التي ينتمون إليها قد استقرّت عند منابع نهر البليخ بعد هجرتها من الجزيرة العربية[1]، ثم نزحت فروع من هذه القبائل إلى جنوبي العراق (منطقة بابل) فكان إبراهيم الخليل من ذريتها. وقد وردت كلمة «اغتراب» كلما ذكر تنقّل إبراهيم الخليل في فلسطين وفي مصر، فقيل: «تغرّب إبراهيم في أرض الفلسطينيين»[2]، و«انحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك»[3]، «وانتقل إبراهيم إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرّب في جرار»[4] ولما اشترى إبراهيم أرض مغارة المكفيلة من الحثيين في حبرون قال لهم: «أنا غريب ونزيل عندكم أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي»[5]. ومثل ذلك ورد في التوراة فيما يخص إسحاق ويعقوب: «وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان»[6]. «وجاء يعقوب إلى إسحاق أبيه إلى حبرون، حيث تغرّب إبراهيم وإسحاق»[7] «تصرّح

= راجع أيضاً (تك 28: 1 ـ 3)؛ (تك، 47: 7 ـ 9).

(1) يجب التمييز هنا بين بني إسرائيل عند هجرتهم إلى مصر في القرن السابع عشر قبل الميلاد، وهم أسرة واحدة لم يتجاوز عدد أفرادها السبعين شخصاً، وبين قوم موسى عندما نزحوا إلى فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، لأن أسرة إسرائيل انصهرت وذابت في المجتمع المصري على مرّ الزمن بحيث لم يبق لها أي أثر عندما غزا النبي موسى وأتباعه أرض فلسطين بعد خروجهم من مصر بعد مرور حوالي ستمائة عام على زمن دخول أسرة يعقوب إلى مصر. لقد كان هؤلاء يؤلفون حملة مصرية بحتة أكثرها من بقايا الهكسوس ومن الجنود المصريين الفارّين كما سنوضح ذلك فيما بعد.

(2) (تك، 21: 34)؛ راجع أيضاً (تك، 22: 19).

(3) (تك، 12: 10).

(4) (تك، 20: 1).

(5) (تك، 23: 4).

(6) (تك، 37: 1)؛ راجع أيضاً: «وظهر الرب لإسحاق وقال لا تنزل إلى مصر. أسكن في الأرض التي أقول لك تغرّب في هذه الأرض. (تك، 26: 1 ـ 3)».

(7) (تك 35: 27). راجع أيضاً ثم أخذ عيسو نساءه وبنيه وبناته وجميع نفوس بيته من وجه أخيه يعقوب لأن أملاكهما كانت كثيرة على السكن معاً ولم تستطع أرض غربتهما أن تحملهما من أجل مواشيهما» (تك 36: 6 ـ 7).

وتقول أمام الرب إلٰهك: آراميا تائهاً كان أبي فانحدر إلى مصر وتغرّب هناك». وهكذا فلا يمكن أن تكون كلمة «تغرّب» بمعنى اتجه نحو الغرب لأن ورود كلمة «أرض الغربة» تنفي هذا الاحتمال.

ثانياً: إن أبناء إسرائيل الاثني عشر ولدوا كلهم باعتراف التوراة في فدان آرام (منطقة حرّان)[1] حيث مكث أبوهم يعقوب المسمى بإسرائيل عشرين سنة[2]، ويعني ذلك أن مولدهم ونشأتهم كانا خارج فلسطين. وهؤلاء هم بنو إسرائيل الذين ورد ذكرهم في التوراة، وقد عرضت التوراة قصة يوسف مع إخوته وما حدث له في مصر بعد أن بيع فيها وكيف دخل في خدمة فرعون وتولّى إدارة شؤون الدولة ثم نزوح إخوته إلى مصر مع أبيهم يعقوب (إسرائيل). ويعتقد أن نزوحهم هذا قد تمّ في عهد حكم الهكسوس في مصر (1785 ـ 1580 ق.م.)[3]. وتقول التوراة إن النبي موسى ظهر بعد ذلك في مصر على أثر الاضطهاد والتسخير اللذين تعرّض لهما أتباعه على عهد الفرعون رعمسيس الثاني (1237 ـ 1204 ق.م.) فخرج موسى بهم إلى أرض كنعان (فلسطين) وهذا هو الذي أطلق عليه اسم «الخروج» في التاريخ اليهودي. كما تذكر التوراة أن ابنيّ يوسف (منسّى وأفرايم) ولدا من أسنات بنت «فوطي فارع» كاهن «عون» في مصر ونشأ فيها[4].

ففي كل ذلك دلائل وافية على أن وطن بني إسرائيل الأصليّ لم يكن **فلسطين بل منطقة حران الآرامية حيث كانت تقطن العشائر الآرامية التي هم من أفخاذها، وأن جميع الإخوة الذين ورد ذكرهم في التوراة ولدوا ونشأوا خارج فلسطين، ونحن حين نؤكد ذلك نستند إلى مرجع التوراة ذاتها التي تعترف بصراحة تامة بذلك.**

---

(1) «وكان بنو يعقوب اثني عشر أخاً، بنو ليئة: رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذ ويساكر وزبولون، وابنا راحيل: يوسف وبنيامين، وابنا بلهة جارية راحيل: دان ونفتالي، وابنا زلفة جارية ليئة جاد وأشير». وهؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا في فدان آرام (تك، 35: 23 ـ 26).

(2) (تك 32: 28).

(3) انظر ما تقدّم عن الهكسوس في الفصل الأول.

(4) (تك 50: 52).

عصر إبراهيم وإسحاق ويعقوب هو غير عصر موسى واليهود ولا صلة بينهما:

سبق أن عرضنا في الفصل الثالث (مادة تاريخ التوراة) أن الأحداث التاريخية التي مرّت على اليهود والتوراة تدعونا إلى التمييز بين ثلاثة أدوار بالاستناد إلى التسميات الثلاث (إسرائيل وقوم موسى ويهود)، هذه التسميات التي تمّ تداول كل منها في دوره الخاص به. وقد أشرنا بصورة مقتضبة إلى أن دور إبراهيم وإسحاق ويعقوب (إسرائيل) هو دور مستقلّ بذاته ليس له أية صلة بدور النبي موسى وقومه أي اليهود. والسؤال الذي يفرض نفسه والذي سنجيب عنه بالأدلة المقنعة: هل الجماعة التي خرجت من مصر بقيادة موسى تنتمي إلى إسرائيل كما ادّعى مدوّنو التوراة؟..

من الواضح أن أهمّ ما كان يهدف إليه كتبة التوراة عندما أخذوا بتدوينها بعد عهد إبراهيم الخليل بأكثر من ألف وثلاثمائة عام وبعد عهد موسى بسبعمائة عام هو إرجاع نسب بقايا الجماعة التي خرجت من مصر بقيادة النبي موسى، ومدوّنو التوراة هم أنفسهم من بقايا هذه الجماعة، إلى إبراهيم الخليل بغية إرجاع أصلها المجهول إلى أقدس العروق من الأجناس البشرية، ثم تثبيت عقيدة الأرض الموعودة (الوهمية) على لسان إبراهيم وموسى وهما بريئان منها. واندفاعاً وراء تحقيق هذا الهدف ربط مدوّنو التوراة صلة هذه الجماعة مباشرة بإبراهيم الخليل وبحفيده يعقوب (إسرائيل) لكي ترفع من مكانتها بين البشر وتجعل منها الشعب المختار، وذلك من غير أن تتطرّق إلى الفاصل الذي يفصل بين جماعة موسى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وبين جماعة إبراهيم الخليل وحفيده يعقوب في القرن التاسع عشر والسابع عشر قبل الميلاد على التوالي، وهو الفاصل الذي يمتدّ سبعمائة عام بين عهد إبراهيم الخليل وعهد جماعة موسى، وقبل أن نحلّل هذا الفاصل في ضوء ما طرأ من أحداث خلاله لا بدَّ من شرح نقطة مهمة وهي أن أسماء أبرام ويعقوب ويوسف وحتى تسمية إسرائيل التي تعني يعقوب، هذه الأسماء كلها كانت أسماءً روحانية مقدّسة في البلاد منذ عهد قديم، وهي أسماء كنعانية أصيلة ترجع إلى ما قبل

الألف الثانية قبل الميلاد، وكانت تُطلق على الأشخاص والأماكن تبرّكاً بها كما هو متّبع عندنا حالياً تماماً: فقد ورد اسم أبرام في المصادر البابلية والمصرية للدلالة على أشخاص وأماكن بهذا الاسم[1]، كما ورد في الكتابات المصرية أسماء يعقوب ويوسف مقرونين بالإله «إيل» أي «يعقوب ـ إيل» و«يوسف ـ إيل»، ومعنى ذلك «ليحم الإله إيل يعقوب» و«ليحم الإله إيل يوسف»[2]، والإله «إيل» هو «الإله العلي العظيم» (supreme God)[3] عند الكنعانيين والآراميين وهو الإله نفسه «إيل» الوارد في التوراة والمقرون بعهد إبراهيم الخليل، وهو غير الإله «يهوه» إله اليهود الذي اختلقه كتبة التوراة كإله خاص بهم عندما كتبوا التوراة في وقت متأخر. وقد جاء اسما «يعقوب إيل» و«يوسف إيل» بين أسماء المدن الكنعانية التي احتلّها الفرعون «تحوطمس الثالث» (أحد فراعنة السلالة الثامنة عشرة) (1479 ـ 1447 ق.م.). كما ورد اسم «إسرائيل» في الكتابات المصرية أيضاً بصفة اسم لمنطقة تقع في جنوب فلسطين كان قد أخضعها «مرنفتاح» (أحد فراعنة السلالة التاسعة عشرة) في حوالي سنة 1330 ق.م. هي «واشقلون» (عسقلان) و«جازر» ومدينة حورية أخرى في فلسطين ويقول «لودز» في ذلك: «ومن المحتمل أن تكون هناك مستعمرة كنعانية كانت تُعرف باسم إسرائيل في فلسطين آنذاك»[4]. ومما يدلّ على أن هذه التسمية «إسرائيل» كانت لها قدسيتها وروحانيتها في تلك العصور السحيقة أن التوراة تذكر بأن تسمية يعقوب بإسرائيل جاءت نتيجة «جهاده مع الله والناس»[5]، ولما كانت الكلمة مقرونة بالإله «إيل» أيضاً فقد ترجمها العلماء المحدثون بمعنى «ليحكم إيل» أو «ليسطع إيل»[6]. وصفوة القول إن

---

(1) انظر ما يلي في هذا الفصل «هجرة إبراهيم الخليل حقيقة واقعية».

(2) lods, **«Israël»**, p. 47.

(3) انظر ما تقدّم في الفصل الثالث: «هل كان اليهود أول من اعتنق عقيدة التوحيد».

(4) lodes, **«Israël»**, p. 188.

(5) (تك 32: 28).

(6) الواقع أن إسرائيل كلمة كنعانية مثل يعقوب ـ إيل ويوسف ـ إيل تتكون من مقطعين، الأول «أسر» بمعنى «عبد» وآخر «إيل» وهو الإله «إيل» فيكون معنى إسرائيل «عبد الإله إيل». =

جميع هذه الأسماء كنعانية الأصل كانت متداولة في عهود إبراهيم الخليل وما قبله وذلك قبل ظهور موسى واليهود وقبل تدوين التوراة بأكثر من ألف وخمسمائة عام. ويرى أولبرايت أن هذه الأسماء الواردة في التوراة مثل أبرام ويعقوب وبنيامين وزبولون كانت أسماءً مشهورة عند الآراميين[1]. وعادة تسمية الأماكن بأسماء الأشخاص عادة قديمة مألوفة منذ أقدم العصور، وهي ما تزال متّبعة حتى يومنا هذا، وقد ورد في التوراة عدداً من الأسماء الشخصية التي سُمِّيت بها بعض الأماكن في فلسطين مثل بلعام وصيدون وكنعان وغيرها. وفي ذلك يقول كيللر: «إن أسماء أجداد إبراهيم وأسلافه تخرج من العصور المظلمة وهي لا تعدو كونها أسماء مدن واقعة في شمال غربي بلاد ما بين النهرين»[2].

إن جماعة يعقوب المسماة ببني إسرائيل غادرت أرض وطنها الأصلي «حاران» (حران حالياً) وأرض غربتها (فلسطين) في حوالي القرن السابع عشر قبل الميلاد إلى مصر، وهناك تزوج يوسف من ابنة رئيس الكهنة في مصر، وتقول التوراة: إن ذرية هذه الجماعة نفسها خرجت من مصر بعد مرور زهاء خمسة قرون وقد سمّتها ببني إسرائيل لتغزو فلسطين (أرض كنعان) متجاهلة ما حدث لهذه الجماعة في مصر خلال فاصل القرون الخمسة. أما إذا رجعنا إلى المكتشفات الآثارية نجد أن هذه الغزوة المنسوبة إلى من سُمِّي ببني إسرائيل إن هي إلّا حملة مصرية على فلسطين وهذه ليست الغزوة المصرية الأولى لفلسطين فقد سبقتها عدّة غزوات مماثلة على عهد الفراعنة الأوائل، إذ كانت مصر تعدّ أرض فلسطين أشبه بمحمية مصرية لأن سلامتها مرتبطة مباشرة بها لوقوعها

= وتقول الباحثة أبكار السقاف في كتابها «**إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة** (ص133) إن الكلمة عبرية، وهذا غير وارد لأن مصطلح إسرائيل ورد في الكتابات المصرية قبل أن تتكوّن اللهجة العبرية التي ظهرت بعد عصر موسى بعدّة قرون وهذا باعتراف المؤلفة في مكان آخر من كتابها (ص481) بقولها: إن اللغة العبرية حديثة العهد نسبياً لأنها لم تبتكر إلّا بعد عهد موسى ببضعة قرون. انظر أيضاً: Ency. Brit. 1965 ed. Vol. 12, p. 696.

(1) **«The Jewish people, past and present»**, Vol, I, p. 30.

(2) كيللر «**التوراة كتاريخ**»، ص 68.

على حدودها الشرقية، وهي الطريق الطبيعية للغزاة الذين يقصدونها من الشرق فقد نقلت لنا الكتابات المصرية القديمة أن الفرعون تحوطمس الثالث (1479 ـ 1447 ق.م.) وحده قام بسبع عشرة حملة على أرض آسيا وهذه كلها عن طريق فلسطين بطبيعة الحال[1]. لذلك كانت مصر تؤازر الملوك الكنعانيين وتسندهم بكل ما لديها من قوة مادية ومعنوية ضد الغزاة من الأقوام المجاورة لهم وذلك من غير أن تتدخّل في شؤونهم الثقافية والدينية. وهناك دلائل قوية إلى أن ما عزاه كتبة التوراة لبني إسرائيل في حملتهم على فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد بقيادة النبي موسى لم يكن إلّا حملة مصرية بحتة على نمط الحملات المصرية العديدة التي سبقتها، فقائدها نبي مصري، وهي حملة مؤلفة من بعض الجنود المصريين ومن فلول بقايا الهكسوس والبعض الآخر، كما يقول الدكتور غوستاف لوبون، من الأسرى والعبيد الفارّين من سادتهم[2]. ومما لا شك فيه أن جميعهم كانوا يتكلمون اللغة المصرية. هذا مع فارق كون هذه الحملة منشقّة على الدولة الأم (دولة الفراعنة) وهي لا تتمتّع بالتنظيم العسكري المألوف كما أنها لا تتمتع بإسناد الدولة كما كانت تتمتع به حملات الفراعنة السابقة العديدة على فلسطين خلال الألف والخمسمائة عام المنصرمة. والفارق الآخر هو أن أهداف هذه الحملة لم تكن أهدافاً سياسية ترمي إلى خدمة مصلحة الدولة المصرية، وإنما جاء أفرادها فارّين من وجه الاضطهاد الذي كانوا يعانونه من المجتمع الوثني، وقد جاؤوا ليحتلوا أرضاً عامرة بوسائل الحياة ليأووا إليها ويعيشوا عليها. ولم تكن لديهم القوّة الكافية لطرد سكان البلاد والحلول محلهم لذلك بقوا زهاء نصف قرن بلا مأوى حتى تمكّنوا من تثبيت أقدامهم في الجانب الشرقي من الأردن. ويجب ألّا ننسى أن المبدأ الأساس لهذه الجماعة كان منذ خروجهم من مصر مبدأ دينياً بحتاً لا زمنياً أو سياسياً، تمّ اضطهادهم في مصر بسبب أخذهم

---

(1) Lods, «Israël», p. 46.

(2) «**اليهود في تاريخ الحضارات الأولى**» ترجمة عادل زعيتر، ص 33، انظر أيضاً: J. Smith, **«God and Man in Early Israël»**, p. 36.

بديانة التوحيد التي ورثوها من عهد أخناتون كما سنشرح ذلك فيما يلي، ثم **جاء اليهود وهم من بقايا هذه الجماعة فحافظوا على هذا المبدأ حتى يومنا هذا، ليكونوا مجتمعاً دينياً بلا قومية محدّدة.** والدليل على اهتمام مصر بفلسطين أنها احتضنت فيما بعد ما سُمِّي بدولة إسرائيل ومدّتها بالمال والمعونة وأكثر من ذلك أن فرعون مصر زوّج ابنته من الملك سليمان على قول التوراة[1]، وأرسل جيشاً لمعاونته في احتلال بعض المدن التي عجز عن إخضاعها[2].

ويجب قبل شرح الدلائل التي تسوقنا إلى هذا الاستنتاج أن نذكر أن هناك حادثين مهمين وقعا في مصر خلال فترة القرون الخمسة التي تلت هجرة أسرة يعقوب إلى مصر، وهي الفاصل الذي يفصل بين جماعة يعقوب (إسرائيل) وجماعة موسى مما أدّى إلى ذوبان جماعة يعقوب في البيئة المصرية كلها، أولهما حكم الهكسوس في مصر (1785 ـ 1580 ق.م.)[3] وقد كان يوسف أخو بني إسرائيل في زمان حكم مصر آنذاك مع الملاحظة أن هجرة آل يعقوب إلى مصر وقعت في هذا العهد بالذات. والمعلوم أن يوسف كان بحكم منصبه مندمجاً بالشعب المصري وخاصة بعد أن تزوج من «أسنات» بنت «فوطي فارع» رئيس الكهنة في مصر وولد له ابناه منسَّى وأفرايم في مصر منها[4]. وهل أكثر من هذا الاختلاط بالشعب المصري في بداية هذه الفترة؟ وهل يعدّ ابنا يوسف (منسَّى وأفرايم) من نسل يعقوب مائة بالمائة؟. وهل كان ما يمنع زواج منسَّى وأفرايم من مصريات أيضاً مثل أبيهما بحكم انتساب أمهما إلى الكاهن المصري الأعلى؟.. ثم هل كان ما يمنع أبناء إخوة يوسف أن يتزوجوا من مصريات أيضاً اقتداء بعمهم يوسف؟.. نحن لا نستطيع أن نتصوّر في ضوء التحليل العلمي أن تكون أسرة واحدة (لا عشيرة) تتكوّن من

---

(1) (1 مل، 3: 1).
(2) (1 مل، 9: 16).
(3) انظر ما تقدّم عن الهكسوس في الفصل الأول.
(4) (تك، 46: 20).

سبعين شخصاً على قول التوراة قد هاجرت إلى بلد غريب وبقيت زهاء خمسمائة عام في هذا البلد من غير أن تنصهر وتذوب في محيطها الجديد ثقافياً واجتماعياً وحتى عرقياً. ويجب أن لا ننسى أن قبائل الهكسوس الحاكمة التي عاش يوسف وإخوته في كنفها، أن هذه القبائل ذاتها أخذت باللغة المصرية وبثقافتها كما هو معلوم وصار أتباعها في آخر عهدهم مندمجين بالمحيط المصري حتى أخذوا يتّسمون بأسماء مصرية كما أخذ ملوكهم يقلّدون الفراعنة في سيرة حياتهم، مع أنهم لم يبقوا في مصر أكثر من قرنين من الزمن.

ومما ساعد على ذوبان ذرية يوسف وإخوته بالشعب المصري كلياً هو الحادث الثاني، ونعني به اعتناق أخناتون فرعون مصر (1375 ـ 1358 ق.م.)، بعد عهد يوسف وعهد الهكسوس، دين التوحيد وفرض هذا الدين على الشعب المصري، إذ دخلت أثر ذلك جمهرة من المصريين ومعهم حاشية الملك والطبقة الحاكمة في ديانة التوحيد جرياً على العادة المألوفة (الناس على دين ملوكهم) والظاهر أن أخناتون كان ينوي تعميم هذا الدين على جميع أنحاء الإمبراطورية المصرية في ذلك الزمن[1] والأرجح أن أخناتون أخذ بديانة التوحيد متأثراً بعهد الهكسوس وعهد يوسف ويعقوب مما أدّى إلى اندماج ذرية إسرائيل بالمصريين بعد أن أخذ عدد كبير من المصريين بدين التوحيد، إذ لم يبق ما يفرّق بينهم وبين المصريين الذين اعتنقوا ديانة التوحيد، لأن الدين كان أقوى رابطة بين الأقوام في تلك الأزمان وبه يتميز الناس بعضهم عن بعض. وفضلاً عن ذلك فإذا اعتبرنا أن بني إسرائيل (ذرية يوسف وإخوته) كانوا مرتبطين بالهكسوس في خلال حكمهم في مصر، فلا بدَّ أن يكونوا قد خرجوا مع الهكسوس عند إخراجهم من مصر، هذا إذا فرضنا أنهم لم يندمجوا بالمجتمع المصري. لذلك فإن الدلائل كلها تدلّ على أن الجماعة التي خرجت من مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد بقيادة موسى كانت جماعة من المصريين الذين اعتنقوا دين التوحيد وقد اضطروا إلى مغادرة البلاد بعد أن

(1) انظر ما تقدّم في الفصل الثالث: «دعوة أخناتون فرعون مصر لعبادة الإله الواحد».

أخذ الحاكمون يضطهدونهم في أعقاب موت أخناتون. ويتجلّى ذلك بكل وضوح إذا أخذنا بالنظرية القائلة بأن النبي موسى مصري الأصل وكان قائداً مصرياً كما ورد في الأخبار وقد سبقت الإشارة إلى ذلك[1].

إن موسى نبي تعترف بنبوّته الديانات الثلاث، ولكن هل هناك دلائل على أن موسى كان محتفظاً بدم بني لاوي الذين جاؤوا إلى مصر قبل زهاء خمسمائة عام، أي إنه يرجع إلى طبقة الكهنة الذين كانوا يرعون الشؤون الدينية في مجتمع بني إسرائيل على حدّ قول التوراة؟[2] . . . فالباحثون في هذا العصر يرون غير ذلك، فيقول الكاتب اليهودي المشهور فرويد: إنّ موسى كان قائداً مصرياً في الجيش المصري ولم يكن من اللاويين كما جاء في التوراة، ويزعم فرويد أيضاً أن موسى قد تأثر بمذهب التوحيد الذي نادى به أخناتون إذ عاش في كنف تلك البيئة الموحّدة عند آل فرعون ثم راح بعد موت أخناتون يبشّر بمذهب التوحيد هو وأتباعه من المصريين. لذلك يكون من سمّي في التوراة ببني إسرائيل من أتباع موسى النبي لا يمتّون بأية صلة بمحيط الساميين العرب الذي عاشه إبراهيم الخليل وحفيده يعقوب قبل مئات من السنين، كما أنهم لا يمتّون بأية صلة بذرية إسماعيل وإسحاق الذين بقوا محافظين على الدم السامي العربي الخالص الذي يرجع إلى عهد إبراهيم الخليل. والدليل على ذلك أن أتباع موسى قد جاؤوا وهم غرباء بل أعداء لبني إسماعيل ولبني عيسو ولسكان كنعان بوجه عام ينوون غزو بلدهم وإبادتهم ليحلّوا محلهم ولم تربطهم بسكان كنعان أية صلة. أفلم تقل التوراة بأن النبي موسى تربّى في بلاط فرعون وأن ابنة فرعون اتخذته ابناً لها وهو طفل؟ فهل تربى في البلاط بلسان يعقوب (إسرائيل) أم بلسان فرعون مصر؟ فإن سمت التوراة أتباع موسى ببني إسرائيل أو لم تسمهم، فهم لا يرتبطون بعهد إبراهيم الخليل إطلاقاً، ولا صلة لهم به قطعاً، لأن لغة إبراهيم كانت غير لغتهم، وعهد إبراهيم غير عهدهم، وإلٰه

(1) انظر ما تقدّم: «تاريخ التوراة ـ لغتها ـ مكان ظهورها» في الفصل الثالث. انظر أيضاً الفصل الذي يلي «عصر موسى واليهود».
(2) (خر، 2: 1).

إبراهيم غير إلٰههم، وإن ارتباط إبراهيم بجزيرة العرب وبقبائل العرب البائدة تجعله منعزلاً عنهم انعزالاً تاماً.

وصفوة القول إن عصر إبراهيم الخليل لم يكن له أي ارتباط بقوم موسى الذين سمّتهم التوراة ببني إسرائيل للغرض الذي شرحناه وقد ظهروا بعد سبعمائة عام من دور إبراهيم الخليل، فهو عصر قائم بذاته ولا علاقة له بمن سمّوا ببني إسرائيل في عهد موسى لا في الثقافة ولا في اللغة ولا في العرق، فدور إبراهيم الخليل مرتبط كما نبّهنا إليه القرآن الكريم ببيت الله العتيق، أي بالجزيرة العربية التي هو منها وإليها يعود وهي وطن آبائه وأجداده الأصلي قبل هجرتهم إلى وادي الرافدين، فدوره يرتبط بتاريخ العرب مباشرة وهو العصر العربي القديم المعاصر للقبائل العربية التي هو منها والتي سُمِّيت بالعرب البائدة فيما بعد لانقراضها. والدليل على أن عهد إبراهيم الخليل ويعقوب عهد مستقل لا صلة له بعهد موسى واليهود أن الآثاريين ميّزوه عن الأدوار التالية، إذ أطلقوا عليه اسم «عصر الآباء الجوالين» (The wandering of the patriarchs).

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن القرآن الكريم كان أول من كشف لنا عن هذه الحقيقة التاريخية وقد جاءت المكتشفات الآثارية حول الهجرات السامية العربية إلى الهلال الخصيب ودراسة علم المقارنة بين اللغات مؤيدة لهذه الحقيقة نفسها التي تربط صلة إبراهيم الخليل بجزيرة العرب وبالحجاز.

وقد يسأل سائل: كيف يفسّر بقاء أسماء يعقوب وإسرائيل ويهوذا بعد عهد إبراهيم الخليل بعدّة قرون، وكيف يمكن التوفيق بين نظرية زوال أسرة إسرائيل وذوبانها بالبيئة المصرية وبين بقاء هذه الأسماء في عصور لاحقة ترجع إلى ما بعد عهد موسى؟.. وهنا ينبغي أن نرجع إلى العهود القديمة التي تعود إلى عهد البابليين والكنعانيين، إذ ثبت أن جميع هذه الأسماء ـ أبرام ويعقوب وإسماعيل وإسرائيل ويوسف وناحور وتارح وصهيون وبنيامين ودان وأشير وزبولون وغيرها من الأسماء الواردة في التوراة ـ كانت أسماء كنعانية بابلية متداولة في العالم العربي السامي قبل ظهور قوم موسى وقد وردت في النصوص القديمة وظلّت متداولة بين الناس في شرقنا العربي السامي حتى

يومنا هذا. فإن اسم يهوذا في القرن التاسع قبل الميلاد ليس معناه أنه يهوذا بن يعقوب نفسه في القرن السابع عشر قبل الميلاد. فضلاً عن أن «يهوذا» اسم قديم لمنطقة قديمة في كنعان وكذلك اسم إسرائيل. ومرة أخرى نقول: ليس من السهل التخلّص من التقليد الشائع منذ آلاف من السنين وهو التقليد الذي يربط كل شيء باليهودية وبالتوراة، أما الحقيقة فهي أن هذه الأسماء كلها أسماء عربية بحتة وليست يهودية بمعنى خاصة باليهود لمجرد ورود ذكرها في التوراة، فهي أسماء عامة كانت متداولة بين الساميين العرب منذ عصور سحيقة واغلة في القدم وهي ترجع إلى ما قبل عهد اليهود أو بني إسرائيل كما تسميهم التوراة بزمن طويل، ولا شك في أن الذين كانوا يتسمون بهذه الأسماء كثيرون لا يحصى عددهم على مدى الأدوار المختلفة كما نجدها اليوم مثل أسماء إبراهيم ويعقوب وإسماعيل المتداولة بين الآلاف من الناس، فليس معنى ذلك أن كل يعقوب وكل إسماعيل يمتّ بصلة للأشخاص الذين عاشوا قبل آلاف من السنين، إن جماعة موسى أجداد اليهود اقتبسوا كما أوضحنا الثقافة الكنعانية بما فيها اللغة والديانة والعادات والتقاليد وكانت من جملتها الأسماء التي تُسمّى بها الكنعانيون، ولا صلة لهذه الأسماء بحوادث الأدوار التاريخية القديمة.

ويرى بريستد أن أبناء يعقوب (إسرائيل) كانوا على أصح الاحتمالات عرباً تابعين لإمبراطورية الهكسوس مؤيداً بذلك نظرية يوسفوس القائلة بأن بني إسرائيل قوم من الهكسوس، وهذا يتّفق مع نظرية كون دور إبراهيم وحفيده يعقوب دوراً عربياً لا يمتّ بصلة إلى موسى واليهود. وهذا ما يقوله بريستد في هذا الصدد: «ويستنتج من رواية مانيثو ومن أخبار سوريا وفلسطين بعدئذ أن إمبراطورية الهكسوس سامية الأصل، وقد عُثر على جمل لفرعون من عهد الهكسوس منقوش عليه اسم (يعقوب إل) إشارة إلى تبوؤ أحد رؤساء بني إسرائيل الملك في تلك العصور الغامضة، وهذا الأمر يتناسب مع احتمال دخول بني إسرائيل مصر وقتئذ. وإذا صحّ الاستنتاج كان عبرانيو مصر عرباً تابعين لإمبراطورية الهكسوس. ولا يبعد أن يكون وجود هؤلاء العرب بمصر سبباً في تلقيب تلك الإمبراطورية «دولة الرعاة»، ولا يبعد أيضاً أن تكون نظرية

يوسفوس القائلة بأن بني إسرائيل قوم من الهكسوس فيها شيء من الحقيقة وإن لم تكن هناك أدلة على صحّة ذلك»[1].

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن القرآن الكريم فرّق بين بني إسرائيل ذرية إبراهيم الخليل من جهة وبين اليهود من جهة أخرى وذلك باستعمال اسمين يحدّد بهما هذا القوم أو ذاك، فيطلق اسم بني إسرائيل في مواضع الرضا ويسمون باليهود في حالات السخط عليهم، ويقول الأستاذ فتحي رضوان: «ومن صور المنهج الرفيع في القرآن الكريم استعمال اسمين عند التحدّث عن العبرانيين، فهم تارة «اليهود» وتارة أخرى «بنو إسرائيل» وتقوم عبارة ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾[2] في بعض المواضع مقام لفظ ﴿ٱلْيَهُودُ﴾. والقرآن الكريم حينما يستعمل الاسمين لا يفعل كأنهما مترادفان، كما يقول مثلاً المسيح و«عيسى ابن مريم» بل يطلق عليهم ﴿ٱلْيَهُودُ﴾ و﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ في مواضع السخط عليهم، أو التنديد بسيئ أعمالهم أو عند حكاية ما أصابهم من الذلّة والعبودية لفساد طويتهم وسوء نيتهم. أما إذا جاءت مواضع في القرآن الكريم تذكر بفضل الله على هؤلاء القوم ذاتهم أو اصطفاء الله لهم، وإسناد الرسالة إلى رجال منهم، وإسباغ الحكمة والنبوّة عليهم الخ.. فاسمهم في هذه المواضع جميعاً «بنو إسرائيل». واستعمال هذين الاسمين مقصود، لم يأت عفواً فإسرائيل هو يعقوب ويعقوب نبي من أنبياء الله ورث عن أبيه إسحاق وعن جده إبراهيم رسالة الدين الحنيف.. ومن هنا لا يتحدث القرآن عن أولاد يعقوب، أي بني إسرائيل إلّا بالخير والرضا، فإذا صدر منهم ما يغضب فالقرآن يسميهم اليهود»[3].

إله إبراهيم الخليل غير إله اليهود:

إن الإله الذي كان إبراهيم الخليل يدعو لعبادته هو غير إله اليهود الذي تصفه التوراة، لأن دعوة إبراهيم الخليل لعبادة الإله الواحد كانت دعوة عامة

(1) بريستد، «**تاريخ مصر**»، الترجمة العربية، ص 142 ـ 143.

(2) سورة البقرة، الآية: 62.

(3) فتحي رضوان، «اليهود وبنو إسرائيل»، **الأهرام** (17/ 10/ 72، ص 7).

موجّهة إلى جميع السكان الوثنيين في عصره بلا استثناء، الإلٰه الأوحد خالق السموات والأرض وجميع البشر، رب جميع المخلوقات بدون تمييز بين الأقوام[1]. ومما يؤيد ذلك أن إبراهيم الخليل لمَّا استدعى عبده وأمره بأن يذهب إلى «حاران» (حران) ليأخذ زوجة لابنه إسحاق من عشيرته هناك قال له: «فأستحلفك بالرب إلٰه السماء وإلٰه الأرض أن لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن معهم»[2] وقد ورد ذكر هذا الإلٰه الذي دعا إبراهيم إلى عبادته باسم «إيل» في التوراة[3]، وهو مفرد لكلمة «إيلوهيم» الكنعانية المراد بها الجمع والتعدّد، أي الآلهة، ومنه جاءت تسمية «بيت إيل»[4]. و«إيل» هو الإلٰه الذي تكلم مع هاجر[5]. وقد ورد هذا المصطلح نفسه في النصوص الكنعانية والآرامية ثم في النصوص المصرية التي ترجع إلى عهد الهكسوس بهذا المعنى فقيل «يعقوب إيل» و«يوسف إيل» أي يعقوب الإلٰه أو يوسف الإلٰه[6] عملاً بالطريقة التي كانت متّبعة بإضافة اسم الإلٰه إلى اسم الشخص تبرّكاً به، كما هو متّبع الآن بتسمية الأشخاص بعبد الله وعبد الإلٰه الخ... ذلك مما يدلّ على أن كلمة «إيل» بمعنى الإلٰه الواحد كانت معروفة في كنعان في عهد إبراهيم الخليل وفي عصر الهكسوس الذي يلي، أي قبل أن يظهر موسى واليهود بعدّة قرون، ولما ظهر اليهود عبدوا إلٰههم الخاص بهم الذي سُمِّي باسم «يهوه» الإلٰه الذي لا يهمه من العالم والخلق سوى اليهود أو شعبه المختار، وذلك على غرار مبدأ التفريد (Honotheism)، وهو المبدأ الذي اعتنقته الأقوام القديمة عندما كانت كل مدينة تختصّ بإلٰه واحد من بين مجموعة الآلهة بدون نبذها عبادة الآلهة الأخرى والقضاء عليها[7]، هو

---

(1) (تك، 14: 19).

(2) (تك 24: 3).

(3) (تك، 12: 8، 35: 7 ـ 8).

(4) (تك، 12: 8، 13: 3).

(5) (تك، 16: 13 ـ 14).

(6) انظر ما تقدّم عن الهكسوس في الفصل الأول وما تقدّم عن عصر إبراهيم وإسحاق ويعقوب في هذا الفصل.

(7) طه باقر، «**مقدّمة ...**»، ج 2، ص 303.

حاكمها وهو قائدها وجعلوه على صورة البشر والبشر على صورة الإله، مسكنه في السماء وينزل أحياناً إلى الأرض، فيتفحّص الأشكال البشرية، ويكلم البشر بصوت ولفظ ويأكل ويشرب الخ...[1] وهكذا كان الإله الذي تصوره اليهود إلهاً قبلياً خاصاً بهم وينافس آلهة الأقوام الأخرى ويحارب معهم كما كانت الحال عليه في عصر دويلات المدن في العراق القديم، ولا يخفى أن دعوة إبراهيم الخليل للوحدانية الخالصة بدأت من العراق وليس من فلسطين، وهي موجّهة إلى جميع الوثنيين في عصره ولم تخطر على بال إبراهيم الخليل فكرة الشعب المختار، وهي البدعة التي اختلقها مدوّنو التوراة وأدخلوها في الكتاب المقدّس بعد ربطها بإبراهيم الخليل، إذ لا يمكن أن تكون هذه الادعاءات منزلة من الإله خالق السموات والأرض الذي دعا إبراهيم الخليل إلى عبادته قبل أن يكون قد ظهر اليهود بعدّة قرون. لذلك كله تُعتبر دعوة إبراهيم الخليل إلى الوحدانية الخالصة أول دعوة عامة للتوحيد بالمعنى الدقيق لمصطلح التوحيد (Monotheism) في تاريخ البشرية، وهي عربية لغة ووطناً، كما جاءت بعدها رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، النبي العظيم خاتم الأنبياء، وقد نزلت عليه باللغة العربية أيضاً، لأن اللغة التي كان يتكلم بها إبراهيم الخليل والآراميون معه في تلك الأزمان هي اللغة العربية الأم التي يرجع وطنها الأصلي إلى الجزيرة العربية، وكانت لغة واحدة تتكلم بها جميع القبائل وذلك قبل أن تتفرق هذه اللغة الأصلية إلى لهجات مختلفة ضمن كتلة اللغات السامية (وما كان الإسلام إلا ملة إبراهيم حنيفاً). فيقول الدكتور هوميل: «ومما لا شك فيه أن اللغة الآرامية في عصر إبرام (إبراهيم الخليل) كانت لهجة عربية (ويقصد هنا اللغة الأصلية التي كان يتكلم بها الآراميون في الجزيرة العربية قبل هجرتهم منها» لأن ما نسميه بالآرامية لم يظهر إلى حيّز الوجود إلّا بعد

---

(1) تصور التوراة الإله كشخص يحارب بنفسه من أجل إسرائيل (خر 14: 14، يش 10: 42، 23: 3) وله رجلان ويمشي كالإنسان (خر 24: 10) ويكتب بإصبعه (خر 31: 18، 32: 15 ـ 16، 19، 34: 1) ويندم على بعض أعماله (1 صم 13: 13 ـ 14 الخ...).

زمن متأخر جداً وأن **ما يُعرف بآرامية التوراة وآرامية عصر المسيح يرجع إلى زمن الفرس وفترة العصر المسيحي**[1].

وقد ورد اسم الإله «إيل» مضافاً إلى أسماء عدد من الملوك المعينيين في اليمن ومنهمُ «وقه ـ إيل»، «يصدق إيل» ملك حضرموت ومعين الذي كان حكمه حوالي سنة 1020 ق.م.، و«بثع إيل» كما ورد اسم الإله إيل مضافاً إلى أسماء بعض ملوك سبأ والمعروف منهم «يدع إيل»، «كرب إيل وتر الأول والثاني والثالث والرابع والخامس»، «وهب إيل»، ففي ذلك دليل واضح على ارتباط إبراهيم الخليل بالجزيرة العربية وأن الإله الواحد الذي كان يدعو لعبادته إبراهيم الخليل كان معروفاً في جزيرة العرب بصفته «الإله العلي» مثل ما كان معروفاً عند الكنعانيين والآراميين بهذه الصفة، وأن إضافة اسمه إلى أسماء بعض ملوك اليمن دليل على اسم «إيل عربي الأصل أي الإله».

ومما يدلّ على أن عبادة إبراهيم الخليل للإله «إيل» منفصلة تماماً عن عبادة اليهود للإله «يهوه» التي ابتدعها كتبة التوراة بعد عهد إبراهيم الخليل بأربعمائة وألف سنة أن أسرة إبراهيم الخليل في ثلاثة أظهر كانت تضيف اسم الإله «إيل» إلى أسماء زعمائها. فإبراهيم الخليل نفسه هو النبي الوحيد الذي سُمِّي «خليل الله» كما ورد في القرآن الكريم ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾[2] ومن المرجّح أن كلمة خليل كلمة عربية مركّبة من (خل) و(إيل)، بمعنى صديق الإله «إيل». ومثلها اسم إسماعيل الذي معناه ليسمع الإله «إيل»، وكذلك اسم يعقوب (إسرائيل) الذي معناه عبد الإله «إيل».

ويؤيد المستشرق ثورنر ثوردارسون، أستاذ اللاهوت في جامعة إيسلندا كون ديانة التوحيد التي دعا إبراهيم الخليل إلى عبادتها هي خاصة به وبعشيرته ولا صلة لها باليهود فيقول في ذلك: «لقد أظهرت المدوّنات الآشورية من

---

(1) Dr. F. Hommel, «**The Ancient Hedrew Tradtion**», p. 202.

(2) سورة النساء، الآية: 125.

القرن العشرين قبل الميلاد والكتابات التي تعود إلى العصور التي تلي ذلك العصر أن ديانة إبراهيم تستند إلى الإيمان بالإله العلي (High God) وهذا يتّفق مع الصورة التي نجدها في التوراة (أنا إله إبراهيم أبيك)[1]، فأبراهام إذن هو مؤسس وحامل لواء هذه الديانة التي تدعو إلى عبادة الإله العليّ وأصبحت تقترن بصلة وثيقة بعشيرته[2].

ومما يذكر في هذا الصدد أن التوراة عندما تتحدث عن إبراهيم الخليل وعن كلامه مع الإله تستعمل كلمتيّ «الله» و«إيل» (وقال الله لإبراهيم...[3] مع أنها تستعمل أحياناً كلمة «الرب» ومثل ذلك هي الحال بالنسبة ليعقوب (ثم قال «الله» ليعقوب قم واصعد إلى بيت «إيل» وأقم هناك واصنع هناك مذبحاً «لله»...)[4]. (وظهر الله ليعقوب الخ)[5] أما الإله «يهوه» فإنه لم يبدأ استعماله إلّا في عهد النبي موسى عليه السلام وهو إله اليهود وحدهم[6].

النبوّة الإلهية عربية لفظاً ومعنى:

ويؤكد المرحوم الأستاذ العقّاد أن الإسرائيليين (اليهود) تعلّموا النبوّة الإلهية بلفظها ومعناها من شعوب العرب، ولم تكن لهذه الكلمة عند الإسرائيليين (اليهود) لفظة تؤديها قبل وفودهم على أرض كنعان ومجاورتهم للعرب المقيمين في أرض مدين، فيقول: «إن كلمة نبي عربية لفظاً ومعنى لأن المعنى الذي تؤديه لا تجمعه كلمة واحدة في اللغات الأخرى والعبريون قد استعاروها من العرب في شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء القدماء بالآباء (Patriarchs) ولم يفهموا من كلمة النبوّة في مبدأ الأمر

(1) (تك، 26: 24).
(2) **«دائرة المعارف البريطانية»** طبعة 1925، ج 1، ص 45.
(3) (تك، 17: 9).
(4) (تك، 35: 1).
(5) (تك، 35: 9).
(6) (خر، 6: 3، 15: 3، 6: 6).

إلّا معنى الإنذار... فكانوا يسمون النبي بالرائي[1] أو الناظر أو رجل الله، ولم يطلقوا عليه اسم النبي إلّا بعد معرفتهم بأربعة من أنبياء العرب المذكورين في التوراة، وهم ملكي صادق وأيوب وبلعام وشعيب الذي يسمونه يثرون وهو معلم موسى الكليم»[2]. وقد سُمّي إبراهيم الخليل برئيس الآباء[3]. ويستشهد العقّاد ببعض علماء الأديان الغربيين الذين ذهبوا إلى تأييد اقتباس أتباع موسى كلمة النبوّة من العرب مثل الأستاذ هولشر والأستاذ شميدت اللذين يرجّحان أن الكلمة دخلت اللغة العبرية بعد وفود القوم على فلسطين. فتشير التوراة إلى أن عاموس اغتاظ وغضب لما أطلق عليه اسم نبي وقال: «لست أنا نبياً ولا أنا ابن نبي بل أنا راع وجاني جميز. فأخذني الرب من وراء الضأن وقال الرب اذهب تنبأ لشعبي إسرائيل»[4].

من هم العبرانيون؟.. مسألة «العبري» و«العبيرو»:

لقد اعتاد أكثر الذين كتبوا في تاريخ بني إسرائيل من إفرنج أن يستعملوا «عبري» أو «عبراني» بغير معناها الذي جاءت به في المصادر القديمة، إذ كانت هذه الكلمة تطلق في نحو الألف الثانية قبل الميلاد وفيما قبل ذلك على طائفة كبيرة من القبائل العربية في شمال جزيرة العرب وفي بادية الشام، وكانت العبرية (بمعنى لغة هؤلاء العبريين) آنذاك لغة أهل فلسطين الكنعانية ولغة كثير من القبائل في طور سيناء وفي شرقي الأردن ومنهم العمالقة والمديانيون وغيرهم من الأقوام العربية في المنطقة حتى صارت كلمة «عبري» مرادفة لابن الصحراء أو ابن البادية بوجه عام. وبهذا المعنى وردت كلمة «الابري» و«الهبيري» و«الخبيرو» و«العبيرو» في المصادر المسمارية والفرعونية ولم يكن لليهود وجود في ذلك الحين، ولما وجد اليهود وانتسبوا إلى موسى كانوا هم

---

(1) (عا، 7: 12).
(2) العقاد، «**الثقافة العربية**»، ص 71.
(3) (عب، 7: 4).
(4) (عا، 7: 14 ـ 15).

أنفسهم يقولون عن «العبرية» إنها لغة كنعان «شفة كنعان» أي لسان كنعان، ثم انطوت «العبرية» (الكنعانية) في الآرامية التي غلبت على القبائل جميعاً بين فلسطين وسوريا والعراق وعندئذ أصبحت كلمة «عبري» تشمل جميع الآراميين وكلهم عرب نزحوا من موطنهم الأصلي في جزيرة العرب قبل أن يكون لليهود وجود[1]. لذلك سوف نحجم عن استعمال كلمة «عبري» أو «عبريين» للدلالة على اليهود في هذا البحث لتجنّب الالتباس خاصة ما يتعلّق ببحث تاريخ فلسطين القديم، أي بحث فترة ما قبل ظهور قوم موسى على مسرح الأحداث في الشرق الأدنى، الفترة التي يجب أن تبحث كدور مستقل ليست له أية صلة بدور موسى وذلك مراعاة للتسلسل الزمني. ولا بدَّ من الإشارة في هذا الصدد إلى أن كتبة التوراة والكتَّاب اليهود بعدهم صاروا يستعملون مصطلح «عبيرو» (عبري) للدلالة على اليهود بقصد إرجاع تاريخهم وأصلهم إلى العبرانيين (عهد العبيرو القديم) الذي لا ينتمون إليه بأية صلة.

وإذا استعرضنا الدور الخطير الذي لعبه أهل البادية في تطوير حياة منطقة الشرق الأوسط بأسرها نتيجة توغلهم في جميع أنحاء الهلال الخصيب في هجراتهم المتتالية، تجلّت لنا ظاهرة اهتمام الأقوام القديمة بالعبيرو «أهل الصحراء»، فقد ورد ذكرهم في جميع الكتابات القديمة وذلك قبل ظهور موسى بعشرات القرون، فكان السومريون يسمّونهم «سا ـ كاز» منذ عهد أور الثالثة (أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد)، وقد ورد ذكرهم أيضاً في نصوص «بابل» و«نوزي» و«ماري» و«أوغاريت» كما ورد ذكر «العبيرو» في رسائل «تل العمارنة» المصرية التي بعث بها ملوك كنعان إلى الملك أمنحوتب الثالث والملك أخناتون والتي تعود إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد، وقد دلّت التحريات على أن «العبيرو» (Hapirus) تمكّنوا من احتلال مدينة «أريحا» قبل عصر موسى بحوالي قرنين من الزمن[2]. ثم اختفى ذكر موسى وأتباعه في المنطقة. ويذهب البروفسور بورجير إلى أن معنى «الأبيرو»

---

(1) ولفنسون، «**تاريخ اليهود في بلاد العرب**»، ص ز؛ العقاد، «**إبراهيم أبو الأنبياء**»، ص 132.

(2) T.H. Garter, **Ency. Brit.**, 1965, Vol. 4, p. 727.



الصورة رقم (79)

مومياء الملك أمنحوت الثالث الذي حكم مصر بين سنة 1413 و1375 ق. م. وهو الذي بعث إليه ملوك كنعان برسائلهم التي وجدت في تل المعارنة يطلبون فيها مساعدتهم لصد غزو القبائل البدوية «العبيرو».

مغبر أو مغطى بالغبار، ثم أخذ هذا الاصطلاح على مرّ الزمن يستعمل بالمعنى العام للدلالة على الأجنبي أو المهاجر[1].

---

(1) لقد كتب كثيرون في موضوع «العبيرو» (العبري) وهذا دليل على اهتمام الباحثين به، والذي نستخلصه من هذه التآليف أن أكثرية الباحثين يتّفقون على أن اصطلاح «العبيرو» (العبري) كان يُطلق على القبائل البدوية النازحة من الجزيرة العربية قبل عهد موسى لوروده في المدوّنات الآثارية التي ترجع إلى ما قبل ذلك العهد بعدّة قرون، وفيما يلي مختارات من كتاباتهم في هذا الموضوع:

J. Bottero, «**Le problème des Haburus**», 1954; M. Greenberg, «**The Habiru**», 1955; M. G. Kline, «**The Habiru, Kin or Foe of Israël**», Westminister Theological Jour., Vol. XIX (1956), pp. 1-24 et 170-194, et Vol XX (1957), 46-70; R. Borger, «**Das Problem der Apiru (Habiru)**», ZDPV LXXIV, 1958, pp. 121-132; J. -R Kupper, «**Les Nommades en Mésopothamie au temps des rois de Marî**», 1957, Chap. V; I. J. Gelb, «**The Early History of the West Semitic peoples**», Journal of Cuneiform Studies, 15, 1961, pp. 28ff; «**Hebrew, Ubru et Hapiru**», Syria, 3 (1958), pp. 198-217; M.F. Unger, «**Israël and Arameans of Damascus**», 1957, pp. 10-11.

ويعلق فرويد على مسألة «العبيرو» بقوله: «ونحن نعرف أخبار هؤلاء المحاربين من الرسائل المكتشفة عام 1887 في سجلات مدينة العمارنة المتهدمة، فهي تسميهم باسم «عابيرو» وقد أطلق هذا الاسم فيما بعد لسنا ندري كيف، على الغزاة الجدد اليهود: العبرانيين الذين ما كان في مستطاع رسائل العمارنة أن تذكرهم لأنهم قدموا في زمن لاحق»[1].

العبري أو العبراني هو غير اليهودي في عرف التوراة:

والتوراة تتحدث عن العبرانيين بصفتهم غرباء عنهم وليسوا منهم، فقد ورد في الأحكام التي وضعها موسى أمام أتباعه ما يشير إلى أن الإسرائيلي (بمعنى اليهودي) إذا اشترى عبداً عبرانياً فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حراً مجاناً[2]. ثم تقول التوراة أيضاً إن العبيد يجب أن يكونوا من غير بني إسرائيل[3] لأن بني إسرائيل «عبيدي الذين أخرجتهم من أرض مصر لا يُباعون بيع العبيد... وأما أخوتكم بنو إسرائيل فلا يتسلّط إنسان على أخيه بعنف... وإذا بيع أخوك للغريب المستوطن عندك أو لنسل عشيرة الغريب فبعد بيعه يكون له فكاك يفكه واحد من إخوته[4]. وهذا دليل واضح على أن العبراني هو غير اليهودي في عرف التوراة نفسها.

وكان اليهود أنفسهم بين العبرانية والإسرائيلية، فالسامريون كانوا يسمون لغتهم السامرية القديمة التي يصلّون بها اللغة العبرانية تمييزاً لها عن اللغة الإسرائيلية (اليهودية) زاعمين أن لغتهم هذه هي العبرانية القديمة الحقيقية التي نزلت الشريعة بها والاختلاف ينحصر في استبدال الأحرف واللفظ. ولعل

---

(1) فرويد، «**موسى والتوحيد**»، الترجمة العربية، ص 47.

(2) (خر، 21: 2).

(3) سبق أن أوضحنا أن التوراة لم تتقيد بالتسلسل الزمني فقد اعتبرت بني إسرائيل موجودين في كل الأزمنة حتى قبل أن يخلق إسرائيل لذلك فهي تسمي أتباع موسى الذين نزحوا إلى فلسطين بعد إسرائيل بزهاء ستمائة سنة ببني إسرائيل أيضاً، فعلى القارىء أن يميّز بين أتباع موسى وبين بني إسرائيل كل حسب الدور الذي وجد فيه وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

(4) (لا، 25: 42، 47 ـ 48).

المقصود هنا بالعبرانية القديمة الحقيقية اللهجة الأصلية التي اقتبسها اليهود من الكنعانيين وهي غير اللهجة العبرية التي تكوّنت مع بقية اللهجات في وقت لاحق. ولدى السامريين اليوم أسفار موسى الخمسة محفوظة في وعاء من نحاس مكتوبة بالخط السامري واللغة السامرية وهي كل ما يعترفون به من التوراة[1].

والأمر الذي ينبغي ألّا يغيب عن الذهن هو أن التوراة عندما تحدّثت عن لغة الموسويين لم تقل لغة العبرانيين، فقد سمّتها بـ «شفة كنعان» أي لسان كنعان ثم «يهوديت» و«لسون حقوديس» أي اللسان المقدس. أما كلمة عبري (عبريت) و(عبراي) بالآرامية فقد صاغها حاخامو فلسطين في وقت لاحق. هذا ما ذكره «درايفر» أستاذ اللغة العبرية في أكسفورد في مقاله في دائرة المعارف البريطانية حول أصل كلمة «عبري»[2]، إذ وجد الحاخامون اليهود أن أحسن طريقة يمكن أتباعها لربط تاريخهم بأقدم العصور واعتبار عصر اليهود متصلاً بأقدم الأزمنة هو استعمال مصطلح «عبري» أو «عبيرو» للدلالة على اليهود بوجه عام، وبذلك يكون تاريخ فلسطين تاريخاً واحداً متصلاً ومرتبطاً منذ أقدم العصور بالشعب اليهودي. وإنه لغريب جداً أن يتقبّل العلماء هذه الادعاءات المزيفة التي كشفتها تنقيباتهم الآثارية.

ويلاحظ هنا أن درايفر، مع أنه يعترف بأن كلمة عبري صاغها حاخامو فلسطين في وقت لاحق واعتبروها هي وكلمة يهودي بمعنى واحد، يحاول بتلاعبه بالألفاظ واللف والدوران أن يخفي وجود الكنعانية (العبيرو) من مسرح الأحداث، وعندما يذكرها يضمها بين قوسين وكأنه يريد بذلك الانتقاص من دور الأساس في تكوين الثقافة الفلسطينية في تلك الفترة السحيقة من تاريخ فلسطين. ولكن مهما أراد أن يطوي صفحة الكنعانية من أحداث هذه الفترة فلا يمكن أن تكون اللغة التي يطلق عليها اسم (اللغة الشبيهة بالعبرية) تارة واسم

---

(1) انظر ما تقدّم في الفصل الثالث عن هذه الفئة من اليهود.

(2) G.R.D. Driver, «Hebrew Language», **Ency. Brit.** 1965 ed. Vol. 11, p. 279.

(اللغة السامية الغربية) تارة أخرى غير اللغة الكنعانية (اللغة الأم) لأنها كانت متداولة في كنعان قبل مجيء (اليهود) إليها، وقد أخذ بها هؤلاء اليهود بعد دخولهم إلى أرض كنعان. وقد ورد في التوراة ما يؤكد تسمية هذه اللغة التي كانت متداولة في كنعان قبل نزوح اليهود إليهم بـ (شفة كنعان) و(لغة كنعان)[1] وكان خبير اللغات (دايرنجر) أول من ردّ على بيانات درايفر ورابين وغيرهم من الباحثين الذين جاروهما فيها بعبارة رقيقة قال: «إنه من المستحسن أن تُسمّى هذه الكتابات بالكتابة الكنعانية القديمة»[2].

لقد استغلّ الكتّاب اليهود الاصطلاح (العبري) للتمويه والتشويش فاعتبروه هو واليهودي اسمين لمسمى واحد، وبذلك أرجع كل ما يمتّ بصلة إلى اليهود في وقت لاحق إلى عهد (العبريني القديم) (العبيرو) الذي لم يكن لهم أي وجود فيه. والدليل على أن تسمية عبري للدلالة على اليهودي متأخرة أنها لم تستعمل في روسيا حتى القرن الخامس عشر للميلاد.

ودرايفر نفسه يعترف من غير أن يخفي حقيقة الأمر فيؤكد أن الحاخامين هم الذين صاغوا هذا الاصطلاح (عبريت) أي (عبري) للدلالة على اليهود في وقت متأخر وقد سبقت الإشارة إلى ذلك وهكذا فقد أسدل الكتّاب اليهود الستار على الكنعانية «لغة فلسطين الأم» واعتبروا التراث العبري (اليهودي) الكل في الكل فسموا اللغة الكنعانية الأصلية القديمة (عبرية التوراة) (Biblical Hebrew) اللهجة الآرامية التي كُتبت بها المشنة بـ «عبرية المشنة» (Mishndic-Hebrew) ثم عبرية القرون الوسطى (Medieval Hebrew) والعبرية الحديثة (Modern Hebrew) وقد سار كل المتدينين على هذا النمط من التفكير المعقّد الغامض فقلبوا الطبخة التي طبخها الحاخامون في وقت لاحق في خلطهم بين العبرية واليهودية على علّاتها دون تمحيص أو تدقيق ثم يأتي رابين معاون أستاذ اللغة العبرية في الجامعة العبرية في القدس وهذا يؤكد بدوره في مقال عن الآداب العبرية نشر في دائرة المعارف البريطانية لعام (1965) بأن «أهل

---

(1) أشعيا 19 ـ 18.

(2) انظر ما تقدّم على ص 391.

كنعان الذين وجدوا في فلسطين قبل نزوح اليهود إليها» كانوا يتكلمون بلغة قديمة «شبه عبرية» وأن قطع المزامير التي اكتشفت في تل العمارنة دليل على أن الأدب العبري (اليهودي) كان مزدهراً في كنعان في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، أي قبل دخول اليهود إلى فلسطين[1]. ومع أن رابين يعترف بالحقيقة (أي وجود لغة كنعانية يتكلم بها أهل كنعان قبل دخول اليهود إليها) فإنه يلجأ إلى طريقة التلاعب بالألفاظ نفسها التي اتبعها زميله درايفر للتمويه وهو يحاول إبعاد الكنعانية عن مسرح الأحداث فيطلق على الكنعانية اسم (اللغة القديمة الشبيهة بالعبرية) (An Earlier Form of Hebrew)، مجانباً بذلك حقيقة وجود الكنعانية وهو مثل درايفر ينسب كل اللهجات التي ظهرت في وقت لاحق إلى العبرية أي اليهودية. وقد حذت (الأنسكلوبيديا) القياسية اليهودية لسنة 1966 حذو من سبقها من الباحثين اليهود فهي تردّد النغمة نفسها فتقول: «لقد ثبت من رسائل تل العمارنة أن العبرية «بمعنى اليهودية» كانت لسان سكان فلسطين قبل دخول الإسرائيليين (اليهود) إليها. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا فهل من المعقول أو المنطق أن ننسب لغة سكان فلسطين الأصليين أي الكنعانيين إلى (اليهود) قبل أن يكون هؤلاء قد دخلوا فلسطين؟ إن اليهود اقتبسوا لغة الكنعانيين بعد أن دخلوا إلى فلسطين واحتكوا بالكنعانيين، أما قبل ذلك فكل شيء كنعاني بحت لا يمتّ بأي صلة إلى الإسرائيليين (اليهود) على الإطلاق لا من بعيد ولا من قريب.

لقد حان الأوان لأن يعيد العلماء النظر في المفاهيم المغلوطة التي ثبتها ورسمها لنا الحاخامون والكتّاب اليهود لتحقيق مآرب ومقاصد خاصة فيصححونها ويضعون النقاط على الحروف تثبيتاً للحقائق التاريخية.

وقد ظلّ الباحثون متمسكين بالنظرية التي تجعل العبرية التي أطلق عليها اسم عبرانية التوراة (Biblical Hebrew) أقدم لغة سامية معروفة متجاهلين وجود الكنعانية قبل العبرية بعدّة قرون حتى توصل المنقّبون مؤخراً إلى اكتشاف أقدم

(1) **دائرة المعارف البريطانية**، ج11، ص284.

لغة سامية معروفة في مملكة إبلا السامية العربية في جنوب حلب لضحد مفتريات الكتّاب اليهود وادعاءاتهم الملفّقة. . .

وقد صرّح خبير اللغات الإيطالي كلوفاني بيتيناتو (Glovani Pettinato) وهو أحد المكتشفين لهذه اللغة القديمة (لغة إبلا) بأنها الكنعانية القديمة مؤيداً بذلك الرأي الذي ذهب إليه خبير اللغات دايرنجر قبل هذا الاكتشاف الجديد[1] وهكذا لم يبق بعد اكتشاف اللغة الكنعانية القديمة (أم اللغات السامية) أي مجال لترويج الادعاءات الصهيونية القائلة بوجود العبرية بمعنى اليهودية منذ أقدم الأزمنة وأنها أقدم اللغات السامية. وعلى الرغم من كل ذلك لا يزال الصهاينة يحاولون استغلال الكشف الجديد بدعوى أن لغة إبلا التي تنحدر منها لغة التوراة ولكن الدكتور عفيف البهنسي مدير الآثار السوري فنّد هذه المزاعم بقوله: هذه اللغة المكتشفة (لغة إبلا) تسبق أي لغة أو لهجة ورد فيها ذكر التوراة بما يزيد عن ألفيّ عام فاللاحق هو الذي يأخذ عن السابق وبين التاريخين تاريخ لغة إبلا وتاريخ ظهور التوراة قرون عديدة[2].

عدم ورود مصطلح «عبري» و«عبراني» في القرآن الكريم مطلقاً:

وأثبت دليل على صحّة ما تقدّم أن كلمة «عبري» أو «عبراني» لم ترد في القرآن الكريم مطلقاً، فقد ورد ذكر الإسرائيليين بصيغة «بني إسرائيل» و«قوم موسى» و«يهود» ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾، ذلك مما يدلّ على أن العرب في زمن النبي محمد عليه الصلاة والسلام لم يعرفوا اليهود بغير التسميات المذكورة، فلو كانوا يعرفونهم بالعبرانيين أو العبريين لورد ذكرهم في القرآن الكريم بهذه

---

(1) (New Archaeolog Ical Discovery III uminates the past) by L: L: Arabbt, The plan Tauth, A **Magazine of underanding** Vol. XII No. 5 My- 1977, p. 9.

(2) انظر مقال «الحملة الصهيونية» لاستغلال كشف مملكة إبلا المنشور في **مجلة العربي** العدد 226 (أيلول 1977) (ص52 ـ 56).

انظر أيضاً المقال المنشور في **مجلة آفاق عربية** السنة الثالثة رقم (4) كانون الأول 1977 بعنوان حول الاكتشاف الحديث لواقع إبلا للدكتور أحمد سوسة.

التسمية، وكذلك نجد أن أشهر المؤرّخين العرب كانوا يسمون اليهود «بني إسرائيل» في كتبهم وذلك تمشّياً مع نهج القرآن الكريم. ومثل ذلك فعل الآشوريون قبل الإسلام بأكثر من ألف ومائتي عام، فعندما دوّن سنحاريب (705 ـ 681 ق.م.) تفاصيل حملته على مملكة يهوذا سمى حزقيا ملك يهوذا «حزقيا اليهودي» ولم يستعمل كلمة عبري أو عبراني[1]. وهذا دليل آخر على أن كلمة «عبري» لم يسبق أن استعملت للدلالة على اليهود في تلك العصور التاريخية.

هل «العبري» و«العربي» كلمة واحدة بمعنى عربي؟..

ويبدو لنا لأول وهلة عندما يرد ذكر «العبري» و«العربي» أن هناك تقارباً وثيقاً في اللفظ بينهما حتى أنه ليتراءى للمرء أن الكلمتين تكادان تكونان كلمة واحدة ومن أصل واحد. إلا أن السؤال الذي يرد إلى الذهن هو أي اللفظين مشتقّ من الآخر؟.. فالأستاذ عبد الحق فاضل الذي كتب مقالاً في سومر عنوانه: «عربي، آرامي، عبري»[2]، ثم ألحقه بكتاب عنوانه «مغامرات لغوية» طبع في بيروت (بلا تاريخ) يرى أن العربية والآرامية والعبرية مشتقة من أصل واحد من كلمة واحدة هي العربية باعتبارها أم اللغات السامية وأكثرها شبهاً باللغات السامية المتطورة. والذي يهمنا هنا هو «العبرية» و«العربية»، فهو يذهب إلى أن اشتقاق العبري من العربي كان بطريق القلب على حدّ تعبيره، ويضيف إلى ذلك قوله: «وما أكثر ما صنعت العرب ذلك منذ أقدم عهودها»[3]. ونحن مع ترجيحنا رأيه القائل بأن العبري والعربي من أصل واحد ومن كلمة واحدة، إلا أننا لا نتّفق وإياه بأن العبري مشتقّ من العربي إذ نرجّح عكس ذلك، أي إن العربي مشتقّ من العبري وذلك نتيجة تقديم وتأخير في اللفظ. ودليلنا على ذلك هو التسلسل الزمني، فأي اللفظين جاء ذكره قبل

(1) J. Pritchard, «**Archaeology and the Old Testament**», p. 157.

(2) **سومر**، 14، 1958، ص 180 ـ 188.

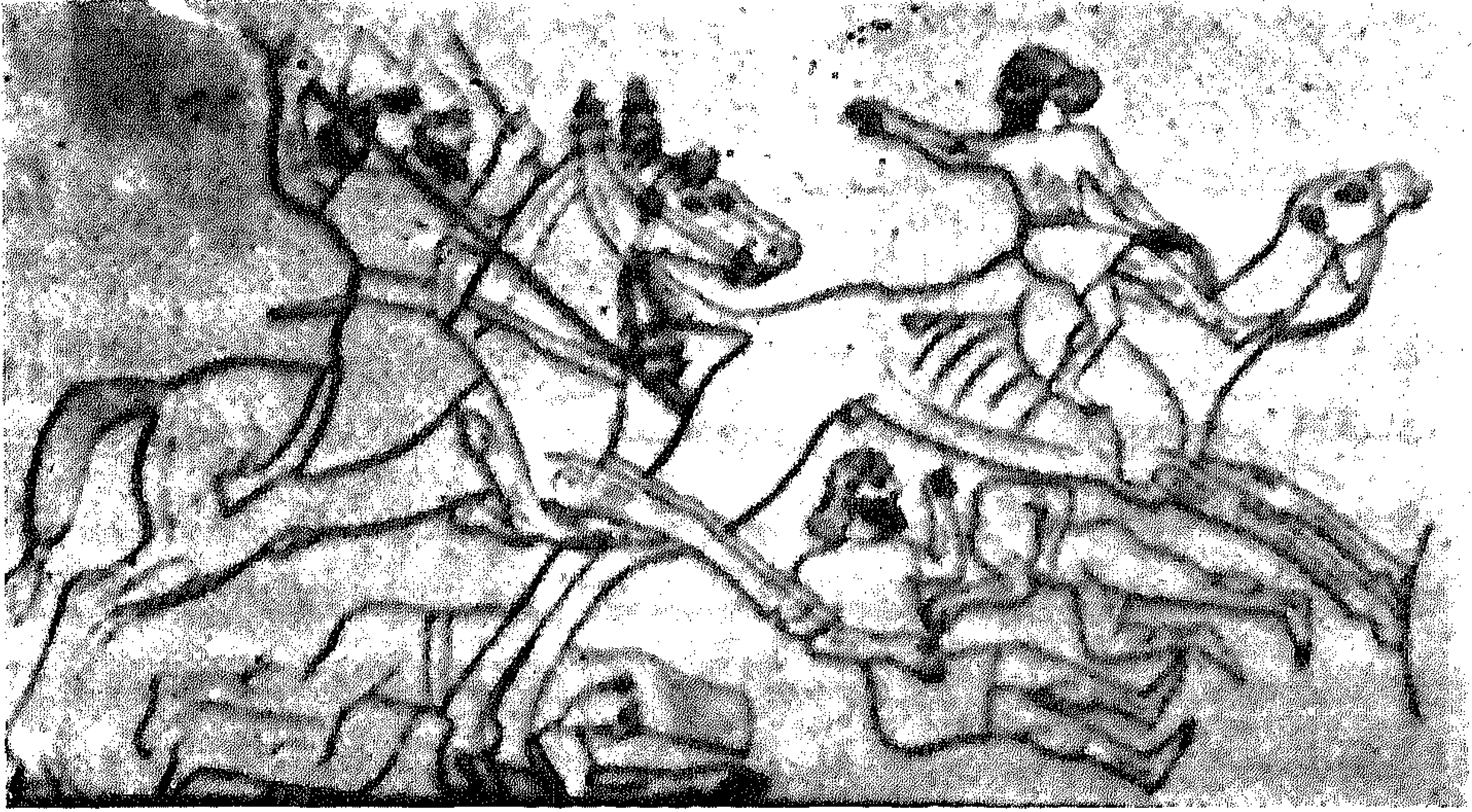
(3) عبد الحق فاضل، «**مغامرات لغوية**»، بيروت، بدون تاريخ، ص 21.

الآخر، هل هو العربي أم العبري؟. . لقد سبق أن أشرنا إلى أن أقدم ذكر لكلمة «العبيرو» و«الخبيرو» و«الهبري» (العبري) يرجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، حيث ورد هذا اللفظ مرات كثيرة في رسائل العمارنة وكان يقصد به عرب البادية أو البدو الرحل، ومما لا شك فيه أن استعمال هذا اللفظ بهذا المعنى كان قبل ذلك بكثير. أما لفظة «عربي» فأقدم ذكر لها ورد في الكتابات الآشورية، إذ وردت أول إشارة ثابتة إلى العرب في نقش للملك الآشوري شلمنصر الثالث (859 ـ 824 ق.م.) الذي قام بحملة على ملك دمشق عام 854 ق.م. ثم وردت في كتابات أخلاف شلمنصر[1] وقد سُمِّي ملوك بلاد العرب بملوك «العريبي» كما أطلقت كلمة «العريبي» على الآراميين والأدوميين أيضاً مما يدلّ على أن الآشوريين كانوا يعتبرون الآراميين والأدوميين من العرب كما هو واقع الحال. وقد مرّت بنا الإشارة إلى مقال بعنوان «العبري (العبيرو) والعربي» نشر في إحدى المجلات[2] لم يتيسر لنا الاطلاع عليه، والأرجح أنه يتناول بحث الموضوع نفسه الذي نحن بصدده. ومما يذكر في هذا الصدد أن العلماء اختلفوا في كيفية نقل كلمة «عربي» من النصوص الآشورية فقرئت Arab, Arbi, Urbi, Arabi, Aribi وهذا مما يزيد الاحتمال بأن كلمة عربي تحريف للعبري بالتقديم والتأخير. وقد وردت تسميات «العرب»

---

(1) لقد أشار الدكتور جواد علي في كتابه «**تاريخ العرب قبل الإسلام**» (ج1، ص169) إلى أن أول إشارة إلى العرب وردت في نصّ آشوري يعود إلى أيام الملك شلمنصر الثاني ملك آشور معتمداً في ذلك على ماركوليوث والدكتور حتي ودائرة المعارف اليهودية. إلا أن التحقيق الحديث هو أن أول إشارة ثابتة إلى العرب في النصوص الآشورية ترجع إلى زمن شلمنصر الثالث كما ذكرنا أعلاه. ويظهر أن الدكتور جواد علي قد صحّح هذا الخطأ في كتابه الأخير «**المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**» (ج1، ص574) حيث ذكر أن أول إشارة إلى العرب ترجع إلى زمن شلمنصر الثالث كما بيّنا أعلاه. ويظهر أيضاً أن الدكتور حتي هو الآخر قد صحّح الخطأ نفسه في الطبعة الأخيرة من كتابة «**تاريخ العرب**» (المطول) الطبعة الرابعة 1965 (ج1، ص45). ونود أن نزجي شكرنا إلى الأستاذ طه باقر لتنبيهنا إلى هذا الخلاف.

(2) A. Guillaume, «The Habiru, the Hebrews and the Arabs», **Palestine Exploration Quarterly,** 1946, pp. 64 ff.



الصورة رقم (80)
خيالة تغلات فلاسر يطاردون بعض الأعراب الغزاة وقد سقط منهم بعض القتلى

و«ملوك العرب» و«بلاد العرب» و«الأعرابي» في العهد العتيق (التوراة)[1] ويؤيد الدكتور ولفنسون «ارتباط المصطلح «عبري» بكلمة «عربي» بقوله: «وليلاحظ أن كلمة عبري ترتبط بكلمة عربي ارتباطاً لغوياً متيناً لأنهما مشتقتان من أصل واحد وتدلّان على معنى واحد... إن كلمة عبري تؤدي المعنى الذي تؤديه كلمة عربي نفسها، أي إن العبريين هم قبائل رحّل كانت تتنقل بخيامها وإبلها من مكان إلى آخر، وكان هذا الاسم يُطلق على بني إسرائيل (أبناء يعقوب) والقبائل الرحّل التي كانت في جهات طور سيناء وبادية سوريا وفلسطين»[2].

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً﴾[3]

يتّضح مما تقدّم أن تسمية أبرام (إبراهيم الخليل) بالعبراني كما وردت في التوراة[4] كان يُراد بها معنى «العبريين» القبائل البدوية العربية، ومنها القبائل

---

(1) (حز، 27: 21)؛ (أر، 3: 2، 25: 4)؛ (اش، 13: 21: 13).
(2) **«تاريخ اللغات السامية»**، ص 78، 164.
(3) سورة آل عمران، الآية 67.
(4) (تك، 14: 13).

الآرامية التي ينتمي إليها إبراهيم الخليل نفسه، وبهذا المعنى جاءت كلمة «عبيرو» التي عُثر عليها في النصوص المصرية والتي تعود إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد. ويعترف جورج بوست في مصنفه «قاموس الكتاب المقدس» بأن لقب أبرام بالعبراني لم يقصد به الإسرائيلي وإنما يمكن تأويله على حدّ تعبيره بأبرام السائح أو المهاجر[1]. فقد عُثر في تل العمارنة بمصر على ست رسائل من أحد ملوك منطقة أورشليم الكنعانية اسمه «عبد ـ خيبا» موجّهة إلى ملك مصر أمنوفيس الرابع «أخناتون» (1375 ـ 1358 ق.م.) يطلب فيها إرسال نجدة لصدّ غارات «العبيرو» الذين اجتاحوا بلاده. ولما كانت أرض فلسطين في هذا الدور محمية مصرية فإن «عبد ـ خيبا» يقول في رسائله: «لم يبق في أرض مولاي الملك شيء.. نهب (العبيرو) كل البلاد من سيدي الملك... البلاد وقعت في أيدي (العبيرو)». ومن الواضح هنا أنه لا يمكن أن يكون (العبيرو) الذين ورد ذكرهم في هذه الرسائل هم اليهود[2]. وهكذا فإن التوراة حين تصف إبراهيم الخليل بالعبراني تساير واقع الحال باعتباره من قبائل الخبيرو (العبيرو) التي ينتمي إليها، أي القبائل الآرامية، قبل أن يكون لليهود وجود بعد[3]. ويؤيد ذلك المستشرق ثورير ثوردارسون، أستاذ اللاهوت في

---

(1) يلاحظ أن هذه العبارة قد حذفت من الطبعة الجديدة لقاموس **الكتاب المقدس** لعام 1971، بل وأكثر من ذلك حذفت جميع الدراسات العلمية التي قام بها العلّامة جورج بوست ليوضع مكانها، خلافاً لما جاء في المقدّمة، ما يؤكد ربط اليهود بعصر إبراهيم الخليل واعتبار كلمة عبرانيين أو عبريين شاملة لكل أدوار اليهود التاريخية التي تبدأ بإبراهيم الخليل وفقاً للتقاليد اليهودية التي تعتبره جد اليهود. ويلاحظ أيضاً أن هذا القاموس الجديد يدعم النظرية الصهيونية الحديثة التي تعتبر جميع الأسماء الواردة في التوراة من أسماء أشخاص وأماكن عبرية أي يهودية بقصد إرجاعها إلى عهد العبريين (العبيرو)، عن طريق الاستغلال في ذلك الخلط بين العبري واليهودي الذي سار عليه في وقت متأخر للتمويه (انظر الحاشية 2 ص467). إن العبرية القديمة هي في الحقيقة لغة عهد (العبيرو) أي الكنعانية لأن العبرية بمعنى اليهودية متأخرة ولم تكن قد وجدت في ذلك العهد القديم.

(2) G.A. Barton, «**Archaeology and the Bible**», Phil, pp. 403-406.

(3) انظر ما تقدّم عن الأخلامو والخبيرو في بحث الآراميين في الفصل الأول.

جامعة آيسلندا، فيرى «أن أبراهام كان شبه بدوي Seminomade ينتمي إلى القبائل القديمة المسماة بالعبيرو ولعله ينحدر من هذا العرق القبائلي نفسه»[1]. فقد عاش إبراهيم الخليل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، أي في زمن يسبق عهد موسى بسبعمائة عام. وقد ظلّت هذه التسمية، أي تسمية عبري وعبراني، تُطلق على الجماعات من القبائل النازحة من البادية ومن جهة فلسطين إلى مصر، وعلى هذا الأساس صار المصريون يسمون الإسرائيليين بالعبرانيين باعتبارهم من تلك الجماعات البدوية[2]. وأما ما أورده الباحثون من أن كلمة «عبري» مشتقة من عَبَر أي قطع نهراً أو غيره أو من «عابر» أحد أسلاف إبراهيم[3] فغير مستند إلى أي دليل أو أساس وهي من قبيل الحدس والاجتهاد. وقد نبّه القرآن الكريم إلى هذه الناحية حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[4] ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[5] ولهذه الآية الشريفة معنيان: المعنى الأول هو أن إبراهيم ما كان على دين (يهوه ـ إلٰه اليهود ـ بل كان حنيفاً مسلماً) كما تقدّم والمعنى الثاني هو أن دور إبراهيم الخليل هو غير دور اليهود ولا يتّصل بدور اليهود الأخير.

يتضح من التنبيه الذي ورد في القرآن الكريم أن هناك من وقع في الخطأ نفسه الذي وقع فيه الكتّاب العرب اليوم بربطهم عهد إبراهيم الخليل باليهود وأن هذا التنبيه إلى أن إبراهيم الخليل ظهر قبل وجود اليهود وأنه لا يمكن أن يكون يهودياً ثم الإشارة إلى اتصاله بالجزيرة العربية (بيت الله العتيق) يتّفق تماماً مع ما توصّل إليه العلماء في ضوء الاكتشافات الأخيرة، وعلى الباحثين

---

(1) **«دائرة المعارف البريطانية»**، 1925، م 1، ص 45.

(2) (تك، 39: 14، 17، 40: 15، 41: 12)؛ (خر، 1: 15، 16، 15، 2: 6، 7 و11 و12).

(3) (تك، 10: 24، 11: 14).

(4) سورة آل عمران، الآية 67.

(5) سورة آل عمران، الآية: 64.

أن يتّبعوا ما نبّه إليه القرآن الكريم في هذا الموضوع، لأن استعمال كلمة عبري بمعنى يهودي عندما يبحث عن تلك الأزمان القديمة لا يتّفق مع المسند العلمي التاريخي، فضلاً عمّا يحدّثه من ارتباك، إذ يربط اليهود بأدوار تاريخية قديمة لم يكن لهم أي وجود فيها. لذلك فإذا أردنا أن نتعرّف على حياة إبراهيم الخليل علينا أن نرجع إلى وطنه الأصلي وطن آبائه وأجداده في جزيرة العرب ثم إلى المناطق الآرامية في منطقة الفرات الأوسط حيث استقرّ أجداده عرب البادية النازحون من الجزيرة فنزل بعضهم إلى العراق ومن جملتهم أسرة إبراهيم الخليل، هذا مع ملاحظة العصر والزمن اللذين وجد فيهما إبراهيم الخليل، ثم العصر الذي ظهر فيه الموسويون على أساس أن كلّاً منهما يمثّل عصراً مستقلاً بذاته.

إبراهيم الخليل ـ مولده وسيرته:

هو: أبرام بن تارح بن ناحور بن سروجبن رعو بن فالجبن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح عليه السلام. هذا هو نسبه كما ورد في التوراة[1]. وجاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾[2] وقد فسّره بعض المفسرين «إن «تارح» هو (الاسم العلم) لأبي إبراهيم و«آزر» اسمه (الوصفي)» كما يقول البيضاوي أما الأستاذ النجار فإنه يعلّق على ذلك بقوله: «إذا صحّ أنه كان لوالد إبراهيم اسم (علم) واسم (وصفي) فيكون معناه القوي أو الناصر أو المعين لأن لفظ آزر من الأزر، أي القوة والنصر والعون ومنه الوزير أي المعين[3]. وهي كذلك في اللغات السامية التي منها لغة إبراهيم، ومن ذلك عازر وعزيز في العبرية»[4].

إن أحدث التحقيقات الآثارية التي توصّل إليها العلماء تشير إلى أن

(1) (تك، 11: 10 ـ 26).

(2) سورة الأنعام، الآية 73.

(3) **«تاج العروس»**، ج 3، ص 11.

(4) النجار، **«قصص الأنبياء»**، الطبعة الثالثة، ص 70.

إبراهيم الخليل ﷺ ظهر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد أي قبل حوالي أربعة آلاف عام. وهذا يتّفق مع ما ذكره بعض المؤرّخين العرب في تعيين تاريخ عهد إبراهيم الخليل ﷺ، فقد حدّد المسعودي الفترة الممتدة بين عهد إبراهيم الخليل وبين عهد خروج موسى من مصر بخمسمائة وسبع وستين سنة[1]، ولما كان العلماء قد توصلوا إلى تعيين زمن الخروج بالقرن الثالث عشر قبل الميلاد فيكون هذا التحديد مطابقاً تماماً لما وصل إليه العلماء بتعيين زمن إبراهيم الخليل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. ويتّفق المؤرّخون على أن مولد إبراهيم الخليل كان في العراق[2]، إلا أن الروايات قد اختلفت في تعيين مكان ولادته من العراق بالضبط، فبعضهم ذكر أن مولده كان في أور الكلدانيين والبعض الآخر عينه في بلدة «أوروك» (الورقاء)، وفي نقول أخرى أن مدينة «كوثا» كانت مسقط رأسه وفيها طرح في النار، وأطلال مدينة كوثا ما زالت قائمة حتى يومنا هذا وتُسمّى «تل إبراهيم» وإلى جانب التل مزار يُعرف بمقام إبراهيم. هذا ويقول ابن بطوطة إن مولده كان في البرس (برس نمرود)، وقد ورد ذكر محاولة النمرود لحرق إبراهيم هناك. وفي البرس تل مرتفع يقوم عليه

---

(1) **«التنبيه والإشراف»**، طبعة مصر، 1938، ص 171.

(2) لقد أبدى بعض الباحثين حديثاً الشك في كون مولد إبراهيم الخليل في العراق، ويميل هؤلاء إلى الرأي بأن هناك مدينة أخرى باسم أور غير أور العراقية تقع بالقرب من حران حيث أسست جملة مدن قديمة كانت بالدرجة الأولى مراكز تجارية وعُرفت باسم أور. إلا أن هذه النظرية لا تستند إلى دليل. فالعراق مملوء بمقامات ومزارات وآثار كلها تحمل اسم إبراهيم الخليل فضلاً عن إجماع المؤرّخين العرب على كون ولادته في العراق، والعثور على ألواح بابلية تحمل اسم أبرام دليل جديد على أن هذا الاسم كان من الأسماء الشائعة عند البابليين، والأرجح أن أسماء هذه المدن بجوار حران منقولة من أور العراقية تبرّكاً باسم المدينة التي جاء منها إبراهيم الخليل، ومن هذه المدن «أورفة» التي تشتمل على عدّة مواضع مقرونة باسم إبراهيم الخليل مما يشير إلى احتمال زيارته لأورفة عند ذهابه إلى حران وهي قريبة منها وتقع في المنطقة نفسها. ويجب أن لا ننسى أن التوراة أوردت ذكر مدينة أور وهي مقرونة بالكلدانيين وكتبة التوراة كانوا في منطقة أور ذاتها عندما دوّنوا فصولها وكانوا مطلعين على مدوّنات البابليين وآرائهم الموروثة عن العصور القديمة.

مزار حديث يعزى إلى كونه مقام إبراهيم الخليل أو قبره إلا أن أكثرية المراجع الإسلامية تؤكد ولادته في كوثا.

وقد جاء ذكر إبراهيم الخليل ﷺ مقروناً بعهد الملك نمرود، ومما ورد في ذلك أن الملك نمرود دفعته أحلامه المزعجة إلى مراقبة الحوامل وقتل الذكور من مواليدهن، وزار عماله أم إبراهيم عوشاء للكشف عليها قبل أن يأتيها المخاض، وجسّوا جانبها الأيمن فاختفى الجنين في الجانب الأيسر، وجسّوا جانبها الأيسر فاختفى الجنين في الجانب الأيمن، فانصرفوا دون أن يظفروا بطائل، الأمر الذي اضطر عوشاء أن تلجأ إلى كهف بالقرب من كوثا، وهناك رأى إبراهيم الخليل نور الحياة للمرة الأولى[1] وفي ذلك دليل على كون عشيرة إبراهيم الخليل كانت تسكن في منطقة كوثا التي كانت تُعتبر مركزاً هاماً للساميين في العراق منذ أقدم العصور بعد أن هاجروا من الجزيرة العربية وأخذوا يؤسسون مستوطناتهم على ضفاف الفرات في سوريا وفي العراق.

وإبراهيم الخليل بحسب رواية التوراة ينتمي إلى القبائل الآرامية[2] وهي قبائل عربية نزحت من وطنها الأصلي في جزيرة العرب واستقرّت على ضفاف الفرات في شمال سوريا، ثم نزلت بعض أسرها إلى العراق ومن جملتهم أسرة إبراهيم الخليل. وإذا أخذنا بما توصل إليه العلماء حول تعيين تاريخ هجرة الآراميين فتكون أسرة إبراهيم الخليل قد جاءت إلى منطقة بابل في حوالي أوائل الألف الثانية قبل الميلاد. وهكذا يمكن القول إن إبراهيم الخليل كان عراقياً بالولادة عربياً في قوميته التي ترجع إلى وطنه الأصلي الجزيرة العربية. ويقول البروفسور «ديشز» (Daiches). «إن أسرة إبراهيم الخليل كانت قد جاءت إلى بلاد بابل من أرض كنعان التي كانت وطنها الأصلي»[3]. وهذا لا يغيّر

(1) الكسائي، الثعلبي، الطبري، الزمخشري، البيضاوي، ابن الأثير، ياقوت، البكري، المقدسي، وابن صحون.

(2) (تك، 24: 4، 38 ـ 40)؛ (تث، 26: 5).

(3) S. Daiches, «The Jews in Babylonia», 1910, p. 7.

كون وطن إبراهيم الأصلي هو جزيرة العرب، لأن الكنعانيين ومعهم العموريون والآراميون كلهم نزحوا من الجزيرة العربية في الأصل.

ولما نادى إبراهيم الخليل بعقيدة التوحيد بين قومه الوثنيين لاقى كثيراً من أنواع التعذيب والاضطهاد وقد خرج منها سالماً[1]. ثم دحر نمرود بينما سار إبراهيم وأتباعه إلى «حاران» (حران حالياً) ومنها إلى أرض كنعان (فلسطين). وقد اجتاحت البلاد موجة من القحط والغلاء فانحدر إبراهيم هذه المرة إلى مصر[2]، وكان لوط ابن أخيه معه، فأقام في مصر مدة من الزمن صارت له فيها ثروة كبيرة، وقد أصاب لوط من غنى عمه شيئاً غير يسير، ثم غادر إبراهيم مصر وكل ما كان له عائداً إلى كنعان وأقام في حبرون، وهي اليوم الخليل[3].

ثم وقع نزاع بين رعاة إبراهيم ولوط أدّى إلى انفصالهما فاختار لوط أن يرتحل إلى سهل الأردن حيث كانت «سدوم وعمورة»[4]. وحدث بعد هذا أن بعض ملوك البلدان الواقعة على الفرات أغاروا على مدن سهل الأردن فأخذوا سدوم وأسروا لوطاً مع أهل بيته واستولوا على أملاكه. فلمّا بلغ الخبر إبراهيم سلّح غلمانه وعبيده وكبسهم ليلاً فكسرهم واسترجع لوطاً وأملاكه ونساءه وجميع الأسرى وكل ما كان لهم، فخرج ملك سدوم لاستقباله بعد رجوعه وباركه ملكي صادق ملك شاليم (أورشليم) قائلاً: «مبارك أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض، ومبارك الله العليّ الذي أسلم أعداءك في يدك» فأعطاه إبراهيم عشراً من كل ما استولى عليه وأبى أن يأخذ لنفسه شيئاً من الغنيمة»[5].

---

(1) ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ [الأنبياء: 68 ـ 71].

(2) (تك، 12: 10).

(3) (تك، 13: 1، 18).

(4) (تك، 13: 6 ـ 13).

(5) (تك، ص 14).

وقد رزق إبراهيم ابناً من الجارية المصرية هاجر أسماه إسماعيل[1]، ثم ولدت له زوجته سارة ابناً في شيخوخته وسماه إسحاق[2]. وتذكر التوراة أنه رزق في أخريات أيامه أولاداً أيضاً من زوجته الأخيرة «قطورة»[3]. ومات وعمره مائة وتسعون سنة ودفنه إسحاق وإسماعيل في حبرون في المقبرة نفسها التي دفنت فيها امرأته سارة[4].

وقد ورد في كتب تواريخ الصابئة أن إبراهيم الخليل تربّى في كوثا ولما خالف جماعته احتجّ عليه الناس إلى أن سجن وكان يستمر في مناقشة الناس أياماً وهو في السجن فلما خاف الملك أن يفسد عليه سياسته ويردّ الناس عن أديانهم نفاه إلى أطراف الشام[5].

ونخلص مما تقدّم إلى أن إبراهيم الخليل قد نادى بعقيدة التوحيد قبل حوالي أربعة آلاف عام، أي قبل ظهور موسى بحوالي سبعمائة عام. ومما لا شك فيه أن دعوته هذه إلى الإِله الأوحد، إله السموات والأرض، المخالفة للعقائد الوثنية المحلية والمقاومة التي جابهها بسبب ذلك هي التي ألجأته بوحي من الرب إلى الهجرة من العراق شأنه في ذلك شأن الأنبياء المصلحين[6].

شخصية إبراهيم الخليل وصلته بالجزيرة العربية:

كان إبراهيم الخليل زعيماً ذا مقام سام اجتماعياً ودينياً وسياسياً بين جميع بلاد الشرق وقد اشتهر باستقامة سيرته وسموّ مبادئه، والأرجح أنه كان من أكبر زعماء قبائل العرب المسماة بالبائدة وكانت كلها في قيد الحياة في زمنه قبل أن تنقرض الواحدة بعد الأخرى، وعلى هذا فقد كان نطاق اتصالاته

(1) (تك، 16: 15).
(2) (تك، 21: 2 ـ 3).
(3) (تك، 25: 1).
(4) (تك، 25: 7 ـ 10).
(5) الدكتور إسرائيل ولفنسون، «**موسى بن ميمون**»، ص 112.
(6) (تك، ص 12).

يشمل كل الهلال الخصيب تقريباً ومن ضمنه الجزيرة العربية ودلتا النيل الشرقية، حتى ليقال إنه كان أميراً من أمراء البابليين قبل مغادرته العراق، وعندما حلّ بدمشق وهي في أول نشأتها قيل إنه نصب ملكاً عليها. ويرى الأستاذ هيوز «أن أغلب الظن بأن ذلك قد سجّل في تاريخ مدينة دمشق بين سكّانها الأولين لأن أليعازر الدمشقي الموكّل على بيته كان من هناك». ويرجّح أن إبراهيم الخليل بصفته من الزعماء الروحانيين قد تبادل الرأي وبحث مع كبار رجال الدين المصريين معتقده الديني[1]. ويقول الأستاذ كنيون: إن الحثيين الذين كان إبراهيم الخليل يسكن في جوارهم في فلسطين كانوا ينظرون إليه كأمير عظيم بينهم[2].

وقد روى يوسيفوس[3] نقلاً عن نيقولاوس الدمشقي (القرن الأول قبل الميلاد) أن إبراهيم الخليل بلغ دمشق أولاً وولّي أمرها، وهذا كلام الدمشقي الذي رواه يوسيفوس: «خرج إبراهيم الخليل بجحفل كبير من بلاد الكلدان.. فملك في دمشق ثم زايلها بعد مدّة وأقام في أرض كنعان... وما برح اسم إبراهيم إلى الآن موقراً ومشتهراً في بلاد دمشق وهناك قرية تُسمّى باسمه ويقال إنها كانت مسكنه». وعدّ يوستينوس ملوك دمشق فقال: «ومن بعد دمسقوس ملك حزال ثم أدوراس ثم إبراهيم وإسرائيل». ورأى كثير من العلماء «أن هذه التقليدات لا تخالف الصواب ولا أقل من أن تكون دليلاً على إقامة إبراهيم مدة في دمشق بمنزلة أمير ثري وأليعازر قيم بيته كان من دمشق[4] وقد جاء ذكر هذا التقليد في كتب علماء مسيحيين ومسلمين»[5]. ومما يدلّ على أن إبراهيم الخليل كان ينتمي إلى أسرة من الأمراء في بابل ما رواه ياقوت الحموي من أن جد إبراهيم الخليل أبا أمه قام بحفر نهر كوثى وهو أول نهر أخرج بالعراق من

---

(1) G.S. Hughes, «**Ancient Civilizations**», 1896, p. 352.

(2) F. Kenyon, «**The Bible and Archaeology**», 1940, p. 81.

(3) «**تاريخ اليهود**»، (ك 1، فصل 7).

(4) (تك، 15: 2).

(5) المطران يوسف الدبس، **تاريخ سوريا**، ج 1، م 2، بيروت 1895، ص 10.

الفرات. فذكر ياقوت نقلاً عن أبي المنذر أن «نهر كوثى سمّي بكوثى من بني أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام وهو الذي كراه فنسب إليه وهو جد إبراهيم عليه السلام أبو أمه بونا بنت كرنيا بن كوثى وهو أول نهر أخرج بالعراق من الفرات».

ومما لا شك فيه أن نبوءة إبراهيم الخليل قد انتشرت في الآفاق حتى خلد اسمه في جميع البقاع التي مرّ بها كما نشاهدها اليوم في المزارات والمقامات العديدة التي تحمل اسمه وهي منتشرة في البلاد العربية عامة. ومع أن إبراهيم الخليل كان قد استقرّ في العراق إلا أنه كان على اتصال دائم مع أبناء عشيرته والقبائل العربية التي كانت تربطه بها صلة القرابة والوطن الواحد. وكان شأنه في ذلك شأن العرب الذين كانوا يستقرون في المدن والقرى ويأخذون بحياة الحضر ولكن في الوقت نفسه لم ينفروا عاداتهم القديمة من البداوة وما إليها لأن طابع العرب الميل إلى البداوة وحكم القبيلة والاعتزاز ببداوتهم وتمسّكهم بتقاليدها. وهكذا فقد كان إبراهيم الخليل مرتبطاً كلياً بالجزيرة العربية وكانت له جمال وأغنام كما كانت له اتصالات تجارية وسياسية وزراعية مع القبائل التي كانت تسكن البادية المتّصلة بالفرات والأردن والحجاز، وكان خبيراً بطرق البادية ومواقع آبارها. ولما كانت اللهجات العربية لم تكن قد تباعدت عن بعضها البعض في زمنه فقد كان إبراهيم الخليل يفهم لسان أهل البلاد التي توجّه إليها، إذ كانت كلها تتكلم بلغة واحدة، فقد نزح من أور الكلدان واجتاز سوريا وفلسطين ومن المحتمل أن يكون قد مرّ بالحجاز لزيارة مكة المكرمة وذلك قبل رحيله إلى مصر، وهذه كلها بلاد عربية خالصة وقد كانت له اتصالات برؤساء قبائلها. وإذا أخذنا بما ورد في التوراة عن ارتباط إبراهيم الخليل بعشيرته في منطقة حران (آرام النهرين وفدان آرام) (آرام)[1] فيكون في توجّهه إلى حران قد حلّ بين أهله وعشيرته، لأن منطقة حران كانت في زمن إبراهيم الخليل مستوطنة آرامية نزح أهلها من شمال

(1) ورد في كتاب «**قصص الأنبياء**» للنجار ما يشير إلى أن «فدان آرام» التي ورد ذكرها في التوراة تقع في العراق ولعله يقصد بالعراق وادي الرافدين الذي يشمل كل المنطقة الواقعة على وادي الفرات بما في ذلك منطقة حران الكائنة على منابع البليخ وهو أحد روافد الفرات الأوسط.

الجزيرة واستقرّوا في السهل الممتد بين البليخ والفرات. كما أوضحنا ذلك فيما تقدّم[1].

ومن المحتمل أن يكون إبراهيم الخليل قد زار منطقة أورفة الواقعة جوار حران على بُعد عشرين ميلاً شمالاً، والتقليد القديم عند بعض الطوائف في أورفة بأن إبراهيم الخليل سكن فيها وتستشهد بالمغارة عند سفح الجبل إلى الجنوب الشرقي من المدينة حيث ولد إبراهيم على ما يزعمون، وهناك بركة تدعى بركة إبراهيم الخليل. ولعل تسمية أور المدينة باسم أورفة مشتقة من مدينة أور التي نزح منها إبراهيم الخليل فسُمِّيت باسم مدينته أور تبرّكاً بها.

وفي سيرة إبراهيم الخليل وصلته بالبلاد العربية يقول الأستاذ مونتغمري: «إن ما اتّسم به إبراهيم الخليل من الخلق الرفيع وعزّة النفس هو من صفات الآباء والاعتداد بالنفس التي يتّصف بها الشيخ العربي. وملاحظة هذه الظاهرة تكشف لنا عن الصفة البارزة من صفات الساميين، فقد حافظ الساميون على مقوّماتهم الأصلية حتى هذا اليوم على الرغم من التأثيرات الأجنبية الدخيلة التي زاحمت تلك المقوّمات القديمة. فبعد سقوط الإمبراطوريات الساميات اجتاحت البلاد دولة فارس ثم اليونان فروما فبيزنطة فبلاد فارس من جديد، وأخيراً حكم الصليبيين المتقلّب، وكل هؤلاء من العنصر الهندو ـ أوروبي. ومع اجتياح العديد من هذه العناصر الغريبة في العرق والدين للبلاد بقي العنصر السامي على أصله محافظاً على اللسان العربي تعززه ديانة عربية خالصة متغلبة ومتصدرة»[2].

الطريق التي سلكها إبراهيم الخليل في هجرته إلى كنعان:

يتّفق الخبراء على أن إبراهيم الخليل ﷺ سلك طريق الفرات الأيمن في رحلته من أور إلى حران، وهي الطريق نفسها التي كانت تسلكها القوافل، وكانت مع إبراهيم الخليل جماعته وممتلكاته من قطعان الأغنام والمعزى

---

(1) انظر ما تقدّم عن هجرة الآراميين في الفصل الأول.

(2) مونتغمري، «**الجزيرة العربية والتوراة**»، ص 24.

الرسم رقم (16)

والحمير والجمال، فيكون قد قطع في هذه الرحلة 560 ميلاً (900 كيلومتراً) بين أور وحران، فمر أولاً بمدينة «ماري» السامية وهي عاصمة العموريين الذين ظهرت منهم السلالة البابلية الأولى والملك حمورابي الشهير، وقد كانت هذه المدينة آنذاك تتمتّع بأوج ازدهارها. ثم ذهب منها إلى حاران (حران الحالية)، وبعد ذلك غادر حران متوجهاً إلى دمشق بطريق تدمر ومنها إلى فلسطين قاطعاً مسافة حوالي 600 ميل (960 كيلومتراً) أخرى بين حران وكنعان. أما الطريق الذي سلكه في سفرته إلى مصر فهو اختراق صحراء شبه جزيرة سيناء حيث القبائل المديانية والقينية[1].

وقد ذهب الأستاذ «لورد» «إلى أن الطريق التي سلكها إبراهيم الخليل كانت بمحاذاة الجانب الأيسر من نهر الفرات[2]، وهذه الفرضية غير مقبولة لكثرة العوارض في هذا الجانب فضلاً عن أن جميع المدوّنات القديمة تشير إلى أن الطريق العام، طريق القوافل، كان يسير بمحاذاة الجانب الأيمن من الفرات ماراً بمدينتي هيت وعانة ثم ببلدة «ماري» عاصمة العموريين الشهيرة وبعد أن يمرّ بمدينة البوكمال والميادين ودير الزور يعبر الفرات عند الرقّة ثم يصعد شمالاً مع نهر البليخ حتى يصل إلى حران[3].

وبذلك يكون إبراهيم الخليلﷺ قد قطع مسافات طويلة عبر البوادي متنقلاً بين القبائل العربية من منطقة إلى أخرى في متاهات شاسعة من الجزيرة العربية محتكاً بمدنها وقراها وسكّانها ورؤساء عشائرها. ففي سيرته هذه تتجلّى

---

(1) كان المديانيون، وهم من القبائل العربية القديمة، يقطنون في شبه جزيرة سيناء حيث تلقى موسى، بحسب مآثر التوراة، العهد المقدس. وتذكر التوراة أن موسى تزوج في مدين من ابنة كاهن هذه المنطقة الذي كان على ما يرجّح موحداً يعبد الله باسم «يهوه». لذلك يرجّح أن أصل اسم «يهوه» إله من آلهة البدو العرب الشماليين. وكان المديانيون من أقدم الذين استعملوا الجمال في غزواتهم الصحراوية.

أما القينيون فهم من القبائل التي سكنت أرض مديان بين فلسطين وسيناء وشرقي خليج العقبة وكان يثرون حمو موسى قينيا. وكان القينيون أصحاباً للكنعانيين والعمالقة (العرب).

(2) Rev. F. T. Lord, «The Story of the Bible», Vol. I, p. 32.

(3) انظر الرسم رقم 16 الذي يمثّل الخارطة التي وضعناها مع هذا البحث.

لنا أبين التجلّي الرسالة الروحية والإنسانية التي كان يحملها معه أينما حلّ. وفي سيرته هذه تبرز الرابطة القوية التي تربط العالم العربي بعضه ببعض بوشائج الثقافة واللغة والتراث الصحراوي الباعث على النبوغ والتسامي في سماء الروحانيات التي انبثقت منها النبوّة السامية التي تصل الخالق بالمخلوق، فكان والحالة هذه رسولاً حاملاً علم العروبة بين وادي الرافدين ووادي النيل، رسول المحبة والتوحيد والسلام، يوصل بين أعظم حضارتين في العالم القديم. كان كل ذلك قبل أن يعرف العالم أو يسجّل التاريخ وجود الموسويين بسبعمائة عام.

صلة إبراهيم الخليل بالقبائل العربية البائدة وبجزيرة العرب:

ومن الواضح أن إبراهيم الخليل لم يدخل فلسطين غازياً ولا محارباً ولا فاتحاً ولا محتلاً وإنما جاء متنقلاً بين العراق مسقط رأسه وبين المستوطنات العربية السامية على ضفاف وادي الفرات مثل «ماري» و«حران» وفي المناطق الغربية مثل «تدمر» و«دمشق» و«كنعان» شأنه في ذلك شأن القبائل العربية التي كانت تنتقل في البادية من مكان إلى آخر فتعتبر كل الجزيرة وكل الوادي (وادي الفرات بوجه خاص) وطنها، وهكذا فقد استقبل إبراهيم الخليل بكل ترحاب هو وأتباعه وما معه من جمال وقطعان من المواشي وما إلى ذلك مما ملكه من مال أينما حلّ لما كان يتمتع به من سمعة وشهرة في جميع البلاد العربية. ففي حران كان بين عشيرته وأقربائه وهم جماعة الآراميين الذين كانوا قد استوطنوا في منطقة حران قبل فترة وجيزة. وفي بلاد كنعان استقبله الكنعانيون بالتجلة والتعظيم وقد سبق لهم أن استقرّوا في أرض كنعان منذ أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد، وهم كالآراميين ساميون عرب من أهل الجزيرة العربية وكانوا كلهم يتكلمون لغة واحدة، هي لغة الجزيرة الأم قبل أن تتفرّع إلى لهجات عديدة. ومع أننا نعلم أن العناصر غير السامية لم تكن قد تسللت إلى هذه المناطق بعد، فإن التوراة تشير إلى أن بعض الحثيين قد حلّوا كأفراد في كنعان في زمن إبراهيم الخليل إلى جانب الكنعانيين إذ جاء في التوراة أن إبراهيم الخليل اشترى من عفرون بن صوحر الحثي «مغارة المكفيلة التي له في طرف

حقله ليتخذها مقبرة له ولسارة امرأته»[1] وقد ورد في التوراة أيضاً ذكر عدد من القبائل كانت موجودة في زمن إبراهيم الخليل يرجّح أنها من فروع القبائل الكنعانية أو العمورية وهذه القبائل هي قبائل القينيين والقدريين والقدوميين والفرزين والرفائيين والجرشانيين واليبوسيين[2].

ومما يذكر أن القبائل العربية المنقرضة (البائدة) التي أشار إليها الإخباريون العرب والتي ورد ذكر أهمها في القرآن الكريم مثل عاد وثمود ومعين وسبأ والعمالقة. كانت موجودة في زمن إبراهيم الخليل على ما جاء في كتابات المؤرّخين العرب، ومن المرجّح جداً أن إبراهيم الخليل كان على اتصال وثيق برؤساء هذه الإمارات العربية المنتشرة في أنحاء الجزيرة العربية والتي كان لها دور هام في تنشيط الحركة التجارية في الشرق الأوسط بسيطرتها على طرق القوافل بين العراق وسوريا ومصر والحجاز وبقية المواضع المهمة في شمال الجزيرة العربية وجنوبها. وقد عدّ العرب القبائل البائدة هذه من نسل إرم بن سام، أي إن هذه القبائل والقبائل الآرامية التي ينتمي إليها إبراهيم كانت ترجع إلى أصل واحد[3]، والمشهور من أقوال من تعرّض للكلام عن القبائل البائدة وخاصة قبيلة عاد وقوم هود أنهم بادوا بعد إبراهيم الخليل، وبناء البيت بمكة المكرمة.

وهكذا فقد كان إبراهيم الخليل مرتبطاً ارتباطاً كلياً بجزيرة العرب وبعشائرها وقبائلها المعروفة بالبائدة ومن ضمنها الحجاز ولم تنقطع صلاته بها مع سكناه في العراق كما أسلفنا. وقد ورد في القرآن الكريم ما يؤيد ذلك حيث جاء اسما إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام مقرونين بالجزيرة العربية وبيت الله العتيق (مكة المكرمة): ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ

(1) (تك، ص 23).
(2) (تك، 15: 19 ـ 21).
(3) انظر ما تقدّم في الفصل الأول عن الآراميين والقبائل البائدة.

﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[1]. ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

هجرة إبراهيم الخليل حقيقة واقعية وليست خيالاً:

ولقد ظهر من المدوّنات التاريخية القديمة التي اكتشفها الآثاريون أن هجرة إبراهيم هي حقيقة واقعية لا مجال للشك فيها، فقد ورد في هذه المدوّنات ما يشير إلى وقوع نزاعات دينية أساسية في العراق في حوالي الفترة نفسها التي هاجر فيها إبراهيم الخليل حول منزلة إله الساميين (الإلٰه القمرسين) الذي جاء به الساميون العرب من موطنهم الأصلي فانبثقت من هذه النزاعات والحوارات العقيدة الوحدانية التي بشّر بها إبراهيم الخليل وأصبح هو المؤسس لها وحامل لوائها. وتشير النصوص القديمة التي عُثر عليها أن سلالة من السلالات السامية البابلية حكم فيها أمراء كانوا يتقبلون عقيدة التوحيد وقد أخذوا بها إلا أن الوثنيين انتزعوا منهم الزعامة وأخرجوهم من البلاد. وهذا نصّ ما أورده المستر فيلبي في هذا الصدد: «إن الساميين الجنوبيين (ويقصد أهل جنوب الجزيرة العربية) نقلوا معهم (إلى بابل) الإلٰه القمر الذي كانوا يعبدونه، وقد احتلّ هذا الإلٰه مكانة رفيعة بين مجموعة الآلهة ولم ينافسه إلّا الإلٰه القمر الذي كان يعبده الآريون الشماليون، وقد انبثقت من هذا النزاع الحساس بذرة فكرة الخالق الأوحد العظيم الذي يسيِّر جميع هذا الكون، وهي تعدّ أعظم ما اقتبسته الإنسانية في تاريخ العالم. وتنسب الأقوال المتواترة هذه المرحلة من التفكير الإنساني إلى الأب أبراهام الذي كان حامل لواء النظرية الجديدة. ويظهر أن هذه الفكرة الجديدة قد حازت إقبالاً وتقبّلاً من الوثنيين. ففي بعض الألواح التي عثر عليها المنقّبون في منطقة بابل ما يوضح جلياً أن هناك ثلاثة ملوك يؤلفون سلالة بابلية سامية قد حكموا ما يقرب من قرن كامل

(1) سورة البقرة، الآية: 125.

(2) سورة البقرة، الآيتان: 127 ـ 128.

في المنطقة الجنوبية من بابل، وهؤلاء نادوا وجاهروا بعقيدة التوحيد إلا أن الوثنيين أسقطوا الملك الثالث ونفوه من البلاد. ولو محّصنا بدقة ما ورد في المدوّنات البابلية وفي كتابات التوراة لوجدنا أدلّة كافية على أن هذا الملك إن هو إلّا أبراهام الذي غادر بابل وتوجّه إلى فلسطين، وذلك بعد سقوط السلالة السامية الموحّدة المذكورة»[1].

ثمّ يضيف المستر فيلبي أن أسماء هؤلاء الملوك الثلاثة وهي أسماء عربية سامية مقترنة بصلة الإلٰه الواحد، فاسم الأول «إيلوما - إيلوم (Iluma Ilum)» ومعناه «الإلٰه هو الإلٰه الواحد». أما الملك الثاني فاسمه «إيتي - إيلي - نيبي» (Itti-ili-nibi) ومعناه «الله هو حسبي»، وهذا الاسم مشابه تماماً لأسماء ملوك جنوب الجزيرة العربية. وأهم ما في الأسماء الثلاثة هو اسم الملك الثالث «ياثع - إيل» (Yathi-Il) ومعناه كما ترجمه العلّامة Doughty «إلٰهه الواحد صديق له»، وهو كما ورد اسم النبي إبراهيم الخليل في الكتابات الإسلامية، أي إبراهيم الخليل[2]. ويختم المستر فيلبي حديثه عن صلة إبراهيم الخليل بعقيدة التوحيد قائلاً: «ومما لا شك فيه أن إبراهيم لعب دوراً رئيسياً في تاريخ العالم السامي بتأسيسه ديانة التوحيد وقد انتصر أخيراً في كفاحه ضد وثنية الجزيرة العربية القديمة... ولا نرانا بحاجة للتأكيد أن إبراهيم كان شخصية ذات مكانة مرموقة ويشير السير وولي إلى أنه النبي الوحيد من الأنبياء الذي سُمِّي بـ (خليل الله)[3].

وخلاصة القول إن ما تقدّم يدلّ دلالة واضحة على أن إبراهيم الخليل كان شخصية عظيمة، وزعيماً سياسياً وروحياً، لعب أكبر دور في تاريخ الإنسانية، وهو عربي قحّ متّصل بالقبائل العربية في جزيرة العرب وليست له أية

---

(1) H. St. J. B. Philiby, «The Background of Islam», 1947, pp. 10 - 11.

(2) «إيل» هو إلٰه إبراهيم الخليل نفسه خالق السموات والأرض الذي ورد ذكره في التوراة وفي الكتابات القديمة ومعناه «الإلٰه الواحد» وجمعه «إيلوهيم» كما سبق وأشرنا إلى ذلك (انظر ما تقدّم في مادة «إلٰه إبراهيم الخليل هو غير إلٰه قوم موسى»).

(3) «The Background of Islam», pp. 22 - 23.

صلة بعهد موسى واليهود الذي يقع بعد عهده بحوالي سبعمائة عام كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وقد عُثر فيما عُثر عليه من كتابات عمورية بين أطلال مدينة (ماري) السامية على دلائل تؤيد صحّة ما ورد في التوراة وفي القرآن الكريم حول شخصية إبراهيم الخليل باعتبارها حقيقة واقعية وليست أسطورة خيالية كما كان يرى بعض الباحثين. وقد تمكّن الخبراء الآثاريون من تعيين زمن هجرة إبراهيم الخليل بحوالي سنة 1900 ق.م. ويرجّح البعض الآخر أن الهجرة وقعت في حوالي 1850 ق.م. وقد انتهى البحّاثة الفرنسي الأستاذ (دي فو) في أحدث دراسة قام بها في هذا الموضوع (1965) إلى تحديد عصر إبراهيم الخليل بالقرن التاسع عشر قبل الميلاد[1]. وهذا يقع في أوائل عصر المملكة البابلية القديمة (1894 ـ 1595) قبل الميلاد.

وقد دلّت التنقيبات التي أُجريت في منطقة بابل أن تسمية أبراهام أو أبرام وردت في عديد من الألواح البابلية من زمن سلالة بابل الأولى بصيغة (أباراما) و(أبام راما)، وموضوع هذه الألواح يدور حول عقود ومقاولات تتعلق بمعاملات زراعية وتجارية. وقد وجدت هذه الألواح في مكان يقع بين بابل وبورسيبا وهي في حوزة جامعة يال الأميركية، كما ورد اسم أبرام في وثائق مصرية تعود إلى عهد شيشنق الأول (947 ـ 925 ق.م.) حيث ورد فيها ذكر مزرعة باسم «مزرعة أبرام» في جنوبي فلسطين لعلها تقع في جوار

---

(1) W. Keller, «**The Bible as History**», p. 69; R. De Vaux, «Les Patriarches Hébreux et L'Histoire», revue Biblique, 72 (1965), pp. 5- 28.

انظر أيضاً المراجع التالية:

L.H. Woolley, «**Abraham, Recent Discoveries and Hebrew Origins**» 1963; A. Parrot, «**Abraham et son temps**», 1962; **Revue des Etudes Sémitiques, «La légende des Patriarches et l'historie»**, Vol. IV, 1937, pp. 145-206; R. De Vaux, «**Les Patriarches et les découvertes modernes**», **Revue Biblique**, 53 (1946), pp. 321-247; 55 (1948), pp. 321-347; 56 (1949), pp. 7-36; T. K. Thordarson, «**Abrahma**», **Enc. Brit.**, 1965 ed, Vol. I, p 44 ff; H.S. Nyberg, «**Abraham**», in I **Engely and A. Fridrichen**, Svenskt Bibliskt Uppslagsverk, Vol. I, Col 8-11, 1948.

حبرون[1]، كما ورد اسم أبراموا أو أبرام في كتابات آشورية تعود إلى عهد أسرحدون (681 ـ 669 ق.م.). وقد عُثر أيضاً على كتابة في «لارسا» في جنوب العراق تعود إلى عهد حمورابي (1792 ـ 1750 ق.م.) ظهر فيها اسم شخص يدعى «أهوبا بن إسماعيل» بصفته أحد الشهود[2]. وقد عُثر في ماري على مدينة اسمها «ناحور» وهو نفس اسم أخي إبراهيم الخليل كما عُثر على أسماء مدن كثيرة تحمل أسماء أفراد عائلة إبراهيم مثل «توراحكي» يشبه اسم والده «تارح» ومدينة «سروج» وهي اسم جده[3]. كما عُثر في ماري على اسم قبيلة عمورية باسم بنيامين (أحد أسباط اليهود) مما يدلّ على أن هذه القبيلة كانت معروفة بهذا الاسم قبل ظهور النبي موسى واليهود بزمن طويل[4].

أحوال العراق السياسية أثناء هجرة إبراهيم الخليل منه:

وإذا رجعنا إلى الأحوال السياسية والاجتماعية التي كانت تسود العراق أثناء هجرة إبراهيم الخليل منه، نجد أن زمن هجرته الذي حُدِّد بحوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد يقع في فترة حرجة كانت تجتازها البلاد وهي في حالة اضطراب وتوتر، وهي الفترة التي أطلق عليها الآثاريون اسم فترة أيسن ولارسا، فكان نتيجة تنازع أيسن ولارسا أن تنازعت الدولتان على الحكم في مدن أيسن ولارسا وبابل، فألف الأولى جماعة من العموريين الساميين هجموا على العراق في موجة سامية جديدة جاءت من سوريا. أما الثانية فألّفها العيلاميون بعد غزوهم لجنوب العراق، وقد عرفت هاتان الدويلتان بسلالتي أيسن ولارسا (2006 ـ 1800 ق.م.) والتي كانت تتنازع فيها ثلاث دويلات، حوالي قرنين من الزمن على حكم العراق، وفي خلال هذه الفترة ظهرت سلالة

---

(1) G. A. Barton, «**Archaeology and the Bible**», pp. 316-319; A. T. Olmstead, «**History of Palestine and Syria**», p. 83.

(2) G. Smith, «**The Chaldean Account of Genesis**», 1876, pp. 296-298.

(3) **العربي**، العدد 143، تشرين الأول، 1970، ص 88.

(4) Parrot, «**Archaeology and Old Testament Stydy**», p. 141.

أخرى هي سلالة بابل الأولى وأصلها من العموريين الساميين أيضاً فانتصرت على سائر الأمراء وضمّت مدنهم إلى مملكة موحّدة حكمت الشرق الأوسط بأسره وعُرفت بالمملكة البابلية القديمة وهي من تأسيس الأقوام السامية العربية، وكانت بداية هذه السلالة في أوائل القرن التاسع عشر قبل الميلاد ودامت حوالي 300 عام (1894 ـ 1595 ق.م.) برز منها الملك الشهير حمورابي (1792 ـ 1750 ق.م.)(1).

ومن الحوادث المهمة التي حدثت في هذا الدور حدوث فيضان خطير جداً في نهريّ دجلة والفرات أحدث تخريبات واسعة، ويرجّح أن مجرى الفرات الذي كان يسير باتجاه كوثى وسيبار تحوّل غرباً إلى مجرى جديد يمرّ ببابل، كما أن مجرى دجلة تحوّل من مجراه الأصلي باتجاه العمارة إلى جهة الغراف في الوقت نفسه نتيجة لهذا الفيضان مما أدّى إلى حرمان بعض المدن من مصدر حياتها (الماء) وإغمار مدن أخرى وتدميرها(2)، ومما لا شك فيه أن هذا الحادث الذي يعتقد أنه حدث في القرن التاسع عشر قبل الميلاد قد أحدث اضطرابات شاملة في البلاد(3).

أحوال مصر السياسية أثناء هجرة إبراهيم الخليل إليها:

أما أحوال مصر السياسية في الفترة التي هاجر فيها إبراهيم الخليل إلى وادي النيل فكانت تتميز بالاستقرار والازدهار والرخاء في ظلّ المملكة الموحدة القوية تحت حكم السلالة الثانية عشرة في عهد الفرعون «سنوسرت الثاني» (1897 ـ 1877 ق.م.) و«سنوسرت الثالث» (1872 ـ 1843 ق.م.)، فقد تمكّنت مصر في هذا الدور من بسط نفوذها السياسي على سوريا ولا سيما في البلاد الساحلية، كما فرضت سيطرتها على بلاد كنعان في أعقاب حملة قام بها «سنوسرت الثالث» في حوالي سنة 1850 ق.م.، وقد توطدت علاقات

(1) انظر ما تقدّم من الإمبراطورية البابلية القديمة في الفصل الأول.
(2) انظر الدكتور أحمد سوسة، «**وادي الفرات**»، الجزء الثاني.
(3) J. G Macqueen, «**Babylon**», London, 1964, p. 38.

تجارية قوية بين مصر والأقطار المجاورة، فكانت مصر تجلب التوابل والبهار وما إلى ذلك من المواد العطرية والصمغية التي كانوا يستعملونها في معابدهم وفي التحنيط من جنوب جزيرة العرب، كما كانت تجلب الذهب والتوابل من السودان والنحاس الأحمر وحجر الزبرجد والفيروز من مناجم طور سيناء والفضة من طوروس وأخشاب الأرز من لبنان، وكانت بلاد كنعان إذ ذاك حلقة وصل بين مصر وكل هذه الأقطار وقد احتلّت مركزاً مهماً من النواحي الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية، وذلك باعتبارها ممراً دولياً على الطريق التجاري الرئيسي للعالم القديم. لذلك فإن ذهاب إبراهيم الخليل إلى مصر كان أمراً طبيعياً نظراً للروابط المتينة والصلات الوثيقة التي كانت تربط الكنعانيين بمصر فقد كانت مصر تشكّل الموئل الطبيعي الذي يتّجه إليه الكنعانيون في حالات المحل والقحط للاكتيال منها.

أين اليهود من عصر إبراهيم الخليل؟..

لقد سبقت الإشارة إلى أن أكثر الكتّاب المتأثرين بالتوراة درجوا على ربط تاريخ اليهود بإبراهيم الخليل وقد أخذ عنهم الكتّاب العرب هذه الادعاءات المخالفة للواقع التاريخي دون تمحيص. ومن الأقوال التي شاع ترديدها وتناقلها الكتّاب والمؤرّخون من الإفرنج والعرب أن جماعة من اليهود هاجروا مع إبراهيم الخليل من العراق إلى فلسطين، بل راحوا إلى أبعد من ذلك فاعتبروا إبراهيم الخليل عبرياً بمعنى يهودياً نتيجة الخلط بين كلمة العبري القديمة واليهود ذلك الخلط الذي أوضحناه فيما تقدّم[1] ومن أغرب ما قيل في ذلك هو تعيين عدد اليهود الذين رافقوا إبراهيم الخليل في رحلته من العراق. وقد اعتبروا على هذا الأساس أن اليهود يعودون إلى المكان الذي نشأ فيه إبراهيم الخليل وهو أرض العراق. ومن هؤلاء الأستاذ أحمد زكي البدوي الذي يقول ما نصّه بالحرف الواحد: «رحل إبراهيم متزعماً الإسرائيليين

(1) انظر ما تقدّم عن مسألة العبري والعبيرو في هذا الفصل نفسه.

(اليهود) إلى فلسطين»[1]. وقد نقلت نشرة أصدرتها وزارة الثقافة والإعلام العراقية عن فلسطين من أرشيفها في طبعتها الثانية[2] ما يشير إلى أن «إبراهيم وأهله هاجروا من مدينة أور في العراق سنة 1806 قبل الميلاد وكان عدد اليهود الذين رافقوه في هذه الهجرة قليلاً... وقد انتهت هذه الهجرة عام 1656». وقد ذكر الأستاذ إميل الغوري عضو الهيئة العربية العليا الكلام نفسه[3]. والواقع أن الكتّاب العرب قد استندوا في نقل مثل هذه الادعاءات إلى المصادر الأجنبية، وهي مصادر يهودية في معظمها دون أن يتنبهوا إلى التسلسل الزمني للحوادث التاريخية. وقد سبقت الإشارة إلى أن مدوّني التوراة تعمّدوا إهمال التسلسل الزمني وذلك لإفساح المجال أمامهم لإرجاع تاريخ اليهود إلى أزمنة سابقة لوجودهم ومنها عصر إبراهيم الخليل[4]. ففي كتاب سولولف «كيف نما الشعب اليهودي»[5] مثلاً نجد ما يفيد أن الشعب اليهودي

---

(1) «**تاريخ التطور الديني**»، ص 33.

(2) النشرة رقم (1)، الطبعة الثانية، ص 6.

(3) إميل الغوري، «**فلسطين**»، وزارة الإرشاد القومي العراقية، رقم 44، 1963.

(4) انظر ما تقدّم في الفصل الرابع عن عصر إبراهيم الخليل.

(5) Mordecoi I, Solaff. «**How the Jewish people grew up?..**»

هذا ما يقوله سولوف وقد جاراه فيه كثير من العلماء والأساتذة مع الأسف ولكن هلّا يكون بإمكان أولئك الأفاضل إعلامنا عمّا سيكون عليه مصير التوراة التي بين أيدينا في حال ثبوت هذا الزعم؟!...

فالتوراة تؤكد دعوة الرب إبراهيم بمفرده بدلالة ما يلي:

(أ) «وقال الرب لأبرام اِذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى ﷺ الأرض التي أريك» (تك، 12: 1). «فذهب أبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط. وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران. فأخذ أبرام ساراي امرأته ولوطاً ابن أخيه وكل مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران. وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا أرض كنعان» (تك، 24: 4 ـ 5).

فأين هم اليهود الذين قادهم إبراهيم في هجرته إلى أرض كنعان؟!..

(ب) تؤكد التوراة كون إبراهيم ﷺ فرداً بين الكنعانيين:

«وشاخ إبراهيم وتقدّم في الأيام. وبارك الرب إبراهيم في كل شيء. وقال إبراهيم لعبده كبير =

نزح إلى فلسطين من بلاد الرافدين في حدود الألف الرابعة قبل الميلاد بقيادة إبراهيم الخليل ولم يكن عددهم آنذاك يتجاوز أربعة آلاف شخص[1]. وهذا هراء في هراء ليس له أي نصيب من الصحة ولا أي سند من واقع التاريخ، ولكن لم يزل عدد غير قليل من الكتّاب العرب من يأخذ بهذا التزييف. وكتاب سولوف المذكور يدرّس الآن في أمريكا في المدارس اليهودية وغير اليهودية باعتباره يمثّل تاريخ اليهود، ولم يتصدَّ أحد من المؤرّخين والباحثين لتفنيد هذه الادعاءات الوهمية، ولنا أن نسأل أين دعاية العرب من هذه الادعاءات المزيفة؟.. هل ردّ أحد عليها؟.. هل أدخل العرب في مدارسهم منهجاً لتوضيح حقيقة تاريخ فلسطين القديم ودور اليهود فيه؟..

= بيته المستولي على كل ما كان له. ضع يدك تحت فخذي. فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم. بل إلى أرضي وإلى عشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني إسحاق» (تك، 24: 1 ـ 4). «ثم أخذ العبد عشرة من جمال مولاه ومضى وجميع خيرات مولاه في يده، فقام وذهب إلى آرام النهرين إلى مدينة ناحور» (تك، 24: 1 وكذا راجع كامل الإصحاح 24).

فلو كان هناك يهود قادهم إبراهيم إلى أرض كنعان وإن لم يكن بإمكانه أن يزوّج ابنه الوحيد من إحدى بناتهم وتقرّ عينه بدلاً من إرسال عبده إلى آرام النهرين إلى عشيرته فلا تقرّ عينه بزواج ولده الوحيد.

وكذلك فعل إسحاق عندما أوصى ولده يعقوب بأن يذهب إلى حاران ليأخذ له زوجة من هناك (تك، 28: 1 ـ 2). وقد ولد أولاد يعقوب جميعهم وهم كل ذرية إبراهيم الخليل في فدان آرام (تك، 35: 23 ـ 26). وكان يعقوب (إسرائيل) يصف نفسه وأباه إبراهيم بالآرامي التائه (تك، 26: 5).

فكيف يكون إبراهيم وإسحاق ويعقوب آراميين ويهوداً. في آن واحد.

(ج) لو كان هناك يهودا فهم لا براح عشيرة إبراهيم ولكن إبراهيم خلف عشيرته في آرام النهرين كما جاء أعلاه وإذا كان هناك يهود غير عشيرة إبراهيم فكيف يعودون إليه بحسب مآثر التوراة.

(د) لو كان إبراهيم قد قاد اليهود وعددهم 4000 رجل فكيف يكون آرامياً تائهاً بحسب وصف حفيده يعقوب له و4000 رجل في تلك الأيام البعيدة كانت تشكّل جيشاً كاملاً؟...

فهلّا نحصل على جواب على تساؤلنا من سولوف ومن أولئك الذين ينحون منحاه؟!...

(1) شريف يوسف، «تاريخ اليهود كما يلقنه الصهاينة لأبنائهم»، **العربي**، العدد 108، تشرين الثاني، 1967، ص105.

ومن حقنا ومن حق كل باحث أن يسأل: كيف يمكن أن يكون إبراهيم الخليل يهودياً وقد عاش قبل أن يعرف التاريخ جماعة يسمّون أنفسهم يهوداً بحوالي ألف وثلاثمائة عام؟.. ثم أين كان الشعب اليهودي في سنة 4000 قبل الميلاد لا سيما وأن تسمية يهود لم تظهر إلى عالم الوجود إلّا بعد 2300 عام من هذا التاريخ كما أن إبراهيم الخليل نفسه لم يظهر إلّا بعد أكثر من ألفي سنة من التاريخ نفسه. ولنا أن نسأل أيضاً: كيف جاء اليهود إلى العراق وكيف اتصلوا بإبراهيم الخليل في حين أنه لم يكن لهم أي وجود بعد؟.. وكيف يتزعم إبراهيم الخليل اليهود في رحيله إلى فلسطين قبل أن يكون قد خلق يهوذا الذي جاءت تسمية يهود منه أو يكون خلق يعقوب (إسرائيل)؟!.. نعم، إن العراق حوى اليهود، ولكن حواهم كأسرى في زمن نبوخذ نصّر، وكان ذلك بعد إبراهيم الخليل بأكثر من ألف وثلاثمائة عام. ولم يكن لهم أي وجود في العراق لا من بعيد ولا من قريب في عهد إبراهيم الخليل لأنهم لم يكونوا قد ظهروا للوجود بعد.

ويميل بعض الباحثين إلى الاعتقاد أن اليهود تعمدوا نشر قصص التوراة والتلمود بين العرب لأسباب سياسية ودينية وأنها في حقيقة الأمر دسيسة لفّقها اليهود للعرب تزلّفاً إليهم واحتيالاً على كسب عطفهم وتوثيق عرى المودة والإلفة بينهم. فيقول أحد العلماء: «إن هذه الطريقة هي من سنن اليهود المألوفة إذ لوحظ عليهم كثيراً أنهم متى رأوا المصلحة في التودّد إلى قوم قالوا لهم أنتم إخواننا ونحن وأنتم صنوان.. وظلوا منذ ذلك العهد إلى ظهور الإسلام وهم يبذلون جهدهم في إشراب العرب عقيدة كونهم وإياهم ذرية أب واحد حتى نجعت فيهم هذه الأكذوبة التي كان العرب أجهل من أن يتبينوا ما فيها من كذب وتلفيق»[1].

هجرة إبراهيم الخليل من العراق وهجرة جماعة موسى من مصر:

لقد اعتاد أكثر الكتّاب والمؤرّخين ومنهم الباحثون العرب، أن يعتبروا

(1) ولفنسون، «**تاريخ اليهود في بلاد العرب**»، ص 75.

هجرة إبراهيم الخليل من العراق وهجرة جماعة موسى من مصر وكأنهما هجرتين لقوم واحد أو لجماعة واحدة، فقالوا هجرة العبرانيين بمعنى اليهود الأولى، أي هجرة إبراهيم الخليل، وهجرتهم الثانية، أي خروج جماعة موسى من مصر. وشتّان ما بينهما، إذ لا توجد أية علاقة بين الهجرتين، فهجرة إبراهيم الخليل من مسقط رأسه العراق وقعت في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، أي قبل ظهور جماعة موسى بسبعة قرون، وكانت لهجرته هذه أسبابها وأهدافها السامية، فقد اضطر إبراهيم بسبب دعوته إلى عقيدة التوحيد وتبشيره بها بين مواطنيه الوثنيين إلى مغادرة العراق تحت ضغط السكان ورجال الدين في ظروف مشابهة لظروف النبي محمد عليه الصلاة والسلام عند هجرته من مكة المكرمة. أما الهجرة الثانية، هجرة جماعة موسى من مصر إلى فلسطين والمعروفة بالخروج، فقد حدثت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وتنسب التوراة إلى موسى زوراً أن الإلٰه «يهوه» إلٰه التوراة أمره بأن يحتل فلسطين الأرض الموعودة بعد إبادة سكانها، شيوخاً ونساءً وأطفالاً، ليحلّ اليهود محلهم فيها.

بداية تاريخ اليهود وصلتها بهجرة إبراهيم الخليل:

وكما أن الكتّاب صاروا يخلطون بين هجرة إبراهيم الخليل من العراق وهجرة جماعة موسى من مصر كذلك صاروا يربطون بداية تاريخ اليهود بهجرة إبراهيم الخليل من أرض العراق، وهذا لا يتّفق والحقائق التاريخية، لأن تسمية يهود ظهرت بعد وجود مملكة يهوذا التي اشتقّ منها اسم يهود. لذلك فإن بداية تاريخهم لا يمكن أن تحدّد بغير زمن الخروج حين ظهر أتباع موسى على مسرح الأحداث في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وفضلاً عن ذلك فإننا لو استعرضنا تسلسل الأحداث التاريخية الواقعية لتوصلّنا إلى أن إبراهيم الخليل لم يرتبط بأية صلة باليهود لا من حيث العصر ولا من حيث المبدأ أو العقيدة ولا من حيث اللغة أو القومية. فقد عاش إبراهيم الخليل في بيئة واسعة النطاق تشمل جميع بلاد الشرق الأدنى التي كانت تتّسم بالقومية السامية العربية لارتباطه بعالمه الواسع الذي كان يضمّ الجزيرة العربية وطن آبائه الأصلي ومعها العراق وسوريا وفلسطين ومصر. لذلك يجب على الباحثين والمؤرّخين تمسكاً بأمانة البحث

وأسلوب المنطق ومراعاة للتسلسل التاريخي ألّا يخلطوا بين دور إبراهيم الخليل ودور اليهود، الدورين اللذين تفصل بينهما سبعة قرون من الزمن.

ويلاحظ أنه ما يزال هناك بعض أساتذة التاريخ عندنا يأخذون بالنظرية القائلة بأن تاريخ اليهود يبدأ بسفر إبراهيم الخليل من أرض العراق، فقد أفاد الأستاذ الدكتور محمد رشيد الفيل صاحب الدراسات الجغرافية والتاريخية القيّمة بأن «تاريخ اليهود يبدأ بسفر إبراهيم من أرض الكلدانيين غرباً إلى أرض كنعان»(1). وهذا مأخوذ طبعاً من الكتابات الكثيرة التي أخذت بهذا المفهوم الخاطىء الشائع عن قصد أو غير قصد.

ومن هذه الكتابات ما قرأناه للكاتب السياسي الألماني المعروف، الدكتور غروبا، أنه يطلق على إبراهيم الخليل فيما كتبه عنه أنه ملك اليهود(2). ومن الواضح هنا أن الدكتور غروبا متأثر بالتوراة كبقية المسيحيين بربط عصر إبراهيم الخليل بزمن اليهود من غير ملاحظة للتسلسل الزمني.

وقد قلّد الكتّاب العرب الكتّاب الأجانب في ربط وجود اليهود واليهودية بعهد إبراهيم الخليل حتى في عناوين مؤلفاتهم، فقد اتخذ الدكتور رياض بارودي مثلاً عنوان «اليهودية العالمية منذ زمن إبراهيم إلى وقتنا الحاضر» لكتابه، فمن حق الباحث أن يسأل المؤلف: أين كانت اليهودية في زمن إبراهيم الخليل، وهل كانت هناك يهودية في عهده؟...(3).

---

(1) «**اليهود وعلم الأجناس**»، ص 82.

(2) «**العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب**»، ترجمة الأستاذ نجدة فتحي صفوت، 1969، ص 124.

(3) إن تسمية يهود نُسبت إلى مملكة ومنطقة يهوذا (931 ـ 586 ق.م.) ولم تستعمل على ما وصل إليه علمنا إلّا في عهد مملكة يهوذا، لذلك فهي تسمية متأخرة ولا صلة لها بيهوذا ويعقوب اللذين عاشا في القرن السابع عشر قبل الميلاد، ولعلّ يهوذا كانت مثل إسرائيل اسم مدينة في فلسطين منذ عهد الكنعانيين.

العقاد في كتابه «أبو الأنبياء»:

وأحسن الكتّاب العرب الذين كتبوا في هذا الموضوع، هو في نظرنا، المرحوم عباس محمود العقاد، الكاتب العربي المعروف في كتابه «أبو الأنبياء»، فعلى رغم اتّسام كتابه هذا بطابع أدبي فقد تناول حقائق تاريخية ذات أهمية بالغة، ومما قاله في هذا الصدد: «إن الدعوات النبوية التي بدأتها سلالة إبراهيم دعوة لم يظهر لها نظير في غير الأمم العربية، والأمم السامية، وقد ختمت بدعوة محمد وجاءت دعوة محمد متممة لها، فلا تفهم واحدة منها منفصلة عن سائرها، بترتيب كل منها في زمانها، وعلاقة كلّ منها بمكانها، فلا لبس فيها من جانب العصر ولا من جانب البيئة.. ومن قرائن الثبوت أن هذه الدعوات النبوية نسبت إلى أصل واحد هو السلالة السامية العربية، قبل أن يعرف الناس علم المقارنة بين اللغات... وقد كان إبراهيم الخليل زعيم قبيلة بادية مضطلعاً في شؤون الجزيرة وأحوال العرب وزعمائهم وعاداتهم فلا يمكن أن يقال عنه إنه إسرائيلي لأن كلمة إسرائيل أول ما استعملت أطلقت على يعقوب حفيد إبراهيم، ولا يمكن أن يقال عنه إنه يهودي لأن اليهودية نسبت إلى يهوذا رابع أبناء يعقوب[1]، ولا يقال عنه إنه عبري إذا كان مقصوداً بالعبرية لغة مميزة بين اللغات السامية تتفاهم بها طائفة من الساميين دون سائر الطوائف. فالعبرية كانت كلمة عامة تطلق على طائفة كبيرة من القبائل الرحّل

(1) لقد درج أكثر الكتّاب والباحثين على الأخذ بهذا الرأي، أي إن تسمية «يهود» منسوبة إلى يهوذا رابع أبناء يعقوب. وهذا يخالف الواقع لأن اليهود لم يكونوا قد وجدوا في عهد يعقوب وابنه يهوذا، فقد وجدوا بعد ظهور موسى وجماعته، أي بعد عهد يعقوب بأكثر من ستمائة عام. وتسمية يهوذا مثل تسمية إسرائيل كانت تطلق على إحدى المناطق الكنعانية في فلسطين منذ العهد الكنعاني القديم جرياً على العادة المتّبعة في تسمية المدن والمناطق بأسماء الأشخاص من ذوي الشهرة الذين يتّخذون هذه الأماكن مساكن لهم. وبعد أن نزحت جماعة موسى إلى فلسطين تكوّنت مملكة يهوذا بعد عصر يعقوب وابنه يهوذا بحوالي ألف عام في منطقة يهوذا الكنعانية فسُمِّيت باسمها. ثم انتشر استعمال اسم اليهود بعد السبي البابلي نسبة إلى مملكة يهوذا المنقرضة، فقد وردت تسمية يهودي في كتابات الملك الآشوري سنحاريب (705 ـ 681 ق.م).

في صحراء الشام، وكان من أبناء هذه القبائل من يعمل كالجنود المرتزقة، وبهذا المعنى وردت كلمة العبري والإبري والهبيري وما قاربها لفظاً في المدونات التي عُثر عليها في تل العمارنة وفلسطين وآسيا الصغرى والعراق، وجاءت بهذا المعنى في الكتابات المسمارية والفرعونية ولم يكن لليهود وجود في ذلك الحين. فإبراهيم كان يتكلم لغة يفهمها جميع السكان في بقاع النهرين وكنعان، ولم تكن العبرية قد انفصلت عن سائر اللغات السامية في تلك الأيام. وقد يقال عنه إنه سامي ينتمي إلى سام بن نوح، ولكنها نسبة إلى جد وليست نسبة إلى قوم وقد تكلم باللغة السامية أناس كالأحباش ليسوا من السريان ولا من الآراميين ولا من الحيريين. فإذا فتشنا عن نسبة لإبراهيم لم نجد أصدق من النسبة العربية كما كانت العربية يومئذ بين جزيرة العرب وبقاع الهلال الخصيب».

الفصل السادس

عصر النبي موسى واليهود

تمهيد:

لقد سبق أن أشرنا إلى أن النبي موسى، على رأي الباحثين، مصري تربّى في البلاط الفرعوني وكان قائداً مصرياً، كما كان على دين التوحيد الذي اعتنقه أخناتون (1379 ـ 1362 ق.م.) وأن حملته على أرض كنعان «فلسطين» التي أطلق عليها كتبة التوراة «خروج بني إسرائيل» إن هي إلّا حملة مصرية مؤلفة من جماعة من الجنود المصريين ومعهم فلول من بقايا الهكسوس الذين كانوا يدينون بدين التوحيد الذي ورثوه عن أخناتون، فاضطروا إلى الهرب من مصر من وجه اضطهاد السلطة الحاكمة وضغط السكان الوثنيين بعد موت أخناتون، وقد جاؤوا بقيادة النبي موسى ليحتلوا بقعة من الأرض المعمورة في كنعان يأوون إليها، وهؤلاء هم «قوم موسى» جاؤوا إلى أرض كنعان وهم غرباء عنها يتكلمون اللغة المصرية ولم تكن لهم أية صلة ببني إسرائيل الذين كانوا قد جاؤوا إلى مصر في عهد يوسف قبل عصر موسى بستمائة عام والذين انصهروا واندمجوا بشعب مصر وبيئة مصر نهائياً. كما سبق وشرحنا الغرض الذي من أجله سمّى كتبة التوراة هذه الجماعة ببني إسرائيل وهو إرجاع أصلها إلى أقدس العروق من الأجناس البشرية فربطوا صلة هذه الجماعة مباشرة بإبراهيم الخليل وبحفيده يعقوب وبكل مكان مقدس من فلسطين وجعلوا كل التوراة تدور حولهم وقد اعتبروا من سُمِّي ببني إسرائيل موجودين في كل زمان ومكان وأنهم وجدوا حتى قبل أن يخلق يعقوب (إسرائيل)، وما بعده بعدّة قرون.

شخصية النبي موسى وديانته التوحيدية الخالصة:

إن أقدم ما وصل إلينا عن نظرية كون موسى مصرياً، عدا ما اتصل باسمه المصري وما ورد في التوراة من أنه تربّى في البلاط الفرعوني وأن ابنة فرعون اتخذته ابناً لها[1]، ما رواه المؤرّخ اليهودي الشهير فلافيوس يوسفوس الذي عاش في القرن الأول الميلادي[2]، أي قبل حوالي ألف سنة، من أن موسى كان حاكماً أو كاهناً مصرياً، وقد كان قائداً كبيراً بالجيش المصري خلال الحملة المصرية على الحبشة التي حقّق فيها نصراً كبيراً، وقد تزوّج هناك من «تربيس» بنت ملك الحبشة[3]. كما أن الفيلسوف اليهودي الإسكندري «فيلون» (30 ق.م. ـ 40 ب.م) أيّد بأن موسى كان مصرياً، وبذلك يكون كلاهما قد خالفا الإجماع اليهودي على عبريته[4] وقد ورد في التوراة ما يؤيد زواج موسى في الحبشة، فقالت إنه تزوج من امرأة كوشية (أثيوبية)، كما ورد في التوراة أنه تزوج أيضاً من ابنة يثرون كاهن مديان[5]، ففي كلا الزواجين لم

---

(1) (خر، 2: 10).

(2) يوسفوس (37/ 38 ـ 93 م)، كاهن ومؤرخ يهودي ولد في القدس، كان مضطلعاً في الفقه اليهودي، انضم إلى فرقة الفريسيين، أوفد سنة 64م كمندوب عن اليهود للمفاوضة مع الرومان حول إطلاق سراح بعض الأسرى من اليهود، فحظي في روما بالمثول بين يدي الإمبراطورة «بوبايا» Poppaea، اشترك في حرب اليهود ضد الرومان سنة 66م ووقع أسيراً بيد الرومان (67م) وأنقذت حياته بتحقيق تنبوءاته بأن فسياسيانوس سيصبح إمبراطوراً، فأطلق سراحه سنة 69م اعتبره اليهود خائناً لأنه عمل مع تيتوس كمترجم عندما ضرب تيتوس حصاراً حول أورشليم، ثم رافق تيتوس إلى روما حيث منح معاشاً وحقوق المواطن. وله من المؤلفات: «**حرب اليهود**» و«**تاريخ اليهود القديم**» و«**تاريخ حياته**» و«**رسالة في الدفاع عن اليهود**» (**دائرة المعارف البريطانية**، ج13، ص89). لقد ترجم كتاب «تاريخ اليهود القديم» إلى العربية وطبع في المطبعة العلمية ليوسف صادر في بيروت.

(3) الدكتور أحمد شلبي، «**مقارنة الأديان اليهودية**»، ص 43.

انظر أيضاً: Freud, «**Moses and Monotheism**», p. 47; Josephus, «**Antiquities**», Ch. 2, pp. 7-11; Rappoport, «**Myth and legend of Ancient Israël**», p. 365.

(4) الدكتور سامي سعيد الأحمد، «**الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية**» ص 13.

(5) (عد، 12: 1).

نجد ظاهرة تدلّ على أنه كان لموسى صلة ببني إسرائيل الذين عاشوا قبل حوالي ستمائة عام من عصره. وفي اليهود أيضاً ما يشير إلى أن موسى سُمّي بالمصري في قول بنات يثرون لأبيهنَّ عن نجدة موسى لهن من الرعاة، «فقلن رجل مصري أنقذنا من أيدي الرعاة وأنه استقى لنا أيضاً وسقى الغنم»[1]. ويؤكد ول ديورانت أن موسى اسم مصري ولعله اختصار للفظ حموس[2]، ويقول نقلاً عن جارستانج عضو بعثة مارستن Marston التابعة لجامعة لفربول أنه اكتشف في مقابر أريحا الملكية أدلة تثبت أن موسى قد أنجبته في عام 1537 ق.م. بالتحقيق الأميرة حتشبوت (الملكة حتشبوت فيما بعد 1501 ـ 1479 ق.م.) وأنه تربّى في بلاطها بين حاشيتها، وأنه فرّ من مصر حين جلس على العرش عدوها تحوطمس الثالث (1479 ـ 1447 ق.م). ويضيف ديورانت أن يوسفوس ينقل عن مانيثون ـ وهو مؤرّخ مصري عاش في القرن الثالث قبل الميلاد ـ أن موسى كان كاهناً مصرياً خرج للتبشير بديانة التوحيد[3]. وقد ورد في التقليد أن ابنة فرعون أقامت عليه أساتذة من الكهنة يفقهونه علوم المصريين[4].

ويذهب بريستد إلى أن موسى اسم مصري بل هو الكلمة المصرية القديمة نفسها «مس» ومعناها طفل وهي مختصرة من اسم مركّب كامل الأسماء «أمن مس» ومعناه «أمون الطفل»، أو «بتاح مس» ومعناه بتاح الطفل.. ولا شك أن والد موسى كان قد وضع قبل اسم ابنه اسم إله مصري مثل أمون أو بتاح، ثم زال ذلك الاسم الإلٰهي تدريجياً بكثرة التداول حتى صار الولد يُسمّى موسى[5].. وهناك رواية أخرى ذكرها المؤرّخ اليهودي يوسفوس هي أن ترموثيس Thermuthis هو الذي اختار لموسى هذا الاسم لينسجم مع رواية

---

(1) (خر، 3: 19).

(2) انظر ما تقدّم عن اسم الفرعون «أح موسى» مؤسس السلالة الثامنة عشرة.

(3) ول ديورانت، **«قصة الحضارة»** الترجمة العربية، ج2، م1، ص326.

(4) المطران يوسف الدبس، **«تاريخ سوريا»**، 1895، ج1، م2، ص91.

(5) **«فجر الضمير»**، ترجمة الدكتور سليم حسن، ص 276.

انتشاله من النهر وهو مؤلف من كلمتين «مو» ومعناها الماء عند المصريين و«أوسى» التي تشير إلى معنى الإنقاذ من مكان ما[1]. وقد نقل المؤرّخ اليهودي يوسفوس (القرن الأول للميلاد) عن مانيثون الذي عاش وكتب تاريخه المشهور في حدود سنة 280 ق.م. أن موسى من أهل هليوبولس وأحد كهانها وكان اسمه أوسارسيف على اسم أوسيرس إله هليوبولس ولكنه بدّل اسمه إلى موسى، وأنه تزعّم ثورة على عبادة الأوثان التي كان يعمل بها السكان[2].

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن الكاهن الأعلى لمدينة ممفيس، عاصمة مصر المشهورة في عهد تحوطمس الثالث (1479 ـ 1447 ق.م.)، كان يدعى «بتاح موسى» وقد عُثر على هرم له[3]. وبتاح هو أهم آلهة ممفيس قدّسه معظم المصريين واعتقدوا أنه هو الذي خلق الدنيا، ثم تطوّر هذا الاعتقاد فيما بعد فتوصلوا إلى أنه أبو جميع الآلهة، الإله العظيم صاحب البداية الأولى، «أول إله في الخليقة»[4].

ومن العلماء المحدثين الذين بحثوا هذه الناحية من حياة النبي موسى العالم النفساني المشهور سيغموند فرويد، ففي تحليله لشخصية موسى في كتابه المعروف «موسى والتوحيد» الذي كتبه عام 1938 قبيل وفاته انتهى إلى أن موسى كان مصرياً وليس إسرائيلياً مما أثار غضب الصهيونية عليه، لأن الصهيونية كما هو معلوم لا تقرّ بغير يهودية موسى المتّصلة بنسب إبراهيم الخليل ويعقوب، مع أن البعض يقرّ مصرية موسى من حيث نشأته ويعدّه يهودياً من حيث مولده[5]. لذلك هاجم الصهيونيون هذا الكتاب وحطوا من أهميته وقيمته التاريخية واعتبروه دون المستوى الذي اعتاد أن يقدمه للناس فعدوا

---

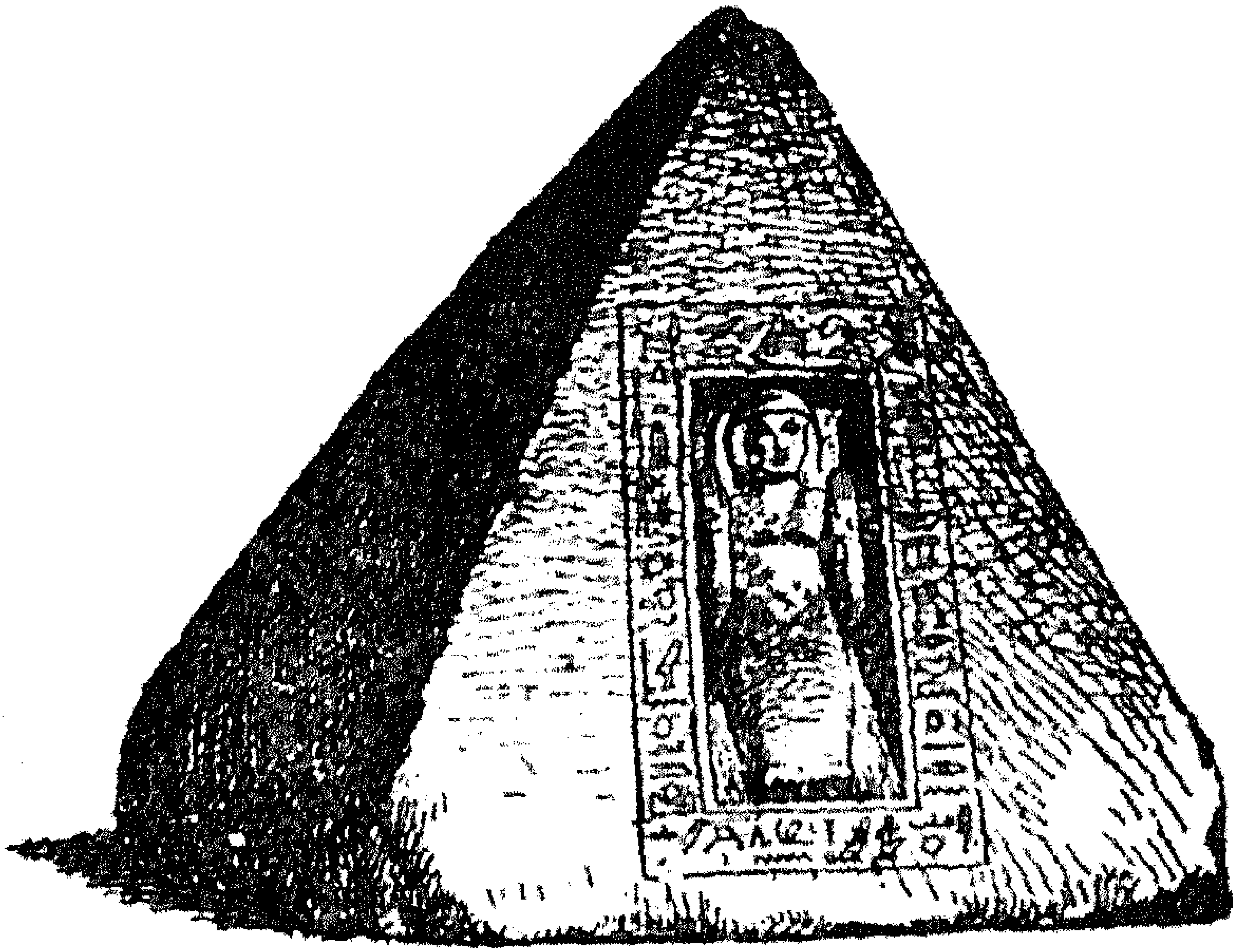
(1) W. Whiston, «**The Complete Works of Josephus**», «**Antiquities**», Book 11, Chap. IX, p. 33.

(2) المرجع السابق، ص 542 ـ 548.

(3) انظر الصورة رقم 81.

(4) أدولف أرمان، «**ديانة مصر القديمة**»، ص 29، 214.

(5) انظر ما تقدّم عن «عصر إبراهيم وإسحاق ويعقوب هو غير عصر موسى ولا صلة بينهما»، في الفصل الخاص، كذلك «تاريخ التوراة، لغتها ومكان ظهورها» في الفصل الثالث.



الصورة رقم (81)
هرم «بتاح موسى» الكاهن الأعلى لممفيس عاصمة مصر الفرعونية يرجع تاريخه إلى عهد تحوطمس الثالث (1479 ـ 1447 ق. م)
عن أرمان، «ديانة مصر القديمة»، ص314 (برلين 2276)

كتابه نتاج عقل زحفت عليه الشيخوخة فأفسدت أحكامه ورجوا من قبيل التكريم لفرويد، فيما زعموا، لو مضى الكتاب دون أن ينتبه إليه أحد. وقال بعضهم تعقيباً على الكتاب إنه لو لم يكن من تأليف فرويد لكان الأرجح ألّا يجد ناشراً يقبل نشره، وهاجمه موريس كوهن أحد فقهاء التلمود قائلاً: لو أن شخصاً آخر كتب هذا الكتاب لكان خليقاً أن نعدّه كتاباً لآفاق مكابر. ثم عاد وقال: «صحيح أن هذا الكتاب الذي يفتقر إلى الأسس السليمة لن يضل أي باحث جاد في اليهودية، ولكن يخشى أن يتأثر به جمهور القرّاء فيعدونه مساهمة ذات قيمة من التحليل النفسي في فهم التاريخ اليهودي»[1].

ومن ردود الكتّاب اليهود على فرويد ونظريته ردّ دافيد باكان (David Bakan) أستاذ علم النفس بجامعة ميسوري الأميركية، فقد وضع مؤلفاً بعنوان

---

(1) الدكتور صبري جرجس، **«التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي»**، ص 297.

«سيغموند فرويد والتراث اليهودي» وخرج فيه بأن فرويد تأثر ببعض التيارات الإلحادية المتوارثة بين يهود شرق أوروبا، ثم يتهجم فيه على كتاب فرويد ككل ويصفه بأنه نتيجة حالة «خرف وشيخوخة»(1).

ويرى أكثر الخبراء أن النبي موسى بشّر بعقيدة التوحيد الخالصة التي دعا إليها أخناتون، فيقول العلّامة «ويج» إن أول من قال بالتوحيد المطلق الذي يدعو إلى عبادة الإلٰه الواحد لا إلٰه غيره هو أخناتون(2)، ويبدو أن موسى قد أمضى طفولته وشبابه في مصر عرف هذه العقيدة وتأثر بها ودعا لها(3).

وقد بحث هذا الموضوع العالم النفساني فرويد المشار إليه فيما تقدّم في شيء من التفصيل بعد عرض البراهين العديدة والدليل تلو الدليل إلى أن ديانة التوحيد التي جاء بها موسى هي ديانة أخناتون بعينها وهي مصرية بحتة ومصدرها مصري لا علاقة لها ببني إسرائيل ودور بني إسرائيل، وإن موسى لم يكن يهودياً وإنما كان مصرياً أراد كتبة التوراة أن يجعلوا منه يهودياً لأغراضهم(4)، وبعد اغتيال موسى هجر اليهود دين موسى. ومن جملة الأدلة التي يقدمها فرويد لدعم نظريته هذه هو أن موسى جعل الختان من مقومات ديانته الأساسية، والختان إن هو إلّا عادة مصرية قديمة اقتبسها الفينيقيون والسوريون منهم كما أيّد ذلك هيرودوتس أبو التاريخ. وقد ثبت قول هيرودوتس هذا بعد اكتشاف ذلك عملياً على أجساد المومياءات في قبور المصريين القدماء وفي النقوش على جدران القبور، هذا وقد ورد في سفر هوشع من التوراة ما يؤكد كون مصر موطناً لعادة الختان. وفي ذلك يقول بريستد: «إن نشأة موسى في مصر وتسميته باسم مصري جعلاه يحضّ مواطنيه على الأخذ بشعيرة الختان، وهي عادة مصرية قديمة جداً كانت مراعاتها عامة

---

(1) محمد العزب موسى، «**موسى... مصرياً**»، ص 81 ـ 95.

(2) انظر ما تقدّم عن ديانة أخناتون التوحيدية.

(3) Weech, «**Civilization of the Near East**», pp. 84, 88.

(4) Freud, «**Moses and Monotheism**», p. 29.

في أيامه بين سكان وادي النيل، ويرجع عهدها إلى ما لا يقلّ عن ثلاثة آلاف سنة أو تزيد قبل عصره.. وهذا يعدّ برهاناً قاطعاً على أنه كان يستقي تعاليمه مما كان يعرفه عن الديانة المصرية القديمة»[1].

ويروي فرويد أن هناك احتمالاً قوياً أن موسى كان مختتناً[2]، وينتهي إلى القول إن ديانة موسى الديانة نفسها التي تدعو إلى عبادة الإلٰه «أدوناي»[3] الوارد في التوراة بمعنى عبادة الإلٰه أتون[4]. هذا مع العلم أن تقديم الأضحية والقرابين الذي يعدّ من أسس الديانة اليهودية عادة مصرية قديمة، كما أن تحريم لحم الخنزير عند اليهود مقتبس من المصريين الذين كانوا ينفرون من الخنازير[5].

ويعرب فرويد عن دهشته لأخذ المؤرّخين بالفكرة القائلة إن موسى اسم مصري وإنه تهذّب بكل حكمة المصريين ولكن مع ذلك لم يخرج أحد منهم بالنتيجة المنطقية التي تترتب عليها استنتاجات تاريخية خطيرة. ويرجع فرويد ذلك إلى «أن التراث الإنجيلي كان سداً منيعاً في وجههم، إذ ربما يبدو مريعاً تصور أن موسى كان شيئاً آخر غير كونه عبرياً (يهودياً)، ولذلك فإن اكتشافهم أن الاسم المصري لم يكن عاملاً يدعوهم إلى الحكم على أصل الرجل. ولكن لما كانت جنسية هذا الرجل العظيم تعتبر في غاية الأهمية فإن أية مواد جديدة تقدّم إجابة يجب الاهتمام بها»[6]. ثم ينتهي فرويد إلى تكوين الرأي بثنائية العقيدة اليهودية، فيقول: «إن التاريخ اليهودي يقوم على الثنائية، فقد كان هناك شعبان اندمجا معاً في أمة واحدة ولم تلبث هذه الأمة أن انقسمت

---

(1) بريستد «**فجر الضمير**»، ص 379.
(2) «**موسى والتوحيد**»، ص 49 ـ 58.
(3) المرجع السابق، ص 42.
(4) هذا ما ظهر في كتاب أشعيا الذي كتب بعد السبي البابلي: «شيماع يسرائيل أدوني ألوهينو أدوني أحاد» الذي معناه (اسمعي يا إسرائيل، ربنا الله، الله واحد) ـ الدكتور سامي سعيد الأحمد، «**الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية**»، ص8.
(5) أرمان، «**ديانة مصر القديمة**»، ص 197 ـ 198، 375، 376.
(6) محمد العزب موسى، «**موسى... مصرياً**»، ص 19 ـ 20.

إلى مملكتين، وهناك اسمان للإله في أصل التوراة، بل كانت هناك عقيدتان في الواقع طردت الأولى بوساطة الثانية ولكنها لم تلبث أن ظهرت منتصرة في النهاية، وكان هناك مؤسسان لهاتين العقيدتين حمل الاثنان الاسم نفسه (موسى). وقد قمنا في هذا البحث بالفصل بين الشخصين، وكل هذه الثنائيات جاءت كنتيجة ضرورية لنقطة البداية المزدوجة»[1].

ويبرز هنا صهيوني متطرف يدعى «إيمايوئيل فليكوفسكي» ألّف كتاباً بعنوان «أوديب وأخناتون» يهاجم فيه أخناتون وفرويد معاً فيتحامل فيه أولاً على أخناتون «يريد أن يجرّده من كل فضل ويصمه بكل رذيلة ويحطم فيه الرمز الذي رأته البشرية في أخناتون كأول من اهتدى إلى أعمق الأفكار الدينية وأعظمها تجرّداً وهي «وحدانية الله». ثم يعود فليكوفسكي فيتهجم على فرويد وكتابه الذي يربط فيه صلة ديانة موسى بديانة أخناتون المصرية ويقول: «فما هذا الكتاب سوى انتقاص لقدر موسى وحطّ من شأنه، فقد حطّ فرويد من شأن موسى عندما أنكر أصالته وحرمه إياها، كما هاجم الشعب اليهودي عندما حرمهم زعيماً يقود جنسهم، إذ جعل موسى مصرياً، وفي النهاية قلّل من شأن الدين اليهودي عندما جعل من يهوه معبوداً محلياً أو مجرد روح شريرة تسكن جبل سيناء. وما كان لفرويد وهو على أهبّة الرحيل من حياة طال أمدها أن يلعن إله اليهود ويحطّ من شأن نبيه على حين يمجّد مرتداً مصرياً معتبراً إياه مؤسساً لدين عظيم الشأن»[2].

ويؤكد الدكتور سامي سعيد الأحمد صلة ديانة النبي موسى بالمعتقدات المصرية القديمة، نقلاً عن خبيري الآثار المصرية ويلسون وديفس[3] إذ يقول: «والتشابه الكبير بين الترتيلة المعروفة لأخناتون إلى قرص الشمس (أتون، والعبارة 104 من سفر المزامير من العهد القديم أمر مهم في هذا الاتجاه.

---

(1) المرجع السابق، ص 80.

(2) محمد العزب موسى، «**موسى... مصرياً**»، ص 96 ـ 104.

(3) J. Wilson, «**The Culture of Ancient Egypt**», Chicago, 1956, pp. 226-228; S. Davis, «**Race Relations in Ancient Egypt**», N.Y., 1956, pp. 83-84.

ونعلم أيضاً أن العبريين (أتباع موسى) قد صنعوا في أثناء وجودهم في صحراء التيه بسيناء ما يُعرف بفلك الميثاق وزيّنوه كما تبيّن النصوص بتماثيل صغيرة تمثّل أشكالاً هي أشبه بالملائكة تشابه مشابهة تامة التماثيل المجنّحة التي صنعها قدماء المصريين للآلهة معات (تجِّد الحق والعدالة). وربما يكون الفلك نفسه مطابقاً إلى حدّ ما للقوارب المقدسة التي كان المصريون يستعملونها في حفلاتهم. وهناك تشابه أيضاً بين الحيوانات التي تعتبر قذرة عند العبريين والمصريين القدماء»[1].

وقد ورد في قصة طريفة رواها يوسفوس أن فرعون مصر كان في أحد الأيام يداعب النبي موسى وهو لم يزل ابن ثلاث سنوات فأخذه بين ذراعيه وصار يرمي به في الهواء، ولما أصبح موسى بقرب رأس فرعون خطف التاج من على رأس فرعون ووضعه على رأسه، فذهل فرعون لهذه الحركة واعتبرها حركة شؤم عليه فاستشار حكماءه في ذلك وما قد يترتب عليها من نتائج في المستقبل[2].

وفي تحليل شخصية النبي موسى وما نسبه إليه كتبة التوراة من أعمال يقول الأستاذ لودز: (Lods): «ونظراً لفقدان الوثائق المعاصرة لزمن موسى فقد أصبح من أصعب الأمور القول على وجه الصحّة من كان موسى وما كان العمل الذي قام به؟.. إلا أنه لا يسعنا التهرّب من الاعتقاد بأنه لا بدَّ وأن تكون قد برزت، خلال التقليد الطويل شخصية قوية تولت الزعامة، لأننا حين نرتفع إلى مستوى عال في مجرى التكوين الحضاري نجد أن العوامل الأساسية التي تؤثر في الحياة الدينية عند الشعوب لا تقوم إلّا على يد شخصيات قوية ذات مواهب خارقة هي التي تقرر مصير الدعوة التي تنطوي عليها هذه العوامل. إلا أن المحاولات في سبيل صياغة شخصية أسطورية خارقة الطبيعة من موسى كانت غير ناجحة... إن موسى يمثّل رمزاً أسطورياً ولكن هناك

---

(1) الدكتور سامي سعيد الأحمد، «**الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية**»، ص 15.

(2) Freud, «**Moses...**», p. 52.

وراء هذا الرمز الأسطوري حقيقة واقعية، هي أن هناك شخصية قوية برزت على أثر الاضطهاد المصري»[1].

كما ويفيد فرويد «أن موسى هو الذي أعطى الشعب فكرة الإلٰه الواحد. والاعتراض الوحيد الذي يمكن أن نعترض به على هذا التوكيد هو أن الكهنة نسبوا إلى موسى وقائع كثيرة تفوّق حدَّ المعقول حين تناولوا التنقيح والتعديل النصوص التوراتية التي هي في متناول أيدينا. فبعض المؤسسات، وبعض الشعائر الطقسية التي لا مراء في أنها تعود إلى زمن آخر، قد صوّرت وكأنها شرائع سنّها موسى. وهذا إنما يهدف بجلاء ووضوح إلى إحاطتها بمزيد من النفوذ والهيبة، وهو حافز لنا على الريبة ولا شك في هذه المعطيات»[2].

الوقائع التاريخية التي يستند إليها الباحثون في ربط صلة ديانة موسى بالمعتقدات المصرية القديمة:

إن الوقائع التي يستند إليها الباحثون في اعتبار النبي موسى مصرياً وأن ديانته التوحيدية المطلقة مشابهة لديانة أخناتون بل هي ديانة أخناتون بعينها وهي تختلف كلياً عن الديانة اليهودية التي دوّنها الأحبار اليهود في الأسر وعزوها إلى موسى زوراً هي:

1 ـ إن الإلٰه الحق وفقاً لعقيدة أخناتون، ليس له شكل محدّد لذلك لم يسمح أخناتون بأي تصوير للإلٰه أتون إلٰه الشمس، إذ لم يكن أخناتون يسمح بأي تصوير لأتون وكان يقول: إن الإلٰه الحق لا شكل له وظل متشبثاً بهذا الاعتقاد طوال حياته، لأن الإلٰه في عقيدته لا يرى ولا يمس ولكن مع ذلك هو موجود دوماً في كل مكان وزمان ـ خالق البشرية ـ الإله الحي وهو ظاهر جلي في قرص الشمس التي تعطي حرارة الحياة[3]. ويشابه ذلك تماماً ما ورد في إحدى الوصايا العشر التي ارتبط بها النبي موسى بعد خروجه من مصر

---

(1) Lods, «Israël», pp. XV, 309.

(2) «موسى والتوحيد».

(3) ويكال، «حياة أخناتون وعصره»، ص 102 ـ 103.

مباشرة (لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما)[1]. هذا في حين أن التوراة التي كتبها الأحبار اليهود بعد موسى وعزوها لموسى زوراً صوّرت الإله على صورة الإنسان وله صفات البشر جميعها وأنه ينزل من السماء ويختار الأماكن على الأرض الخ[2]. وتبرز هنا ثنائية العقيدة اليهودية وهي النظرية التي جاء بها فرويد وقد سبقت الإشارة إليها.

2 ـ إن الموسويين صنعوا في أثناء وجودهم مع النبي موسى في صحراء التيه بسيناء ما يُعرف بفلك الميثاق وزيّنوه بتماثيل تشابه مشابهة تامة التماثيل المجنّحة التي صنعها قدماء المصريين للآلهة معات (تجسد الحق والعدالة).

3 ـ التشابه الكبير بين ترتيلة أخناتون إلى قرص الشمس (أتون) والمزمور الرابع بعد المائة من سفر المزامير من العهد القديم بحيث يكاد يكون المزمور المذكور نسخة طبق الأصل عن ترتيلة أخناتون[3].

4 ـ إن كلمة أدوناي العبرية (وهي اسم الرب في العقيدة الموسوية) تحريف لكلمة أتون المصرية (هذا على رأي فرويد) في حين أن التوراة دعت في الوقت ذاته إلى عبادة الإله «يهوه» الخاص باليهود فقط. وتبرز هنا ثنائية العقيدة اليهودية أيضاً التي قال بها فرويد.

5 ـ إن الختان الذي اعتُبر بحسب مآثر الديانة الموسوية علامة العهد مع الرب وقد جعلت عقوبة من لا يختن الموت لأنه نكث للعهد هو عادة مصرية، إذ ثبت لدى العلماء أن المصريين كانوا يمارسون الختان منذ منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، أي قبل ظهور أتباع موسى بألف وثلاثمائة عام. ويرى فرويد أن هناك احتمالاً قوياً أن موسى نفسه كان مختتناً[4].

---

(1) (خر، 20: 4)؛ راجع أيضاً (7 لا، 26: 1)؛ (تث، 15:4، 19، 15:26).

(2) (تك، 11: 5)؛ (خر، 19: 3 و20).

(3) راجع ما تقدّم حول ديانة أخناتون.

(4) راجع ما تقدّم حول ذلك.

6 ـ إن تحريم لحم الخنزير في الديانة الموسوية هو عادة مصرية إذ كان المصريون ينفرون من الخنازير أيضاً[1].

7 ـ إن اللغة التي أُنزلت بها التوراة لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون غير اللغة المصرية والكتابة الهيروغليفية وهذه هي لغة موسى بدون أي شك في ذلك والتوراة تؤيد بأن موسى لم يتكلم العبرية مما يدلّ على أنه كان مصرياً[2].

8 ـ لقد نقل يوسفوس عن مانيثون المؤرّخ المصري القديم ما يشير إلى أن موسى كان كاهناً مصرياً ويؤكد الفيلسوف فرويد من الباحثين المحدثين كون موسى مصرياً وليس يهودياً كما تنعته التوراة.

9 ـ إن الطقوس المتعلقة بتقديم الأضحية والقرابين الحيوانية التي تمثّل أحد أهم أركان الديانة الموسوية هي طقوس مصرية كان يمارسها المصريون منذ أقدم الأزمنة[3].

10 ـ إن التوراة الأصلية التي أنزلها الله على موسى كانت تقرّ البعث والنشور واليوم الآخر والحساب والجنة والنار كما ينبىء بها القرآن الكريم في حين أن التوراة التي كتبها الأحبار اليهود فيما بعد والتي بين أيدينا الآن قد خلت من ذكر اليوم الآخر ونعيمه وجحيمه[4] ومن المعلوم أن عقيدة الحساب في اليوم الآخر والبعث والنشور مصرية الأصل مما يدلّ على أن ديانة موسى مصرية ترتبط بديانة أخناتون. أما خلوّ التوراة التي بين أيدينا من ذكر اليوم الآخر فهو دليل على أن الأحبار اليهود الذين كتبوا التوراة حسب أهوائهم في وقت لاحق قد تأثروا بالعقيدة السومرية التي لا تقرّ البعث والنشور[5].

---

(1) فؤاد شبل، «**دور مصر في تكوين الحضارة**»، ص 37.

(2) S. Freud, «**Moise et le Monothéisme**», Editions Gallimard, 1948, pp. 44 - 45.

(3) أرمان، «**ديانة مصر القديمة**»، ص 197 ـ 198.

(4) الدكتور الوافي، «**اليهودية واليهود**»، ص 46.

(5) انظر ما تقدّم في الفصل الرابع المادة «البعث والقيامة عند اليهود وعند السومريين والبابليين والمصريين».

11 ـ لقد ورد في سفر الأمثال الكثير مما كتبه الحكيم المصري القديم أمينموبي في وصاياه لابنه، ويجمع العلماء على أن حكم أمينموبي شائعة في مواضع عدّة من كتاب العهد القديم وأن فصلاً ونصف من كتاب الأمثال مأخوذ معظمه بالنص عن حكم أمينموبي[1].

12 ـ إن الغزل الديني الوارد في سفر نشيد الإنشاد هو كما يراه الباحثون مصري بحت ومنهل خالص من مناهل الأدب الصوفي المصري.

ويشرح العلّامة ديورانت الفارق الذي يفصل بين ديانة التوحيد المصرية الأصل التي بشّر بها النبي موسى وبين الديانة التي كتبها الأحبار في وقت لاحق والتي تختص باليهود وبإلٰههم يهوه فقط فيقول ما نصّه: «إن تراتيل أخناتون في تصوير الإلٰه ليست من أولى قصائد التاريخ الكبرى فحسب، بل هي فوق ذلك أول شرح بليغ لعقيدة التوحيد، فيرى أخناتون أن إلٰهه رب الأمم كلها، بل ويذكر في مديحه له بلداناً كثيرة قبل مصر التي يوليها الإلٰه عنايته. إلّا ما أعظم الفرق بين هذا وبين العهد القديم عهد آلهة القبائل!.. ثم انظر إلى ما في القصيدة من مذهب حيوي: إنَّ أتون لا يوجد في الوقائع والانتصارات الحربية وإنما في الأزهار والأشجار وفي جميع صور الحياة والنماء... وليس الإلٰه إنساناً في صورة البشر دون غيرها، بل إن هذا الإلٰه الحق هو خالق حرارة الشمس ومغذيها؛ وليس ما في الكرة المشرقة والآفلة من مجد ملتهب إلّا رمزاً للقدرة الغائبة، على أن هذه الشمس نفسها تصبح في نظر أخناتون (رب المحبة) لما لها من قدرة شاملة مخصبة مباركة... وهكذا يصبح أتون آخر الأمر رمزاً للأبوة الجزعة القلقة الرحيمة القلب؛ ولم يكن كيهوه، رب الجيوش، بل كان رب الرحمة والسلام»[2].

قصة خروج موسى وجماعته من مصر:

أما قصة خروج موسى وجماعته من مصر ـ القصة التي استرسل كتبة

---

(1) انظر ما تقدّم في الموضوع.

(2) «**قصة الحضارة**»، الترجمة العربية، ج 2، ص 175.

التوراة في شرحها في سفر الخروج من العهد القديم ـ فهي لم تكن خرافية كما يرى البعض، وإنما هي حادثة تاريخية حقيقية تنطوي على خروج جماعة من مصر في عهد معين وتوجّه هذه الجماعة نحو أرض كنعان المجاورة، وذلك بقيادة زعيم روحي عرفته الأجيال باسم النبي موسى. وقد شاءت الأقدار أن يسدل الستار عن حقيقة هذه الجماعة وأسباب خروجها، إذ لم يعثر حتى الآن على مصدر قديم من المخطوطات الآثارية يعاصر خروج هذه الجماعة من مصر يشرح لنا هويتها على حقيقتها أو الدوافع التي حملتها على الخروج من مصر. والمصدر الوحيد الذي بين أيدينا عنها هو التوراة التي كتبها مدوّنوها في الأسر بعد ثمانمائة عام من الحادث، فجاءت القصة مشوّهة ومحورة بالشكل الذي يخدم مقاصد خاصة وأهدافاً معينة، فأصبحت في نظر الكثير أشبه بالأساطير الخيالية منها بالحقائق التاريخية.

إن أقدم ما وصل إلينا من معلومات عن قصة الخروج بعد التوراة ترجع إلى عهد يوسفوس المؤرّخ اليهودي الشهير (القرن الأول الميلادي) الذي ينقل عن مانيثون المؤرّخ المصري الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد قوله: «إن سبب خروج جماعة موسى من مصر هو رغبة المصريين في أن يتّقوا شر وباء تفشى بين العبريين المستعبدين المملقين» وقوله «إن موسى نفسه كان كاهناً مصرياً خرج للتبشير بين اليهود «المجذومين» وأنه علمهم قواعد النظافة على نسق القواعد المتّبعة عند كهنة المصريين..»[1].

ومن المتناقضات التي وردت في التوراة عند سردها قصة الخروج أنها بعد أن تصف بمنتهى التفصيل والتطويل والتكرار ممانعة فرعون بالسماح لجماعة موسى بالخروج من مصر تعود لتصفها كما لو كانت طرداً من مصر[2]. ويفسر روبنسون قصة الفرعون عدو موسى «بأنها قد انحدرت إلى اليهود من قصة مصرية ترمز للصراع الدامي بين أحموسة وفرعون الهكسوس الشرير الذي هزمه أحموسة واستكمل تحرير مصر بعد استشهاد والده «سقنن رع» ووفاة أخيه

(1) «قصة الحضارة»، ص 326.
(2) (خر، 6: 1، 11: 1، 12: 31).

الملك «كاموسى». فكان اليهود وفقاً لهذه النظرية قد واءموا بين صراع أحموسة بطل مصر القومي ضد الهكسوس، وصراع موسى بطلهم القومي المصري الأصل والذي تخصص بعبء قيادتهم وإخراجهم من مصر»[1].

ولو سلّطنا أضواء علم النفس على الفئة التي دوّنت التوراة، وهي نفسها من بقايا الجماعة التي خرجت من مصر قبل ثمانمائة عام، لوجدنا أنها كانت فئة منبوذة مشرّدة قابعة في زاوية الأسر لا وطن لها، مهيضة الجناح، لا حول ولا قوّة لها تستند إليهما، وهذه الفئة نفسها جلست لتدوّن تاريخ الجماعة التي هي من بقاياها كما سبق وسمعت به من الأسلاف عن خروجها من مصر قبل مدة غارقة في القدم. أجل إنها، جلست لتدوّن هذا التاريخ الذي لمست بعض خيوطه الغامضة، وهي غاطسة في خضمِّ الأحلام التي كانت تساورها وتستأثر بتفكيرها، فتارة تحلم بالحصول على القوّة التي تسندها، وتارة أخرى بالجاه الذي يرفع من منزلتها، ثم بالوطن الذي تأوي إليه، فاتّخذت من إلٰهها «يهوه» ومن شخصية النبي موسى قوّة دينية تتشبث بها على الأعداء كما اتّخذت من إرجاع أصلها إلى إبراهيم الخليل وحفيده يعقوبﷺ النسب الأصيل الذي يجعلها أهلاً لتكون الشعب المختار، ومن كنعان اتّخذت عقيدة «الوطن الموعود» الذي يفيض لبناً وعسلاً وعزت كل ذلك إلى الإلٰه «يهوه» وإلى إبراهيم ويعقوب وكلهم بريئون منها.

وينفي العالم الألماني الدكتور مورتكات ما جاء في أساطير التوراة القائلة بقرابة اليهود والآراميين الذين ينتمي إليهم إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب (إسرائيل)، فيقول: «إن الأبحاث الأثرية برهنت على عدم صحّة أكثر الأساطير التي وردت في التوراة كما وهناك أبحاث تبرهن على عكس هذه الأساطير التي تقول بقرابة الآراميين والعبريين (اليهود)[2] ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن القرآن الكريم فرّق بين بني إسرائيل ذرية إبراهيم الخليل من جهة وبين اليهود من جهة أخرى، وذلك باستعمال اسمين لهذا القوم، فيطلق اسم

---

(1) الأستاذ شبل، «**مشكلة اليهودية العالمية**»، ص 38.

(2) مورتكات، «**تاريخ الشرق الأدنى القديم**»، ص 272.

بني إسرائيل في مواضع الرضا ويسمون باليهود في حالات السخط عليهم وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

ولا ريب في أن كل جماعة تكتب تاريخها كما تحب وتهوى لا كما تريد الحقيقة المجرّدة من كل غرض، فهي تجتهد في إظهار أصلها مقترناً بأسمى الشخصيات من الأجداد التي تتمتع بماض عريق وشهرة واسعة وفي مجرى التاريخ حوادث كثيرة من مثل هذا التمويه. وهذا يفسّر لنا كيفية شيوع التقليد الذي تؤكده الكتابات اليهودية، قديماً وحديثاً، من أن إبراهيم الخليل غادر العراق ومعه اليهود إلى فلسطين، في حين أن اليهود ظهروا بعد إبراهيم الخليل بأكثر من ألف عام وقد قبلت الأجيال ذلك من غير تمحيص للتسلسل الزمني وملاحظة العصور بحسب تواريخها، ويرى فرويد أن كتبة التوراة أدخلوا الآباء الأولين في ديانتهم واعتبروهم من أسلافهم بغية إعطاء دليل على أن اليهود ليسوا غرباء على أرض كنعان وأنهم لم يدخلوها بصفتهم غرباء، فيقول في ذلك إنهم «لجأوا إلى هذه الحيلة الماهرة وهي أن إلٰههم يهوه قد وعدهم بالأرض التي كان يحتلها أسلافهم بالفعل... أولئك الأسلاف الذين كانوا يعبدون يهوه أيضاً تحت اسم آخر»[1]. وبهذا يسلّط فرويد الضوء على حقيقة هامة هي أن اليهود لم يكن لهم حق تاريخي في دخول أرض كنعان وإنما افتعلوا هذا الحق افتعالاً وبذلك يعتبر أن استقرارهم في كنعان بصورة مؤقتة لن يغيّر من حقيقة كونهم غرباء عليها.

تلك هي الحوافز النفسية التي كانت تحوم حول تفكير هذه الزمرة الكهنوتية عندما جلست لتدوّن تاريخ جماعتها مستمدة من حوادث وشخصيات تاريخية معيّنة القواعد التي بنت عليها ما عنَّ لها من أهواء وتخيّلات للتنفيس عمّا كانت تشعر به من ضيق ويأس ومن عقد نفسية مستحوذة عليها، فاتّخذت من حادث خروج موسى وجماعته من مصر قبل ثمانمائة عام، وهي من بقايا هذه الجماعة كما أسلفنا القول في ذلك قصة مطوّلة تهدف بالدرجة الأولى إلى تحقيق الأهداف الثلاثة: الحصول على قوة الإلٰه والنبي، والتشبّه برفعة الأصل،

---

(1) محمد العزب موسى، «**موسى... مصرياً**»، ص 71 ـ 72.

والتمتّع بالوطن الطيب الموعود. فالقصة في جملتها تدور حول هذه الأهداف الثلاثة. وانطلاقاً من هذه الأحاسيس والعقد النفسية اتّخذ كتبة التوراة من النبي موسى بطلها ومن الإله «يهوه» ربها الخاص بها ونسبوا كل شيء تمنّوه وله صلة بمصلحتهم إليهما. كما اتخذوا من يعقوب (إسرائيل) النسب واعتبروه جدهم ومن أبرام (إبراهيم الخليل) الصلة الروحية واعتبروه جدهم الأكبر: وكانت هذه الشخصيات تتمتّع بقدسيتها الموروثة وسموّ مسلكها الكهنوتي في البلاد. كما اتّخذوا من القواعد الأساسية لديانتهم ما دوّنه هؤلاء الكتبة على لسان إبراهيم وإسحاق ويعقوب والإله الرب وبخاصة ما يتعلق ببدعة «الأرض الموعودة» التي لا أصل لها على الإطلاق وإنما هي من نسج الخيال الروائي، كما أن ما نسبوه إلى جماعتهم من نسب يرجع إلى يعقوب وإبراهيم الخليل هو بدوره من قبيل التفاخر بإرجاع أصلهم المجهول إلى أقدس شخصيتين روحيتين في البلاد. فقد ورد اسم يعقوب في الكتابات الآرامية التي ترجع إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وهو عصر يعقوب بالذات، لموضع في منطقة «حاران» (حران حالياً)، وقد جاء مقروناً بالإله «إيل» أي (يعقوب ـ إيل) ومعناه ليحم الإله «إيل» يعقوب، وهو الإله الذي دعا إلى عبادته إبراهيم الخليل. كما ورد اسم أبرام وإسرائيل في الكتابات المصرية لموضعين في كنعان، وهذه أسماء كنعانية مقدّسة كانت تُطلق على الأشخاص والأماكن تبرّكاً بها، وذلك قبل عهد الخروج وقبل تدوين التوراة بألف وخمسمائة عام على أقل تقدير ويؤكد ذلك الأستاذ يرميا Jeremias فيقول إن إبراهيم ويعقوب كانا زعيمين دينيين ورئيسين من كبار رؤساء القبائل وكانا يتمتعان بمكانة قدسية في البلاد[1].

والنظرية التي يعتمد عليها اليوم عدد غير قليل من العلماء هي أن الأسماء التي أطلقها كتبة الأسفار على أبطال قصصهم هي في الأصل أسماء كنعانية لأشخاص لهم مكانتهم السامية في مجتمعهم القديم، عرف كلّ منهم بإقامته في إحدى الأمكنة من فلسطين فسُمِّيت هذه الأماكن بأسمائهم تكريماً لأصحابها. وهؤلاء هم الذين اتخذهم كتبة التوراة أسلافاً لهم. وهكذا فقد

---

(1) Lods, «Israël», p. 256.

حاك اليهود حول هذه الشخصيات وأمكنة سكناها ما شاء لهم الهوى من القصص والأساطير واحتكروها باسم أسلافهم المزعومين[1]. وفي ذلك يقول الكاتب الفرنسي جان لوي برنار:

«ونتحسس كل التحسس أن الأحبار قد اقتبسوا من تواريخ الأقطار التي جاسوا خلالها بعض الحكايات (فعبرنوا) كل المعلومات (أي جعلوها عبرانية بمعنى يهودية). ولكن لماذا هذه اللصوصية من قبل الصهاينة؟ الغرض منها تلفيق أكذب تاريخ للعالم يثير أعظم ضجة فيه وكل ذلك لاختراع (ملفقة الشعب اليهودي المختار)»[2].

ويجب ألّا يغرب عن البال بأننا حين نتحدث عمّا أورده مدوّنو التوراة في الأسر عن قصة الخروج وغيرها من الادعاءات الخيالية، أننا نواجه كتاباً صنّفته جماعة بتأثير دوافع وانفعالات نفسية لتحقيق أهداف معيّنة بعد أن وقعت هذه الجماعة فريسة للعقد النفسية التي انتابتها نتيجة انقراض دولتهم الهزيلة (يهوذا) من الوجود واستحواذ اليأس عليها، فراحت تسبح في خضمّ تمنياتها بـ «الأرض الموعودة» حين دوّنت تاريخها بعد أن صبغته بالصبغة الدينية المقدسة واتخذته عقيدة وشريعة لمن لاذ بها. والحقيقة هي أن قصة الخروج لم تكن خرافية وإنما هي حادثة تاريخية واقعية تنطوي على خروج جماعة من «مصر بقيادة زعيم ديني وذلك بسبب اضطهادها لاعتناقها ديانة لا يرتضيها سكان البلاد، فبنى مؤلفو التوراة بعد مرور ثمانمائة عام على الحادث ما عنَّ لهم من أساطير وتخيلات خرافية وادعاءات وهمية تنفيساً لإحساساتهم الغارقة في عقد نفسية معيّنة نتيجة اليأس وتبدّد الآمال. وهذا هو أبعد ما يكون من توراة موسى الأصلية التي تعدّ شريعة خالصة خالية من الأساطير والخرافات والادعاءات الوهمية، فيقول الدكتور أحمد شلبي معلّقاً على ذلك: «إن اليهود

---

(1) س. ناجي، **«المفسدون في الأرض أو جرائم اليهود السياسية والاجتماعية عبر التاريخ»**، دمشق، 1965، ص 25.

(2) **«أسطورة الشعب المختار»**، ترجمة الدكتور أكرم فاضل، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد 1969، ص21.

بعد أن انحرفت معتقداتهم وطباعهم تخلّصوا من أسفار موسى الحقيقية لأنها كانت تختلف عمّا أرادوا من طباع وخلق، وكتبوا سواها مما يتناسب مع ما يريدون من تاريخ ومن معتقدات»[1]. ثم يضيف الدكتور شلبي إلى ذلك قوله: «وهكذا كتبت أسفار العهد القديم ـ باسم الله ـ والله منها براء، إنها في الحقيقة صدى لانفعالات اليهود وأحاسيسهم، وبهذا السبب وبسبب كثرة الكتَّاب الذين اشتركوا في تدوين العهد القديم كثرت الأخطاء فيه»[2]. وفي تعليق للأديبة أبكار السقاف على سفر الخروج تقول: «يقيناً لقد خاض مؤلف سفر الخروج في خضمّ الترهات خوضاً عجيباً لا لأنه قد انتزع من وهاد الربوبية القبلية هذا الرب انتزاعاً وجعله لإسرائيل إلٰهاً فحسب وإنما لأنه قد افترى على موسى، عليه السلام، إذ نسب إليه هذه الافتراءات وقال عنه إنه بهذا الرب أتى وجعله لإسرائيل إلٰهاً ثم يعدهم باسمه امتلاك أرض كنعان ميراثاً!..) ثم أضافت في ملاحظاتها «لفتة هامة» حيث تقول: «إن الإسلام الذي يبسط جناحيه بالرحمة ويرفرف بالسلام يؤمن بتوراة هي على موسى قد أنزلت ولكنه فرّق بين توراة موسى وتوراتهم هذه المفتراة على موسى التي كتبها رجال بيت يهوذا في أعقاب الأسر البابلي... لذلك حارب محمد، ﷺ، اليهود وسمّاهم كفاراً لكذبهم على موسى ولنبذهم إياه كما نبذوا من بعده روح الله عيسى عليه السلام... وصدق الله العظيم إذ قال فيهم: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾[3]... ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[4]!. ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله... ويقتلون الأنبياء بغير حق.. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون!..»[5].

ومما تجدر ملاحظته هنا هو أن الإلٰه الذي كان يدعو موسى إلى عبادته هو الإلٰه الواحد خالق السموات والأرض (الإلٰه الواحد لا إلٰه غيره) الذي كان

---

(1) «**مقارنة الأديان**»، ص 229.

(2) المرجع السابق، ص 239.

(3) سورة آل عمران، الآية: 112.

(4) سورة آل عمران، الآية: 112.

(5) أبكار السقاف، «**إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة**»، ص 175.

يدعو إلى عبادته أخناتون فرعون مصر والذي تقوم عبادته على أساس مبدأ الإخاء العالمي بين الإنسان وأخيه الإنسان، ولا صلة لموسى بالإله «يهوه» الخاص باليهود وحدهم باعتبارهم الشعب المختار، وهو الإله الذي استعاره كتبة التوراة ونسبوا إليه صلته بموسى زوراً.

أما حقيقة قصة الخروج فهي، كما يستدل من الأحداث التاريخية، أن جماعة من المصريين الذين كانوا قد أخذوا بديانة التوحيد في عهد أخناتون فرعون مصر، وأكثرهم من الجنود المصريين[1] أتباع موسى ومن بقايا الهكسوس الذين بقوا في مصر بعد طرد الهكسوس منها وكانوا يعرفون بالعبريو أو العبيرو، بمعنى البدو الرحّل الآسيويين الذين اضطروا بعد موت أخناتون إلى الخروج من مصر بسبب ديانتهم المناوئة للوثنية، وقد انضمّ إلى هؤلاء بعض الأسرى الهاربين والعبيد الفارّين من سادتهم. والظاهر أن فلسطين كانت أقرب ملجأ للعبيد المصريين الفارين من أسيادهم، فيؤكد ذلك الكاتب الفرنسي جان برنار J.L. Bernard إذ يقول: «لقد كان وضع فلسطين المؤلم قد خلع عليها في الشرق اسم المنطقة التي تؤوي إليها العبيد الآبقين من أسيادهم...»[2] أما النبي موسى الذي خرجت الجماعة بقيادته فهو نفسه مصري صميم ووصف بأنه قائد مصري. أما ما دوّنه كتبة التوراة من أن هذه الجماعة ترجع في أصلها إلى إبراهيم الخليل وأنها من ذرية يعقوب (إسرائيل)

---

(1) إن هؤلاء الجنود هم من بقايا حامية الملك أخناتون في عاصمته (تل العمارنة) وهي مكوّنة من «آسيويين وزنوج» وقد كانوا بالطبع على دين أخناتون، فقد اختارهم الملك كجنود الحرس الملكي ليضمن ولاءهم له ولعقيدته الجديدة وذلك لعدم ثقته بالجنود الذين يدينون بدين أمون والذين بقوا على عقيدتهم القديمة مع أكثرية الشعب سراً. ولا شك أن هؤلاء (الآسيويين والزنوج) كانوا مضطهدين بعد موت أخناتون لاعتناقهم ديانة أخناتون التوحيدية، والأرجح أنهم طردوا من الجيش أو هربوا من عاصمة أخناتون فالتحقوا بجماعة موسى (وهو القائد المصري الذي كان على دين أخناتون أيضاً) كما التحق معهم بقايا الهكسوس الذين كانوا مضطهدين أيضاً بعد زوال حكم الهكسوس من مصر (انظر: أدولف أرمان، «**ديانة مصر القديمة**»، ص 145).

(2) «**أسطورة الشعب المختار**»، ترجمة الدكتور أكرم فاضل، ص 11.

وقد سُمِّيت ببني إسرائيل ونسبت كل شيء إلى إلٰهها «يهوه»، فلا يوجد أي دليل تاريخي أو حتى مجال افتراضي للأخذ به كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ومما يدلّ على أن الجماعة التي سخّرها رعمسيس الثاني (1300 ـ 1233 ق.م.) لبناء مدينته المسماة باسمه «رعمسيس»، وقد اعتبرت التوراة هذه الجماعة بني إسرائيل، هي من بقايا الهكسوس وليست من بني إسرائيل لأن المدينة بُنيت في موضع مدينة «أفارس» (هوراس) عاصمة الهكسوس في مصر، وبطبيعة الحال فإن من بقي من الهكسوس في مصر لا بدَّ وأن يكون قد تجمّع في هذه المنطقة ذاتها فسخّروا في بناء المدينة الجديدة في نفس المكان نفسه، مع العلم أن المصريين كانوا يعتبرونهم بعد القضاء على حكم الهكسوس في مصر مصدر خطر على الدولة. ومما يؤيد ذلك «أن المؤرّخ المصري القديم مانيثون يشير إلى أن بقايا الهكسوس الذين تخلّفوا في مصر بعد زوال حكم الهكسوس من البلاد قد تحصّنوا في العاصمة أفاريس ولم يستطع المصريون التغلّب عليهم فلجأوا إلى المصالحة على أن يخرج الجميع مع ممتلكاتهم من غير أن يمسوا بسوء».

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن المصريين كانوا يسمون بقايا الهكسوس «عبريو» أو (عبيرو) وقد صار هؤلاء خطراً على البلاد، بعد تزايدهم، فيما إذا انضموا إلى الأعداء، فأجبروا على العمل في بناء الرعمسيوم والبيتوم وعاشوا في مصر عيشة العبودية يعملون في الحقل وفي البناء، وقد ورد اسمهم في برديتين مصريتين تعودان بتاريخهما إلى عهد رع موسى الكبير (رعمسيس الثاني 1300 ـ 1233 ق.م.)، إذ ورد في إحداهما، وهي رسالة الكاتب «كويسر» إلى «بكنفتاح»، يقول: «اعط الجنود قوتهم واعط أيضاً العبريو الذين ينقلون الحجارة لبناء الملك رع موسى الخ..» وأما الرسالة الثانية فهي رسالة من «كينا» إلى «كجاناهو» يقول فيها: «أطعت ما أمرني به سيدي قائلاً: اعط الجنود أرزاقهم والعبريو أيضاً الذين ينقلون الحجارة لهيكل الشمس الذي انصرفت إليه عناية رع موسى..»(1) والمقصود هنا بالعبريو

(1) المطران يوسف الدبس، «**تاريخ سوريا**»، ج 1، م 2، ص 89؛ أبكار السقاف، «**إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة**»، ص 155 ـ 156.

(العبيرو) القبائل العربية البدوية وليس بني إسرائيل[1]، ذلك مما يثبت أن الجماعة التي عاشت في مصر عيشة العبودية وأُجبرت على العمل في الحقل وفي البناء تمثّل بقايا الهكسوس وليس بني إسرائيل كما روى كتبة التوراة. ويؤكد الباحثون على أن هناك دلائل قوية على أن «العبيرو» التحقوا بالهكسوس الساميين عندما غزوا مصر، وهم «الهبيرو» و«الأبيرو» نفسهم الذين ورد ذكرهم في الكتابات المصرية. وهؤلاء كانوا يدخلون في خدمة الأقوام الغازية في أكثر الأحيان، وكانوا أشبه بالبدو الرحّل يتجولون من مكان إلى آخر على أطراف الجزيرة العربية[2]. وذلك ما يؤيد بأن الاضطهاد الذي أدّى إلى الخروج من مصر كان موجّهاً ضد معتنقي ديانة أخناتون وأكثرهم من بقايا الهكسوس وليس لهم أية صلة ببني إسرائيل.

إنَّ حقيقة كون اليهود يرجعون إلى عهد متأخر غير مرتبطين بأية صلة بالتاريخ القديم وأن أكثر الجماعة التي خرجت من مصر هم من بقايا الهكسوس الرعاة جاءت مدعومة ببيانات المؤرّخين المصريين القدماء وفي مقدمتهم مانيثون الذي عاش وكتب تاريخه المشهور في حدود سنة 280 ق.م.، فهذا مانيثون الذي نقل كلامه المؤرّخ اليهودي يوسفوس يقول ما نصه: «إنّ هؤلاء الأقوام الذين سميناهم بالملوك الرعاة (أي الهكسوس) بعد أن حكموا في مصر 511 سنة أخرجوا من مصر في زمن حكم تحوطمس (ويبدو أنه يقصد هنا تحوطمس الثالث (1504 ـ 1450 ق.م.). فقد قام ملوك ثيبايس (ولعله يقصد طيبة) ومعهم رؤساء أقاليم مصر الأخرى بثورة ضد الرعاة فنشبت بينهما حرب طاحنة طويلة المدى، وفي عهد أحد الملوك المسمى ألسِفراكموثوس Alesphragumthosis تمكّن المصريون من إخضاع الرعاة (أي الهكسوس) وطردهم من أكثر أقسام المملكة المصرية إلا أن عدداً منهم تخلّف وتجمّع في منطقة مساحتها عشرة آلاف فدان تُسمّى (أوفاريس) فحصّنوها بسور واسع ومنيع حولها وجمع هناك جمعي ممتلكاتهم وقد حاول

(1) انظر ما تقدّم عن «العبيرو» في الفصل الخامس.

(2) K. M. Kenyon, «**Amorites and Canaanites**», p. 65.

تحوطمس ولد ألسفراكموثوس ومعه 480000 رجل احتلال هذه المنطقة عنوة فضرب الحصار عليها وقطع عليهم باب النجاة ولكنه لم يفلح بالتغلّب عليهم فلجأ إلى المصالحة على أن يخرج جميع من في المنطقة من مصر من غير أن يمسّوا بسوء فخرجوا هم وعوائلهم ومعهم ممتلكاتهم وعددهم 240,000 نسمة واتجهوا في رحيلهم من مصر في البرية نحو سوريا. ولما كانوا يخشون خطر الآشوريين الذين فرضوا سلطانهم على آسيا اتجهوا نحو فلسطين»[1].

وفي هذا دليل واضح على أن عدداً كبيراً من الهكسوس بقي في مصر وتحصّن في منطقة عاصمتهم «أوفاريس» بعد إخراج قوات الهكسوس من الأقاليم المصرية الأخرى وظلّوا يدافعون عنها بحيث لم يستطع المصريون التغلّب عليهم عنوة فاضطروا إلى مصالحتهم والسماح لهم بالخروج من مصر مع عوائلهم وممتلكاتهم من غير أن يمسّوا بأذى، والذي يستوحى من خلال هذا المقال أن كتبة التوراة اتخذوا من هذه الحادثة الخيوط التي نسجوا منها قصة الخروج التي ربطوها بتاريخهم القديم وخرجوا بها بصورة منمّقة ترجع بأصل اليهود إلى أقدم وأقدس الشخصيات المعروفة في تلك الأزمان.

أما قصة الاثني عشر سبطاً الواردة في سفري الخروج ويشوع التي حاكها كتبة التوراة فمن المحتمل أنهم استوحوها من نظام الإيتروسكيين السياسي الديني. فقد كان المجتمع الإيتروسكي الذي هاجر من بحر إيجة مثل القبائل الفلسطينية يتألف من اثنتي عشرة قبيلة منها اسم مشتق من عاصمته وكانت هذه القبائل مرتبطة مع بعضها بحلف فدرالي وكانت تعقد اجتماعاً عاماً في كل سنة لتعيين ملك عليها. وكانت هذه القبائل الإيتروسكية قد أسست مدناً في شمالي وفي وسط إيطاليا من القرن الثامن قبل الميلاد وبلغت المدنية الإيتروسكية أوج ازدهارها في القرن السادس قبل الميلاد[2].

---

(1) W. Whiston, «**The Complete Works of Josephus**», pp. 543-548.

(2) انظر: **دائرة المعارف البريطانية** لسنة 1965، 8: 797 ـ 804). انظر أيضاً ما تقدّم عن الإيتروسكيين في ص162.

زمن خروج موسى وأتباعه من مصر:

يعيّن المؤرّخون تاريخ خروج النبي موسى وأتباعه من مصر إلى أرض كنعان (فلسطين) في حوالي سنة 1290 ق.م. يوم كان رعمسيس الثاني على عرش مصر (1300 ـ 1233 ق.م.)[1] وقدر بعض الباحثين عدد هذه الجماعة



الصورة رقم (82)
مومياء الملك رعمسيس الثاني الذي خرج في زمنه الموسويون من مصر وهي محافظة على حالتها الأصلية (1300 ـ 1233 ق.م.)

(1) Hitti, «**History of Syria**», p. 178.

آنذاك بحوالي 6000/ 7000 نسمة عند خروجهم من مصر[1]، ولا ندري على أي أساس توصل هؤلاء إلى هذا الرقم. ويلاحظ أن التوراة تقدر عدد جماعة موسى «بستمائة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد»[2]، وهذا من جملة المبالغات التي اختصّ بها كتبة التوراة التي لا يمكن أن يتقبلها العقل.

والغريب في ذلك أن الباحثين يعرضون تخمينهم لعدد نفوس أتباع موسى عند خروجهم من مصر من غير أن يتطرّقوا إلى جسامة الفرق بين تخمينهم لعددهم وبين العدد الخيالي الوارد ذكره في التوراة، شأنهم في ذلك شأن سكوتهم على النتائج المترتبة على المكتشفات التاريخية التي تشجب أكثر روايات التوراة.

ويلاحظ أن بعض الباحثين حاول أن يربط ما ورد في مسلة مرنفتاح، التي تصف حملات هذا الفرعون والتي تشير إلى إخضاعه بلاد اللوبيين ومدن عسقلان وجازر وإسرائيل في فلسطين، بحادث خروج أتباع موسى من مصر[3]. وهذا غير وارد لأن النص صريح فهو يشير إلى أسماء مواضع من فلسطين منها عسقلان وجازر وإسرائيل، وليس لذلك أية علاقة ببني إسرائيل في مصر أو خروج موسى وأتباعه من مصر. ثم إن العلماء متفقون على أن الخروج حدث في أوائل القرن الثالث عشر قبل الميلاد في حين أن حملة مرنفتاح وقعت في حوالي سنة 1230 ق.م. ويؤيد ذلك العلّامة ديورانت فيقول: «وليس في هذه الأقوال ما يدلّ على أن مرنفتاح هو الفرعون الذي خرج بنو إسرائيل (أتباع موسى) من مصر في عهده، وكل ما تثبته أن الجيوش المصرية اجتاحت فلسطين مرة أخرى»[4]. وهذا ما يراه فرويد وماير إذ يؤكدان أن مسلة مرنفتاح لا يمكن أن تمثّل زمن الخروج الذي يجب أن يسبق عهد مرنفتاح»[5].

---

(1) Hitti, «**History of Syria**», p. 179..

(2) (خر، 12: 37).

(3) أبكار السقاف، «**إسرائيل...**»، ص 183 - 190.

(4) «**قصة الحضارة**»، ج 2، م 1، ص 324.

(5) Freud, «**Moses...**», p. 78; Meyer, «**Die Israëlitin...**», p. 222.

ولقد وجد نصّ في مخطوطات بحر الميت (وادي قمران) التي تعود إلى القرنين الأخيرين قبل الميلاد[1] ما يشير إلى استعمال كلمة إسرائيل للدلالة على مدينة أورشليم. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن: هل مدينة إسرائيل التي ورد ذكرها في مدوّنات مرنفتاح وتمّ احتلالها في زمنه هي أورشليم نفسها؟ ومهما يكن الأمر فإن الشيء الذي يمكن استخلاصه هو وجود مدينة في فلسطين تدعى إسرائيل وهي تعود إلى ما قبل عهد النبي موسى.

الطريق التي سلكها الموسويون من مصر إلى شرقي الأردن:

ويرجّح الباحثون مستندين إلى وصف التوراة أن الطريق التي سلكها الموسويون في خروجهم من مصر هي طريق عمّال المناجم القديم إلى سيناء، فارتحلوا من بلدة رعمسيس في أرض «جاسان»، وهي التي عُرفت بمدينة المخازن، وتوجّهوا إلى «سكوت»[2]، ومن «سكوت» نزلوا في «إيثام» في طرف البرية[3]، نزلوا أمام «فم الحيروت» بين «مجدل» والبحر أمام «بعل صفون» مقابلة عند البحر[4]. وسعى المصريون وراءهم وأدركوهم وهم نازلون عند البحر عند «فم الحيروت» أمام «بعل صفون». ثم ارتحلوا من بحر سوف وخرجوا إلى «برية شور»[5] ووصلوا إلى «مارة»[6]، ومن «مارة» ذهبوا إلى «إيليم» وهناك اثنتا عشرة عين ماء فنزلوا عند الماء[7]. ثم رحلوا من «إيليم» إلى برية سين التي بين «إيليم» وسيناء، ثم ارتحلوا من برية سين ونزلوا في «دفقة»[8]، و«دفقة» هذه تقع في مدخل جبل سيناء في وادي فيران

---

(1) انظر الفقرة 6 من الفصل الثالث.
(2) (خر، 12: 37).
(3) (خر، 13: 20).
(4) (خر، 14: 1 ـ 2).
(5) (خر، 15: 22).
(6) (خر، 15: 23).
(7) (خر، 15: 27).
(8) (عد، 33: 12).

الرسم رقم (17)
الخروج الطريق التي سلكها قوم موسى إلى كنعان الشرقية بحسب وصف التوراة

التي كانت فيها مناجم النحاس التي كان يستثمرها المصريون منذ أقدم الأزمنة. ثم ارتحلوا من «دفقة» ونزلوا في «الوش» ومن «الوش» نزلوا في رفيديم[1]، وفي «رفيديم» دارت أول معركة بين الموسويين وبين العمالقة سكان البلاد[2]. ومن «رفيديم» ارتحلوا إلى برية سيناء حيث نزل الموسويون مقابل الجبل[3]، والجبل هو جبل سيناء «جبل موسى» الذي نزلت فيه الشريعة. وهنا التقى موسى بزوجه صفورة وابنه وحميه يثرون الذين جاؤوا من مديان للالتحاق به[4].

وقد بقي الموسويون في برية سيناء حوالي السنة، ثم ارتحلوا منها في السنة الثانية بأمر الرب[5] إلى «قادش برنيع» الواقعة على بُعد 150 ميلاً من سيناء شمالاً سالكين الطريق الذي يمرّ ببلده «حضيروت» على الضفة الغربية لخليج العقبة ومن «حضيروت» نزلوا في «برية فاران»[6]، ثم توجهوا إلى «عصيون جابر» الواقعة عند آخر نقطة من ساحل خليج العقبة مارين بعدد من القرى[7] ثم رحلوا من «عصيون جابر» إلى «برية صين» التي هي «قادش برنيع»[8] ومنها نزلوا في «جبل هور» في طرف أرض أدوم[9][10].

غزو الموسويين لشرقي الأردن:

ولما كان الموسويون في «فاران» أرسل موسى رجالاً ليتجسسوا أرض

---

(1) (عد، 33: 14)؛ (خر، 17: 1).
(2) (خر، 17: 13).
(3) (خر، 19: 2).
(4) (خر، 18: 1 ـ 6).
(5) (عد، 10: 11 ـ 12).
(6) (عد، 12: 16).
(7) (عد، 33: 16 ـ 36).
(8) (عد، 33: 36).
(9) (عد، 33: 37).
(10) انظر الرسم رقم 17.

كنعان وقال لهم: «اصعدوا من هنا إلى الجنوب واطلعوا إلى الجبل وانظروا الأرض ما هي، والشعب الساكن فيها أقوي هو أم ضعيف، قليل أم كثير، وكيف هي الأرض جيدة أم ردية»[1]. وأتوا وقالوا لموسى قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها وحقاً إنها تفيض لبناً وعسلاً وهذا ثمرها (وقد أتوا بعنقود من العنب مع بعض الرمان والتين اقتطفوه من منطقة حبرون)، غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز والمدن حصينة عظيمة جداً[2]. وقد رأينا هناك الجبابرة بني عناق فكانوا في أعيننا كالجراد وهكذا كنا في أعينهم[3]. وهذه الخطوة التي خطاها النبي موسى بإرسال الجواسيس إلى داخل كنعان هي بحدّ ذاتها دليل واضح على أن موسى كان ملمّاً بالقواعد العسكرية التي توجب الاستطلاع قبل الهجوم أو التحرّك ضد العدو.

وكان لوصف الكنعانيين بالجبابرة والأشداء وقع سيئ في نفوس الموسويين فتذمروا على موسى وعلى هارون أخيه فصعدوا إلى الجبل رغم تحذيرهما فنزل العمالقة والكنعانيون الساكنون في ذلك الجبل وضربوهم وكسروهم[4] ولم توضح التوراة الوضع بعد هذه المرحلة فقد جاء كلامها غامضاً، غير أن فقرة تشير إلى أن الرب أتاه الموسويين في البرية أربعين سنة حتى فني الجيل الذي فعل الشر في عينيه: «فحمي غضب الرب على إسرائيل وأتاهم في البرية أربعين سنة حتى فني كل الجيل الذي فعل الشر في عيني الرب»[5]. ونخلص من هذا إلى أن الموسويين لم يقوموا بأي غزو أو فتح حتى جاء الجيل الجديد بعد أربعين سنة، فقد قضوا هذه الفترة مع موسى في منطقة قادش التي كانت آخر محطة نزلوها في جوار جبل هور في طرف أرض أدوم، وهناك مات هارون في السنة الأربعين لخروجهم من أرض مصر[6]. وقد كان

---

(1) (عد، 13: 17 ـ 18).
(2) (عد، 13: 27 ـ 28).
(3) (عد، 13: 33)؛ (تث، 1: 28).
(4) (عد، 14: 42 ـ 45).
(5) (عد، 32: 13)؛ (تث، 2: 7).
(6) (عد، 33: 38).

الموسويون في هذه الفترة في مأمن من أي خطر يهددهم من جهة الشرق لأن الآشوريين كانوا خاضعين آنذاك لحكم الكاشيين في العراق، كما أن الآراميين لم يكونوا قد بلغوا من القوة ما يشجعهم على القيام بمغامرة ضدهم.

وإذا أخذنا بمدوّنات التوراة يكون الغزو الحقيقي قد بدأ بعد مرور أربعين سنة قضاها موسى وأتباعه بالبرية، وعزت التوراة سبب ذلك إلى غضب الرب على إسرائيل (قوم موسى) حتى فني كل الجيل الذي فعل الشر في عيني الرب. والسبب الحقيقي على ما نراه من مجرى الأحداث التاريخية، هو أن أرض كنعان كانت آنذاك ساحة حرب بين رعمسيس والحثيين، فقد اصطدم الطرفان في معركة ضارية خاضها رعمسيس ضد غريمه «مواتاليس» ملك الحثيين في قادش (شمال فلسطين) كاد الحثيون أن ينتصروا فيها، إلا أن رعمسيس تمكّن من الصمود بشجاعة أمام الحثيين حتى وصلته الإمدادات فواصل القتال إلى أن انتهى الصراع بعقد صلح بين العاهلين، رعمسيس والملك الحثّي حاتوشيلي الثالث، والتوقيع على ميثاق دفاع مشترك ضد أي غزو خارجي أو ثورة داخلية سنة 1269 ق.م.، لذلك تجنّب موسى التوغل في داخل فلسطين.

والظاهر من وصف التوراة أن موسى كان قد عقد العزم بعد انقضاء الأربعين سنة على غزو كنعان من جهة شرقي الأردن لصعوبة اختراق الجبهة الغربية. وكانت في هذه الجبهة خمس ممالك: الأولى مملكة عوج في باشان وهي تبدأ في أقصى الشمال عند حدود جبل حرمون (جبل الشيخ حالياً) وهي بيد الرفائيين والثانية مملكة سيحون في جلعاد وهي بيد العموريين، والثالثة مملكة عمون وقد استولى عليها العموريون من العمونيين، والرابعة مملكة موآب بيد الموآبيين والخامسة مملكة أدوم بيد بني عيسو. وقد تمّ للموسويين بقيادة موسى الاستيلاء على ثلاث من هذه الممالك ولم يتحرّشوا بمملكتي موآب وأدوم لمناعة تحصيناتهما، وقد عزت التوراة ذلك إلى ما أمر به الرب.

وقد علّق المارشال اللورد مونتغمري على سيرة موسى ومهمته كقائد بقوله: «إن المهمة التي أُلقيت على عاتق موسى كانت في غاية الصعوبة ـ وهي

قيادة بني إسرائيل (قوم موسى)، الذين كانوا شعباً من الرعاة، من مصر إلى أرض كنعان ـ الأرض التي هاجروا إليها. وإني لا أصدق أبداً أنهم بعد أن خرجوا من مصر، هاموا على وجههم من غير هدى في صحراء سيناء أربعين سنة ـ أي تاهوا. وأعتقد أن موسى كان يعلم حق العلم أنه لا يستطيع أن يحقّق الجزء الثاني من مهمته، والذي كان ينطوي حتماً على قتال كثير، إلّا إذا مات المتبرمون القدامى من قومه، وظهر مكانهم جيل جديد مطعّم بروح القتال، ومدرّب على الحرب. ولقد أدرك أنه ليس في الإمكان تحويل أناس مستعبدين إلى شعب مقاتل في أسابيع قليلة أو حتى في أشهر. وأنه لا بدَّ من روح جديد تبعث فيهم ـ وهو أمر يتطلب وقتاً لا يُستهان به. وكان من العبث الإقدام على غزو أرض كنعان من غير خطة سليمة، خطة يمكن تنفيذها بسرعة والوصول إلى الهدف المنشود بغير انتكاسات. وكان اجتناب الانتكاسات أمراً مهماً، إذ إن الانكسار في المعركة، كان يؤدي في الغالب إلى فقدان الثقة بقيادة موسى. . . لذلك قرّر موسى أن يلغي خطته الرامية إلى التقدّم نحو أرض كنعان من الجنوب. وصمّم بدلاً من ذلك أن يجعل بني إسرائيل (أتباعه) يتنقلون في الصحراء مدّة من الزمن تكفي لتحويلهم إلى قوة وطنية صلبة مدرّبة على القتال»[1]. ثم ينتهي مونتغمري إلى رأيه في كفاية موسى القيادية فيقول: «ما عسى أن نقوله عن موسى قبل أن نتركه. ما كانت منجزاته في القيادة؟ لقد ربّته أميرة مصرية وثقف ثقافة عالية. وربما كانت له علاقة ما بالجيش المصري. ومهما يكن الحال، فقد كان ماهراً في الحكم على ما يمكن وما لا يمكن إنجازه في الحرب بالموارد المتيسرة. وقد أبى أن يقحم إسرائيل (أتباعه) في القتال قبل أن يستعدّ لذلك فالجنود يتبعون دائماً القائد الناجح. وفي الحقل التعبوي (التكتيكي) أدرك أن الوقت المصروف في الاستطلاع لا يذهب سدى ـ ولا شك أن ذلك ينطبق على الاستطلاع الذي كان قد مرّ به»[2].

---

(1) المارشال اللورد مونتغمري، «**السبيل إلى القيادة**»، الترجمة العربية، الطبعة الثانية، ص274 ـ 276.

(2) المرجع السابق نفسه.

الغموض في موت موسى:

ومن أغرب ما ابتدعه كتبة التوراة عن وفاة موسى أنهم اتهموا هذا الرسول الجليل كما اتهموا أخاه هارون بخيانة الرب فعاقبهما الرب بالموت: «كلم الرب موسى قائلاً: مت في الجبل كما مات هارون أخوك في جبل هور... لأنكما خنتماني.. عند ماء مريبة قادش في برية صين إذ لم تقدساني.. فإنك تنظر الأرض من قبالتها ولكنك لا تدخل إلى هناك إلى الأرض التي أنا أعطيتها لبني إسرائيل[1]... يشوع بن نون هو يدخل إلى هناك[2]... لا تعبر هذا الأردن وأما يشوع هو يعبر...»[3]. وقد كان من الطبيعي في ضوء ما تقدّم أن تُثار تساؤلات فيما يتعلق بكيفية موت موسى، هل مات موتاً طبيعياً، أم هل أمر الرب بموته حقاً؟ فقد استخلص الباحث الألماني «سيللين» من بعض الفقرات في سفر هوشع من العهد القديم «أن هناك دلائل بأن موسى مات شهيداً اغتاله الكهنة الذين قاوموه فهدموا كل ما نادى به من تعاليم دينية تقريباً»[4]. وهناك من يرى أن يشوع بن نون هو الذي اغتال موسى حيث استصحبه إلى أعلى الجبل ثم عاد بدونه ليعلن أن الأمر بموت موسى قد تمّ تنفيذه وفقاً لأمر الرب. وإذا كان موسى في نظر التوراة التي بين أيدينا خائناً فكيف تنسب هذه التوراة إليه وتسبغ عليها صفة القدسية؟.. هذا هو السؤال الذي تلقيه الكاتبة الأديبة أبكار السقاف التي تقول: «إن هذه التوراة التي بين أيدينا، وهي مصدر العقيدة للدين اليهودي الحالي، تعتبر موسى خائناً وأن الرب غضب عليه وأمر بموته جزاء خيانته، فكيف بعد ذلك، يمكن أن ينسب هذا الدين اليهودي إلى موسى؟!..».

ويقول فرويد «إن ما استخلصه سيللين عن اغتيال موسى على أيدي

---

(1) (تث، 32: 50 ـ 53).

(2) (تث، 1: 38).

(3) (تث، 2: 28).

(4) Lods, «Israël», p. 308; E. Sellin, «**Mose und seine Bedeutung fur die isr-jud Rel**»; Freud, «**Moses...**», p. 59.

أتباعه محتمل جداً لأن موسى الذي تربى في مدرسة أخناتون لا بدَّ أن يكون قد استعمل العنف والقسوة على طريقة أخناتون في فرض شعائر دينية صارمة على أتباعه، ولعلها أكثر صرامة من تلك التي فرضها سيده على الشعب المصري مما أدّى إلى أن يلقى موسى المصير نفسه الذي لقيه أخناتون قبله، وهذا مصير كل عظماء الرجال أصحاب مبدأ أو عقيدة»، ويضيف إلى ذلك قوله: «إن الطبع المسالم الذي يتّصف به المصريون بوجه عام ساعد على بقاء أخناتون على قيد الحياة حتى لقي حتفه بصورة طبيعية، ولكن الساميين ذوي الطباع الخشنة التي تقرب من الوحشية لم يصبروا حتى يموت موسى فثاروا عليه وقتلوه[1]. ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن القرآن الكريم كان أول من كشف لنا هذه الحقيقة، أي قتل اليهود للأنبياء ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ﴾[2].

عهد يشوع:

وقد انتقلت القيادة إلى يشوع بعد وفاة موسى، وتقول التوراة: إن الرب أمره بعبور الأردن إلى الجانب الغربي وقد قضى على 31 ملكاً من ملوك كنعان وكانت أريحا أولى المدن الكنعانية التي احتلها الإسرائيليون (الموسويون) «فحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحدِّ السيف وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب»[3].

ومن بين المدن التي استولى عليها يشوع «بيت إيل» و«عاي» و«لخيش» و«عجلون» و«حبرون» و«دبير». إلا أن الفلسطينيين[4] المتحصنين في مدنهم الساحلية بين غزة ويافا صدّوا تقدّم الموسويين غرباً، وكان هؤلاء الفلسطينيون متفوقين على الموسويين في معداتهم الحربية إذ كانوا يعتمدون على أسلحة من

---

(1) S. Freud, «Moses...», pp. 76-77.

(2) سورة آل عمران، الآية: 112

(3) (يش، 6: 21 و24).

(4) انظر ما تقدّم عن هجرة الفلسطينيين في الفصل الأول.

الحديد الذي أتقنوا تعدينه وصنع الدروع والأسلحة الأخرى منه. لذلك لم يجرؤ يشوع على محاربتهم فتجنّبهم كما تجنّب المدن المحصنة ومنها أورشليم لمناعتها. أما المدن الشمالية (الكنعانية الفينيقية) فكانت في حرز حريز لمناعتها وراء سلسلة جبال لبنان وكانت موانئها على ساحل البحر تساعدها على تنمية مصالحها التجارية والاقتصادية مع الخارج، وكان دخول عنصر الحديد في البلاد خلفاً للنحاس والقصدير قد فتح لها عهداً جديداً فأخذت هذه المدن تمارس صناعة الحديد لصنع الأسلحة وبيعها وذلك باستيراد الحديد الخام من بلاد الحثيين فتقدّمت صناعياً وازدهرت تجارتها[1].

ومما ساعد على تقدّم الفتح في بلاد كنعان بقيادة يشوع ملاءمة الظروف السياسية السائدة آنذاك. فقد كانت البلاد منقسمة على نفسها تتصارع فيما بينها دويلات لا يحصى عددها يحكم فيها حكّام إقطاعيون مستبدون همهم الوحيد الحفاظ على سيطرتهم. ويرجع توطيد دعائم هذا النظام الإقطاعي في هذه المناطق إلى عهد الهكسوس الذين دام حكمهم فيها وفي مصر السفلى حوالي قرنين من الزمن بين سنة 1785 وسنة 1580 ق.م.[2]. ولما أخرج المصريون الهكسوس من بلادهم لاحقوهم في مستعمراتهم الشرقية واستولوا عليها ومنها بلاد كنعان التي ضمّوها إلى مملكتهم، ولكن المصريين لم يحاولوا تغيير الأوضاع السياسية في هذه المناطق فتركوها على حالها، وكان جلّ اهتمامهم جمع الجزية من البلاد على يدّ مأمورين متفسخين. وفضلاً عن ذلك إن مصر كانت عندما غزا يشوع بلاد كنعان عاجزة عن التدخل ومدّ ملوك كنعان بمساعداتها. ومع ذلك تشير المصادر المصرية على قيام مرنفتاح بن رعمسيس الثاني (1233 ـ 1223 ق.م.) بحملة عسكرية على فلسطين مما يدلّ على أن يشوع لم يحقق النصر الذي نسبته التوراة إليه على المدن الكنعانية.

ونستخلص من رواية التوراة أن أورشليم كانت من بين المدن التي لم

---

(1) Keller, «the Bible as History», pp. 155-159.

(2) انظر ما تقدّم عن هجرة الهكسوس في الفصل الأول.

يستطع يشوع احتلالها لمناعتها وصلابة سكانها اليبوسيين. ويؤكد ذلك الأستاذ بيرون في مقاله عن تاريخ أورشليم بقوله: «ومن الجلي الواضح أن مدينة أورشليم كانت قبل مجيء الإسرائيليين (الموسويين) بقيادة يشوع مدينة كنعانية خالصة على جانب كبير من الأهمية والمنعة»[1].

عهد القضاة:

ويستدل من عرض التوراة لوضع الموسويين في كنعان بعد موت يشوع على أنهم أصبحوا مهددين بالفناء وقد اضطروا أن يخلوا بعض المدن التي استولوا عليها، فضاق بهم الأمر جداً حتى أقام لهم الرب قضاة ليخلصوهم من يد أعدائهم. لذلك سُمِّي هذا العهد بعصر القضاة وقد استمرّ حسب تقدير المؤرّخين حوالي قرن كامل بين سنة 1125 و11025 ق.م.[2].

وكان عهد القضاة عهداً مضطرباً تخللته عدة نكسات كادت تهدد الموسويين في فلسطين بالفناء إذ تعترف التوراة أن الكنعانيين والفلسطينيين أصبحوا من القوة بحيث تمكّنوا من إخضاع الإسرائيليين (الموسويين) تحت حكمهم في فترات متواصلة قبيل وخلال عهد القضاة. فكان أول من أخضعهم كوشان رشعتايم ملك آرام النهرين ثماني سنين[3]، ثم هجم عليهم بنو عمون والعمالقة فضربوهم واستولوا على مدينة أريحا (مدينة النخيل)[4]، ثم ضايقهم يابين ملك كنعان في حاصور بشدة عشرين سنة[5]، واستعبدهم بنو عمون والفلسطينيون ثماني عشرة سنة[6]. وفي أواخر عهد القضاة أوقع الفلسطينيون بالإسرائيليين (الموسويين) هزائم شديدة حتى أنهم استولوا على «تابوت العهد»[7]، وخضع الإسرائيليون

---

(1) S.W. Perwone, «**Jerusalem**», Ency. Brit. Vol. 12, p. 1007.

(2) Hitt «**History of Syria**», p. 120.

(3) (قض، 3: 8).

(4) (قض، 3: 13).

(5) (قض، 4: 3).

(6) (قض، 10: 8).

(7) (1 صم، 5: 1). انظر ما تقدّم عن تابوت العهد في الفصل الثالث.

(الموسويون) إلى حكمهم أربعين سنة حتى ظهر شمشمون فحارب الفلسطينيين[1].

لم يستطع الموسويون طرد سكان فلسطين:

وتعترف التوراة بصمود سكان فلسطين أمام الموسويين على أراضيهم إذ تؤكد مراراً وتكراراً بأن الإسرائيليين (الموسويين) لم يستطيعوا طرد سكان فلسطين الأصليين من أراضيهم وقد سكنوا وشاركوهم في وطنهم، فتذكر أنهم «سكنوا في وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحيويين واليبوسيين، واتّخذوا بناتهم لأنفسهم نساءً وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم»[2]. وهذا دليل قاطع على بقاء سكان فلسطين على أراضيهم واستمرار سيادة الثقافة الكنعانية في البلاد. وإليك التأكيدات التي وردت في التوراة بهذا المعنى:

1 ـ «لم يطرد بنو إسرائيل (الموسويون) الجشوريين والمعكيين (وهم من قبائل الجانب الشرقي من الأردن) فسكن الجشوري والمعكي في وسط إسرائيل إلى هذا اليوم»[3].

2 ـ «لم يطرد منسى أهل بيت شان وقراها ولا أهل تعنك وقراها ولا سكان دور وقراها ولا سكان يبلعام وقراها ولا سكان مجدو وقراها فعزم الكنعانيون على السكن في تلك الأرض. وكان لما تشدّد إسرائيل أنه وضع الكنعانيين تحت الجزية ولم يطردهم طرداً»[4].

3 ـ «ونفتالي لم يطرد سكان بيت شمس ولا سكان بيت عناة بل سكن في

---

(8) (قض، 12: 1).
(1) (قض، 12: 1).
(2) (قض، 3: 5 ـ 6).
(3) (يش، 13: 13).
(4) (قض، 1: 27).
(0) (قض، 1: 30).

وسط الكنعانيين سكان الأرض»[1].

4 ـ «زبولون لم يطرد سكان قطرون ولا سكان نهلول فسكن الكنعانيون في وسطه»[2].

5 ـ «أفرايم لم يطرد الكنعانيين الساكنين في جازر فسكن الكنعانيون في وسطه في جازر»[3].

6 ـ «وأخذ يهوذا غزة وتخومها وأشقلون وتخومها وعقرون وتخومها . . . ولكن لم يطرد سكان الوادي»[4].

7 ـ «لم يطرد أشير سكان عكو (عكا) ولا سكان صيدون وأحلب وأكزيب وحلبة وافيق ورحوب فسكن الآشوريون في وسط الكنعانيين سكان الأرض لأنهم لم يطردوهم«[5].

8 ـ «الحويون سكان جبعون صالحوا إسرائيل (الموسويين) وكانوا في وسطهم»[6].

وتؤكد التوراة أيضاً أن الإسرائيليين (الموسويين) لم يستطيعوا طرد اليبوسيين سكان أورشليم الأصليين، واليبوسيون قبيلة من القبائل الكنعانية بقوا في مدينتهم وفي أرضهم في جميع الظروف. وتعترف التوراة صراحة بأن بني يهوذا لم يستطيعوا طرد سكان أورشليم، وهذا نصّ ما ورد فيها بهذا المعنى: «وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم. .[7] وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم»[8] ولعل المقصود بـ «إلى هذا اليوم» إلى ما بعد السبي البابلي وهو

(1) (قض، 1: 23).
(2) (قض، 1: 30).
(3) (قض، 1: 29).
(4) (قض، 1: 18 ـ 16).
(5) (قض، 1: 31 ـ 32).
(6) (يش، 10: 1).

زمن تدوين التوراة. وأوضح دليل على أن أورشليم بقيت في أيدي سكانها الأصليين هو أن الملك داود لما أراد أن ينشيء الهيكل في القدس قام بشراء قطعة الأرض التي اختارها لهذا الغرض من أصحابها اليبوسيين[1]. وليس هناك ما يشير إلى أي حدث تاريخي اضطر سكان القدس غير الإسرائيليين (الموسويين) بسببه مغادرة مدينتهم إذ لم يصبهم شيء من تيارات التشريد والتقتيل والسبي التي أصابت الإسرائيليين (الموسويين)[2]. والدليل على احتفاظ سكان البلاد الأصليين بأرضهم أنهم تمكّنوا من إخضاع بني إسرائيل (الموسويين) لحكمهم قبيل وخلال عهد القضاة وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

أما المدن الفينيقية الكنعانية الأصل فقد حافظت على استقلالها السياسي لما كان لها من تحصينات قوية على الجبال الساحلية التي أُقيمت عليها فلم تخضع إلى الموسويين في أي دور من أدوارها، كما أن الفلسطينيين قاوموا الموسويين مقاومة عنيفة ولم يستطع الموسويون إخضاعهم إلا في فترات قصيرة. هذا من جهة الغرب، أما من جهة الشرق فقد كانت أمارات أدوم وموآب وعمون مستقلة في أكثر أدوار الموسويين التاريخية.

ومن الغريب حقاً أن الكتّاب اليهود عندما يتطرقون إلى موضوع الكنعانيين يدعون أن اليهود أبادوا الشعب الكنعاني ولم يبق له وجود[3]، وذلك على الرغم من أن التوراة ذاتها تؤكد مراراً وتكراراً أن اليهود سكنوا إلى جانب الكنعانيين، إذ لم يستطيعوا طردهم من ديارهم كما تقدّم شرحه، مما يدلّ على أن الموسويين لم يدخلوا فلسطين كغزاة حاكمين بل سكنوا بين أهل البلاد الأصليين كلاجئين. أما الروايات القائلة بأنهم دخلوا فلسطين كمقاتلين فهي تناقض مدوّنات التوراة المتقدّمة. واستناداً إلى نظرية الكتّاب اليهود بإبادة الشعب الكنعاني كان يرى هرتزل «أن الحل البسيط للقضية اليهودية هي عبارة عن منح أرض بلا شعب إلى شعب بلا أرض».

---

(7) (قض، 1: 21).

(1) (2 صم، 24: 24 ـ 25).

(2) انظر الملحق الأول، «أورشليم في أقدم عصورها».

ولقد صدر مؤخراً كتاب باللغة الإنكليزية بعنوان «غزو الإسرائيليين لبلاد كنعان لمؤلفه الأستاذ يفين SH. Yeivin قام بطباعته المعهد الهولندي في اسطنبول. وخلاصة ما توصّل إليه مؤلفه من بحثه هو أن الغزو الموسوي لبلاد كنعان لم يقم على أساس من التخطيط المسبق تمّ تنفيذه دفعة واحدة نتيجة هجوم منظم كما ورد في سفري العدد ويشوع بل كان عبارة عن موجات متتالية من الهجرات إلى كنعان تمّت بشكل تدريجي مستهدفة الاستقرار على الأرض والحصول على ما يسدّ الرمق بواسطة الفلاحة والزراعة. ويؤكد المؤلف أن هذه النتيجة التي توصل إليها في بحثه أصبحت الآن مقبولة بوجه عام وتلقى الدعم الكلّي»[1].

عهد الملوك:

وتصف التوراة كيف طلب الموسويون من صموئيل آخر كبار القضاة أن يعيّن لهم ملكاً أسوة بالممالك الكنعانية والفلسطينية فعيّن لهم الملك المنشود، فكان شاؤول[2]. ولكن كان على الملك الرضوخ التام لأوامر يهوه المنقولة على أيدي الكهنة رجال الدين ولما أهمل الملك الرضوخ التام خذله الرب وأوقعه بيد أعدائه الفلسطينيين فاندحر أمامهم وقتل هو وأولاده الثلاثة في المعركة. وكان حكم شاؤول قد استمرّ حوالي 15 سنة بين سنة 1025 و1010 ق.م.[3]. ثم تقلّد الحكم الملك داود خلفاً لشاؤول فاستطاع هذا الملك على قول التوراة أن يخضع أكثر المدن الفلسطينية كما تمكّن من إخضاع دويلات أدوم وموآب وعمون واستولي على مملكة صوبا الآرامية الغنية بمناجم النحاس وأخضع ملكها هدد عزر بن رحوب وأخذ منها «نحاساً كثيراً جداً»[4]. وقد اتخذ داود أورشليم بعد استيلائه عليها من اليبوسيين عاصمة له وبنى فيها

---

(1) انظر عنوان الكتاب في ثبت المراجع الأجنبية.

(2) (1 صم، 8: 1 ـ 5 و19 ـ 20).

(3) (1 صم، 31: 1 ـ 10)؛ (1 أخ، 10: 1 ـ 10)؛ (2 صم، 1: 6 ـ 10).

(4) (2 صم، 8: 3 ـ 8).

قصره الملكي أقام فيها معبداً للإله يهوه. وقد استمرّ حكم داود زهاء 40 سنة بين سنة 1010 وسنة 971 ق.م.، منها سبع سنين في حبرون والباقي في بيت المقدس[1]، ثم انتقل الحكم إلى الملك سليمان بن داود وهو الذي اشتهر ببناء الهيكل في أورشليم.

أما الوصف الذي جاء في التوراة واعتاد الباحثون ترديده عن اتّساع وامتداد حدود مملكة سليمان فيعدّه أكثر الباحثين من قبيل المبالغات التي درجت عليها دويلات تلك العصور. والحقيقة هي أن مملكة سليمان التي تبجّح اليهود بعظمتها كانت أشبه بمحمية مصرية مرابطة على حدود مصر قائمة على حراب أسيادها الفراعنة الذين كان أهم ما يهدفون إليه من وراء هذا الإسناد حماية حدودهم الشرقية من غارات الأقوام الطامعة بمصر وفي مقدمتهم الآشوريون. وكان سليمان يريد أن يجاري الفراعنة في البذخ والظهور بما هو فوق طاقاته وإمكاناته الاقتصادية وذلك بإغداقه في إقامة الأبنية الشاهقة والقصور الفخمة، فأثقل كاهل الشعب بكثرة الضرائب كما أثقل كاهل خزينته بالديون المتراكمة حتى اضطر أن يقدم إلى حيرام ملك صور عشرين مدينة في أرض الجليل مقابل الديون التي تراكمت عليه[2]. ولما عسر على سليمان أن يحتل أرض الفلسطينيين الساحلية طلب معونة حميّه فرعون مصر فأرسل إليه جيشاً مصرياً احتلّها وسلّمها إليه مهراً لابنته زوج سليمان[3].

ويعّلق المؤرّخ المشهور «ويلز» (Wells) على التمادي في الخيال والمبالغات في تصوير اتّساع حدود مملكتي داود وسليمان، فيقول في ذلك: «ولا يستطيع أحد أن يزعم أن أرض الميعاد وقعت يوماً بيد العبرانيين (اليهود). ويلوح أن داود وضع نفسه في حماية حيرام ملك صور فثبتت هذه المحالفة الفينيقية ملكه»[4]. ويرى الباحثون أن العوامل التي ساعدت على

---

(1) (1 مل، 2)؛(1 ص، 2: 11)؛ (2 صم، 5: 4).
(2) (1 مل، 9: 16).
(3) (1 مل، 9: 16).
(4) **«معالم الإنسانية»**، الترجمة العربية، الكتاب الرابع، ص 279 و283.

توطيد ملك داود وتهيئة الظروف الملائمة لبعض الاتساع هي «أن أمور مصر في عهده كانت مرتبكة فخفت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام. وكانت أمور الدولة الآشورية مرتبكة كذلك، وقد منح هذا لداود شيئاً من حرية الحركة والنشاط والتبسّط وممارسة السيادة»[1].

ويشرح «ويلز» كيف صوّر كتبة التوراة مملكة سليمان صورة تفوق الواقع بكثير قال: «من الخير ألّا تغيب عن بالنا التقديرات النسبية للأمور، فسليمان لم يكن وهو في أوج مجده إلّا ملكاً صغيراً يحكم مدينة صغيرة، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث إنه لم تنقض بضعة أعوام على وفاته حتى استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم، ونهب معظم ما فيها من كنوز، ويقف كثير من النقّاد موقف المستريب إزاء قصة مجد سليمان التي توردها أسفار الملوك والأيام، وهم يقولون إن الكبرياء القومي لدى كتّاب متأخرين هو الذي دعاهم إلى إضافة أشياء إلى القصة والمبالغة فيها»[2].

ويقول «ويلز»: إن سليمان تحالف مع حيرام ملك صور، وطفق هذا يستخدم مملكة سليمان طريقاً عاماً يسلكه لينفذ بوساطته إلى البحر الأحمر فيبني فيه السفن»[3] ويضيف «ويلز» معلّقاً على إسهاب التوراة في تصوير مجد سليمان وفخامته: «إن قصة ملك سليمان وحكمته التي أوردها الكتاب المقدس تعرّضت لحشو وإضافات على نطاق واسع على يد كاتب متأخر كان مشغوفاً بالمبالغة في وصف رخاء عصر سليمان مولعاً بتمجيد حكمه. وقد استطاعت هذه الرواية أن تحمل العالم المسيحي بل الإسلامي على الاعتقاد بأن الملك سليمان كان من أشدّ الملوك عظمة وأبّهة، وقد أسهب سفر الملوك الأول في تصوير مجد سليمان وأبّهته وفخامته، ولكن الحق أنه إذا قيست منشآت سليمان بمنشآت تحوطمس الثالث أو رعمسيس الثاني أو نبوخذ نصّر، فإن منشآت

---

(1) الدكتور شلبي، «**مقارنة الأديان**»، ص 57.

(2) الدكتور شلبي، المصدر السابق، نقلاً عن كتاب ويلز «**تاريخ العالم**»، ص 93.

(3) «**معالم تاريخ الإنسانية**» الكتاب الرابع، ص 284.

سليمان تبدو من التوافه الهينات. . إذ لم يتجاوز سليمان بالنسبة للملك التاجر حيرام منزلة المعاون له على تحقيق خططه ومشروعاته الواسعة النطاق، فأما مملكته فهي رهينة تتجاذبها مصر وفينيقيا، وترجع أهميتها في معظم أمرها إلى ضعف مصر المؤقت»[1].

أما هيكل سليمان الذي تعدّه التوراة مثلاً لأوج عظمة سليمان هو من صنع الفينيقيين الصوريين وقد بني على نمط المعابد الكنعانية، كما أن قصر سليمان في أورشليم من صنع الفينيقيين أيضاً[2]. وحتى تسمية «الهيكل» مأخوذة من كلمة «هيكال» الكنعانية[3]، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

ومما يذكر في هذا الصدد أن التوراة تشير إلى أن سيطرة الملك داود امتدّت إلى نهر الفرات[4]، ولا شك أن هذا الادعاء مستبعد جداً وهو يعدّ من قبيل المبالغة والخيال شأنه شأن الإسهاب في وصف منشآت سليمان بمنتهى الضخامة والفخامة.

إن مصدرنا الوحيد عن أعمال داود وسليمان وعن دورهما السياسي والعمراني في فلسطين هو التوراة، والتوراة وحدها، إذ لم يعثر المنقّبون على أي أثر لهذا الدور. والتوراة كما أسلفنا كُتبت في وقت لاحق وكتب أكثرها في الأسر في المحيط البابلي السومري الذي اعتاد أهله وصف أعمال الآلهة الخارقة العادة على نمط الأساطير الخيالية للتأثير بها على نفوس الجماهير، فقلّد كتبة التوراة الأقوام الذين عايشوهم من العهد القديم في وصف عظمة داود وسليمان على طريقة كتابة الأساطير البابلية والسومرية والكنعانية في وصف آلهتهم التي ألفوها ووقفوا عليها وكانت هي مستنداتهم ومصادرهم في كتابة التوراة، فتأثروا بها كلياً كما نشاهدها في وصف الخوارق التي نسبت للشخصيات الأخرى الواردة في التوراة مثل شمشمون وغيره من الشخصيات

---

(1) **«معالم تاريخ الإنسانية»**، ص 286 ـ 287.

(2) حتي، **«تاريخ سوريا»**، 204.

(3) طه باقر، **«مقدّمة . . .»**، ج 2، ص 286.

(4) (2 صم، 8: 2 و8 و12)؛ (1 أخ، 18: 3 ـ 8).

المقدسة. ويكفي أن ننظر إلى بعض أقوال التوراة، مثل قولها بأن الجماعة التي رافقت النبي موسى في خروجها من مصر بلغت «ستمائة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد»[1] في حين أن الباحثين قدّروا هذه الجماعة بستة آلاف أو سبعة آلاف نسمة فقط[2]، لتكوين فكرة عن مدى مبالغات التوراة وأوصافها الخيالية إلى الحدّ الذي لا يمكن أن يتصوره العقل.

ويرى الكاتب الفرنسي جان لوي برنار أن سليمان لم يكن يهودياً وإنما كان آشورياً «كان نائب الملك معيناً من الخارج» وهو شلمانصر الذي (عبرنه) اليهود فحوّلوا اسمه إلى سليمان وقد اغتيل على يدهم. فيقول في بحث مطوّل: «. . وبصورة عامة لعبت فلسطين دور نائب الملك التابع. ومهما أوغلنا في تاريخها القديم لا نجد أنها عاشت أبداً مستقلة، وحتى في أيام داود، الذي تولّى الحكم في القدس، كانت تدور في الفلك المصري العملاق، وكل فرعون كان يعين نائباً له يختاره قطعاً من العنصر المحلي. والرومان قد حذوا حذو الفراعنة، فهيرودس مثلاً كان من عنصر آخر، كان أدومياً على تعبير العهد الجديد، وقد قاسى هذا العنصر من كره اليهود له.

«وكان فرعون يعين في محميته (نائب الملك) ممّن ليسوا من أهل المنطقة، ثم يزوّجه امرأة من الطبقة الأرستقراطية المصرية. وامتدّ هذا الإجراء حتى شمل الهاربين والخونة والمرتدّين السياسيين وكذلك الرهائن من الأمراء، وكانوا ينشئونهم على الطريقة المصرية ويزوجونهم بالطريقة نفسها.

«وبهذا الخصوص أقول إن أفضل مثل يُضرب دون نزاع هو مثل سليمان ففي عهده دخلت سطوة مصر العسكرية في دور الاضمحلال، شأنها في ذلك شأن سطوة بابل. أما الكوكب الذي توسط كبد السماء فهو الكوكب الآشوري، فتحوّلت «نيابات الملك» التابعة من يد إلى أخرى، تحوّلت في فينيقيا كما تحولّت في فلسطين.

---

(1) (خر، 12: 37).

(2) حتي، «**تاريخ سوريا**»، ص 179.

«وأرجح كون سليمان سامياً، كما كانوا ساميين أولئك الآشوريون المتحدرون من جبال زاغروس، ومن صياصي القفقاس ومعهم شطر من الأكراد. كل هؤلاء هبطوا إلى ما بين النهرين ليخضعوها بعد أن دبّ في أوصالها الانحلال.. وقد تمثّلوا لغتها وثقافتها، والثقافات المسماة سامية نابعة من الجزيرة العربية الممعنة في الحضارة... وسليمان من معدنهم، فهو نصف عربي (وهذه حصته البابلية) وهو نصف كردي. وهذا يفسّر لنا الصداقة التي ربطت سليمان ـ بالملوك الفينيقيين الذين ساعدوه في بناء هيكله الذائع الصيت في القدس. ويفسّر لنا كذلك الحب الذي كرّسته ملكة سبأ العربية للحكيم سليمان. ولو كان يهودياً لاستحالت هذه الصداقة ولاستحال هذا الحب إلى كراهية وبغضاء، لأن اليهود هم أمشاج مختلطة كانوا منبوذين في العالم العربي. ولكن هذا السامي الكردي مرتبط روحياً بمصر إذا لم يكن هذا الارتباط سياسياً، وقد تزوّج بامرأة مصرية من طبقة روحية عليا تدين بديانة الإلهة هاتور وتتكتم في ديانتها هذه، وهاتور إلهة سماوية ذات وجه أسود وإن آية الشاعر الملك الرائعة هي «نشيد الأنشاد»[1] الذي هو عبارة عن غزل ديني كان سائداً آنذاك. وهو مصري قلباً وقالباً ومنهل خالص من مناهل الأدب الصوفي المصري: (أنا سوداء ولكني جميلة).

«وإذا كان هذا الملك السامي الكردي قد استطاع ممارسة الدين الذي تكتنفه الخفايا والأسرار ـ وهو من أعلم أهل زمانه ـ فإنه كان مديناً بهذا العلم لكاهنة مصرية من كهنة الإلهة هاتور. وهذه الكاهنة تزوجها بدافع الطموح السياسي. وتوج كل هذا بمعاهدة مصرية ـ آشورية، ففلسطين التي كانت حتى ذلك العهد محمية مصرية، أصبحت في الواقع آشورية. وقد وافق فرعون على تعيين نائب للملك الآشوري شريطة أن يرتبط بمصر عن طريق امرأة مصرية، ونصيبه كنصيب أسلافه..

---

(1) نشيد الأنشاد لسليمان هو أحد أسفار كتاب العهد القديم، والتقليد اليهودي يشبه علاقة الشعب المختار مع إلهه بعلاقات الزوجة بزوجها، وإن دخول هذا السفر في الأسفار المقدسة إنما هو تجاوب مع هذه الصفات.

«وعن طريق المرأة نقلت مصر الحائزة على التقاليد الإنسانية القديمة امتيازاتها الروحية، فعهدت بها إلى أجانب من النخبة الممتازة. وقضية سليمان نطرحها كمثال.. ولأجل أن نحسن فهم ماهية هذه المنقولات علينا أن نناظر بين الملك سليمان (المعبرن) بصورة اعتباطية وبين شخصية أخرى هي شخصية الحبر الأعظم (يويا)[1] (المعبرن) هو أيضاً ـ بصورة كاذبة، فسموه يوسف الذي باعه إخوته..»[2].

وهنا تستوقفنا نقطة أساسية لا بدَّ من إثارتها وشرحها، وهي: هل كانت هناك في زمن داود وسليمان دولة إسرائيلية بمعنى يهودية حقاً!. وهذا يسوقنا إلى أن نسأل: ما هي اللغة والثقافة التي كانت سائدة في فلسطين في عصر داود وسليمان في القرن العاشر قبل الميلاد؟. هل كانت لغة داود وسليمان عبرية بمعنى يهودية آنذاك؟.. إن هذه المسألة محفوفة بالغموض الكثيف لعدم توافر أدلة محسوسة توضح لنا حقيقة الأمر، إذ لم يعثر حتى الآن على وثائق من هذا العصر على ما وصل إليه علمنا. لذلك فإن معلوماتنا عنه تبقى مصدرها التوراة فقط إلا أن القرائن كلها تدلّ بوضوح تام على أن هذه الدويلة التي تشكّلت في زمن داود وسليمان لم تكن قد توفرت فيها المقوّمات القومية والثقافية، إذ لم تكن لها لغة أو ثقافة أو حضارة خاصة بها، بل كانت قائمة كلياً على تراث كنعاني بحت كما تؤيد لنا ذلك الحقائق التاريخية الآتية:

أولاً ـ إن الموسويين اقتبسوا بعد دخولهم فلسطين في عهد موسى، اللغة الكنعانية لغة أهل البلاد وأخذوا بالثقافة الكنعانية وحضارتها ومن ضمن ذلك تقاليدها وديانتها، مما يدلّ على أن الثقافة الكنعانية كانت هي السائدة وأن الموسويين في عهد القضاة والملوك كانوا فئة أقلية في البلاد.

ثانياً ـ إن اللهجة العبرية المقتبسة من الآرامية التي كُتبت فيها توراة

---

(1) «يويا» هو سليمان الأول، وارث الحكمة والعلوم السحرية المصرية، كان أجنبياً وقد ظهر قبل أن يظهر اليهود على مسرح الأحداث.

(2) «**أسطورة الشعب المختار**»، ترجمة الدكتور أكرم فاضل، ص 11 ـ 19.

اليهود في الأسر لم تظهر إلّا في وقت متأخر ولم يكن لها وجود في عهد داود وسليمان.

ثالثاً ـ إن الديانة اليهودية المقتبسة من الشرائع الكنعانية والبابلية والمصرية لم تكتسب الكيان الواقعي إلّا بعد تدوين التوراة في وقت متأخر، وبذلك يكون تدوين التوراة في الأسر في بابل في القرن السادس قبل الميلاد هو الذي يمثّل بداية الديانة اليهودية، لأن اللغة العبرية المقتبسة من الآرامية والتي كُتبت بها التوراة لم تكن قد تكوّنت إلّا قبيل تدوين التوراة.

رابعاً ـ لقد كانت في فلسطين عدا الكنعانية لغات وثقافات أصيلة ازدهرت قبل دخول الموسويين إلى فلسطين مثل لغة الأدوميين ولغات الموآبيين والعمونيين والآراميين فضلاً عن لهجات الفينيقيين. وكان لكل من هذه الأقوام ملوك وحكومات تتمتع بمقومات الكيان الحضاري المستقل. أما الموسويون فكانوا متأخرين وهم غرباء طارئون على فلسطين لا يملكون المقوّمات الأساسية لكيان حضاري مستقلّ خاص بهم. إذن فلا مفرّ والحالة هذه من قبول النظرية القائلة بأن اللغة الكنعانية كانت اللغة السائدة في البلاد في ذلك العصر. أما المراسلات مع خارج فلسطين فإذا رجعنا إلى العصور السابقة لعصر الموسويين نجد أن الملوك الكنعانيين كانوا يراسلون مصر باللغة البابلية وبالكتابة المسمارية كما هو ثابت من رسائل ملوك كنعان إلى فراعنة مصر في القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد المكتشفة في تل العمارنة في مصر مما يدلّ على أن هذه اللغة كانت اللغة المتداولة في بلاد الشرق الأدنى في ذلك الزمن. ولعلّ داود وسليمان قد سارا على هذا المنوال باستعمال اللغة البابلية في المراسلات وذلك قبل انتشار اللغة الآرامية في الشرق الأدنى والأوسط. ولكن لغة سليمان وداود في داخل البلاد كانت اللغة الكنعانية التي اقتبسها الموسويون بعد دخولهم فلسطين، لأن اللهجة العبرية التي دوّنت بها التوراة في وقت لاحق لم تكن قد تكوّنت بعد في زمن داود وسليمان، ومعنى ذلك أن كتاب «العهد القديم» لم يكن قد ظهر إلى عالم الوجود في ذلك الزمن. أما المزامير التي ترجع إلى عهد داود وأمثال سليمان فهي من أصل

كنعاني وكانت تُتلى في ذلك العهد باللغة الكنعانية وعلى الطريقة الدينية الكنعانية[1]. ثم ترجمها الكهنة اليهود إلى العبرانية وعدّت من الأسفار المقدسة في التوراة. ففي كل ذلك دليل واضح لا يرقى إليه الشك في أن فلسطين بقيت كنعانية في ثقافتها وحضارتها ولغتها في زمن داود في القرن العاشر قبل الميلاد وأن دويلة داود وسليمان لم تكن إلّا دويلة قائمة على تراث كنعاني بحت تمثّل أقلية صغيرة بين دويلات عريقة في حضارتها السامية العربية تحيط بها من جميع أطرافها.

وقد يسألني سائل: أين مدوّنات الكنعانيين وآثارهم إذا كانت لهم حضارة ذات تراث عريق؟ إذ لم يصلنا شيء مهم من كتاباتهم في حين أنه وصلتنا أطنان من الألواح الطينية الأثرية من سومر وبابل وآشور تحمل شرحاً مفصلاً للغاتهم وحضاراتهم وثقافاتهم، كما أن هناك أكداساً من لفائف البردي الأثرية وصلتنا من مصر زوّدتنا بمعلومات مفصّلة عن نمط حياة المصريين السياسية والاقتصادية والدينية. وهذا سؤال وجيه قد يرد على ذهن القارىء نترك لعلماء الآثار الإجابة عليه، وفيما يلي بعض شروحهم لتلك الأسباب كما وردت على لسان كيللر.

«في حوالي بداية الألف الأخيرة (الألف الأولى) قبل الميلاد (وهذا يصادف عهد داود وسليمان على وجه التقريب) هجر الكنعانيون الكتابة المسمارية ذات الزوايا كما هجروا استعمال الألواح الطينية السمجة ليحلوا محلها أسلوباً أقلّ تعقيداً في الكتابة، فكان عليهم حتى ذلك الزمن اتباع طريقة خدش النصّ في الطين الطري بقلم خاص ثم شيّه أو تجفيفه في الشمس وهي عملية بطيئة تستغرق بعض الوقت حتى تأخذ الحروف الضخمة طريقها للإعداد. لذلك أخذوا يميلون أكثر فأكثر إلى استعمال نمط جديد من الكتابة على هيئة خطوط متموّجة، وهذا النمط هو الحروف الأبجدية الهجائية الألفباء (الألفابيت) التي استعملها عمال المناجم الساميون في سيناء. إن القلم والطين لم يعودا ملائمين لهذه الحروف الدائرية الملسة. وهكذا صار الكنعانيون

---

(0) حتي، «**تاريخ سوريا**»، الطبعة الإنكليزية، ص 205 ـ 206.

يبحثون عن أدوات كتابية جديدة وجدوها في الألواح الطينية المشوية وفي الدواة (المحبرة) وفي الحبر. ويسمي الآثاريون هذه الألواح الصغيرة التي تجري عليها الكتابة بالحبر «سلسلة «أوستراسا» (Ostraca). ثم حلّ محل هذه الألواح في حالات خاصة استعمال رقوق البردى وهي أرق مادة للكتابة استخدمها العالم القديم.

ويدلّ التقرير المصري «وين ـ أمون» (Wen-Amun) على كثرة الطلبات على هذه المادة في الصادرات المصرية، فقد تسلّم أمير «بيبلوس» (جبيل) خمسمائة لفة من هذه الرقوق وهي تمتد طولاً إلى أكثر من ميل من ورق الكتابة. ولما كان مناخ فلسطين رطباً لكثرة سقوط الأمطار في الشتاء فما أسرع ما يمسح الحبر من سطح الألواح الطينية الصلبة، أما ورق البردي فهو أسرع تعرّضاً للتلف. ومما يبعث إلى الأسى في نفوس الآثاريين والعلماء والمؤرّخين جميعاً وهم متعطشون إلى هذه المعلومات أن يكون مصير جميع الوثائق والمدوّنات الكنعانية الفقدان الكلّي لهذا السبب. وإذا أمكن الآثاريين أن يعثروا في مصر على كميات كبيرة من هذه اللقى الأثرية على حالتها الطبيعية فذلك ناجم عن وقوع هذه المواد في جوار الصحراء التي تتّسم عادة بالطقس الجاف»[1].

وفي مقارنته بين الكتابات المصرية القديمة وبين المدوّنات الكنعانية القديمة، يؤكد الأستاذ كريمر خبير الآثار السومرية «أن الكتابات الموجودة على الأهرام تعتبر من الدلائل الثابتة على أنه كان للمصريين، في جميع الاحتمالات، أدباً مدوّناً ومتطوراً جداً في الألف الثالثة قبل الميلاد، ولكن لسوء الحظ أن معظم التآليف المصرية القديمة كانت مدوّنة على البردي وهي مادة سريعة العطب. وكذلك الأمر بالنسبة لآداب الكنعانيين القدامى والتي لم تكن معروفة حتى الأيام الأخيرة، ولكن الألواح التي اكتشفها الفرنسيون في شمال سوريا (رأس الشمرة) أظهرت للوجود نماذج مدوّنة من آداب الكنعانيين ومع أن عدد هذه الألواح التي اكتشفها الفرنسيون في شمال سوريا (رأس

(1) كيللر، **(التوراة كتاريخ)**، ص 191 ـ 192.

الشمرة) أظهرت للوجود نماذج مدوّنة من آداب الكنعانيين، ومع أن عدد هذه الألواح يعتبر قليلاً نسبياً إلا أنها تنهض دليلاً على أن الكنعانيين كان لهم في زمن من الأزمان أدب متطور جداً يعود تاريخه إلى ما يقرب من 1400 سنة قبل الميلاد، أي أن هذه الآداب قد دوّنت بعد ما يقرب من خمسمائة سنة من تدوين الألواح السومرية»[1].

وقد سبق أن أشرنا إلى الاكتشاف الذي أذاعته محطة راديو لندن في شباط 1971 وإلى مراسلتي مع العلّامة «مندنهل» المكتشف للمخطوطات القديمة، ومن الأسئلة التي وجهتها إلى هذا المستشرق: هل تعتبر دولة داود وسليمان في القرن العاشر قبل الميلاد عبرانية بمعنى يهودية قبل أن تكون اللهجة العبرية التي كتبت بها التوراة قد تكوّنت، وهل كانت هناك مقوّمات حضارية في عصر داود وسليمان غير الكنعانية فأجابني مؤكداً أن الكنعانية كانت السائدة في ذلك العصر وأضاف قوله: منذ عدة سنوات وأنا متمسك بالرأي القائل إن (إمبراطورية) داود وسليمان لم تكن إلّا دولة وثنية على نمط الدولة الوثنية في الشرق الأدنى، وقد انتهت بالفوضى السياسية والدمار، لأنها كانت كسائر الدول الوثنية القديمة أكثر اهتماماً بالقوّة والمجد من التصرف بشكل يستجيب لرفاهية المواطنين أو الدول المجاورة. لقد كان هذا نبذاً تاماً لرسالة موسى النبوية فقاسوا ما ترتّب على ذلك من عواقب»[2].

وهذا نصّ الفقرة كما وردت بالإنكليزية:

«4. I have maintained for many years now that the empire of David and solomon was a typical ancien; pagan near eastern state: it ended up in political chaos and destruction because it, like the other ancient pagan states, was much more concerned with power and glory than functioning in a way that was at all compatible with the well-being of the citizens or neghboring states. It was a thorough rejection of the prophetic message of Moses, and suffered the consequences...».

---

(1) كريمر، «**الأساطير السومرية**»، الترجمة العربية، ص 42 ـ 43.

(2) راجع ما تقدّم في الفصل الرابع «ملاحظات ختامية».

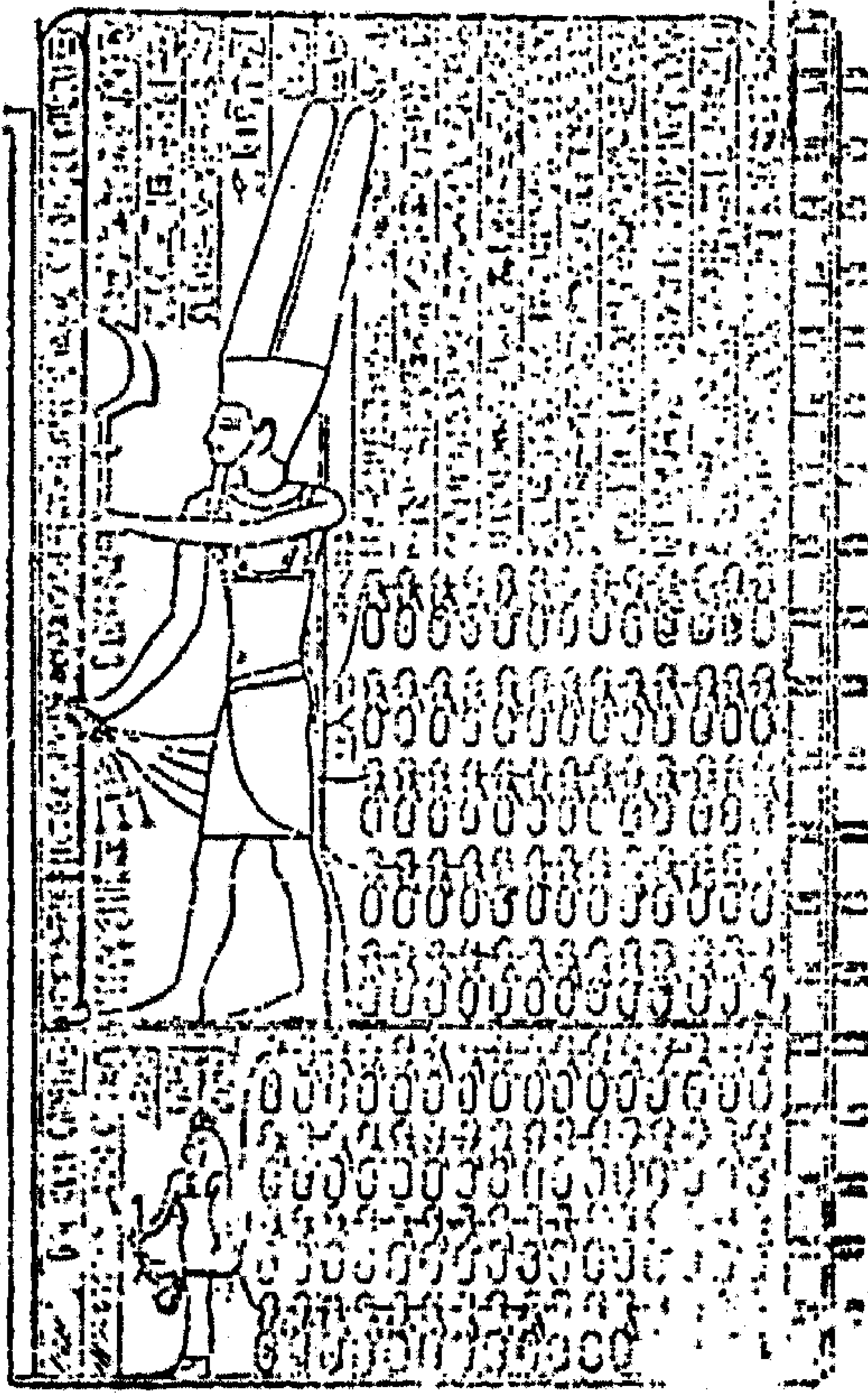
وتؤكد التوراة أن مملكة سليمان كانت وقتية آلت إلى الزوال، فذكرت أن سليمان نقض العهد مع الإلٰه يهوه وأهمل وصاياه إذ ذهب وراء عبادة الأصنام وبناء مرتفعات لها، فغضب الرب عليه: «وقال لسليمان من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق المملكة عنك تمزيقاً...»[1].

عهد الانقسام:

تحدّثنا التوراة عن الخلافات التي ظهرت بين الموسويين بعد موت سليمان سنة 931 ق.م. تمخّض عنها قيام دولتين هزيلتين، الأولى في الشمال باسم مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة (سبسطية) والأخرى في الجنوب باسم يهوذا عاصمتها أورشليم. وتولّى الحكم في الأولى يربعام بن نباط، كما تولّى الحكم في يهوذا رحبعام بن سليمان[2]. وكانت الحرب سجالاً بين المملكتين منذ البداية واستمرّت طيلة وجودهما مما أضعفهما كلتيهما. هذا عدا الغزوات التي كانت المملكتان معرضتين لها من الخارج. فكان أول من غزا مملكة يهوذا شيشنق الأول ملك مصر (926 ق.م.) «وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان»[3].

وفي زمن يهورام ملك يهوذا الرابع (848 ـ 841 ق.م.) انفصل بنو أدوم عن مملكة يهوذا وملكوا على أنفسهم ملكاً[4]. وفي زمنه أيضاً صعد الفلسطينيون والعرب الذين بجانب الكوشيين إلى يهوذا وافتتحوها فاستولوا على كل الأموال الموجودة في بيت الملك وسبوا أبناءه ونساءه أيضاً ولم يبق

(1) (1 مل، 11: 1 ـ 13).
(2) (1 مل، 11: 40؛ 12: 2).
(3) (1 مل، 14: 25 ـ 26)؛ (2 أخ، 12: 2 ـ 4 و9).
(4) (2 أخ، 21: 8 ـ 9).
(0) (2 أخ، 21: 16 ـ 17).
(0) (2 أخ، 24: 3)؛ (2 مل، 12: 17 ـ 18).



الصورة رقم (83)

مسلة النصر للفرعون الليبي شيشنق الأول مؤسس السلالة الثانية والعشرين، عثرت عليها بعثة نابليون سنة 1799 في معبد الكرنك يشاهد فيها الإله «أمون» شاهراً بيده اليسرى حربة وماسكاً بيده اليمنى حبلاً تتجمع عنده حبال ربط فيها 156 أسيراً من أسرى بلاد يهوذا يمثل كل منهم بلداً أو مدينة أو قرية.
(عن كيللر «التوراة كتاريخ»، ص224).

إلا أصغر بنيه[1]. وفي زمن يوآش غزا الجيش الآرامي أورشليم وأهلك كل الرؤساء وأخذ جميع الخزائن وقدمها لحزائيل ملك الآراميين[2]. وفي عهد أمصيا ملك يهوذا (796 ـ 767 ق.م.) هجم يهوآش ملك إسرائيل على أورشليم فهدم سورها وأخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك[3]. وفي عهد ازدهار مملكة دمشق الآرامية أصبحت كلتا المملكتين، إسرائيل ويهوذا، تحت سيطرتها، فأخذ الملك ابن هداد (بنهدد) ملك دمشق (879 . 843 ق.م.) الجزية من يهوذا وضمّ منطقة جلعاد في شرقي الأردن إلى المملكة الآرامية، كما أنه فرض الحماية الآرامية والجزية على إسرائيل في عهد ملكها آخاب بن عومري (874 ـ 853 ق.م.)

(1) (2 أخ، 21: 16 ـ 17).

وكان الآراميون يستغلون الخلاف بين إسرائيل ويهوذا لإخضاعهما كليهما إلى نفوذهم. ثم تحرّكت الإمبراطورية الآشورية المتعطّشة للفتح، فاصطدمت، أول ما اصطدمت بالآراميين، وبدأ الصراع بينهما على السيطرة، فاستغل الآشوريون الصراع القائم بين الآراميين وبين إسرائيل ويهوذا للانقضاض عليهم جميعاً فأخضعوهم كلهم أخيراً الواحد بعد الآخر.



الصورة رقم (84)
أسرى من يهوذا أخذهم شيشنق الأول في حملته على مملكة يهوذا سنة 926 ق. م. وجدت بين النقوش المصرية في معبد الكرنك أيضاً (كتاب «قصة التوراة» ص560)

الغزو الآشوري وإزالة إسرائيل من الوجود:

لقد كان لقيام الإمبراطورية الآشورية التي دامت بين سنة 911 و626 ق.م. أثرها في تغيير وجه الشرق، فقد حكم خلال هذه الفترة خمسة عشر ملكاً بلغت الإمبراطورية في عهد بعضهم أوج عظمتها واتّساعها بحيث ضمّت جميع أراضي الهلال الخصيب ومن ضمنها مصر. ولقد لعبت دوراً رئيسياً في القضاء على مملكة إسرائيل نهائياً وسبي سكانها إلى أماكن بعيدة وإحلال



الصورة رقم (85)

الحقول الأربعة الأولى من مسلة الملك شلمنصر الثالث (859 ـ 824 ق.م)

سكانٍ من غير اليهود محلهم من مختلف أنحاء الإمبراطورية ثم تحطيم مملكة يهوذا. فقد تمكّن شلمنصر الثالث (859 ـ 824 ق.م.) من إخضاع الآراميين والفينيقيين وإسرائيل، وفي مسلة شلمنصر الثالث المشهورة التي عُثر عليها بين أنقاض كالح (نمرود) تشاهد عدّة صور لحملات شلمنصر على البلاد التي فتحها مع كتابات تحت الصور تشرح ما يمثّله كل منها. وتتكوّن هذه المسلة من الحجر الأسود عليها خمسة حقول متسلسلة كل منها مكرر أربع مرات في أربعة أطراف المسلة. ففي الأول من الجهة العليا يشاهد شلمنصر نفسه يتلقى الجزية من «شوعة» ملك «جلزام» وفي الثاني يتلقى الجزية من «يهو» ملك

إسرائيل في أرض عومري. ويرى الملكان ساجدين يقبلان الأرض عند أقدام شلمنصر. وفي الحقول الثلاثة التالية ترى الغنائم والجزية من بلاد «موسري» و«سوخو» و«باتن» على التوالي. وبذلك يبلغ مجموع عدد الصور في المسلّة عشرين صورة[1].

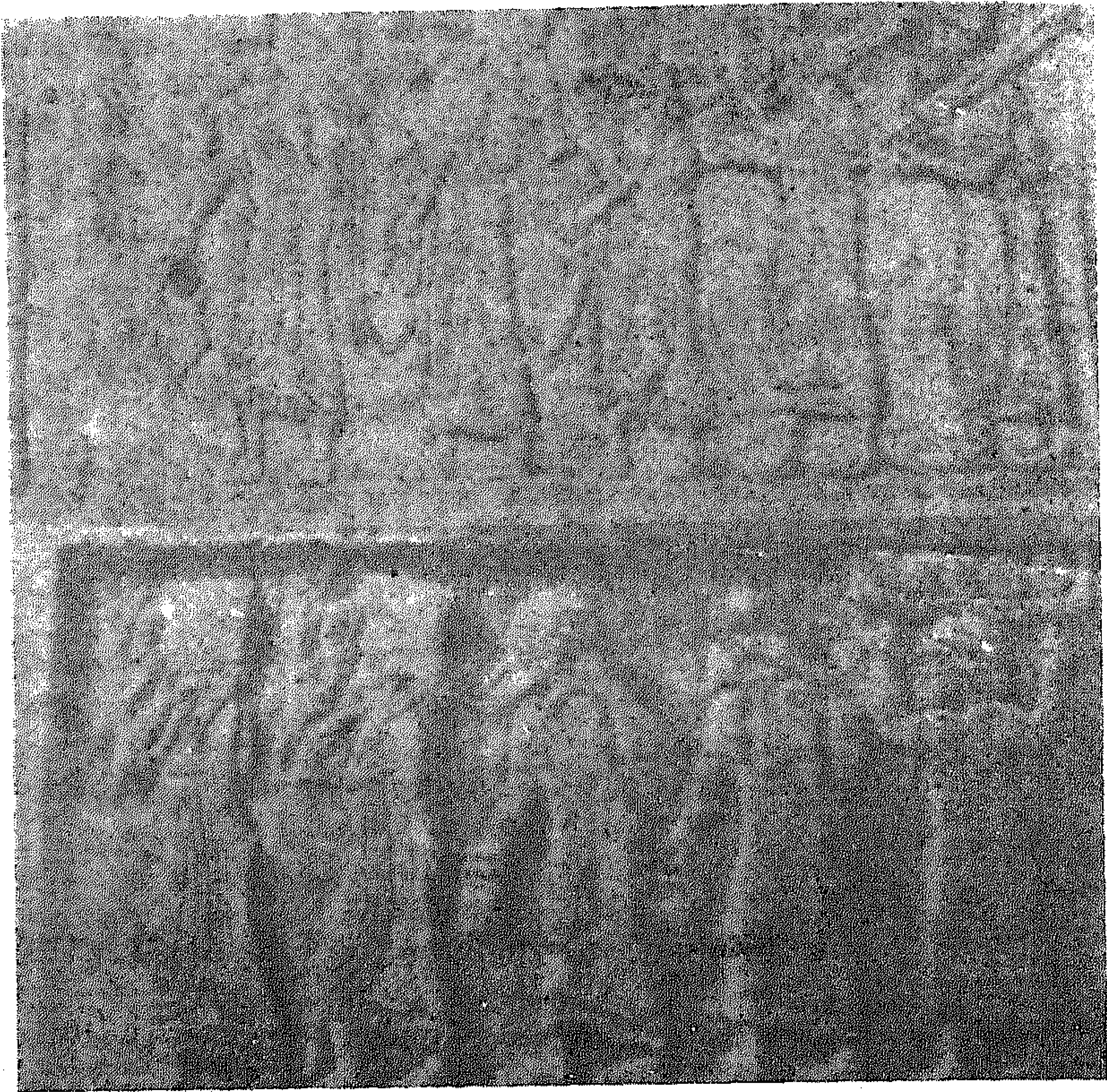
ومن الحملات التي شنّها ملوك الإمبراطورية الآشورية حملة «تغلات فلاسر الثالث» على مملكة آرام فاستولى على عاصمتها دمشق سنة 732 ق.م. وسبى أهلها وقتل ملكها «رصين»، ثم توجّه إلى إسرائيل فاستولى في زمن «فقح» ملك إسرائيل (739 ـ 731 ق.م.) على كل أرضين إسرائيل وسبى اليهود إلى آشور وأحلَّ محلَّهم سكاناً من أقاليم أخرى، تاركاً لخلف فقح الملك هوشع مدينة السامرة[2]. وقد قام تغلات فلاسر بهذه الحملة استجابة إلى طلب آحاز بن يوثام ملك يهوذا (735 ـ 715 ق.م.) من تغلات فلاسر إنقاذه من ضغط الملك رصين ملك دمشق والملك فقح ملك إسرائيل وقدم إلى ملك آشور كميات كبيرة من الفضة والذهب «الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك»[3]. وقد عُثر على مسلة آشورية نقش عليها شرح كامل لحملة تجلات بلاسر هذه على بلاد آرام وعلى إسرائيل.

ثم جرّد شلمنصر الخامس، خلف تغلات فلاسر، حملة تأديبية على إسرائيل فحاصر عاصمتها السامرة مدة ثلاث سنوات وقبل أن يظفر بالنصر النهائي وافته المنية في الشهر العاشر من عام 722 ق.م.، ولكن القائد الآشوري أتمّ مهمته باحتلال السامرة في النهاية على عهد سرجون الثاني خلف شلمنصر، وبذلك تمّ استسلام السامرة والقضاء على مملكة إسرائيل

(1) انظر الصورة رقم 85.

(2) جاء في كتابات تغلات فلاسر الثالث ما هذا نصه: قمت بضمّ جميع مدن بيت عومري في حملاتي السابقة ولم أترك سوى مدينة السامرة... أخذت نفتالي بأسرها وضممتها إلى آشور وعهدت برجالي حكاماً عليها. وجميع سكان أرض بيت عومري وممتلكاتهم حملت إلى آشور. وقد ورد مثل ذلك في التوراة (2 مل، 15: 29)؛ (1 أخ، 5: 26). انظر أيضاً:
Keller, «**The bible as History**», p. 241.

(3) (2 مل، 16: 7 ـ 9).



الصورة رقم (86)
حقلان من حقول مسلة شلمنصر الثالث يشاهد فيها الهدايا التي بعث بها «باهو» ملك إسرائيل إلى شلمنصر الثالث

نهائياً[1] وتبعاً للخطة التي سار عليها تغلات فلاسر الثالث أجلى سرجون الثاني 27280 شخصاً من اليهود إلى ناحية حرَّان وإلى ضفة الخابور وميديا وأحلّ محلهم الآراميين من إقليم حماة، ثم لحق بهم العرب هناك في عام 715 ق.م. وكذا بعض الأهلين من كوثى وبابل سنة 709 ق.م[2]. وقد عثر الخبير الآثاري بوتا سنة 1843 بين أطلال مدينة «سمأل» (زنجرلي) عاصمة الآراميين في شمال غربي سوريا على مسلة سرجون الثاني نقشت

(4) (2 مل، 18: 9، 17: 6).
(1) (2 مل، 18: 9، 17: 6).

عليها باللغة الآشورية وبالخط المسماري تفاصيل الحملة الآشورية على إسرائيل التي انتهت بالقضاء عليها وحمل اليهود إلى الأسر.

وبذا كانت نهاية مملكة إسرائيل وبقيت مملكة يهوذا الصغيرة تنتظر دورها وهي تتأرجح في مهبّ الرياح بين رحمة حكومة مصر من الغرب ودولة آشور من الشرق، فإذا انحازت للأولى غضبت عليها الثانية، وإذا انضمّت إلى الثانية أغاظت الأولى. ولما انحاز حزقيا ملك يهوذا إلى مصر غضب سنحاريب الذي خلف سرجون فصمّم على القيام بحملة قوية على مملكة يهوذا لإخضاعها أو تدميرها والقضاء عليها كما فعل أسلافه بإسرائيل. فهبّ حزقيا وأرسل وفداً إلى مصر مستنجداً بملكها فوعده المصريون بمدّه بالعون، فانتقده أشعيا على اعتماده على ملك مصر بدلاً من اعتماده على الرب بقوله: «ويل للذين ينزلون إلى مصر للمعونة ويستندون على الخيل ويتوكلون على المركبات



الصورة رقم (87)
أسرى أمام الملك سرجون الثاني (722 ـ 705 ق.م.)
يجذبهم إليه بحبل من خلال ألسنتهم ويقوّر أعينهم برمحه

لأنها كثيرة وعلى الفرسان لأنهم أقوياء جداً ولا ينظرون إلى قدوس إسرائيل ولا يطلبون الرب»[1].

ولدينا مصدران عن أخبار حملة سنحاريب على مملكة يهوذا: الأولى، كتابات سنحاريب نفسه وقد نقشت على جدران قصره في نينوى إلى جانب صورته وهو جالس على عرشه في مقر عملياته الحربية في لخيش وقد ظهر وفد من يهوذا يقدمون الجزية وفروض الطاعة. ويظهر مما ورد في هذه المدوّنات أن سنحاريب اتجه غرباً حتى وصل إلى ساحل البحر المتوسط فاستولى على صيدون (صيدا) بعد فرار ملكها «لولي» دون أن يتحرش ببلدة صور لموقعها المنيع على الجزيرة. ثم جاءه تأييد الطاعة مع الهدايا من مدن الساحل من أرواد وبيبلوس (جبيل) وأشدود وكذلك من دول الشرق من موآب وعمون وأدوم. وقد بعثت مصر بجيش من المصريين والأثيوبيين فاستولوا أولاً على «أشقلون» (عسقلان) ثم اتجهوا شمالاً للاتصال بقوات حزقيا ملك يهوذا إلا أن سنحاريب قابلهم وانتصر عليهم، ثم توجّه إلى عقرون فهدمها وأخذ يحتلّ مدن يهوذا الواحدة بعد الأخرى وقد اتّخذ مقرّه في لخيش ومنها بعث بجيش أقام الحصار حول أورشليم العاصمة[2].

وفيما يلي نصّ كتابة سنحاريب التي يصف فيها انتصاراته على يهوذا فيقول: «أما حزقيا اليهودي فلم يرضخ لسلطتي فحاصرت 46 مدينة من مدنه المحصّنة عدا القرى المجاورة التي لا يحصى عددها واستوليت عليها كلها باستخدام أنواع الآلات الحربية والمنجنيقات مما ساعدنا على الاقتراب من الأسوار واختراقها. وقد أخذنا منهم (اليهود) 200150 نسمة رجالاً ونساء، أطفالاً وشيوخاً مع حيواناتهم من الخيول والبغال والحمير والجمال، كبيرة وصغيرة، لا تحصى، وهذه كلها غنائم استولينا عليها. هو شخصه (حزقيا) جعلته حبيساً في أورشليم في قصره كالطير في القفص وأحطته بأكوام من

---

(1) (اش، 30: 1 ـ 7، 31: 1).

(2) R. W. Rogers, «**Cuneiform parallels to the Old Test**», N.Y. 1912, pp. 340-348.

الأتربة للتضييق على كل من يحاول الخروج من باب المدينة. سلمت مدنه التي استوليت عليها إلى «ميتيني» ملك أشدود و«بادي» ملك عقرون و«سيلبيل» ملك غزة وهكذا قلصت حدود بلاده وفرضت زيادة في الجزية التي عليه أن يدفعها سنوياً»(1).



الصورة رقم (88)
الملك سنحاريب
(705 ـ 681 ق.م.)
جالس على عرشه في «لخيش»
التي اتخذها مقراً له في حملته على
يهوذا سنة 701 ق.م.

أما المصدر الثاني فهو رواية التوراة وقد جاءت هذه الرواية مشوّشة غير واضحة فمرة تقول: «صعد سنحاريب ملك آشور على جميع مدن يهوذا الحصينة وأخذها وأرسل ملك يهوذا إلى ملك آشور إلى لخيش يقول قد أخطأت، اِرجع عني ومهما جعلت عليّ حملته، فوضع ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا ثلاثمائة وزنة من الفضة وثلاثين وزنة من الذهب. فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك»(2). ثم تعود التوراة في رواية ثانية تقول: إن ملك آشور «أرسل من لخيش إلى حزقيا بجيش عظيم إلى أورشليم فصعدوا وأتوا إلى أورشليم... وأن ملاك الرب خرج وضرب من جيش آشور مائة ألف وخمسة وثمانين ألفاً، ولما بكروا صباحاً إذا هم جثث ميتة فانصرف سنحاريب ملك آشور وذهب راجعاً وأقام في نينوى»(3).

(1) J. Pritchard, «**Archaeology and the Old Testament**», Princetion, 1958, p. 157.
(2) (2 مل 18: 13 ـ 15).
(3) (2 مل، 18: 17، 19: 25 ـ 26).

نستخلص من المصدرين الأمور التي تتّفق فيها الروايتان:

أولاً ـ أن حزقيا طلب العون من مصر فعلاً استناداً إلى انتقاد أشعيا للملك حزقيا على طلبه العون من مصر.

ثانياً ـ استيلاء سنحاريب على جميع مدن يهوذا المحصنة.

ثالثاً ـ أن سنحاريب اتّخذ من لخيش مركزاً لعملياته الحربية في فلسطين.

رابعاً ـ أن الحصار على أورشليم وقع فعلاً ثم فك الحصار.

خامساً ـ تسلّم سنحاريب الجزية التي فرضها على حزقيا.

أما الخلاف فينحصر في الأمور التالية:

أولاً ـ أن التوراة في الوقت الذي تعترف ضمناً بطلب العون من مصر إلّا أنها لم تشر إلى المعركة التي تذكرها كتابات سنحاريب بين جيشي آشور ومصر وتغلّب الأول على الثاني.

ثانياً ـ أن التوراة تعترف باستيلاء سنحاريب على جميع مدن يهوذا إلا أنها سكتت عن الغنائم والأسرى الذين سباهم سنحاريب، وقد سكتت التوراة أيضاً عن تسليم المدن التي استولى عليها سنحاريب إلى ملوك أشدود وعقرون وغزة.

وقد حدّدت التوراة تاريخ حملة سنحاريب على يهوذا في السنة الرابعة عشرة للملك حزقيا ولما كان حزقيا قد ارتقى العرش في سنة 715 ق.م. فيقع زمن حملته في سنة 701 ق.م. وهذا يتّفق مع التاريخ الذي توصّل إليه المحققون من المصادر الأخرى. ومع أن مدينة أورشليم لم تسقط إلّا أن الجيش الآشوري ترك البلاد خراباً ولم يستطع ملك يهوذا الاحتفاظ بعرشه إلّا بعد دفع الجزية واعترافه بسيادة الآشوريين وظل الأمر كذلك حتى انهيار الدولة الآشورية[1].

وأثبت دليل على أن تسمية إسرائيل وبني إسرائيل للدلالة على أتباع

(1) انظر بحث الآشوريين في الفصل الأول.



الصورة رقم (89)
أسرى يهود موسيقيين أخذهم الآشوريون في حملتهم على يهوذا

موسى واليهود هي من ابتداع كتبة التوراة في وقت متأخر وأن دور موسى واليهود لا يمتّ بأية صلة إلى إسرائيل، وأن مصطلح بني إسرائيل لم يرد في الكتابات الآشورية، مع أنه كانت هناك حروب متواصلة بين الآشوريين وبين ما سُمِّي في التوراة بـ «مملكة إسرائيل»، وقد أفاض الملوك الآشوريون في وصف هذه الحروب من غير أن ترد أية إشارة إلى مملكة إسرائيل. فقد سمى الآشوريون مملكة إسرائيل الوارد ذكرها في التوراة «بيت عومري» في كتاباتهم، ولو كانت جماعة اليهود تُسمّى بـ «إسرائيل» في ذلك العصر لذكرها الآشوريون بهذه التسمية. ففي مسلة شلمنصر الثالث (858 ـ 824 ق.م.) ورد اسم «يهو» الذي أطلقت عليه التوراة عنوان «ملك إسرائيل» مقروناً بـ «بيت عومري» وكذلك استعمل الملك تغلات فلاسر الثالث اصطلاح «بيت عومري» في وصفه لحملته

على فلسطين للدلالة على «إسرائيل التوراة»، فقال: «قمت بضم جميع مدن بيت عومري. . . وجميع سكان أرض بيت عومري وممتلكاتهم الخ. . .» وهذا ما يدلّ على أن التوراة قد انفردت في تسمية مملكة إسرائيل للدلالة على اليهود بعد تدوينها في وقت لاحق يلي العهد الآشوري، وذلك بغية ربط صلة اليهود بإسرائيل وبجده إبراهيم الخليل للأسباب التي شرحناها فيما تقدّم. هذا مع العلم أن كلمة «إسرائيل» وردت في الكتابات المصرية التي ترجع إلى ما قبل عصر موسى واليهود، للدلالة على منطقة كنعانية بهذا الاسم، لذلك فمن الأرجح أن نسبة شلمنصر الثالث آخاب إلى إسرائيل هي نسبة إلى منطقة إسرائيل الكنعانية في فلسطين وليست نسبة إلى شخص إسرائيل (يعقوب).

وهنا تستوقفنا نقطة مهمة مقرونة بعلامة استفهام: هل كانت هناك مملكة تُسمّى إسرائيل حقاً؟ لقد أفاض ملوك آشور في وصف حملاتهم على أقوام الشرق الأدنى وذكروا أسماء ملوك الدول التي أخضعوها ولقّبوا رؤساء هذه الدول بالملوك إلّا إسرائيل التوراة لم يطلق عليها اسم إسرائيل ولا على رئيسها تسمية ملك إذ سُمِّيت باسم «بيت عومري»، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن ما سمّته التوراة بمملكة إسرائيل لم يكن أكثر من قبيلة لم ترتفع إلى مستوى المملكة أو الدولة، واستعمال هذا الاصطلاح للدلالة على القبيلة كان ولا يزال شائعاً عند العرب منذ القديم. هذا مع العلم أن التوراة هي المصدر للأسباط العشرة المفقودين. لذلك سمّاهم الباحثون «الأسباط العشرة المفقودة» لأن مملكة إسرائيل التي قضى عليها الآشوريون كانت تتألف من عشرة أسباط على قول التوراة. وقد كوّن هؤلاء المسبيون قرى بين السكان الأكراد وبقوا منعزلين. الوحيد الذي يدّعي بوجود مملكة تُسمّى إسرائيل كما أن معلوماتنا عن مملكة يهوذا والعهد الذي سُمِّي بعهد الملوك (شاؤول وداود وسليمان) مستقاة من التوراة وحدها. والتوراة كما هو معلوم هي من وضع الكتبة اليهود في وقت متأخر وهي مشحونة بالأساطير والمبالغات التي لا مجال لتصديقها والادعاءات الخيالية التي لا يمكن أن يقرها العقل والمنطق. وعلى هذا لا يمكن الاعتماد عليها كمصدر موثوق في تدوين الأحداث التاريخية القديمة ما لم تُزَكَّ من مصدر قديم أصيل. فكلما تعمقنا في دراسة التوراة وتتبعنا الظروف

التي رافقت وضعها كلما ازداد اعتقادنا بأنه يجب على المؤرّخ أن لا يتّخذ من التوراة مصدراً يعوّل عليه في تدوين تاريخ الأحداث القديمة.

الأسباط العشرة المفقودة والمسيحيون النساطرة في كردستان:

كانت سياسة الآشوريين أن يبعدوا السبايا إلى عدّة أماكن نائية منعزلة لكي لا يتيسر لهم التجمّع في مكان واحد والتكتّل على أمل العودة إلى مناطقهم التي أبعدوا عنها، وهكذا فقد أبعد الآشوريون أسراهم اليهود من مملكتي إسرائيل ويهوذا إلى المناطق الجبلية المنعزلة في كردستان العراق وتركيا وإيران ضمن حدود الإمبراطورية الآشورية وأحلوا محلهم أقواماً من أنحاء الإمبراطورية حتى خفيت أخبارهم عن اليهود في فلسطين وفي العراق فاعتبروا بحكم عن اليهود في فلسطين وفي المناطق العراقية الأخرى غير المناطق الجبلية الكردية فقلّدوا الأكراد في نمط معيشتهم حيث صاروا يمارسون الأعمال الحقلية الزراعية وتربية المواشي متمتعين بحماية رؤساء القبائل الكردية ويؤدون لها الجزية. ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن هؤلاء اليهود المسبيين لا يزالون رغم مرور حوالي 2800 سنة على نفيهم إلى



الصورة رقم (90)
أحد الرماة اليهود في كردستان ـ من تصوير المؤلف

كردستان يتكلمون فيما بينهم بلغتهم الأصلية، اللهجة الآرامية الغربية القديمة التي كانوا يتكلمون بها قبل سبيهم إلى المناطق الكردية. ويلاحظ أن الصهاينة كانوا يحرصون كل الحرص على تهجير هؤلاء اليهود الأكراد إلى إسرائيل من دون بقية يهود العراق، وذلك لأنهم أصحاء الجسم يمتهنون الفلاحة وتربية المواشي فهم يصلحون أكثر من غيرهم من اليهود كأيادٍ عاملة في الحقل. وفضلاً عن ذلك فهم لا يزالون متمسكين بديانتهم الأصلية ولا يخشى منهم مشاركة العرب في شعورهم نحو القضية العربية لأن لغتهم الثانية بعد الآرامية الأم هي الكردية. وقد أفلح الصهاينة في تهجير كل اليهود الأكراد من العراق إلى إسرائيل بالاتفاق مع الحكومة العراقية القائمة. ويؤيد الباحثون نقلاً عن هؤلاء اليهود الأكراد أنفسهم بأنهم أحفاد اليهود الذين سباهم الآشوريون ونقلوهم إلى منطقة كردستان[1]. وقال ذلك بنيامين التطيلي الذي زار هذه المنطقة في القرن الثاني عشر الميلادي، في رحلته عن العمادية[2]: «يقيم بها نحو خمسة وعشرون ألف يهودي وهم جماعات منتشرة في أكثر من مائة موقع من جبال خفتيان[3] عند تخوم بلاد مادي، ويهودها من بقايا الجالية الأولى التي أسرها شلمنصر ملك آشور ويتفاهمون بلسان الترجوم[4]، وبينهم عدد من كبار العلماء والعمادية على مسيرة يوم من تخوم بلاد العجم. يؤدي يهودها الجزية للمسلمين شأن سائر اليهود المقيمين في الديار الإسلامية، وقدرها دينار

---

(1) Neusner, «**A History of the Jews in Babylonia, the Parthian Period**», p. 59 n.t; Fischel, «**The Jews of Kurdistan..**», p. 196.

(2) العمادية قلعة شهيرة في شمال العراق تبعد نحو 168 كيلومتراً من الموصل. كانت تُسمّى في العصر الآشوري أمات (Amat) ويروي ياقوت أنها كانت حصناً للأكراد يدعى «آشب» وبعد خرابه عمّره عماد الدين زنكي بن آق سنقر وسماه باسمه.

(3) خفتيان حبتون أو هفتون، من جبال كردستان. جاء في **معجم البلدان** لياقوت: حبتون جبل بنواحي الموصل، وهفتون بليدة صغيرة من نواحي إربل تنزلها القوافل لمن يريد آذربيجان. وخفتيان قلعتان عظيمتان من أعمال إربل، إحداهما على طريق مراغة يقال لها خفتيان الزرزاري والأخرى خفتيان سرخاب بن بدر.

(4) يقصد اللغة الآرامية الشرقية التي ما زال يهود كردستان يتكلمون بها فيما بينهم حتى اليوم.

أميري ذهباً لمن بلغ منهم الخامسة عشرة من عمره». وفي كلام بنيامين على نهاوند، وهي بلدة تبعد أربعين ميلاً عن همذان يقول: «وأرض نهاوند تبعد مسيرة خمسة أيام عن العمادية تسكنها طائفة لا تؤمن بدين الإسلام. يعتصم أتباعها بالجبال المنيعة ويطيعون (شيخ الحشاشين)[1] ويقيم بين ظهرانيهم نحو أربعة آلاف يهودي، يسكنون الجبال مثلهم ويرافقونهم في غزواتهم وحروبهم. وهم أشدّاء لا يقدر أحد على قتالهم. وبينهم العلماء التابعين لنفوذ رأس الجالوت ببغداد[2].

وقد توصل الدكتور غرانت الطبيب والمبشر الأمريكي الذي قضى عدّة سنوات في منطقة كردستان وتجول في أنحائها التركية والعراقية والإيرانية إلى أن أكثرية يهود كردستان هم من أحفاد السبايا الآشوريين وأنهم أخذوا بتعاليم السيد المسيح بعد ظهوره وصاروا يعرفون بالنساطرة نسبة إلى القديس نسطور أو التيارية بالنسبة لتسميتهم القبائلية[3]. والدكتور غرانت هذا حل بين النساطرة

---

(1) هم الإسماعيلية من أتباع الحسن بن الصباح. استفحل أمرهم في القرنين السادس والسابع للهجرة، حتى استأصل شأفتهم هولاكو فهاجر فريق منهم إلى الهند.

(2) «**رحلة بنيامين التطيلي**»، ترجمة عزرا حداد، ص 153 ـ 154.

(3) إن المذهب النسطوري فرع من المسيحية ظهر أثر حدوث انشقاق مذهبي واسع في المسيحية في الشرق سنة 431م. ولم يقتصر هذا الانشقاق على النسطورية بل شمل فرعاً آخر وقع سنة 451م هو اليعقوبية المناوئة للنسطورية. هذا عدا طائفتي البروتستانت والكاثوليك في أوروبا، ونظراً لنفوذ الطائفتين الأخيرتين ورغبة كلّ منهما في جذب اليعاقبة والنساطرة للانضمام إلى كنيستها فقد نشطت البعثات التبشيرية من أوروبا وأمريكا والبابوية إلى اليعاقبة والنساطرة واستطاعت أن تحوّل قسماً من اليعاقبة عن مذهبهم الأصلي إلى المذهب الكاثوليكي فسموا بالسريان الكاثوليك نسبة إلى الكنيسة الكاثوليكية وبقي اليعاقبة الأصليون يتّسمون بالسريان الأرثوذكس بمعنى المستقيمين الرأي.

وأما النساطرة فقد التحقت جماعة منهم في منطقة السهول برئاسة مار إيليا بروما وسموا بالكلدان واعترفت الحكومة العثمانية بهم كملّة الكلدان سنة 1845. وفي الوقت نفسه تزعم المار شمعون في منطقة الجبال النساطرة الذين ثبتوا على مذهبهم كزعيم ديني وقبائلي وتبعوه في جميع شؤونهم. وقد حلّت بين هؤلاء بعثات التبشير الإنكليزية في مواطنهم على الحدود الإيرانية التركية شرقاً وغرباً وأن هذه البعثات حين لم تستطع تحويلهم إلى اعتناق =

على رأس بعثة أوفدها مجلس البعثات التبشيرية البروتستانتية الأمريكية سنة 1835 وبحكم مهنته كطبيب كان يسهل عليه التوغّل بين المسيحيين والأكراد في تلك المناطق الجبلية الصعبة والمحفوفة بالمخاطر. فاتّخذ الدكتور غرانت أورمية مركزاً لعمله وأسس عشر مدارس في القرى المسيحية في مختلف أنحاء المنطقة ومدرسة داخلية واحدة للبنات في أورمية. وقد تعلّم الدكتور غرانت لغة المسيحيين النساطرة وهي اللغة الآرامية السريانية وترجم بعض أقسام من الإنجيل ومن العهد القديم إلى هذه اللغة وجلب مطبعة لطبع الكتب بها، كما تعلم الكردية مما سهل عليه إنجاز مهمته. وقد قضى الدكتور غرانت هو وعائلته ست سنوات في منطقة كردستان الواقعة في تركيا وإيران والعراق، وبعد دراسة عميقة لعادات هؤلاء النساطرة وتقاليدهم وطقوسهم الدينية واتصالاته بشخصياتهم الدينية والقبائلية وبخاصة اتصاله ببطريقهم الأكبر الذي كان مقرّه في بلدة «جولامرك» الواقعة قرب منبع خابور دجلة، توصل إلى أن النساطرة القاطنين في كردستان هم أحفاد الأسباط العشرة المفقودة الذين

= مذهبها فقد استطاعت إقناعهم بعدم لياقة الاسم النسطوري وأن تسميتهم بالأثوريين ترفع من منزلتهم في الأوساط العالمية إذ لا بدَّ أن يكونوا أحفاد ذلك الشعب الآشوري العريق في السؤدد والحضارة فيقول جون جوزيف في كتابه «**النساطرة ومجاوروهم المسلمون**» المطبوع في برنستون سنة 1961: «لقد أطلق على البعثة التبشيرية الإنكليزية التي أرسلت إلى النساطرة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر (1886) اسم (بعثة رئيس أساقفة كنتربري إلى المسيحيين الآثوريين)، وقد كانت هذه البعثة بالذات هي أول من سمى النساطرة أثوريين.. وأن نظرية كون النساطرة أحفاد الأثوريين القدامى لقي دعاية واسعة بلسان المبشّر الإنكليزي ويجرام الذي نشر هذا الاسم وعرّف العالم بالمأساة التي حلّت بأحفاد شلمنصر.. ويضيف إلى ذلك قوله: «ولم يكن هؤلاء النساطرة يدعون أنفسهم بهذا الاسم (أي أثوريين) إلّا منذ القرن التاسع عشر». وهذا ما يوضح أن النساطرة الكلدان الذين تحوّلوا إلى الكثلكة ليسوا أحفاد الكلدان القدامى، وأن اللغة المسماة بالكلدانية والتي تقرأ بها الطقوس الكنسية ليست من اللغة الكلدانية في شيء بل هي اللهجة الآرامية الشرقية أو اللهجة السريانية العراقية. كما أن النساطرة الذين سموا بالأثوريين ليسوا أحفاد الآشوريين القدامى وأن ما يُسمّى باللغة الأثورية لا تعدو كونها اللهجة السريانية الشرقية (آرامية ـ سريانية) «بقلم جورج حبيب، **مجلة التراث الشعبي**، أيلول 1970، ص86 ـ 87».

سباهم الآشوريون وأبعدوهم إلى مناطق آشور النائية، وهي المناطق التي ورد ذكرها في التوراة، أي حلح وخابور ونهر جوزان ومدن مادي[1]. وتتوسط هذه المناطق التي تشمل مساكن أكراد العراق وإيران وتركيا مدينة نصيبين. وقد كانوا على رأي الدكتور غرانت يهوداً عندما نفاهم الآشوريون إلى هذه المناطق الجبلية النائية، ثم لما ظهر السيد المسيح بعد حوالي سبعة قرون اتخذوا تعاليمه ديناً لهم، وذلك نتيجة البعثات المسيحية التي أوفدها الحواريون أتباع السيد المسيح إلى هذه المناطق للتبشير بتعاليم الدين المسيحي الجديد بينهم، وكان ذلك بعد وفاة المسيح بقليل، مما يدلّ على أن الحواريين كانوا على علم بوجود الأسباط العشرة في تلك المناطق وكانوا على اتصال مسبق بهم[2]. وقد حافظ هؤلاء اليهود المتنصرون على تقاليدهم وعاداتهم القديمة التي هي نفس تقاليد وطقوس وعادات ولغة اليهود القاطنين في تلك المناطق نفسها، وهم قلّة بينهم لم يتنصروا، حتى أنه كان من الصعب التمييز بين النساطرة وبين اليهود المجاورين لهم في المنطقة. ويذكر الدكتور غرانت أنه شاهد مخطوطاً بالسريانية لدى المار شمعون الرئيس الروحي للنساطرة يرجع إلى ما قبل أكثر من سبعمائة سنة يؤيد كون النساطرة أحفاد الأسباط العشرة. وقد أورد الدكتور غرانت أدلة كثيرة مفصلة لدعم ما توصّل إليه بخصوص أصل المسيحيين النساطرة في كتاب نشره بالإنكليزية تحت عنوان «النساطرة أو الأسباط

---

(1) (2 مل، 17: 6، 18: 11).

(2) تدل المدوّنات التاريخية المسيحية على أن بعض تلاميذ المسيح الاثنين والسبعين جاؤوا بعد وفاته مباشرة إلى منطقة الأسباط العشرة للتبشير بتعاليمه بينهم، فقد جاء من هؤلاء التلامذة المدعو «مارادي» ومعه «مارماري» فطافا بلاد نصيبين وأثور وكركوك، وبعد وفاة «مارادي» بقي «مارماري» يطوف بلاد حدياب وكركوك وراؤان وكشكر وساليق وميشان والأهواز وتوفي في المدائن سنة 82 للميلاد ودفن في البيعة الكبرى بدور قنى في سرجاد («**تاريخ كلدو وأثور**»، ج2، ص2 «أخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب **المجدل**»، لعمرو بن متي، ص1 ـ 2، «أخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب **المجدل**»، لماري بن سليمان، ص3 ـ 5).

المفقودة» وطبع هذا الكتاب في نيويورك سنة 1843م[1] ثم ترجم إلى الفرنسية وطُبعت الترجمة في باريس سنة 1542[2].

ويرى الدكتور نيوزنر صاحب كتاب «تاريخ اليهود في بابل» أن الأدلة التي أوردها الدكتور غرانت في دعم الرأي القائل بأن النساطرة هم في الأصل من اليهود الذين نفاهم الآشوريون إلى منطقة كردستان ثم تنصّروا بعد ظهور السيد المسيح تقيم حجّة قوية مقنعة لتقبل هذه النظرية، ويشرح الأستاذ نيوزنر بصورة مفصلة انتشار حركة التنصّر التي اجتاحت المجتمع اليهودي في العراق بعد ظهور السيد المسيح مع بيان أسبابها. فكان من جملة الأسباب التي ذكرها التذمر من تحكم وتشديد الربانيين الذين كانوا يدّعون بأنهم يمتلكون الحق والامتياز بتوجيه حياة الطائفة اليهودية حسب تفسيراتهم للتوراة والتلمود. ومن هذه الأسباب أيضاً مضايقات الربانيين بتحريم اختلاط أبناء الطائفة اليهودية بالأغيار المجاورين لهم وقبول أية مساعدة منهم وذلك خوفاً من تأثرهم بالديانات الأخرى غير اليهودية ومنها المسيحية. وكلما كان الوثنيون يشنون حملات الاضطهاد ضد اليهود كان الربانيون يجابهونهم بالمسيح المنتظر الذي ينقذهم من آلامهم ومن عبوديتهم فيملكهم على العالم أجمع ولكن الانتظار الطويل دون تحقيق هذه الأمنية ولّد

---

(1) انظر المراجع التالية:

A. Grant, «**The Nestorians or the Los Tribes, N.Y., 1841; G. Badger, «The Nestorians and their Ritual**», London, 1852, (2 vols.); J. Joseph, «**The Nestorians and their Muslem Neighbours**», Princeton 1961; J. Joseph, d'Avril, «**La Chaldée chrétienne, Histoire des Chaldéens unis et des Nestoriens**», Paris, 1864.

(2) انظر المراجع التالية حول يهود كردستان:

Isaac Ben Zvi. «**Les Juifs Kurdes dand le Judaisme Sephardi**», London, Mai 1954; J. J. Benjamin, «**Cinq années en Orient, 1846-51**», Paris, 1856;sa W. Schwarz, «**Bei den Kurdishen Juden**», Judische Rundshau, 12, VII, 1935; W. Schwarz, «**Die Juden in Sandor**», Judische Rundshau, 2.6., 1935; David d'Bet Hillel, «**the Travels of Rabbi David d'Bet Hillel from Jerusalem through Arabia, Koordistan, Part of Persian and India to Madras**», Madras, 1832; A. Ben Jacob, «**Kurdish Jewish Communities**», Jerusalem, 1961, (in Hebrew); W. J. Fischel, «**The Jews of Kurdistan a Hundred Years ago**», N.Y. 1944.

روح التذمر في نفوسهم. وفضلاً عن ذلك كان الربانيون يفرّقون بين بعض الطبقات من أبناء الطائفة اليهودية مما حمل الطائفة المهانة على الميل لتقبّل الدعوة المسيحية التي تبشّر بالأخوّة والمساواة مقابل التفسيرات التلمودية التي وضعها الربانيون والتي تأمر بالعزلة وتدَّعي بالاستعلاء والتفوّق على بقية الناس من غير اليهود. وقد أقلقت حركة التنصّر بين اليهود وانسياقهم نحو المسيحية الربانيين بحيث أصبحت تجابههم مشكلة حرجة وعويصة في مجرى حياة اليهودية، ولكن كل المحاولات المبذولة في سبيل إيقاف وتجميد هذه الحركة باءت بالفشل وصارت الجماعة المتنصرة تعرف بـ «المينيم» (Minim) والشخص اليهودي المتحوّل إلى النصرانية بـ «المين» (Min) حتى صار كل مسيحي من أصل يهودي يُعرف بهذا الاسم لتمييزه عن بقية المسيحيين[1].

وتتفق التواريخ المسيحية والكتب الطقسية القديمة على أن أولى الجماعات النصرانية في الشرق تألفت من اليهود المتنصرين، وأن تلميذي السيد المسيح أدي وماري هما اللذان بشّرا أولاً بالمسيحية منذ الجيل الأول للمسيح. فكان أول أسقف عين في أربيل عاصمة حدياب من اليهود المتنصرين على يد المارادي في أربيل، ثم تولّى مهمة التبشير بالمسيحية بعد أدي وماري أساقفة من اليهود المتنصرين أيضاً كانت أعمالهم التبشيرية بين اليهود من أبناء طائفتهم وهم مرتبطون معهم بوشائج عائلية ولغوية كان باستطاعتهم التأثير فيهم وإقناعهم بأفضلية الدين المسيحي على الدين اليهودي، إذ جاء هذا الدين الجديد لإصلاح ما أدخل على دين موسى من التحريف والبدع على يد الربانيين من اليهود. فقد تولّى كرسي أسقفية أربيل عشرة أساقفة بين سنة 104 و312 للميلاد كانوا كلهم من اليهود المتنصرين كما تدلّ على ذلك أسماؤهم وهم: بفيدا وشمشون وإسحاق وأبراهام ونوح وهابيل وعبيد مشيحا وحيران وشحلوبا واحاد بوي. وقد ذكرت الأخبار أن بفيدا الذي عيّن أول أسقف في حدياب هو من الذين تتلمذوا على المارادي في أربيل وكان من عائلة يهودية فقيرة وتنصّر نحو سنة 99م. فاضطهده أهله وحبسوه لكنه هرب ولحق بمارادي

---

(1) Neusner, «**The Jews in Babylonia**», III, p. 354.

وهو يكرز بالإنجيل في جبال حدياب وبقي عنده خمس سنوات. ثم جعله أسقفاً وأرسله إلى أربيل سنة 104م. ونصّر بفيدا أهله وكثيرين من سكان المدينة وتوفي سنة 114 ودفن في منزل أهله[1]. وقد مارس بفيدا مهام أسقفية أربيل في زمن ملكي الفرث باقور الثاني (77 ـ 111م) وخوسرو (111 ـ 121م) وكانت إمارة حدياب آنذاك تحت حكم أسرة يهودية حكمت حدياب بين سنة 36 وسنة 115م.

ونخلص مما تقدّم إلى أن التبشير بالمسيحية في الشرق قد تمّ في القرنين الثاني والثالث للميلاد على شكل واسع بين اليهود في منطقة حدياب على يد أساقفة من اليهود المتنصرين، وكان ذلك بعد انقراض حكم السلالة اليهودية في حدياب على يد الإمبراطور تراجان سنة 115م، إذ لم يكن باستطاعة اليهود أن ينتصروا في عهد حكومة حدياب اليهودية لما كان لهذه الإمارة من نفوذ على رعاياها. وهذا يكشف لنا أن اليهود الذين أسرهم الآشوريون ونقلوهم إلى جبال كردستان وهم الأسباط العشرة الذين اعتبرهم المؤرّخون مفقودين واعتبرهم يهود بابل مندمجين بالوثنية كانوا لا يزالون في أماكنهم الجبلية المنعزلة التي استقرّوا فيها ولكن كمسيحيين لا كيهود. ومن الواضح أن هؤلاء اليهود المسبيين وجدوا في منفاهم في هذه المنطقة الجبلية المنيعة خير موئل يحميهم من غارات الفاتحين فحافظوا على كيانهم واستقلالهم ولغتهم السريانية ومعها المذهب النسطوري حيث كانوا في مأمن بعيدين عن ويلات الحروب والغزاة وعاشوا كيهود سبعة قرون قبل المسيح وكمسيحيين زهاء 1800 سنة بعد المسيح، هذا في حين أن إخوانهم من السبي البابلي ومن يهود فلسطين قاسوا من اضطهاد الفرس والرومان الشيء الكثير. ويبدو أن المتنصرين من اليهود كانوا في البداية يحفظون السبت والأحد على أساس أنهم كانوا لا يزالون متمسكين ببعض وصايا الناموس وطقوسه، بينما كان المتنصرون من الأمم لا يحفظون إلّا الأحد ومع توالي الأيام صار الجميع يحفظون يوم الأحد فقط[2].

---

(1) **تاريخ كلدو وأثور** 2: 1 ـ 14.

(2) **قاموس الكتاب المقدس**، الطبعة الجديدة، ص396.

إمارة حدياب اليهودية:

ومما تجدر الإشارة إليه أن إمارة واسعة تدعى إمارة حدياب (Adiabéne) وبالعربية «حمة» ازدهرت في القرن الأول بعد الميلاد في منطقة كردستان نفسها التي نقل إليها يهود مملكة إسرائيل المسبيين (الأسباط العشرة)، وهي من ضمن أراضي آشور القديمة، تقع شرقي نهر دجلة في منطقة كردستان وتمتد بين نهر دجلة وآذربيجان ثم توسّعت لتشمل بلدة نصيبين غرباً. وكان ملك هذه الإمارة المدعو «إيزاط الأول» يهودياً كما كانت الملكة الأم المدعوة «هيلانة» يهودية أيضاً. أما عاصمة الإمارة فكانت مدينة أربيل. وقد اعتلى «إيزاط» عرش الإمارة سنة 36 بعد الميلاد وامتدّ حكمه فيها حتى توفي سنة 60م فخلفه أخوه مونوباس الثاني، وقد دام حكم هذه الإمارة أكثر من 75 سنة عندما غزاها تراجان إمبراطور روما سنة 115 أو 116م[1]. ولما كان أهل حدياب من الآراميين لغة وجنساً فالأرجح أن الملك «إيزاط» كان قبل تهودّه آرامياً وثنياً. وقد التزمت هذه العائلة الملكية اليهودية بولائها وإسنادها لليهود في القدس مما يدلّ على أنه كان هناك منذ القديم اتصال بين الأسباط العشرة في كردستان وبين اليهود في القدس. ويقول الأب أدي شير في وصف إمارة حدياب ما هذا نصّه: «أما حدياب وسمّاها العرب حزة فموقعها بين الزابين وكانت تمتد إلى أثور ـ وإلى نصيبين أيضاً وكانت قاعدتها مدينة أربيل وفي الجيل الأول للمسيح كان يملك فيها ملك اسمه إيزاط، قال عنه يوسفوس المؤرّخ اليهودي إنه اعتنق الديانة اليهودية على يد حنينا، وقد اشتهرت أمه هيلانة أثناء المجاعة التي حدثت في زمانها في أورشليم عندما جلبت القمح من مصر ووزعته على أهل أورشليم، وفي أيام إيزاط دخلت نصيبين تحت حكم أربيل»[2].

وكانت إمارة حدياب في عهد حكم إيزاط موالية لحكم الفرثيين لذلك

(1) Ibid. III, p. 354.

(2) «**تاريخ كلدو وأثور**»، ج 1، ص 178 ـ 179.

كانت تتمتع بالإسناد من ملوكهم، وقد لعبت دوراً رئيسياً في العلاقات السياسية والعسكرية في الشرق الأدنى فغذت بموافقة الفرثيين وتأييدهم ثورة اليهود ضد الرومان بين سنة 66 وسنة 70 للميلاد، كما كانت تسند الفرثيين في حروبهم مع الرومان[1].

ويقول الدكتور غرانت في كتابه المتقدّم ذكره أن عدد النساطرة في منطقة حدياب التي كانت تحت حكم ملك يهودي خلال القرن الأول للميلاد يبلغ مائة ألف نسمة، وقد كان أجداد هؤلاء يهوداً من الأسباط العشرة قبل تنصّرهم في أعقاب ظهور المسيح وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

كما ويذهب الدكتور غرانت إلى القبائل اليزيدية القاطنة في كردستان هم كالنساطرة من أحفاد الأسباط العشرة اليهودية[2].

وفي الوقت نفسه الذي اعتلى فيه إيزاط الأول على عرش حدياب في المنطقة الكردية توطّدت في قلب منطقة بابل إمارة يهودية حكمت خمسة عشر عاماً بين سنتي 20 و35 بعد الميلاد[3]. كما أن هناك سلالات يهودية حكمت في القرن الأول للميلاد في أرمينيا وما جاورها من المقاطعات كأيادوشيا وأيتوريا وأبيلين[4].

ولا بدَّ من التوضيح هنا أن حكام هذه الإمارات اليهودية كانوا في الغالب من أهل البلاد التي حكموها،لذلك فعندما نقول إن إمارة يهودية وجدت في هذا القطر أو ذاك في تلك الأزمان فهذا لا يعني أن يهوداً جاؤوا من فلسطين واستولوا على الحكم في ذلك القطر. فإمارة حدياب مثلاً كان حاكمها مونوباسّ الأول وثنياً من أهل البلاد تزوَّج من أخته هيلينا فأنجبت منه إيزاطا الأول، والظاهر أن الوثنيين كانوا يحلّلون الزواج من الأخت. وفي

(1) انظر: نيوزنر، «**تاريخ اليهود في بابل ـ العهد الفرثي**»، ص54 ـ 64؛ «**تاريخ كلدو وأثور**»، ج2؛ سليمان صايغ، «**تاريخ الموصل**»، ج1، ص19.
(2) انظر الملحق في آخر كتاب الدكتور غرانت.
(3) نيوزنر، «**تاريخ اليهود في بابل**»، ص 54 هامش 1.
(4) المرجع السابق، ص 62.

تلك الغضون اعتنق إيزاط الأول الديانة اليهودية وهو صبي بتأثير أحد التجار اليهود، كما اعتنقت أمه هيلانة الدين اليهودي أيضاً تحت التأثير نفسه. فلما مات مونوباس الأول خلفه ابنه إيزاط الأول المتهوِّد على العرش، وعلى الرغم من النتائج السياسية المترتبة على هذا التحوّل في المذهب وخاصة بالنسبة للأسرة الحاكمة في البلد فإن ذلك لم يغيّر ما كان الناس عليه من حيث قوميتهم وعاداتهم وتقاليدهم قبل التحوّل المذكور. ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن التحوّل من الوثنية إلى اليهودية أو إلى المسيحية بعد ظهورها كان أمراً مألوفاً في الشرق في هذه الفترة بالذات، كما قامت في الوقت نفسه حركة بين اليهود لاعتناق المسيحية. وقد استمرّ هذا التذبذب عدّة قرون حتى كان ظهور الإسلام فقضى على هذا التذبذب حيث دخل أكثر الوثنيين في الإسلام كما دخل بعض اليهود وبعض المسيحيين في الإسلام أيضاً.

مستوطنة «جزيرة الفيلة» اليهودية في مصر:

وقد عُثر في مصر على وثائق نُشرت بين سنتي 1901 و1911 تشير إلى أنه كانت هناك مستوطنة يهودية على هيئة حامية عسكرية يسمَّى زعيمها وكاهنها الأعلى ييدونيا (Yedonia) كانت قد أُنشئت على الحدود الجنوبية المصرية مقابل أسوان على جزيرة في النيل سمِّيت باليونانية «اليفانتين» للتعبير عن اسمها المصري القديم «يب» ومعناه مدينة الفيلة. وتعود هذه الوثائق التي كُتبت بالآرامية إلى القرن الخامس قبل الميلاد، أي إلى عصر اكسركسيس (486 ـ 465 ق.م.)، وأرتاكسيس الأول (465 ـ 425 ق. م.) ودارا الثاني (423 ـ 404 ق. م) من عهد الأخمينيين الذين حكموا فارس أكثر من قرنين (550 ـ 330 ق.م.).

وتبرز أهمية هذه الوثائق من حيث إنها تلقي ضوءاً على ما كانت مصر في هذه الحقبة من الزمن وبخاصة عندما صارت مصر تحت حكم الأخمينيين في عهد أرتاكسيس الأول ودارا الثاني.

وقد اختلفت الآراء حول أصل هذه المستوطنة اليهودية القديمة وأسباب

وجودها هناك في تلك الأزمان. فيرى أويسترلي M. Oesterly أن أشور بانيبال (669 ـ 626 ق.م.) عندما قام بحملته على مصر جنّد جيشاً من الأسباط العشرة التي سباها الآشوريون إلى العراق وإلى ميديا وأسّس منهم حامية لحماية الحدود الجنوبية لمصر بعد انفصال الحبشة عنها، في حين يرى سبنسر (M. S. Spinner) أن أهل الحامية هم من اليهود الذين سباهم الآشوريون إلى طوروس. وقد ذكر أنَّ منسى ملك يهوذا (686 ـ 641 ق.م.) قد مدَّ أشور بانيبال في حملته على مصر بالرجال وذلك كما ورد في رسالة أريستيا أن الملك يساميتيك الثاني (594 ـ 589 ق.م.) كان معه جنود مرتزقة من الساميين في حملته على الحبشة سنة 590 ق.م. ويشير هيرودوتس إلى وقوع تمرد في حامية اليفانتين في زمن الوثائق (450 ق.م.) فيذكر أن اليفانتين هي إحدى محميات الفرس في مصر.

ويستدلّ مما تنطوي عليه وثائق اليفانتين أن رجال الحامية اليهود كانوا يتكلمون الآرامية وهي اللغة نفسها التي كانوا يتكلمونها في فلسطين وكان لهم هيكل لإلٰههم «يهوه» مثل الإلهة «عانات» الكنعانية مما يدلّ على أن هذه الحامية جيء بها من كنعان[1].

الغزو الكلداني وإزالة مملكة يهوذا:

وبعد انقراض الدولة الآشورية بسقوط نينوى سنة 612 ق.م.[2] اقتسم الماذيون والكلدانيون ممتلكاتها فوقعت حصة الكلدانيين في سوريا والعراق، وتأسست على أثر ذلك الدولة البابلية الكلدانية التي دام حكمها 73 سنة بين سنة 612 و539 ق.م.[3]. والذي يهمنا من حكم هذه الدولة قضاؤها على مملكة يهوذا وسبي اليهود إلى بلاد بابل، وقد أنجزت هذه العملية على عهد

(1) Sami S. Ahmed «**The Jewish Colony at Elephantine**». The Iliff Review, Vol XX XI, no. 2, Spring 1965, pp. 11-19; A. Lods, «**Les Prophètes d'Israël**», paris, 1950, pp. 344-353.

(2) انظر ما تقدّم عن نهاية الدولة الآشورية في الفصل الأول.

(3) انظر ما تقدّم عن الكلدانيين في الفصل الأول.

«نبوخذ نصر الثاني»، أعظم ملوك هذه الدولة، والذي حكم البلاد 43 سنة بين سنة 605 و562 ق.م. وذلك في حملتين الأولى سنة 597 ق.م. والثانية في سنة 586 ق.م. وأهم مصادرنا عن هذا الحدث التاريخي هو التوراة، لأن أكثر كتابات هذا الملك تنحصر فيما سجّله من مدوّنات في وصف مشاريعه العمرانية. فتشير التوراة إلى أن الملك «يهوياقيم» ملك يهوذا (608 ـ 597 ق.م.) تمرّد على «نبوخذ نصر» على الرغم من تحذير النبي «أرميا» له، وذلك بعد أن أظهر الطاعة والخضوع إلى العاهل الكلداني مدة ثلاث سنوات. ثم تضيف التوراة أن «نبوخذ نصّر» أوعز في بادىء الأمر إلى السوريين (الآراميين) والموآبيين والعمونيين أن يغزوا مملكة يهوذا حيث كانت كل هذه الدويلات من النيل إلى نهر الفرات تحت قبضته[1]. ثم شنّ «نبوخذ نصر» بعد ذلك (سنة 597 ق.م.) حملة على «يهوياقيم» فحاصر أورشليم، وأثناء هذا الحصار توفي «يهوياقيم» وخلفه ابنه «يهوياكين» الذي اضطر إلى الاستسلام. فسبى «نبوخذ نصر» كل يهود أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف صبي وجميع الصناع والأقيان، ولم يبق أحد إلّا مساكين شعب الأرض كما سبى «يهوياكين» وأمه ونساءه ورجاله من أورشليم إلى بابل. وأخرج «نبوخذ نصّر» جميع خزائن بيت الملك وكسر كل آنية الذهب، ثم عيّن «صدقيا» عم «يهوياكين» خلفاً ليهوياكين الذي أكّد ولاءه للملك الفاتح[2]. وقد تمّ إسكان المسبيين وعوائلهم في منطقة تدعى «نهر الخابور» قرب نيبور (نفر)[3]. وهذا كان خلاف عادة الآشوريين الذين كانوا يشتتون أسراهم في أماكن مختلفة وبعيدة لمنعهم من التكتل والتجمع وممارسة تقاليدهم وثقافتهم، فمكن ذلك اليهود من التجمّع في المنفى والاستمرار في ممارسة تقاليدهم وتكوين مجتمعهم المنعزل الخاص بهم.

---

(1) (2 مل، 24: 1 ـ 6).
(2) (2 مل، 24: 9 ـ 17).
(3) أن اسم «نهر الخابور» يشمل أكثر من نهر واحد، فهناك نهر الخابور في شمال الفرات ونهر الخابور في شمال نهر دجلة، والمقصود هنا هو غير هذين النهرين.

كان هذا هو السبي الأول ثم تبعه السبي الثاني سنة 586 ق.م.، وهذا وقع على أثر نقض «صدقيا» لعهده بالولاء لـ «نبوخذ نصر» إذ دخل في حوالي سنة 589 ق.م. في تحالف مع المدن السورية والفلسطينية بتحريض من «حوفرا» ملك مصر (خلف نيخو الثاني) الذي كان يطمح في استعادة سيطرة مصر على سوريا. وهكذا فقد وضع «صدقيا» مصيره مع مصر وحلفائها على رغم محاولة أرميا إبعاده عن هذا الحلف الذي كان موجهاً ضمناً ضد «نبوخذ نصر»، فغضب «نبوخذ نصر» غضباً شديداً وجاء هذه المرة بنفسه على رأس حملة قوية إلى سوريا الشمالية وعسكر في ربلة على نهر العاصي، وكان ذلك سنة 587 ق.م.، فأرسل «نبوخذ نصّر» من يحاصر أورشليم، إلا أن دخول «حوفرا» ملك مصر إلى فلسطين اضطر البابليين إلى رفع الحصار لمحاربته، فظن اليهود أن النصر بات حليفهم، ولكن النبي أرميا حذرهم وأبان لهم بأنهم يخدعون أنفسهم بهذا النصر لأنه وقتي فوضعوه في السجن[1]. ووقع كما تنبأ أرميا فعلاً فقد تمكّن البابليون من صدِّ المصريين وإرجاعهم على أعقابهم، ثم أعادوا بسط الحصار على أورشليم في الحال، ولم يمض وقت طويل حتى تفشّت المجاعة وربما الوباء في المدينة مما اضطر اليهود أن يرضخوا ويستسلموا، فدخلت الجيوش البابلية المدينة في اليوم الرابع من شهر تموز سنة 586 ق.م. أما صدقيا فهرب هو وأفراد عائلته ولكن البابليين لحقوا به في سهول أريحا حيث قبضوا عليه وحملوه إلى «ربلة» حيث كان مقر معسكر الملك نبوخذ نصر، وهناك ذبح أولاده أمام عينيه ثم فقئت عيناه وأُخذ مكبلاً مع الأسرى إلى بابل وكان النبي دانيال بين المسبيين. أما أورشليم فخربت ودمرت تدميراً كاملاً فأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء وسلبت الخزائن ونُقلت إلى بابل، وقد خمّن عدد الأسرى الذين سيقوا إلى بابل ليلتحقوا باليهود من السبي الأول بحوالي 50000 شخص ثم وجّه «نبوخذ نصّر» بعد ذلك جيشه إلى المدن الفينيقية والسورية فأخضعها إلّا مدينة صور فقد تعذّر عليه فتحها لكونها جزيرة في البحر، وقد دام حصارها

(1) أرميا 38: 2.

13 سنة (585 ـ 573 ق.م.) ولم ينته إلّا بعقد صلح قبلت صور بموجبه تجديد ولائها لبابل ودفع الجزية[1].

وهكذا قضي على مملكتي إسرائيل ويهوذا الهزيلتين، وكان عدد الملوك الذين حكموا في كلّ منهما عشرين ملكاً، وقد دام حكم إسرائيل 209 سنوات وذلك بين سنة 931 ق.م. و724 ق.م. ودام حكم يهوذا 345 سنة وذلك بين سنة 931 و586 ق.م.

وبعد تخريب نبوخذ نصّر لبيت المقدس وسبي بني يهوذا إلى بابل ورث الأدوميون ديار يهوذا الجنوبية من الخليل إلى بئر السبع فشرقاً إلى وادي عربة حيث يتّصل بتخوم أدوم. ومن الأدوميين الذين حكموا فلسطين في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد هيرودس الكبير (37 ـ 4 ق.م.)، ومن بعده أبناؤه أرخيلاوس وأنتيباس وفيليب. وكان الأدوميون عرباً مواطنهم على حدود الصحراء الشرقية في جنوبي فلسطين وهم من نسل عيسو كما تقول التوراة.

الموسويون بين الوثنية والتوحيد:

قلنا في الفصل السابق أن الموسويين أخذوا بالحضارة الكنعانية واقتبسوا لغة الكنعانيين وتقاليدهم وثقافتهم ولم يستطيعوا التخلّص من تأثير الكنعانيين حتى على ديانتهم، فإذا استعرضنا تسلسل الحوادث التي دوّنتها التوراة ذاتها نجد أن تاريخ اليهود منذ عهد موسى حتى زمن السبي يتميّز، لفترة سبعمائة عام، بصراع بين التوحيد والوثنية. فمنذ عهد موسى وهو لم يزل حياً عاد أتباعه يعبدون العجل ويرقصون حوله وزاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصاهم به الله[2]. وتروي التوراة كيف غضب موسى عندما أبصر العجل والرقص حوله فطرح لوحي التوراة من يديه وكسرهما في أسفل الجبل[3]، ثم عاود كتابة

(1) Rogers, «Cuneiform Parallels», pp. 360-363.

(2) (خر، 32: 7 ـ 8).

(3) (خر، 32: 19 ـ 20).

لوحين آخرين مثل الأولين[1] وخاطب الشعب قائلاً: «أنا عارف تمردكم... هو ذا وأنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحري بعد موتي... لأني عارف أنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم به ويصيبكم الشر في آخر الأيام»[2]. وفي هذا دليل واضح على عدم اعتماد النبي موسى على بني قومه فقد تنبأ قبل موته بأنهم سوف ينصرفون عن الوصايا العشر التي أوصاهم بها الله.

والظاهر أن الموسويين عبدوا الرب كل أيام يشوع وكل أيام الشيوخ (القضاة) على ما ذكرته التوراة[3]، إلا أنهم عادوا بعد ذلك «فعبدوا البعليم وتركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت» بل زنوا وراء آلهة أخرى وسجدوا لها[4]، فسلّط عليهم الرب كوشان رشعتائيم ملك آرام النهرين[5] وفي زمن عجلون ملك موآب عاد الموسويون وعبدوا آلهة الوثنيين[6] وكذلك عبدوا الأوثان في عهد يابين ملك كنعان الذي ملك في حاصور[7]، ثم عادوا فزنوا وراء البعليم وجعلوا لهم بعل بريث إلٰهاً[8]، ورجعوا فعبدوا آلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين[9].

وتزعم التوراة أن الملك سليمان ذاته (960 ـ 925 ق.م.) انحرف في أخريات أيامه وأشرك بالله إذ «أحبّ نساءً غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل (الموسويين) لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم

---

(1) (خر، 34: 1)؛ (تث، 10: 1 ـ 2).
(2) (تث، 31: 27 ـ 30).
(3) (يش، 24: 31)؛ (قض، 2: 7).
(4) (قض، 2: 11 ـ 13 و17، 3: 5 ـ 7).
(5) (قض، 3: 8).
(6) (قض، 3: 12 ـ 13).
(7) (قض، 4: 1).
(8) (قض، 8: 33)
(9) (قض، 10: 6، 13: 1).

يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري فأمالت نساؤه قلبه، وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلٰهه كقلب داود أبيه.. حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم ولمولك رجس بني عمون، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كنّ يوقدن ويذبحن لآلهتهن»[1]. والظاهر أن هذه المرتفعات التي بناها سليمان قبالة أورشليم بقيت قائمة تُعبد فيها الأصنام حتى هدمها يوشيا ملك يهوذا (639 ـ 608 ق.م.) وبذلك تكون قد بقيت قائمة أكثر من 350 عاماً[2].

وتزعم التوراة كذلك أن يربعام الأول، أول ملك على إسرائيل بعد الانقسام (931 ـ 909 ق.م.)، أقام عجلين من ذهب وضع أحدهما في «بيت إيل» وجعل الآخر في «دان»، وبنى بيت المرتفعات وصيّر كهنة من أطراف الشعب لم يكونوا من بني لاوي وأخذ يذبح للعجلين. وهذا هو الذي حمل النبي هوشع على أن يُسمّي «بيت إيل» بيت عجول أون أي بيت الأصنام[3]. والظاهر أن يربعام خشي أن ترجع المملكة إلى بيت داود فيرجع قلب الشعب إلى سيدهم رحبعام ملك يهوذا إذا صعد الشعب ليقربوا ذبائح في بيت الرب في أورشليم[4] فرجع هو ورعاياه إلى عبادة الأصنام.

وكانت السامرة أيضاً مركزاً لعبادة الأصنام، ففي عهد آخاب بن عمري سابع ملوك إسرائيل (873 ـ 853 ق.م.) أقيم معبد للبعل في السامرة عبده آخاب وسجد له[5] وقد تبعه في ذلك خلفه الملك أحزيا فمشى على تلك

---

(1) (1 مل، 11: 1 ـ 8).
(2) (2 مل، 23: 13 ـ 14).
(3) (هو، 10: 5 و8).
(4) (1 مل، 12: 25 ـ 29).
(5) (1 مل، 16: 20 ـ 23).

السيرة مع أنه أزال هيكل البعل الذي أقامه أبوه آخاب[1]. ولما اعتلى العرش الملك ياهو (841 ـ 813 ق.م.) أحرق هيكل البعل وذبح كهنته[2].

ولم يكن ملوك إسرائيل قد انفردوا في الوثنية والإشراك بالله، فقد سار رحبعام أول ملك على يهوذا (931 ـ 913 ق.م.) بعد الانقسام على السيرة نفسها التي اتبعها أول ملك لإسرائيل، إذ «ترك شريعة الرب هو وكل إسرائيل معه»[3]، كما أن الملك آحاز (735 ـ 715 ق.م.) «سار في طريق ملوك إسرائيل وعمل أيضاً تماثيل مسبوكة للبعليم وأوقد في وادي ابن هنّوم[4] وأحرق بنيه بالنار حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل[5]، وسار على هذه السيرة أيضاً الملك منسَّى (686 ـ 641 ق.م.) فأقام مذابح للبعليم وعمل سواري وسجد لكل جند السماء وعبدها... وعبّر بنيه في النار في وادي ابن هنوّم.. ووضع تمثال الشكل الذي عمله في بيت الله الذي قال الله عنه لداود ولسليمان ابنه في هذا البيت وفي أورشليم التي اخترت من جميع أسباط إسرائيل أضع اسمي إلى الأبد»[6].

والظاهر من مطاوي التوراة أن عبادة بني إسرائيل (الموسويين) للأوثان استمرّت بعد الانقسام حتى تحققت نبوءة رجل الرب ليربعام، فحكم يوشيا سنة 639 ق.م. في يهوذا وهو من بيت داود كما جاء في النبوءة، فهدم جميع المذابح والمعابد التي كانت قد أُقيمت في إسرائيل وفي يهوذا وأحرقها وخرّب أصنامها وهياكلها وحطّم جميع بيوت المرتفعات الوثنية وذبح كهنتها. ومن ضمن هذه المرتفعات التي قبالة أورشليم التي بناها سليمان ملك إسرائيل

(1) (2 مل، 3: 1 ـ 2).
(2) (2 مل، 10: 18 ـ 30).
(3) (2 أخ، 12: 1 ـ 2).
(4) يقع هذا الوادي جنوبي أورشليم وغربيها يُسمّى الآن بوادي ربابة ويُسمَّى في التوراة «وادي هنوم» (يش، 15: 8)، (نح، 11: 30) ووادي ابن هنوم (يش، 15: 8، 18: 16) ووادي بني هنوم (2 مل، 23: 1). (انظر الملحق الأول).
(5) (2 أخ، 28: 2 ـ 3).
(6) (2 أخ، 33: 2 ـ 7).

لعشتروت ولكموش ولملكون آلهة الصيدونيين والموآبيين والعمونيين، كما هدم المذابح التي عملها ملوك يهوذا في بيت الرب وأخرج السارية من بيت الرب خارج أورشليم إلى وادي قدرون[1] وأحرقها في وادي قدرون ودفنها إلى أن صارت غباراً[2]. وبذلك يكون اليهود قد عادوا إلى عبادة الأصنام واستمروا عليها حوالي 300 عام بعد الانقسام مباشرة.

وإذا أخذنا بالمثل القائل إن الناس على دين ملوكهم اتّضح لنا تعليل رجوع اليهود في إسرائيل ويهوذا إلى الوثنية، مما يدلّ على أنهم كانوا أقلية ضئيلة أمام سكان البلاد الوثنيين الأصليين الذين أخذوا يتكاثرون على حساب اليهود، ومعنى ذلك أن الديانة الوثنية كانت هي الغالبة في البلاد وأن اليهود كانوا أقلية طيلة مدة بقائهم فيها. وهكذا بقيت فلسطين منذ الألف الثالثة قبل الميلاد حتى السبي البابلي الأخير (أي ما يقارب 2400 سنة) كنعانية في ثقافتها ولغتها وديانتها الوثنية، ولم يكن لليهودية أي دور ثقافي في هذه الفترة[3].

العبرية واليهودية والتوراة:

يتّفق الباحثون على أن الموسويين بعد أن استقرّوا في أرض كنعان في القرن الثالث عشر قبل الميلاد أخذوا بالثقافة الكنعانية وبحضارتها بما في ذلك اللغة الكنعانية التي كان يتكلم بها أهل البلاد ولم تكن قد تكوّنت لغة عبرية بعد. ولا شك في أن لغة هؤلاء الموسويين عندما جاؤوا إلى كنعان كانت اللغة المصرية، ولكن هذا لا يعني أنهم لم يتعرّفوا على كنعان، إذ كان

---

(1) يقع هذا الوادي شرقي مدينة أورشليم، ومعنى وادي قدرون الوادي الأسود ويُسمَّى أيضاً «وادي يهوشافاط» وهو بين سور المدينة من الجانب الشرقي وجبل الزيتون. ويعرف اليوم بوادي ستي مريم وقد ورد ذكره في التوراة عند ذكر هروب الملك داود من وجه ابنه أبشالوم (2 صم، 15: 23 و30). (انظر الملحق الأول «أورشليم في أقدم عصورها»).

(2) (2 مل: ص 23).

(3) انظر ما تقدّم في الفصل الرابع «ملاحظات ختامية» وما تقدّم في هذا الفصل «عهد الملوك».

الاتصال بين المصريين والكنعانيين قائماً منذ أقدم العصور، وذلك بحكم الحدود المشتركة ونتيجة فتوحات المصريين في الشرق وسيطرتهم السياسية على كنعان. ويستخلص من ذلك أن الموسويين كانوا أقلّية بين السكان وأن الحضارة الكنعانية كانت هي السائدة حتى في عهد الملوك في القرن العاشر قبل الميلاد، أي بعد زمن موسى بحوالي ثلاثمائة عام بدليل أن الديانة الوثنية الكنعانية كانت هي السائدة في البلاد وبقيت هي السائدة حتى السبي البابلي وما بعده إذ تقول التوراة إن الملك سليمان نفسه بنى مرتفعات لعبادة آلهة الوثنيين، كذلك تؤكد التوراة أن ملوك إسرائيل ويهوذا كانوا يدينون بالوثنية وصارت ديانتهم الرسمية واستمروا على هذه الحال زهاء ثلاثمائة عام بعد الانقسام مباشرة. ولما كانت الديانة هي أساس الثقافة فهذا يدلّ بوضوح على أن الموسويين لم يكوّنوا أية ثقافة خاصة بهم خلال وجودهم في فلسطين وإنما اقتبسوا الثقافة الكنعانية بما في ذلك اللغة والديانة من أهل البلاط الأصليين أي من الكنعانيين وبذلك كانوا أقلية في البلاد في جميع أدوار وجودهم في فلسطين.

ومن الثابت أن هؤلاء الموسويين أخذوا بالآرامية بعد انتشارها في الشرق فصاروا يتكلمون بها فيما بينهم، وفي غضون ذلك تكوّنت لدى كهنتهم اللهجة الآرامية الخاصة بهم، وهي التي صارت تُعرف فيما بعد بالعبرية، وأخذوا يكتبون بها فاستعملوا حروفاً فينيقية قديمة في بداية الأمر ثم أخذوا يكتبون بالخط السامري. وبعد السبي البابلي وضع الكهنة في الأسر في بابل توراتهم بهذه اللهجة المقتبسة من اللغة الآرامية لذلك صارت تُعرف بآرامية التوراة وقد استعملوا الخط المسمّى بالخط المربع الذي اقتبسوه من أقدم الأقلام الآرامية بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد فحفظوه إلى يومنا هذا ويُسمَّى الآن بالخط الآشوري المربع. وهذه هي بالطبع غير لغة موسى المصرية التي نزلت فيها توراة موسى الأصلية، كما أن مضمون هذه التوراة غير مضمون توراة موسى. فهذه التوراة يصحّ تسميتها بتوراة الكهنة التي وضعوها في الأسر في بابل فأضفوا عليها القدسية وفرضوها على أتباعهم بعد

رجوع بعضهم إلى فلسطين على عهد عزرا (كاتب شريعة إلٰه السماء) كما تلقبه التوراة[1]. وأقدم ما وصل إلينا من هذه التوراة مخطوطات قمران التي ترجع إلى القرنين الثاني والأول قبل الميلاد[2].

ومع أن هذه التوراة كتبت بالعبرية (آرامية التوراة) فقد كان اليهود يتكلمون الآرامية فيما بينهم واقتصرت العبرية هذه على كتب التوراة وحدها، أما اليهود في مختلف بلدان العالم فكانوا وما زالوا يتكلمون بلغة الأقطار التي سكنوها فيقرأون التوراة دون أن يفهموا معناها. وأوضح دليل على أن اللغة العبرية أصبحت لغة مهجورة ميتة هو أن آخر من بقي من اليهود في العراق الذين استوطنوا المناطق الجبلية المنعزلة في شمال العراق (منطقة الأكراد) كانوا وما زالوا يتكلمون باللهجة الآرامية وليس بالعبرية[3]. وهذا ما يبرهن على أنّ العبرية لم تكن من اللغات الحية إذ بقيت مقتصرة على كتب التوراة وحدها، وأن ما يبذله الصهاينة اليوم لإحياء هذه اللغة الميتة بغية تكوين تراث ولغة ليجعلوا منهما قومية يهودية تستند إلى لغة يهودية قد ينجح في مجال ضيق داخل إسرائيل الحالية ولكن أساس هذه القومية أساس من الرمل لن يلبث أن ينهار بزوال وجود إسرائيل. وفي ذلك يقول ليون أبراهام: «إن العبرية قد اختفت باكراً كلغة حيّة وتبنى اليهود في كل مكان لغات الشعوب المجاورة، ولكن استعمل هذا التبني اللغوي عادة بلهجة جديدة حيث ترد بعض العبارات العبرية، ونجد في حقبات مختلفة من التاريخ لهجات عبرية عربية، وعبرية فارسية، وعبرية بروفنسية، وعبرية برتغالية، وعبرية إسبانية الخ ـ هذا عدا عن الإشارة إلى العبرية الألمانية التي أصبحت اللغة اليديشية في عصرنا الحاضر»[4].

وقد درج أكثر الباحثين على اعتبار وجود لغة عبرية قديمة وعبرية متأخرة

---

(1) (عز، 7: 21).

(2) انظر ما تقدّم «أقدم الآثار الخطية للتوراة» في الفصل الثالث.

(3) W. J. Fischel, «**The Jews of Kurdistan a Hundred Years ago**» pp. 205, 215-216; J.H. Gotfheil, «**The Judeo-Aramaie Dilect Salamas Journal of Amonian Oriental Society**», 1893, XV.

(4) ليون أبراهام «**المفهوم المادي للمسألة اليهودية**» الترجمة العربية، ص 31.

في حين أنه لا توجد سوى لغة عبرية واحدة هي التي كُتبت بها التوراة في الأسر في القرن السادس قبل الميلاد وما بعده. والحقيقة أن المقصود بالعبرية القديمة هي اللغة الكنعانية القديمة لغة أهل البلاد الأصلية لا غير وهي التي أخذ بها الموسويون بعد عصر موسى إذ لم تظهر العبرية إلا بعد أن أخذ الكهنة اليهود يدوّنون توراتهم في لهجة «آرامية التوراة» المقتبسة من الآرامية[1]، مع العلم أنه ليس لدينا أي دليل على أنه كانت في البلاد في عصر الملوك لغة غير لغة سكان فلسطين الأصليين، وهي لغة الكنعانيين القديمة.

والحقيقة الثابتة التي تظهر لنا جلياً مما تقدّم أن اليهودية، أي الدين اليهودي المتمثّل بالتوراة الحالية، تبدأ بعد تدوين الكهنة لهذه التوراة في الأسر وإذاعة شريعتهم هذه على لسان عزرا (كاتب شريعة الإله) في القرن الخامس قبل الميلاد، وهي غير الشريعة التي نزلت على موسى قبل ثمانمائة عام والتي انحرف عنها اليهود بعد اغتيال موسى على بعض الأقوال، وهذه الديانة اليهودية هي صهيونية اليوم بعينها، إذ تهدف الصهيونية الحالية، إلى إحياء اللغة العبرية الميتة واستغلال عاطفة الدين الذي صيغ في الأسر في بابل للتصميم على إقامة دولة يهودية في فلسطين. وهذه الديانة القائمة على مبدأ الاستعمار واغتصاب حقوق الغير بالقتل والإبادة لم يكتب لها البقاء لأنها لم تكن تستند إلى مقوّمات ثقافية وتراث أصيل، لذلك سرعان ما قضي عليها بعد أن ظلّت تتعثّر في وجه الاضطهاد ومقاومة أهل البلاد حتى قضي عليها على يد الرومان في عام 70 ب.م. وسوف تلقى صهيونية هذا الزمان المصير نفسه حتماً عاجلاً أو آجلاً تحقيقاً للمبدأ القائل: «إن التاريخ يعيد نفسه».

اليهود في زمن الفرس الأخمينيين:

كانت تمثّل جماعة السبي البابلي بقايا جماعة موسى، وهم في الأصل خليط من الجنود المصريين والهكسوس ولا صلة لهم ببني إسرائيل كما أوضحنا فيما تقدّم، ثم اختلط معهم من اعتنق اليهودية من مختلف الأجناس،

---

(1) انظر ما تقدّم «ملاحظات ختامية» في الفصل الرابع.

وقد جاءت تسميتهم باليهود من مملكة يهوذا المنقرضة، وقد صارت هذه التسمية تشمل جميع المنتسبين إلى الديانة اليهودية في مختلف أنحاء العالم، وما زالت تُستعمل حتى يومنا هذا بهذا المدلول نفسه. ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن تلك البقايا من أتباع موسى قد استفادت في أثناء وجودها في بابل من حضارة البابليين وثقافتهم فاقتبست الكثير منها وخاصة ما يتعلّق بفنون الزراعة والتجارة، وأخذ أكثرها يمارس الزراعة التي تعتمد على الإرواء الدائم بما في ذلك أساليب شقّ الجداول وتطهيرها وطرق الإرواء(1). ومارست في بابل شعائرها الدينية وواصل كهنتها أعمالهم ومنها كان نشوء التعاليم اليهودية المعروفة باسم «التلمود البابلي»(2)، حتى ليقال إن السبي البابلي كان عاملاً قوياً في تطوير الدين اليهودي في القرون التالية، وكان من المدن التي أسسها اليهود في منطقة بابل: نهر دعة، وفومبديثة، وسورا وماحوزي ونهر بيكود وهوزال وتل أبيب (تل أبان) وكفري.

ولما فتح كورش الأخميني الفارسي بلاد بابل (539 ـ 538 ق.م.) سار في فتوحاته حتى احتل سوريا وفلسطين ومن ضمنها أورشليم، فسمح لمن أراد من أسرى نبوخذ نصّر (أسر 597 وأسر 586 ق.م.) بالرجوع إلى فلسطين، وأعاد إليهم كنوز الهيكل التي كان قد سلبها نبوخذ نصّر وأمر بإعادة بناء الهيكل في أورشليم على نفقة بيت الملك(3)، فعاد فريق منهم. ويرجّح المؤرّخون أن الذين رجعوا انحصروا في أولئك الذين لم يفلحوا كثيراً في الأرض الجديدة والمتعصبون لإعادة بناء الهيكل، لأن الدلائل تشير إلى أن هناك عدداً غير قليل أصاب النجاح في بلاد بابل وأثرى حتى أصبحت لديه ممتلكات كثيرة فآثر البقاء وعدم المجازفة بمغامرة مجهولة المصير. وقد عيّن أول حاكم على الجالية اليهودية شخص يدعى «زربابل» وهو تابع للدولة

---

(1) انظر: S. Daiches, «**The Jews in Babylonia**», 1910; Rabbi J. Newman, «**The Agricultural Life of the Jews in Babylonia**», 1932.

(2) انظر ما تقدّم عن التلمود في الفصل الثالث.

(3) (عزرا 6: 3 ـ 7، 1: 7 ـ 11).

الفارسية، فشرع «زربابل» هذا في بناء الهيكل إلا أن الأقوام المجاورة كالحوريين والحثيين والعمونيين والأدوميين احتجوا على ذلك وهددوا بالعصيان، فأصدر «سمريدس» خلف قمبيز الثاني سنة 522 ق.م. أمراً بتوقيف عملية البناء، ولكن دارا الأول أتاح لهم ذلك وأتموا بناء الهيكل على عهده سنة 515 ق.م..

وكان اليهود يتكلمون فيما بينهم في بابل باللغة الآرامية، إذ كانوا في بابل وحتى بعد عودتهم إلى أورشليم يتكلمون اللغة الآرامية، وقد اقتصرت العبرية على الكتب الدينية وعلى الكتب المقدسة[1]، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

اليهود في زمن الإغريق:

وكان اليهود الذين رجعوا إلى فلسطين في عهد الفرس قد تجمّعوا في منطقة أورشليم على الأكثر وقد تمتعوا خلال حكم الفرس ببعض الامتيازات الخاصة بحرية ممارسة شعائرهم الدينية، وما إن حلّ العهد الإغريقي (332 ـ 64 ق.م.) حتى أصبح وضعهم يتأرجح بين المدّ والجزر فتارة يقعون تحت حكم البطالمة في مصر وتارة أخرى تحت حكم السلوقيين في سوريا، وكانوا يستفيدون في بعض هذه الأدوار من الخلاف المستحكم بين هذين الفريقين اليونانيين الحاكمين في الشرق في التمتّع بالحكم الكهني الذاتي، ولكنهم لاقوا أسوأ الحالات في عهد الملك السلوقي أنطيوخس الرابع (أبيفان) (175 ـ 164 ق.م.) فقد دمّر هذا الملك الهيكل ونهب خزائنه وأجبر اليهود على نبذ اليهودية واعتناق الوثنية اليونانية. وهنا أخذ الصراع بين اليهودية والإغريقية يشتد يوماً بعد يوم حتى اندلعت ثورة المكابيين، وقد أطلق على عصرهم الذي دام حوالي القرن وربع القرن (166 ـ 37 ق.م.) اسم العصر المكابي.

---

(1) Hitti, «**History of Syria**», p. 223.

اليهود في زمن الرومان:

وبعد تغلغل الرومان في الشرق وتغلّبهم على السلوقيين في سوريا أصبحت فلسطين تحت حكم الرومان، ففي سنة 64 ق.م. احتلّ القائد الروماني بومبي سوريا وضمّها إلى روما، وفي السنة التالية دخل بومبي أورشليم وجعلها تابعة لحاكم سوريا الروماني. ولم يكن اليهود في هذا العهد أحسن حالاً مما كانوا عليه في العهد الإغريقي، فكانوا بين المد والجزر أيضاً في ظروف مضطربة ناجمة عن صراع الزعماء الرومان فيما بينهم على الحكم ففي عهد قيصر مثلاً (49 ـ 43 ق.م.) كان اليهود يتمتعون بحرية ممارسة شعائرهم الدينية وبحكم كهني ذاتي، ثم بعد غتيال قيصر سنة 44 ق.م. نشب خلاف بين أوكتافيان وأنطونيوس أدّى إلى القتال بينهما سنة 30 ق.م. انتصر فيه أوكتافيان فتولّى زمام الحكم بصفته أول إمبراطور روماني وسمّي «أغسطس». وفي هذه الفترة كان «أنطونيوس» و«أوكتافيان» قبل نشوب الخلاف بينهما قد عيّنا «هيرودس» الأدومي ملكاً على يهوذا وعلى الجليل سنة 39 ق.م. واستمرّ حكمه في فلسطين حتى وفاته سنة 4 ق.م. وفي عهده أُعيد بناء الهيكل في أورشليم ولكن اليهود كانوا يمقتونه لقساوته الوحشية ولاندفاعه في نشر الثقافة اليونانية والرومانية وإنشاء معابد للأصنام في المدن الفلسطينية.
وبعد وفاة «هيرودس» اضطربت الأحوال على يد موظفين رومانيين سيئي السيرة قساة التصرف، ومن أهم ما تخلّلته هذه الفترة من أحداث محاكمة السيد المسيح عليه السلام وصلبه سنة 29م على ما جاءت به الأخبار. ثم عيّن «هيرودس أغريبا» حفيد «هيرودس» ملكاً على فلسطين في عهد الإمبراطور «كاليجولا» (37 ـ 41م) والإمبراطور «كلوديوس» (41 ـ 54م) فساد الهدوء في البلاد نسبياً إلا أن الاضطرابات والفوضى عادت بعد وفاة «هيرودس أغريبا» سنة 44م إذ تولّى في الفترة بين سنة 44 و66م سبعة من الحكّام الرومانيين كلّهم سيئو الأخلاق ومرتشون حتى وقع الانفجار في ربيع سنة 66م فإذا بها ثورة عارمة شاملة على الحكم الروماني. وبعد سلسلة من المعارك على عهد الإمبراطور «نيرون» (54 ـ 68م) وخلفه «فسبسيان» أودعت القيادة في فلسطين إلى «تيطوس» ابن الإمبراطور «فسبسيان» فسيطر على الموقف وتمكّن من القضاء

على الثورة ودخل أورشليم سنة 70م وأوقع مذبحة مريعة باليهود وخرّب المدينة وأحرق هيكلها وذبح كهنته وأزيل الهيكل من الوجود تماماً بحيث لم يعد يهتدي الناس إلى موضعه وقد سيق الأحياء الباقون عبيداً. وقد ذكر المسعودي أن عدد القتلى من اليهود والمسيحيين بلغ ثلاثة آلاف ألف[1].

وهكذا قُضي على الكيان الذاتي الديني لليهود في فلسطين ومن ضمن ذلك التنظيمات الإدارية الدينية التي كانت تتمثّل بالسنهدرين، فساد الهدوء حوالي نصف قرن، ثم اشتعلت نيران ثورة جديدة بقيادة «باركوخبا» أحد زعماء اليهود فاعتصمت جماعة في المواقع الجبلية الحصينة وأخذوا يقاتلون قتال حرب عصابات، وظلّوا معتصمين بمواقعهم ثلاث سنوات (132 ـ 135م) حتى جرّد الرومان عليهم حملة اجتاحت مواقعهم وأزالت قلاعهم وأحرقت قراهم، وحوّل «هادريان» مدينة أورشليم إلى مستعمرة رومانية وحرّم على اليهود سكناها وبدّل اسمها إلى «إيليا كبتولينا» وإيليا هو الاسم الأول لهادريان. وقد أسكنت جالية رومانية ويونانية في أورشليم وأُقيم في محل الهيكل معبد للإله اليوناني جوبيتر. وقدر عدد الذين قتلوا في هذه المعارك 580 ألفاً عدا من هلك جوعاً ومرضاً وحرقاً. وهذه هي الضربة الأخيرة لليهود في فلسطين، فلم يعد لهم أي كيان فيها طوال العصور التالية.

لم يشكل اليهود أكثرية في فلسطين في أي دور من أدوارهم:

نخلص مما تقدّم إلى أن سكان فلسطين من غير اليهود كانوا يتكاثرون يوماً بعد يوم ويتمركزون في أرضهم في حين أن اليهود كانوا يتقلصون نتيجة تعرّضهم للاضطهاد والقتل والسبي من دون سكان البلاد الأصليين، لذلك لم يستطع اليهود، كعنصر غريب بينهم تشكيل أكثرية في فلسطين في أي دور من أدوارهم، فكان أول من غزا مملكتي يهوذا وإسرائيل بعد الانقسام الفرعون الليبي شيشنق الأول، فأخضع مدنهما سنة 926 ق.م. وأخذ معه أسرى من 129 مدينة يهودية، هذا عدا نهب ذخائر الهيكل وبيت الملك في أورشليم. ثم

---

(1) **التنبيه والإشراف**، ص 110.

استولى تغلات فلاسر الثالث ملك آشور (745 ـ 727 ق.م.) على كل أراضي إسرائيل (عدا السامرة) وسبى اليهود إلى بلاد آشور وأحلّ محلهم أقواماً من بابل ومن لولوبو في الزاغروس ومن نايبري قرب بحيرة «وان». وفي سنة 722 ق.م. تمّ لسرجون الثاني في إبان حكمه احتلال إسرائيل وعاصمتها السامرة فأجلى اليهود إلى ناحية «حران» وإلى ضفة الخابور (خابور الفرات) وإلى ميديا وقد أحلّ محلّهم الآراميين من إقليم حماة، ثم لحق بهم العرب هناك في عام 715 ق.م.، وكذا بعض الأهلين من كوثى وبابل سنة 709 ق.م.، وبذلك قضى نهائياً على يهود مملكة إسرائيل واختفت أخبارهم حتى عن بقية اليهود في يهوذا وقد سبقت الإشارة إلى ذلك وسبب اضمحلالهم وإبادتهم يرجع إلى تشتيتهم في أماكن مختلفة وبعيدة للحيلولة دون تجمّعهم وإعادة بناء مجتمع يهودي يتطلع إلى العودة. وهذه كانت الطريقة التي اتبعها الآشوريون في البلاد التي كانت تتمرّد عليهم. وفي حملة سنحاريب على أرض يهوذا سنة 701 ق.م. أجلى عن مدن يهوذا 200150 نسمة من اليهود. وفي سنة 597 ق.م. حمل نبوخذ نصّر الثاني ملك الكلدانيين (605 ـ 562 ق.م.) على أورشليم وأسر ملكها «وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف مسبي وجميع الصنّاع والأقيان سباهم من أورشليم إلى بابل.. ولم يبق إلّا مساكين شعب الأرض» وأخيراً وقع السبي الثاني سنة 586 ق.م. حين قضى نبوخذ نصّر على مملكة يهوذا وسبى اليهود إلى بابل. وقد قدر عدد الذين سباهم نبوخذ نصّر بأكثر من خمسين ألف شخص، هذا عدا الذين قتلوا. وبذا يكون قد قضى على آخر من تبقّى من اليهود في فلسطين. وقد ورث الأدوميون سكان فلسطين الأصليون ومعهم الأنباط ديار يهوذا بعد القضاء على مملكة يهوذا وسبي اليهود منها. وبعد عودة اليهود من بابل إلى فلسطين في زمن الفرس أُنشئت في عهد الإسكندر مستعمرات إغريقية بين اليهود، ثم بعد وفاة الإسكندر نزل بطليموس الأول (سويتر) ملك مصر 300 ق.م. على أورشليم ونقل عدداً كبيراً من اليهود إلى أفريقيا، وأخيراً قضى الرومان نهائياً على من تبقّى منهم وبقي سكان فلسطين الأصليون ومعهم من دخلها من غير اليهود في

وطنهم فلسطين حتى الفتح الإسلامي، حيث بقيت بيد المسلمين قرابة ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن. وفي جميع هذه الأحوال لم يترك سكان فلسطين بِمَنْ فيهم سكان القدس وطنهم.

ويستدل مما تقدّم بوضوح على أن أهل فلسطين الأصليين بقوا في أراضيهم منذ خمسة آلاف عام ولم يغيّر حكم داود وسليمان الذي لم يطل أكثر من ثمانين عاماً أو حكم إسرائيل ويهوذا الهزيل هذه الحقيقة التاريخية الواقعية. ونحن إذ نكرّر هنا حوادث السبي التي تعرّض لها اليهود في فلسطين وحلّ من حلّ محلهم من مختلف الأقوام، الحوادث التي مرّ شرحها بالتفصيل فإن جلّ ما نتوخاه هو البرهنة على أنّ أهل فلسطين الأصليين ومعهم من دخلها من غير اليهود بقوا وتكاثروا في وطنهم دون أن يمسّهم أي أذى وكانوا في جميع الأحوال الأكثرية الساحقة في البلاد، في حين أن اليهود كانوا يتقلصون على مرّ الزمن يوماً بعد يوم نتيجة عمليات السبي المستمرة حتى أزيلوا نهائياً من أرض فلسطين، وبقي أهلها الأصليون في وطنهم كوثنيين ومسيحيين قبل الإسلام وكمسلمين ومسيحيين بعد الإسلام.

خلاصة وتعليق:

إن اليهود لم يتركوا أي كيان سياسي يهودي خاص بهم في تاريخ فلسطين القديم، ولكنهم تركوا ديانة يهودية متأخرة مقتبسة من تراث كنعاني وبابلي وآرامي، وأن عهد الملوك بما فيه عهد داود وسليمان كان عهداً كنعانياً بحضارته ولغته وثقافته، وفشل اليهود في إنشاء مملكة زمنية يهودية دائمة في فلسطين يرجع إلى عوامل كثيرة من أهمها في نظرنا عاملان أولهما هو أن الكيان اليهودي لم يقم على أساس قومي راسخ أصيل بثقافته ولغته وتقاليده ووطنه لأن اليهود لم يملكوا أي تراث خاص بهم فمعظم ما مارسوه من لغة وثقافة وديانة وتقاليد وعادات مقتبس من الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين، كما أنه لم يكن لهم وطن إذ كانوا غرباء طارئين على فلسطين، كما أوضحنا فيما تقدّم، فكيانهم قائم على الدين والدين وحده. والدين عرضة للتغيّر والتبدّل على خلاف ما هي عليه القومية من ثبات لاستنادها إلى ثقافة ولغة

واحدة ووطن ثابت. أما العامل الثاني فهو أن كيان إسرائيل كان قائماً على الاغتصاب والاعتداء على شعب آمن له قوميته وثقافته وتقاليده وحكمه عاش في أرض فلسطين منذ خمسة آلاف عام، وقد جاء اليهود عازمين على طرد هذا الشعب من دياره وأخذ محله، زاعمين أن إلٰههم (يهوه) أمرهم أن يبيدوا هذا الشعب وأن يحلّوا محله وأن الرب وعدهم أنه سيحارب بنفسه من أجل تحقيق ذلك لهم[1]. وهذا الشعب العريق بقوميته وتراثه لا يمكن أن ينسى أن هذه الأرض هي أرض أجداده منذ أقدم الأزمنة وأنها اغتصبت منه. هذا عدا ادعاء اليهود بالاستعلاء والتفوّق (الباطلين) على بقية شعوب الأرض وأن الله جعلهم الشعب المختار وجعل الناس عبيداً لهم مما كان له أثر في بعث النفرة والكراهية والانعزالية بينهم وبين سكان البلاد التي يعيشون فيها.

(1) (تث، 1: 35).

الفصل السابع

يهود العالم وصلتهم بفلسطين

تمهيد:

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذه المرحلة هو كيف انتشر اليهود في العالم بعد أن أجلاهم الرومان عن فلسطين نهائياً ودمروا هيكلهم وما هي صلتهم بفلسطين؟ . . . وقبل الإجابة على ذلك لا بدَّ من التوضيح بأن اليهودية كدين لم تكن في البداية مقتصرة على قوم موسى فقد انتشر الدين اليهودي بين مختلف الأمم والأجناس، وهذه الأمم اعتنقت الدين اليهودي وهي تعيش في ديارها وأوطانها تتكلم بلغاتها وتمارس عاداتها وتقاليدها التي نشأت في بيئاتها، إذ بدأ التبشير بالدين اليهودي منذ تكوين الديانة اليهودية بعد كتابة التوراة، واستمر حتى العصور الوسطى عندما أغلق باب التبشير به في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي. فقد قضى اليهود أكثر من عشرين قرناً يعملون بجد ونشاط لنشر ديانتهم بين شعوب وأمم لا تمتّ إلى قوم موسى بأدنى صلة وليست لهم علاقة بفلسطين أو سكان فلسطين لا من بعيد ولا من قريب. وهؤلاء الدعاة إلى الدين لم يكونوا دائماً من داخل فلسطين، بل ممّن اعتنقوا الدين اليهودي وتحمّسوا له، كما أن المسيحية لم تنتشر بواسطة سكان فلسطين وحدهم، بل بواسطة من اعتنقها من مختلف الأجناس والشعوب[1]. وهكذا «ظلّت اليهودية زمناً طويلاً فاتحة ذراعيها مرحّبة بمقدم كل من ينضوي مخلصاً تحت لوائها من أبناء الشعوب الأخرى»[2] فقد اعتنقت شعوب عديدة الدين

---

(1) الدكتور محمد عوض محمد، **الهلال** (يوليو/تموز 1947)، 23 ـ 29.

(2) ويلز، «**معالم تاريخ الإنسانية**»، الترجمة العربية، الكتاب الرابع، ص229 ـ 293.

اليهودي وهم في ديارهم وأوطانهم ولم يكونوا في وقت من الأوقات من سكان فلسطين، فانتشر هذا الدين في القارات الثلاث واعتنقته أمم متباعدة الأوطان مثل سكان اليمن والحبشة والجزيرة العربية وبلاد القفقاس (الخزر) وأواسط أوروبا وبلاد المغرب وشعوب مختلفة في الدولة الرومانية وفي الأقطار المجاورة لها، هذا إلى جانب العناصر التي دخلت في اليهودية بطريق الزواج. وقد اعتنق اليهودية كثير من الجماعات التي أرسلها الآشوريون من مختلف أنحاء الإمبراطورية الآشورية إلى فلسطين ليحلوا محل اليهود الذين أبعدوا إلى بلاد مادي واندمج بعضهم في اليهودية، وربما كان خير من يمثّلهم اليوم السامريون الذين يعيشون وسط العرب وفي رعايتهم في مدينة نابلس[1].

اليهود في اليمن وفي البلاد العربية:

وقد انتشرت اليهودية في بلاد اليمن حتى أصبحت مركزاً من مراكز انتشارها. وفي القرآن الكريم إشارة صريحة إلى هذا في سورة النمل وفي الآيات الكريمة التي تروي قصة سبأ. وقد جاء في ختامها على لسان ملكتهم: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[2] وانتشار اليهودية في اليمن في العصور التالية يرجع إلى أحد ملوك حمير المدعو تبان أسعد أبو كرب (القرن الخامس ب.م.)، ففي غزو هذا الملك ليثرب جاءه حبران من أحبار اليهود فأعجب بما وصفاه له عن دينهما فاتّبعه وأخذهما معه إلى اليمن ودعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه فأجابوه، وقد ثبَّت الدين اليهودي في اليمن في عهد الملك الحميري ذي نواس في أوائل القرن السادس للميلاد وقد أجبر هذا الملك المسيحيين على اعتناق اليهودية[3].

---

(1) انظر ما تقدّم من هذه الفئة في الفصل الثالث.

(2) سورة النمل الآية: 44.

(3) الدكتور محمد عزة دروزة، «**تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم**»، ص 326.
ومما يذكر في هذا الصدد أن اليهود كانوا يحرّضون الحكّام الوثنيين الذين كانوا يشترونهم بأموالهم على المسيحية، وقد أفضى عداء الإمبراطور الروماني ماركوس أورليوس الذي امتدّ حكمه بين سنة 161 وسنة 180 إلى العداء للمسيحية إلى إصدار أمر بقتل جنوده =

وفي أعقاب حملة الرومان الأخيرة على اليهود في فلسطين وتدمير هيكلهم في أورشليم هاجرت جموع غفيرة من اليهود إلى مختلف الأرجاء في البلدان المجاورة. وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هؤلاء اليهود هاجروا إلى الجزيرة العربية، وعلى هذا الأساس انتهوا إلى أن اليهود الذين كانوا منتشرين في أنحاء جزيرة العرب قبل الإسلام هم من بقايا اليهود الذين هاجروا من فلسطين. وقد كان اليهود يروِّجون مثل هذه الأقاويل بين القبائل العربية بقصد الإشاعة بأن العرب واليهود ينحدرون من أصل واحد وأن الاتصال بينهما قديم وبذلك تشجيعهم على الأخذ باليهودية. ومن المهم ذكره في هذا الصدد بأن الكثير من الباحثين يظنون أن باب التبشير باليهودية كان مغلوقاً منذ القديم وأن اليهود الذين ظهروا في مختلف الأقطار ومنها جزيرة العرب هم من اليهود الذين هاجروا من فلسطين. وهذا يخالف الواقع لأن كل الدلائل تثبت أن الحاخاميين اليهود كانوا يتحمسون ويحرصون كل الحرص لحمل أكثر ما يمكن من الناس من مختلف الأجناس والقوميات على اعتناق اليهودية والتبشير بها منذ أقدم العصور. وبعد ظهور المسيحية ازداد حماسهم في التبشير بدينهم نتيجة للمنافسة بينهم وبين المبشّرين المسيحيين مما أثار العداء الشديد الدامي بينهما واستمرّت هذه المنافسة تلعب دورها ألف وثلاثمائة سنة **حتى أغلق التبشير باليهودية في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد، في حين أن التبشير بالمسيحية استمرّ ولا يزال مستمراً حتى هذا اليوم.**

إن اليهودية كدين لم تكن مقتصرة على قوم موسى، فقد انتشر الدين اليهودي بين مختلف الأمم، وهذه الأمم اعتنقت الدين اليهودي وهي تعيش في ديارها وأوطانها تتكلم بلغاتها وتمارس عاداتها وتقاليدها التي نشأت في بيئاتها، إذ بدأ التبشير بالدين اليهودي منذ تكوين الديانة اليهودية واستمرّ إلى العصور الوسطى حيث أغلق باب التبشير في منتصف القرن الثالث عشر

= العائدين من الحرب ممّن اعتنقوا المسيحية كما أصدر أمراً بإبادة المسيحيين القاطنين في روما وقتئذ. وقد استمرّ اضطهاد المسيحيين حتى القرن الرابع الميلادي عندما اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية (الدكتور محمد بحر عبد المجيد، «**اليهود في الأندلس**»، ص9 ـ 10).

الميلادي كما تقدّم أن اليهودية والمسيحية كلتاهما ظهرتا في الجزيرة العربية قبل الإسلام في ظروف متشابهة وسط عالم يدين بالوثنية، والاثنتان انتشرتا في العالم وفي جزيرة العرب عن طريق التبشير وبخاصة عن طريق اعتناق رؤساء مجتمعات تلك العصور.

عاش اليهود في جزيرة العرب معيشة أهلها فلبسوا لباسهم وتكلموا لغتهم ومارسوا عاداتهم وتقاليدهم وتصاهروا معهم، فتزوج اليهود عربيات، وتزوج العرب يهوديات، والفرق الوحيد الذي كان بين العرب واليهود في الجزيرة هو الاختلاف في الدين. هذا ما يؤيد كون اليهود في الجزيرة العربية عرباً متهودين لا يهوداً مهاجرين، اعتنقوا اليهودية عن طريق التبشير، لأن العصبية العربية تقيم حاجزاً يحول بين زواج اليهود أو أي عنصر غير عربي بالعربيات كما هو معروف. يؤيد ذلك الدكتور جواد علي بقوله: «ولعل كون اليهود في الجزيرة من أصل عربي هو الذي ساعد على تحطيم القيود التي تحول بين زواج اليهود بالعربيات وبالعكس». وقد ذكر العلماء أن بعض الأنصار كان مسترضعاً في بني قريظة (من يهود يثرب) وغيرهم من اليهود العرب فتهوّدوا. فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، أرادوا إكراه أبنائهم الذين تهوّدوا على الدخول فيه فنزلت الآية الشريفة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[1].

فالمؤرّخ اليعقوبي ينكر وجود طوائف يهودية أصلها (من فلسطين) في الجزيرة العربية قبل عصر الإسلام، ويؤكد أن القبائل اليهودية فيها كانت من العنصر العربي الأصيل ويقول في وقعة بني النضير إن بني نضير فخذ من جذام إلا أنهم تهوّدوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فسمّوا به، وفي وقعة بني قريظة يقول بأن بني قريظة فخذ من جذام أيضاً إخوة بني النضير ويقال إنّ تهوّدهم كان في أيام عاديا بن السموأل، ثم نزلوا بجبل يقال له قريظة فنسبوا إليه[2]. وهناك شهادات من يهود مدينة دمشق وحلب في القرن الثالث بعد الميلاد أنهم كانوا ينكرون وجود يهود في الجزيرة العربية (المقصود بذلك يهود فلسطين

(1) سورة البقرة، الآية: 256.

(2) **تاريخ اليعقوبي**، طبعة النجف، 1964، ص 40 و42.

الأصليين) ويقولون إن الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود في جهات خيبر ليسوا يهوداً حقاً إذ لم يحافظوا على الديانة الإلٰهية التوحيدية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعاً تاماً(1) ويؤيّد ياقوت الحموي ذلك في معجمه، فيقول إن يهود يثرب (قريظة والنضير) هم من القبائل العربية في الجزيرة وقد اعتنقوا اليهودية وكان لهم ملوك حتى أخرجهم الأوس والخزرج من المدينة(2). وكانت المستوطنات اليهودية في الجزيرة العربية تمتهن الزراعة وكان بعضهم في يثرب يمارسون صناعة الحدادة والمجوهرات. ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة حرص على تحقيق الوحدة بين القبائل العربية وإزالة ما كان بين أهل المدينة قبل الإسلام من الفرقة بإبطال حروبهم ومنازعاتهم حتى يسود الإخاء بينهم جميعاً، وتحقيقاً لذلك كتب كتاباً جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس... وإن من تبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن يهود بني عوف آمنة من المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم وأنفسهم، إلّا من ظلم وأثم، فإنه لا يوقع إلّا نفسه وأهل بيته وإن يهود بني النجّار ويهود بني الأوس ويهود بني ثعلبة وجفنة ولبني الشطية مثل ما ليهود بني عوف. وإن موالي ثعلبة كأنفسهم وإن بطانة يهود كأنفسهم وإنه لا يخرج منهم أحد إلّا بإذن محمد ﷺ»(3). ويتّضح مما تقدّم أن الذي كان يفرّق بين الأمة الواحدة هو الدين وحده، فكان النبي ﷺ يرمي من وراء كتابه هذا تحقيق الإخاء بين الجميع وأن لا يكون الدين سبباً في الفرقة (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم). والدليل على أن هذه القبائل المتهوّدة عربية الأصل أنه كان بين قبيلة الأوس العربية من تهوّد قبل الإسلام كما جاء في الكتاب المذكور.

ومما يذكر في هذا الصدد أن البطون العربية المتهودة التي لم يكن لها

(1) ولفنسون «**تاريخ اليهود في بلاد العرب**» ص 13، نقلاً عن غرائز.
(2) ياقوت «**معجم البلدان**»، ج 4، ص 385 و460.
(3) **سيرة ابن هشام**، ج 2، ص 40 وما بعدها.

عهود خاصة مع الرسول ﷺ والتي أجليت عن جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر (رضي الله عنه) لم يعرف أن أحداً من هؤلاء نزح إلى فلسطين ليكون بالقرب من هيكل سليمان مندفعين بالحماس الديني. لذلك فليس بالمستطاع تأييد بعض الكتّاب الذين اعتبروا أصل يهود الجزيرة مرتبطاً بيهود فلسطين الذين أجلاهم الرومان، لأن ذلك يخالف سنة الطبيعة فالهجرة لا تتمّ من البيئة المتمدنة المستقرة إلى البيئة الصحراوية مثل جزيرة العرب، بل العكس هو الصحيح، والحقيقة هي أن اليهودية والمسيحية كانتا تتزاحمان على تهويد أو تنصير القبائل العربية في الجزيرة قبل الإسلام وقد توجّه المبّشرون من اليهود والمسيحيين نحو جزيرة العرب لأنهم وجدوا أن القبائل العربية في الجزيرة قبل الإسلام كانت مهيّأة نفسياً لتقبّل فكرة التوحيد. لذا كان نشاط التبشير في الجزيرة على أشدّه حتى تمكّن المبشّرون المسيحيون من تنصير بعض القبائل كما استطاع الأحبار اليهود من تهويد البعض الآخر. فهل انتشرت المسيحية بين القبائل العربية في الجزيرة نتيجة نزوح مسيحيين من أصل فلسطيني؟ وهل كان أهل اليمن الذين تهوّدوا أو تنصّروا من أصل فلسطيني؟.. وهل كان يهود الخزر من يهود فلسطين؟..

وهل كانت قبائل البربر في المغرب العربي التي أخذت بدين اليهودية قبل الإسلام، مثل قبيلة جراوة التي سكنت جبال أوراس، وقبائل أخرى هي نفوسة وفندلاوة ومديونة وبهلولة وغياتة وبنو بازار، التي يحدّثنا عنها ابن خلدون من يهود فلسطين؟..[1]، وهل كانت قبائل بني حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة التي انتشرت فيها الديانة اليهودية قبل الإسلام والتي يحدّثنا عنها ابن قتيبة والقاضي أبو القاسم صاعد الأندلسي من يهود فلسطين؟..[2]. لماذا إذن لا يزال بعض الكتّاب يأخذ بالرأي القائل بأن الجزيرة العربية قد انفردت من بين كلّ بلاد العالم التي تمَّ التبشير فيها باليهودية

---

(1) انظر: الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة، «**يهود المغرب العربي**»، 1973، ص11 ـ 12.

(2) انظر: ابن قتيبة، «**المعارف**»، مطبعة دار الكتب، 1960، ص 631؛ القاضي أبو القاسم صاعد الأندلسي، «**طبقات الأمم**»، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1912، ص43.

أو المسيحية بهجرة يهود أو نصارى فلسطين إليها؟. . إن الكتّاب اليهود يروّجون مثل هذه الأقاويل التي ترجع اليهود في فلسطين ويهود الجزيرة العربية إلى أصل واحد ويتقصدون من إشاعتها بين الناس لربط صلتهم بالجزيرة العربية والعرب على اعتبار أنهم وإياهم أبناء عمومة وأن جدّهم واحد هو إبراهيم الخليل ﷺ، في حين أن الواقع أن اليهود ظهروا إلى عالم الوجود في وقت متأخر ويمثّلون ديانة اعتنقتها أقوام كثيرة من قوميات مختلفة من جملتهم العرب الذين حافظوا على قوميتهم ولغتهم وعاداتهم ولم يفرق بينهم وبين مجاوريهم من القبائل العربية غير الدين، شأنهم في ذلك شأن الأقوام الأخرى التي أخذ بعض أهلها بالديانة اليهودية.

إن بدوي الجزيرة العربية الرقيق الإحساس والمجبول على الفطرة والخيال الذهني والتعلّق الروحي لم تعد نفسيته تتقبّل عبادة الأصنام. فقد كان عرب الجزيرة آنذاك في صراع نفسي وديني شديد الحساسية بين الوثنية من جهة وبين اليهودية والمسيحية اللتين تدعوان إلى التوحيد من جهة أخرى. وقد كان دين إبراهيم الخليل ﷺ معروفاً في الجزيرة العربية عند الحنفاء قبل اليهودية والمسيحية كما ينبئنا القرآن الكريم[1] وقد استمرّت الحساسية حتى نزول الوحي على النبي محمد ﷺ، حامل رسالة الإسلام إتماماً لرسالة إبراهيم الخليل ﷺ فتقبلتها الجموع بحماس بالغ وإيمان عميق. وإن الأنبياء والرسل يظهرون بوحي من الله سبحانه وتعالى في مثل هذه الظروف التي كانت سائدة في أرض الجزيرة العربية والتي تكون فيها الجموع أشدّ ما تكون بحاجة لمن يهديها إلى الصراط المستقيم. وفي ذلك يقول العالم الألماني ديتليف نيلسن «لا يوجد دين من الأديان قدّر الله له النجاح في القضاء على الوثنية كما قدّر للإسلام»[2].

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن عرب الجزيرة المتهودة لم تلتزم

---

(1) ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: 67]؛ ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: 31]؛ ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: 135].

(2) نيلسن، «**التاريخ العربي القديم**»، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي، ص7.

بالتلمود لأن معظم هذه القبائل قد أخذت باليهودية قبل إنجاز التلمود كما أن انعزالهم في الجزيرة العربية قد جعل الاتصال بينهم وبين المدارس التلمودية التي أسّسها الأحبار اليهود في فلسطين وفي بابل (والفريق الأخير هو من بقايا السبي البابلي) متعذّراً. لذلك فقد وجد يهود الجزيرة بعد إجلائهم من الجزيرة في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب (رضي الله عنه) في حركة القرّائين بزعامة عنان بن داود أحد علماء يهود العراق التي تناهض التلمود وتدعو للاكتفاء بالتوراة ما يتّفق ومعتقد القبائل العربية المتهوّدة وهو معتقد بدوي خالص خال من التعاليم الاستعلائية المتزمتة التي يدعو إليها التلمود فانضمّ أكثرهم إلى هذه الفرقة[1].

وهناك ما يؤكد أن القبائل العربية المتهودة في الجزيرة قد حافظت على تقاليدها وعاداتها العربية ولم تندمج باليهود خارج الجزيرة، فيروي بنيامين التطيلي في رحلته التي دوّنها في القرن الثاني عشر بعد الميلاد عن وجود قبيلة عربية متهودة في الجزيرة العربية تدعى قبيلة بني ركاب كانت قد اقتبست الدين اليهودي ولكن من غير أن تندمج باليهود بل ظلّ أفراد هذه القبيلة محافظين على تقاليدهم العربية التي ورثوها عن الأجداد، فيقول: «وفي هذه الصحراء (ويقصد بها الصحراء الواقعة بين اليمن والعراق) مضارب بني ركاب من عشائر تيماء. وفي تيماء يقيم شيخهم وزعيمهم الأكبر حنان وهي صقع واسع الأرجاء، امتداده مسيرة ستة عشر يوماً بين الجبال الشمالية وفيها القلاع الكبيرة الحصينة التي لا تخضع لأية سيطرة أجنبية، وأهلها يخرجون مع جيرانهم وأحلافهم من أبناء العرب للغزو والكسب في الأماكن البعيدة. وهم أعراب يعيشون عيشة الغزو في أرض اليمن»[2]. ويقول عنهم قاموس الكتاب المقدس: «إنهم لا يزالون يقطنون في بلاد جبلية إلى الشمال الشرقي من المدينة، وليس لهم علاقات مع يهود آسيا ولا يمكنهم أن يرافقوا القوافل لأن ديانتهم لا تسمح لهم بالسفر يوم السبت مع أن بلادهم محاطة بالصحاري حتى

---

(1) ليرسي، «**تاريخ الشعب اليهودي**»، ص 235.

(2) «**رحلة بنيامين التطيلي**»، ص، 148.

يكاد يستحيل الدخول إليها أو الخروج منها إلّا مع القوافل». ويقدر الرحالة وولف عدد الركابيين بجوار مكة بنحو 60000 نسمة[1].

وهناك أيضاً ما يدلّ على أن بعض القبائل المتهودة مالت إلى الإسلام بعد ظهوره، فمن بقايا القبائل العربية المتهوّدة في الجزيرة التي اعتنقت الإسلام بعد ظهوره قبيلة في منطقة خيبر، يفيد الرحالة دوتي الذي ارتاد الجزيرة العربية سنة 1875: «أن هناك قرية في نواحي خيبر أهلها مسلمون ولكنهم لا يزالون محافظين على بعض التقاليد والتعاليم اليهودية ولا يخالطون غيرهم من القبائل المجاورة»[2].

يهود الخزر:

وكانت أكبر الكتل المتهوّدة قبائل الخزر وهم من الأتراك المغول وطنهم في بلاد الخزر الواقعة في جنوب روسيا في جوار مصب نهر الفولغا[3] في بحر الخزر (بحر قزوين)، فقد اعتنق أكثر أهل الخزر الدين اليهودي في العصور الوسطى بعد اعتناق أميرهم اليهودية وبقيت تمارس الديانة اليهودية بحرية هناك حتى أواخر القرن العاشر الميلادي. وأقدم معلومات عن انتشار اليهودية في الخزر وصلتنا عن الرحّالة العربي ابن فضلان الذي أوفده الخليفة العباسي المقتدر بالله سنة 309هـ (921م) في بعثة إلى ملك البلغار، ففي طريق عودته مرّ بمملكة الخزر وبعاصمتها «إتيل» ووصف ما شاهده بتلك البلاد قال: «الخزر اسم المملكة ولاتيل (العاصمة) قطعتان واحدة على غربي النهر المسمى «أتل» وهي أكبرها وقطعة على شرقيه والملك يسكن القطعة الغربية منهما ويُسمَّى الملك بلسانهم (يلك) ويُسمَّى أيضاً (باك) وهذه القطعة الغربية مقدارها في الطول نحو فرسخ ويحيط بها سور... وقصر الملك بعيد عن شط النهر وقصره من آجر وليس لأحد بناء من آجر غيره... وملكهم يهودي ويقال

---

(1) راجع مادة الركابيين في «**دائرة المعارف اليهودية**».

(2) «**الصحراء العربية**»، ص 129.

(3) هو الفولغا الحالي الذي ينبع في شمال روسيا ويصبّ في بحر قزوين قرب أستراخان.

إن له من الحاشية نحو أربعة آلاف رجل. . . والخزر وملكهم كلهم يهود وكان الصقالبة وكل من يجاورهم في طاعته ويخاطبهم بالعبودية ويدينون له بالطاعة»[1] والمهم هنا تأكيد ابن فضلان أن الملك وخاصته مع أنهم كانوا يهوداً ولكن «الغالب على أخلاقهم أخلاق أهل الأوثان». وهذا يدلّ على أن هذه العشائر عندما تهوّدت بقيت محتفظة بعاداتها ولغتها وثقافتها من جميع الوجوه مع أن ابن النديم يقول: «إن الخزر كانت تكتب بالعبرانية وهو يقصد الكتابة بالحروف العبرية وليس باللغة العبرانية»[2]. وتعتبر رسالة ابن فضلان هذه الوصف الوحيد الذي تركه الرحّالون العرب لدولة الخزر وعاصمتها «إتيل» في أوائل القرن الرابع الهجري[3].

أما دخول اليهودية أول مرة الخزر فيذهب المسعودي إلى أن تهود ملك الخزر (الخاقان)[4] وأشراف البلاد قد تمّ في عهد هارون الرشيد (170 ـ 193هـ) (786 ـ 809م)[5]، وقد ذكر المسعودي أيضاً أن كثيراً من اليهود الذين أخرجوا من إمبراطورية الروم جاؤوا إلى الخزر بعد اضطهادهم على عهد

---

(1) ياقوت، **معجم البلدان**، الطبعة الأوروبية، 3: 436 ـ 440 (مادة الخزر).

(2) ابن النديم، «**الفهرست**»، ص 20.

(3) «**رسالة ابن فضلان**» تحقيق سامي الدهان، المجمع العلمي العربي، دمشق، 1959؛ «**دائرة المعارف الإسلامية**» 1: 255 ـ 256، 4: 88 ـ 102، 8: 305 ـ 311؛ «**معجم ياقوت**»، 1: 722 ـ 728، 2: 436 ـ 440.
إن تاريخ الخزر ظلّ مجهولاً لم يعن بدراسته إلّا قلة من المتخصصين، ومن أقدم ما كتب في هذا الموضوع كتاب «**تاريخ الخزر**» للمؤرخ اليهودي الحاخام يهودا الحلبي المولود في طليطلة، وهو يروي أن رسائل تبودلت بشأن هذا التهود الجماعي بين الفقيه اليهودي «ابن شابوب» (وزير خليفة قرطبة) وبين ملك الخزر يوسف، أحد أخلاف بولان («**التحدي الصهيوني**»، تأليف دومال وماري لورا، ترجمة نزيه الحكيم، ص25). وذلك ما يدلّ على نفوذ اليهود السياسي في الأندلس في تلك الأزمان.

(4) إن زعيم الخزر كان يحمل اللقب التركي «قاغان» وبالعربية «خاقان»، ويقول ابن حوقل «ولن تنعقد الخاقانية إلّا لليهود».

(5) عيّن بعض الباحثين اعتناق ملك الخزر للديانة اليهودية في حدود سنة 741م. بينما عيّنه البعض الآخر في حدود سنة 865م.

الإمبراطور رومانوس (919 ـ 944م)[1]. وكانت اليهودية آنذاك هي السائدة في الخزر لأن الخاقان والوالي وأمير سمندر في داغستان الذي كان يمتّ بصلة القربى لهذا الأمير وكبار العمّال كانوا جميعهم على اليهودية مع أن اليهود كانوا أقل من المسلمين والنصارى من حيث العدد[2]. وهذا نصّ ما كتبه المسعودي في هذا المعنى قال: «فأما اليهود فالملك وحاشيته والخزر من جنسهم وقد كان تهوّد ملك الخزر في خلافة الرشيد وقد انضاف إليه خلق من اليهود وردّوا إليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم وذلك أن ملك الروم في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وهو أرمنوس نقل من كان في مملكه من اليهود إلى دين النصرانية وأكرههم. . فتهارب خلق من اليهود من أرض الروم إلى أرض الخزر على ما وصفنا».

وتدلّ الحوادث التاريخية على أن اليهودية لم يُكتب لها أن تدوم في الخزر حيث جاءت حملة الروس بعد حوالي قرن ونصف من دخول اليهودية إلى الخزر فقضت على مملكة الخزر بأكملها وتشرّد أهلها وانتشر معظم اليهود في روسيا وأوروبا الشرقية. وقد أورد خبر هذه الغزوة واجتياح الروس لمنطقة نهر أتل ابن حوقل فعيّن تاريخها في سنة 358هـ (968م)[3]، وقد وصف ابن حوقل أنهم قوم همج دمروا هذه البلاد وتركوها خراباً بلقعاً وفرّ الذين نجوا من القتل إلى شبه جزيرة (سياه كوه) في بحر الخزر[4]. وقد انتشر اليهود في أعقاب غزوة الروس على الخزر في أنحاء روسيا ومنها إلى أوروبا الوسطى في مختلف الظروف، ولا تزال اليهودية منتشرة بين هذه الشعوب فقد كانت روسيا، منذ أواخر القرن الثامن عشر، موطن أكبر عدد من اليهود في العالم إذ بلغ عددهم سنة 1897 (5894000 نسمة) من مجموع 11 مليون يهودي في العالم، أي ما يعادل 4,13 بالمائة من مجموع سكان روسيا وفي تقرير رسمي

(1) «**مروج الذهب**»، ج2.

(2) D.N. Dunlop, «**The Jewish Khazars**», N.Y., 1967, (Schockeb Book).

(3) عين المؤرّخون تاريخ غزو الخزر والقضاء على دولتهم في حدود سنة 1016.

(4) ابن حوقل، «**صورة الأرض**»، الطبعة الأوروبية، 14، 281، 282، 286.

يرجع إلى سنة 1842 ما يدلّ على أن عدد كنائس اليهود في روسيا بلغ 604 كنيساً عدا 2340 بيتاً للصلاة و3944 مدرسة و954 رأباً[1]. لذلك كانت المشكلة اليهودية واسعة النطاق وقد ظهرت لأول مرة في روسيا. وقد هاجر مؤخراً عدد كبير منهم إلى الولايات المتحدة الأميركية حيث خلقوا المشكلة نفسها.

وعلى ذكر يهود الخزر يحسن أن نشير هنا إلى كتاب صدر حديثاً بعنوان «الستار الحديدي حول أمريكا» للكاتب الأمريكي جون بيتي[2] تناول المؤلف فيه بحث تاريخ يهود الخزر فصبّ جام غضبه عليهم إذ اعتبرهم دون يهود العالم الآخرين سبب المشاكل التي انهالت على أمريكا بوجودهم فيها، وذلك على أساس أن يهود الخزر دون بقية اليهود في العالم كانوا وما زالوا متعصبين تعصّباً أعمى لليهودية والصهيونية إذ لم يسمح لهم رجال الدين في وسطهم أن يتحرروا من الطوق الديني الانعزالي الذي يعيشون فيه. لذلك فهو يحذّر المسؤولين من العواقب الوخيمة من تأثير نفوذهم على سياسة الولايات المتحدة الأمريكية. وينتهي بعد أن يشرح الدور الذي يلعبونه في توجيه سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إلى وجوب تدارك الأمر قبل أن تتدهور مصالح أمريكا إلى الحضيض وتحلّ الكارثة، ويهيب بالمواطنين المخلصين المتمسكين بالمثل الأمريكية، وهم الأكثرية في البلاد، أن يتعاونوا على دفع الخطر فيحافظوا على سيادة الدولة ونفوذها في أنحاء العالم ضمن إطار الحضارة المسيحية، وذلك بتغيير السياسة التي تسير عليها الولايات المتحدة الأمريكية حالياً بتأثير مخططات اليهود (يهود الخزر بوجه خاص) ونفوذهم. وهذا لا يتمّ إلّا بإجراء تطهير واسع في جهاز الدولة وتبديل البعثات الدبلوماسية إلى البلاد الإسلامية، ويقول المؤلف إن الدافع الذي حمله على وضع كتابه هو «تقديم معلومات مركّزة عن المشاكل التي خلقتها فئة أقلية تحمل مبادىء تتنافى مع تقاليدنا وهي مندفعة بحماس لتحقيق أهداف تهدّد مصالحنا مما يؤدي إلى

---

(1) بارون، **«اليهودي الروسي تحت حكم القيصر والسوفييت»**، ص 76، 129.

(2) John Beaty, **«The Iron Curtain over America»**, Dallas, Texas, 1956.

الدمار بإثارة حرب عالمية ثالثة». وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة سنة 1951 فحاز شهرة واسعة حتى طبع خمس عشرة مرة بين سنة 1951 وسنة 1956. وقد أعدّت دار النشر للجامعيين في لبنان ملخصاً للكتاب باللغة العربية تحت عنوان «الصهيونية لعبتها أمريكا» (بلا تاريخ).

اليهود في مختلف أنحاء العالم:

يقسم بعض الباحثين المختصّين يهود العالم إلى ثلاثة أقسام رئيسة: الأشكنازيون، السفارديون، الشرقيون. وتنتسب طائفة الأشكناز إلى اليهود الألمان أو الذين ينحدرون من أصل ألماني عاشوا في القرون الوسطى في البلدان التي كانت تتكلم الألمانية ثم امتدّوا إلى الشرق والغرب وقد حافظوا إلى عهد قريب على لغتهم «اليديش» (Viadish) وكانت في أساسها اللغة الألمانية المستعملة في القرون الوسطى، ثم دخلت عليها بعض المفردات العبرية وغيرها من المفردات الأجنبية، وخرجت عن اللهجة الألمانية الأصلية وتكوّنت لها لهجات اختلفت باختلاف المناطق واللغات الأخرى المحيطة بها. وتُكتب هذه اللغة بالحروف العبرية ولا تزال تُستعمل مع فروق بسيطة، لأن هذه الجماعات وهي من السلاف والجرمان اقتبست الدين اليهودي والكتابة بالحروف العبرية معاً، إذ لم تكن لها كتابة وقت اقتباسها الدين اليهودي. وقد جعل اليهود منها لغة أدبية في بولونيا وأنتجوا بها أدباً شعبياً ودينياً. ومع ذلك بقيت اللغة العبرية قائمة إلى جانب لغة «أليديش» بين يهود بولونيا وروسيا وإن كانت لغة كتابة وليست لغة تخاطب. ومصدر تسمية «أشكنازيين» هو كلمة (أشكناز) ومعناها بالعبرية الحديثة «ألمانيا» والياء للنسبة والنون للجمع. والظاهر أن لفظة الأشكنازيين بعد أن كانت تُطلق في أوائل القرون الوسطى على اليهود الألمان إلا أنها أصبحت في العصور التي تلت ذات مفهوم أوسع، إذ لم تعد مقتصرة على ألمانيا وحدها بل شملت أكثر يهود أوروبا كيهود الجزر البريطانية وشمال فرنسا وكل ألمانيا وقسماً كبيراً من النمسا التي كانت تقطنها في ذلك الوقت قبائل السلاف. «وفي الحقيقة أصبحت الكلمة تدلّ على حضارة وليس على بقعة جغرافية وخصوصاً بعد القرن الثالث عشر».

أما طائفة السافرديين فهم اليهود الذين انحدروا من أصل اليهود الذين هاجروا إلى شبه الجزيرة الأيبرية خصوصاً بعد فتح المسلمين لها سنة 711م وكان هؤلاء يتكلمون في إسبانيا في أول الأمر باللغة العربية حتى القرن الثالث عشر، ثم أخذوا يتكلمون باللغة الإسبانية التي تمسّكوا بها واعتبروها لغتهم التقليدية، إذ كانوا في آخر عهدهم قبل أن يطردوا عن إسبانيا سنة 1492م ثم سنة 1496م «مارانيين»، أي يتظاهرون بالمسيحية وهم يقومون بالعبادات والطقوس الدينية اليهودية سراً ثم عادوا إلى اليهودية بعد خروجهم من إسبانيا، وقد هاجر هؤلاء إلى جنوب أوروبا وشمال أفريقيا وبلدان الشرق الأوسط وذهب بعضهم إلى لندن وأمستردام وهامبورغ ثم هاجروا إلى أماكن أخرى من العالم. وتُعرف لغة السفارديين التي لا يزالون يتكلمونها باللادينو الإسبانية (Ladino) وهي اللغة الشائعة عند اليهود الفلسطينيين. وكلا اليديش واللادينو بقيتا على الأصل منذ القرن الخامس عشر مع الألمانية والإسبانية تغيّرتا وتطورتا منذ ذلك الحين.

ويتميز السفارديون عن الأشكنازيين في الاختلاف في الثقافة، ذلك أن اليهود السفارديين كانوا على مستوى أعلى في الثقافة مستفيدين من حضارة العرب في إسبانيا واختلاطهم مع الشعوب الذين عاشوا معهم فجمعوا بين الثقافة الدينية والعلمانية بينما عاش اليهود الأشكنازيون منعزلين منطوين على أنفسهم متمسكين باليهودية وتعاليمها وتقاليدها الدينية. وقد برزت الفروقات والاختلافات بين الطائفتين بعد هجرة يهود إسبانيا وانتشارهم في أوروبا ثم في الأمريكيتين وبعد اختلاطهم باليهود الأشكنازيين في أوروبا، فكان السفارديون يعتبرون أنفسهم أعرق نسباً وأجلّ قدراً في المستوى الحضاري والاجتماعي من الأشكنازيين فلا يخالطونهم في معابدهم ولا يزوجون بناتهم منهم. وقد استمرّت هذه التفرقة بين الطائفتين حتى القرن السابع عشر حيث كانت الطبقات المرفهة من اليهود ما تزال من طائفة السفارديين وحدها، وفي القرن الثامن عشر فقط بدأ بعض الأفراد وبعض المجموعات اليهودية من أوروبا الوسطى والشرقية في الحصول على مكانة متساوية إلى جانبهم.

وأما اليهود الشرقيون فهم الذين غادروا فلسطين أثر السبي والطرد وقد انتشروا في العراق وإيران وأفغانستان وفي دلتا مصر الغربية ومنها إلى سائر شمال أفريقيا، فبعض هؤلاء صاروا يتكلمون باللغات التي يتكلمها أهل البلاد التي نزحوا إليها والبعض الآخر بقوا محافظين على لغتهم الآرامية الحديثة فيما بينهم، وهي اللغة التي كانوا يتكلمونها قبل مغادرتهم فلسطين كاليهود الذين عاشوا في كردستان مثلاً.

وقد تبدّل هذا التقسيم التاريخي بحيث أصبح المفهوم اليوم من كلمة أشكنازيين اليهود الغربيين الذين هاجروا إلى فلسطين من أوروبا وأمريكا مع أن كثيرين منهم من أصل سفاردي، والمفهوم من كلمة سفارديين اليهود الشرقيين الذين كانوا في فلسطين من هجرات قديمة والذين هاجروا إليها بعد قيام دولة إسرائيل من بلدان الشرق الأوسط ومن شمال أفريقيا. وقد انعكست الآية الآن في إسرائيل فبعد أن كان السفارديون يعتبرون أنفسهم أعرق نسباً وأجلّ قدراً في الثقافة والحضارة من الأشكنازيين أصبح الأشكنازيون المسيطرون في إسرائيل اليوم ينظرون إلى اليهود الشرقيين القادمين من اليمن وأنحاء أفريقيا والهند وإيران، نظرة استخفاف واستهانة لتفوّقهم عليهم في المستوى الثقافي والاجتماعي[1].

ومما يذكر في هذا الصدد أن الحكومة العثمانية لم تعترف بالجاليات اليهودية الأشكنازية الغربية، وقد ظلّ الحاخام الأكبر ينتخبه السفارديون الشرقيون حتى عهد الانتداب، عندما طالب الأشكنازيون بحاخام لهم وأجيب طلبهم، وهكذا أصبح لليهود في فلسطين حاخامان كبيران إلا أن حاخام السفارديين كان يلقّب «الأول في صهيون»[2]. وقد أجريت مؤخراً عملية

---

(1) يقول ألفريد ليلنتال في كتابه «**إسرائيل**»: إن اليهود الشرقيين الذين أقنعوا بعد عام 1948 بالهجرة إلى إسرائيل سرعان ما وجدوا أنفسهم ضحايا التعصب، ومع أنهم أصبحوا يشكّلون في النهاية خمسين بالمائة من مجموع إسرائيل فإن اليهود المسيطرين من أوروبا الشرقية والغربية يعتبرونهم فئة أدنى...»

(2) I. Cohen, «**The Zionist Movement**», London, 1954, p.137.

انتخاب الحاخامين الأكبرين الجديدين في إسرائيل يوم 15 تشرين الأول 1972 فانتخب شلومو غورين حاخاماً أكبر لطائفة الأشكنازيين وأوفاديا يوسف حاخاماً أكبر لطائفة السفارديين الذي يصغر بثلاثين عاماً عن سلفه الحاخام الأكبر إسحاق نسيم والملاحظ أن السلف والخلف هما من مواليد العراق.

يتّضح مما تقدّم أن اليهود الأشكنازيين، وهم الأوروبيون المتهودون، لم يتسنّ لهم أو لأجدادهم أن يروا فلسطين في حياتهم ولم يكن لهم أية صلة بها وفي أي وقت، والغريب أن هؤلاء هم اليوم غلاة الصهيونيين وزعماء الصهيونية العالمية[1].

هل يكون اليهود جنساً أو عرقاً واحداً؟

يتضح مما تقدّم أن اليهود الذين يقدر عددهم بحوالي اثني عشر مليون نسمة أو يزيد قليلاً لا يتعدّون كونهم طائفة دينية اجتماعية تضمّ شتى الأجناس واللغات والدماء، يسكنون في مواطن متباعدة، فمنهم يهود الخزر (الأتراك)، واليهود الألمان ذوو السحنة الجرمانية والشعر الأشقر، واليهود السلاف (الروس وسكان البلاد المجاورة لهم)، واليهود الإسبان والبربر، ويهود الحبشة، واليهود الصينيون، واليهود الزنوج والهنود وغيرهم. وكل هؤلاء لا

---

(1) لقد اعتمدنا في وضع النبذة عن الطائفتين اليهوديتين على دراسة هلدا شعبان صايغ بعنوان «**التمييز ضد اليهود الشرقيين في إسرائيل**»، نشرها مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، دراسات فلسطينية (85)، وعلى دراسة الأستاذ نجدت فتحي صفوة «**اليهود والصهيونية في علاقات الدول الكبرى**».

وهذه بعض المراجع حول اليهود في مختلف أنحاء العالم:

J. Starr, «**The Jews in the Byzantine Empire (641-1204**», 1939- A Alt, «**Die Urspruenge des Israëlitischen Rechts**», 1925; S. M. Dunbov, «**A History of the Jews in Russia and Poland**», 3 vols., 1946; M. Lowenthal, «**The Jews of Germany**», 1947; C. Roth, «**A History of the Jews in England**», 1941; C. Rothe «**A History of the Jews in Italy, 1946**»; A. A. Neuman, «**The Jews in Spain**», 2 vols., 1942; G. Saron and L. Hotz, «**The Jews in South Africa**», 1956; Graetz, «**Les Juifs d'Espagne**», Trad Stenne, Paris, 1872; L. Greenberg, «**Jews in Russia**», 2 vols, New Haven, 1953.

يمتّون إلى قوم موسى أو فلسطين بأية صلة غير صلة الدين، وهم متباعدون في الوطن وفي اللغة وفي الثقافة وفي الجنس. وأحسن مثال نورده في هذا الصدد ما ورد في مجلة مصر الإسرائيلية في عددها الصادر في 31 يناير/كانون الثاني سنة 1915 حول المهاجرين اليهود الذين نزلوا منطقة الكباري في مصر فراراً من الإرهاب التركي في فلسطين. فقد كان هؤلاء المهاجرون الذين لم يزد عددهم على 1600 نسمة يتكلمون أربع عشرة لغة مختلفة.

إن ادعاءات الصهيونية في أن اليهود المعاصرين هم أنسال بني إسرائيل القدماء محاولين بذلك الربط يبن حركتهم السياسية وتاريخ بني إسرائيل الديني القديم في فلسطين لتبرير ما يهدفون إليه من إقامة دولة وكيان قومي لهم في فلسطين ادعاءات باطلة زائفة لا تستند إلى أساس علمي أو واقع تاريخي ولا يقرّها المنطق، لأن اليهود المعاصرين هم أبعد ما يكونون من بقايا يهود الشرق. والدليل على ذلك أن إسرائيل الصهيونية تنظر إلى يهود البلاد العربية نظرة احتقار وازدراء، فلا تثق بهم وكثير منهم هم اليوم في سجون إسرائيل مع العرب السجناء.

ويؤكد هذه الحقيقة كثير من علماء الأجناس، فيقول العلّامة «لامبروزو»: «إن اليهود المعاصرين أقرب إلى الجنس الآري منهم إلى الجنس السامي إنهم طائفة دينية تميّزت بمميزات اجتماعية واقتصادية، وانضمّ إليها عبر القرون أناس ينتمون إلى شتى الأجناس البشرية، وبينهم عدد من سكان الحبشة، ومن الألمان الآريين، ومن التأمل من الأقوام الهندية، ومن الخزر من الجنس المغولي، الذين تحوّلوا كما يقول المؤرّخ اليهودي ابن ميمون إلى اليهودية في القرن العاشر، ثم دفعتهم الهجرات البشرية إلى أوروبا الوسطى والغربية. وقد أكّد ذلك علماء بايولوجيون كثيرون منهم الأستاذ «جوزفيتش» أستاذ علم الإنسان في الجامعة العبرية نفسها، فقد أجرى عدّة تجارب بايولوجية على المهاجرين اليهود إلى إسرائيل وسجّل النتائج التي توصل إليها في كتاب بيّن فيه أن اليهود ليسوا شعباً واحداً، بل هم طائفة دينية تضمّ جماعات مختلفة من الناس، اعتنقوا ديناً واحداً، فنسبة ضئيلة من يهود الأقطار

العربية هم من نسل يعقوب وإسحاق[1]. أما يهود أوروبا الشرقية فينتسبون إلى قبائل الخزر، وأما يهود أوروبا فمن أصل أوروبي صميم وقد اعتنقوا الدين اليهودي بعد القرن الثالث الميلادي على أيدي مبشّرين من اليهود[2].

ويقول الأستاذ «يوجين بيتار»: «إن اليهود يعودون إلى طائفة دينية وهيئة اجتماعية دخلتها عناصر من أجناس متباينة ألصقوا أنفسهم بها وأتى هؤلاء المتهوّدون من كل السلالات البشرية كغلاشا الحبشة والألمان الجرمانيين والتأمل ـ اليهود السود ـ والهنود والخزر والأتراك»[3]. ثم يضيف إلى ذلك قوله: «ومن المستحيل أن نتصوّر أن اليهود ذوي الشعر الأشقر أو الكستنائي، والعيون الصافية اللون، الذين نلقاهم كثيراً في أوروبا يمتّون بصلة القرابة ـ قرابة الدم ـ إلى أولئك الإسرائيليين القدماء الذين كانوا يعيشون بجوار الأردن»[4].

ويؤكد ذلك المؤرّخ الدكتور محمد عوض محمد بقوله: «والذين يزعمون أن اليهود جميعاً من سلالة إسرائيل قلّما يقفون لحظة واحدة لكي يذكروا لو أن هذا الوهم صحيح لكان اليهود في جميع أنحاء العالم متشابهين في السحنة والمنظر والتقاطيع، لأن قانون الوراثة يقضي حتماً بأن تشبه الفروع الأصول وتتشابه فيما بينها تشابهاً شديداً، ولو نظرنا إلى اليهود في مختلف أقطار العالم اليوم لوجدنا بينهم الشقر ذوي العيون الزرقاء والشعر الأصفر ورأينا بينهم السمر ذوي الشعر المجعد في هضبة الحبشة والسود في جنوب الهند والصفر المغول في الصين ورأينا بينهم الطوال القامة والقصار وذوي الرؤوس الطويلة والعريضة. ويوشك أن لا يكون هناك اختلافات بين السلالات البشرية أكبر

---

(1) إن جوزفيتش هذا بصفته يهودياً متمسكاً بالتوراة يعتبر أنه لا يزال يوجد من نسل يعقوب وإسحاق اللذين عاشا من 3700 سنة مسايراً في ذلك التقليد الذي فرضته التوراة على الناس وقبلوه من غير تمحيص.

(2) خيري حماد، «**الصهيونية**»، ص 106 ـ 107.

(3) يوجين بيتار، «**الجنس والتاريخ**»، ص 337.

(4) المرجع السابق نفسه.

مما نجده بين الجماعات اليهودية في مختلف القارات. وليس مما يقبله العقل أن تكون هذه الطوائف كلها منحدرة من سلالة جنسية واحدة[1].

يستخلص مما تقدّم أن كلمة يهودي وإن كانت مقتبسة من يهوذا إلا أنها أصبحت تُطلق على كل شخص انتسب إلى الديانة اليهودية وأخذها كدين له، لأن اليهود في مختلف أنحاء العالم هم من سلالات وأجناس مختلفة كما تقدّم إيضاحه ولا تجمعهم أية رابطة جنسية وراثية أو وشيجة لغة أو ثقافة بل تجمعهم العقيدة الدينية وحدها[2] وهذا كله يسخف الادعاءات الصهيونية ومفاهيمها بأن اليهود يكوّنون شعباً واحداً من عرق واحد وقومية واحدة. فقد ورد في الكتاب الذي نشره المجلس الأميريكي لليهودية بعنوان «اليهودية دين لا قومية» أن الشعب اليهودي، بالمعنى السياسي والطائفي، ليس له وجود، وإنما كان يرمز بعبارة «الشعب اليهودي» و«شعب إسرائيل» إلى الناحية الروحانية[3].

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن اللغة العبرية التي يحاول الصهيونيون اليوم جعلها لغة رسمية باعتبارها لغتهم القومية لم تكن في أي زمن من عصور التاريخ لغة قومية يتخاطب بها اليهود فيما بينهم. فالعبرية كانت لغة الأحبار رجال الدين الذين كتبوا فيها التوراة في وقت متأخر (لغة الطقوس الدينية المتأخرة) وهي مقتبسة من الآرامية وحروفها مقتبسة من الأبجدية الكنعانية القديمة. فقد كانت الكنعانية لغة سكان فلسطين الأصليين أولى اللغات التي اقتبسها اليهود بعد أن حلّوا في فلسطين على عهد موسى وعهد الملوك، ثم اقتبسوا اللغة الآرامية وصاروا يتكلمون بها فيما بينهم شأنهم في ذلك شأن أقوام الشرق الأدنى الذين أخذوا بهذه اللغة، وفي شرق أوروبا اقتبسوا اللغة الألمانية القديمة (اليديش) وهي لغة الأشكنازيين التي جاؤوا بها معهم إلى إسرائيل مؤخراً، كما جاء السفارديون بلغة اللادينو الإسبانية. هذا وقد اقتبس بقية يهود

(1) الدكتور محمد عوض، «**المسألة الصهيونية في نظر العلم**»، ص 6.

(2) انظر الدكتور محمد رشيد الفيل، «**اليهود وعلم الأجناس**» ص 78.

(3) **العربي**، العدد 143، تشرين الأول، 1970، ص 149.

العالم لغات البلاد التي استقرّوا فيها، كل ذلك دليل قاطع على أن اللغة العبرية لم تكن لغة قومية لليهود في أي زمن من أزمان التاريخ. وقد جاء الاعتراف بهذه الحقيقة على لسان زعماء حركة الاستدارة اليهودة (هاسكالا) التي ظهرت في القرن التاسع عشر وهي تدعو إلى التجديد والإصلاح الديني، فأعرب هؤلاء عن شكوكهم في كفاية اللغة العبرية للتعبير عن الأفكار العصرية وتنبأوا بزوالها المحتوم. فقد ذكر الكاتب اليهودي مارغوليوث في سلسلة مقالات نشرها في هذا الموضوع أن العبرية في أوروبا الغربية قد حلّت محلها لغة البلاد وأن هذه الحقيقة كافية لإقناع كل فرد بأن اللغة العبرية لا بدّ لها أن تختفي من الأدب مع التقدّم العلمي، وأنها في روسيا ستمحى مع الزمن من مكانها إلى لغة البلاد الحية» وشاركه في هذا الاعتقاد أيضاً، أي زوال اللغة العبرية كأداة ثقافية، الشاعر اليهودي غوردون الذي كان من أنصار الاندماج[1].

الكيان اليهودي كيان ديني بحت:

لم يمارس اليهود في أي دور من أدوار التاريخ حكماً زمنياً قائماً على جنس معين أو قومية ثابتة، فقد كانوا منذ عهد النبي موسى وما زالوا حتى يومنا هذا يمثّلون جماعة يرتكز كيانها على الدين والدين وحده، إذ لم يألفوا غير السلطة الروحانية ولم يتقبلوا سواها. فكان حكامهم كهنة في أكثر الحالات، وفي عهد القضاة كان الحكّام كهنة وأنبياء. وكذلك كان الوضع في عهد الملوك فكان الملوك خاضعين للسلطة الدينية التي يمليها الكهنة أو الأنبياء. ومما يذكر في هذا الصدد أن اليهود لم يظهروا في جميع أدوارهم بأي مظهر من مظاهر البطولة فقد جبلوا على الجبن والخوف حتى جعلوا إلٰههم وقفاً لنزعاتهم فهو الذي يحارب عنهم ويقهر أعداءهم نيابة عنهم: «الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون»[2] «الرب يحارب عن إسرائيل»[3].

---

(1) انظر: «**مجلة مركز الدراسات الفلسطينية**»، م2، عدد أيلول 1973، ص117 ـ 118.
(2) (خر، 14: 14).
(3) (يش، 10: 42، 23: 3).

أما ما يختص بوضع دولة إسرائيل الحالية فيحاول الصهاينة أن ينفوا عن كون حكومة إسرائيل حكومة دينية في حين أنّ جميع الظواهر الاجتماعية والثقافية وحتى القضائية منها قائمة على الدين، ففي ذلك تقول الكاتبة الفرنسية مارتين مونو: «أن دولة إسرائيل تنفي عن نفسها أنها حكومة دينية، ومع ذلك فإن حياة المواطنة فيها مدموغة بالدين. فإعلان الاستقلال متشرب بالديانة كما أن مؤسساتها الدينية وعاداتها وقوانينها الدينية تفرض نفسها على كل شيء بل ولا يوجد سواها في أغلب الأحوال... فدراسة التوراة إجبارية في المدارس الإسرائيلية لست ساعات في الأسبوع بالنسبة لتلاميذ السنة الثامنة، أي الذين يتراوح سنهم بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة مقابل أربع ساعات للرياضيات وأربع ساعات للغة العبرية. ويلتزم مدرسوهم بتقديم عرض أسبوعي يستغرق ساعة كاملة حول الموضوعات التالية: الحركة الصهيونية منذ سبعين عاماً، الروح اليهودية وحرب الأيام الستة والنصر، تاريخ القدس، المدينة اليهودية منذ ثلاثة آلاف سنة... وإذا كانت الدراسة العادية تتضمّن برامجها عدّة ساعات لتلقين النصوص الدينية، فهناك إلى جانب ذلك مدارس دينية بحتة تمولّها الدولة لأن هناك (علاقة خاصة بين الدين والدولة في إسرائيل) على حدّ تعبير أحد المطبوعات الرسمية... وهكذا يتّضح تماماً طابع التعليم حتى غدا الخلط بين الدين والدولة مسألة مبدأ، مما يطبع المواطن الإسرائيلي بالطابع اللاهوتي الضيق الأفق... وطبقاً للقانون الإسرائيلي فإن غير اليهودي المتزوج من يهودية ينجب أبناءً يهوداً ولكن إذا حدث العكس فإن الأطفال لن يكونوا من أفراد الشعب المختار... والزواج المدني معدوم في إسرائيل فحتى اليهودي غير المتدين مجبر على عقد قرانه أمام حاخام والطلاق ديني شأنه شأن الزواج... وتطبق التعليمات الغذائية وقيود يوم السبت بحذافيرها في القوات المسلحة... والهدف النهائي من كل هذه القيود ليس احترام تعاليم الدين في حدّ ذاتها، وإلّا لما لجأوا إلى كل هذه الاجتهادات، بقدر ما هو تذكير المواطنين الإسرائيليين دائماً وفي كل مكان أنهم ينتمون إلى اليهودية، ويتمّ ذلك منذ دخول المدرسة»[1].

---

(1) مارتين مونو، «**إسرائيل كما رأيتها**» ص 33 ـ 47.

وقد برهنت جميع الظروف التي مرّت على اليهود على أنهم لم يتقبلوا غير حكم الكهنة، فلما نشب نزاع بين الجماهير اليهودية في أواخر عهد المكابيين حول نوع الحكم الذي ترغب فيه هذه الجماهير كانت الجموع تطالب بتشكّل حكومة دينية بدون ملوك، ولما كان بعض الكهنة سموا أنفسهم ملوكاً وحكموا على أساس سلطة زمنية رفضهم الجمهور. وقد ظهرت فرقة من اليهود يُسمّى منتسبوها بالجليليين نسبة إلى يهوذا الجليلي كانوا ينادون أنه ليس لليهود ملك إلّا الله والتاريخ يحدّثنا كيف لجأت الفرق اليهودية إلى الحكّام الرومان في آخر عهد المكابيين وصارت تطالب القائد الروماني بومبي عند مجيئه بالذات إلى أورشليم سنة 63 ق.م. بأن يلغي الملكية ويعيّن لهم كهنة لا ملوكاً، فاستجاب إلى طلبهم وعيّن هيركانوس الثاني المكابي تحت لقب «الكاهن الأعظم» وغدا اليهود بعد ذلك تحت حكم الرومان المباشر من جميع الوجوه عدا القضايا الدينية الصرفة التي تركت للكهنة[1].

ويكمن السر في استمرار اليهودية طوال عشرات القرون حتى يومنا هذا في كونها غير مرتبطة باعتبارات جغرافية أو جنس أو لغة قومية أو سياسية، لأن الكيان الزمني والسياسي عرضة لتقلّبات الدهر والزوال، بينما استطاعت اليهودية كدين أن تستمر وتبقى على الرغم من جميع التقلّبات. وخير مثال لذلك هو فشل الكنيسة المسيحية في محاولتها أن تجعل من كيانها سلطة زمنية وذلك بشنّ حروبها الصليبية على الشرق فرجعت إلى نطاق عملها الديني البحت وزالت الدولة الصليبية وبقيت المسيحية وكذلك ستلقى دولة إسرائيل بوضعها الشاذ الحالي المصير نفسه عاجلاً أو آجلاً.

(1) «Peake's Commentary on the Bible», p. 608.

الفصل الثامن

دور الصهيونية والاستعمار
في خلق إسرائيل

الصهيونية حركة سياسية استعمارية:

الصهيونية مشتقة من لفظة «صهيون»، وصهيون اسم رابية في أورشليم كان قد أقام عليها اليبوسيون أبناء عمومة الكنعانيين العرب حصناً قبل ظهور بني إسرائيل (قوم موسى) بحوالي ألفي عام، ولذا تكون اللفظة كنعانية (عربية) وليست عبرية (يهودية)، شأنها شأن أسماء مدن وقرى فلسطين القديمة التي كانت وما زالت تحمل أسماءها الكنعانية الأصلية حتى يومنا هذا. وقد أُطلقت تسمية الصهيونية على منظمة إرهابية أسّسها يهود روسيا بعد منتصف القرن الماضي، فسمي أعضاؤها «عشاق صهيون» و«أحباء صهيون». وانتمى إلى هذه المنظمة معظم يهود روسيا البارزين، منهم والد وايزمن وابن غوريون وسوكولوف.

وقامت هذه المنظمة بحركات سرية ضد القيصرية، ثم أخذت تعنى بفلسطين وصارت تسعى لاستعمارها كوطن قومي لليهود. ويلاحظ من ذلك أن أكثر الزعماء المؤسسين للمنظمة الصهيونية هم من يهود أوروبا الشرقية[1]. وما لبثت هذه المؤسسة أن أصبحت مؤسسة سياسية استعمارية دولية ذات جهاز تنظيمي اتّخذ مؤسسوها من اضطهاد اليهود ذريعة لتنظيم حركة يهودية سياسية تستهدف أول ما تستهدف تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين بحجّة حقوق اليهود التاريخية في فلسطين. وقد وجدت الصهيونية بعد تحرر اليهود في معظم

(1) انظر: «**بروتوكولات حكماء صهيون**»، للأستاذ عجاج نهويض، م 1، ص 6.

أرجاء أوروبا ومنحهم الحقوق المدنية والحرية الكاملة للعيش في المجتمعات الأوروبية ظروفاً مؤاتية لنشاطاتها، فبدأت نشاطها المنظّم بدعوى معاداة الشعوب السامية وبنشر أسطورة مفادها أن فكرة إنشاء الوطن اليهودي في فلسطين قديمة، فمنذ هدم هيكل سليمان قبل ما يقرب من ألفيّ عام واليهود يتطلعون إلى تحقيق حلم العودة إلى فلسطين أرض الميعاد. وقد انبثقت وتكوّنت نتيجة المساعي المبذولة في تحقيق هذا المشروع المبني على الباطل والقائم على التضليل والخداع المنظمة الصهيونية العالمية في نهاية القرن التاسع عشر، ففي آب من عام 1897 عُقد أول مؤتمر دولي للصهاينة في مدينة بازل بسويسرا حضره نحو ثلاثمائة شخص يمثّلون خمسين جمعية يهودية تمخّض عنه تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية وقد انتخب المؤتمر تيودور هرزل رئيساً له[1]. . وبعد ذلك بوقت قليل انبثقت عن المنظمة سنة 1902 الجمعية الصهيونية الدولية المساهمة التي أصبح لها فروع محلية تمثّل أكبر الاتحادات المالية المرتبطة اقتصادياً بأوثق الصلات مع احتكارات الدول الاستعمارية، وقد حدّد مؤتمر بازل أهداف المنظمة الصهيونية في العبارات التالية:

«إن غاية الصهيونية هي خلق وطن للشعب اليهودي في فلسطين يضمنه القانون العام». كما رأى المؤتمر في الوسائل التالية الطريق إلى تحقيق هذه الغاية:

1 ـ العمل على استعمار فلسطين بواسطة العمّال والزراعيين والصناعيين اليهود وفق أسس مناسبة.

---

(1) لقد سبق أن أصدرت جماعة مؤلفة من 500 شاب من يهود خاركوف في روسيا وهم من جملة أعضاء منظمة «عشاق صهيون» بياناً في اسطنبول سنة 1882م على أثر المذابح الموجّهة ضد اليهود في سنة 1881 في روسيا (اليوكروم) يُعرف باسم «بيان بيلو» (The manifesto fo Bilu) تدعو فيه إلى تنظيم حركة العودة إلى فلسطين وتطالب (على حدّ تعبيرها) بالرجوع إلى «بلدنا فلسطين التي منحها الرب لنا وهي وطننا كما أثبتته الوثائق التاريخية». وكلمة بيلو مأخوذة من التوراة وتؤلف الأحرف الأولى مما جاء في العدد الخامس من الإصحاح الثاني من سفر إشعيا «يا بيت يعقوب هلم فنسلك في نور الرب» راجع نصّ البيان في كتاب **«The Israël- Arab Reader»** الطبعة الثانية، ص3 ـ 4.

2 ـ تنظيم اليهودية العالمية، وربطها بواسطة منظمات محلية ودولية تتلاءم مع القوانين المتّبعة في كل بلد.

3 ـ تقوية الشعور والوعي القومي اليهودي وتغذيتهما.

4 ـ اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على الموافقة الحكومية الضرورية لتحقيق غايات الصهيونية.

وقرر المؤتمر أيضاً اعتبار اللغة العبرية لغة رسمية للتخاطب بين اليهود في جميع ربوع العالم. وتنفيذاً لهذا القرار توصل الحاخام «بن يهوذا» في سنة 1911 إلى وضع لغة عبرية حديثة يمكن أن يستخدمها كل يهود العالم الذين يريدون الذهاب إلى فلسطين[1]، وهذه اللغة تعود إلى أصول جرمانية[2].

ومن الواضح أن الحركة الصهيونية غدت تمثّل مخططاً استعمارياً صرفاً ذا صبغة سياسية قائماً على ادعاء باطل وعلى الخداع والتضليل، وقد أخذ زعماؤها يتاجرون بها على مسرح الدول الاستعمارية الكبرى على حساب أهلها وسكّانها العرب.

بروتوكولات حكماء صهيون:

لقد كشف النقاب عن وثائق مهمة يعتقد أنها كانت مدار بحث ونقاش في المؤتمر الأول المنعقد في بازل سنة 1897، فسُمِّيت هذه الوثائق «بروتوكولات حكماء صهيون». ويفضّل البعض تسميتها بمقررات سنة 1897م باعتبارها أُعدّت لتبحث في المؤتمر المنعقد في بازل في تلك السنة وتبرم بعد تلاوتها. وقد كتبت هذه الوثائق على شكل تقرير بدايته مفقودة وهو ينطوي على مخطط يرمي لتمكين اليهود من السيطرة على العالم أجمع لمصلحة اليهود وحدهم وتأسيس حكومة ملكية استبدادية يهودية مقرّها أورشليم أولاً ثم تستقر إلى الأبد في روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية قديماً. والثابت أن مواد هذا

(1) «**حوليات فلسطينية**»، ص 14.

(2) «**العربي**» العدد 109، ص 53.

المخطط مستقاة من التلمود الذي تجسّمت فيه الروح المتعصبة والمعادية لكل من كان من غير اليهود وعقيدة «الشعب المختار» التي تمسك بها اليهود طيلة أدوارهم التاريخية[1]. وعلى الرغم من إحاطة هذه الوثائق بأشدّ أنواع الكتمان والتحفّظ فقد وقعت في أيدي من قام بترجمتها وطبعها. والشخص الذي قام بهذه المهمة الخطيرة هو الكاهن سرجي نيلوس، وهو من رجال الكنيسة الأرثوذكسية، فترجم الكتاب إلى الروسية ونشره بطبعة أولى محدودة سنة 1902، وعلى أثر ذلك عمّت المذابح ضد اليهود في روسيا وقد قتل منهم في إحداها نحو عشرة آلاف، ولكن نيلوس أعاد مع ذلك نشر الكتاب مع مقدّمة وتعقيب بقلمه سنة 1905 وقد سمّاها «بروتوكولات حكماء صهيون»[2]. ثم طُبع الكتاب مرة أخرى في سنة 1911، ومرة أخرى في سنة 1917[3].

وفي السنة الأخيرة ذاتها قام المستر مارسدون، مراسل جريدة المورننغ بوست البريطانية بترجمة الكتاب إلى الإنكليزية عن النسخة الروسية لنيلوس المطبوعة سنة 1905 والتي كانت إحدى نسخها قد وصلت إلى المتحف البريطاني سنة 1906، ثم أُعيد طبع هذه الترجمة الإنكليزية خمس مرات في غضون ثلاث سنوات بين سنة 1919 وسنة 1921. وفي سنة 1919 تُرجم الكتاب إلى الألمانية ونشر في برلين، ثم توقف طبعه بعد أن جمعت أكثر نسخه[4].

---

(1) حول صلة البروتوكولات بأحكام التلمود راجع القس بولس حنا مسعد، «**همجية التعاليم الصهيونية**»، 1938، راجع أيضاً ما تقدّم عن التلمود في الفصل الثالث.

(2) إن صيغة اللغة التي كانت قد كُتبت بها البروتوكولات في الأصل غير معلومة، فيستخلص البعض أنها بالعبرية أو الفرنسية وقام الكاهن نيلوس بنقلها إلى الروسية، بينما يرجّح البعض أنها كانت باللغة الروسية وقام نيلوس بطبعها.

(3) يعتقد الباحثون الغربيون أن واضع البروتوكولات هو أحد كبراء اليهود المشهور في عالم الكتابة اليهودية باسم «أحدها عام»، أي أحد أفراد الشعب، وجاء إلى فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى وأقام ومات فيها سنة 1927 بعد عمل استمرّ نحو 60 عاماً في سبيل الصهيونية.

(4) محمد خليفة التونسي «**الخطر اليهودي - بروتوكولات حكماء صهيون**»، الطبعة الرابعة، بيروت.

وقد اختلفت الروايات حول كيفية ظهور البروتوكولات للعالم وصحّة وجودها أو عدمه، فادّعى البعض أنها مختلقة وليس لها أساس من الصحة بينما أكّدها البعض الآخر. فقد ذكر نيلوس في مقدّمة كتابه أن صديقاً له (يعتقد أنه أليكس نيقولا نيفتشن كبير جماعة أعيان روسيا الشرقية في عهد القيصرية دفعها إليه قبل أربع سنوات (1901) وهي بالتأكيد القطعي صورة حقيقية منقولة من وثائق أصلية سرقتها سيدة فرنسية من أحد زعماء الماسونية الحرّة وقد تمّت السرقة في نهاية اجتماع سري بهذا الرئيس في فرنسا حيث وكر المؤتمر الماسوني اليهودي. وتشير رواية أخرى إلى أن حكومة القيصر التي كانت تتعقّب حركات الصهيونيين أنفذت جواسيسها إلى الروس المجربين إلى بازل متنكرين وبينما المؤتمر منعقد في جلسة سرية دهم البوليس السري القيصري المؤتمر فكانت البروتوكولات من جملة ما استولت عليه أيدي المداهمين[1].

نابليون يستغل فكرة استعمار فلسطين لمصلحته:

وكان أول من اجتذبته فكرة استعمار فلسطين على يد الصهيونيين نابليون بونابرت الذي كان قد خطط لتحقيق حلمه بإنشاء إمبراطورية في الشرق، فبعد شروعه في غزو فلسطين في سنة 1799 وجّه نداءً إلى جميع اليهود في العالم يستحثهم فيه على الانضمام تحت لوائه والانضواء تحت رايته لإعادة بناء «مجد إسرائيل الضائع في القدس» على حدّ تعبيره ويصفهم بأنهم الورثة الشرعيون لفلسطين[2]. والظاهر أن نابليون أصدر هذا النداء لكسب جانب اليهود فيستغل

(1) يجد القارىء في كتاب «**بروتوكولات حكماء صهيون**» للأستاذ البحّاثة عجاج نويهض بحثاً مستفيضاً عن بروتوكولات حكماء صهيون. والكتاب يقع في مجلدين وأربعة أجزاء طبع في بيروت على الأرجح ولم يذكر لا مكان الطبع ولا تاريخه. والكتاب هو من أحسن ما كتب في هذا الموضوع وفي اليهودية العالمية.

(2) يرى مستر جفريز مؤلف كتاب «**فلسطين ـ الحقيقة**» أن فكرة استعمار فلسطين على يد الصهاينة ترجع إلى ما قبل عهد نابليون بحوالي ستة قرون، وذلك حين جاء ثلاثمائة حبر من أحبار اليهود إلى صلاح الدين الأيوبي لاستقصاء الإمكانيات لهجرة اليهود إلى فلسطين فيقول ما هذا نصه: =

نفوذهم في أقطار الدولة العثمانية ومعاونتهم له في تحقيق غاياته ومراميه. ولكن محاولة نابليون هذه انتهت بالإخفاق والفشل التام على أثر اندحار جيوشه أمام حصن عكا الحصين فاضطر بعد ذلك إلى مغادرة القطر المصري بسرعة والعودة إلى فرنسا رغم الانتصار الذي أحرزه في «أبو قير».

وفي أثناء حصار نابليون لعكا أصدر نابليون بياناً موجهاً إلى يهود العالم هذا نصه:

«إن العناية الإلٰهية التي أرسلتني على رأس هذا الجيش إلى هنا قد جعلت رائدي العدل وكفلتني بالظفر، وجعلت من القدس مقري العام، وهي التي ستجعله بعد قليل في دمشق التي يضيرها جوارها بلد داود.

«يا ورثة فلسطين الشرعيين!

إن الأمة العظيمة التي تتّجر بالرجال كما فعل أولئك الذين باعوا أجدادكم للشعوب، تناديكم الآن لا للعمل على إعادة احتلال وطنكم حسب، وليس بغية استرجاع ما فُقد منكم بل لأجل ضمان ومؤآزرة هذه الأمة لتحفظوها مصونة من جميع الطامعين بكم لكي تصبحوا أسياد بلادكم الحقيقيين».

«انهضوا وبرهنوا على أن القوة الساحقة التي كانت لأولئك الذين اضطهدوكم لم تفعل شيئاً بسبيل تثبيط همة أبناء هؤلاء الأبطال التي كانت محالفة إخوانهم تشرف إسبارطة وروما».

ويعتقد أن نابليون قد تأثر بما كتبه بعض الكتّاب الفرنسيين بشأن اليهود، ومن هذه الكتابات المذكرة التي قدّمها البرنس «دي لينيه» إلى إمبراطور النمسا

= «لما استعاد صلاح الدين مملكة الإسلام وجد اليهود عطفاً منه وكانوا عندئذ قلّة (في فلسطين).
وهناك حادث تاريخي غريب ذو بال قل من عرفه، وهو أن صلاح الدين استقبل في سنة 1211م، ثلاثمائة حبر من أحبار اليهود جاؤوا من إنكلترا وفرنسا، وقد جاء هؤلاء سعياً وراء الاستقصاء عن إمكانية هجرة اليهود (إلى فلسطين). غير أن مهمة هؤلاء الأحبار لم تسفر عن أية نتيجة. انظر: Jeffries (P.), «**Palestine- The realigy**», p. 3.

جوزيف الثاني عن اليهود سنة 1797 حيث أشار فيها إلى وجوب إصلاح شأن اليهود وإعادتهم إلى مملكة يهوذا وأضاف قائلاً: «وهم لا يحجمون عن أن يجعلوها بلاداً عامرة مزدهرة كما كانت في عهدها الماضي. ومتى عادت بلاد اليهود إلى يدهم، فإنهم لا يتوانون لحظة في إدخال الزراعة والصناعة والفنون والتجارة إليها على الأساليب الغربية. ثم إنهم يجددون هيكل سليمان ويستخدمون مياه الأمطار والمجاري لري حقولهم ومزارعهم، وينشئون القنوات والترع للملاحة»[1]. هذا نموذج من الآراء التي كانت تروّجها جماعة من الطبقة الأرستقراطية الحاكمة في أوروبا وقد كان لها صدى في تخطيط نابليون لإمبراطوريته في الشرق.

بريطانيا تحتضن الصهيونية وتتبنى مشروعها الاستعماري:

وبعد فشل نابوليون في تحقيق مشاريعه الاستعمارية في الشرق أخذت كل واحدة من الدول الاستعمارية الكبرى تحاول تحقيق الأهداف نفسها التي كان نابليون يسعى لتحقيقها، أي استغلال التمهيدات الصهيونية لاستعمار فلسطين على يد اليهود لصالحها. وكانت إنكلترا في الطليعة وهي رائدة الدول الاستعمارية وأقدمها خبرة وأوسعها معرفة وأطلاعاً بشؤون الاستعمار، فوجدت في المبشرين بالفكرة الصهيونية من رعاياها من اليهود وغيرهم أداة طيعة تستغلها في تحقيق المشروع لصالحها قبل أن تحتضنه دولة أخرى لصالحها. ومن هؤلاء المبشّرين الثري اليهودي البريطاني الجنسية السير موسى مونتوفيوري الذي كان في مقدّمة المتحمسين للصهيونية ومشروعها الاستعماري، فزار فلسطين عدّة مرات وأقام في مصر مراراً عديدة وكان مونتوفيوري هذا مقرّباً من البلاط البريطاني يحظى برعاية خاصة من الملكة فكتوريا وريثة التاج البريطاني. وقد كان آنئذ اللورد بالمرستون متقلّداً منصب رئيس الوزراء وكان بدوره من الذين يؤيدون مشروع تمكين اليهود من استعمار فلسطين لمصلحة بريطانيا. ففي سنة 1738 قابل مونتوفيوري محمد علي باشا

(1) إيلي ليفي أبو عسل، «**يقظة العالم اليهودي**» ص 124.

الكبير والي مصر بصفته حاكماً عاماً على سوريا التي كانت ولاية فلسطين تابعة لها وعرض عليه «أن يؤجر لليهود مائة أو مائتي قرية لمدى خمسين سنة في مقابل عشرة أو عشرين في المائة تدفع في الإسكندرية من قيمة الإيجار تدريجياً على أن تكون هذه القرى حرّة مجردة من كل مانع ومحذور، أي طليقة من قيود الضرائب والإتاوة كل مدّة الإيجار، وللمزارعين الحق في بيع حاصلاتهم في أي بلد من بلدان العالم، وليس من حرج عليهم في ذلك». وقد أسفرت هذه المقابلة عن «تعهّد محمد علي باشا بالترخيص لليهود في شراء أية مساحة يستطيعون أن يجدوها في ربوع سوريا». وأبدى الوالي رغبته في أن تمنح لهم الأراضي بمجرد طلبهم وقال: إن اليهود بإمكانهم والحالة هذه أن ينتخبوا حكّاماً يقع اختيارهم عليهم للإشراف على مقاطعات فلسطين بأسرها. وأكّد أنه لن يدّخر وسعاً في سبيل معاونتهم وشدّ أزرهم في إنجاز هذا المشروع. وقد أصدر أمراً بتأييد هذه التأكيدات والوعود كتابياً بمقتضى الفرمانات الصادرة عن الحكومة المصرية في هذا الخصوص. وكانت تهدف بالطبع مساعي مونتوفيوري هذه لحلّ المسألة اليهودية بوساطة استعمار فلسطين (على حدّ تعبيره) بمؤازرة الحكومة البريطانية وتأييدها[1] وفي هذا الوقت بالذات وجّه بالمرستون وزير خارجية بريطانيا، رسالة إلى نائب القنصل الإنكليزي في القدس يأمره فيها: «كن حامياً لليهود بصورة عامة». وفي سنة 1840 كتب بالمرستون أيضاً إلى سفير جلالة الملك في اسطنبول رسالة يقول فيها: «من الواضح أنه سيكون للسلطان مصلحة كبيرة في أن يشجع اليهود على أن يعودوا إلى فلسطين، وأن يستقروا فيها... أحمل هذه الفكرة سراً إلى الحاكم التركي، وأطلب منه في صراحة تامة أن يشجع يهود أوروبا على العودة إلى فلسطين»[2].

ثم نشبت الحرب بين محمد علي باشا وبين الحكومة العثمانية فأسفرت عن انتصار جيشه وزحفه على الآستانة بعد أسر عدد من القوّاد الأتراك. وقد

(1) «**يقظة العالم اليهودي**»، ص 145 ـ 152.

(2) «**حوليات فلسطينية**»، ص 10 ـ 11.

أصبحت أبواب الآستانة مفتوحة أمام جيش محمد علي لولا تدخل الجيش الروسي لسدّ تلك الأبواب بوجهه، وبعد تدخل الدول الكبرى اضطر محمد علي باشا إلى سحب جيشه الظافر من الأناضول وترك الأقطار السورية ومن ضمنها فلسطين إلى الحكومة التركية لإدارتها بوساطة حكّام من الباب العالي. وكانت شروط الصلح التي فُرضت على محمد علي باشا في 5 أيلول 1840 تنازله عن سيادته على سوريا وفلسطين على شرط أن يكون الحكم في مصر حقاً متوارثاً لذرّيته وأعقابه، فكان ذلك ضربة قاصمة لمشروع مونتوفيوري ومؤيديه[1]. إلا أن هذه الأحداث لم تثن دعاة المشروع عن مواصلة دعايتهم له والسعي لتحقيقه. ففي 25 أيلول 1840 كتب اللورد شافتبوري السياسي الإنكليزي المعروف رسالة إلى وزير خارجية بريطانيا بالمرستون يقول فيها: «إن سوريا ومن ضمنها فلسطين ينبغي أن تحول إلى دومنيون إنكليزي» وأكّد أن الحاجة تستدعي من أجل ذلك إلى رأس المال واليد العاملة.. وإذا ما بحثنا مسألة عودة اليهود لبناء فلسطين واستيطانها فإننا سنكتشف بأن تلك أرخص الطرق وأسلمها لتأمين كل ما هو ضروري لهذه المنطقة الضئيلة السكان[2]. وكتب شافتبوري بعد ذلك مقالاً للصحف قال فيه: «ستكون سوريا (ومن ضمنها فلسطين) بعد إعادة إنشائها بلداً تجارياً بصورة خاصة، ومن هم أكبر التجار في العالم؟ وهل يوجد حقاً مكان أكثر ملاءمة، ومنطقة مباركة، يمكن أن يبدي فيها اليهودي مؤهلاته؟ إنها ستكون ضربة موجهة ضد إنكلترا إذا ما

---

(1) يجد القارىء في كتاب الأستاذ عجاج نويهض «**بروتوكولات حكماء صهيون**» (م2، ص248 ـ 260) بحثاً مستفيضاً يتناول تاريخ حياة مونتوفيوري ودوره في محاولات الصهيونية في تحقيق أهدافها الاستعمارية الخاصة باستيطان اليهود في أرض فلسطين. ومما ذكره الأستاذ نويهض في هذا الصدد أن مشروع مونتوفيوري كان يرمي إلى استئجار 100 ـ 200 قرية في شمال فلسطين، صفد وطبرية وما إليهما، لمدة 90 سنة على أن تدفع الأعشار السنوية سلفاً وبزيادة 10 ـ 20% على معدل تخمين الأعشار وقتئذ وعلى أن تكون الأراضي خلال مدة الإيجار لا يد لأحد عليها، واليهود أحرار في التصرّف في الإنتاج داخل فلسطين وخارجها، إلا أن انسحاب جيش محمد علي باشا من سوريا وفلسطين قضى على هذه الصفقة.

(2) N. Socolow, «**History of Zionism**», vol. II, p. 230.

امتلك أي من منافسيها سوريا». وفي 25 كانون الثاني 1853 أعلن في البرلمان الإنكليزي العقيد جورج غاولر، حاكم جنوب أستراليا السابق «أن العناية الإلٰهية هي التي وضعت سوريا ومصر على طريق إنكلترا إلى أكثر مناطق تجارتها الخارجية الكولونيالية أهمية. . . وينبغي أن تحدد بريطانيا يد سوريا بوساطة الشعب الوحيد الملائم للقيام بهذه الرسالة والذي يمكن أن تستخدم طاقته بصورة دائمة وفعّالة، إنهم الأبناء الحقيقيون لهذه الأرض، أبناء إسرائيل»(1). وقال جيمس نيل في كتابه «النزوح إلى فلسطين أو جمع شمل إسرائيل المشردة» سنة 1877: «إن احتمال إمكانية الإنكليز استيطان أرض فلسطين بالنجاح نفسه الذي استوطنوا به أمريكا الشمالية بعيد جداً وذلك بسبب حرارة الجو والصعوبات التي يقيمها العرب والافتقار إلى حماية فعّالة وكثير غير ذلك. لهذا فهو يقترح أن يستخدم اليهود لتحقيق هذا الهدف(2).

ومن أغرب الأحداث الدالّة على التزاحم بين الدول على كسب النفوذ السياسي في فلسطين مشاركة إنكلترا وألمانيا في تأسيس إرسالية تبشيرية مشتركة في القدس سنة 1851، فاتفقتا على أن يشرف عليها أسقف مرسوم على المذهب (الإنكليكاني) الإنكليزي، ولكن تعيينه يجري بالتناوب بين ملك إنكلترا وملك بروسيا (ألمانيا) ومما حمل الدولتين على تأسيس أسقفية مشتركة في القدس أن السلطات الإنكليزية والبروسية في الشرق والحماية الدينية التي تتمتع بها فرنسا على النصارى الكاثوليك يحسن أن توازنا بحماية ألمانيا إنكليزية على البروتستانت. وقد كان أول أسقف على أسقفية القدس هذه ميخائيل شلمون إسكندر وهو حاخام يهودي متنصّر. ومن الواضح أن الدوافع لتأسيس هذه الأسقفية المشتركة وإن كانت دينية في الظاهر ولكنها كانت سياسة من الدرجة الأولى(3).

وهكذا بات الجو مهيئاً لظهور الصهيونية كحركة سياسية منظمة وكمؤسسة

---

(1) N. Socolow, op. cit., vol. II, p. 366.

(2) يوري إيفانوف «**حذار من الصهيونية**»، ترجمة محمد كامل عارف، ص 45 ـ 46.

(3) المصدر السابق نفسه.

رأسمالية فأنشئت في إنكلترا في السبعينيات من القرن التاسع عشر «الشركة الكولونيالية السورية ـ الفلسطينية» بغرض استعمار سوريا وفلسطين والبلدان القريبة. وفي سنة 1897، كما ذكر من قبل، تمَّ تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية بقيادة زعيمها الأول تيودور هرزل. وقد صاغ هرزل الأفكار الصهيونية في حركة سياسية مرتبطة بالإمبريالية العالمية في كتابه «الدولة اليهودية» وأصبح هو المنظم لها وداعيتها ومندوبها السياسي. وقد كان لإنشاء قناة السويس بين 1859 و1869، وخاصة بعد أن تمّ لدزرائيلي شراء أسهمها سنة 1875، أثر في توجيه سياسة بريطانيا نحو فلسطين بغية اتخاذها قاعدة تستغل في حماية القناة، وذلك بتشجيع وتأييد المشروع الصهيوني الرامي إلى استعمار فلسطين من قبل اليهود تحت رعاية وحماية الحكومة البريطانية فقد جاء في مذكرات الوزير البريطاني المستر إيمري قوله: «نحن نرى من وجهة النظر البريطانية الخالصة، أن إقامة شعب يهودي ناجح في فلسطين يدين بوجوده وفرصته في التطور إلى السياسة البريطانية هو كسب ثمين لضمان الدفاع عن قناة السويس من الشمال ولأداء دور محطة الطرق الجوية المقبلة مع الشرق». كما جاء في مذكرات تشرشل وهو آخر بناة الاستعمار البريطاني قوله: «إذا أُتيح لنا في حياتنا، وهو ما سيقع حتماً، أن نشهد مولد دولة يهودية، لا في فلسطين وحدها، بل على ضفتي نهر الأردن معاً، تقوم تحت حماية التاج البريطاني وتضمّ نحواً من ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود، فإننا سنشهد وقوع حادث يتّفق تمام الاتفاق مع المصالح الحيوية للإمبراطورية البريطانية»(1).

فلسطين في خطط الاستعمار الأوروبي ـ مقررات مؤتمر السير كامبل بنرمان لسنة 1905 أو مؤتمر لندن:

إن نظرية كون الحضارات تمرّ بدورات متعاقبة تنمو وتزدهر، ثم تشيخ وتذبل وتندثر، إن هذه النظرية أخذت تقلق بال زعماء الاستعمار الأوروبي الحديث، مسترشدين بما وقع للحضارات القديمة عبر التاريخ مثل حضارة

(1) خيري حماد، «**الصهيونية**»، ص 78 ـ 80.

الفراعنة في مصر وحضارة الصين وحضارة البابليين والآشوريين وغيرها من الحضارات المتأخرة مثل حضارة الإغريق والرومان والحضارة العربية الإسلامية، وذلك لاتخاذ التدابير اللازمة للوقاية والحذر قبل أن تحلّ الكارثة الحتمية بالحضارة الأوروبية الحديثة، القائمة على الاستعمار، لأن هناك من المفكّرين من كان يرى أن الحضارة الأوروبية الراهنة قد دخلت مرحلة الانهيار والاندثار.

وكان من العلماء العرب من أخذ بالنظرية ذاتها، ففي رأي ابن خلدون أن لدى الأمم والدول أعمار طبيعية كما للإنسان؛ فبعد أن تأخذ الأمم بالدعة والراحة وتنغمس في الملذات والشهوات وتميل إلى الرخاء والترف «تأخذ بمبادىء العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها». وقد ذكر عن نابليون أنه قال بأن أوروبا شاخت وأن القوة الآتية تكمن في مكانين كانا بكراً: أمريكا بشبابها الطاغي وروسيا بذلها الشديد الذي لا بدّ أن ينفجر عن شيء جديد قوي.

وجاء في رسائل إخوان الصفا وخلّان الوفاء (ص 182 ـ 183) وصف للدول والإمبراطوريات بالمعنى نفسه هذا نصه: «واعلم أن الملك والدولة ينتقلان في كل دهر وزمان، ودور وقران، من أمة إلى أمة، واعلم بأن كل دولة لها وقت منه تبتدىء، وغاية إليها ترتقي، وحدّ إليه تنتهي، فإذا بلغت إلى أقصى غاياتها ومدى نهاياتها، تسارع إليها الانحطاط والنقصان وبدأ في أهلها الشؤم والخذلان، واستأنف في الآخرين من القوة والنشاط والظهور والانبساط، وجعل كل يوم يقوى هذا ويزيد، ويضيف ذاك وينقص إلى أن يضمحل الأول المقدم ويستمكن الآتي المتأخر».

وقد كان أول من تنبأ تنبوءاً قاطعاً بانهيار حضارة أوروبا الحالية الفيلسوف الألماني أوزوالد شبنجلر الذي أعلن رأيه هذا قبل ثلاثين سنة معززاً رأيه بالنظرية القائلة بأن التاريخ الإنساني ليس خطاً مستقيماً إلى التقدّم، ولكنه دورات متعاقبة النموّ والانحلال وإن كل حضارة هي أشبه بإنسان، يولد وينمو ويزدهر ثم يشيخ ويذبل ويموت، ثم تبدأ دورة حضارة أخرى في مكان آخر من

العالم وهكذا. .[1] ومن أقوال شبنجلر: «إن الحشرات تشبه البشر لأنها تولد وتنمو وتنضج وتموت. ويتكون البشر من حجيرات بايولوجية أما الحضارة فإنها تتألف من البشر الذين يموتون وتخلفهم أجيال جديدة تماماً كالحجيرات التي تتغير في أجسامنا كل ثماني سنوات».

وقد آمن أرنولد توينبي بنظرية شبنجلر في أن التاريخ دورات حضارية تولد وتنمو ثم تشيخ وتموت. ولكنه قال: إن هذا لن يحدث للحضارة الراهنة، والسبب في رأيه أن الحضارة الراهنة تعلّمت من التاريخ وعرفت الخطر فهي سوف تتمكّن من أن تتجنب تكراره[2].

وتحسساً بالخطر المحدق بالحضارة الأوروبية القائمة على الاستعمار عقد مؤتمر لندن عام 1905 سراً واستمرّ حتى عام 1907، وقد دعا إليه السير كامبل بنرمان[3] الذي كان يشغل منصب رئاسة الوزارة البريطانية بغية تشكيل

---

(1) كان شبنجلر يعمل حتى عام 1910 مدرساً في سابروكن ودوسلدروف وهامبورغ دون أن يكون لديه شهادة اختصاص أكاديمي، وما إن انتهى عام 1918 إلّا وظهر كتاب ضخم في مكتبات ألمانيا يحمل عنواناً مثيراً «تدهور الغرب» ولم يلاحظه القرّاء في بادىء الأمر، ثم اكتشف الناس أهمية الكتاب الذي يضمّ لأول مرة محاولة لتقرير ما سيحدث في تاريخ المستقبل ومحاولة لمتابعة مراحل لم تحدث بعد من مصير حضارة الغرب. ولعلّ هذا هو السبب الذي جعل الناس ترغب في الاطلاع على ما تضمنه من آراء فارتفع عدد النسخ المباعة منه حتى أعيد طبعه عدّة مرات، ولم تمض عشر سنوات حتى بيعت من الكتاب مائة ألف نسخة، وذلك على الرغم من أن المؤلف لم يحمل شهادة أكاديمية. وكانت طريقة شبنجلر تعتمد على مقارنة الحضارات وكان يعتقد بأن التاريخ يمكن أن يكون علماً كعلم الأحياء أو الفيزياء (انظر: «**سقوط الحضارة**» لمؤلفه كولن ولسون، ترجمة أنيس زكي حسن، بيروت 1971، ص126 ـ 142).

(2) أحمد بهاء الدين «حضارات تزدهر ثم تهوي»، **مجلة العربي الكويتية**، العدد 209، نيسان 1976، ص6 ـ 13.

(3) هو السير هنري كامبل بنرمان سياسي بريطاني تزعم حزب الأحرار في فترة عصيبة من تاريخ إنكلترا وأصبح رئيساً للوزارة البريطانية من سنة 1905 إلى سنة 1908، ولم يلبث أن مات يوم 22 نيسان من الشهر نفسه أي بعد استقالته بـ 17 يوماً (**دائرة المعارف البريطانية** لسنة 1965، 44: 717).

جبهة استعمارية موحّدة من الدول ذات المصالح المتوافقة في العالم آنذاك وهي: بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا والبرتغال وإيطاليا وإسبانيا، باعتبار أن تعاون بريطانيا مع هذه الدول ضرورياً لمصلحة بريطانيا في إيقاف المدّ الاستعماري الألماني الجديد من جهة وفي تنسيق التوسّع الاستعماري البريطاني من الجهة الأخرى، وأنفقت الدول المذكورة على التعاون الودّي بينها وعلى تأليف لجنة من خبرائها تتولى دراسة الوضع القائم ثم تقدّم لها مقترحات وتوصيات فيما يتعلق بضمان استمرار نموّ المصالح الاستعمارية المشتركة التي كانت تتمتع بها تلك الدول. وهكذا فقد حدت المصالح المشتركة بالدول الاستعمارية إلى تنسيق العمل فيما بينها على الرغم من الخلافات القائمة في علائقها السياسية. فأعلن السير كامبل بنرمان عن عقد المؤتمر وكان يتألف من مشاهير المؤرّخين وكبار علماء الاجتماع والجغرافيا والاقتصاد والتاريخ والنفط والزراعة والاستعمار في دول الاتحاد، وكان بينهم البروفسور جيمن جيمس مؤلف كتاب البحوث التاريخية المشهور وزوال الإمبراطورية الرومانية، ولوي مادلين الأستاذ في السوربون ومؤلف كتاب نشوء وزوال إمبراطورية نابليون، وليستر الأستاذ في جامعة لندن، ولتسنخ، وسميث، ودرتنج، وزهروف وغيرهم من مشاهير العلماء والأساتذة، وقال بنرمان يخاطب المؤتمر في تحديد مهمته:

«... إن الإمبراطوريات تتكوّن وتتّسع وتقوى ثم تستقر إلى حدّ ما، ثم تنحلّ رويداً ثم تزول، والتاريخ مليء بمثل هذه التطورات وهو لا يتغير بالنسبة لكل نهضة ولكل أمة. فهناك إمبراطوريات روما، وأثينا والهند والصين وقبلها بابل وآشور والفراعنة وغيرها، فهل لديكم أسباب أو وسائل يمكن أن تحول دون السقوط والانهيار، أو تؤخر مصير الاستعمار الأوروبي وقد بلغ الآن الذروة وأصبحت أوروبا قارة قديمة استنفذت مواردها وشاخت معالمها بينما العالم الآخر لا يزال في شبابه يتطلّع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية!. هذه هي مهمتكم أيها السادة وعلى نجاحها يتوقف رخاؤنا وسيطرتنا..!».

وقام المؤتمر بدراسة تاريخ الإمبراطوريات وتطوراتها وكيف نشأت

وازدهرت ثم تلاشت وانحلّت، كما قام ببحث الأسباب التي أدّت إلى انهيار هذه الإمبراطوريات بعد بلوغها قمة الحضارة، ثم درس الإمبراطوريات الراهنة، وبعد مضي أكثر من سنة استمرّ في الدراسة قدم المؤتمر نتائج ما توصّل إليه على شكل تقرير سري خاص إلى وزارة الخارجية البريطانية، ولما رأت خطورته أحالته على وزارة المستعمرات البريطانية، ثم اختفى التقرير من غير أن يعرف أحد به. وقد بقي هذا التقرير منسياً حتى قبيل الحرب العالمية الأولى «حينما نشره صحفي بريطاني صهيوني في معرض الدفاع عن الوطن القومي اليهودي في فلسطين، واستشهاداً بآراء وقرارات الحكومة البريطانية وسادة الاستعمار العالمي على ذلك وتبريراً لقيام (إسرائيل) كضرورة اقتصادية وسياسية واجتماعية لأوروبا ولمصالحها وسيطرتها في الشرق[1].

لقد احتوى التقرير على مقدّمة شرحت فيها مصالح الدول الاستعمارية في العالم القديم وفي مقدمتها بريطانيا التي لها مصالح في جميع القارات، وكذلك لفرنسا مصالح أيضاً في القارة الإفريقية وفي الهند الصينية وجزر المحيط الهادي. أما إيطاليا فمصالحها في ليبيا وكذلك فإن لإسبانيا مصالح حيوية في المغرب وجزر الأطلنطي، ثم قسم العالم إلى مناطق نفوذ وأعطى لكل دولة من دول الاتحاد منطقة أو أكثر فيه. «ثم انتقل التقرير بعد ذلك إلى إثبات حقيقة أساسية مشتركة في كل الدول الاستعمارية، وهي أن البحر المتوسط هو الشريان الحيوي للاستعمار ولمصالح كل الدول المتحدة، الآنية والمقبلة. فهو الجسر بين الشرق والغرب، وهو الممر الطبيعي إلى آسيا وإلى أفريقيا، وهو ملتقى طرق العالم، فلا بدَّ لنجاح أية خطة تستهدف حماية المصالح الأوروبية المشتركة من السيطرة على هذا البحر وعلى شواطئه الجنوبية والشرقية، لأن من يسيطر على هذه المنطقة يستطيع التحكّم في العالم[2].

وبعد استعراض أسباب زوال الإمبراطوريات السابقة، شرح الباحثون مصدر الخطر الذي يهدد كيان الاستعمار ويهدد إمبراطوريته ويزيلها كما زالت

(1) **الثقافة القومية الاشتراكية**، دمشق 1972 ـ 1973 ص71.

(2) المرجع السابق، ص74.

الإمبراطوريات السابقة. فتوصلوا إلى أن الخطر يكمن في البحر المتوسط وفي شواطئه الجنوبية والشرقية بوجه خاص، «فعلى الجسر البري الضيق الذي يصل آسيا بأفريقيا، وتمرّ فيه قناة السويس شريان حياة أوروبا وعلى جانبيّ البحر الأحمر وعلى طول ساحلي البحر الهندي وبحر العرب حتى خليج البصرة حيث الطريق إلى الهند وإلى الإمبراطوريات الاستعمارية في الشرق، في هذه البقعة الشاسعة الحساسة يعيش شعب واحد، تتوفر له من وحدة تاريخية ودينية ووحدة لسانه وآماله، كلّ مقومات التجمّع والترابط والاتحاد، وتتوفر له في نزعاته التحررية وفي ثرواته الطبيعية ومن كثرة تناسله كل أسباب القوة والتحرر والنهوض. ويبلغ تعداده الآن 35 مليون نسمة، ويمكن أن يرتفع في مدى قرن واحد إلى مائة مليون نسمة بالنسبة إلى شرائعه الإسلامية التي تتيح تعدد الزوجات وتؤدي إلى زيادة النسل والتكاثر. «فكيف يمكن أن يكون وضع هذه المنطقة إذا توحّدت فعلاً آمال شعبها وأهدافه، وإذا اتّجهت هذه القوة في اتجاه واحد؟».

واستطرد التقرير في التساؤل:

«ماذا لو دخلت الوسائل الفنية الحديثة ومكتسبات الثورة الصناعية الأوروبية إلى هذه المنطقة!. وماذا لو انتشر التعليم وعممت الثقافة في أوساط هذا الشعب؟. وماذا سيكون إذا تحررت هذه المنطقة واستغلّت ثرواتها الطبيعية من قبل أهلها؟».

ويجيب التقرير على هذا السؤال، فيقول:

«عند ذاك ستحلّ الضربة القاضية حتماً بالإمبراطوريات الاستعمارية، وعندها ستتبخر أحلام الاستعمار بالخلود، فتتقطع أوصاله ثم يضمحل وينهار كما انهارت إمبراطوريات الرومان والإغريق»[1].

وهذا نصّ القسم الذي أمكن الاطلاع عليه من التقرير:

«إن الخطر ضد الاستعمار في آسيا وفي أفريقيا ضئيل، ولكن الخطر

---

(1) **الثقافة القومية الاشتراكية**، ص74.

الضخم يكمن في البحر المتوسط، وهذا البحر هو همزة الوصل بين الغرب والشرق، وحوضه مهد الأديان والحضارات، ويعيش على شواطئه الجنوبية والشرقية بوجه خاص شعب واحد تتوافر له وحدة التاريخ والدين واللسان، وكل مقوّمات التجمع والترابط. هذا فضلاً عن نزعاته الثورية وثرواته الطبيعية. فماذا تكون النتيجة لو نقلت هذه المنطقة الوسائل الحديثة وإمكانيات الثورة الصناعية الأوروبية، وانتشر التعليم فيها وارتفعت الثقافة؟! إذا حدث ما سلف فستحلّ الضربة القاصمة حتماً بالاستعمار الغربي، وبناء على ذلك فإنه يمكن معالجة الموقف على النحو التالي:

1 ـ على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزئة هذه المنطقة.. وتأخرها، وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وتأخر وجهل.

2 ـ ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقي في هذه المنطقة عن الجزء الآسيوي، وتقترح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشري، قوي وغريب، يحتلّ الجسر البري الذي يربط أوروبا بالعالم القديم ويربطها معاً بالبحر الأبيض المتوسط، بحيث يشكّل في هذه المنطقة، وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار، وعدوة لسكان المنطقة»[1].

يتضح مما تقدّم أن مستقبل فلسطين ومصيرها تقررا في هذا التقرير.

وتدلّ الحوادث التي وقعت بعد ظهور هذا التقرير دلالة واضحة على أن خبراء السياسة البريطانية ومعهم خبراء الدول ذات المصالح المشتركة أخذوا يخططون بدقة متناهية الوسائل التي تأمل تنفيذ وتحقيق المنهاج المقترح. فأقيم الحاجز البشري من عنصر غريب على شكل قوة «صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة» وذلك عن طريق تنفيذ وعد بلفور وغرس إسرائيل شوكة في قلب المنطقة.

---

(1) انظر: **«وثائق التدخل الأجنبي في الوطن العربي»**، جمعها موسى الكاظم التونسي، دمشق 1972، ج1، ص47 ـ 48؛ **«اليهودية»** للدكتور أحمد شلبي، ط3، 1973، ص99 ـ 102.

وهنا التقت الصهيونية بمخطط الاستعمار الجديد، فمنذ سنة 1907 سار الاستعمار البريطاني والصهيونية العالمية جنباً إلى جنب في طريق القضاء على عروبة فلسطين وإقامة (دولة إسرائيل) فيها، فسارعت بريطانيا وهي سيدة الاستعمار حينذاك إلى الأخذ بيد الصهيونية واتفقت مع زعماء الصهيونية العالمية على تأسيس دولة إسرائيل في فلسطين ونسقت معهم العمل على تحقيق هذا الهدف المشترك. ثم نظمت المخططات السياسية للحيلولة دون اتحاد البلاد وذلك بوضع العراقيل في وجه أية محاولة ترمي إلى تحقيق الوحدة بينها. أما فيما يتعلق بإبقاء الشعب على ما هو عليه من تأخر وجهل فقد قام الاستعمار البريطاني بسنّ تشريعات العشائر في الدول العربية عندما كانت تحت الاحتلال أو الانتداب خدمة لأغراضه في المنطقة. وهذه التشريعات كانت تستهدف المحافظة على القيم والتقاليد القديمة التي تحجّرت وراء قرون طويلة من التخلّف وإظهار الكيانات القبلية وتنمية دور القبائل وزيادة وزنها الاجتماعي ومنع اندماجها في المجتمع العربي ليبقى المجتمع العربي في حالة من التفكك والانقسام.. ففي العراق قامت سلطات الاحتلال البريطاني باستصدار نظام دعاوى العشائر لسنة 1918 الذي وضعه المستر هنري دوبس من أعوان المندوب السامي البريطاني والذي كان يهدف إلى تنمية العادات المحلية للعشائر والمحافظة عليها من الاندثار. وقد استمرّ هذا النظام قائماً إلى أن ألغته ثورة تموز لعام 1958. كما سنّ قانون تسوية حقوق الأراضي رقم 50 لسنة 1932 وزعت الأراضي الزراعية بموجبه على رؤساء العشائر بعد أن كانت ملكية الأرض تعود إلى العشيرة بأسرها فثبت هذا القانون حقوق الرؤساء فيها. ومما ساعد على تنفيذ هذا المخطط الصلاحيات الواسعة التي منحت إلى رؤساء تسوية الأراضي، وهم بريطانيون، بعد أن أوكل إليهم تطبيق القانون وفق السياسة البريطانية المرسومة، وهكذا برزت في العراق حفنة من الإقطاعيين المتنفذين والموالين للاستعمار الذي أصبح حليفهم الطبيعي وشريكهم في مقاومة أماني الشعب وتطلّعاته التقدّمية التحررية. وقد ألغت ثورة

تموز هذا النظام الإقطاعي بتحديد الملكية بموجب قانون الإصلاح الزراعي رقم 30 الصادر في 30 أيلول 1958.

وفي الأردن قامت السلطات الإنكليزية بسنّ أول قانون لمحاكم العشائر عام 1924، ثم حلّ محل هذا القانون محاكم العشائر لسنة 1936 ومنح بموجبه قائد الجيش سلطات واسعة في الإشراف على العشائر ومعالجة شؤونهم. وفي فلسطين قامت السلطات الإنكليزية أثناء فترة انتدابها على هذه البلاد بوضع عدد من التشريعات لتحقيق الأهداف نفسها والتي لم تزل نافذة حتى اليوم في الضفة الغربية من الأردن[1]. وفي سوريا سار الفرنسيون على النمط نفسه حتى تكوَّن قانون العشائر الصادر سنة 1940 بحيث أصبحت العشائر في بادية الشام بموجب هذا القانون دولة داخل دولة. وفي ذلك يقول الأستاذ حبيب جاماني: «مجموعة من الناس مكّنتهم شريعة الاستعمار من الخروج على القانون!.. خلعت عليهم الإقطاعات وأعفتهم من الخدمة العسكرية وأتاحت لهم حمل السلاح.. حمتهم من الضرائب بل مكّنتهم من الأتاوات على الضعفاء!.. ثم بعد إصدار قانون الإصلاح الزراعي سنة 1958 الذي ألغي بموجبه نظام الإقطاع في الإقليم السوري، كان لا بدَّ من إصدار قرار متمم له، بإلغاء قانون العشائر الذي لم يكن ضرره أخفّ من الإقطاع. وبإلغاء هذا القانون العجيب تكون قد انطوت صفحة سوداء من صفحات الماضي البغيض، لأنها صفحة كتبتها يد المستعمر للتفريق بين أبناء الوطن الواحد»[2].

وكانت البادرة البارزة التي تلت ظهور تقرير لجنة كامبل بزمن تلك الحرب الشعواء غير المعلنة التي شنّها الاستعمار على اللغة العربية الفصحى (لغة الوحي التي نزل بها القرآن الكريم رحمة للعالمين) والتي استخدم فيها جميع صنوف أسلحة التضليل والتزييف. وشتى الأساليب والحيل بقصد تفريق

(1) «فاروق الكيلاني»، «**شريعة العشائر في الوطن العربي**»، ص 83 ـ 85.

(2) حبيب جاماني، **مجلة المصور المصرية**، عدد 10 أكتوبر/تشرين الأول 1958.

المجتمعين عليها تحت ستار من الرغبة في الإصلاح والتطور ومسايرة العصر. ولا غرو فقد اكتشف فيها الرباط المقدس الذي يشدّ الملايين العربية بعضهم إلى بعض في مختلف أقطارهم وديارهم من المحيط إلى الخليج والأساس المتين لجمع كلمتهم وإقامة وحدتهم في ما توافرت لها الظروف الملائمة. وإلى جانب الملايين العربية توجد مئات من الملايين المسلمة وغير المسلمة التي تستخدم الحرف العربي في كتاباتها[1] والتي بمقدور اللغة العربية، باعتبارها لغة الدين والوحي، بما تتميز به من الخصائص التي لا تتوافر لأية لغة عداها لما فيها من جمال في الكتابة وقدرة على نطق جميع الأصوات التي يستخدمها الإنسان والحيوان أيضاً للتعبير على حاجاته ورغباته وأداء تلك الأصوات كتابة، أن تضمها إلى الملايين العربية.

واللغة العربية، فوق هذا وذاك، هي اللغة الأم التي تفرّعت عنها جميع لغات الدنيا وحاملة لواء الحضارات العربية المتعاقبة التي سايرت الإنسان منذ أن وجد على الأرض والتي تعود إلى أجيال سحيقة في التاريخ تصل إلى القرن التسعين قبل الميلاد في مملكة أيبلا والقرن الستين في ماري وإلى أربعة آلاف وخمسمائة سنة قبل الميلاد في كنعان وبلغت أوج ازدهارها عند مطلع القرن الثلاثين، في كل من حوضي وادي النيل ووادي الرافدين في حقبة زمنية واحدة وعلى مستوى واحد من العظمة والجلال.

والاستعمار، على حداثته، أخذت شعوبه تشعر بالهرم نسبياً وتشكو من نقص مواردها الطبيعية على عكس الشعوب العربية الأخرى التي يمكن للغة العربية الفصحى أن تجمعها في وحدة متكاملة فيما لو توافرت لها الظروف الملائمة حيث ما زالت تحافظ على نضارتها وسريان ماء الشباب في عروقها وتحتفظ بفائض في مواردها الطبيعية ولأجيال عديدة لا يمكن حصرها. وعندئذ ماذا سيكون مصير وإلى ماذا ستؤول خسارته الباردة الجامدة التي بناها على الأخذ دون العطاء وامتصاص دماء الشعوب فيما لو قيض قيام مثل هذه الوحدة.

---

(1) حبيب جاماني، **مجلة المصور المصرية**، عدد 10 أكتوبر/تشرين الأول 1958.

فاللغة العربية الفصحى إذن تحمل في طياتها شبحاً أخذ يهدّد الاستعمار ويرى فيه مصيره المحتوم ولا بدَّ له إن هو أراد الحول دون ذلك المسير أو تأخيره ما استطاع إلى ذلك سبيلاً حتى يجد لنفسه مخرجاً أن يعمل جاداً وأن يركز على تقويض اللغة العربية الفصحى وتأديب المجتمعين عليها لهجرها والانتقال إلى غيرها. فأخذ يوجّه إليها الاتهامات الباطلة كقوله: «إن اختلاف لغة الحديث عن لغة الكتابة عامل من أهم عوامل التخلّف الثقافي» وينشر الدعوات التي تطالب تارة بالأخذ بإحدى اللهجات العامية في الدول العربية كالمصرية أو السورية أو العراقية وطوراً باستبدال الحروف الأبجدية العربية بالحروف اللاتينية ومرة ثالثة بإسقاط بعض أبواب النحو أو على الأقل تعديل بعض قواعده. وقد وجد من ساعد الاستعمار في حملته المسعورة ضد اللغة العربية الفصحى (لغة القرآن بداوته) للأخذ بالآداب الحديثة أي ما يُسمّى بالأدب الشعبي ويقصد به كل ما هو مكتوب بغير الفصحى. وخلاصة القول إن هذه الدعوات كانت تستهدف تفريق المسلمين عامة، والعرب خاصة، عن طريق تفريقهم في الدين، وتفريقهم في اللغة وتفريقهم في الثقافة وقطع الطريق على كل توسع محتمل للّغة العربية بين مسلمي العالمْ لمنع وحدتهم الكاملة. ولقد استطاع الاستعمار أن يحرز بعض النجاح في حربه هذه بإخراجه تركيا من حظيرة الشعوب التي تستخدم الحرف العربي في كتاباتها واستخدام الحرف اللاتيني عوضاً عنه مقابل إقطاعها أجزاء من سوريا والعراق ولكنه لاقى فشلاً ذريعاً داخل الوطن العربي ولم يكلّل بالنجاح أي مسعى من مساعيه ولا دعوة من دعواته وهذا مما يدلّ على عمق جذور اللغة العربية.

وترجع البدايات الأولى لنموّ الدعوة للعامية إلى أوائل القرن الثامن عشر عندما أخذت دول أوروبا تنشىء معاهد خاصة لتدريس اللهجات العربية العامية. وكان الغرض من إنشاء تلك المعاهد تخريج السفراء والقناصل وأعضاء الهيئات الدبلوماسية ولتخريج الجواسيس وغيرهم من الهيئات والأفراد الذين يوفدون إلى البلدان العربية المختلفة. وقد استعانت هيئات التدريس في تلك المعاهد ببعض المغتربين الموجودين آنذاك في دولها كما استعانوا بهم في

التأليف. بيد أنه لم يكن لتلك المساعي أية خطورة على اللغة الفصحى إلى أن أخذ بعض المستشرقين ممّن أوفدوا إلى الوطن العربي خصيصاً لهذه الغاية ينشرون مؤلفاتهم ومقالاتهم باللغة العامية ويدعون للأخذ بها مستغلّين مراكزهم ونفوذهم للوصول إلى غايتهم المنشودة. وكان من أبرز أوائل أولئك المستشرقين الدكتور ولهلم سبيتا.

وخلفه الدكتور كارل فولرس Vollers (1857 ـ 1909) وكلاهما من الجنسية الألمانية وعملا مديرين لدار الكتب المصرية. كان سبيتا أول من دعا إلى الأخذ باللغة العامية المصرية وإلى استبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني عندما وضع كتابه: «قواعد العربية العامية في مصر» وذلك سنة 1880م. أما الدكتور فولرس الذي نَهَجَ منهج سلفه نفسه فقد زاد عليه بأن استنبط حروفاً لاتينية لكتابة العامية المصرية.

وتلاهما في هذا الاتجاه المستشرقان البريطانيان سلدن ولمور وياول.. اللذان عملا كقاضيين في المحاكم الأهلية في القاهرة عندما وضع الأول سنة 1901 كتاباً أسماه «لغة القاهرة» ضمّنه قواعد لهذه اللغة ودعا لاتخاذها لغة للعلم والأدب كما اقترح فيه كتابتها بالحروف اللاتينية. وتصدّت الصحف لهذه الدعوة مشيرة إلى مكامن الخطر فيها والتي لا يقصد منها غير محاربة الإسلام في لغته وكانت ردة الفعل من القوة أن ألهبت خيال الشاعر حافظ إبراهيم ودفعته إلى وضع تائيته العصماء التي مطلعها:

رجعتُ لنفسِي فاتهمتُ حَمَاتي ونَاديتُ قَومِي فَاحتسبتُ حَيَاتِي

حاملاً على تلك الدعوة الهدامة ومعرضاً فيها على لسان اللغة العربية ميل أبنائها عنها إلى اللغات الأجنبية.

وتلا ولمور وياول في هذا المضمار المهندس البريطاني المشهور ويليام ويلكوكس الذي كان أشرس المستشرقين وأكثرهم نشاطاً في الدعوة إلى إقصاء اللغة الفصحى واتخاذ العامية بديلاً عنها. فويلكوكس لكثرة ما تجوّل في البلدان العربية كان يعلم أن الفصحى هي سر هذا الترابط القومي في الشعور بين العرب خاصة والمسلمين عامة ويعلم مدى تشبّثهم بها باعتبارها لغة

القرآن، لذلك كان شديد الحرص في دعوته وللوصول إلى الغاية المنشودة ونسف ذلك الترابط القومي فقد سعى للفصل بين الجماهير العربية ولغتها القومية. ففي محاضرة ألقاها سنة 1893م في هذا الاتجاه أبدى تفاؤله بمستقبل الشعب المصري وأعرب عن ثقته في قدرته على اكتساب ملكة الاختراع والإبداع أن اتّبع مشورته ولبى دعوته للكتابة والتأليف بالعامية، وجدّد دعوته إلى هجر اللغة العربية الفصحى سنة 1926 عندما نشر رسالة تحت عنوان «سوريا ومصر وشمال أفريقيا ومالطا تتكلم اللغة اليونية وليس العربية». وكذلك ترجم قطعاً من روايات شكسبير إلى ما أسماه باللغة المصرية ونشرها، مسرحاً للدعوة إلى العامية بدعوى ضرورة الاطّلاع على أدب شكسبير ولا سيما الطلبة الذين يمثّلون الجيل الصاعد، كما نقل إلى العامية أجزاء من الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد وألّف أيضاً كتاباً أسماه «الأكل والإيمان» ضمَّنه إرشادات صحية وفوائد طبية.

ولم يكتف أولئك المستشرقون بتلك الكتب والمقالات والمحاضرات بل تعدّوا ذلك إلى تدوين ما أسموه «بالآداب الشعبية والفولكلورية» باللغة العامية كالأزجال المصرية والأغاني الشعبية والأمثال والحكمة في ذلك إدخال العامية في نماذج من المطبوعات القابلة للتداول وأخذت الدعوة في الانتشار عندما أدخلت اللهجة السوقية إلى المسرح الهزلي ومنه انتقلت إلى المسرح الجاد.

وكذلك فقد حارب الاستعمار الفرنسي اللغة العربية الفصحى في شمال أفريقيا حرباً لا تقلّ في شراستها عنفاً عن حرب الاستعمار البريطاني لها في مصر ووضع مستشرقوه كتباً عدّة في دراسة اللهجات البربرية ووضع القواعد لها بقصد إحلالها محل اللغة العربية الفصحى. وكان على رأس الحركة الرامية إلى الكتابة باللغة العامية وبالحرف اللاتيني المستشرق لويس ماسينيون الذي حاول أن يثبت دعوته هذه في المغرب العربي وفي مصر والعراق[1] ولا سيما في سوريا ولبنان.

---

(1) انظر كتابه عن اللهجات العامية البغدادية: ترجمه إلى العربية الدكتور أكرم فاضل، ونشرته وزارة الإرشاد العراقية سنة 1962 ضمن المكتبة الفولكلورية (2).

وقد تمكّنت تلك المساعي والجهود المبذولة أن توصل الدعوة للعامية إلى كبريات الصحف والمجلات المصرية وأخذ بعضها بالترويج لها. ففي سنة 1881 اقترحت مجلة المقتطف كتابة العلوم بلغة الحديث أي بالعامية ودعت رجال الفكر إلى بحث اقتراحها ومناقشته. وأكّدت المقتطف موقفها المؤيد للعامية وأثارت الصراع بين الفصحى والعامية من جديد بتقريظها لكتاب ولمور الذي أصدره سنة 1901، ووقفت مجلة الأزهر إلى جانب المقتطف في الدعوة إلى العامية وبحرارة تفوق حرارة ويلكوكس الذي أغرى المصريين بمكافآت مالية ضخمة للتباري في الكتابة باللغة العامية. أما مجلة الهلال، وإن لم تكن شديدة الحماس للعامية كزميلتها المقتطف، فقد نشرت مقالاً لسلامة موسى يثني فيه على ويلكوكس كمهندس وكأديب وكواحد من الإنجليز المخلصين لمصر وضمنه اقتراحه بإلغاء الإعراب وتسكين أواخر الكلمات مدّعياً أن اللغة العربية لا تخدم الأدب المصري ولا تنهض به وإنما تبعثر الوطنية المصرية وتجعلها شائعة في القومية العربية وامتدح سلامة موسى رسالة ويلكوكس «سوريا ومصر وشمال أفريقيا تتكلم اليونانية وليس العربية» وأشاد بها وكرّر تأييده لدعوته في هجر الفصحى هجراً تاماً. وكان من الذين شاركوا في هذه الحملة الظالمة على الفصحى «لويس عوض» الذي دعا هو الآخر إلى نبذ الشعر الموزون وإحلال العامية محل الفصحى.

وبلغت الدعوة إلى العامية ذروتها عندما تمكّنت من التسلل إلى «مجمع اللغة العربية» وظهرت في مجلته الناطقة باسمه سلسلة من المقالات حول «اللهجة العربية السامية» 1934 ـ 1937 كتبها عضوه المدعو عيسى إسكندر المعلوف أظهر فيها عداء صريحاً للعربية الفصحى وكان قد سبق تلك المقالات بمقال نشره سنة 1902 في مجلة الهلال دافع فيه عن اللهجات السوقية مؤكداً أن اختلاف لغة الحديث عن لغة الكتابة هو من أهم أسباب التخلّف الثقافي في الدول العربية: كما ادّعى أن تعلّق المسلمين باللغة الفصحى هو أمر لا مبرر له لأن هناك مسلمين كثيرون يتحدثون العربية ولا يكتبون بها فعلاً. وتبعه عضو آخر من أعضاء هذا المجمع هو عبد القادر المغربي الذي نشر مقالاً في مجلة

المجمع سنة 1936 تحت عنوان «دراسة في اللهجة المصرية»، وتلاه عضو آخر هو عبد العزيز فهمي الذي تقدّم باقتراح يرمي للأخذ بالحروف اللاتينية لكتابة العربية في الجلسة المنعقدة في 3/ 5/ 1943. وتناول موضوع اللغة العامية عضو آخر هو محمد فريد أبو حديد في دراسة عن خصائص اللغة العامية اختلق لها ذرائع ومبررات لا طائل تحتها. وتدلّ ردود الفعل القاسية التي كان يوجّهها المناوئون لفكرة اتخاذ العامية والحروف اللاتينية للكتابة وما شابه ذلك على أن الرأي العام كان مع العربية الفصحى وإلى جانب تلك الردود وهكذا فقد آلت جميع تلك المساعي المبذولة للقضاء على اللغة العربية الفصحى إلى فشل ذريع.

هذا غيض من فيض عن مساعي الإنكليز للقضاء على اللغة العربية الفصحى ووأدها في مصر ليتمّ للاستعمار تنفيذ منهاجه الرامي إلى هدم التراث العربي من أساسه والتخلّص من القومية العربية المرتبطة باللغة العربية الفصحى (لغة القرآن) وقد عرضناها جملة لإظهار شراسة الاستعمار الذي كان الإنجليز في مقدّمة الساعين لتحقيق أهدافه في البلاد العربية وقد فشلت جميع تلك الجهود المبذولة في هذا المضمار وانحسر الاستعمار وبرزت القومية أكثر إشراقاً وتألقاً. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على مدى تغلغل القومية العربية في الأرض العربية والنفس العربية وعلى قدرتها الفائقة على الصمود وتخطّي كل هذه التيارات المصطنعة المشبوهة ولا بدَّ في أنها ستصمد في وجه الاستعمار الجديد وستخرج مكللة بأكاليل الظفر بإذن الله(1).

فكرة استعمار العريش وشبه جزيرة سيناء:

كانت فلسطين كما سبق ذكره الهدف الأساس في مشروعات هرتزل

(1) راجع «**الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر**» تأليف محمد محمد حسين 1954 ـ 19، 2: 334 ـ 261، «**تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها في مصر**» تأليف الدكتورة نفوسة زكريا سعيد، مجلة «**المثقف العربي**» وزارة الإعلام أيلول 1974 صفحة 78 ـ 86، «**التبشير والاستعمار في البلاد العربية**» تأليف الدكتور مصطفى خالدي والدكتور عمر فروخ بيروت 1973.

لاستيطان اليهود وتأسيس دولة يهودية فيها[1]، إلا أن محاولاته المباشرة وغير المباشرة في هذا السبيل، أي محاولة إقناع السلطان عبد الحميد بالموافقة على هجرة اليهود إلى فلسطين، باءت جميعها بالفشل[2]، ففكر هرتزل أن يتجه إلى الحكومة البريطانية التي كانت تظهر العطف على الحركة الصهيونية منذ نشوئها بغية حصوله على معاونتها في استعمار العريش وشبه جزيرة سيناء كبداية لتحقيق المشروع الأصلي الذي يرمي إلى استعمار فلسطين، فجعل من مدينة لندن سنة 1902 المقرّ المالي للحركة الصهيونية. وقد لاقى هرتزل تشجيعاً من

(1) حبيب جاماني، **مجلة المصور المصرية**، عدد 10 أكتوبر/تشرين الأول 1958.

(2) كان اتصال هرتزل بالسلطان عبد الحميد عن طريق وسيط يدعى شيفاليه دي نيولنسكي C. De Newlinsky كانت له صلة بالباب العالي في اسطنبول ففاتح السلطان عبد الحميد في طلب منح اليهود بعض الأراضي في فلسطين بغية إنشاء مستوطنة مستقلة على نمط جمهورية فينيسيا، فكان الرد القطعي بأن قال: «انصحوا دكتور هرتزل بأن يحجم عن أيّة خطوة أخرى في هذا الموضوع لأني لا أستطيع أن أفرط بقدم مربعة من الأرض لأنها ليست ملكي وإنما هي ملك الشعب الذي قاتل من أجلها وهي معجونة بدمه.. ليحتفظ اليهود بملايينهم، فإذا قدّر لمملكتي أن تتبدّد فعندئذ قد يحصلون على أرض فلسطين مجاناً، أما قطع أي شبر من أرضنا هو بمثابة قطع قطعة لحم من جسمنا». هذا ما ذكره باربور نقلاً عن يوميات هرتزل المنشورة في تل أبيب سنة 1934، انظر:

N. Barbour, «**Nisi Dominus- A Survey of the Palestine Controversy**», London, 1946, p.45.

وهناك ما يدلّ على أن السلطان عبد الحميد وافق في عام 1902 بعد مفاوضات طويلة مع هرتزل الذي عرض عليه مبلغ 1600000 جنيه استرليني مقابل منح اليهود حق الاستيطان الاستعماري في العراق وسوريا والأناضول واستثنى فلسطين مما دفع هرتزل إلى رفض العرض (انظر: «**تاريخ فلسطين الحديث**»، للدكتور الكيالي نقلاً عن مذكرات هرتزل الكاملة، ج4، ص1302).

ويجد القارىء في كتاب الجنرال التركي رفعت آتيلفان، «**الخطر المحيط بالإسلام**» بحثاً مفصلاً عن دور الصهيونية في خلع السلطان عبد الحميد والمؤامرات التي دبّرت لإسقاطه بسبب عدم رضوخه لمطالب اليهود لمنحهم امتيازات في فلسطين. ففي ذلك يقول: «إن الشخص الوحيد في تاريخ الأتراك عموماً الذي عرف حقيقة الصهيونية وقدّر أضرارها الأتراك والإسلام وكافحها مدة طويلة لتحديد شرورها هو السلطان عبد الحميد الثاني، إن هذا السلطان التركي العظيم كافح هذه المنظمات الخطرة مدة ثلاث وثلاثين عاماً بذكاء وعزم وإرادة مدهشة جداً كالأبطال.

المسؤولين البريطانيين فقابل المستر جوزف تشمبرلين وزير المستعمرات البريطاني وفاتحه في موضوع العريش وسيناء، ويروي هرتزل أنه في نهاية المقابلة سأل الوزير البريطاني هل يوافق على إنشاء مستعمرة يهودية في شبه جزيرة سيناء فأجابه نعم إذا وافق اللورد كرومر مندوب بريطانيا السامي في مصر. وفي اليوم التالي قابل هرتزل اللورد لانسدون وزير الخارجية فأعرب له الوزير عن تأييده لفكرة إقامة مستعمرات يهودية في منطقة العريش وشبه جزيرة سيناء وعن استعداده لكتابة رسالة إلى اللورد كرومر يوصيه باستقبال ممثل هرتزل وتسهيل مهمته الاستطلاعية. وقد أسفرت زيارة ممثل هرتزل المدعو «جرينبرج» لمصر عن تأييد اللورد كرومر ورئيس وزراء مصر حينذاك للاقتراح الرامي إلى استعمار اليهود لشبه جزيرة سيناء، واقترح اللورد كرومر إيفاد بعثة دراسية من الخبراء لبحث هذا المشروع والطريقة التي يمكن بواسطتها ري الصحراء من مياه النيل، ولكن خبراء الري عارضوا مشروع إرواء الصحراء من النيل مما اضطر هرتزل إلى التخلّي عن المشروع كلية.

اقتراحات لاستعمار أوغندا، وموزمبيق وبعض الكونغو ثم إعادة التركيز على فلسطين:

وبعد فشل مشروع سيناء تقدَّم تشمبرلين باقتراح إلى هرتزل يرمي إلى استيطان اليهود أوغندا في أفريقيا الشرقية، وقد جرت اتصالات حول الحصول على موزمبيق من حكومة البرتغال، كما أنه ورد ذكر إمكانية استعمار أجزاء من الكونغو، ولكن هرتزل قال في تعليقه على ذلك بأن هذه المشاريع كلها لن تغيّر من المخططات الصهيونية الأصلية بشأن استعمار فلسطين وأضاف أن آمالنا في تحقيق هدفنا النهائي لم تكن في يوم من الأيام أقوى مما هي عليه الآن، وسيقوى نضالي من أجل أرض صهيون ويعظم ويشتدّ، بفضل القوى الجديدة التي أصبحت في جانبنا». وبموت هرتزل في الثالث من تموز 1904 ماتت المشاريع الصهيونية المتعددة إذ اتخذ المؤتمر الصهيوني السابع قراراً بالتخلي عن جميع المشاريع الاستعمارية الصهيونية خارج فلسطين، وانصرفت القيادة الصهيونية الجديدة في السنوات التالية إلى مشاريعها الاستعمارية في

فلسطين بزعامة الدكتور حاييم وايزمن الذي وجد في بريطانيا خير حليف للصهيونية خاصة بعد أن تحقق النصر للحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى وفرضت السيطرة البريطانية على فلسطين. وكان قد تمكّن مكتب فلسطين الذي أنشأته المنظمة الصهيونية في يافا في عام 1908 وبمساعدة الصندوق القومي اليهودي، من بناء منطقة سكنية جديدة سنة 1909 أصبحت نواة مدينة تل أبيب. وقد نشطت المؤسسات الصهيونية المالية في بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين وذلك بشراء الأراضي وتدريب المستوطنين وإنشاء المدارس المهنية حتى تمكّنت من توطين نحواً من أربعين ألف يهودي في فلسطين في فترة ما قبل نشوب الحرب العالمية الأولى، ثم توقفت أعمال المؤسسة الصهيونية مؤقتاً عن العمل بسبب الحرب، ولم تكد الحرب تنتهي حتى بادر الصهيونيون إلى إعادة تنظيم الحركة الصهيونية على نطاق عالمي، فتم عقد المؤتمر الصهيوني في لندن سنة 1919 الذي أسفر عن قيام أول تنظيم للحركة الصهيونية داخل فلسطين الذي ما لبث أن تحول إلى الوكالة اليهودية بدوائرها السياسية والتنظيمية والمالية والدعائية وبمكتبها المتخصص في شؤون الهجرة. واستكملت الحركة الصهيونية في هذا المؤتمر وفي المؤتمر الذي تلاه في لندن أيضاً في عام 1920 وفي مقدمتها الصندوق القومي الجديد للإسكان والاستعمار[1].

محاولات لتوطين اليهود في العراق:

وقد كتب الدكتور غروبا وزير ألمانيا المفوض في العراق في مذكراته يقول: «وقد حاولت بعض المنظمات اليهودية الإنكليزية والفرنسية مرات عديدة أن توطّن في العراق مجموعات من الفلاحين اليهود من أوروبا الشرقية، لاتساع الأرض ووفرة الماء في العراق مع قلّة السكان الذين يقومون بزراعتها، وفي سنة 1907 أوفدت «جمعية التوطين اليهودية» التي مقرّها لندن، والتي كانت تتعاون تعاوناً وثيقاً مع «جمعية الاتحاد الإسرائيلي» في باريس، اليهودي

(1) خيري حماد «**الصهيونية**» ص 43 ـ 49.

الفرنسي «نييغو» (Niego) إلى بغداد لدراسة موضوع التوطين، وقد بقي «نييغو» هذا أربعة أشهر أو خمسة في بغداد... واقترح توطين خمسين ألف يهودي، روسي وبولوني، فأيّد المشروع وزير مالية تركيا جاويد بك ولكن عبد الحميد رفضه.. وكذلك تسلّم الملك فيصل الأول خلال زيارة له إلى لندن في أيلول سنة 1933 اقتراحاً بتوطين مائة ألف يهودي في دجلة السفلى، في المنطقة بين العزيزية وكوت الإمارة، وعرضت على الحكومة العراقية في حالة قبولها بعض الفوائد المالية، وخاصة تسهيلات في الحصول على قرض كبير. وكان المفروض أن يكون قسم من هؤلاء المائة ألف يهودي من مهاجرين ألمانيا. فأرسل الملك فيصل هذا الاقتراح إلى الحكومة العراقية للنظر فيه...[1].

الصهيونية تنشط بعد الحرب العالمية الأولى وتعمل على تحقيق أهدافها بإسناد من بريطانيا:

ولقد أصبح الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام الصهيونية بعد احتلال الحلفاء لفلسطين في أواخر الحرب العالمية الأولى وراحت تعمل بكل نشاط في سبيل تحقيق مخططها الرامي إلى إقامة الدولة اليهودية في فلسطين. وقد غدا وعد بلفور بعد قبوله في مؤتمر سان ريمو في عام 1920[2] دستور السياسة البريطانية في فلسطين يُهتدى به في تنظيم مخططات بريطانيا الاستعمارية خاصة بعد أن أقرّ مجلس عصبة الأمم في 24 تموز من عام 1922 انتداب بريطانيا على فلسطين، فسارت الصهيونية تركّز جهودها على

---

(1) «**العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب**»، ترجمة نجدة فتحي صفوة، 1969، ص123 ـ 124.

(2) إن وعد بلفور هو عبارة عن خطاب موجّه من وزارة الخارجية البريطانية سنة 1917م. إلى «لورد روتشيلد» بوصفه ممثل اللجنة السياسية التابعة للمنظمة الصهيونية، وفي هذا الخطاب يعلن وزير الخارجية البريطانية باسم حكومته أنها تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وتريد أن تبذل كلّ جهودها لتحقيق هذا الهدف، على أن يكون من المفهوم بوضوح أنها لن تفعل أي شيء قد يضرّ بالحقوق الدينية أو المدنية الخاصة بالجماعات غير اليهودية في فلسطين.

تنظيم الهجرة اليهودية إلى فلسطين وإقامة المستعمرات اليهودية فيها لوضع أسس الوطن القومي حتى ارتفع عدد اليهود في فلسطين من 40 ألفاً قبل نشوب الحرب العالمية الأولى إلى 55 ألفاً في عام 1919 وإلى 108 آلاف في عام 1925 وإلى 300 ألف في عام 1935 وإلى 650 ألفاً في عام 1948[(1)]. وبعد أن وثق الاستعمار البريطاني بأن الوضع أصبح مهيئاً لإقامة الدولة اليهودية قرر إحالة القضية إلى الأمم المتحدة التي أقرّت مشروع التقسيم وقيام إسرائيل في الرابع عشر من مايس/أيار عام 1948.

وكان وايزمن قد تمكّن أثناء الحرب من إقناع الحكومة البريطانية بتكوين فرقة يهودية تقاتل إلى جانب الحلفاء وكانت تلك الفرقة اليهودية هي نواة جيش إسرائيل الذي حارب خلال الفترة التي تلت إعلان قيام دولة إسرائيل، وكان لهذه الفرقة علمها المستقلّ وقد أصبح ذلك العلم علم دولة إسرائيل.

وهكذا نفذت الخطة الجهنمية المنطوية على طرد مليون عربي من وطنه وإحلال شرذمة من شذّاذ الآفاق من مختلف أنحاء العالم محلها بالاستناد إلى حراب الإنكليز وادعاءات وهمية زائفة بحق أنسال بني إسرائيل في فلسطين.

الصهيونية تنتقل في نشاطها إلى أمريكا:

وكان للقرار الذي اتّخذته المؤسسة الصهيونية العالمية خلال الحرب العالمية الأولى الخاص بانتقال نشاطها إلى أمريكا أثره في تطور القضية الفلسطينية على الصعيد الدولي ولكن بالرغم من أن الحركة الصهيونية كانت تتجه بسرعة إلى التركيز على الولايات المتحدة الأميركية بقيت بريطانيا مركزاً رئيسياً للنشاط الصهيوني طالما أن بريطانيا ما زالت هي الدولة المنتدبة في فلسطين، وعلى هذا ظلَّ قادة الحركة الصهيونية يستغلّون النفوذ الصهيوني في أمريكا للضغط على مركز السلطة في بريطانيا لتحقيق مصالح الصهيونية.

وفي خلال الحرب العالمية الثانية أدركت الصهيونية أن نجم إنكلترا أخذ

(1) خيري حماد، «**الصهيونية**»، ص 76.

بالأفول وأنها لا بدَّ من أن تنقل مركز نشاطها إلى أمريكا، بعد أن أصبحت لا تأمن جانب بريطانيا التي كانت سياستها ترمي إلى تحديد كيان إسرائيل وربطه بعجلة الإمبراطورية البريطانية وتسخيره لمصالحها الاستعمارية، فاتّصلت باتحادات ونقابات العمال وبالمجالس النيابية في الولايات الأمريكية المختلفة وأعضاء الحزبين الجمهوري والديمقراطي، ولم يأت عام 1944 حتى كانت برلمانات 33 ولاية قد أصدرت توصيات تؤيد فيها المطالب الصهيونية، ثم تحوّلت نشاطات الأجهزة الصهيونية إلى كسب تأييد الكونغرس الأمريكي للصهيونية، وتمكّنوا خلال أعوام قليلة من تحقيق هذا التأييد مستغلين في دعاياتهم جهل الرأي العام الأميركي للقضية الفلسطينية. وهكذا أخذت الصهيونية تلعب دوراً مهماً في الانتخابات الأمريكية وتستخدم نفوذها للحصول على أكبر المكاسب في مصلحة الصهيونية وتحقيق أهدافها.

تسامح العرب والدعاية الصهيونية في البلاد العربية:

وقد وجد الصهاينة ظروفاً ملائمة في تسامح العرب تجاه الأديان السماوية لنشر دعايتهم هذه داخل البلاد العربية التي كان معظمها خاضعاً للنفوذ البريطاني، فكانت مصر المركز الرئيسي للحركة الصهيونية والملاذ الحر لطبع منشوراتها فيها. وأغرب ما قرأت من هذه المنشورات كتاب ألّفه باللغة العربية كاتب يهودي صهيوني يدعى إيلي ليفي أبو عسل عنوانه «يقظة العالم اليهودي» طبع بالقاهرة سنة 1934. نعم إنه لغريب وغريب جداً ما قرأته في هذا الكتاب، والأغرب منه أنه سُمح بنشره في بلد عربي. إن مؤلف هذا الكتاب يعتبر هرتزل صنواً لموسى وأنه ظهر لإتمام مهمة موسى في تحقيق استعمار اليهود لفلسطين، وإن الحركة الصهيونية ليست إلّا تكملة لرسالة موسى إلى شعبه وهكذا يجعل هرتزل في مصاف الأنبياء الذين يجب تقديسهم. فهو يقول بالحرف الواحد: «قلنا إن موسى كما تقدّم الإلماع كان أول من شيّد صرح الصهيونية ووطّد دعائمها، ونشر مبادئها السياسية وقد أثبت لنا الواقع أن الصهيونية ليست في عهدنا هذا سوى حلقة من سلسلة متّصلة حلقاتها ببعضها ببعض اتصالاً مستمسكاً وثيقاً ومتواثقة أجزاؤها تماسكاً محكماً شديداً.. فلو أجلنا نظرنا في مشروع موسى لاستشففنا ما انطوى

عليه إدراكه، والمناهج التي انتهجها في سبيل تحقيقه، ولوجدناه يكاد يكون مطابقاً في معناه ومبناه لتعليم هرتزل ونظرياته التي جلّ مرماها إظهار الوصمة التي لا مندوحة من أن يوصم بها اليهود، والعار الذي يرتدونه إذا ظلّوا واجمين واجفين.. كل هذه الزواجر تميط اللثام وتظهر لنا أن الخطط التي رسمها هرتزل كانت على وتيرة واحدة مع التي وضعها موسى، وكانت مشكاة يهتدون بهديها فأزالت عن أبصارهم غشاوة الجهل والغباوة التي كانت مخيمة عليهم، وأشباح المحن والرزايا التي كانت تنتابهم، فموسى وهرتزل صنوان لا يختلفان لا في المبدأ الذي كانا ينشدانه ولا في الهدف الذي كانا يرميان إليه... على أن الفكرة الأساسية التي كانت تجيش في صدر موسى هي أن مستقبل القومية اليهودية لا يبسم له محيا السعادة ولا يرجى له النجاح إلّا بتملّك الشعب اليهودي الأرض في فلسطين تملكاً مستديماً خالداً. إذ إن الإقامة خارج الوطن ليست في الحقيقة إلّا مظهراً من مظاهر التفرقة الهدامة الأليمة مع ما تجرّه وراءها من محن وخطوب وتبديد للشمل الخ...»[1].

وفي هذا الكتاب الكثير من المديح لزعماء الصهيونية والثناء على مؤازرتهم من اليهود وغير اليهود. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن العرب كانوا غافلين عمّا يجري في ديارهم أو كانوا قد تمادوا في التساهل الذي اشتهر العرب به مع اليهود عبر التاريخ حتى سمحوا بنشر مثل هذه المطبوعات المتحدية لشعور العرب في عقر دارهم.

ويتجلّى التسامح والتساهل اللذان كانت تمارسهما البلاد العربية تجاه اليهود أبين التجلّي في نوع الحياة التي كان يعيشها اليهود في مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين، فقد كانوا يتمتعون بحياة هادئة مستقرة وبحرية مطلقة في ممارسة شعائرهم الدينية والثقافية والاجتماعية ومحافلهم ومعاهدهم الثقافية والتبشيرية، فقد انتشرت مؤسساتهم الدينية والثقافية والاجتماعية والمالية بطول البلاد وعرضها وأطلقت أيديهم في الصحافة المصرية فضلاً عن الصحافة اليهودية، فكان لهم أساتذة في المعاهد المصرية

---

(1) إيلي ليفي أبو عسل، «**يقظة العالم اليهودي**»، ص 22 ـ 24 و34.

وهم يلاقون من زملائهم الأساتذة المصريين أحسن معاملة. وكان لهم دور كبير في مجالات المال والاقتصاد فأثرى عدد كبير منهم وأصبحوا من كبار ملّاكي الأراضي والعقار وأصحاب الشركات الكبيرة، كما كان لهم مقاعد في مجلسي الشيوخ والنواب، وفي عام 1924 عيّن وزير يهودي للمالية في الحكومة المصرية هو يوسف قطاوي باشا.

ولم تكن حياة اليهود في العراق بأقلّ استمتاعاً واستقراراً فقد تغلغلوا في جميع نواحي الحياة العراقية السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ولما تشكّلت حكومة العراق المؤقتة في سنة 1920 كان أول وزير للمالية في هذه الحكومة وزير يهودي هو ساسون حسقيل وقد حدّد تعيينه في كل الوزارات التي تعاقبت على الحكم بعد تبوؤ الملك فيصل عرش العراق، وكان لليهود مقعد في مجلسيّ النواب والأعيان.

وقد حظي اليهود بالمكانة والمعاملة نفسهما في البلاد العربية الأخرى، فكان منهم الوزراء مثل الدكتور بنزاكين في المغرب وأندريه بسيس وأندريه باروخ في تونس.

وقد روى المستشرق الفرنسي جاك بيرك أنه لما حاولت حكومة فيشي الفرنسية الخاضعة لألمانيا الهتلرية أن تضطهد يهود المغرب وقف محمد الخامس ملك المغرب يدافع عنهم ويحذّر من أن يمسّوا بسوء مؤكداً أنهم مواطنون عرب مغربيون.

هذه نماذج عابرة عن تسامح العرب والمسلمين مع اليهود وحمايتهم لهم، وما كان على اليهود وخاصة يهود البلاد العربية أن يعيروا أذناً صاغية للدعايات الصهيونية التي ترمي إلى تحقيق الأغراض الاستعمارية على حساب أهل فلسطين وعلى حساب مصلحة اليهود في العالم في وقت واحد. وإني لم أزل أحتفظ بمقال كنت قد نشرته في جريدة الأحرار البيروتية قبل أربعين سنة بعنوان «فلسطين بين العرب والصهاينة»[1] وقد شرحت في هذا المقال أطماع

---

(1) **جريدة الأحرار**، العدد الصادر بتاريخ 28 آب 1930، ص 3.

إنكلترا السياسية في فلسطين وأسباب دعمها للصهيونية وقد ذكرت آنذاك بأن مصر سائرة بسرعة نحو نيل استقلالها ولا بدَّ من قاعدة تكون تحت سيطرة إنكلترا لتحلّ محلها على ساحل البحر المتوسط، وهل من موقع أكثر استراتيجية ومناعة من سواحل فلسطين؟.. وإلى الإسرائيليين في البلاد العربية وجّهت كلمتي في الختام حرفياً بما يلي:

إليكم أيها الناطقون بالضاد من إسرائيليي الشرق العربي أوجّه الآن كلامي ولست بحاجة إلى القول بأن الفكرة الصهيونية المشؤومة عدوة لدودة للنهضة العربية ولأماني الدول العربية. وما كان وربي لأي شخص ولد وترعرع، عاش وسعد تحت سماء العالم العربي الصافي الجميل مهما كان قد ورثه عن دين آبائه، أن يجازي البقعة التي نضمّ رفات آبائه وأجداده بتطوّعه إلى جنب أعدائها! وإننا لننظر بعين الأمل إلى ذلك اليوم الذي يقف فيه إسرائيليو الشرق العربي وقفة واحدة محتجّين أمام خطوة إنكلترا طالبين تمزيق منشور بلفور والرجوع إلى صراط العدل والحق فيرجع السلام والهدوء إلى ربوع البلاد العربية.

فلسطين لأهلها تعود ولهم ستكون!! فدخول الغريب إليها ليتّخذها تحت تهديد الحراب وطناً قومياً له يكون كمن يحلّ على رب الدار يريد اغتصاب بيته بالقوّة، وليت شعري هل يسلِّم داره دون الذود والدفاع عنها؟ هذه حقيقة راهنة يجب أن يضعها ذوو العقول نصب أعينهم مهما كانت رغائبهم!!..

إذا حقّ للصهاينة أن يطالبوا بفلسطين كوطن قومي ليهود العالم فالعرب هم أحق بالأندلس وما يتبعها من البلدان التي كانت تحت سلطان العرب قبل أمد غير طويل!

كل صهيوني يقيم مسكناً على أرض فلسطين عليه أن يعتبر هذا المسكن مسكناً مؤقتاً لا وطناً دائماً. وما بنو صهيون سوى مرقاة بريطانيا يصعدها الإنكليز لنيل مآربهم في الشرق العربي.

وكلمتي الأخيرة: يا إسرائيليي الشرق العربي اهتفوا بصوت واحد: «إننا إسرائيليو المولد ولكننا عرب قبل كل شيء». قاوموا الصهيونية بكل ما وهبتهم

من نفوذ، فهي عدوة لدودة لدين الحق والعدل، وواجب على كل شخص حر عادل، موسوياً كان أم مسيحياً أو مسلماً أن يتطوّع لمكافحتها، وأن الله نصير محبّي الحق والعدل»[1] وكنت قد نشرت مقالاً مطوّلاً بهذا المعنى نفسه في مجلة الرابطة العربية لأمين سعيد وذلك عندما كنت في مصر سنة 1936[2].

ولكن مثل هذه النداءات لم تلق آذاناً صاغية في وجه تيار الصهيونية وخططها الجهنمية. ففي ذلك يقول ليلنتال «لقد نجم عن زخم الصهيونية منذ سنة 1948 أن دمرت علاقات التعايش السلمي التي كان اليهود يتمتعون بها بين إخوانهم العرب منذ ألف سنة، إذ تمكّنت الوكالات اليهودية عن طريق إثارة الخوف من الاضطهاد وغيرها من أسلحة الدعاية، أن تسحب 650000 يهودي من العراق واليمن وسوريا ومصر وتونس والجزائر ومراكش. وقد أغرى هؤلاء المنفيون الشرقيون بالمجيء إلى إسرائيل ليعمروا الأراضي التي تركها العرب المنفيون خالية كما قال موشه مينوهن. إذن، لا تكون هجرتهم قد تمّت في الدرجة الأولى بقصد إنقاذهم، وإنما لمواجهة متطلبات إسرائيل من مال وأيد عاملة وقوى عسكرية»[3].

ويؤكد الخبراء الواقفون على مجرى الأمور أن تهجير اليهود من البلاد العربية تمّ تحت وطأة حملة اضطهاد مصطنعة ومتعمدة بالتواطؤ بين بعض الحكّام العرب وزعماء الصهيونية. ففي ذلك يقول أبو مازن عضو اللجنة المركزية لحركة فتح في مقال نشره في مجلة «بيروت المساء»: «ومن المعروف أن بلادنا العربية لم تشهد في أية فترة من الفترات نشاطاً صهيونياً حقيقياً أي ما يُسمّى بالدافع العقائدي للهجرة لم يكن متوفراً لدى العرب اليهود. ويتبين أن قسماً كبيراً من المهاجرين اليهود من البلدان العربية قد جاء إلى فلسطين المحتلة نتيجة اتفاق تآمري بين بعض الحكّام العرب وقيادة الحركة الصهيونية

---

(1) زحلة (لبنان) في 20 آب سنة 1930.

(2) انظر: الدكتور أحمد نسيم سوسة، «القضية الصهيونية والروح العربية»، في العددين 25 و27 من **مجلة الرابطة العربية** 1936.

(3) ليلنتال، «**إسرائيل ـ ذلك الدولار الزائف**»، ص 96.

يقضي بشحن اليهود العرب بكاملهم من أوطانهم إلى فلسطين المحتلة بغضّ النظر عن رغبة هؤلاء اليهود أو عدم رغبتهم وبغضّ النظر عن رغبتهم بالهجرة إلى فلسطين، في حالة رغبتهم في الهجرة، أو إلى بلدان أخرى. وينطبق هذا بصورة خاصة على اليهود في اليمن والعراق.

إن الفترة التي سبقت قيام إسرائيل لم تشهد هجرة يهودية تذكر من البلاد العربية بالرغم من قرب فلسطين من هؤلاء، وكان باستطاعة يهود العراق ومصر وسوريا ولبنان أن يدخلوا إلى فلسطين بسهولة ويسر لو أرادوا ذلك. ولكنهم لم يفكّروا بالهجرة، فكانت حملات التهجير الجماعية والتي تمّت بالتواطؤ والتآمر بين بعض الحكّام العرب وزعماء الصهيونية. فنجد مثلاً أن 120 ألفاً من يهود العراق وخمسين ألفاً من يهود اليمن قد قدموا إلى فلسطين خلال السنوات 1949 ـ 1951م وبعمليات نقل جماعية، وقد أُعطي اسم أسطوري لعملية النقل الجماعية من العراق سنة 1950 هو (عملية علي بابا). وتُشير المراجع الصهيونية إلى أن الهجرة من اليمن تمّت تحت ضغط التهديد بالطرد من اليمن. أما في العراق فالأمر أكثر وضوحاً والمأساة أكثر عمقاً وحزناً لما لاقاه اليهود العرب في العراق من صنوف الآلام والتعذيب والإرهاب والضغط لاقتلاعهم من جذورهم ونقلهم إلى المسلح الصهيوني مشلولي الإرادة معدومي الرغبة، لا حول لهم ولا قوة.. لم تكن هجرتهم الجماعية من العراق أمراً طبيعياً أو منطقياً، فليس صحيحاً أنهم هاجروا لأنهم كانوا صهاينة أو لأنهم رأوا في إسرائيل تجسيداً لأمانيهم وهذه مسألة تجمع على الإقرار بها كافة المصادر الصهيونية الرسمية وغير الرسمية ولا حاجة لإثبات صحتها باستعراض المراجع والشواهد.. فقد نشط المبعوثون الصهيونيون ونجحوا في إدخال كميات كبيرة من السلاح إلى بغداد بمساعدة الجيش البريطاني.. وتوجّت السلطات العراقية الرجعية آنذاك إجراءاتها القمعية والتآمرية مع الصهيونية بإصدار قانون إسقاط الجنسية عن اليهود العراقيين بعد التمهيد له بحملة واسعة ضد اليهود، ومع ذلك كانت نسبة الاستجابة له ضئيلة جداً، فقامت منظمة (هشوارة) الصهيونية بإلقاء القنابل على اليهود بدءاً بيوم 8/ 4/ 1950 وانتهاء

بيوم 5/ 6/ 1951.. أما بالنسبة للقانون (المؤامرة) فقد تمّ الاتفاق على إصداره في اجتماع سري عقد في ڤيينا سنة 1949 وحضره نوري السعيد[1] وبن غوريون ومبعوث بريطاني، وبعد عودة نوري السعيد إلى العراق قدم استقالة حكومته ليفسح المجال لمجيء حكومة انتقالية، وكلّف السويدي بتأليف الوزارة الجديدة في 5/ 2/ 1250. وتقدّمت الحكومة فوراً بلائحة قانون إسقاط الجيش وطلبت بإقراره على الفور فوافق المجلس النيابي عليه وكذلك مجلس الأعيان». وينتهي أبو مازن إلى القول بأن «هذه هي باختصار قصة اليهود في العراق، ومما لا شك فيه أنها القصة النموذج لباقي يهود البلاد العربية، ففي كل بلد لهم قصة شبيهة بقصتهم في العراق وإن اختلفت التفاصيل إلا أن الهدف واحد والمحرّك الأساسي وراء هذه القصص واحد أيضاً»[2].

هل يكون اليهود قومية شعب واحد؟..

وهنا علينا قبل كل شيء تعريف القومية بمفهومها الحديث ثم تعريف معنى الدين أو العقيدة المذهبية: إن المقوّمات الأساسية للقومية كما هو متّفق عليه لدى كثير من الباحثين هي لغة واحدة، ثقافة واحدة، وطن واحد. أما الدين فهو عقيدة يعتنقها الفرد أو المجتمع دون أن يشترط فيه التكلم بلغة واحدة أو الانتماء إلى عرق واحد والقيام في وطن واحد يتضح في ضوء ذلك أنه لا توجد قومية لا في اليهودية ولا في المسيحية من حيث الأساس رغم كون الأولى قد أصبحت تُعتبر مغلقة منذ قرون طويلة. إن القومية الواحدة قد تضمّ عدة أديان وهي قائمة بذاتها، وقد تلتقي مع هذه الأديان في وطن واحد ولكن ليس من الضروري أن يكون للدين ارتباط بالقومية لأن الدين شيء والقومية شيء آخر في تفسير مفهوم القومية الحديثة، وقد يلتقيان في ظروف

---

(1) لم يكن نوري السعيد في الحكم عندما كلّف توفيق السويدي بتأليف الوزارة بل كانت وزارة علي جودة الأيوبي الثانية قائمة آنذاك وهذه لم تلبث في الحكم إلّا أقل من شهرين فاستقالت في أول شباط سنة 1950.

(2) **بيروت المساء**، العدد 101، كانون الثاني، 1976، ص49 ـ 51.

خاصة كما كان الحال مثلاً إبان ظهور الإسلام ولكنهما يتباعدان بل قد يتضاربان كضدين متنافرين في ظروف أخرى، فهل يصح مثلاً أن نسمّ الديانة المسيحية بالقومية؟ هذا من ناحية الدين والقومية وعلاقتهما ببعضهما. أما كيفية انتشار اليهودية والمسيحية فكلتاها ظهرت في ظروف متشابهة وسط عالم يدين بالوثنية ويمارس عبادة الأصنام «والاثنتان انتشرتا في العالم عن طريق التبشير وبخاصة عن طريق رؤساء مجتمعات تلك العصور فاعتنقتها شعوب من مختلف العناصر والأجناس، وخير مثال نورده هنا هو اعتناق قسطنطين المسيحية في أوائل القرن الرابع الميلادي واعتناق أبي كرب ملك اليمن اليهودية في القرن الخامس الميلادي، فأجبر الأول شعبه على اعتناق المسيحية والثاني أجبر شعبه على اعتناق اليهودية، وقد تمّ ذلك في زمن متقارب جداً بحيث قد يصحّ اعتبار وقوع الحدثين في زمن واحد. وبهذه الطريقة نفسها انتشرت اليهودية في الخزر وفي شرق أوروبا كما انتشرت المسيحية في أوروبا كلها. ففي تعليق على التبشير القديم باليهودية يقول المؤرّخ باركس «إنه لمن الخطأ الاعتقاد بأن اليهود لم يقصدوا التبشير باليهودية أو لم يقبلوا التمذهب بالدين اليهودي»[1]. وفي ذلك أيضاً يقول كاوتسكي (Kautsky): «ففي بداية العصر المسيحي تعاظمت أهمية الارتداد نحو اليهودية، وكان من المغري بالنسبة للكثيرين أن يخضعوا إلى المجموعة اليهودية التجارية، المزدهرة الواسعة، ومنذ عام 139 قبل الميلاد طرد اليهود من روما لتهويدهم بعض الرومان، وفي أنطاكية كان المتهودون يشكّلون القسم الأكبر من الطائفة اليهودية»[2].

والصهيونية تحاول اليوم على الرغم من علمها بأن اليهود المنتشرين في العالم لا يكونون شعباً واحداً أو عنصراً واحداً وأنهم ينتمون إلى مختلف القوميات، أن تخلق من اليهودية قومية، وهي تسعى أن تجعل من نغمة اضطهاد اليهود قومية يهودية إسرائيلية بربط يهود العالم بعجلة المصير الواحد

(1) J. Parkes, «**A History of the Jewish People**»; p.7.

(2) ليون، «**أبراهام: المفهوم المادي للمسألة اليهودية**»، ترجمة عادل نويهض، ص31.

والولاء الواحد لإسرائيل» لذلك نراها تبذل أقصى الجهود وتسعى بشتى وسائل الإغراء وتجسيم خطر اللاسامية لحمل أكبر عدد ممكن من اليهود على الهجرة إلى إسرائيل بعد أن شعر الزعماء بخطر ذوبان اليهود في البلاد التي يعيشون فيها وخاصة في الولايات المتحدة وكندا والأرجنتين. ومن الأساليب الإجرامية التي ارتكبتها الصهيونية أنها تواطأت حتى على اليهود أنفسهم، فاتّفقت من طرف خفي مع بعض أولياء الأمور في بعض البلاد العربية التي كانت تخضع للنفوذ البريطاني لشنّ حملة إرهاب مصطنعة ضد اليهود فيها وذلك لكي يضطروا تحت ضغط هذا الاضطهاد المدبر على الهجرة إلى إسرائيل[1]. وقد كان هذا التواطؤ أكبر جريمة ارتكبت لتشويه سمعة العرب من جهة وخدمة المصالح الصهيونية من جهة أخرى. والصهيونية لا تمانع بأن تضحي بعدد من يهود العالم عن طريق اتباع مثل هذه الأساليب لتحقيق أهدافها السياسية، كما ثبت ذلك في موقعها تجاه اضطهاد اليهود في العهد النازي إذ كانت على علم به وكانت تفاوض النازيين في الوقت نفسه بما يخدم أهدافها السياسية الاستعمارية في فلسطين، وقد أنقذت من رغبت في إنقاذهم من الصهاينة من قبضة النازيين[2]، ولكن كل هذه المحاولات لا تجدي نفعاً ولا

---

(1) من جملة الجرائم التي ارتكبتها المنظمات الصهيونية في سبيل حثّ اليهود على الهجرة إلى إسرائيل ما قامت به إحدى هذه المنظمات في العراق سنة 1951 بإلقاء قنابل يدوية على أماكن اليهود لإرغامهم على الهجرة إلى إسرائيل فقتل من جرّاء ذلك يهوديان وجرح عدد آخر من اليهود فهاجر بسبب ذلك 115 ألفاً من يهود العراق إلى إسرائيل. وقد اكتشفت الشرطة العراقية هذه المنظمة الصهيونية السرية، فحكم بالإعدام على اثنين من أعضائها كما صدرت أحكام تتراوح بين خمس سنوات وثماني سنوات على آخرين. وعلى أثر ذلك نشر مدير شرطة بغداد كتاباً بعنوان «سموم الأفعى الصهيونية» تضمن وقائع المحاكمة والأحكام الصادرة، وتصاوير المجرمين والأسلحة التي وجدت معهم. وهذا الكتاب مفقود في العراق الآن ولا بدّ أن تكون الجهات التي يهمها الأمر قد جمعته واشترت جميع نسخه (**«العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب»**، ترجمة الأستاذ نجدة صفوة، ص125 ـ 126). وقد سُمِّيت عملية خروج اليهود من العراق باسم عملية علي بابا (ليلنتال، **«إسرائيل»**، ص315).

(2) لقد عبّر عن ذلك الدكتور محمود السمرا في تعليقه على كتاب **«إسرائيل ويهود العالم»** أحسن تعبير مستشهداً بكتابات الصهاينة أنفسهم، فقال: =

تغيّر من حقيقة الوضع لأن اليهود منذ ظهورهم على مسرح الأحداث حتى يومنا هذا لم يكونوا شعباً واحداً، فكيانهم قائم على أساس الدين والدين وحده. ألم يدعوا بأن الله ميّزهم عن باقي الشعوب (بدينهم) واعتبرهم الشعب المختار؟ . . . والدولة التي تقوم على أساس الدين وحده ولا تسندها قومية متماسكة لا تدوم فهي عرضة للزوال.

إن زعماء الصهيونية يحاولون اليوم صهر يهود العالم من مختلف القوميات والأجناس في (قومية) يهودية واحدة قائمة على الدين واللغة. لذلك فقد نهج الصهاينة نهجاً خاصاً بإنشاء معسكرات تثقيفية خاصة يلقنون فيها اليهود قبل انتقالهم إلى إسرائيل اللغة العبرية والمبادىء الصهيونية ويختارون العناصر اليهودية النقية من أوروبا وذلك بعد أن واجهوا معارضة من بعض الفئات اليهودية وخاصة الشرقيين منها. هذا مع العلم أن زعماء الصهيونية يقومون اليوم بالمحاولة نفسها التي قام بها زعماء اليهود بعد أسر بابل قبل حوالي 2500 عام ولكنهم فشلوا في تحقيق الهدف الذي كانوا يتوخونه، ولا شك في أنهم سيفشلون هذه المرة حتماً عاجلاً أم آجلاً لكونها فكرة مبنية على التعصب والتعالي على الشعوب، مما تلفظه الحضارة الإنسانية.

وصفوة القول، إن اليهود الذين يقدر عددهم بحوالي اثني عشر مليون

= «لقد عملت الأجهزة الصهيونية المختلفة فعلاً على خلق هذا الجو من الإرهاب وعدم الاستقرار في البلاد التي يريدون من يهودها أن يهاجروا، كتدبير حوادث انفجار في أماكن العبادة اليهودية. وقد عبّر أحد محرري جريدة **(دافار)** الإسرائيلية عن هذا الاتجاه بوضوح، وذلك عندما قال: «أنا لا أشعر بالخجل وأنا أعترف هنا أنه لو كانت لديّ السلطة لأخذت عشرات الشباب الأذكياء، المخلصين لمثلنا العليا، ثم أرسلهم متنكرين إلى البلاد التي استكان فيها اليهود إلى رغد العيش، وذلك من أجل نشر شعارات معادية للسامية، وما شابه هذا من الشعارات. . . وأنا على يقين بأن هذه ستؤدي إلى نتائج، بشأن الهجرة إلى إسرائيل، أفضل بكثير من النتائج التي حققتها حتى الآن البعثات التي نرسلها لتصب وعظها في آذان صماء». **(العربي**، العدد 143، تشرين الأول 1970، ص151). انظر التفاصيل عن أعمال الصهيونية في هذا المجال في كتاب **«إيفان دونيف»**، تعريب فرات الجواهري، دار الفارابي، بيروت، 1974.

نسمة لا يتعدّون كونهم طائفة دينية اجتماعية اقتصادية تضمّ شتى الأجناس واللغات والدماء يسكنون في مواطن متباعدة، فهم لا يملكون مقوّمات القومية التي يستند الكيان الدولي عليها، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك[1]. وتدلّ الإحصاءات أن اليهود الذين في إسرائيل اليوم جاؤوا من اثنين ومائة بلد معظمهم لا يحسون برابطة تربط بعضهم ببعض، ولكن إسرائيل تحاول أن تصهر الجميع فتجعل لهم لغة واحدة هي اللغة العبرية، وذلك بتدريس النشء الجديد اللغة العبرية وتاريخ اليهود بالشكل الذي تهواه بغضّ النظر عن الحقائق التاريخية. وفي دراسة أُجريت على أساس استبيانات وزّعت على عدد من المهاجرين الجدد إلى فلسطين، أكثرهم من الولايات المتحدة الأمريكية ورد في ردّ أحد هؤلاء المهاجرين ما نصّه: «كنت قبل أن أصل إلى إسرائيل أُعتقد أن اليهود يكونون شعباً واحداً، ولكن هذا الاعتقاد تبخّر من ذهني بعد وصولي إليها، حيث وجدت فيها خليطاً من عدّة أمم تنتسب إلى أجناس مختلفة»[2].

اليهودية والصهيونية:

يتّضح مما تقدّم أن اليهودية عقيدة دينية شاملة على عكس الصهيونية التي تمثّل حركة سياسية عنصرية متطرفة تستغل العاطفة الدينية في سبيل صهر جميع يهود العالم من مختلف القوميات والأجناس في وطن قومي واحد بالضغط والعنف والتهديد وإسكانهم في فلسطين بعد طرد سكّانها بالقوة. هذه حقيقة أدركها كثير من المثقفين والواعين من اليهود في مختلف البلاد فأدركوا حقيقة الصهيونية وما تحمله معها من مصائب وكوارث ليهود العالم، منها إحياء اللاسامية وازدواجية الولاء كونها وجدت لخدمة أغراض استعمارية بحتة وقد ربطت مصيرها بعجلة الاستعمار الإنكلو ـ أميركي. لذلك برز عدد غير قليل من المفكّرين اليهود الكبار معلنين معارضتهم الدعوة الصهيونية للقومية اليهودية، ففي عام 1878 وقّع عدد من الحاخامين على وثيقة نشرت في إحدى

---

(1) انظر ما تقدّم عن «اليهود في مختلف أنحاء العالم» في الفصل السابع.

(2) العربي، العدد 136 (آذار 1970) ص131.

الصحف البريطانية قالوا فيها: «لم نعد نمثّل هيئة سياسية منذ فتح الرومان فلسطين، بل بتنا مواطنين في البلاد التي نقيم فيها. فنحن إما من الإنجليز أو الإفرنسيين أو من الألمان ومكان إقامتنا هو الذي يقرّر قوميتنا». وصدر أيضاً عن المؤتمر الذي عقده الحاخامون في أميركا في مدينة بيتربورج في عام 1885 قرار يقول: «لم نعد نعتبر أنفسنا أمة، وإنما نحن طائفة دينية، ولذا فنحن لا نتوقع أية عودة إلى فلسطين». وكتب الحاخام سيجال في عام 1902 بالمعنى نفسه قال: «لم يكن هناك قط وجود لما يُسمّى بالشعب اليهودي، إذ إن اليهود لم يهتموا في أي يوم من الأيام بالتسلسل الحياتي والعضوي، ولا بالأرض أو اللغة أو التاريخ، ولا بالتنظيم السياسي أو غير ذلك من المقوّمات المعترف بها للقومية»(1).

ومما قاله س. ج مونتيفيوري الذي كان واحداً من الزعماء اليهود الذين أخذ رأيهم في شأن تصريح بلفور قبل إعلانه: «عندما كان تصريح بلفور بشأن فلسطين موضع بحث لدى الحكومة، عرضت نصوصه بصفة شخصية على حفنة من اليهود، كان أربعة منهم صهاينة غلاة أو أشباه صهاينة، وكان اثنان ـ أنا أحدهما ـ يعارضان الصهيونية. وقد بدا لنا نحن الاثنان أن نومىء إلى أن من شأن عبارة (الوطن القومي للشعب اليهودي) أن يسبّب على الأرجح اضطراباً. ولقد كنا، في ما يلوح، غير بعيدين عن الصواب... وقد اعترضنا على هذه العبارة لأننا أنكرنا أن يكون اليهود اليوم شعباً مرة أخرى، ولقد طالبنا وتمنينا، وما زلت أطالب وأتمنى أنا وأصدقائي، أن يكون اليهود مواطنين أحراراً متساوين في جميع البلدان التي يعيشون فيها. ولقد خشينا أن ينشأ عن الوطن القومي المقترح شعور معاد للسامية أبعد بكثير مما يمكن علاجه. غير أن آراءنا واعتراضاتنا لم تصادف أذناً صاغية، في ما خلا أن حرف التعريف المحدد (أل)، كما جاء في المشروع المقترح قد رفع فصار النصّ الآن بغير تعريف أي (وطن قومي للشعب اليهودي)(2).

---

(1) خيري حماد، «**الصهيونية**»، ص 104.

(2) هنري كتن، «**فلسطين في ضوء الحق والعدل**»، ص 11 ـ 12.

ويوضّح لنا الأستاذ نجدت فتحي صفوة نقطة مهمة تتعلق بموقف الاتحاد السوفييتي حيال الصهيونية واليهودية فيقول: «إن الحكومة السوفييتية الجديدة تفرّق بين اليهود والصهيونية تفرقة تامة وتنظر إلى كلٍّ منهما بمنظار خاص. وإن سياسة الاتحاد السوفييتي قامت دائماً على أساس الفصل التام بين اليهود السوفييت، والصهيونية، وإسرائيل، لذلك لم يكن مما يناقض تلك السياسة أن تعترف بإسرائيل وتدخل معها في علاقات سياسية دون أن يتأثر موقفها من الصهيونية ويهود السوفييت». ثم يضيف الأستاذ نجدت إلى ذلك قوله: «ويرى معظم الباحثين والمعلقين الغربيين أن إسراع ستالين في الاعتراف بإسرائيل كان جزءاً من سياسته الرامية إلى إزاحة بريطانيا عن منطقة الشرق الأوسط وليس بدافع العطف على فكرة إقامة دولة يهودية. مع العلم أن الاتحاد السوفييتي يعتبر الصهيونية أداة لعزل الكادحين اليهود عن النضال الطبقي ضد البرجوازية»[1].

ومع ذلك يحاول الصهاينة اليوم ربط الصهيونية بالديانة اليهودية، ولما كانت القومية هي قوة هذا العصر فقد درج الصهاينة على محاولة خلق قومية من الديانة اليهودية وفرضها على يهود العالم ليستمدّوا منها قوّتهم. فأقوال الزعماء الصهاينة كلها تؤكد وتصرّ على أن الصهيونية واليهودية لا يمكن الفصل بينهما، وأن اليهودية قومية وكل من انتسب إلى هذا الدين هو صهيوني بغضّ النظر عن البلد الذي ينتمي إليه واللغة التي يتكلمها والجنسية التي يحملها. وفي ذلك يقول وايزمن: «إن يهوديتنا وصهيونيتنا متلازمتان ملاصقتان ولا يمكن تدمير الصهيونية بدون تدمير اليهودية»؟. ومن جملة المقررات المتّخذة في المؤتمر الصهيوني العالمي الخامس والعشرين المنعقد في 25 كانون الأول 1960 ما يشير إلى «أنه يتوجب على كل يهودي أن يهاجر إلى فلسطين. . . وأن كل يهودي أقام خارج إسرائيل بعد إنشائها يُعتبر مخالفاً لتعاليم التوراة».

---

(1) «**اليهود والصهيونية في علاقات الدول الكبرى**»، ص 31 ـ 35.

معارضو الصهيونية من الكتّاب اليهود:

وعلى الرغم من إطلاق الصهاينة لهذه المفاهيم التي وضعوها للديانة اليهودية لاستغلالها في تدعيم حركتهم السياسية فهناك عدد غير قليل من اليهود في العالم لا يؤمن بالصهيونية[1] وهؤلاء يقاومون بشدّة، إما بدافع الشعور بالإنسانية على أساس أن الصهيونية مبدأ لا إنساني، وإما حرصاً على اليهود خوفاً من مواجهتهم اضطهاداً جديداً بسبب الاندفاع الصهيوني، وإما بدافع قناعتهم بأن الصهيونية آلة يسخّرها الاستعمار العالمي لمصالحه على حساب اليهود والعرب معاً. وتعتبر الصهيونية هؤلاء المناهضين لها من اليهود أشد خطراً عليها من أية جهة أخرى من غير اليهود فهي تخشاهم وتحسب لهم ألف حساب. فقد كان لما وضعه هؤلاء اليهود من مقالات ومؤلفات في مناهضة الصهيونية أكبر الأثر في تحويل وجهة نظر عدد كبير من الغربيين إلى عدالة القضية العربية الفلسطينية إذ صاروا لأول مرة يسمعون الجانب العربي في الدفاع عن حقوق العرب المغتصبة من قلب العالم اليهودي بعد أن ظلّوا لا يقرأون ويسمعون غير الدعايات الصهيونية المنتشرة في جميع أنحاء العالم». فقد كان للكتاب الذي نشره الكاتب الفرنسي ماكسيم رودنسون سنة 1968 بعنوان «إسرائيل والعرب»[2]، وهو يهودي، أثر محسوس في الأوساط الغربية فترجم في العام نفسه إلى الإنكليزية وانتشر انتشاراً واسعاً. وقد جاء هذا الكتاب ليدحض الدعاوى الصهيونية متنبئاً لها بالفشل المحتوم، وفي ذلك يقول: «إن الصهيونية وإن نجحت اليوم في خلق الدولة اليهودية فإن إقامتها تبقى على أسس غير سليمة. إن القوة التي تعتمد عليها لن تدوم إلى الأبد،

---

(1) «يوجد اليوم حوالي 5,5 مليون يهودي في الولايات المتحدة، أي أقل من 3% من السكان، ومن هؤلاء لا يوجد غير مليون وربع المليون ينتمون إلى المنظمات الصهيونية المختلفة. . وكما أن ليس كل اليهود صهاينة، فإنه ليس كل صهيوني يهودياً بالضرورة فقد لعب المسيحيون الصهاينة دوراً حساساً في هذه الحركة». (ألفريد ليلنتال، «**إسرائيل ذلك الدولار الزائف**»، ص16).

(2) M. Rodinson, «**Israël and the Arabs**», 1968.

وخطوط الأمم في صعود وانخفاض فكما فشلت الدولة الصليبية أن تبقى وتدوم في أرض العرب، فإن إسرائيل ستلقى المصير نفسه الذي لاقته هذه الإمارات اللاتينية في فلسطين». وهذا كتاب آخر لمؤلف فرنسي يدعى «ناتان وينستوك» وعنوانه «الصهيونية وإسرائيل» وهو كتاب هام في ميدان الدعاية المناهضة للصهيونية، فهو يدحض الدعاوى الصهيونية التي تزعم وجود قوى روحية تربط اليهود بالصهيونية ويبيّن كيف ظهرت الصهيونية في أواخر القرن الماضي لتجنيد يهود العالم في خدمة الاستعمار العالمي. وهناك كتب أخرى مناهضة للصهيونية لكتّاب يهود مثل كتاب «أبراهام ليون»[1]، وألفريد ليلنتال[2] وغيره، وقد كان لهذه الجمهرة من الكتب والمقالات باللغات الأجنبية أثرها المحسوس في تنبيه الرأي العالمي إلى الأعمال الإجرامية التي ترتكبها الصهيونية بحق العرب حتى أصبحت الصهيونية في نظر عدد من كبار المفكّرين علماً للدلالة على الاعتداء والاغتصاب بل ورمزاً للعبث بحقوق الإنسان. لذلك فإنه لمن الخطأ أن يؤيد بعض الكتّاب العرب، من حيث لا يشعرون، نظرية الصهيونية القائلة بأن اليهودية والصهيونية صنوان لا سيما في هذا الوقت الذي أصبح فيه العرب بأشدّ الحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى أصوات هؤلاء الكتّاب الذين يناهضون الصهيونية ويحملون عليها. ومن المهم أن نشير هنا إلى نصيحة المؤرّخ الشهير «أرنولد توينبي»، ذلك العالم الجليل الذي كان له من الجرأة الفكرية للإعراب عن رأيه في شجب أعمال الصهيونية وخططها الإجرامية بحق العرب، والذي يعلّق أهمية كبرى على نفوذ اليهود غير الصهاينة، فعندما سئل عن رأيه في العلاج العملي لمشكلة فلسطين، ذكر ثلاث حركات قد تكون إلى حدّ ما ذات فائدة اثنتان منها تتصل بنفوذ اليهود غير

(1) A. Léond, «**The Jewish Question**». ترجمه عماد نويهض بعنوان «**التفسير المادي للمسألة اليهودية**».

(2) A. Lilienthal, «**The Other Side of the Coin**». ترجمه إلى العربية عمر أبو حجلة بعنوان «**إسرائيل: ذلك الدولار الزائف**»، دار العلم للملايين.

الصهاينة إذ يقول في ذلك: «إن من الصعوبة أن نجد علاجاً علمياً لهذه المشكلة، وإنني شخصياً أرى ثلاث حركات قد تكون إلى حدّ ما ذات فائدة:

1 ـ قيام اتحاد أوثق بين الدول العربية.

2 ـ زيادة نفوذ اليهود غير الصهاينة بالولايات المتحدة.

3 ـ زيادة نفوذ الإسرائيليين المتكلمين بالعربية. . . والذين يكوّنون أغلبية هناك حالياً».

ثم يضيف إلى ذلك قوله: «ولا ينتظر أن تنتج أية واحدة من هذه الحركات الثلاث نتائج سريعة ـ ولكن قد يجوز أن تتغير الحالة إلى أحسن ـ إذا تحققت هذه الحركات الثلاث مجتمعة»[1].

وفي تعليق للكاتب الفرنسي «رودنسون» حول تعريف الصهيوني والصهيونية يقول: «إن هناك نقطة يخطىء العرب مراراً في موضوعها، إلا أنها طريقة استخدام نعت الصهيونية، ففي أوروبا يهود تتفاوت آراؤهم ومواقفهم السياسية، ولكنهم في أغلب الأحيان متعلقون باستمرار وجود إسرائيل (التي هي بلا شك الإيديولوجية الصهيونية). . . كما أن هناك قادة يقرّون بوجود إسرائيل. . . ونعتهم جميعاً بالصهيونية موقف سهل ولكنه يحول دون أداء العرب لمهامهم الدعائية بشكل مفيد، فبعض هؤلاء الناس الذين يقرّون بوجود إسرائيل لا يمانعون في ظروف أخرى في إدانة بعض ممارسات الحكم الإسرائيلي وحتى في تبنّي المطالب الفلسطينية. . وباختصار إن ما أرجوه هو ألّا يعتبر الفلسطينيون والعرب أن الأشخاص الذين حملوا في فترة ما بعض العواطف تجاه إسرائيل أو الشعب الإسرائيلي هم ميؤوس منهم وغير قابلين لتفهّم المواقف العربية والفلسطينية بالذات».

نعم، إن الديانة اليهودية التي حاكها الكهنة اليهود في بابل تشتمل على المبادئ نفسها التي تعتمد عليها الصهيونية في الوقت الحاضر، أي على مبدأ واحد هو احتلال أرض فلسطين وقتل أهلها وتشريدهم. ولكن مجرد مناهضة

---

(1) **«لهذا. . . . أكره إسرائيل»**، للمقدم سامي الغمراوي.

الكتّاب اليهود للصهيونية والمبادئ التي تقوم عليها معناه ضمناً عدم الاعتراف بقدسية هذه التعاليم التي ابتدعها اليهود في الأسر ومن ضمنها عقيدة الأرض الموعودة. وهذا يسير مع الاتجاه العربي نفسه في العقيدة الإسلامية التي لا تعترف بغير التوراة التي أنزلت على موسى. وإن هذه الحركة الصهيونية التي تأمر بقتل الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ وتستند على وعد مزيف هي ليست من شريعة موسى بشيء لذلك فقد باءت بالفشل الذريع إذ أخمدها الرومان في مهدها وأزالوها من الوجود، وستلقى الحركة الصهيونية الحالية المصير نفسه حتماً وذلك عاجلاً أو آجلاً، لأن النظام الذي يعتمد على القوة والإرهاب وحدها لن يدوم ولن يبقى ومصيره الزوال.

مذكرة «مونتاجو» إلى مجلس الوزراء البريطاني:

ولعلّ أحسن تحليل للأهداف السياسية والاستعمارية التي ترمي إليها الصهيونية هو الوصف الذي جاء على لسان أحد وزراء الحكومة الإنجليزية ذاتها المدعو «مونتاجو»، وهو يهودي، فقد قدم هذا الوزير إلى مجلس الوزراء البريطاني، مذكرة عنيفة يهاجم فيها وعد بلفور، وهذه المذكرة موجودة بين وثائق الحكومة البريطانية الرسمية بعنوان «معاداة الحكومة البريطانية الحاضرة للسامية»، وهي تمثّل آراء المعارضين من مفكّري اليهود في العالم لوعد بلفور. وندوّن فيما يلي بعض ما جاء في هذه المذكرة بالنص لأهميتها التاريخية:

«لقد وقع اختياري على هذا العنوان لهذه المذكرة (معاداة الحكومة الإنجليزية الحاضرة للسامية)، لا بدافع شعور بالعداء ولا وسيلة للشجار مع وجهة نظر معادية للسامية يحملها بعض الزملاء الوزراء... كل ما هناك أنني أودّ أن أسجّل ما أعتقد من أن السياسة التي تتبعها حكومة صاحب الجلالة هي سياسة عداء للسامية من ناحية النتيجة مما قد يجعلها نقطة تجمّع للمعادين للسامية في كافة دول العالم، ويؤكد هذا الرأي المراسلة التي تسلّمتها أمس والتي جرت بين لورد روتشيلد وسير بلفور.

«إنني أشعر باعتباري الوزير اليهودي الوحيد في الحكومة أنه من حقي أن يمنحني زملائي فرصة للتعبير عن وجهة نظر أتمسك بها تمسكاً شديداً.

«إنني أؤمن إيماناً راسخاً بأن هذه الحرب قد سددت ضربة لفكرة «الدولية» وأنها قد فتحت المجال لبعث الشعور بالقومية الذي كان قد بدأ في التراخي. . . فقد أصبح من المتّفق عليه ضمناً بين الساسة في معظم الدول أن إعادة توزيع الأقاليم بعد الحرب يجب أن يتمّ على أسس قومية. . .

«وفي هذه الظروف تقترح الحكومة الموافقة على تكوين أمة جديدة بوطن جديد في فلسطين. والمفهوم أن هذه الأمة ستتكون من اليهود الروس والإنجليز والرومانيين وغيرهم.

«لقد بدت الصهيونية لي دائماً عقيدة سياسية لا يمكن أن يؤمن بها أي مواطن مخلص للمملكة المتحدة، ذلك أن اليهودي الإنجليزي الذي يتطلّع إلى جبل الزيتون ويتوق إلى اليوم الذي يستطيع فيه أن ينفض عن حذائه التراب البريطاني ويعود إلى نشاطه الزراعي في فلسطين إنما يعترف بأنه لا يصلح للاشتراك في الحياة العامة في بريطانيا العظمى. . بل ولا يصلح لأن يعامل كمواطن إنجليزي. لقد كان اعتقادي دائماً أن الذين عكفوا على هذه العقيدة كانوا مدفوعين إلى ذلك بسبب القيود المفروضة على حرية اليهود في روسيا ولكن بعد أن تمّ الاعتراف بهؤلاء اليهود باعتبارهم يهود روس، ومنحوا كافة حرياتهم، يبدو من غير المفهوم أن تقدّم الحكومة البريطانية على الاعتراف الرسمي بالصهيونية وأن يخوّل مستر بلفور التصريح بأنه يجب أن يعاد تأسيس فلسطين (كوطن قومي للشعب اليهودي). وأنا لا أعلم على وجه التحديد ما ينطوي عليه هذا. . وإن كنت أستنتج أنه يعني أن على المسلمين والمسيحيين في فلسطين أن يخلوا السبيل لليهود الذين سوف يتمتعون بالأفضلية، ويصبحون مرتبطين بفلسطين ارتباط الإنجليز بإنجلترا أو الفرنسيين بفرنسا. كما يعني ذلك أن الأتراك يعتبرون أجانب مثلهم في ذلك مثل اليهود، الذين سوف يعاملون منذ الآن كأجانب في كل بلد آخر غير فلسطين.

إنني أحب هنا أن أؤكد أربعة مبادئ:

1 ـ أنه لا توجد أمة يهودية. إن أفراد أسرتي مثلاً الذين عاشوا في هذا البلد عدّة أجيال لا يربطهم بأي أسرة يهودية في أي بلد آخر أي اتفاق في رأي

أو رغبة ـ ولا يجمعهم بها أي شيء أكثر من كونهم يعتنقون بدرجات متفاوتة الديانة نفسها. ولا يصحّ القول بأن اليهودي الإنجليزي واليهودي المغربي ينتسبان لأمة واحدة كما أنه لا يصح القول بأن المسيحي الإنجليزي والمسيحي الفرنسي ينتسبان لأمة واحدة أو ربما لجنس واحد.

2 ـ إذا قيل لليهود إن فلسطين هي وطنهم القومي فإن كل دولة أخرى سوف تتجه فوراً إلى التخلّص من مواطنيها اليهود وبذلك سوف نجد في فلسطين عدداً ضخماً من السكان يقومون بطرد أهلها ويأخذون أحسن ما في البلد. ولسوف يحضر هؤلاء من كافة أجزاء الكرة الأرضية يتحدثون مختلف اللغات ولا يستطيعون التفاهم مع بعضهم البعض إلّا عن طريق المترجم.

إن الحياة التي عاشها اليهود البريطانيون والأهداف التي وضعها نصب أعينهم والدور الذي لعبوه في حياتنا ومؤسساتنا يجعل من حقهم أن يعتبروا بريطانيين يهوداً أكثر منهم يهوداً بريطانيين. إنني على استعداد لحرمان كل صهيوني من الحقوق المدنية بل إنني أجد دافعاً قوياً لتحريم المنظمة الصهيونية باعتبارها غير قانونية وضارة بالمصالح الإنجليزية. . .

3 ـ إنني لا أعترف بأن فلسطين اليوم مرتبطة باليهود أو أنها مكان ملائم كي يعيشوا فيه. . . إن الوصايا العشر قد أعطيت لليهود في سيناء. حقاً إن فلسطين تلعب دوراً كبيراً في التاريخ اليهودي. ولكن الأمر كذلك أيضاً بالنسبة للتاريخ الإسلامي الحديث. وقد أصبحت فلسطين بعد عهد اليهود تلعب دوراً أكبر من أية دولة أخرى في التاريخ المسيحي. قد يكون المعبد اليهودي موجوداً في فلسطين ولكن موعظة الجبل وصلب المسيح قد حدثا هناك أيضاً.

وإذا كانت ذاكرتي لا تخونني، فإن تعداد اليهود في العالم يبلغ ثلاثة أضعاف العدد الذي تستطيع فلسطين أن تستوعبه حتى ولو طرد السكان الموجودين حالياً، أي إن ثلث عدد اليهود فقط يستطيع العودة إلى فلسطين. فماذا يحدث للباقين؟. . .

4 ـ إننا كيهود إنجليز نتعلّم في المدارس العامة والجامعات ونلعب دورنا في السياسة وفي الجيش والخدمة المدنية في بلدنا أكثر من ذي قبل.

ومن دواعي سروري أن التعصّب ضد التزاوج قد بدأ يلين. . ولكن إذا أعطي اليهودي وطناً قومياً فلا شك أن الدافع لحرماننا من حقوقنا كمواطنين بريطانيين يصبح أقوى بكثير. وسوف تصبح فلسطين الحي اليهودي للعالم. ولماذا يعطي لورد روتشيلد تلك الأهمية الكبيرة للفروق بين اليهود البريطانيين واليهود الأجانب؟. . . إن جميع اليهود في شتى أنحاء العالم سيصبحون بعد إقامة الوطن القومي في فلسطين يهوداً أجانب.

إنني لا أعلم كيف سيتم اختيار ثلث يهود العالم الذين لا تتّسع فلسطين لأكثر منهم، ولكن اليهودي بغضّ النظر عن البلد الذي ينتمي إليه سوف يصبح لزاماً عليه أن يختار واحداً من أمرين. . إما أن يذهب إلى فلسطين ويعيش مع يهود آخرين غرباء عنه أو أن يبقى كضيف غير مرغوب فيه في البلد الذي يعتقد أنه ينتمي إليه.

ولا يدهشني أن تقدّم الحكومة على هذه الخطوة بعد خطوة تكوين لواء يهودي في جيشها. وها أنذا في انتظار أن أسمع أن أخي الذي جرح في الفرقة البحرية أو ابن أخي في حرس المشاة قد يضطر تحت ضغط الرأي العام ـ أو بسبب تنظيمات الجيش ـ أن يصبح ضابطاً في لواء يتكوّن أساساً من أناس لا يفهمون اللغة الوحيدة التي يتكلمها وهي الإنجليزية. إن إنشاء فرقة يهودية يجعل موقف اليهود في الألوية الأخرى أكثر صعوبة ويفرض جنسيته على الذين لا يشتركون مع بعضهم البعض في شيء»[1].

ومن الواضح أن هذه المذكرة من الوزير اليهودي كانت تهدف أول ما تهدف توضيح ما سيصيب اليهود في مختلف أقطار العالم نتيجة إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين، إلا أنها تؤكد في الوقت نفسه بما لا يرقى إليه الشك أنه ليس هناك أمة يهودية تتمتع بقومية يهودية وكل محاولة لخلق مثل هذه القومية مصيرها الفشل وأن النتائج التي تترتب على الخطوة البريطانية بتبني الوطن القومي اليهودي في فلسطين نتائج وخيمة لليهود ولبريطانيا ذاتها. وعلى

---

(1) بريطانيا، مكتب السجلات العامة، الخزانة رقم 24/ 24 (23 آب/أغسطس 1917).

الرغم من كل هذه الانتقادات صدر تصريح بلفور ضارباً صفحاً عن اعتراض اليهود في فكرة الوطن القومي لليهود كما صدر بغير موافقة العرب أو علمهم[1]. لما احتج العرب لدى الحكومة البريطانية التي أكّدت لهم بأن تصريح بلفور لن يخلّ بحقوقهم المدنية والدينية أو بحريتهم السياسية وأن الحكومة لا تؤيد عودة اليهود إلى فلسطين إلّا بالقدر الذي يتّفق مع الحرية السياسية والاقتصادية للسكان الموجودين فيها[2].

وقد كان لمونتاجو (الوزير البريطاني المذكور) موقفاً لا يقلّ حزماً عن موقفه تجاه وعد بلفور، وذلك عندما تقدّم الطبيب اليهودي الروسي روثشتين بصفته المتحدث باسم الدولة اليهودية المقبلة بعرض إلى الحكومة البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى في الفترة التي سبقت إصدار تصريح بلفور، وخلاصة هذا العرض: «أن تقوم دول الحلفاء بتجهيز وتنظيم جيش من اليهود قوامه 120 ألفاً في البحرين تضعه تحت قيادته لغزو واحتلال منطقة الإحساء التركية، وأن تعقد معاهدة مؤقتة معه من أجل خلق دولة يهودية على الخليج العربي». فقد عارض مونتاجو بشدة هذا العرض وقال في ردّه في 15 أكتوبر/ تشرين الأول سنة 1917: «. . .إنه بصرف النظر عن الاعتراض العام لإدخال عنصر جديد في الجزيرة العربية، وبصرف النظر عن المشكلة التي هي مثار الجدل حول مرغوبية إقامة دولة يهودية في أي مكان، هناك أسباب خاصة لاعتبار المواقع المختارة لكل من تمركز الفرق اليهودية وللإقامة النهائية للدولة اليهودية المقترحة غير ملائمة تماماً. إن وصف الإحساء (كولاية تركية) يمكن أن يكون، صحيحاً من وجهة فنية، ولكن المنطقة هي في الحقيقة بحوزة ابن سعود أمير نجد منذ 1913، الذي عقد معاهدة صداقة وتحالف مع حكومة جلالته في ديسمبر/ كانون الأول 1915 التي تعترف بصراحة بحقوق ابن سعود بالإحساء، وتضمن له المساعدة من حكومة جلالته في حالة هجوم أية دولة أجنبية على بلاده، وفيما يتعلق بالبحرين فإن شيوخها كانت لهم علاقات

---

(1) هنري كتن، «**فلسطين في ضوء الحق والعدل**»، ص 11 ـ 12.

(2) المرجع السابق، ص 14.

معاهدة مع بريطانيا منذ سنة 1820، وحكومة جلالته لا يمكنها أن تقرّ، بدون موافقة صريحة من هؤلاء الحكّام أية اقتراحات تتعلّق بحقوقهم الإقليمية.. «هذا مع العلم أن الخارجية البريطانية اعتذرت في 23 أكتوبر/تشرين الثاني 1916 إلى صاحب العرض دون أن تبدي الأسباب[1].

وقد عارض العديد من اليهود في أوروبا تدخل الصهاينة في شؤونهم، فلما زار «بن غوريون الدانمارك سنة 1962 وأخذ يحثّ يهودها على الهجرة إلى إسرائيل وقف رئيس الجالية اليهودية في الدانمارك ليقول له: «إننا نحن الدانماركيين لا نريد مكاناً آخر لنعيش فيه حياة أسعد من حياتنا هنا في الدانمارك إننا جزء أصيل من الشعب الدانماركي فنحن دانمركيون أولاً ثم يهود». كما رد عليه رئيس حاخامي الدانمارك قائلاً: «إن أي فرد مهما علا مركزه، ومن أي مكان جاء، ليس له الحق أن يغير، ولو مثقال ذرة، من الوضع الذي ظلّ عليه اليهود الدانماركيون سنين طويلة، يعيشون سعداء جنباً إلى جنب مع باقي إخوانهم الدانماركيين[2].

ولقد برهنت الأيام على أن الأحداث التي كان يتوقع المعارضون والمنتقدون للوطن القومي اليهودي في فلسطين حدوثها في حالة تنفيذ هذا المخطط الاستعماري قد وقعت فعلاً وخاصة بالنسبة للبلاد العربية، فاليهود الذين كانوا يتمتعون بحياة مستقرة آمنة حرة في البلاد العربية اضطر معظمهم تحت ضغط الصهيونية بالتعاون مع السلطات المختصّة التي يسيّرها الاستعمار إلى الهجرة إلى إسرائيل. أما بريطانيا ناصبة الفتيل فبعد أن تفاقم الوضع وشعرت بتهديد مصالحها في البلاد العربية أخذت تلعب على عدّة حبال، فمرة تنفض يدها من جريمتها الأساسية وترميها على عاتق غيرها، ومرة تتظاهر

(1) خيرية قاسمية، «وثائق بريطانية حول اقتراح يهودي بإقامة دولة يهودية في منطقة الخليج العربي أثناء الحرب العالمية الأولى»، **شؤون فلسطينية**، عدد كانون الثاني 1972، ص290 ـ 291. نقلاً عن الوثائق البريطانية التالية:

F. O. 882-2-14 Arab Bureau Paperes. F. O. 371-3053-18242.

(2) «**مجلة العربي**»، العدد 143، ص 151.

بتأييدها للعرب، ولكن ذلك لن يبرئها مما ارتكبته بحق العرب واليهود معاً بتخطيطها وتمهيدها لتنفيذ الجريمة، وإن العرب لن ينسوا مسؤوليتها الكبرى في تنفيذ هذه المأساة العالمية وستبقى جريمتها لطخة سوداء في جبين الإمبراطورية البريطانية إلى أبد الآبدين.

مشكلة اليهود الشرقيين في إسرائيل:

تجابه إسرائيل اليوم مشكلة من أهم المشاكل التي تواجهها في محاولة خلق قومية يهودية تشمل جميع اليهود من مختلف العناصر، وهذه هي مشكلة اليهود الشرقيين. لقد سبق أن عرضنا في الفصل السابق نبذة عن الخلافات الرئيسة بين الطائفتين اليهوديتين الرئيسيتين الغربية والشرقية ونظرة الاحتقار التي يضمرها اليهود الغربيون تجاه اليهود الشرقيين. لذلك يتوقع البعض أن يتحوّل يوماً ما حقد اليهود الشرقيين على اليهود الذين هم من أصل أوروبي إلى نشوء مصلحة مشتركة بينهم وبين العرب قد تؤدي إلى انضمامهم إلى جانب العرب في حالة قيام اضطرابات في إسرائيل في المستقبل. ولا يخفى أن الصهيونية كانت منذ قيام دولة إسرائيل تحذر من اليهود الشرقيين وبخاصة المتكلمين بالعربية، إذ كانت تعد وجودهم في بلادهم العربية مصدر خطر على مصالحها لذلك كان جلّ اهتمامها أن تسرع بشتى أساليب الإغراء والتهديد والتحذير في تهجيرهم إلى إسرائيل ليكونوا تحت قبضتها داخل إسرائيل. ولكن على الرغم من ذلك فالخطر هو الآن أشدّ مما كان الصهاينة يتوقعونه بعد أن أخذ عدد هؤلاء اليهود الشرقيين يزداد في إسرائيل حتى أصبح على وشك أن يفوق عدد اليهود من الأصل الأوروبي[1]. وفي ذلك يقول إسحاق دويتشر ما نصه:

«إن تطلّعات إسرائيل الثقافية تأثرت بشدة من جرّاء التغييرات في تكوين بنية الشعب فقد شكّل اليهود الذين هم من الأصل الأوروبي الغالبية العظمى

---

(1) بلغ عدد اليهود الشرقيين 1,242,578 نسمة عام 1966 أي 53% من مجموع سكان فلسطين المحتلة بينما بلغ عدد اليهود الغربيين 1,101,899 نسمة فقط «**التعليم في إسرائيل**»، الدكتور منير بشور وخالد مصطفى الشيخ يوسف، 1969، ص33.

من السكان في ظلِّ الانتداب البريطاني أما الآن فهم ليسوا سوى أقلية. ويشكّل المهاجرون من آسيا وأفريقيا نحو نصف عدد سكان إسرائيل. ويسمع المرء شتى أنواع النظريات والتكهنات العميقة في القدس وتل أبيب، ويشير البعض إلى نسبة المواليد العالية بين اليهود الشرقيين ويتنبأون بأن إسرائيل ستصبح شرقية في النهاية ويتنبأ آخرون بتبلور حضارة إسرائيلية جديدة. وأعتقد شخصياً أن اليهود الأوروبيين سوف يصهرون في النهاية. إن اليهود الشرقيين يمثّلون الحضارة الأرقى التي **تنتصر في العادة** على الحضارة الأدنى.. إن اليهودي الغربي يدرك غيرة وحقد اليهود الشرقيين وهو في بعض الأحيان يبدي تخوّفه منهم، ويمكن لك أيضاً أن تسمع الشكوك التي تُثار حول إخلاصهم: (الله وحده يعلم ما إذا كانوا سيضعون أيديهم في أيدي العرب في حالة قيام اضطرابات. (ليس من فارق كبير بينهم وبين العرب. أليس كذلك؟).. قد لا تكون هذه النظرة مطروحة جدياً في الوقت الحاضر، غير أنها تشير إلى وجود نوع من التوتر، ويظن البعض أنه سيأتي يوم يُثار فيه حقد اليهود الشرقيين»[1]. ومثل ذلك يقول مايكل سلزر بعد أن شرح بالتفصيل الخلافات بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين «إن هذه الحقائق تؤدي إلى تخوّف أفظع وهو هل يأتي الوقت الذي ينحاز فيه اليهودي العربي إلى جانب العرب ضدنا؟ وقد كانت هناك مثل هذه الحالات القليلة».

ويعلّق الباحثون أهمية كبيرة على مشكلة اليهود الشرقيين في إسرائيل من حيث تهديدهم لكيان دولة إسرائيل، فيقول دكتور سعد الدين إبراهيم «أما شعور الازدراء نحو اليهود الشرقيين فهو لا يحتاج إلى تدليل أو توضيح. فالتفرقة والتعصب ضدهم ينعكسان على أحوالهم المادية والاجتماعية، وهم أدنى درجات السلم الاجتماعي في إسرائيل. والمؤسسة الحاكمة في ورطة حيال اليهود الشرقيين. فمن ناحية تجد نفسها مجبرة على تطبيق شعار العودة بالنسبة لكل اليهود (ومنهم الشرقيون) لأن ذلك الشعار هو التبرير الوجودي

(1) إسحاق دويتشر، «**اليهودي اللايهودي**»، ص 75 ـ 77.

لدولة إسرائيل وفي الوقت نفسه يمثّل اليهود الشرقيون مشكلات اجتماعية عاتية: فهم يختلفون عن كل من يهود أوروبا الشرقية ويهود أوروبا الغربية على السواء من الناحية الحضارية. كذلك هم أدنى مهارة من كلا الفريقين مادياً وتعليمياً من حيث المهارات التكنولوجية. وتحتاج عمليات أقلمتهم وغسيل مخّهم طبقاً للمخطط الصهيوني أموالاً طائلة لا يمكن توفيرها إلّا باقتصاصها من مخصصات الحرب أو على حساب الطوائف الأخرى الأكثر تميزاً. إن أحوال اليهود الشرقيين هي باختصار أحوال مزرية، وتمثّل لغماً اجتماعياً كبيراً في إسرائيل. والطريقة الوحيدة التي نجحت بها المؤسسة الحاكمة في تأجيل انفجار هذا اللغم كان دائماً بتوجيه المرارة والغضب، اللذين يحسّ بهما اليهود الشرقيون نحو الأقلية العربية، أو نحو العالم العربي. ولكن هذه الوسيلة تنكشف بين الحين والآخر، ويدرك اليهود الشرقيون بالتدريج أن عدوهم الأول هو الظلم الاجتماعي والتفرقة العنصرية ـ كما تجلّى ذلك حديثاً في ظهور حركة (الفهود السود) الإسرائيلية[1].

وفي قضية زيادة عدد اليهود الشرقيين في إسرائيل يضيف دكتور سعد الدين قائلاً: ومن التغيرات الأساسية التي لم يدركها المؤسسون منذ ربع قرن أن اليهود الشرقيين سيصبحون أغلبية سكانية في الربع الأخير من هذا القرن. وحتى حينما اتّضحت هذه الحقيقة خلال الستينيات فإن قدراتهم الخلّاقة المحدودة ـ من ناحية ـ وتعصّبهم وتعاليهم ـ من ناحية أخرى ـ لم تمكّن المؤسسة الحالية من حلّ مشكلاتهم الحضارية والاجتماعية والاقتصادية في وقت مبكر. ولن يكون أمام الأفراد الجدد في المؤسسة الحاكمة في السنوات المقبلة إلّا ثلاثة احتمالات في معالجة قضية اليهود الشرقيين: إخضاعهم بالقسر مع شراء زعمائهم ورشوتهم (وهو الأسلوب الذي اتبعته المؤسسة الحالية)، أما الحل الجذري للمشكلة ـ وهو ما يتطلّب ملايين الليرات التي لا يمكن توفيرها إلّا بتغيير عسكرية المجتمع الحالي، ووقف التحيّز ومحاباة

---

(1) «**مجلة الدراسات العربية**»، عدد نيسان 1972، المقال الموسوم «المؤسسة الحاكمة في إسرائيل».

اليهود الغربيين (في الوظائف والمساكن مثلاً) وهذا الحل سيجعل إسرائيل تفقد ميزاتها في المنطقة، وبالتالي احتمال وجودها في المستقبل. وهذا أمر بعيد اللجوء إليه. والاحتمال الثالث في معالجة قضية اليهود الشرقيين هو استمرار سياسة الحرب والتوسّع. ذلك سينتج للمؤسسة الحاكمة شيئين على الأقل، أحدهما تحويل نقمة اليهود الشرقيين نحو العدو الخارجي، والثاني الحصول على أراض وموارد جديدة وبالتالي خلق فرص اقتصادية واجتماعية أمام اليهود الشرقيين. ومن معلوماتنا عن المؤسسة الحاكمة في إسرائيل فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن الحل الأخير هو ما ستلجأ إليه هذه المؤسسة.

وفي موضوع اليهود الشرقيين والغربيين يلفت النظر رودنسون الكاتب اليهودي الفرنسي إلى تصريحات القادة الفلسطينيين بأن هناك جنسين (Nationality) في إسرائيل، الجنس العربي والجنس الإسرائيلي، وفي الواقع هناك ثلاثة أجناس. اليهودي العربي، واليهودي الشرقي، واليهودي الغربي[1].

مشكلة اليهود السود في إسرائيل:

ومن أبرز مظاهر التمييز العنصري في المجتمع الإسرائيلي بالإضافة إلى التمييز بين الأشكناز (اليهود الغربيين) واليهود الشرقيين ضمن الإطار اليهودي في العالم ظاهرة التمييز الموجَّه ضد ما يسمونهم بالعبرانيين السود أو اليهود السود أو الإسرائيليين السود التي سبّبت مشكلة عنصرية خطيرة في إسرائيل. وهؤلاء من زنوج أميركا المنحدرين من أصل أفريقي اعتنقوا الديانة اليهودية ويدعون بأنهم ينحدرون من اليهود الأثيوبيين أو الفلاش وأن الإله قد منح لهم ولذريتهم أرض الميعاد ولذا فإن هذه الأرض تخصّهم وحدهم. وقد هاجر هؤلاء الزنوج إلى إسرائيل وفقاً لقانون العودة لعام 1950 الذي يمنح كل

(1) انظر هيلدا صايغ، «**التمييز العنصري ضد اليهود الشرقيين في إسرائيل**»، وقد سبقت الإشارة إليه. وإننا نورد فيما يلي أهم المراجع التي تتناول هذا الموضوع:

Marie Syrkin, «**Oriental Jews in Israël**», N. Y., 1952.

M. Selzer, «**The Arianization of the Jewish State**», N. Y., 1967.

يهودي الحق في الهجرة و«العودة» إلى إسرائيل. وقد استوطن العبرانيون السود مدينة «ديموناه» و«مثبية ريمون»، «عراد» في النقب، كما استوطنت عائلات يهودية سوداء مدينة أريحا وسكنت بين أهلها العرب. ولم يلبث هؤلاء اليهود السود طويلاً حتى انفجرت روح العنصرية ضدهم على أشدها عنفاً وقد أخذ الوضع يتفاقم في العلاقات بين اليهود البيض واليهود السود ويسير من سيّئ إلى أسوأ بعد وصول أعداد من أبناء هذه الطائفة السوداء حتى أخذت تنعكس ظاهرة التمييز ضد اليهود السود بشكل بارز على العلاقات الإسرائيلية الإفريقية وبشكل أعمّ على العلاقات الإسرائيلية مع الملونين في أنحاء العالم.

وقد بلغت قضية «اليهود السود» ذروتها عندما اتّخذت السلطات الإسرائيلية قراراً بطرد بعض المجموعات اليهودية السوداء ومنع مجموعات أخرى من الوصول إلى إسرائيل خوفاً من تزايد عدد اليهود السود وخلق مشاكل عنصرية في المجتمع الإسرائيلي. ويرى البعض أن ولادة هذه الحركة الصهيونية السوداء قد تؤدي إلى احتمال ولادة حركة صهيونية جديدة على أنقاض الصهيونية القائمة، فيعترف بعض الإسرائيليين (البيض) بألم بخطورة هذه المشكلة العنصرية في إسرائيل فيعبّر أحدهم عن هذا الألم بقوله: «يؤلمني مصير هؤلاء السود.. ويؤلمني بشكل أشد العنصرية التي أخذت تنمو في أوساطنا والتي من شأنها أن تشوّه شكل دولتنا وطابعها[1].

وهؤلاء اليهود السود المعروفون بالفلاشا Flasha طائفة حبشية اتّخذت اليهودية ديناً لها واختارت لنفسها حياة العزلة وتمركزت في أعلى وأوعر جبال الحبشة (جبال سيميان) الواقعة إلى الشمال من بحيرة تانا وهم يجهلون العبرية والتلمود وإن كتاباتهم ومخطوطاتهم الدينية بلغة الجعيز[2]. وهذا ما يدلّ على

---

(1) انظر المقال، «**العبرانيون السود**»، بقلم عبد الحفيظ محارب المنشور في عدد 13 أيلول 1972 **من مجلة شؤون فلسطينية**، ص70 ـ 82.

(2) لغة الجعيز هذه هي أقدم لغة سامية انتقلت إلى الحبشة إثر زحف القبائل العربية من جنوب الجزيرة العربية إلى الحبشة على مدى أجيال متباعدة في موجات متعاقبة ومعها دخلت لغاتها ولهجاتها كان أقدمها شيوعاً لغة الجعيز (اللغة الأم). وتسمية الجعيز موروثة من قبيلة يمانية يدعى أفرادها «الأجاعز» ولا يزال أثر الخط السبئي والحميري القديم المعروف =

أن اليهودية دخلت إلى الحبشة منذ أقدم العصور ولعلها جاءت من اليمن إثر زحف القبائل السامية من جنوب الجزيرة العربية إلى الحبشة. وفي التراث الحبشي قصة تشير إلى ظهور ملكة بين قبيلة أغاو الوثنية تدعى «يوديث» اعتنقت الديانة اليهودية فناصبت ملوك الحبشة العداء وأحرقت عدداً من كنائسهم سنة 960 ميلادية، مما حمل أحد أباطرتهم على الاستنجاد بملك النوبة لإنقاذ المسيحية من خطرها. والأحباش ليومنا هذا يصبّون اللعنة عليها كلما جاء ذكرها. والمعروف عن هؤلاء اليهود السود أنهم أشغلوا الحبشة بحروب طويلة، حتى أنهم في إحدى حملاتهم العسكرية على العاصمة تمكّنوا من اختطاف تاج الملك واحتجازه في قلاعهم الحصينة مدة أربعين سنة(1).

هل فلسطين سلعة بائرة لا أهل لها حتى تمنح بالوعود لزيد أو عمرو؟

أما ما أورده مدوّنو التوراة المحرّفة من أن هناك وعداً نسبوه إلى ربهم يهوه بمنح بلاد كنعان (من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات) لإبراهيم ولنسله من بعده(2) باعتبار اليهود من نسل إبراهيم، وما أوردوه أيضاً من أن

= بالخط المسند ظاهراً في كتابة لغة الجعيز وهو من أقدم الآثار التي خلّفتها حضارة الجنوب العربي في المجتمع الحامي في الحبشة. وقد كان لإدخال هذه اللغة المكتوبة بالحروف الأبجدية أعمق الأثر في نشوء ورسوخ حضارة جديدة في هذه الربوع وقد استعملت هذه اللغة في تدوين أقدم أثر مخطوط وهو المعروف باسم سجل الملوك الذي يحكي تاريخ الحبشة منذ أقدم عصورها المعروفة كما استعملت في الرقم والنقوش المكتشفة في «يحا» وفي بلدة أكسوم العاصمة القديمة. «إلا أن هذه اللغة اندثرت تدريجياً بسبب تغلّب اللهجات الكوشية المحلية عليها واضمحلال مدينة أكسوم ودولتها أمام حروب المسلمين واليهود السود فيما بعد. فانحصر نطاق استعمالها بفضل حروفها الأبجدية في كتابة الأدب والوثائق والطقوس الدينية فقط. وحتى يومنا تجري الطقوس الدينية في الكنيسة الحبشية بلغة الجعيز كما وتكتب بها وللكنيسة الحبشية المسيحية ولليهود الفلاشا إذن يعود الفضل في بقاء هذه اللغة على قيد الحياة حتى الآن وإن كانت بنطاقها المحدود (ممتاز العارف، **«الأحباش بين مأوب وأكسوم»**، بيروت 1975، ص5 ـ 15).

(1) المرجع السابق، ص 15، 16.

(2) (تك، 15: 18 ـ 20، 17: 8، 35: 12).

هناك أمراً من الإلٰه العلي يقضي بإبادة سكان كنعان من غير تمييز بين رجل وامرأة وبين شيخ وطفل وإحراق مدنهم وما فيها بالنار وإحلال بني إسرائيل (قوم موسى) محلهم[1] فمسألة لا يمكن أن تمرّ بدون تعليق أو إبداء وجهة نظر في الموضوع: إن عزو مثل هذا الوعد المشروط بالقتل الجماعي والإبادة إلى الله سبحانه تعالى هو من غير شك افتراء محض، لأنه لا يمكن أن تعترف أية ديانة سماوية بإبادة بني الإنسان وقتل النفس البريئة، وإنه افتراء على النبيين الجليلين إبراهيم الخليل وموسى أن تنسب إليهما الرغبة في إبادة الأقوام وقتل الأبرياء. والمعلوم أن إبراهيم الخليل سكن مع الكنعانيين والمصريين وعاش معهم في مودة ووئام ووفاق. ألم تقل التوراة إن ملكي صادق الكاهن الكبير ملك شاليم (أورشليم) بارك إبراهيم وقال: «مبارك أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض»[2]. . كما أنه من المستحيل أن يكون قد نزل على نبي من الأنبياء أمر بالقتل الجماعي الذي نُسب إلى الإلٰه العلي. فقد جاء في القرآن الكريم ما يحذر بني إسرائيل من مغبّة مثل هذه الأفعال المنكرة التي أدخلوها في كتبهم وقالوا هذا من عند الله[3] فنزلت الآية الشريفة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[4]. وفي القرآن الكريم آيات أخرى تأمر بالمودّة، وتجنّب المعاداة، والبرّ بمن لا يقاتل، والتقييم للنفس حتى بالنسبة للأعداء. ففي سورة الممتحنة قال تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[5]. وبمثل ذلك يأمر الإنجيل الأمة المسيحية فيقول: «زيدوا على إيمانكم الفضيلة، وعلى

---

(1) (خر، 34: 12)؛ (تث، 20: 16 ـ 17)؛ (عد 31: 17 ـ 18، 33: 50 و55 ـ 56)؛ (يش، 6: 21 ـ 24)؛ (1 صم، 15: 3 و23).

(2) (تك، 14: 18).

(3) انظر ما تقدّم عن قوانين الحرب في التوراة وتحريف التوراة في الفصل الثالث.

(4) سورة المائدة، الآية: 32.

(5) سورة الممتحنة، الآيتان: 7 و8.

الفضيلة التعقّل، وعلى التعقّل العفاف، وعلى العفاف الصبر، وعلى الصبر التقوى، وعلى التقوى المودّة الأخوية، وعلى المودّة الأخوية المحبة»[1] وقد مرّت الإشارة إلى ذلك في الفصل الثالث.

إن التوراة التي بين أيدينا دوّنت كما هو معلوم بعد زمن إبراهيم الخليل عليه السلام بألف وثلاثمائة عام، وبعد زمن موسى بمقدار ثمانمائة عام، وقد دوّنها الكتبة والأحبار عن أفواه أسلافهم على الأكثر، فأضافوا وحرّفوا ما حرّفوا بحسب أهوائهم ونزعاتهم الدينية، حتى أصبح من المتعذّر التمييز بين الأصل وبين المضاف أو المحرف. وقد افتروا فيما كتبوه على الأنبياء ونسبوا إليهم في التوراة أعمالاً قبيحة تتنافى ومقامهم ومنزلتهم، بل تتنافى مع الفضائل والمثل العليا، ولم يكتفوا بذلك فنسبوا إليهم حتى الزنى، هذا في حين أن الوصايا العشر تقول: «لا تزن» و«لا تقتل». وهذا كله دليل قاطع على أن الوعد المشروط بالقتل الجماعي والإبادة مختلق من حيث الأساس، إذ لا يمكن أن يكون قد نزل شيء من هذا القبيل من عند الله مطلقاً. لذلك فإن بعض علماء اللاهوت من المسيحيين أخذ يدعو إلى عدم اعتراف المسيحية بكتاب العهد القديم ككتاب ديني وحتى ككتاب تاريخي وثائقي، ففي رأي البحاثة والمستشرق سبنسر تريمنغهام الرئيس السابق لكلية العلوم الشرقية في جامعة غلاسكو في بريطانيا وأستاذ العلوم الإسلامية في كلية اللاهوت ببيروت «أن كتاب العهد القديم استخدم ويستخدم لأغراض سياسية لا تقع ضمن إطاره الصحيح، وما استخدامه من قبل المؤرّخين وغيرهم كمادة تاريخية لإثبات بعض الأغراض سوى تشويه للحقيقة». والنظرية المهمة التي يطرحها في كتابه «عالمنا» The World of Ours يعرضها في فصل كامل يقارن فيه بين العهد القديم والعهد الجديد باعتبارهما عهدان مختلفان تماماً. فالعهد القديم، من وجهة نظره «لا يمكنه مطلقاً أن يكون كتاباً مسيحياً، أما استمرار بعض الكنائس المسيحية في التشديد عليه فقضية يجب النظر إليها بمنظار لا ديني..» ثم يضيف إلى ذلك قوله: «إنه لا داعي مطلقاً لأن يقلق المسيحيون فيما لو

---

(1) (2 بط، 1: 5 ـ 7).

أهمل استعمال العهد القديم لأن المسيحية بدأت بالمسيح وحده وبه تنتهي، وقد سبق للناصري أن نقض جميع ما كان يمارسه اليهود»[1].

يقول الدكتور في اللاهوت في الموسوية واليهودية الأنبا غريغوريوس أسقف علم الدراسات اللاهوتية العليا والثقافة القبطية والبحث العلمي ببطريركية الأقباط الأرثوذكس بالقاهرة: «وتزعم إسرائيل أنها (والكلام هنا عن المسيحية) تتبع ديانة العهد القديم وديانة النبي موسى... وهذا لغو! إن المسيحية وإن جاءت مكملة ومتممة للموسوية (وقد قال يسوع «لا تظنوا أني جئت لأنقض الشريعة والأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأتمم»[2]. **لكن اليهودية هي غير الموسوية، إن اليهودية الآن هي ديانة الذين أنكروا المسيح الذي أتى لخلاص العالم فرفضوا دعوته ورسالته وتعاليمه الروحانية** متطلعين إلى مسيح آخر من طراز شمشموم الجبار وغيره من المحاربين الأشدّاء الذين يقودون المعارك الحربية ليحققوا لشعبهم نصراً مادياً أرضياً، ولا يزالون مرتبطين بفكرة المملكة الأرضية التي تقوم على التوسّع المادي والاقتصادي ليسودوا العالم ويحكموه، ويتسلّطوا على غيرهم من الشعوب اعتقاداً منهم أنهم هم وحدهم شعب الله المختار، وأما غيرهم من البشر فهم حيوانات لها أشكال آدمية»[3].

ولا يمكن أن يمرّ الحديث عن الوعد المذكور آنفاً دون أن يرد على الذهن وعد بلفور المشؤوم، فهو صورة طبق الأصل عن الوعد التوراتي المزيف مثّلته بريطانيا على مسرح شرقنا الحبيب، وقد سجّل أفجع مأساة من مآسي القرن العشرين. ومن الواضح أن كلا الوعدين يرمي إلى تحقيق عملية واحدة من حيث ا(لإعداد والتصميم، هي: طرد سكان فلسطين من مساكنهم وإحلال اليهود محلهم. وإذا كان وعد بلفور لم يشر صراحة إلى الإبادة والقتل والتشريد فإن ذلك حصل عملياً عند التنفيذ. ولنا أن نسأل: من أين جاءت بريطانيا يا ترى بهذا الحق

---

(1) **الأسبوع العربي**، العدد 666، السنة الثالثة عشرة، 13 آذار 1972، ص 39.

(2) (مث، 5: 17)

(3) «وثيقة للكنيسة القبطية في مصر»، **الأنوار البيروتية**، السنة 16، العدد 5035، 13 ت2 1974، ص6.

المنطوي على سلب أرض فلسطين من أهلها ومنحها لليهود؟.. ومن منحها هذا الحق لتظهر بمظهر السخاء والكرم الحاتمي؟.. هل فلسطين بائرة لا أهل لها حتى تُمنح بالوعود إلى زيد أو عمرو؟..

إن هذا التجاوز على حقوق أهل فلسطين لا يمكن أن يدوم لأنه عمل عدائي صريح مخالف للعدل والإنسانية، فكما أزيل في الماضي كذلك سيُزال عاجلاً أو آجلاً. والحق لا يموت إذا وجد وراءه مطالب سخي في الصبر والتضحية.

وأدقّ تحليل لواقع الحال بالنسبة لقضية العرب واليهود يمكن أن ننهي به هذا الفصل الأخير هو ما كتبه إسحاق دويتشر المعلّق اليهودي المعروف بتحليلاته للأحداث السياسية الدولية التي كانت تُنشر في الصحف الرئيسية لمدة أربعة عشر عاماً في أوروبا والولايات المتحدة وكندا واليابان والهند وأمريكا اللاتينية، فنخلص من خلال خبرته العلمية ومعرفته الدقيقة بالأحوال السياسية والاقتصادية والعسكرية في إسرائيل إلى أن النصر الإسرائيلي سنة 1967 يعدّ كارثة تاريخية بالنسبة للصهيونية على المدى البعيد، وأن الطريق العربي إلى النصر على الصهيونية والاستعمار يمرّ بخطى سريعة نحو تحقيق تطوّر شامل في بنيان مجتمع عربي موحّد مبني على استراتيجية ثورية جديدة يرمي إلى التحرّر من طوق المطامع الاستعمارية في المنطقة. فيقول دويتشر ما نصه:

«إن الحرب و(معجزة) النصر الإسرائيلي لم تحلّا أياً من المشاكل التي كانت قائمة بين إسرائيل وبين الدول العربية، بل على العكس، فقد ضاعفت الحرب من خطورة المشاكل القديمة، وخلقت مشاكل أخرى جديدة أكثر من أي وقت مضى. وإنني مقتنع بأن النصر الإسرائيلي سيتحوّل في المستقبل القريب إلى كارثة تصيب دولة إسرائيل نفسها.. إن هذا النصر بالنسبة لإسرائيل هو أشد ضرراً لها من الهزيمة، ولقد أضعفها بدلاً من أن يوفّر لها الأمن والاستقرار»[1].

---

(1) إسحاق دويتشر، **«اليهودي اللايهودي»**، ص 92، 106.

الخاتمة:

وختاماً يبدو لنا أن الصهيونية مع المصائب والكوارث التي أحدثتها في البلاد العربية في اعتداءاتها المتكررة خدمت العرب في شيء واحد، هو بعثها الإحساس القومي العربي في الأمة العربية واليقظة بعد رقاد طويل، كما أحدثت وعياً بين الأمم الغربية التي لم تكن تعلم شيئاً عن العرب غير ما كان يصلها من اليهود وأعوانهم، إذ صار العالم اليوم يتنوّر ويتفهم الحقيقة الواقعة التي كان يجهلها، وهي أن هناك جماعة معتدية على شعب مسالم تريد اغتصاب أرضه وطرده منها ليحتل محله بالقوة. وعلى الرغم مما تنشره الدعايات المغرضة بوصفها البلاد العربية بالتفكك والتنافر، فإن البلاد العربية تسير اليوم بخطى سريعة في مسيرتها القومية نحو جمع الشمل والتعاون فيما بينها في دفع الخطر المشترك كأمة متماسكة مستمدة من مجدها الغابر وتراثها وإيمانها الثابت الحزم والقوّة في تحقيق أهدافها التحررية في ظلٍّ وحدة شاملة يسودها العدل الاجتماعي والرخاء العميم.

الملاحق

الملحق الأول

أورشليم في أقدم عصورها

أورشليم[1] (بيت المقدس) في أقدم عصورها مع المراجع

تمهيد:

ما من مدينة في تاريخ العالم تمتعت بقدسية مستدامة، منذ أن أسسها اليبوسيون الكنعانيون قبل زهاء خمسة آلاف عام[2] حتى يومنا هذا، مثل مدينة أورشليم (بيت المقدس الحالية): إنها الأرض المباركة «دار السلام» كما سمّاها الأقدمون، وقد حمل ملوكها القدماء لواء عقيدة التوحيد للإلٰه العلي لأول مرة في التاريخ البشري، على ما يرى الكثير من المؤرّخين، وقد خصّها الله بالعديد من الأنبياء حتى قيل إن بناءها تمّ على يدهم وإنهم سكنوها حتى

---

(1) لقد اتخذنا مصطلح أورشليم في بحثنا هذا عن تاريخ القدس القديم لأن المدينة كانت تعرف بهذه التسمية في تلك العصور قبل ظهور موسى وقبل أن تكون قد تكوّنت لغة عبرية بمعنى يهودية بعدّة قرون، فهي إذن كلمة كنعانية (عربية) بحتة علينا أن نعتزّ بها مثلما نعتزّ بتسمية القدس. وقد عرف العرب تسمية «أورشليم» في الجاهلية قبل الإسلام واستعملوها في أشعارهم، ففي أبيات لأعشى قيس مخاطباً فيها ابنته يطلق على القدس تسمية «أوريشلم» إذ يقول:

أَفِي الطوفِ خفتُ علَى الرَّدَى ... وَكَـمْ مِـن ردّ أهلـه لَـمْ يـرمِ
وَقَـدْ طفـتُ للمـالِ آناقـهُ ... (عمان) (فحمص) (فأوريشلم)

(2) يرى الأستاذ أولبرايت الذي يُعدّ في مقدّمة الثقات في تاريخ فلسطين أن تاريخ الكنعانيين في فلسطين يرجع إلى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد، انظر:

W.F. Albrigt: «**Archaeology and the Religion of Israël**» 1942, p.68.

أنه لم يبق فيها موضع شبر إلّا وقد صلّى فيه نبي أو قام فيه ملك»[1]. كما خصّها الله بإسراء رسوله المصطفى ﷺ، فقال في كتابه العزيز: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2].

وانطلاقاً من عقيدة التوحيد نطق الملك الكنعاني (العربي) «ملكي صادق»، ملك شاليم (أورشليم)، «الكاهن لله العلي» حين بارك إبراهيم الخليل عليه السلام بقوله: «مبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك في يدك»[3]، وما زالت المدينة حتى يومنا هذا تقدّسها الديانات السماوية الثلاث بكل تجلّة وتعظيم. ويرجع تاريخ ملكي صادق هذا إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد وهو زمن إبراهيم الخليل عليه السلام وهو من نسل كنعان كان ملكاً على مدينة أورشليم وولايتها التي كانت تعرف باليبوسية نسبة إلى يبوس ولد كنعان[4]. وجاء في بعض التقاليد اليهودية أن «ملكي صادق» هو سام وأن تقدّمه بالعمر وشرف نسبه جعلاه جديراً بأن يبارك إبراهيم عليه السلام، ويرى العلماء المحدثون أن «ملكي صادق» من سلالة كنعان وكان محافظاً على سنة الله القديمة بين شعب وثني، وقد عُرف بالتقوى والزهد، وقيل إن ملكي صادق كان يسكن هو وقومه في الكهوف وكان أول من اختطّ أورشليم وبناها وكان محبّاً للسلام حتى أطلق عليه اسم «ملك السلام»، ومن هنا جاء اسم المدينة «شالم» و«شليم» و«سالم»، أي مدينة السلام. ويذكر الإنجيل أن السيد المسيح صار «على رتبة (ملكي صادق) رئيس كهنة إلى الأبد». ويقول بعد ذلك عن ملكي صادق «إنه لا بداءة أيام له ولا نهاية حياة، بل هو مشبه بابن الله، هذا يبقى كاهناً إلى الأبد»[5]. فالتوراة والإنجيل معاً يصفان الكاهن الكنعاني بصفة الكاهن الأعلى وصفة الخلود ويرفعانه إلى المنزلة التي يتلقى منه إبراهيم الخليل بركة الإله

---

(1) ياقوت، **«معجم البلدان»**، ج 1، ص 112.

(2) سورة الإسراء، الآية: 1.

(3) (تك، 14: 20).

(4) (تك، 10: 16)، راجع أيضاً (قض، 19: 10، 11).

(5) (عب، 5: 6، 7: 3).

العلي، إله السموات والأرض. وقد ذكر المطران يوسف الدبس «أن أبا الفرج ابن العبري قال إن ملكي صادق هو ابن عابر أو أحد أحفاد سام وزعم بعضهم أنه من ذرية حام وقال غيرهم إنه ابن صيدون بن كنعان والأظهر والأشبه بالصواب أن ملكي صادق من ذرية سام وأن عشيرته كانت إحدى العشائر القليلة التي استمرت على الاعتقاد بوحدانية الله»[1].

وقد وصل إلينا من أسماء ملوك أورشليم غير «ملكي صادق» الملك «عبد خيبا» وهو الذي ورد اسمه في وثائق العمارنة في ست رسائل وجهها إلى فرعون مصر «أمنحوتب الرابع»، أحد ملوك السلالة الثامنة عشرة، وهو المسمى أيضاً «أخناتون»، وقد اشتهر هذا الملك العظيم الذي حكم بين سنة 1375 وسنة 1358 ق.م. بدعوته لعقيدة التوحيد. ومن أهم ما ورد في هذه الرسائل طلب الملك «عبد خيبا» العون من ملك مصر لصدّ هجمات أهل البادية «العبيرو» أو «الهيبرو» أو «الخبيرو»، وهم العبريون أهل البادية الشمالية الذين منهم جاءت كلمة «عبري» التي شاع استعمالها خطأً للدلالة على اليهود في العصور التالية. وفي جملة أقوال هذا الملك في طلب النجدة: «إن هذه الأرض، أرض أوروسالم، لم يعطني إياها أبي ولا أمي ولكن أيدي الملك القوية هي التي ثبتتني في دار آبائي وأجدادي، ولم أكن أميراً بل جندياً للملك وراعياً تابعاً للملك... منحت ملكية الأرض أوروسالم إلى الملك إلى الأبد ولا يمكن أن يتركها للأعداء...»[2] وكان آخر ملوك أورشليم عند هجوم الموسويين بقيادة يشوع على المدينة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد الملك «أدوني صادق»[3]. وقد ورد ذكر هذا الملك في التوراة في جملة الملوك الخمسة الذين اعتبروا من العموريين[4].

---

(1) «**تاريخ سوريا**»، ج 1، م 2، ص 25.

(2) انظر المراجع التالية:

R.W. Rogers. «**Cuneifrom Parallels**», pp. 268-278; A. Jeremias, «**The Old Testament in the Light of the Ancient East**», Vol. II, p.27; G.A. Barton, «**A Sketch of Semitic Origins**», pp. 403-406.

(3) (يش، 10: 1).

(4) (يش، 10: 3).

تسمية المدينة في مختلف أدوارها:

سمّاها الكنعانيون، سكان البلاد الأصليون، «يرو شالم» أو «يرو ـ شلم»، و«شالم»، و«شلم» اسم إلٰه كنعاني معناه السلام[1] وقد جاءت فيما بعد بهذه التسمية، أي «أورشليم»، في التوراة[2] وهي مشتقة من التسمية الكنعانية الأصلية. وسميت في التوراة أيضاً «شاليم»[3] و«ساليم»[4] و«مدينة الله»[5] و«مدينة داود»[6] و«مدينة الملك العظيم»[7] و«مدينة يهوذا»[8] و«اريئيل»[9] و«مدينة العدل»[10] والمدينة[11]، ومدينة القدس أو المدينة المقدسة[12]وقد وردت باسم «أوروسالم» في الكتابات الكنعانية التي ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد أي مدينة السلام[13]، وظل اسم أورشليم شائعاً منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا، ومن «ياروشالم» جاء الاسم الإفرنجي «جيروزاليم» (Jerusalem) وقد ذكر ياقوت أن المدينة وردت باسم أورشليم بالضم ثم السكون وكسر الراء وياء ساكنة وشين معجمة مفتوحة ولام مكسورة ويروى بالفتح وميم وقد يسكنون

---

(1) طه باقر، «**مقدّمة في تاريخ الحضارات القديمة**»، ج 2، 243.

(2) وردت كلمة «أورشليم» بهذه الصيغة في **الكتاب المقدس** أكثر من 680 مرة. راجع على سبيل المثال لا الحصر (يش، 10: 1، 15: 63)؛ (قض، 1: 8، 21).
راجع أيضاً **قاموس الكتاب المقدس** المواد: أورشليم، ساليم، شاليم وملكي صادق.

(3) (مز، 76: 2)؛ (يو، 3: 23)؛ (عب، 7: 2).

(4) (تك، 14: 18).

(5) (مز، 46: 4).

(6) (2 صم، 5: 7، 9)؛ (أمل، 22: 50). فكان كلما اضطجع ملك من ملوك يهوذا يدفن في مدينة آبائه مدينة داود راجع سير ملوك يهوذا في **سفري الملوك وسفري الأخبار**.

(7) (مز، 48: 2)؛ (مت، 5: 35).

(8) (2 أ خ، 25: 28).

(9) (أش، 29: 1).

(10) (أش، 1: 26).

(11) (مز، 72: 16).

(12) (نح 11: 1، 18)؛ (أش، 48: 2، 52: 1)؛ (مت 4: 5، 27: 25).

(13) انظر ما تقدّم حول رسائل الملك «عبد خيبا» إلى «أخناتون» فرعون مصر في وثائق تل العمارنة.

اللام فيقولون أورشليم. وقد وردت أيضاً بحسب قوله باسم أوريسلم بالسين المهملة وباسم أريشلوم وأوريشلم بتشديد اللام وأورسلم بفتح الراء والسين[1].

وقد نُسبت المدينة إلى الملك الكنعاني «ملكي صادق» الذي عرف بالتقوى وحب الخير والسلام ولقب بملك شاليم، أي «ملك السلام» ووصفته التوراة أنه «كاهن لله العلي أخرج خبزاً وخمراً لإبراهيم وباركه»[2].

ومن أسماء أورشليم القديمة أيضاً «يبوس» نسبة إلى اليبوسيين، سكان أورشليم الأصليين، واليبوسيون هم إحدى القبائل الكنعانية نزحت من جزيرة العرب وسكنت أورشليم وحولها[3]، وقد أسمّاها الفراعنة في كتاباتهم الهيروغليفية «يابيثي» و«يابتي»، وهو تحريف لاسم يبوس الكنعاني[4]. وقد ورد ذكر يبوس في التوراة ووصفت أنها هي أورشليم[5]. ووردت أيضاً في التوراة باسم «مدينة اليبوسين»[6] وسُمِّيت أيضاً «باليبوسي»[7]، ومن تسمية «يبوسيين» صار الكنعانيون يطلقون اسم «يبوس» على كل أورشليم.

وكان لليبوسيين قلعة حصينة على الرابية الجنوبية الشرقية من أورشليم كانوا يطلقون عليها اسم «صهيون»[8]، وقد سُمِّيت «حُصن صهيون»، وصار

---

(1) «**معجم البلدان**»، ج 1، ص 402.

(2) (تك، 14: 18 ـ 20).

(3) لقد ورد في كتاب الأستاذ طه باقر «**مقدّمة في تاريخ الحضارات القديمة**» أن اليبوسيين هم من غير الساميين (ج2، ص282)، والأصحّ هو أنهم قبيلة من الكنعانيين وأن يبوس الذي سُمِّي اليبوسيون باسمه هو أحد أولاد كنعان كما جاء في التوراة (تك 10: 15). ولعل الأستاذ باقر يقصد هنا ما ورد في التوراة من أن الكنعانيين هم أبناء حام وهو التعريف الذي شجبه الباحثون لأنه مخالف للواقع. انظر ما تقدّم في الفصل الرابع «مدونو التوراة يتعمّدون إقصاء الكنعانيين من الأسرة السامية».

(4) خيري حماد، «**الصهيونية**»، ص 55.

(5) (قض، 19: 10) وراجع أيضاً (1 أخ، 11: 4 ـ 5).

(6) (يش، 18: 16)؛ (قض، 19: 11)؛ (1 أخ، 11: 6).

(7) (يش، 18: 28، 15: 8).

(8) وردت كلمة صهيون في **الكتاب المقدس** حوالي 200 مرة وهي تشير في الأصل إلى كونها حصن اليبوسيين (2 صم، 5: 7)، راجع أيضاً (مز، 76: 2).

الحصن يُعرف في عهد المسيح ﷺ أيضاً باسم «جبل صهيون»[1]. ويوجد الآن في جوار مدينة أورشليم وادٍ يُسمّى «وادي صهيون»، كما يوجد موضع يقع في جنوب غربي المدينة خارج السور الحالي للمدينة يُسمّى «جبل صهيون»، وهذه التسمية حديثة لا تمثّل موضع جبل صهيون الأصلي الذي كان يقع في القسم الجنوبي الشرقي من المدينة.

وقد سُمِّيت المدينة بعد استيلاء داود عليها «مدينة داود» وذلك بقصد تغيير الاسم الكنعاني[2]. ويلاحظ هنا أن الملك داود لم يكن لديه مجال لإيجاد اسم جديد للمدينة بغير اللغة الكنعانية، لأن اللغة في عصر داود كانت اللغة الكنعانية نفسها. لذلك أطلق على المدينة اسم «مدينة داود» ولكن مع ذلك بقي الاسم الكنعاني الأصلي يُستعمل وما زالت المدينة تعرف بهذا الاسم.

وفي زمن الرومان حوّل الإمبراطور هادريان مدينة أورشليم، بعد أن استولى عليها ودمرها سنة 135م، إلى مستعمرة رومانية وبدّل اسمها إلى «إيليا كبيتولينا» Aelia Capitolina وإيليا هو الاسم الأول لهادريان. ثم أعاد لها قسطنطين اسمها القديم «أورشليم» بعد اعتناقه المسيحية، وكرّست أمه الإمبراطورة هيلانة جهدها لكشف مواضع الحوادث المهمة للمسيحيين ولبناء كنائس تذكاراً لها[3]. ومع ذلك يظهر أن تسمية «إيليا» بقيت متداولة بين الناس بدليل ورود هذه التسمية «إيليا» في نصّ عهد الأمان الذي أعطاه الخليفة عمر لسكان القدس سنة 15 للهجرة (636م) فسموا بـ «أهل إيلياء»[4].

وقد سُمِّيت المدينة في العصور التالية بـ «بيت المقدس» و«القدس

---

(1) (عب، 12: 22)؛ (رو، 11: 26).

(2) (2 صم، 5: 7، 9)؛ (1 أخ 11: 7)؛ (2 أخ، 5: 2، 11، 5 ـ 7)؛ (1 مل، 8: 1).

(3) ورد اسم إيليا في التوراة للدلالة على أحد الأنبياء ولا علاقة له بالقدس (راجع مل 1، 17: 1؛ 18: 1).

(4) «**آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان**»، طبعة الأكاديمية الإيطالية، 1929، ص4.

الشريف» الخ. . . وقد سمّاها الشيخ إسحاق بن حسين المنجم وهو من علماء القرن الخامس الهجري. بالاسمين «بيت المقدس إيلياء».

يتّضح مما تقدّم أن تسمية «أورشليم» التي يحاول الصهاينة اليوم عدّها من الأسماء العبرية (بمعنى اليهودية) هي في الحقيقة كلمة كنعانية عربية أصيلة وردت بهذا الاسم في النصوص الكنعانية التي وجدت في مصر قبل ظهور اليهود بعدّة قرون، ثم بعد أن ظهر اليهود وتكوّنت اللهجة العبرية المقتبسة من الآرامية في وقت لاحق صار اليهود يسمونها بلغتهم العبرية «يروشلايم». لذلك فدعوى اسم «أورشليم» عبري الأصل (بمعنى يهودي) دعوى باطلة لا تستند إلى مصدر تاريخي بدليل ورود الكلمة في الكتابات الكنعانية[1] قبل أن تتكوّن اللهجة العبرية والمدوّنات العبرية بنحو ثمانيمائة عام وتعترف التوراة اعترافاً صريحاً بأن ليس لليهود أية صلة بتاريخ أورشليم القديم لا من حيث التسمية ولا من حيث القومية، فلما خاطب حزقيال أورشليم قال: «أبوك أموري وأمك حثية»[2] وذلك على اعتبار أن ملوك أورشليم كانوا من العموريين على ما جاء في التوراة حيث اعتبرت «أدوني صادق» آخر ملوك أورشليم في جملة الملوك العمريين[3].

سكانها الأوائل:

كان اليبوسيون الكنعانيون أول من سكن أورشليم ويرجع الخبراء تاريخ وجودهم في المدينة إلى ما قبل خمسة آلاف عام حين نزح الكنعانيون من جزيرة العرب إلى فلسطين، وكانوا يقطنون في المنطقة حوالي أورشليم وكانت أورشليم مركزهم الرئيس وعاصمة ملكهم، وكوّنوا في وطنهم الجديد حضارة ذات حكومة وصناعة وتجارة وديانة. وقد ورد ذكر أحد ملوكهم في الكتابات

---

(1) انظر ما تقدّم عن رسائل العمارنة من الملك «عبد خيبا» إلى فرعون مصر وهي ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

(2) (حز، 16: 3).

(3) (يش، 10: 3).

المصرية باسم «عبد خيبا»، وهذه تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، كما ورد ذكر ملك آخر في التوراة باسم «ملكي صادق» يعود إلى زمن إبراهيم الخليل (القرن التاسع عشر قبل الميلاد)[1]. وبعد غزو الموسويين لكنعان بقيادة يشوع اتّحد ملك اليبوسيين «أدوني صادق» مع أربعة من الملوك المجاورين له واستعدوا للمقاومة غير أنهم وقعوا في أسر يشوع فأعدمهم «وعلّقهم يوماً كاملاً على الخشب» على حدّ قول التوراة[2]. ثم اتحد بقية اليبوسيين مع يابين ملك حاصور ضد يشوع إلا أنهم انهزموا أيضاً وتشتت شملهم[3]. ومع ذلك لم يتم الاستيلاء على المدينة إلّا بعد موت يشوع، حيث حاصرها الموسويون وأخذوها وأشعلوا فيها النار ودمروها ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على القسم المحصن المسمى «حصن صهيون»، فعاد اليبوسيون إلى أرضهم وبقي الحصن بيد اليبوسيين مدّة عهد القضاة وعهد الملك شاؤول حتى تبوأ داود العرش فاحتلّ الحصن يوآب قائد جيشه وسكن داود المدينة واتخذها عاصمة له وسمّاها «مدينة داود» كما تقدّم[4] ولما كان مجيء جماعة موسى إلى فلسطين يقع في حوالي سنة 1290 قبل الميلاد وأن عصر داود يبدأ في حوالي سنة 1010 ق.م.، فتكون المدينة قد بقيت بيد اليبوسيين حوالي ثلاثمائة عام بعد ظهور موسى حتى احتلها الملك داود.

وتقول التوراة: إن بني بنيامين الذين صارت أورشليم في تخمهم لم يطردوا اليبوسيين «فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم»[5] ولعل المقصود بالقول «إلى هذا اليوم» إلى زمن كتابة التوراة قبيل السبي البابلي على الأرجح. وتعترف التوراة في الوقت نفسه بأن اليهود لم يستطيعوا طرد اليبوسيين من أراضيهم فتؤكد أن بني يهوذا لم يقدروا على

---

(1) (تك، 14: 8).
(2) (يش، 10: 1 ـ 27).
(3) (يش، 11: 1 ـ 9).
(4) (1 أخ، 11: 5، 7).
(5) (2 صم 5: 7، 9).

طردهم فسكنوا معهم في أورشليم إلى هذا اليوم[1]. ومما يؤيد ذلك أن الملك داود لما أراد أن ينشىء الهيكل في أورشليم قام بشراء الأرض التي اختارها لبناء الهيكل من أصحابها اليبوسيين[2]، وهذا يدلّ على أن اليبوسيين بقوا على أملاكهم محتفظين بحقوقهم الشرعية بها.

يتّضح مما تقدّم أن الروايات المذكورة وهي مأخوذة عن التوراة ذاتها إن هي إلّا تأكيد قاطع أن مدينة القدس كانت منذ خمسة آلاف عام مدينة عربية كنعانية، وقد بقيت بيد سكانها اليبوسيين أكثر من ألفيّ عام قبل عهد موسى، كما بقيت بيد أهلها ثلاثمائة عام بوجود الموسويين في فلسطين[3]، ثم بعد دخول اليهود إليها في عهد داود بقي سكانها على أراضيهم وفي بيوتهم وعاش اليهود في فترة وجودهم أقلية بينهم حتى تمّ سبيهم إلى بابل في عهد الكلدانيين، فعاد سكان أورشليم واستقلوا بمدينتهم استقلالاً تاماً، كما أن اليهود الذين رجعوا إلى أورشليم في عهد الأخمينيين الفرس كانوا أقلّية ضئيلة وقد منعهم سكان أورشليم العرب من إعادة بناء هيكلهم، وقد استمرّ وجودهم كأقلية ضئيلة في المدينة كما تقدّم حتى أزيلوا نهائياً منها في عهد الرومان فرجعت المدينة إلى أهلها كالسابق.

وأوضح دليل على أن سكان أورشليم كانوا في جميع الأدوار التاريخية أكثرية في المدينة هو أن اليهود في عهد الانقسام انحرفوا عن ديانة موسى ومارسوا هم وملوكهم الوثنية وبنوا المرتفعات لعبادة الأصنام في أورشليم نفسها، وظلّوا على هذا المنوال يمارسون الوثنية ثلاثمائة عام، مما يثبت أن الوثنيين أهل المدينة كانوا الأغلبية في أورشليم ففرضوا ديانتهم على الأقلية اليهودية خلال فترة وجودهم فيها[4].

---

(1) (قض 1: 21).

(2) (يش 15: 62).

(3) (2 صم، 24: 24 ـ 25).

(4) انظر ما تقدّم عن «اليهود بين الوثنية والتوحيد» في الفصل السادس.

جغرافية المدينة وطوبوغرافيتها:

تقع أورشليم عند الدرجة 31ْ 46َ 35ً من خطوط العرض شمالاً، والدرجة 35ْ 18َ 35ً من خطوط الطول شرقي غرينتش، وهي تبعد 32 ميلاً عن البحر المتوسط غرباً وحوالي 18 ميلاً عن البحر الميت شرقاً و19 ميلاً عن الخليل (حبرون) جنوباً و30 ميلاً عن السامرة (سبسطية) شمالاً. ويبلغ معدل ارتفاع المدينة 2500 قدم فوق سطح البحر المتوسط و3800 قدم فوق سطح البحر الميت.

وتتميز أورشليم بموقعها الجغرافي الاستراتيجي، فالطبيعة منحتها أقوى التحصينات لحماية نفسها من الغزو، فهي تقع على أرض مرتفعة محاطة من جميع أطرافها بأودية عميقة، يحدّها من الشرق «وادي قدرون» ومن الغرب «وادي هنوم». ويبدأ الواديان في الطرف الشمالي الغربي من المدينة ويلتقيان في جنوب المدينة وبذلك يحوطان المدينة من أطرافها الثلاثة، الشرق والغرب والجنوب.

يبتدىء «وادي قدرون» (الوادي الشرقي) على بُعد ميل ونصف الميل إلى الشمال الغربي من المدينة فيسير أولاً إلى الشرق إلى أن يصل إلى زاوية السور الشمالية الشرقية[1]، ثم ينحرف بميل حاد نحو الجنوب فينحدر بين سور المدينة من الجانب الغربي وبين جبل الزيتون وتل الزيتون وتل المعصية من الجانب الشرقي[2] حتى يلتقي بوادي هنوم المنحدر من جهة الغرب، ثم ينحدر المجرى الموحّد بعد ذلك إلى «مارسابا» حيث يُسمّى «وادي الراهب»، ومن ثم يمتد إلى البحر الميت ويُسمَّى هناك «وادي النار». ويُسمَّى الوادي حالياً باسم «وادي ستي مريم» وكان يُعرف في القديم باسم وادي قدرون ومعناه الوادي الأسود، وكان يُسمّى أيضاً وادي «يهو شافاط»، وقد ورد ذكره في

(1) انظر ما يلي عن أسوار المدينة.

(2) يبلغ ارتفاع جبل الزيتون 2682 قدماً فوق سطح البحر، أما تل المعصية فيقع على الطرف الجنوبي من جبل الزيتون، وقد سُمِّي كذلك لأنه كان موضع عبادة الأوثان في زمن سليمان.

أخبار الملك داود حيث عبره عندما فرّ من وجه ابنه أبشالوم وكذلك مرّ المسيح ﷺ به[1]، وفي هذا الوادي أحرقت تماثيل معكة[2] وطرحت جميع أدوات العبادة الباطلة التي تنجس بها هيكل الرب[3]. ويبلغ ارتفاع وادي قدرون 2179 قدماً فوق سطح البحر.

أما الوادي الغربي أي وادي هنوم، فينحدر رأساً إلى الجنوب من شمال غربي المدينة ثم ينعطف شرقاً بعد وصوله حدّ المدينة الجنوبي حتى يتصل بالوادي الشرقي (وادي قدرون) عند الموضع المسمى «بئر أيوب». ويُسمَّى هذا الوادي حالياً باسم «وادي ربابة»، أما اسمه القديم كما ورد في التوراة فهو «وادي هنوم»[4]، ووادي بني هنوم[5]، ووادي ابن هنوم[6]. وكان الجزء الجنوبي الشرقي من الوادي يُسمّى «توفة»[7]، أو وادي القتل[8]. وأجاز آحاز ومنسى أولادهما بالنار في هذا الوادي على عادة أهل كنعان[9]. ويبلغ ارتفاع هذا الوادي 2029 قدماً.

وكان هناك واد ثالث يخترق أرض المدينة يبدأ شمالاً من قرب باب دمشق الحالي وينحدر جنوباً إلى وادي قدرون عند البركة الحمراء، فيقسم أرض المدينة قسمين مؤلفين من هضبتين مستطيلتين، الهضبة الغربية ويحدّها وادي هنوم من الغرب والهضبة الشرقية يحدّها وادي قدرون من الشرق. وكان هذا الوادي يُعرف باسم «وادي الجبانين» (صانعي الجبن) وهو مطموم الآن ولم يبق له أي أثر في الوقت الحاضر، كما كان هناك واد رابع يبتدىء من

---

(1) (2 صم، 15: 23، 30)؛ (يو، 18: 1).
(2) (1 مل، 15: 13)؛ (2 أخ، 15: 16).
(3) (2 أخ، 29: 16، 30: 14)؛ (2 مل، 23: 4، 6، 12).
(4) (يش، 15: 8)؛ (نح، 11: 30).
(5) (2 مل، 23: 10).
(6) (يش، 15: 8، 18: 16)؛ (2 أخ، 28: 2)؛ (أر، 7: 32).
(7) (أر، 7: 31)؛ (2 مل، 23: 10)
(8) (أر، 7: 32، 19: 6).
(9) (2 مل، 16: 3)؛ (2 أخ، 28: 3، 33: 6).

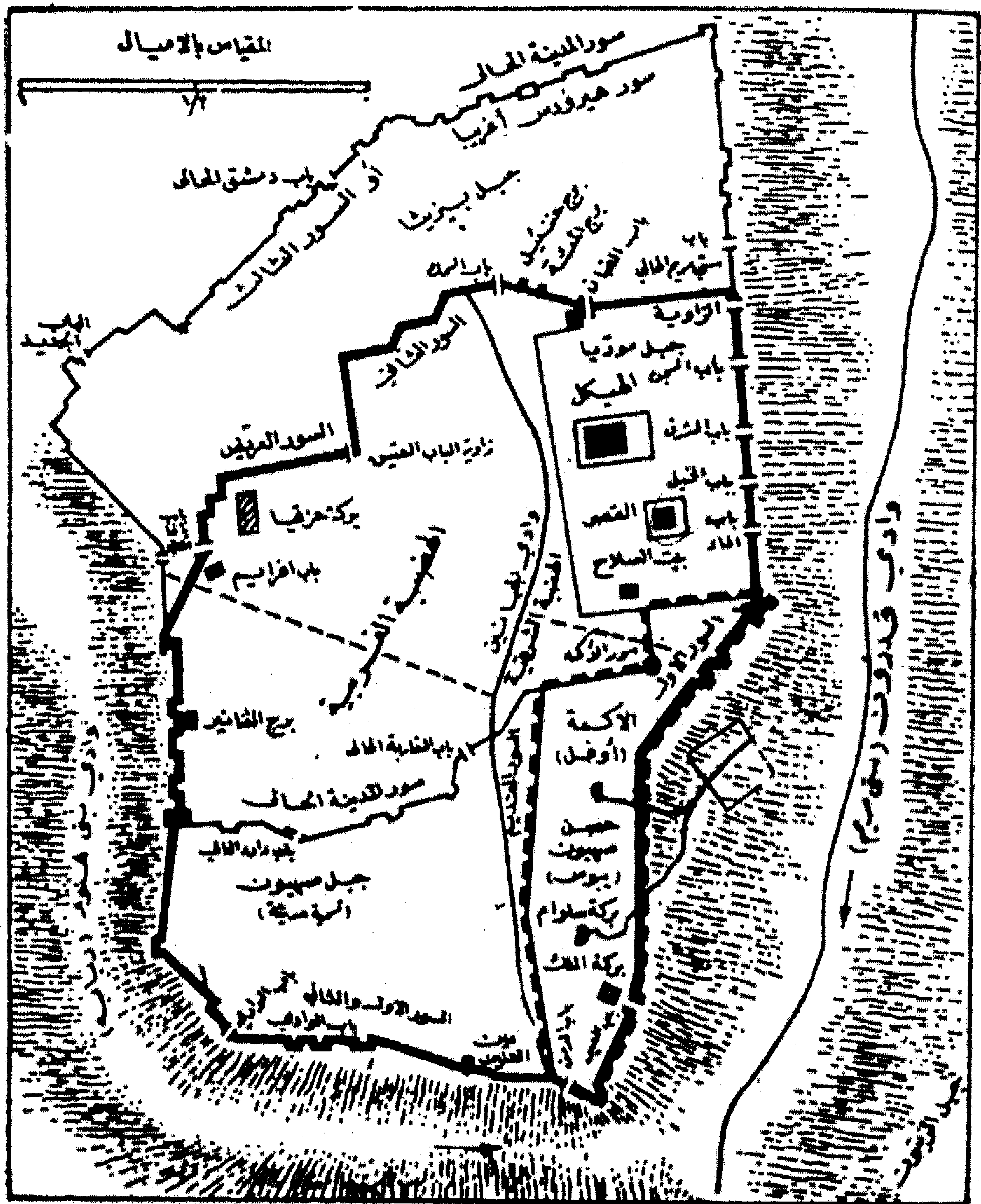
جهة الغرب من قرب باب يافا الحالي فيسير شرقاً في اتجاه شارع داود الحالي حتى ينتهي إلى «وادي الجبانين» فيقسم الهضبة الغربية إلى قسمين. وإلى الشرق من وادي الجبانين كان هناك خندق يقطع الهضبة الشرقية عرضاً فيقسمها قسمين شمالي وجنوبي أيضاً. وهكذا أصبحت المدينة تنحصر بين أربعة أقسام مرتفعة هي القسم الشمالي والجنوبي من الهضبة الغربية ثم القسم الشمالي والجنوبي من الهضبة الشرقية[1].

وأقدم بناء في المدينة هو الحصن الذي كان قد أقامه اليبوسيون سكان أورشليم الأصليون في القسم الجنوبي من الهضبة الشرقية، فأقاموا حوله سوراً وشيّدوا في طرف الحصن برجاً عالياً يسيطرون منه على المنطقة كلها. واليبوسيون فرع من القبائل الكنعانية التي كانت قد نزحت من جزيرة العرب واستقرّت في فلسطين منذ أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد، لذلك سُمِّيت المدينة باسمهم «يبوس»، فأصبحت هذه التسمية مرادفة لأورشليم، وقد ورد ذكرها في التوراة على هذا الشكل «يبوس هي أورشليم» و«أورشليم مدينة اليبوسيين»[2]، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك. وكان يُعرف حصن يبوس بحصن صهيون أيضاً، كما كان يُعرف الجبل الذي أقيم عليه الحصن بالأكمه أو «أوفل»[3] وأحياناً «جبل صهيون»[4]. ويبلغ ارتفاع جبل صهيون هذا 2550 قدماً فوق سطح البحر وينحدر باتجاه وادي قدرون نزولاً إلى ارتفاع 2029 قدماً. وفي موضع حصن صهيون أنشأ السلوقيون قلعة كانت تُعرف باسم «قلعة عكرا» أو «أكرا» وقد سقطت بيد سمعان المكابي سنة 141 ق.م.[5].

وقد كان طبيعياً أن يقع اختيار اليبوسيين على موقع أورشليم بالذات

---

(1) انظر الرسم رقم 18 «مخطط أورشليم في أقدم عصورها».
(2) (قض، 19: 10، 12).
(3) (2 مل، 5: 24)؛ (2 أخ، 27: 3)؛ (33: 14)؛ (أش 32: 14)؛ (مي، 4: 8).
(4) (عب، 12: 22)، (انظر ما تقدّم عن تسمية المدينة).
(5) صهيون كلمة كنعانية الأصل يرجع استعمالها إلى عصور ما قبل بني إسرائيل ولا يُعرف معناها. ورد ذكر صهيون 152 مرة في العهد القديم وسبع مرات في العهد الجديد (راجع المادة في **دائرة المعارف البريطانية**، 1965، 23: 955).



الرسم رقم (18)

مخطط أورشليم في أقدم عصورها

(مقتبس من كتاب «قصة الثورة»)، ج1، ص2 ـ 5 مع بعض التحوير

وذلك لما يتّصف به هذا الموقع من مميزات استراتيجية طبيعية تجعله على جانب كبير من المناعة. وقد حبت الطبيعة هذا الموقع بأهم ما يحتاجه السكان وهو الماء، ففي جوار حصن يبوس شرقاً يوجد نبع غزير في وادي قدرون كان يُعرف باسم «جيحون»، وهو غير نهر جيحون المعروف في تركستان، وكان اليبوسيون قد حفروا نفقاً تحت الجبل لنقل مياه النبع إلى داخل الحصن، ويرجع هذا المشروع إلى عهد الكنعانيين[1]، وفي وقت لاحق قام الملك حزقيا ملك يهوذا (715 ـ 686 ق.م.) بمدّ هذا النفق، بعد إغلاقه في اتجاهه الشمالي، إلى جهة الغرب وأنشأ في نهايته جنوباً بركة صارت تُعرف باسم «بركة سلوام» وأقام أبنية عند فم البركة: «وحزقيا سدّ مخرج مياه جيحون الأعلى وأجراها تحت الأرض إلى الجهة الغربية[2]. وقد ورد ذكر هذا النفق في التوراة في أخبار الملك داود فسمي بالقناة. ويرى البعض أن الملك داود اكتشف مدخله السري من خارج السور فأدخل رجاله فيه حتى وصلوا إلى منتهاه في داخل السور وباغتوا اليبوسيين داخل الحصن واحتلوه دون قتال[3]. وقد اكتشف هذا النفق البالغ طوله 1757 قدماً سنة 1880م وعثر على مسافة 19 قدماً من بركة سلوام داخل النفق على كتابة قديمة ترجع إلى عهد اليبوسيين منقوشة على الحجر وصفت فيها عملية النحت في الجبل لسحب مياه النبع. وكانت هناك بركة أخرى أسفل بركة سلوام كانت تعرف ببركة الملك[4] أو البركة السفلى[5]. ووردت أسماء برك أخرى في التوراة منها بركة شيلوة[6] وعين روجل[7] يعتقد أنها أسماء للمشروع نفسه. والحصن والبركة يقعان اليوم خارج سور المدينة الحالي في الطرف الجنوبي الشرقي منها. هذا وفي الجانب الغربي من المدينة

---

(1) انظر ما تقدّم عن مشاريع الكنعانيين المائية في الفصل الأول.
(2) (2 أخ، 32: 30)؛ (2 مل، 20: 20)؛ (تح، 3: 51).
(3) (2 صم، 5: 8). Lods, «Israël» p. 61; «The storyy of the Bible» p. 377
(4) (نح، 2: 14).
(5) (أ ش، 8: 9).
(6) (أش، 9: 6).
(7) (1 مل، 1: 9)؛ (2 صم، 17: 17).

أقام حزقيا نفقاً يبدأ من وادي هنوم ويمرّ تحت سور المدينة بالقرب من باب حيفا الحالي وينتهي عند البركة المعروفة ببركة حزقيا حتى هذا اليوم.

وقد بقي حصن يبوس (حصن صهيون) بيد اليبوسيين بعد مجيء الموسويين حوالي ثلاثة قرون كما سبقت الإشارة إلى ذلك لعدم استطاعتهم اقتحامه، وذلك حتى تولّى الملك داود الحكم في إسرائيل فجمع كل إسرائيل وذهب معهم إلى أورشليم أي يبوس، وقال داود إن الذي يضرب اليبوسيين أولاً يكون رأساً وقائداً، فتقدّم يوآب واقتحم الحصن فصار رأساً. وأقام داود في الحصن لذلك دعي «مدينة داود». وبنى داود مستديراً من القلعة مداخلَ وجدد يوآب سائر المدينة[1].

وقد اختار داود القسم الشمالي من الهضبة الشرقية، أي القسم الذي يقع شمال «حصن صهيون»، ليبني الهيكل فيه، ويعرف هذا القسم بجبل المرّيا وارتفاعه 2440 قدماً أي أوطأ من قمة جبل صهيون بمائة وعشر أقدام. وكان موضع المرّيا هذا بيدراً للحبوب وكان ملكاً لأرنان أو أرونة اليبوسي فاشتراه داود من صاحبه بخمسين شاقلاً من الفضة وبنى فيه مذبحاً للرب وأصعد محرقات وذبائح سلامة[2]. وفي الموضع نفسه بنى سليمان الهيكل بعد ذلك[3]. ويُسمّى الآن موضع الهيكل القديم الحرم الشريف وفي وسطه مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى إلى الجنوب منه. ويعتقد أن موقع الصخرة هو الموقع الذي عيّن لتقديم إبراهيم ابنه إسماعيل[4] قرباناً عندما أراد الله امتحانه حيث ورد في

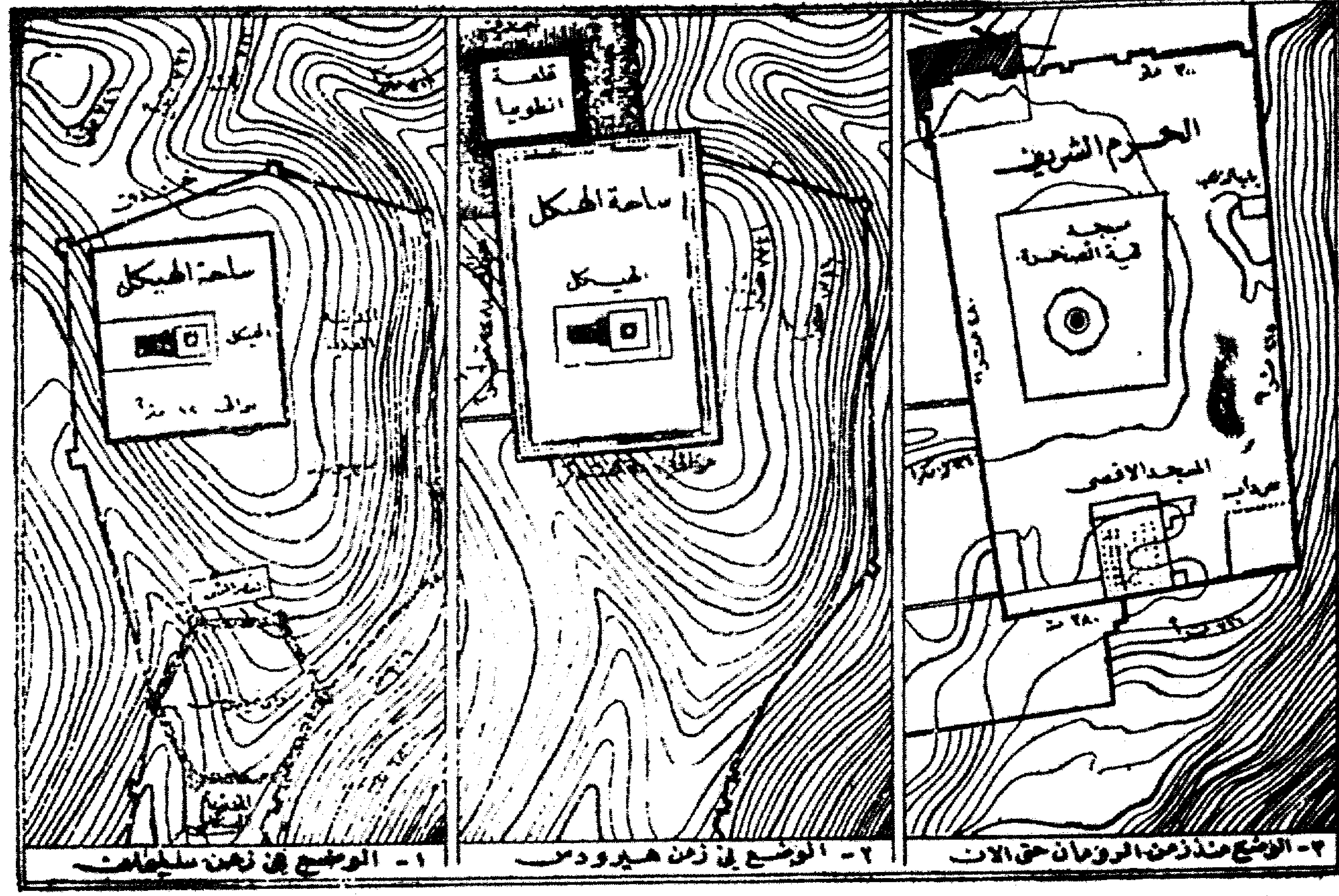
---

(1) (1 أخ، 11: 4 ـ 9)؛ (2 أخ، 5: 2)؛ (2 صم، 5: 7 ـ 9).

(2) (2 صم، 24: 24 ـ 25)؛ (1 أخ، 21: 22 ـ 28).

(3) (2 أخ، 3: 1).

(4) لقد اختلف المفسّرون في الذي أمر إبراهيمﷺ بذبحه من ولديه، أهو إسماعيل أم إسحاق؟، فقال بعضهم هو إسماعيل وقال آخرون بل هو إسحاق. وقد ناقش الطبري في تفسيره (الطبعة المصرية، 1: 184) أقوال الطرفين وخرج من مناقشته بتبنّي رأي القائلين بأنه إسحاق. غير أن المفسّرين المحدثين قد توصلوا من تفسير سور القرآن الكريم أن الذبيح منهما هو إسماعيل وليس إسحاق كما تذكر التوراة «خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق الخ. . . (تك، ص: 22)» لأن القرآن الكريم يشير بوضوح إلى أن البشرى كانت بإسحاق ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ =



الرسم رقم (19)
منطقة الهيكل في أدوارها الثلاثة من عهد سليمان حتى العهد الإسلامي
(مقتبس من كتاب دليل فلسطين التاريخي)

التوراة ما يشير إلى أن الموضع هو أرض المرّيا[1]. وقد سمى يوسيفوس القسم الجنوبي من الهضبة الشرقية، أي موضع حصن يبوس (حصن صهيون)، المدينة السفلى وموضع جبل المرّيا شمالاً المدينة العليا. ويقع إلى الشمال من جبل المرّيا «جبل بيزيثا» وارتفاعه 2529 قدماً، وكان هذا الجبل خارج حدود السور القديم ثم أصبح داخل السور الجديد وهو السور الحالي[2].

وفي القسم الجنوبي من الهضبة الغربية إلى الغرب من جبل صهيون جبل يُسمّى اليوم خطأً جبل صهيون وهو غير جبل صهيون الأصلي الذي يقع إلى الشرق منه في القسم الجنوبي من الهضبة الشرقية، ولعل تسميته الحديثة هذه مشتقة من تسمية الجبل الشرقي الأصلي. ويبلغ ارتفاع هذا الجبل 2816 قدماً وينحدر جنوباً إلى وادي هنوم إلى 2505 أقدام ويقع اليوم خارج سور المدينة الحالي في الطرف الجنوبي الغربي منها.

أسوار المدينة ـ قديماً وحديثاً

أ ـ السور القديم (السور الأول)

ولما كانت الأسوار جزءاً من حياة المدن في تلك العصور القديمة فلا

= ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: 112]، وقد جاءت هذه البشرى بعد قصة الذبح، أي قبل أن يولد إسحاق، وهذا يؤكد أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق (انظر تفسير الأستاذ النجار، **«قصة الأنبياء»** الطبعة الثالثة، ص103). وقد أيّد الدكتور أحمد الشلبي هذا الرأي (انظر: أحمد الشلبي، **«اليهودية»** ص123). كما أيّده كثير من المفسرين المحدثين (راجع الأستاذ عفيف عبد الفتاح طبارة، **«مع الأنبياء في القرآن الكريم»**. والمدقق في أقوال التوراة يجد أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق بوصفها إياه بالوحيد وإسحاق ليس وحيد إبراهيم إذ إن التوراة تنبئ بولادة إسماعيل عندما قطعت ساراي امرأة إبراهيم الرجاء في إنجاب الأولاد. وبذلك لا يمكن أن يكون الوحيد غير «إسماعيل» أما إسحاق فهو ابنه الثاني وقد ولد له بعد قصة الذبح كما يُستبان ذلك من أقوال التوراة ذاتها. وعليه يكون الذبيح إسماعيل لا إسحاق بحسب التوراة ذاتها بوصفه «الابن الوحيد» لإبراهيم ﷺ.

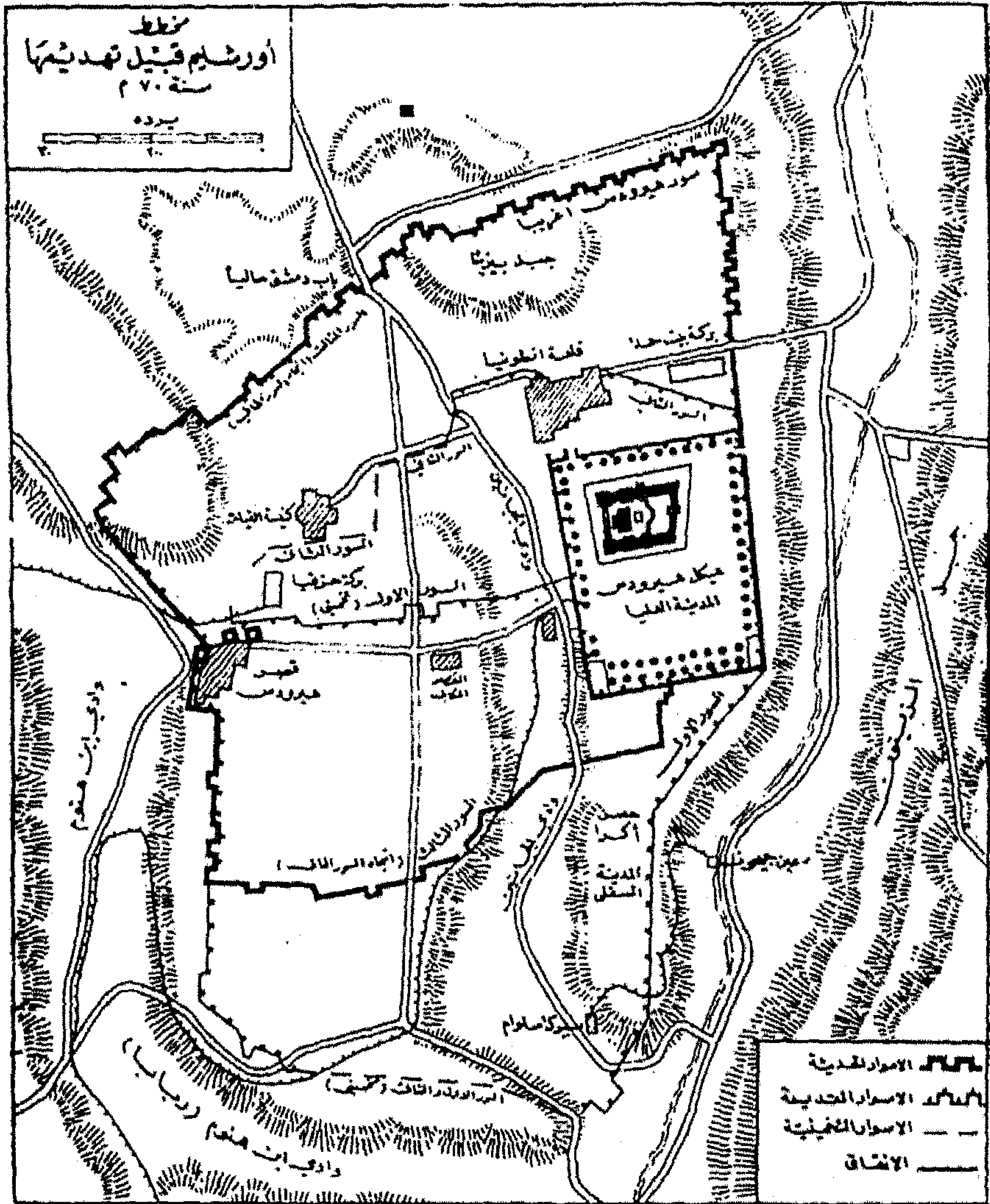
(1) (تك، 22: 2).

(2) انظر ما يلي عن أسوار المدينة.

بدَّ من نبذة عن تاريخ أسوار أورشليم في مختلف أدوارها: إن أقدم أسوار المدينة هو السور الذي يرجع إلى عهد اليبوسيين سكان أورشليم الأصليين والذي كان يحيط بحصن يبوس أو «حصن صهيون»، فيشكل شبه مستطيل يتوسطه الحصن، وكان النفق الذي يسحب المياه من عين جيحون ينتهي إلى البركة داخل هذا السور. وبعد احتلال الملك داود للحصن في القرن العاشر قبل الميلاد أقام أبنية أضافها إلى الحصن وسُمِّيت المنطقة «مدينة داود» رغبة منه في تبديل اسمها الكنعاني الأصلي على الأرجح، ثم اشترى أرض المرّيا الواقعة إلى الشمال من حصن يبوس وبنى فيها مذبحاً للرب. ومن المحتمل جداً أنه وسع السور اليبوسي ليضم داخله جبل المرّيا، كما أنه من المحتمل أن يكون الملك سليمان قد قام بتقوية هذا السور وتوسيعه بعد أن أقام الهيكل في أرض المرّيا. وهذا هو السور الأول ولا يوجد الآن أي أثر ظاهر لهذه الأسوار القديمة كما أنه لا يوجد أي أثر للأسوار التي ترجع إلى الفترة التي تلي عهد سليمان والتي تبدأ بعهد الانقسام وتنتهي بتهديم الهيكل والسور في عهد نبوخذ نصّر سنة 586 ق.م.؛ وذلك لكثرة التغييرات التي وقعت خلال هذه الفترة نتيجة التهديم وإعادة البناء مرات عديدة. وقد دلّت التنقيبات الآثارية على أن أساسات سور الهيكل القديم تقع على نحو من 80 قدماً تحت سطح الحرم الشريف حالياً وذلك نتيجة توالي التخريب والهدم. يتّضح مما تقدّم أن التحصينات اليبوسية التي يرجع تاريخها إلى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد كانت قائمة في أورشليم لفترة حوالي ألفيّ سنة قبل أن يحتلها الملك داود.

ب ـ السور الثاني:

وأقدم وأوضح وصف لدينا لسور أورشليم هو الوصف الكامل الذي ورد في التوراة للسور الذي أُعيد إنشاؤه بعد السبي البابلي في عهد نحميا (سنة 444 ق.م.) والذي يعتبر ثاني سور للمدينة، وقد اتّبع في إعادة الإنشاء الخط نفسه الذي كان يسير عليه السور القديم الذي كان قد أقامه منسى ملك يهوذا سنة 644 ق.م. في أثناء الحملة الآشورية في عهد آشور بانيبال ثم هدم في



الرسم رقم (20)

عهد نبوخذ نصّر سنة 586 ق.م.، وقد استعملت الأسماء القديمة نفسها لأبواب السور وأبراجه. ويعطينا هذا الوصف فكرة واضحة عن آتّساع المدينة في ذلك العصر[1]، حيث كان السور يبدأ من باب الضأن شمال الهيكل ويمتد

---

(1) (نح، 3: 1 ـ 32).

غرباً ثم جنوباً ثم شرقاً وشمالاً حتى يعود فيتصّل بنقطة البداية[1] والأبواب حسب تسلسلها ثلاثة في السور الشمالي وهي باب الضأن وباب السمك والباب العتيق. وباب السمك سُمّي كذلك لأنه كان الموضع الذي تدخل منه الأسماك المستوردة من صور[2]. ويلاحظ أن السور عند الزاوية الشمالية الغربية أضخم من سائر أقسامه، وتعليل ذلك هو أن هذا القسم كان مجرداً من وسائل الدفاع الطبيعية بخلاف ما كانت عليه بقية الأقسام التي تحيط بها الأودية من كل أطرافها[3]. أما الأبواب الأخرى فهي: باب إفرايم غرباً وبابا الواد والدمن جنوباً وأبواب العين والماء والخيل والشرق والسجن والزاوية شرقاً. وأهم أبراج السور كانت تقع في الطرف الشمالي وفي الزاوية الشمالية الغربية المكشوفة وهي حسب تسلسلها: برج المئة وبرج حنئيل وبرج التنانير. وتبلغ المساحة داخل هذا السور حوالي 200 أيكر (336 دونماً عراقياً) وهذه كانت تضمّ السكان الأصليين (اليبوسيين وغيرهم) الذين بقوا مع التوراة ثم استأثر السكان الأصليون بجميع المنطقة واستقلوا بها بعد سبي اليهود من أورشليم سنة 586 ق.م. حتى عاد بعض اليهود في العهد الفارسي فأعادوا بناء الهيكل والسكان الأصليون باقون في أرضهم.

ج ـ السور الثالث والأخير:

والأرجح أن معظم السور الذي بناه نحميا بقي في عهد المكابيين (167 ـ 37 ق.م.) على رغم دكّ بطليموس الأول جانباً منه سنة 300 ق.م. وأنطيوخس الرابع جانباً آخر سنة 168 ق.م. وفي عهد هيرودس الكبير (37 ـ 4 ق.م.) تمّت تقويته دون أي تغيير في تخطيطه على الأرجح. وفي عهد هيرودس أغريبا (41 ـ 44 م) شرع اليهود في بناء سور جديد في الجهة الشمالية غير أن الإمبراطور الروماني كلوديوس منعهم من متابعة العمل لكنهم

---

(1) انظر «مخطط أورشليم في أقدم عصورها».

(2) (نح، 13: 16).

(3) (نح، 3: 8، 12: 38).

أتموا بناءه قبل حصار تيطس سنة 70م، وهذا هو السور الثالث وسمي أيضاً سور هيرودس أغريبا وقد ضمّ هذا السور منطقة بيزيثا الشمالية وما زال السور الشمالي الحالي للمدينة يسير بهذا الاتجاه نفسه. هذا في حين أن حدود المدينة من الجنوب تقلّصت بتراجع السور إلى الداخل إلى الاتجاه نفسه الذي يسير فيه السور الجنوبي للمدينة حالياً. وقد ظلّ هذا السور يتأرجح بين الهدم وإعادة البناء كلّما تحوّلت المدينة من يد إلى أخرى في العصور التالية، ولكن على رغم هذه التقلّبات حافظ على اتجاهه الأخير، والسور الذي نشاهده اليوم حول المدينة الحالية هو الذي جدّده سليمان باشا القانوني، دامت عمارته خمسة أعوام (1536 ـ 1540م)، وأضاف إليه عدداً من الأبراج، وفوق الأبواب كتابات على الجدران تشير إلى ذلك[1][2].

تاريخ المدينة القديم:

إن تسلسل الأحداث التاريخية التي مرّت على أورشليم منذ تأسيسها في عهد اليبوسيين في أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد حتى تخريبها سنة 135 في عهد الرومان (فترة حوالي ثلاثة آلاف عام) تحدّد أدوار المدينة التاريخية بخمسة أدوار منفصلة تقريباً وهي: أولاً، دور ما قبل ظهور النبي موسىعليه السلام، ثم دور النبي موسىعليه السلام وأتباعه، ويليه دور الفرس فاليونان وأخيراً عهد الرومان. وقد شرحنا فيما تقدّم طرفاً من تاريخ مدينة القدس القديمة وجغرافيتها في أقدم عصورها، ويجد القارىء في الفصل الأول بحثاً مفصّلاً عن تاريخ اليبوسيين (الكنعانيين): سكان أورشليم الأصليين، وهم الذين لعبوا دوراً مهماً في فترة ما قبل ظهور النبي موسىعليه السلام على مسرح الأحداث، كما يجد في الفصل السادس عرضاً لحوادث الأدوار التي مرّت على فلسطين، وهي تشمل عهد الموسويين وعهود الفرس واليونان والرومان. ولما كان تاريخ

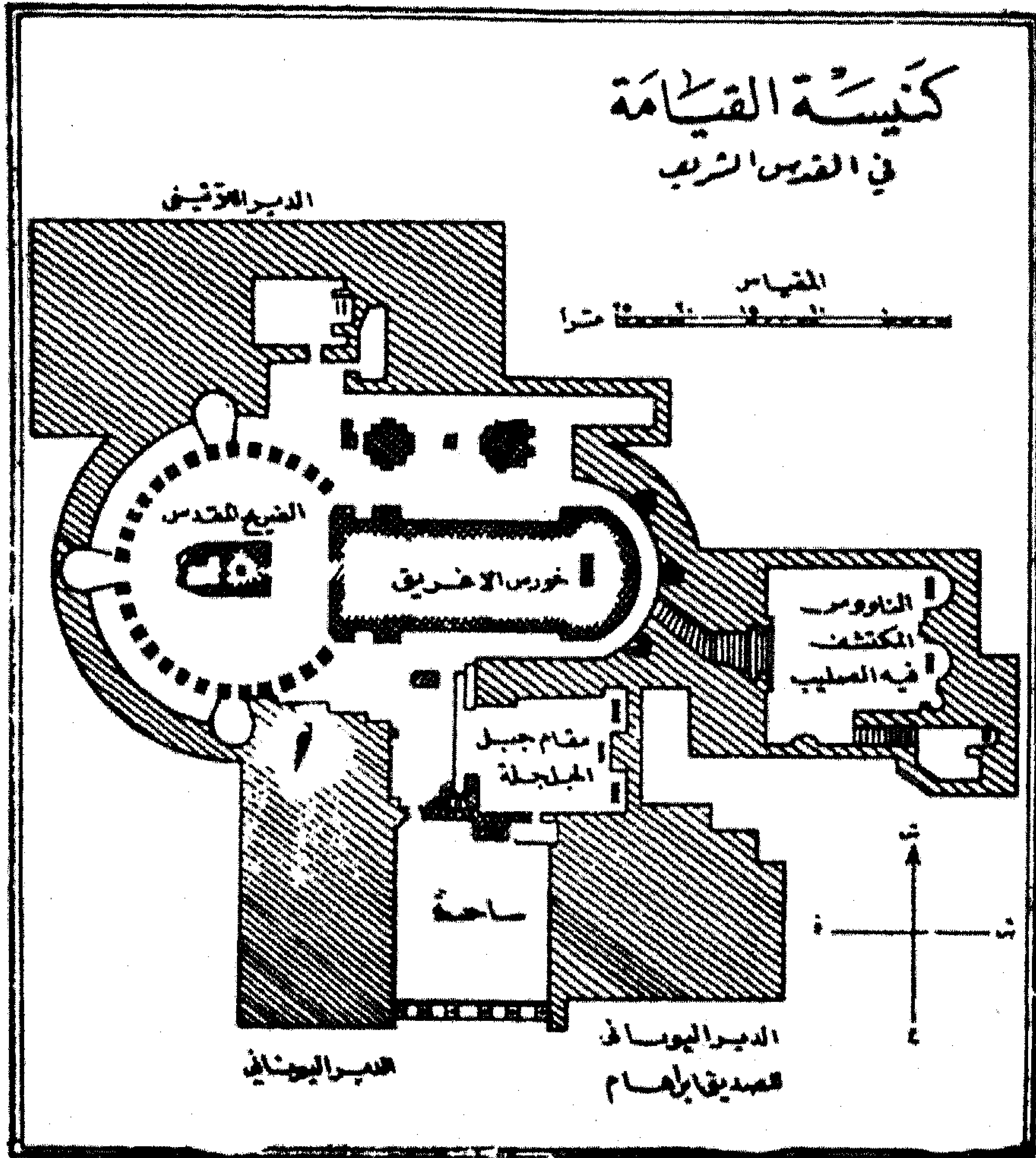
(1) عارف العارف، **«تاريخ القدس»**، ص 173.

(2) انظر الرسمين 20 و22.

منطقة الحرم الشريف الحالية
المقياس
ركة بيت حسدا
قلعة الأتراك
قلعة أنطونيا
باب الغوانمة
باب الأسباط
الحرم الشريف
(الحرم القدسي)
باب الناظر
١٥٠ متراً
باب الجنة
الباب الذهبي (مغلق)
باب الحديد
مسجد قبة الصخرة
محكمة داود
باب القطانين
الباب الغربي
باب داود
باب المتوضأ
الباب القبلي
باب السلسلة
ملحوظة،
تشير الخطوط المتقطعة الى حدود منطقة الهيكل القديم
باب المغاربة
المسجد الأقصى
مرابط اسطبل سليمان
٢٨٠ متراً

الرسم رقم (21)

أورشليم في هذه الأدوار هو تاريخ فلسطين نفسه لما كان لأورشليم من مكانة بارزة في حياة فلسطين ككل، فلم نر ما يدعو إلى تكرار هذه الأحداث التي وردت في مطاوي الكتاب، لذلك نكتفي بما أشرنا إليه. ويجد القارىء في الرسوم المرقمة 18 ـ 23 إيضاحاً لتسلسل التطورات في مجرى تاريخ المدينة عمرانياً.



الرسم رقم (22)

١ ـ المراجع الأجنبية

Baedekers (Karl): «Palestine and Syria», Jerusalem 5th. ed., 1912, pp. 19-107 (with maps).

Besant (W.) and Palmer (H.): «The History of Jerusalem», London, 1888; **«Jerusalem the City of Herod and Saladin»**.

Bevan (E.): «Jerusalem under the High Priests», London. 1904.

Caldecott (W.S.): «The second Temple in Jerusalem», London, 1909.

Chipiez et Perrot: «Le Temple de Jerusalem», Paris, 1889.

Creswell (K. A. C.): «Early Muslim Architecture», Oxford, 1931, Al-Sakhra, pp. 42-94 and 147-228; **«The origin of Plan of the Dome of the Rock»**. Britishc School of Archaelogy in Jerusalem, Suppl. Papres No, 2. London, 1924.

Davis (J.D.): «Jerusalem», Dictionary of the Bible, London, 1958 (4th. revised ed.), pp. 368-378.

Ferguson (James):
«An Essay on the Ancient Topography of Jerusalem».

Hartmann (H.): «Der Felsendom in Jerusalem», Strassburgh, 1909.

Hastings (James-editor): «Jerusalem, A dictionary of the Bible», 1958, Vol. II, pp. 584-601 (with map).

Holford (G. P.): «Destruction of Jerusalem», 1813.

Join-Lambert (M.): «Jerusalem», 1958 (with bibliography).

Kellek (T.) and Pearlman (M.): «Jerusalem Sacred City of Mankind: A History of Forty Centuries».

Lewis (H.): «The Holy Places of Ureusalem».

Maraini (F.): «Jerusalem, Rock of Ages», translated by Judith Landry London. 1969, Reviewed by G. Furlonge, Asian Apairs, Vol. 57, Part 1, Feb., 1970, pp. 75-76.

Mariti: «Histoire de l'état présent de Jerusalem», Paris. 1853.

Merill (S.): «Ancient Jerusalem», 1908.

Parrot (A.): «The Temple of Jerusalem», Studies in Biblical Archaeology, No.5.

Peake (A.S.): «Commentary on the Bible», London, 1923.

Perowne (S. H.): «Jerusalem», Enc. Brit., Vol. 12, 1965, pp. 1007-1009.

Richomond (E. T.): «The Dome of the Rock», Oxford, 1924.

Rogers (R. W.):

«Cuneiform Parallels to the Old Testament», N. Y., 1912; **«Letters from Abid- Khiba of Jerusalem»**, pp. 268-278; **«Campaign against Jehu by Sennacherib»**, pp. 340-246; **«Siege of Jerusalem by Nebuchadnessar»**, p. 363;)Texts translated into English from the Originals).

Sauvaire (H.): «Histoire de Jérusalem et d'Hebron», (Fragments de la Chronique de Mughir ad-Din). Paris, 1876.

Schick (C.): «Beit el Makdes», Jerusalem, 1887.

Simons (J.): «Jerusalem in the Old Testament, Researches and Theories», 1953.

Smith (G. A.): «Jerusalem: The Topography, Economics and History from the earliest Times to A. D. 70», 2 vols, 1908.

Strange (Guy Le): «Palestine under the Moslems: A description of Syria and the Holy Land (A.D. 650 to 1500)», N. Y., 1890. (vide: Chaps, III-V, **«Jerusalem»**, pp. 83-223). **«Description of the Noble Santuary at Jerusalem in 1740 A. D. by Kamal (or Shams) ad-Din Suyti»**, Extracts Re-Trnnslated by Guy Le Strange. **Journal of royal Asiatic Society**. XIX, 1887, pp. 247-305.

السور الحالي لمدينة القدس

المقياس ١ : ١٠٠٠٠

المرتسم رقم ٢١

سور المدينة
سور المدينة
سور المدينة
الحرم الشريف
مسجد قبة الصخرة
المسجد الأقصى
كنيسة القيامة
القلعة
قصر هيرودس
وادي هنوم
جبل صهيون
وادي قدرون

Thubron (C.): «Jerusalem», London, 1969, (256 p. with 84 plates, Reviewed by G. Furlonge, Asian Affairs, Vol. 57, Part 1. Feb., 1970, pp. 75-76.

Vester (Bertha S): «Our Jerusalem».

Vincent (L. H.): «Jerusalem Antique», 1912.

Vincent (L. H.) with Steve (A. M.): «Jerusalem de l'Ancien Testamet», 2 vols. 1954-56.

Vincent (L. H.) with Abel (F. M.): «Jerusalem: Recherches de Topographie, d'Archéologie et d'Histoire», Paris; Jérusalem sous terre. les récentes fouilles d'Ophel», London, 1911.

Vitry (Jacque de): «The History of Jerusalem», tr. Aubrey Stewart. London, 1896.

Vogüé (M. de): «Le Temple de Jerusalem», Paris, 1864.

Weil (R.): «Le Cité de David», Paris, 1920.

The Story of the Bible: Told by Living Writers of Authority. London, 2 Vols.

Shorter Encyclopedia of Islam: «Al-Kuds», E. J. Brill, 1953, pp. 269 ff.

Jewish Encyclopeida: «Jerusalem», 1914, Vol. VII, pp. 118-157 (With maps).

The Standard Jewish Encyclopedia: «yJerusalem», pp. 1026-1032.

Encyclopedia Biblica: «yJerusalem», 1910, Vol. II, pp. 2407-2432 (With maps).

yJerusalem Through The Ages: «The Twenty-fifth Archaeological Convention».

Map fo the City of yJerusalem: Scale 1: 10.000 Compiled by the National Geographic Society ofr the National Geographie Magazine., Dec., 1963.

«**La Palestine**»: Guide Historique et Pratique avec cartes et Plans, 3ème édition revue et augmentée, Paris, 1922.

المراجع العربية

جبرا (إبراهيم جبرا): «**الرحلة الثامنة، القدس: الزمن المجدّ**»، صيدا، 1967، ص155، 176. (قطعة أدبية رائعة عن القدس).

الحسيني (الدكتور إسحاق موسى): «**عروبة بيت المقدس**»، منظمة التحرير الفلسطينية (دراسات فلسطينية العدد 61، 1969).

الطنطاوي (محمد): «**المسجد الأقصى عبر القرون**»، **مجلة العربي**، العدد 133 (كانون أول 1969) ص130، 137.

العارف (عارف باشا): «**تاريخ القدس**»، دار المعارف، القاهرة، 1951: «**تاريخ الحرم القدسي**»، القدس 1947. (انظر تقريظ «**المقتطف**»، م112 (1948) ص74، 75)؛ «**المفصل في تاريخ القدس**»، مكتبة الأندلس، القدس، 1961.

العامري (محمد أديب): «**القدس العربية**»، عمان، 1971.

العليمي (عبد الرحمن بن محمد): «**القدس 1456، 1522**»، ج 2، مصر، المطبعة الوهبية، مصر، 1283هـ؛ «**مجير الدين: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليط**»، القاهرة، 1283هـ؛ «**أبو اليمن القاضي مجير الدين الحنبلي المولود في القدس والمتوفى فيها سنة 927هـ**»، المطبعة الوهبية بمصر 1283هـ، (ج2).

العمري (ابن فضل الله): «**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**»، تحقيق الأستاذ أحمد زكي باشا، الجزء الأول، القاهرة، 1924 (انظر: «**المسجد الأقصى**»، ص133، 167).

مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر: «**بيت المقدس في الإسلام**»، تقديم الدكتور عبد الحليم محمود، الكتاب الخامس (عدد خاص)، 1969.

الملحق الثاني

مسلسل الأحداث التاريخية الهامّة

جدول مسلسل عام للحوادث التاريخية

نحو 3000 ق. م.	هجرة العموريين إلى فلسطين وسوريا والعراق.
3000 ـ 3500 ق. م.	هجرة الكنعانيين إلى فلسطين ومنهم اليبوسيون سكان أورشليم الأوائل.
3000 ـ 2500 ق. م.	العهد الآشوري القديم.
نحو 2600 ق. م.	هجرة جماعة مسيلم السامية إلى كيش.
2371 ـ 2230 ق. م.	فترة حكم الأكديين في العراق.
2371 ـ 2316 ق. م.	فترة حكم سرجون الأكدي.
2211 ـ 2120 ق. م.	فترة حكم الكوتيين في العراق.
2120 ـ 2006 ق. م.	فترة الانبعاث السومري في العراق
2006 ـ 1800 ق. م.	فترة حكم أيسن ولارسة في العراق.
2006 ـ 1500 ق. م.	هجرة الآراميين من جزيرة العرب إلى أعالي وادي الرافدين ثم انتشارهم في سوريا والعراق وامتداد علاقاتهم التجارية والثقافية في جميع الشرق الأوسط.
1900 ـ 1850 ق. م.	هجرة إبراهيم الخليل عليه السلام من أور إلى فلسطين عن طريق حرّان.

1894 ـ 1595 ق.م.	العهد البابلي القديم في العراق، أشهر ملوكه حمورابي (1792 ـ 1750 ق.م.).
1785 ـ 1580 ق.م.	هجرة الهكسوس إلى مصر وحكمهم فيها وقد اشتملت على خمس سلالات هي السلالات 13 ـ 17.
1750 ـ 1670 ق.م.	فترة قيام سلالة القطر البحري أو سلالة بابل الثانية في منطقة الخليج العربي.
نحو 1720 ق.م.	هجرة آل يعقوب إلى مصر في عهد الهكسوس.
نحو 1700 ق.م.	بداية هجرة الحوريين من مناطقهم الجبلية في شمال إيران إلى شمالي العراق وتأسيسهم دولة ميتاني (حوالي 1550 ـ 1400 ق.م.).
1595 ـ 910 ق.م.	العهد الآشوري الوسيط.
1595 ق.م.	احتلال الحثيين لمدينة بابل وقضاؤهم على سلالة بابل الأول ثم عودتهم إلى طوروس.
1595 ـ 1162 ق.م.	فترة حكم الكاشيين في العراق ـ عاصمتهم «كوريكالزو» (عقرقوف) الحالية.
1580 ـ 1085 ق.م.	فترة الإمبراطورية المصرية التي تكوّنت بعد طرد الهكسوس من مصر.
1580 ـ 1546 ق.م.	عهد أحموسة الأول مؤسس السلالة الثامنة عشرة المصرية محرر بلاده من الاحتلال الهكسوسي.
1580 ـ 1350 ق.م.	سيادة مصر على فلسطين وسوريا.
1504 ـ 1450 ق.م.	عهد تحوطمس الثالث، الفاتح المصري الشهير، قضى على بلاد الهكسوس في الشرق واستولى على معظم أقطار الشرق الأدنى. وقد عيَّن بعضهم تاريخ

حكمه بين سنة 1479 وسنة 1447 ق.م.

1450 ق.م. بداية هجرة الحثيين من الأناضول إلى شمال سوريا وتأسيسهم دولة كركميش (جرابلس) (1450 ـ 1200 ق.م.).

1417 ـ 1362 ق.م. عهد الرسائل الكنعانية المعروفة برسائل تل العمارنة في عهدي أمنحوتب الثالث (1417 ـ 1379 ق.م.) وأمنحوتب الرابع ـ أخناتون (1379 ـ 1362 ق.م.).

1417 ـ 1362 ق.م. عهد ملك أورشليم عبد ـ خيبا الكنعاني (ABDI-KHIBA) ورسائله إلى أخناتون وإلى سلفه أمنحوتب الثالث التي ورد فيها ذكر أورسالم (أورشليم).

1417 ـ 1379 ق.م. عهد أمنحوتب الثالث (السلالة 18) كان معاصراً لعبد خيبا ملك أورشليم. وقد عيَّن بعضهم تاريخ حكمه بين سنة 1413 وسنة 1375 ق.م. وقد سمّي باسم أمنوفيس الثالث.

1379 ـ 1362 ق.م. عهد أمنحوتب الرابع (السلالة 18) المعروف بأخناتون صاحب الدعوة إلى عقيدة التوحيد. كان معاصراً لعبد خيبا ملك أورشليم، وقد عيَّن بعضهم تاريخ حكمه بين سنة 1375 وسنة 1358 ق.م. والبعض الآخر بين سنة 1369 وسنة 1353 ق.م. وقد سُمِّي أيضاً باسم أمنوفيس الرابع.

1304 ـ 1237 ق.م. عهد رعمسيس الثاني (السلالة 19) وهو الذي تمّ في زمنه خروج النبي موسى وأتباعه من مصر. وقد عيّن بعضهم تاريخ حكمه بين سنة 1300 وسنة 1233 ق.م.

نحو 1290 ق.م. خروج جماعة موسى من مصر وهجرتهم إلى أرض فلسطين.

1233 ـ 1223 ق.م. عهد مرنفتاح ابن رعمسيس الثاني، صاحب قصيدة النصر التي ألفت بمناسبة انتصاره على بلاد لوبيا.

1200 ـ 1150 ق.م. هجرة الفلسطينيين إلى الساحل الفلسطيني الجنوبي ومنهم جاءت تسمية «فلستيا»، (فلسطين).

1198 ـ 1166 ق.م. عهد رعمسيس الثالث (السلالة 20) أكثر فراعنة مصر إيغالاً في بلاد العرب وهو الذي صدّ هجوم الفلسطينيين على مصر سنة 1191 ق.م.

1162 ـ 1046 ق.م. فترة حكم السلالة البابلية الرابعة في بابل اشتهر من ملوكها نبوخذ نصّر الأول (1124 ـ 1103 ق.م.).

نحو 1125 ـ 1025 ق.م. عهد القضاة الموسويين في فلسطين.

1077 ـ 911 ق.م. غزو الآراميين للعراق واستقرارهم على طول الجانب الأيمن من نهر الفرات.

1050 ق.م. انتصار الفلسطينيين في المعركة التي نشبت بينهم وبين الموسويين في عهد القضاة واستيلاؤهم على تابوت العهد.

نحو 1025 ـ 1010 ق.م. فترة حكم الملك شاؤول.

نحو 1010 ق.م. انتصار الفلسطينيين على الملك شاؤول ومقتله هو وأولاده الثلاثة

نحو 1010 ـ 971 ق.م. فترة حكم الملك داود.

نحو 1003 ق.م. استيلاء الملك داود على يبوس (أورشليم) واتخاذها عاصمة له.

نحو 971 ـ 931 ق.م.	فترة حكم الملك سليمان في أورشليم.
931 ـ 724 ق.م.	فترة حكم مملكة إسرائيل.
931 ـ 586 ق.م.	فترة حكم مملكة يهوذا.
926 ق.م.	زحف شيشنق الأول على أورشليم في عهد رحبعام ملك يهوذا ونهب ذخائر الهيكل وبينها 500 ترس من ذهب.
911 ـ 612 ق.م.	العهد الآشوري الحديث.
853 ق.م.	المعركة غير الحاسمة بين الآشوريين وبين الآراميين وحلفائهم في القرقار على نهر العاصي.
732 ق.م.	استيلاء تغلات فلاسر الثالث (745 ـ 727 ق.م.) على دمشق.
731 ق.م.	استيلاء تغلات فلاسر الثالث ملك آشور على كل أراضي إسرائيل وسبي أهلها إلى آشور.
722 ـ 721 ق.م.	حملة الآشوريين على مملكة إسرائيل في زمن شلمنصر الخامس وسرجون الثاني وإزالتها من الوجود هي وعاصمتها (السامرة).
721 ـ 711 ق.م.	فترة حكم الملك الكلداني، ملك القطر البحري، «مردوخ بلودان» في بابل.
701 ق.م.	حملة سنحاريب ملك آشور على مملكة يهوذا ومحاصرة أورشليم.
648 ق.م.	حملة آشور بانيبال على بابل وبلاد القطر البحري وعيلام واستيلاؤه على السوس عاصمة عيلام.

616 ق.م. احتلال الكلدانيين لمدينة بابل بزعامة ملكهم نبوخذنصّر.

614 ق.م. احتلال الماذيين لمدينة آشور عاصمة الآشوريين القديمة.

612 ق.م. سقوط نينوى عاصمة الآشوريين بيد الجيوش الماذية والبابلية المتحالفة.

612 ـ 539 ق.م. فترة حكم الدولة الكلدانية في العراق بعد سقوط نينوى.

605 ق.م. انتصار نبوخذ نصر على نخو ملك مصر في معركة كركميش وانسحاب مصر من الشرق الأدنى.

600 ق.م. هجرة الأنباط إلى شرقي الأردن.

597 ق.م. حملة نبوخذ نصر الأولى على مملكة يهوذا وأورشليم (السبي الأول لبني يهوذا).

586 ق.م. حملة نبوخذ نصر الثانية على مملكة يهوذا وأورشليم وسبي اليهود إلى بابل (السبي الثاني).

586 ـ 539 ق.م. فترة أسر اليهود في بابل.

539 ق.م. فتح قورش الأخميني لمدينة بابل وقضاؤه على الدولة الكلدانية في العراق وسماحه لمن رغب من اليهود بالعودة إلى أورشليم وإذنه لهم بإعادة بناء الهيكل.

539 ـ 331 ق.م. فترة حكم الفرس الأخمينيين.

332 ق.م. فتح الإسكندر لفلسطين وإنشاء مستعمرات إغريقية بين اليهود.

323 ق.م. (13 حزيران) وفاة الإسكندر في بابل.

323 ـ 30 ق.م. حكم البطالمة في مصر.

312 ق.م. فلسطين تصبح تحت حكم البطالمة في مصر.

312 ـ 64 ق.م. فترة حكم السلوقيين في سوريا والعراق.

300 ق.م. حملة بطليموس الأول (سويتر) (223 ـ 282 ق.م.) على أورشليم ونقل عدد غفير من اليهود إلى أفريقيا.

198 ق.م. استيلاء أنطيوخس الثالث على فلسطين.

168 ق.م. دخول أنطيوخس الرابع (أبيفان) (175 ـ 164 ق.م.) أورشليم وتدميره هيكلها ونهبه لخزائنها.

167 ق.م. اضطهاد اليهود في فلسطين وإجبارهم على نبذ اليهودية واعتناق الوثنية اليونانية.

167 ق.م. بداية ثورة العائلة الهشمونية بزعامة الكاهن متاثيوس.

167 ـ 37 ق.م. فترة عهد المكابيين في فلسطين.

164 ق.م. استيلاء المكابيين على أورشليم على أثر تقهقر عهد الفرس الفرثيين.

141 ق.م. ـ 224 ب.م. حكم الفرثيين في العراق وفي سوريا جزئياً.

141 ق.م. مناداة سيمون المكابي كاهناً أعلى في أورشليم واعتراف دمتريوس الثاني، الملك السلوقي باستقلاله وأخذ سيمون بسك النقود باسمه.

70 ق.م. ـ 476 ب.م. عهد الإمبراطورية الرومانية.

89 ق.م. احتلال دكران، ملك أرمينيا شمال سوريا ثم انسحابه منها تحت ضغط الرومان.

64 ق.م. احتلال القائد الروماني بومبي سوريا وضمّها إلى روما.

63 ق.م. دخول بومبي القائد الروماني إلى أورشليم وجعل يهوذا تابعة لحاكم سوريا الروماني. تعيين هيركانوس الثاني وهو مكابي بمنصب الكاهن الأعلى.

60 ق.م. تشكيل الحكومة الثلاثية الرومانية الأولى في روما من بومبي وقيصر وكراسيوس.

54 ق.م. نهب كراسيوس خزائن الهيكل في أورشليم.

47 ق.م. تعيين قيصر أنتيبايتر الأدومي خازناً في يهوذا.

43 ق.م. تشكيل الحكومة الرومانية الثلاثية الثانية بعد اغتيال قيصر في مجلس الشيوخ سنة 44 ق.م.

43 ق.م. موت أنتيبايتر وإحلال ابنه هيرودس محله حاكماً على يهوذا.

40 ق.م. استيلاء الفرثيين على فلسطين ثم انسحابهم منها سنة 38 ق.م.

40 ق.م. هرب هيرودس إلى روما بعد احتلال الفرثيين فلسطين.

38 ق.م. عودة الحكم الروماني إلى سوريا وفلسطين وعودة هيرودس إلى سوريا حيث عيّن ملكاً على يهوذا وعلى الجليل.

36 ق.م. احتلال هيرودس لأورشليم عنوة بعد معارك عنيفة

وبذلك كان انتهاء حكم السلالة المكابية.

30 ق.م. تشكيل الإمبراطورية الرومانية بزعامة أغسطس وضمّ مصر إليها.

6 ق.م. مولد السيد المسيح عليه السلام.

4 ق.م. وفاة هيرودس وتقسيم حكم فلسطين بين أولاده الثلاثة.

29 ب.م. صلب السيد المسيح عليه السلام.

66 ب.م. بداية ثورة اليهود في أورشليم ضد الرومان في عهد نيرون.

68 ب.م. وفاة الإمبراطور نيرون وإحلال فسباسيان محله.

70 ب.م. احتلال تيطوس لأورشليم وحرق الهيكل والفتك باليهود وإلغاء السنهدرين.

132 ب.م. ثورة اليهود من جديد في عهد الإمبراطور هادريان بقيادة «باركوخبا».

135 ب.م. قضاء هادريان على ثورة «باركوخيا» وإقامة مستعمرة رومانية في أورشليم وتحريم سكنى اليهود فيها.

138 ب.م. تسنّم الإمبراطور أنتونينس بيوس (138 ـ 161) العرش الروماني وإلغاؤه المراسيم التي استنّها سلفه هادريان القاضية بتحريم الديانة اليهودية.

224 ـ 637 ب.م. فترة حكم الساسانيين في العراق.

313 ب.م. إصدار قسطنطين مرسوماً يقضي بمنح المسيحيين حرية العبادة على المسيحية في جميع أقطار

الإمبراطورية الرومانية.

323 ب.ب. عقد اجتماع مجلس الأساقفة في نيسيا لبحث الشؤون الدينية المسيحية في الإمبراطورية.

326 ب.م. حج الإمبراطورة هيلانة أم قسطنطين إلى أورشليم.

330 ب.م. اتخاذ «بيزنطة» عاصمة رسمية للإمبراطورية الرومانية وتغيير اسمها إلى اسم مؤسسها قسطنطين.

330 ـ 337 ب.م. إقامة الإمبراطور قسطنطين «كنيسة القبر المقدس» (القيامة حالياً) في «الجلجلة».

361 ب. م. اعتلاء جوليان عرش الإمبراطورية الرومانية وانحرافه عن المسيحية وأمره بإعادة هيكل اليهود في أورشليم.

363 ب.م. وفاة جوليان والرجوع إلى المسيحية.

394 ب.م. تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية.

527 ـ 565 ب.م. إقامة الإمبراطور جستنيان عمارات كثيرة في فلسطين منها «الباب الذهبي» الذي لا يزال يُعرف بهذا الاسم ومنها الكنيسة التي أنشأها في موضع المسجد الأقصى الحالي.

608 ب.م. وصول جيوش كسرى الثاني «أبرويز» (590 ـ 628م) إلى حدود البوسفور وتهديدها القسطنطينية.

614 ب.م. احتلال كسرى أبرويز سوريا وفلسطين وتخريبه كنائس القدس من ضمنها «كنيسة القبر المقدس».

628 ب.م. انتصار الإمبراطور هرقل (610 ـ 641م) على الفرس واسترجاع سوريا منهم.

نحو 630 ب.م.	ملاحقة هرقل للفرس في بلادهم واسترجاع «الصليب الأصلي» الذي كانوا قد استولوا عليه بعد احتلالهم القدس سنة 614م.
636 ب.م.	معركة اليرموك التي انتصر فيها العرب على جيوش الإمبراطور البيزنطي هرقل.
638 ب.م.	سقوط مدينة القدس في أيدي العرب في عهد الخليفة عمر (17هـ).

الملحق الثالث

المراجع العامّة

المراجع العامة

المراجع الأجنبية

Abel (P. F. M.): «Histoire de la Palestine depuis la conquête d'Alexandre jusqu'a l'Invasion Arabe», Paris, 1952, 2 volumes.

Adams (J. M. K.): «Ancient Records and the Bible», 1946.

Albright (W. F.): «Archaeology and the Religion of Israël», Baltimore, 1942; **«The Archaeology of Palestine»**, 1949: **«From the Stone Age to the Christianity»**, revised ed., 1946; **«Palestine in the Earliest Historical Period»**. Journal of the Palestine Oriental Society, Vol. XV (1953), p. 212f.: **«The role of the Canaanites in the History of Civilisation»**. Studies in the Hisotry of Culture, Menasha, 1942; **«Western Asia in the Twentieth Cent. B. C., The Archives of Mari»**, Bulletin, American Schools of Oriental Research No. 67, 1937.

Allem (Jean- Pierre): «Juifs et Arabes: 3000 ans d'Histoire», Paris, 1968.

Alt (A.): «Die Laidnahme der Israëliten in Palestina». Liepzig, 1925; **«Die Urspruenge des Israëlitischen Rechts»**, Liepzig 1934.

«American Jewish Year Book»

Anati (E.): «Palestine before the Hebrews», N. Y., 1963.

Anchel (R.): «Les Juifs en France», 1946.

Archinard (E.): «Israël et ses voisins Asiatiques», Paris, 1890.

Atkinson (B.F.C.) and Whatmough (J.): «Alphabet», Enc. Brit., 1965 ed., Vol. I, pp. 662-669.

Auchincloss (W. S.): «Chronology of the Holy Bible», N. Y., 1911.

Autran (C.): «Phéniciens – Essai ed contribution de la Méditerranée», Paris, 1920.

Baedeker (K.): «Palestine and Syria», 5th. ed., Leipzig, 1912.

بحث مركز عن فلسطين وسوريا وخاصة عن تاريخ القدس.

Barnett (R.D.): «Arameans», Enc. Brit., 1965, ed., Vol 2, pp. 207-208.

Baron (S. W.): «A Social and Religious History of Jews», 8 vols, and index. 2nd ed., 1952-60. (traduit en Français sous le titre: **«Histoire d'Israël, vie Sociale et Religieuse»**, Paris, 1956, 5 vols), **«The Russian Jews under Tsars and Soviets -A Comprehensive History from the Earliest Settlements to the Present Time»**, N. Y. & London, 1964.

Barrois (A. G.): «Manuel d'archéologie Biblique», 2 vols.

Barton (G. A.): «A Shetch of Semitic Origins -Social and religious», N. Y., 1902; **«Archaeology and the Bible»**, 5th ed., 1927; **«Semitic, and Hamitic Origins»**, 1934; **«Semites»**, Encyclopedia of Religion and Ethics. Vol. 11, pp. 378-384.

Bauer (H.): «Zur Entzifferung der neuntdeckten Sinaischrift», 1918.

Beaton (F.): «The Jews in the East», London, 1959.

Beatty (Ilene): «Arab and Jew in the Land of Canaan», Chicago, 1957.

Beatty (John): «The Iron Curtain over America», Dallas, Texdas, 1956.

Beecher (W. J.): «The dated Events of the Old Testament», Philadelphia, 1908.

Bentwich (No. de M.): «Judaism», Enc. Brit., 1965 ed., Vol. 13, pp. 103-116.

Bevan (E. R.): «The House of Seleucus and Jerusalem under the High Priests».

Bohl: «Kanuanaer und Hebraer», 1911.

Bonfante (G.): «Who were the Philistines?», Amer, Jour, of Archaeology, Vol. 50, (1946), p. 251.

Borger (R.): «Das Problem der Apiru (Habiru)», ZDPV. LXXIV, 1958, 121-132.

Bottero (J.), Cassin (E.), Vercoutter (J.) ed.: «The Near East- The Early Civilization», translated by R. F. Tannenbaum, N. Y., 1967; **«Le Problème des Habiru»**, Paris, 1954.

Bowman (R. A.): «The Old Aramic Alphabet of Tell Halaf», Amer. Jour. of Semitic Languages, Vol. LVIII (1941), pp. 359-62; also: Jour, Eastern Studies, Vol. VII (1948), p. 71.

Breasted (j. H.): «A History of Egypt», N. Y., 1905; **«Ancient Times -A History of the Early World»**, (without date), Publishers Ginn and Co.

Bright (J.): «A History of Israël», 1960.

Buchler (A.): «Studies in Jewish History», ed., by I. Brodie and J. Rabbinowitz, 1956.

Burney (C. F.): «Israël's Settlement in Canaan», (The Schweich Lectures), 1917.

Caetani (Leone): «Studi di Storia Orientale», Milano, 1911.

«Cambridge Ancient History»

Vol. II, Ch. 14; Vol III, Ch. 17-20; and Vol. VI, Ch. 7, vwith their bibliographies.

Cardascia (G): «Les archives de Murashu», Paris, 1951.

Cattan (H.): «Palestine, the Arabs and Israël», London, 1969.

Cazes (D.): «Essai sur l'Histoire des Israélites de Tunisie», Paris, Durlacher, 1889.

Chalom (Jacques): «Les Israélites de Tunisie: leur condition civile et politique», Paris, Rousseau, 1908.

Cheijne (A. G.): «The Arabic Language, Its Role in History», Minnesota University. USA. 1962.

Childe (V. G.): «New Light on the most Ancient East», London, 1964.

Clay (A. T.): «Light on the Old Testament from Bable», Philadelphia, 1907; **«Amuru the Home of the Northern Semites»**, 1909; **«The Empire of the Amorites»**, 1919.

Cohen (Abraham): «Les Juifs de l'Afrique Septentrionale», Constantine, 1867.

Cohen (Israël): «The Zionist Mouvement», London, 1954.

Cohen (M.): «La grande invention de l'écriture», 1958.

Contenau (G.): «La civilisation phénicienne», Paris, 1949; **«Asie Occidentale Ancienne»**: **«Manuel d'archéologie Orientale»**, Paris, 1927; **«La Civilisation d'Assur et de Babylone»**, Paris, 1937.

Cook (S.A.): «The Religion of Ancient Palestine in the light of Archaeology» London, 1930; **«Philistine»**. Encl. Brit., 1965 ed., Vol. 17, pp. 737-738; **«The Laws of Moses and the Code of Hammurabi»**, London, 1903.

Cook (G. A.): «Phoenicia», Encl. Brit., 1965 ed., Vol. 17, pp. 763-769.

Corpus Inscriptionum semiticarum:

«Phenician, Aramian, South Arabia & North Arabia Texts», 1881 (three larges vols.).

Corswant (W.): «Dictionnaire d'archéologie biblique». Revu et illustré par: Urech (Edward), preface par Parrot (André), Paris, 1956 (translated into English by Heathcote (Arthur). London, 1960).

Cowley (A.): «Aramaic Papyri of the Fifth Century B.C.», Oxford, 1923.

Cross (F.M.Jr.): «The Evolution of the Proto-Canaanite Alphabet», Amer. Sch. of Oriental Research Bull., 134: 15-24, April, 1954.

Daiches (S.): «The Jews in Babylonia in the time of Ezra and Nehemiah according to Babylonian Inscriptions», London, 1910.

Danbv (Canon): «The Babylonionn Talmud in English with Introductions», London. The Soncino Press. Vols. 1-36, 1935- 53.

Davies (W.W.): «The Codes of Hammurabi and Moses», Cincinnati., 1905.

Delaporte (L.): «Epigraphes Araméens», Paris, 1912.

Della Vida (G. Levi): «Les Sémites et leur rôle dans l'histoire réligieuse», Paris, 1938.

De Vaux (R.): «Les Patriarhes Hébruex et les décovertes modernes», Revue Biblique, 53 (1946), pp. 321-47; 55 (1948), pp. 321-47; 56 (1946), pp. 7-36; **«Les patriarches hébreux et l'histoire»**, Reveu Biblique, 72 (1965) pp. 5-28; **«L'archéologie et les manuscrits de la mer morte»**, 1961.

Diringer (D.): «The story of the Alephbeth», 1958: **«The Alphabet- A Key to the History of Mankind»**, 2nd. ed. N. Y., 1948; **«Writing»**, London, 1965.

Dobnov (S. M.): «A History of Jews in Russia and Poland», 5vols., 2nd. ed; 1946/

Driver (G. R.): «Canaanite Myths and Legends», Edinburgh, 1956; **«Semitic Writing from Pictograph to Alphabet»**, 2nd. ed, N. Y., 1948; **«Hebrew Language»**, Enc. Brit., 1965 ed., Vol. 11, pp. 279-284.

Dunlop (D. N.): «The Jewish Khazars», N. Y., 1967 (Schockeb books).

Dussaud (R.): «Les découvertes de Ras Shamra et L'Ancien Testament», Paris, 1941; **«Les origines Canaéennes du Sacrifice Israélite»**, Paris, 1921: **«Mission dans les regions déscrtiques de la Syrie Moyenne»**, Paris, 1903; **«La pénétration de Arabes en Syrie avant L'Islam»**, Paris, 1955; **«Topographie historique de la Syrie antique et médievale»**, Paris, 1927; **«L'art phénicien du IIe millénaire»**, Paris, 1959.

Edwards (C.): «The Hammurabi Code and the Sinaic Legislation», London, 1904.

Erskine (Béatrice): «Palestine of the Arabs», London, 1935.

Fargeon (M.): «Les Juifs en Egypte dépuis les origines jusqu'à-ce jour», Le Caire 1938.

Fevrier (J.): «Histoire de l'Ecriture», 1948.

Finkelstein (L.) ed.: «The Jews: Their History, Culture and Religion», 2,

vols, 3d, ed., N. Y. 1960; «**The Pharisees**», 2 vols, Philadelphia, 1938.

Fischel (W. J.): «Jews», Encl. Brit., 1965 ed., Vol. 12, pp. 1054-1081; «**The Jews of Kurdistan a Hundred years ago**», Conference on Jewish Relations, N. Y., 1944, Reprinted from Jewish Social Studies- Vol. VI, No.3.

Flammand (Pierre): «Les communautés Israélites du Sud-Marocain. Essai de description et d'analyse de la vie Juive en milieu berbère», sand date (1956?)

Fleisch: «Introduction à l'étude des langues sémitiques», Paris, 1947.

Forbes (R. J.): «The Coming of the Camel, Studies in Ancient Technology», Vol. 11, Leiden, 1955, pp. 187-203.

Franes (M.): «Essais sur l'Histoire des Israëlites de l'Empire Ottoman depuis les origines jusqu'à nos jours», 2ème ed.

Frankel (S.): «Die aramaischen Fremdworter im Arabischen», London, 1886.

Fraser (P. M.): «History of Palestine», Enc. Brit., 1965 ed., Vol. 17, 1965, pp. 120-130.

Free (J. P.): «Abraham's Camels», Jour. of Near Eastern Studies, Vol. III, July 1944 No.3, pp. 187-193.

Friedmann (G.): «The End of the Jewish People», 1970 (translated from French).

Frued (S.): «Moses and Monotheism», (translated by Katherin Jone, 2nd. ed., 1940).

Gardiner (A. H.): «The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet», Jour. of Egyptian Archaeology, 3: 1. ff., 1916.

Garstang (J.): «The Hittite Empire», London 1929.

Garstang (J.) and Garstang (J. B. E.): «The Story of Jericho», London, 1948.

Gaspar (L.): «Histoire de la Palestine», Paris, 1967.

Gaster (T. H.): «The Religion of the Canaanites», in **«Forgotten**

Religions», ed. by V. Ferm, 1950.; in **«Thespis- Ritual, Myth and Drama in the Ancient Near East»**, 2nd ed., N. Y., 1961; **«The Oldest Stories in the World»**, N. Y., 1952; **«Cannaan»**, Enc. Brit., 1952 ed. Vol. 4, pp. 726-728, (With map and bibliography).

Gelb (I. J.): «The Early History of the West Semitic Peoples», Jour, of Cuneiform Studies, 15, 1961, pp. 27-47; **«A Study of Writing»**, 1952.

Ginzberg (L.): «The Palestinian Talmud», N. Y., 1941.

Gordon (C.H.): «Ugarithic Literature», 1949.

Goitein (S.): «Jews and Arabs, Their Contacts through the Ages», N. Y., 1955. (translated into French under the title **«juifs et Arabes»**, Paris, 1957).

Graetz (H.): «History of the Jews», 6 vols., 1891-1926; **«Geschichte der Juden»**. ed. M. Brann, Leipzig, 1906.

Grant (Dr. A.): «The Nestorians or The Lost Tribes», London, 1841.

Gray (J.): «The Legacy of Canaan», Leiden, 1957.

Gray (L. G.): «Introduction to Semitic Conparative Linguistics», 1934.

Grohmann (A.): «The Arabs», Encyclopedia of Islam, N.E., 1960, Vol. I, p. 52ff.

Greenberg (L.): «The Jews in Russia», 2 vols, 1944-1951.

Greenberg (M.): «The Habiru», New Haven. Conn., 1955.

Guillaume (A.): «The Habiru, the Hebrews and the Arabs», Palestine Exploration Quarterly, 1946, pp. 64 ff.

Gunkel (H.): «Israël and Babylon, The Influence of Babylon on the Religion of Israël», Philadlphia, 1904.

Gurney (O. R.): «The Hittite», 2nd. ed., 1961.

Guterbock (H. G.): «Babylonia and Assyria», Enc. Brit., 1965 ed., Vol. II, pp. 951-979.

Haas (J. de): «History of Palestine in the Last two thousand Years», N. Y., 1934.

Hadawi (Sami): «Bitter Harvest- Palestine 1914-67», N. Y., 1967;

«Palestine-Loss of a Heritage», San Antonio, 1963.

Hall (H. R.): «The Ancient History of the Near East», 8th. ed., N. Y., 1935.

Handcock (P. S. P.): «The Archaeology of the Holy Land», London, 1916.

Harris (Z. S.): «Ras Shamra: Canaanite Civilization and Language», The Smith-sonian Report for 1937 (Pulbication 3474), pp. 479-502.

Hastings (James): «Canaan», Dictionary of the Bible Vol. I, pp. 347-48, Vide also: **«The New Bible Dictionary»**, London 1962ed., pp. 183-186.

Hell (J.): «The Arab Civilization», Lahore, 1943.

Herford (R.T.): «The Pharisees», London 1924.

Herzl (Theodor): «The Jewish State an Attempt at a Modern Solution of the Jewish Question. Translated by S. D'Avigdor», N. Y., 1943; **«Complete Diaries»**, 5 vols, N. Y., 1960.

Hitti (P. K.): «History of Syria», London 1951; **«Lebanon in History from the Earliest Times to the Present»**, 2nd. ed., History, 1962.

Hoenig (S. B.): «The Great Sanhedrin», 1935; **«Sanhedrin»**, Enc. Brit., Vol. 19, 1965 ed., p. 946A.

Hoffman (W. J.): «The Beginning of Writing», 1895.

Hommel (Dr. Fritz): «The Ancient Hebrew Tradition», London, 1897.

Hooke (S. H.): «The Origins of Early Semitic Ritual», London, 1938.

Horn (S. H.): «Bible Dictionary», (With Atlas), Washington, 1960.

Hosmer (J. K.): «The Jews, Ancient, Medieval and Modern», London, 1885.

Hourani (A.): «Minorities in the Arab World», London, 1947.

Hughes (G. H.): «Ancient Civilization», 1896, p. 352.

Jack (J. W.): «The Ras Shamra Tablets: Their Bearing on the Old Testament», 1935.

Jackson (S.): «The Sassoons», Heinemann, London, 1968.

Jastrow (M.): «Hebrew and Babylonian radition», N. Y., 1914; **«A**

Babylonian Parallel to the Story of Job», Jour. of Biblical Literature, Vol. XXV, Part II, 1906, pp. 135-191.

Jeffires (P.): «Palestine: The Reality», London, N. Y., 1939.

Jeremias (A.): «The Old Testament in the Light of the Ancient East», translated from the German by C.L. Beaumont, 2 vols., London, 1911.

Jewish Encyclopedia: «Canaan, Canaanites, Palestine, Jews, Israëlites, Jerusalem, Arameans».

Jirku (Anton): «Der Mythus der Kannaanaer», Bonn, Rudolf Habelt Verlag. 1966.

Johns (C. H. W.): «The Relations between the laws of Babylonia and the Law of the Hebrew peoples», 1914.

Josephus (Flavius): «The Complete Works of Flavius Josephus, comprising: The Antiquitties of the Jews; A History of the Jewish wars; The Life of Josephus written by himself; etc..,», (translated by W. Whiston with sequel to the History of the Jews). London and N. Y., (without date). New ed. 2 vols., London 1897, revised by A.R. Shilleton, 5 vols. London 1890-1900. Also edited and translated by H. ST. J. Thackeray, in 7 vols. London 1926-43.

Kaplan (M.): «Judaism as a Civilization», 1934.

Karsten (R.): «The Origins of Religion», London, 1935.

Deller (W.): «The Bible as History Archaeology confirms the Book of Books», London, 1957 (5th. ed.).

Kenrick: «Phoenicia», London 1855.

Kenyon (F.): «The Bible and Archaelogy», N. Y., 1940.

Kenyon (Kathleen M.): «Archaelogy in the Holy Land», London, 1960 (2 vols.); **«Armorites and Canaanites»**, London, 1966; **«Digging up Jericho»**, London, 1957.

Khadduri (W.): «The Jews of Iraq during the 19th. Century», The Arab World, May-June, 1970.

King (L.W.): «Legends of Babylon and Egypt in relation to Hebrew Tradition», London, 1918; **«Babylonian Religion and Mythology»**, London, 1903; **«Egyp and Western Asia in the Light of Recent Discoveries»**, London, 1907.

Kirk (G. E.): «A Short History of the Middle East», London, 1948.

Kittel (R.): «Geshichte des Volkes Israëls», 2 Vols, 6th. ed., 1922-23.

Kline (M. G.): «The Habiru, kin or foe of Israël», Westminster Theological Jour, XiX (1956), 1-24, 170-194, XX (157), 46-70.

Kraeling (E. G. H.): «Aram and Israël», 1918.

Kupper (Jean-Robert): «Les Nomades en Mésopotamie au temps des rois de Mari», Paris, 1957. Reviewed by I.J. Gelb., under title **«The early History of the West Semitic Peoples»**, in Journal of Cuneiform Studies, Vol. XV, No. 1, 1961, pp. 27-47.

Landsberger (B.): «Amorites», Enc. Brit., Vol1, 1965, pp. 809-810.

Landshut (S.): «Jewish communities in the Muslem Countries of the Middle East», London, 1950.

Learsy (R.): «A History of the Jewish People» 2nd printing N.y. 1949.

Leslaw (W.): **«What Price Israël»**, Chicago, 1953; **«The Other Side of the Coin»**, N. Y., 1965.

Lods (A.): «Israël from its Beginnging to the Middle of the Eight Cent», translated by S. H. Hooke, London, 1932.

Lowenthal (M.): «The Jews in Germany», 1947.

Luckenbill (D. D.): «Ancient Records of Assyria and Babylonia», 2 vols, 1927.

Luckenbill (D.D.) and Chiera (Ed.): «The Origin and History of Hebrew Law», 1931.

Macalister (R. A. S.): «A History of Civilization in palestine», Cambridge, 1912, **«The Philistines»**, 1913.

Macqueen (J. G.): «Babylon», History, 1964.

Malamat (A.): «The Arameans in Aram Nahraim and the Rise of their State», (in Hebrew), Jerusalem, 1952.

Mallowan (M.) & Rose (J.): «Exavation in the Balikh Valley in 1938», Iraq, Vol. VIII, 1946, pp. 111-159.

Mann (J.): «Jews in Egypt under Fatemide Caliphs», 2 vols, reprint 1972; **«Selected Documents of Geniza»**, N. Y., 1925.

Marcais (W.) & Cohen (M.): «Précis de Linguistique Sémitique», 1910. (Translation of C. Brokelamnn, **«Semitische Sprachwissenschaft»**).

Margoliouth (D. D.): «Relations between Arabs and Israëlites Prior to the Rise of Islam», The Schweich Lectures, Oxford, 1921.

Margolis (M. L.) and Marx (A.): «A History of Jewish People», 5th. ed., 1964.

Marston (Sir Charles): «The Bible is True», History, 1937 (5th imp.); **«The new Knowledge about the Old Testament»**.

Meek (T. H.): «Hebrew Origins», N. Y., 1936 (Revised edition, 1950).

Meissner (B.): «Babylonien und Assyrien», 2 vols, (1920-25).

Menant (M. J.): «La Bible et les Cylindres Chaldéens», Paris, 1880.

Mendenhall (George E.): «Law and covenant in Israël and the Ancient Near East», Pittsburg, 1955.

Menes (A.): «The History of the Jews in Ancient Times» in **«The Jewish People, Past and Present»**, Vol. 1, N. Y., 1946, pp. 78-152.

Menuhim (Moshe): «The Decadence of Judaism in our Time», Beirut, 1969.

Meyer (E.): «Die Israëliten und ihre Nachbarstamme», 1906.

Montagne (R.): «La Civilisation du désert», Paris 1947.

Montgomery (J.): «Arabia and the Bible», Philadelphia, 1934.

Moscati (S.): «The Semites in Ancient History», Cardiff, University of Wales Press, 1959. **«Ancient Semitic Civilization»**, Eleck Book, London, 1957.

ترجم هذا الكتاب إلى العربية د. السيد يعقوب بكر ونُشرت هذه الترجمة مع تعليقات دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة.

«The face of the Ancient Orient», London, 1960.

Musil (A.): «The Middle Euphrates», (Negd).

Neuman (A. A.): «The Jews in Spain», 2 vols, Phil. 1942.

Neusner (J.): «History of the Jews in Babylonia»:

1- The Parthian Period, Leiden 1965;

2- The Early Sassanian Period, Leiden, 1966;

3- From Shapur I to Shapur II, Leiden,

4- The Age of Shapur II, Leiden, 1969.

5- Later Sassanian Times, Leiden, 1970;

«The Formation of the Babylonian Talmud», 2nd ed., Leiden, 1970.

«New Jewish Encyclopedia»

N. Y., 1962, 1971.

Newman (Rabb J.): «The Agricultural Life of Jews in Babylonia», 1932.

Noldeke (Th): «Semitic Language», Enc. Brit., 11 ed., (1911), Vol. 24, col. 617-630.

«Arabs», Encyclopedia of Religion and Ethics, Vol I, pp. 659-673.

Noth (M.): «The History of Israël», 1958.

Notre-dame de France à Jérusalem: «La Palestine», 2e ed., Paris, 1922.

Nougayrol (J.) et autres: «Le Palais royal d'Ugarit», 2 vols., Paris, 1955.

Nyberg (H. S.): «Abraham», in I. Engell and A. Fridrichsen Svenskt Bibliskt Uppslagsverk, Vol. 1, col. 8-11, 1948.

Obermann (J. J.): «Ugaritic Mythology», 1948.

O'Callghan (R. T.): «Aram Nahraim», Rome, 1948.

Oesterley (W. O. E.) and Robinson (T. H.): «A History of Israël», 2 vols, Oxford, 1932; **«Hebrew Religion: Its Origin and Development»**, N. Y., 1937.

O'Leary (De Lacy): «Arabia before Muhammad», London, 1927, **«Arabic Thought and its Place in History»**, Trubner's Oriental Series.

Olmstead (A. T.): «History of Palestine and Syria», N. Y., and London, 1931; **«Western Asia in the days of sargon of Assyria»**, N. Y., 1908; **«History of Assyria»**, N. Y., 1908; **«History of Assyria»**, 1923.

Oppenheim (M.): «Tell Halaf -A new Culture in the Oldest Mesopotamia», translated by G. Wheeler, London, 1933.

Pallis (F. D.): «The Antiquity of Iraq: A Handbook of Assyriology», 1956.

Parkes (J.): «A History of the Jewish People», 1962; **«Continuity of Jwish Life in the Middle East»**, London, 1961; **«Arabs and Jews in the Middle East. A tragedy of Errors»**, London, 1967.

Patai (R.): «Israël between East and West», 1953.

Parrot (A.): «Abraham et son temps», 1962.

Patton (L.B.): «The Early History of Syria and Palestine», N. Y., 1901.

Patton (L. B.):

«Canaanite Parallels in the Book of Psalms», 1944.

Peake (A. S.): «A Commentary on the Bible», London, 1923.

Petrie (Sir W. Flinders):

«The Formation of the Alphabet», London, 1912; **«Egyptian Tales»**, London, 1895; **«Egypt and Israël»**, London, 1923 (New edd.).

Philby (H. St. J. B.): «The Bachground of Islam -Being a sketch of Arabian History in Pre-Islamic Times», Alexendria, 1947; **«The Empty Quarter- Being a description of the Great South Desert of Arabia known as Rub. ALKahl»**, London, 1933 (see: Chap.II), **«Forgotten Rivers»**, pp. 127-156); **«The Heart of Arabia»**, 1922; **«Sheba's Daughters»** 1939; **«Arabian Highlands»**, N. Y., 1952.

Pool (D), Patai (R.) and Cardozo (A. L.): «The World of Sephardim», N. Y., 1960.

Pritchard (J. B.): «Archaelogy and the Old Testament», Princeton University Press, 1958; **«Ancient Near Eastern Texts relating to the Old Testament»**, Princeton N. J., 1950, 2nd ed. 1953; **«The Ancient Near East in Pictures Relating to the Old Testament»**, Princeton, 1954.

Puhvel (J. Pl.): «Hurrians», Enc. Brit., 1965 ed., Vol. 11, pp. 905-906; **«Hittites»**, Ibid, pp. 550-560.

Rabin (C.): «Hebrew Literature», Enc. Brit., 1965 ed., Vol. 11, pp. 284-290.

Rappoport (A. S.): «Myth and Legend of Ancient Israël», N. Y., 1966 (3 vols.); **«History of Palestine»**, London, 1931.

Rawlinson (G.): «History of Phoencia», London, 1889.

Reich (S.): «Etudes sur les villages Araméens de L'Anti-Liban», Institut Français de Damas, 7, 1936.

Reik (Theodor): «Pagan Rites in Judaism», N. Y., 1963.

Reinach (S.): «A History of Religions», N. Y., 1909 and 1930.

Renan (E.): «De la part des peuples sémitiques dans l'histoire des civilisation», Paris, 1862; **«Histoire générale des langues sémitiques»**, 8th ed., Paris, 1863.

«Reveu des Etudes Sémitiques»

«La Legende des Patriarches et l'Histoire», IV, 1937, pp. 145-206.

Ricciotti (G.): «Histoire d'Israël», 2 vols.

Robinson, Breasted and Smith:

«Earlier Ages», Boston, 1937.

Robinson (E) and Smith (E.): «Biblical Researches in Palestine and the Adjacent Regions», 3 vols. Boston, 1856.

Robinson (T. H.): «The Decline and Fall of the Hebrew Kingdoms», Oxford, 1956.

Rodinson (M.): «Israël and the Arabs», London, N. Y., 1968.

Rogers (R. W.): «Cuneiform Parallels to the Old Testament», N. Y., 1912.

Rosenthal (F.): «Die aramaistishe Forschung seit Th. Noldeke's Verroffentlichungen», Leiden, 1939.

Roth (C.): «A Short History of the Jewish People», 1936; **«A History of the Jews in England»**, London, 1941; **«A History of the Jews in Italy»**, 1946.

Roux (G.): «Ancient Iraq», Penguin Book, 1966.

Rowley (H. H.): «The Old Testament and Modern Stydy», (ed.) 1951;

«From Joseph to Joshua -Biblical Traditions in the light of Archaelogy», 1950. reprintes 1964.

Ruppin (A.): «The Jews in the Modern World», London, 1934.

Ryckmans (G.): «Les Religions Arabes Préislamiques», ed. 2, Louvain, 1951.

Sachar (A. L.): «A History of the Jews», 2nd ed., N. Y., 1940.

Sakran (F.C.): «Palestine Dilemna Arab Rights versus Zionist Aspirations», Washington, D.C., 1948.

Sanda (A.): «Die Aramaer», Der Alte Orient, Vol, IV, part 3, 1902.

Sarom (G.) and Hotz (L) eds: «The Jews in South Africa», 1956.

Sassoon (D. S.): «A History of the Jews in Baghdad», London, 1949.

Sayce (A. H.): «Early Israël and the Surrounging Nations», London, 1899.

Scheffer (C. F. A.): «The Cuneiform Texts of Ras Shamra-Ugarit», 1939; **«Ugaritica»**, I-III, Paris, 1939-56.

Schiffer (S.): «Die Aramaer», Leipzig 1911.

Schmokel (C. H.): «Geschichte des alten Vorderasien», Handbuch der Orientalistick, (II,3), Leiden, 1957.

Schrader (E.S.): «The Cuneiform Inscriptions and the Old Testament», translated from the German by Rev. O.C. Whitehouse, 2 vols, 1885-1888.

Sellin (E.): «Mose und Sein Bedeutung fuer die israelitish-Juedische Religionsgechichte», 1922.

Selzer (M.): «The Aryanization of the Jewish State», N. Y., 1967.

«The Outcasts of Israël», Jerusalem, 1956.

Silver (A. H.): «Moses and the Original Torah», N. Y., 1961.

Simpson (R. H.): «Nabateans», Enc. Brit., 1965 ed., Vol. 15, pp. 1143-1144.

Smith (G. A.): «The Historical Geography of the Holy Land», 25th ed., 1931; **«The Chaldean Account of Genesis»**, 5th ed., London, 1876.

Smith (H. W.): «Man and his Gods», Universal Library, 1956.

Smith (S.): «Early History of Assyria», 1928.

Smith (W. R.): «Lectures on the Religion of the Semites», 3d ed., London, 1927.

Socolow (N.): «History of Zionism», 2 vols, N. Y., 1969.

Sommer (A. Dupont): «Sur les débuts de l'Histoire araméenne», Suppl. to Vetus Testamentum, I, Leiden, 1953, pp. 40-9; **«Les Araméens»**, Paris, 1949.

Speiser (E. A.): «Introduction to Hurrian», 1941.

Sprengling (M.): «The Alphabet; Its Rise and Development from the Sinai Inscription», The Universal Jewish Enc. I, p. 198.

Standard Jewish Encyclopedia, 1966.

Starr (J.): «The Jews in the Byzantine Empire (641-1204), 1939.

Steindorf (G.) and Seele (K. C.): «When Egypt ruled the East», Unive, of Chicago Press, Chicago, 1942; **«The Story of the Bible told by Living Writers of Authority»**, London, (Without date), 2 vols.

Strange (Guy Le): «Palestine under the Moslems», 1890.

Syrkin (Marie): «Oriental Jews in Israël», N. Y., 1952.

Tayler (I.): «The Alphabet», 1883.

Thomas (D. W.): «Archaelogy and Old Testament Study», (ed.) Oxford: Clarendon Press, 1967.

Thordarson (T.K.): «Abraham», Enc. Brit., 1965 ed., Vol. I, pp. 44 f.

Torczyner (H.): «Tur-Sinai», N.S. XII, The Jewish Quarterly Review, 83-109, 159-179.

Tremingham (Spenser): «The World of Ours», Beirut.

Trever (A.): «History of Ancient Civilization», 2 vols, N. Y., 1939.

Unger (M. F.): «Israël and the Arameans of Damascus. A Study in Archaeological illumination of Bible Histor», London, 1957.

Universal Jewish Encyclopedia:

«Canaan», Vol. II, 1969, pp. 650-651 (with map).

Vigourous (F.): «La Bible et les découvertes modernes en Egypte et en Assyrie», 2 vols. 1-2, Paris, 1877.

Vincent (L. H.): «Canâan d'après l'exploration récente», Paris, 1914.

Waterman (L. W.): «Pre-Israëlite Laws in the Book of the Convenant», AJSLL, Vols. 38, 1921-22, pp. 36-62.

Weber (Otto): «Arabien vor dem Islam (Der alte Orient)».

Wegall (A.): «The Life and Times of Akhnaton, Pharaoon of Egypt», London, 2nd imp., 1934.

Wellhausen: «Reste Arabischen Heidentums (remains of Arabian Heathenism), Berlin, 1887.

Wiseman (D.J.): (ed. and translation): «Chronicles of Chaldean Kings (626-556 B.C.)», 1956.

Wood (W. C.): «The Religion of Canaan from the Earliest Times to the Hebrew Conquest», Journal of Biblical Literature, 35 (1916), 1-133, 163-279.

Woolley (L. H.): «Abraham, Recent discoveries and Hebrew Origins», 1963; **«Excavations at Ur -A Record of twelve years wcrk»**, 4th imp., London, 1963.

Yeivin (Sh.0): «The Israëlite Conquest of Canaan», Dutch Institute at Istambul Series, Vol. XXVII, Istambul, 1971.

Zetlin (S.): «The Sadducees and the Pharisees», 1936.

Zimmels (H. J.): «Ashkenazim and Sephardim», London, 1958.

«Map of the Holy Land», Scale 1: 596, 880, Compiled by the National Geographic Society, Atlas Plate 52, Dec. 1963.

مختارات من المراجع العربية والمعرّبة

الأبراشي (محمد عطية): «الآداب السامية»، القاهرة، 1946.

إبراهيم عبده (الدكتور علي) وقاسمية (خيرية): «يهود البلاد العربية»، منظمة

التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، (دراسات فلسطينية 82)، بيروت، حزيران، 1971.

أبو عسل (إيلي ليفي): «**يقظة العالم اليهودي**»، القاهرة، 1934.

أبونا (ألبير): «**أدب اللغة الآرامية**»، بيروت، مطبعة ستاركو، 1970.

آتيلفان (الجنرال جواد رفعت): «**الخطر المحيط بالإسلام**»، بالتركية، ترجمة وهبي عز الدين، مطبعة الجاحظ، بغداد، 1965.

أحمد العلي (الدكتور صالح): «**محاضرات في تاريخ العرب**»، الجزء الأول، الطبعة الرابعة، بغداد، 1967.

أرمان (أدولف): «**ديانة مصر القديمة ـ نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة**»، ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر وراجعه الدكتور محمد أنور شكري، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، (بلا تاريخ).

الأصمعي (عبد الملك): «**تاريخ العرب قبل الإسلام**»، تحقيق الشيخ محمد آل ياسين، بغداد، 1959.

باقر (طه): «**ديانة البابليين والآشوريين**»، **سومر** م 2 (1946)، ص1 ـ 19، 179 ـ 196؛ «**عقائد سكان العراق في العالم الآخر**»، **سومر** م10 (1954)، ص8 ـ 39؛ «**علاقات بلاد الرافدين بجزيرة العرب**»، **سومر** م5 (1949)، ص123 ـ 158؛ «**علاقات العراق القديم وبلدان الشرق الأدنى**» **سومر** م4 (1948)، ص86 ـ 102؛ «**معابد العراق القديم**»، **سومر** م3 (1947)، ص12 ـ 37؛ «**مقدّمة في تاريخ الحضارات القديمة**»، جزآن، 1955 ـ 1956؛ «**ملحمة جلجامش والطوفان**»، **سومر** م6 (1950)، ص32 ـ 80، 143 ـ 191.

باقر (طه) وسفر (فؤاد) والشمسي (يعقوب): «**تاريخ العصور القديمة**»، الطبعة السابعة، بغداد، 1960.

بدوي (أحمد زكي): «**تاريخ التطور الديني**»، مطبعة دار النشر والتأليف التجاري، القاهرة، (بلا تاريخ).

بروكلمان (كارل): «**تاريخ الشعوب الإسلامية**»، نقله إلى العربية الدكتور نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت، 1953.

بريستد (الدكتور جيمس هنري): «**العصور القديمة**»، نقله إلى العربية داود قربان، المطبعة الأمريكانية في بيروت، 1936؛ «**انتصار الحضارة ـ تاريخ الشرق القديم**»، نقله إلى العربية الدكتور أحمد فخري، نشرته الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية، 1962؛ «**تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي**»، ترجمة الدكتور حسن كمال، القاهرة، 1929؛ «**فجر الضمير**» ترجمة الدكتور سليم حسن، دار مصر للطباعة، 1956.

بصمة جي (الدكتور فرج): «**أقوام الشرق القديم وهجراتهم**»، **سومر** 3 (1947)، ص87 ـ 99.

بهاء الدين (أحمد): «**إسرائيليات**»، الطبعة الثانية، القاهرة، دار الهلال.

بوست (جورج): «**قاموس الكتاب المقدس**»، ترجمة وتأليف، بيروت، المطبعة الأميركانية، 1894 ـ 1901.

بيتي (إيلين): «**أزيلوا إسرائيل**»، دار العلم للملايين، بيروت، 1952.

بيرغر (ألمر): «**إسرائيل باطل يجب أن يزول**»، بيروت، 1955.

تايلور (آلان ر.): «**مدخل إلى إسرائيل**»، تعريب شكري محمود نديم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1969.

التميمي (الدكتور رفيق): «**جو الجزيرة العربية وأثره في الهجرات السامية**»،

مجلة المقتطف، عدد يوليو/تموز 1944، المجلد الخامس بعد المائة، ص120 ـ 130.

توينبي (أرنولد. جي): «**بحث في التاريخ**»، في جزأين يشتمل على موجز المجلدات الستة الأولى من كتابه المؤلف من عشرة مجلدات، نقله إلى العربية وعلّق عليه طه باقر، بغداد، 1955؛ «**فلسطين جريمة ودفاع**»، ترجمة عمر الديراوي، بيروت، 1961.

الجارم (محمد النعمان): «**أديان العرب في الجاهلية**»، القاهرة، 1923.

جرجس (الدكتور صبري): «**التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي**»، القاهرة، 1970.

الجمعية الفلسطينية لمقاومة الصهيونية: «**فلسطين**»، طبع في المطبعة التجارية السورية في نيويورك، 1919.

الجميلي (رشيد): «**تاريخ العرب في الجاهلية وعصر الدعوة الإسلامية**»، بيروت، 1972.

حتي (الدكتور فيليب) وجبور (الدكتور جبرائيل) وجرجي (الدكتور إدوار): «**تاريخ العرب**»، جزآن، الطبعة الرابعة، 1955، بيروت، (دار الكشاف).

حسن (قاسم): «**العرب والمشكلة اليهودية**»، بغداد، 1946.

حمدان (محمد مصباح): «**الاستعمار والصهيونية العالمية**»، دار المكتبة العصرية، 1967.

الخازن (الشيخ نسيب وهيبة): «**من الساميين إلى العرب**»، بيروت، 1962؛ «**أوغاريت: أجيال وأديان وملاحم**»، دار الطليعة، بيروت، 1961.

الخالدي (إدريس): «**الموجات السامية**»، **مجلة المعلم الجديد**، م30، (كانون الثاني ـ حزيران)، 1967، ص111 ـ 117.

الخربوطلي (الدكتور علي حسني): «العرب والحضارة»، القاهرة مكتبة الإنجلو ـ مصرية، 1966.

«العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود في العصور القديمة والإسلامية»، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1969.

الخطيب (محب الدين): «اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب»، القاهرة، 1925.

خليل أحمد (إبراهيم): «إسرائيل فتنة الأجيال ـ العصور القديمة»، مكتبة الوعي العربي، القاهرة، 1969.

خوري (يعقوب): «اليهود في البلدان العربية»، بيروت، دار النهار للنشر، 1970.

الدباغ (الدكتور تقي): «آلهة فوق الأرض: دراسة مقارنة»، سومر م23 (1967)، ص101 ـ 123؛ **«طبيعة الدراسات الأثرية»، مجلة الأستاذ**، م15 (1967 ـ 1968)، ص319 ـ 353.

الدباغ (مصطفى مراد): «بلادنا فلسطين»، دار الطليعة، بيروت، 1965.

الدبس (المطران يوسف): «تاريخ سوريا».

دروزة (محمد عزة): «تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار». في ثمانية أجزاء، 1946 ـ 1964؛ **«تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم»**، مطبعة نهضة مصر (بلا تاريخ).

الدش (محمد محمود): «اليهود والحضارة الإنسانية»، مجلة العربي، العدد 109 (كانون الأول 1967)، ص50 ـ 57.

«دليل الجمهورية العراقية لسنة 1960»، بغداد

الدواليبي (الدكتور محمد معروف): «دراسات تاريخية عن أصل العرب وحضارتهم الإنسانية»، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971.

دويتشر (إسحاق): «**اليهودي اللايهودي**»، ترجمة ماهر كيالي، المؤسسة العربية للدراسات، والنشر، بيروت، 1971. وقد صدرت في السنة نفسها ترجمة أخرى قام بها مصطفى الحسيني، نشرتها دار الحقيقة للطباعة والنشر (المكتبة الاشتراكية) في بيروت أيضاً تحت عنوان «**دراسات في المالية اليهودية**»، أما عنوان الكتاب بالإنكليزية فهو: Deutsher (Isaac), **«The Non-Jewish Jew»**, Oxford University Press, 1968.

ديسو (رينه): «**العرب في سوريا قبل الإسلام**»، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر المصرية سنة 1959.

ديورانت (ول): «**قصة الحضارة**»، ترجمة محمد بدران، الطبعة الثالثة، 1961، جامعة الدول العربية (انظر: «**اليهود**» في الفصول 1 ـ 7 من الباب الثاني عشر، الجزء الثاني من المجلد الأول، ص321 ـ 398).

رشدي (عمر): «**الصهيونية وربيبتها إسرائيل**»، الطبعة الثانية، 1965.

رودنسن (مكسيم): «**إسرائيل واقع استعماري**»، ترجمة إحسان الحصني، دمشق، وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، 1967.

رومال (جاك) ولورا (ماري): «**التحدي الصهيوني**»، تعريب نزيه الحكيم، منشورات دار العلم للملايين، بيروت، ترجم إلى العربية عن الفرنسية.

روهلنج (الدكتور) ولوران (شارل): «**الكنز المرصود في قواعد التلمود**»، ترجمه من الفرنسية الدكتور يوسف نصر الله، القاهرة، 1899.

زيدان (جرجي): «**فلسطين**»، **الهلال** (1913 ـ 1914)؛ «**العرب قبل الإسلام**»، الجزء الأول، القاهرة، 1939.

سالم (الدكتور عبد العزيز): «**دراسات في تاريخ العرب**»، الإسكندرية، 1968 (جزآن).

سعيد الأحمد (الدكتور سامي): «**الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية**»، من

منشورات الجمعية العراقية للتاريخ والآثار، رقم 1، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1969.

السقاف (أبكار): «**إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة**»، القاهرة، 1967.

سوسة (الدكتور أحمد): «**الري والحضارة في وادي الرافدين**»، بغداد، 1968؛ «**فيضانات بغداد في التاريخ**»، طبع في ثلاثة أجزاء، بغداد، 1963 ـ 1966.

شايدل (فرانتس): «**إسرائيل أمة مفتعلة**»، ترجمة محمد جديد، دمشق، 1969.

شبل (فؤاد محمد): «**دور مصر في تكوين الحضارة**»، المكتبة الثقافية، العدد 270، القاهرة، 1971؛ «**مشكلة اليهودية العالمية**»، المكتبة الثقافية، العدد 241، القاهرة، 1970.

شلبي (دكتور أحمد): «**مقارنة الأديان ـ اليهودية**»، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1972.

الشواف (قاسم): «**مع الكلمة الصافية: دراسة فلسطينية**»، دمشق، 1969.

صايغ (هلدا شعبان): «**التمييز ضد اليهود الشرقيين في إسرائيل**»، سلسلة دراسات فلسطينية ـ 85 ـ، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، 1967.

طعيمة (صابر عبد الرحمن): «**الصهيونية في التاريخ**»، مكتبة القاهرة الحديثة، بلا تاريخ.

ظاظا (دكتور حسن): «**الفكر الديني الإسرائيلي أطواره ومذاهبه**»، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1970.

العامري (محمد أديب): «**عروبة فلسطين في التاريخ**»، بيروت، 1972.

عبد المجيد (الدكتور محمد بحر): «**اليهود في الأندلس**»، المكتبة الثقافية، العدد 237، القاهرة، 1970.

عبد المعطي (فتحي فوزي): «**المزاعم الصهيونية في فلسطين**»، سلسلة اقرأ (274)، دار المعارف في مصر، 1965.

عبد المعيد خان (محمد): «**الأساطير العربية قبل الإسلام**».

عزّام (الدكتور عبد الوهاب): «**مهد العرب**»، سلسلة اقرأ، مارس/آذار 1946.

العزب موسى (محمد): «**موسى.. مصرياً**»، المكتبة الثقافية (العدد 227)، دار الكاتب العربي، 1969.

العقاد (عباس محمود): «**الصهيونية وقضية فلسطين**»، بيروت، صيدا؛ «**اليهودية**»، دار الكاتب العربي، 1970؛ «**الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين**»، المكتبة الثقافية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، بلا تاريخ؛ «**إبراهيم أبو الأنبياء**» مطابع دار الهلال، بلا تاريخ.

علي إمام عطية: «**الصهيونية العالمية وأرض الميعاد**»، القاهرة، 1963.

علي (الدكتور جواد): «**أصنام العرب**»، سومر م 23 (1967)، ج 1 و2، ص3 ـ 46؛ «**تاريخ العرب قبل الإسلام**»، في ثمانية أجزاء من مطبوعات المجمع العلمي العراقي؛ «**المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**»، دار العلم للملايين، بيروت، (9 أجزاء).

عون (حسن): «**اليهود في العراق: دراسة تحليلية**»، مطبعة رويال، 1952.

غاي كار (الأميرال وليام): «**أحجار على رقعة الشطرنج**»، ترجمة سعيد جزائرلي، بيروت، 1970.

الغمراوي (المقدم أمين ساقي): «**لهذا.. أكره إسرائيل**»، القاهرة، 1964.

غنيم (أحمد محمد): «**اليهود والحركة الصهيونية في مصر (1897 ـ 1962)**»، كتاب دار الهلال، العدد 219، يونيو/حزيران 1969.

الغوري (إميل): «**فلسطين**»، سلسلة الثقافة الشعبية رقم 44، وزارة الإرشاد، بغداد، 1962.

فتحي صفوة (نجدت): «**اليهود والصهيونية في علاقات الدول الكبرى**» 1967؛ «**بيروبيجان - التجربة السوفييتية لإنشاء وطن قومي يهودي**» مركز الدراسات والبحوث الفلسطينية، جامعة بغداد، 1973.

فريحة (الدكتور أنيس): «**ملاحم وأساطير من أوغاريت (رأس الشمرا)**» نشرته الجامعة الأميركية في بيروت 1966؛ «**الشعوب السامية ولغاتها**»، مجلة الاعتدال، آب 1937.

فليشرز (فارديس): «**وادي الأحلام**»، تعريب فريد لقمان، مطبعة الحرية، بغداد 1968.

فورد (هنري): «**اليهودي العالمي - المشكلة التي تواجه العالم**»، تعريب خيري حماد، 1967.

فوزي (الفريق محمد) ورشدي (عمر): «**الصهيونية وربيبتها إسرائيل**».

الفيل (الدكتور محمد رشيد): «**اليهود وعلم الأجناس**»، بغداد، مطبعة شفيق، (بلا تاريخ).

«**الكتاب المقدس**»، طبعة جميعة التوراة الأمريكانية.

«**الكتاب المقدس**»، الطبعة الكاثوليكية لسنة 1960، بيروت (كتب العهد القديم والعهد الجديد).

كتن (هنري): «**فلسطين في ضوء الحق والعدل**»، نقله إلى العربية وديع فلسطين، مكتبة لبنان، بيروت، 1970، عنوانه بالإنكليزية: Cattan (Henry), «**Palestine, The Arabs and Israël, «The Search for Justice»**, Longman, 1969.

كريمر (صموئيل): «**من ألواح سومر**»، ترجمة طه باقر، نشرته مكتبة المثنى ببغداد، وطبعته مؤسسة الخانجي بالقاهرة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.

الكيالي (عبد الوهاب): «**تاريخ فلسطين الحديث**»، بيروت، 1970؛ «**الموجز في تاريخ فلسطين الحديث**»، بيروت، 1971.

كيبرا (إدوارد): «**كتبوا على الطين**»، ترجمة وتعليق محمود حسين الأمين، نشرته مكتبة الجوادي ببغداد بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، 1962.

لوبون (الدكتور غوستاف): «**اليهود في تاريخ الحضارات الأولى**»، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، 1950.

لويس (برنارد): «**العرب في التاريخ**»، بيروت، 1954.

ليلنتال (ألفريد): «**إسرائيل: ذلك الدولار الزائف**».

ليون (أبراهام): «**المفهوم المادي للمسألة اليهودية**»، ترجمة وتقديم عماد نويهض، دار الطليعة، بيروت، 1969.

مجمع كنائس الشرق: «**قاموس الكتاب المقدس**»، الطبعة الثانية، 1971، بيروت.

محمد (الدكتور محمد عوض): «**ليس اليهود من بني إسرائيل**» الهلال، ج 7، م 55 (يوليو/تموز 1947)، ص23 ـ 29؛ «**المسألة الصهيونية في نظر العلم**»، القاهرة، 1947.

محمود (مصطفى): «**التوراة موضع خلاف**» دار العودة، بيروت، 1972؛ «**مجلة شؤون فلسطينية**»، مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية؛ «**مجلة الدراسات الفلسطينية**»، جامعة بغداد.

معروف (الدكتور ناجي): «**أصالة الحضارة العربية**»، مطبعة الزمان، بغداد، 1969.

معروف (خلدون ناجي): «**الأقلية في العراق، 1921 ـ 1952**»، القاهرة، 1972.

مكاريوس (شاهين بك): «**تاريخ الشرق الأدنى القديم**»، تعريب توفيق سليمان وعلي أبو عساف وقاسم طوير، مطبعة الإنشاء، دمشق، 1967. (صدر النصّ الألماني سنة 1950).

مونو (مارتين): «**إسرائيل كما رأيتها**»، ترجمة حليم طوسون، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971.

نافع (محمد مبروك): «**تاريخ العرب: عصر ما قبل الإسلام**» مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، 1952.

النجار (عبد الوهاب): «**قصص الأنبياء**»، الطبعة الثانية المنقّحة، القاهرة، 1936.

نولدكه (ثيودور): «**اللغات السامية**»، مترجم عن الألمانية، نشرته دار النهضة العربية بالقاهرة، 1963، أما عنوانه بالألمانية فهو: Th. Noldeke, **«Die Simitischen Sprachen»**, 1899.

«**أمراء غسان**»، بيروت، 1933.

نويهض (الأستاذ عجاج): «**بروتوكولات حكماء صهيون**»، مجلدان يشتملان على أربعة أجزاء (خال من الإشارة إلى مكان وزمان الطبع). بحث شامل وقيم تناول أكثر من بروتوكولات حكماء صهيون، لا يُستغنى عنه في دراسة تاريخ اليهودية بوجه عام.

نيلسن (دكتور ديتلف ورفاقه): «**التاريخ العربي القديم**»، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي، القاهرة، 1958.

وافي (الدكتور علي عبد الواحد): «**اليهودية واليهود**»، بحث في ديانة اليهود وتاريخهم ونظامهم الاجتماعي والاقتصادي، مكتبة غريب، القاهرة، 1970.

ولفنسون (الدكتور إسرائيل): «**تاريخ اللغات السامية**»، القاهرة، 1929؛

«تاريخ اليهود في بلاد العرب»، القاهرة، 1927؛ **«موسى بن ميمون»**، القاهرة، 1936.

يوسف (شريف): «تاريخ اليهود كما يلقنه الصهاينة لأبنائهم»، مجلة العربي، العدد 8، (تشرين الثاني 1967)، ص105 ـ 111. نشر المقال نفسه أيضاً في **مجلة المعلم الجديد**، م30 (كانون الثاني ـ حزيران 1967) ص74 ـ 82.

الملحق الرابع

معجم الأعلام والأقوام والبلدان
وبعض المصطلحات الضرورية

معجم مفهرس للأعلام والأقوام والبلدان وبعض المصطلحات الضرورية

يتناول هذا المعجم عرضاً جغرافياً وتاريخياً لأهم المدن ومراكز العمران القديمة ذات العلاقة بموضوع هذا الكتاب مع نبذة عن الأقوام والأعلام الذين عملوا على تأسيسها وعاصروها. ونحن إذ نقدم هذا المعجم إلى القارىء نعلّق عليه أهمية خاصة لأنه لا يمكن تفهُّم حقيقة تاريخ فلسطين القديم بصورة صحيحة وعلمية دون الوقوف على الوضع التاريخي والجغرافي للمنطقة وما جاورها من البلدان والأماكن القديمة. ويتّضح من مطاوي هذا المعجم أنَّ المدن والقرى والأماكن الفلسطينية التي عدَّها اليهود خاصة بهم وتحدثوا عنها وكأنها مدنهم القديمة، وكذلك الشخصيات التي اعتبرها الصهاينة مرتبطة بتاريخهم واتخذوها أسلافاً لهم لمجرد ورود ذكرها في التوراة ترجع إلى عهود موغلة في القدم ظهرت على مسرح الأحداث في أزمان لم يكن لليهود أي وجود فيها. ومن الأماكن الفلسطينية الكنعانية التي حافظت على أسمائها القديمة حتى الآن أورشليم وصهيون وفلسطين وإسرائيل وأريحا وغزة وبيت شان (بيسان) وعجلون (عجلان) وعقرون (عاقر) وصيدون (صيدا) وصور وعكّو (عكا) وأشقلون (عسقلان) وأشدود (أسدود) وأرواد (رواد) والكرمل وغيرها. وقد عُثر على جدران هيكل بلدة طيبة المصرية على جدول بأسماء 118 مدينة كنعانية افتتحها تحوطمس الثالث (1479 ـ 1447 ق.م.)، وهذا يعدّ أقدم ذكر للمدن الكنعانية إذا استثنينا وصف حملات الفراعنة الأقدمين على بلاد كنعان التي ترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد والتي ذكر فيها بعض

أسماء المدن الكنعانية، وكان ذلك قبل أن يظهر اليهود إلى عالم الوجود. ومع ذلك يحاول الصهاينة اليوم إحياء هذه الأسماء القديمة واعتبارها أسماء عبرية (يهودية) لمجرد ورود ذكرها في التوراة على الرغم من أن المكتشفات الآثارية قد أثبتت وجودها بأسمائها الكنعانية الأصلية قبل عصر موسى واليهود بعدّة قرون. لذلك فإن فائدة التوراة التاريخية تنحصر بنقلها إلينا أسماء بلدان وأماكن من العهد الكنعاني وبوصفها جغرافية بلاد كنعان بوجه عام كما كانت عليه قبل وبعد دخول الموسويون إليها.

كان هذا صحيحاً بالنسبة للطبعات السابقة ولكننا ارتأينا هنا إضافة بعض المصطلحات الغريبة التي تجهلها، في اعتقادنا، غالبية القرّاء وربما لا تتوافر لأكثرهم المراجع لمعرفتها مما جعلنا نضيف إلى عنوانه فقرة «وبعض المصطلحات الضرورية» وهذا أيضاً زاد في الأهمية التي نعلّقها عليه.

أبرام (إبراهيم الخليل): نبي من الأنبياء الساميين العرب ورد ذكره في التوراة باسم «أبرام» و«إبراهيم»[1]. وفي القرآن الكريم باسم إبراهيم الخليل ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[2]، يرجع نسبه البعيد إلى سام بن نوح، وهو ابن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام[3]. أما نسبه القريب فيرجع إلى القبائل الآرامية التي نزحت في الأصل من جزيرة العرب واستقرّت في منطقة حاران (حرّان حالياً) قرب منابع رافدي الفرات، الخابور والبليخ والتي اضطر بعضها، بسبب هبوط مجرى النهر، إلى الهجرة مجدداً باتجاه الجنوب إلى منطقة بابل في الفرات الأسفل فكان إبراهيم من ذريتها. وترجع القبائل الآرامية إلى آرام من بني سام أيضاً[4]. أي إلى الأصل العربي السامي لأن القبائل الآرامية وقبائل العرب البائدة أو العرب العاربة تنحدر من أصل واحد ومن جنس واحد: هو الجنس العربي السامي.

---

(1) (تك، 17: 5).

(2) سورة النساء، الآية: 125.

(3) (تك، 11: 10 ـ 26).

(4) (تك، 10: 22).

وبذلك يكون إبراهيم الخليل آرامياً وزعيماً من زعماء العرب البائدة ومن مواليد العراق.

ومع اختلاف الباحثين في تعيين مكان ولادته فإن أكثرهم متّفق على أنه كان في كوثى قرب بابل. كان ظهوره على مسرح الأحداث في حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد داعياً إلى عبادة الإله الواحد «الإلٰه إيل» (الله) خالق السموات والأرض بين أبناء قومه الوثنيين، فلاقى من جرّاء دعوته هذه أشدَّ الاضطهاد، فاضطر أثر ذلك إلى الهجرة هو وأتباعه فرحل من أور إلى «حاران» (حرّان حالياً) حيث تقيم عشيرته ومنها جاء بمفرده إلى أرض كنعان (فلسطين) وذلك بعد أن مكث في دمشق مدة من الزمن قيل إنه ملك فيها. وعندما اجتاحت بلاد كنعان موجة من القحط والغلاء رحل إبراهيم عنها إلى مصر وأقام فيها فترة صارت له فيها ثروة كبيرة ثم غادرها وكل ما كان له عائداً إلى كنعان وأقام في حبرون (الخليل حالياً). وقد رزق إبراهيم من جاريته المصرية هاجر ابناً أسماه إسماعيل ثم ولدت له زوجته (سارة) في شيخوخته ابناً أسماه إسحاق. وقد ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى ارتباط إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل بالجزيرة العربية وذلك بذكر اسميهما مقرونين ببيت الله العتيق (مكة المكرمة). وقد جاءت المكتشفات الآثارية حول الهجرات السامية العربية إلى الهلال الخصيب مؤيدة لذلك. وهذا يدلّ على أن دور إبراهيم الخليل وابنه إسحاق وحفيده يعقوب (إسرائيل) دور مستقل لا صلة له بعصر موسى واليهود الذي يقع بعد زمن إبراهيم الخليل بسبعمائة عام. وقد توفي إبراهيم الخليل بحسب التوراة في حبرون حيث دفن هو وسارة امرأته التي توفيت قبله[1] ويرجّح أن وفاته كانت في حوالي أواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد[2].

أخلامو: الأخلامو تسمية شاملة وردت في الكتابات القديمة لجماعة من

---

(1) (تك 25: 7 ـ 10).

(2) انظر الفصل الخامس ـ عصر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ص467.

القبائل البدوية في شمال الجزيرة العربية، يرجع ذكرهم إلى زمن أخناتون بصفتهم محاربين مع المدن السورية[1]. وقد ورد ذكرهم في الكتابات الآشورية من عهد أداد نيراري الأول حوالي (1300 ق.م.) الذي أشار إلى أن والده أخضع جماعات الأخلامو في أعالي الرافدين. وفي كتابات تعود إلى العهد نفسه ما يشير إلى وجود الأخلامو في منطقة العراق ووصفوا بكونهم مصدراً للاضطرابات في تلك المنطقة، وفي العهد الأخير أصبح الأخلامو مرتبطين كلياً بالآراميين في صدّ الغزو الآشوري، ونظراً لشهرة هذه القبائل صار اسمها كثيراً ما يطلق على الآراميين بوجه عام[2]. وقد ورد اسم الأخلامو مقروناً مع اسم قبائل «العبيرو» أو «الهبيرو» أو الخبيرو[3].

الأخمينيون: قوم من بلاد فارس ظهروا على المسرح الدولي في القرن السادس قبل الميلاد بزعامة ملكهم قورش الأخميني الذي استطاع توحيد بلاد إيران وتوسيع سلطانها على جميع الأقطار الواقعة في شمال إيران. ثم جهّز قورش حملة قوية على بابل التي كانت بحوزة الكلدانيين وفتحها عام 539 ق.م.[4] وجعلها مركزاً لفتوحاته شمالاً وغرباً وفي زمن أخلافه امتد نفوذ الأخمينيين إلى آسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين ومصر. ومن أعمال قورش التي لعبت دوراً بارزاً في تطور اليهودية أنه سمح لليهود الذين كانوا في الأسر في بابل بالعودة إلى أورشليم وإعادة بناء الهيكل. وقد دام حكم الفرس الأخمينيين في العراق 208 سنوات من سنة 539 إلى سنة 331 ق.م. وكانت بلاد الشرق الأوسط في هذه الفترة مسرحاً لحروب دامية مستمرة بين الفرس الأخمينيين والإغريق انتهت باستيلاء الإسكندر المقدوني على بابل عام 331 ق.م. والقضاء على الدولة الأخمينية في العراق.

أخناتون: هو فرعون مصر الذي حكم من سنة 1375 إلى 1358 ق.م.

---

(1) انظر: «تل العمارنة»، ص808.

(2) انظر: هجرة الآراميين في الفصل الأول ص148.

(3) انظر: «مسألة العبري» و«العبيرو» في الفصل الخامس، ص486.

(4) انظر: «الكلدانيون» ص865.

كان يُعرف أيضاً باسم أمنحوتب أو أمنوفيس من الأسرة الثامنة عشرة، اشتهر في دعوته إلى دين التوحيد الخالص، وقد اضطر إلى نقل مقرّ عاصمته من طيبة إلى العمارنة بسبب ذلك، وقد سببّت هذه الثورة الدينية ارتباكاً داخل مصر وضعفاً في أجزاء الإمبراطورية المصرية، وبعد أن مات أخناتون رجعت مصر إلى ديانتها الوثنية. وقد ذهب البعض إلى أن النبي موسى وأتباعه قد أخذوا بعبادة أخناتون للإله الواحد وأن موسى نفسه مصري من أتباع هذه الديانة[1].

أدوم: لقب عيسو بن إسحاق[2]. وقد سُمِّيت المنطقة التي استوطنها نسله باسمه «أدومي» أو «أرض أدوم» وكان القسم الذي سكنه الأدوميون منها يدعى «جبل سعير»[3]، وتقع هذه المنطقة في جنوب شرقي فلسطين، وكانت «بصرة» أو «باصر» عاصمة القسم الشرقي منها و«سالع» عاصمة القسم الجنوبي. وكان لسكان هذه المنطقة قبل الأدوميين ملوك منهم ملك اسمه شاؤول[4]، وكان معهم جماعة من الحوريين في أرض سعير لهم أمراء أيضاً[5]. ثم صار للأدوميين أمراء منهم[6]. وكان الأدوميون من ألدّ أعداء الموسويين لذلك عارضوا، هم وجيرانهم الموآبيون، مرور الموسويين ببلادهم عند صعودهم من مصر، فاضطروا إلى الإقامة في «قادش برنيع» وساروا في القفر وداروا بأرض أدوم وأرض موآب[7]، ثمّ أذنوا لهم أن يمروا بتخمهم الغربي على أن يأخذوا منهم أثمان المأكول والمشروب فضة[8]. وقد استولى الموسويون في عهد الملك شاؤول (1020 ـ 1004 ق.م.) على أرض أدوم[9]. وخضعت للملك

---

(1) انظر: دعوة أخناتون في الفصل الثالث ص375 وما يليها.

(2) (تك، 36: 8).

(3) انظر: «جبل سعير» ص812.

(4) (تك، 36: 31 ـ 39).

(5) (تك، 36: 20).

(6) (تك، 36: 40 ـ 43).

(7) (قض، 11: 16 ـ 17؛ عد، 20: 16 ـ 31).

(8) (تث، 2: 28، 29).

(9) (1 صم، 14: 47).

داود بعد ذلك[1]، كما خضعت ليهوذا، ثم عصت في عهد الملك يهورام (848 ـ 841 ق.م.) واستقلّت بعد حروب شديدة[2]. وقد ورث الأدوميون القسم الشرقي من مملكة يهوذا بعد أن قضى الكلدانيون عليها، إلا أن الأنباط زاحموهم فترة من الزمن. وقد اعتبرت التوراة العماليق العرب من ذرية عيسو[3].

أرابخا: التسمية القديمة لمدينة كركوك الحالية، كانت مركزاً من مراكز الحوريين في العراق من ضمن مملكة ميتاني[4].

آرام معكة: انظر معكة[5].

آرام نهرايم: دويلة من الدويلات التي أسسها الآراميون في شمال سوريا في حوالي نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ومعناها «بلاد ما بين النهرين»، ولعل المقصود بالنهرين «نهري الفرات ورافده الخابور» أو «رافدي الفرات، الخابور والبليخ». أما كلمة «آرام» فقد وردت في التوراة مراراً مضافة إلى أسماء أماكن مثل «آرام دمشق» و«آرام صوبا» و«آرام النهرين» و«فدّان آرام» و«أرومو آرام» و«آرام بيت رحوب»، ولعل المقصد بها نسبة إلى آرام بن سام[6]. وقد ورد ذكر هذه المنطقة في المصادر المسمارية مراراً خاصة في المدوّنات التي تعود إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد باسم «نهارين» كما ورد ذكر «آرام نهرايم» في التوراة[7]. للدلالة على منطقة حرّان الحالية ولما ترجم اليونانيون التوراة إلى اليونانية أطلقوا عليها اسم «ميزوبوتامية» أي بلاد ما بين النهرين، ثم صار هذا المصطلح اليوناني يُطلق على الجزء من العراق

---

(1) (2 صم، 8: 14).
(2) (2 مل، 8: 20 ـ 22).
(3) (تك، 36: 15).
(4) انظر: الحوريون في الفصل الأول ص202، وكركوك في هذا المعجم ص864.
(5) انظر ص871.
(6) (تك، 10: 22).
(7) (تك، 24: 10؛ قض، 3: 8).

المحصور بين دجلة والفرات، وأخيراً صارت الكلمة تطلق ليس على الأقسام الشمالية من العراق فقط بل امتدّ مدلولها ليشمل كامل القطر العراقي.

الآراميون: انظر: هجرة الآراميين[1].

أربع: انظر حبرون، العناقيون[2].

أرواد: قرية فينيقية سورية صغيرة على جزيرة لا تزال تعرف باسمها الأصلي (أرواد)، تقع قرب الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وتبعد خمسة أميال إلى الجنوب من مدينة طرطوس. وقد ورد ذكر الأرواديين في التوراة حيث عدّتهم من ذرية كنعان[3].

أرومو آرام: المنطقة التي سكنتها القبائل الآرامية في جنوب بابل وأسست فيها شبه ممالك مبعثرة مستقلة عن بابل الكبرى، بدّد شملها سرجون ملك آشور وحذا حذوه ابنه الملك سنحاريب فسبى منها إلى آشور 208 ألف نفس.

أريحا: مدينة كنعانية قديمة يعدّها الخبراء أقدم مدن فلسطين حيث أرجعوا تاريخها إلى ما قبل سبعة آلاف عام وهذا ما جعل بعضهم يعتبرها أقدم مدينة في العالم ما تزال موجودة حتى اليوم. شخّص الخبراء موقع أطلالها في تل السلطان شمال المدينة الحالية. ومعنى «يريحو» في الكنعانية القمر مما يدلّ على أن عبادة القمر كانت منتشرة هناك. اتّخذها الهكسوس قاعدة لهم بين سنة 1750 و1600 ق.م. وقد ورد ذكرها في التوراة باسم «أريحا» مدينة النخل[4]. وكانت أريحا أول مدينة حاصرها الموسويون بزعامة يشوع وافتتحوها عنوة بعد عبورهم الأردن ثم أحرقت بكل ما فيها ما عدا آنية الذهب والفضة والنحاس والحديد التي نقلت إلى خزانة بيت الرب[5]. وقد أعيد بناء

(1) انظر الفصل الأول ص 148 وما يليها.
(2) انظر ص853.
(3) (تك، 10: 18).
(4) (قض، 3: 8، 2 أخ، 28: 15؛ تث، 34: 3).
(5) (يش، 6: 17 ـ 26).

المدينة في عهد آخاب بن عمري (ملك إسرائيل بعد الانقسام)[1]. وكانت أريحا في زمن الرومان محل إقامة الملوك، مات فيها هيرودس الكبير (37 ـ 4 ق.م.)، وقد وصفها ياقوت الحموي في معجمه فقال إنها ذات نخل وموز وسكر كثير وله فضل على سائر سكر الغور.

إسرائيل: هي التسمية التي أطلقت في التوراة على يعقوب، حفيد إبراهيم الخليل: «وظهر الله ليعقوب وقال له لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت»[2]، ومعنى إسرائيل عبد الإله إيل، الإله العلي العظيم، الذي دعا إبراهيم الخليل إلى عبادته عندما نادى بالتوحيد[3]. وقد ورد ذكر إسرائيل في الكتابات المصرية (عهد مرنفتاح سنة 1230 ق.م.) بصفة اسم لإحدى المدن في جنوب فلسطين، وهذا يدلّ على أن كلمة «إسرائيل» كلمة كنعانية (سامية عربية الأصل) ترجع إلى ما قبل الألف الثانية قبل الميلاد وكانت تحظى بقدسية روحانية بين سكان المنطقة، وذلك قبل ظهور موسى واليهود بعدّة قرون. وقيل إن إسرائيل حكم في دمشق كما قيل في إبراهيم الخليل من قبله. وقد أرجع كتبة التوراة أصل اليهود إلى إسرائيل وإبراهيم الخليل وتسمّوا ببني إسرائيل وذلك بغية إرجاع نسبهم إلى أقدس العروق البشرية وربط تاريخهم بعصور قديمة لم يكن لهم وجود فيها.

الإسماعيليون: هم ذرية إسماعيل بن إبراهيم من جاريته المصرية هاجر نمى نسله وكثر حتى أصبح أمّة كثيرة العدد، عملوا بالتجارة ووصفوا وعرفوا بها فكانت لهم قوافل تنقل البضائع عبر الصحاري بين كنعان ومصر، والإسماعيليون هم الذين اشتروا يوسف[4]، وكانت مساكنهم قرب برية شور

(1) (1 مل، 16: 34).
(2) (تك، 32: 28، 35: 10).
(3) انظر إيل ص794.
(4) (تك، 37: 25 ـ 27).

التي أمام مصر[1]، كما كان يسكن بعضهم مع المديانيين والعمالقة[2]. وقد ورد في القرآن الكريم ما يؤيد ارتباط بني إسماعيل بجزيرة العرب والبوادي العربية حيث جاء اسم إسماعيل مقروناً بالجزيرة العربية وبيت الله العتيق[3]. وقد ورد اسم إسماعيل بالكتابات البابلية، فقد عُثر على وثائق من «لارسا» تعود إلى عصر حمورابي (1792 ـ 1750 ق.م.) فيها اسم شخص يدعى أهوبا بن إسماعيل بصفته أحد الشهود في وثيقة تجارية. وهذا يدلّ على أن التسمية سامية عربية ترجع إلى ما قبل عصر موسى واليهود.

الأسينيون أو المغتسلون: فرقة يهودية ظهرت في فلسطين حوالي القرن الثاني قبل الميلاد وهي تختلف عن بقية الفرق اليهودية اختلافاً جوهرياً في عقائدها وتقاليدها. كانت لها صبغة اشتراكية اعتزلت المدن وأقام أفرادها قرب البحر الميت في الكهوف والمغاور واتخذوا لهم نظاماً نسكياً خاصاً شديد الدقة يقوم على الصرامة والتقشف، وأتباعها رجال لا نساء بينهم، ومن أهم مبادئهم أنهم يحرّمون نظام الرق على عكس الفرق اليهودية الأخرى التي تقوم نظمها على الرقّ. ومن خصائص نظامهم رفض تقديم الذبائح والقرابين وتحريم الملكية الفردية من أيٍّ نوع كانت ويدعون إلى التعايش السلمي بين جميع الشعوب. وكانوا يحتّمون على أنفسهم الطهارة فيغتسلون كل صباح في مياه الينابيع الصافية. وكانوا يعيشون على ما يزرعونه من الحبوب والفواكه وكانت مقتنياتهم شائعة بينهم، وكانوا يستحضرون العقاقير ويجمعون الحشائش ويشتغلون بشفاء الأمراض. لم تعمّر هذه الفرقة طويلاً إذ انقرضت في أواخر القرن الأول الميلادي وقت تدمير الرومان للقدس. وقد سُمِّي منتسبو هذ الفرقة أيضاً بالحسديين (Hasidim) بمعنى المشفقين.

أشدود: معناها حصن أو معقل، هي إحدى مدن الفلسطينيين الخمس تقع على ثلاثة أميال من ساحل البحر المتوسط بين غزة ويافا لا تزال محافظة

---

(1) (تك، 25: 18).

(2) (قض، 8: 24).

(3) انظر سورة البقرة، الآيتان 125 و127.

على اسمها القديم حيث تعرف باسم «أسدود» وتقع عندها قرية صغيرة في جوارها خرائب كثيرة سكنها أولاً العناقيون[1]، كانت مركزاً لعبادة الإله داجون[2] قبل الغزو الموسوي[3].

أشقلون: إحدى مدن الفلسطينيين الخمس وهي ميناء على ساحل البحر الأبيض المتوسط تقع على بُعد عشرة أميال إلى الشمال من غزة، تعرف اليوم باسم «عسقلان»، احتلها بنو يهوذا في عهد القضاة[4]. افتتحت في أيام عمر بن الخطاب على يد معاوية بن أبي سفيان وبقيت بيد المسلمين حتى استولى عليها الفرنج في الحروب الصليبية سنة 548هـ (1153م) ومكثت في يدهم 35 سنة واستنقذها منهم السلطان صلاح الدين، ثم خرّبها سنة 587هـ (1191م) مخافة استيلائهم عليها مرة أخرى وهي على هذا الخراب الآن وتشاهد في موضعها آثار العواميد والكتابات على الحجارة وسط أشجار كثيفة من الزيتون[5].

آشور: أولى عواصم بلاد آشور تقع أطلالها على الجانب الأيمن من نهر دجلة على بُعد حوالي تسعة كيلومترات جنوبي الشرقاط وتعرف خرائبها محلياً باسم «قلعة الشرقاط».

آشور بانيبال: سادس ملوك الإمبراطورية الآشورية الثانية (669 ـ 626 ق.م.) اشتهر بغزوه لمصر وانتصاره عليها[6].

الآشُّوريون: انظر بحث الآشوريين في الفصل الأول[7].

أشير: ابن يعقوب من زلفة جارية ليئة (ابنها الثاني)[8].

---

(1) (يش، 11: 22).

(2) (1 صم، 5: 2 و3 و4 و5).

(3) انظر: هجرة الفلسطينيين في الفصل الأول، ص209 وما يليها.

(4) (قض، 1: 18).

(5) انظر: هجرة الفلسطينيين في الفصل الأول ص209 وما يليها.

(6) انظر: الآشوريون ص189 وما يليها.

(7) انظر ص 189 وما يليها.

(8) (تك، 30: 12 ـ 13، 35 ـ 26).

أفرايم: الابن الثاني ليوسف بن يعقوب من أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون[1].

الأكديون: انظر: هجرة الأكديين إلى وادي الرافدين في الفصل الأول[2].

الأمورائيم: جمع «أمورا» أي مكلِّم أو شارح. وهي كلمة عبرية كانت تُطلق على طبقة من الأحبار اليهود (الأساتذة المحدّثين). وكان الأمورائيم يدرسون المشنة التي أعدّها «التنائيم» في طبرية (انظر التنائيم). ويعلقون عليها ويشرحون متونها شرحاً وافياً وقد جمع تلك التعليقات والشروح في مجموعة صارت تعرف «بالتلمود الأورشليمي» وكان الفراغ منه في أواخر القرن الثالث للميلاد[3]. ولما اشتدّ ضغط الرومان على الأحبار اليهود في فلسطين انتقل عدد كبير منهم إلى العراق حيث أنشأوا أربع مدارس كبرى للأمورائيم. وهنا استطاع الأمورائيم شرح المشنة شرحاً أكثر تفصيلاً وأشمل موضوعاً مما اضطلع به علماء فلسطين. فصارت مجموعة الشروح العراقية تعرف باسم «التلمود البابلي» وقد كان الانتهاء منه سنة 500م وبها انتهى دور الأمورائيم.

أميم: قبيلة من قبائل العرب البائدة جعلها بعض الإخباريين في طبقة طسم وجديس[4]، وقالوا إن أبناءها يرجعون إلى لوذ بن نوح ومنهم «وبَّار بن أميم». أما موطنهم فقد عيّنه البعض برمل «عالج» بين اليمامة والشحر وقد انهارت عليهم الرمال فأهلكتهم. وقد ورد ذكر قرى لبني وبَّار روت الكتب العربية قصصاً كثيرة عنها ووصفتها بكثرة زروعها ومراعيها ومياهها، وقد أيّد السياح ذلك إذ أثبتوا وجود آثار عمران قديم في هذه المنطقة مما يؤيد تطور جو بلاد العرب. وهناك عدة مواضع في الصحراء يطلق عليها السكان العرب اسم وبار قالوا إنها مكان وبار، المدينة المفقودة المنكوبة.

---

(1) (تك، 41: 52).

(2) انظر ص171 وما يليها.

(3) انظر بحث التلمود في الفصل الثالث ص351 وما يليها.

(4) انظر: طسم وجديس ص845.

الأنبار: مدينة عراقية قديمة تقع أطلالها اليوم على ضفة نهر الفرات اليسرى على بُعد حوالي ستة كيلو مترات إلى الجنوب من صدر جدول الصقلاوية الحالي (حوالي ثمانية كيلومترات إلى الشمال من مدينة الفلوجة) بناها سابور الثاني السَّاساني (310 ـ 381م). وقيل سابور الأول (241 ـ 272م). وكانت تدعى فيروزشاه. وجاء في «نزهة القلوب» لحمد الله المتوفى سنة 740هـ/ 1340م. «إن مؤسس الأنبار هو الملك مهراب قايانيان وقد جعلها معتقلاً لأسرى اليهود الذين سباهم بختنصر لذلك سُمِّيت الأنبار. ثم جدد بناءها سابور الثاني، وجعلها السفاح «كرسي مملكته» وقد أطلق أميان مرقلان على المدينة اسم بيريسابوراس وذلك عند وصفه حملة جوليان (363م). كما أنه وصف سورها المزدوج المنيع. هذا وقد كان للأنبار مكانتها في زمن العرب إذ اتّخذها الخليفة العباسي الأول أبو عبد الله السفاح (132هـ/ 750م). عاصمة مملكته وقد توفي في القصر الذي شيّده فيها. وقد ذكر ياقوت أن أبا جعفر المنصور (136هـ/ 754م) أخو السفاح سكنها أيضاً ردحاً من الزمن ثم انتقل منها إلى العاصمة الجديدة بغداد. وهذا مما يثبت أن المدينة تسبق عهد سابور.

الأنباط: **انظر**: «الهجرات السامية العربية المتأخرة» في الفصل الأول[1].

أنطاكية: هي المدينة التي أسسها الملك سلوقس الأول حوالي سنة 300 قبل الميلاد في شمال سوريا وقد اتّخذها عاصمة له ومركزاً رئيسياً في آسيا الصغرى لنشر الثقافة الإغريقية، ومن ثم صارت من أهم المراكز التجارية في العالم لمركزها عند ملتقى الطرق الممتدة من الفرات إلى البحر المتوسط ومن البقاع إلى آسيا الصغرى. تقع اليوم في الجمهورية التركية على الضفة اليسرى لنهر العاصي عند سفح جبل سيلبيوس على بُعد حوالي عشرين ميلاً عن ساحل البحر. وفي زمن سلوقس الثاني (246 ـ 226 ق.م.) استولى عليها

---

(1) انظر ص216 وما يليها.

بطليموس الأول حوالي سنة 245 ق.م. واستعادها أنطيوخس الثالث سنة 219 ق.م.، أصبحت بعد انتشار المسيحية مقراً لبطريركية، احتلها الفرس سنة 538م. وفتحها العرب سنة 637م، ثم استولى عليها الصليبيون سنة 1018م، وانتقلت بعد ذلك إلى المماليك المصريين سنة 1268م، وإلى العثمانيين 1516م انتقلت إلى سوريا سنة 1920 لكنها أعطيت لتركيا ضمن سنجق الإسكندرون سنة 1939م، وما زالت آثارها تشغل قسماً من المدينة الحالية وقلعتها باقية أيضاً.

أورشليم: انظر: الملحق الأول من هذا الكتاب[1].

أورفة: مدينة واقعة شرقي نهر الفرات داخل الحدود التركية على بُعد 20 ميلاً إلى الشمال من حاران (حرّان) والتقليد القديم الشائع عند بعض الطوائف هو أن إبراهيم الخليل سكن فيها ويستشهدون بالمغارة عند سفح الجبل إلى الجنوب الشرقي من المدينة حيث ولد إبراهيم عليه السلام، على ما يزعمون، وهناك بركة يقال لها بركة إبراهيم الخليل يقص الأهلون أن إبراهيم الخليل لما غزته عساكر نمرود للاستيلاء على قطعانه تغلب عليه اليأس فتضرع إلى الله يطلب منه العون فانقلبت أسماك البركة إلى جنود مدججة بالسلاح لم يسع جيوش نمرود إلا أن تلوذ بالفرار أمامها بعد أن أخذ الهلع والرعب منها مأخذاً، ثم عادت هذه الجيوش إلى البركة إلى هيئتها السمكية الأصلية.

ولعلّ تسمية المدينة باسم «أورفة» مشتقّة من مدينة أور فاقترنت باسم إبراهيم الخليل وباسم مدينة أور التي نزح منها. وصارت أورفة تُعرف في عهد الإغريق باسم «أيديسا» فاشتهرت في كونها عاصمة أول مملكة مسيحية من عهد المسيح عليه السلام حيث جرى تبادل مراسلات بينه وبين ملك المدينة (أبكارس)[2].

أوغاريت: انظر: تل رأس الشمرا.

أيتوع: قبيلة آرامية انتشر أبناؤها في وادي ديالى الأسفل ثم امتدّوا حتى

---

(1) انظر ص709.

(2) انظر: الرها ص829.

سواحل الزاب الأصغر شهر عليهم الآشوريون حملة عنيفة وأقصوهم عن ديارهم وأبعدوهم إلى أقصى الجنوب وفرضوا عليهم الطاعة والجزية.

إيثام: محلة نزل عندها الموسويون بعد خروجهم من مصر، تقع على ساحل خليج السويس الغربي بجانب البرية، ولما كانت برية شور التي على الجانب الشرقي من الخليج متّصلة ببرية إيثام ولا يفصل بينهما غير الخليج فقد سُمِّيت برية شور باسم برية إيثام أيضاً[1].

إيديسا: انظر أورفة، الرها.

إيل: هو اسم الإلٰه الواحد الذي دعا إبراهيم الخليل لعبادته وقد ورد باسم «إيل» في الكتابات القديمة فيما قبل عصر موسى واليهود، وهو مفرد لكلمة «إيلوهيم» الكنعانية المراد بها الجمع والتعداد، فقد ورد هذا المصطلح في النصوص الكنعانية والآرامية للدلالة على الإلٰه الواحد، الإلٰه العلي العظيم، ثم ورد في النصوص المصرية التي ترجع إلى عهد الهكسوس (1785 ـ 1580 ق.م.) فقيل «يعقوب ـ إيل» و«يوسف ـ إيل» أي ليحم الإلٰه «إيل» يعقوب ويوسف. وقد ورد هذا المصطلح نفسه في التوراة ومنه جاءت تسمية «بيت إيل»[2]. وسمته «إيل إلٰه إسرائيل»[3]. كل ذلك يدلّ على أن «إيل» كلمة كنعانية سامية قديمة وأن الكنعانيين كانوا يتقبلون فكرة التوحيد منذ عهد إبراهيم الخليل (القرن التاسع عشر قبل الميلاد) أي قبل ظهور النبي موسى بزهاء سبعمائة عام. ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن طريقة أقران أسماء الأشخاص بالإله «إيل» ما تزال مستعملة حتى يومنا هذا مثل جبرائيل وميخائيل إلخ.. ولعلّ كلمة خليل أصلها «خل ـ إيل» أي صديق الإلٰه إيل. والأرجح أن معنى إسماعيل «**ليسمع الإلٰه إيل**».

أيلة وإيلا: ميناء في رأس خليج العقبة كانت فرضة الأدوميين الرئيسة

(1) (خر، 13: 20؛ عد، 32: 6 ـ 8). انظر شور ص841.
(2) (تك، 12: 8، 35: 7).
(3) (تك، 33: 20).

على رأس الخليج الشرقي من البحر الأحمر، تقع على مقربة منها ومتّصلة بها ميناء «عصيون جابر»[1]، وقعت في أيدي الموسويين في زمن الملك داود (1004 ـ 910 ق.م.)[2]، استرجعها الأدوميون في زمن يهورام ملك يهوذا (848 ـ 841 ق.م.)[3]، ثم أخذها منهم عزيا ملك يهوذا حتى احتلها رصين ملك آرام في زمن أحاز ملك يهوذا (735 ـ 715 ق.م.) وبقي الآراميون فيها[4].

إيليم: ثاني محطة نزل الموسويون عندها بعد عبورهم البحر الأحمر في طريقهم من مصر إلى فلسطين كانت فيها اثنتا عشرة عيناً وسبعون نخلة[5].

بابيلو (بابل): هي مدينة بابل الشهيرة ورد ذكرها في التوراة تقع أطلالها على مسافة خمسة كيلومترات شمال مدينة الحلة، كانت عاصمة الإمبراطورية البابلية القديمة التي اشتهر بها الملك حمورابي (1972 ـ 1750 ق.م.) ثم فقدت مكانتها السياسية بعد استيلاء الحثيين على بلاد بابل فخرّبوها وكان ذلك سنة 1595 ق.م. ثم استعادت بابل مكانتها في عهد السلالة الباشية (السلالة البابلية الرابعة) التي طردت العيلاميين ووحدت أكثر المدن تحت إمرتها، اشتهر من ملوكها نبوخذ نصر الأول (1124 ـ 1103 ق.م.)، اضمحلت في العهد الآشوري إلا أنها عادت للمرة الثالثة فتبوأت مكانتها بعد تأسيس الدولة الكلدانية سنة 626 ق.م. فعظم شأنها في هذه الفترة حتى سقطت بيد قورش الفارسي سنة 539 ق.م. فبقيت في العهد الفارسي محطاً كبيراً للتجارة حتى ظهر الإسكندر من المغرب وقهر دارا ملك الفرس في واقعة أربيل سنة 321 ق.م. وبعد وفاة الإسكندر سنة 323 ق.م. اضمحلت بابل نهائياً عندما شيّد سلوقس عاصمته الجديدة فحلت سلوقية محل بابل. ومن أهم آثار بابل باب

---

(1) (تث، 2: 8، 2 أخ، 8: 17).
(2) (2 صم، 8: 14؛ 1 أخ، 18: 13).
(3) (2 مل، 8: 20).
(4) (2 مل، 160: 6). انظر: عصيون جابر ص850.
(5) (خر، 15: 27).

عشتار ونقوشه، وبرج بابل الشهير ذي الطبقات السبع وأسد بابل الذي وجد في القصر الرئيس لنبوخذ نصّر الثاني والجنائن المعلّقة والطريق المقدسة المؤدية إلى هيكل الإله مردوخ المسمى «أي ساجيلا» أهم هياكل بابل.

باشان: مقاطعة في أرض كنعان واقعة في شرقي الأردن بين جبلي حرمون وجلعاد[1]، يحدّها شمالاً أرض دمشق وشرقاً بادية سوريا وجنوباً جلعاد وغرباً غور الأردن. كان سكان باشان الرفائيون[2] طردهم موسى عند احتلال الموسويين لبلادهم، وكان يسكن معهم أيضاً الجشوريون والمعكيون فلم يطردوا بل سكنوا في وسط إسرائيل على قول التوراة[3].

باغوز: انظر: تل باغوز[4].

بالميرا: انظر تدمر[5].

بئر سبع: بئر قديمة تقع على بُعد حوالي 20 ميلاً إلى الجنوب الشرقي من غزة ترجع إلى عهد إبراهيم الخليل حيث تشير التوراة إلى أن إبراهيم هو الذي حفرها وأعطى سبع نعاج إلى الأمير هناك شهادة على حفره إياها[6]. ومن هنا سُمِّيت بئر سبع وغرس إبراهيم أثلاً فيها[7]. وكذلك حفر إسحاق بن إبراهيم بئراً عند بئر سبع أيضاً[8]. ثم أطلق على المدينة اسم بئر سبع[9].

بئر لحي رئي: عين ماء بين قادش برنيع وبارد قرب برية شور حيث ظهر

---

(1) (عد، 21: 37؛ مز، 68: 15).

(2) انظر: الرفائيون ص829.

(3) (يش 13: 12 ـ 13).

(4) انظر ص807.

(5) انظر ص806.

(6) (تك، 21: 28 ـ 31).

(7) (تك، 21: 23).

(8) (تك، 26: 25 و23).

(9) (تك، 26: 23).

ملاك الرب لهاجر عندما كانت هاربة من وجه مولاتها ساراي[1]، وسكن إسحاق عند بئر لحي رئي[2].

البتراء: مدينة قديمة في شرق الأردن تقع جنوب غربي وادي موسى، كانت عاصمة الأدوميين والنبط ومركزاً هاماً لتجارة القوافل بلغت أوج ازدهارها في القرن الرابع قبل الميلاد، دمرت في أواخر العصر الروماني، فتحها المسلمون في القرن السابع واستولى عليها الصليبيون في القرن الثاني عشر. والبتراء Petra كلمة يونانية معناها «صخرة» وبالعربية «الرقيم» أما اسمها الحديث فوادي موسى، وتقع المدينة القديمة على ارتفاع حوالي ثلاثة آلاف قدم فوق سطح البحر.

بيبلوس: **انظر**: جبيل[3].

بحر الجليل: هو بحيرة طبرية الحالية، يقع على بُعد 60 ميلاً شمالي أورشليم و27 ميلاً شرقي البحر المتوسط، طوله 12 ميلاً ويتراوح عرضه بين 4 و7 أميال، عمقه نحو 160 قدماً، قعره أوطأ من مستوى سطح البحر المتوسط بـ 682 قدماً. تقع على شاطئه الغربي مدينة طبرية على بُعد أربعة أميال من طرفه الجنوبي لذلك سُمِّي «بحر طبرية»[4]. وقد سمته التوراة «بحر كنروت» و«بحر كنارة»[5].

البحر السدومي: انظر: البحر الميت[6].

بحر الملح: انظر: البحر الميت[7].

البحر الميت: هو البحر المستطيل الممتد من الشمال إلى الجنوب على

---

(1) (تك، 16: 7 ـ 14).

(2) (تك، 24: 62، 25: 11). انظر: شور ص841.

(3) انظر ص813.

(4) (يو، 6: 1، 21: 1).

(5) (يش، 12: 3؛ عد، 34: 11؛ تث، 3: 17).

(6) انظر السطر الأخير من هذه الصفحة.

(7) انظر السطر الأخير من هذه الصفحة.

الطرف الشرقي من جنوبي فلسطين وقد ورد ذكره بعدّة أسماء في العهد القديم، ومن هذه الأسماء بحر الملح والبحر الشرقي والبحر السدوسي. ويُسمَّى الآن بحر لوط مساحته 300 ميلاً مربعاً معدّل سطحه تحت سطح البحر المتوسط 1293 قدماً معدل عمقه 1080 قدماً ولا يعيش فيه شيء من النبات أو الحيوان، مقدار الجامدة فيه نحو 8 أضعاف ما في ماء البحر.

بحيرة طبرية: انظر بحر الجليل.

البربر: هم من الأقوام القديمة التي سكنت فلسطين ثم أخرجوا منها فاستوطنوا أراضي شمال أفريقيا[1].

برحوشا (بيروسوس): كاهن معبد مردوخ في بابل عاش في العهد السلوقي (221 ـ 116 ق.م.) ويرجّح أنه عاش في عهد أنطيوخس الأول (280 ـ 261 ق.م.) أو فيما بعد ذلك بقليل. وضع كتاباً باللغة الإغريقية عن تاريخ بلاد بابل في حدود سنة 275 ق.م. في ثلاثة مجلدات اشتملت على جميع ما كان معروفاً عن تاريخ بلاده ومعتقداتها وسلالات ملوكها مستقياً ذلك من الوثائق والكتابات البابلية التي كانت معروفة في زمانه، إلا أن الكتاب الأصلي فقد وأن ما سلم منه ينطوي على مقتبسات من كتابه الأصلي نقلها من جاء بعده من الكتّاب اليونانيين.

البرس: اسم مدينة بابلية قديمة تُعرف أطلالها وبقايا برجها الشاهق باسم «برس نمرود» أو «برس» وهو الاسم المحرّف على ما يعتقد عن الاسم البابلي القديم «بورسبا» أو «بارسبا». وجاءت في التلمود بصورة برسي وبرسيب وقد انتقلت هذه اللفظة إلى الجغرافيين العرب وذكرها ياقوت في معجمه مادة «برس». تقع خرائب المدينة على نحو 9 ـ 10 أميال جنوب مدينة الحلة، كانت تجاور بابل بل كانت من ضواحيها وقد سُمِّيت في المصادر القديمة باسم «بابل الثانية». أما اسم «بورسبا» بالسومرية فيرجّح أن معناه قرن البحر أو سيف البحر مما يدلّ على أن المدينة كانت تقع في العصور القديمة

---

(1) انظر: المسعودي في «مروج الذهب».

قرب منطقة الأهوار. اشتهرت المدينة في كونها مركزاً لعبادة الإله البابلي «نبو» الذي عبده العراقيون القدماء وعدوّه إله الحكمة والمعرفة وجعلوه ابن مردوخ إله بابل الشهير وسمي معبده في «بورسيبا» بالاسم السومري «أي زيدا» أي البيت المكين. وقد ذكر ابن بطوطة أن مولد إبراهيم الخليلﷺ كان في البرس. وقد ورد ذكر محاولة النمرود حرق إبراهيم هناك. ومن الجهة الشمالية الشرقية من البرج تل مرتفع يقوم عليه مزار حديث يعزى إلى كونه مقام إبراهيم الخليل أو قبره. وقد بلغ معظم ازدهار المدينة في عهد المملكة البابلية المتأخرة المعروفة بالسلالة الكلدانية لا سيما في عهد الملك الكلداني نبوبولاسر وخاصة في عهد ابنه نبوخذ نصر واستمرّت المدينة في العهود التالية: العهد البابلي الأخير والعهد الفارسي الأخميني والعهد السلوقي والعهد الفارسي الفرثي في العراق والعهد الساساني. وقد ذكرت في أخبار الفتوح العربية الإسلامية للعراق وظلّت مأهولة أيضاً في العهد الإسلامي.

بصري: مدينتان قديمتان بهذا الاسم في فلسطين. تقع الأولى في تخوم أدوم الشرقية[1] وتقع مكانها بصيرا الحديثة على بُعد نحو 20 ميلاً إلى الجنوب الشرقي من البحر الميت والثانية في مقاطعة موآب[2]. وهاتان المدينتان هما غير بصرى الحالية المعروفة ببصرى الشام والتي تقع جنوب مدينة دمشق على التخم الجنوبي لمنطقة حوران[3].

البطالمة: هم حكام مصر أخلاف الإسكندر دام حكمهم حوالي 300 عام بين سنة 323 و30 ق.م. كان أولهم (بطليموس الأول) والياً على مصر وعقب وفاة الإسكندر سنة 323 ق.م. استقل بمصر واتّخذ لقب ملك سنة 305 ق.م. أنشأ جامعة الإسكندرية ومكتبتها الشهيرة كما أنشأ مدينة بطوليميس في الوجه القبلي لتكون مركزاً للحضارة الإغريقية هناك، جعل عبادة الإسكندر ديناً رسمياً لإغريق مصر وهي العبادة التي تطوّرت إلى عبادة البطالمة

---

(1) (اش، 34: 6، 63: 1).

(2) (أر، 48: 24).

(3) انظر: حوران ص824.

ازدهرت في عهد أخلافه التجارة الشرقية وأنشئت علاقات وثيقة مع روما وصقلية وقرطاجة. وكان البطالمة قد اشتبكوا في صراع متواصل مع خلفاء الإسكندر حكّام الأقاليم المجاورة وخاصة السلوقيين في سوريا. ففي عهد بطليموس الرابع (221 ـ 203 ق.م.) حمل أنطيوخوس الثالث (الأكبر) على الإمبراطورية المصرية إلّا أنه هزم في موقعة رفح 217 ق.م.، ثم أعقبه أنطيوخوس الرابع فغزا مصر سنة 170 ق.م. وأعاد الكرة فغزاها سنة 168 ق.م.، ولم ينقذ مصر من استيلاء السلوقيين عليها إلّا تدخل روما التي أرغمته على الانسحاب. وهكذا ثبت نفوذ روما في مصر حيث أصبح ملوكها مدينين بعرشهم لها. وقد أوهنت الأطماع العائلية والتزاحم على الحكم دولة البطالمة حتى أصبحت شبه محمية للإمبراطورية الرومانية. وكان آخر حدث على مسرح السياسية المصرية علاقة أنطونيوس بكليوبترا وإعلان أوكتافيان (أغسطس) الحرب عليهما سنة 31 ق.م. حيث هزمهما في موقعة أكتيوم مما أفضى إلى ضمّ مصر إلى الإمبراطورية الرومانية في السنة التالية[1].

البعل وجمعه البعليم: أحد الأصنام التي كانت عبادتها شائعة بين أهل المشرق في الزمن القديم، فقد عبده الفينيقيون والكنعانيون ومن جاورهم من السكان وكان يمثّل عندهم إله الشمس وإله الزوابع والبروق وعشتروت إلهة القمر حتى أنهم كانوا يضحون الذبائح البشرية على مذابحهما[2]. فكانوا يختارون المحلات المرتفعة ويبنون هياكلهم عليها ويكرّسونها للبعل[3]، وقد ذكرت التوراة أن اليهود كانوا بين حين وآخر يعبدون البعليم تاركين الرب[4].

بعلبك: قرية لبنانية تقع في سهل البقاع على بُعد 42 ميلاً إلى الشمال الغربي من دمشق، سمّاها اليونانيون هليوبوليس أي مدينة الشمس، اشتهرت

---

(1) انظر السلوقيين ص835.

(2) (أر، 19: 5).

(3) (1 مل، 18: 17 ـ 40؛ يش، 22: 10 ـ 34؛عد، 25: 3 ـ 9؛ مز، 106: 28؛ تث 4: 3).

(4) (2 أخ، 28: 2 ـ 3؛ قض، 2: 11 ـ 13).

بعظمة أبنيتها الرومانية منها هيكل الشمس، الذي بناه الإمبراطور الروماني أنطونينس بيوس سنة 150 ب.م. ويعتقد الباحثون أن بلدة بعلبك هي قرية «بعل جاد» التي ورد ذكرها في التوراة وقد وصفت أنها تقع في بقعة لبنان تحت جبل حرمون[1].

بعل جاد: انظر بعلبك.

بعل صفون: موضع قرب رأس خليج السويس على الشاطىء الغربي منه عبر الموسويون عنده البحر الأحمر[2].

بلاد العرب: وتشتمل على شبه جزيرة العرب التي تعتبر أوسع شبه جزيرة في العالم تحيط بها البحار من أطرافها الثلاثة. قديماً قسمها بطليموس القلوذي إلى ثلاثة أقسام من الوجهة الجغرافية هي: العربية الصحراوية (Arabia Deserta) والعربية الحجرية (Arabia Petra) والعربية السعيدة (Arabia Felix) ويُراد بالأولى القسم الشمالي من بلاد العرب، وبالثانية شبه جزيرة سيناء وبالثالثة الحجاز ونجد واليمن وما جاورها. أما العرب فقسموا بلادهم إلى خمسة أقسام هي: الحجاز، وتهامة، ونجد واليمن، والعروض (وهي اليمامة والبحرين وعمان).

بلعام: اسم مكان في فلسطين ورد ذكره في التوراة يقع بجوار مجدو[3]، وسمي أيضاً «يبلعام»[4]، و«جت رمون»[5]، عين بعض الباحثين موقعه في مرج ابن عمير وراء جنين في السهل في خربة بلعمة[6].

وبلعام اسم نبي موحّد كانت له مكانة روحانية كبيرة في أرض كنعان[7]، وهذا ما يدلّ على أن الكنعانيين كانوا يؤمنون بالتوحيد.

---

(1) (يش، 11: 17، 12: 7، 13: 5).

(2) (خر، 14: 2).

(3) انظر «مجدو» ص869، (1 أخ، 6: 70).

(4) (يش، 17: 11).

(5) (يش، 21: 24 ـ 25).

(6) **قاموس الكتاب المقدس** 1: 247.

(7) الإصحاح 22 من سفر العدد.

بنيامين: ابن يعقوب من امرأته راحيل، ابنها الثاني، وكان أصغر إخوته[1].

بورسيبا: انظر البرس[2].

بوغازكوي: انظر حاتوشاش[3].

بيت إيل: مدينة كنعانية كانت قديماً محل إقامة ملوك الكنعانين، كانت تدعى بالأصل «لوز» ثم سُمِّيت «بيت إيل»، أي بيت الله، تقع اليوم عند قرية بيتين على تل يبعد حوالي عشرة أميال إلى الشمال من أورشليم. مرّ بالقرب منها إبراهيم الخليل ونصب خيمته شرقي المدينة[4]، ثم لما سافر يعقوب إلى حرّان (فدان آرام). هارباً من وجه أخيه[5] بات في مكان قرب مدينة «لوز» فدعا اسم المدينة حينئذ «بيت إيل» وفي بيت إيل أقام يربعام الأول أول ملك على إسرائيل بعد الانقسام (930 ـ 909 ق.م.) أحد العجلين الذهبيين اللذين صنعهما[6].

بيت بخياني: دويلة آرامية مركزها «جوزان» (تل حلف) نفي إليها اليهود في زمن الآشوريين، وقد أصبحت هذه المنطقة قسماً من الولاية الآشورية المسماة «جوزانا»[7].

بيت شان: مدينة كنعانية معناها بيت الإلٰه شئان، تعرف اليوم باسم بيسان، تقع على بُعد خمسة أميال إلى الجهة الغربية من نهر الأردن إلى الشمال الشرقي من بلدة السامرة، أصبحت بعد سبي اليهود رئيسة المدن

---

(1) (تك، 25: 16 ـ 19 و24).

(2) انظر ص798.

(3) انظر ص817.

(4) (تك، 12: 8، 13: 3).

(5) (تك، 28: 19، 35: 1).

(6) (1 مل، 12: 28 ـ 33). انظر إيل ص794.

(7) (2 مل، 17: 6، 18: 11؛ اش 37: 12). انظر تل حلف، جوزان ص807.

الفلسطينية، فيها من بقايا الآثار ما يدلّ على عظمتها الأصلية، وقد سمّاها النبي هوشع «بيت اون» أي مدينة الأصنام[1].

بيت شمس: مدينة كنعانية قديمة احتلها الهكسوس وبقيت تحت إدارتهم طيلة مدة سيطرتهم في هذه المنطقة (1750 ـ 1660 ق.م.)، تقع في تخم أرض يهوذا الشمالي وكانت تخص بني هارون[2]. اشتهرت برجوع تابوت العهد إليها بعد أن طال مقامه عدّة أشهر بين الفلسطينيين[3]. وقد شخص موقع أطلال المدينة في «تل الرميلة» الواقع على بُعد 20 ميلاً غربي أورشليم على طريق يافا ـ حبرون قرب عين شمس. وهناك مدينة أخرى باسم بيت شمس ورد ذكرها في التوراة ووصفت أنها في أرض نبفتالي في شمال فلسطين[4].

بيت عديني: مملكة آرامية في جنوبي العراق كانت تنعم بالثروة والرفاه، وهو نفس اسم مملكة آرامية في أعلى ما بين النهرين تقع على جانبي الفرات في موقع انحراف الفرات غرباً بعد أن يقطع جبال طوروس. وقد ورد ذكرها في التوراة باسم بيت عدن وعدن[5].

بيت فالط: مدينة في جنوب كنعان كانت تقع شمال غربي بئر سبع وقد شخص موقع بقاياها في التل المسمى «تل فرغة» في وادي غزة[6].

بيت لحم (بيت الخبز): قرية صغيرة مبنية على أكمة تبعد ستة أميال إلى الجنوب من أورشليم يرجع تأسيسها إلى عصور ما قبل عصر اليهود دفنت فيها راحيل زوجة يعقوب[7] وهي مسقط رأس داود[8]. وقد أخذها الفلسطينيون في

---

(1) (هو، 10: 5 و8).
(2) (يش، 15: 10، 21: 16).
(3) (1 صم، 6: 9 ـ 20).
(4) (يش، 19: 38).
(5) (عاموس 10: 5، 2 مل، 19: 12، أشعيا، 37: 12، مز، 27: 23).
(6) (يش، 15: 37، نح 11: 26).
(7) (تك، 35: 19 ـ 20).
(8) (1 صم، 17: 12).

عهد الملك داود[1]. ثم حصنها رحبعام ملك يهوذا (931 ـ 913 ق.م.)[2] ولد فيها المسيح وفيها أقدم كنيسة مسيحية في العالم وهي مشتركة الآن بين الروم واللاتين والأرمن وبجانبها أديرة لهذه الطوائف.

بيت ياكيني: مملكة سامية أسسها الآراميون الذين نزحوا من أعالي الفرات واستقرّوا في جنوبي العراق وامتدّت مستوطناتهم إلى ساحل الخليج العربي، وقد عرفت سلالة ملوكهم بسلالة القطر البحري (أمراء الخليج). وقد لعب أحد ملوكهم المسمى (مردوخ بلادان) دوراً هاماً في المعارك التي خاضعها مع الآشوريين في بداية عهد سرجون الثاني (722 ـ 705 ق.م.) فاستولى على بابل ونصب نفسه ملكاً عليها ٍحكم فيها أكثر من عشر سنوات ثم عاد سرجون فأخضع بابل وهزم مردوخ. وفي عهد سنحاريب عاد مردوخ فثار على الآشوريين فجهز سنحاريب عام 702 ق.م. حملة ضده دحره فيها وطرده من بابل.

وقد وجّه أسرحدون بعد حملة قوية ضده في المنطقة الجنوبية فهرب إلى عيلام وقتل هناك، وعين أسرحدون أميراً جديداً هو ابن مردوخ بلادان الثاني وهكذا استتب الأمن له في الجنوب[3].

بيروت: مدينة فينيقية قديمة وميناء هام على ساحل البحر الأبيض المتوسط، كانت مركزاً هاماً للتجارة الفينيقية ازدهرت إبان حكم السلوقيين والرومان والبيزنطيين، ورد ذكرها لأول مرة في كتابات العمارنة باسم (بيروتا) وكذلك في جدول أسماء المدن التي أوردها ملك مصر تحوطمس الثالث (1503 ـ 1449 ق.م.) وفي هذه الكتابات ذكر لأحد ملوك هذه المدينة يدعى (أمونيرا) كان من الموالين لمصر. وقد ورد في التوراة ذكر مدينة باسم «بيرثاي»[4]

(1) (2 صم، 23: 14: 6).
(2) (2 أخ، 11: 6).
(3) انظر مردوخ بلادان ص871.
(4) (2 صم، 8: 8).

وبيروثة[1] إلا أن سياق الكلام لا يدلّ على أن المقصود بهما هو مدينة بيروت نفسها. ومما ذكره سترابون أن تريفون استولى على المدينة سنة 140 ق.م. في حربه مع دمتريوس الثاني، وقد ورد في أخبار أغسطس أن قائده ماركوس أغريبا استولى على المدينة سنة 15 ق.م. وأسّس مستعمرة رومانية فيها. دخلت المدينة تحت الحكم العربي سنة 635م. ثم سقطت في يد الصليبيين سنة 1110م. وأصبحت جزءاً من مملكة بيت المقدس اللاتينية حتى سنة 1291م.

بالميرا: انظر تدمر[2].

بيلو: Bilu تتألف كلمة «بيلو» من الأحرف الأولى من كلمات العدد الخامس من الإصحاح الثاني من سفر أشعيا الذي ترجمته: «يا بيت يعقوب هلم نسلك في نور الرب». وهي الاسم الذي أُطلق على جماعة من يهود خاركوف في روسيا ينتمون إلى منظمة «عشاق صهيون». وقد أصدرت هذه الجماعة بياناً سنة 1882م إثر المذابح التي مارسها الحكم القيصري ضد اليهود في روسيا سنة 1881م. (اليوكروم) دعت فيه إلى العودة إلى فلسطين وطالبت، حسب زعمها، «بالرجوع إلى بلدها التي منحها الرب لها كما أثبتت ذلك الوثائق التاريخية».

تابوت العهد أو تابوت الشهادة: هو الرمز اليهودي لإلٰهِهم، يتألف بحسب المآثر الإسرائيلية من خزانة من الخشب مكسوّة بالذهب أودع فيها لوحان حجريان (لوحا الشهادة) نقشت عليهما الشريعة وأشياء دينية أخرى، وصارت هذه الخزانة تشغل أقدس جزء من طقوسهم الدينية ووجودها بين ظهرانيهم يكفل النصر لهم، لذلك كانوا يحملونها معهم في رحيلهم وفي معاركهم على أعمدة طويلة والتابوت كما وصفته التوراة مصنوع من خشب السنط طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف مغشى بذهب نقي من داخل ومن خارج ومصنوع له إكليل من ذهب حواليه، سبكت له أربع حلقات من

---

(1) (حز، 47: 16).

(2) انظر ص 806.

ذهب على أربع قوائمه وصنع للتابوت غطاء من ذهب نقي أيضاً[1]. وقد استولى الفلسطينيون على تابوت العهد في معركتهم الأولى مع الموسويين وانتصارهم عليهم ثم ردوه إلى الملك داود ووضعه سليمان في الهيكل ولم يُعرف مصيره بعد ذلك.

تدمر: مدينة عربية قديمة اسمها اللاتيني (بالميرا) تقع في واحة وسط الصحراء السورية الشمالية شمال شرقي دمشق على بُعد 150 ميلاً منها على الطريق بين وادي الفرات وساحل البحر المتوسط في لبنان وفلسطين، وبفضل موقعها هذا أصبحت مركزاً هاماً على طريق المواصلات التجارية بين الشرق والغرب أشبه بمرفأ في بحر الصحراء ترسو في ساحله تجارة الأمم. ورد ذكرها في الكتابات القديمة التي ترجع إلى عهد الملك الآشوري بيلسير الأول (1115 ـ 1077 ق.م.) باسم «تدمر العموريين» كما ورد ذكرها في أخبار حملات نبوخذ نصّر الثاني (605 ـ 562 ق.م.) على فلسطين ومصر، كما ورد ذكرها في التوراة مقروناً بالملك سليمان[2]. وكانت اللغة الآرامية لغة الدولة الرسمية وقد اختصّت بقلم آرامي خاص بها سُمِّي القلم التدمري. بلغت تدمر أوج ازدهارها في عهد الملكة زنوبيا حيث بسطت هذه المملكة نفوذها على أكثر آسيا الصغرى، إلا أن نفوذها هذا لم يدم طويلاً حيث استولى أورليانوس الروماني سنة 274م على المدينة فقتل الكثير من أهلها وخربها وأخذ زنوبيا أسيرة إلى روما. احتلها خالد بن الوليد في طريقه من العراق إلى الشام[3].

الترجوم: هو كتاب العهد القديم المترجم من اللغة العبرية إلى اللغة الآرامية، وقد وضعت هذه الترجمات في الفترة الواقعة بين أوائل القرن الثاني وأواخر القرن الخامس بعد الميلاد.

تل أبيب: تسمية بابلية قديمة لموقع في جنوب العراق كان يُعرف بهذا

---

(1) (خر 37: 1 ـ 9، 25: 10 ـ 21؛ عد، 10: 23 ـ 26؛ تث 10: 1 ـ 15؛ يش 3: 6)، انظر: لوحا الشهادة ص867.

(2) (2 أخ، 8: 4).

(3) (ياقوت 1: 831).

الاسم في القرن الخامس قبل الميلاد ومعناها «تل أو كومة سنابل القمح»، كان قد استقرّ فيه إبان العهد الأخميني عدد من اليهود من بقايا الأسر البابلي. وكان من بين من سكنه حزقيال النبي مع بقايا يهود السبي والمعتقد أنه موقع تل أبان الحديثة نفسه. وقد ورد اسم تل أبيب في التوراة باعتباره يقع على نهر الخابور. وهذا الخابور هو غير نهر الخابور في الفرات الأعلى وغير نهر الخابور الذي على الدجلة[1]. ويرى بعض الباحثين أن هذا الخابور هو فرع من شط النيل القديم يمتد بين الفرات والدجلة حتى شط الغراف الحالي[2].

تل باغوز: تل أثري في سوريا يقع جنوب شرقي أطلال مدينة «ماري» (تل الحريري) على الجانب الأيسر من نهر الفرات يرجع تاريخه إلى الفترة الممتدة من 500 إلى 4800 قبل الميلاد. ومن المرجّح أن هذا التل يمثّل بقايا إحدى المستوطنات القديمة التي أقامها الساميون على ضفاف الفرات على أثر نزوحهم من الجزيرة العربية نتيجة جدبها[3].

تل الحريري: انظر ماري.

تل حلف (كوزان أو جوزان القديمة): تل أثري يقع في شمال سوريا على بُعد خمسة كيلومترات جنوب غربي رأس العين قرب منبع الخابور (خابور الفرات) يرجع تاريخ آثاره إلى الحقبة الممتدة من حوالي سنة 4800 إلى سنة 4200 ق.م.، وقد امتازت آثار هذا التل بفخارها الرقيق المصبوغ بعدّة ألوان وهو ذو برقشة هندسية رائعة وقد وجد فخار مماثل له في «الأربجية» وفي «تبة كورا» من لواء الموصل. والأرجح أن منطقة (خابور نهر جوزان) التي نقل إليها قسم من اليهود في زمن تغلات فلاسر الثالث وشلمنصر الخامس[4]، هي منطقة كوزان القديمة نفسها[5].

---

(1) (حز، 3: 15).

(2) انظر: A.T. Clay, «**Light on the Old Testament**», Philadelphia, 1907, pp. 408 - 410.

(3) انظر ماري ص868.

(4) (2 مل، 17: 6).

(5) انظر: خابور نهر جوزان ص824.

وتمثّل آثار تل حلف عصراً من العصور الثقافية التاريخية يتمّيز بها وقد سماه علماء الآثار عصر حلف وهو أول أدوار العصر الحجري المعدني لتمييزه عن بقية الأدوار التاريخية. وقد أصبحت منطقة تل حلف في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد من ضمن دولة ميتاني الحورية، ثم اتّخذ الآراميون من موضع هذا التل عاصمة لإحدى ممالكهم المسماة «بيت بحياني» في القرن العاشر قبل الميلاد وقد كشف عن آثار العمارة الآرامية فوق طبقات عصر حلف منها بقايا قصر الملك «كبارا» الذي يرجع تاريخه إلى القرن التاسع قبل الميلاد.

تل رأس الشمرا: هو بقايا مدينة أوغاريت الفينيقية، يقع في شمال سوريا على بُعد 12 كيلومتراً شمال اللاذقية ويبعد عن شاطىء البحر قرابة 800 متر. يرجع تاريخ المدينة إلى العصر الحجري الحديث وقد بلغت ذروة ازدهارها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد حيث أصبحت ميناء دولياً ومركزاً تجارياً حضارياً يقع وسطاً بين دول الشرق والشمال والجنوب وثغراً يؤدي إلى بحر إيجة والدول الواقعة عبره كمصر وبر الأناضول وكريت وقبرص والعالم الإيجي وذلك حتى زمن تخريبها في حوالي سنة 1350 ق.م.، عُثر بين أطلالها على عدد كبير من الألواح معظمها مكتوب باللغة الأوغاريثية أي الكنعانية بالخط المسماري البابلي. وتشتمل الألواح على ملاحم شعرية وأساطير وأدب ديني ومعاجم وكتب مدرسية ولوائح ورسائل تجارية وعقود مختلفة الخ.. وهذه وإن كان زمنها يرجع إلى القرن الرابع عشر والخامس عشر قبل الميلاد إلا أن الدلائل تدلّ على أنها أقدم زمناً[1].

تل العمارنة: بقايا مدينة «أخت أتون» المدينة التي أسسها الفرعون المصري أنحوتب أو أمنوفيس الرابع الذي عرف باسم أخناتون (1375 ـ 1358 ق.م.) وهو الذي نادى بمبدأ الوحدانية فاضطر إلى نقل عاصمته من

(1) انظر: «**ملاحم وأساطير من أوغاريت**» (رأس الشمرا) تأليف الدكتور أمين رويحة الجامعة الأميركية في بيروت، 1966.

طيبة إلى العمارنة[1]، وهذه تقع على بُعد 58 ميلاً تحت أسيوط و19 ميلاً فوق القاهرة. وجدت في خرائب هذه العاصمة سنة 1887م حوالي 1300 جرة أو قرميد تشتمل على السجلات الملكية الشهيرة ومن بينها الرسائل المرسلة إلى أخناتون وإلى أبيه أمنحوتب الثالث (1412 ـ 1376 ق.م.) من ملوك الشرق الأدنى ومن حكّام الإمبراطورية في بلاد الشام وهي مدوّنة بالخط المسماري وباللغة البابلية. وهذه هي المصادر الأولية لدراسة تاريخ الشرق الأدنى القديم في القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد وقد نشرت وترجمت وعلّق عليها مراراً[2].

تلمود: انظر: التلمود في الفصل الثالث[3].

تنائيم: جمع «تنا» أي معلم، وهي كلمة آرامية كانت تُطلق على طبقة من العلماء اليهود الذين أخذوا بشرح أحكام التوراة وتدوين قوانينها وتبويب شرائعها في مجموعة تعرف بـ «المشنة». وقد بوشر في تحريرها سنة 10م. وكان الفراغ من تدوينها في طبرية سنة 220م. بعناية الحبر الأكبر يهوذا بن شمعون (135 ـ 220م). وهو الرباني الأكبر الملقّب بالربن الأقدس وكان سابع رئيس للمجمع الديني الأعلى «سنهدرين»[4].

تيماء: مدينة عربية تقع في غربي شبه الجزيرة العرب على 125 ميلاً جنوب واحة «الجوف» ورد اسمها في الكتابات الحرّانية القديمة، احتلها الملك الكلداني نبوبيدس (556 ـ 539 ق.م.)، هي ومدينة الجوف (أدومو) ومدينة يثرب (المدينة المنوّرة). وتشير هذه المدوّنات أن نبونيدس بقي في تيماء مدة عشر سنوات ولم يُعرف سبب مكوثه في تيماء هذه المدة بعيداً عن

---

(1) انظر طيبة ص845.

(2) انظر:

C.R. Conder, «**The Tell Amarna Tables**», 2nd. ed., London, 1894; C. Bezold and E.A.W. Budge, «**The Tell et-Amarna Ta-lets in the British Museum**», London, 1892.

(3) انظر ص 351 وما يليها.

(4) انظر: التلمود في الفصل الثالث ص351 وما يليها.

مركز عاصمته (بابل) التي بقيت تحت حكم ابنه «بلشازار». ويرجّح الباحثون أن نبونيدس بقي في هذه المنطقة ليحمي طريق التجارة الممتد من اليمن إلى مصر وفلسطين عير الحجاز وذلك بعد أن احتلّ الميديون والفرس طريق العراق التجارية الشمالية الممتدة بين نينوى وحرّان وسلسلة جبال طوروس[1]. ومن المشهور عن تيماء أنها كانت مركزاً من المراكز التجارية الهامة في جزيرة العرب وملتقى عدّة طرق تجارية هامة منها ما يتّجه شمالاً إلى البتراء ودمشق وتدمر ومنها ما يسير إلى سيناء فمصر، وأخرى إلى العراق.

ثمود: قبيلة من القبائل العربية في شبه جزيرة العرب ورد ذكرها في عدّة سور من القرآن الكريم مع قبيلة عاد[2] لأن المقصود بهما واحد من حيث العبرة والموعظة، فعبادة ثمود للأوثان وعدم اكتراثها بالنصح ثم إفناؤها كل ذلك يتّفق وما حدث لقبيلة (عاد). وثمود منسوبة إلى ثمود بن عامر بن إرم بن سام وقيل ثمود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام، ومن هذه القبيلة النبي صالح عليه السلام الذي أرسل لنصح قومه بالرجوع عن عبادتهم الباطلة وهديهم، فبذل الجهد في تذكير القوم بنِعم الله عليهم ونهاهم عن أن يعيثوا في الأرض فساداً وعن التكبّر في الأرض يعبدون غير الله تعالى، ولكنهم لم ينتصحوا فأهلكهم الله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[3]. أما صالح عليه السلام والذين آمنوا معه فقد نجوا مما حاق بقومهم من العذاب ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[4]، وقد قال بعض الرواة إنهم ذهبوا بعد هلاك قومهم إلى ناحية الرملة من فلسطين، ويقول أهل حضرموت إنهم ذهبوا إلى حضرموت وأقاموا بها وهناك قبر يزعمون أنه قبر صالح، وقال آخرون إنهم أقاموا في ديارهم بعد هلاك قومهم وآخرون إنهم ذهبوا إلى مكة وأقاموا بها إلى أن ماتوا وقبورهم غربي الكعبة. والمشهور في كتب العرب أن ثموداً كان مقامها

---

(1) انظر: نبونيدس ص877.

(2) انظر عاد ص846.

(3) سورة الذاريات، الآية: 44.

(4) سورة هود، الآية: 66.

بالحِجر (بكسر الحاء) المعروفة بمدائن صالح في وادي القرى بطريق الحاج الشامي إلى مكة على سكة الحديد الحجازية. وديارهم تُعرف اليوم بفج الناقة وبيوتهم منحوتة بالصخر وأهم أنقاضها تُعرف بقصر البيت وقبر الباشا والقلعة والبرج. وقد كشف بين هذه الأنقاض عن كتابة نبطية وهي منقوشة في الصخر أكثرها على القبور مع كتابة آرامية منحوتة في الصخر مثل لغة بترا، إلا أن هناك نصوصاً ثمودية كثيرة عُثر عليها بين الأنقاض أيضاً وقد عُثر على مثيلها في مناطق حائل وتبوك وتيماء وطور سيناء وفي مصر وفي اليمن مما يدلّ على وجود صلات بين هذه الأقطار وخاصة اليمن وبين ثمود. وقد ورد اسم ثمود في النصوص الآشورية وقد دعوا بـ: (Thamudi) حيث انتصر سرجون الثاني (721 ـ 705 ق.م.) عليهم وأجلاهم في موطنهم إلى السامرة، كما ورد ذكر ثمود باسم (Thamudita) في جغرافية بطليموس. ويرى الباحثون أن آخر ذكر ورد لقوم ثمود كان في القرن الخامس للميلاد حيث ورد أن قوماً منهم كانوا فرساناً في جيش الروم.

جاد: هو ابن يعقوب من زلفة جارية ليئة، ابنها الثاني[1].

جازر: مدينة كنعانية قديمة شخّص موضعها في تل جاز شمال غربي أورشليم على بُعد حوالي 35 كيلومتراً منها، اشتهرت في حروب داود مع الفلسطنيين[2]. جاء في دائرة معارف اليهود في مادة جازر أنها تقع شرقي نهر الأردن في جلعاد قرب حدود عمون[3]، وهذا يناقض كل ما جاء في التوراة من أخبار عن مدينة جازر التي جاءت مؤيدة كونها غربي الأردن وكان يسكنها الكنعانيون وليس العمريون كما ورد في دائرة المعارف المذكورة، وقد وصفتها التوراة بكل وضوح بقولها إنها «عبر الأردن غرباً من بعل جاد» وقد ورد اسم ملكها مع ملوك حبرون ولخيش وعجلون وأريحا وأورشليم وعاي الخ..[4].

---

(1) (تك، 30: 11، 3: 26).
(2) (2 صم، 5: 25؛ اخ، 20: 4).
(3) انظر جلعاد ص815، عمون ص853.
(4) (يش، 12: 7 ـ 13).

وقد هاجم فرعون ملك مصر جازر في عهد سليمان فأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان[1]. ثم أعاد سليمان بناءها.

جاسان: هي المنطقة التي أعطاها يوسف في مصر لأبيه وإخوته ليسكنوا فيها، وتقع هذه المنطقة في القسم الشمالي الشرقي من أرض مصر وتمتدّ بين التخم الجنوبي من أرض كنعان إلى نهر النيل، تُعرف اليوم بالشرقية الممتدة من جوار «أبو زعبل» إلى البحر.

جبعون: مدينة كنعانية مهمة سكنها الحويون وهم قوم من سلالة كنعان[2]، تقع على بُعد 15 ميلاً إلى الشمال من أورشليم. تدعى أطلالها الآن «الجيب» وموقعها على قمة هضبة وفي أسفل الهضبة إلى جهتها الشرقية ينبوع ينحدر ماؤه إلى بركة طولها 120 قدماً وعرضها 100 قدم.

جبل حوريب: انظر سيناء[3].

جبل جرزيم: انظر جرزيم[4].

جبل سعير: مقاطعة جبلية صارت تعرف أخيراً باسم «أدوم» تمتد من بحر لوط (البحر الميت) إلى خليج العقبة، يحدّها شرقاً البرية العربية وغرباً وادي العربة، جبالها رملية غرانيتية يرتفع بعض قممها إلى 4800 قدم فوق سطح البحر. كان يسكنها الحوريون قديماً وقد اشتقّ اسمها من اسم أحد أمرائها المسمى سعير[5]. ثم استولى عليها بنو عيسو وصارت تعرف بأرض أدوم وهو لقب عيسو[6].

جبل نبو: من سلسلة موآب قبالة أريحا في فلسطين على الجانب الشرقي

---

(1) (1 مل، 9: 16 ـ 17).
(2) (تك، 10: 17). انظر الحويون ص823.
(3) انظر ص838.
(4) انظر ص814.
(5) (تك، 14: 6، 36: 20؛ تث 2: 12).
(6) (تك، 32: 3، 36: 8). انظر أدوم ص785.

من الأردن، ويبلغ ارتفاع قمة هذا الجبل 2643 قدماً فوق سطح البحر المتوسط ويهبط إلى البحر الميت بعمق 4000 قدم.

جبيل: وهو الاسم الحديث لمدينة «بيبلوس» الفينيقية القديمة الواقعة على ساحل البحر المتوسط فيما بين بيروت وطرابلس على بُعد حوالي 25 ميلاً شمال مدينة بيروت، ويعدّها الباحثون أقدم مدينة في العالم من حيث إنها سكنت منذ أكثر من ستة آلاف عام وما تزال حتى اليوم. وقد ورد في المدوّنات القديمة ما يفيد أن الإله «إيل» هو الذي أنشأها[1]. وتسمية «بيبلوس» تسمية يونانية للمدينة التي تعني كتاباً، أما اسمها الأصلي فكانت تعرف لدى الكنعانيين باسم «كوبلا» وهي إحدى الموانىء التجارية الفينيقية المهمة التي اشتهرت بعمل السفن[2]، بلغت ذروة ازدهارها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. ويرجع بعض الباحثين تاريخ هذه المدينة إلى العصر الحجري الحديث (النيولوثي) الذي يبدأ في حوالي الألف السادسة قبل الميلاد[3].

جت: إحدى مدن الفلسطينيين الخمس سكنها أولاً العناقيون[4]. يرى البعض أنها تقع في تل الصافية شرقي أشدود على 16 ميلاً منها[5]. لم يستطع الموسويون التغلّب عليها عند غزوهم فلسطين فبقيت في أيدي الفلسطينيين وكانت ما تزال في أيديهم في أيام داود، وعليها ملك اسمه أخيش[6] ثم أخذها داود من أيديهم[7]، وصارت بعد ذلك ليهوذا فعززها رحبعام ملك يهوذا (931 ـ 913 ق.م.)[8]. ثم أخذها حزائيل ملك آرام[9] إلا أن الملك

---

(1) انظر: إيل ص794.

(2) (خر، 27: 9).

(3) **مجلة النفط** باللغة الإنكليزية، «بيبلوس الفينيقية» بقلم ف.ج.ر. باين، عدد حزيران 1955 ص14 ـ 17.

(4) (يش، 11: 22).

(5) انظر أشدود ص789.

(6) (1 صم، 21: 10 ـ 15، 27: 1 ـ 7).

(7) (2 صم، 15: 18؛ أخ، 18: 1).

(8) (2 أخ، 11: 8).

(9) (2 مل، 12: 17).

يوآش ملك يهوذا (835 ـ 796 ق.م.) استرجعها[1]، وبعد رجوعها إلى يد الفلسطينيين هدم عزيا (767 ـ 739 ق.م.) سورها[2].

جديس: انظر طسم[3].

جرابلس: انظر كركميش[4].

جرار: مدينة شهيرة للفلسطينيين واقعة إلى الجنوب الشرقي من غزة بين قادش وشور، والرأي الغالب هو أن الموضع المعروف الآن بخربة أم جرار هو موضع المدينة. وبلدة جرار هي المدينة التي جاء إليها كل من إبراهيم وإسحاق بسبب الجدب ونزلا على ملكها[5]. ومما ورد في أخبار التوراة أن آسا ملك يهوذا (910 ـ 869 ق.م.) ساق الكوشيين المتقهقرين إليها[6].

الجرامقة: هم آراميون كانوا قد لجأوا إلى عيلام تحت تأثير الضغط الآشوري فحلّوا في منطقة تعرف بالجرمق في فارس. ثم لما عادوا إلى بلاد آشور حملوا معهم هذا الاسم فعرفوا به وسموا بالجرامقة. وكان هؤلاء الجرامقة يسكنون مدينة الموصل عندما فتحها العرب في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وسمى بعض الكتّاب العرب اللغة الآرامية بالجرمقية نسبة إليهم[7].

جرجاشيون: قبيلة من الكنعانيين أو فئة من الحويين كانوا يقطنون البلاد الواقعة شرقي بحر الجليل ومنهم أخذ اسم كورة الجرشيين[8].

جرزيم: جبل فوق شكيم يعلو 2850 قدماً فوق سطح البحر و800 فوق

---

(1) (2 مل، 13: 25).
(2) (2 أخ، 26: 6). انظر الفلسطينيون ص858.
(3) انظر ص845.
(4) انظر ص863.
(5) (تك، 20: 1، 26: 1 و17).
(6) (2 أخ، 14: 13).
(7) (المطران غريغوريوس صليبا، «الآراميون في العراق» مجلة **التراث الشعبي**، عدد آذار ونيسان، 1971، ص90؛ سليمان صايغ، «**تاريخ الموصل**»، ج 1، ص 45 ـ 50.
(8) (تك، 10: 16، 15: 21).

نابلس، وعليه أُقيم الهيكل السامري، وهو حسب التقاليد السامرية الجبل الذي توجّه إليه إبراهيم لتقديم ابنه إسحاق قرباناً للإله، أما اسمه الآن فهو جبل طور.

جرهم الأولى: اسم قبيلة من العرب البائدة ترجع إلى عهد عاد وثمود والعمالقة[1] قيل إن أهلها كانوا يقيمون بمكة وإن نسبهم يرجع إلى (عابر) وقد أبيدوا. ذكرها الإخباريون والنسّابون باسم «الجرهم الأولى» لتمييزها عن جرهم الثانية (جرهم القحطانيين) الذين يرجع نسبهم إلى (جرهم بن قحطان بن هود) وهم أصهار إسماعيل.

جزيرة العرب: انظر بلاد العرب[2].

جشوريون: عشيرة كنعانية قديمة كانت تسكن شرقي الأردن[3].

جلجال: قرية في سهل أريحا[4]. تقع إلى الشرق منها والشمال الشرقي من أورشليم تبعد حوالي أربعة أميال عن الأردن. كانت أول قرية احتلها الموسويون بعدما عبروا الأردن اتخذها يشوع مركزاً لعملياته الحربية مع الكنعانيين، كانت مقراً لتابوت الشهادة إلى أن نقل إلى شيلوة ثم أرجع إليها[5]. وكان صموئيل يذهب إليها من وقت لآخر ويقضي فيها لإسرائيل[6]. وفي موضع الجلجال القديمة قرية تدعى الآن «جلجلية».

جلعاد: مقاطعة صخرية وعرة شرقي نهر الأردن[7] كانت مع أرض عمون بحيازة العموريين، استولى عليها الموسويون عند صعودهم من مصر في عهد موسى وذلك بعد أن تغلّبوا على سيحون ملك العموريين واستولوا على

---

(1) انظر: عاد ص846. وثمود ص810. والعمالقة ص851.

(2) انظر ص 801.

(3) انظر: الرفائيون ص829.

(4) (يش، 4: 19).

(5) (1 صم، 1: 8، 15: 33).

(6) (1 صم، 7: 16).

(7) (يش، 13: 25).

عاصمته «حشبون»[1]، ثم صارت من ضمن مملكة داود وأصبحت بعد ذلك من ضمن إسرائيل بعد التقسيم[2].

الجليل: هو الاسم الذي يُطلق على القسم الشمالي من فلسطين، وكان المسيح ﷺ يُعرف بيسوع الجليلي[3]. لأنه نشأ في منطقة الجليل وتهذب وعاش فيها، والمعروف أن القديس بطرس كان من الجليل أيضاً. ومن جبال الجليل الشهيرة الكرمل ومن مدنها الناصرة، وفي الجليل بحيرة طبرية المعروفة ببحر الجليل[4].

الجليليون: هم أتباع يهوذا الجليلي الذي ظهر قبل الميلاد وكان يقول أن لا ملك لليهود غير الله.

الجنيزة: هي كهف كان يلحق بكل كنيس وكانت تطرح فيه، باحتفال جنائزي الكتب المقدسة عند اليهود المخطوطة على لفائف من البردي بعد لفها بالكتان كالمومياءات ووضعها في جرار ذات أغطية محكمة لحمايتها من الرطوبة بقصد صيانتها. وقد عُثر على مجموعات كبيرة من هذه الجرار المحتوية على مخطوطات البردي في الكهوف المختلفة حول البحر الميت حتى أنه يقال إن ما وجد في كهف واحد يكوّن مكتبة كبيرة إذ عُثر على عدّة نسخ لواحد فقط من الأسفار ويُعتبر كهف قمران عند البحر الميت أهم هذه الكهوف ومركزها الرئيسي. ويعتقد أن تلك المخطوطات أخفيت فيها بقصد صيانتها عندما أجبر اليهود على الهجرة إبان الثورة الأولى (66 ـ 70م).

جوزان: مدينة آرامية تقع في تل حلف حالياً، كانت مركزاً لمملكة آرامية تسمَّى «بيت بخياني»، أصبحت هذه المنطقة سنة 808 ق.م. قسماً من الولاية الآشورية «جوزانا» نفي إليها اليهود في زمن الآشوريين[5].

(1) (تث، 2: 36).

(2) انظر: عمون ص853، حشبون ص820.

(3) (مت، 26: 69).

(4) انظر بحر الجليل ص797.

(5) انظر: تل حلف ص807.

جيحون: نبع ماء قديم يقع في وادي قدرون شرقي مدينة القدس ورد اسمه في التوراة باسم جيحون[1]، يُعرف اليوم باسم «عين العذراء» كان اليبوسيون سكان القدس القدماء قد حفروا نفقاً تحت الجبل لنقل مياه النبع إلى داخل حصنهم المسمى «حصن يبوس» «أو حصن صهيون» استعمله اليهود في عهد حزقيا ملك يهوذا (715 ـ 686 ق.م.) وأنشأوا في نهاية النفق بركة عُرفت باسم «بركة سلوام»[2].

حاتوشاش: هي عاصمة الحثيين في بلاد الأناضول وتُعرف اليوم باسم «بوغازكوي» وتقع على بُعد حوالي تسعين ميلاً إلى الشرق من أنقرة. عُثر بين أنقاضها على ألواح مسمارية تمثّل السجلات الملكية يرجع تاريخ معظمها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد وهي مكتوبة عموماً باللغة الحثيّة، وهي لغة هندو ـ أوروبية في قواعدها وأسلوبها[3].

حاران (حرَّان)[4]: مدينة قديمة ما تزال تعرف باسمها القديم وتقع في الشمال الشرقي من بلاد ما بين النهرين في جوار الحدود السورية التركية داخل حدود تركيا على منابع نهر البليخ، أحد روافد الفرات العليا، على بُعد حوالي 40 كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من أورفة وزهاء 80 كيلومتراً من مصبّ البليخ في نهر الفرات.

كانت مركزاً لإحدى الدويلات الآرامية التي أُسِّست في الفرات الأوسط ورد ذكرها في التوراة باسم «فدَّان ـ آرام»، كما كانت مركزاً هاماً على الطرق التجارية الرئيسة بين العراق وسوريا وفلسطين، وقد اشتهرت في كونها مركزاً لعبادة القمر (الإله سين)، وهي المدينة التي توجّه إليها إبراهيم الخليل عليه السلام بعد خروجه من أور الكلدانيين ومنها ذهب إلى كنعان، ورد ذكرها في التوراة باسم «حاران». فتحها عياض بن غانم في خلافة عمر بن الخطاب[5].

---

(1) (2 أخ، 33: 14؛ 1 مل، 1: 33 و38).
(2) (2 أخ، 32: 30؛ 2 مل، 20: 20؛ نح، 3: 15؛ أش، 8: 6؛ يو، 9: 7).
(3) انظر: هجرة الحثيين إلى شمال سوريا في الفصل الأول ص204.
(4) (2 مل، 19: 20).
(5) انظر: «فدان آرام» ص856، «آرام ـ نهريام» ص786، إبراهيم الخليل ص782.

حاصور: مدينة كنعانية ذات شأن عدَّها البعض العاصمة الطبيعية لشمال كنعان تقع قرب «الحولة» غربي جسر بنات يعقوب على بُعد حوالي ستة كيلومترات منه تتاخم «قيدار»[1]، وردت في التوراة بهذا الاسم، وتعرف أطلالها اليوم بتلّ القدح أو «تل الوقاص» اشتهر بين ملوكها «يابين» (ويابين هو لقب ملوك كنعان مثل فرعون لملوك مصر)، أخضعها يشوع وأحرقها بالنار[2]. كان أهل حاصور يقيمون في بيوت ثابتة كما يستدل من اسم المدينة تمييزاً لهم عن أهل الوبر وكانت حاصور قبل الغزو الموسوي معقلاً من معاقل الهكسوس الرئيسة عندما أصبحت كل المنطقة في حوزتهم في حوالي القرن السابع عشر قبل الميلاد. وفي زمن الآشوريين فتحها تغلات فلاسر الثالث (746 ـ 727 ق.م.) وسبى أهلها إلى آشور[3]. وقد ضربها نبوخذ نصّر ملك بابل في أوائل القرن السادس قبل الميلاد.

حبرون: مدينة كنعانية تعدّ من أقدم المدن الفلسطينية قبل عصر موسى[4]. وسُمِّيت أيضاً «ممرا» و«أربع»، والاسم الأخير نسبة إلى أربع العناقي[5]، تقع على بُعد 44 كيلومتراً جنوب أورشليم، سكنها إبراهيم وإسحاق ويعقوب[6]. ما تزال تُعرف بحبرون الزاهرة والخليل نسبة إلى إبراهيم الخليل، فيها جامع يحتوي على أضرحة إبراهيم وإسحاق ويعقوب مع نسائهم سارة ورفقة وليئة، وهؤلاء حسب نصّ التوراة دفنوا جميعاً في حبرون في مغارة حقل المكفيلة أمام ممرا التي هي حبرون[7]. كانت حبرون مقراً لداود إلى أن جعل أورشليم العاصمة وقد ذكرت من جملة مدن يهوذا أيام فتنة يربعام وانشقاق المملكة.

---

(1) انظر قيدار ص861.
(2) (يش، 11: 1 و10 و11).
(3) (2 مل، 15: 29).
(4) (عد، 13: 22).
(5) انظر العناقيون ص853.
(6) (تك، 13: 8، 23: 2، 35: 27، 50: 31؛ يش، 14: 15؛ قض، 1: 10).
(7) (تك، 49: 3، 50: 13، ص 23).

حدياب: إمارة كانت تشمل أهم أصقاع مملكة آشور، تمتد من الزاب الأكبر إلى الزاب الأصغر ومن الدجلة إلى آذربيجان، سمّاها العرب «حزَّة» وذكرها بهذا الاسم بعض الكتّاب الكلدان القدماء: فقال السمعاني[1] إنها كانت القطعة الأشرف موقعاً والأهم سياسة في جميع بلاد آشور واسمها يشمل جميع الأصقاع الآشورية. وقد ازدهرت هذه الإمارة في عهد الفرثيين الفرس وكانت قاعدتها مدينة أربيل. ويعتقد أن هذه المنطقة هي المنطقة الرئيسة التي نقل الآشوريون اليهود (الأسباط العشرة) إليها بعد قضائهم على مملكة إسرائيل في فلسطين. ولقد أورد المؤرّخ اليهودي يوسفوس ذكر أحد ملوك حدياب وهو «إيزاط» الذي ملك في القرن الأول للمسيح، وعلى عهده ضمّ أرطبان الثالث ملك الفرثيين نصيبين إلى إمارة حدياب وجعلها تحت حكم «إيزاط». وفي الفترة بين سنة 36 و60 للميلاد ملك في حدياب ملك يهودي تمّ تهويده في صغره هو وأمه هيلينا على يد تاجرين يهوديين. التزمت هذه العائلة بولائها وإسنادها لليهود في القدس، وذكر أن الملكة هيلينا زارت مدينة القدس وأنفقت أموالاً طائلة لمساعدة اليهود هناك. وقد ورد أسماء بعض ملوك حدياب منهم «شهراط» و«نرساي»، وملك «نرساي» إلى أوائل القرن الثالث للميلاد.. والأرجح أن هذه الإمارة حافظت على استقلالها الإداري إلى ما بعد مجيء الساسانيين إلى الحكم، إذ ورد ذكر أن أحد ملوكها المدعو سنحاريب حكم الإمارة في منتصف القرن الرابع للميلاد. وكان سكان حدياب على رأي بعض الباحثين من الآراميين جنساً ولغة وكان العرب يسمونهم القبط[2].

حرمون: جبل كان التخم الشمالي لأرض فلسطين في عبر الأردن على بُعد 40 ميلاً شمالي بحر الجليل و30 ميلاً إلى الجنوب الغربي من دمشق[3]،

---

(1) المكتبة الشرقية، طبعة رومية، مجلد 3، ج2.

(2) انظر: أدي شير، «**تاريخ كلدو وأثور**»؛ القس سليمان صايغ، «**تاريخ الموصول**»؛ نيوزنر «**تاريخ اليهود في بابل ـ العهد الفرثي**»؛ الدكتور ـ غرانت، «**النساطرة أو الأسباط المفقودة**»، (1841).

(3) (تث، 3: 8، 4: 48؛ يش 11: 3 و17، 13: 11).

وما يزال يُعرف حتى اليوم بجبل حرمون، وهو يمتد على طول الحدود الجنوبية الشرقية السورية ـ اللبنانية، ويعرف أيضاً بجبل الشيخ يبلغ ارتفاعه 9400 قدم فوق سطح البحر وقد سُمّي أيضاً في المدوّنات التوراتية باسم «جبل بعل حرمون» وكان يسكنه بعض الحويين[1].

الحسديون: انظر: الأسينيون[2].

حشبون: من مدن فلسطين القديمة، تعرف أطلالها اليوم باسم «تل حشبان»، تقع على مسافة 26 كيلومتراً جنوب غربي عمان في الأردن وحوالي 11 كيلومتراً شمال «ندبة» الحالية. كانت بالأصل ملكاً للموآبيين إلا أن سيحون ملك العموريين استولى عليها مع كل أرض الموآبيين واتّخذ حشبون عاصمة له[3]. ثم استولى عليها الموسويون في عهد موسى ودمروها[4]. إلا أن الموآبيين عادوا وتغلّبوا عليها. وقد سُمِّيت في التوراة عربات موآب مما يدلّ على أنها كانت في يد الموآبيين قبل استيلاء العموريين عليها[5].

الحضر (مدينة): تقع أطلال مدينة الحضر في بادية الجزيرة التي بين الدجلة والفرات على بُعد 115 كيلومتراً جنوب غربي الموصل وعلى بُعد 70 كيلومتراً غربي القيارة وعلى بُعد 3 كيلومترات من الضفة الغربية لوادي الثرثار وقد استحدث مؤخراً قضاء الحضر الذي يقع قرب أطلال المدينة. وتتألف بقايا المدينة من سور خارجي وسور داخلي دائري فيه حوالي مائتي برج وأربع بوابات، ويقع في وسط المدينة حي المعابد يحيط به سور كبير من الحجر

---

(1) (قض، 3: 3). انظر: الحويون ص823.

(2) انظر ص789.

(3) (عد، 21: 26).

(4) (تث، 2: 22 ـ 26).

(5) (عد، 22: 1، 31: 12، 33: 48). انظر: موآب عمون. وفي المرجع التالي بحث عن تاريخ مدينة حشبون:

The Biblical Archaeologit- The American School of oriental Research. Vol. XXXII, May 1969, No. 2, pp. 26-41..

المستطيل الشكل يضمّ داخله زهاء 11 معبداً، ومن هذه المعابد المهمة معبد من الحجارة المهندمة للإله (آشور بل) وهو أحد المعابد الخاصة التي شيّدها كبير الكهنة المدعو (نصرو مريا) الذي انحدرت من صلبه السلالة العربية الحاكمة في الحضر، إذ توّج ابنه الأكبر (ولجش) ملكاً وأعقبه أخوه سنطروق الأول في أواخر النصف الأول من القرن الأول بعد الميلاد والذي يعدّ مؤسس هذه السلالة العربية الحاكمة.

ويرجع تاريخ الأبنية الشاخصة أطلالها الآن بما في ذلك الأسوار والأبراج والقصور والمعابد إلى القرنين الثاني والأول قبل الميلاد والقرنين الأول والثاني بعد الميلاد. أما تاريخ تأسيس المدينة فمجهول ويرجّح الباحثون أنها كانت قرية أو مدينة صغيرة لسكنى عرب البادية منذ العهود القديمة من عهد الآشوريين حتى أواخر العصر الفرثي. وقد اشتهرت مدينة الحضر في فترات الحروب التي جرت بين الأخمينيين والسلوقيين وأخيراً بين الفرس والرومان إلى أن سقطت في الحروب الأخيرة بين الحضريين والرومان كحلفاء ضد الساسانيين، حيث سقطت على يد الملك الساساني سابور[1].

حضوراء: اسم قبيلة من طبقة العرب البائدة ترجع إلى عهد جماعة عاد وثمود[2] وقد هلكت. ذكر أن أهل حاضورا كانوا يقيمون بالرس وكانوا يعبدون الأوثان وظهر منهم نبي فكذبوه وقتلوه، وقد ورد في القرآن الكريم ذكر (أصحاب الرس) مع عاد وثمود، وهناك عدّة مواضع في الجزيرة العربية يقال لها (الرس) منها موضع في اليمامة وفي اليمن موضع يُسمّى «جبل حضور» وروى أهل الأخبار أن نبوخذ نصّر غزا أهل حضوراء وأعمل فيهم السيف وأجلى خلقاً منهم إلى أماكن أخرى.

حضيرت: هي المحطة الثانية التي وقف عندها الموسويون بعد خروجهم من مصر[3].

(1) **سومر**، م26، 1970، ص143 وما يليها.
(2) انظر عاد وثمود ص846.
(3) (عد، 11: 35، 12: 16، 33: 17).

حلح: مكان في آشور نقل إليه اليهود أيام السبي الآشوري[1]. ويرجّح أنه يقع في منطقة الخابور.

حلف: انظر تل حلف[2].

حماة: من أشهر مدن سوريا وأقدم مدن العالم، لا تزال تحتفظ باسمها القديم، دعيت «أبيفانا» في أيام أنطوخيوس (أبيفان)، أسّسها أحد أولاد كنعان[3]، موقعها في وادي العاصي كانت تدعى مفتاح شمالي فلسطين لأنها كانت متوسطة بين الفرات وفينيقيا، وهي تبعد 165 ميلاً إلى الشمال من أورشليم، وقد سمّاها عاموس حماة العظيمة وتكلّم عن خرابها[4].

حمورابي: الملك البابلي الشهير مؤسس إمبراطورية بابل الشهيرة وصاحب الشريعة الذائعة الصيت التي تعدّ من أقدم الشرائع في تاريخ الثقافة الإنسانية. تولّى العرش في الحقبة الممتدة بين سنة 1792 وسنة 1750 قبل الميلاد، وهي مدة حكمه في أصحّ التقديرات، وهو القائل: «إن الآلهة قد نادتني لأمنع الأقوياء عن ظلم الضعفاء وأنشر النور في الأرض وأرعى مصالح الخلق».

حمير: قبيلة من القبائل العربية القديمة كوّنت لها دولة في وسط اليمن واتّخذت مدينة ظفار عاصمة لها وذلك منذ أواخر القرن الثاني قبل الميلاد واستمرّت حتى قرب ظهور الإسلام وما زالت توجد في اليمن قبيلة تُسمّى بهذا الاسم. والحميريون فرع من السبئيين، وحمير عند العرب ابن سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان وزعموا أنه كان ملكاً ملك بعد موت أبيه سبأ. وقد ورد ذكر حوالي ثلاثين ملكاً من ملوك حمير أقدمهم «علهان نهفان» حكم بين سنة 115 وسنة 80 ق.م. وتختلف دولة حمير عن سابقتيها دولتي معين وسبأ في

---

(1) (2 مل، 17: 6، 18: 11؛ أخ، 5: 26).

(2) انظر ص807.

(3) (تك، 10: 18؛ 1 أخ، 1: 15).

(4) (عا 6: 2).

كونها أقرب إلى الدول الفاتحة فكان الحميريون يسيطرون على القسم الجنوبي من الجزيرة العربية كما كانوا يمتلكون قسماً من ساحل أفريقيا الشمالي[1] وقد استطاع الحميريون الاستيلاء على مأرب بضع مرات في حوالي السنة 110م. وأخرى في سنة 200 أو سنة 210م، وكان آخر ملوك حمير ذا نؤاس يوسف (520 ـ 530م) اعتنق اليهودية واضطهد المسيحيين، قضى عليه وعلى دولته نجاشي الحبشة بإيعاز من إمبراطور الروم واحتلّ بلاد اليمن (530م)، وبذلك تكون دولة حمير قد دامت 650 سنة.

ومن أبنية حمير حصن ريدان وقصرها المشهوران حيث عُثر على كتابة في خرائب القصر قدر الخبراء زمنها إلى 400 ق.م. وقد اشتهرت حمير عند أهل الحجاز بمصانعها فقيل مصانع حمير، وفي كلام النبي لوفد كندة «إن الله أعطاني ملك كندة ومصانع حمير الخ..»[2].

وتعرف لغة الحميريين باللغة الحميرية وهي تختلف عن لغة أهل شمال الجزيرة، وقد اشتهرت حمير عند علماء العربية بخطها الحميري أو القلم الحميري، وهو الخط الذي سبق المعينيين والسبئيين وأقوام عربية أخرى، وقد سمى العرب وعلماء المسلمين الكتابة الحميرية بـ «كتابة المسند»، لأن حروفها منفصلة ترسم على هيئة خطوط مستندة إلى أعمدة، ويرى العلماء أن الأقلام الثلاثة الثمودي والصفوي واللحياني قد اشتقّت من المسند. والخط الحميري (المسند) هو أقدم الأقلام التي عرفت في جزيرة العرب حتى الآن ويرى كثير من العلماء أنه مشتق من الأبجديات الساميات الشمالية بينما يرى البعض الآخر أنه مشتق من القلم الفينيقي.

الحويون: قوم من سلالة كنعان[3] كانوا مستوطنين في كنعان، ومن مدنهم الرئيسة شكيم وجبعون[4]. انفرد الحويون من دون جميع سكان كنعان

(1) انظر معين وسبأ ص871.
(2) **الإكليل**، 1/ 66.
(3) (تك، 10: 17).
(4) (تك، 34: 1، يش 11: 19).

في مصالحة الموسويين وعملوا صلحاً مع يشوع[1]، ولما اجتمع الملوك العموريون الخمسة لمحاربة الحويين أتى الموسويون لمعاونتهم وأنقذوهم من أيديهم[2]. ويظهر من المآثر التوراتية أن بعض الحويين سكنوا جبل لبنان من جبل حرمون إلى مدخل حماة[3].

حوران: منطقة واسعة تقع شرقي الأردن تمتد شمالاً إلى الشرق من باشان تجاه بحيرة طبرية إلى منطقة دمشق، أكثرها سهول متّسعة مخصبة كثيرة المرعى وصخورها بركانية ذات مسام كثيرة فيها آثار قرى متعددة[4]. أما حوران الحالية فتمتد تخومها جنوباً إلى بصرى الشام[5].

الحوريون: انظر «هجرة الحوريين» في الفصل الأول[6].

الحثيون: انظر: «هجرة الحثيين» في الفصل الأول[7].

حيرام: أحد ملوك صور المشهورين، كان معاصراً لداود وسليمان صديقاً سياسياً لهما، في زمنه بلغت صور أوج ازدهارها، وتشير التوراة إلى أن حيرام أمدّ داود بالمواد اللازمة لبناء قصره[8] وساعد سليمان في بناء الهيكل[9]. أعطى سليمان حيراماً عشرين مدينة في أرض كنعان لقاء أعماله إلا أنها لم تحسن في عين حيرام فقال ما هذه المدن التي أعطيتني يا أخي[10].

خابور نهر جوزان: إحدى المناطق التي ذكرت التوراة أن الآشوريين

---

(1) (يش 9: 4 ـ 18، 11: 19).
(2) (يش، 10: 11، أش، 28: 21).
(3) (قض، 3: 3) انظر: شكيم ص840، جبعون ص812، حرمون ص819.
(4) (خر 47: 16 و18).
(5) انظر باشان ص796.
(6) انظر ص202.
(7) انظر ص204.
(8) (2 صم، 5: 11؛ 1 أخ 14: 1).
(9) (1 مل، 5: 1 ـ 12).
(10) (1 مل، 9: 11 ـ 13).

نقلوا إليها قسماً من اليهود وأسكنوهم فيها ومن بينهم النبي حزقيال[1]، والأرجح أنها منطقة جوزانا نفسها، الولاية الآشورية القديمة في أعالي نهر الخابور في شمال سوريا، وقد وردت مقرونة مع حاران المنطقة المجاورة لها من الغرب[2].

الخليل: انظر: حبرون[3].

داجون: اسم صنم مشهور كان الفينيقيون يعبدونه في غزة وفي أشدود[4]. وفي بيت داجون من أرض يهوذا وأشير[5]. وكان يرى برأس إنسان ويدي إنسان وجسم سمكة. والأرجح أن تسميته مشتقّة من داج بمعنى سمكة كبيرة. وفي تاريخ اليهود أن الصنم سقط وانكسر لما وضع الفلسطينيون تابوت عهد الرب إلى جانبه[6].

دان: هو ابن يعقوب من بلهة جارية راحيل، ابنها الثاني[7].

داود: هو الملك داود الذي ورد ذكره في التوراة ووصفته بأنه «ابن ذلك الرجل الأفراتي من بيت لحم يهوذا الذي اسمه يسى وله ثمانية بنين» منهم داود الذي كان يرعى غنم أبيه في بيت لحم[8] وتقص التوراة قصة طويلة عن صلته بالملك شاؤول أول ملك على إسرائيل وزواجه من ابنته ميكال ثم الحرب الطويلة بين بيت شاؤول وبيت داود حتى انتهى الأمر بفوز داود بالملك بعد موت شاؤول في حربه مع الفلسطينيين فحكم أربعين سنة منها سبع في حبرون

---

(1) (2 مل، 17: 6).
(2) (2 مل، 19: 12) انظر: تل حلف ص207.
(3) انظر ص818.
(4) (قض، 16: 23؛ 1 م، 5: 1 ـ 3).
(5) (يش، 15: 41، 19 ـ 27).
(6) (1 صم، 5: 1 ـ 3).
(7) (تك، 35: 25).
(8) (1 صم، 17: 14 ـ 15).

وثلاث وثلاثون في أورشليم[1] وقد حدد زمن حكم داود بين سنة 1010 وسنة 971 ق.م. على وجه التقريب.

دفقة: محلة وقف عندها الموسويون بعد خروجهم من مصر، تقع في مدخل جبل سيناء في وادي فيران، كانت فيها مناجم النحاس التي كان يستثمرها المصريون منذ أقدم الأزمنة[2]. وقد أكّد اللغويون أن كلمة دفقة تعني بالعبرية «موقع صهر المعادن»[3]

دلمون: اسم منطقة ورد ذكرها في المدوّنات السومرية يرجّح أن مكانها في البحرين، وقد جاء في قصة سومرية أن بلاد دلمون كانت جزيرة تتمتع بقدسية خاصة عند الموسويين وكانت فيها آلهة تعبد لها أهل العراق. وقد وصفت بكونها أرض للخلود. وقد ورد ذكر دلمون هذه مع موضع آخر في سواحل الخليج العربي يُسمّى «مجان» يعتقد أنه موضع عمان الحالي[4].

دمشق: هي أقدم مدن سوريا وأشهرها، ذكر أن بانيها هو عوص بن آرام ابن سام، تبعد نحو 122 ميلاً إلى الشمال الشرقي من أورشليم ونحو 60 ميلاً من البحر المتوسط يحيط بها من الشمال والشرق والجنوب سهل مخصب يسقيه ماء نهري بردى والأعوج، اسمها المصري القديم «دمسكو» زارها إبراهيم الخليل[5]، وقيل إنه حكم فيها افتتحها داود لمدة محدودة من الزمن[6]، ثم اتخذها الآراميون عاصمة لهم، فلعبت في عهد ملكها ابن هداد (بنهداد) (879 ـ 843 ق.م.) دوراً هاماً في سياسة الشرق الأدنى حيث تمكّن هذا الملك من بسط نفوذه على البلاد المجاورة فعقد معها أحلافاً للعمل معه في القتال ضد أطماع الآشوريين، واستطاع خلفه من صدّ هجومين قام بهما

---

(1) (1 مل، 2: 11).

(2) انظر سيناء ص838.

(3) انظر: Keller, «The Bible as History», p. 132.

(4) انظر: مجان ص868.

(5) (تك، 14: 15).

(6) (2 صم، 8: 5 ـ 6).

شلمنصَّر الثالث سنة 843 وسنة 838 ق.م. وهاجم إسرائيل ويهوذا إلا أن الآشوريين تمكّنوا أخيراً من التغلّب على الآراميين، فاحتلّ تغلت فلاسَّر الثالث سنة 732 ق.م. مدينة دمشق بعد حصار دام حوالي سنتين وقتل آخر ملوك دمشق المدعو رصين وسبى أهل المدينة وقضى على الحكم الآرامي في دمشق نهائياً. وبعد الآشوريين استولى الفرس على المدينة ثم غزاها الإسكندر واحتلها بعد موقعة أسوس سنة 332 ق.م. ثم ضمّت إلى مملكة السلوقيين، وضمها بعد ذلك بومبي إلى الإمبراطورية الرومانية (64 ق.م.)، استولى عليها العرب بقيادة أبي عبيدة بن الجراح بعد معركة اليرموك سنة 635م. وكانت أهم المدن الإسلامية إبان الحكم الأموي (661 ـ 750 ب.م.) أسقطها هولاكو سنة 1260م. ثم حاصرها تيمورلنك ونهبها جنوده سنة 1400م، خضعت للحكم العثماني (1516 ـ 1918م)، احتلها الإنكليز سنة 1918م.

دياسبورا (Diaspora): كلمة يونانية معناها تشتت تغرق أو نثر البزار. كانت تطلق على اليهود المنتشرين خارج فلسطين بعد الأسر، كما كانت تطلق على اليهود المتنصرين خارج فلسطين ثم صارت تطلق على اليهود خارج فلسطين عبر التاريخ[1].

رأس الجالوت: مصطلح عربي كان يُطلق على رئيس الطائفة اليهودية في دار الإسلام. في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) تولّى رئاسة الجالوت يستناي بن حنيناي سليل رؤساء الجالوت الأقدمين من آل داود فأقرّه الخليفة في منصبه بكتاب عهد وجهه إليه. وكان مقرّ رأس الجالوت في مدينة سورا[2]. وكانت سلطة رأس الجالوت في عهد الخلفاء العباسيين تسري، كما ينبئنا بذلك بنيامين التطيلي في رحلته[3] على جميع الطوائف اليهودية المنتشرة في العراق وفي بلاد خراسان واليمن وجزيرة ما بين النهرين وأرمينيا وآذربيجان وجورجيا حتى شواطىء نهر جيحون وحدود سمرقند والتبت وديار الهند. وبعد

---

(1) (تث، 28: 25، دا، 12: 3).

(2) انظر سورا ص837.

(3) انظر سورا أيضاً ص837.

تأسيس مدينة بغداد في عهد المنصور انتقل رأس الجالوت إليها. وتدلّ الأخبار على أن أول من أنشأ هذه المؤسسة هو الملك فولوغاسس الأول بعد أن منح المجتمع اليهودي الحكم الذاتي بقصد استغلال إمكاناتهم واتخاذهم حليفاً موالياً للحكم الفرثي لا سيما بعد أن دمر الرومان الهيكل في فلسطين إذ كان الفرثيون يسعون لاستمالة اليهود إليهم تحت ظلّ الحكم الفرثي والحيلولة دون انضوائهم تحت نظام خاضع لروما.

راؤبين: هو بكر يعقوب بن ليئة[1].

الربيون أو الربانون أو الربانيون: وبالعبرية ربانيم أي جمع ربان بمعنى الحبر أو الفقيه وفي العربية «الرباني» هو العالم كما ورد في القرآن الكريم[2].

رصين: أحد ملوك آرام أشهر حرباً على ملك يهوذا وحاصر عاصمته أورشليم في أيام ملكها آحاز فاستنجد بملك آشور تغلات فلاسر الثالث 745 ـ 727 ق.م.) الذي جرّد حملة قوية قضت على رصين وعلى جيوشه[3].

رعمسيس: هو اسم المدينة التي سخر رعمسيس الثاني ملك مصر (1300 ـ 1233 ق.م.) بقايا الهكسوس لبنائها وسميت باسمه، كان موقعها في شمال الدلتا الشرقي، وقد عرفت بمدينة المخازن[4]. وفي زمن هذا الملك كان خروج الموسويين من مصر بقيادة موسى النبي (1290 ق.م.)، وكانت رعمسيس هي المدينة التي غادروها من مصر[5]. ويعتقد أن فرعون مصر اتّخذ هذه المدينة مخزناً تجمع إليه الحنطة، والأرجح أنها كانت محصنة لتكون أهراؤها في أمن من طوارىء الحدثان. ويرى الخبراء أن موقع مدينة رعمسيس هو نفس موقع مدينة (أفارس) عاصمة الهكسوس في مصر[6].

---

(1) (تك، 29: 32).

(2) سورة المائدة، الآية: 43.

(3) (2 مل، 15: 27، 16: 5 ـ 9؛ أش، 7: 1 ـ 8، 8: 6، 9: 11). انظر دمشق ص826.

(4) (خر، 1: 11).

(5) (خر، 12: 37، 33: 3).

(6) انظر هوارس ص880.

الرفائيون: هم من الأقوام الكنعانية القديمة، كانت مساكنهم في منطقة باشان[1] الواقعة شرقي الأردن[2]، كانوا يقطنون في بلاد موآب قبل أن يحلتها الموآبيون أنسال لوط، وكان الموآبيون يدعونهم «إيميين»[3]، وصفوا في التوراة في كونهم عشيرة كبيرة من الجبابرة كان لهم ملك يدعى «عوج» وكان جباراً قامة وبأساً[4]، حاول أن يمنع مرور الموسويين في أرضه على عهد موسى[5]. غير أنه هزم وقتل هو وبنوه وطرد أتباعه من وطنهم[6]. وكانت تسكن مع الرفائيين في باشان عشيرتان كنعانيتان هما الجشوريون والمعكيون بقيتا في مساكنهما في وسط الموسويين دون أن تمسّا بأذى[7].

رفح: مدينة قديمة على حدود مصر الشرقية بشبه جزيرة سيناء على البحر المتوسط بين غزة والعريش، اسمها باللغة المصرية القديمة «رابح» و«رافيا» باليونانية، جرت بقربها موقعة حربية بين بطليموس الرابع وأنطيوخس الثالث (الأكبر) سنة 217 ق.م. وقد عُثر في المدينة على أطلال حمامات من العصر الروماني وكنيسة من العصر المسيحي.

رفيديم: محطة في سيناء وقف عندها الموسويون بعد خروجهم من مصر[8]، وقد جرت فيها أول موقعة بين الموسويين والعماليق[9]. وإلى رفيديم جاء يثرون حمو موسى مع أهل بيته ونزلوا ضيوفاً على موسى[10].

الرها: مدينة قديمة من مدن بلاد ما بين النهرين كانت تقع في مكان

---

(1) (تك، 14: 5).
(2) انظر باشان ص796.
(3) (تث، 2: 10).
(4) (تث، 3: 11).
(5) (تث، 3: 1).
(6) (عد، 21: 34؛ تث 1: 4).
(7) (يش، 13: 12 ـ 13).
(8) (خر، 17: 1).
(9) (خر، 17: 8 ـ 13).
(10) (خر، 18: 1 ـ 12). انظر: سيناء ص838.

أورفة الحالية في تركيا، وكانت تُعرف باسم «الرهو» في القرن الرابع قبل الميلاد، وسمّاها سلوقس الأول «إيدسيا» (Edesse)، ثم صارت بعدها مدينة رومانية وفيها هزم الإمبراطور فاليران سابور الأول ملك الفرس. أصبحت الرها في القرن الثالث الميلادي مركزاً من مراكز النصرانية وسمّاها السريان «أورهاي» وأخذ العرب عنهم هذه التسمية وقالوا «الرها» وتُسمّى اليوم «أورفة»[1]، كانت أحد المراكز الدينية الكبرى في عهد الإمبراطورية البيزنطية، افتتحها عياض بن غنيم سنة 17هـ (368م) ثم استولى عليها الصليبيون سنة 1098 للميلاد وكانت أولى المقاطعات اللاتينية إلا أن المسلمين عادوا فاستولوا عليها سنة 1144م وبقيت الرها مدينة مسيحية في ظلّ الأتراك[2].

الزبور: لقد اختلف المفسرون في معنى كلمة «زبور» فمن قائل إن معناها الكتاب وقائل الملك والله أعلم. وردت كلمة زبور في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾[3]. ويرى المفسرون أن المقصود بكلمة زبور «هو «مزامير داود» أو «سفر المزامير» من العهد العتيق. والمزامير هي عبارة عن «قصائد من الشعر الديني الوجداني الغنائي، منها الترانيم والأناشيد التي فيها تمجيد الله، ومنها الصلوات، ومنها تعليم وصايا الرب وذكر ثوابه وعقابه. وأكثر المزامير ترجع لداود، وبعض المزامير وضعت بعده»[4]. عرفت للزبور ترجمة عربية في تاريخ مبكر أورد الكندي أجزاء منها في رسالته.

زبولون: هو ابن يعقوب من امرأته ليئة، سادس أبنائها[5].

زنجرلي: انظر سمأل[6].

زوحي: مملكة آرامية أسسها الآراميون على شواطىء نهر الفرات ما بين

---

(1) ابن العبري، ص7.

(2) انظر أورفة ص793.

(3) سورة النساء، الآية: 163.

(4) راجع عفيف عبد الفتاح طبارة، «**مع الأنبياء في القرآن الكريم**»، ص283.

(5) (تك، 30: 35 ـ 23).

(6) انظر ص836.

عانة ومصب نهر البليخ ضمت مدناً عديدة أهمها عانات (عانة) وخاريدي ورحبوت (الرحبة) وشورا واشتهر من ملوكها حاباني. وكان حاباني قد عرض خضوعه للآشوريين إلا أنه شقّ عليهم عصا الطاعة فجهز عليه آشور ناصر بال (884 ـ 859 ق.م.) حملة قوية واحتلّ بلاده ودمر معظم مدنه تدميراً كاملاً، ثم بنى قلعتين على الفرات وجعل فيهما حاميتين آشوريتين الواحدة على الضفة اليمنى والثانية على الضفة اليسرى.

الزوهر: انظر القبالة[1].

الساسانيون: هم حكّام الفرس أخلاف الفرثيين استحوذوا على حكم بلاد فارس وممتلكاتها ومن ضمنها العراق وذلك على أثر انتصار أردشير بن بابل بن ساسان على آخر ملوك الفرثيين سنة 224م، وقد جعل أردشير طيسفون (المدائن) عاصمته الشتوية. وما إن استقرّ الساسانيون في الحكم حتى تجدّد الصراع التقليدي بين الفرس والرومان فقام سابور الأول (241 ـ 273) بهجومين على الرومان وصل في الأول إلى أنطاكية وتسلم الجزية من القواد الرومان، وفي الثانية كسب المعركة الكبرى قرب الرها (أديسا) وفتح أنطاكية وغنم غنائم كثيرة غير أنه فشل في رجوعه في إخضاع ملك تدمر. وفي عهد سابور الثاني (309 ـ 379م) الملقّب بسابور ذي الأكتاف جرت معركة بينه وبين الإمبراطور قسطنطين قرب سنجار انتصر فيها عليه واستولى على كثير من الحصون الرومانية والقلاع المنتشرة في الشمال ولما تولّى الإمبراطور جوليان العرش الروماني جرّد حملة وتقدّم بها نحو الشرق ففتح نصيبين ومدن الفرات ونزل إلى بابل وحاصر طيسفون وكانت معركة ضارية قرب جبال حمرين انكسر فيها الرومان وقتل جوليان وتراجع جيشه نحو أنطاكية بعد أن تكبّد خسائر فادحة في الأرواح. واستولى الساسانيون على جميع بلاد الرافدين وعلى القلاع الشمالية في آمد ونصيبين وبلاد أرمينيا. وقد جرّد كسرى المعروف بأنو شروان (531 ـ 579م) حملة على الرومان ففتح أنطاكية ثم حارب

---

(1) انظر ص859.

البيزنطيين في أرمينيا كما تمكّن الملك كسرى الثاني (590 ـ 628م) من فتح مصر والاستيلاء على بلاد آسيا الصغرى ومحاصرة القسطنطينية إلا أن هذا النصر لم يدم طويلاً فقد جاء ملك بيزنطة الجديد عن طريق دجلة وحاصر طيسفون وقتل فيها أنو شروان. وبموت أنو شروان تنازع أمراء الإقطاع على الحكم فيما بينهم مما أدّى بالمملكة إلى التدهور حتى جاءت الجيوش العربية الفاتحة فاستولت على العراق إثر واقعة القادسية الشهيرة في حزيران 637م. حيث دخل سعد بن أبي وقاص طيسفون وقضى بذلك على الحكم الساساني في العراق.

السامرة: المدينة الفلسطينية التاريخية المشهورة، تقع على بُعد 30 ميلاً إلى الشمال من أورشليم وستة أميال إلى الشمال الغربي من شكيم (نابلس)، كانت مركزاً لعبادة الأصنام. استولى عليها الآشوريون سنة 722 ـ 721 ق.م. وأجلوا اليهود عنها[1] وأحلّوا محلهم جماعات من بلاد بابل وعيلام وسوريا وبلاد العرب. ولما أخذها الإسكندر الكبير أسكن فيها سوريين ومكدونيين. وفي عهد المكابيين هاجمها يوحنا هيركانس الأول سنة 109 ق.م. وخربها، ثم أعاد بناءها هيرودس الكبير (37 ـ 4 ق.م.) في زمن الرومان وأقام فيها مستعمرة مؤلفة من ستة آلاف جندي وغيّر اسمها إلى (سبسطية) تخليداً لأغسطس قيصر الذي وهبه إياها وفي القرن الثالث للمسيح أرسل إليها سبتيموس سيفرس مستعمرة رومانية. أما السامريون اليهود فقد انتقلوا إلى شكيم وهي نابلس الحالية على بُعد حوالي تسعة كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من السامرة وبنوا هيكلهم فيها على جبل جرزيم حيث مارسوا عبادتهم منعزلين عن يهود القرآن الكريم الذين كانوا على خلاف ديني معهم فاشتدّت العداوة بينهما[2].

السامرية: فرقة من اليهود لا تؤمن بغير الأسفار الخمسة الأولى من

---

(1) (2 مل، 18: 9 ـ 12).

(2) انظر البحث عن السامريين وعقائدهم، ص419. انظر ما يلي في هذا المعجم عن بلدة شكيم ص840.

التوراة وتنكر التلمود وهم مثل الصدوقيين لا يؤمنون بالبعث ولا باليوم الآخر ولا يعترفون بغير النبي موسى والنبي هوشع من بين الأنبياء[1].

سبأ: انظر «معين وسبأ» و«حمير»[2].

سبورائيم: كلمة عبرية معناها الأساتذة الشارحون. كانت تطلق على طبقة من العلماء اليهود استمرّ نشاطاهم العلمي في بابل من سنة 500 إلى سنة 588م، وكانت أهم أعمالهم التعليق على التلمود وتنظيم أبوابه وفصوله بالشكل المعروف إلى يومنا هذا.

سدوم: هي المنطقة التي كان يسكنها لوط ابن أخي أبرام (إبراهيم الخليل)[3] وذلك عندما افترق لوط عن عمه أبرام فارتحل شرقاً[4]، ذكرت في التوراة في وصف تخوم أرض كنعان[5]. ومن المرجّح أن منطقة سدوم هذه كانت تقع شرقي بحر الملح (البحر الميت) في المنطقة التي صارت تعرف بأرض موآب وعمون[6]. وقد سردت التوراة قصة مطوّلة فحواها أن أربعة من ملوك الشرق وهم أمراقل ملك شنعار وكدرلعومر ملك عيلام وتدعال ملك جوييم وأريوك ملك الأسار هاجموا أرض كنعان، منها أرض سدوم التي كان يحكمها الملك بارع[7] وتغلغلوا في جنوبي البلاد وضربوا الرفائيين في جبل سعير والعموريين والعمالقة في برية فاران ثم رجعوا إلى قادش (قادش برنيع)[8] وأخذوا معهم لوطاً ابن أخي أبرام (إبراهيم الخليل، وأملاكه ومضوا، إلا أن أبرام تصدّى للغزاة هو ورجاله وتغلّب عليهم ثم تبعهم إلى

---

(1) انظر ص419.
(2) انظر الفصل الثاني ص266 وما يليها.
(3) (تك، 14: 12).
(4) (تك، 13: 11).
(5) (تك، 10: 19).
(6) انظر موآب ص874، وعمون ص853.
(7) (تك، 14: 1 ـ 2).
(8) (تك، 14: 5 ـ 7).

بلدة دان الشمالية وإلى حوبة في شمال دمشق واسترجع لوطاً وكل الأملاك[1] وإذا اعتبرنا أن عهد إبراهيم الخليل يقع في القرن التاسع عشر قبل الميلاد فيكون الحادث قد عاصر عهد أيسن ولارسا في العراق (2006 ـ 1800 ق.م.) حيث كان البابليون ملوك شنعار مسيطرين على بابل وأيسن والعيلاميون مسيطرين على لارسا في سومر. ويرى البعض أنه من المستحيل أن يكون المقصود بملك الأسار ملك لارسا.

سرديس: انظر ليديا[2].

سكوت: موقعان بهذا الاسم الأول موضع في شرقي الأردن رحل إليه يعقوب بعد عودته إلى فلسطين من آرام وفيه بنى بيتاً لذاته ومظلات لمواشيه ودعى اسم المكان سكوت[3]، أما الموقع الثاني فهو أولى محطات الموسويين بعد خروجهم من مصر[4] وهي سفر يوم عن رعمسيس.

سلوام (بركة): انظر جيحون[5].

سلوقية (السورية): هي المدينة التي أنشأها سلوقس الثاني على الأرجح وسُمِّيت باسمه «سلوقية»، وقد أطلق عليها اسم «سلوقية بسييرا» لتمييزها عن المدن الأخرى بهذا الاسم، أُنشئت على ساحل البحر المتوسط على بُعد حوالي خمسة أميال من نهر العاصي لحماية مصبه في البحر ولتكون ميناء لأنطاكية[6]. نقل إليها جثمان سلوقس الأول ودفن فيها كأحد الآلهة، ثم أصبحت هذه المدينة مقبرة لخلفائه من سلالته، اتخذها الرومان قاعدة لأسطولهم.

سلوقية (العراق): هي المدينة التي أسسها سلوقس الأول حوالي سنة 312 ق.م. في العراق لاتخاذها عاصمة لإمبراطوريته فسميت باسمه، تقع

---

(1) (تك، 14: 13 ـ 16).

(2) انظر ص867.

(3) (تك، 33: 17).

(4) (خر، 12: 37؛ عد 33: 5).

(5) انظر ص817.

(6) انظر أنطاكية ص792.

على ضفة نهر دجلة اليمنى على بُعد 35 كيلومتراً من جنوب بغداد، وتعرف أطلالها اليوم باسم «تل عمر»، كان لها شأن عظيم في هذه البطاح مدة طويلة فأصبحت مركزاً كبيراً للحضارة الإغريقية في الشرق وخلفت بابل بوصفها مركزاً للتجارة بين الشرق والغرب. احتلّها الفرثيون سنة 141 ق.م. فأبقوا عليها لكنهم اتّخذوا طيسفون (المدائن) على الضفة المقابلة مشتى لهم وأعقبهم الساسانيون فاتخذوها عاصمتهم الشتوية، وبقيت كذلك زهاء ثلاثة قرون حتى تمّ استيلاء العرب عليها بعد انتصارهم على الفرس في معركة القادسية ومن بقايا عمارة الفرس في طيسفون الإيوان الكبير المسمى «طاق كسرى» القائم حتى اليوم[1].

السلوقيون: هم الحكّام الإغريق أخلاف الإسكندر الذين حكموا بابل وسوريا بعد موت الإسكندر أولهم سلوقس الأول (سلوقس نيكاتور) 321 ـ 280 ق.م. كان قائداً من قوّاد الإسكندر، فتح سوسيانا وميديا وبسط نفوذه حتى نهريّ أوكسوس والسند. شيّد له في حوالي سنة 312 ق.م. عاصمة في شمال بابل على الضفة اليمنى من نهر دجلة وسمّاها باسمه «سلوقية» كما أسس عاصمة أخرى في حوالي سنة 300 ق.م. جوار أنطاكية وسمّاها باسمه أيضاً. وتعاقب على حكم مملكة السلوقيين نحو ثمانية عشر ملكاً اشتهر منهم أنطيوخس الثالث الملقّب بالأكبر (223 ـ 175 ق.م.) وفي عهد خلفه وابنه أنطيوخس الرابع (175 ـ 163 ق.م.) حاول هذا الملك سنة 169 ق.م. القضاء على اليهودية في فلسطين وصبغ بلاد اليهود بالصبغة الهيلينية مما أفضى إلى ثورة المكابيين في فلسطين (167 ـ 37 ق.م.) وغزا هذا الملك مصر مرتين إلا أن تدخّل روما أدّى إلى إرغامه على الانسحاب منها ومن قبرص. ثم استغل الفرس ضعف المملكة بعد أن فقدت القسم الشرقي منها فظهر منهم الفرثيون أمراء الإقطاع وأخذوا يزدادون قوّة حتى تمكّنوا من احتلال العراق سنة 141 ق.م. والقضاء على حكم السلوقيين[2].

(1) انظر الفرثيون ص856، الساسانيون ص831.
(2) انظر المكابيون ص873، الفرثيون ص856.

سليمان: هو الملك سليمان بن داود من امرأته الحبشية «بتشبع» التي كانت امرأة «أوريا الحثي»[1]، وتذكر التوراة أنه حكم أربعين سنة في أورشليم، وقد اشتهر ببناء الهيكل فيها. تقع فترة حكمه بين سنة 971 ـ و931 ق.م. على وجه التقريب[2].

سمأل: مدينة آرامية قديمة كانت مركزاً لإحدى الدويلات الآرامية في شمال سوريا تقع أطلالها عند جبل «أمانوس» غربي عينتاب وتعرف اليوم باسم «زنجرلي»، وقد ازدهرت المدينة في القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد، فورد ذكر أسماء بعض ملوكها منهم «شعيل» و«كيلامو» وقد عُثر على كتابة تعود إلى عهد كيلامو سجل فيها انتصاراته على الدويلات المجاورة له فأشاد فيها بازدهار مملكته. كما ورد اسم ملك آخر يدعى «حياني» في كتابة للملك شلمنصر الثالث (859 ـ 824 ق.م.) ادّعى شلمنصر فيها أنه أخذ للجزية منه. ومن أخبار القرن الثامن قبل الميلاد أن شخصاً يدعى «عازريان» استولى على الحكم في سمأل وشكل اتحاداً مع الدويلات المجاورة لمقاومة الغزو الآشوري، إلا أن الآشوريين في عهد ملكهم تغلات فلاسَّر الثالث (746 ـ 727 ق.م.) تمكّنوا من القضاء على الحركة وقبضوا على عزريان وأعدموه سنة 738 ق.م. وأعادوا الملك الشرعي المدعو فنامو الثاني وقد نقل ابنه «بار ركوب» هذه الحوادث في كتاباته. وقد عُثر على آثار حريق في المدينة مما يدلّ على أنها انقرضت في ظروف غامضة فانقطع كل ذكر لها في عهد شلمنصَّر الخامس (727 ـ 732 ق.م.) والظاهر أنه شيّد بعد ذلك بلاط جديد حيث وجد على باب المدينة نصب أقامه سرجون الثاني (722 ـ 705 ق.م.) يشيد فيه بأمجاد عهده المزدهر وذلك بعد قضائه على الممالك الآرامية وضمّها إلى الإمبراطورية الآشورية.

السنهدرين: المجمع اليهودي الديني الأعلى[3].

---

(1) (2 صم، 12: 9، 24).

(2) انظر داود ص825.

(3) انظر الفصل الثالث ص323. وما يليها.

سورا: مدينة بابلية قديمة. كانت تقع بجوار الحلة على صدر شط النيل المتفرع من الفرات الذي كان يُعرف قديماً بنهر سورا. كانت مركزاً من المراكز الرئيسة الهامة التي تجمع فيها اليهود بعد السبي البابلي. وكانت مقر «رأس الجالوت» (الرئيس الأكبر للطائفة اليهودية). وقد أُنشئت فيها سنة 219م. مدرسة دينية يهودية كبرى ساهمت مع المدارس الدينية اليهودية الأخرى في العراق في إخراج التلمود، وبقيت مدرستها مزدهرة زهاء تسعة قرون حتى تمَّ إغلاقها، هي والمدارس الأخرى، في خلافة القادر بأمر الله (991 ـ 1031م) فانتقل عندئذ المركز اللاهوتي اليهودي إلى الأندلس. وقد اشتهر من أحبار سورا الرابي آشي الذي تسنَّم منصب رئيس مدرسة سورا مدة تزيد على خمسين سنة (375 ـ 427م).

السوس (سوسة): عاصمة عيلام الإيرانية القديمة تقع بقاياها جنوب غربي ديزفول على الضفة اليسرى لنهر الكرخة كانت تعرف عند اليونانيين باسم (سوسة) وتدعى اليوم باسم «شوش» وقد ورد ذكرها في التوراة باسم «شوش القصر»[1]. لعبت دوراً سياسياً مهماً في علاقاتها مع بلاد سومر وأكد حيث تبادل الطرفان استيلاء الواحدة على الأخرى في فترات محدودة. افتتح المدينة آشور بانيبال عاهل آشور في القرن السابع قبل الميلاد، ثم صارت للبابليين بعد اقتسام المملكة الآشورية في أيام كياخسار ملك الماذيين ونبوبلسر الكلداني، ولكنها استعادت وجودها في عهد الحكام الأخمينيين في فارس ثم استولى عليها الإسكندر وبعده أنطيوخس، إلا أنها عادت فاشتهرت في عهد الإمبراطورية الرومانية فتحها المسلمون سنة 640م ومن أهم ما عرفت به آثارها حجر قانون حمورابي الذي اكتشفه فيها دي مورجان الفرنسي كما عُثر فيها على كثير من النقوش والكتابات باللغة العيلامية[2].

سوريا: كان اليونان أول من سمى بلاد سوريا باسمها هذا مع أن شاعرهم هوميرس سمى سكانها آراميين. وقد سمّاها هيرودتس سوريا أيضاً

(1) (نح، 1: 1).

(2) انظر العيلاميون ص854.

وجاراه في ذلك سائر اليونان والرومان. وقد سُمِّيت كذلك نسبة إلى صور مينائها البحري الشهير فأبدل حرف الصاد بالسين لعدم وجود حرف ص باللغة اليونانية ويرى آخرون أن التسمية نسبة إلى أسور أو أسيريا أي بلاد الآشوريين لأن الآشوريين كانوا يتولون أعمال سوريا فنسبوا سوريا إليهم. وقد ورد ذكر سوريا في العهد القديم باسم آرام نسبة إلى آرام خامس أبناء سام بن نوح[1].

سيحون: ملك العموريين الذي تغلّب عليه الموسويون في عهد موسى واستولوا على عاصمته حشبون[2].

سين: وردت في التوراة باسم «برية سين» وصلها الموسويون في خروجهم من مصر بعد أن اجتازوا بحر سوف وبرية شور ومارة وأيليم.

سيناء: هي شبه جزيرة تقع شمال شرقي مصر، اسمها مشتق من اسم إله القمر «سين» معبود أهل جزيرة العرب وهذا ما يشير إلى اتصالها بهم منذ أزمان بعيدة. كان لشبه جزيرة سيناء موقع جغرافي خطير يجعلها بمثابة حلقة الوصل بين دول آسيا وبين دول أفريقيا. تشكّل مثلثاً مساحته 56 ألف كيلو متر مربع قاعدته البحر المتوسط وضلعه الشرقي خليج العقبة وضلعه الغربي خليج السويس ورأسه عند نقطة مفترق الخليجين في البحر الأحمر. وفي وسط هذا المثلث بين الخليجين سلاسل جبلية متّجهة من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي يتخللها عدد من الأودية يتّجه معظمها نحو الشمال وأهمها وادي العريش الذي ينتهي إلى البحر بالقرب من مدينة العريش. أما الجبل الذي صعد إليه النبي موسى لتلقي الشريعة والمسمى «جبل سيناء وجبل الله» فيقع في إحدى قمم هذه السلاسل[3]، وفي برية سيناء عند سفح جبل سيناء نزل الموسويون[4]، وقد سُمِّيت أيضاً «برية سين»[5]. وقد استعملت في التوراة

---

(1) المطران يوسف الدبس، «**تاريخ سوريا**»، ج1، م1، ص1 ـ 13.

(2) انظر عمون ص853، حشبون ص820.

(3) (خر، 34: 13 فح 16: 18).

(4) (عد 1: 1، 3: 14، 33: 15؛ خر، 10: 12، 19: 1 ـ 2).

(5) (خر، 17: 1).

كلمة حوريب للدلالة على سيناء أيضاً، فقيل حوريب، وجبل حوريب، وحوريب جبل الله بنفس معنى سيناء وجبل سيناء وسيناء جبل الله[1].

وكانت مصر الفراعنة تعتمد على سيناء في الحصول على المعادن حيث كانت لها هناك مناجم للنحاس والفيروز وبعض الأحجار منذ أقدم الأزمنة، وتدلّ الاكتشافات التي توصل إليها علماء الآثار أن سمرخت سابع ملوك الأسرة الأولى التي تبدأ في حوالي سنة 3200 ق.م. كان أول فرعون معروف عنه أنه زار مناجم شبه جزيرة سيناء، كما تدلّ على أن أربعة من ملوك الأسرة الخامسة وهم «ساهور ونوسيري ومنكهور وأيسيسي» وكذلك الملك بيبي الأول، ثالث ملوك الأسرة السادسة زاروا في الفترة (2965 ـ 2631 ق.م.) شبه الجزيرة أيضاً[2].

وفي شبه جزيرة سيناء عبد المصريون الإلهة «حاتحور» وجعلوها ربة المناجم التي استغلوها في أرض سيناء. وقد عُثر على كتابة على جدار المعبد الذي اكتشف قرب المنجم تحمل اسم رعمسيس الثاني (1300 ـ 1233 ق.م.) مما يدلّ على أن هذا الملك جدد استغلال المنجم. ويعتقد أن المحطة التي ورد ذكرها باسم «دفقة» والتي مرّ بها الموسويون بعد خروجهم من مصر تقع عند المنجم المذكور[3]، كما اكتشف في شبه جزيرة سيناء في منطقة المناجم في الموضع المسمى «سرابيط الخادم» على أقدم كتابة كنعانية بالأحرف شبيهة بالكتابة المصرية، وكانت هذه الأحرف نواة الأحرف الهجائية التي طوّرها وهذّبها الفينيقيون وأخرجوا منها الحروف الأبجدية التي أذاعوها على العالم وهي الألف باء المعروفة بهذا الاسم نفسه في اللغات الغربية أيضاً[4].

---

(1) (خر، 3: 1، 17: 6، 33: 6، 19: 18 ـ 23، 24: 16، لا، 7: 38، 25: 1، تث 1: 2 ـ 6، 19، 4: 10).

(2) أولمستد، **«تاريخ سورية وفلسطين»**.

(3) انظر دفقة ص826.

(4) انظر **«العرب مخترعو الحروف الهجائية»** الفصل الثاني ص301 وما يليها.

السينيون: سبط متسلسل من كنعان سكنوا في فلسطين منذ أقدم الأزمان وقد ورد ذكر السيني في التوراة بوصفه أحد أولاد كنعان[1].

شاؤول: تذكر التوراة أنه ملك على إسرائيل عيَّنه صموئيل آخر كبار القضاة بناء على طلب الشعب، ولكن كان على الملك أن يحكم وفق أوامر يهوه إلٰه إسرائيل ولما أهمل هذا الملك الرضوخ لأوامر يهوه المنقولة على يد صموئيل خذله الرب وأوقعه بيد أعدائه الفلسطينيين فاندحر أمامهم وقتل هو وأولاده الثلاثة في المعركة وتشير التوراة إلى أنه مات منتحراً بعد جرحه. وكان حكم شاؤول قد استمر حوالي 15 سنة بين سنة 1025 و1010 على وجه التقريب[2]. وقد تقلّد الحكم الملك داود خلفاً لشاؤول[3]، ويلاحظ أن أحد ملوك الأدوميين كان يدعى شاؤول ذلك مما يدلّ على أن تسمية شاؤول تسمية عربية سامية ترجع إلى ما قبل عصر موسى واليهود وقد تُسمّى بها الموسويون بعد اقتباسهم الثقافة الكنعانية.

شكيم: هي نابلس الحالية تحريفاً عن اسمها اليوناني «نيابولس»، أي المدينة الجديدة، تقع على بُعد حوالي ستة أميال من جنوب السامرة وعلى بُعد 34 ميلاً إلى الشمال من أورشليم، كانت إحدى المدن القديمة من أرض كنعان عدّها البعض العاصمة الطبيعية لبلاد كنعان لوقوعها في وسط فلسطين، كما اعتبرت بلدة حاصور العاصمة الطبيعية لبلاد كنعان لوقوعها في وسط فلسطين، وكان سكان شكيم الحويين وهم قبيلة من الكنعانيين[4]. وقد عثر الأركيورجي الألماني (E. Sellin) سنة 1913 ـ 1914 على أطلال المدينة التي شخصت في موضع «البلاطة» بالقرب من نابلس وتمكّن من تتبع آثار جدارها الذي أرجع تاريخه إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد[5] وشكيم هي أول مدينة

(1) (تك، 10: 17؛ 1 أخ، 1: 15).
(2) (1 صم، 31: 1 ـ 10؛ 1 أخ، 10: 1 ـ 10، 2 صم، 1: 6 ـ 10).
(3) انظر داود ص825.
(4) انظر الحويون ص823.
(5) Keller p.8.

في كنعان دخلها إبراهيم الخليل في رحلته من ساران قاصداً كنعان فبنى فيها مذبحاً للرب ثم ارتحل إلى الجنوب[1]. وعندما أتى يعقوب من فدان آرام نزل أمام شكيم وآبتاع من بني حمورابي شكيم حقلاً نصب فيه خيمته وأقام هناك مذبحاً للإله دعاه «إيل إله إسرائيل»[2] وصار هذا الحقل فيما بعد لبني يوسف ودفنت عظام يوسف فيه[3] وقد حدث نزاع بين يعقوب وأهل شكيم بسبب تحرّش شكيم بن حمور الحوي بأختهم دينة فهجم أبناء يعقوب على شكيم وقتلوا حمورا وشكيما ونهبوا مدينة شكيم وكل ما في البيوت وسبوا أهلها، وعلى أثر ذلك هجر يعقوب وعشيرته شكيم وسكن في بيت إيل حيث بني مذبحاً للإله إيل[4] وقد اتّخذ يربعام أول ملك على إسرائيل بعد الانقسام مدينة شكيم عاصمة له. ويعتقد أن القبر الحالي ليوسف في نابلس مستحدث وأن عظام يوسف نقلت من شكيم إلى مغارة المكفيلة في حبرون[5]. وبعد السبي صارت شكيم مركز العبادة السامرية[6].

شمعون: هو ابن يعقوب من امرأته ليئة، ثاني أبنائها[7].

شور: وردت في التوراة باسم «برية شور» وتقع «برية شور» مقابل مصر ما بين تخمها الشمالي الشرقي وأرض كنعان وقد قطع الموسويون هذه البرية بعد عبورهم بحر سوف (خليج السويس) في خروجهم من مصر مسيرة ثلاثة أيام دون أن يجدوا ماء[8]. وقد سُمِّيت هذه البرية باسم برية إيثام أيضاً[9]. وقد ورد ذكر عين الماء في البرية التي في طريق برية شور في قصة هرب هاجر

---

(1) (تك، 12: 6 ـ 8).

(2) (تك، 33: 18 ـ 20).

(3) (يش، 24: 32).

(4) (تك، 34: 25 ـ 29، 35: 1 ـ 8).

(5) انظر حبرون ص818.

(6) انظر السامرة ص832.

(7) (تك، 29: 33، 35: 23).

(8) (خر، 15: 22).

(9) (عد، 33: 8؛ 1 صم، 15: 7 و27: 8). انظر «إيثام» ص 794.

من وجه ساراي[1] وصار هذا المكان بعدئذ مسكن الإسماعيليين «من حويلة إلى شور التي أمام مصر»[2]، وكذلك سكن إبراهيم بين قادش وشور وتغرب في جرار[3] وسكن إسحاق عند بئر لحي رئي قرب برية شور[4].

شيلوة: مدينة شمالي بيت إيل[5] وتُسمّى الآن سيلون وهي تبعد 17 ميلاً إلى الشمال من أورشليم اختار يشوع شيلوة مقراً لتابوت العهد والخيمة.

الصدوقيون: هم فرقة من الفرق اليهودية نسبتهم إلى رائدهم الأول «صدوق»، ظهرت في عهد المكابيين[6]، كانت تنتمي إليها طبقة الكهنة وبعض الكتبة من اليهود الذين يميلون إلى مسالمة الرومان، وكان لها ممثلون في السنهدرين نحو عشرين عضواً من أصل سبعين عضواً[7]. ينكر منتسبوها البعث والنشور والقيامة لاعتقادهم بأن عقاب العصاة وإثابة المحسنين يحصلان في حياتهم وهم يخالفون الفريسيين الذين يعتقدون «أن الصالحين من الأموات سينشرون في هذه الأرض ليشتركوا في مدينة الموصل. يعزى تأسيسها إلى زمن الملك شلمنصر الأول (1274 ـ 1245 ق.م.) وسعها آشور ناصر بال الثاني عندما اتخذها عاصمة له عام 879 ق.م. كشف المنقّبون عن آثار كثيرة من قصور المدينة لا سيما قصر آشور ناصر بال الثاني وهي منحوتات وعاجيات صُنعت محلياً في نمرود بأطرزة فنية بديعة منها تمثال للملك شلمنصر الثالث منحوت نحتاً دقيقاً ومدوّن عليه موجز أعماله وكانت كالح وآشور أول مدينتين تعرّضتا لهجوم البابليين والماذيين في عام 614 ق.م. أي قبل سقوط نينوى بعامين وعمّهما الدمار بعد سقوط الدولة الآشورية[8].

---

(1) (تك، 16: 7).
(2) (تك، 25: 18؛ 1 صم، 15: 7، 27: 8).
(3) (تك، 20: 1).
(4) انظر «بئر لحي رئي» ص796.
(5) (قض، 21: 19).
(6) انظر «المكابيون» ص873.
(7) انظر «السنهدرين» ص836.
(8) انظر نينوى ص879، الآشوريون ص790.

صور: تقع على بُعد 45 ميلاً إلى الجنوب من بيروت و20 ميلاً إلى الجنوب من صيدا[1]. يرجع تاريخها إلى حوالي القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد وكانت مدينة محصّنة تذكر غالباً مع صيدا[2]. كان حيرام ملك صور قد زوّد سليمان بخشب أرز وخشب سرو وبالصناع الصوريين للعمل في إسرائيل فمنحه سليمان لقاء خدمته هذه عشرين مدينة في شمالي الجليل إلا أن حيرام لم يرض بها فسمّاها كابول[3]. هاجم شلمنصَّر الخامس (727 ـ 722 ق.م.) صور ودام الحصار خمس سنوات غير أنه لم يفز بأخذ المدينة، ثم حاصرها نبوخذ نصّر 13 سنة كان نهايته سنة 592 ق.م. كما حاصرها الإسكندر (333 ـ 332 ق.م.) فملأ البوغاز بين الشاطىء وبين الجزيرة وأخذها بعد حصار دام سبعة أشهر فقتل كثيراً من أهلها وباع كثيراً منهم عبيداً وأحرقت المدينة بالنار[4]. ثم وقعت بيد السلوقيين والرومانيين فازدهرت تحت حكم الرومان بعد سنة 64 ق.م. فتحها العرب في خلافة عمر سنة 638 م واستولى عليها الصليبيون سنة 1124م. ثم استرجعها صلاح الدين. وصور وطن إقليدس الفيلسوف اليوناني الشهير.

الصيثيون: ويقال لهم الاسكيثيون أيضاً، قبائل غير متمدنة كانت تقطن المناطق جنوبي روسيا والأقاليم شرقي بحر أورال، لغتها هندية أوروبية، عدّها بعض المؤرّخين أمة يأجوج ومأجوج لأن يأجوج ومأجوج تعم المغول وتكثر في لغتهم الجيم لا سيما في الأسماء مثل «باجو» القائد المغولي الذي احتلّ الجانب الغربي من بغداد مع هولاكو. كان الآشوريون قد تحالفوا مع الصيثيين لصدّ هجمات الماذيين والكلدانيين عليهم ولكن الصيثيين خانوا بعهدهم وغدروا بملك آشور وانحازوا إلى أعدائه في هجومهم الأخير على نينوى عاصمة الدولة الآشورية حتى تمّ سقوطها سنة 612 ق.م..

---

(1) انظر «صيدون» ص844.

(2) (يش، 19: 29).

(3) (1 مل، 9: 11 ـ 12).

(4) (حز، 26: 12؛ يوء 3: 8؛ زك، 9: 4).

صيدون (صيدا الحالية): مدينة فينيقية مبنية على ساحل البحر المتوسط على بُعد 25 ميلاً جنوبي بيروت و20 ميلاً شمالي صور، تعدّ من أقدم مدن العالم وسمّيت في أيام يشوع صيدون العظيمة أو الكبرى[1]. وكانت حينئذ أم المدن الفينيقية إذ كانت صور تعتبر إحدى مستعمرات صيدون وكثيراً ما ورد اسم هاتين المدينتين معاً[2]. وقد اشتهرت صيدون بالتجارة والملاحة والصناعة وقد أعان الصيدونيون سليمان في بناء الهيكل، وقد ذكرت التوراة أن الصيدونيين كانوا يفسدون اليهود ويقودونهم إلى عبادة الأوثان حتى أنهم تمكّنوا من استمالة الملك سليمان لبناء الهياكل إلى آلهة زوجاته الغريبات[3]. وازدهرت صيدون مدة الحكم الآشوري والفارسي استولى عليها الإسكندر سنة 333 ق.م. وكان لصيدا أيام الرومانيين ولاة ومجلس أعيان، وفي العهد الجديد سُمِّيت صيدا وزارها المسيح ﷺ، فتحها العرب في خلافة عمر (638م) اغتصبها الصليبيون وحررها صلاح الدين (1182م)، دمرتها الزلازل سنة 1837م. وأعاد بناءها سليمان باشا، زادت أهميتها بعد مدّ خط أنابيب الزيت إليها.

صين (برية): ورد ذكر هذه البرية في التوراة في قصة خروج الموسويين من مصر، وهي من ضمن منطقة التيه سُمِّيت أيضاً برية جعفر[4]، كانت على تخوم جنوب فلسطين غربي بلاد أدوم[5]. وقد ذكرت برية صين مقرونة بالتيه في برية فاران[6]. وقد ذكرت برية صين زاوية التيه الشمالية الشرقية وفاران اسم لكل التيه[7].

---

(1) (يش، 11: 8، 19 ـ 28).

(2) انظر صور ص843.

(3) (1 مل، 11: 5، 33؛ 2 مل، 23: 13).

(4) (عد، 13: 21، 34: 3).

(5) (يش، 15: 1 و3؛ عد، 20: 1، 27: 14).

(6) (عد، 13: 26).

(7) انظر «فاران» ص855.

طبرية: إحدى المدن الأربع التي يقدسها اليهود في فلسطين، أما الثلاث الأخرى فهي القدس والخليل (حبرون القديمة) وصفد. تقع طبرية شمال شرقي فلسطين على بحر الجليل الغربي الجنوبي (بحيرة طبرية حالياً) على بُعد أربعة أميال من طرفه الجنوبي[1]. شيّدها انتيباس بن هيرودس الأدومي المعتمد الروماني في منطقة الجليل سنة 16 ـ 22م. وسمّاها طبرية على اسم الإمبراطور طيباريوس. كانت مدينة ذات شأن في أيام المسيح ذكرت مرة في الإنجيل[2]، وبعد تدمير أورشليم سنة 70م، أصبحت مركزاً لليهود حيث انتقل مجمع السنهدرين من أورشليم إلى طبرية وفيها جمعت المشنة[3]. وفي أثناء حرب اليهود مع الرومانيين حصن يوسيفوس طبرية سنة 67م وفي عهد الصليبيين جرت عندها موقعة حطين التي انتصر فيها صلاح الدين الأيوبي سنة 1187م. فيها قبر النبي شعيب وقبر بنته وقبر ينسب إلى سليمان بن داود وفيها أيضاً كنيسة يقال إنها بُنيت على الموضع الذي كان فيه بيت بطرس. وقد ذكرها ياقوت الحموي في معجمه قال عنها في لحف الجبل مشرفة على بحيرة طبرية وبين البحيرة وبيت المقدس نحو من خمسين ميلاً.

طسم وجديس: من قبائل العرب البائدة ورد ذكرها في المصادر التاريخية العربية مواطنهما اليمامة أو الأحقاف أو البحرين حسب رأي بعضهم. ومما يذكر أن طسماً وجديساً كانا أخوين سكنا اليمامة معاً وهي إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها. وقد أرجع بعض الإخباريين نسب طسم إلى لاوذ بن إرم أو لاوذ بن سام وقد جعل بعض أهل الأخبار طسما من أهل الزمان الأول أو من عاد[4].

طيبة: المدينة المصرية الشهيرة حاضرة مصر الجنوبية تمييزاً لها عن أختها الشمالية «ممفيس»، موقعها على شاطىء النيل الشرقي على مسافة 650

(1) انظر «بحر الجليل» ص797.

(2) (يو 6: 3).

(3) انظر «سنهدرين» ص836.

(4) انظر «عاد» ص846.

كيلومتراً جنوبي القاهرة وحوالي 500 كيلومتر جنوبي «ممفيس». وكانت طيبة العاصمة المقدسة تتمتّع بزعامة القطر المصري بعد نشوء الإمبراطورية في سنة 1580 ق.م. حيث صارت عاصمة الإمبراطورية. ومن مآثر هذا العهد في طيبة المعابد الفخمة في الكرنك وكذلك المقابر الواسعة المبنية في الجانبين الغربي والشرقي من المدينة، وفي عهد أمنوفيس الرابع (1375 ـ 1358ق.م.)، وهو الملك الذي دعا إلى الوحدانية ونقل مقرّ العاصمة إلى العمرنة وهي أخت ـ أتون، إلا أن المدينة ظلت مزدهرة في العصور التاريخية حتى دهم الآشوريون مصر في القرن السابع قبل الميلاد حيث دمر آشور بانيبال مدينة طيبة. ثم غزا الفرس في عهد قمبيز مصر سنة 252 ق.م. واستمر العهد الفارسي حتى سنة 332 ق.م. عندما فتح البلاد الإسكندر الكبير، وفي أيام البطالمة تزعّمت طيبة ثورة الصعيد ضدهم لكن البطالمة أخمدوا الثورة، وعادت فثارت مرة أخرى على الرومان أيام واليهم كورنيليوس جاليوس فخرّب ديارهم وهدم صروحها. وصفها سترابون (24 ق.م.) بقوله: إنها مدينة قديمة يزورها السياح ليروا خرائبها وليستمعوا إلى الصوت الذي يخرج من تمثالي «ممنون»[1].

طيسفون: انظر سلوقية العراق[2].

عاد: قبيلة من القبائل العربية القديمة في شبه جزيرة العرب ورد ذكرها في القرآن الكريم، يقول الرواة وأهل الأخبار إنها من ضمن قبائل الطبقة الأولى وهي أقدم الطبقات بحسب تقسيم الإخباريين لقدم القبائل العربية وقد سُمِّيت بالعرب البائدة. ويكاد يتّفق المؤرّخون على أن هذه الطبقة تشتمل على أقدم القبائل العربية وهي عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجرهم وحضرموت ومن ينتمي إليهم وترجع إلى أبناء سام. ويرد مع قوم (عاد) ذكر نبي منهم اسمه (هود) الذي ورد ذكره في عدّة سور من القرآن الكريم، وقد ظهر لينذر قومه ويردعهم عن تماديهم في عبادة الأوثان من دون الله تعالى

(1) انظر «ممفيس» ص874.

(2) انظر ص834.

فقابلوه بالسخرية والاستهزاء إلى أن أرسل الله عليهم الريح العقيم سلّطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فأهلكهم وأبادهم، وقوم عاد الذين هلكوا هم عاد الأولى، وأما عاد الثانية فهم سكان اليمن وقيل هم ثمود[1]. ويرجّح أن مساكن (عاد) كانت تقع في أرض الأحقاف في شمال حضرموت وفي شمالها الربع الخالي وفي شرقها عمان. ويقول أهل حضرموت إن «هوداً» عليه السلام سكن بلاد حضرموت بعد هلاك عاد إلى أن مات في شرقي بلادهم على نحو مرحلتين من مدينة تريم قرب وادي برهوت، ولا يزال هذا الموضع الذي يقال له قبر هود يُزار حتى الآن يقصده الناس من أماكن بعيدة في اليوم الحادي عشر من شعبان للزيارة. وأهل فلسطين يدعون أنه دفن عندهم وقد بنوا لهم قبراً هناك. وزعم بعض الإخباريين أن (هوداً) هجر قومه بعد يأسه من قبولهم دعوته وأنه ذهب مع من آمن به إلى مكة ثم مات هناك وأن قبره موجود بمكة مع قبور ثمانية وتسعين نبياً من الأنبياء. وقد اتّخذ القحطانيون هوداً جداً من أجدادهم وألحقوا نسبهم به وتفاخروا به. والمشهور من أقوال من يتعرّضون للكلام عن قبيلة عاد وقوم هود أنهم بادوا بعد إبراهيم الخليل عليه السلام وبناء البيت بمكة. وقد ورد اسم عاد في جغرافية بطليموس باسم (Qadita).

عاي: مدينة كنعانية ورد ذكرها في التوراة مع مدينة بيت إيل حيث نصب إبراهيم الخليل خيمته بين عاي وبيت إيل[2]، وتُسمّى أيضاً عياث[3] وعيا[4]، احتلّها يشوع[5]. وتقع عاي شرقي بيت إيل و على بُعد تسعة أميال شمالي أورشليم، ويعرف موضعها اليوم باسم «خربة حيان»[6].

---

(1) انظر «ثمود» ص810.

(2) (تك، 13: 3، 3، 12: 8).

(3) (1 ش، 1: 28).

(4) (نح، 11: 31).

(5) (يش، 7: 2 ـ 5، 8: 1 ـ 29).

(6) انظر «بيت إيل» ص802.

العبري والعبيرو والخبيرو: انظر مسألة العبري والعبيرو في الفصل الخامس[1].

عبيل: قبيلة من قبائل العرب البائدة مثل «أميم» لا يُعرف عنها غير ما ذكره الإخباريون، فزعموا أن جماعة عبيل إخوان عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح أو إخوان عوص بن إرم[2] وهم الذين اختطوا «يثرب»، وكان الذي اختلطها منهم رجل يقال له «يثرب بن باثلة بن مهلهل بن عبيل». وذكر بعض السياح الأجانب أن في اليمن مكاناً يقال له عبيل وقرية تقع على طريق صنعاء تُعرف بعبال، وهذان الاسمان قريبان من اسم عبيل.

عجلون: مدينة عمورية تقع على بُعد عشرة أميال إلى الشمال الشرقي من غزة ورد ذكر أحد ملوكها باسم «دبير» تُعرف اليوم باسم «خربة عجلان». وعجلون اسم ملك الموآبيين استعبد الموسويين 18 سنة[3]. وأخذ أريحا (مدينة النخل) بتعاونه مع العمونيين والعمالقة وسكنها إلى أن قتله أهود. ذكرها ياقوت الحموي فسمّاها عجلان ووصفها بأنها ضيعة بين بيت المقدس وعسقلان فيها قلعة حصينة خربها صلاح الدين لما استنقذها من الإفرنج.

العدنانيون: يقول النسابون إن القبائل العربية تقسم إلى قسمين: بنو قحطان وبنو عدنان، وإن القحطانيين هم بنو يعرب من قحطان رأس قبائل اليمن في الجنوب ويمثّلون الطبقة الثانية من طبقات العرب بعد البائدة وهم على أقوال بعض النسّابين العرب العاربة. أما العدنانيون فهم القبائل الشمالية، منازلهم الأولى في الحجاز، وينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم، وكان إبراهيم قد أنزل ولده إسماعيل مع أمه هاجر بمكة المكرمة وشيّد البيت الحرام فكثر نسله هناك ومنه تتفرّع أنساب العرب، لذلك نسب إليه أهل الحجاز أولاً ثم انتشرت بطون عدنان في تهامة ونجد والعراق واليمن، ومنهم قبائل عنزة

---

(1) انظر ص424 وما يليها.

(2) انظر «عاد» ص846.

(3) (قض، 3: 14).

الحالية إلّا قريشاً فكانت بمكة وهي القبيلة التي ينتسب إليها الرسول ﷺ. والعدنانيون هم النزاريون أو المعديون وقيل لهم العرب المستعربة لأنهم انضموا إلى العرب العاربة من الأمم المجاورة، لذا فهم يمثّلون الطبقة الثالثة من طبقات العرب.

وكان القحطانيون الجنوبيون منافسين للعرب العدنانيين الشماليين، وظلّت الخصومة بينهما زماناً طويلاً اكتسبت لغة الجنوب (اليمن وحضرموت وعمان) على مرّ الأيام خصائص جعلتها تختلف عن لغة العدنانيين الشماليين.

واستمرت هذه المنافسة بعد الإسلام بين الأنصار وهم من أصل يمني جنوبي والمهاجرين وهم شماليون من قريش. وقد اشتهر القرشيون بفصاحتهم فسادت لهجتهم في الجاهلية أكثر أنحاء شبه الجزيرة العربية ونزل القرآن الشريف بلهجة قريش فكانت لهم السيطرة على مجرى التاريخ الإسلامي قروناً عدّة[1].

العرب: انظر بلاد العرب[2].

العرب البائدة: هم القبائل العربية القديمة التي بادت قبل الإسلام وأشهرها: عاد بحضرموت، وثمود بوادي الحجر، وطسم وجديس باليمامة، وجرهم بالحجاز، ومنهم أيضاً العمالقة وهم قدماء العرب الذين سكنوا شمال بلاد الحجاز مما يلي بلاد مصر، والشاسو (الرعاة) المعروفون بالهكسوس الذين حكموا في مصر بين سنة 1785 وسنة 1580 ق.م[3]. والعرب تعدّ القبائل البائدة سامية من نسل إرم أي آراميين إلّا العمالقة فيقولون إنه ممن نسل لاوذ بن سام أخي إرم[4].

---

(1) الدكتور جواد علي، «**تاريخ العرب قبل الإسلام**»، الجزء الأول.

(2) انظر ص801.

(3) انظر: عاد ص846، ثمود ص810، طسم وجديس ص845، جرهم ص815، عبيل ص848، حضوراء ص821، هكسوس ص880.

(4) انظر «قبائل العرب البائدة» في الفصل الثاني ص 221 ـ 223 و«القبائل الآرامية والعرب البائدة» في الفصل الأول ص111 ـ 113.

عربة: وردت هذه الكلمة في التوراة بمعنى الوادي الممتد من شمال فلسطين (جبل الشيخ) إلى خليج العقبة وطوله حوالي 250 ميلاً بما فيه الحولة وبحر الجليل والبحر الميت[1]، كما وردت كلمة عرباتي بمعنى ساكن العربة[2].

عرقة: مدينة فينيقية قديمة سكنتها عائلة كنعانية تُعرف بالعرقيين تقع على بُعد 12 ميلاً شمال شرقي طرابلس و80 ميلاً شمال صيدون وتعرف أطلالها اليوم باسمها القديم «تل عرقة». وكانت عرقة من مراكز عبادة عشتروت الرئيسة[3] والعرقيون سكان عرقة.

عشتاروت: إلهة من الآلهة الرئيسة التي كان يعبدها الكنعانيون وهي إلهة القمر ورد ذكرها في التوراة فأشارت إلى أن بني إسرائيل كانوا يعودون بين حين وآخر فيتركون الرب ويعبدونها ولعلها مرادفة للإلهة عشتار البابلية[4].

عصيون جابر: ميناء في رأس خليج العقبة على مقربة من بلدة أيلة[5] كانت آخر محطات الموسويين قبل وصولهم إلى برية صين[6]. كانت ذات شأن في زمن سليمان حيث عمل فيها سفناً لممارسة الملاحة في البحر الأحمر[7]. تكسرت فيها سفن يهوشافاط 869 ـ 848 ق.م[8].

عفرون: ابن صوحر الحثي الذي اشترى منه إبراهيم الخليل حقل المكفيلة ومغارتها في حبرون[9].

---

(1) (يش، 18: 18؛ تث، 1: 1، 2: 8؛ حز 47: 18).
(2) (2 صم، 23: 31؛ 1 أخ، 11: 32).
(3) (تك، 10: 17؛ 1 أخ، 1: 15).
(4) (قض، 12: 11 ـ 13 و17، 3: 5 ـ 7).
(5) انظر «أيلة» ص794.
(6) (عد، 33: 15؛ تث، 2: 8).
(7) (1 مل، 9: 26 ـ 28؛ 2 أخ، 8: 17).
(8) (1 مل، 22: 48).
(9) (تك، 23: 8) انظر «حبرون» ص818، «ممرا» ص874، «أربع» ص787.

عقرون: المدينة الشمالية من مدن الفلسطينيين الخمس[1] ويُسمّى موضعها اليوم «تل العاقر» عليه قرية صغيرة تبعد 12 ميلاً عن يافا إلى الجنوب الشرقي. افتتحها سبط يهوذا هي وقراها وضياعها[2]. إلا أنها أعطيت لدان[3]. ثم استردها الفلسطينيون[4]. وعاد فأخذها صموئيل منهم[5] إلا أنها رجعت بعد ذلك إلى الفلسطينيين في زمن أخزيا ملك إسرائيل (853 ـ 852 ق.م.)[6].

عكو: ميناء فينيقي قديم بشمال فلسطين هو عكا الحالية، وهذه تقع على خليج باسمها في مواجهة حيفا على بُعد ثمانية أميال شمالي جبل الكرمل، سُمِّيت بتولمايس في أيام اليونان والرومان. كانت من الحصون الشهيرة التي لعبت دوراً مهماً في تاريخ الشرق الأدنى فتحها العرب سنة 638م واحتلها الصليبيون 1104 ـ 1187م، ثم استعادها العرب سنة 1291م، وقد حاول نابليون الأول افتتاحها فأخفق في مسعاه ورجع عنها مهزوماً. احتلتها جيوش محمد علي المصرية (1822 ـ 1840م) استولت عليها بريطانيا (1918 ـ 1948م) نصّ مشروع تقسيم فلسطين (1948م) على أن تؤول إلى العرب لكن اغتصبها اليهود.

العمالقة: اسم قبائل من قدماء العرب، هم أصل سائر العرب البائدة وهو اسم شملهم جميعاً، كانت مواطنها تمتد من حدود مصر فطور سيناء إلى فلسطين، كان البابليون يطلقون عليهم اسم «ماليق» أو «مالوق» وأضاف إليها اليهود لفظ (عم) بمعنى الشعب فقالوا (عم ماليق) أو عم مالوق، فقال العرب عماليق أو عمالقة، وتؤيد التوراة (أن عماليق أول الشعوب) الذين كانت

---

(1) (يش، 13: 1).
(2) (يش، 15: 11، 45).
(3) (يش، 9: 43).
(4) (1 صم، 5: 10).
(5) (1 صم، 7: 14).
(6) انظر «الفلسطينيون» ص858.

مساكنهم تمتد من مصب النيل إلى هيت الواقعة على الفرات[1] وقد ورد في التوراة أن العمالقة من أبناء عيسو[2] وقد سكن عيسو في جبل سعير في أدوم[3]. فتح العمالقة مصر باسم الشاسو (البدو أو الرعاة) ويسميهم اليونان «هكسوس»[4] والعمالقة هم أقدم العرب زماناً لسانهم اللسان المصري الذي هو لسان كل العرب البائدة على حدّ قول أهل الأخبار، ويذكر أنهما كانوا أمماً كثيرة تفرّقت في البلاد، فكان منهم أهل عمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر وكان (عمليق) جد العمالقة. وكان العمالقة أول شعب صدم الموسويين حينما خرجوا من مصر بزعامة موسى ثم بزعامة يشوع متجهين إلى فلسطين، وظلوا يحاربونهم ويكبدونهم خسائر فادحة، وأوقعوا الرعب في نفوسهم[5]، ويتجلّى حقد اليهود على العماليق فيما قاله النبي صموئيل لشاؤول أول ملك ظهر عند اليهود حول العمالقة: «والآن فاسمع صوت كلام الرب. هكذا يقول رب الجنود إني افتقدت ما عمل عميلق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر. فالآن اذهب واضرب عماليق، وحرموا كل ما له، ولا تعف عنهم، بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً»[6]، ويرجع النسابون أنساب العرب البائدة إلى إرم وينسبون العماليق إلى أخيه لاوذ وهم في خلاف حول ذلك[7].

عمق السديم: انظر البحر الميت[8].

عمورة: إحدى مدن دائرة الأردن في عمق السديم (غور البحر الميت)

---

(1) (عد، 2؛ 20).
(2) (تك، 36: 15).
(3) (تك، 36: 8).
(4) انظر «الهكسوس» ص880.
(5) (عد، 14: 42 ـ 45؛ خر 17: 18).
(6) (1 ص، 15: 3).
(7) انظر «العرب البائدة» ص849.
(8) انظر ص797.

ذكرت في التوراة في وصف تخوم أرض كنعان[1]، اختارها لوط هي وسدوم مسكناً لأن الأرض المحيطة بها كانت خصبة أرض سقي كجنة الرب كأرض مصر[2].

العموريون: انظر «هجرة العموريين إلى الهلال الخصيب»[3].

عمون: مقاطعة جبلية في طرف البادية شرقي نهر الأردن كانت شمالي بلاد موآب وأرض جلعاد من ضمنها، والعمونيون هم والموآبيون من نسل لوط ابن أخي إبراهيم[4]. كانوا يعبدون الأوثان ومن أشهر أصنامهم مولك[5]، ويُسمَّى أيضاً ملكوم[6]، وقد طردهم العموريون بزعامة ملكهم سيحون واستولوا على أراضيهم واتّخذوا مدينة حشبون عاصمة لهم. ولما جاء الموسويون بقيادة موسى من مصر طلبوا من الملك سيحون السماح لهم بالمرور من أراضيه فرفض مما أدّى إلى نشوب حرب بينهما تغلّب الموسويون فيها «فضربوه وبنيه وجميع قومه وأخذوا كل مدنه وحرموا من كل مدينة الرجال والنساء والأطفال لم يبقوا شارداً»[7].

عناقيون: ذرية عناق أبي أربع[8] الذي منه سُمِّيت حبرون قرية أربع وذريته بني عناق[9] اشتهر العناقيون بطول قامتهم وبأسهم في الحرب، كانت مساكنهم في حبرون وغزة وجت وأشدود[10] وصفوا في التوراة بجبابرة بني عناق[11].

---

(1) (تك، 10 : 19).

(2) (تك، 13: 10) انظر «سدوم» ص833.

(3) انظر الفصل الأول ص 92 وما يليها.

(4) (تك، 19: 37).

(5) (لا، 18: 21).

(6) (1 مل، 11: 5).

(7) (تث 2: 22 ـ 25). انظر «حشبون» ص820، و«جلعاد» ص815.

(8) (يش، 15: 13 ـ 14، 21: 11).

(9) (عد، 13: 22).

(10) (يش، 11: 22).

(11) (عد، 13: 23) انظر «حبرون» ص818، و«غزة» ص855، و«جت» ص813، و«أشدود» ص789.

عوج: ملك باشان[1].

العيلاميون: أقوام أسسوا مستوطناتهم في أرض عيلام الإيرانية الواقعة على الحدود الشرقية من جنوبي العراق وهي المنطقة التي يسميها العرب خوزستان. أقاموا إحدى الحضارات الأولى المعروفة في تاريخ العالم القديم، وكانت حاضرتهم مدينة السوس القديمة وقد كان لهذه الحضارة شأن في تطور حياة الإنسان القديم. وتسمية عيلام وردت في التوراة وقد أُطلقت على هذا الإقليم بمعنى «الأرض العالية»، وكان العيلاميون أعداء بلاد سومر التقليديين بسبب الحروب المستمرة بينهم وبين السومريين التي دامت زهاء ألفيّ عام[2]. وقد ورد في التوراة ما يشير إلى أن كود لعومر ملك عيلام ومعه ثلاثة ملوك من المشرق منهم ملك شنعار (بابل) هاجموا بلاد كنعان في حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد إلا أنهم اضطروا إلى التراجع[3].

الغاسولي (العصر): هو أحد أدوار العصور الحجرية في فلسطين سُمّي كذلك نسبة إلى مجموعة الهضاب الواقعة في شرقي الأردن على بُعد حوالي خمسة كيلومترات ونصف من النهر المسماة تليلات غسول[4].

الغاؤونيم (جمع غاؤون): كلمة عبرية كانت تُطلق على الربانيين رؤساء المدرستين الدينتين اليهوديتين في منطقة بابل (فومبديثة وسورا). وقد واصل الغاؤونيم أعمالهم الدينية بعد إخراج التلمود سنة 588م. وحلّوا محل الأمورائيم والسبورائيم وكانت أعمالهم إصدار الفتاوى الدينية ليهود الشرق والغرب وكانت الأسئلة تتوارد عليهم من جميع الأقطار. استمرّت أعمالهم في هاتين المدرستين من سنة 589 إلى سنة 1038م عندما أغلقتا في خلافة القادر بأمر الله (991 ـ 1031م) فانتقل عندئذ مركز اليهود العلمي إلى الأندلس[5].

---

(1) انظر «باشان» ص796.

(2) انظر «السوس» ص837.

(3) انظر «سدوم» ص833.

(4) Keller. the bible as history 1957, p158.

(5) انظر «الأمورائيم» ص791، و«السبورائيم» ص833.

غزة: أولى مدن الفلسطينيين الخمس من الجنوب تبعد ثلاثة أميال عن ساحل البحر المتوسط وعشرة أميال إلى الجنوب من أشقلون (عسقلان)[1]، وتعدّ هذه المدينة من أقدم مدن العالم سكنها أولاً الكنعانيون[2]. ثم استوطنها بعض العناقيين[3]. أعطيت ليهوذا[4]. وهناك فعل شمشمون ما فعل من غرائب القوة الخارقة في مقاومة الفلسطينيين[5]. وكانت غزة مركزاً لعبادة داجون وبقيت هياكل هذا الإله فيها حتى سنة 400م. افتتحها العرب سنة 634م وحكمها صلاح الدين الأيوبي سنة 1170م[6].

فاران: وردت في التوراة باسم برية فاران وقد أُطلقت على جميع برية التيه التي تغلغل فيها الموسويون أربعين سنة حسب مآثر التوراة. تقع في شبه جزيرة سيناء في المنطقة التي تحدّها برية شور وأرض كنعان شمالاً[7] ووادي العربة شرقاً وبرية شور غرباً، تخترقها بعض السلاسل من الجبال الكلسية كما تخترقها أيضاً فروع وادي العريش الذي يصبّ في البحر المتوسط، وقد سُمِّي هذا الوادي باسم نهر مصر. وكان يعرف الجزء الشمالي من برية فاران الواقع على تخوم فلسطين أرض الجنوب أو الجنوب[8]. وفي هذا القسم تغرّب إبراهيم وإسحاق في بعض رحلاتهما. وقد ورد في التوراة ما يشير إلى أن هاجر اتجّهت مع ابنها إسماعيل إلى برية فاران عندما طردتها مولاتها ساراي[9] وصارت هذه البرية فيما بعد مساكن بني إسماعيل[10].

---

(1) انظر «أشقلون» ص790.
(2) (تك، 10: 19).
(3) (يش، 11: 22).
(4) (يش، 15: 47).
(5) (قض، 15: 13 ـ 16، 16: 23 ـ 30).
(6) انظر «الفلسطينيون» ص858.
(7) انظر «شور» ص841.
(8) (تك، 12: 9؛ يش 10: 40، 11: 16).
(9) (تك، 21: 21).
(10) (تك، 16: 7).

فدان ـ آرام: دويلة من الدويلات الآرامية التي أسست في الفرات الأوسط مركزها في حاران (حرّان). وحرّان كانت موقعاً تجارياً مهماً ازدهرت فيها الثقافة الآرامية. وقد وردت «فدان ـ آرام» في التوراة خاصة بمناسبة نصح إسحاق ابنه يعقوب بأن يذهب «إلى دان ـ آرام» ليأخذ لنفسه زوجة من هناك من بنات عشيرته من بنات أخي أمه رفقة وقد حذّره من أن يتّخذ له زوجة من بنات كنعان[1] وكلمة «فدان» مثل الفدان العربي معناها الحقل والسهل.

الفرثيون: هم من الأقوام الآرية ظهروا في شمال بلاد إيران في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد فتوغلوا جنوباً ثم غرباً وقد تمكّن زعيمهم المدعو «أرشاق» عام 247 ق.م. من طرد السلوقيين من إيران واستقلاله في حكمها، ثم تمكّن أحد ملوكهم المدعو «منريدات» الأول من فتح العراق سنة 141ق.م. والاستيلاء على سلوقية عاصمة السلوقيين فيها. وقد استمرّت حروب الفرثيين مع السلوقيين في بلاد سوريا ومن المدن التي سيطروا عليها تدمر في وسط صحراء الشام التي كانت مركزاً مهماً من مراكز القوافل التجارية بين الشرق والغرب. ثم بعد أن تعاظمت سلطة الرومان في الشرق بعد سقوط الدولة السلوقية انتقل الصراع من الفرثيين والسلوقيين إلى الفرثيين والرومان وتزاحموا على طرق التجارة والقوافل على الفرات وعبر الصحراء، ومن أهم المعارك بينهما معركة حرّان عام 53 ق.م. التي وقعت بين الطرفين في عهد يوليوس قيصر فتغلّب الفرثيون فيها وأبادوا الجيش الروماني عن بكرة أبيه تقريباً. ومع أن الرومان تمكّنوا من الوصول إلى طيسفون في زمن تراجان (68 ـ 117م) ولكن باءت كل محاولاتهم لفتح بلاد فارس بالفشل إذ كبد الفرثيون الرومان أفدح الخسائر بالأرواح والأموال في المعارك التي دارت بينهما ومنها المعركة الشهيرة التي دارت رحاها في نصيبين. ثم أخذ الوهن يسري في المملكة الفرثية نتيجة لمنازعات مستمرة بين الأمراء الفرثيين أنفسهم ازدادت حدّتها حتى طوّحت بالعرش الفرثي وحلّت محلها سلالة فارسية

(1) (تك، 28: 2 ـ 7، 46: 15).

ساسانية في البلاد بزعامة أردشير الفارسي الساساني عام 227 ب.م وقد ورثت عن الدولة الفرثية جميع ممتلكاتها[1].

فرزيون: جماعة من القبائل سكنوا بلاد كنعان ورد ذكرهم مع الكنعانيين[2] وذكروا أحياناً مع الرفائيين[3] ومع قبائل أخرى[4].

الفريسيون: فرقة يهودية ظهرت في عهد المكابيين[5] كان ينتمي إليها جمهرة العلماء ومعظم الكتبة وسواد الشعب وكانت لها أكثرية مقاعد السنهدرين[6]. يؤمن منتسبوها بالقيامة وبالروح وبالملائكة وغرضهم المحافظة على الشريعة والتمسّك بها مع التقاليد الحرفية التي كان يتناقلها الخلف عن السلف وكانوا يهتمون بدرس الشريعة وتفسيرها. على نقيض الصدوقيين الذين لا يؤمنون بالقيامة ولا بالروح ولا الملائكة وكانوا ينادون بوجوب فصل الدين عن الدولة[7]. والفريسيون يناقضون الصدوقيين أيضاً من حيث قبولهم بالإضافة إلى التوراة الأوامر والأحكام والنواهي التي توارثوها عن الأسلاف والأشياء الخارجة عن الوحي. ولذلك غزرت عندهم الأساطير وانغمسوا في المظاهر الكاذبة والقشور[8]. والفرقتان قاومتا السيد المسيح وورد ذكرهما في الأناجيل[9].

وكان يطلق على هذه الفرقة عدا تسمية الفريسيين لقب الربانيين لأنهم

---

(1) انظر «الساسانيون» ص831.
(2) (تك، 13: 7، 34: 30).
(3) (يش، 17: 15).
(4) (قض، 3: 5؛ 1 مل، 9: 20؛ 2 أخ ، 8: ، ؛ عز 9: 1).
(5) انظر «المكابيون» ص873.
(6) انظر «السنهدرين» ص836.
(7) (1 ع، 23: 6 ـ 8).
(8) انظر «الصدوقيون» ص842.
(9) عجاج نويهض، «**بروتوكولات حكماء صهيون**»، م2، ص135 ـ 136.

يؤمنون بما جاء في أسفار التلمود التي وضعها الربانيون وهم أحبار هذه الفرقة وفقهاؤها.

الفلسطينيون: انظر: «هجرة الفلسطينيين» في الفصل الأول[1].

فم الحيروت: موضع وقف عنده الموسويون في خروجهم من مصر قبل أن يعبروا بحر سوف[2].

فومبديثة: هو الاسم الذي أطلقه اليهود على مدينة الأنبار حيث تجمع اليهود بعد السبي البابلي، وأسسوا فيها إحدى كبريات المدارس التلمودية في العراق. ولفظة «فومبديثة» تعني «فم البداة»، والبداة ذكرها ياقوت[3] ووصفها بكونها هي والجبّة طوسجان من سواد الكوفة، وقد ذكر بنيامين التطيلي الذي زار العراق في القرن الثاني عشر الميلادي أن الأنبار هي فومبديثة وأنه يقيم فيها نحو ألفي يهودي بينهم العلماء والفقهاء[4].

فيثوم: هو إله الشمس لمدينة أون سُمِّيت مدينة المخازن التي سخرت بقايا الهكسوس في بنائها باسمه وقد ورد ذكرها مع مدينة المخازن التي سُمِّيت بـ «رعمسيس»[5][6].

الفينيقيون: انظر: «هجرة الكنعانيين» في الفصل الأول[7].

فيلون: فيلسوف يهودي عاش بالإسكندرية بين سنة 30 ق.م.، و40 ب.م.

قلاش برنيع: موضع على تخم كنعان الجنوبي[8] في برية صين[9].

---

(1) انظر ص209 من الفصل الأول.

(2) (خر، 14: 2، عد، 33: 7 ـ 8).

(3) **معجم البلدان**: 1: 770، 2: 31.

(4) انظر «الأنبار» ص792.

(5) (خر، 1: 11).

(6) انظر «رعمسيس» ص828.

(7) ص95 وما يليها من الفصل الأول.

(8) (تك، 20: 1، تث، 1: 2).

(9) (عد، 20: 1، 27: 14، 33: 36؛ تث 32: 51).

مكث الموسويون فيها عند خروجهم من مصر وأرسلوا منها رجالاً ليتجسسوا أرض كنعان[1]، واتخذوها مركزاً كل مدة إقامتهم في البرية ومنها رحلوا إلى أرض كنعان. وهناك موضع تاريخي آخر يُسمّى قادش أيضاً يقع عند منابع نهر العاصي[2].

قادش الجليل: مدينة قديمة في شمال فلسطين في الجليل يُعرف موضعها اليوم بقرية قادش تقع على بُعد عشرة أميال شمالي صفد وأربعة أميال إلى الشمال الغربي من الحولة، كانت قاعدة مهمة وأحد مراكز الهكسوس الرئيسة (1730 ـ 1580 ق.م.) افتتحها «تحوطمس الثالث» ملك مصر (1479 ـ 1447 ق.م.) في حملته المشهورة على الشرق متعقباً فلول الهكسوس. وكانت قادش في جملة المدن التي استولى عليها الملك الآشوري «تغلات فلاسر الثالث» (745 ـ 727 ق.م.) وسبى أهلها إلى آشور وذلك في حملته على فلسطين.

القبالة: كلمة عبرية معناها ما يتلقاه المرء عن السلف (أي التقاليد) وهي مزيج من الأساطير والرموز، والشعوذة والسحر، والتعاليم اليهودية الفلسفية السرية، متعارفة عند اليهود منذ أقدم العصور. وقد ظهر أثر تعاليمها واضحاً في المجتمعات الأوروبية، وبالأخص منذ القرن الثاني عشر. وخلاصة هذه التعاليم هي أن الله كائن مطلق، وأن روح الإنسان تنتقل من جسم إلى جسم حتى تعود في النهاية إلى الله وتفنى فيه. وقد أدمجت تعاليم القبالة وأسرارها ورموزها في وثيقتين هما «السفر جزيرا» أو كتاب الخلق، وهو مجموعة من الأحاديث والخطب رويت على لسان إبراهيم، و«السفر هازوهر» أو كتاب الاستنارة المعروف عادة باسم «الزوهر»، وقد كتب بلهجة آرامية يحمل على الاعتقاد بأنه وضع في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر، ويرى بعض الباحثين أنه من تصنيف موسى الليوني الإسباني[3].

---

(1) عدد، ص13.

(2) انظر «قادش الجليل» في هذه الصفحة.

(3) انظر موضوع، «القبالة والزوهر»، الفصل الثالث، ص363 وما يليها.

ويرى البعض أن أساطير القبالة وتعاليمها ورموزها، كانت على أرجح الآراء، «المنهل الذي استقت منه معظم الجمعيات السرية الغربية: من فرسان المعبد إلى البنائين الأحرار (الماسونية) نظمها ورموزها.. وأن اليهود إنما قصدوا هدم النصرانية وإزاحتها من سبيلها». وقد غدت بولونيا، وبالأخص مقاطعة بودوليا، مركزاً للحركة القبالية التي تمخضت هنالك عن سلسلة من فورات الخفاء والشعوذة. وكانت أشهر الجمعيات القبالية «طائفة الفرنكيين» نسبة إلى مؤسسها المدعو «يعقوب فرنك سنة 1755» وقد عرفوا أيضاً بـ «الزوهريين» أو «إخوان الشعلة» لانتمائهم إلى الزوهر[1].

القحطانيون: هم بنو يعرب بن قحطان، رأس قبائل اليمن، انقسموا بعد الإسلام إلى حمير وغالبيتهم من الحضر وكهلان وأكثرهم رحل ومنهم قبائل طي هي اليوم قبائل شمر. وكان القحطانيون يكتبون بالحرف المسند ولغتهم الحميرية[2] والقحطانيون على أقوال بعض النسابين هم العرب العاربة التي تمثّل الطبقة الثالثة من طبقات العرب بعد البائدة أو العرب المستعربة التي تمثّل الطبقة الثالثة على أقوال البعض الآخر. وهناك من عد العرب العاربة والعرب البائدة مصطلحين يؤديان معني واحداً[3].

القراؤون: فرقة يهودية أسّسها داود بن عنان وهو من علماء يهود العراق وهي تناهض التلمود وتدعو للاكتفاء بالتوراة، ظهرت في بغداد العباسية وفي فارس في القرن السادس للميلاد اشتهرت بالتزمت حول الطقوس والسبت، لا تزال بقية هذه الشيعة قائمة اليوم في القرم ومنهم في إسرائيل الجزء المحتل من فلسطين.

قرطاجة: من ثغور المغرب الأدنى تقع على شبه جزيرة صغيرة في خليج تونس قرب مدينة تونس الحديثة، أسسها مستعمرون من صور الفينيقية في القرن التاسع وقيل الحادي عشر قبل الميلاد. وهناك فرضة ببلاد الأندلس على البحر

---

(1) انظر «الحركة القبالية في القرن الثامن عشر»، الفصل الثالث، ص369 وما يليها.

(2) انظر «حمير» ص822.

(3) انظر «العدنانيون» ص848، «العرب البائدة» ص849.

المتوسط سُمِّيت قرطاجنة اتخذها القرطاجيون الفينيقيون قاعدة لتجارتهم في إسبانيا[1].

قطنا: مدينة سورية قديمة اتخذها الهكسوس (1875 ـ 1580 ق.م.) عاصمة لهم وتُعرف أطلالها اليوم باسم «المشرفة» في شمال شرقي مدينة حمص.

قورش: انظر الأخمينيون[2].

قيدار: هو ثاني أولاد إسماعيل بن إبراهيم[3] وهو من أشهر قبائل العرب وتُسمّى بلادهم قيدار أيضاً، وكانوا في الغالب رعاة من البدو يعيشون في خيام سوداء مع أن بعضهم كانوا متمدنين يسكنون المدن وهم الحضر. وكان بنو قيدار يتميزون ببسالتهم في الحرب وقد برعوا في الرمي بالقوس وقد نكل بهم نبوخذ نصر حين غزا بلادهم[4].

القينيون: قبيلة عربية سكنت أرض مديان بين فلسطين وسيناء وشرقي خليج العقبة وكان يثرون حمو موسى قينيا وكان القينيون أصحاب الكنعانيين والعمالقة[5].

الكاشيون: قوم من الأمم الهندو ـ أوروبية، مواطنهم في أواسط جبال زاغروس في المنطقة المعروفة بلورستان في جنوب همدان وهم أخلاف الكوتيين[6] استغلوا ضعف البلاد البابلية وخلوها من ملك قوي وجيش مدافع بعد تراجع الحثيين عنها[7] فاحتلوا مدينة بابل بقيادة زعيمهم «كنداش» وأسسوا سلالة كاشية ورثت جميع ممتلكات الدولة البابلية القديمة في العراق. بدأ حكمهم منذ أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد وانتهى سنة 1162 عندما

---

(1) انظر: بحث قرطاجة في الفصل الأول حاشية 4، ص114.

(2) انظر ص784.

(3) (تك، 25: 13).

(4) (أش، 21: 16، 42: 11؛ أر، 49: 28؛ نش، 1: 5).

(5) انظر «مدين» ص870.

(6) انظر «الكوتيون» ص865.

(7) انظر: «الحثيون» ص824.

احتلّ العيلاميون بلاد بابل وقضوا على آخر ملوك الكاشيين البالغ عددهم 36 ملكاً، وبذلك يكون الكاشيون قد حكموا 333 سنة في العراق (1595 ـ 1162 ق.م.). وقد اقتبس الكاشيون حضارة البلاد البابلية ومع أنهم كانوا جفاة فقد وجدت لهم آثار فنية مهمة وقطع دقيقة النحت والصياغة. وقد اشتهر بين ملوكهم الملك كوريكالزو الثاني (1345 ـ 1324 ق.م.) فأسس هذا الملك عاصمة جديدة في موضع عقرقوف الواقع على بُعد 25 كيلومتراً إلى الغرب من بغداد فقيل لها دور كوريكالزو أي مدينة كوريكالزو، وقد أسفرت التنقيبات التي أُجريت في هذا الموضع بين سنتي 1943 و1945 عن الكشف عن ثلاثة معابد وقصر والكشف عن صرح المدنية المزقورة الشاهقة القائمة حتى يومنا هذا على ارتفاع حوالي 170 قدماً. وقد اشتهر الكاشيون بجنيهم للخيول وتربيتها ويعزى إليهم إدخال الحصان إلى العراق لأول مرة أو شيوع استعماله في عهدهم.

كالح: ثاني عواصم المملكة الآشورية (أولاها آشور) اسمها «كالحو» وردت في التوراة بصيغة كالح، تعرف أطلالها باسم نمرود، تقع على الجانب الأيسر من نهر دجلة على بُعد حوالي 32 كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من مدينة الموصل. يعزى تأسيسها إلى زمن الملك شلمنصر الأول (1274 ـ 1245 ق.م.) وسعها آشور ناصربال الثاني عندما اتخذها عاصمة له عام 879 ق.م. كشف المنقبون عن آثار كثيرة من قصور المدينة لا سيما قصر آشور ناصر بال الثاني وهي منحوتات وعاجيات صنعت محلياً في نمرود بأطرزة فنية بديعة منها تمثال للملك شلمنصر الثالث منحوت نحتاً دقيقاً ومدوّن عليه موجز أعماله وكانت كالح وآشور أول مدينتين تعرّضتا لهجوم البابليين والماذيين في عام 614 ق.م. أي قبل سقوط نينوى بعامين وعمّهما الدمار بعد سقوط الدولة الآشورية[1].

الكتبة: وبالعبرية «سوفير» أي كاتب الأسفار: هم طائفة من الفقهاء اليهود كانت تقوم بكتاب الناموس (الأسفار الخمسة الأولى) وتدوين الأجزاء

(1) انظر «نينوى» ص879، و«الآشوريون» ص790.

الأخرى من التوراة (أي ما زاد عن الأسفار الخمسة الأولى). كان أول الكتبة وأشهرهم «عزرا» الكاتب.

خصَّ الكتبة أنفسهم بدراسة الناموس من الناحيتين المدنية والدينية وقد نتج عن قرارات كبار الكتبة ما يُعرف اليوم عند اليهود بـ «الشريعة الشفاهية» أو «التقاليد» كما خصّوا أنفسهم أيضاً بدراسة الأسفار الإلٰهية من الناحيتين التاريخية والتعليمية وكانوا يحاولون فرض تطبيق علومهم على تفاصيل الحياة اليومية.

وكان يجتمع حول كل كاتب مشهور جمهرة من الطلبة يتتلمذون على يديه وبهذه الطريقة توصلوا إلى ممارسة سلطة كبرى على عامة بلغت ذروتها في عهد السيد المسيح فكان لهم أعضاء كثيرون في السنهدرين وعليهم يقع الوزر الأكبر من الجريمة النكراء، جريمة صلب «السيد» بالاشتراك مع الفريسيين والصدوقيين.

أطلق عليهم العهد الجديد تسمية «الناموسيون» في أماكن متعددة منه[1] وقلّما ورد ذكرهم فيه منفرداً بل مقروناً مع الفريسيين الذين كانوا يشكلون معهم حزباً سياسياً[2] وصاروا يحملون فيما بعد اسم «حاخامون» أي «معلمو الشريعة».

وقد كانت هذه الطائفة من الكتبة تتمتع بسمعة سيئة كما كانت مكروهة من العامة. فالعهد القديم يتهمها بتحريف التوراة[3] ويصفها بالكذب[4] والعهد الجديد يضيف إلى ذلك وصفها بالمراءات وفساد السريرة ويشبهها بالعثور بأولاد الأفاعي ويعدّها بثماني ويلات لثماني خصال فاسدة تتّصف بها[5].

كركميش: هي جرابلس الحالية مدينة في شمال سوريا على الجانب

(1) انظر «النامسيون» ص876.

(2) انظر «الفريسيون» ص857.

(3) (أر، 8: 8).

(4) (أر، 6: 15، 8: 9؛ 1 ش، 19: 11).

(5) (مت، ص: 23).

الغربي لنهر الفرات كانت من أعظم مدن الحثيين بعد عاصمتهم «حاتوشاش» (بوغازكوي حالياً) حيث تمكّنوا من تأسيس مملكة قوية في شمال سوريا مركزها في كركميش دامت حوالي قرنين ونصف القرن (1450 ـ 1200 ق.م.) وقد سمّاها الرومان «كركيسيوم»، ثم حكمتها الإمبراطورية الآشورية وظلّت مركزاً هاماً للتجارة وفيها هزم فرعون نخو على يد الملك البابلي نبوخذ نصّر سنة 605 ق.م.[1].

كركوك: مدينة كبيرة من مدن العراق الرئيسة وأعرقها في التاريخ هي مركز محافظة باسمها، تبعد عن بغداد 288 كيلومتراً شمالاً، وقد اشتهرت بمنابع النفط فيها منذ العصور القديمة. ويقوم القسم القديم من مدينة كركوك المسمى «القلعة» فوق مستوطن أثري ورد اسمه في الألواح المستخرجة منه «أرابخا». وكانت الألواح المكتشفة فيه يرتقي تاريخها إلى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد ويعتقد أن أقدم ذكر لاسم «أرابخا» يرتقي إلى عهد حمورابي. وقد ذكرت المدينة في المصادر الآشورية بأنها مركز لعبادة الإله «أدد» كما ورد اسم المدينة في بعض المصادر الإغريقية بصيغة «أرابخيوس» (Arrapkhias). وقد ورد اسمها في المصادر الآرامية بصيغة «كرخا ـ د ـ بيت سوخ») أي مدينة السلوقيين وقد ازدهرت في العهد السلوقي في العراق (312 ـ 135 ق.م.) حيث بنى فيها سلوقس سوراً وأنشأ فيها العمارات وجعلها مركز إقليم تابع لمملكته واستمرّت في العهد الفرثي والساساني. وقد عُثر في إحدى محلات كركوك على مجموعة من الآثار يرجع زمنها إلى عهد الحضارة السومرية من عصر فجر السلالات (2600 ق.م.) قوامها أسلحة وأدوات من النحاس وأوان من الفخار. كما عُثر في جوار كركوك على آثار مدينة من عهود حضارة وادي الرافدين القديمة هي مدينة «نوزي» التي كانت مركزاً للحوريين في الألف الثانية قبل الميلاد[2].

الكرمل: سلسلة جبلية في الجليل في شمال فلسطين تمتد من ساحل

---

(1) (أر، 46: 1).

(2) انظر «نوزي» ص878، و«الحوريون» ص824.

البحر المتوسط جنوبي حيفا إلى الجنوب الشرقي في الداخل. ويبلغ ارتفاع أعلى قمة في هذه السلسلة 1740 قدماً فوق سطح البحر، كان الكرمل مأوى لعدد من الرهبان المتنسكين وتوجد فيه مغائر كثيرة من بينها مغارة إيليا.

الكلدانيون: انظر «الكلدانيون الآراميون يؤسسون الإمبراطورية الكلدانية» في الفصل الأول[1].

كنعان: انظر «البحث عن كنعان والكنعانيين» في الفصل الأول[2]

الكوتيون: أقوام جبليون نزحوا من جبال زاغروس دام حكمهم في العراق زهاء القرن (2211 ـ 2120 ق.م.)، قضوا على الدولة الأكدية في نحو عام 2212 ق.م.، اقتبسوا أصول الحضارة السومرية الأكدية وتكلموا اللغة الأكدية وكتبوا بها أخبارهم. وقد ذكر فريق من المؤرّخين أن هؤلاء الكوتيين هم أسلاف الأكراد في شمال العراق. تغلّب عليهم في آخر عهدهم أوتوهيكال أمير أوروك وبذلك يبدأ الانبعاث السومري (العهد السومري الأخير).

كورش: انظر قورش والأخمينيون[3].

كوزان: انظر تل حلف[4].

الكوشيون: نسبة إلى كوش بكر حام وأبو نمرود[5]، وقد سُمِّيت البلاد التي سكنها بعض نسل كوش باسمه وهي تمثّل جنوبي مصر[6] وكان يطلق أحياناً اسم كوش على كل أفريقيا كما كان يقرن ذكر كوش مع مصر وسبأ[7]، وقد تزوج موسى من امرأة كوشية[8].

---

(1) انظر ص201 وما يليها من الفصل الأول.

(2) انظر ص95 وما يليها من الفصل الأول.

(3) انظر الأخمينيون ص784، وقورش ص861.

(4) انظر ص807.

(5) (تك، 10: 6 ـ 8؛ أخ 1: 8 ـ 10).

(6) (حز، 29: 1).

(7) (أش، 20: 4، 43: 3، 45: 14).

(8) (عد، 12: 1).

كيش: المدينة السامية الشهيرة تعدّ من أقدم المدن السامية في جنوب العراق تُعرف أطلالها بتلول الأحيمر، وقد وصفت بكونها مدينة أُنشئت بعد الطوفان، تقع أطلالها على بُعد حوالي 25 كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من بلدة الحلة وزهاء خمسة عشر كيلومتراً إلى الشرق من بابل، كان هيكل (إيلبابا) إلٰه الحرب وزوجته عشتار مع زقورة الهيكل من ضمن منشآت المدينة الرئيسة، تمتد خرائب كيش إلى مسافة حوالي ثمانية كيلومترات طولاً وثلاثة كيلو مترات عرضاً.

لاوي: هو ابن يعقوب من امرأته ليئة (ثالث أبنائها)[1].

لخيش: مدينة العموريين قديماً، تقع في جنوب كنعان شمال شرقي مدينة غزة وتُعرف أطلالها اليوم باسم «تل الدوير» ويرى البعض أن أطلالها في تل الحصى وهو التل الذي عُثر فيه سنة 1891م على كتابات تؤيد ذلك. كانت لخيش من أهم مدن الهكسوس في القرن السابع عشر قبل الميلاد، أخذها يشوع «وضربها بحدّ السيف وكل نفس بها»[2]، صارت من نصيب ملك يهوذا، حصّنها رحبعام ملك يهوذا (931 ـ 913 ق.م.)[3]. اشتهرت لخيش في حملة سنحاريب ملك آشور سنة 701 ق.م. على مملكة يهوذا في عهد ملكها حزقيا (715 ـ 686 ق.م.) فقد احتلّ سنحاريب في هذه الحملة جميع المدن المحصنة التابعة لمملكة يهوذا باستثناء أورشليم واتخذ مقرّه في لخيش، ومنها بعث الرسل للتفاوض مع حزقيا في أورشليم بعد تطويقها وفرض الحصار عليها. فبعث حزقيا يقول لسنحاريب إنه أخطأ وإنه على استعداد لتحمل كل ما يفرض عليه على أن يرجع سنحاريب عنه، فما كان من ملك آشور إلّا أن وضع على حزقيا ثلاثمائة وزنة من الفضة وثلاثين من الذهب[4].

لقمان: اسم شخص ينتمي إلى فخذ من أفخاذ قبيلة عاد العربية القديمة ورد ذكره في القرآن الكريم وفي الشعر الجاهلي وفي القصص، ويروى عنه أنه

---

(1) (تك 35: 23).

(2) (يش، 10: 23).

(3) (2 أخ، 11: 9).

(4) (2 مل، 18: 13 ـ 16).

عمّر طويلاً فكان طليعة المعمرين[1]، وقد وصف بالحكيم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾[2]، وضربوا به المثل في كثرة الأكل فقالوا «أأكل من لقمان» وبالغ الناس في حكمته وفي عمله حتى زعموا أنه كان يدرك من الأشياء ما يعجز عن إدراكه الإنسان السوي. ويروي بعض أهل الأخبار أن لقمان بن عاد هو الذي بنى سد مأرب وأن مأرب اسم قبيلة من عاد وقد سُمِّي هذا الموضع باسمها.

لوحا الشهادة: هما اللوحان الحجريان اللذان نُقشت عليهما الشريعة الموسوية «الوصايا العشر» نزلت على موسى عندما كان فوق الجبل (جبل سيناء) وضع هذان اللوحان في تابوت العهد[3].

ليديا: إقليم قديم كان يقع غربي الأناضول (تركيا) محاذياً لساحل البحر الإيجي، عاصمته سرديس في جوار بلدة أزمير التركية الحالية، كان حلقة اتصال بين الشرق والغرب ثقافياً وتجارياً. كانت لليديا ثروة وحضارة راقية وقد وصلت إلى قمة مجدها في عهد آخر ملوكها «كرويسوس»، ضمّها الفرس الأخمينيون إلى إمبراطوريتهم عندما انتصروا على الدولة الكلدانية واستولوا على مستعمراتها، وكان ذلك سنة 547 ق.م. حين هزم الملك وأخذ أسيراً على يد قورش.

ماحوزة: مدينة بابلية كانت تقع على نهر دجلة بجوار طيسفون أسّس فيها اليهود بعد السبي البابلي مدرسة دينية كبرى ساهمت مع المدارس الأخرى في إخراج التلمود. وقد ظهر في الماحوزة عدد من مشاهير الأحبار في القرن الرابع الميلادي أشهرهم «رابا» المتوفى سنة 352 ميلادية.

مارتو: التسمية السومرية للبادية السورية الغربية حيث توجد مسارح العموريين البدو الرحل وهي التسمية نفسها لأحد آلهتهم[4].

---

(1) انظر «عاد» ص846.

(2) سورة لقمان، الآية: 12.

(3) (خر، 34: 27 ـ 29، 31: 18، 32: 15 ـ 16، انظر تابوت العهد ص.

(4) انظر: «العموريون» ص853، «ماري» ص868.

مارة: موضع في برية شور وايثام على بُعد ثلاثة أيام من موضع عبور الموسويين البحر كان فيها ينبوع مرّ جعله موسى عذباً[1].

ماري: عاصمة دولة «عمرو» السامية (مارتو) تقع أطلالها المعروفة باسم «تل الحريري» على الضفة الغربية من نهر الفرات على مسافة حوالي عشرة كيلومترات إلى الشمال من بلدة «البوكمال» وهي المدينة العاشرة التي أسست بعد الطوفان. كانت مركزاً لحضارة راقية عظم شأنها في الألفين الثالثة والثانية قبل الميلاد. نقب فيها جورج برو الآثاري الفرنسي المعروف وكشف فيها عن آثار حضارة وادي الرافدين من عصور ما قبل التاريخ ومن عصور فجر السلالات. ومن أهم الآثار التي اكتشفت فيها قصر عظيم يرجع إلى القرن العشرين قبل الميلاد يحتوي على 300 حجرة وقاعة واسعة تزيد مساحته على 15 دونماً عراقياً عُثر فيه على مجموعة من الألواح الأثرية يبلغ عددها حوالي 24000 لوح.

مانيثون: مؤرخ مصري عاش وكتب تاريخه المشهور في حدود سنة 280ق.م..

مثيبة: مصطلح أخذه العرب عن اللفظة العبرية (مثيبتا) أي المدرسة وقد كان لليهود أربع مدارس في العراق في «نهردعة» وفي «فومديثة» وفي «سورا» وفي «الماحوزة» ص[2]. كانت مثيبة «سورا» أعلى مقاماً من مثيبه فومبديثة وكان لرئيسها حق الأفضلية في المرتبة الدينية وانتخابات رأس الجالوت[3].

مجان (إقليم): هذه هي التسمية التي وردت في المصادر القديمة لمنطقة عمان الحالية الواقعة في الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة العربية. ومن المهم أنه عُثر مؤخراً على موضع في إقليم عمان يُسمّى «ميجان» أو «مجان» يقع في المنطقة قرب الساحل (ساحل الخليج) بين عمان والبحرين في فم واد

---

(1) (عد، 33: 8 و9؛ خر، 15: 33 ـ 25).

(2) راجع «نهر دعة» ص878، «فومبديثة» ص858، «سورا» ص837، و«ماحوزة» ص867.

(3) انظر «رأس الجالوت» ص827.

طويل يُسمّى «وادي شهبة». وكانت تتمتع هذه المنطقة بحضارة بحرية قديمة حيث كانت حلقة الاتصال بين مصر ووادي الرافدين ووادي نهر السند. وجاء ذكر مجان في المصادر المسمارية في أخبار الملوك الأكديين وبعض ملوك السلالات السومرية التي أعقبت العهد الأكدي فقد ذكر سرجون أنه جلب سفناً من مجان إلى ميناء عاصمته أكد وهذا يدلّ على اشتهار «مجان» بصناعة السفن والملاحة، وتشير أخبار الدولة الأكدية إلى غزو نرام سين، حفيد سرجون، لمجان حيث كان فيها مملكة يبدو من اسم ملكها «مانيئوم» أنه من العرب الساميين. والأرجح أن الطريق الذي سلكه هو طريق البحر من فم الفرات إلى الخليج ومنه إلى البحرين ثم إلى مجان أو الطريق البري الموازي للخليج بطريق الكويت والإحساء. وكانت مجان مصدراً مهماً من مصادر النحاس لسكان وادي الرافدين القدماء منذ عصور ما قبل التاريخ واستمرّت كذلك في العهد السومري والعهود التي أعقبته، وتصفها الكتابات المسمارية بأنها جبل النحاس. هذا ولا يزال النحاس موجوداً حتى الآن في الجبل الأخضر الذي ينبغي أن يكون ضمن مجان وكان يمتاز هذا النوع من النحاس بكمية القصدير التي يحتويها. وقد اشتهرت مجان أيضاً بحجر الديوريت الأسود المشهور ويرجّح أن الديوريت الذي كان ملوك العراق القديم يستعملونه في صنع التماثيل والأنصاب كان يُجلب بالدرجة الأولى من مجان.

وقد ورد مع ذكر مجان اسم موضعين آخرين في المصادر المسمارية هما «ملوخا» و«دلمون» أو «تلمون» أما الأول فلم يعين موقعه بعد بوجه التأكيد ولعله قريب من مجان. أما الثاني فهو التسمية لمنطقة البحرين الحالية[1].

مجدو: مدينة كنعانية قديمة يرجع تاريخها إلى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد، فتحها تحوطمس الثالث ملك مصر سنة 1479 ق.م. في حملته المشهورة على الشرق متعقباً فلول الهكسوس في فلسطين وسوريا ولبنان تُعرف أطلالها اليوم «بتل المتسلم» الواقع إلى الغرب من بلدة «بيت شان».

---

(1) انظر «دلمون» ص826.

مجدل جاد: مدينة كنعانية قديمة لم تزل تُسمّى مجدل وهي تبعد ميلين شرقي أشقلون ومُحاطة بأشجار زيتون وحقول مزروعات ذكرت مع لخيش[1]، وفي موضع المدينة تشاهد اليوم آثار أطلال قديمة، منها أعمدة وحجارة منحوتة وغيرها[2]. وهناك مدينة أخرى باسم مجدل إيل تقع في جوار بحيرة الحولة وهي مدينة محصّنة كما أن هناك مدينة ثالثة بهذا الاسم أيضاً على تخوم مصر الشمالية تجاه فلسطين[3].

المدراش: كلمة مأخوذة عن أصل عبري المراد بها التعليم الشفوي للتوراة ومعناها التعمّق في الدراسة. وقد تناقل العلماء اليهود هذه التعاليم شفوياً من جيل إلى جيل حتى تمّ تدوينها في حوالي القرن السادس الميلادي والمدارش هو توسع شفوي مع التصرف في النصوص التوراتية لكنه أصبح بعد تدوينه جزءاً من التراث اليهودي.

مديان أو مدين: أحد أولاد إبراهيم من زوجته قطورة[4]، نسبت إليه أرض مديان التي ذكر بعضهم أنها كانت تمتد من خليج العقبة إلى موآب وطور سيناء، وقال آخرون إنها كانت تمتد من شبه جزيرة سيناء إلى الفرات. كان شعبها يتاجر مع فلسطين ومصر ولبنان وكانوا يرافقون الإسماعيليين[5] عندما بيع لهم يوسف[6]. وسكن موسى مدة في مديان بعد هروبه من وجه فرعون لقتله مصرياً[7]، وقد تزوج هناك من ابنة يثرون كاهن مديان[8] الذي كان على ما يرجّح موحداً ويعبد الله باسم «يهوه» وهو الاسم الذي عبد به اليهود الله. ويرجّح البعض أن أصل اسم يهوه إله من آلهة البدو العرب الشماليين.

---

(1) انظر «لخيش» ص866.
(2) (يش، 15: 37).
(3) (أر، 44: 1، 46: 14؛ خر 30: 6).
(4) (تك، 25: 1 ـ 4).
(5) انظر «الإسماعيليون» ص788.
(6) (تك، 37: 28).
(7) (خر، 2: 11 ـ 15).
(8) (خر، 2: 16 ـ 22).

مردوخ بلادان: (ويدعى أيضاً بردوخ بلادان) الملك الكلداني (ملك القطر البحري) الذي حكم في بابل خلال الفترة الواقعة بين سنة 721 وسنة 711 ق.م..

المسند (خط): انظر حمير[1].

المشنة: انظر تلمود[2].

معكة أو (آرام معكة): مملكة آرامية صغيرة كانت تقع على تخم فلسطين الشمالي ورد ذكرها في التوراة أكثر من مرة[3].

معين وسبأ: التسمية العربية القديمة للمنطقة التي تشمل منطقة اليمن الحالية، والشائع عند الأكثرية أن دولة معين كانت أول دولة ازدهرت حضارتها في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية وذلك في حدود 1300/ 1200 ـ 700/ 650 ق.م. ولكن بعض الباحثين يعينون بداية المملكة المعينية في الألف الثانية وحتى في الألف الثالثة قبل الميلاد. وقد وجد الباحثون في النقوش المعينية أسماء 26 ملكاً من ملوك معين. وكانت عاصمة الدولة المعينية «قرناو» وهي الآن في الموضع المسمى معين في الجزء الجنوبي من الجوف إلى الشمال الشرقي من صنعاء. وقد ازدهرت دولة معين في جوف اليمن بين نجران وحضرموت وشملت في عهد ازدهارها جميع جنوب الجزيرة تقريباً وامتدّت حتى الحجاز شمالاً. وكان يسري نفوذها إلى أجزاء الجزيرة الأخرى. وعلى الرغم من أن النقوش المعينية التي عثر عليها المنقّبون ترجع إلى بداية الألف الأولى قبل الميلاد غير أن هناك دلائل ثابتة على أنه كان للمعنيين القدماء علاقات واتصالات مع الأكديين والسومريين والبابليين والكنعانيين والعموريين ويرجع اتصالهم بالعراق إلى عهد نرام سين الفاتح الأكدي المعروف، وكان يجري هذا الاتصال وأهمه تجاري عن طريق القوافل التي تتجه من اليمن شمالاً بموازاة البحر الأحمر تقريباً عن طريق مكة والمدينة

(1) انظر ص822.

(2) انظر ص351 وص809.

(3) (2 صم، 10: 6؛ 1 أخ، 19: 6، 7).

إلى تيماء[1] ثم بطريق جبل شمّر إلى العراق (بلاد بابل). وهناك طريق يتّصل من مكة والمدينة بالبتراء يتشعب منه طريق في الشمال إلى مصر وسوريا ويصل الفرع الذاهب إلى بلاد الشام إلى البحر المتوسط في غزة.

أما أهل سبأ فكان موطنهم في جنوبي الجزيرة في الزاوية الجنوبية الغربية منها. وكانت عاصمتهم الأخيرة «مأرب» (مربابة) تقع إلى الشرق من صنعاء بحوالي 60 ميلاً. وكان الملوك السبئيون الأوائل يعاصرون ملوك معين وأن السبئيين ورثوا عن المعينيين مملكتهم وسلطانهم. وبلاد اليمن لم تشتهر بالتجارة وحسب بل كانت قد اشتهرت أيضاً بمشاريعها الزراعية المرتكزة على الإرواء الاصطناعي فأقاموا السدود والخزّانات مما ساعد على إعمار مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية وجعلها قابلة لسكنى البشر بمستوى عال من العيش، وبذلك تكون حضارة اليمن شبيهة بالحضارات القديمة التي نشأت في وادي الرافدين وفي وادي النيل والتي ازدهرت على الري والزراعة، وأن قصة سد مأرب وما اشتهر به أهل اليمن من العناية في شؤون الري والزراعة يؤكد ذلك. وقد ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى النعيم الذي كان يتمتع به أهل سبأ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾[2][3].

وأقدم ذكر للسبئيين في المصادر المسمارية ورد في أخبار الملك الآشوري «تجلات بلاسَّر» الثالث (745 ـ 727 ق.م.) حيث يذكر أنه في السنة 732 ق.م. أخذ جزية من الملكة شمسي (ملكة العرب) التي حنثت بيمين طاعتها ولكن رجع قومها السبئيون إلى الطاعة، وقد ذكر هذا الملك بعض القبائل والأقوام العربية ممّن دفع له الجزية.

وموقع بلاد اليمن بين الحضارتين ـ حضارة وادي الرافدين وحضارة

(1) انظر «تيماء» ص809.
(2) سور سبأ، الآيتان: 15 ـ 16.
(3) انظر «حمير» ص822.

وادي النيل ـ كانت أشبه بهمزة الوصل بينهما ومما لا شك فيه أن تكون الجزيرة العربية قد تأثرت بهذين المركزين الحضاريين كما اتصلت الجزيرة العربية بالهند وبحضارة وادي السند عن طريق البحر.

المغتسلون: انظر الأسينيون[1].

المكابيون: أسرة يهودية ظهرت في فلسطين في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد تزعمت الثورة ضد محاولة السلوقيين (خاصة في عهد أنطيوخس الرابع، أبيفان، 175 ـ 164 ق.م.) القضاء على اليهودية وإرغام اليهود على الأخذ بالديانة الهيلينية الوثنية حيث دمَّر الهيكل وأوقفت عبادة يهوه، فكوّنت هذه الأسرة جيشاً سرياً في الجبال نظم على طريقة حرب العصابات وتمكّنت من التغلّب على الجيش السلوقي والحصول على حكم ذاتي في أورشليم كان يقوى أحياناً ويتقلّص أحياناً أخرى باستيلاء الرومان على سوريا. وقد استمرت سلالة هذه الأسرة المكابية على رأس السلطة في أرض اليهودية 130 عاماً وذلك بين عام 167 و36 ق.م. وقد تناول سفرا المكابيين في آخر العهد القديم بحث القسم الأول من العصر المكابي. ويجمع الباحثون والمؤرّخون على أن الوقائع التاريخية التي تناولها هذان السفران معترف بصحتها من حيث الخطوط الرئيسة العامة.

مكفيلة (مغارة): حقل في حبرون كانت فيه المجارة التي اشتراها إبراهيم من عفرون الحثي لتكون مقبرة لأسرته[2] وفيها دفن إبراهيم[3] وسارة[4] وإسحاق ورفقة وليئة[5] ويعقوب[6]. وهذه المغارة تقع ضمن الحرم الإبراهيمي في الخليل. وقد اختلفت الأقوال في زمن إقامة هذا البناء فظن بعضهم أنه من

---

(1) انظر ص789.

(2) (تك، ص23).

(3) (تك، 25: 9).

(4) (تك، 23: 19).

(5) (تك، 49: 31).

(6) (تك، 50: 13).

أيام داود وسليمان وغيرهم أنه أقيم بعد السبي والبعض الآخر أنه من أيام هيرودس.

ممرا: انظر حبرون[1].

ممفيس: المدينة المصرية الشهيرة حاضرة مصر الشمالية تمييزاً لها عن أختها الجنوبية «طيبة». موقعها على شاطىء النيل الغربي على مسافة زهاء 14 ميلاً جنوب القاهرة وأسسها الملك منا مؤسس السلالة الأولى (3400 ـ 3200 ق.م.) لتكون عاصمة المملكة الموحّدة بالنظر لموقعها المسيطر على المملكتين الشمالية والجنوبية. وكانت يومئذ تعرف بالقلعة البيضاء، ومن أسمائها «منف» وهو مختصر من اسم مركب كان لحي من أحيائها فغلب لشهرته وأصبح علماً على المدينة كلها. وظلت منف عاصمة الملك أيام الدولة القديمة، وحين غدت طيبة متمتعة بالزعامة على القطر المصري بعد نشوء الإمبراطورية فيه سنة 1580 ق.م. أصبحت منف مركزاً حربياً تدبر فيها شؤون الحرب والدفاع وشؤون التموين وفيها مقرّ الجيش. وفيها يقيم الأمراء ممن آلت إليهم ولاية العهد. فيمارسون هواياتهم الرياضية والعسكرية ويشرفون على الجيش، وفيها يحتفل بمختلف الأعياد القومية وفيها يتوّج الملوك وعلى أطرافها الشمالية من شرقي النيل ضرب عمرو بن العاص فسطاطه حين دخل المسلمون. ثم نزلت بها المحن تباعاً، فلم يبق منها غير أطلالها من مختلف العصور حول قرية ميت رهينة[2].

منسى: هو بكر يوسف من أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون[3].

موآب: مقاطعة يتاخمها العمونيون من الشمال والآدوميون من الجنوب، تقع في سهل مرتفع في شرقي البحر الميت، تحدّه غرباً سلسلة من الجبال وهي تصلح لرعي المواشي، أول من سكنها الموآبيون وهم من نسل لوط ابن أخي إبراهيم[4]، وكانت مساكنهم في «عار». ولما حاول الموسويون المرور

---

(1) انظر ص818.

(2) انظر «طيبة» ص845.

(3) (تك، 41: 52).

من بلادهم عند صعودهم من مصر عارضوهم إلا أنهم عادوا وأذنوا لهم أن يمروا بتخمهم الشرقي على أن يأخذوا منهم أثمان المأكول والمشروب فضة[1]. وفي عهد القضاة هاجم عجلون ملك موآب ومعه العماليق الموسويين وبقوا في عبودية بني عمون 18 سنة حتى قتل عجلون[2] وقد استولى داود على موآب ثم صارت إلى إسرائيل بعد التقسيم، وفي آخر عهد يورام ملك إسرائيل (852 ـ 841 ق.م.) استقلت موآب في عهد ملكها ميشع الذي خلَّد انتصاراته على مسلة تعدّ من أهم مخلّفات ذلك العصر. وتمتاز هذه المسلّة في كونها تحمل كتابة تعدّ من أقدم الكتابات السامية.

موسى: هو النبي موسى، تعترف بنبوّته الديانات السماوية الثلاث، تروي التوراة عنه قصة رميه المشهورة في النهر طفلاً وانتشال ابنة فرعون له[3].

مولك: إله من الآلهة التي كان يعبدها بنو عمون وقد ورد في التوراة ما يشير إلى أن اليهود تركوا الرب وعبدوا مولك رجس بني عمون[4].

الميتانيون: انظر الحوريون[5].

الميديون: جماعات من الأقوام الهندو ـ أوروبية كانت تقطن القسم الشمالي الغربي من بلاد فارس الحالية وكانت بلادهم منقسمة إلى إمارات صغيرة هاجمها الملوك الآشوريون على التوالي منذ عهد شلمنصر الثالث حتى عهد سرجون الثاني، ثم ظهر أحد أمرائها الأشدّاء المدعو سياكسريس (625 ـ 593 ق.م.) فوحَّد الإمارات تحت سيطرته واستولى على الأقاليم الآشورية شرقي الدجلة ثم على عاصمتها نينوى سنة 612 ق.م. بالتعاون مع الكلدانيين[6]، كما أنه استولى على بلاد أرمينية وإيران الشرقية إلا أن انتصاراته

---

(1) (تث، 2: 28 ـ 29).

(2) (قض، 3: 13 ـ 20).

(3) انظر الفصل السادس، ص 462 وما يليها.

(4) (1 مل، 11: 1 ـ 8).

(5) انظر ص824.

(6) انظر «الكلدانيون» ص865.

هذه لم تدم طويلاً إذ لم تلبث إمبراطوريته أن استولى عليها قورش الأخميني وأصبحت ميديا جزءاً من الإمبراطورية الفارسية سنة 550 ق.م. وقضى على الدولة الكلدانية في العراق[1].

نابلس: انظر شكيم[2].

الناصي: كلمة عبرية كانت تُطلق على رؤساء ووجهاء وزعماء الطائفة اليهودية، والناصي باللغة العربية من نصا وانتصى والناصية الرأس ونواصي الناس أشرافهم[3].

الناصرة: مدينة بشمال فلسطين اشتهرت بكونها وطن السيد المسيح مدة طفولته وصباه، تبعد 14 ميلاً عن بحر الجليل و66 ميلاً عن أورشليم، ذكرت 290 مرة في العهد الجديد. ويذكر ياقوت أن اسم النصارى اشتقّ منها. وهي اليوم مركز يحجّ إليه المسيحيون وبه أضرحة كثيرة وكنائس قديمة.

الناموسيون: هم رجال القانون والفقه والشريعة اليهودية ولقد تكالبوا على الدنيا وأنذرهم المسيح بالويلات بقوله: «الويل لكم يا علماء الناموس فإنكم أخذتم المعرفة فلم تدخلوا أنتم والداخلين منعتموهم»[4] ومن هؤلاء فريق يُعرف بالكتبة وكانوا هم والفريسيون على وئام حتى أن السيد المسيح هدّدهم بالويلات لأنهم يتمسكون بحرفية الشريعة لا بجوهرها وروحها[5].

النبط: انظر الأنباط[6].

نبوبولصّر: مؤسس السلالة البابلية الأخيرة أو المملكة الكلدانية تمكّن بمساعدة ملك الميديين من الاستيلاء على عاصمة الآشوريين «نينوى» سنة

---

(1) انظر «الأخمينيون» ص784.
(2) انظر ص840.
(3) **صحاح الجوهري** 1: 557.
(4) (يع 11: 52).
(5) (مت، ص: 23)، انظر «الفريسيون» ص857.
(6) انظر ص792.

612 ق.م. بعد حملات شديدة ومقاومة عنيفة، ثم حارب المصريين الذين كانوا قد بسطوا سلطانهم على سوريا وفلسطين فغلبهم في معركة حاسمة بقيادة ابنه نبوخذ نصّر وقعت بين الجيشين في كركميش (جرابلس) سنة 605ق.م. وقد دام حكم نبوبولصر 21 عاماً بين سنة 626 وسنة 65 ق.م[1].

نبوخذّ نصّر: أشهر ملوك الدولة الكلدانية خلف أباه الملك نبوبولصر في حكم دام 43 سنة بين سنة 605 و562 ق.م. قضاها في توسيع نفوذ مملكته وتعمير عاصمته بابل ومعابدها. وقد خاض نبوخذ نصّر معارك حاسمة حققت له إبعاد النفوذ المصري عن المناطق التي خضعت لسلطانه. ومن حملاته حملتاه على مملكة يهوذا في سنة 597 ق.م. ثم في سنة 586 ق.م[2].

نبونيدس: هو آخر ملوك الدولة الكلدانية حكم 17 سنة بين سنتي 556 و539 ق.م. قضى آخر عشر سنوات منها في شمال الجزيرة العربية بعد أن تمّ له احتلال أهم مدنها تيماء والجوف ويثرب (المدينة المنوّرة) تاركاً عاصمته بابل تحت حكم ابنه بلشازار حتى استولى قورش ملك فارس على بابل سنة 539 ق.م. فقضى على مملكة بابل الكلدانية.

نجران: اسم بلدة بجوار الكوفة عمّرها مسيحيو نجران اليمن على أثر جلائهم من الجزيرة العربية في عهد الخليفة عمر (رضي الله عنه) وقد سموها باسم بلدهم الأصلي نجران[3].

نفتالي: ابن يعقوب من بلهة جارية راحيل (ابنها الثاني)[4].

نهر أبان: قرية من طاسيج الكوفة لجأ إليها مسيحيو نجران اليمن على أثر إجلائهم من الجزيرة العربية في عهد الخليفة عمر (رضي الله عنه)[5].

---

(1) انظر «الكلدانيون» ص865.

(2) انظر «الكلدانيون».

(3) (ياقوت، 4: 757).

(4) (تك، 30: 8، 35: 25).

(5) (ياقوت 4: 758).

نهر بيكور: مدينة بابلية كانت أكثرية سكانها من اليهود الذين جيء بهم إلى بابل إبان السبي البابلي.

نهر دعة: مدينة عراقية قديمة في الفرات الأوسط (بجوار عانة). وهي إحدى المدن العراقية الأربع التي أسّس فيها اليهود مدارس دينية كبرى تعاونت فيما بينها في إخراج التلمود البابلي. وقد كان اسم «نهر دعة» يُطلق على كل منطقة الفرات الأوسط ومن ضمنها الأنبار. وقد تعرّضت مدينة «نهر دعة» إلى هجوم أذينة الثاني، ملك تدمر، بعد انتصاره على الملك سابور الأول سنة 262م، فبعد أن فتحها هدمها بكل ما فيها ولم تسلم مدرستها من الهدم فانتقلت إلى «ماحوزة»[1]. وكان من أشهر أحبار مدرسة «نهر دعة» الرابي صموئيل المتوفى سنة 254م أي قبل حادثة غزو المدينة بثماني سنوات.

نوزي: من المدن القديمة في منطقة كركوك كانت تُعرف باسم «كاسور» ازدهرت في العهد الأكدي ثم استولى عليها الحوريون بعد أن نزحوا من موطنهم الأصلي «أورارتو» (أرمينيا الحالية) فأسسوا مركزاً مهماً في شمال العراق وفي منطقة البليخ والخابور (خابور الفرات) في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد وقد اندمج هؤلاء الحوريون بالشعب الأكدي السامي وغيّروا اسم البلدة فسموها «نازي». تعرف أطلال المدينة باسم «ويران شهر» أو «يورغان تبة» وتقع على بُعد حوالي ثمانية أميال من جنوب شرقي كركوك. وقد نقبت فيها في عامي 1925 ـ 1926 بعثة مشتركة من المتحف العراقي والمدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية عثرت خلال تنقيباتها على نحو 500 لوح من الطين، ثم استؤنف التنقيب من سنة 1927 إلى 1931 من قبل جامعة هارفرد الأميركية فعثرت على بقايا بيوت سكن خارج التل وعلى قصر ومعابد في التل ووجدت مجموعات أخرى من ألواح الطين. وتوجد قرب أطلال «نوزي» تلول أثرية معظمها يمثّل مستوطنات من عصور ما قبل التاريخ، منها تلا قادش: قادش الكبير وقادش الصغير.

---

(1) انظر «ماحوزة» ص867، «فومبديثة» ص858، «سورا» ص837، «هوزال» ص880.

نينوى: ثالثة عواصم المملكة الآشورية خلفت العاصمة القديمة «آشور» والعاصمة الثانية «كالح» المعروفة بنمرود الآن[1]. تقع أطلالها على مسافة كيلومتر واحد من الموصل على الجانب الأيسر من نهر دجلة وهي تشتمل على الموضعين المعروفين بالنبي يونس وتل قوينجق والسور الذي يحيط بالمدينة، اسمها سومري الأصل وقد حافظت عليه في المصادر اليهودية[2] وفي المصادر العربية بصيغة نينوى. اتخذها الملك سرجون الثاني (721 ـ 705 ق.م.) عاصمة له تاركاً العاصمة الآشورية الثانية« «كالح» ثم عاد فترك نينوى وأسّس عاصمته الجديدة في خرسباد. بلغت نينوى أوج ازدهارها في عهد الإمبراطورية الآشورية الأخيرة أي خلال حكم سنحاريب وأسرحدون وآشور بانيبال، ومن أهم آثارها قصر أسرحدون الواسع في موضع النبي يونس حيث جمع هذا العاهل الكبير عشرات الألوف من الألواح المكتوبة بشتى أنواع المعرفة والأدب في مكتبة خاصة وقد عثر المنقّبون البريطانيون على هذه المكتبة التي كشفت عن الكثير من حضارة وادي الرافدين وتاريخه. تمَّ الاستيلاء على المدينة على يد الجيوش المادية والبابلية المتحالفة سنة 612 ق.م. ولم تقم للآشوريين قائمة بعد هذا الخراب.

هاسكالا Haskala: كلمة عبرية معناها «الاستنارة والتقدّم» وهي الحركة التجددية التي ظهرت في القرن التاسع عشر في حياة اليهود الاجتماعية في شرق أوروبا، حركة إصلاح ديني استهدفت إعادة النظر في تفسير مبادىء الديانة اليهودية لجعلها أكثر ملاءمة لظروف العصر والبيئة. وكان أهم ما تضمّنته هذه الحركة حذف الصلاة من أجل استعادة أرض صهيون، والدعوة إلى إدخال الدروس العلمانية في مناهج التعليم في الأوساط اليهودية. كانت «فلنا» في شمال روسيا و«أوديسا» في الجنوب المركزين الرئيسيين لنموّ هذه الحركة فقد ظهر فيها عدد من الأدباء كتبوا في الأدب العبري نثراً وشعراً مما أدّى إلى الانبعاث الثقافي العبري وانبثق عن هذه الحركة أدب يهودي جديد

---

(1) انظر: «آشور» ص790، «كالح» ص862.

(2) (يون، 3: 3).

بلغة اليديش (الألمانية القديمة) وهي لغة العامة عند اليهود. وكان من جملة ما جاءت به هذه الحركة الدعوة إلى استعمال هذه اللغة بدلاً من العبرية في المواعظ الدينية في الكنائس اليهودية وقد كادت هذه الحركة أن تجرّ إلى الاندماج في البيئة المحيطة بها، غير أن المجزرة الدموية التي حدثت في روسيا ضد اليهود سنة 1881 حوّلت الهاسكالا من الاندماج إلى الانبعاث القومي والروح الانعزالية وإلى نموّ الحركة الصهيونية وإلى اتساع الحركات الاشتراكية بين العمال اليهود[1].

الهكسوس: انظر «هجرة القبائل العربية إلى مصر في الفصل الأول[2]».

هوراس (أفارس): اسم المدينة التي أنشأها الهكسوس في شمال الدلتا الشرقي لمصر واتخذوها عاصمة لهم ومنها كانوا يحكمون مصر الوسطى. كانت تُسمّى لدى الهكسوس «حات وعرت» (هوراس)، ثم أطلق عليها اليونان اسم «تانيس»، ثم أطلق عليها العرب الاسم الحالي «صان الحجر» وقد عثر فيها مؤخراً على آثار الملك شيشنق، ويرى الخبراء أن مدينة رعمسيس التي بناها رعمسيس الثاني بعد طرد الهكسوس من البلاد بُنيت في موقع هوراس نفسه[3][4].

هود: انظر عاد[5].

هوزال: مدينة بابلية سكنها اليهود بعد السبي البابلي أسّس فيها التنائيّون في أعقاب ثورة باكوخبا مدرسة دينية سنة 132م.

هيرودس: هو المعروف باسم هيرودس الكبير عيّنه الرومان ملكاً على

---

(1) راجع نجدة فتحي صفوة، «اليهود في روسيا القيصرية من الاندماجية إلى القومية»، في **مجلة مركز الدراسات الفلسطينية**، م2، العدد الرابع، أيلول 1973، ص107 ـ 173.

(2) انظر ص 126 ـ 127.

(3) انظر رعمسيس ص828.

(4) (الدكتور باهور لبيب، «الهكسوس عاصمة ملكهم»، **المقتطف** يونيو، 1942.

(5) انظر ص846.

فلسطين بعد القضاء على المكابيين[1]، وهيرودس أدومي الأصل، أبوه أدومي وأمه ابنة أحد الأمراء العرب الأنباط اختلط مع اليهود بصلة الزواج. وقد اتّسم حكمه الذي دام 33 عاماً بين سنة 37 وسنة 4 ق.م. بالاستبداد والقسوة والوحشية. والمشهور عنه أنه قام بأعمال عمرانية واسعة أهمها بناء الهيكل من جديد استرضاء لليهود.

الهيروديون: طائفة سياسية من اليهود كانوا يميلون إلى هيرودس الكبير لكي يقربهم من الرومان.

وادي ابن هنّوم: يقع هذا الوادي جنوبي أورشليم وغربيها ورد ذكره في التوراة باسم وادي هنوم[2].

وادي قدرون: يقع هذا الوادي شرقي أورشليم ومعنى وادي قدرون الوادي الأسود ويُسمَّى أيضاً «وادي يهوشافاط» وهو بين سور المدينة من الجانب الشرقي وجبل الزيتون ويُعرف اليوم باسم «ستي مريم»، وقد ورد ذكره في التوراة عند ذكر هروب الملك داود من وجه ابنه أبشالوم[3].

ويران شهر: انظر «نوزي»[4].

يافا: من أقدم المدن الكنعانية في فلسطين سمّاها قدماء المصريين «يابو»، تقع على شاطىء البحر المتوسط على بُعد 35 ميلاً إلى الشمال الغربي من أورشليم. كانت يافا ميناءً هاماً فضلاً عن كونها الفرضة الطبيعية لمدينة أورشليم، فمن طريق ميناء يافا نقلت أخشاب أرز لبنان لبناء هيكل سليمان[5]. وكانت يافا من جملة المدن التي كان قد احتلّها تحوطمس الثالث (1479 ـ 1447 ق.م.) في حملته المشهورة على بلاد الشرق. وما يزال أهل

---

(1) انظر «المكابيون» ص873.

(2) (يش، 15: 8؛ نح 11: 30).

(3) (2 صم، 15: 23 و30).

(4) انظر ص878.

(5) (2 أخ، 2: 16).

يافا يروون قصة احتلالها وخلاصتها أن أحد قواد تحوطمس دعا أمير يافا إلى وليمة أسكره فيها وقتله وبعث بمن نقل إلى الأميرة بأن زوجها قتل قائد الحملة وأنه في طريقه إلى يافا مع 500 كيس من الغنائم ففتحت أبواب المدينة لاستقبال زوجها مع الغنائم وإذا بخمسمائة جندي مصري دخلوا المدينة واحتلوا حصنها. تبادلها المكابيون والسلوقيون. هدمها سباسيان قائد حملة نيرون الرومانية سنة 67 ـ 68م. أصبحت من ضمن الفتوحات العربية الإسلامية في القرن السابع الميلادي، استولى عليها الصليبيون في القرن الثاني عشر ثم استعادها العرب. دخلها نابوليون سنة 1799 والبريطانيون في أعقاب الحرب العالمية الأولى سنة 1917.

يبنة أو يبنئيل: مدينة قديمة في جنوب فلسطين كانت تقع في أرض يهوذا[1]، اشتهرت في حروب المكابيين، وبعد خراب أورشليم سنة 70م، اتخذها اليهود مقراً لمجلسهم الديني (السنهدرين) وهي ما تزال في موقعها نفسه وتُسمّى بنفس اسمها القديم وعليها اليوم قرية تقع على بُعد 13 ميلاً من جنوب يافا وثلاثة أميال شرقي البحر.

اليبوسيون: انظر الملحق الأول «أورشليم في أول عصورها».

يثرون: كاهن مديان حمو النبي موسى وهو من القبائل القينية العربية.

يساكر: ابن يعقوب من امرأته ليئة، خامس أبنائها[2].

اليطوريون: نسبة إلى يطور أحد أبناء إسماعيل[3]. وهم من العرب كانوا يجاورون أرض النبط اجتاحوا في أواخر القرن الأول قبل الميلاد مدن السواحل الفينيقية. ويطور اسم مقاطعة خصبة غزيرة المياه كان اسمها على الصيغة اللاتينية «أيطورية».

---

(1) (يش، 15: 11؛ 2 أخ، 26: 6).

(2) (تك، 30: 18، 35: 23).

(3) (تك، 25: 15؛ 1 أخ، 1: 31، 5: 19).

يعقوب: انظر إسرائيل[1].

اليمن: انظر معين وسبأ[2].

اليهودية الأرثوذكسية: كلمة أصلها يوناني ومعناها «العقيدة القويمة أو الملتزمة». كانت قد نشأت في بابل حوالي السنة 400 ق.م. وقد سبق أن أُعطيت لليهود في تشريعات عزرا ونحميا. وهذه الأرثوذكسية اليهودية التي تؤمن بالتلمود هي المسيطرة والحاكمة في إسرائيل.

يهوذا: ابن يعقوب من امرأته ليئة (رابع أبنائها)[3]، كان هو الذي اقترح على إخوته بيع يوسف لكي يخلصه من الموت[4]، اشتقّ اسم يهود منه بعد الانفصال وتأسيس مملكة يهوذا[5].

يوبيل: اسم عبري معناه الأصلي النفخ في البوق لأنهم كانوا ينفخون في الأبواق في يوم الكفارة من سنة اليوبيل، وهي السنة التي تلي أسبوع الأسابيع أي السنة الخمسين. ففي هذه السنة كانت الأشخاص والعائلات والعشائر تعود إلى حالتها الأصلية. وفيها كان يجري تحرير العبيد العبراني الأصل، وجميع الرهائن والأراضي إلى أصحابها الأصليين[6].

يورغان تبة: انظر نوزي.

يوسف: ابن يعقوب من امرأته راحيل، ابنها الأول[7].

يوسفوس: كاهن ومؤرّخ يهودي عاش في القرن الأول للميلاد له عدّة مؤلفات في تاريخ اليهود القديم.

---

(1) انظر ص788.
(2) انظر ص871.
(3) (تك، 29: 35).
(4) (تك، 37: 26).
(5) (يش، 15: 1 ـ 11).
(6) راجع **قاموس الكتاب المقدس**، الطبعة الجديدة لسنة 1971، ص1104.
(7) (تك، 35: 24).

يوكروم: كلمة روسية معناها «تخريب أو تدمير» صارت تُستعمل للدلالة على المذابح المديرة ضد طبقة من الناس وأصبحت تستعمل مؤخراً لتدل بوجه خاص على المذابح المنظمة ضد اليهود في روسيا مثل مذابح سنة 1881م.

الملحق الخامس

سؤال وجواب

ما كدت أنتهي من وضع مدخل كتابي «مفصل العرب واليهود في التاريخ» الذي هو بالحقيقة امتداداً لكتابي الأم «العرب واليهود في التاريخ» في طبعته الرابعة جتى تسلّمت من فضيلة الأستاذ عبد الرحمن بدر الدين بواسطة المكتب العربي بدمشق لائحة تتضمن جملة من الأسئلة تدور جميعها حول كتابي الأم «العرب واليهود في التاريخ» وكذلك فقد تسلّمت من الدكتور جورج صدقني وزير الإعلام في القطر السوري أثناء زيارتي له طلباً شفهياً لبيان الرأي حول ما ورد في كتاب الثقافة الاشتراكية الذي يدرّس في الجامعات السورية. فأرسلت له الردّ عن طريق المكتب العربي للإعلان خطياً وأثبته هنا للأسباب التي سأسردها فيما بعد وللحقيقة والتاريخ.

وهذه اللائحة المشار إليها، إن دلّت على شيء إنما تدلّ على ما يتحلّى به مقدمها من مزايا علمية من أهمها السعي وراء الحقيقة عن طريق متابعة البحث وتقصّي الحقائق وهذا ما يجعلها جديرة بالرد عليها.

وأنا بدوري، وبعد دراستي لها، وجدت أن مثل هذه الأسئلة الواردة فيها ـ كاملة أو بعضها وربما أسئلة أخرى لم ترد فيها ـ بإمكانها أن تراود القارىء أيّ قارىء وهذا ما دعاني للرد عليها.

وبقصد جعل الفائدة أعمّ وأشمل وفتح باب المناقشة أمام جميع القرّاء فقد أفردت للردّ عليها ملحقاً خاصاً ألحقته في نهاية الكتاب وذلك حتى أتمكّن من إضافة جميع الأسئلة التي تردني مستقبلاً مع الردود عليها.

وأنا إذ أفعل ذلك إنما أفعله متوخياً منه الوصول إلى ما يلي:

1 ـ إزالة ما وجد سهواً من هذا الكتاب إذ جلَّ من لا يسهو وإذا كانت الفضيلة في عمل الخير فإن فضيلة الفضائل تكمن في العودة عن الخطأ ناهيك بخطأ علمي يشيع بين الناس كتلك التي بيّناها في الكتاب والتي أدّت إلى تشويه معالم الإنسانية.

2 ـ وضع الأمة العربية ولا سيما أجيالها الصاعدة أمام تاريخها الحقيقي الذي طمسه الاستعمار والصهيونية بقصد مطامع استعمارية استيطانية وإفهامها الخطر الذي يتهددها في حاضرها ومستقبلها.

3 ـ دفع الكتّاب والمؤرّخين العرب إلى إعادة كتابة تاريخ أمتهم المشرق لملء الفراغ الذي لم يتعرّض إليه أسلافهم في تأريخهم لإحداث أمتهم هذا الفراغ الذي يدعيها الصهاينة لأنفسهم زوراً وبهتاناً.

4 ـ وضع الأمة العربية في مواجهة تراثها الرائع ودفع حكوماتها لإحياء هذا التراث، وضع منهاج لتربية أجيالها الصاعدة في هذا السبيل لخيرها وخير الإنسانية جمعاء.

5 ـ تعريف العالم بمكامن الخطر الذي يتهدده وأسباب إزالتها.

وأخيراً. . .، وأنا إذ أحيي فضيلة الأستاذ عبد الرحمن بدر الدين لمبادرته هذه، أحيي في شخصه كل قارىء عربي وغير عربي يبادر مستقبلاً إلى طرح أسئلة هادفة كتلك التي من شأنها خدمة القضية العربية والخطوط المذكورة أعلاه وعداً مني بالرد عليها وإضافتها إلى هذا الكتاب عند كل طبعة جديدة مستقبلية إضافة إلى الردّ عنها إلى عناوينهم الشخصية.

والله من رواء القصد.

الدكتور أحمد سوسة

س 1: ما هو الدليل على أنّ كلمة عبراني تعني القبائل البدوية ومنها القبائل الآرامية؟

ج: إنّ كلمة عبري وعبراني هي كلمة أبري وهبيري وخبيرو وعبيرو نفسها التي وردت في المصادر المسمارية والفرعونية، وهذه الكلمة لا يمكن

أن تُطلق على اليهود أو تعني اليهود، لأنها وردت في هذه المصادر قبل ظهور موسى واليهود بعدّة قرون إذ إنها وردت في رسائل تل العمارنة التي تعود إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد والتي بعثها ملوك كنعان إلى الملك أمنحوتب الثالث (1417 ـ 1379 ق.م.) وأمنحوتب الرابع (أخناتون) (1379 ـ 1362 ق.م.) يستنجدونهما فيها ومطالبين بحمايتهم ضد هجمات «العبيرو» إذ كانت بلاد كنعان خاضعة آنئذ للحكم الفرعوني. وهنا يبرز السؤال التالي: من يمكنه أن يكون «العبيرو» غير أبناء البادية (القبائل البدوية)؟ فعندما كتب الربانيون اليهود التوراة والتلمود في وقت لاحق، ورغبة منهم في إرجاع تاريخهم إلى زمن «العبيرو» سمَّوا أنفسهم عبيريين واتخذوا من تسمية إبراهيم الخليل بالعبراني، بعد أن أوردها في التوراة بمعنى يهودي، ذريعة لجعلة جدّهم الأكبر في حين أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام هو من جماعة العبيرو التي لا صلة لها باليهود ويؤكد رايغر، الخبير في اللغات السامية أن كلمة عبري بمعنى «يهودي» هي كلمة من صنع حاخامي فلسطين في وقت لاحق. وقد نبهنا القرآن الكريم إلى هذه الناحية بقوله تعالى، وهو أصدق القائلين: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾(1) ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾(2)، فهل بعد هذا القول من شكّ في انعدام الرابطة بين إبراهيم الخليل عليه السلام واليهود؟ ولم يكتف اليهود بالانتساب إلى إبراهيم الخليل، رغم انعدام الرابطة بينهم وبينه، وربط تاريخهم به بل راحوا يدعون أنّ لغة «العبيرو» القديمة هي لغة التوراة وسمّوها «عبرانية التوراة» لربط تاريخ اللغة العبرية بزمن قديم يرجع إلى زمن إبراهيم الخليل (زمن العبيرو) الذي سبق زمن ظهور اليهود إلى عالم الوجود بمئات السنين، في حين اللغة العبرية التي كتبت فيها التوراة في زمن لاحق لم تكن إلّا لهجة من اللهجات الآرامية (آرامية التوراة). وهكذا فقد استغلّ أحبار اليهود هذه التسمية القديمة فعزوها إلى اليهود بقصد إرجاع نسبهم ولغتهم إلى

(1) سورة آل عمران، الآية: 65.
(2) سورة آل عمران، الآية: 67.

أزمان قديمة لم يكن لهم أيّ وجود فيها. ولكنهم مهما زيفوا الحقائق التاريخية ومهما تلاعبوا بالكلمات والتسميات فإنّ الحقيقة التي لا يرقى إليها شك، هي أن اللغة القديمة التي كانت جماعة «العبيرو» تتكلمها بإمكانها أن تكون كل شيء إلّا العبرية بمعنى اليهودية، لأن اليهود لم يظهروا إلى عالم الوجود إلّا بعد عصر النبي موسى ولم يدوّنوا توراتهم إلّا بعد زمن «العبيرو» بأكثر من ألفيّ سنة. إن اللغة التي كان اليهود يتكلمونها، بعد دخولهم أرض كنعان هي الكنعانية التي اقتبسوها من سكان البلاد الأصليين ثم انتقلوا إلى الآرامية التي عمّ انتشارها جميع أرجاء الشرق الأدنى واشتقّوا منها لغتهم الخاصة.

أما عن علاقة الآراميين بالقبائل البدوية فإن جميع الذين نزحوا من الجزيرة العربية واستقرّوا في أطراف الهلال الخصيب والذين صاروا يعرفون بأسمائهم في المناطق التي استقرّوا فيها مثل الكنعانيين والعموريين والآراميين به ضمن مجموعة اللغات السامية الشمالية.

إن تسمية التوراة لإبراهيم الخليل بالعبراني ليست في الحقيقة غير نوع من مسايرة الحال باعتباره من قبائل العبيرو التي ينتمي إليها، أي القبائل الآرامية، وقبل أن يكون لليهود وجود بعد. وقد جاء في قاموس التوراة لجورج بوست(1) ما يفيد بأن لقب أبرام بالعبراني لم يقصد به ازسرائيلي (اليهودي) وإنما يمكن تأويله بأبرام السائح أو المهاجر ولكن الصهاينة حذفوا هذا التفسير من الطبعة الجديدة لقاموس الكتاب المقدس مجارين بذلك أحبار اليهود الذين اعتبروا العبرية واليهودية شيء واحد في كل الأزمان والعصور.

س 2: من الشائع أن إبراهيم لقّب بالخليل لأنه دُفن في تلك المنطقة بينما يعزو المؤلف كلمة خليل إلى خلّ بمعنى صديق وإيل بمعنى إلٰه، وهنا يجب التأكد من أن كلمة خلّ كانت شائعة في ذلك العصر. وكذلك يقول المؤلف بأن اليهود انحرفوا عن ديانة موسى وابتدعوا الإلٰه «يهوه»، ونحن نعرف حسب ما جاء في القرآن الكريم أن اليهود بعد خروجهم من مصر تركهم

---

(1) ج1، ص18.

موسى لمقابلة الإله وعندما عاد وجدهم قد صنعوا عجلاً من ذهب ليعبدوه فلام أخاه هارون، ومعنى هذا أنهم ارتدّوا إلى عبادة الثور آبيس الذي كان شائعاً في مصر، إلا أن التساؤل ما يزال قائماً حول الديانة التي مارسها اليهود بعد وفاة موسى أو بصورة أدقّ خلال الفترة الواقعة بين موت موسى وكتابة اليهود؟ أو ليس من المعقول أنّ الإله «يهوه» كان معروفاً لديهم عندما كانوا في مصر أم أنه حديث ابتكره مؤلفو التوراة؟

ج ـ 2: لقد اعتاد الأقوام منذ أقدم الأزمان أن يتّخذوا من أسماء آلهتهم وأبطالهم أو من أسماء زعمائهم ورؤسائهم وأسرهم أسماء للمدن والقرى التي ينشئونها مثل آشور وأثينا وروما وكنعان وصيدون ويبوس وأفاميا وقيصرية والمستنصرية وديار بكر ولا تزال الأقوام الحديثة تتبع هذه القاعدة حتى اليوم مثل واشنطن ولينينغراد. وهكذا فإن تسمية الخليل لمدينة الخليل الحديثة مأخوذة من تسمية إبراهيم الخليل وليس العكس لأنها سُمِّيت بالخليل بعد ظهور إبراهيم الخليل وليس قبله وقد كانت تُسمَّى أربع في العهد القديم أي قبل ظهور إبراهيم الخليل كما أنّها دعيت حبرون بعد دخول الموسويين أرض كنعان وما تسمية الخليل إلّا تسمية حديثة جداً وتعود إلى العهد العربي الإسلامي.

أما عن خليل وكونها مشتقة من خلّ وإيل، فإن الإله «إيل» كان معروفاً في الجزيرة العربية منذ أقدم العصور ومنها انتقل مع الأقوام التي نزحت من الجزيرة العربية واستقرّت في منطقة الهلال الخصيب كالبابليين والكنعانيين والفينيقيين والآراميين وهي كلمة سامية عربية وأقدم تسمية للإله أو الله (الإله العلي العظيم) بدليل أنّ ملوك اليمن كانوا يقرنون أسماءهم باسم الإله «إيل» ومثل ذلك اقترن اسم إبراهيم الخليل الإله «ايل» الذي كان يدعو إلى عبادته. والعادة التي يتبعها الناس اليوم في تسمية أبنائهم بعبد الله وعبد الإله وعبد الخالق وعبد الكريم الخ... هي نفسها كانت شائعة عند الأقوام القديمة في الشرق الأدنى مثل «إسرائيل» ومعناه من أسرة الله (الإله إيل) و«إسرائيل» ومعناها عبد الله (الإله إيل)، و«إسماعيل» ومعناه (ابل) قد سمع، و«جبرائيل»

ومعناه رجل الله (الإله إيل) الخ. . وكلمة «خل» بمعنى صديق (صديق إيل) وردت في المصادر البابلية وفي الكتابات العربية قبل الإسلام. فقد ورد اسم «يائع ـ إيل» لأحد ملوك بابل يرجع إلى إحدى السلالات البابلية السامية، ومعناه كما ترجمه دوتي «إلٰهه الواحد صديق له» كما ورد اسم «يصدق إيل فرعم») صديق إيل (لأحد ملوك حضرموت ومعين حكم في حوالي 1020 ق.م. ومن أسماء الملوك المعينيين القدامى اسم «قه إيل ـ صديق» و«يثغ ـ إيل ـ صديق»، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أنّ كلمة خليل بمعنى صديق الإلٰه إيل كانت معروفة ومستعملة قبل الإسلام بأكثر من ألفي سنة. وقد جاءت الآية الشريفة، ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[1] لتثبت هذا المعنى.

أما «يهوه»، فالدراسات التي أجريت في الجزيرة العربية والآثار التي عُثر عليها في أنحاء عُثر عليها في أنحاء متفرّقة منها تدلّ على أنه كان معروفاً في الجزيرة العربية وأنه في الأصل إلٰه قمري. ويرجّح الباحثون أنّ الكاهن المدياني الموحد «يثرون» الذي زوّج ابنته إلى النبي موسى كان يعبد هذا الإلٰه «يهوه». وما لفظة «كوهين» التي أطلقها العهد القديم عليه غير لفظة «كاهن» العربية. وفي ذلك يقول العلامة ديتليف نيلسن في بحثه «الديانة العربية القديمة»: «ولدينا الكثير من الأدلة التي تؤيد أنّ الإلٰه «يهوه» هو في الأصل إلٰه قمري، وليس معنى هذا أنّ الإلٰه الذي كان يهيمن على الوجود في العهد القديم هو «إلٰه القمر» بل المقصود منه وأنه نشأ من الأصول نفسها، ومثله في ذلك مثل جميع الآلهة الشعبية والقومية، التي نشأت عنها الآلهة التي نجدها في الحضارة العربية القديمة. . . ومما لا شك فيه أن هذا الإلٰه «يهوه» الذي تجلّى للإسرائيليين هو إلٰه متّصل بمواطن القمر».

ويوجد في التوراة العبرية ثلاثة مرادفات رئيسة لاسم الإلٰه هي:

1 ـ «إيل» وجمعه «ايلوهيم»، وهو كلمة «الله» العربية نفسها، وهو الإلٰه

---

(1) سورة النساء، الآية: 125.

الذي دعا إبراهيم الخليل جميع الوثنيين في عهده لعبادته، وقد سار حفيده يعقوب (إسرائيل) على هذا النهج من بعده. وبه اقترن اسم إبراهيم الخليل.

ويذهب مفسرو التوراة إلى أنّ كلمة «إيل» كلمة عبرية، رغم اعترافهم بأن كلمة «إيل» موجودة في اللغة الأكدية ومعناها «إلٰه» بصورة عامة بينما تعني بالعبرية «الإلٰه الواحد الحقيقي» تنبعث العبرية بأكثر من عشرة قرون. وسعياً وراء إظهارها بالمظهر العبري يقرنونها بإحدى صفات الله مثل «إيل عليون» ليست سوى تحريف لكلمة «العلي» العربية، ومثل «إيل شداي» بمعنى «الإلٰه القدير»، وشداي ليست في الحقيقة غير تحريف لكلمة «شديد» العربية. وقد سمّاه يعقوب بعد أن استبدل اسمه بإسرائيل «إيل إلٰه إسرائيل» كما أنه سمّى المذبح الذي بناه للرب «بيت إيل» بمعنى «بيت الله».

2 ـ «أدوني» أو «أدوناي» ومعناه «الرب والسيد»، وهو الإلٰه الذي عبده النبي موسى. ويعتقد كثيرون أنه الإلٰه «آتون» المصري نفسه الذي دعا أخناتون لعبادته بوصفه «الإلٰه الواحد» رب جميع الناس وخالق ما في السماء وما في الأرض».

3 ـ وأخيراً الإلٰه «يهوه»، وإن ذهب مفسرو التوراة إلى أن معناه «الذي كان والذي سيكون»، فإنه يبقى، بحسب أقوال التوراة إلٰهاً خاصاً بالشعب اليهودي بمفرده. ولقد حاول أحبار اليهود تجاهل الثغرة بين عهديّ إبراهيم الخليل والنبي موسى، ثم ما لبثوا أن تداركوا هذا الأمر بإظهار عبادة الإلٰه «يهوه» على المسرح وربطها بإبراهيم الخليل وموسى (تقول لبني إسرائيل «يهوه» إلٰه آبائكم، إلٰه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أرسلني إليكم). وفي ذلك يقول فرويد في كتابه «موسى والتوحيد»: لقد تحرّى الكهنة في سردهم أن يوجدوا استمراراً بين عصرهم وعصر موسى، وأرادوا أن ينفوا ما يمثّل في نظرنا أبرز واقعة في تاريخ الدين اليهودي، وأعني بها وجود ثغرة بين شرائع موسى والديانة اليهودية المتأخرة عنها في الزمن، ثغرة سدّت في البدء بعبارة «يهوه» ثم تمّ التخلّص منها فيما بعد رويداً وعلى مهل... ولقد كانت رواية الكهنة

تخضع للميل المحرّف والمشوّه نفسه الذي جعل من الإلٰه الجديد «يهوه» إلٰه الآباء الأوائل».

أما ديانة اليهود بعد النبي موسى فقد كانت مصراعاً بين الوثنية والتوحيد وكان النبي موسى قد تنبأ لهم في حياته أنهم سينصرفون بعده عن الوصايا العشر التي أوصاهم الله بها. ويبدو من أقوال التوراة أن الموسويين عبدوا الرب طيلة أيام يشوع ولم يخطئوا أمامه سوى مرة واحدة في الحرام وقد جازى يشوع مرتكبها عخان بن كرمي بن زبدي بن زارح من سبط يهوذا جزاء يفوق حدّ التصوّر في قسوته ولا إنسانيته حيث اقتطعه من شعبه وأخذه هو وامرأته وبنيه وبناته وحميره وبقره وجميع ماله والحرام معهم ورجمهم ثم أحرقهم بالنار ورماهم بالحجارة كما أمره الرب «أو ما يفيد مثل هذا المعنى كما وأن تلك العبارة وردت أكثر من مرة في بعض الإصحاحات. وفي هذا العهد عبدوا البعليم وتركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت بل وزنوا وراء آلهة أخرى وسجدوا لها، ثم عبدوا آلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة مواب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين. وتتهم التوراة، ونحن براء مما نقول، الملك داود بالخروج على الشريعة بارتكابه معصية الزنى والقتل المتعمد والزواج من زانية كما تتهم بيته بارتكاب كثير من الموبقات تأبى نفس المؤمن ذكرها. أما ابنه الملك سليمان فإنها تتهمه بالميل وراء نساء غريبات كثيرة ممن توصي الشريعة بعدم الدخول إليهن والشرك بالله، في زمن شيخوخته، بذهابه وراء آلهة الوثنيين وبنائه المرتفعات لها. أما بعد الانقسام فإن التوراة تؤكد عودة ملوك إسرائيل ويهوذا إلى الوثنية واستمرارهم عليها حوالي ثلاثمائة حتى زمن السبي.

س 3: يقول المؤلف في مقدمة الكتاب، إن إبراهيم الخليل ظهر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد بينما جاء في مكان آخر من المقدمة، ظهروا قبل الميلاد بـ «2700» سنة وهذا يناقض ما جاء سابقاً؟

ج3 : لم أقل مطلقاً «أنهم ظهروا قبل الميلاد بـ 2700 سنة» بل قلت ما هذا نصه: «لم يظهروا إلى عالم الوجود إلّا بعد الألف الرابعة قبل الميلاد

بـ «2700»! وإذا ما طرحنا 2700 من 4000 يكون 1300، أي يكون ظهورهم سنة 1300 ق.م. وهذا هو التاريخ الصحيح لظهور النبي موسى.

س 4: في تعداد المؤلف للقرى السورية التي يتكلم أهلها لهجة (السورث) أهمل ذكر نجعة واقتصر على صيدنايا ومعلولا وجبعدين؟

ج 4: أضفت في مسودات الطبعة الجديدة وشكراً لتنبيهنا إليها.

س 5: سلالة القطر البحير أو سلالة «بابل الثانية» كانت بالدرجة الأولى من بقايا السومريين... والمعروف أن «بابل الثانية» هي الكلدانيون وهم من أصل سامٍ وليس كالسومريين الآريين؟

ج 5 ـ إن «سلالة بابل الثانية» هي غير «مملكة بابل الثانية» التي تمثّل الدولة الكلدانية، وقد ظهرت هذه السلالة في القرن الثامن عشر قبل الميلاد على سواحل الخليج العربي وتمكّنت من السيطرة على أكثر المدن السومرية والأكدية بعد أن كاد الجنس السومري يتلاشى في الجنس السامي (الأكدي والعموري). ومن هذه السلالة ظهر الكلدانيون بعد حوالي 1200 سنة وأسسوا «مملكة بابل الثانية» (612 ـ 539 ق.م.). وقد سُمِّيت هذه الدولة الكلدانية بسلالة بابل الحادية عشرة، وصارت تُعرف بمملكة بابل الثانية لتميزها عن «مملكة بابل الأولى» التي كان من ملوكها الملك حمورابي الشهير والتي دام حكمها 300 عام من سنة 1894 إلى سنة 1595 ق.م..

س6: في الحديث عن العهد القديم لم يؤت على ذكر الزبور علماً بأن ذكره قد ورد في القرآن الكريم فما معنى كلمة زبور؟

ج6: الزبور كلمة وردت في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم، ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾[1] ولم ترد في إسرائيل، ويسمي المفسرون الزبور «مزامير داود» المعروفة عند اليهود والمسيحيين. وهي عبارة عن «قصائد من الشعر الوجداني الغنائي، منها الترانيم والأناشيد التي فيها تمجيد الله وبعض الصلوات، ومنها تعليم وصايا الرب وذكر ثوابه وعقابه. وأكثر المزامير ترجع

(1) سورة النساء، الآية: 163.

لداود النبي، وبعضها وضعت بعده». عرفت للزبور ترجمة عربية في تاريخ مبكر، يذكر الكندي أجزاء منه في رسالته.

س 7: إن الحجج التي يوردها المؤلف حول موسى وجماعته وأنها حملة مصرية مؤلفة من جماعة من المصريين ومن بقايا الهكسوس يدينون بدين التوحيد الذي ورثوه عن أخناتون، هذه الحجج ضعيفة ولا تستطيع حضّ الشائع من أنه تربّى في قصر فرعون وقاد جماعته فيما بعد؟

ج 7: إن موسى نبي موحد نزلت عليه التوراة ولكن ليس التوراة التي كتبها الأحبار في وقت لاحق. والتوحيد الذي كان يدعو إليه هو غير التوحيد الذي يجعل من الإلٰه «يهوه» إله اليهود وحسب. هاتان الحقيقتان ينبهنا إليهما القرآن الكريم كما هو مشروح في المتن. أما القول الشائع بأن موسى تربى في قصر فرعون، هذا القول نفسه يدعم النظرية القائلة بأن موسى كان مصرياً، وهل بإمكانه أن يكون غير ذلك؟ أما القول بارتباطه ببني إسرائيل، أي بدور إبراهيم وإسحاق فإنه قول لا ينسجم مع المنطق ولا يتقبله العقل، وهذه الثغرة بين العهدين: عهد إبراهيم وعهد موسى، لم يستطع كتبة التوراة سدّها حتى بعد أن أدخلوا عبادة «يهوه» لإيجاد استمرار بين العهدين. وأما عن موضوع الخروج فيدلنا المؤرّخ المصري «مانيثون» من القرن الثالث قبل الميلاد أن عدداً كبيراً من الهكسوس قد بقوا في مصر في منطقة «أوفاريس»، عاصمة ملكهم وتحصّنوا فيها بعد طردهم من الأقاليم المصرية الأخرى وأنهم ظلوا يدافعون عنها بحيث لم يستطع المصريون التغلب عليهم عنوة فاضطروا إلى مصالحتهم والسماح لهم بالخروج من مصر من غير أن يمسّوا بأذى. والذي يمكن استياؤه من هذا القول أن كتبة التوراة اتخذوا من هذه الحادثة الخيوط التي نسجوا منها قصة الخروج خرجوا منها بقصة منمقة جعلوها استمراراً للتاريخ قديم، عديم الوجود، ادعوه لأنفسهم بغير سند حقيقي بقصد الرجوع بأصل اليهود إلى أقدس الشخصيات المعروفة في تلك الأزمان.

س 8: سؤال حول: احمس = اح موسى، تحتموس = تحوت موسى، وعمسيس = رع موسى و(معنى موسى الطفل).

ج 8: يذهب بريستد إلى أن موسى اسم مصري عريق بل إنه الكلمة المصرية القديمة «مس» نفسها ومعناها طفل وهي مختصر من اسم مركب ككل الأسماء المركبة مثل «أمن ـ مس» ومعناه «آمون الطفل» أو «بتاح ـ مس». . ويضيف إلى ذلك قوله: «ولا شك أن والد موسى كان قد وضع قبل اسم ابنه اسمه إلٰه مصري مثل (آمون) أو (بتاح) ثم زال ذلك الاسم الإلٰهي تدريجياً لكثرة التداول حتى صار الولد يدعى موسى». وقد ذكر المؤرّخ المصري «مانثيون» الذي عاش وكتب تاريخه المشهور في حدود 280 ق.م. أن موسى من أهل هليوبوليس وأحد كهانها وكان اسمه «أوسارسيف» على اسم «أوسيرس» إلٰه هليوبوليس ولكنه بدّل اسمه إلى موسى، وأنه قد تزعم ثورة على عبادة الأوثان التي كان يمارسها السكان. أما المؤرّخ اليهودي يوسفوس فيعيد القصة التي أوردتها التوراة ويضيف إليها أن الفرعون المصري «ثرمويتس» هو الذي اختار لموسى هذا الاسم لينسجم مع رواية انتشاله من النهر، وهذا الاسم مؤلف من كلمتين «مو» ومعناها الماء في لغة المصريين و«أوس» التي تشير إلى معنى الإنقاذ من مكان ما. ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن الكاهن الأعلى لمدينة ممفيس، عاصمة مصر المشهورة، في عهد تحوطمس الثالث (1479 ـ 1447 ق.م.) كان يدعى «بتاح موسى» وقد عُثر على هرم له.

س 9: في مطلع الصفحة يقول المؤلف بأن موسى كلَّم قومه باللغة المصرية على وجود التأكيد بينما يقول في وسطها أن لغة الشريعة على الأرجح هي اللغة المصرية، أي مع الترجيح دون التأكيد؟

ج 9: لقد تمّ استدراك ذلك في الطبعة الجديدة.

س 10: ورد أن ملك الحثين هو موتاليس بينما المدوّن أنه خاتوسيل.

ج 10: إن ملك الحثيين موتاليس حكم بين سنة 315 و1285 ق.م. وقد وقعت معركة قادش، على نهر العاصي، جنوب ـ عرب حمص (تل النبي مند حالياً)، بينه وبين رعمسيس سنة 1299 ق.م. أما المعاهدة الأخيرة التي اشتملت على عقد الصلح بين الحثّيين والمصريين فقد وقعت سنة 1269

ق.م. بين رعمسيس وبين الملك الحثّي حاتوشيلي الثالث الذي دام حكمه خمساً وعشرين سنة من سنة 1275 إلى 1250 ق.م. وهو أحد الملوك الحثّيين الذين خلفوا موتاليس.

س 11: إن ما ورد حول استشهاد المؤلف بما كتبه العلّامة مندنهول وقوله بأن دولتي داود وسليمان وثنيتان وأن ما جاء في التوراة حول غضب الإله على سليمان وتمزيقه لدولته يتناقض مع ما ذكره القرآن الكريم وما أحاط به سليمان من كرامات.

ج 11: إن البحث العلمي يتطلب من الباحث أن يتجرّد من العاطفة والميول ويفتح صدره لسماع كلّ ما يُقال ولتمحيص كلّ ما يسمع والإلمام بكافة جوانب الموضوع الذي يبحثه فيستعرض جميع الآراء من غير أن يتقيّد بما يرغب فيه وحسب، ومن ثمّ يستخلص منها الحقائق التاريخية التي يقبلها المنطق والعقل السليم على ضوء القناعات التي تتولد لديه. إنّ الذي كنت أرمي إليه من الاستشهاد بأقوال العلّامة مندنهول هو أن الثقافة الكنعانية بما فيها الوثنية هي التي كانت سائدة في فلسطين في زمن داود وسليمان. وإذا ما قيل إن الدولة كانت وثنية في عهد داود وسليمان فإن هذا لا يعني مطلقاً أن أحداً من داود أو سليمان كان وثنياً، ثمّ ألم تكن توجد في فلسطين في عهد داود وسليمان أقوام تدين بالوثنية؟ أو لم تكن تلك الأقوام تشكّل أكثرية سكان البلاد الساحقة واليهود أقلية بينهم؟

س 12: ورد في الصفحة 25 من كتاب الثقافة الاشتراكية ما يلي: كان اليهود في القرن الثامن عشر قبل الميلاد يشكلّون قبائل متنقلة في جنوب العراق، ويعتقد بعض المؤرّخين أن هذه القبائل كانت قد هاجرت من شبه الجزيرة العربية. وهاجرت هذه القبائل اليهودية من جنوب العراق متّجهة شمالاً، ثم غرباً، ثم انعطفت نحو الجنوب حتى وصلت إلى فلسطين التي كانت تُسمّى أرض كنعان.

ج 12: إن أقدم وجود لليهود في العراق كان في القرن الثامن قبل الميلاد عندما غزا الملك الآشوري «تغلات فلاسر الأول» (245 ـ 727

ق.م.) مملكة إسرائيل سنة 732 ق.م. وسبى اليهود إلى آشور في شمال العراق، ثم جرّد خلفه الملك شلمنصر الخامس (727 ـ 722 ق.م.) حملة تأديبية على إسرائيل فحاصر عاصمتها السامرة مدة ثلاث سنوات، وقبل أن يظفر بالنصر النهائي وافته المنية في الشهر العاشر من عام 722 ق.م. ولكن القائد الآشوري أتمّ مهمته باحتلال السامرة في نهاية العام على عهد سرجون الثاني (722 ـ 705 ق.م.) خلف شلمنصر الخامس. وبذلك قضي على مملكة إسرائيل نهائياً. وقد أجلى سرجون الثاني إلى ناحية حران وإلى ضفة الخابور وميديا وأحلّ محلهم أقواماً من مختلف أنحاء الإمبراطورية. وكانت عادة الآشوريين الفاتحين تشتيت أسراهم في أماكن جبلية نائية من إمبراطوريتهم الواسعة، وذلك للحيلولة دون تكتلهم وتجمعهم وممارسة دياناتهم وثقافاتهم مما يوحي إليهم أمل العودة إلى التي أجلوا عنها.

هذا كان أول وجود لليهود في العراق كأسرى.

وقد أعقب ذلك فتح الكلدانيين، فغزا الملك نبوخذ نصر الذي حكم في بابل 43 سنة بين سنة 605 و562 ق.م. مملكة يهوذا، وذلك في حملتين الأولى في سنة 597 ق.م. والثانية في سنة 586 ق.م. فقضى عليها ونقل أهلها إلى منطقة بابل. وكان ذلك خلاف عادة الآشوريين الذين كانوا يشتتون أسراهم في مناطق جبلية نائية عن أوطانهم، فمكن ذلك اليهود من التجمع في المنفى وتكوين مجتمعهم المنعزل الخاص بهم في منطقة بابل.

ونستخلص مما تقدّم أن اليهود وجدوا في العراق لأول مرة كأسرى بين منتصف القرن الثامن قبل الميلاد وأوائل القرن السادس، أي في الفترة الواقعة بين سنة 745 ق.م. و586 ق.م. البالغة حوالي 160 سنة (بعد القرن الثامن عشر بألف سنة) أما قبل ذلك فلم يكن لهم أي وجود لا في شبه جزيرة العرب ولا في جنوب العراق. لذلك فإن القول بأنهم هاجروا من جزيرة العرب ووجدوا في جنوب العراق في القرن الثامن عشر قبل الميلاد قول لا يستند إلى أي واقع تاريخي وليس له أي نصيب من الصحة، لأن اليهود واليهودية ذاتها جاءت بعد عصر النبي موسى عليه السلام ولم تكن قد ظهرت بعد في القرن الثامن

عشر قبل الميلاد. وترديد العرب لمثل هذه الأقوال العارية من الصحة هو ما يرقص له الصهاينة لأنه بمثابة تأييد لحقهم التاريخي في البلاد العربية قد جاء على لسان وباعتراف العرب أنفسهم.

ولقد روّج اليهود والحاخامون بوجه خاص مثل هذه الادعاءات القائلة بوجود اليهود في شبه جزيرة العرب وفي جنوب العراق منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد بغية إرجاع تاريخهم إلى عصور قديمة وربط أصلهم بالعرب في أزمان لم يكن لهم أي وجود فيها. لقد حان الأوان، بعد أن أصبح لدينا الآن معلومات وحقائق تاريخية إثر الكشوف الأثرية، لأن ينتبه العرب إلى هذه الحقائق التاريخية ويشجبوا مثل هذه الادعاءات المزيفة التي لا تستند إلى أي دليل أو إثبات، كما أنه يجب أن يكف الكتّاب العرب عن ترديد مثل هذه الادعاءات المزيفة المخالفة للحقائق التاريخية والتي تعطي للصهاينة مستمسكاً باعتراف العرب بحقهم التاريخي ليس فقط بفلسطين بل في البلاد العربية...

س 13: ورد أيضاً ما يلي: «إن كلمة إسرائيل هي كلمة عبرية معناها (شعب الله) أو (قوم الله)، أما كلمة يهود فتعود إلى يهودا، أحد أبناء يعقوب الذين يمثّلون البقية الباقية بعد الأسر البابلي».

ج 13: إن إسرائيل كلمة عربية كنعانية الأصل معناها عبد الإله إيل، الإله الواحد. الإله العلي التي أطلقتها التوراة على يعقوب حفيد إبراهيم الخليل (وظهر الله ليعقوب وقال له لا يدعي اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت[1] وقد ورد ذكر إسرائيل في الكتابات المصرية فذكرت بين المدن الفلسطينية على أن الكلمة كنعانية (سامية الأصل) وهي ترمز إلى شخص وإلى منطقة معيّنة في فلسطين تحمل إسرائيل نفسه كانت تحظى بقدسية روحانية بين سكان المنطقة وذلك قبل ظهور موسى واليهود بعدّة قرون.

أما القول بأن إسرائيل كلمة عبرية معناها شعب الله المختار أو قوم الله

---

(1) (تك: 28).

فغير وارد، وهذا القول كغيره من الادعاءات اليهودية يُراد به إرجاع جميع الأسماء الواردة في التوراة إلى أصل عبري أي يهودي.

أما كلمة يهودي وجميعها «يهود» فهي متأخرة، فقد درج أكثر الكتّاب والباحثين على الأخذ بالرأي القائل بأن تسمية «يهود» منسوبة إلى يهوذا الرابع رابع أبناء يعقوب. وهذا يخالف الواقع لأن اليهود لم يكونوا قد وجدوا في عهد يعقوب وابنه يهوذا، فقد وجدوا بعد ظهور النبي موسى وجماعته. وتسمية يهوذا مثل تسمية إسرائيل كانت تُطلق على إحدى المناطق الكنعانية في فلسطين منذ العهد الكنعاني القديم جرياً على العادة المتّبعة في تسمية المدن والمناطق بأسماء الأشخاص من ذوي الشهرة والقدسية الذين يتّخذون هذه الأماكن مساكنَ لهم أو مقاماً مؤقتاً. وبعد أن نزحت جماعة النبي موسى إلى فلسطين تكوّنت مملكة يهوذا في وقت لاحق أي بعد عصر يعقوب ويهوذا ابنه بحوالي ألف عام في المنطقة يهوذا الكنعانية فسُمِّيت باسمها ثم انتشر استعمال اسم اليهود نسبة إلى مملكة يهوذا المنقرضة حتى صارت تُطلق على كل من يدين باليهودية. والدليل على أن ذلك أول تسمية لليهود وصلتنا على لسان الملك الآشوري سنحاريب (705 ـ 681 ق.م.) حيث سمي حزقيا ملك يهوذا بـ «حزقيا اليهودي» أي المنتسب إلى مملكة يهوذا.

س 14: ورد إن اليهود انطلقوا من العراق وقسم من المهاجرين ذهب إلى حواشي الجزيرة العربية وسكنوا بعض المدن فيها كيثرب وخيبر.

ج 14: وهذا أيضاً لا يستند إلى واقع تاريخي لأن اليهود في الجزيرة عموماً يرجعون في الأصل إلى قبائل عربية خالصة تهودّت عن طريق التبشير باليهودية كما أن القبائل العربية المنتصرة ثمّ تنصرها بالطريقة نفسها، ويؤكد الباحثون أن اليهود كانوا يبثون الدعايات التي ترمي إلى ربط القبائل العربية المتهوّدة بيهود فلسطين لإقناع العرب بأنهم هم واليهود من ذرية أب واحد. ويرى فريق من الباحثين المطّلعين «أن هذه الطريقة من سنن اليهود المألوفة إذ لوحظ عليهم كثيراً أنهم متى رأوا المصلحة في التودّد إلى قوم قالوا أنتم إخواننا ونحن وأنتم صنوان...

وظلوا منذ ذلك العهد إلى ظهور الإسلام وهم يبذلون جهدهم في إشراب العرب عقيدة أنهم جميعاً ذرية أب واحد حتى نجعت فيهم هذه الأكذوبة التي كان العرب أجهل من أن يتبينوا ما فيه من كذب وتلفيق. هذا ولا يخفى أن طبيعة هجرات الأقوام لا تتمّ من المحيط المدني إلى المحيط الصحراوي مثل جزيرة العرب والعكس هو الصحيح.

س 15: ورد أن الهجرات من شبه جزيرة العرب تمّت لسببين: الأول يعود إلى إمكانيات الاستيعاب الاقتصادية المحدودة بالجزيرة العربية، والثاني هو أن النظم الاجتماعية التي كانت قائمة لم تتناسب بتطورها من مرحلة إلى أخرى مع تطور حجم المجتمع وحاجاته الخ..

ج 15: إن العلماء يتّفقون بشبه الإجماع على أن السبب الرئيسي لهذه الهجرات هو التغير المناخي أي الجفاف الذي ساد في منطقة الجزيرة العربية نتيجة لهذا التغير مما اضطر الإنسان والحيوان إلى أن يهاجر إلى مناطق أخرى ذات أنهر طبيعية حيث الماء والأرض، كوادي الأردن ووادي النيل ووادي الرافدين، وأعظم التجمّعات والحضارات ازدهرت في وادي النيل ووادي الرافدين لما فيها من إمكانيات معاشية، ففي وادي الرافدين قامت أربع إمبراطوريات عظمى في الفترة بين سنة 2371 وسنة 535 قبل الميلاد (فترة حوالي ألفي سنة)، وهي الأكاديمية (2371 ـ 2230) والبابلية القديمة (1894 ـ 1595 ق.م.) والآشورية (1595 ـ 612 ق.م.) والكلدانية (612 ـ 535 ق.م.) وقد امتدّ سلطان بعضها حتى شمال أرض وادي النيل ذاتها. ولولا تواجد الأنهر وتوفر الأرض الخصبة لما قامت هذه الحضارات التي سُمِّيت بحق الحضارات النهرية. إن ممارسة الري والزراعة في البلاد المهاجر إليها هي التي أوجدت النظم الاقتصادية والاجتماعية بل نظم الحكم وفكرة الدولة، وهي التي طوّرت الحضارة الصحراوية إن صحّ هذا التعبير إلى حضارة مدنية تخضع إلى تلك النظم.

كما يتّفق الباحثون في أصول أقوام الشرق الأدنى أن سكان الجزيرة العربية كانوا قبل حلول فترة الجفاف في نهاية العصر الجليدي يتمتعون بحضارة

قومية في الطرف الجنوبي من شبه جزيرة العرب، وقد كانت هذه البلاد في تلك الأزمان (أي في العصر الجليدي) عامرة بأنهارها الدائمة الجري وبأمطارها الغزيرة الدائمة، إلّا أنها تعرّضت إلى تغيرات مناخية في نهاية العصر الجليدي الأخير في حدود سنة 20000 قبل الميلاد الأمر الذي أدّى إلى انحباس الأمطار واندثار الأنهر، فأخذ الجفاف ينتشر منذ ذلك الحين في النطاق الصحراوي الحالي حتى سادت الرمال فيها. مما اضطر الإنسان والحيوان إلى الهجرة بدافع الغريزة إلى أماكن ذات موارد مائية دائمة، فكان أن توجّه هؤلاء السكان إلى شمال الجزيرة ومنها أخذوا يتوزعون على أطراف الهلال الخصيب المجاورة للجزيرة في موجات متعاقبة، فمنهم من توجه شرقاً نحو بلاد الرافدين. وبصورة خاصة نحو نهر الفرات، ومنهم من استقرّ في فلسطين وفي سوريا وفي لبنان وهناك من توجّه غرباً نحو طور سيناء وأطراف وادي النيل الأسفل الشرقي.

بغداد في 15/ 7/ 1975

الدكتور أحمد سوسة

فهرس الأعلام

أ

ت

ث

خ

د

ذ

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ظ

ع

غ

ل

م

هـ

و

ي

فهرس الأماكن

أ

ت

ج

ح

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ظ

ع

ق

م

ن

هـ

و

فهرس الشعوب والقبائل والجماعات

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ز

س

ش

ص

ض

غ

ف

ن

هـ

و

ي

هذا الكتاب

حملتني على وضع كتابي هذا المعنون «العرب واليهود في التاريخ» عدّة حوافز من أهمها الاعتزاز العميق بتراث العروبة والإسلام وحضارتهما والإحساس بأن الأمة العربية هي بأشدّ الحاجة في هذا الظرف بالذات لإظهار حقيقة تاريخ اليهود القديم وصلتهم بفلسطين وتعريف القارئ بأصالة عروبة فلسطين منذ خمسة آلاف عام ومع علمي بما ينطوي عليه هذا الموضوع من تفرّعات شائكة وحساسة اختلفت فيها الآراء وتضاربت فيها النزعات والميول، ومع علمي علم اليقين بأنه ليس من السهل تغيير المفاهيم التاريخية المتواترة منذ أكثر من ألفين وخمسمائة عام والتي تناقلتها الأجيال جيلاً بعد جيل بتأثير التوراة، فقد أقدمت عليه مستمداً من المبادئ العلمية التي تستند إلى المنطق والعقل السليم الجرأة على خوض هذا الموضوع بغية التوصل إلى الحقيقة في مجال التفكير الإنساني القويم. ومما أعانني على التوغل في هذا البحـ[illegible] الطويلة المتواصلة مدة أكثر من أربعين سنة لأصل الحضا[illegible] في وادي الرافدين وعلاقتها بالريّ والزراعة، والمعلوم أن [illegible] الرافدين القديمة مرتبطة ارتباطاً كلياً بحضارة الشر[illegible] ضمنه فلسطين، كوحدة جغرافية واحدة لا تقبل الانفصال.

ISBN 978-9933-493-06-6





AL Warrak Publishing